



نَفْحَاتُ الرَّحْمَنِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندی

تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة قم

المجلد الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



نفحات الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
(١٢٩١ - ١٣٣١ هـ)

الجزء الثاني

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ [٥٧]

ثم أردف سبحانه التهديد والوعيد بالوعد والترغيب، بقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووَخْدَانِيته، وَعُبُودِيَّتِكَ وِرِسَالَتِكَ ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ التي يكون الالتزام بها من وظائف الإيمان، وداوموا على العبادات والطاعات ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ الله، وَيُكْمِلْ لَهُمْ ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وثواب إيمانهم وأعمالهم، من غير نقص ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يَغْضَهُمْ أَشَدَّ الْبَغْضِ. وفيه بيان علة تغذيته الكافرين، وتوفيته ثواب المؤمنين.

ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ [٥٨]

ثم استندل سبحانه على ثبوت خاتم النبيين بأن جميع هذه القضايا مما لا يمكن اطلاع محمد ﷺ عليها إلا بالوحي من الله، لا بالتعلم من عالم، ولا بالقراءة في كتاب، حيث قال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من نبأ عيسى بذوا وختماً ﴿تَتْلُوهُ﴾ ونقرأه ﴿عَلَيْكَ﴾ بالوحي، وتوسط جبرئيل، حال كونه المثلوث من آيات والأدلة الدالة على صحة نبوتك، من حيث إعجاز البيان، وكونه من الأخبار المعيّبات، ﴿و﴾ من ﴿الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ والقرآن المخكم المصون من تطرّف الخلل إليه، أو المشتعل على الحكيم البالغة في نظمته وتأليفه وكثرة علومه.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ
نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ [٥٩-٦١]

ثم أنه نقل المفسرون أن وفد نجران لما قالوا لرسول الله ﷺ: لما سلمت أنه لا أب لعيسى من البشر، وجب أن يكون أبوه هو الله، فنزل دفعا لهذه الشبهة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾ وشأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ونحو خلقته العجيبة التي لا يرتاب فيها مراتب، ولا ينزع فيها منازع.

ثم بين سبحانه وجه المماثلة بقوله: «خَلَقَهُ» الله بقدرته الكاملة «مِنْ تَرَابٍ» وسوى جسده من طين لازب «ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ» بشراً وحياً سوياً، وأراد أن يوجد إنساناً كاملاً «فَيَكُونُ» ويوجد كما أراد من غير ريث، فإن كنتم عجبتم من خلق عيسى بلا أب، ولذلك قلتم: إنه ابن الله، فلا بد أن يكون تعجبكم من خلق آدم أكثر، وقولكم بأنه ابن الله أولى.

فذلك البناء من كيفية خلق عيسى هو «الْحَقُّ» الثابت «مِنْ رِثْكَ» لا قول النصارى «فَلَا تَكُنْ» بعد رخي الله إليك «مِنْ الْمُمْتَرِينَ» في كيفية خلق عيسى، والشاكين فيها، مع أنه لا يمكن في حَقِّ الامتراء والشك.

«فَمَنْ حَاجَّكَ» في شأن عيسى وأمه [و] جاذلك «فِيهِ» لجأاً وجهلاً بالأقوال الباطلة والآراء الزائفة «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» بالحق وظهور الصواب من الآيات البينات، وأقمت الحُجَج عليهم، فلم يرتدعوا عما هم عليه من الغي والضلال «فَقُلْ لَهُمْ «تَعَالَوْا» وَهَلِّمُوا بِالرَّأْيِ وَالْعَزِيمَةِ «نَدْعُ» نَحْنُ وَأَنْتُمْ «أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ» وتخصيص الأبناء بالذكر؛ لأنهم أعز من البنات «وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ» وذكرهن لكونهن من بعد الأبناء أعز الأهل، ويجعل الإنسان نفسه وقاية لهن في المَهَالِك، «و» ندع «وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ» إلى المَبَاهِلَةِ، واحضروا حتى نحمل نفوسنا، ومن هو بمنزلة الروح منا وألصق بقلوبنا، على التوطين للهلاك «ثُمَّ نَبْتَهِلُ» وتتلان «فَنَجْعَلُ لَغَنَتَ اللَّهِ» وعذابه «عَلَى الْكَافِرِينَ» مِنَّا وَمِنْكُمْ.

في (العلل): عن الجواد عليه السلام قال: «وَلَوْ قَالَ: (تَعَالَوْا نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) لَمْ يُجِيبُوا لِلْمَبَاهِلَةِ، وَقَدْ عَرَفَ أَنَّ نَبِيَّهُ ﷺ مُؤَدُّ عَنْهُ [رسالته] وَهُوَ مِنْ الْكَافِرِينَ، وَكَذَلِكَ عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنْ أَحَبَّ أَنْ يُتَصَفَّ مِنْ نَفْسِهِ»^١.

في شرح قضية روي أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على النصارى، ثم اتهم أصروا على جهلهم، فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ لَمْ تَقْبَلُوا الْحُجَّةَ أَنْ أَبَاهِلَكُمْ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، بَلْ نَرْجِعُ فَنَنْظُرُ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ. فَلَمَّا رَجَعُوا قَالُوا لِلْعَاقِبِ^٢، وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ، مَا تَرَى؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ، لَقَدْ عَرَفْتُمْ يَا مُعْشَرَ النَّصَارَى أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْكَلامِ [الْحَقُّ] فِي أَمْرِ صَاحِبِكُمْ، وَاللَّهُ مَا بَاهِلَ قَوْمَ نَبِيٍّ قَطُّ، فَعَاشَ كَبِيرُهُمْ، وَلَا بُتَ صَغِيرُهُمْ، وَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَكَانَ الْإِسْتِصَالُ، فَإِنْ أَيْتُمْ [إِلَّا] الْإِصْرَارَ عَلَى دِينِكُمْ، وَالْإِقَامَةَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَانصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ.

١. علل الشرائع: ١/٢٢٩، عن الإمام الهادي عليه السلام.

٢. العاقب: هو من يخلف سيد القوم في الرتبة، وهو صاحب الرأي.

وكان رسول الله ﷺ [قد] خرج وعليه مِرْطٌ من شَعَرٍ أسود - والمِرْطُ كِسَاءٌ من صُوف - وكان ﷺ قد اختَضَنَ الحُسَيْنَ عليه السلام وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعليه عليه السلام خلفها، وهو يقول: إذا دَعَوْتُ فَأَمْتُوا، فقال أَسْقِفْ نَجْران: يا مَعْشَرَ النَّصَارَى، إِنِّي لأَرَى وُجُوهًا لو سَأَلُوا اللهَ أَنْ يُزِيلَ جَبَلًا مِنْ مَكَانِهِ لَأَزَالَهُ [بها]، فلا تُبَاهِلُوا فتَهْلِكُوا ولا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ نَصْرَانِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ قَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، رَأَيْنَا أَنَّ لَا بُدَّ لَكَ، وَأَنْ تُفَرِّقَ عَلَى دِينِكَ. فَقَالَ ﷺ: «فَإِذَا أُبَيِّتُمُ الْمُبَاهَلَةَ فَاسْلِمُوا، يَكُنْ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ» فَأَبَوْا، فَقَالَ: «فَإِنِّي أَنَا جِزْمُ الْقِتَالِ» فَقَالُوا: مَا لَنَا بِحَرْبِ الْعَرَبِ طَاقَةٌ، وَلَكِنْ نُصَالِحُكَ عَلَى أَنْ لَا تَغْزُونَ وَلَا تُزِدْنَا عَنْ دِينِنَا، عَلَى أَنْ نُؤْذِيَ إِلَيْكَ فِي كُلِّ عَامٍ أَلْفِي حَلَّةٍ؛ أَلْفًا فِي صَفَرٍ وَأَلْفًا فِي رَجَبٍ، وَثَلَاثِينَ دِرْعًا عَادِيَةً مِنْ حَدِيدٍ، فَصَالِحُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ الْهَلَكَ قَدْ تَدَلَّى عَلَى أَهْلِ نَجْرَانَ، وَلَوْ لَاعَنُوا الْمُسِيخَا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَلَا ضُطْرْمَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَارًا، وَلَا شَتَا ضَلَّ اللَّهُ نَجْرَانَ وَأَهْلَهُ حَتَّى الطَّيْرِ فِي رُؤُوسِ الشَّجَرِ، وَلَمَّا حَالَ الْحَوْلُ عَلَى النَّصَارَى حَتَّى يَهْلِكُوا».

أقول: هذا عَيْنٌ ما رواه الفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ^١، وَقَرِيبٌ مِمَّا رواه غَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ^٢.

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ بَعْدَ ثَقُلِهِ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى بُتُوته، وَفَضْلٌ مِّنْ أَتَى بِهِمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ^٣.

وَأقول: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام نَفْسُهُ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ النَّبِيَّةِ، وَأَنَّهُ خَلِيفَتُهُ.

ثُمَّ قَالَ الْفَخْرُ: وَرَوَى أَنَّهُ ﷺ لَمَّا خَرَجَ فِي الْمِرْطِ الْأَسْوَدِ فَجَاءَ الْحَسَنُ عليه السلام فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ عليه السلام فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ عَلِيٌّ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»^٤. ثُمَّ قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ كَالْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهَا بَيْنَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ^٥.

فِي (الْعِلَلِ): عَنِ الْكَاظِمِ عليه السلام: «لَمْ يَدْعُ أَحَدٌ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْكِسَاءِ عِنْدَ مُبَاهَلَةِ النَّصَارَى إِلَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَفَاطِمَةُ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ عليه السلام، فَكَانَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «أُبَيِّتْنَا» الْحَسَنَ وَالحُسَيْنَ عليه السلام، وَ«نِسَاءَنَا» فَاطِمَةَ عليه السلام وَ«أَنْفُسَنَا» عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام»^٦.

وَعَنِ الْقَمِيِّ فِي رِوَايَةٍ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، بَعْدَ ذِكْرِ آيَةِ «فَمَنْ حَاجَّكَ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَبَاهِلُونِي فَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا أَنْزَلْتُ اللَّعْنَةَ عَلَيْكُمْ، وَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا أَنْزَلْتُ عَلَيْ» فَقَالُوا: أَنْصَفْتَ. فَتَوَاعَدُوا

١. تفسیر الرازی ٨: ٨٠. ٢. تفسیر البیضاوی ١: ١٦٣، تفسیر أبي السعود ٢: ٤٦، تفسیر الصافي ١: ٣١٨.

٣. تفسیر البیضاوی ١: ١٦٣. ٤. أي نفس رسول الله ﷺ.

٥. الأحزاب: ٣٣/٣٣. ٦. تفسیر الرازی ٨: ٨٠.

٧. عیون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩/٨٥، تفسیر الصافي ١: ٣١٨ عن عیون أخبار الرضا عليه السلام، ولم نجده فی العلل.

للمباهلة، فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤسائهم؛ السيد والعاقب والأهتَم: إن باهلتنا بقومه باهلتنا، فإنه ليس نبياً، وإن باهلتنا بأهل بيته خاصة فلا نبأهله، فإنه لا يتقدم على أهل بيته إلا وهو صادق.

فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن، والحسين عليه السلام، فقال التصاري: من هؤلاء؟ فقيل لهم: إن هذا ابن عمه ووصيه وختنته علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان ابناه الحسن والحسين عليه السلام، ففرقوا وقالوا لرسول الله ﷺ: نعطيك الرضا فاغنيا من المباهلة، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وانصرفوا.

في أن ابن البنت قال الفخر: هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين ابنا رسول الله، حيث وعد أن ابن حقيقه يدعوا أبناءه فدعا الحسن والحسين عليه السلام فوجب أن يكونا ابنيته، ومما يؤكد هذا قوله

تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾^١ ومعلوم أن عيسى انتسب إلى إبراهيم بالأُم لا بالأب، فثبت أن ابن البنت قد يُسمَّى ابناً.

أقول: عصبية من أن يقول: فثبت أن ابن البنت ابن حقيقته، وقال: قد يُسمَّى ابناً.

ثم قال: إنه كان بالرأي رجل يقال له محمود بن الحسن الحمصي، وكان معلّم الاثني عشرية، وكان يزعم أن علياً أفضل من جميع الأنبياء سيوى محمد ﷺ، قال: والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾، وليس المراد بقوله: ﴿أَنفُسَنَا﴾ نفس

محمد ﷺ؛ لأن الإنسان لا يدعوا نفسه، بل المراد به غيره، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب عليه السلام، فدلّت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد ﷺ.

ولا يمكن أن يكون المراد منه أن هذه النفس هي عين تلك النفس، فالمراد أن هذه النفس هي مثل تلك النفس، وذلك يقتضي الإستواء في جميع الوجوه، ترك العمل بهذا العموم في حق النبوة وفي حق الفضل، لقيام الدلائل على أن محمداً ﷺ كان نبياً، وما كان علي كذلك، ولانقياد الإجماع على أن محمداً ﷺ كان أفضل من علي عليه السلام، فيبقى فيما وراءه معمولاً به، ثم الإجماع دلّ على أن محمداً ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء، فيلزم أن يكون علي عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية^٢.

ثم قال الفخر [نقلًا عن محمود الحمصي المتقدم]: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية، الحديث المقبول

١. تفسير القمي ١: ١٠٤، تفسير الصافي ١: ٣١٨. ٢. الأنعام ٨٤/٦ و٨٥. ٣. تفسير الرازي ٨: ٨١.

٤. وللشيخ المفيد تفصيل في المقام ذكره في كتابه (تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام) المنشور في ج ٧ من مصنفات الشيخ المفيد، فراجع.

عندَ المُوافق والمُخالف، وهو قوله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى آدَمَ فِي عِلْمِهِ، وَنوحاً فِي طَاعَتِهِ، وإِبْرَاهِيمَ فِي خُلَّتِهِ، ومُوسَى فِي هَيْبَتِهِ، وَعِيسَى فِي صَفْوَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ». فالحديث دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِيهِ مَا كَانَ مُتَفَرِّقاً فِيهِمْ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلِيّاً أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ سِوَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وأما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أن عليّاً أفضل من سائر الصحابة؛ وذلك لأن الآية لما دلت على أن نفس عليٍّ عليه السلام^١ مثل نفس محمد ﷺ إلا فيما خصه اللّيل، وكان نفس محمد ﷺ أفضل من الصحابة، فوجب أن يكون عليٌّ أفضل أيضاً من سائر الصحابة. هذا تقرير كلام الشيعة.

في نقل كلام الفخر ثم قال الفخر: والجواب: أنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً ﷺ أفضل من عليٍّ عليه السلام^٢، انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي، وأجمعوا على أن عليّاً عليه السلام^٣ لم يكن نبياً، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد ﷺ، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء. أنتهى كلام الفخر^٤.

وفيه: أن دعوى الإجماع على أن كل نبي أفضل من غير النبي، في غاية البطلان، بل الإجماع على خلافه، لوضوح أن مريم كانت أفضل من أنبياء بني إسرائيل، ولم يكن في كمالها التفاسية قصور عن أهليتها لمنصب النبوة، غير أن صفة الأنوثة منعها عن ثبته، والشاهد على ذلك أنها كانت تحدث الملائكة مشافهةً، وذكرنا مع كونه نبياً، لم يعلم أنه رأى ملكاً، وإنما كان يسمع النداء. وكذلك لم يكن في كماله عليٍّ عليه السلام^٥ قصور عن قابلية رتبة النبوة، ولولا ختم النبوة بوجود خاتم النبيين ﷺ لكان عليٌّ عليه السلام^٦ نبياً.

في إثبات أفضلية بل اعتقاد الإمامية أن فاطمة عليها السلام^٧ التي كانت دون عليٍّ عليه السلام^٨ في الفضل، كانت أفضل الصديقة الطاهرة من سائر الأنبياء، حيث قال النبي ﷺ: «فاطمة رُوحِي التي بينَ جَنَبَيَّ»^٩. وقال ﷺ: «أَيْضاً: «لَوْلا عَلِيٌّ لَمَا كَانَ لِفَاطِمَةَ كُفُوٌ، آدَمَ وَمَنْ دُونَهُ»^{١٠}.

وهذا الحديث والحديث السابق المثلث عليه صريحان في أفضلية عليٍّ عليه السلام^{١١} من سائر الأنبياء، نعم الإجماع متعقد على أن كل نبي أفضل من أمته وممن هو تحت تبعيته وحكمه، لا أنه لا بد أن يكون

١. (أفضل من سائر ... عليٍّ عليه السلام) ليس في المصدر. ٢. تفسير الرازي ٨: ٨١. ٣. أمالي الصدوق: ٢/١٧٥.

٤. الكافي ١: ٣٨٣/١٠، من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٨٣/٢٤٩، التهذيب ٧: ١١٨٢/٤٧٠، الفردوس ٣: ٣٧٣/٥١٣.

مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ١: ٦٦.

أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَنْ لَا يَكُونُ نَبِيًّا، وَلَوْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ حَتَّى أَوْصِيَاءَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ.

والحاصل: أَنَّ الْقَائِلَ بِأَفْضَلِيَّةِ عَلِيٍّ ﷺ لَمْ يَكُنْ مُنْهَضًا بِذَلِكَ الْفَاضِلِ الْجَمْعِيِّ، بَلْ هُوَ قَوْلُ جَمِيعِ عُلَمَاءِ الْإِمَامِيَّةِ، بَلْ يُعْمَكِنُ دَعْوَى كَوْنِهِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ مَذْهَبِهِمْ.

ثُمَّ أَنَّ فِي وَاقِعَةِ الْمُبَاهَلَةِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصِحَّةِ بُتُوته، لَوْضُوحِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ أَعْقَلَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى الْمُبَاهَلَةِ وَخَوْفِ النَّصَارَى بِتُرُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ بِدُعَائِهِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَاطِعًا بِبُتُوته، لَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ سَعْيًا فِي ظُهُورِ كُذْبِهِ، وَتَقْضِ غَرْضِهِ، وَاهْلَاكِ نَفْسِهِ، حَيْثُ إِنَّ النَّصَارَى إِنْ كَانُوا أَقْدَمُوا عَلَى الْمُبَاهَلَةِ وَرَأَوْا أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، كَانَ يَتَضَحَّ عَنْدهم كُذْبُهُ ﷺ وَفَضَاحَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ، مَعَ أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ أَنَّ الْقَوْمَ تَرَكَوا مُبَاهَلَتَهُ، فَلَوْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ بُتُوته، لَمْ يُعْمَكِنِ عَادَةُ امْتِنَاعِهِمْ عَنْ مُبَاهَلَتِهِ، مَعَ شِدَّةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَيُطَالُ دَعْوَاهُ.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَلْصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ أَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ [٦٢ و ٦٣]

ثُمَّ أَكَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْحَقَّ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى النَّصَارَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْمَذْكُورَ مِنْ نَبَأِ عِيسَى وَأُمِّهِ، وَكَوْنُهُمَا مَخْلُوقَيْنِ لِلَّهِ وَعِبْدَتَيْنِ، وَمِنْ الْأَدَلَّةِ الْمُفْضِلَةِ عَلَيْهَا ﴿لَهُوَ الْقَلْصَصُ الْحَقُّ﴾ وَالْبَيِّنَاتِ الْمَقْرُونَةُ بِالصَّدْقِ وَالصَّوَابِ الَّتِي تَنْجِيحُهَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا وَلَدٍ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ أَلْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى جَمِيعِ مَا يُرِيدُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، وَبِحُكْمِ كَافَةِ الْأَشْيَاءِ وَمَصَالِحِهَا، لَا يُشَابِهُهُ غَيْرُهُ فِي الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ حَتَّى يُشَارِكَةَ فِي الْإِلَهِيَّةِ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا عَنْ قَبُولِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنِ الْاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَرِسَالَتِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ التَّوَلَّى إِلَّا عَنِ الْعِنَادِ وَإِرَادَةِ الْفَسَادِ، فَإِذْ لَا ثَبَالَ بِهِمْ، وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَاقْطَعَ الْكَلَامَ مَعَهُمْ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ مُطَّلِعٌ عَلَى خُبَتِ ذَاتِهِمْ وَسُوءِ نِيَّاتِهِمْ، خَبِيرٌ بِأَهْوَاؤِهِمُ الرَّائِغَةُ وَأَعْرَاضِهِمُ الْفَاسِدَةُ، قَادِرٌ عَلَى مُجَازَاتِهِمْ بِأَسْوَأِ الْجَزَاءِ. وَفِي ذِكْرِ اسْمِ الْجَلَالَةِ، تَرْبِيَةِ الرُّوعَةِ وَالْمَهَابَةِ.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [٦٤]

ثم أنه تعالى بعد أمر نبيه بمباهلة أهل الكتاب، وإعراضه عن مجادلهم - مع كونه ﷺ حريصاً في إيمانهم، ومُصرّاً على هدايتهم - أمره بأن يعدل في دعوتهم عن طريق المجادلة والمُحاجة إلى نهج يشهد كل عقل سليم أنه عدل وإنصاف، ليس فيه شائبة التعصب، بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلنَّصَارَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ وَهَلُمُّوا بِالتَّصْمِيمِ وَتَوَطُّينَ النَّفْسِ ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ ذَاتِ ﴿سَوَاءٍ﴾ وَقَوْلٍ فِيهِ عَدْلٌ وَإِنْصَافٌ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لَا يَتَصَوَّرُ فِيهَا لِأَحَدٍ جَوْرٌ وَمِثْلٌ عَلَى صَاحِبِهِ؛ وَهِيَ تَوَاطُّنَا عَلَى ﴿أَلَّا نَعْبُدَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ﴾، وَشَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الْمُسْتَحَقُّ بِالذَّاتِ لِلْكَوْنِ وَالْعِبَادَةِ ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ﴾ فِي عِبَادَتِنَا ﴿شَيْئًا﴾ مِنَ مَخْلُوقَاتِهِ مَسِيحاً كَانَ، أَوْ صَمّاً، أَوْ غَيْرَهُمَا ﴿وَلَا يَنْخُذُ﴾ وَلَا يَخْتَارُ ﴿بَغْضًا بَغْضًا﴾ آخِرُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ﴿أَرْبَابًا﴾ وَمُطَاعِينَ فِي تَحْلِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَحْرِيمِهَا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَمِمَّا سِوَاهِ.

في بيان المراءى من الأناقيم

فإن جميع هذه الأمور الثلاثة^١ مما تسالمت عليها العقول السليمة والطباع المستقيمة، واتفقت عليها الرُّسل والكتّاب المنزلة، ومع ذلك خالفت النصارى كلها،

إذ كان بعضهم يقولون بالهوية عيسى عليه السلام وحده ويعبدونه، وبعضهم يشركون بالله غيره، ويقولون بالأناقيم الثلاثة: أب، وابن، وروح القدس، حيث قالوا: إن أقنوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح، وأقنوم روح القدس بناسوت مريم، ولولا [كون] هذين الأقنومين ذاتين مستقلتين، لما جازت عليها مفارقة ذات الأب والتدرع بناسوت عيسى ومريم عليه السلام، فلذا أثبتوا ذوات ثلاثة مستقلة، وكذا اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، حيث كانوا يطيعونهم في التحليل والتحرير، ويسجدون لهم.

رؤي أنه لما نزلت ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^٢ قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ: «أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون، فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم، قال: «هو ذلك»^٣.

قيل: إن من مذهبهم أن من صار كاملاً في الرياضة والمجاهدة يظهر منه^٤ أثر حلول اللاهوت، فيقلد على إحياء الأموات، وإبراء الأكمه والأبرص. فإنهم وإن لم يطبقوا عليه اسم الرب، إلا أنهم أثبتوا فيه^٥ معنى الربوبية^٦.

ورؤي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى، وقالت

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٤٧.

١. أي الواردة في الآية. ٢. التوبة: ٣١/٩.

٥. في تفسير الرازي: في حقه.

٤. في تفسير الرازي: فيه.

٦. تفسير الرازي ٨: ٨٦.

النصارى: يا محمد، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عَزْرٍ، فأنزل الله هذه الآية^١. وعليها يكون الخطاب لأهل الكتابين.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن سُلُوك طريق الإنصاف واتباع العقل، واستنكفوا عن قَبُول ما دَعَوْتهم إليه مِنَ التَّوْحِيد وتَرْك الإِشْرَاق ﴿فَقُولُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤَحِّدُونَ لأهل الكتابين: ﴿أَشْهَدُوا﴾ واعترفوا بعدلنا لزمكم الحُجَّة ﴿بِأَنَّا﴾ خَاصَّة ﴿مُسْلِمُونَ﴾ لله مُقَادُونَ لِمَا دَعَانَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيد، وَعَدَم الإِشْرَاق في العيادة؛ بَيَان العقل، ولسان الرُّسُل. وفيه دَلَالَة ظَاهِرَة عَلَى أَنَّ أَصْل جَمِيع الدِّيَانَات هُوَ التَّوْحِيد، والإِخْلَاص في العيادة.

في توقيع سيد
الرسول إلى قيص
الروم
رُوي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى قَيْصَرِ الرُّومِ: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَتَى الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَوَّلِينَ^٢، وَ«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^٣.

رُوي أَنَّ هِرَقْلَ سَأَلَ عَنْ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَرَفَهَا مِنْ جَاءَ بِكِتَابِهِ، فَقَالَ هِرَقْلُ: «لَوْ كُنْتُ عَنْدَهُ لَقَبَلْتُ قَدَمَيْهِ؛ لِمَعْرِفَتِهِ صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ بِعِلَامَاتِهِ الْمَعْلُومَةِ لَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ، لَكِنْ خَافَ مِنْ ذَهَابِ الرَّئَاسَةِ.

ثم أَنَّهُ كَتَبَ جَوَابَ كِتَابِهِ ﷺ: «إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتْرُكَ الدِّينَ الْقَدِيمَ الَّذِي اضْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِيسَى. فَعَجِبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ ثَبَّتَ مُلْكُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَبَدًا».

وَكَتَبَ إِلَى كِشْرَى مَلِكِ فَارِسَ فَمَرَّقَ كِتَابَهُ، وَرَجَعَ الرَّسُولُ بَعْدَمَا أَرَادَ قَتْلَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «خَرَقَ اللَّهُ مُلْكَهُمْ، فَلَا مُلْكَ لَهُمْ أَبَدًا»، فَكَانَ كَذَلِكَ^٤.

في مبالغة
النبي ﷺ في دعوة
النصارى وحسن
التدرج في
الحجاج
قال بعض: انظر ما رُوي في هذه القضية من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في الحجاج بين أولأ أحوال عيسى، وما تعاور^٥ عليه من الأطوار المتنافية للإلهية، ثم ذكر كيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام، ثم ذكر ما يحل عقبتهم، ويُزيح شبهتهم، فلما ظهر عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المبالغة بنوع من الإعجاز، ثم لما

١. تفسير الرازي ٨: ٨٥.

٢. في تفسير روح البيان: الاريسيين، وهم الخدم والخور، أو هم عبدة النار، أو الملوك والعشارون. أنظر: مكاتيب الرسول: ١٠٥ - ١٠٧.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٤٦.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٦.

٥. تعاور: أي تداول عليه.

أعرضوا وانقادوا بعض الانقياد، عادَ عليهم بالإرشاد، وسلَّك طريقاً أسهل وألزم بأن دَعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما ظهر عدم إجدائه، وعَلِمَ أن الآيات والنُّذُر لا تُغني عنهم، أعرَضَ عن ذلك بقوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٦٥]

ثم أتت - لما كان كُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كان على دينهم، ويستدلُّون بذلك على صِحَّةِ مِلَّتِهِمْ، لتسألهم جميع الفرق على علُوِّ مقام إبراهيم ﷺ، واستقامة طريقته، وحُسن سيرته، وصِحَّةِ عقيدته - رَدَّ الله عليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ وَتُنَازِعُونَ ﴿فِي﴾ دِينِ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أَنَّهُ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ﴿وَقَدْ﴾ الْحَالَ أَنَّهُ ﴿مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ﴾ لِلَّذِينَ بِهِمَا حَدَّثَ الدِّينَانِ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ بِقُرُونٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ يَكُنَا فِي زَمَانِهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَى وَاضِحَةُ الْبُطْلَانِ؟ وَكَيْفَ لَا تَفْهَمُونَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الْفَسَادِ بِمَكَانٍ.

قيل: إِنَّ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﷺ وَنُزُولِ التَّوْرَةِ أَلْفَ سَنَةٍ، وَبَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى ﷺ وَنُزُولِ الْإِنْجِيلِ أَلْفَا سَنَةً^١.

وهم ردَّعَ: إِنْ قِيلَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً يَدْعُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كان مُسْلِماً، وَهَذِهِ الدَّعْوَى كَذْعُوى أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ مِنَ الْمَحَلَّاتِ، حَيْثُ إِنَّهُ مَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ وَالْإِسْلَامُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ، فَكُلُّ مَا يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ فِي تَوْجِيهِ دَعْوَاهُمْ، تَقُولُ الطَّائِفَتَانِ أَيْضاً.

قلنا: الْمُرَادُ مِنَ الْإِسْلَامِ: هُوَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ، وَتَنْزِيهِهِ تَعَالَى عَنِ التَّجَسُّمِ وَالْوَلَدِ وَالْحَاجَةِ. وَهَذَا الدِّينُ كان مِنَ أَوَّلِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالْمُرَادُ بِالْيَهُودِيَّةِ: هُوَ الْقَوْلُ بِالشُّرْكَ، وَالتَّجَسُّمِ، وَإِبْثَاتِ الْوَلَدِ لَهُ تَعَالَى. وَكَذَا النَّصْرَانِيَّةُ.

وهذه العقائد الفاسدة كانت عندهم مَسْئُوبَةً إِلَى الْكِتَابَيْنِ، أَوْ حَدَّثَتْ فِي اعْتِقَادِهِمْ بَعْدَ الْكِتَابَيْنِ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ ذَهَبُوا إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْعَزِيزَ ابْنَ اللَّهِ لَتِلَاوَتِهِ التَّوْرَةَ بَعْدَ ذَهَابِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ، وَالنَّصَارَى قَالُوا: إِنَّ الْمَسِيحَ الْجَانِي بِالْإِنْجِيلِ كان هُوَ اللَّهُ أَوْ شَرِيكُهُ أَوْ وَلَدُهُ؛ لِأَنَّهُ كان بِلَا أَبٍ، أَوْ كان عِيسَى ﷺ يُعْبَرُ فِي الْإِنْجِيلِ عَنِ اللَّهِ بِالْأَبِ.

وَأَمَّا الْعَقَائِدُ الْإِسْلَامِيَّةُ فَلَمْ يَكُنْ حُدُوثُهَا بِنُزُولِ الْقُرْآنِ، بَلْ أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ لَدُنْ آدَمَ

وقبله.

هَآ أَتَّئْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٦٦ و ٦٧]

ثم إنه سبحانه ويخ أهل الكتاب على دعوام الفاسدة بقوله: ﴿هَآ﴾ تنبهوا يا أهل الكتاب ﴿أَتَّئْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ الحمقاء، البعيدون عن العقل، الممتازون بغاية السفاهة، حيث إنكم ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ وجادلتهم في كثير من الدعاوى الباطلة، متمسكين بالتوراة والإنجيل المحرفين، كدعوى كُؤن كثير من أحكامهما مخالفاً لدين الإسلام، وتدعون أن جدالكم فيه جدال ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ لوجود هذه المخالفة في الكتاب الذي تسمونه بالتوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ﴾ وتجادلون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من دين إبراهيم ﷺ أنه كان يهودياً، أو نصرانياً، أو مسلماً، لعدم تعيينه في الكتابين المحرفين ﴿وَاللّٰهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور، منها دين إبراهيم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً إلا ما علمكم الله. فإن أردتم أن تعلموا دين إبراهيم فاعلموا أنه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ فإن مقامه أرفع من التدين بالدينين الباطلين ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ ومائلاً عن جميع العقائد الباطلة و﴿مُسْلِمًا﴾ متقاداً لله وحده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بأنهم مشركون، ورّد على مشركي العرب؛ حيث كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم ﷺ.

إِنَّ أَوَّلَى الْآثَارِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللّٰهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ [٦٨]

ثم أنه تعالى عرّف الذين هم على دين إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْآثَارِ﴾ وأحقهم بالاتصال ﴿بِإِبْرَاهِيمَ﴾ برابط الدين، فريقان: الأول: ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه والأعصار بعده، في التوحيد الخالص، والانقياد لله، ﴿وَالثَّانِي﴾ ﴿هَذَا النَّبِيُّ﴾ المعظم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من المسلمين ﴿وَاللّٰهُ وَلِيُّ﴾ أولئك ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ فينصرهم على مخالفيهم، ويؤيدهم بالحجة، ويوفقهم لكل خير في الدنيا، ويجازيهم بأحسن الجزاء في الآخرة.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ [٦٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ هُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، دُونَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - بَيَّنَّ أَنَّهُمْ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى ضَلَالَةِ أَنْفُسِهِمْ عَنْ نَهْجِ الْحَقِّ، بَلْ يُرِيدُونَ إِضْلَالَ الْمُؤْمِنِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وَتَمَنَّوْا ﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ عَنْ دِينِكُمُ الْحَقِّ مَعَ غَايَةِ ثَبَاتِكُمْ عَلَيْهِ، وَالْحَالِ أَنَّهُمْ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ عَنْ سَبِيلِ الْهِدَايَةِ وَطَرِيقِ الْجَنَّةِ ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لِرُسُوخِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ، وَعَدَمِ تَخْطِئِهِمُ الضَّلَالِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بِاخْتِصَاصِهِمْ بِهِ، وَرُجُوعِ بَيَانِ ذَلِكَ الضَّلَالِ إِلَيْهِمْ.

قيل: نزلت هذه الآية في معاذ وعمار بن ياسر وحذيفة [لَمَّا] دعاهم اليهود إلى دينهم^١.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ [٧٠]

ثُمَّ وَجَّهَ سُبْحَانَهُ الْخِطَابَ التَّوْبِيخِيَّ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الناطقة بِصِخَةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عَلَى أَنَّهَا آيَاتُ اللَّهِ فِي خُلُوتِكُمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ: لِمَ تَنْكُرُونَ الْقُرْآنَ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بِقُلُوبِكُمْ وَعُقُولِكُمْ كَوْنَهُ مُعْجِزًا^٢.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٧١]

ثُمَّ وَبَيَّحَهُمْ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ﴾ وَتَخْلِطُونَ ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وَتَجْتَهُدُونَ فِي إِقْلَاعِ الشُّبُهَاتِ، حَتَّى لَا يَتَمَيَّزَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ وَتُخْفُونَ دَلَالَتَهُ الْوَاضِحَةَ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بِهَا وَبِدَلَالَتِهَا، وَقَبِيحِ الْكِتْمَانِ وَالتَّلْبِيسِ وَبِعِقَابِهَا الْآخَرِيِّ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا أَعْرَاضَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ أَنْ يُوْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بَيْنَ اللَّهِ يُوْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٧٢ و ٧٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ أَحَدَ أَنْوَاعِ تَلْبِيسَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ﴾ رُؤَسَاءِ ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لِاتِّبَاعِهِمْ - قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ كُتُبُ بْنُ أَشْرَفَ وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ مِنْ رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ، لِاتِّبَاعِهِمَا وَأَصْحَابِهِمَا، لَمَّا

تَحَوَّلَت الْقِبْلَةُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ - : ﴿آمَنُوا﴾ فِي الظَّاهِرِ بِالسِّتِكُمْ ﴿بِاللَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِمَحَمَّدٍ، مِنْ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، وَقَوْلُوا بِأَفْوَاهِكُمْ: إِنَّهُ الْحَقُّ، وَصَلُّوا إِلَيْهَا ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ وَفِي أَوَّلِهِ.

وعن العياشي: وَهُوَ صَلَاةُ الصُّبْحِ^١، حَتَّى يَعْتَقِدَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّكُمْ اعْتَقَدْتُمْ عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ ﴿وَأَكْفُرُوا﴾ بِهِ وَتَجَاهَرُوا بِإِنْكَارِهِ وَصَلُّوا إِلَى الصُّخْرَةِ ﴿أَجْرَةً﴾

عباس^٢ - كَيْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لَوُقُوعِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِهِمْ بِأَنْ يَقُولُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: إِنَّ الْيَهُودَ أَعْلَمَ مِنَّا، فَأَمَنُوا بِالتَّحْوِيلِ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ وَغَرَضٍ، ثُمَّ بَعْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ ظَهَرَ لَهُمْ بَطْلَانُهُ فَرَجَعُوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَحَمَّدٍ، وَبِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ.

وقيل: كَانَتِ الطَّائِفَةُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَحْبَابِ خَبِيرٍ، حَيْثُ تَقَارَلُوا بِأَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَيَقُولُوا آخِرَهُ: نَظَرْنَا فِي كِبَانَا، وَشَاوَرْنَا عُلَمَاءَنَا، فَلَمْ نَجِدْ مُحَمَّدًا بِالنُّعْتِ الَّذِي وَرَدَ فِي الثَّوَرَةِ، لَعَلَّ أَصْحَابَهُ يَشْكُونَ فِيهِ^٣.

﴿وَر﴾ قَالُوا لِاتَّبَاعِهِمْ، وَوَصَّوْا إِلَيْهِمْ بِأَنْ ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾ إِيْمَانًا وَاقِعِيًّا، وَلَا تَصَدُّقُوا عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ لِأَحَدٍ ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، لِأَنَّ تَبِعَ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: لَا تُظْهِرُوا الْإِيمَانَ وَجْهَ النَّهَارِ إِلَّا لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى دِينِكُمْ مِنْ قَبْلُ، فَإِنْ رُجُوعُهُمْ أَرْجَى وَأَهْمٌ^٤.

وَفِي الْإِخْبَارِ بِهَذِهِ الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَحِفْظُ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الشُّكِّ، وَرَدُّعُ الْمُنَافِقِينَ عَنِ السَّعْيِ فِي إِلْقَاءِ الشُّبْهَاتِ.

ثُمَّ لَمَّا سَمَوْا طَرِيقَتَهُمُ الْبَاطِلَةَ بِالَّذِينَ وَالْهِدَايَةَ رَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ ذِي هُدًى لِنَاسٍ﴾، وَدِينَهُ، لَا مَذْهَبَ الْيَهُودِيَّةِ. أَوِ الْمُرَادُ: قُلْ لَهُمْ إِنَّ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ هِدَايَةُ اللَّهِ وَتَوْفِيقُهُ، يَهْدِي بِهَا مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْإِيمَانِ، وَيُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَضُرُّهُ كَيْدُكُمْ وَحِيلُكُمْ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَظْهَرَ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ الْجُمْلَةِ الْإِعْزَاضِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا، لِشِدَّةِ الْإِهْتِمَامِ بِالتَّنْبِيهِ بِهَا - عَادَ إِلَى حِكَايَةِ بَقِيَّةِ كَلَامِ الرُّسَاءِ لِاتَّبَاعِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُمْ: وَلَا تُؤْمِنُوا ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ مِنَ الْعَرَبِ أَوْ غَيْرِهِمْ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَالْكِتَابِ، وَالْأَحْكَامِ، وَالْعُلُومِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالَاتِ غَيْرِ

٢. تفسير الرازي ٨: ٩٤.

١. تفسير الرازي ٨: ٩٤ عن ابن عباس، ولم نثر عليه في تفسير العياشي.

٣. تفسير البيضاوي ١: ١٦٥، تفسير أبي السعود ٢: ٤٩.

٤. تفسير البيضاوي ١: ١٦٥، تفسير أبي السعود ٢: ٤٩.

القابلة للتصديق ﴿أَوْ﴾ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ﴿يَحَاجُّوكُمْ﴾ وَيَغْلِبُوا عَلَيْكُمْ ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فاثبتوا بغاية الثبات على دينكم، فإنه غير متسوخ. وفي الآية احتمالات آخر يكون التكلف فيها أكثر. ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿إِنَّ الْفَضْلَ﴾ مِنَ النَّبِيِّ، والعلم، والكتاب، والهداية، والتوفيق أمره ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ وإرادته ومشيئته وقدرته ﴿يُؤْتِيهِ﴾ وَيُصِيبُ بِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى حَسَبِ قَابِلِيَّتِهِ وَكَمَالِ وجوده، ولا يختص بطائفة خاصة وأشخاص مخصوصة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ قُدْرَةً وَرَحْمَةً وَفَضلاً ﴿عَلَيْهِمْ﴾ باستحقاقات الخلائق وقابلياتهم، ومُطَّلِعٌ عَلَى جميع مَصَالِحِ الأمور ومفاسيدها.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [٧٤]

ثم أكد سبحانه سعة قدرته وقضاه بقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ مِنْ نِعَمِهِ وَكَرَامَتِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ، قيل: إِنَّ الرَّحْمَةَ أَعْلَى مِنَ الْفَضْلِ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ بحيث لا نفاذ لفضله، ولا نهاية لكرمه.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [٧٥]

ثم لما كان أهل الكتاب مدعين أولوياتهم بمنصب النبوة من غيرهم من العرب، نفى الله أهليتهم له، بكون غير المسلمين منهم خائنين في أموال الناس، بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعبدالله بن سلام، وأضرابه من المؤمنين منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ﴾ قيل: هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ الْكَثِيرِ ﴿يُؤَدُّهُ﴾ وَيُرَدُّهُ ﴿إِلَيْكَ﴾ وَلَا يَخُونُهُ^١ شيئاً.

عن ابن عباس: أودع رجلٌ عبدالله بن سلام الفأ ومائتي أوقية ذهباً، فأذاه إليه^٢. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ﴾ قيل: هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ الْقَلِيلِ ﴿لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ﴾ وَيَخُونُكَ فِيهِ، فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ﴾ مِنْ حِينَ التَّائِمِينَ ﴿عَلَيْهِ قَائِماً﴾ وَلِهَذَا مُلَازِماً، لَا تَفَارِقُهُ فِي وَقْتٍ أَوْ حَالٍ. قيل: هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَطَالَبَةِ وَالْتَشْدِيدِ فِيهَا. عن ابن عباس: أَنَّ فَنَخَاصَ بْنَ عَازُورَةَ اسْتَدْعَاهُ رَجُلٌ قَرَشِيٌّ دِينَاراً فَجَحَدَهُ^٣.

١. خان المال: نقصه. ٢. تفسير الرازي ٨: ١٠٠.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٠٠، تفسير البيضاوي ١: ١٦٦، تفسير أبي السعود ٢: ٥٠.

وقيل: إن المراد من المأمونين: النصارى، ومن الخائنين: اليهود، لكون الغالب فيهم الخيانة.^١
ثم ذكر سبحانه علة خيانتهم بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ العمل القبيح من الخيانة، وترك أداء الأمانة وتبوعه فيهم، معلل ﴿بأنهم قالوا﴾ تعصباً وعناداً وغروراً: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي﴾ شأن ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ والعرب الذين ليسوا من أهل العلم والكتاب ﴿سَبِيلٌ﴾ ومزاخلة وعتاب من الله. زوي أن اليهود بايعوا رجالاً في الجاهلية، فلما أسلموا طالبوهم بالأموال، فقالوا: ليس لكم علينا حق؛ لأنكم تركتم دينكم.^٢
﴿وَهُمْ لَخُبْتُ﴾ ذاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ ويفترون ﴿عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ حيث إنهم كانوا ينسبون هذا القول الباطل إلى التوراة ﴿وَهُمْ يَغْلَمُونَ﴾ أن هذا القول والنسبة كذب وفرة.

نسي وجوب رد زوي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان الأسانة ولو إلى الجاهلية إلا وهو تحت قدامي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».^٣
الكافر أقول: فيه دلالة على وجوب رد الأمانة، ولو إلى الكافر الحربي غير المحترم المال. وبعاضده روايات آخر، وقد عمل بها الأصحاب، وأدعي عليه الشهرة، ونسب قول أبي الصلاح - القائل بعدم الوجوب - إلى الشذوذ.^٤

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [٧٦]

ثم لما كان هذا الافتراء مبيناً على ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، رد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ عليكم في الأميين سبيل، ولستم أحباء الله، إنما أحبؤه كل ﴿مَنْ أَوْفَىٰ﴾ وعمل ﴿بِعَهْدِهِ﴾ وتكاليفه وأحكامه ﴿وَاتَّقَى﴾ الشرك والخيانة في الأمانة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ويشيب المتحرزين عن الخيانة ونقض العهود.

عن رسول الله ﷺ: «أربع من كن في كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من المنافق، حتى يدعها: إذا اتهم خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».^٥

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

٢. تفسير الرازي ٨: ١٠٢.

٤. راجع مفتاح الكرامة ٦: ٤٠، جواهر الكلام ٢٧: ١٢٤.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٥٠.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٠٢.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٥٢.

أَيِّم [٧٧]

ثم لما كانت الخيانة تقض عهد الله، وإنكار أخذ الأمانة مستلزماً للإيمان الكاذبة غالباً، هدّد الله عليهما بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ ويستبدلون ﴿يعقد الله﴾ وميثاقه، [سواءً] كان على الإيمان بالرسول أو الوفاء بالأمانات أو غيرهما ﴿وَأَيِّمَانِهِمْ﴾ الكاذبة، سواءً كانت على إنكار أخذ الأمانة، أو على أنهم يؤمنون بالرسول وينصرونه. ويأخذون بعوض الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وبِرّ اليمين ﴿ثُمَّنَا﴾ وبدلاً ﴿قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا، والرئاسات الباطلة.

﴿أُولَئِكَ﴾ الشّخّلون بتلك الأخلاق الدّميمة، المتّصفون بتلك الصّفات القبيحة ﴿لَا خَلَاقَ﴾ ولا نصيب ﴿لَهُمْ﴾ من النّعم والرحمة ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ والدار الباقية ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يشرّهم، أو بكلام أصلاً، وإنّما يقع ما يقع من السّؤال والتّقرّيع والتّوبيخ في أثناء الحساب، من الملائكة. وقيل: إنّ المراد أنهم لا يتنفعون بكلمات الله وأطافه، وقيل: إنّ الجملة كناية عن شدّة الغضب والسّخط^١.

﴿وَلَا يَنْظُرُ﴾ الله ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بنظر الرحمة والرّافة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لغاية شقّوهم وهوانهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من أوساخ الأوزار، ودّس الذّنوب، كما يطهر المذنبين من المؤمنين ﴿وَالَهُمْ﴾ بحسب الاستحقاق ﴿عَذَابٌ﴾ بالتّار ﴿أَلِيمٌ﴾ وموجع في الغاية.

رؤي أنّها نزلت في أبي رافع، ولبابه بن الحقيق، وحبي بن أخطب، حرّفوا التّوراة، وبدّلوا نعت الرّسول ﷺ وأخذوا الرّشوة على ذلك^٢.

وقيل: نزلت في الأشعث بن قيس، حيث كان بينه وبين رجل نزاع في بئر، فاختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «شاهدك، أو يمينه» فقال الأشعث: «إذن يحلف ولا يئالي». فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين يستحقّ بها مالاً، هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان»^٣.

وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق، فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به^٤. والجمع بين الروايات أنّ جميع الوقائع لافتقارها كان شأن النزول.

وإنّ منهم لفرقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون [٧٨]

ثم لما ذكر سبحانه أنهم نقضوا عهد الله بخيانتهم في أموال الناس، ذكر أنهم نقضوا عهد بخيانتهم في التوراة التي هي أعظم ودائع الله في خلقه، وتحريفهم إياها، بقوله: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرِيقًا﴾ وطاقنة ككعب بن أشرف وحيي بن أخطب وأضرابهما «يَلُؤُونَ» ويفتلون «أَلَيْسَتْهُمْ» عند التلطف «بِالْكِتَابِ» المنزل عليهم، وحين قراءة آياته الدالة على نُفُوتِ النَّبِيِّ ﷺ بتغيير الحركات والإعراب، وكيفية تأدية الحروف بحيث يُوجب تحريف كلام الله، وتغيير مدلوله المنزل إلى المَحْرُفِ «لِتَحْسِبُوهُ» وتوهموه أنه بالشُّر الذي يقرأونه «مِنْ» جملة «الْكِتَابِ» المنزل، «وَقَدْ» الحال أنه «مَا هُوَ مِنْ» جملة ذلك «الْكِتَابِ» في نفس الأمر، وفي اعتقادهم، «وَقَدْ» مع ذلك «يَقُولُونَ» بالصراحة، لا بالكناية والتعريض لمحرّفيهم: «هُوَ» الكتاب المنزل «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» حتى في اعتقادهم «وَيَقُولُونَ» بهذه النسبة «عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ» والافتراء تجريباً وغشوراً «وَهُمْ يَفْلُحُونَ» أنهم كاذبون مقرون، وفيه تسجيل عليهم بالتعمد في الكذب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النَّفَر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، كتبوا كتاباً شوشوا فيه نعت محمد ﷺ وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد ﷺ، ثم قالوا: هذا من عند الله^١.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [٧٩ و ٨٠]

ثم لما كان كذب أهل الكتاب غير مختص بالله وتحريفهم بنُفُوتِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بل كانوا يكذبون ويفترون على أنبيائهم ويحرفون كلماتهم، كافتراء النصارى على عيسى بأنه كان يدعي الألوهية، ويأمر الناس بعبادة نفسه، نزه الله تعالى أنبياءه عن هذه الأباطيل، ردّاً على المفتريين، بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صالحاً «لِبَشَرٍ» بلغ في كمال القوة النظرية والعملية إلى «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ» وبه «الْكِتَابُ» الناطق بالحق، الأمر بالتوحيد، الناهي عن الشرك «وَقَدْ» أن يؤتیه «الْحُكْمُ» قيل: هو كناية عن الفهم والعلم والسُنن، «وَقَدْ» أن يهبه «النُّبُوَّةُ» التي هي منصيب إلهي للنفوس الكاملة الطيبة الزكية كي يقوموا بهداية الخلق وتعليمهم وتربيتهم «ثُمَّ يَقُولُ» ذلك البشر، مع كونه في مرتبة البشرية المُنافية للألوهية، وبعدما شرفه الله بما ذكر من الشريفات، وعزّه الحق، وأطلعه على شؤنه العلية «لِلنَّاسِ كُونُوا

عِبَادًا، خَاضِعِينَ شِقَاقِينَ ﴿لِي﴾ وَأَطِيعُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: مُتَجَاوِزِينَ اللَّهَ فِي الْعِبَادَةِ.

رُوي أَنَّ أَبَا رَافِعٍ الْقُرَظِيُّ، وَالسَّيِّدَ النَّجْرَانِيَّ قَالَا لِلرَّسُولِ ﷺ: أَتُرِيدُ أَنْ نَعْبُدَكَ وَنَتَخَذَكَ رَبًّا؟ فَقَالَ ﷺ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ»^١ فَتَرَلَّتْ [الآيَةُ].

وَيَقُلُ أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَسَلَّمَ عَلَيْكَ كَمَا يُسَلَّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، أَفَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ قَالَ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَكْرِمُوا نَبِيِّكُمْ، وَاعْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»^٢.

أَقُولُ: يُمَكِّنُ كَوْنُ مَرْجِعِ ضَمِيرِ (أَهْلِهِ) هُوَ النَّبِيِّ، لَا (الْحَقِّ) فَيَكُونُ أَمْرًا بِمَعْرِفَةِ آلِهِ بِالْوِلَايَةِ، وَوُجُوبِ الطَّاعَةِ.

﴿وَلَكِنَّ﴾ الْبَشَرَ الْعَالِمَ الْمُعَلَّمُ لِلخَلْقِ، يَقُولُ لَهُمْ: ﴿كُونُوا زَوَّائِيْنَ﴾ وَالْعُلَمَاءُ الْكَامِلِينَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ، الْمُتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِ، الْقَائِمِينَ بِطَاعَتِهِ، الْمُقْبِلِينَ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَذَلِكَ لِاهْتِمَامِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ النَّاسَ ﴿الْكِتَابَ﴾ السَّمَاوِيِّ الْمَشْحُونِ بِالْمَعَارِفِ وَالْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَذَرُسُونَ﴾ كِتَابَ اللَّهِ وَتَقْرَأُونَهُ، فَإِنَّ دِرَاسَةَ كِتَابِ اللَّهِ وَتِلَاوَتَهُ - الَّتِي هِيَ ذَرْيَةُ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ، وَالتَّصَدِي لِتَرْبِيَةِ الْخَلْقِ وَتَكْمِيلِهِمْ - سَبَبٌ لِاهْتِمَامِ الرَّبِّيِّ بِتَرْبِيَةِ نَفْسِهِ. وَإِنَّمَا قَدَّمَ التَّعْلِيمَ عَلَى الدِّرَاسَةِ لَشَرَفِهِ عَلَيْهَا.

﴿وَلَا﴾ يَصْلُحُ أَنَّهُ «يَأْمُرُكُمْ» وَيَبْعَثُكُمْ ذَلِكَ الْبَشَرَ الْمَبْعُوثَ لِهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَى ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا﴾ وَتَخْتَارُوا لِنَفْسِكُمْ ﴿الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَوْيَايَا﴾ وَأَلِهَةً مَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُثْمَرَكِي الْعَرَبِ وَالصَّابِئِينَ حَيْثُ قَالُوا بَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَكَالْيَهُودِ حَيْثُ قَالُوا بَأَنَّ الْعَزِيرَ ابْنُ اللَّهِ، وَكَالنَّصَارَى حَيْثُ قَالُوا بَأَنَّ الْمَسِيحَ ثَلَاثَةٌ، أَوْ ابْنُ اللَّهِ.

ثُمَّ لِإِظْهَارِ غَايَةِ شَتَاةِ نِسْبَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَى النَّبِيِّ الْعَارِفِ بِاللَّهِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، بَلِ امْتِنَاعِ وَقُوعِهَا مِنْهُ، أَنْكَرَ شَبَحَانَهُ عَلَى الْقَائِلِينَ بِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ﴾ النَّبِيُّ الدَّاعِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ ﴿بِالْكُفْرِ﴾ وَالشُّرْكِ، لَا يَسِمَا ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مُوَخِّدُونَ.

قِيلَ: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ كَانُوا مُسْلِمِينَ، [وَهُمْ] الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا الرَّسُولَ ﷺ [فِي] أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ^٣.

١. تفسير الرازي ٨: ١٠٩، تفسير أبي السعود ٢: ٥٢. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ٥٢.

٣. تفسير الرازي ٨: ١١٣.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٨١ و ٨٢]

ثم لما ظهر من الآية أن منصب النبوة ملازم للتوحيد والدعوة إلى الله وعبادته، أشار [شبحانه] إلى أن كل نبي وأمه لابد أن يكونوا مُصدّقين لجميع الأنبياء، وأن الله أخذ منهم العهد على ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ﴾ قيل: إن المراد اذكر يا محمد حين ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

قيل: إن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة أن يُصدّق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إن أدركه، وأن يأمر قومه بالإيمان به وبنصرته إن أدركه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومنهما أن يؤمنا بمحمد ﷺ. وقيل: المأخوذ منهم الميثاق أممهم.

عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام قال: «معناه: وإذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين، كل أمة بتصديق نبيها والعمل بما جاءهم به، [وأنهم خالفوه فيما بعد] فما وفوا به، وتركوا كثيراً من شرائعهم، وحرّفوا كثيراً منها»^١.

وعن الباقر عليه السلام، في رواية قال: «هكذا أنزلها الله» يعني طرح منها (أمم)^٢.

وكان ذلك الميثاق والعهد أنه ﴿لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وشرّفكم بالعلم بالأحكام والسّنن والمعارف ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ وبعث إليكم في زمانكم ﴿رَسُولٌ﴾ من عدي، وهو ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ ومُعترف بصحة ما آتاكم الله من الكتاب والحكمة، والله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ ولتصدقنّه ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ ولتعيّنه على أعدائه.

في (المجمع): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «إن الله تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا أن يخبروا أممهم بمبعثه ونعته، ويُشّروهم [به] ويأمرهم بتصديقه»^٣.

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما بعث الله نبياً، آدم ومن بعده، إلا أخذ عليه العهد لئن بعث الله محمداً وهو حي، ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ العهد بذلك على قومه»^٤.

وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام: «ما بعث الله نبياً، من لدن آدم فهلمّ جراً، إلا ويرجع إلى الدنيا

١. تفسير الصافي ١: ٣٢٥.

٢. مجمع البيان ٢: ٧٨٤، تفسير الصافي ١: ٣٢٥.

٣. مجمع البيان ٢: ٧٨٦، تفسير الصافي ١: ٣٢٥.

٤. مجمع البيان ٢: ٧٨٤، تفسير الصافي ١: ٣٢٥.

وينصر أمير المؤمنين عليه السلام، وهو قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ يعني رسول الله ﷺ ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام.^١

أقول: توضيحه أنه بعدما ثبت بآية المباحلة أن أمير المؤمنين عليه السلام نفس الرسول ﷺ، ثبت أن نصرته نصرته الرسول ﷺ، مضافاً إلى أنه لا معنى لنصرته إلا نصرته دينه، ولا شبهة أن نصرته علي عليه السلام نصرته دين الرسول.

عن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: إن الله أخذَ واحدَ تفرد في وُحْدانيته، ثم تكلم بكلمة فصارت ثوراً، ثم خلق من ذلك النور محمداً ﷺ وخلقني وذريتي، ثم تكلم بكلمة فصارت روحاً فأسكنه الله في ذلك النور، وأسكنه في أبداننا، فنحن روح الله وكلماته، فبنا احتجب عن خلقه، فما زلنا في ظلة^٢ خضراء، حيث لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا عين تطرف، نعبده ونقدسه ونسبحه، وذلك قبل أن يخلق خلقه.

وأخذ ميثاق الأنبياء بالإيمان والنصرة لنا، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ يعني لتؤمنن بمحمد ﷺ ولتنصرن وصيه، وستنصرونه جميعاً، وإن الله أخذ ميثاقه مع ميثاق محمد ﷺ بنصرة بعضنا [لبعض].

وقد نصرت محمداً، وجاهدت بين يديه، وقتلت عدوه، ووفيت الله بما أخذ علي من الميثاق والعهد والنصرة لمحمد ﷺ، ولم ينصرن أحد من أنبياء الله ورسله، وذلك لما قبضهم الله إليه، وسوف ينصرونني ويكون لي ما بين مشرقها ومغربها، وليعبثهم الله أحياء، من آدم إلى محمد ﷺ كل نبي مرسل، يضربون بين يدي بالسيف هام الأموات والأحياء والثقلين جميعاً.

فيا عجباًه وكيف لا أعجب من أموات يعبثهم الله أحياء، يلبنون زمرة زمرة بالتلبية: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا وَلِيَّ^٣ الله، قد أظلموا بسبك الكوفة، قد شهروا سيوفهم على عواتقهم، يضربون بها هام الكفرة وجابرتهم وأتباعهم من جبابرة الأولين والآخرين، حتى ينجز الله ما وعدهم في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^٤ أي يعبدونني آمنين لا يخافون أحداً في عبادتي، ليس عندهم تقية، وأن لي الكرة والرجعة^٥.

١. تفسير القمي ١: ١٠٦، تفسير الصافي ١: ٣٢٥. ٢. في النسخة: ظلمة. ٣. في تفسير الصافي: داعي.

٤. في تفسير الصافي: الكرة بعد الكرة والرجعة بعد الرجعة. ٥.

٤. النور: ٥٥/٢٤.

وأنا صاحب الرِّجَعَاتِ والكِرَاتِ، وصاحب الصُّلُواتِ والنُّفُحاتِ والدُّلُواتِ العجيباتِ، وأنا قَرَنَ مِنْ حديدٍ الحديث^١.

نسي توضيح الرواية الباقية أقول: يُحتمل أن يكون المراد من التَّكَلُّمِ بالكلمة: هُوَ إشراق فَيْضِ الْوُجُودِ، ومِنْ صَيُورِهَا نوراً: وجود العقل الكَلْبِيِّ، ومِنْ خَلْقِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ

النُّور: جَعَلَ قِيَامَ حَقِيقَتِهِمْ بِهِ، وَمِنْ إِسْكَانِ أَرْوَاحِهِمِ الطُّيْبَةِ فِي النُّورِ: إحاطة العقل بأرواحهم واتصالها وتكميلها به، وَمِنْ إِسْكَانِ أَرْوَاحِهِمْ فِي أَبْدَانِهِمْ: تعلقها بقوالهم الميثاقية في عالم الأشباح والصُّور، وَمِنْ قَوْلِهِ: «فَنَحْنُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَاتُهُ»: كَوْنُ أَرْوَاحِهِمْ أَشْرَفُ الْأَرْوَاحِ وَأَكْمَلُ بَدَانِعِهِ تَعَالَى، وَمِنْ احْتِجَابِهِ تَعَالَى بِهِمْ عَنْ خَلْقِهِ: جَعَلَهُمْ وَسائطَ قِيُوضَاتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، فَكَأَنَّهُمْ قَانِمُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَهُمْ الْأَوَّلُونَ وَسَائِرُ الْخَلْقِ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَمِنْ ثَبَاتِهِمْ فِي ظِلَّةِ^٢ خَضْرَاءٍ: بقاؤهم في عالم الأشباح حيث لا وجود لعالم الأجسام، وكان أخذ الميثاق عن الأنبياء في عالم الذُّرِّ أو عالم الأرواح، وتكون نُصْرَتِهِمْ لَهُ وَوَفَاؤُهُمْ بِالْعَهْدِ فِي زَمَانِ الرُّخْعة.

ثُمَّ «قَالَ» اللَّهُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَخِيَا، وَلَأَمَّهُمْ بِلِسَانِهِمْ تَقْرِيراً وَتَأْكِيداً لِلْعَهْدِ عَلَيْهِمْ: «ءَأَقْرَزْتُمْ» بِذَلِكَ الميثاق والإيمان والنُّصْرَةَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ «وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذُلُكُمُ» الميثاق «إِضْرَى» وَعَقْدِي الَّذِي عَقَدْتُهُ عَلَيْكُمْ وَالتَّزَمْتُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ «قَالُوا» إِنَّ الْجَوَابَ: رَبَّنَا «أَقْرَزْنَا» بِذَلِكَ الْعَهْدِ وَالتَّزَمْنَا بِالْوَفَاءِ بِهِ.

ثُمَّ «قَالَ» سُبْحَانَهُ: «فَاشْهَدُوا» أَيُّهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَمَمُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ. ثُمَّ قَالَ تَأْكِيداً وَتَحْذِيراً عَنْ الرُّجُوعِ: «وَأَنَا» أَيْضاً «مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» عَلَى إِقْرَارِكُمْ وَمُصَاجِبِ لَكُمْ «فَمَنْ تَوَلَّى» مِنْكُمْ عَنِ الْعَهْدِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ «بَعْدَ ذَلِكَ» الميثاق المُؤَكَّدُ بِالْإِقْرَارِ بِهِ وَالْإِشْهَادِ عَلَيْهِ «فَأُولَئِكَ» الْمُعْرِضُونَ «هُمْ الْفَاسِقُونَ» الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَاتِّقِيادِهِ، الْمُتَجَاوِزُونَ عَنْ حُدُودِ الْعَقْلِ، الْمُتَحَرِّفُونَ عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ.

أقول: بعد ثبوت عصمة الأنبياء، وعدم إمكان نقضهم عهد الله وإعراضهم عن الميثاق، لا بد من الالتزام بكون التهديد راجعاً إلى الأمم خاصة، وكان أجراً لهم عليه بنو إسرائيل، حيث إنهم بعدما أخذ الله عليهم الميثاق بالإيمان بمحمد ﷺ ونُصْرَتِهِ، خَالَفُوهُ وَعَارَضُوهُ وَنَصَرُوا أَعْدَاءَهُ.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً

وَالَّذِي يُزْجِعُونَ [٨٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَضَرَّتْهُ دِينُ اللَّهِ الَّذِي لَوْ كَانَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فِي زَمَانِهِ كَانَ عَلَيْهِمَا مُتَابِعَتُهُ، كَمَا رَوَى عَنْهُ ﷺ، قَالَ: «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيَاضَ نَفْيَةٍ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ حَيًّا لَمَّا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»^١.

وظَهَرَ أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَى الْأَمَمِ الْمِيثَاقَ بِاتِّبَاعِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ مَذْكُورًا فِي التَّوْرَةِ وَسَانِرَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَكَانُوا عَارِفِينَ بِهِ، وَكَانُوا عَالِمِينَ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي دَعْوَى النَّبَوَّةِ، بِشَهَادَةِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَذِلَالَةِ الْمُعْجَزَاتِ، فَلَمْ يَكُنْ سَبَبَ لِكُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ إِلَّا كُؤْنُهُمْ طَالِبِينَ دِينًا غَيْرَ دِينِ اللَّهِ. وَهَذَا فِي غَايَةِ الشَّنَاعَةِ وَالْعَجَبِ مِنَ الْعَاقِلِ، وَلِذَا وَبَحَثْنَاهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ» مِنَ الْوُثْنِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ «يَتَّبِعُونَ» وَيَطْلُبُونَ، مَعَ أَنَّ حَقِيقَةَ دِينِ الْإِسْلَامِ هُوَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ، وَالتَّسْلِيمُ وَالِاتِّقَادُ لِلَّهِ، «وَوَ» الْحَالُ أَنَّ «لَهُ» وَحْدَهُ «أَسْلَمَ» وَأَخْلَصَ وَاتَّقَادَ «مَنْ» هُوَ كَاتِبٌ «فِي السَّمَاوَاتِ» مِنَ الْكَرُوبِيِّينَ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ «وَوَ» مَنْ فِي «الْأَرْضِ» مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ «طَوْعًا» وَرَغْبَةً بِالشَّاهِدَةِ وَالْبَرَاهِينِ «وَوَكَّزَهَا» بِمَا فِيهِمْ مِنْ آثَارِ الصَّنْعِ، فَإِنَّ اقْتِضَاءَ الْخُذُوثِ وَالْإِمْكَانِ وَالْمَعْلُومَةِ تُفَوِّدُ قُدْرَتَهُ فِيهِمْ، بِتَضَرُّفِهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ إِلَى صِحَّةٍ وَمَرَضٍ، وَغِنَى وَفَقْرٍ، وَشَرُّورٍ وَحُزْنٍ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُهُمْ دَفْعُ قَضَائِهِ وَقُدْرَهُ.

«وَالَّذِي» وَإِلَى حُكْمِهِ بِالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ فِي الْآخِرَةِ «يُزْجِعُونَ» فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِمْ فِي مُحْكَمَةِ عَدْلِهِ وَقَضَائِهِ نَعْمًا وَلَا ضَرًّا، فَيُعَذِّبُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دِينِهِ وَطَلَبَ غَيْرَهُ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ الدَّائِمِ. رَوَى أَنَّ فَرِيقَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ اخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا: مَا نَرْضَى بِقَضَائِكَ، وَلَا نَأْخُذُ بِدِينِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^٢.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَخٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [٨٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِيثَاقُهُ تَعَالَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ عَلَى أَمَمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولٍ مُصَدِّقٍ لِمَا مَعَهُمْ، أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ يُعْلِنَ بِأَنَّ دِينَهُ دِينُ اللَّهِ، وَبِتَضَدِّيقِهِ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ، بِقَوْلِهِ: «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ، وَعَنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ: نَحْنُ «آمَنَّا بِاللَّهِ» وَخُذْهُ، وَاعْتَرَفْنَا بِأَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ بِالذَّاتِ

للعيادة، لا إله ولا معبود سواه - وإنما قدمه لأنه الأصل في الديانات ﴿وَ﴾ آمناً بجميع ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ من عند الله ﴿عَلَيْنَا﴾ من القرآن والمعارف والقُلُوم والأحكام.

وقيل: إن المراد من الضميرين نفسه المقدسة، وإنما أمر أن يُعبر عن نفسه بضمير الجمع لإظهار جلالة قدره، ورفعته محلّه، كما هو الدأب في تكلم الملوك^١.

وإنما قدم الإيمان بما أنزل إليه على الاعتراف بصدق ما أنزل على غيره من قتل؛ لأنه المعروف له، والمبتلى به فعلاً.

ثم شهد بصدق ما أنزل على غيره من الأنبياء بقوله: ﴿وَ﴾ آمناً بكلّ ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ من الله ﴿عَلَى﴾ أنبيائه ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنيه ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَ﴾ ولده ﴿يَعْقُوبَ﴾ من الصّحف والأحكام والسّنن ﴿وَ﴾ على ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ الاثني عشر؛ حفدة يعقوب، وفيهم كثير من الأنبياء.

﴿وَ﴾ آمناً بكلّ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من التوراة والإنجيل، والمعجزات التي ظهرت بأيديهما - وتخصيصهما بالذكر، مع كونهما من الأسباط، لعلّ شأنهما، وكون الكلام مع اليهود والنصارى - ﴿وَ﴾ بما أُوتِيَ ﴿التَّيَّيُونُ﴾ غير المذكورين ﴿مِنْ﴾ مواهب ﴿رَبِّهِمْ﴾ ومليكهم اللطيف بهم.

ولمّا لم يكن فرق بينهم في دلائل صدق النبوة، وشواهد الرسالة، فنحن أيضاً ﴿لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان والتصديق، كما فرق اليهود والنصارى بينهم، بأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض؛ وذلك لأننا لله متقادون ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ بخلاف أهل الكيابين فإنهم لهوى أنفسهم متبعون، وبالله مشركون.

ثم لا يذهب عليك أنه لا منافاة بين الإيمان بنبوة الأنبياء السابقة وصحة دينهم، وبين الاعتقاد بانقضاء مدة نبوتهم ونسخ دينهم، لوّضح أن المراد من الإيمان الاعتراف بصحة نبوتهم المؤقتة، وجوب الالتزام بدينهم على جميع أممهم.

وفي الاختصار على تصديق الأنبياء السابقين إشعاراً بختم النبوة والدّين به ﷺ وبدينه.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٨٥]

ثم قرّر سبحانه كون الإسلام دين الله دون غيره، بتشديد التهديد على مخالفته والتدوين بغيره، بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ ويختار لنفسه ﴿غَيْرَ﴾ دين ﴿الْإِسْلَامِ﴾ الذي قد سبق أن حقيقته التوحيد الخالص، والتسليم لأحكام الله وطلب مرضاته ﴿دِينًا﴾ يتجلى إليه، كالوثنية واليهودية والنصرانية وغيرها ﴿فَلَنْ

يَقْبَلُ ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْبَاطِلُ ﴾ ﴿مِثْلُ﴾ أَيْدَاءُ، وَلَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ شَيْئاً ﴿وَهُوَ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ مَحْشُوبٌ ﴿مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ الْمَغْتَوْنِينَ، حَيْثُ إِنَّهُ صَبَّحَ فِطْرَتَهُ السُّلَيْمَةَ الَّتِي فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ التَّوَابِ الْجَزِيلِ الدَّائِمِ، وَالنَّعَمَ الْعَظِيمَةَ الْبَاقِيَةَ، ثُمَّ اشْتَرَى الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الْأَبَدَ، فَيَدْخُلُهُ مِنَ التَّأْسُفِ وَالتَّحَسُّرِ عَلَى مَا فَاتَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَحَلَاوَةِ الْعِبَادَةِ، فِي أَنْ وَلَايَةِ آلِ الرُّسُولِ دَاخِلَةٌ فِي الْإِسْلَامِ الْحَقِيقِيِّ الْمُرَادِفِ لِلْإِيمَانِ

وَعَلَى مَا تَحْمَلُهُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ فِي تَحْصِيلِ الْحُطَامِ الدُّنْيَوِيِّ وَتَقْرِيرِ ذَلِكَ الدِّينِ الْبَاطِلِ مَا لَا يَتَصَوَّرُ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

ثُمَّ اعْلَمَ أَنَّ لَفْظَ الْإِسْلَامِ كَانَ مُرَادِفاً لِلْإِيمَانِ، وَحَقِيقَتُهُ حَقِيقَتُهُ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَالتَّصْدِيقِ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ وَلَايَةُ آلِ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَخِلَافَةُ عَلِيٍّ وَالتَّعَصُّوْمِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

فَمَنْ أَنْكَرَ وَلَايَتَهُمْ وَوُجُوبَ طَاعَتِهِمْ، فَقَدْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ دِيناً غَيْرَ الْإِسْلَامِ، حَيْثُ إِنْ مَنْ أَنْكَرَ وَاحِداً مِمَّا جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ يَكُونُ كَمَنْ أَنْكَرَ جَمِيعَهُ.

نَعَمْ، يَكُونُ لِمَنْ أَقْرَبَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَلَوْ كَانَ مُتَافِقاً عَلَى الْأُظْهَرِ، أَحْكَامَ خَاصَّةٍ مِنْ طَهَارَةِ الْجَسَدِ، وَاحْتِرَامِ الْمَالِ، وَجَوَازِ الْمُنَاحَاةِ، وَوُجُوبِ غُسْلِ مِثْنِهِ وَتَكْفِينِهِ وَدَفْنِهِ، دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ كَحُرْمَةِ غِيَبَتِهِ، وَجَوَازِ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَإِعْطَانِهِ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ وَالْكَفَّارَاتِ، وَقَبُولِ الرِّوَايَةِ وَالشَّهَادَةِ.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [٨٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ بَيَانِ عَظَمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ دِينُهُ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِمَلَائِكَتِهِ وَسَائِرِ خَلْقِهِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَهْدِيدِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ، وَعَدِّهِمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ - بِالْغِثِ فِي التَّوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْدَ دُخُولِهِ فِيهِ، وَجَحْدِهِ بَعْدَمَا أَقْرَبَهُ، بِقَوْلِهِ اسْتِعْجَاباً وَإِنْكَاراً: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَيُؤَقِّفُ لِلرُّشَادِ بِالْعِنَايَاتِ الْخَاصَّةِ ﴿قَوْمًا﴾ وَرَهْطاً ﴿كَفَرُوا﴾ بِالرُّسُولِ، وَارْتَدَّوْا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ بِهِمَا.

قِيلَ: هُمْ عَشْرَةُ رَهْطٍ ارْتَدَّوْا بَعْدَمَا آمَنُوا وَلِحَقْوِ بِمَكَّةَ^١، وَقِيلَ: هُمْ يَهُودُ قُرَيْظَةَ وَالتَّضْيِيرِ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، وَكَانُوا يَشْهَدُونَ لَهُ بِالنَّبُوءَةِ، فَلَمَّا بُعِثَ ﷺ وَجَاءَهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ كَفَرُوا بِهِ بَغْيًا وَحَسْداً^٢. وَكِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

ثم بين سبحانه ما يوجب استبعاد كفرهم بقوله: ﴿وَشَهِدُوا﴾ قيل: إن المراد وبعد أن شهدوا وأغترفوا في مجامع الناس ومشاهدهم، أو والحال أنهم اغترفوا ﴿أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾ ودعواه صدق ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ من القرآن وسائر المعجزات وخوارق العادات ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ والشواهد الواضحات على صدقه، بحيث لم يتوهم في حقهم الشبهة فيه، وفي صحة دينه، فكان ازديادهم من أقبح القبائح؛ لأن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل، وكفرهم ورجوعهم عن الإسلام غاية الظلم على النفس ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الحق، ولا يوفق للخير ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المتمرنين على الظلم، المصيرين على الفساد، المتهميين في الشهوات، لغاية خبث ذاتهم، وزدالة صفاتهم.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ [٨٧ و ٨٨]

ثم بالغ سبحانه في التهديد والوعيد بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المرتدون ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ المقرر على مقتضى استحقاتهم ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ استقرت ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ والبعد عن رحمته، الشوجب للجرمان عن النعم الأخروية، وللعذاب بالثار ﴿وَهُ﴾ عليهم لعنة ﴿الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قيل: إن المراد خصوص المؤمنين منهم، وقيل: إن المراد هو العموم، حيث إن الكفار أيضاً يلغون في الدنيا كل مبطل كافر، غير أنهم يدعون أنهم أنفسهم مؤمنون محقون.

كما أن ظالمي آل محمد ﷺ يلغون ظالمهم ويدعون أنهم غيرهم، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قيل: أي مقيمين في اللعنة، وعن ابن عباس ؓ: خالدين في جهنم أبداً ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ في جهنم ﴿الْعَذَابُ﴾ الشديد ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ويمهلون ساعة، ولا يؤخرون لحظة.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٨٩]

ثم دفع الله سبحانه توهم أن اللعنة الدائمة والعذاب الخالد لكل من تلبس بالكفر والازدياد، وإن تاب وأسلم بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الإسلام الحقيقي ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفر والازدياد، وآمنوا عن صميم القلب ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ قلوبهم وأعمالهم الفاسدة، فإنهم تقبل توبتهم، ويتفضل عليهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده الصالحين.

عن الصادق ؓ: «نزلت الآيات في رجل من الأنصار يقال له الحارث بن سويد بن الصامت، وكان

قتل المجذّر بن زياد^١ البَلَوِي غَدْرًا، وهرب وارتد عن الإسلام ولحق بمكة، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلّوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنزلت فحملها رجُل من قومه إليه، فقال: إني لأعلم أنك لصدوق، ورسول الله ﷺ أصدق منك، وأن الله تعالى أصدق الثلاثة. ورجع إلى المدينة، وتاب وحسن إسلامه^٢.

والظاهر أن الآيات في المرتد الذي تاب عن ارتداده حقيقة، ورجع إلى الإسلام واقعاً وخالصاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ [٩٠]

ثم أنه سبحانه بعد بيان هذا القسم من المرتدين، ذكر القسم الثاني منهم؛ وهم الذين استمروا على ارتدادهم باطناً، ولكن تابوا يفاقاً، أوحين الاختصار، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ به، وارتدوا عن دين الإسلام بعد اعتراهم به، ودخولهم فيه ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ واستمروا عليه.

وقيل: إن المراد: الذين كفروا بعمى الإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كُفْرًا بجحودهم نبوة محمد ﷺ وكتاباه.

وقيل: الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد بعثته، بعد إيمانهم به قبلها، ثم ازدادوا كُفْرًا بالإصرار عليه، والطعن فيه، والصد عن الإيمان به، ونقض الميثاق.

وروي أن الآية نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة، وازدادوا الكفر أنهم قالوا: نعيم بمكة نرتبص بمحمد ريب المتون^٣، أو قالوا: نرجع إليه فتناقفه.

فهؤلاء ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ عن ذنب ارتدادهم أبداً، لعدم إخلاصهم فيها، أو عدم صدورها عنهم إلا عند الاختصار ومعاينة عالم الآخرة.

وقال جمع من العامة: إنه تعالى لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان، وأنه تقبل توبته، ذكر في هذا الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد [تلك] التوبة، فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة، وتصير كأنها لم تكن^٤. وفيه نظر ظاهر.

ثم بعد تهديدهم بعدم قبول توبتهم، ذمهم بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المرتدون لتناهيهم في الضلال،

١. كذا في أسد الغابة ١: ٣٣٢، وفي جهمرة أنساب العرب ١: ٢-٣: ٣٣٧. المجذّر بن ذباد، وفي النسخة: المجذّر بن

زياد. ٢. مجمع البيان ٢: ٧٨٩، تفسير الصافي ١: ٣٢٧. ٣. تفسير الرازي ٨: ١٣٠.

٤. تفسير الرازي ٨: ١٣٠.

وَفَرَطَ ثَبَاتِهِمْ فِيهِ كَأَنَّهُ ﴿هُمُ الصَّالُّونَ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصُّوَابِ، لَا ضَالَّ غَيْرُهُمْ. وَفِيهِ غَايَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي ضَلَالِهِمْ لِكَمَالِهِمْ فِيهِ، وَعَدَمَ تَوَقُّعِ اخْتِدَائِهِمْ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا
وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [٩١]

ثُمَّ ذَكَرَ الْقِسْمَ الثَّالِثَ مِنَ الْمُتَرْتَبِينَ؛ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُتُوبُونَ، لَا ظَاهِرًا وَلَا وَاعِيًا حَتَّى يَمُوتُوا، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَارْتَدَّوْا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَقَدْ﴾ بَعْدَ ارْتِدَادِهِمْ ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ غَيْرَ تَائِبِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَارْتِدَادِهِمْ إِلَى الْمَوْتِ ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ لَدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ﴾ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا عَلَى الْفَرَضِ الْمَحَالِ ﴿ذَهَبًا﴾ خَالِصًا، وَهُوَ كِبَايَةُ عَنْ اعْزَ الْأَمْوَالِ ﴿وَلَوْ أَفْتَدَى﴾ الْكَافِرُ ﴿بِهِ﴾ لِخَلَاصِ نَفْسِهِ.

قِيلَ: إِنَّمَا أَثَرُ التَّعْبِيرِ بِالْإِفْتِدَاءِ عَلَى الْإِهْدَاءِ لِأَنَّ الْفِدَاءَ أَثَرُ فِي الْعَفْوِ مِنَ الْهَدْيَةِ، حَيْثُ إِنَّ الْمَوْلَى قَدْ لَا يَقْبَلُ الْهَدْيَةَ مِنْ عَبْدِهِ، وَلَكِنْ يَقْبَلُ الْفِدَاءَ مِنْهُ.

وَحَاصِلُ الْمُرَادِ: أَنَّ الْكَافِرَ لَوْ فُرِضَ قُدْرَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى اعْزِ الْأَمْوَالِ، وَكَانَ بِالِغَايَةِ غَايَةَ الْكَثْرَةِ، فَبَذَلَهُ - وَلَوْ بِعُتْوَانِ الْفِدْيَةِ، لِيَتَوَسَّلَ بِذَلِكَ إِلَى تَخْلِيصِ نَفْسِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ - لَا يُفِيدُهُ فِي تَبِيلِ مَقْصُودِهِ. ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُتَصِفُونَ بِأَشْنَعِ الصِّفَاتِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ، الْبَعِيدُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿لَهُمْ﴾ بِالِاسْتِحْقَاقِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَعُقُوبَةٌ مُوجِعَةٌ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، فَهُمْ أَيْسُونَ مِنْ تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ؛ لِانْقِطَاعِ جَمِيعِ الْوَسَائِلِ الْعَادِيَةِ لِلْخَلَاصِ مِنَ الشَّدَائِدِ عَنْهُمْ.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [٩٢]

ثُمَّ لَمَّا ظَهَرَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ بَذْلَ الْمَالِ فِي الْآخِرَةِ غَيْرُ نَافِعٍ فِي الْخَلَاصِ مِنَ الْعَذَابِ، بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ أَنَّ وَسِيلَةَ الْخَلَاصِ مِنْهُ، وَمَوْجِبُ تَبِيلِ كُلِّ خَيْرٍ، هُوَ الْإِنْفَاقُ مِنْ أَحَبِّ الْأَمْوَالِ فِي الدُّنْيَا، بِقَوْلِهِ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ وَلَا تَصِلُوا إِلَى الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَبَدًا، بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ وَتَبَذَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ شَيْئًا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَبَعْضًا مِمَّا يُعْجِبُكُمْ مِنْ كِرَائِمِ الْأَمْوَالِ، أَوْ مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا مُتَهَجَّةً كَانَ، أَوْ عَمَلًا، أَوْ عِلْمًا، أَوْ جَاهًا، أَوْ غَيْرَهَا.

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْإِنْفَاقَ بِالْمَحْبُوبِ لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا أُيْقِنَ الْمُتَنَفِّقُ بِأَنَّ إِنْفَاقَهُ وَسِيلَةَ التَّبِيلِ بِالْأَحَبِّ وَالْأَشْرَفِ مِنَ الْمَبْذُولِ، فَالْإِنْسَانُ لَا يُنْفِقُ مَحْبُوبَهُ فِي الدُّنْيَا لَوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا إِذَا أُيْقِنَ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ

وبالجزء الجزيل على إنفاقه، وعلى هذا يلزمه القيام بطاعة الله والتجنب عن معاصيه، أو التخلُّق بالأخلاق الجميلة.

في بيان فضيلة ثم رغب سبحانه في الإنفاق، وبالع في قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ تحبونه، أو الإنفاق حيث تكثرهونه، أو كثير في العلانية، أو قليل في الخفية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ حيث إنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيجازيكم بحسبه جيداً كان المال أو رديئاً، قليلاً كان أو كثيراً، خفية كان الإنفاق أو علانية.

قيل: فيه غاية التحذير من بذل الرديء، والترغيب في بذل الطيب، فإن الآخرة هي عالم النور والبقاء، فلا وقع فيه للأمور الظلمانية. فالوصول إلى المحبوب لا يكون إلا ببذل المحبوب بنحو محبوب، من خلوص النية، واشتجماع الخصال المرضية.

رؤي أنه لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن أحب أموالي إلي بئر حاء؛ وهو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد النبي ﷺ.

وفي رواية: قال: لي حائط بالمدينة، هو أحب أموالي، أنا أتصدق به.

وفي رواية: قال: فصعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال ﷺ: «يَحْ نَحْ، ذاك مال رابع^٢ أو رائج، وإنِّي أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها في أقاربه^٣.

وفي رواية: أنه جعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب^٤.

ورؤي أن زيد بن ثابت جاء عند نزول الآية بفرس له كان تحته، فجعلها^٥ في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة، فوجد [زيد] في نفسه، فقال ﷺ: «إن الله قد قبلها»^٦.

وعن (المجمع): اشترى علي عليه السلام ثوباً فأعجبه، فتصدق به وقال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من آثر على نفسه أثره الله يوم القيامة بالجنة، ومن أحب شيئاً فجعله الله، قال الله يوم القيامة: قد كان العباد يكافئون فيما بينهم بالمعروف، وأنا أكافيك اليوم بالجنة»^٧.

وعن الحسين بن علي، وعن الصادق عليه السلام أنهما كانا يتصدقان بالسكّر، ويقولان: «إنه أحب الأشياء إلينا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾»^٨.

١. تفسير الرازي ٨: ١٣٤، تفسير روح البيان ٢: ٦٣. ٢. في النسخة: رائج.

٣. مجمع البيان ٢: ٧٩٢، تفسير الرازي ٨: ١٣٤، تفسير روح البيان ٢: ٦٣. ٤. تفسير الرازي ٨: ١٣٤.

٥. في تفسير الرازي: كان يحبه وجعله. ٦. تفسير الرازي ٨: ١٣٤.

٧. مجمع البيان ٣: ٧٩٢. ٨. تفسير الصافي ١: ٣٢٨.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَآءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٩٣]

ثم عطف الله سبحانه كلامه المجيد إلى ما كان من محااجة اليهود والنصارى. وكان من تشبهاتهم واعتراضاتهم على دين الإسلام [أولاً]: وقوع الشئخ فيه، مع كونه محالاً على الله في أحكامه؛ لرجوعه إلى البداء المستلزم لجَهْلِهِ تعالى بمصالح الأشياء ومفاسدها.

وثانياً: أن محمداً يدعي أن دينه دين إبراهيم، والحال أنه مغاير له، حيث إن النبي ﷺ أحل في دين الإسلام لحوم الإبل وألبانها، مع حرمتها في دين إبراهيم، فمن تحليلها يلزم الشئخ والمغايرة. فرد الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ وكافة المطعومات من المأكولات والمشروبات ﴿كَانَ﴾ في دين إبراهيم ﴿حَلَالًا﴾ ومباحاً لجميع الناس، و﴿لِبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ إلى مدة بعد بعثة موسى بن عمران عليه السلام.

تُفِيدُ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾^١ الآية، وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِثُغْيِهِمْ﴾^٢ أنكر اليهود، وغلظهم ذلك ورأوا ساحتهم من الظلم، وجحدوا بما نطق به القرآن، وقالوا: لَسْنَا بِأَوَّلَ مَنْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَطْعُمَاتِ، وما هو إلا تخريم قديم، كانت مُحَرَّمَةً عَلَى نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ بَعْدَهُ، وَهَلُمَّ جَزَاءً حَتَّى انْتَهَى التَّحْرِيمُ إِلَيْنَا.

وَعَرَّضَهُمْ تَكْذِيبَ شَهَادَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْبُغْيِ وَالظُّلْمِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَكَلَ الرِّبَا، وَمَا عَدَدَ مِنْ مَسَاوِينِهِمُ الَّتِي كَلَّمَا ارْتَكَبُوا مِنْهَا كَبِيرَةً، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ نَوْعًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ عَقُوبَةً لَهُمْ^٣.

فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَرَدَّهُمْ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا يَطْعَمُهُ الْإِنْسَانُ كَانَ حَلَالًا فِي الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ عَلَى دِينِ مُوسَى ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾ يَعْقُوبُ، وَلَقَبَهُ ﴿إِسْرَآءِيلَ﴾ مِنْ لَحْمِ الْإِبِلِ وَلَبَنُهَا، بِسَبَبِ الذُّرِّ ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾.

رُوي مِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ أَنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام نَذَرَ إِنْ وَهَبَ اللَّهُ لَهُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا، وَأَتَى بَيْتَ الْمَقْدَسِ صَحِيحًا، أَنْ يَذْبَحَ أَحَدَهُمْ، فَتَلَقَّاهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا يَعْقُوبُ، إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، فَهَلْ لَكَ فِي الصَّرَاعِ؟ فَعَالَجَهُ فَلَمْ يَصْرَعْ وَاحِدًا مِنْهُمَا صَاحِبِهِ، فَعَمَزَهُ الْمَلَكُ، فَعَرَّضَ لَهُ عِرْقَ النِّسَاءِ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ الْمَلَكُ: أَمَا إِنِّي لَوْ شِئْتُ أَنْ أَصْرَعَكَ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ عَمَزْتُكَ هَذِهِ الْعَمْزَةَ؛ لِأَنَّكَ كُنْتَ نَذَرْتَ إِنْ أَتَيْتَ بَيْتَ الْمَقْدَسِ صَحِيحًا ذَبَحْتَ آخَرَ وَلَدِكَ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَكَ بِهَذِهِ الْعَمْزَةِ مَخْرَجًا مِنْ ذَلِكَ الذَّبْحِ.

ثُمَّ أَنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام لَمَّا قَدِمَ بَيْتَ الْمَقْدَسِ، أَرَادَ ذَبْحَ وَلَدِهِ وَنَسِيَ قَوْلَ الْمَلَكِ، فَاتَاهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: إِنَّمَا

غمرتكَ للمخرج، وقد وفي نَذْرُكَ، فلا سبيل لك إلى ذَنْبٍ وَلَدَكَ.

ثمَّ أَنَّهُ حِينَ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ الْمَرْضَ لَقِيَ مِنْ ذَلِكَ بَلَاءٌ شَدِيداً، وَكَانَ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ مِنَ الْوَجَعِ، فَحَلَفَ لَنْ يَشْفَاهُ اللَّهُ، لَا يَأْكُلُ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، فَحَرَّمَ لَحْمَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، إِمَّا حِمْيَةً لِلدِّينِ، أَوْ حِمْيَةً لِلنَّفْسِ^١. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ يَعْقُوبَ مَرَضَ مَرَضاً شَدِيداً، فَذَرَّ لَيْنَ عَافَاهُ اللَّهُ لِيُخْرِجَ مَنْ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمَانِ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهُ»^٢.

وَيُقَالُ أَنَّ فِي التَّوْرَةِ: أَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا خَرَجَ مِنْ حِرَّانَ إِلَى كَنْعَانَ، بَعَثَ بَرِيداً إِلَى عَيْصَ أَخِيهِ، إِلَى أَرْضِ سَاعِيرٍ، فَأَنْصَرَفَ الرُّسُولُ إِلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ عَيْصَ هُوَ ذَا يَتْلَقَاكَ وَمَعَهُ أَرْبَعُمِائَةِ رَجُلٍ، فَذِعِرَ يَعْقُوبُ وَخَزِنَ جَدّاً، فَصَلَّى وَدَعَا، وَقَدَّمَ هَدَايَا لِأَخِيهِ، [وَذَكَرَ الْقِصَّةَ] إِلَى أَنْ ذَكَرَ الْمَلِكَ الَّذِي لَقِيَهُ فِي صُورَةَ رَجُلٍ، فَدَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ وَوَضَعَ إصْبِعَهُ عَلَى مَوْضِعِ عِرْقِ النِّسَاءِ، فَخَدَرَتْ تِلْكَ الْعَصَبَةُ وَجَفَّتْ. فَمِنْ أَجْلِ هَذَا لَا يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْغُرُوقَ^٣.

وَقِيلَ: إِنَّ فِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ: أَنَّ الَّذِي حَرَّمَ يَعْقُوبَ عَلَى نَفْسِهِ زَوَائِدَ الْكَبْدِ وَالشَّخْمِ إِلَّا مَا عَلَى الظُّهْرِ^٤. وَعَنْ (الْكَافِي): عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَنَّ إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَكَلَ لَحْمَ الْإِبِلِ هَيَّجَ عَلَيْهِ وَجَعَ الْخَاصِرَةَ، فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لَحْمَ الْإِبِلِ. وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ»^٥.

وَعَنْ الْقَمِيِّ عليه السلام: أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ يُصِيبُهُ عِرْقُ النَّسَاءِ، فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لَحْمَ الْجَمَلِ الْخَبِرِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ كَانَ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ﴾ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿التَّوْرَةَ﴾ وَقَبْلَ بَعْثَةِ مُوسَى وَتَشْرِيعِ دِينِهِ.

وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ حَلَالاً عَلَى غَيْرِ يَعْقُوبَ مَا دَامَ بَقَاءُ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَفِي بُرْهَةِ بَعْدَ بَعْثِ مُوسَى، ثُمَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَحَلَّتْ لَهُمْ، مِنْهَا: لَحْمُ الْإِبِلِ، وَشَخْمُ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا. فَإِنْ ادَّعَتْ الْيَهُودُ حُرْمَةَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي دِينِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، فَقَدْ ادَّعَوْا خِلَافَ مَا فِي التَّوْرَةِ، الَّتِي هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِصِحَّتِهَا وَصِدْقِ مَا فِيهَا، وَإِنْ اسْتَدَّوْا [فِي] دَعْوَاهُمْ إِلَى التَّوْرَةِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَاتَّوُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ وَأَحْضِرُوا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿فَاتْلُوهَا﴾ وَاقْرَأُوهَا بِمَخْضَرٍ مِنَّا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي دَعْوَاكُمْ قَدِمْةَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِأَنَّ حُرْمَتَهَا حَدَّثَتْ فِي دِينِ مُوسَى عَقُوبَةً عَلَى

١. تفسير روح البيان ٢: ٦٤.

٢. تفسير الرازي ٨: ١٣٩.

٣. الكافي ٥: ٩/٣٠٦، تفسير الصافي ١: ٣٢٩.

٤. تفسير الرازي ٨: ١٣٨.

٥. تفسير الرازي ٨: ١٣٩.

٦. تفسير القمي ١: ١٠٧، تفسير الصافي ١: ٣٢٩.

ظلم بني إسرائيل.

رُوي أَنَّهُمْ لَمْ يَجْشُرُوا عَلَى إِحْضَارِ التَّوْرَةِ، فَهَتُوا وَاقْتَلَبُوا صَاغِرِينَ^١.

فثبت جوازُ الشُّنْحِ، ومُوافقة دين الإسلام لدين إبراهيم، واتَّضح كَذِبُ الْيَهُودِ، وَأَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى التَّوْرَةِ مَا لَيْسَ فِيهَا، وَظَهَرَ صِدْقُ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْإِخْبَارَ مِنْهُ ﷺ، مَعَ كَوْنِهِ أَمِيَّةً، كَانَ إِخْبَاراً بِالْغَيْبِ.

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٩٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِزْمِهِمْ وَتَبْكِيهِمْ، هَدَّاهُمْ يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى﴾ وَاخْتَلَقَ ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يَقُولُهُ حُرْمَةُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْ قَبْلِهِ، وَمِنْ بَعْدِهِ، وَنَسَبَتْهُ إِلَى إِخْبَارِ اللَّهِ بِهِ فِي التَّوْرَةِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التَّبْكِيَتِ وَالْإِزْمِ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الْمُجْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ، الْمُفْتَرُونَ عَلَيْهِ، ﴿هُمْ﴾ بِالْخُصُوصِ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالضَّلَالِ، وَتَعْرِيزِهَا لِلْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، وَتَفْضِيحِهَا لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ بِالْإِضْلَالِ، وَتَقْرِيْبِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَتَبْعِيدِهِمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٩٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَاتِ مُوَافَقَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ لِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ بِتَصْدِيقِ اللَّهِ فِي إِخْبَارِهِ، بِمُوَافَقَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ لِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَقُولُ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فِي إِخْبَارِهِ بِحَلِيَّةِ لُحُومِ الْإِبِلِ وَالْبُتَّانِ، فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَمُوَافَقَتِهِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَكَذِبَتِمْ أَهْلُ الْيَهُودِ فِي دَعْوَى حُرْمَتِهَا فِيهِ، وَمُخَالَفَتِهِ دِينَ الْإِسْلَامِ لَهُ، إِذَنْ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بِاتِّبَاعِ دِينِ الْإِسْلَامِ، الْمُوَافِقِ لَهَا أَصُولاً مُطْلَقاً، وَفُرُوعاً كَذَلِكَ أَوْ بِحَسَبِ الْغَالِبِ، وَانْصَرَفُوا عَنِ الْيَهُودِيَّةِ الْمُخَالَفَةِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّ فِي دِينِ الْيَهُودِيَّةِ كَثِيراً مِنَ الْأَبَاطِيلِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ ﴿حَنِيفًا﴾ وَمَائِلاً عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ، وَمُعْرِضاً عَنْ كُلِّ زَانِغٍ؛ وَلَأنَّ فِي دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ إِبْرَاهِيمَ مُحْسَباً ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بَلْ كَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُؤَحِّدِينَ. فَثَبَّتَ أَنَّهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْأَيْمَةِ مَن

أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [٩٦ و ٩٧]

ثم استشهد سبحانه على مغايرة دين اليهود لِمَلَّة إبراهيم بإعراض اليهود عن تعظيم الكعبة، الذي هو من أعظم شعائره عليه السلام، بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ فِي الْعَالَمِ﴾ «وَضِعَ» من جانب الله، وجعل مَعْبَدًا لِلنَّاسِ وقَبْلَةً لِكافة الخلق، والله^١ «لَلَّذِي» هو كائِنْ بِبَكَّةَ والبَلَد الحَرَام، واسمه المَعْرُوف مكة.

عن الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا سُمِّيَتْ مَكَّةُ بِكَّةَ، لِأَنَّهُ يَبْكُ بِهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْمَرْءُ تُصَلِّي بَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَ[عَنْ] شِمَالِكَ^٣ وَمَعَكَ، وَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ، إِنَّمَا يُكْرَهُ فِي سَائِرِ الْبُلْدَانِ»^٤.
وقيل: لِأَنَّهَا بَيْتُكَ أَعْنَاقُ الْجَبَابِرَةِ، يَعْنِي تَذَقُّهَا^٥.

وقيل: إِنَّ بَكَّةَ هِيَ عَيْنُ الْكَعْبَةِ^٦.

وعن الصادق عليه السلام، في رواية، «الْبَيْتُ بِكَّةَ، وَالْقَرِيَّةُ مَكَّةَ»^٧.

وفي (الْعِلَلُ): عَنْهُ عليه السلام: «إِنَّمَا سُمِّيَتْ مَكَّةُ بِكَّةَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُونَ^٨ فِيهَا»^٩ يَعْنِي يَزْدَجِمُونَ.

وفي رواية أخرى: «لِبُكَاءِ النَّاسِ حَوْلَهَا»^{١٠}.

وعن الباقر عليه السلام قال: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ أَمَرَ الرِّيحَ فَضَرِبَتْ مَتْنًا^{١١} الْمَاءَ حَتَّى صَارَ مَوْجًا، ثُمَّ أَزِيدَ فَصَارَ زَبَدًا وَاحِدًا، فَجَمَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ، ثُمَّ جَعَلَهُ جَبَلًا مِنْ زَبَدٍ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾»^{١٢}.

وزاد في (الْفَقِيه): «فَأَوَّلُ بَقْعَةٍ خُلِقَتْ مِنَ الْأَرْضِ الْكَعْبَةُ، ثُمَّ مَدَّتْ الْأَرْضُ مِنْهَا»^{١٣}.

وفي (الكافي): عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «كَانَ مَوْضِعُ الْكَعْبَةِ رَتْوَةً مِنَ الْأَرْضِ بَيْضَاءَ، تُضِيءُ كَصَوْنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، حَتَّى قَتَلَ ابْنُ آدَمَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ فَاشْوَدَّتْ، فَلَمَّا نَزَلَ آدَمُ عليه السلام رَفَعَ اللَّهُ لَهُ الْأَرْضَ كُلَّهَا حَتَّى رَأَاهَا، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ كُلُّهَا لَكَ، قَالَ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْأَرْضُ الْبَيْضَاءُ الْمُتَبَيِّرَةُ قَالَ: هِيَ حَرَمِي^{١٤} فِي أَرْضِي، وَقَدْ جَعَلْتُ عَلَيْكَ أَنْ تَطُوفَ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِمِائَةَ طَوَافٍ»^{١٥}.

١. للشمس على أن البيت كائن في مكة، لكن في روح البيان ٢: ٦٦ «لِلَّذِي بِبَكَّةَ» خبر لأن.

٢. أي يزدحم الرجال والنساء فيها لكثرتهم. ٣. زاد في النسخة: وعن يسارك.

٤. علل الشرائع: ٤/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠. ٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٠.

٦. جوامع الجامع: ٦٤. ٧. علل الشرائع: ٣/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠. ٨. في المصدر: يَتَبَاوَنَ.

٩. علل الشرائع: ١/٣٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٠. ١٠. علل الشرائع: ٢/٣٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٠.

١١. في الكافي: فُضِرْنَ وجه. ١٢. الكافي ٤: ٧/١٨٩، تفسير الصافي ١: ٣٣٠.

١٣. من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٧٠/١٥٦. ١٤. (حرمي) ليس في المصدر.

١٥. الكافي ٤: ٤/١٨٩.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ^١ لَأَدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَانَتْ^٢ دُرَّةً بَيضاءَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ وَبَقِيَ أَنَسُهُ، وَهُوَ بِجِيَالِ هَذَا الْبَيْتِ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ أَبَداً، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِنِيَانِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَوَاعِدِ^٣».

في بدو بناء الكعبة وَرُوي أَنَّ اللَّهَ وَضَعَ تَحْتَ الْعَرْشِ بَيْتاً؛ وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَطُوفُوا
في أن ولاية آل به، ثُمَّ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ سُكَّانُ الْأَرْضِ أَنْ يَبْنُوا عَلَى الْأَرْضِ بَيْتاً عَلَى مِثَالِهِ
الرسول داخله في فَبَنَوْا، وَأَمَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ بِالْبَيْتِ
الاسلام الحقيقي المراد للآيمان
المعمور^٤.

وَرُوي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَوْهُ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ بِالْفِي عامٍ، فَلَمَّا أَهْبَطَ آدَمُ إِلَى الْأَرْضِ قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ:
طُفْ حَوْلَ هَذَا الْبَيْتِ، فَلَقَدْ طَفْنَا حَوْلَهُ قَبْلَكَ بِالْفِي عامٍ، فَطَافَ بِهِ آدَمُ وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَى زَمَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ الطُّوفَانَ حُمِلَ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ بِجِيَالِ الْكَعْبَةِ يَطُوفُ بِهِ مَلَائِكَةُ
السَّمَاوَاتِ^٥.

وعن ابن عباس عليه السلام: أَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ بَنَاهُ آدَمُ فِي الْأَرْضِ. وَعَلَى هَذَا فَيَنْسَبُ بِنَاءُ الْكَعْبَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ؛
لِرَفْعِهِ قَوَاعِدَهَا، وَإِحْيَاءِ مَا دَرَسَ مِنْهَا، حَيْثُ إِنَّ مَوْضِعَ الْكَعْبَةِ أُندَرَسَ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وَبَقِيَ مُخْتَفِئاً إِلَى
أَنْ بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِئِيلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَذَكَهُ عَلَى مَكَانِ الْبَيْتِ، وَأَمَرَهُ بِعِمَارَتِهِ^٦.

قِيلَ: لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ بِالْبِنَاءِ هُوَ اللَّهُ، وَالْمُبَلِّغُ وَالْمُهَنْدِسُ هُوَ جِبْرِئِيلُ، وَالْبَانِي هُوَ الْخَلِيلُ، وَالتَّلْمِيزُ
الْمُعِينُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بِنَاءٌ أَشْرَفَ مِنْهُ^٧.

وَرُوي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ شِئِلٌ عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ، فَقَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، ثُمَّ بَيْتُ
الْمُقَدَّسِ» وَشِئِلَ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ فَقَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»^٨.

وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا تَحَوَّلَتِ الْقَبِيلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ، طَعَنَ الْيَهُودُ فِي ثُبُوءِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا: إِنَّ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ
أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَأَحَقُّ بِالِاسْتِيقَالِ؛ لِأَنَّهُ وَضِعَ قَبْلَ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ أَرْضُ الْمَحْشَرِ، وَمَهَاجِرُ الْأَنْبِيَاءِ
وَيَقِيلَتُهُمْ، وَالْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وَفِيهَا الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ،
فَنَحُولُ الْقَبِيلَةَ مِنْهُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَاطِلٌ. فَتَزَلَّتْ رِذْأُ عَلَيْهِمْ «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ» الْآيَةُ^٩.

ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ الْبَيْتَ بِكَوْنِهِ «مُبَارَكاً» كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالنِّعَمِ لِمَنْ حَجَّهَ وَاعْتَمَرَهُ وَاعْتَكَفَ فِيهِ وَطَافَ

٢. في المصدر: وكان البيت.

١. في المصدر: أنزل الحجر.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٦٧.

٣. الكافي ٤: ٢/١٨٨.

٦. نفس المصدر.

٨. وأيضاً.

٩. تفسير روح البيان ٢: ٦٦.

حوله، لتحصيلهم بهذه الأعمال تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ، والثَّوَابِ العظيم، ونَقِي الفَقْرَ، وَسَعَةَ الرِّزْقِ ﴿و﴾ كُؤْنَه ﴿هُدًى﴾ وَرَشَادًا إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ لِأَنَّهُ قِيلَتْهُمْ وَمَعْبَدُهُمْ.

وفيه آيات عجيبة دالة على عظيم قُدْرَتِهِ، وَسَعَةِ حِكْمَتِهِ، كما نَبَّه عليه بقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ لِّبَيِّنَاتٍ﴾ وَشَوَاهِدٍ واضِحَاتٍ على عَظَمَةِ قُدْرَتِهِ، كَانْحِرَافِ الطُّيُورِ عَنْ مُوَازَاتِهِ مَدًى الأعْصَارِ، ومُخَالَطَةِ ضَوَارِي السَّبَاعِ الطُّيُورِ^١ فِي الْحَرَمِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لَهَا لِحَرَمَتِهِ، وَقَهْرِ اللَّهِ لِكُلِّ جَبَّارٍ قَصَدَهُ بِسُوءٍ، كاصْحَابِ الْفِيلِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَدِيدَةِ هُوَ ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ لَكُؤْنِهِ بِمَثَلِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ، لظُهُور شَأْنِهِ وَقُوَّةِ دَلَالَتِهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَثَبُوتِ إِبْرَاهِيمَ، وَعَظَمَةِ شَأْنِهِ وَشَأْنِ الْبَيْتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ فَضَائِلِهِ وَفَضَائِلِ الْبَيْتِ كُؤْنَهُ أَمْنًا، يَقُولُهُ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ أَمِنًا﴾ مِنْ التَّعَرُّضِ لَهُ بِحُرْمَتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلِدَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا أَمِنًا﴾^٢ قِيلَ: إِنَّ مَنْ سَكَنَ مَكَّةَ أَمِنَ مِنَ النَّهْبِ وَالْفَارَةِ.

وقد مرَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ذِكْرُ رَوَايَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ كُؤْنَهُ أَمْنًا مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ^٣.

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ، بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمِنًا»^٤.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْحَجُّونَ^٥ وَالْبَقِيعَ يُؤْخَذُ بِأَطْرَافِهِمَا وَيُنْشَرَانِ فِي الْجَنَّةِ»^٦.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ثَنِيَّةِ^٧ الْحَجُّونِ، وَلَيْسَ بِهَا يَوْمِيذٌ مَشْبُورَةٌ فَقَالَ: «يُبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْبَقْعَةِ وَمِنْ هَذَا الْحَرَمِ سَبْعِينَ أَلْفًا وَجُوهَهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، يَشْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا»^٨ الْخَبَرِ.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، تَبَاعَدَتْ عَنْهُ جَهَنَّمُ مَسِيرَةَ مَائَتِي عَامٍ»^٩.

وَلَا يَذْهَبُ عَلَيْكَ أَنَّ الْأَمَانَ مِنَ الْعَذَابِ مُخْتَصٌّ بِالْعَصَاةِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، لَدَلَالَةِ الْأَدَلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، وَقِيَامِ الصَّرُورَةِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ، وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ مِنْ مُنْكَرِي الْوِلَايَةِ وَظَالِمِي آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَالِدِينَ فِيهِ، وَلَوْ كَانُوا مَدْقُونِينَ فِي مَكَّةَ أَوْ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي (الْعِلَالِ): عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي حَنِيفَةَ: «أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ أَمِنًا﴾ أَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَرْضِ؟» قَالَ: الْكَعْبَةُ قَالَ: «أَفْتَعْلَمُ أَنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ يَوْسَفَ حِينَ وَضَعَ الْمُنْجَنِيْقَ عَلَى

٢. البقرة: ١٢٦/٢.

٥. الْحَجُّونَ: جَبَلٌ بِمَكَّةَ.

٧. الثَّنِيَّةُ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ.

٩. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٨: ١٥١.

١. فِي النُّسخَةِ: الصَّبُورُ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ٦٧.

٣. رَاجِعُ تَفْسِيرِ الْآيَةِ. ٤. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ٦٨.

٦. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ٦٨.

٨. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ٦٨.

ابن الزبير في الكعبة فقتله، كان آمناً فيها؟» فسكت.

فشئل ﷺ عن الجواب، فقال: «مَنْ بَايَعَ قَائِمَنَا، وَدَخَلَ مَعَهُ فِيهِ، وَمَسَحَ عَلَى يَدِهِ، وَدَخَلَ فِي عَقْدَةِ^١ أصحابه كان آمناً»^٢.

أقول: الظاهر أن المراد من الرواية بيان البطن والتأويل.

ثم أنه تعالى بعد بيان فضائل البيت، أمر الناس بحجّه، بقوله: ﴿وَقِهِ﴾ ثابت ﴿عَلَى﴾ عَهْدِهِ كَافَّةً الْمُكَلَّفِينَ مِنْ ﴿النَّاسِ﴾ رجالهم ونسائهم ومؤمنهم وكفارهم ﴿حِجَّ﴾ ذلك ﴿الْبَيْتِ﴾ وقصد زيارته، للتشك المخصوصة.

قيل: حج، بالكسر: لغة أهل نجد^٣.

رؤي عن الصادق ﷺ: «يعني به الحج والعمره؛ لأنهما مفرضان»^٤.

ثم خصّ شبحانه تكليف عموم العباد بالحجّ بخصوص ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ﴾ منهم استبطاعة عرفية ﴿إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وأطاق إلى البيت ذهاباً. ولاشبهة أنها بوجودان الزاد، والراحلة، وصحة البدن، وتخليّة السرب^٥. وأما الاختصار في رواية أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ - على ذكر الزاد والراحلة؛ فلوضوح اعتبار القوة البدنية، وعدم الخوف على النفس والمال، من حكم العقل، وأدلة نفي الحرج عن العياشي: عن الصادق ﷺ أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «الصحة في بدنه، والقُدرة في ماله»^٦. وعنه ﷺ، في رواية أخرى: «مَنْ كَانَ صَاحِحاً فِي بَدَنِهِ، مُخَلِّى سَرِبِهِ، لَهُ زَادٌ وَرَاحِلَةٌ، فَهُوَ يَمُنُّ بِسُطُوعِ الْحَجِّ»^٧.

وفي رواية ثالثة، بعد السؤال عن الآية، فقال: «ما يقول الناس؟» فقيل: الزاد والراحلة. فقال: «قد سئل أبو جعفر ﷺ عن هذا فقال: هلك الناس إذاً، لئن كان مَنْ كَانَ لَهُ زَادٌ وَرَاحِلَةٌ قَدَّرَ مَا يَقُوتُ عِيَالَهُ، وَيَسْتَعْنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ، يَنْطَلِقَ إِلَيْهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ إِيَّاهُ [وَيَحِجُّ] لَقَدْ هَلَكُوا [إِذَا]».

فقيل له: فما السبيل؟ قال: فقال: «السعة في المال، إذا كان يحجّ ببغض، ويبقى بعضاً يقوت به عياله، أليس قد فرض الله الزكاة فلم يجعلها إلا على مَنْ يملك مائتي درهم»^٨.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٥٢.

١. في المصدر: عقد. ٢. علل الشرائع: ٩٠ و ٩١/٥.

٤. الكافي ٤: ١/٢٦٤.

٥. السرب: الطريق، يقال: خلّ له سربه، أي طريقه، وفلان مخلى السرب: أي موسّع عليه غير مضيق عليه.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢. ٧. تفسير العياشي ١: ٣٣٢/٧٥٦.

٨. تفسير العياشي ١: ٣٣١/١١١. ٩. تفسير العياشي ١: ٣٣١/٧٥٢.

أقول: بل الأظهر اعتبار عَوْدِهِ إلى الكفاية، فَمَنْ كان له مال يَكْفِيهِ لِلذَّهَابِ وَالْإِيَابِ، وَلِثَوْنَةِ عِيَالِهِ فِي سَفَرِهِ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعَ لَا يُمْكِنُهُ الْإِعَاشَةُ إِلَّا بِالْعُسْرِ وَالذَّلَّةِ، لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَجُّ، لَعَدَمِ صِدْقِ (الْمُسْتَطِيعِ) عَلَيْهِ عُرْفًا، وَلِنَقْيِ الْعُسْرِ وَالْحَرْحِ شَرْعًا، وَلِمَنَافَاتِهِ لِسَمَاحَةِ الدِّينِ وَشَهْوَلَتِهِ.

وما عن العياشي: عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: «أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا يَحُجُّ» قَالَ: قُلْتُ: مَنْ عَرَّضَ عَلَيْهِ مَا يَحُجُّ بِهِ فَاسْتَحْيَى مِنْ ذَلِكَ، أَهْوَى مِمَّنْ يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا؟ قَالَ: «نَعَمْ، مَا شَأْنُهُ يَسْتَحْيَا! وَلَوْ يَحُجُّ عَلَى حِمَارٍ أَجْدَعُ أَثَرًا، فَإِنْ كَانَ يُطِيقُ أَنْ يَمْشِيَ بَعْضًا وَيَرْكَبَ بَعْضًا فَلْيَحُجَّ»^١.

وفي رواية: «يُخْرَجُ وَيَمْشِي إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ». قيل: لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ؟ قَالَ: «يَمْشِي وَيَرْكَبُ». قيل: لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: «يَخْدُمُ الْقَوْمَ، وَيُخْرَجُ مَعَهُمْ»^٢ فَمَحْمُولٌ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ عَلَى الْأَظْهَرِ.

في ذكر وجوه دلالة الآية على تأكد وجوب الحج ثم بالغ سبحانه في تأكيد الوجوب بالتهديد الشديد على تركه، بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وترك ذلك الواجب المهم، مع القدرة عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه و﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

وعن جميع ما في السماوات والأرضين، فلا يحتاج إلى حجكم وعباداتكم.

وفي التعبير عن ترك الحج بـ(مَنْ كَفَرَ) تنبيه على أنهما - في حُبث الذات، وشناعة العمل، وشدة العقوبة - واحد. وفي ذكر العناء عنه إشعارًا بغاية الإعراض عنه، ونهاية السخط عليه.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قَالَ: «يَعْنِي: مَنْ تَرَكَ»^٣، وفي رواية: قَالَ: «هُوَ كَفَرَ النَّعْمَ»^٤.

وعن ابن عباس عليه السلام: قَالَ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أَي جَحَدَ فَرَضَ الْحَجِّ، أَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ.

وعن سعيد بن المسيب: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، قَالُوا: الْحَجُّ لَيْسَ بِوَاجِبٍ^٥.

وفي (الفقيه): فِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا عَلِيُّ، تَارَكَ الْحَجَّ وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ كَافِرٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يَا عَلِيُّ، مَنْ سَوَّفَ الْحَجَّ حَتَّى يَمُوتَ بَعَثَهُ اللَّهُ^٦ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»^٧.

وعنه عليه السلام: قَالَ: «مَنْ لَمْ تَحْبِسْهُ حَاجَةً ظَاهِرَةً، أَوْ مَرَضَ حَاسِسٍ، أَوْ سُلْطَانًا جَائِزًا، وَلَمْ يَحُجَّ، فَلَيَّمَتْ^٨ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»^٩.

وعن (الكافي) و(التهذيب): عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ حِجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ

١. الكافي ١/٢٦٦: ١ عن الباقر، تفسير الصافي ١/٣٣٤.

٢. التهذيب ٥: ١٨/٥٢، تفسير الصافي ١/٣٣٥.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.

٤. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٢٤/٢٦٦، تفسير الصافي ١/٣٣٤.

٥. زاد في تفسير روح البيان: إن شاء.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٦٨.

٧. تفسير الصافي ١: ٣٣٤.

٨. تفسير العياشي ١/٧٥٤، تفسير الصافي ١/٣٣٥.

٩. زاد في المصدر: يوم القيامة.

ذلك حاجة تُجِيف، أو مَرَض لا يُطِيق فيه الْحَجَّ، أو سُلْطَان يَمْنَعُه، فليثت يَهُودِيًّا أو نَصْرَانِيًّا^١.
رُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ صَدْرُ الْآيَةِ، جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَابَ الْمِلَلِ^٢، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا» فَأَمَّنَتْ بِهِ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ، وَكَفَّرَتْ بِهِ خَمْسُ مِلَلٍ، فَنَزَلَتْ [الْآيَةُ]^٣.

قيل: لَقَدْ حَارَزَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ قُنُونِ الْأَغْيَارَاتِ الْمُعْرِبَةِ عَنْ كِمَالِ الْأَغْنَاءِ بِأَمْرِ الْحَجِّ، وَالتَّشْدِيدِ عَلَى تَارِكِهِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، حَيْثُ أَوْثَرَتْ صِبْغَةَ الْخَبَرِ الدَّالَّةَ عَلَى التَّحَقُّقِ، وَأَبْرَزَتْ فِي صُورَةِ الْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ الدَّالَّةَ عَلَى الثَّبَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ، عَلَى وَجْهِ يُغَيِّدُ أَنَّهُ حَقٌّ وَاجِبٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذِمَّةِ النَّاسِ، لَا انْفِكَائِكَ لَهُمْ عَنْ أَدَائِهِ وَالْخُرُوجِ عَنْ عَهْدِهِ.

وَسَلَّكَ بِهِمْ أَوَّلًا مَسَلَّكَ التَّعْمِيمِ، ثُمَّ التَّخْصِصِ وَالِإِبْهَامِ ثَانِيًّا، ثُمَّ التَّيْسِينَ وَالِإِجْمَالَ ثَالِثًا، ثُمَّ التَّفْصِيلَ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَزِيدٍ تَحْقِيقِيٍّ وَتَقْرِيرِيٍّ، وَعَبَّرَ عَنْ تَرْكِهِ بِالْكَفْرِ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُ اسْتِغْنَاءَ تَعَالَى الْمُؤْذِنِ بِشِدَّةِ الْمَقْتِ وَعَظِيمِ السَّخَطِ، لَا مِنْ تَارِكِهِ فَقَطْ - فَإِنَّهُ قَدْ ضَرَبَ عَنْهُ صَفْحًا، إِسْقَاطًا لَهُ عَنْ دَرَجَةِ الْأَغْيَارِ، وَاسْتِغْنَاءًا بِذِكْرِهِ - بَلْ مِنْ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ مِمَّنْ فَعَلَ وَتَرَكَ، لِيَدُلَّ عَلَى نِهَايَةِ شِدَّةِ الْقَضَبِ^٤.

رُوي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «حُجُّوا قَبْلَ أَنْ لَا تَحُجُّوا، فَإِنَّهُ قَدْ هَدِمَ الْبَيْتَ مَرَّتَيْنِ، وَيُرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ فِي الثَّالِثَةِ». وَرُوي عَنْهُ ﷺ، قَالَ: «حُجُّوا قَبْلَ أَنْ يَمْنَعَ الْبِرَّ جَانِبَهُ»^٥.
وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حُجُّوا هَذَا الْبَيْتَ قَبْلَ أَنْ يَنْبُثَ فِي الْبَادِيَةِ شَجَرَةٌ لَا تَأْكُلُ مِنْهَا دَابَّةٌ إِلَّا نَفَقَتْ^٦.
وَرُوي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَوْ تَرَكَ النَّاسُ الْحَجَّ عَامًا وَاحِدًا مَا نُوطِرُوا»^٧.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ [٩٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا أَزَالَ التُّشْبُهَاتِ، وَنَبَّهَ عَلَى مَا فِي الْبَيْتِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَجَعَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ جَمِيعًا، أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يُلْوَهم عَلَى ذَلِكَ بِلِسَانٍ لَيْتِنَ، يَقُولُ: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» وَخُفَاطَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ «لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» وَحُجَّجَهُ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَشَرَافَةِ بَيْتِهِ؟ وَلَآيِ سَبَبٍ وَدَاعٍ تَجِدُونَهَا بَعْدَ عِرْفَانِكُمْ بِهَا، وَعِلْمِكُمْ بِصِحَّتِهَا، وَوُضُوحِ صِدْقِ مُحَمَّدٍ، وَشَرَفِ الْكَعْبَةِ

١. الكافي ٤: ٢٦٨/١، و: ٢٦٩/٥، التهذيب ٥: ٩١/١٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٤.

٢. في تفسير أبي السعود: أهل الأديان كلهم. ٣. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢. ٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢. ٧. جوامع الجامع: ٦٤.

بدلالاتها؟ ﴿وَاللَّهُ﴾ العَظِيمُ الغَالِبُ الشَّدِيدُ الْعِقَابِ ﴿شَهِيدٌ﴾ وَمُطَّلَعٌ ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْقَبَائِحِ، وما يَصْدُرُ مِنْكُمْ مِنْ جُحُودِ آيَاتِهِ، وَمُعَارَضَةِ رُسُولِهِ، فَيُجَازِيكُمْ أَسْوَأَ الْجَزَاءِ، وَيُعَذِّبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ الْعَذَابِ. فَاطَّلَاعُهُ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَالْخَوْفُ مِنْ عِقَابِهِ عَلَى عِبَادِكُمْ مِنْ أَقْوَى الزَّوَاجِرِ وَأَتَمِّ الرُّوَادِعِ عَمَّا تَأْتُونَهُ وَتَرْكِبُونَهُ.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٩٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ نَبِيِّهِ بِتَوْبِيخِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، أَمْرُهُ بِتَوْبِيخِهِمْ عَلَى إِضْلَالِهِمْ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِهِ، يَقُولُ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وَيَا ثَلَاثَةَ الصُّحُفِ وَالزُّبُرِ الْمُنَزَّلَةِ وَغَيْرِهَا، حُزْنَا عَنْ اللَّوْمِ عَلَى ضَلَالَتِكُمْ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ وَتَصْرِفُونَ ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَدِينِهِ الْحَقَّ الْمَوْصِلَ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ؟ وَتُضِلُّونَ عَنْهُ بِإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ وَالْجَبَلِ وَالتَّنْشِيلَاتِ ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بِالرُّسُولِ وَدِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ تَطْلُبُوا لِتِلْكَ السَّبِيلِ وَ﴿تَبْغُونَهَا﴾ مَعَ كَمَالِ اسْتِقَامَتِهَا، وَكَوْنِهَا أَقْوَمَ السَّبِيلِ ﴿عِوَجًا﴾ وَانْحِرَافًا عَنِ الْقَصْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَتُوْهِمُونَ أَنَّ فِي تِلْكَ السَّبِيلِ مِثْلًا عَنِ الْحَقِّ، وَتَسْعَوْنَ فِي صَرْفِ النَّاسِ عَنْهَا؟ بِسَبَبِ تَغْيِيرِ صِفَاتِ النَّبِيِّ وَعِلَانِيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَإِلْقَاءِ شُبُهَةِ امْتِنَاعِ نَسَخِ دِينَ مُوسَى أَوْ عِيسَى فِي قُلُوبِ الْعَوَامِّ، وَتَقْرِيبِ أَفْضَلِيَّةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ مِنَ الْكَعْبَةِ فِي الْأَذْهَانِ. ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: وَالحَالُ أَنَّ النَّاسَ يَسْتَشْهَدُونَكُمْ فِي الْقَضَايَا وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ، فَسَانِكُمُ الصَّدَقُ وَتَأْدِيَةُ الْحَقِّ، لَا تَضْيِيعُهُ.

وقيل: إنَّ المعنى: أَنْتُمْ شَاهِدُونَ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ سَبِيلُ الْحَقِّ لَا تَحُومُ حَوْلَهَا شَائِئَةُ الْإِعْوَاجِ، وَأَنَّ الصَّدَّ عَنْهَا إِضْلَالٌ عَنِ نَهْجِ الْحَقِّ وَالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَيُّ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى أَنَّ فِي التَّوَارِ: أَنَّ دِينَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ هُوَ الْإِسْلَامُ. فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَلِيقُ بِهِ الْإِصْرَارُ عَلَى الْكُفْرِ، وَالسُّغْيِ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ.

ثُمَّ أَخَذَ سُبْحَانَهُ فِي تَهْدِيدِهِمْ يَقُولُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ إِضْلَالِ النَّاسِ، وَإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَكِيمَانِ الشَّهَادَةِ بِصِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ.

قِيلَ: لَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ بِطَرِيقِ الْعَلَانِيَةِ، حُتِمَتْ الْآيَةُ السَّابِقَةُ بِشَهَادَتِهِ تَعَالَى عَلَى مَا يَعْمَلُونَ، وَلَمَّا كَانَ صَدُّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ بِطَرِيقِ الْخُفْيَةِ، حُتِمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَا يَقْطَعُ وَسَائِلَ حِيلِهِمْ، مِنْ عِلْمِهِ

واطلاعهم بجميع أعمالهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ
وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٠٠ و ١٠١]

ثم لما بين سبحانه أن أهل الكتاب يصدّون المؤمنين عن سبيل الله، ويحتالون في صرْفهم عن الحق، وردّهم إلى الأعقاب صرّف الخطاب إلى المؤمنين تكريماً لهم، ونهاهم عن اتباعهم لطفاً بهم، بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ وَبِدِينِ الْإِسْلَامِ» «إِنْ تَطِيعُوا» وتَّبِعُوا «فَرِيقًا» وطائفة كافرة «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» ذون فريق المؤمنين بمحمد ﷺ كعبده بن سلام وأضرابه «يُرُدُّوكُمْ» بجيئهم وتلبّساتهم «بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» بمحمد ودينه ومع ثباتكم عليه، إلى أعقابكم، وأخلاق جاهليّتكم، حال كونهم «كَافِرِينَ» بمحمد ﷺ مُرتدين عن دين الإسلام.

ثم أنكر سبحانه عليهم الكُفْرَ، واشتَبَع منهم الازتداد تشبهاً لهم على الذين، بقوله: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ» وأي سبب يبعثكم في الازتداد، وأي داع يدعوكم إليه «وَأَنْتُمْ» في حالٍ وشأنٍ مقتضٍ للثبات على الإيمان، وهو أنه «تُتْلَىٰ» وتقرأ «عَلَيْكُمْ» حيناً بعد حين، وساعةً بعد ساعة «آيَاتُ اللَّهِ» القرآنية المشتملة على إعجاز البيان والحكم والعُلوم، والمواعظ البالغة من ربكم، وهي نور لقلوبكم، وشفاء لما في صدوركم، وضياء لأبصاركم، وهُدًى ورحمة لكم، «وَمَنْ» مع ذلك يكون «فِيكُمْ» ومعكم «رَسُولُهُ» الذي يقرّر لكم كلّ حجة، ويزيل عنكم كلّ شبهة بعبارة وافية، ويزجركم عن كلّ سوء بمواعظ شافية.

ومن الواضح أن هاتين التّعمتين من أعظم موجبات الثّبات، وأقوى على الإيمان، وأقوى الزّواجر عن الكُفْر والازتداد.

ثم حثهم إلى الإلتجاء إلى رسولهم عند توارّد الشُّبهات، بقوله: «وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ» بالالتجاء إلى رسولهم في موارد الفتن، والاشتماسك بذيله عند تلاطم أمواج البلايا والشُّبهات، وفي مزال الأقدام عند مُنازلة أعداء الدّين وجهاد النّفس والشرّاطين «فَقَدْ هُدِيَ» بتوفيق الله، وأرشيد بدلالته «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وطريق قويم موصول إلى كلّ خيرٍ مُؤدٍّ إلى رِضوان الله والتّعم الدّائمة.

رُوي أن نفراً من الأوس والخزرج كانوا جُلوساً يتحدّثون، فمرّ بهم شاس بن قيس

في وقوع التنازع بين الأوس والخزرج في زمان النبي ﷺ وبيان قوة تأثير القرآن في النفوس

اليهودي وكان شديد الحسد للمسلمين، فغاضه ما رأى منهم من تألف القلوب، واتحاد الكلمة، واجتماع الرأي، بعد ما كان فيهم^١ من العداوة والشنآن، فأمر شاباً يهودياً كان معه بأن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بُعث^٢ - وكان ذلك يوماً عظيماً أقتتل فيه الحَيَّان، و[كان] الظُّفر فيه للأوس - ويُشدهم ما قيل فيه من الأشعار ففعل، فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تَواثبوا وقالوا: السَّلاح السَّلاح، فاجتمع من القبيلتين خَلَق كثير.

فعند ذلك جاءهم النبي ﷺ وأصحابه فقال: «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟!»، فَعَلِمُوا أَنَّهُا نَزَعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَتَبَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَأَلْقُوا السَّلاح واستَغْفَرُوا، وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.^٣

وقال الواحدي: اضطفوا للقتال، فنزلت الآيات إلى قوله: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»^٤ فجاء النبي ﷺ حتى وقف بين الصَّئِينَ فقرأَهُنَّ ورفع صوته، فلما سَمِعُوا صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انصتوا له، وجعلوا يستمعون له، فلما فرغ أَلْقُوا السَّلاح، وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون.^٥ فما كان أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم!

أقول: انظروا إلى قُوَّة تأثير القرآن في النفوس، كيف انقلبوا باستماعه من أسوأ الأحوال إلى أحسنها! وحاصل معنى الآيتين: أنه إن لَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِلْيَهُودِ وَقَبِلُوا قَوْلَهُمْ، أَدَّى ذَلِكَ حَالاً بَعْدَ حَالٍ إِلَى أَنْ يَعودوا كُفَّاراً، والكُفْر مُوجِبٌ لِلْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أما في الدُّنْيَا فيُوقِعُ العداوة والبغضاء، وهيجان الفتن، وتَوَارَانَ المُحَارِبَةِ الْمُؤَدِّيَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ، وتَلَفِ النَّفُوسِ. وأما في الآخرة فيعذاب الأبد، ومع أنه يكفي وجود هذه المَفسَدِ العظيمة فيه، المُوجِبَةِ لَعَذَابٍ مُنْعَمٍ تَوَجَّهَ الْعَاقِلُ إِلَيْهِ، تكون الصَّوَارِفُ وَالزَّوْاجِرُ الخارجية عنه مَوْجُودَةً لَكُمْ، فعند ذلك لا يَتَوَقَّعُ صُدُورُهُ مِنْكُمْ، بَلْ لَا يَعْقِلُ اخْتِيَارُهُ مِنَ الْعَاقِلِ الْمُخْتَارِ إِلَّا لِلْجَهْلِ، وَاتِّبَاعُ هَوَى النَّفْسِ، وَتَأْثِيرِ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ، وَلَا عَاصِمٍ مِنْهُ إِلَّا الْإِغْتِصَامُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، فَمَنْ اغْتَصَمَ بِهِمَا حَصَلَ لَهُ الْإِهْتِدَاءُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَالْفَوْزُ بِجَمِيعِ النِّعَمِ، وَانْسَدَّ عَلَيْهِ بَابُ الضَّلَالِ، وَالْوُقُوعُ فِي الْمَهَالِكِ.

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ

١. في تفسير أبي السعود: كان بينهم ما كان.

٢. بُعث: موضع قرب يثرب، وفيه أقتتل الأوس والخزرج في الجاهلية.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٦٤.

٤. آل عمران ٣: ١٠٣. ٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٤.

النَّارِ فَأَنْفَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [١٠٣]

ثمَّ أنه تعالى بعد أمره بالتَّوَيُّ والتَّبات على الدِّين، بيَّن طريق الاعتصام بالله وبرسوله الذي جعله وسيلة للهداية، بقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ وتَمَسَّكُوا ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، ودينه، أو كتابه المَجِيد، حال كونكم ﴿جَمِيعاً﴾ ومُتَّفِقِينَ في الاعتصام بحيث لا يَشِدَّ مِنْكُمْ أَحَدٌ.

فَسَبَّه سبحانه دين الإسلام أو القرآن بالحَبْل الوثيق المأمون من الانقطاع والانفصام، فكما أنَّ المَتَمَسِّك بذلك الحَبْل مأمونٌ من التَّردِّي من المكان المرتفع، كذلك المَتَمَسِّك بدين الإسلام أو القرآن العزيز مأمونٌ من الوقوع في الكُفْر والضلال في الدُّنيا، ومن التَّردِّي في نار جهنم في الآخرة. عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا أَنهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ» قِيلَ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ: «كَتَابُ اللَّهِ: فِيهِ نَبَأٌ مَن قَبْلَكُمْ، وَخَبَرٌ مَن بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»^١.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ (عليه السلام) مِنَ الْفِتْنَةِ فِتْنَةُ السَّقِيفَةِ، وَغَضَبُ الْخِلَافَةِ، وَمِنْ قَوْلِهِ: «فِيهِ نَبَأٌ مَن قَبْلَكُمْ»: قِصَّةُ السَّامِرِيِّ وَالْعِجْلِ.

وعن ابن مسعود: عن النبي (صلى الله عليه وآله) قَالَ: «هَذَا الْقُرْآنُ حَبْلُ اللَّهِ تَعَالَى»^٢.

وَرَوَى الْفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي»^٣.

عَنِ الْقَمِّي (عليه السلام): الْحَبْلُ: التَّوْحِيدُ وَالْوِلَايَةُ^٤.

وعن الباقر (عليه السلام): «أَلْ مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وآله) حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ الَّذِي أَمَرَ بِالْأَعْتَصَامِ بِهِ»^٥.

وعن الكاظم (عليه السلام): «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام) حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ»^٦.

وعن الصادق (عليه السلام): «نَحْنُ الْحَبْلُ»^٧.

وعن السَّجَّاد (عليه السلام) قَالَ: «الْإِمَامُ مِمَّا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعْصُوماً، وَلَيْسَتْ الْعِصْمَةُ فِي ظَاهِرِ الْخَلْقَةِ فَيُعْرِفُ بِهَا، وَلِذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعْصُوماً» فَقِيلَ لَهُ: يَابْنَ رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا مَعْنَى الْمَعْصُومِ؟ فَقَالَ: «الْمُعْتَصِمُ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَحَبْلُ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ»^٨، وَالْقُرْآنُ يَهْدِي إِلَى الْإِمَامِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

١. تفسير الرازي ٨: ١٦٢.

٢. تفسير الرازي ٨: ١٦٢.

٣. تفسير القمي ١: ١٠٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٧.

٤. تفسير الرازي ٨: ١٦٢.

٥. تفسير العياشي ١: ٧٦٢/٣٣٤، تفسير الصافي ١: ٣٣٧.

٦. تفسير العياشي ٣٣٣/٧٦١، تفسير الصافي ٣٣٨. ٧. أمالي الطوسي: ٥١٠/٢٧٢.

٨. زاد في معاني الأخبار: لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن.

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ»^١.

أقول: مآل جميع الروايات واحد.

ثم أنه تعالى بعد أمره بالاجتماع على الحق، نهى عن التفرق عنه، بقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ عن الحق كتفرق أهل الكتاب، ولا تختلفوا أنتم كما اختلفوا على مذاهب كثيرة.

روى الفخر الرازي في تفسيره: عن النبي ﷺ أنه قال: «ستفترق أمتي على ثيِّف وسبعين فرقة، الناجي منهم واحد، والباقي في النار»، فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الجماعة». وفي رواية: «السواد الأعظم». وفي أخرى: «ما أنا عليه وأصحابي»^٢.

أقول: لا ريب أن ذيل الرواية من المجعولات، لوضوح مخالفة عليٍّ والمعصومين من ذرئته مع الجماعة، وقد اتفق الفريقان على رواية قوله ﷺ: «عليٌّ مع الحق، والحق مع عليٍّ»^٣. وقوله: «إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله، وعترتي...»^٤ الخبر، وقوله: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»^٥.

وقيل: إن المراد لا تفرقوا كتفرق أهل الجاهلية، يحارب بعضهم بعضاً.

وقيل: أي لا تحدثوا ما يوجب الافتراق، ويُرْزِل الألفة التي أنتم عليها^٦.

أقول: كنّض أبي بكر للخلافة، حيث إنه أحدث بعد النبي ﷺ خلافاً وافتراقاً عظيماً بين الصحابة، ومن بعدهم إلى يوم القيامة، مع أن النبي ﷺ أوصى بالتابع عليٍّ وأهل بيته، وجعلهم أحد الثقلين، وحلاً من حبلي الله الممدودين. ومن المسلم بين الأمة أن عليّاً ﷺ أفضل عترته، وأشرف أهل بيته.

ثم لما كان الاعتصام بحبل الله من مشاق الأعمال، لتوقفه على ترك الرئاسات، ومخالفة الأهوية^٧ والشهوات، بالغ سبحانه في الترغيب إليه بتذكيرهم بنعمه، بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ثم لما كانت نعمة الأمن والائتلاف من أعظم النعم، خصها بالتذكير بقوله: ﴿إِذْ كُنْتُمْ فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْأَعْصَارِ الْمَتَمَادِيَةِ﴾ «أعداء» متباغضين، يقتل بعضهم بعضاً، ويغير

١. معاني الأخبار: ١/١٣٢، تفسير الصافي: ١: ٣٣٨، والآية من سورة الإسراء: ١٧/٩.

٢. في النسخة: ستفترق. ٣. تفسير الرازي ٨: ١٦٣.

٤. تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة عليٍّ ﷺ من تاريخ دمشق ٣: ١٥٣/١١٧٢.

٥. صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣، سنن الترمذي ٥: ٦٦٢، مسند أحمد ٣: ١٤ و ١٧ و ٤: ٣٦٧ و ٣٧١.

٦. مستدرک الحاكم ٢: ٣٤٣ و ٣: ١٥١، الخصائص الكبرى ٢: ٤٦٦، الجامع الصغير ٢: ٥٣٣.

٧. تفسير أبي السعود ٢: ٦٦.

٨. كذا، والظاهر الأهواء؛ لأن الأهوية جمع هوى، والأهواء جمع هوى، ومراد المصنف الأخير.

بعضكم على بعض «فَأَلَفَ» الله سبحانه بفضله «بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» المختلفة، حيث وفقكم للإيمان بمحمد ﷺ، وهداكم إلى دين الإسلام «فَأَصْبَحْتُمْ» وصرتم بعد التباعد «بِنِعْمَتِهِ» العظيمة، من بعثة محمد ﷺ، وديانة الإسلام، وألفة القلوب، واتحاد الكلمة «إِخْوَانًا» في الدين، متحابين في الله، متفقين على الحق، متراحين متناصحين متذللين بعضكم لبعض.

قيل: إن الأوس والخزرج كانا أخواين لأب وأم واحد، فوقعت بينهم العداوة، وتناولت الحروب مائة وعشرين سنة، إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام^١.

وعن (المجمع): عن مقاتل: افتخر رجلان من الأوس والخزرج فقال الأوسي: منا خزيمة، ومينا حنظلة، ومينا عاصم، ومينا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن له، ورضي الله بحكمه في بني قريظة، وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومينا سعد بن عباد. فجرى الحديث بينهما، فغضبا وتفاخرا وناديا، فجاء الأوس إلى الأوسي، والخزرج إلى الخزرجي، ومعهم السلاح، فبلغ [ذلك] النبي ﷺ فركب حمرا فأتاهم، فأنزل الله [هذه] الآيات، فقرأها عليهم فاضطلحوا^٢.

ثم بعد تذكيرهم النعمة العظيمة الدنيوية، ذكرهم الله تعالى أعظم نعمة الأخروية، بقوله: «وَكُنْتُمْ» في زمان تفرمكم مقيمين «عَلَى شَفَا» وطرف «حُفْرَةٍ» مملوءة «مِنَ النَّارِ» وفي شفير جهنم، حال كونكم مشرفين على الوقوع فيها بالموت «فَأَنْقَذَكُمْ» الله ونجاكم «مِنْهَا» بسبب تأخير موتكم، وتوفيقكم لقبول الإسلام.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، قال: «فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ»، هكذا والله نزل بها جبرئيل على محمد ﷺ^٣.

أقول: الظاهر أنه بيان المراد من الآية، لا أن كلمة (محمد) كانت جزءاً منها، والمراد من قوله: (نزل بها جبرئيل) أنه أنزلها بهذا التفسير، لِبطلان القول بالتحريف.

«كَذَلِكَ» البيان والتوضيح الوافي «بَيِّنُ اللَّهُ» ويوضح «لَكُمْ آيَاتِهِ» المنزلة الدالة على المعارف والأحكام «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، أو المراد لكي تثبتوا على ما أنتم عليه من الإسلام، والازدياد في كمال الإيمان وقوة اليقين.

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١٠٤ و ١٠٥]

ثم أنه تعالى - لما ذم أهل الكتاب، بكونهم ضالّين في أنفسهم مُضِلّين لغيرهم - أمر المؤمنين بالسعي في إرشاد غيرهم، والاهتمام بهداية أبناء نوعهم، بعد أمرهم بالثبات على الإيمان، والسعي في تكميل أنفسهم، والقيام بطاعة ربّهم، على خلاف أهل الكتاب، بقوله: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ وجماعة كاملة النفس، عالمة بالمعارف الإلهية والأحكام الشرعية ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ وما فيه صلاح الدّين والدّنيا، من التّدين بالإسلام، والتزام الطّاعات، والتخلّق بالأخلاق الكريمة، والنزّه من الصفات الذميمة ﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ العباد ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وما استحسّنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ الجّهال ﴿عَنِ﴾ ارتكاب ﴿الْمُنْكَرِ﴾ وما استنبّحه الشرع والعقل. وفي تخصّيصهما بالذّكر إيذانٌ بغاية فضلها.

ثم وعدهم بأفضل الثّواب بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الجماعة القائمة بالدّعوة إلى الله بأصنافها ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون إلى كلّ مطلوب.

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
عن النبي ﷺ: «مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ [كَانَ] خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ، وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وعنه عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَعْرِفْ بَقَلْبِهِ مَعْرُوفًا، وَلَمْ يَنْكُرْ مُنْكَرًا، تُكْسُ وَجْهُهُ أَعْلَاهُ أَسْفَلُهُ»^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ خَذَلَهُمَا خَذَلَهُ اللَّهُ»^٤.

أقول: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: (خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ) أَنَّهُمَا حُكْمَانِ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ، أَوْ أَنَّهُمَا مَوْجُودَانِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْجَوْهَرِيَّةِ فِي عَالَمِ الصُّورِ، يَظْهَرَانِ فِي الْقِيَامَةِ بِصُورَتِهِمَا الْمِثَالِيَّةِ، كَمَا تَظْهَرُ الصَّلَاةُ وَالصُّومُ بِصُورَةٍ، وَالْقُرْآنُ بِصُورَةٍ.

وعن (التّهذيب): عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ [وَالْتَقَوَى]، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ تَزَعَّتْ مِنْهُمْ الْبَرَكَاتُ، وَسَلَّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى

١. كذا، والظاهر: والفائزون بكلّ.

٢. تفسير الرازي ٨: ١٦٨.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٦٨.

٤. الكافي ٥: ١١/٥٩، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

بعض، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ^١.

وعن الباقر عليه السلام، في رواية: «أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمِنْهَاجُ الصَّادِقِينَ، وَفَرِيضَةُ عَظِيمَةٍ بِهَا تَقَامُ الْفَرَائِضُ، وَتَأْتَنُ الْمَذَاهِبُ، وَتَجَلُّ الْمَكَاسِبُ، وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ، وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ، وَيُتَصَفَّى مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَيَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ، فَأَنْكُرُوا بِقُلُوبِكُمْ، وَالْفِعْلُ بِاللِّسَانِ، وَصُكُّوا بِهَا جِبَاهَهُمْ، وَلَا تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، فَإِنْ اتَّعَظُوا، وَإِلَى الْحَقِّ رَجَعُوا، فَلَا سَبِيلَ عَلَيْهِمْ» **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**^٢ هُنَالِكَ فَجَاهِدُوهُمْ بِأَبْدَانِكُمْ، وَابْغُضُوهُمْ بِقُلُوبِكُمْ، غَيْرِ طَالِبِينَ سُلْطَانًا، وَلَا بَاغِينَ مَالًا، وَلَا مُرِيدِينَ بِالظُّلْمِ ظَفَرًا، حَتَّى يَفْنَوْا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَيَحْمُوا عَلَى طَاعَتِهِ.

قال أبو جعفر عليه السلام: «وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعَيْبِ النَّبِيِّ: إِنِّي مُعَذِّبٌ مِنْ قَوْمِكَ مِائَةَ أَلْفٍ، أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: إِنَّهُمْ دَاهِنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَفْضَحُوا لِقَضَائِي»^٣.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْاجِبٌ عَلَى الْأُمَّةِ جَمِيعًا؟ فَقَالَ: «لَا»، فَقِيلَ: وَلِمَ؟ قَالَ: «إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْقَوِيِّ، الْمُطَاعِ، الْعَالِمِ بِالْمَعْرُوفِ مِنَ الْمُنْكَرِ، لَا عَلَى الضَّعِيفَةِ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا إِلَى أَيِّ شَيْءٍ مِنْ أَيِّ - يَعْنِي إِلَى الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ - وَالْذَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ: **﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾** - إِلَى أَنْ قَالَ -: فَهَذَا خَاصٌّ غَيْرُ عَامٍّ^٤ الْخَيْرِ.

وعنه عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ» مَا مَعْنَاهُ؟ قَالَ: «هَذَا عَلَى أَنْ يَأْمُرَهُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَقْبَلُ مِنْهُ»^٥.

وعنه عليه السلام: «إِنَّمَا يُؤَمَّرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ [مُؤْمِنٌ] فَيَتَّقِظُ، أَوْ جَاهِلٌ فَيَتَعَلَّمُ، فَأَمَّا صَاحِبُ سَيْفٍ وَسَوْطٍ فَلَا»^٦.

وفي (نهج البلاغة) قال عليه السلام: «وَأَتَتْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أَمْرُهُمُ بِالنَّهْيِ بَعْدَ النَّهْيِ»^٧.

وقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَيْنِ [لَهُ، النَّاهِيَيْنِ] عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ»^٨.

١. التهذيب ٦: ٣٧٣/١٨١، تفسير الصافي ١: ٣٣٩. ٢. الشورى: ٤٢/٤٢.

٣. الكافي ٥: ١٠٥٥، التهذيب ٦: ٣٧٢/١٨١، تفسير الصافي ١: ٣٤٠.

٤. الكافي ٥: ١٦٠/٥٩، التهذيب ٦: ٩١/١٧٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٨.

٥. الكافي ٥: ١٦٠/٦٠، التهذيب ٦: ٣٦٠/١٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

٦. الكافي ٥: ٢/٦٠، التهذيب ٦: ٣٦٢/١٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

٧. نهج البلاغة: ١٠٥/١٥٢، تفسير الصافي ١: ٣٣٩. ٨. نهج البلاغة: ١٢٩/١٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

وعن الْمُحْسِنِ: عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية، قال: «فهذه لآل محمد صلى الله عليهم ومن تابعهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر»^١.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في خُبث النفس، وَحُبِّ الدُّنْيَا، وَاتِّبَاعِ الشُّهُوتِ ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالقلوب، وَتَبَايَنُوا بِالْأَخْلَاقِ، وَتَشْتَبَهُوا بِالْأَهْوَاءِ ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في العقائد كاليهود والنصارى؛ حيث صاروا فِرَقًا كَثِيرَةً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ من قِبَلِ اللَّهِ الْآيَاتِ ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والدلائل الواضحات على الْحَقِّ، مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ وَأَحْوَالِ الْمَعَادِ، مَعَ أَنَّ كَثْرَةَ الدَّلَائِلِ عَلَى شَيْءٍ وَوُضُوحَهَا مُوجِبَةٌ لِلاتِّفَاقِ عَلَيْهِ ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الْمُتَفَرِّقُونَ بِالْقُلُوبِ، الْمُخْتَلِفُونَ فِي الْعَقَائِدِ الْفَاسِدةِ مُعَدُّوا ﴿لَهُمْ﴾ عَذَابٌ عَظِيمٌ عَقوبة على تفرقهم واختلافهم.

في نقل كلام بعض العامة نسي عدم تحقق الاتفاق إلا بالإمام
وقال بعض العامة: لما أمر الله هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وذلك لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغلبين، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين - فلا جرم حذرهم الله عن التفرق والاختلاف، لكيلا يصير [ذلك] سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف.

فعلى المؤمنين أن يتزكوا مقتضى طابعهم من اتباع الهوى، ويتفقوا على كلمة واحدة باتباع إمام داعٍ إلى الله على بصيرة، كالرسل وأصحابه، يجمعهم على طريقة واحدة، فإن لم يكن مقتدئ وإمام تتجدد عقائدهم وسيبرههم وآراؤهم بمتابعته، وتفق كلمتهم وعاداتهم وآهواؤهم لمحبه وطاعته، كانوا متفرقين، فرأيس للشيطان، كشريدة الغنم تكون للذئب.

ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا بد للناس من إمام بار أو فاجر، ولم يرسل رسول الله صلى الله عليه وآله رجلين فصاعداً لساناً إلا وأمر أحدهما على الآخر، وأمر الآخر بمتابعته وطاعته، ليتجدد الأمر ويستقيم، وإلا وقع الهرج والمرج، واضطرب أمر الدين والدنيا، واختل [نظام] المعاش والمعاد»^٢.

قال عليه السلام: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَيْءٍ لَمْ يَرْجُحْهُ الْجَنَّةُ»^٣. وقال عليه السلام: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفِدَاءِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَمْعِيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ إِذَا لَمْ تَنْضَبِطْ بِرَأْسَةِ الْقَلْبِ وَطَاعَةِ الْعَقْلِ كَيْفَ اخْتَلَتْ نِظَامُهَا، وَأَلَتْ إِلَى الْفَسَادِ وَالتَّفَرُّقِ

٢. تفسير روح البيان ٢: ٧٥.

٤. الفداء الفرد المتفرد.

١. تفسير القمي ١: ١٠٩، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

٣. بحبوحه الشيء: وسطه وخياره.

الموجب لخسارة الدنيا والآخرة^١.

أقول: إذا كان وجود الإمام مرتبطاً بالظلم الأتم - كما أن وجود القلب والعقل مرتبطاً بنظام الجمعية الإنسانية - كان واجباً على الله نصبه، والدلالة عليه، وإيجاب طاعته، وإلزام خلاف الحكمة واللطف، ولا يمكن تفويض تعيينه ونصبه إلى الخلق؛ لأنه موجب للاختلاف والفرقة، ونقض الغرض، كما وقع ذلك في السقيفة وفي الصحابة بعد النبي ﷺ.

وأما نهيه ﷺ عن مفارقة الجماعة فلا شبهة في أن مقصوده الجماعة التي تكون على الحق، لا كل جماعة، لوضوح أن إبراهيم فارق جماعة أهل العالم، ولم يكن ملوماً مدعوماً، وبعد دالة الأدلة القاطعة على نصب الله علياً ﷺ للخلافة تعين أن الجماعة الذين أمرنا بالتأبّعهم، وبالدخول فيهم، هم: سلمان، وأبو ذر، ومقداد، وعمار، وأضرابهم لا الجماعة الذين بايعوا أبا بكر، ونقضوا البيعة.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أَشْرَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيمَانِكُمْ فَدْوِقُوا أَلْعَدَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ

فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [١٠٦ و ١٠٧]

ثم بالغ سبحانه في الوعد على الاجتماع، والوعيد على التفرق والاختلاف، بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة بنور الإيمان وضياء الملكات الجميلة ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة بظلمة الكفر، وكثرة الأخلاق السيئة.

وَنَصَب (يوم) إما لكونه ظرفاً لمُتَعَلِّق الجار، أو لكونه مفعولاً لـ (اذكروا) المقدّر.

قيل: يؤسم أهل الحق بياض الوجه، والصحيفة، وسعي النور بين أيديهم وأيمانهم. وأهل الباطل بأضداد ذلك.

وقيل: إن بياض الوجه كناية عن الفرح والسرور بالقوز بالمطلوب، وسواده كناية عن الخيبة منه ووصول المكروه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾^٢

ثم بعد بيان سيماء الفريقين من الحسن والقبح بين سبحانه معاملته معهما بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَشْرَدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ يقال لهم توبيخاً وتثريماً: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ بالرسول ﷺ وبدين الإسلام ﴿بَعْدَ

إِيمَانِكُمْ﴾ وتضديكم عن صميم القلب، واعترافكم لساناً وجناناً بهما؟!

عن أبي بن كعب: أي في عالم الدّر^٣.

وقيل: يعني قَبْلَ بِعْتَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أو بعدَ إيمان أسلافكم به^١.

وعلى الوجهين الأخيرين يكون العتاب خاصاً بأهل الكتابين.

وقيل: أريد خصوص بني قُرَيْظَةَ والنضير.

وقيل: عموم أهل البدع من هذه الأمة^٢، أو المرتدّين في زمان النبي ﷺ وبعده.

عن التعليلي في تفسيره: عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ليردَّن عليَّ الحَوْضَ مِنَّ صَجْبِي أَقْوَامَ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَهُمْ اخْتَلَجُوا دُونِي، فَلَأَقُولَنَّ: أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ^٣ ارْتَدَّوْا عَلَى أَعْقَابِهِمْ»^٤.

وفي روايات كثيرة: ارتدَّ النَّاسُ بعدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا خَمْسَةً^٥.

وعلى أي تقدير يُقال لهم: اذْنُ ﴿فَذُوقُوا﴾ واطْعَمُوا ﴿العَذَابَ﴾ في هذا اليوم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

قيل: إنَّ الفُصحاء مُتَّفِقُونَ على أنَّ مِنَ الْمُحْسَنَاتِ البديعية أن يكون مَطْلَعُ الكلام ومُطْعَمُهُ مائِثَرَبِهِ الْقُلُوبُ^٦؛ ولذا بدأ في الآية ببيض الوجوه وختَمَها بِذِكْرِ حالهم، بقوله: ﴿وَأَنَا الَّذِي أَبْيَضْتُ وَجُوهَهُمْ﴾ بئور الإيمان والطاعة ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ مِنْ جَنَّتِهِ وَرِيعَمِهِ مُسْتَقَرُونَ، و﴿هُمْ﴾ خَاصَّةٌ فِيهَا خَالِدُونَ دائمون، لا يخرجون منها، ولا يموتون.

قيل: في الآية إشعارات بغلبة جانب الرحمة؛ حيثُ ابتدأ فيها بِذِكْرِ أهل الرحمة وختَمَها بهم، وعبر عن تعذيب الكفار بالذوق، وعن إثابة المؤمنين بالاستقرار في الرحمة، وعَلَّلَ العذاب بالكُفْر المُستند إلى أنفسهم، والثواب بالرحمة المُضافة إلى ذاته المُقدَّسة، وَلَمْ يُصِرَّحْ بِخُلُودِ الكفار في العذاب، مع كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيهِ، وَصِرَّحْ بِخُلُودِ أهل الرحمة فيها.

عن القمِّي رحمه الله، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرَدُّ عَلَيَّ أَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى خَمْسِ رَايَاتٍ؛ فَرَايَةٌ مَعَ عِجَلِ هذه الأمة، فَاسْأَلُهُمْ: مَا فَعَلْتُمْ بِالتَّقْلِينَ [مَنْ] بَعْدِي؟ فيقولون: أَمَا الْكَبِيرُ فَحَرَفْنَاهُ^٧ وَنَبَذْنَاهُ وَرَاءَ ظُهُورِنَا، وَأَمَّا الْأَصْغَرُ فَعَادَيْنَاهُ

١. مجمع البيان ٢: ٨٠٨.

٢. مجمع البيان ٢: ٨٠٩، تفسير الرازي ٨: ١٧٣.

٣. في المصدر: بعد إيمانهم.

٤. مجمع البيان ٢: ٨٠٩.

٥. راجع: رجال الكشي: ١٧/٨ و ٢٤/١١ وفيه: ارتدَّ الناس إِلَّا ثلاثة.

٦. تفسير الرازي ٨: ١٧٢.

٧. الظاهر أنه ليس المراد بالتحريف هنا الزيادة والنقصان، للاجماع على سلامة القرآن الكريم من التحريف بهذا المعنى، بل لعل المراد بالتحريف هنا التأويل الباطل الذي يخرج بالنص القرآني عن معناه الصحيح الموافق لمراده تعالى، ويؤيد ذلك حديث الإمام الباقر عليه السلام في مراسلته لسعد الخير والتي جاء فيها: «وكان من نبذهم الكتاب أن

وأبغضناه وظلمناه، فأقول: ردُّوا النارَ ظِماءَ مُظْمِئِينَ مُسَوِّدَةً وَجْوهَكم.

ثم تَرِدُ عَلَيَّ رَايَةً مَعَ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فأقول لهم: ما فعلتم بالتَّغْلِيَيْنِ مِن بَعْدِي؟ فيقولون: أَمَا الْأَكْبَرُ فَحَرَّقْنَاهُ وَمَرْقَنَاهُ وَخَالَفْنَاهُ، وَأَمَا الْأَصْغَرُ فَعَادَيْنَاهُ وَقَاتَلْنَاهُ، فأقول: ردُّوا النارَ ظِماءَ مُظْمِئِينَ مُسَوِّدَةً وَجْوهَكم.

ثم تَرِدُ عَلَيَّ رَايَةً مَعَ سَامِرِيِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فأقول [لهم]: ما فعلتم بالتَّغْلِيَيْنِ مِن بَعْدِي؟ فيقولون: أَمَا الْأَكْبَرُ فَعَصَيْنَاهُ وَتَرَكْنَاهُ، وَأَمَا الْأَصْغَرُ فَخَذَلْنَاهُ وَضَيَعْنَاهُ، فأقول: ردُّوا النارَ ظِماءَ مُظْمِئِينَ مُسَوِّدَةً وَجْوهَكم.

ثم تَرِدُ عَلَيَّ رَايَةً ذِي الثَّدْيَةِ مَعَ أَوَّلِ الْخَوَارِجِ وَآخِرِهِمْ، فأقول: ما فعلتم بالتَّغْلِيَيْنِ مِن بَعْدِي؟ فيقولون: أَمَا الْأَكْبَرُ فَمَرْقَنَاهُ وَبَرِّثْنَا مِنْهُ، وَأَمَا الْأَصْغَرُ فَقَاتَلْنَاهُ وَقَتَلْنَاهُ، فأقول: ردُّوا النارَ ظِماءَ مُظْمِئِينَ مُسَوِّدَةً وَجْوهَكم.

ثم تَرِدُ عَلَيَّ رَايَةً إِمَامَ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدَ الْوَصِيِّينَ، وَقَائِدَ الْعُرَى الْمُحْجَلِينَ، وَوَصِيَّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فأقول لهم: ما فعلتم بالتَّغْلِيَيْنِ مِن بَعْدِي؟ فيقولون: أَمَا الْأَكْبَرُ فَاتَّبَعْنَاهُ وَأَطَعْنَاهُ، وَأَمَا الْأَصْغَرُ فَاحْبَبْنَاهُ وَوَالَيْنَاهُ وَنَصَرْنَاهُ، حَتَّى أَهْرَيْقَتْ فِيهِ دِمَاؤُنَا، فأقول: ردُّوا الْجَنَّةَ رِوَاءَ مَرْوِيِّينَ، مَبِيضَةً وَجْوهَكم، ثم تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى قوله «وَالْحَالِدُونَ»^١.

وفي هذه الرواية شهادة على أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ الزَّائِغَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام. أَوِ الْمُرَادُ عُمُومُ الْمُتَرَدِّينَ وَأَهْلَ الْبِدْعِ مِنْهُمْ.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ [١٠٨ و ١٠٩]

ثم أشار سبحانه إلى دلالة هذه الآيات على صِدْقِ النُّبُوَّةِ، بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآياتُ المُبَشِّرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِيَاضِ الْوَجْهِ فِي الْآخِرَةِ وَالنَّعْمِ الْأَبَدِيَّةِ وَالْمُنْذِرَةُ لِلْكَافِرِينَ بِسَوَادِ الْوَجْهِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ، الْعَالِي شَأْنُهَا مِنْ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا بِالْوَحْيِ ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ ودلائله القاطعة، التي أنزلها لإثبات كَوْنِكَ بِشِيرًا وَنَذِيرًا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ، حَيْثُ إِنَّهَا - لَعَلَّوْا مُعَانِيَهَا وَإِعْجَازَ عِبَارَاتِهَا - تُشَادِي بِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْبَشَرِ، بَلْ ﴿تَتْلُوهَا﴾ وَنَقَرُوهَا ﴿عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِوَسَاطَةِ جِبْرِئِيلَ، حَالِ كَوْنِهَا مُلْتَبَسَةً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَالْعَدْلِ،

→ أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يبرعونه - إلى أن قال عليه السلام -: وكان من نبذهم الكتاب أن لوله الذين لا يعلمون فأوردوهم الهوى، وأصدروهم إلى الردى، وغيروا عرى الدين» الحديث. الكافي ٨: ١٦/٥٣.
١. تفسير القمي ١: ١٠٩.

ليس فيها شائبة الجَور من انتقاص الثواب عن حَدِّ الاستحقاق، وزيادة العقاب عليه ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ الحكيم الغنيُّ الشَّزَّاء من كُلِّ نَقِصٍ وَعَيْبٍ ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ بَوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَلَوْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فإذا لَمْ يُمْكِنْ تَحَقُّقُ إِرَادَتِهِ مِنْهُ تَعَالَى لَكُنْهُ مِنْ أَقْبَحِ الْقَبَاحِ، فكيف يُمكن صُدُورُهُ مِنْهُ تَعَالَى؟ لَوْضُوحُ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَرْتَكِبُ الْقَبِيحَ إِلَّا لِلْجَهْلِ، أو شِدَّةِ الضَّرُورَةِ والحاجة.

﴿وَلَهُ﴾ وَحْدَهُ بِالْمُلْكِيَةِ الْحَقِيقَةِ الْإِسْرَاقِيَّةِ ﴿مَا﴾ وَجِدَ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السَّنْعَ كُلِّهَا ﴿وَمَا﴾ يكون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كَافَّةً مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْحَصَرِ ﴿وَالِىَ اللَّهِ﴾ وَإِلَى حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ خَاصَّةً ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ مِنَ الْإِبْجَادِ وَالْإِعْدَامِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّزْيِينِ، وَالْإِثَابَةِ وَالْعُقُوبَةِ، لَا يَشْرِكُهُ فِيهَا شَيْءٌ، وَلَا يُزَاجِمُهُ فِيهَا شَيْءٌ، فَإِذَنْ كَانَ عِلْمُهُ بِهَا نِهَائِيَّةً، وَقُدْرَتُهُ بِهَا غَايَةً، وَغَنَاؤُهُ غَيْرَ مَحْدُودٍ، وَعَطَاؤُهُ غَيْرَ مَحْدُودٍ.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْكُفْرُوتُ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ [١١٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِثْقَاقِ عَلَى الْحَقِّ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ، وَوَعْدِ الْمُطِيعِينَ، وَوَعِيدِ الْعَاصِينَ - مَدَحَ الْمُتَّقِينَ السَّاعِينَ فِي الْإِرْشَادِ مِنْهُمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ﴾ فِي عِلْمِي، وَفِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدِي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَفْضَلَهُمْ فِي الْعَالَمِ. عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «يَعْنِي الْأُمَّةُ^١ الَّتِي وَجِبَتْ لَهَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهِيَ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا وَبَيْنَهَا وَإِلَيْهَا، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْوَسْطَى، وَهِيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»^٢. وَعَنِ الْعِيَّاشِيِّ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «فِي قِرَاءَةِ عَلِيٍّ: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)، قَالَ: هُمْ آلُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٣.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ فِيهِ وَفِي الْأَوْصِيَاءِ خَاصَّةً، فَقَالَ: (أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) هَكَذَا نَزَلَ بِهَا جَبْرِئِيلُ، وَمَا عَنِ بَإِهَا إِلَّا مُحَمَّدٌ وَأَوْصِيَائِهِ»^٥.

٢. تفسير العياشي ١: ٧٦٩/٣٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٣.

١. في تفسير العياشي: الأمة.

٤. في تفسير العياشي: كنتم.

٣. تفسير العياشي ١: ٧٦٧/٣٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٢.

٥. تفسير العياشي ١: ٧٦٨/٣٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٢.

أقول: قد مرَّ أن المراد من إنزال جبرئيل تفسيره حين إنزالها (خير أمة) بالأئمة، لا وقوع التحريف فيها، وعليه تحمّل سائر الروايات.

وعن القمي عليه السلام عنه عليه السلام أنه قرئ عليه «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» فقال [أبو عبد الله عليه السلام]: «خير أمةٍ [يقتلون] أمير المؤمنين، والحسن والحسين عليه السلام؟» فقال القارئ: جُعلت فداك، كيف نزلت؟ فقال: «نزلت [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ] ألا ترى مدح الله لهم: «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»؟»^١.

وعن (المناقب): عن الباقر عليه السلام أنه: «خير أمة^٢ بالألف، نزل بها جبرئيل، وما عنى بها إلا محمداً وعلياً والأوصياء من ولده»^٣.

قال بعض العامة: لو شاء الله تعالى لقال: (أنتم خير أمة) حتّى يشمل جميع الأئمة إلى يوم القيامة، ولكن قال: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» ليختص بالمخصوصين، وقوم معينين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله؛ وهم السابقون الأولون.

وروي من طريق عامي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عليه السلام: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة^٤.

وعن الضحاك: أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله خاصة^٥.

أقول: لا ريب أن المراد من (الأئمة) في الآية ليس جميعهم إلى يوم القيامة، ولا جميع الحاضرين في زمان الخطاب من الصحابة، للقطع بفسق كثير منهم؛ كأبي سفيان ومعاوية. ولا دليل على تعيين خصوص المهاجرين، بعد القطع بعدم إرادة المعنى الحقيقي وهو العموم، فلا بد من حملها على المتين وهو أمير المؤمنين ومن يحذو حذوه.

في بيان عدم حجة الاجماع إلا بموافقة رأي المصنوع

وقال الفخر الرازي في تفسيره: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إجماع الأئمة حجة^٦. وفيه مضافاً إلى منغ الدلالة: أن المراد إن كان اتفاق جميع الأئمة - كما هو ظاهر اللفظ - فنحن نقول به، لكن لا من حيث الاتفاق، بل لوجود الإمام المعصوم الذي هو

أفضل الأئمة فيهم. وإن كان المراد اتفاق بعضهم، فمع أنه ليس بإجماع حقيقة [فإن] إرادة خصوص أهل البيت - الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إِنَّهُمْ حَبْلُ اللَّهِ»^٧،

١. تفسير القمي ١: ١١٠، تفسير الصافي ١: ٣٤٢.

٢. في المصدر: أنتم خير أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

٣. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٣.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٧١.

٥. تفسير الرازي ٨: ١٧٨.

٦. كتاب سليم بن قيس: ١٣٤.

وأوجب حُبهم وولايتهم - أولى من إرادة غيرهم، مع أن قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ وأبرزت من كُتْمَ العدم، نفعاً ﴿لِلنَّاسِ﴾ قرينة ظاهرة على إرادة خصوص جماعة يكون وجودهم نافعاً لعامة الخلق، ولطفاً تاماً من الله تعالى بكافة الأنام إلى يوم القيامة، وليست إلا الأئمة الاثني عشر الذين نعتقد بأنهم أوصياء الرسول، وحجج الله على العباد.

وما رواه الترمذي عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾: «أنتم^١ تيمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^٢ فمحمول - على تقدير صحتها - على كَوْن هذه الأمة أكرم من حيث كرامة نبيها، وكمال دينها، وأفضلية أئمتها. فلا ينافي كَوْن كثيرٍ منهم أشقى الأمم.

ومن شواهد كَوْن (خير أمة) خصوص الهداة المهديين: تعليله تعالى خَيْرِيَّتَهُم بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فإنه يخص الوصف بالذين يكون همهم في تربية الخلق وتكميل نفوسهم.

ثم بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً عن شوب الشُّرك الجليِّ والخفيِّ والأخفى، ومن المعلوم أنه كمال لا يكون إلا للأوحدي في هذه الأمة.

قيل: إن تأخير الإيمان بالله في الذكر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما في الوجود، لكَوْن دلالتهما على خَيْرِهِم ونفعهم للناس أظهر من دلالته عليه، ولأن يقترب به قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى بوحداية الله، ورسالة رسوله، وبدين الإسلام، عن صميم القلب، كإيمانكم ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وأنفع في الدنيا والآخرة من الكفر والزناسات الباطلة والزخارف الدنيوية؛ حيث إن بالإيمان يُجمع لهم حُطُوط الدارين.

ثم لما كان لفظ (أهل الكتاب) في القضية الشرطية ظاهراً في عمومهم، نص الله سبحانه بإيمان بعضهم بقوله: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدالله بن سلام وأضرابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون عن طاعة الله، المصرون على مخالفته، الخارجون عن حدود دينه، في اعتقادهم وعند أهل ملتهم.

لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَارٌ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ [١١١]

ثم لما كان توصيف الكافرين بالكثرة مؤيماً لقوتهم وغلبتهم، بشر الله المؤمنين طمأنينة لقلوبهم بأنهم ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ﴾ أبداً بوجه من الوجوه، مع كثرتهم ﴿إِلَّا أَذًى﴾ قليلاً، وألماً يسيراً، لا عبرة به

ولا التفات إليه، كالطعن باللسان، والإساءة بالقول، والسعي في الإضرار.

﴿وَأِنْ يَقَاتِلُوكُمْ﴾ يتظاهروا على حربكم، لا يتأوموكم، بل ﴿يُؤَلُّوكُمُ الْأَذْيَانَ﴾ ويلجئهم الخوف من بأسكم إلى الفرار، من غير أن يصيبوكم بقتل، أو جرح، أو أسر ﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامهم ﴿لَا يَنْصُرُونَ﴾ من جهة أحد، ولا يتقون بمدد، ولا يتوقع لهم شوكة، ولا ينتظر لهم قوة. وفيه تثبيت لمن آمن منهم وبشارة بأنهم لا يفارقون الخذلان، ولا ينهضون بخناح، ولا ترجع إليهم سلطة ونجاح، كما كان من حال بني قريظة، والنضير، وقينقاع، ويهود خيبر.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَنْ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [١١٢]

ثم أكد خذلانهم بقوله: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ» وأحاطت بهم «الذَّلَّةُ» والمهانة، كإحاطة الفسطاط المَضْرُوب بأهله «أَيَنْ مَا تُقْفُوا» وفي أي مكان كانوا، وإلى أي حال تحولوا «إِلَّا» إذا تمسكوا «بِحَبْلِ» وثيق كإين «مِنْ اللَّهِ» واعتصموا بيده القويم، وكتابته الحكيم «وَحَبْلِ» متين «مِنْ النَّاسِ» وهو ولاية أهل بيت النبي صلوات الله عليهم وشابعتهم، لنص النبي ﷺ في خبر الثقلين، المتفق على روايته بأن كتاب الله والعترة حبلان ممدودان، من تمسك بهما لن يضل أبداً^١.

وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام قال: «الحبل من الله: كتاب الله، والحبل من الناس: علي بن أبي طالب عليه السلام»^٢.

والعجب من مفسري العامة أنهم فسروا الحبل من الناس بذمة المسلمين^٣، ولم يحتملوا إرادة العترة الطاهرة منه، مع أن ذأبهم في التفسير التمسك بأضعف الشواهد.

ثم اعلم أن في هذه الآيات دلالة ظاهرة على صدق النبي ﷺ في دعوى النبوة، لأنها أخبار صادقة بالغيبيات، لوقوع جميع ما أخبر به كما أخبر، حيث إن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا انهزموا، وما أقدموا على محاربة، ولا طلبوا رئاسة إلا خذلوا.

إن قيل: أهل الكتاب شامِل للَنَصَارَى، مع أنهم لم يزالوا في شوكة وسلطنة قاهرة إلى عصرنا هذا، فكيف طابق الخبر المُخْبَر؟

٢. تفسير العياشي ١: ٣٣٦/٧٧٠، تفسير الصافي ١: ٣٤٣.

١. مجمع البيان ٢: ٨٠٥.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٧٢، تفسير روح البيان ٢: ٧٩.

قُلْنَا: اتَّقِ الْمُفْسِرُونَ عَلَى أَنْ الرُّادِ مِنَ الْآيَاتِ خُصُوصَ الْيَهُودِ، وَيَشْهَدُ ل ذَلِكَ مَا رَوَى فِي شَأْنِ نُزُولِهَا: مِنْ أَنَّ مَالِكَ بْنَ الصَّيْفِ وَوَهْبُ بْنُ يَهُوذَا الْيَهُودِيَّيْنِ، مَرَّا بَنَتَّرَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهِمْ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبِي بَنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَسَلِيمُ مَوْلَى حَذِيفَةَ، فَقَالَا لَهُمْ: نَحْنُ أَفْضَلُ مِنْكُمْ وَدِينُنَا خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. فَنَزَلَتْ [الآيَةُ]¹.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شُبْحَانَهُ شَوْءَ حَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَآءُكُمْ﴾ وَرَجَعُوا فِي الْآخِرَةِ، أَوِ الرُّادِ تَمَكَّنُوا وَاسْتَقَرُّوا ﴿بِقَضَبٍ﴾ وَعَذَابٍ عَظِيمٍ كَائِنْ ﴿مِنْ أَفْهِمُ الْعَظِيمِ﴾. وَفِيهِ أَشَدُّ التَّهْدِيدِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ هَمُّ الْيَهُودِ فِي الرُّنَاسَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْخَطَامِ الدُّنْيَوِيِّ، زَادَ شُبْحَانَهُ فِي تَهْدِيدِهِمْ بِالْأَخْبَارِ بِجَزْمَانِهِمْ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ وَاسْتَحْتَمَلَتْ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ اسْتِحْتِمَالُ الْقُبَّةِ عَلَى مَنْ فِيهَا ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ وَالْفَقْرُ وَالْمَقْهُورِيَّةُ، فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَسَائِرِ الْجَلَلِ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ وَرِنَاسَةٌ وَتُرُوءَةٌ ظَاهِرَةٌ، حَيْثُ إِنَّهُمْ وَإِنْ كَثُرَتْ تَزَوُّتُهُمْ يُظْهِرُونَ الْفَقْرَ بَيْنَ النَّاسِ. وَقِيلَ: إِنَّ الرُّادِ بِالْمَسْكَنَةِ هِيَ الْجَزِيَّةُ².

ثُمَّ أَشَارَ شُبْحَانَهُ إِلَى عِلَّةِ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الشَّدَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ مُعَلَّلٌ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ مِنْ زَمَانِ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ النَّاطِقَةِ بِنُبُوَّتِهِ، وَيُنْكِرُونَ عِلَالِيَهُ الْمَذْكُورَةَ فِي التَّوْرَةِ، وَيُحَرِّفُونَ عِبَارَاتِهَا الْمُبَشِّرَةَ بِبَعَثِهِ، الدَّالَّةَ عَلَى أَوْصَافِهِ وَعِلَالِيَتِهِ، وَيَجْحَدُونَ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَسَائِرَ مُعْجَزَاتِهِ ﴿وَقَدْ﴾ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ﴿يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَى وَغَيْرِهِمَا، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ قَتَلَهُمْ ﴿بِقَتْلِهِمْ حَقٌّ﴾ يُوجِبُهُ أَوْ يُجُوزُهُ.

قِيلَ: إِنَّ إِسْنَادَ الْقَتْلِ إِلَى الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ لِرِضَاهُمْ بِفِعْلِ أَسْلَافِهِمْ، وَتَضَوِّيهِمْ لَهُ³. عَنْ (الْكَافِي) وَالْعِيَّاشِي: عَنْ الصَّادِقِ ع: «وَاللَّهُ مَا قَتَلُوهُم بِأَيْدِيهِمْ، وَلَا ضَرَبُوهُم بِأَسْيَافِهِمْ، وَلَكِنْهُمْ سَمِعُوا أَحَادِيثَهُمْ فَأَضَاعُوهَا، فَأَخَذُوا عَلَيْهَا فَقَتَلُوا»⁴.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الرُّادِ مِنَ الرِّوَايَةِ بَيَّانُ وَجْهِ نِسْبَةِ قَتْلِهِمْ إِلَى مُؤْمِنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَعَ وَضُوحِ عَدَمِ مُبَاشَرَتِهِمْ لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمُبَاشَرُ مِنْهُمْ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ عِلَّةَ تَلَوُّغِهِمْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الشَّقَاوَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ مُعَلَّلٌ ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ اللَّهَ وَخَالَفُوا أَوْامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَمُسَبَّبٌ عَنِ الْإِصْرَارِ عَلَى صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَكِبَائِرِهَا،

٢. تفسير الرازي ٨: ١٨٥.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٧١.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٧٩.

٤. الكافي ٢: ٢٧٥، تفسير العياشي ١: ٣٣٦/٧٧٠، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣.

﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [على] حدود الله، ويدأبون على التجاوز عنها، من غير مبالاة، ولا ازعواء.

فإن الإصرار على الصغائر مفض إلى مباشرة الكبائر، والاشتمار على الكبائر موجب لزئغ القلب وطئعه الملازم للكفر والطغيان، وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿كَذَّابٌ بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^١ وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^٢.

قال بعضُ العرفاء: مَنْ ابْتَلِيَ بِتَرْكِ الْأَدَبِ وَقَعَ فِي تَرْكِ السُّنَنِ، وَمَنْ ابْتَلِيَ بِتَرْكِ السُّنَنِ وَقَعَ فِي تَرْكِ الْفَرِيضَةِ، وَمَنْ ابْتَلِيَ بِتَرْكِ الْفَرِيضَةِ وَقَعَ فِي اسْتِحْقَارِ الشَّرِيعَةِ، وَمَنْ ابْتَلِيَ بِذَلِكَ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ^٣. وعن النبي ﷺ قال: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ الْبَأْسُ»^٤.

وعنه ﷺ في رواية: «وَمَنْ ارْتَكَبَ الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْمُحَرَّمَاتِ؛ كَالرَّاعِي حَوْلَ الْجَمِيِّ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^٥.

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [١١٣ و ١١٤]

ثم أنه تعالى - بعد ذم أكثر أهل الكتاب بسوء اعتقادهم وأخلاقهم وأعمالهم، وتهديدهم على كفرهم وطغيانهم - ذكر التباين بينهم وبين المؤمنين منهم بقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ في الانصاف بالكفر والقبائح، ولا يكونون مشاركين ولا مشابهيين فيها.

ثم شرع في مدح من آمن منهم بالرسول ﷺ، وبيان عدم المساواة بينهم بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه.

رُوي أنه لما أسلم هو وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود: لقد كفرتم وخسرتم، فأنزل الله لبيان فضلهم هذه الآية^٦.

وقيل: إنها نزلت في أربعين من نصارى نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثلاثة من الروم كانوا

١. المطففين: ٨٣/١٤. ٢. الروم: ٣٠/١٠. ٣. تفسير روح البيان ٢: ٨٠.

٤. سنن الترمذي ٤: ٢٤٥١/٦٣٤، تفسير روح البيان ٢: ٨٠. ٥. تفسير روح البيان ٢: ٨٠.

٦. تفسير الرازي ٨: ١٨٧.

على دين عيسى، وصدقوا محمداً ﷺ، وكان جَمْع من الأنصار - قَبْلَ قُدوم النبي ﷺ - مِنْهُمْ: أسعد بن زُرارة، والبراء بن معرور، ومحمد بن مسلمة، وأبو قيس صرمة بن أنس، كانوا مُحَاحِدِينَ يَغْتَسِلُونَ مِنَ الْجَنَابَةِ، ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية، حَتَّى بَعَثَ اللهُ النبي ﷺ فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ^١. وعلى أي تقدير، ذَكَرَ اللهُ شِجَاهَهُ وَجْهَ عَدَمِ الْمُسَاوَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَالْكَافِرِينَ، وَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ «أُمَّةٌ» وَجَمَاعَةٌ «قَائِمَةٌ» بِالْعَدْلِ، مُسْتَقِيمَةٌ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، لَا يَتَحَرَّفُونَ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يَمِيلُونَ إِلَى الْفَسَادِ، وَهُمْ «يَتْلُونَ» وَيَقْرَأُونَ بِخُلُوصِ النِّيَّةِ «آيَاتِ اللَّهِ» الْقُرْآنِيَةَ «آثَاءَ الْإِنْبِيَاءِ» وَسَاعَاتِهِ «وَهُمْ» فِي حَالِ تِلَاوَتِهِمْ «يَسْجُدُونَ».

قيل: إِنَّ السُّجُودَ كِنَايَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ لِعَدَمِ الْفَضِيلَةِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي السُّجُودِ، بَلْ ثُبُوتُ كِرَاهِيَتِهَا لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَلَا إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَقْرَأَ رَاكِعاً وَسَاجِداً»^٢.

وَوَجْهُ التَّعْبِيرِ عَنِ الصَّلَاةِ بِالسُّجُودِ كَوْنُهُ أَعْظَمُ أَجْزَائِهَا، وَأَشْرَفُ أَرْكَانِهَا، وَأَدَلُّ عَلَى كِمَالِ الْخُضُوعِ. وَإِنَّمَا صَرَحَ بِتِلَاوَتِهِمُ الْقُرْآنَ فِي الصَّلَاةِ، مَعَ اشْتِمَالِ كُلِّ صَلَاةٍ عَلَيْهَا، لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُنْكَرِي الْقُرْآنِ، لِتَوْضِيحِ عَدَمِ الْمُسَاوَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ - أَيْضاً - بِالْكَفْرِ بِالنَّبِيِّ وَكِيبَاهِ.

وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْوَجْهُ فِي تَقْدِيمِ هَذَا الْوَصْفِ فِي الذِّكْرِ عَلَى تَوْصِيفِهِمُ بِالْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» إيمَاناً حَقِيقِيّاً، مُطَابِقاً لِمَا نَطَقَ بِهِ الشَّرْعُ، وَرَضِيَ بِهِ اللهُ.

فَيَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ بِاللَّهِ الْإِيمَانُ بِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. وَفِي الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ تَضَدِيقٌ خِلَافَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَجُوبُ طَاعَتِهِ وَطَاعَةُ الْمَعْصُومِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَالْيَقِيَامُ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَالتَّحَرُّزُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ.

وَحَاصِلُ الْآيَتَيْنِ مِنْ قَوْلِهِ: «أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» إِلَى هُنَا، مَذْهَبُهُمْ بِكِمَالِ الْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ. ثُمَّ بَعْدَ مَذْهَبِهِمْ بِكِمَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، مَذْهَبُهُمْ بِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُقْتَصِرِينَ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ يَكُونُ هُمُومُهُمْ مُعَدُّ إِلَى إِرْشَادِ النَّاسِ وَتَكْمِيلِهِمْ، بِقَوْلِهِ: «وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» أَيُّ بِتَوْحِيدِ اللهِ، وَنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» أَيُّ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ، وَعَنْ إِنْكَارِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ^٣.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ هُوَ الْأَعْمُ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٧٣، تفسير روح البيان ٢: ٨١.

١. تفسير أبي السعود ٣: ٧٣.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٩٠.

٦٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

ثم مدحهم بصفة جامعة لثَنون المحاسن، بقوله: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ بأصنافها؛ لحرف
القَوْت بالمَوْت، ولَفَرَط الرغبة، ويبادرون إليها لغاية الشوق.

وفي ذِكْر الأوصاف تَغْرِيضٌ على الفَسَاق من أهل الكتاب، فإنهم أمة قائمة بالجور والفساد،
مُتَحَرِّفة العقائد، مانلة إلى الفساد، ساعية في إضلال الناس، متباطئة في الخيرات، مُسَارِعَة في الشرور،
كافرة بالله واليوم الآخر.

ثم مدحهم الله تعالى بأكرم الصفات، بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ النفوس المُقَدَّسة، الكريمة الصفات
مُتَّعِدُونَ ﴿مِنْ﴾ زُمرَة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ ومن جملة مَنْ حَسُنَتْ أحوالهم عند الله، واشتَحَقُوا رضاه
وثناءه.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [١١٥]

ثم بشرهم بالنَّوَابِ العظيم بقوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعَمَلٍ صالح؛ كائناً ما كان، من قليل أو
كثير ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ وَلَنْ يُعَدِّمُوا ثَوَابَهُ، وَلَمْ يُنْقِصُوا مِنْ أَجْرِهِ شيئاً.

وفي التعبير عن ترك الإثابة بالكُفْرَان الذي هُوَ مُحَال على الله، دلالة واضحة على أَنَّ الثَّوَابَ
بالاستحقاق كدلالة إطلاق الشُّكر على الإثابة.

ثم قَرَّرَ الله سبحانه وعده بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ مُطْلِع على أحوالهم وضمائرهم، فيُوفِّيهم
أجورهم في الدنيا والآخرة.

عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُكْفَّرٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعْرُوفَهُ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ فَلَا يَتَشِيرُ فِي النَّاسِ، وَالْكَافِرُ
مَشْهُورٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعْرُوفَهُ لِلنَّاسِ يَتَشِيرُ فِي النَّاسِ وَلَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ»^١.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [١١٦]

ثم - لما ذَكَرَ الله سبحانه حُسْنَ حال المؤمنين في الآخرة، وعَظَمَ ثوابهم - ذَكَرَ سُوءَ حال الكُفَّارِ
فيها، وشِدَّةَ عِقَابِهِمْ بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وَرَسُولَهُ ﴿لَنْ تُغْنِي﴾ وَلَنْ تُجْزِيَ ﴿عَنْهُمْ﴾ في
الآخرة ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ﴾ عَذَابِ ﴿اللَّهِ﴾ تعالى ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً، فلا وسيلة لهم إلى النِّجاة مِنْهُ.
وتَخْصِيصُ المال والأولاد بالذكر لَكُؤْنُهُمَا أَنْفَعُ الْأُمُورِ، وَأَوْثَقُ الْوَسَائِلِ فِي دَفْعِ الْمَكَارِهِ

﴿وَأُولَٰئِكَ الْمُتْبَاعُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، الْخَارِجُونَ عَنْ وَظَائِفِ الْإِنْسَانِيَّةِ﴾ «أَصْحَابُ النَّارِ»
وملازموها ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبداً، لا مَنَاصَ لهم ولا خَلاص.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يُريد بني قريظة والنضير؛ لأنَّ مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرُّسول ما كان إلا المال والولد^١.

وقيل: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ، فَإِنَّهُ أَنْفَقَ مَالًا كَثِيرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَدٌ فِي عداوة النَّبِيِّ ﷺ^٢.

وقيل: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ كَثِيرَ الْإِفْتِخَارِ بِمَالِهِ^٣.
وقيل: إِنَّهَا عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ جَمِيعَهُمْ كَانُوا يَتَعَزَّزُونَ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَكَانُوا يُعْبِرُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ بِالْفَقْرِ، وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْحَقِّ لَمَّا تَرَكَ رَبُّهُ فِي هَذَا الْفَقْرِ وَالشِّدَّةِ^٤.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [١١٧]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَمْوَالَ الْكُفَّارِ لَا تُفِيدُهُمْ شَيْئًا - وَهُمْ كَثِيرٌ مَا كَانُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؛ كَالصَّدَقَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَإِعَانَةِ الضُّعَفَاءِ - فَكَانَ مَجَالُ تَوَهُمِهِمْ أَنَّهُمْ يَسْتَفِيدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَزَالَ اللَّهُ ذَلِكَ التَّوَهُمُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ﴾ كُفْرِهِمْ فِي إِبْطَالِ ﴿مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قُرْبَةً، أَوْ مَفَاخِرَةً، أَوْ سَعْنَةً وَطَلَبًا لِحُسْنِ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ رِبَاءً وَخَوْفًا كِإِنْفَاقِ الْمُتَنَافِقِينَ ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وَبَرْدٍ شَدِيدٍ مُهْلِكٍ.

وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى: فِيهَا نَارٌ مُحْرِقَةٌ، لِلَّهِبِهَا صِرٌّ وَصَوْتٌ. وَكِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٥.
﴿أَصَابَتْ﴾ تِلْكَ الرِّيحُ الْمُهْلِكَةُ ﴿حَرَثَ قَوْمٍ﴾ وَزَرَعَ طَائِفَةٍ ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿فَأَهْلَكَتُهُ﴾ وَاسْتَأْصَلَتْهُ، بَحِثَتْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ ثَمَرٌ وَلَا نَفْعٌ يَوْجُو مِنْ الرِّجْوَةِ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ إِلَّا الْخَبْثَةُ وَالْحَسْرَةُ.

وقيل: إِنَّ الشَّرَادَ تَشْبِيهُ مَا أَنْفَقَ الْكُفَّارُ - فِي وُجُوهِ الْخَيْرَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، أَوْ فِي مُعَارَضَةِ الرُّسُولِ ﷺ، وَقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، كِإِنْفَاقِ أَبِي سُفْيَانَ فِي بَدْرٍ وَأَحَدٍ، وَسَائِرِ أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ الَّتِي يُرْجَى مِنْهَا النَّفْعُ وَلَوْ كَانَ ذُنُوبِيًّا - فِي الْهَلَاكِ وَالصَّبَاغِ وَالْبَطْلَانِ، بِمَا يَحْرِثُهُ الْكُفَّارُ، فَضَرَبَتْهُ صِرٌّ فَأَبَادَتْهُ بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ

٢. تفسير الرازي ٨: ١٩٣.

٤. تفسير الرازي ٨: ١٩٣.

١. تفسير الرازي ٨: ١٩٢.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٩٢.

٥. تفسير الرازي ٨: ١٩٥.

فيه منفعة. فهو من التشبيه المركب.

وإنما وصف القوم بكونهم كفاراً، لأن الإهلاك عن السخط أقطع وأظع ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاك ما أنفقوا من الأموال، وبإحباط ما عملوا من الخيرات ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث إنهم أنفقوها مع الكفر، أو عصيان الله وطغياناً عليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ
قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ [١١٨]

ثم - لما بين الله المباعدة بين المؤمنين والكفار، وتصاد قلوبهم وأخلاقهم - حذر المؤمنين من مخالطتهم وموالاتهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿بِطَانَةً﴾ وخليطاً كائناً ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ ولا تودعوا أسراركم عند الأجانب من دينكم، فإنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ ولا يقصرون لكم ﴿خَبَالًا﴾، وفساداً بمكرهم وخديعتهم، ولا يتركون جهدهم في الإضرار بكم، في ما يؤثرونكم الشرَّ ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ وتمنوا مشقتكم، وشدة ضرركم في دينكم ودنياكم.

قيل: إن معنى الجملتين: أنهم لا يقصرون ضرراً في أمر دينكم ودنياكم، فإن عجزوا فحب ذلك ثابت في قلوبهم^١.

حتى أنهم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وظهرت شدة عداوتهم في كلامهم، حيث إنهم لا يتماثلون - مع مبالغتهم في حفظ أنفسهم - أن ينقلب من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وفيه غاية المبالغة؛ حيث فرض كلامهم - من ظهور العداوة والبغض فيه - عين البغضاء، لا دالاً عليها، فخرج الكلام من أفواههم، لا مثلاً قلوبهم بالبغض، نفس خروج البغض، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ﴾ ما تخفي صدورهم، وما تستر في قلوبهم من البغض والحسد ﴿أَكْبَرُ﴾ وأكثر مما بدأ وظهر.

عن ابن عباس رضي الله عنه: كان رجالاً من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والجلف، فأنزل الله هذه الآية^٢.

وعن مجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين، فنهوا عن ذلك^٣.

وقيل: إن المسلمين كانوا يشارون اليهود في أمورهم ويؤانسونهم لما كان بينهم من الرضا

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٧٦.

١. تفسير روح البيان ٢: ٨٥.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٧٦.

والجلف^١.

والظاهر أن المراد النهي عن موالاة عموم الكفار، وإن كان مورد النزول خاصاً.

ثم لما كان الإخبار بالضمائر والأسرار إخباراً بالمعنيات، الخارج عن طوق البشر، ومُتَوَقَّفاً على الوحي، نبه الله سبحانه على كون هذا الإخبار من علائم صدق النبوة، بقوله: ﴿قَدْ يَتَنَّا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على صدق محمد في دعواه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَغْفُلُونَ﴾ وتعدون من زمرة أهل الفهم والإدراك.

هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا
آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ [١١٩]

ثم أنه تعالى بعد تنبيه المؤمنين على خطئهم في اعتقاد التصح في اليهود، بالغ في الرذع عن موالاتهم بقوله: ﴿هَآ﴾ أيها المؤمنون وتنبهوا ﴿أَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ المشتبهون فيهم، حيث إنكم ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ بتخيل أنهم يحبونكم، ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿لَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ ولا يريدون خيركم وصلاح حالكم، ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ المنزل من الله ﴿كُلُّهِ﴾ [سواء] كان هو التوراة والإنجيل، أو القرآن، وتعتقدون أن جميعها حق، وهم لتصلبهم في دينهم لا يؤمنون بكتابكم.

قيل: فيه توبيخ شديد بأنهم أصلب في باطلهم منكم في حقكم.

ثم ذكر الله تعالى من جملة الروادع عن مخالطتهم شدة نفاقهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ وواجهوكم ﴿قَالُوا﴾ بالسّتهم نفاقاً: نحن ﴿آمَنَّا﴾ بنبيناكم وكتابكم كإيمانكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وتفرّدوا منكم أظهرنا شدة العداوة والغَيْظِ عليكم، حتى تبلغ الشدة إلى أن ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ﴾ واشتمسكو شديداً بالأسنان ﴿الْأَنَامِلَ﴾ وزؤوس الأصابع ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿الْغَيْظِ﴾ وشدة الغضب تأشفاً وتحسراً، حيث لم يجدوا إلى التّشفي سبيلاً، كما هو فعل من اشتد غضبه، وعظم تحسره على جرماته من مطلوبه.

قيل: إنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين، واجتماع كلمتهم، وصلاح ذات بينهم^٢.

ثم أمر الله نبيه بتثريعهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الحاسدين الغافلين: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ واهلكوا بسبب شدة عداوتكم وحسدكم.

قيل: إنه كناية عن أنه لا وسيلة للخلاص من هذا العَظْ إِلَّا المَوْت، فَمَنْ رَامَ التَّخْلُصَ مِنْهُ فَلْيَتَمَنَّ المَوْت وقيل: إنه دُعاء عليهم بالموت قبل تلوغ ما يتمنونه^١.
ثم أمره ﷺ بتهديدهم، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعٍ مَا تَخْفُونَهُ وتكتُمونه في قلوبكم من نيات السُّوء، والحِقْد والحَسَد على المؤمنين، ويُجازيكم بأشدَّ العذاب. وقيل: إنه جملة مُستأنفة.

إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَضُرُّوْا وَتَنْفُقُوا
لَا يُضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [١٢٠]

ثم بين الله تعالى شِدَّةَ حَسَدِهِم، وتناهي عداوتهم للمؤمنين، بقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ﴾ وتصل إليكم ﴿حَسَنَةً﴾ وخير من ربكم من قُوَّة دينكم، وضَعْف أعدائكم، وظُهُوركم عليهم، والغَنِيمة منهم، والألفة والمحابة بينكم، وخُصْب معيشتكم، وسَعَة رِزْقكم ﴿تَسْؤُهُمْ﴾ وتُحزِنهم ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ﴾ وتُرِدَّ عليكم ﴿سَيِّئَةً﴾ وبليَّة من مريض أو فقير أو جرح أو قتل ﴿يَفْرَحُوا﴾ ويسرُّوا ﴿بِهَا﴾ ويشتموكم منها.

ثم لما كانت هذه المَرَبَّة مِنَ العداوة والحَسَد مَوْجِباً لِلخَوْفِ مِنْهُمْ، أَمَّنَ الله سبحانه المؤمنين بقوله: ﴿وَإِنْ تَضُرُّوْا﴾ على عداوتهم، وامْتِنَالِ أَحكام دينكم ﴿وَتَنْفُقُوا﴾ ربكم في مُحالفة تكاليفه ﴿لَا يُضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومَكْرهم وجِيلَتهم - التي يَحْتالونها لأجلكم - ﴿شَيْئاً﴾ من الضَّرر، فإنكم في حِفْظِ الله المَوْعُود للصَّابِرِينَ والمُتَمَتِّينَ.

قال بعضُ العلماء: إنَّ الله تعالى إِنَّمَا خَلَقَ الخَلْقَ لِلْعُبُودِيَّةِ كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٢ فَمَنْ وَفَّى بَعْدَ العُبُودِيَّةِ، فالله سبحانه أكرم من أن لا يفي بعهْد الرُّبُوبِيَّةِ، في حِفْظِهِ عَنِ الآفَاتِ والمَخَافَاتِ، وإليه الإِشَارَةُ بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾^٣ وقوله: ﴿وَيَزِدْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^٤ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يُوصِلُ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَسْرَهُ.

وقال بعضُ الحكماء: إذا أُرِدْتُ أَنْ تَكْبِتَ مَنْ يَحْسُدُكَ، فاجْتَهِدْ فِي اتِّحَادِ الفَضَائِلِ^٥.
ثم سَلَّى سبحانه قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عداوتكم مِنَ الكَيْدِ والإِيذَاءِ ﴿مُحِيطٌ﴾ عِلْماً، ومُدْرِكٌ لَهُ كَامِلاً، فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْعِقَابِ.

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *
وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ [١٢٣-١٢١]

ثم أنه تعالى لما وعد الحِفظ والنصرة مطلقاً، على الصبر والتقوى، المستلزم لائتفانهما عند ائتيانهما، أتبعه بقضية أخذ الشاهدة عليه، بقوله: ﴿و﴾ ذكر المؤمنين ﴿إِذْ عَدَوْتَ﴾ يا محمد، وحين خرجت أول النهار ﴿مِنْ﴾ عند ﴿أَهْلِكَ﴾ وزوجتك قاصداً للذهاب إلى أحد، كي ﴿تُبَوِّئَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وتزليهم، أو تهبيء لهم ﴿مَقَاعِدَ﴾ وأماكن ينتظرون فيها للعدو، ويقفون فيها ﴿لِلْقِتَالِ﴾ وإنما سميت تلك الأماكن بالمقاعد؛ لأنهم كانوا يقعدون فيها منتظرين للعدو، فإذا جاءهم قاموا للمحاربة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقال أصحابك في مشاورتك إياهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من النيات الحسنة والسيئة.

في سبب وقعة أحد عن الثماني عليه السلام: عن الصادق عليه السلام قال: «سَبَبُ غَزْوَةِ أَحَدٍ أَنْ قُرَيْشًا لَمَّا رَجَعَتْ مِنْ بَدْرِ إِلَى مَكَّةَ - وَقَدْ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ؛ لِأَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ - قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَا تَدْعُوا نِسَاءَكُمْ يَبْكِينَ عَلَى قَتْلَاكُمْ، فَإِنَّ الدَّمَعةَ إِذَا خَرَجَتْ أَذْهَبَتْ الْحَزْنَ^١ وَالْعَدَاوَةَ لِمُحَمَّدٍ^٢، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [يَوْمَ أَحَدٍ] أَذْنُوا لِنِسَائِهِمْ بِالْبَكَاءِ وَالنُّوحِ، وَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارَسَ، وَأَلْفِي رَاجِلٍ، وَأَخْرَجُوا مَعَهُمُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ أَصْحَابَهُ وَحَثَّمَهُ عَلَى الْجِهَادِ...»^٣.

وَرَوَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ نَزَلُوا بِأَحَدٍ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَدَعَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَنِي سَلُولٍ، وَلَمْ يَدْعُهُ قَطُّ قَبْلَهَا بِاسْتِشَارَةٍ^٤، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَكْثَرُ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقِمِ بِالْمَدِينَةِ وَلَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ، مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى عَدُوٍّ قَطُّ إِلَّا أَصَابَ مِنَّا، وَلَا دَخَلَ عَدُوٌّ عَلَيْنَا إِلَّا أَصَابَنَا مِنْهُ، وَكَيْفَ وَأَنْتَ فِينَا، فَذَعْهُمْ فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَوْضِعٍ، وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمُ الرَّجَالُ فِي وَجُوهِهِمْ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ^٥.

وقال سعد بن معاذ وغيره من الأوس: يا رسول الله، ما طمع فينا أحدٌ من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام، فكيف يظفرون بنا وأنت فينا؟! لا حتى لا نخرج إليهم ونقاتلهم، فمن قُتِلَ مِنَّا فهو شهيد،

١. زاد في المصدر: والحرقة.

٣. تفسير الثماني ١: ١١٠، تفسير الصافي ١: ٣٤٥.

٤. في تفسير الرازي: فاستشاره.

٢. زاد في المصدر: ويشمت بنا محمد وأصحابه.

٥. تفسير الرازي ٨: ٢٠٥.

وَمَنْ يَحْيَا مَيَّا كَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^١، أَخْرَجَ بِنَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَكْلَبِ^٢ لِيَلَا يَطْلُوْنَا أَنَا خِفْنَاهُمْ.
فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَنَامِي بَعْرَةً^٣ تَذِيحُ حَوْلِي، فَأَوَّلُهَا خَيْرٌ، وَرَأَيْتُ فِي ذُبَابٍ^٤ سَيْفِي
ثَلَمًا، فَأَوَّلُهَا هَزِيمَةٌ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلُهَا الْمَدِينَةُ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ [أَنْ]
تَقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ».

فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: مِنَ الَّذِينَ فَاتَتْهُمْ بَدْرٌ، وَأَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَخْرَجَ بِنَا إِلَى
أَعْدَائِنَا. فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ وَلَيْسَ لَأَمَتِهِ، فَلَمَّا لَيْسَ نَدَمُ الْقَوْمِ وَقَالُوا: بِشْمَا صَغْنًا، تُشِيرُ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْوَحْيِ يَأْتِيهِ، فَقَالُوا لَهُ: اصْنَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتَ، فَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَلْبَسَ
لَأَمَتَهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يُقَاتَلَ»^٥.

وَفِي رِوَايَةِ الْقَمِيِّ ﷺ: وَخَرَجَ ﷺ مَعَ نَعْرِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَبَوَّأُونَ^٦ مَوْضِعَ الْقِتَالِ^٧.
فِي نَقْلِ كَلَامِ الْفَخْرِ قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ: يُرَوَى أَنَّهُ ﷺ غَدَا مِنْ مَنَزَلٍ عَائِشَةَ، فَحَشَى عَلَى
فِي ظَهْرَةِ عَائِشَةَ رَجُلِهِ إِلَى أُحُدٍ. وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالْوَاقِدِيِّ، فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ
وَرَدَهُ أَهْلًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾^٨، فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ
مُطَهَّرَةً شَبْرَاءَ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ. أَلَا تَرَى أَنَّ وَلَدَ نُوحٍ لَمَّا كَانَ كَافِرًا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^٩ وَكَذَا
امْرَأَةُ لُوطَ^{١٠}؟.

أَقُولُ: فِي كَلَامِهِ خَلَّلَ لَا يَكَادُ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ، فَضْلًا عَنْ فَاضِلٍ، فَإِنْ إِطْلَاقُ (الْأَهْلِ) عَلَى عَائِشَةَ -
عَلَى تَقْدِيرِ إِرَادَتِهَا مِنْهُ - غَيْرُ مُشْعِرٍ أَصْلًا بِكَمَالٍ وَشَرَفٍ لَهَا زَائِدًا عَلَى شَرَفِ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ ﷺ؛ كَمَا
كَانَ هَذَا الشَّرَفُ لَزَوْجَةِ نُوحٍ وَلُوطَ، بَلْ الْإِشْعَارُ فِيهِ بِإِسْلَامِهَا، لَوْضُوحُ أَنَّ الزَّوْجَةَ - فِي اللُّغَةِ وَالْعَرَفِ -
أَحَدُ الْمَصَادِقِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْأَهْلِ.

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَقَ اسْمَ الْأَهْلِ عَلَى زَوْجَةِ لُوطَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فَلَوْ لَمْ
تَكُنْ زَوْجَتَهُ دَاخِلَةً فِي (الْأَهْلِ) لَمْ يَصِحَّ الْإِسْتِثْنَاءُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾^{١١} فَصَحَّ الْإِسْتِثْنَاءُ دَلِيلٌ عَلَى
شُمُولِ لَفْظِ (الْأَهْلِ) لَهَا حَقِيقَةً، وَإِخْرَاجِهَا مِنْهُ حُكْمًا. وَكَذَا أَطْلَقَ نُوحٌ اسْمَ الْأَهْلِ عَلَى ابْنِهِ بِقَوْلِهِ:
﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾^{١٢} مَعَ عِلْمِهِ بِكَفَرِهِ.

١. تفسير القمي ١: ١١١.

٢. الأكلب: جمع كلب.

٣. في تفسير الرازي: بقراً.

٤. تفسير الرازي ٨: ٢٠٥.

٥. ذباب السيف: حدّ طرفه.

٦. تفسير القمي ١: ١١١.

٧. في تفسير القمي: يبتغون.

٨. تفسير الرازي ٨: ٢٠٦.

٩. هود: ٤٦/١١.

١٠. النور: ٢٦/٢٤.

١١. هود: ٤٥/١١.

١٢. هود: ٨١/١١.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^١ فلا شبهة أنه مجاز في السلب بعلاقة انقضاء الآثار، كما يقال: يا رجال ولا رجال.

وأما قوله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ فقد قيل في تفسيره: إن المراد: الطَّيِّبَاتُ من القول والكلم، أو المبراة من الزنا، فيكون مثل قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^٢.

ويؤيد ذلك أن الآية^٣ بعد آية رَمَى الْمُحْصَنَاتِ من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^٤ ولا شبهة أن أزواج الأنبياء بريئات من الزنا، وإن كن كافرات، لوضوح أن هذا القُحش منهن شين عليهم، مع أن البراءة من كل قبيح يساق العِصمة، مع أنه لم يقل أحد في سائر أزواجه ﷺ ذلك.

مع أنه لا شبهة أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٥ لحفصة وعائشة، وفيه دلالة واضحة على عصيانهما، وعدم تنزههما من القبيح، مع تواتر أنها تبرجت بعد النبي ﷺ تبرج الجاهلية، وخرجت على إمام زمانها. وقد ذكر ابن أبي الحديد أن منشأ عداوة أبي بكر وعمر لفاطمة وعلي بن أبي طالب شدة حسد عائشة وحفصة عليهما، وسعائيهما عليهما عند أبيهما^٦.

والحاصل: أنه لا ينبغي لذي مشككة أن يتخيل أن عائشة كانت مبرأة من كل قبيح^٨.

نسي ذكر وقعة ثم إن الآية والروايات وإن دللتا على خروجه من بيت أهله أول النهار، إلا أن في بعض أحد

١. هود: ٤٦/١١. ٢. النور: ٣/٢٤. ٣. أي آية ﴿والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

٤. النور ٢٣/٢٤. ٥. التحريم: ٤/٦٦. ٦. أي عائشة.

٧. راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٩٢ - ١٩٩.

٨. واعلم أن التطهير من الرجس يشمل أهل الكساء الذين نزلت فيهم آية التطهير من سورة الأحزاب: ٣٣ وهم أهل البيت: النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وليس غيرهم، وقد روى ذلك مسلم في صحيحه ٤: ٢٤٤٤/١٨٨٣، والحاكم في المستدرک ٣: ١٤٦، وقال الفخر الرازي في تفسيره ٨: ٨٥ هذه الرواية كالمتمفق على صحتها بين أهل التفسير.

واعلم أن النبي ﷺ أخرج أم سلمة مع جلاتها من أهل البيت فقال لها: إنك على خير ولم يقل إنك منهم، أخرجه الترمذي في السنن ٥: ٣٢٠٥/٣٥١، والحاكم في المستدرک ٢: ٤١٥. كما أن السيرة العملية لبعض نساء النبي ﷺ تخرجهن عن دائرة العصمة والطهارة من الذنوب فقد قال تعالى في بعضهن: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ [التحريم: ٤/٦٦] والآية تدل على وقوع المعصية، لأن التوبة مترتبة على المعصية، وقال تعالى في نفس الآية: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت عن الحق، وقال تعالى في نفس الآية: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ والمراد حفصة وعائشة، كما في البخاري ٦: ٢٧٧/٤٠٧، والكشاف ٤: ٥٧١. وذلك بخروج صاحبه عن حد الطهارة والعصمة من الآقام، وعليه فإن التطهير لا يشمل نساء النبي ﷺ بل مخصص بالخمس أهل الكساء من أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم.

الروايات أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَأَصْبَحَ بِالشُّعْبِ مِنْ أَحَدِ يَوْمِ السَّبْتِ لِلنُّصَفِ مِنْ شَوَالٍ لِسَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، فَمَشَى عَلَى رِجْلَيْهِ، وَجَعَلَ يَصِفُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ كَأَنَّمَا يَقُومُ بِهِمْ الْقُدْحُ، إِنْ رَأَى صَدْرًا خَارِجًا قَالَ: تَأَخَّرَ. وَكَانَ تُرْوِلُهُ فِي جَانِبِ الْوَادِي، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ عَشْرَكَهُ إِلَى أَحَدٍ، وَأَمَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ عَلَى الرُّمَاءِ وَقَالَ: «ادْفَعُوا عَنَّا بِالْبَيْلِ، حَتَّى لَا يَأْتُونَا مِنْ وَرَائِنَا»، وَقَالَ ﷺ: «اثْبُتُوا فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَلَنْ نَزَالَ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُمْ فِي مَكَانِكُمْ».

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا خَالَفَ [رَأَى] عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَعْدٍ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَقَالَ: «أَطَاعَ الْوَلَدَانِ وَعَصَانِي» ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يَظْفَرُ بَعْدُوكُمْ، وَقَدْ وَعَدَ أَصْحَابَهُ أَنْ أَعْدَاءَهُ إِنْ عَاتَبْتُمْهُمْ انْهَزَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ أَعْدَاءَهُمْ فَانْهَزِمُوا، فَيَتَّبِعُونَكُمْ فَيَصِيرُ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا اتَّفَقَ الْفَرِيقَانِ انْهَزَمَ عَبْدُ اللَّهِ بِالْمُتَافِقِينَ، وَكَانَ جُمْلَةُ عَشْكَرِ الْمُسْلِمِينَ أَلْفًا، أَوْ تِسْعَمِائَةٍ وَخَمْسِينَ، فَانْهَزَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَعْدٍ مَعَ ثَلَاثِمِائَةٍ، فَبَقِيَ سَبْعَمِائَةٍ أَوْ سِتْمِائَةٍ وَخَمْسِينَ، فَتَبِعَهُمْ عَثْرُو بْنُ حَزَمٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ فِي نَيْبِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تُبْعَثُنَاكُمْ.

وَكَانَ حَيَّانُ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ بَنُو سَلَمَةَ مِنَ الْخَزَرَجِ، وَبَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْأَوْسِ، جَنَاحِينَ مِنْ عَشْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَمَّ الْحَيَّانُ بِاتِّبَاعِ عَبْدِ اللَّهِ، فَتَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ ثَبَّتَهُمَا وَقَوَّى قُلُوبَهُمَا^٢، فَذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ الثَّغْمَةَ بِقَوْلِهِ: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ» أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «أَنْ تَفْشَلَا» وَتَضَعَا عَنِ الْقِتَالِ جُبْنًا وَتَرْجِعَا إِلَى الْمَدِينَةِ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: أَضْمَرُوا أَنْ يَرْجِعُوا، فَعَزَمَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى الرَّشْدِ^٣. «وَاللَّهُ» بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمَا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ «وَلِيَّتُهُمَا» وَعَاصِمُهُمَا مِنْ اتِّبَاعِ تِلْكَ الْخَطَرَةِ^٤ «وَعَلَى اللَّهِ» وَحْدَهُ دُونَ مَنْ عَدَاهُ اسْتِقْلَالًا وَاشْتِرَاكًا «فَلْيَتَوَكَّلْ» وَلْيَعْتَمِدِ «الْمُؤْمِنُونَ» فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، فَإِنَّهُ حَسْبُهُمْ وَيَعْمُ الْوَكِيلُ.

فَإِنْ مَنْ أَمِنَ وَتَيَقَّنَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَلَطْفِهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَوْنِهِ وَتَضَرُّعِهِ لَهُمْ، لَا يَعْزِضُهُ الْفُشْلُ فِي الْأُمُورِ، وَلَا يَطْرُوهُ الْخَوْفُ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى، سَيِّمًا فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَتَضَرُّعِهِ دِينِهِ. ثُمَّ اسْتَشْهَدَ شَبْحَانَهُ عَلَى تَضَرُّعِهِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، بِتَضَرُّعِهِ لَهُمْ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى تَذْكِيرًا لَهُمْ: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ» عَلَى أَعْدَانِكُمْ «بِئَذْنِهِ» قِيلَ: هُوَ اسْمُ مَاءٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، كَانَ لِرَجُلٍ اسْمُهُ بَدْرُ بْنُ كَلْدَةَ^٥، فَسَمَّى بِاسْمِهِ، وَقِيلَ: سَمَّى بِهِ لَصَفَانَهُ [كَالْبَدْرِ] وَاسْتِدَارَتَهُ^٦.

١. في النسخة: به. ٢. تفسير الرازي ٨: ٢٠٥، تفسير أبي السعود ٢: ٧٨، تفسير روح البیان ٢: ٨٨.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩. ٤. الخطرة: ما يخطر على القلب.

٥. الذي في معجم البلدان ١: ٤٢٥؛ ينسب إلى بَدْرٍ بْنِ يَحْيَى بْنِ النُّضْرِ بْنِ كَثَّانَةَ، أَوْ بَدْرٍ بْنِ قُرَيْشٍ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ يَحْيَى.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩.

وقيل: هو اسم الموضع أو الوادي^١.

وكانت الوقعة في السابع عشر من شهر رمضان، سنة اثنتين من الهجرة، وكانت الوقعة آية عظيمة، ولذا بين الله عظمته بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون في تلك الوقعة ﴿أَذَلَّةٌ﴾ ضَعْفَاءٌ مِنْ حَيْثُ قِلَّةُ الْعَدَدِ وَالْمَالِ وَالسَّلَاحِ وَالْمَرْكُوبِ، وَمَعَ ذَلِكَ قَهَرْتُمْ خُصُومَكُمْ، وَظَفَرْتُمْ عَلَى أَعْدَانِكُمْ، مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ وَشَوْكِهِمْ، وَفَزْتُمْ بِمَطْلُوبِكُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ.

ولما شاهدتم النصر الخارق للعادة في تلك الوقعة عند صبركم في نضرة الرُّشُولِ وطاعتكم لله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات في هذه الوقعة أيضاً، واضبروا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بنصرتكم لكم فيها، ويغتمه عليكم ﴿تَشْكُرُونَ﴾ كما شكرتم ما أنعم عليكم من النصر في تلك الوقعة.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ [١٢٤ و ١٢٥]

ثُمَّ وَجَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْخِطَابَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَشْرِيفاً لَهُ، وَإِذْناً بِأَنَّ النَّصْرَ كَانَ بِبِشَارَتِهِ ﷺ، وَعَيْنَ وَقْتٍ وَقُوعِهِ بقوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ يَا مُحَمَّدُ تَبَشِيرًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَوْمَ يَذُرُ، حِينَ أَظْهَرُوا الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ عَنِ الْمَقَاتِلَةِ. وَذَلِكَ مَسْنُوبٌ إِلَى أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ.

وعن ابن عباس، والواقدي، وجماعة: أَنَّهُ ﷺ حِينَ غَدَا مِنْ مَنْزِلِ أَهْلِهِ لِلْخُرُوجِ إِلَى أَحَدٍ^٢، قَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ تَقْوِيَةً لِقُلُوبِهِمْ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ وَيُعِينِكُمُ لِلنَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى أَعْدَانِكُمْ ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ﴾ وَيُعِينَكُمْ ﴿رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حَالُ كَوْنِهِمْ ﴿مُنْزَلِينَ﴾ مِنَ السَّمَاءِ بِأَمْرِهِ تَعَالَى لِنَصْرِكُمْ.

في ذكر الاختلاف
قيل: إن الله أنزل الملائكة يوم أخذ لنضرة المؤمنين، ولما كان النصر مشروطاً بالصبر
نسي أن التبشير
بإمداد الملائكة كان
في بدر أو أحد
والتقوى، وهم في ذلك اليوم لم يصبروا، ولم يتقوا، فلم يمدوهم.

وعن مجاهد والواقدي، قالوا: حضرت الملائكة يوم أحد، ولكنهم لم يقاتلوا.

ويؤيده ما روي من أن الرُّشُولَ ﷺ أعطى اللواء مُصْعَبَ بْنِ عُمَيْرٍ فَقَتِلَ مُصْعَبٌ، فَأَخَذَهُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ مُصْعَبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مُصْعَبُ» فَقَالَ الْمَلَكُ: لَسْتُ بِمُصْعَبٍ، فَعَرَفَ الرُّشُولُ ﷺ أَنَّهُ مَلَكٌ أَمِدَّ بِهِ^٣.

وعن سعد بن أبي وقاص قال: كنت أرمي السهم يومئذ، فيزده إلي رجل أبيض حسن الوجه، وما كنت أعرفه فظننت أنه الملك^١.

وأما القائلون بأن هذه الإشارة كانت في بدر، [فقد] جمعوا بينها وبين قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾^٢ بأن الله تعالى أمد الرسول ﷺ وأصحابه أولاً بألف، ثم زاد فيهم ألفين [فصاروا ثلاثة آلاف]، ثم زاد ألفين آخرين، فصاروا خمسة آلاف، فكانه ﷺ قال لهم: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة؟» فقالوا: بلى، ثم قال: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ...﴾^٣.

ثم بلغ أصحاب بدر أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير، وثقل أنه بلغهم أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك على المسلمين^٤، فبشرهم الله تعالى لطماننة قلوبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ يكفيكم ذلك.

ثم وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما، وتقوية لقلوبهم بقوله: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ أيها المؤمنون على منازلة الأعداء ومناقضتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معصية الله، ومخالفة الرسول ﴿وَالْمُشْرِكُونَ﴾ يأتونكم بخيلهم ورجلهم ﴿مِنْ قُدْرِهِمْ هَذَا﴾ وساعتهم هذه، بلا ريث وتأخير ﴿يُمِدُّكُمْ﴾ ويقويكم ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ الذي هو بطئ ناصركم وحافظكم حين إتيانهم ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حال كونهم ﴿مُسَوِّينَ﴾ متعلمين^٥ أنفسهم أو خيولهم.

رؤي أنهم كانوا بعمائم بيض إلا جبرئيل فإنه كان بعمامة صفراء^٦.

وفي رواية: أنهم كانوا قد أعلموا^٧ في نواصي الخيل. وعن النبي ﷺ قال لأصحابه: «تسوموا فإن الملائكة [قد] تسومت»^٨.

قالوا: إن العرب كانوا يجعلون في الحروب لأنفسهم علامة يعرفون بها.

وثقل أن حمزة بن عبد المطلب كان يعلم بريش نعام، وأن علياً كان يعلم بصوفة بيضاء، وأن الزبير كان يتعصب بعصابة صفراء، وأن أبا دجانة^٩ كان يعلم بعصابة حمراء^{١٠}.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

١. تفسير الرازي ٢١١: ٨. ٢. الأنفال: ٨/٩. ٣. تفسير الرازي ٢١١: ٨. ٤. تفسير الرازي ٢١٢: ٨.

٥. أي جاعلين لها علامة مميزة. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ٨٠.

٧. زاد في تفسير أبي السعود: بالجهن. ٨. تفسير أبي السعود ٢: ٨١.

٩. أبو دجانة، هو سيماك بن خشة الخزرجي الأنصاري، صحابي، من الشجعان، شهد بدرًا، وثبت يوم أحد، وأصيب بجراحات كثيرة، واستشهد باليمامة سنة ١١ هـ. ١٠. الاعلام/الزركلي ٣: ١٣٨.

١١. تفسير الرازي ٢١٥: ٨.

الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [١٢٦]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ عِلَّةَ إِمْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ وَنُصْرَتِهِم بِالْمَلَائِكَةِ، مَعَ كَوْنِهِ تَعَالَى قَادِرًا عَلَيْهَا بِلَا وَاسِطَةٍ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ بِإِزَالِ الْمَلَائِكَةِ، لِعِلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ ﴿إِلَّا﴾ لِكَوْنِهِ ﴿بَشَرِيٌّ﴾ وَشُرُورًا ﴿لَكُمْ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ وَتَسْكُنَ إِلَيْهِ أَفْئِدَتُكُمْ مِنَ الْخَوْفِ، كَمَا كَانَتِ السَّكِينَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَيْثُ إِنَّ نَظَرَ الْعَامَّةِ إِلَى الْأَسْبَابِ ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ وَالْغَلْبَةُ لِأَحَدٍ عَلَى عَدُوِّهِ ﴿إِلَّا﴾ وَهُوَ كَائِنٌ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَحَدِّهِ، لَا مِنْ الْعُدَّةِ وَالْعَدَدِ؛ لِأَنَّهُ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ فِي حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ، لَا يُغَالِبُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ، لَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالصَّلَاحِ الْأَتَمِّ.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ [١٢٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا بَيَّنَّ عِلَّةَ نُصْرِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِوَاسِطَةِ إِزَالِ الْمَلَائِكَةِ -الَّذِي هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأَسْبَابِ، مَعَ عَدَمِ حَاجَتِهِ تَعَالَى فِي فِعْلِهِ إِلَيْهَا بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لِأَنَّهُ الْمُسَبَّبُ لِلْأَسْبَابِ- بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِلَّةَ أَضْلِ نُصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ، بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ وَيُنْقِصَ ﴿طَرَفًا﴾ وَطَائِفَةً ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، فَإِنَّهُ قُتِلَ مِنْ رُّسُلَانِهِمْ وَصَنَادِيدِهِمْ سَبْعُونَ وَأَسِيرَ سَبْعُونَ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ وَيُغِيضُهُمْ بِخَزْيِهِمْ وَقَهْرِهِمْ ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ إِلَى أَمَاكِنِهِمْ، وَيَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ ﴿خَائِبِينَ﴾ مَحْرُومِينَ مِنَ الطَّفَرِ، مُنْهَزَمِينَ عَنِ الْقِتَالِ. وَكَلِمَةُ (أَوْ) هُنَا لِلتَّنْوِيعِ، لَا التَّرْدِيدِ.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [١٢٨]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى -لِإِظْهَارِ شِدَّةِ الْعَصَبِ عَلَى قُرَيْشٍ، أَوْ خُصُوصِ الْحَاضِرِينَ مِنْهُمْ فِي بَذَرٍ أَوْ أَخَذٍ، وَلِإِعْذَارِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ أَرْحَامِهِ وَعَشِيرَتِهِ - سَدَّ بَابَ شَفَاعَتِهِ لَهُمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ مَعَ كَوْنِكَ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيَّْ، وَأَحَبَّهُمْ لَدَيَّ ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ الرَّاجِعِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ﴿شَيْءٌ﴾ مِنَ الدَّخَالَةِ وَالشَّفَاعَةِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِكَ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الْمَالِكِ الْقَاهِرِ.

فَإِذَنْ يَتَعَامَلُ مَعَهُمْ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إِنْ يَتُوبُوا وَيُسْلِمُوا، ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالذُّلِّ وَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ فِي الدُّنْيَا، وَبِالنَّارِ وَالزُّقُومِ وَالصَّرِيعِ فِي الْآخِرَةِ، إِنْ أَقَامُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَأَصْرَوْا عَلَى الضَّلَالِ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى اللَّهِ فِي تَعَذِّبِهِمْ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَالظُّلْمُ لِكَوْنِهِ أَشَدَّ الْقَبَاحِ، مُوجِبٌ لِاسْتِحْقَاقِ أَشَدِّ الْعَذَابِ.

في ذكر ما أصاب النبي ﷺ في الدّم عن وجهه، وسالم مولى خذيفة يغسل الدّم عن وجهه، وهو يقول: «كيف يفتح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدّم، وهو يدعّوهم إلى ربّهم» ثمّ أراد أن يدعّو عليهم فنزلت^٢.

وروي أنّه دعا على عتبة بأن لا يحول عليه الحول حتّى يموت كافراً، فمات كافراً قبل أن يحول الحول^٣. وقيل: إنّهُ أراد أن يدعّو عليهم، فنّاه الله تعالى لعلّهم بأنّ منهم من يؤمن^٤. وفي رواية: أنّه ﷺ كان يمّسح الدّم عن وجهه ويقول: «اللّهمّ اهْدِ قومي، فإنّهم لا يعلمون»^٥. وعن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ لعن أقواماً، فقال: «اللّهمّ العن أبا سفيان، اللّهمّ العن حارث بن هشام، اللّهمّ العن صفوان بن أميّة» فنزلت هذه الآية: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم^٦.

أقول: يُعلّم حال ابن عمر من تحسّنه إسلام أبي سفيان المعروف بيّن الفريقين بالفتق والفتاق، ولعلّ مقصوده أنّ إسلامه كان أحسن من إسلام نفسه.

وقيل: إنّها نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وذلك لأنّه ﷺ لما رآه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال: «لأمثلنّ منهم بثلاثين» فنزلت. وقيل: إنّها نزلت بسبب أنّه ﷺ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره، والذين انهزموا، فمّنع الله من ذلك، وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما^٧. ولعلّ حكمة المنع مع كونهم مستحقّين له، تأليف قلوبهم، وإزدياد شوكة الإسلام بظواهر إسلامهم. وقيل: إنّ (أو) في قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى إلّا أن، والمراد: أنّه ليس لك من الأمر شيء إلّا أن يتوب عليهم^٨.

وعن الباقر عليه السلام أنّه قرئ عنده «ليس لك من الأمر شيء»، قال: «بلى والله، إنّ له من الأمر شيئاً وشيئاً، وليس حيث ذهبّت، ولكن أخبرك: أنّ الله تعالى لما أخبر نبيّه ﷺ أن يظهر ولاية عليّ، ففكر في عداوة قومه له؛ في ما فضّله الله به عليهم في جميع خصاله، وحسّدهم له عليها، ضاق عن ذلك، فأخبر الله أنّه ليس له من هذا الأمر شيء، إنّما الأمر فيه إلى الله أن يصير عليّاً وصيّته ووليّ الأمر بعده.

١. الرابعة: الشّن بين النّيّة والتاب، وهنّ أربع، رباعيتان في الفك الأعلى، ورباعيتان في الفك الأسفل.

٢. تفسير الرازي ٨: ٢١٧، تفسير أبي السعود ٢: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٣٥٠. ٣. مجمع البيان ٢: ٨٣١.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٨٣. ٥. مجمع البيان ٢: ٨٣١.

٦. تفسير الرازي ٨: ٢١٧. ٧. تفسير الرازي ٨: ٢١٧.

٨. تفسير الرازي ٨: ٢١٩.

فهذا عنى الله، وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوّض الله إليه أن جعل ما أحلّ فهو حلال، وما حرّم فهو حرام^١.

وَاللّٰهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ [١٢٩]

ثمّ أنّه [تعالى] - لما ذكر أن أمر المغفرة والتعذيب إليه، ولا دخل لغيره فيه - ذكر أن جميع أمور الموجودات راجعة إليه، بقوله: ﴿وَاللّٰهُ بِالْمَلَكِيَّةِ التَّامَّةِ؛ بِلاَ مُشَارِكٍ وَلَا مُضَادٍّ﴾ «مَا» وَجِدَ ﴿فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا خُلِقَ فِى الْاَرْضِ﴾ فأمر جميع الموجودات - إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتةً، وتصرفاً وترتيباً - راجعة إليه، لا مدخل لغيره فيها، فهو سبحانه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له، بحسب الحكمة والتفضل ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه، بحسب العدل والاستحقاق.

وأما قدّم المغفرة على التعذيب، للدلالة على غلبة جانب الرحمة على الغضب، وللإشعار بأن المغفرة أصل في الغرض من الخلقة، والتعذيب مقصود بالعرض.

ولذا حتم الآية بتوصيف ذاته المقدّسة - بعد ذكر التعذيب - بالمغفرة والرحمة، بقوله: ﴿وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيْمٌ﴾ بالعباد. وتقديم المغفرة على الرحمة، لتقدّم الأمن من العذاب على الوعد بالرحمة والثواب.

فيل: إن الآية صريحة في نفي وجوب التعذيب^٢، لتعليقه على مشيئته [تعالى]. وفيه: إن مشيئته [تعالى] لا تكون إلاّ عن حكمه بالغة، ومعنى الوجوب: عدم إمكان تخلّفه عن مقتضاها، لا الوجوب التكليفي، كما هو واضح على ذي مشكّة.

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَاْكُلُوْا الرِّبَا اَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ
* وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِيْ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ * وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُوْلَ لَعَلَّكُمْ
تُزَحِّمُوْنَ [١٣٠-١٣٢]

في حرمة الربا ثمّ أنّه تعالى بعدما أناط السلامة من كَيْدِ الْعَدُوِّ وَضَرَهُ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وهَدَدَ الْكُفَّارَ بأنّه يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا وَيُسْلِمُوا، نبّه على إناطة السلامة من عذاب النار في الآخرة باجتناب أكل الربا والتقوى، وأنّ للمؤمنين مَعْصِيَةٌ تُشَارِكُ الْكُفْرَ فِي الْعُقُوبَةِ، بقوله: ﴿يٰۤاَيُّهَا

٢. تفسير البيضاوي ١: ١٧٩.

١. تفسير العياشي ١: ٧٧٨/٣٣٧، تفسير الصافي ١: ٣٥٠.

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا ﴿الرِّبَا﴾ وَلَا تَأْخُذُوا ﴿الرِّبَا﴾ حَالِ كَوْنِهِ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ ورِبَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ مُشْكِرَةٌ. قيل: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة دِرْهَمٍ إلى أجل، ولم يكن المدَّيون واجداً لذلك المال، قال: زدني في المال حتى أزيدك في الأجل، فربما جعله مائتين، ثم إذا حُلَّ الأجل الثاني فعلَ مثل ذلك، ثم إلى آجالٍ كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافاً.^١

وتقييد الربا بهذه الحال ليست لتقييد النهي بها، حتى تنتفي الحرمة بانتيانها، بل لمرعاة ما كانوا عليه من العادة، مع زيادة التشنيع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع ما نهيتهم عنه، ومنه الربا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بالتقوى، وترك أكل الربا ﴿تَقْلِحُوهَ﴾ وتُفَوِّزُونَ بأهم المقاصد وتُثَلِّونَ خَيْرَ الدَّارَيْنِ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ وهيئت في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولا تُشَارِكُوهم بأكل الربا في التعذيب بنارهم.

ثم أكد الأمر بالتقوى بالأمر بالطاعة بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في ما أمركم به من الجهاد وسائر العبادات، وما نهياكم عنه من أخذ الربا الذي يُمَاثل الكُفْرَ، وغيره من المحرمات ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بالطاعة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فإنها موجبة لرجاء الرحمة.

في دلالة الآية على غاية التغليظ في حرمة الربا

قيل: إن في الآيات من المبالغة في التهديد على الربا ما لا يخفى على الفطن حيث أتى سبحانه بـ (لعل) في فلاح من اتقاه واجتنبه؛ لأن تعليق إمكان الفلاح ورجائه بالاجتناب منه، يستلزم امتناع الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه ويتقوه مع إيمانهم، ثم أوعده عليه بالنار التي أعدت للكافرين، مع كونهم مؤمنين. فما أعظمها من معصية توجب عقاب الكفار للمؤمنين، وما أشده من تغليظ عليها ثم أيد التغليظ بالأمر بإطاعة الله ورسوله؛ تغريضاً بأن أكل الربا مُنْهِمَكٌ في المعصية ولا طاعة له.

ثم علق رجاء المؤمنين رحمة الله بالطاعة؛ إشعاراً بأنه لا رجاء للرحمة مع هذا النوع من العصيان، فهو يوجب اليأس من رحمة المؤمنين لانتيانها لهم معه. فانظر كيف درج التغليظ في التهديد، حتى أحق بالكَفَّار في الجزاء والعقاب، انتهى.^٢

قال رسول الله ﷺ: «لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهده، وكاتبه، والمحلل».^٣

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٣.

١. تفسير الرازي ٩: ٢، تفسير روح البيان ٢: ٩٢.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٩٣.

لِلْمُتَّقِينَ [١٣٣]

ثُمَّ بَعْدَ أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ بِالْاجْتِنَابِ عَنِ الرِّبَا وَالتَّحَرُّزِ عَنِ النَّارِ، أَمَرَ بِالمُسَارَعَةِ إِلَى الْعِبَادَاتِ الْمُوجِبَةِ لِلْمَغْفِرَةِ وَالدُّخُولِ فِي الْجَنَّةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى﴾ تحصيل ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم، بالمبادرة إلى موجباتها من الإسلام والتوبة والإخلاص، وأداء الواجبات وترك المحرمات. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إلى أداء الفرائض»^١.

﴿وَعَلَى﴾ إِلَى ﴿جَنَّةٍ﴾ وَسِيعَةٍ ﴿عَرْضُهَا﴾ وَوُسْعَتِهَا ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ السَّيْعِ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ قيل: ذكر العَرْضُ للمبالغة في وَصْفِهَا بِالسَّعَةِ عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ، فَإِنَّ العَرْضَ فِي الْعَادَةِ يَكُونُ أَدْنَى وَأَقْصَرُ مِنَ الطُّولِ^٢.

أقول: هذا الوجه مبني على إرادة العَرْضِ المُقَابِلِ لِلطُّولِ، لَا إِرَادَةَ مُطْلَقِ السَّعَةِ مِنْهُ. عن العياشي: عن الصادق عليه السلام قال: «إِذَا وَضَعُوهُمَا^٣، وَبَسَطَ يَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا مَعَ الْآخَرَى^٤. وعن ابن عباس: كَسَعَ سَمَاوَاتٍ، وَسَبَّحَ أَرْضِينَ لَوْ وَصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ^٥. رَوَى أَنَّ رَسُولَ هِرَقْلَ^٦ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ: إِنَّكَ تَدْعُو إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أَعَدْتَ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فَأَيْنَ اللَّيْلِ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟»^٧. قال الفخر الرازي في تفسيره: والمعنى، والله أعلم: أَنَّهُ إِذَا دَارَ الْفَلَكَ حَصَلَ النَّهَارُ فِي جَانِبٍ [مِنَ الْعَالَمِ]، وَاللَّيْلِ فِي ضِدِّ ذَلِكَ الْجَانِبِ^٨.

وقال الطبرسي رحمه الله: هذه مُعَارَضَةٌ فِيهَا إِسْقَاطُ الْمَسْأَلَةِ؛ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى أَنْ يُذْهِبَ اللَّيْلَ حَيْثُ يَشَاءُ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ النَّارَ حَيْثُ يَشَاءُ^٩.

وقال الفيض رحمه الله: وَالسَّرُّ فِيهِ أَنَّ إِحْدَى الدَّارَيْنِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، إِنَّمَا تَكُونُ مَكَانَ الْآخَرَى بَدَلًا عَنْهَا، كَمَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^{١٠}.

ولعل المراد أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ فِي الْآخِرَةِ تَزَاحُمٌ كَتَزَاحُمِ الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ، فَكُلٌّ مَشْغُولٌ بِعَالَمِهِ، وَلَا يَكُونُ لَهُ عَالَمٌ آخَرُ، وَفِي الْآيَةِ ذِلَالَةٌ عَلَى وَجُودِ الْجَنَّةِ فِعْلًا.

ثُمَّ وَصَفَ سُبْحَانَهُ تِلْكَ الْجَنَّةَ الْوَسِيعَةَ بِأَنَّهَا ﴿أَعَدَّتْ﴾ وَخَلَقَتْ مَهَيَّأَةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لِلتَّنْبِيهِ بِأَنَّهُ لَا حَظَّ لِلْعَصَاةِ فِيهَا، فَمَنْ رَجَاها بِغَيْرِ التَّقْوَى فَهُوَ مَغْرُورٌ.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٤.

١. مجمع البيان ٢: ٨٣٦، تفسير الصافي ١: ٣٥١.

٤. تفسير العياشي ١: ٧٨١/٣٣٩، تفسير الصافي ١: ٣٥١.

٣. في المصدر: وضوعها كذا.

٦. اسم ملك الروم. ٧. تفسير الرازي ٩: ٦.

٥. تفسير أبي السعود ٢: ٨٥.

١٠. تفسير الصافي ١: ٣٥١.

٩. مجمع البيان ٢: ٨٣٧، تفسير الصافي ١: ٣٥١.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «فإنكم لن تألوها إلا بالتقوى»^١.

الَّذِينَ يُتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِبِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [١٣٤]

ثم وصف المتقين بصفات جميلة هي أعظم وسائل نيل المغفرة والجنة، بقوله: «الَّذِينَ يُتَّقُونَ» ما يقدرّون على إنفاقه «فِي» حالتي «السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» وفي وقت شروهم بالإنفاق؛ كوقت الغنى والسعة، وفي وقت كراحتهم له، كوقت الفقر والضيّق. والمراد أنهم يتقون في جميع الأحوال؛ لأنّ الإنسان لا يخلو عن إحدى الحالتين.

«وَالْكَاطِبِينَ الْغَيْظَ» الكاتمين له على أمثالهم منه، المُمسِكين عليه، الكافين عن إضائه، مع القدرة عليه. قيل: الغَيْظ توقّد حرارة القلب من الغضب^٢.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِتْقَانِهِ، مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمَانًا وَإِيمَانًا»^٣.

وعن الصادق عليه السلام قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رِضًا»^٤.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْفِذَهُ، رَوَّجَهُ اللَّهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ حَيْثُ يَشَاءُ»^٥.

وقال عليه السلام: «مَا مِنْ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ مَوْجَعَةٍ يَجْرَعُهَا صَاحِبُهَا بِحُسْنِ صَبْرٍ وَعَزَاءٍ، وَمِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ كَظَمَهَا»^٦.

وعنه عليه السلام: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، لَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^٧.

«وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» التاركين عقوبة من اشتحقها منهم ويَحْتَمَلُ كَوْنُ ذِكْرِ الْوَضْعَيْنِ بِسَبَبِ غَضَبِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَلَى مَنْ فَرَّ مِنَ الرَّخْفِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَدَبَّ إِلَى كَظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، أَوْ بِسَبَبِ غَضَبِهِ عليه السلام حِينَ مَلَوْا بِحِمْزَةِ صلى الله عليه وآله وقال: «لَأُمَثِّلَنَّ بِهِمْ» وكان عَفْوُهُ تَرَكُهُ لِلثَّلَّةِ.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنْ هَؤُلَاءِ فِي أُنْتَى قَلِيلٍ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا فِي الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ»^٨.

عن الصادق عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ، [فَإِنَّ الْعَفْوَ] لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا، فَتَعَاوَا يُعْزِّكُمْ اللَّهُ»^٩.

١. الخصال: ١٠/٦٣٣، تفسير الصافي ١: ٣٥١. ٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٤.

٣. تفسير الرازي ٩: ٧. ٤. زاد في الكافي: يوم القيامة.

٥. الكافي ٢: ٦/٩٠، تفسير الصافي ١: ٣٥١. ٦ و٧. تفسير الرازي ٩: ٧.

٨. تفسير الرازي ٩: ٨. ٩. تفسير روح البيان ٢: ٩٥.

١٠. الكافي ٢: ٥/٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٥١.

وَرَوَى أَنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانَتْ أَجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ؟ فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا¹.
وَأَمَّا ذَكَرَ شَبْحَانَهُ الْإِنْفَاقَ بِصِغَةِ الْمُضَارِعِ لَكَوْنِهِ مِمَّا يَتَجَدَّدُ وَيَحْدُثُ، وَالْكُظْمُ وَالْعَفْوُ بِصِغَةِ
الْفَاعِلِ لَكَوْنِهِمَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْمُسْتَمَرَّةِ.

ثُمَّ أَشَارَ شَبْحَانَهُ إِلَى عِلَّةِ تَخْصِيصِهِ الْجَنَّةَ بِالْمُتَّقِينَ وَتَهْنِئَتِهَا تَزُولًا لَهُمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴾ الَّذِينَ تَمَّتْ فُضَائِلُهُمْ، وَعَمَّتْ فَوَاضِلُهُمْ، فَاسْتَحَقُّوا بِحُبِّهِ إِيَّاهُمْ هَذَا التَّشْرِيفَ
وَالتَّكْرِيمَ، وَبِإِحْسَانِهِمْ إِلَى الْغَيْرِ، بِالْإِنْفَاقِ وَكُظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ الْجَسِيمِ مِنَ اللَّهِ.
وَقِيلَ: إِنَّ الصِّفَاتِ الثَّلَاثَ لَمَّا كَانَتْ مُشْتَرَكَةً فِي كَوْنِهَا إِحْسَانًا إِلَى الْغَيْرِ، خَصَّ الْمُتَصِفِينَ بِهَا بِثَوَابٍ
أَعْظَمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَنِعِيمِهَا، وَهُوَ حُبُّ اللَّهِ لَهُمْ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ جِهَاتِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ، فَإِنَّهُ إِمَّا يَكُونُ بِإِصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِ، أَوْ بِدَفْعِ
الضَّرَرِ عَنْهُ أَمَّا إِصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِ، فَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ
فِيهِ إِنْفَاقُ الْعِلْمِ بِتَغْلِيمِ الْجَاهِلِينَ، وَهِدَايَةِ الصَّالِّينَ، وَإِنْفَاقُ الْقُوَى السَّعْيِ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَإِنْفَاقِ
الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرَاتِ وَأَمَّا دَفْعُ الضَّرَرِ عَنِ الْغَيْرِ، فَهُوَ إِمَّا فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ أَنْ لَا يَشْتَغِلَ بِإِسَاءَةٍ فِي
مُقَابِلِ إِسَاءَةٍ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ أَنْ يُبْرَى ذِمَّتَهُ مِنَ التَّيَبَعَاتِ وَالْمُطْلَبَاتِ.

رَوَى بَعْضُ الْعَامَّةِ أَنَّ خَادِمًا كَانَ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَهُوَ مَعَ أَصْيَافِهِ فِي
الْمَائِدَةِ، فَأَنْحَرَفَتْ قَضْعَةٌ كَانَتْ فِي يَدِ الْخَادِمِ، فَسَقَطَتْ مِنْهَا شَيْءٌ عَلَى الْحَسَنِ فَقَالَ: ﴿وَالْكَاطِمِينَ
الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قَالَ عليه السلام: «قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ» فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قَالَ عليه السلام:
«أَنْتَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ، وَقَدْ زَوَّجْتُكَ فُلَانَةَ فَتَاتِي، وَعَلَيَّ مَا يَصِلُحُكَمَا»².

وَعَنِ السَّجَّادِ عليه السلام مِنْ طَرُقِ أَصْحَابِنَا: أَنَّ جَارِيَةً لَهُ صَبَّتْ عَلَى يَدَيْهِ الْمَاءَ، فَسَقَطَ الْإِبْرِيقُ مِنْ يَدِهَا
فَشَجَّهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ الْجَارِيَةُ: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قَالَ عليه السلام لَهَا: «كُظِمْتَ غَيْظِي». فَقَالَتْ:
﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فَقَالَ عليه السلام: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ». فَقَالَتْ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قَالَ عليه السلام:
«ارْجِعِي، أَنْتِ حُرَّةٌ لَوَجْهِ اللَّهِ»³.

أَقُولُ: يُسْتَفَادُ مِنَ الرَّوَايَتَيْنِ أَنَّ التَّذِيلَ لِبَيَانِ صِفَةِ رَابِعَةٍ؛ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيءِ بِبَذْلِ الْمَالِ،
وَإِصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِ، أَوْ دَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُ.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [١٣٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان اهتمامهم بالطاعة، وصفهم بالمسارعة إلى التوبة عند الزلّة والتقصير في الطاعة، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾ وارتكبوا فعلة ﴿فَاحِشَةً﴾ ومعصية شديدة القباحة، كالزنا، وقتل النفس ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتكاب الصغائر من الذنوب، كالنظر إلى الأجنبية وأمثاله، أو بالتقصير في الطاعة.

وقيل: إن المراد بالفاحشة: الظلم على الغير^١؛ كالغيبية والبهتان، ومن الظلم على النفس: الذنوب التي لا تضر بالغير، كشرب الخمر وأضرابه.

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ وَاَلْتَمَتُوا إِلَىٰ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ حَقِّهِ الْمُوجِبِينَ لِلْحَيَاءِ مِنْهُ، أَوْ إِلَىٰ وَعِيدِهِ وَسَخَطِهِ الْمُورِثِينَ لِلْحَشْيَةِ.

وقيل: إن المراد: ذكر الله بالثناء والتعظيم، فإن من موجبات كمال الدعاء وقربه إلى الإجابة، الثناء على الله قبله.

﴿فَاسْتَفْزَؤُوا﴾ وطلبوا الشتر ﴿لِلذُّنُوبِ﴾ بلا تأخير وتسويف، وتابوا توبة خالصة، ناشئة عن حقيقة الندم الملازم للعزم على الترك في المستقبل.

ثم حث سبحانه على الاستغفار والإنابة إليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ﴾ ويتجاوز عنها ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فإنه يستحيل غفرانها من غيره، فلا مفرغ للمذنبين إلا فضله وكرمه. وفيه إشارة لهم بوصف ذاته بسعة الرحمة، وقبول التوبة، وقرب المغفرة.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن هذه الآية نزلت في رجلين أنصاري وثقفي، والرسول ﷺ [كان قد] أختبأ بينهما، وكانا لا يفترقان في أحوالهما، فخرج الثقفي مع الرسول ﷺ بالقرعة في السفر، وخلف الأنصاري على أهله ليتعاهدهم، فكان يفعل ذلك، ثم قام إلى امرأته ليقبلها، فوضعت كفها على وجهها فندم الرجل، فلما وافى الثقفي مع الرسول ﷺ لم ير الأنصاري، وكان قد هام في الجبال للتوبة، فلما عرف الرسول ﷺ سكت حتى نزلت^٢.

وقيل: إن نهان^٣ التمار أته امرأة حسنة تطلب منه تمراً، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت تمر أجود منه، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتى الله، فتركها وندم على ذلك، وأتى [الرسول] ﷺ وذكر له ذلك، فنزلت^٤.

٢. تفسير الرازي ٩: ٩.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٣.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٨٦.

٣. في النسخة: تيهان، راجع: أسد الغابة ٥: ١٣.

فسي ذكر توبة الشاب التائب وروي أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ باكيةً فسلم، فرد عليه السلام وقال: «ما يبكيك يا معاذ؟» فقال: يا رسول الله، إن بالباب شاباً طري الجسد، نقي اللون، حسن الصورة، يبكي على شبيهة بكاء التكلبي على ولدها، يريد الدخول عليك، فقال النبي ﷺ: «أدخل علي الشاب يا معاذ» فأدخله عليه فسلم، فرد عليه ثم قال: «ما يبكيك يا شاب؟» قال: كيف لا أبكي، وقد ركبْتُ ذنوباً إن أخذني الله عز وجل ببعضها أدخلني نار جهنم! ولا أراني إلا سيأخذني بها، ولا يغفر لي أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: «هل أشركت بالله شيئاً؟»، قال: أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئاً، قال: «أقتلت النفس التي حرم الله؟»، قال: لا. فقال النبي ﷺ: «يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الزواصي». قال الشاب: فإنها أعظم من الجبال الزواصي.

فقال النبي ﷺ: «يغفر الله [لك] ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع، وبحارها، ورمالها، وأشجارها، وما فيها من الخلق». قال الشاب: فإنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.

فقال النبي ﷺ: «يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل السماوات وتجومها، ومثل العرش والكُرسي». قال: فإنها أعظم من ذلك.

قال: فنظر إليه النبي ﷺ كهينة الغصبان، ثم قال: «ويحك يا شاب، ذنوبك أعظم أم ربك؟»، فخر الشاب لوجهه وهو يقول: سبحان ربي، ما من شيء أعظم من ربي، ربي أعظم - يا نبي الله - من كل عظيم [فقال النبي ﷺ]: «فهل يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم» قال الشاب: لا والله يا رسول الله. ثم سكت الشاب.

فقال النبي ﷺ: «ويحك يا شاب، ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟». قال: بلى أخبرك: إنني كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار، فلما حُملت إلى قبرها ودُفنت، وأنصرف عنها أهلها، وجئ عليها الليل، أتيت قبرها فنبشتها، ثم استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها، وتركتها مجردة على شفير قبرها، ومضيت منصرفاً، فأتني الشيطان فأقبل يزئبها لي ويقول: أما ترى بطئها وبياضها؟ أما ترى وزكيتها؟ فلم يزَل يقول لي هذا حتى رجعت [إليها] ولم أملك نفسي حتى جامعته وتركته مكانها، فإذا أنا بصوت من ورائي

يقول: يا شاب، وَيَلْ لك من دِيَان يوم الدِّين يوم يقضيني وإياك^١، تركتني عُريانة في عساكر الموتى، ونزعني من حُفرتي، وسلَّبتني إهابي^٢، وتركني أقوم جُثَّةً إلى حسابي، فويلٌ لشبابك من النار. فما أظنُّ أنِّي أنسيم رِيحَ الجَنَّة أبداً، فما ترى يا رسول الله؟

فقال النبي: «تَنَحَّ عَنِّي يا فاسق، إِنِّي أخاف أن احترق بنارك، فما أقربك من النار»، ثم لم يزل ﷺ يقول ويشير إليه حتَّى أمعن من بين يديه فذهب.

فأتى المدينة فتزوَّد منها، ثم أتى بعضَ جبالها فتعبَّد فيها ولبسَ مِسْحاً^٣، وغلَّ يديه جميعاً إلى عُنقه ونادى: يا رب، هذا عبدك بهلول بين يديك مغلُول، يا رب أنت الذي تعرفني وزَّل مِنِّي ما تعلم سيدي، يا رب إِنِّي أصبحت من النَادِمين، وأتيتُ نبيك تائباً فطرَدني وزادني خوفاً، فأسألك باسمك وجلالك وعِظَم سلطانك أن لا تُخَيِّب رجائي سيدي، ولا تُبطل دُعائي، ولا تُقَطِّعني من رَحمتك. فلم يزل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة، تبكي له السباع والوحوش.

فلما تمت له أربعون يوماً وليلة، رَفَعَ يديه إلى السماء وقال: اللَّهُمَّ ما فعلتُ في حاجتي؟ إِنْ كُنْتُ استجبتَ دُعائي، وغفرتَ خطيئتي، فأوحِ إلى نبيِّك، وإنَّ لم تستجبْ دُعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردتَ عقوبي، فمَجَّل بنارٍ تُحرقني، أو عقوبةً في الدنيا تهلكني، وخلصني من فضيحة يوم القيامة. فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ يعني الزُّنا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني بازتيكاب ذَنْبٍ أعظم من الزُّنا، وهو نَبَش القُبور، وأخذ الأكفان ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: خافوا الله فعجلوا التوبة ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يقول الله: أناك عبيدي يا محمد تائباً فطرَدته، فأين يذهب، وإلى مَنْ يقصد، ومن يسأل أن يغفر له ذنبه غيري؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ يقول: لم يقيموا على الزُّنا، ونَبَش القُبور، وأخذ الأكفان.

إلى أن قال: ولما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، خرَّج وهو يتلوها ويتبسَّم، فقال لأصحابه: «مَنْ يَدُلُّني على ذلك الشابِّ التَّائِب؟». فقال مُعاذ: يا رسول الله، بلَغنا أنه في موضع كذا وكذا، فمضى رسول الله ﷺ مع أصحابه، حتَّى انتهوا إلى ذلك الجبل، فصعدوا إليه يطلبون الشابَّ، فإذا هم بالشَّاب قائم بين صخرتين مغلُوله يدها إلى عُنقه، قد اسودَّ وجهه، وتساقطت أشعار عينيه من البكاء، وهو يقول: سيدي قد أحسنتَ خلقي، وأحسنَتَ صورتِي، وليتَ شعري ماذا تُريد بي، أفني النار تُحرقني، أم في جوارك تُسكِّنني؟ اللَّهُمَّ إِنَّكَ قد أكثرتَ الإحسان إليَّ وأنعمتَ عليَّ، فليتَ شعري

٢. في أمالي الصدوق: أكفاني.

١. في أمالي الصدوق: يقفني وإياك كما.

٣. المِسح: هو كساء من شعر يلبسه الراهب.

ماذا يكون آخر أمري، إلى الجنة ترُفني، أم إلى النار تشوقني، اللهم إني خطيئي أعظم من السماوات والأرض، ومن كُربيتك الواسع، وعزّثك العظيم، فليت شعري تغفر خطيئتي، أم تفصّحني بها يوم القيامة.

فلم يزل يقول نحو هذا [وهو يبكي] ويحثو التراب على رأسه، وقد أحاطت به السباع، وصفت فوقه الطير، وهم يبكون لبكائه، فدنا رسول الله ﷺ فأطلق يديه من عنقه، ونفض التراب عن رأسه، وقال: «يا بهلول، أبشر فانك عتيق الله من النار». ثم قال لأصحابه: «هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول»، ثم تلا عليه ما أنزل الله عز وجل فيه، وبشّره بالجنة^١.

عن البرقي عن الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية صعد إبليس جبلاً^٢، فصرخ بأعلى صوته بعقاريتة، فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيّدنا لماذا دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، فقال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها، فقال الوسواس الخناس: أنا لها، فقال: بماذا؟ قال: أعدّهم وأمتهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا وقعوا في الخطيئة أنسيتمهم الاستغفار، فقال: أنت لها، فوكل بها إلى يوم القيامة»^٣.

وعن ابن مسعود: قال المؤمنون للنبي ﷺ: كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، فكان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبح كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: اجدع أنفك، افعل كذا، فأنزل الله هذه الآية وبين أنهم أكرم على الله منهم؛ حيث جعل كفارة ذنبهم الاستغفار^٤.

ثم أكّد الله سرعة المؤمنين إلى الاستغفار، وعزّمهم على عدم العود في المعصية، بقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يديموا ﴿وَعَلَى مَا فَعَلُوا﴾ من الذنب غير مستغفرين.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام قال: «الإصرار: أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار»^٥.

وعن النبي ﷺ: «ما أصرّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^٦.

وعن الصادق عليه السلام قال: «والله، ما خرج عبد من ذنب بإصرار، وما خرج عبد من ذنب إلا بإقرار»^٧.

وعنه عليه السلام: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»^٨.

ثم قيد شبحانه قبح الإصرار بقوله: ﴿وَهُمْ يَقْلُمُونَ﴾ موضوع المعصية وقبحه وحرّمته: لأنّ الجهل -

١. أمالي الصدوق: ٧٦/٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٥٢. وراجع: أسد الغابة ١: ٢١٠ ترجمة بهلول بن ذؤيب.

٢. زاد في الأمالي: بمكة يقال له نور.

٣. أمالي الصدوق: ٧٣٦/٥٥١، تفسير الصافي ١: ٣٥٢.

٤. تفسير الرازي ٩: ٩. ٥. الكافي ٢: ١٢١٩، تفسير الصافي ١: ٣٥٢. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ٨٧.

٧. الكافي ٢: ٣١٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٢. ٨. الكافي ٢: ١٢١٩، تفسير الصافي ١: ٣٥٢.

بالموضوع مطلقاً، وبالحكم إذا كان عن قُصور - عُذر، ومرفوع في الشريعة، بخلاف ما إذا كان الجهل بانخكم عن التصدير في التعلم، فإن الجاهل المتقصر بمنزلة العايد إجماعاً.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [١٣٦]

ثم أكد سبحانه تخصيص الجنة بالمتقين الواجدين للصفات الحميدة، المستلزم لتخصيص المغفرة لهم، بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المتقون المتصفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ وثوابهم على التقوى والائتصاف بها، أولاً: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الزُوف بهم، ﴿وَوَ﴾ ثانياً: ﴿جَنَّتْ﴾ عديدة كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ مقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، لا تنقضي ساعاتها، ولا تمضي لذاتها. وإنما قدم المغفرة، لأنها دفع الضرر المتقدم على جلب النفع. ثم مدح سبحانه ما أعد لهم من الجزاء لزيادة الترغيب إليه، بقوله: ﴿وَنِعْمَ﴾ الأجر ﴿أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بمرضاة الله، المبالغين في طاعته. وفي التعبير عن تفضله بالأجر، دلالة على أنه بلا شحاحاق واللياقة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [١٣٧ و ١٣٨]

ثم حث الله عباده على طاعته وطاعة رُسوله، ورغبهم في تربية نفوسهم وجهاد أعدائهم، بتذكيرهم أحوال الغصاة من الأمم الماضية بقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت في الأمم الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في القرون الخالية ﴿سُنَنٌ﴾ ومعاملات من الله، ووقائع عظيمة، من الخسف، والغرق، والإهلاك بالصيحة، والصاعقة، والرُجفة، لمخالفتهم الأنبياء والرُسل حرصاً على الدنيا، وأتباعاً للهوى، وطلباً للذات، وانغماراً في الشهوات، وحفظاً للنرات.

وقيل: إن المراد من السُنن السيرة المستقيمة الجارية فيهم، من إهلاك عصاتهم وطغاتهم بعذاب الاستئصال.

ثم لم يبقَ منهم أثر، وبقي عليهم اللُغْن والعذاب الدائم المستقر، فإن أردتم الاطلاع على سوء حالهم ووخامة مآلهم ﴿فَسِيرُوا﴾ وسبحوا ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ لتعرفوا أحوالهم بمشاهدة آثارهم، فإن أثر المشاهدة أقوى في القلب من أثر السماع.

وقيل: إنه ليس المراد المسافرة والمشي بالأقدام، بل المراد تتبع ما يوجب العلم بوقائعهم،

وتَحْصِيلُ الْيَقِينِ بِفَجَانِعِهِمْ، وَلَوْ بَسِيرِ الْكُتُبِ.

﴿فَانظُرُوا﴾ فيها حَتَّى تَعْلَمُوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ للرُّسُلِ، الْمُعَارِضِينَ لِلْحَقِّ وَأُولِيَانِهِ. عن الصادق عليه السلام: «انظروا في القرآن».

ولعله تعالى أشار إلى هذا المعنى بقوله: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ﴾ وإيضاحٌ لسوء عاقبة الأمم الماضية، وَحُجَّةٌ قاطِعةٌ لِلْعُدْرِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ كَافَّةً ﴿وَهَدًى﴾ ورُشْدًا إلى الصَّواب، ودلالةٌ إلى الْحَقِّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ زاجرةٌ عن الضَّلَالِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصَّةً، حيث إنَّهم الْمُتَنَبِّهُونَ به، الْمُسْتَضِيئونَ بِنُورِهِ. ثُمَّ إِنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الْآيَتَيْنِ مُقَدِّمَتَا لِلرُّجُوعِ إِلَى قَضِيَّةِ أَحَدٍ، حيثُ إِنَّهُ تعالى بعدَ تَمْهِيدِ مَبَادِي الرُّشْدِ وَالصَّلَاحِ، وَتَرْتِيبِ مُقَدِّمَاتِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ، ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْوالَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَتَبَهَّهْمُ بِأَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمُ الصَّوْلَةُ فِي الْيَدِ، وَلَكِنْ صَارَ مَأَلُ أَمْرِهِمْ إِلَى الضَّعْفِ وَالْخِزْيِ وَالْهَلَاكِ، وَأَهْلُ الْحَقِّ بعدَ الضَّعْفِ صَارَتْ دَوْلَتُهُمْ غَالِيَةً، وَكَلِمَتُهُمْ غَالِيَةً.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [١٣٩ و ١٤٠]

ثُمَّ نَهَاہُمْ عَنِ الضَّعْفِ وَالْجُبْنِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْبَاطِلِ بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ وَلَا تَضَعُفُوا فِي جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ، لَمَّا تَرَوْنَ مِنْ صَوْلَتِهِمْ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لِمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجُرْحِ فِي قِتَالِهِمْ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ الْمُسْتَوِلُونَ عَلَيْهِمْ بِالْمَالِ، وَهُمْ مَقْهُورُونَ لَكُمْ فِي الْعَاقِبَةِ حَسَبَ مَا شَهِدْتُمْ فِي أَحْوالِ أَسْلَافِهِمْ، وَهَذِهِ الْبِشَارَةُ مِنَ اللَّهِ كَافِيَةٌ لِقُوَّةِ قُلُوبِكُمْ، وَشُرُورِ خَاطِرِكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِمَا يَعِدُكُمْ وَيُبَشِّرُكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَيْهِمْ، حيثُ إِنَّ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ الثَّغَةَ بِاللَّهِ، وَتَصَدِيقَ وَعْدِهِ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَعَدَمَ الْمُبَالَاةِ بِأَعْدَائِهِ.

ثُمَّ سَلَّى شُبْحَانَهُ قُلُوبَهُمْ بقوله: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾ وَيُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ ﴿فَرْحٌ﴾ وَجُرْحٌ ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ الْمُشْرِكِينَ وَأَصَابَهُمْ مِنْكُمْ ﴿فَرْحٌ﴾ وَجُرْحٌ ﴿مِثْلُهُ﴾ بِبَدْرٍ، وَلَمْ يُضْعِفْ ذَلِكَ قُلُوبَهُمْ، وَلَمْ يُبْطِئْهُمْ عَنْ مُعَاوَدَتِكُمْ بِالْقِتَالِ، بَلْ زَادَ ذَلِكَ فِي جِدَّتِهِمْ فِيهِ.

قِيلَ: قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ سَبْعِينَ، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ، وَقَتَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَخْذِ سَبْعِينَ، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ.^٢

وحاصل المعنى: إن نالوا منكم يوم أحد، فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر مثل ما نالوا، ثم لم تصف قلوبهم، مع أنكم أولى بأن لا تصفوها؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون.

وقيل: إن المراد: إن نال المشركون في أحد منكم آخر النهار، فقد نلتهم منهم أول النهار، فقتل من المشركين في أحد أولاً بُيِّنَ وعشرون رجلاً، وقُتِلَ صاحبُ لوانهم طلحة بن أبي طلحة، وعُقرت عامة خيولهم بالنبل، وكانت الهزيمة عليهم أول النهار.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ والوقائع الجارية في الأسم الماضية والأقوام الآتية من الصولة والجولة والفاخرة والمتهورة أمور ﴿تُذَكِّرُهَا﴾ ونصرفها ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ من الأولين والآخرين، ونجعل الغلبة تارة لطائفة، وأخرى لأخرى.

فإنه لو كانت المحنة والشدّة على الكفار في جميع الأوقات، والغلبة والفتح والسلامة للمؤمنين في جميع الأوقات، لحصل العلم الضروري والاضطراري لجميع الناس بأن الإيمان حق، وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب.

فلهذا يسلط الله المحنة على أهل الإيمان تارة، وعلى أهل الكفر أخرى، لتكون الشبهات باقية، والمكلف - بالنظر في الدلائل، بالاجتهاد الصائب - يدفعها حتى يعظم ثوابه.

ثم بين سبحانه أن غلبة الكفار على المؤمنين - لهذا الوجه ولغيره - من الحكيم الخفية، والمصالح المكنونة ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ واختصوا إيمانهم، وثبتوا عليه، ويميزهم بين الناس من غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ واختار طائفة ﴿مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ في سبيل الله، مقتولين في ترويج دينه، وإعلاء كلمته، وهم الذين أكرمهم الله في أحد بالشهادة، ونالوا بهذه الكرامة درجة يغبطهم بها الأولون والآخرين غير البدرين والطفيين.

ثم أنه تعالى - لتقرير أن غلبة المشركين لم تكن من التفضل عليهم والطف بهم، بل كانت لابتلاء المؤمنين عامة، ولتكريم طائفة منهم خاصة - أعلن بالغضب على المشركين بقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم.

وإنما عدل سبحانه عن التعبير بـ (المشركين) إلى التعبير بـ (الظالمين)، للإشارة إلى علة الغضب وهو الظلم على أنفسهم، وعلى النبي ﷺ، ولأن يشمل العنوان جميع من عصى الله، [سواء] كان العيصان بالشرك، أو الفرار من الزحف.

ثم أنه تعالى - بعد بيان عِلَّتَيْنِ لَغَلْبَةِ الْمُشْرِكِينَ: مِنْ امْتِحَانٍ مَنْ يُظْهِرُ الْإِيمَانَ، وَتَمَيِّيزُ الثَّابِتِينَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَإِكْرَامِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّهَادَةِ - ذَكَرَ الْعِلَّةَ الثَّلَاثَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِيُصَمِّحَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيُظْهِرَهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ، بِسَبَبِ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْيَمْحَرِ وَالْجِرَاحَاتِ، فَإِنَّ الشَّدَائِدَ الدُّنْيَوِيَّةَ أَذَبَ لَهُمْ، وَكَفَّارَةً لِرِزَالَتِهِمْ.

ثم أشار سبحانه إلى الْعِلَّةِ الرَّابِعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ حَارَبُوا رَسُولَهُ ﷺ وَيُهْلِكُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا، بِسَبَبِ شِدَّةِ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِعَذَابِهِ إِنْ لَمْ يُسْلِمُوا، وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْ ظَلَمِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ.

قيل: إِنَّ اللَّهَ مُحَقِّمٌ جَمِيعًا، فَظَهَرَ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ هَلَاكُهُمْ تَطْهِيرًا لَذُنُوبِهِمْ، وَرَفْعًا لَدَرَجَاتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ [١٤٢]

ثم لما كان الامتحان هو الغاية القصوى من المداولة، أكدّه سبحانه وقرّره بقوله، مخاطباً للمُتَنَزِّهِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ قيل: إِنَّ التَّقْدِيرَ: أَعْلِمْتُمْ أَنْكُمْ لَا تَنَالُونَ خَيْرًا إِلَّا بِبَاتِكُمْ فِي الْإِيمَانِ، وَصَبْرِكُمْ عَلَى جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ؟ أَمْ تَوْهَمْتُمْ ﴿أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ وَتَنَالُوا أَعْلَى دَرَجَاتِ الْخَيْرَاتِ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴿وَلَمْ يُمَيِّزْ﴾ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بِخُلُوصِ النِّيَّةِ، وَالْإِيمَانِ الرَّاسِخِ - مِنْ غَيْرِهِمُ الَّذِينَ انْهَزَمُوا لِحُبِّ الدُّنْيَا وَضَعُفِ الْإِيمَانِ، ﴿وَوَ أَنْ﴾ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَمَشَاقِّ التَّكَالِيفِ، وَيُمَيِّزُهُمْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى لَذَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ.

وحاصل المراد، والله العالم: أَنْتَوَقِعُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ، وَتَغُوزُوا بِبَعِيْمِهَا، وَتَصِلُوا إِلَى كَرَامَةِ اللَّهِ وَقُرْبِهِ، وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْكُمْ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الشَّدَائِدِ فِي مَرْضَاتِهِ.

فإنه لا يكون ذلك في حِكْمَةِ اللَّهِ أَبَدًا، لِاسْتِحْوَاجِ اجْتِمَاعِ ثُبُتِ الذَّاتِ، وَظُلْمَةِ الْقَلْبِ - الْمُسْتَتَبِعِينَ لِحُبِّ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا - مَعَ السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ، وَالْكَرَامَاتِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ، لَغَايَةِ التَّبَاطُئِ وَالتَّنَاضُافِ بَيْنَهُمَا.

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية قال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ يُكُونُهُ قَبْلَ أَنْ يُكُونَهُ، وَعَلِمَ بِهِمْ دَرًّا مِنْ يُجَاهِدُ وَمَنْ لَا يُجَاهِدُ»^٢ الخبر.

والظاهر أَنَّ المراد من الرواية أَنَّ نَعْيَ الْعِلْمِ لَيْسَ عَلَى مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ، بَلْ هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الْمَعْلُومِ، فَنَزَلَ نَعْيُ الْعِلْمِ مَنَزِلَةً نَعْيَ الْجِهَادِ لِلتَّأَكُّيدِ وَالْمُبَالَغَةِ؛ لِأَنَّ وَقُوعَ الشَّيْءِ مُسْتَلَزِمٌ لَكُونِهِ مَعْلُومًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَانْتِفَاءُ الْكَارِزِمِ بَرَهَانٌ عَلَى انْتِفَاءِ الْمَلْزُومِ.

ثُمَّ أَنَّهُ كَانَ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا، وَكَانُوا يَتِمْنُونَ أَنْ يَشْهَدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُشْهَدًا يَنْالُوا فِيهِ مَا نَالَ شُهَدَاءُ بَدْرٍ مِنَ الشَّهَادَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَلِذَا ائْتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْمَشَاوِرَةِ، فِي الْخُرُوجِ إِلَى اخْتِدَادٍ، فَخَرَجَ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ وَنَزَلَ اخْتِدَادًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ ﷺ أَمَرَ الرُّمَاءَ أَنْ يَلْزَمُوا أَصْلَ الْجَبَلِ، وَلَا يَتَقِيلُوا عَنْ ذَلِكَ، سَوَاءً كَانَ الْأَمْرُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا وَقَعُوا وَحَمَلُوا عَلَى الْكُفَّارِ هَزَمَهُمْ^٣.

فِي قِتْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
أَصْحَابِ لُؤَاءٍ قَرِيشٍ فِي اخْتِدَادٍ
وَقِتْلِ خَالِدِ أَصْحَابِ الشَّعْبِ
وَانْهَزَامِ الْمُسْلِمِينَ
وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبَ رَايَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَاتَلَ قِتَالًا عَظِيمًا، حَتَّى اتَّوَى سَيْفَهُ، وَقَتَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ صَاحِبَ لُؤَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَحَمَلَ الزُّبَيْرُ وَالْبَغْدَادُ وَشَدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ حَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَهَزَمُوا أَبَا سَفْيَانَ لَعْنَهُ اللَّهُ، وَحَمَلَ أَبُو دُجَانَةَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا، فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَعَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ فِي سَوَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى مَيْمَنَةِ الْكُفَّارِ فَانْحَطَّ فِي مَانِيٍّ فَارِسٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ مِنْ قِبَلِ الشَّعْبِ، فَاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالسَّهَامِ فَرَجَعَ، وَنَظَرَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَيَّوْنَ سَوَادَ الْقَوْمِ، فَقَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: غَنِمَ أَصْحَابُنَا وَبَقِيَ نَحْنُ بَلَا غَنِيمَةٍ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدِ اللَّهِ: اتَّقُوا اللَّهَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نَبْرَحَ، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَأَقْبَلُوا يَنْسَلُ رَجُلٌ فَرَجُلٍ، حَتَّى أَخْلَوْا مَرَكَزَهُمْ، وَبَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا.

وَكَانَتْ رَايَةُ قَرِيشٍ مَعَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيِّ^٥ فَقَتَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ أَبُو سَعِيدٍ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَقَطَتِ الرَّايَةُ فَاخْذَهَا مَسَافِعُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى قَتَلَ تِسْعَةَ

١. فِي تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ: بِمَا هُوَ مَكُونُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَهُ وَهُمْ ذُرٌّ، وَعِلْمٌ.

٢. تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ١: ٧٨٦/٣٤٠، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١: ٣٥٦.

٣. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٩: ٢٠.

٤. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢: ٩٣.

٥. الْعَبْدَرِيُّ: نَسَبُهُ إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ.

من بني عبدالدار، فصار لإواؤهم إلى عَبدٍ لهم أسود يُقال له صواب، فانتهى إليه عليٌّ عليه السلام فقطع يده، فأخذ الزاية بيده اليسرى، فضرب يسراه فقطعها، فاعتنقها بالجذماوين^١ إلى صدره، ثم التفت إلى أبي سفيان فقال: هل أعذرت في بني عبدالدار؟ فضربه عليٌّ عليه السلام [على رأسه] فقتله، فسقط اللواء فأخذته عَمْرَة بنت عَلْقمة الكِنانية فرفعته.

وانحطَّ خالد بن الوليد على عبدالله بن جبير وقد فر أصحابه وبقي [في] نَقَرٍ قليل، فقتلهم على باب الشَّعب، ثم أتى المسلمون من أدبارهم.

ونظرت قُرَيْش في هزيمتها إلى الزاية قد رُفعت فلاذوا بها، وأهزم أصحاب رَسُول الله ﷺ هزيمةً عظيمةً، وأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كُلِّ وَجْه، فلما رأى رَسُول الله ﷺ الهزيمة كشف البيضة عن رأسه، وقال: «إني^٢ أنا رَسُول الله، أين تَفِرُّونَ عن الله وعن رَسُوله؟»^٣.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [١٤٣]

فظهر عند ذلك كِذْب جماعة، كانوا يتمنون الشهادة ويُلْحِقُونَ على النبي ﷺ في الخُروج عن المدينة لِجهاد المشركين، فوبَّخهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِ الْوَفْعَةِ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ بِالشَّهادة، وتُظْهِرُونَ اشتياقكم إليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وشاهدوه بِمُشاهدة مَبَادِيه، وتعرَّفوا هَوْلَه وشِدَّتَه، فإن كُنتُمْ صَادِقِينَ في إظهار التَّسَنِّي ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ بِرؤية أسبابه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ لَفَرَط قُرْبِه إليكم كَأَنَّكُمْ ﴿تَنْظُرُونَ﴾ إليه وتُعَانِيُونَه حِينَ قُتِلَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مَنْ قُتِلَ [مَنْ] إخوانكم وأقاربكم، وشَارَفْتُمْ على أن تُقْتَلُوا، فلمْ هَزِمْتُمْ وفعلتُمْ ما فعلتُمْ وتركتم الرِّشُول بين أعدائه؟ وفيه غاية التوبيخ والتعريع. فسي رُفعة أحد، وروى أنه كانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان في وسط العسكر، وكلما أنهزم وشهادة حمزة عليه السلام رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ دفعته إليه ميلاً ومُكْحَلَةً وقالت: إنما أنت امرأة فاكْجُلْ بهذا، وكان حمزة بن عبدالمطلب يحمل على القوم فإذا رآوه أنهزموا، ولم يثبت له أحد، وكانت هند [قد] أعطت وحشيًا عهداً: لئن قُتِلَ مُحَمَّدٌ أَوْ عَلِيٌّ أَوْ حمزة لأعطينك كذا وكذا. وكان وحشي عبدًا لَجِيرِ بن مُطْعَم، حَشِيًّا - فقال وحشي: أما مُحَمَّدٌ فلا أقدر [عليه]، وأما عليٌّ فرأيتُه حذِرًا كثير الالتفات فلا مُطْعَم فيه، وأما حمزة فلعلِّي أَقْتَلُه.

٢. في مجمع البيان: إلي.

١. الجذماوين: منى الجذمة، وهي الأصل الباقي من اليد المقطوعة.

٣. مجمع البيان ٢: ٨٢٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٦.

فَكَمَنْ لَحْمَةً، قَالَ: فَأَرَيْتَهُ يَهْدُ^١ النَّاسَ هَذَا، فَمَرَّ بِى فَوْطِنٌ عَلَى طَرْفٍ^٢ نَهَرٍ فَسَقَطَ، فَأَخَذَتْ حَرْبَتِي فَهَزَّزْتُهَا، وَرَمَيْتَهُ فَوَقَعَتْ فِي خَاصِرَتِهِ وَخَرَجَتْ مِنْ ثَنَّتِهِ^٣ فَسَقَطَ، فَأَتَيْتُهُ وَشَقَقْتُ بَطْنَهُ، فَأَخَذْتُ كَبِدَهُ وَجِئْتُ بِهِ إِلَى هِنْدَ فَقُلْتُ: هَذِهِ كَبِدُ حِمْرَةٍ، فَأَخَذَتْهَا فِي فَمِهَا فَلَاكَتْهَا، فَجَعَلَهَا اللَّهُ مِثْلَ الدَّائِغَةِ؛ وَهِيَ عَظْمُ رَأْسِ الزَّكْبَةِ، فَلَفَظَتْهَا وَرَمَتْ بِهَا.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَبِعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَرَدَّهَا إِلَى مَوْضِعِهَا». قَالَ وَحْشِي: فَجَاءَتْ هِنْدُ إِلَيْهِ فَقَطَعَتْ مَذَاكِيرَهُ [وَقَطَعَتْ أَذْيَهُ] وَقَطَعَتْ يَدَهُ وَرَجَلَهُ.

وَلَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ، فَكَلَّمَا حَمَلَتْ طَائِفَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اسْتَقْبَلَهُمْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَفَعَهُمْ حَتَّى انْقَطَعَ سَيْفُهُ، فَدَفَعَ [إِلَيْهِ] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيْفَهُ ذَا الْقَعَارِ. وَانْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى نَاحِيَةِ فَوْقِ، وَكَانَ الْقِتَالُ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَاتِلُهُمْ حَتَّى أَصَابَهُ فِي وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ وَيَدَيْهِ^٤ وَرَجُلَيْهِ سَبْعُونَ جِرَاحَةً.

قَالَ: فَقَالَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ هَذِهِ لِهِيَ الْمَوَاسَةُ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ».

وَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَى كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْقَعَارِ، وَلَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ^٥».

وَفِي رِوَايَةٍ: بَقِيَ مَعَهُ ﷺ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ أَبُو دُجَانَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَبَا دُجَانَةَ، انصَرِفْ، أَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ بَيْعَتِكَ وَبَيْعَتِي، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَهُوَ أَنَا وَأَنَا هُوَ»، فَتَحَوَّلَ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ وَبَكَى وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا جَعَلْتُ نَفْسِي فِي حِلٍّ مِنْ بَيْعَتِي، إِنِّي بِابِعَتِكَ فَإِلَى مَنْ انصَرِفْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَى زَوْجَةٍ تَمُوتُ، أَوْ إِلَى وَلَدٍ يَمُوتُ، أَوْ دَارٍ تَخْرُبُ، أَوْ مَالٍ يَفْنَى، وَأَجَلٍ قَدْ اقْتَرَبَ؟ فَرَفَعَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ حَتَّى أَتَخْتَهُ الْجِرَاحَ، وَهُوَ فِي وَجْهِهِ، وَعَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَجْهِهِ، فَلَمَّا سَقَطَ احْتَمَلَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَهُ عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ فَيْتَ بَيْعَتِي، قَالَ ﷺ: «نَعَمْ». وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَيْرًا^٦.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ كَثُرَ الْقَتْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ^٧.

وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَ النَّاسُ يَحْمِلُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ السَّيْمَةَ، فَيَكْشِفُهُمْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا كَشَفَهُمْ أَقْبَلَتْ الْمَيْسِرَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُطِعَ سَيْفُهُ بِثَلَاثِ قَطْعٍ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَطَرَحَهُ بَيْنَ

١. هَذَا: قَطَعَ بِسُرْعَةٍ. ٢. فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: جَرْفٌ.

٣. فِي النُّسخَةِ: ثَنِيَّتُهُ، وَثَنَّتُهُ، أَيْ أَسْفَلَ بَطْنِهِ.

٤. زَادَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: وَبَطْنَهُ.

٥. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٢: ٨٢٥، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٣٤٧.

٦. الْكَافِي ٨: ٥٠٢/٣١٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٣٥٧.

٧. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٩: ٢٠.

يَذِيهِ وقال: «هذا سيفي قد تقطع» فيومئذٍ أعطاه النبي ﷺ ذا الفقار، ورأى اختلاج ساقيه من كثرة القتال، فرفع رأسه إلى السماء وهو يبكي وقال: «يا رب، وعَدْتَنِي أَنْ تُظْهِرَ دِينَكَ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ يُغَيِّكْ»^١.

في ارتداد جمع من الصحابة نسي أحد

وقال ابن عباس: ورمى عبدالله بن قميئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته، وشج وجهه، وأقبل يريد قتله، فذب عنه مصعب بن عمير، وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى قتله ابن قميئة، وظن أنه قتل رسول الله ﷺ قال: قد قتل محمدًا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قُتِل، وكان الصارخ الشيطان لعنه الله، ففشا في الناس خبر قتله ﷺ.

فهناك قال بعض المسلمين: ليت عبدالله بن أبي يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، وقال قوم من المنافقين: لو كان نبياً لَمَا قُتِل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم، وقال أنس بن النضر ﷺ - عم أنس بن مالك - يا قوم، إن كان قد قُتِل محمد ﷺ فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، قاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء، ثم سَل سيفه فقاتل حتى قُتِل ﷺ^٢.

وفي رواية بعض المفسرين من العامة: أن أنس بن النضر أقبل إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبدالله، في رجال من المهاجرين والأنصار، فقال لهم: ما يحبسكم؟ قالوا: قُتِل محمد ﷺ، فقال ﷺ: ما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا إكراماً على ما مات عليه نبيكم. ثم أقبل نحو العدو فقاتل حتى قُتِل رضوان الله عليه^٣.

وروي أنه مر بعض المهاجرين بأنصاري يتشخط في دمه فقالوا: يا فلان، أشعرت أن محمدًا قد قُتِل؟ فقال: إن كان قد قُتِل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم^٤.

قال كعب بن مالك: أنا أول من عرف رسول الله ﷺ من المسلمين، رأيته عبيته من تحت المغفرة^٥ تزهان، يُنادي بأعلى صوته: «إلي عباد الله»^٦. فاجتمعوا إليه، فلامهم رسول الله ﷺ على هزيمتهم، فقالوا: يا رسول الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أأنا خبز سوء فوعبت قلوبنا فولينا مدبرين^٧.

١. الكافي ٨: ٥٠٢/٣٢٠، تفسير الصافي ١: ٣٥٧، ولم يُعَيِّك، بمعنى لم يُعْجِزْكَ ولم يتعَيِّك.

٢. تفسير الرازي ٩: ٢٠. ٣. تفسير روح البيان ٢: ١٠٣. ٤. تفسير الرازي ٩: ٢٠.

٥. المغفرة أو المَغْفَر: درع منسوج من خَلْي على قدر الرأس، يُلبس تحت القلنسوة.

٦. زاد في تفسير روح البيان: إلي عباد الله. ٧. تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ [١٤٤]

وَرُوي أَنَّهُ ارْتَدَّ فِي أَحَدِ جَمْعٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، مُعْذِرِينَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ^١، وَلَمْ
يَنْفَخْصُوا عَنْ صِدْقِ الْخَبَرِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَقَامِهِمْ وَمَقَامِهِ ﷺ مَسَافَةٌ بَعِيدَةً، فَوَبَّخَهُمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
عَلَى ارْتِدَادِهِمْ بَعْدَ تَوْيِخِهِمْ عَلَى فِرَارِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ كَسَانِ الرُّسُلِ يَأْكُلُ وَيَمْشِي
وَيَمُوتُ وَيَقْتُلُ، وَلَيْسَ أَمْتِيَاظُهُ مِنْ سَانِرِ الْبَشَرِ إِلَّا بِكَمَالِ النَّفْسِ وَمُنْصِبِ الرُّسَالَةِ.

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ لَوَازِمِ هَذَا الْمَقَامِ الْخُلُودُ فِي الدُّنْيَا، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ وَمَضَتْ مِنْ
الدُّنْيَا بِالْمَوْتِ وَالْقَتْلِ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾، وَفِي الْأَزْمَةِ السَّابِقَةِ عَلَى بَعْثِهِ ﴿الرُّسُلُ﴾ الْمَبْعُوثُونَ عَلَى الْأَمْرِ، ثُمَّ
لَمْ يَرْجِعِ الْمُؤْمِنُونَ بِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ تَمَسُّكُهُمْ عَنْ شَرِيعَتِهِمْ، بَلْ كَانُوا مُسْتَمِرِّينَ عَلَيْهَا، فَإِنْ
الْفَرَضُ مِنْ بَعَثِ الرُّسُولِ الْهِدَايَةِ، وَتَبْلِيغِ الدِّينِ، وَتَبْيِينَ الْحَقِّ، وَإِلْزَامِ الْحُجَّةِ، لَا وَجُودَهُ بَيْنَ أَمْتِهِ أَبَدًا.
فَالْإِزْدَادُ عَنْ دِينِ الرُّسُولِ، وَرَفْعُ الْيَدِ عَنْ شَرِيعَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ أَوْ قَتْلِهِ مِنَ الْبِدَائِعِ الْمُسْتَنْكَرَةِ، وَلِذَا
أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُتَرَدِّينَ فِي أَحَدِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ عَلَى حَسَبِ
الْفَرَضِ ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، وَرَجَعْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ.
ثُمَّ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ اتَّفَقَتِ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ عَلَى أَنَّ عَمَرَ كَانَ مِنَ الْفَارِسِينَ مِنَ الرَّخَفِ، الْمُؤَلِّينَ الدُّبُرِ.

وقال ابن أبي الحديد:

فَإِنْ أُنْسَ لَمْ أُنْسِ الَّذِينَ تَقَدَّمَا وَفَرُّهُمَا وَالْفَرُّ قَدْ عَلِمَا حُوبُ^٢
وَمُرَادُهُ مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمَا: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وَمِنْ الْعَجَبِ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ رَوَى الْفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ: أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ صَعِدَ الْجَبَلَ يَوْمَ أَحُدَ، ثُمَّ
قَالَ: أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ وَأَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، وَهَذَا أَبُو
بَكْرٍ، وَأَنَا عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: يَوْمَ بَيَومٍ، وَالْأَيَّامُ ذَوَلٌ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لَا سَوَاءَ، قَتَلْنَا فِي
الْجَنَّةِ، وَقَتَلَاكُمْ فِي النَّارِ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: إِنْ كَانَ كَمَا تَزْعُمُونَ، فَقَدْ خَبَرْنَا إِذْنًا وَخَيْرَنَا^٣.

وَلَيْتَ شِعْرِي؛ مَتَى حَصَلَ لِعُمَرَ اعْتِقَادُ أَنَّ قَتْلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ، أَقْبَلُ الْفِرَارِ أَمْ بَعْدَ حُصُولِ
الْأَمْنِ؟ فَإِنْ كَانَ قَبْلَ الْفِرَارِ، فَكَيْفَ لَمْ يَرُدَّعَهُ هَذَا الْعَقِيدُ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ مَعَهُ أَنْ يَحْتَبِسَ عَنِ الْقِتَالِ

حتى يقول أنس بن النضر: ما يحبسكم عن القتال؟ فيقول: قد قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ^١، وإن كان بعدَ حصول الأمن، ورجوع الفارين من الرُّخف إلى النبي ﷺ، وخيبة المشركين، وتوبيخ النبي إياهم، واعتذارهم بأنه أتانَا خَيْرَ سُوءٍ فَرُعِيتْ قُلُوبُنَا^٢، فهذا إيمانٌ بعدَ الارتداد، والظاهر أنه كان بعدَ رجوع أبي سفيان وحزبه إلى مكة.

ثم اعلم أن المهاجرين والأنصار الذين كان إيمانهم في زمان النبي ﷺ بهذه المثابة، لا يبعد منهم الارتداد بعد وفاته ﷺ للأحقاد الجاهلية وطمع الرئاسة.

ثم أنه قال الفخر الرازي: إن الله تعالى بينَ في آيات كثيرة أنه ﷺ لا يقتل، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^٣، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^٤، وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^٥.

في ذكر اعتذار بعض العامة لتجوير عمر قتله ﷺ، وقال: تجويزهم لقتله مع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لِمَا أَنَّ قَتْلَ آيَةٍ لَا يَسْمَعُهَا كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهَا يَسْتَحْضِرُهَا فِي كُلِّ مَقَامٍ، لَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْهَائِلِ^٦.

أقول: في إصلاح الاعتذارين فساد ما صدر من عمر ما لا يخفى، أما الاعتذار بأن عمر لم يسمع الآيات، فيمّا لا يمكن قَبُولُهُ - سِيَّما من المعتذر وأصحابه من أهل السنة - لاغتيادهم في عمر أنه كان من بطانة الرسول ﷺ ومع ذلك، كيف يمكن القول بعدم اطلاعه على هذه الآيات، وعدم سماعه لها، مضافاً إلى أنه لا يمكن أن يعتدّ المؤمن برسالة محمد ﷺ قتله في أحد، مع إخباره ﷺ قبل خروجه إلى أحد برُجوعه حيّاً إلى المدينة، حيث قال عند ذكره رؤياه: «ثم إنني رأيتُ أني أدخلتُ يدي في درع حصينة، أولتها أني أرجعُ إلى المدينة»^٧.

وأما الاعتذار بعدم استحضار الآيات، ونسيانها والغفلة عنها، ففي غاية البُعد، مع كَوْنِ تلاوة القرآن والتدبر في آياته من أعظم عبادات المؤمنين، وأهم مشاغلهم، بحيث كان مدلول ظواهرها نَضْبَ أعينهم راسخاً في قلوبهم.

في زلة عمر بعد وفاة النبي ﷺ ومن الغرائب: استشهد أبو السعد على غفلة الصحابة عن تلك الآيات، بغفلة عمر عن هذه الآية بعد وفاة النبي ﷺ^٨، وتبعه صاحب تفسير (روح البيان) حيث قال: ورد الاعتذار له

١. تفسير روح البيان ٢: ١٠٣.
٢. الزمر: ٣٩/٣٠.
٣. تفسير أبي السعد ٢: ٩٣.
٤. المائدة: ٥/٦٧.
٥. تفسير الرازي ٩: ٢١، والآية من سورة الصف: ٦١/٩.
٦. تفسير أبي السعد ٢: ٩٣.
٧. تفسير أبي السعد ٢: ٧٨، تفسير روح البيان ٢: ٨٧.
٨. تفسير أبي السعد ٢: ٩٣.

لَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اضْطَرَبَ الْمُسْلِمُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ دُهِشَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْعَدَ وَلَمْ يُطْلَقِ الْقِيَامُ، وَمِنْهُمْ مَنْ اعْتَقَلَ لِسَانَهُ فَلَمْ يُطْلَقِ الْكَلَامُ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ مَوْتَهُ بِالْكَلْبَةِ، حَتَّى غَفَلَ عُمَرُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عِنْدَ وَفَاتِهِ ﷺ، وَقَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ: إِنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ ﷺ تَوَفَّى، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَا مَاتَ، وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ، كَمَا ذَهَبَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، فغَابَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ رَجَعَ، وَاللَّهُ لَيَرْجِعَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا تَطْعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلُهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ. وَلَمْ يَزَلْ يُكْرَرُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَامَ أَبُو بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

قال الراوي: والله، لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر، فاشتبهت الناس كلهم بموته^١.

وفي رواية أبي السعد: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلو فقبرت حتى لا تخمليني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات^٢، انتهى.

[وذلك]^٣ لَوْضُوحُ أَنَّ ضَعْفَ إِيمَانٍ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَتَفَاقُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَخُبْرُهُمُ لِلْحَيَاةِ، صَارَ سَبَبًا لِفِرَارِهِمْ فِي أَحَدٍ قَبْلَ سَمَاعِ خَبَرِ قَتْلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَا غَفْلَتُهُمْ عَنْ آيَةِ ﴿وَاللَّهُ يَغْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ فَإِنَّ الْآيَةَ لَمْ تَنْزَلْ بَعْدَ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ.

وأما إنكار عمر موت النبي ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لَغْفَلَتِهِ عَنْ آيَةِ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ بَلْ لَتَغَافَلَهُ عَنْهَا، وَتَذْيِيرُهُ فِي إِقَاءِ الشُّبْهِةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَتَفْرِيقِهِمْ عَنْ بَابِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ، لِيَتِمَّكَنَ فِي بَرْهَةِ مِنْ الزَّمَانِ إِلَى أَغْرَاضِهِ الْفَاسِدَةِ لَوْضُوحِ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ بِمَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَكُنْ مُتَوَقِّعًا عَلَى إِخْبَارِ اللَّهِ بِأَنَّهُ يَمُوتُ، وَعَلَى الْإِتِّفَاقِ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

بَلْ كَانَ مَوْتُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ جَمِيعِ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَالْأَدْيَانِ، مَعَ إِخْبَارِ اللَّهِ بِمَوْتِهِمْ فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، مُضَافًا إِلَى كَيْفَايَةِ عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^٤ مَعَ عَدَمِ ظُهُورِ مُخْصَّصٍ لَهُ وَإِخْبَارِهِ ﷺ بِمَوْتِهِ مُكَرَّرًا، حَتَّى سَأَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُ ﷺ وَقَالَا لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا حَدَّثَ حَدَّثَ فَإِلَى مَنْ نَرْجِعُ؟

وقوله ﷺ، في الحديث المتفق بين الفريقين: «إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب،

٢. تفسير أبي السعد ٢: ٩٣.

٤. آل عمران: ١٨٥/٨٣.

١. تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.

٣. في النسخة: بياض، وما أثبتناه بقضيه السياق.

وَأَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ التَّقْلِينَ: أولهما: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي خَيْرًا^١. مُضَافًا إِلَى تَرَاكُمُ الْقَرَائِنَ الْقَطْعِيَّةَ عَلَى مَوْتِهِ، مِنْ صُرَاحٍ أَهْلِهِ، وَاشْتَغَالٍ عَلَى ﷺ بِتَجْهِيزِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَلَيْتَ شِغْرِي، كَيْفَ لَمْ يُجَوِّزْ هُنَا مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنْكَرَهُ حَتَّى اخْتَلَقَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ أَنَّهُ ﷺ ذَهَبَ لِنَاجِي رَبِّهِ... إِلَى آخِرِ مَا نَقَلَهُ شَيْعَتُهُ عَنْهُ.

وَجَوِّزَ مَوْتَهُ ﷺ فِي يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ قَبْلَهُ، حِينَ دَعَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِدَوَاءٍ وَكَيْفَ كَيَّ يَكْتُبُ كِتَابًا لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَا يَضِلُّونَ بَعْدَهُ، حَيْثُ قَالَ: حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ^٢ بِعَدِّ مَوْتِهِ.

بَلْ قَطَعَ بَقْلَهُ فِي أَحَدٍ، بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَدْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ، مِنْ غَيْرِ فَحْصٍ وَتَحْقِيقٍ، مَعَ قُرْبِ مَكَانِهِ مِنْ مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ لَأَنْسَ بِنِ النَّضْرِ مُعْتَذِرًا عَنْ فِرَارِهِ مِنَ الرَّخْفِ: قَدْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ^٣. وَقَالَ بَعْدَ تَوْثِيخِ الرَّسُولِ ﷺ أَصْحَابَهُ الْفَارِيزِينَ مِنَ الرَّخْفِ: إِنَّهُ أَنَا نَا خَيْرٌ قَتَلْتُكَ، فَاسْتَوْلَى الرَّغْبَ عَلَى قُلُوبِنَا، فَوَلَّيْنَا مُدْبِرِينَ^٤.

ثُمَّ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْاِغْتِيَارَ عَنْ إِنْكَارِهِ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ بِنِسْيَانِهِ آيَةَ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، حَيْثُ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِهِ وَشَأْنِ أَصْحَابِهِ، بَعْدَ فِرَارِهِمْ مِنَ الرَّخْفِ فِي وَاقِعَةٍ أُخِذَ: لِأَنَّ نِسْيَانِ تِلْكَ الْآيَةِ كَانَ مُشْرُوطًا بِنِسْيَانِ تِلْكَ الْوَقْعَةِ، وَهُوَ مِنَ الشَّحَالَاتِ الْعَادِيَةِ فِي حَقِّهِ. وَلَا يَغْفُلُ عَنْهَا لِاضْطِرَابِ خَاطِرِهِ، لِدَلَالَةِ مَا اخْتَلَقَهُ عَلَى جَمْعِيَّةِ حَوَاسِهِ، وَشُكُونِ خَاطِرِهِ، وَقُوَّةِ فِكْرِهِ، وَكَمَالِ تَذْبِيرِهِ.

فَنَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ: أَنَّ الْوَجْهَ فِي صُدُورِ هَذَا الْقَوْلِ الشَّيْعِ مِنْهُ مُنَحْصِرٌ فِي كَوْنِهِ حِيلَةً اخْتِالَاهُ، لِتَفْرِيقِ النَّاسِ عَنْ بَابِ بَيْتِ النَّبَوَّةِ، وَصَرْفِ الْقُلُوبِ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى عَلِيِّ ﷺ، وَجَمْعِ النَّاسِ فِي السَّقِيفَةِ. فَلَمَّا التَفَتَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ فَسَادُهُ أَظْهَرَ مِنْ أَنْ يَخْفَى عَلَى ذِي مُشْكَةٍ، بَادَرَ إِلَى إِظْهَارِ خِلَافِهِ، وَصَرْفِ عُمُرِ عَنْهُ، لِئَلَّا تَرْدَادُ فُضِيحَتُهُمَا.

عَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ، مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ قُتِلَ؟ إِنْ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَفَايِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْفَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ - ثُمَّ قَالَ ﷺ -: [فَنَسَمُ قَبْلَ الْمَوْتِ] إِنَّهُمَا سَقَتَاهُ قَبْلَ الْمَوْتِ» يَعْنِي الْأَمْرَاتَيْنِ لَعْنَهُمَا اللَّهُ^٥. ثُمَّ هَدَّدَ اللَّهُ شَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ارْتِدَادِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَرْجِعْ إِلَى كُفْرِهِ الْأَصْلِيِّ﴾ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ بِارْتِدَادِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَى الْكُفْرِ «شَيْئًا» مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ النَّفْعِ

١. صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣/٢٤٠٨، سنن الترمذي ٥: ٦٦٢/٣٧٨٦ و٣٧٨٨، مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨.

٢. صحيح مسلم ٣: ٢٢٢/١٢٥٩، صحيح البخاري ٧: ٢١٩/٣٠، مسند أحمد ١: ٣٢٤.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١٠٣.

٤. تفسير الرازي ٩: ٢١، تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.

٥. تفسير العياشي ١: ١٥٢/٣٤٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

وَالصَّرْرَ، بَلْ يَصْرِ نَفْسَهُ أَشَدَّ الصَّرْرَ، مِنْ خُشْرَانِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ.

عن (الجمع بين الصحيحين)، في مسند سهل^١، من المتفق عليه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ [أَبْدًا]، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ»^٢.

أقول: قوله: «أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي» قرينة على إرادة الصحابة. فيقول ﷺ: «إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي» فيقال: إِنَّكَ مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فأقول: شَخْطًا شَخْطًا لِمَنْ بَدَلَ بعدي.

وعنه أيضاً - مِنْ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي» فيقال: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ»^٣ قال: لي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ»^٤.

في ارتداد الناس
بعد الرسول ﷺ
إلا ثلاثة

وعن الباقر عليه السلام، قال: «كَانَ النَّاسُ أَهْلَ رِدْوَةٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَّا ثَلَاثَةً» قيل: وَمَنْ الثَّلَاثَةُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْمِقْدَادُ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ عَرَفَ أَنَا شَيْئاً بَعْدَ يَسِيرٍ»

وقال: «هؤُلاءِ الَّذِينَ دَارَتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ، وَأَبَوْا أَنْ يُبَايَعُوا حَتَّى جَاءُوا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكْرَهَا فَبَايَعَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآية»^٥.

وفي خطبة الوسيلة لأمر المؤمنين صلوات الله عليه: «حَتَّى إِذَا دَعَا اللَّهُ نَبِيَّهُ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ لَمْ يَكْ ذَلِكَ بَعْدَهُ إِلَّا كَلِمَةٌ مِنْ حَقِّقَةٍ، أَوْ وَمِضٌ^٦ مِنْ بَرَقَةٍ، إِلَى أَنْ رَجَعُوا إِلَى الْأَعْقَابِ، وَاتَّكَصُوا عَلَى الْأَدْبَارِ، وَطَلَبُوا بِالْأُوتَارِ، وَأَظْهَرُوا الْكَتَائِبَ وَرَدَّمُوا الْبَابَ، وَفَلُّوا الدَّمَاءَ^٧، وَغَيَّرُوا سُنْنَ^٨ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَغِبُوا عَنْ أَحْكَامِهِ، وَبَعُدُوا عَنْ أَنْوَارِهِ، وَاسْتَبَدَلُوا بِمُسْتَخْلَفِهِ بَدِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ اخْتَارُوا مِنْ آلِ أَبِي قُحَافَةٍ أَوَّلَى بِمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ اخْتَارَهُ الرَّسُولُ ﷺ لِمَقَامِهِ، وَأَنَّ مُهَاجِرَ آلِ أَبِي قُحَافَةٍ خَيْرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِ الْأَنْصَارِيِّ الرَّبَّانِيِّ؛ نَامُوسُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ...» إلى

١. هو سهل بن سعد. ٢. الطرائف: ٣٧٦، بحار الأنوار ٢٨: ٢٦.

٣. المائدة: ١١٧/٥ و ١١٨. ٤. الطرائف: ٣٧٦، صحيح البخاري ٩: ٨٣/٢، مسند أحمد ٥: ٣٣٣، صحيح مسلم ٤: ٢٢٩٧/١٧٩٦، مستدرک

الحاكم ٤: ٧٤ - ٧٥. ٥. تفسير العياشي ١: ٣٤١/٧٨٧، الكافي ٨: ٣٤٥/٣٤١، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

٦. الخففة: التُّعَاسُ، وَالْوَمِيزُ: اللَّعْمُ الْخَفِيُّ. ٧. في الكافي: الذِّيار. ٨. في الكافي: آثَار.

آخره^١.

فَعَلِمَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْخَاصِيَّةِ وَالْعَامِيَّةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانَ يَعْرِفُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ، ارْتَدَّوْا بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ، وَغَيَّرُوا أَحْكَامَهُ، وَأَحْدَثُوا فِي دِينِهِ. وَمِنَ الصَّرُورِيِّ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ غَيَّرُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّبَاعَهُ كَسَلْمَانَ، وَأَبِي ذَرٍّ، وَالْبِقْدَادَ، وَعَمَّارَ، وَأَضْرَابَهُمْ يَمَنَ يَحْدُثُوا حَدُّوهُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ»^٢.

وَفِي (الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّاحِبِ): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ عَلِيًّا، اللَّهُمَّ أَدْرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ»^٣. وَرَوَى الْجُمْهُورُ: قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِعَمَّارَ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي بَعْدِي هَنَاتٌ^٤ وَاخْتِلَافٌ، حَتَّى يَخْتَلِفَ السَّيْفُ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَبَرَّأَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. يَا عَمَّارُ، تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ، وَأَنْتَ إِذْ ذَاكَ مَعَ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ مَعَكَ، إِنْ عَلِيًّا لَنْ يَدْلِكَ فِي رَدْيٍ، وَلَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ هُدًى. إِلَى أَنْ قَالَ: وَإِنْ سَلَكَ النَّاسُ كُلَّهُمْ وَاِدْيَا فَاثْلُكَ وَاِدْيَا سَلَكَكَ عَلِيٌّ، وَخَلَّ النَّاسَ طَرًّا. يَا عَمَّارُ، إِنْ عَلِيًّا لَا يَزَالُ عَلَى هُدًى. يَا عَمَّارُ، إِنْ طَاعَ عَلِيٌّ مِنْ طَاعَتِي، وَطَاعَتِي مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ»^٥.

وَعَنِ الْجُمْهُورِ بَعْدَ طَرُوقِ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ، وَعَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ، لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلِيَّ الْخَوْضِ»^٦. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ الْمَفْتَرِينَ الْمُحْدِثِينَ مُخَالِفِيهِ. وَقَالَ فَضْلُ بْنُ رُوَيْبَهَانَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ الرِّدَّةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَفِيهِ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ لَمْ يَكُونُوا مُتَرَدِّينَ مُسْتَحْلِلِينَ لِلزَّكَاةِ، بَلْ كَانُوا مُتَمَنِّعِينَ عَنْ تَأْدِيبِهَا لِأَبِي بَكْرٍ، لِإِنْكَارِهِمْ خِلَافَتَهُ، مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: «لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» هُمُ الَّذِينَ أَحْدَثُوا بِدْعًا بَاقِيَةً مُسْتَمِرَّةً فِي الْأُمَّةِ، كَقَضْبِ الْخِلَافَةِ، وَتَحْرِيمِ الْمُتَنَعَةِ، وَصَلَوَاتِ التَّرَاوِيحِ، وَالْمَسْحِ عَلَى الْخُفِّ، وَالتَّكْتِفِ فِي الصَّلَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْبِدْعِ، وَالْمَنْعِ الزَّكَاةِ، وَالَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزْ عَنْ مَالِكِ بْنِ ثَوْبَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَصِرْ فِعْلُهُمْ سُنَّةً بَاقِيَةً.

ثُمَّ بَشَّرَ اللَّهُ النَّاتِبِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» لِنِعْمِهِ مِنْ تَعْرِيفِهِمُ الْحُجَّةَ

١. الكافي ٨: ٢٩/٤، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

٢. تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة الإمام علي عليه السلام لابن عساكر ٣: ١٥٣/١١٧٢.

٣. مناقب الخوارزمي: ٥٦، الطرائف: ١٠٢.

٤. أي شرور وفساد.

٥. تاريخ بغداد ١٣: ١٨٦، بحار الأنوار ٣٨: ١٣/٣٧ و ٣٨: ١٤/٣٨.

٦. تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة الإمام علي عليه السلام ٣: ١٥٣/١١٧٢، سنن الترمذي ٥: ٣٧١٤/٦٣٣، مستدرک الحاكم

والهداية لدين الله، والتوفيق لقبوله بالثبات على الحق، والقيام بوظائف العبودية، والعمل بأحكام الإسلام. وفيه إشعار بأن الازدياد والخروج عن الإسلام كفران لنعم الله.

عن (الاحتجاج)، في خطبة الغدير: «معاشر الناس، أنذرکم أتي رسول الله إليكم، قد خلّت من قلبي الرُّسل، أفان مت أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، ألا وإنّ علياً هو الموصوف بالصبر والشكر، ثمّ من بعده ولدي من صلّبه»^١.

وعن ابن عباس عليه السلام: أن المراد الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار^٢.
وروى الفخر الرازي في تفسيره: عن الطبري، عن علي عليه السلام أنه قال: «المراد بقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أبو بكر وأصحابه»^٣.

وروي عنه صلوات الله عليه أيضاً أنه قال: «أبو بكر من الشّاكرين، وهو من أحبّاء الله»^٤. وفي الروايتين من الضعف والزّهن ما لا يخفى.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ [١٤٥]

ثمّ لما أرجف المنافقون بأنّ محمداً عليه السلام قد قُتل، ولو كان نبياً ما قُتل، وقالوا: إنّ الذين قُتلوا من أصحاب النبي لو كانوا عندنا، ولم يخرجوا من المدينة إلى أحد ما ماتوا وما قُتلوا، ردّ الله عليهم بقوله: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ» من النفوس، وحَيّ من الأحياء «أَنْ تَمُوتَ» بسبب من الأسباب، أو بإرادة مُريد «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» وإرادته، وبسبب أمره ملك الموت بقبض رُوحه، فلا يؤثّر تراكم الأسباب العادية للموت - من الخروج عن الحيض، ونهاجم الأعداء، وتخاذل الأنصار، وغير ذلك - في موت أحد ما لم تكن إرادة الله ومشيئته، فإنّه كتب الموت «كِتَاباً» وقدره تقديرأ «مُوجَّلاً» مؤقّتا، لا يؤخّره التحصّن في البلد والفرار من الرّخف، ولا يقدّمه الثّبات في الجهاد والخروج إلى العدوّ. فالمجاهد لا يموت بغير أجله، والقاعد لا يسلم مع حضور أجله.

وفيه تعريض على أكثره أصحاب الرّسول عليه السلام، وتحريض للمؤمنين على القتال، وتشجيع لهم، ووعد للرّسول عليه السلام بالحفظ وتأخير الأجل.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٩٤.
٥. كذا، والظاهر: تعريض بأكثر، أو لأكثر.

١. الاحتجاج: ٦٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٨.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٩: ٢٢.

ثم أنه تعالى - بعد تحقيق أن الحياة والموت دائران مدار إرادة الله ومشيئته، وليس لغيره فيهما مدخل وصنع - بين أن ثواب الجهاد وسائر الأعمال دائر مدار نية العبد وإرادته، بقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بجهاده وسائر عباداته ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من الغنيمة وحسن الذكر ﴿تُؤْتِيهِ﴾ وتوفه نصيبه ﴿مِنْهَا﴾ على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمُقَاتِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فيقول: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقول تعالى: كَذِبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يَقَالَ: فَلَانٌ مُحَارِبٌ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُهُ إِلَى النَّارِ» وفيه تعريض لمن شغلتهُمُ الغنائم يوم أحد عن الجهاد. ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ ويطلب بجهاده، أو بجميع أعماله الحسنة ﴿ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ من الجنة، والرحمة المتصلة، والتعم الدائمة ﴿تُؤْتِيهِ﴾ وتوفه حظاً وافراً ﴿مِنْهَا﴾ على حسب أهليته واشتقاقه، وقابليته للتفضل، ومرتبة خلوصه في النية.

وفيه دلالة على أن الأعمال الخيرية لا تخلو عن الأجر والثواب إما الدنيوي وإما الآخروي. ثم أكد الله الوعد بقوله: ﴿وَسَنَجْزِي﴾ عن قريب جزاء جزيل لا يسعه البيان، ولا يحويه الكلام ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ لينعمه، من القوي والصحة، وتوفيق الهداية إلى الإسلام، والعلم بالمعارف والأحكام وغيرها، بصرف ما آتاهم الله في مرضاته وطاعته، لا يصرفهم عن ذلك صارف أبداً، فيدخل فيهم المجاهدون والشهداء.

في ذكر معجزة النبي ﷺ عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «أَنَّهُ أَصَابَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ أُحُدٍ سِتُونُ جِرَاحَةٍ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَمَّ سَلِيمَ وَأُمَّ عَطِيَّةَ أَنْ تُدَاوِيَاهُ فَقَالَا: إِنَّا لَا نَعَالِجَ مِنْهُ مَكَاناً إِلَّا انْفَتَقَ مِنْهُ مَكَانٌ، وَقَدْ خِفْنَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يَعُودُونَهُ وَهُوَ قَرْحَةٌ وَاحِدَةٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُهُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا لَقِيَ هَذَا فِي اللَّهِ، فَقَدْ أَبْلَى وَأَعَذَرَ، فَكَانَ الْقَرْحُ الَّذِي يَمْسَحُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْتَمِمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِذْ لَمْ أَفِرْ، وَلَمْ أُولَ الْدُّبْرِ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ [قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^٢ من الرزق في الدنيا] و«سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ»^٣.

وَكَايُنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا

ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ [١٤٦]

ثم ذكر الله شدة اهتمام المؤمنين من الأمم السابقة في جهاد الكفار، ونصرة أنبيائهم ودينهم، وتحملهم الشدائد في ذلك، تقيعاً للمتهزمين في أخذ على تقصيرهم في الجهاد ونصرة الإسلام، وشوء ضيعهم مع الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَكَايْن﴾ قال جمع من المفسرين: إن هذه الكلمة مستعملة في الكثير^١، فيكون المعنى: وكَم ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء في القرون السابقة قاتل أعداء الدين، لترويح دينه، وإعلاء كلمة الحق، و﴿قَاتِلْ مَعَهُ﴾ وجاهد الكفار، مصاحباً له ﴿رِثْيُونٌ﴾ وعلماء أثقياء ﴿كَثِيرٌ﴾^٢ وقيل: إن المراد من (الرثييون) الجموع الكثيرة^٣.

وعن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «الرثييون: عشرة آلاف»^٤.

وعن الصادق عليه السلام قال: «ألف وألف»^٥.

﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ في منازلة الأعداء، وما فتروا في مقاتلة الكفار ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ﴾ من البلى والشدائد، ولكثرة ما نالهم من القتل والجرح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، وطلب مرضاته ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في دينهم وعقائدهم، وما تقاعدوا عن مقاتلة أعدائهم ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ وما خضعوا عندهم لطلب الصلح والمداينة.

فإذا كانت سيرة المؤمنين بسائر الأنبياء، وذأب أتباعهم ذلك، فلا ينبغي لكم الوهن في الجهاد، والضعف في الإيمان، والفرار من الزحف، بل الازتداد عن الإسلام وأنتم أتباع خاتم النبيين. وفيه تغييض عليهم بقولهم: لو كان محمد نبياً لما ورد عليه ما ورد. وباشيكانتهم لعدوهم حيث قالوا: لَيْتَ ابْنُ أَبِي يَأْخُذَ لَنَا أَمَانًا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ.

وعن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «بين الله سبحانه أنه لو كان قُتِلَ كما أُرِجِفَ بذلك يوم أخذَ لَمَّا أوجب ذلك أن يضعفوا أو يهنوا، كما لم يهن من كان مع الأنبياء بقتلهم»^٦.

أقول: هذا التفسير مبني على قراءة (قتل معه)^٧ كما هي مروية عن الصادق عليه السلام^٨.

ثم بشر سبحانه أهل الثبات في الجهاد، بل مطلق الصابرين على الطاعات بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على ما أصابهم من البأساء والضراء، في سبيله ومرضاته، والمحتسبين أنفسهم على طاعته. فعليه تعالى أن يكرمهم إكرام الأحياء، ويجزيهم في الدنيا والآخرة أحسن الجزاء.

١. تفسير الرازي ٩: ٢٦، تفسير أبي السعود ٢: ٩٥، تفسير روح البيان ٢: ١٠٦.

٢ و ٣. مجمع البيان ٢: ٨٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٠. ٤. تفسير العياشي ١: ٧٩٣/٣٤٢، تفسير الصافي ١: ٣٦٠.

٥. مجمع البيان ٢: ٨٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٠. ٦. في المصحف الشريف ﴿قَاتِلْ مَعَهُ﴾.

٧. تفسير العياشي ١: ٧٩٣/٣٤٢، تفسير الصافي ١: ٣٦٠.

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [١٤٧ و ١٤٨]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ بَيَانِ كَمَالِ اسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى الدِّينِ، وَشِدَّةِ ثَبَاتِهِمْ فِي الْجِهَادِ وَنُصْرَةِ النَّبِيِّينَ، وَقُوَّةِ صَبْرِهِمْ عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ - بَيَّنَّ أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا هَمَّ لَهُمْ وَلَا مَطْلُوبَ بَعْدَ الْمَغْفَرَةِ عِنْدَهُمْ، إِلَّا ازْدِيَادُ الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ، وَالْعَلَبَةِ عَلَى أَعْدَاءِ الْحَقِّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَوْ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَاقْتِحَامِ مَضَاقِقِ الْحَرْبِ، وَالْخَوْضِ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وَمَسْؤُولُهُمْ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ مُتَضَرِّعِينَ إِلَى مَلِكِهِمُ اللَّطِيفِ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا﴾ وَيَا مَنْ إِلَيْهِ تَرْبِيَةُ نَفْسِنَا، وَإِصْلَاحُ جَمِيعِ أَحْوَالِنَا وَأُمُورِنَا ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ صَغَائِرُهَا وَكِبَارُهَا ثُمَّ بَعْدَ التَّعْمِيمِ خُصَّصُوا الْكِبَارَ بِالذِّكْرِ لِعِظَمِهَا بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ وَتَجَاوَزْنَا عَنْ حُدُودِكَ ﴿فِي أَمْرِنَا﴾ وَعَمَلْنَا.

وَأَمَّا أَضَافُوا إِلَى أَنْفُسِهِمُ الْإِسْرَافَ مَعَ كَوْنِهِمْ رَبَّائِيْنِ بُرَّاءَ مِنَ التَّفْرِيطِ، اسْتِحْقَاقاً لَهَا، وَإِسْنَاداً لِمَا أَصَابَهُمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّمَا قَدَّمُوا الدَّعَاءَ بِالْمَغْفَرَةِ لِكَوْنِ النَّجَاةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ أَهَمَّ الْمَقَاصِدِ فِي نَظَرِهِمْ.

ثُمَّ الْأَهَمُّ مَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَتَبَيَّنَتْ﴾ بِتَأْيِيدِكَ لَنَا، وَتَقْوِيَةِ قُلُوبِنَا وَتَيَقُّنِنَا ﴿أَقْدَامَنَا﴾ عَلَى دِينِكَ الْقَوِيمِ وَصِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَفِي مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ، وَمُدَافَعَةِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَنُصْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنَازِلَةِ الْأَعْدَاءِ ﴿وَانصُرْنَا﴾ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ حَتَّى تَعْلُو كَلِمَتُكَ، وَتَتِمَّ حُجَّتُكَ. فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَعْلَى عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ مَغْفَرَةُ الذُّنُوبِ، وَالثَّبَاتُ عَلَى الدِّينِ، وَنُصْرَةُ الْحَقِّ. وَفِيهِ تَعْرِضٌ بِالْمُنْهَزِمِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ فِي أَحَدٍ.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وَأَعْطَاهُمْ بِسَبَبِ حُسْنِ حَالِهِمْ، وَكَمَالِ ضَرَاعَتِهِمْ ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ مِنْ انشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَقُوَّةِ الْيَقِينِ، وَالنُّصْرَةِ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ وَالْغَنِيمَةِ، وَحُسْنِ الذِّكْرِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ مِنَ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ، وَالتَّعَمُّ الْبَاقِيَةِ، وَاللَّذَاتِ الدَّائِمَةِ، وَالْحُورِ وَالْقُصُورِ، وَالْكَرَامَةِ وَالشُّرُورِ.

وَأَمَّا خَصَّ اللَّهُ شَبْحَانَهُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالْحُسْنِ، لِلإِذْنِ بِفَضْلِهِ وَمَرَاتِبِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴿وَاللَّهُ﴾ تَعَالَى لِكَوْنِهِ حَسَنَ الصِّفَاتِ وَالْفِعَالِ ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَيَرْضَى عَنْهُمْ، وَيَزِيدُ لَهُمْ خَيْرَ الدَّارَيْنِ. فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ بَلَّغُوا بِثَبَاتِهِمْ فِي الدِّينِ، وَخُضُوعِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَدَّ أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَذِينِينَ وَالْمُسْرِفِينَ - إِلَى دَرَجَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَالْعِبَادِ الْمَرْضِيِّينَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ أَغْيَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا

خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ [١٤٩ و ١٥٠]

ثُمَّ لَمَّا دَعَا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقُونَ - بَعْدَ انْتِشَارِ خَبَرِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ - بَعْضُ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكُفْرِ وَالرُّجُوعِ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَأَلْقَوْا بَعْضَ الشُّبُهَاتِ فِيهِمْ، نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّبَاعِهِمْ، وَالِاغْتِنَاءِ بِشُبُهَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَا تُطِيعُوا الْمُنَافِقِينَ - فِي قَوْلِهِمْ: ارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَّا غَلِبَ وَقِيلَ - فَإِنَّكُمْ ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَأَبِي سَفِيَانَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَتَّبِعُوا قَوْلَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَتُضْغَوُوا إِلَى الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُلْقُونَهَا فِي قُلُوبِكُمْ، خُصُوصًا بَعْدَ وَقْعَةِ أَحُدٍ ﴿يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ أَغْيَابِكُمْ﴾ وَيُخْرِجُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ، وَيُضَيِّرُوكُمْ كُفْرًا ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ وَتَرْجِعُوا إِلَى الشِّرْكِ، بَعْدَ اهْتِدَائِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَدِينِ الْإِسْلَامِ، حَالًا كَوْنَكُمْ ﴿خَاسِرِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مُحْزُومِينَ مِنْ كَرَامَتِهِمَا وَسَعَادَتِهِمَا، لَا يَتَّيْلَنُكُمْ بِذَلِكَ الْإِنْقِيَادَ لِلْعَدُوِّ بَدَلًا مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ، وَبَعْدَ الْعَذَابِ الْخُلْدِ بَدَلًا مِنَ الثَّوَابِ الْمُؤَبَّدِ، فَلَا تَتَّبِعُوا بِطَاعَتِهِمْ مَوَالِيَهُمْ وَتَضُرُّهُمْ. ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ وَحْدَهُ ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، نَاطِقٌ فِي صَلَاحِكُمْ، مُعْطٍ لِمَا فِيهِ خَيْرُكُمْ وَتَنْفَعُكُمْ ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ وَالْأَعْوَانُ لَكُمْ، فَإِنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَخْلُ، وَالْعَالِمُ الَّذِي لَا يَجْهَلُ، وَالْقَادِرُ الَّذِي لَا يَعْجَزُ، وَهُوَ الْكَافِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَكْفِي مِنْهُ شَيْءٌ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَرْجُو غَيْرَهُ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَا سِوَاهُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَخْصَهُ بِالطَّاعَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ.

سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا

وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَبَشَسَ مَنَوى الظَّالِمِينَ [١٥١]

ثُمَّ اغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ نَصَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»^١ وَلِذَا هَزَمُوا عَلَىٰ ضَعْفِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ فِي بَدْرٍ وَفِي أَحُدٍ، مَا دَامُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَلَمَّا عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ فِي أَحَدٍ سَلَبَ اللَّهُ الرُّعْبَ عَنْ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى رَجَعُوا وَفَعَلُوا مَا فَعَلُوا، فَلَمَّا عَادُوا إِلَى طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ بَشَّرَهُمُ اللَّهُ بِالنَّصْرِ بِالرُّعْبِ فِي أَحَدٍ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَوَاطِنِ بِقَوْلِهِ: ﴿سَتَلْقَىٰ﴾ وَتَقْدِيفَ عَنْ قَرِيبٍ ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أَوْ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ مِنْكُمْ ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ وَلِأَجْلِ كُفْرِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَإِشْرَاكَهُمْ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ وَلَمْ

في أن النبي ﷺ كان منصوراً بالرب

يُقيم على ألوهيته، واستحقاق عبادته ﴿سُلْطَانًا﴾ وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا.

رُوي أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا اسْتَوَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهَزَمُوهُمْ، أَوْقَعَ اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَتَرَكُوهُمْ وَفَرَّوْا مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، حَتَّى أَنْ أَبَا سَفْيَانَ صَعِدَ الْجَبَلَ وَقَالَ: أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، وَأَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَأَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَأَجَابَهُ عُمَرُ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا كَلِمَاتٌ، وَمَا تَجَاسَّرَ أَبُو سَفْيَانَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ الْجَبَلِ وَالذَّهَابُ إِلَيْهِمْ^١.

وَيُقَالُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ، قَالُوا حِينَ كَانُوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ: مَا صَنَعْنَا شَيْئًا، فَتَلَّنَا الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ وَتَرَكْنَاهُمْ وَنَحْنُ ظَاهِرُونَ، أَزْجِعُوا حَتَّى نَسْتَصِلَهُمْ بِالْكَلْبَةِ، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ أَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ انْهَزَمَ النَّاسُ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): يَا عَلِيُّ، امْضِ بِسَيْفِكَ حَتَّى تُعَارِضَهُمْ، فَإِنْ رَأَيْتَهُمْ رَكِبُوا الْقِلَاصَ^٣ وَجَنَّبُوا الْخَيْلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَأَيْتَهُمْ قَدْ رَكِبُوا الْخَيْلَ وَهُمْ يَجْتَنِبُونَ الْقِلَاصَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ، فَأَتَاهُمْ عَلِيُّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَكَانُوا عَلَى الْقِلَاصِ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ لِعَلِيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): مَا تُرِيدُ؟ هُوَ ذَا نَحْنُ ذَاهِبُونَ إِلَى مَكَّةَ، فَانْصَرِفْ إِلَى صَاحِبِكَ، فَاتَّبَعَهُمْ جَبْرِئِيلُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فَلَمَّا سَمِعُوا وَقَعَ حَافِرٌ فَرَسَهُ جَدَّوًا فِي السَّيْرِ وَكَانَ يَتْلُوهُمْ، فَإِذَا ارْتَحَلُوا قَالُوا: هُوَ ذَا عَشْرُ مُحَمَّدٍ قَدْ أَقْبَلَ، فَدَخَلَ أَبُو سَفْيَانَ مَكَّةَ فَأَخْبِرَهُمُ الْخَبْرَ، وَجَاءَ الرُّعَاءُ وَالْحَطَّابُونَ فَدَخَلُوا مَكَّةَ فَقَالُوا: رَأَيْنَا عَشْرُ مُحَمَّدٍ كُلَّمَا رَحَلَ أَبُو سَفْيَانَ نَزَلُوا يَقْدُمُهُمْ فَارِسٌ عَلَى فَرَسٍ أَشْقَرٍ يَطْلُبُ آثَارَهُمْ، فَأَقْبَلَ أَهْلَ مَكَّةَ عَلَى أَبِي سَفْيَانَ يُوَبِّخُونَهُ^٤.

أَقُولُ: وَعَلَيْهِ، فَلَا يَدَّ مِنْ كَوْنِ نُزُولِ الْآيَةِ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ، أَوْ عِنْدَ انْقِضَائِهَا.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، بَيَّنَّ شَوْءَ خَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ وَمَسْكَنُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿الْأَنَارُ﴾ لَا غَيْرَهَا ﴿وَيُشْسُ﴾ الْمَثْوَى وَالْمَقَرَّ ﴿مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وَمَقَرَّهُمْ وَسَاءَ الْمَكَانَ الَّذِي خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالشُّرْكِ، وَعَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْمَقَاتِلَةِ.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ

٣. قِلَاصٌ وَقِلَاصٌ: جَمْعُ قُلُوصٍ: وَهِيَ الْإِبِلُ الْفَتِيَّةُ.

١ و ٢. تفسير الرازي ٩: ٣٢.

٤. الكافي ٨: ٣٢١/٥٠٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٨.

يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [١٥٢]

ثم قيل: إنه لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم من الجراح والمصيبة قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وأنجز لكم ﴿وَعِدَةً﴾ إياكم بالنصر والغلبة على لسان نبيه ﷺ، ولكن كان ذلك الوعد مشروطاً بالتقوى والصبر، وأنتم ما دمتم على طاعة الرسول ﷺ نصبرتم وغلبتم على المشركين ﴿إِذْ تَحْشُرُونَهُمْ﴾ وتقتلونهم قتلاً ذريعاً بتيسير الله و﴿يَاذِينِهِ﴾ وتأيدده.

رؤي أن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة من المسلمين يرشقونهم بالنبل، والباقون يضربونهم بالسيف، وقتل عليُّ عليه السلام طلحة بن أبي طلحة كبش قرش، وتسعة من أصحاب إخوانهم فانهزم المشركون، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً.

فكانه قال سبحانه: كتبت على هذه الحالة من النصر والغلبة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ وضعفتم رأياً في طاعة الرسول ﷺ: لغلبة الجحوص على الغنيمة، وملتئم إليها ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ من الثبات والإقامة في المركز، والذهاب لأخذ الغنيمة.

رؤي أن بعض الرماة - حين انهزم المشركون وولوا هاربين، والمسلمون على أعقابهم ضرباً وقتلاً - قالوا: فما موقفاً هنا بعد هذا؟ وقال أميرهم عبدالله بن جبير: لا تخالفوا أمر الرسول ﷺ، فإنه قال: «لا تبرحوا مكانكم، فإننا لا نزل غالبين ما دمت في هذا المكان» فثبت عبدالله في نقر دون العشرة في مكانه، ونقر الباقي للنهب.

والله أشار سبحانه بقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ الله ورسوله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ﴾ الله تعالى ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة، وانهزام العدو. وقد مر أنه لما رأى المشركون قلة الرماة في الشعب حملوا عليهم، وقتلوا أمير الرماة ومن معه.

ثم حملوا على المسلمين من ورائهم، فظهرت سراير القوم كما بينها سبحانه بقوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين خالفوا أمر الرسول ﷺ، وتركوا المركز طمعاً في الغنيمة، وأقبلوا على النهب.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما علمت أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية^١.
﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بجهاده، وهم الذين ثبتوا على طاعة الرسول ﷺ ولم يخلوا مراكزهم

حَتَّى نَالُوا شَرَفَ الشَّهَادَةِ، وَحَازُوا عَلَى دَرَجَةِ السَّعَادَةِ.

﴿ثُمَّ﴾ بَعْدَ عِصْيَانِ الرُّمَاءِ ﴿صَرَفَكُمْ﴾ اللهُ، وَكَفَّ أَيْدِيَكُمْ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَهَزَمَكُمْ مِنْهُمْ بِأَنْ أَوْجَدَ فِيكُمْ مُقْتَضَى الْهَزِيمَةِ مِنْ زَوَالِ الرُّعْبِ عَنْ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِقَانَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿لِيَسْتَلِيَكُمْ﴾ وَيَمْتَحِنَكُمْ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالصَّبْرِ فِي الْجِهَادِ، حَتَّى يَمْتَازَ الْمُخْلِصُونَ الْكَامِلُونَ، وَالصَّابِرُونَ الْمُحْتَسِبُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ اللهُ ﴿عَنْكُمْ﴾ تَفَضُّلاً عَلَيْكُمْ، أَوْ لِمَا عَلِمَ مِنْ نَدَمِكُمْ عَلَى عِصْيَانِكُمْ بِالْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ، وَالْهَزِيمَةِ مِنَ الْجِهَادِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ اسْتِثْنَاءُ الثَّابِتِينَ فِي الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَالْعَفْوُ عَنِ الْعِصَاةِ، تَفَضُّلاً مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَصَفَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَافَّةً بِتَكْمِيلِ نَفْسِ الْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ، وَتَغْلِيَةِ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَوْفِيقِ الْعَاصِينَ مِنْهُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِمْ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ ذُو فَضْلٍ عَلَيْهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ [سَوَاءً] كَانَتِ الدَّوْلَةُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ.

إِذْ تُضْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا
بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ [١٥٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى وَقْتَ صَرْفِهِمْ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ تُضْعِدُونَ﴾ وَحِينَ تَذْهَبُونَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ مُنْهَازِينَ مِنْ بَأْسِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾ مِنَ النَّاسِ، وَلَا تَلْتَفِتُونَ إِلَى مَنْ فِي يَمِينِكُمْ وَشِمَالِكُمْ وَوَرَانِكُمْ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ: لَا يَقِفُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، وَلَا يَنْظُرُ نَفْسٌ إِلَى نَفْسٍ أَنَّهُ وَالِدٌ أَوْ وَلَدٌ، قَرِيبٌ أَوْ بَعِيدٌ، صَدِيقٌ أَوْ عَدُوٌّ.

﴿وَالرَّسُولُ﴾ فِي هَذَا الْحَالِ، بِأَعْلَى صَوْتِهِ ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ وَيُنَادِيكُمْ - حَالَ كَوْنِهِ وَاقِفًا ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾ وَسَاقَتَكُمْ^١، أَوْ فِي جَمَاعَةٍ أُخْرَى مِنْكُمْ، أَوْ فِي آخِرِكُمْ - بِقَوْلِهِ: «إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَيْنَ تَبْرُونَ عَنِ اللهِ، وَعَنْ رَسُولِهِ؟».

وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ: «مَنْ كَرَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ»^٢ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ الْكَرُّ، وَنَهْيًا عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ الْإِنْهَازُ، لَا اسْتِيعَانَهُ بِهِمْ.

﴿فَأَتَابَكُمْ﴾ اللهُ، وَجَازَاكُمْ عَنْ عِصْيَانِكُمْ وَأَنْهَازِكُمْ ﴿عَمَّا﴾ مُتَّصِلًا ﴿بِغَمٍّ﴾ آخَرَ.

١٠٤ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

قيل: إن العموم كانت في أحد كثيرة من غلبة العدو، وقُتل الاحبة، وما نزل على النبي ﷺ وغير ذلك.
وعن الشعبي رحمه الله عن الباقر عليه السلام: «فأما الغم الأول: فالهزيمة والقُتل، والغم الآخر: فأشراف خالد بن الوليد عليهم»^١.

وقيل: إن المراد: غمًا شديدًا، بسبب شجّة وجه الرسول ﷺ وكسر رباعيته، وقُتل عمه حمزة، بعوض غم الرسول بسبب عصيانكم أمره.

في أن أبي بكر وعمر ثم أن الفخر الرازي قال في تفسيره الكبير: ومن المنهزمين عمر، إلا أنه لم يكن من وعثمان كانوا من أوائل المنهزمين، ولم يعد بل ثبت على الجبل إلى أن صعد النبي ﷺ^٢.
أقول: ليت شعري، من أين علم أنه لم يكن من أوائل المنهزمين؟ ثم أنه بعدما ثبت أحد

أنه كان من المنهزمين، كيف يصلح فساد عمله عدم كونه من أوائلهم؟
ثم قال: ومنهم أيضاً عثمان، انهزم مع رجلين من الأنصار يقال لهما سعد وعقبة، انهزموا حتى بلغوا موضعاً بعيداً، ثم رجعوا بعد ثلاثة أيام - إلى أن قال -: وأما الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ فكانوا أربعة عشر رجلاً: سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، فمن المهاجرين أبو بكر وعلي رضي الله عنهما^٣.
أقول: قال بعض: إن أبا بكر أيضاً كان من المنهزمين^٤.

وقال ابن أبي الحديد:

فإن أنس لم أنس اللذين تقدما وفرهما والفر قد علما حوب^٥

والظاهر أن مراده أبو بكر وعمر، ويؤيد ذلك الاعتبار وشهرته بين الشيعة^٦.

ثم قال فخر الدين: وذكر أن ثمانية من هؤلاء - أي من الأربعة عشر - بايعوه يومئذ على الموت؛ ثلاثة من المهاجرين علي رضي الله عنه، وطلحة، والزبير...^٧.

أقول: فعلم أن أبا بكر - على تقدير كونه من الثابتين - لم يكن من الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت، ثم أن عد طلحة منهم مثاف لما روي من اعتراض أنس بن النضر عليه وعلي عمر، بقوله: ما يحبسكم عن القتال؟ فقالوا: قد قُتل محمد ﷺ.

ثم أن الله تعالى بين علة تراكم العموم عليهم بقوله: ﴿لَكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من المنافع

١. تفسير القمي ١: ١٢٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٢. ٢. تفسير الرازي ٩: ٥٠. ٣. تفسير الرازي ٩: ٥٠.

٤. راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ٢٩٣.

٥. القوائد العلوية: ٩١، وفيه: وما أنس لا أنس...

٦. راجع: إرشاد المفيد ١: ٨٣، مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٢٣، كشف الغمة ١: ١٩٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي

الحديد ١٥: ٢١. ٧. تفسير الرازي ٩: ٥١.

وَالْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ﴿وَلَا﴾ عَلَى ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى عَدَمِ الْاِعْتِدَادِ بِالْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ، وَالْاِعْتِيَادَ عَلَيْهِ، يُهَوِّنُ قُوَّةَ الْمَنَافِعِ وَالْاِتِّبَالَ بِالْمَضَارِّ الدُّنْيَوِيَّةِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ: لِثَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَلَا مَا أَصَابَكُمْ مِنْ قَتْلِ إِخْوَانِكُمْ، أَوْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ النَّصْرِ، وَلَا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْجِرَاحِ.

وقيل: إِنَّ التَّعْلِيلَ لِلْعَفْوِ، فَإِنَّ الشُّرُورَ بِالْعَفْوِ يَزِيلُ غَمَّ قُوَّةِ الْغَنِيمَةِ وَإِصَابَةِ الْجِرَاحِ، وَغَمَّ الْاِتِّبَالَ بِالْمَعْصِيَةِ.

ثُمَّ زَجَّرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ خَفِيهِ وَجَلِيهِ، فَيَجْزَايَكُم بِهِ، إِنْ خَيْرًا أَوْ خَيْرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا.

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَاصِيَةٌ تَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [١٥٤]

ثُمَّ - لَمَّا كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَدِ طَائِفَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ الْمُخْلِصُونَ، وَالْأُخْرَى الْمُتَنَافِقُونَ الْكَاذِبُونَ فِي دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانِ - بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حُسْنَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَتَفَضُّلَهُ عَلَيْهِمْ، أَوَّلًا لِشَرَفِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ﴾ اللَّهُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وَأَعْطَاكُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ الَّذِي اغْتَرَاكُمْ بِسَبَبِ الْخَوْفِ وَالْهَزِيمَةِ ﴿أَمَنَةٌ﴾ وَسَكِينَةً فِي قُلُوبِكُمْ، وَاطْمَئِنَّانًا لِنَفْسِكُمْ مِنْ بَأْسِ الْعَدُوِّ وَضَرَرِهِ، بَأَن أَلْقَى عَلَيْكُمْ لَغَايَةَ سُكُونِ خَاطِرِكُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ﴿نَاصِيَةٌ﴾ وَوَسَنًا، وَلَكِنْ لَا عَلَى جَمِيعِكُمْ، بَلْ كَانَ ﴿يَغْشَى﴾، وَيَعْرِضُ ﴿طَائِفَةً﴾ خَاصَّةً ﴿مِنْكُمْ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: الْمُرَادُ مِنَ الطَّائِفَةِ: الْمُهَاجِرُونَ، وَعَامَّةُ الْأَنْصَارِ^١.

وَفِي إِدْخَالِ كَلِمَةِ (عَامَّة) عَلَى الْأَنْصَارِ دُونَ الْمُهَاجِرِينَ، إِشْعَارٌ بِعَدَمِ كَوْنِ جَمِيعِهِمْ خُلَصِينَ^٢ فِي الْإِيمَانِ، بَلْ كَانَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ، أَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ فِي قُوَّةِ الْإِيمَانِ بَحِيثٌ لَمْ يَطْرَأْهُ خَوْفٌ^٣، وَلَمْ

٢. كَذَا وَالظَّاهِرُ: مُخْلِصِينَ.

١. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢: ١٠١.

٣. كَذَا وَالظَّاهِرُ: لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِ خَوْفٌ.

يَأْلَفُ عَيْبَتَهُ نَوْمَ اهْتِمَاماً بِطَاعَةِ اللَّهِ وَحِفْظِ النَّبِيِّ ﷺ كَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ.

عن ابن مسعود ﷺ، قال: النَّعَّاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ١. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ فِي الْقِتَالِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ غَايَةِ الْوُثُوقِ بِاللَّهِ وَالْفَرَارِ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا يَكُونُ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا مِنْ غَايَةِ الْبُعْدِ عَنِ اللَّهِ.

وعن ابن عباس ﷺ أَنَّهُ قَالَ: آمَنَهُمْ بِنَعَّاسٍ يَغْشَاهُمْ بَعْدَ خَوْفٍ، وَإِنَّمَا يَنْقَسُ مَنْ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ آمَنَ، وَالْخَائِفُ لَا يَنَامُ ٢.

وعن عبدالرحمن بن عوف، قال: أَلْقَى النَّوْمُ عَلَيْنَا يَوْمَ أُحُدٍ ٣.

ثُمَّ لَمَّا انْصَرَفُوا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالرُّجُوعِ، فَلَمَّ يَأْمَنُوا كَرَّتَهُمْ، وَكَانُوا تَحْتَ الْحِجَفِ ٤ مُتَاهِبِينَ لِلْقِتَالِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْأَمَنَةَ فَأَخَذَهُمُ النَّعَّاسُ.

وَرُوي أَنَّهُ غَشِيَهُمُ النَّعَّاسُ فِي الْمَصَافِ، حَتَّى كَانَ السَّيْفُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ فَيَأْخُذُهُ، ثُمَّ يَسْقُطُ فَيَأْخُذُهُ.

وَرُوي أَنَّهُ قَالَ طَلْحَةُ ٥: رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَعَلْتُ لَا أَرَى أَحَدًا مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا هُوَ يَمْتَدُّ تَحْتَ حِجَفَتِهِ مِنَ النَّعَّاسِ، قَالَ: وَكُنْتُ يَمْنَنُ أَلْقَى عَلَيْهِ النَّعَّاسُ يَوْمَئِذٍ، فَكَانَ السَّيْفُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِي فَأَخَذَهُ، ثُمَّ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِي فَأَخَذَهُ ٦.

وعن الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ وَالنَّعَّاسِ يَغْشَانِي، مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلُمِ، يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» ٧.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى سُوءَ حَالِ الْمُتَافِقِينَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَطَائِفَةٌ» أُخْرَى مِنْهُمْ وَهُمْ الْمُتَافِقُونَ كَعِبَادِهِ بِنِ أَبِي وَمُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ وَأَصْحَابِهِمَا كَانُوا «قَدْ أَهَمَّتْهُمْ» وَأَوْقَعَتْهُمْ «أَنْفُسُهُمْ» فِي تَذْيِيرِ النَّجَاةِ، لَا هَمَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَذَلِكَ لِكُونِهِمْ فِي حَالِ «يَظْلُتُونَ بِاللَّهِ» مِنْ غَايَةِ جَهْلِهِمْ وَحُمَقَتِهِمْ ظَنًّا «غَيْرَ الظَّنِّ» «الْحَقِّ» وَالصَّوَابِ، بَلْ يَكُونُ ظَنُّهُمْ «ظَنًّا» أَهْلُ «الْجَاهِلِيَّةِ».

قِيلَ: وَجِهَ الشَّبَهُ كَوْنُهُ مِنْ أَقْبَحِ أَنْوَاعِ الظُّلُونِ.

وقيل: إِنَّ الرَّمَادَ أَنَّهُمْ يَظْلُتُونَ ظَنًّا نَاشِئًا عَنْ غَايَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالسَّفَاهَةِ؛ لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ يَضْمَحِلُّ قَرِيبًا، وَلَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ أَبَدًا.

١. تفسير الرازي ٩: ٤٥. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٠١.

٤. الْحِجَفُ: جَمْعُ حِجَفَةٍ، وَهِيَ الثَّرْسُ مِنَ الْجِلْدِ. وَفِي النُّسخَةِ: الْحِجَفُ.

٥. فِي تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ وَرُوحِ الْبَيَانِ: أَبُو طَلْحَةَ. ٦. تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ ٢: ١٠١، تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ١١٢.

٧. تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ ٢: ١٠١.

وكانوا **﴿يَقُولُونَ﴾** للنبي ﷺ، على صورة الاسترشاد، وإن كان مقصودهم في الواقع الإنكار: **﴿هَلْ لَنَا﴾** يا رسول الله **﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾** الذي وعدتنا، وهو النصر والغلبة، وقيل: إن المراد: هل لنا من التدبير في الإصلاح **﴿مِنْ شَيْءٍ﴾** قليل، وحظ يسير قط؟

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن **﴿قُلْ﴾** لهم جواباً: **﴿إِنَّ الْأَمْرَ﴾** من النصر والظفر والتدبير **﴿كُلَّهُ﴾** وهو بالآخرة ينصر أوليائه، ويخذل أعداءه؛ كما قال: **﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** ١.

ثم أنه تعالى بعد بيان ظاهر حالهم ومقالاتهم، كشف عن سرهم، وما في قلوبهم بقوله: **﴿يُخْفُونَ﴾** ويضمرون **﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾** وفي قلوبهم من الإنكار والتكذيب، وقيل: إن المراد يقول بعضهم لبعض خفية ورسراً **﴿مَا لَا يُبْدُونَ﴾** وضميراً أو كلاماً لا يظهرون **﴿لَكَ﴾** خوفاً ونفاقاً.

ثم لما كان مقام السؤال عما يخفون، فأجاب سبحانه قبل المسألة بقوله: **﴿يَقُولُونَ﴾** بطريق حديث النفس، أو بالسنتهم فيما بينهم سرراً: **﴿لَوْ كَانْ لَنَا﴾** في هذه الحرب **﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾** الموعود، وهو النصر والغلبة، أو من التدبير والرأي **﴿شَيْءٌ﴾** من الحظ والنصيب **﴿مَا قُتِلْنَا﴾** بسيف الأعداء، وما علينا **﴿هَا هُنَا﴾**.

قيل: إن نظرهم إلى ما رأى عبد الله بن أبي عند مشاورة النبي ﷺ من الإقامة بالمدينة وعدم الخروج منها إلى العدو، فأمر الله نبيه ﷺ بقوله: **﴿قُلْ﴾** ردّاً عليهم: **﴿لَوْ كُنْتُمْ﴾** متقيمين مستبشرين **﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾** وفي خبايا منازلكم في المدينة، وحتنتم على أنفسكم أن لا تخرجوا **﴿لَيَبْرَزَ﴾** وخرج الأشخاص **﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾** في اللوح المحفوظ، وحثم في تقدير الله وقضائه **﴿عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ﴾** بسبب من الأسباب، وداع من دواعي الخروج **﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾** ومصارعهم التي قدر الله قتلهم فيها، وقتلوا هنالك ألبتة، ولم ينفعهم التصميم والعزيمة على الإقامة، فإن قضاء الله لا يرد، وحكمه لا يعقب، والأجل المحتوم لا يؤخر.

رؤي أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه السلام، فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظراً هائلة، فلما قام قال الرجل: من هذا؟ فقال سليمان: ملك الموت، قال: أرسلني مع الريح إلى عالم آخر، فإني رأيت [منه] مرأى هائلاً، فأمرها عليه السلام، فالتفت في قطر سحيق من أقطار العالم، فما لبث أن عاد ملك الموت إلى سليمان فقال: كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل في هذه الساعة في أرض كذا، فلما وجدته في مجلسك قلت: متى يصل هذا إليها، وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان، فوجدته هناك، فقضيت أمر الله في مكانه وزمانه ٢.

ثم - لما كان في زعم المنافقين أن الخروج من المدينة، وقتل من قُتل، مفسدة مخضة، لم يكن فيها جهة خيرٍ وصلاح - بين الله تعالى حكمه ومصلحه، والتقدير: أن الأمر بالخروج، ووقوع ما وقع، لنبغوا إلى مصالح كثيرة ﴿وَلْيَنْتَلِىْ أَهْلُ﴾ ويحتج بما هو كائن ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الإخلاص والنفاق، والنيات السيئة والحسنة ﴿وَلْيُمَحِّصْ﴾ وليخلص ما هو كائن ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من العقائد الحقّة عن الشكوك والشبهات والوساوس ﴿وَأَهْلُ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ أولاً ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وما في الصمائر من الأسرار والحقائق، فلا يحتاج إلى الاختيار والامتحان، وإنما يبرز صورة الابتلاء، لتزمين المؤمنين، وإظهار حال المنافقين.

ثُمَّ قِيلَ أَنْ ثَلَاثَ عَسْكَرِ الرَّسُولِ ﷺ كَانُوا مَجْرُوحِينَ، وَثَلَاثُهُمْ مُنْهَزِمِينَ، وَثَلَاثُهُمْ ثَابِتِينَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ^١.

وروي أن سعد بن عثمان ورد المدينة وأخبر أن النبي ﷺ قُتل، ثم ورد بعده رجال ودخلوا على نساءهم فجعل النساء يلقن عن رسول الله ﷺ تَفَرُّونَا وَكُنْ يَخْتِئِ التُّرَابُ فِي وُجُوهِهِمْ وَيَقْلُنْ هَاكِ الْمِغْزَلُ وَاغْزِلْ بِهِ^٢.

وروي أنه أصيب مع رسول الله ﷺ نحو من ثلاثين، كلهم بجيء ويحشون يديه ويقول: وجهي لوجهك الفداء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك السلام غير مودع^٣.

وروي أن ثمانية بايعوا رسول الله ﷺ على الموت، ثلاثة من المهاجرين: علي بن أبي طالب، وطه، والزبير، وخمسة من الأنصار: أبو دجانة، والحارث بن الصمة، وخباب بن المُنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، ثم لم يقتل منهم أحد^٤.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ [١٥٥]

ثم أنه تعالى - بعد بيان علل إيراد البليات والمصائب على المؤمنين واستيلاء المشركين عليهم - بين علة انهزام المنهزمين، وعدم ثباتهم في الجهاد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ عن القتال، وانهزموا عند الزلزال ﴿يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وتصادف الفريقان من المسلمين والكفار، لم يكن توليهم وانهزامهم بعلة خروجهم من المدينة كما توهم المنافقون، ولا لقوة المشركين وكثرة شوكتهم، بل ﴿إِنَّمَا﴾ كان بسبب أنه ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ودعاهم إلى الوقوع في الخطيئة، وارتكاب المعصية

الكثيرة، فأجابوه وأسلموا له، وإنما كان تسليمهم له مُعَلَّلاً ﴿بِبَغْضِ مَا كَسَبُوا﴾، وارتكبوا من الذُّنُوب والمعاصي التي كانت دُون ذلك، مِن مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ فِي حِفْظِ الشُّعْبِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الْغَنِيمَةِ، فَصَارَتْ تِلْكَ الذُّنُوبُ مُوجِبَةً لِكَثْرَةِ اسْتِثْلَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى أَوْقَعَهُمْ فِي أَعْظَمِ الْمَعَاصِي مِنَ الْفِرَارِ مِنَ الرُّخْفِ وَتَسْلِيمِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْأَعْدَاءِ حِفْظاً لِنَفْسِهِمْ.

ثُمَّ بَعْدَ التَّوْبِخِ بِشَرِّهِمْ سُبْحَانَهُ بِالْعَفْوِ يَقُولُهُ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ﴾ بَعْدَ تِلْكَ الزَّلَّاتِ وَالْمَعَاصِي عَنْهُمْ ﴿بِقُضْلِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ ﴿لِلذُّنُوبِ﴾ ﴿حَلِيمٌ﴾ عَنِ الْعَاصِيينَ، لَا يُعَاجِلُ بِعُقُوبَتِهِمْ، كَيْ يَتُوبَ مَنْ فِي قَلْبِهِ نُورُ الْإِيمَانِ، وَيَجْرِي قَضَاؤُهُ بِمَنْ لَا تُصِيبُ لَهُ مِنْهُ، وَيَقَعُ مَا فِي مَكُونِ عِلْمِهِ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي مِنْهَا غَضَبُ

خِلَافَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَتَقَدَّمَ الْمُنْهَزِمِينَ فِي الرِّئَاسَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى مَنْ بَايَعَهُ عَلَى الْمَوْتِ. رُوي أَنَّ عِثْمَانَ عُوتِبَ فِي هَزِيمَتِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ خَطَأً، لَكِنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ^١. فِي تَوْصِيفِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْجَلَمِ إِشْعَارَ بِاخْتِلَافِ الْمُنْهَزِمِينَ، فَبَعْضُهُمْ غَفَرَ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ حَلَّمَ عَنْهُمْ وَأَخَّرَ عُقُوبَتَهُمْ إِلَى مَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [١٥٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ بَيَانِ سُوءِ عَقَائِدِ الْمُتَنَافِقِينَ وَشِنَاعَةِ أَقْوَالِهِمْ - نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَافَقَتِهِمْ وَمُثَاقَلَتِهِمْ، يَقُولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي فَسَادِ الْعَقَائِدِ، وَشِنَاعَةِ الْقَوْلِ ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِقُلُوبِهِمْ وَأَمَنُوا بِالسُّتْمِ بِتَفَاقُ كَعْبِدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَمُعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ، وَأَضْرَابِهِمَا، ﴿وَالَّذِينَ قَالُوا﴾ - فِي أَنْفُسِهِمْ، أَوْ تَذَاكُرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ تَلَهُّفاً ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ النَّسَبِيَّةِ وَالْإِعْتِقَادِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وَسَافَرُوا فِي الْبَرَارِيِّ وَالْجِبَالِ لِلتَّجَارَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَعْرَاضِ، فَمَاتُوا فِي سَفَرِهِمْ ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ وَخَرَجُوا مِنْ بِلَادِهِمْ مُقَاتِلِينَ فَقُتِلُوا فِي الْمَعْرَكَةِ -: إِنَّهُمْ ﴿لَوْ كَانُوا﴾ مُقِيمِينَ ﴿عِنْدَنَا﴾ فِي الْمَدِينَةِ ﴿مَا مَاتُوا﴾ فِي السَّفَرِ ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ فِي الْغَزْوِ. فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ، وَاعْتَقَدُوا تِلْكَ الْعَقِيدَةَ الْفَاسِدَةَ ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الْقَوْلَ وَالْإِعْتِقَادَ ﴿حَسْرَةً﴾ وَتَدَامَةً شَدِيدَةً مُسْتَقَرَّةً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وفي جعل القول الذي هو سبب للحسرة عين الحسرة مبالغة في سببها لها وعدم انفيكاكها عنها، وفي ذكر هذه الغاية للقول دلالة على عدم ترتب فائدة وأثر عليه غيرها.

قيل: إن وجه كَوْن هذا الكلام حسرة لهم في الدنيا، زَعَمهم أن مَنْ مات أو قُتل مِنْهُمْ إِنَّمَا مات أو قُتل بسبب تَقْصيرهم في حِفْظ القَتْلِ، ومنعهم من السُّفر والِقِتال، ومن اعتقد ذلك لاشك أنه تزداد حسرته وتَلَهُّفه.

وقيل: إن المراد: لا تكونوا يثْلُمهم في هذا القول الصادر عن الاعتقاد الفاسد السيِّء، ليكون ذلك القول والاعتقاد حسرة لهم خاصةً دُونكم. أو المراد: لا تكونوا يثْلُمهم، ليكون عدم مُثالثتكم حسرة لهم، أما في الدنيا فلا تهم يزُونكم مَنُصُورين، مُستولين على الأعداء، فائزين بالأمان، حازنين للغنائم الكثيرة، وفي الآخرة يزُونكم مَخْصُوصين بكرامة الله ونعمه، وهم بسبب تَبْطُلهم عن الجِهاد لهذا الاعتقاد، حُرِموا عن جميع ذلك.

ثم رَدَّ الله سبحانه قولهم بقوله: ﴿وَاللهُ يُخَيِّئُ﴾ كُلَّ نَفْسٍ، لا الإقامة في البلد والقعود عن القتال، ﴿و﴾ هو ﴿يُمَيِّتُ﴾ كُلَّ حَيٍّ، لا السُّفر والقتال. فإذا أراد الله حياة مُسافرٍ أو مقاتلٍ يرجعان سالمين وإن تورَّطَا في المهالك، وإذا أراد الله موت مقيمٍ أو قاعدٍ يموتان وإن رَاغَا جميع أسباب السلامة. ثم بالغ سبحانه في زَجْر المؤمنين عن مُثَالَّة الكُفَّار، وبعد تَهْييم عنها بتهديدهم عليها بقوله: ﴿وَاللهُ يَمَّا تَفْعَلُونَ﴾ مِنْ جَعَلَ أَنْفُسَكُمْ مِثَالَةً لَهُمْ، ومُوافقتكم إِيَّاهُمْ في العقائد والأقوال والأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ ومُطْلِعٌ، لا يخفى عليه سِرِّكم وعلانيتكم، فَيُعَاقِبُكم على سَيِّئاتكم بأشدَّ العقوبة.

وَلَسِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [١٥٧]

ثم رَغَب سبحانه في الجِهاد بوعْد الثَّواب بعد الزَّجْر عن التَّقَاعُد، والتَّهْدِيد عليه بقوله: ﴿وَلَسِن قُتِلْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الْجِهَادِ ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وَنُصْرَةِ دِينِهِ ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ فِي الْمُسَافَرَةِ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ، مِنْ الْهَجْرَةِ إِلَى الرِّشُول، وتحصيل العلم، وغير ذلك، يكون ذلك القَتْل والموت مُستلْزِمَيْنِ لِلْمَغْفِرَةِ عَنِ الذُّنُوب، والرَّحْمَةِ الدَّائِمَةِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّعْمِ وَ﴿لَمَغْفِرَةٍ﴾ كَانَتْ ﴿مِنْ اللهِ﴾ لَذُنُوبِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ مِنْ عَذَابِهِ ﴿وَرَحْمَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ مِنْ تَعَالَى ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ، وَأَنْفَعٌ ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الْكُفَرَةُ، مِنَ الزَّخَارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يَحْسِبُونَهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ، فِي مَدَّةِ أَعْمَارِهِمْ.

عن ابن عباس رضي الله عنه: خَيْرٌ مِنْ طِلَاعِ الْأَرْضِ^١ ذَهَبٌ حُمْرًا^٢.

وَلَكِنَّ مَثُماً أَوْ قَتَلْتُمْ لِآلِ اللَّهِ تُحْشَرُونَ [١٥٨]

ثُمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي الْوَعْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ مَثُماً﴾ فِي السَّفَرِ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴿أَوْ قَتَلْتُمْ﴾ فِي سَبِيلِهِ ﴿لِآلِ اللَّهِ﴾ الْعَظِيمِ الشَّانِ، الْوَاسِعِ الرَّحْمَةِ، الْجَزِيلِ الْإِحْسَانِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وَتُوفَدُونَ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْحَشْرَ إِلَى اللَّهِ وَالْوُفُودَ عَلَيْهِ وَتَبَلُّ رِضْوَانِهِ، أَعْلَى وَأَنْبَلُ مِنَ الْحَشْرِ إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

قِيلَ: فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى مَرَاتِبِ الْعِبَادِيَّةِ، فِي قَوْلِهِ ﴿كَمَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَعْبُدُهُ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَحْمَةٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَعْبُدُهُ طَمَعاً فِي الثَّوَابِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إِشَارَةٌ [إِلَى] مَنْ يَعْبُدُهُ لِحُبِّ ذَاتِهِ، وَلِكُونِهِ مُسْتَحِقّاً لِلْعِبَادَةِ.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ: عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّنْ قُتِلَ أَوْ مَاتَ، قَالَ: «لَا، الْمَوْتُ مَوْتُ، وَالْقَتْلُ قَتْلٌ» قِيلَ: مَا أَحَدٌ يُقْتَلُ إِلَّا وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ: «قَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ مِنْ قَوْلِكَ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْقُرْآنِ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾^٣» وَقَالَ: ﴿وَلَكِنَّ مَثُماً أَوْ قَتَلْتُمْ لِآلِ اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، وَلَيْسَ كَمَا قُلْتَ، الْمَوْتُ مَوْتُ، وَالْقَتْلُ قَتْلٌ.

قِيلَ: فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^٤؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ لَمْ يَذُقِ الْمَوْتَ - ثُمَّ قَالَ -: لَا يَذُقُ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَذُوقَ الْمَوْتَ»^٥.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [١٥٩]

ثُمَّ أَنَّهُ قِيلَ: لَمَّا عَادَ الْمُنَظَرُونَ لَمْ يُخَاطَبِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْتَغْلِيظِ وَالتَّشْدِيدِ، وَإِنَّمَا خَاطَبَهُمْ بِكَلَامٍ لَيِّنٍ^٦، فَمَدَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ كَانَتْهُ «مِنْ اللَّهِ» الْعَظِيمِ، شَامِلَةً لِكُلِّ وَرَبَّنْهُ عَلَى قَلْبِكَ، وَتَخْصِيصَكَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ﴿لَنْتَ لَهُمْ﴾ وَعَامَلْتَ بِالرَّفْقِ مَعَهُمْ، وَتَلَطَّفْتَ بِهِمْ، بَعْدَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ، وَتَسْلِيمِكَ إِلَى أَعْدَائِكَ.

قِيلَ: إِنَّ كَلِمَةَ (مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا﴾ زَائِدَةٌ جِيءَ بِهَا لِلتَّأْكِيدِ، وَقِيلَ: اسْتَهْوَئِيَّةٌ فِي مَقَامِ التَّعَجُّبِ^٧.

٣. آل عمران: ١٤٤/٣.

١. طِلَاعُ الْأَرْضِ: مِلْؤُهَا.

٢. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعْدِ ٢: ١٠٤.

٤. آل عمران: ١٨٥/٣.

٥. تَفْسِيرُ الْعِيَّاشِيِّ ١: ٧٩٩/٣٤٤ عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١: ٣٥٧.

٦. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٩: ٦٠.

٧. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٩: ٦١.

والمعنى: فبأي رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ مِن الله عليك ظَهَرَ مِنكَ هَذَا الْخُلُقُ الْحَسَنُ! وفي إسناده إلى رَحْمَةِ الله دلالة على أن جميع الأخلاق الحَسَنَةَ بإفاضة الله؛ لأنها مِن قِبَل كمال الوجود المُفَاض مِنه تعالى. رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ اغْتَمَّ لَهُم بَعْدَ أَنْ خَالَفُوهُ.

ورَوَى الفخر الرازي في تفسيره: أَنَّ أُمَّةَ عُثْمَانَ دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْخَيْلِ كَانَ يَغْسِلَانِ السَّلَاحَ، فَقَالَتْ: مَا فَعَلَ ابْنُ عَمَّانَ؟ أَمَا وَالله، تَجِدُونَهُ^١ أَمَامَ الْقَوْمِ، فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ ﷺ: «أَلَا إِنَّ عُثْمَانَ فَصَحَ الزَّمَانُ». فَقَالَ ﷺ: «مَه»^٢.

وفي رواية: قَالَ ﷺ: حَيْثُذ: «أَعْيَانِي أَزْوَاجُ الْأَخْوَاتِ أَنْ يَتَحَابَّرُوا». ثُمَّ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ عُثْمَانُ مَعَ صَاحِبِيهِ مَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ: «لَقَدْ ذَهَبْتُمْ فِيهَا عَرِيضَةً»^٣.

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى مَصْلَحَةِ اللَّيْنِ، وَمُفَسَّدَةِ خِلَافِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا﴾ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، جَافِيًّا فِي الْعِشْرَةِ، كَرِهَ الْخُلُقَ مَعَ أَصْحَابِكَ ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ وَقَاسِيَهُ، غَيْرَ رَفِيقٍ بِهِمْ وَلَا رَحِيمٍ ﴿لَا تَقْضُوا﴾ وَتَفَرَّقُوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وَحَوَانِكَ، وَلَمْ يَسْكُنُوا إِلَيْكَ، حَتَّى تَنِيَمَ فَايْدَةُ الرِّسَالَةِ، فَبِإِنْ حِكْمَةِ الْبُعْثَةِ هِيَ هِدَايَةِ الْخُلُقِ، وَتَبْلِيغِ الشَّرِيعَةِ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَا يَنِيَمُ إِلَّا إِذَا مَالَتْ الْقُلُوبُ إِلَى الرَّسُولِ، وَسَكَنَتْ النُّفُوسُ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُتَوَقَّفٌ عَلَى كَوْنِ الرَّسُولِ عَطُوفًا، رَحِيمًا، مُدَارِيًّا، رَفِيقًا، يَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَخْصِمُهُم بِالْبِرِّ وَالشَّفَقَةِ وَالْمَكْرَمَةِ، وَلِذَا قَالَ ﷺ: «لَا جُلْمَ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُلْمِ إِمَامٍ وَرَفَقَةٍ، وَلَا جَهْلَ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخَرَقَةٍ»^٤.

وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ، قَالَ: «خَصَلْتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: الْبُخْلُ، وَشَوْءُ الْخُلُقِ»^٥.

وَقِيلَ: لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا الشُّؤْمُ؟ قَالَ: «شَوْءُ الْخُلُقِ»^٦.

وَعَنْهُ ﷺ، قَالَ: «أَلَا أَتَيْتُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَنْ نَزَلَ وَخَذَهُ، وَمَنَعَ رَفْدَهُ، وَضَرَبَ عَقْبَهُ». ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَتَيْتُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عَشْرَةً، وَلَمْ يَقْبَلْ مَعْذِرَةً»^٧.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ كَانَ لَهُ مِنْ لَيِّنِ الْجَانِبِ وَالرَّفَقِ بِالنَّاسِ مَا لَمْ يَكُنْ لغيره، وَاخْتَصَّ عُمَرُ بِخِلَافِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الْغِلَظَةِ وَالْفِطَاظَةِ

١. في المصدر: لا تجدونه.

٢. تفسير الرازي ٩: ٦١.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٣٧.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٣٨.

وشوء الخلق ما لم يكن لأحد.

في نقل كلام لابن أبي الحديد: عن الزبير بن بكار، أن عمر كان إذا غضب على بعض أهله، لم يسكن غضبه حتى يعص يده عصاً شديداً، قال: ولقوة هذا الخلق فيه أضمر فظافة عمر

عبد الله بن عباس في خلافته بإبطال القول بالقول^٢، وأظهره بعده، ف قيل له: هلا قلت

هذا في أيام عمر؟ فقال: هبته.

وقد ارتد جيلة بن الأيهم عن الإسلام لتهديد عمر له، ووعيدة إياه أن يضربه بالدرة^٣.

وكفى في شراسة خلق عمر وفظافته، ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة: توجيهاً لقدح عمر في علي عليه السلام بقوله: لكنه امرؤ فيه دُعابة^٤.

من قوله: واعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص، لا يرى الفضيلة إلا في ذلك الخلق، ألا ترى أن الرجل يبخل فيعتقد أن الفضيلة في الإمساك. والبخل يعيب أهل السماح والجود، وينسبهم إلى التبذير، وإضاعة الحزم، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء، وينسبهم إلى ضيق النفس، وشوء الظن، وحُب المال. والجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن، ويعيب الشجاعة، ويعتقد كونها خرقاً وتخريراً بالنفس، والشجاع يعيب الجبان، وينسبه إلى الضعف، ويعتقد أن الجبن ذل ومهانة. وهكذا القول في جميع الأخلاق والسجاياء المقسمة بين نوع الإنسان.

ولما كان عمر شديد الغلظة، وعر الجانب، حشِن الملمس، دائم الثبوس، كان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة، وأن خلافه نقص، ولو كان سهلاً طليقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق، لكان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة وخلافه نقص، حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلي عليه السلام، وخلق علي عليه السلام حاصل له، لقال في علي عليه السلام: لو لا شراسة فيه.

فهو غير مطعون^٥ عندي في ما قاله، ولا منسوب إلى أنه أراد التقيص^٦ من علي عليه السلام والقدح فيه، ولكنه أخبر عن خلقه ظاناً أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة، العظيم الوعورة، وبمقتضى ما كان يظنه من هذا المعنى تسم خلافة أبي بكر بمشاركته إياه في جميع تدبيراته وسياسته وسائر أحواله، لرفق وسهولة كانت في أخلاق أبي بكر.

وبمقتضى هذا الخلق المتمكن عنده، كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة وخطوب

١. زاد في المصدر: ٣٤٢: حتى يدميها. ٢. القول: أن تزيد السهام في الأثر على المال الموجود.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٤٣، والدرة: السوط يضرب به.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٢٦، والدُعابة: اللعب والممازحة.

٥. في المصدر: غير ملوم.

٦. في المصدر: الغض.

متعددة، يقتل قوم كان يرى قتلهم، وكان النبي ﷺ يرى اشتياعهم واشتيلاحهم، فلم يقبل ﷺ مشورته على هذا الخلق، كما أشار^١ عليه يوم يذّر يقتل الأسرى، حيث أشار أبو بكر بالفداء، فكان الصواب مع عمر، ونزل القرآن بموافقته، فلما كان في اليوم الثاني، وهو يوم الحديبية، أشار بالحرب وكره الصلح، فنزل القرآن بضد ذلك، فليس كل وقت يصلح تجريد السيف، ولا كل وقت يصلح إغماره، والسياسة لا تجري على منهاج واحد، ولا تلزم نظاماً واحداً^٢.

إلى أن قال: ونحذّر نذكر كلاماً كثيراً في سبب الغلظة والفظاظة، وهو الخلق المثنافي للخلق الذي عليه أمير المؤمنين عليه السلام، فنقول: إنه قد يكون لأمر عايد إلى المزاج الجسماني، وقد يكون لأمر عايد إلى المزاج الجسماني، وقد يكون لأمر راجع إلى النفس، فأما الأول فإنما يكون لغلبة الأخلاق السوداوية وترمدتها^٣، وعدم صفاء الدم وكثرة كدورته وعكره، فإذا غلظ الدم وثخن، غلظ الروح النفساني وثخن أيضاً؛ لأنه متولد من الدم فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب الفطرة من الاستيحاء، والثبوة^٤ عن الناس، وعدم الاستيناس والبشاشة، وصار صاحبه ذا جفاء، وأخلاق غليظة، ويشبه أن يكون هذا سبباً مادياً. فإن الذي يقوى [في نفسي أن النفوس] إن صحّت وثبتت، مختلفة بالذات.

وأما الراجع إلى النفس فإن يجتمع عندها أقطار وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة، نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوفرة، [وينضاف إليها تصور الكمال في ذاتها وتوهم النقصان في غيرها، فيعتقد أن حركات غير واقعة على غير الصواب وأن الصواب ما توهمه] وينضاف إلى ذلك لججاج وضيق [في] النفس، وجدة واستنشاط^٥ وقلة صبر عليه، فيتولد من مجموع هذه الأمور خلق ذبني، وهو الغلظة، والفظاظة، والوعورة، والبادرة المكروهة، وحُبهم محنة الناس، ولقاؤهم بالأذى، وقلة المراقبة لهم، واستعمال القهر في جميع الأمور، وتناول الأمر من السماء وهو قادر على أن يتناوله من الأرض.

وهذا الخلق خارج عن الاعتدال، وداحل في حيز الجور، ولا ينبغي أن يسمى بأسماء المدح، وأعني بذلك أن قوماً يسمون هذا النوع من الغف والخلق الوعر رجولية وشدة وشكيمة، ويذهبون به مذهب قوة النفس وشجاعتها، [الذي] هو بالحقيقة مدح. وشتان مابين الخلقين، فإن صاحب هذا

١. في المصدر: وأما إشارة.

٢. أي صبروتها بلون الزماد.

٣. في المصدر: استنشاطة.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦: ٣٢٧.

٥. الثبوة: الجفوة والابتعاد.

٦. في المصدر: المكروهة، وعدم حُبّه.

الْخُلُقُ الَّذِي ذَمَّنَاهُ، تَصَدَّرَ عَنْهُ أَعْمَالُ كَثِيرَةٍ يَجُورُ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ عَلَى إِخْوَانِهِ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ
فَالْأَقْرَبُ^١، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى عَبِيدِهِ وَحَرَمِهِ، فَيَكُونُ عَلَيْهِمْ سَوْطُ عَذَابٍ، لَا يُقِيلُهُمْ عَثْرَةً، وَلَا يَرْحَمُ لَهُمْ
عَثْرَةً، وَإِنْ كَانُوا بُرَاءً مِنَ الذُّنُوبِ، غَيْرَ مُجْرِمِينَ، وَلَا مُكْتَسِبِي شَوْءٍ، بَلْ يَتَجَرَّمُ عَلَيْهِمْ وَيَهَيِّجُ مِنْ أَدْنَى
سَبَبٍ يَجِدُ بِهِ طَرِيقاً إِلَيْهِمْ حَتَّى يَبْسُطَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ، وَهُمْ لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ، وَلَا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى رَدِّهِ عَنْ
أَنْفُسِهِمْ، بَلْ يَذْعَنُونَ لَهُ، وَيَقْرَءُونَ بِذُنُوبٍ لَمْ يَقْتَرِفُوهَا، اسْتِكْفَافاً لِعَادِيَتِهِ، وَتَسْكِيناً لَغَضَبِهِ، وَهُوَ فِي
ذَلِكَ يَسْتَمِرُّ عَلَى طَرِيقَتِهِ، لَا يَكْفُفُ يَدَا وَلَا لِسَاناً.

وَأَصْلُ هَذَا الْخُلُقِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ قُوَى مُخْتَلِفَةٍ شِدَّةً: الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ، فِيهِ الْحَامِلَةُ
لصَاحِبِ هَذَا الْخُلُقِ عَلَى مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنَ الْبَادِرَةِ الْمَكْرُوهَةِ، وَالْجَبَّةِ وَالْفَحَّةِ^٢، وَلِهَذَا رَأَيْنَا وَشَاهَدْنَا
مَنْ تَشْتَدُّ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ فِيهِ فَيَتَجَاوَزُ الْغَضَبُ عَنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ، وَإِلَى الْأَوَانِي
الَّتِي لَا تَحِسُّ، فَرُبَّمَا قَامَ إِلَى الْحِمَارِ وَالْبَرْدَوْنَ فَضْرِبُهُمَا وَلَكَرْهُهُمَا، وَرُبَّمَا كَسَرَ الْآيَةَ لِشِدَّةِ غَضَبِهِ،
وَرُبَّمَا عَضَّ الْقُفْلَ إِذَا تَعَسَّرَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا كَسَرَ الْقَلَمَ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِهِ شَعْرَةٌ مِنَ الدَّوَاةِ وَاجْتَهَدَ فِي إِزَالَتِهَا
فَلَمْ تَزَلْ.

ثُمَّ حَكَى عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ بَعْضَ سَيِّئَاتِ عُمَرَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَالشَّنَّانِ^٣ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَلْحَةَ،
حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، وَحَتَّى هَمَّ طَلْحَةُ أَنْ يُجَاهِرَهُ، وَطَلْحَةُ هُوَ الَّذِي قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ عِنْدَ مَوْتِهِ: مَاذَا
تَقُولُ لِرَبِّكَ وَقَدْ وَلَّيْتَ فِينَا فَظّاً غَلِيظاً؟ وَهُوَ الْقَائِلُ لَهُ: يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا لَا نَحْتَمِلُ شِرَاسَتَهُ
وَأَنْتَ حَيٌّ تَأْخُذُ عَلَى يَدَيْهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُنَا مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ وَهُوَ الْخَلِيفَةُ؟

ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ: وَاعْلَمْ أَنَا لَا تُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ ذَمَّ ﷺ، وَكَيْفَ نَذَمَهُ وَهُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْمَدْحِ
وَالْتَعْظِيمِ، لِيُثْمِنَ نَقِيْبَتَهُ، وَبِرَّكَهَ خِلَافَتِهِ، وَكَثْرَةَ الْفَتْوحِ فِي أَيَّامِهِ، وَاتِّظَامَ أُمُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى يَدِهِ، وَلَكِنَّا
أَرَدْنَا أَنْ نَشْرَحَ حَالَ الْغُثِّ وَالرَّفِثِ، وَحَالَ سَعَةِ الْخُلُقِ وَضَيْقِهِ، وَحَالَ الْبَشَاشَةِ وَالْعُبُوسِ، وَحَالَ
الطَّلَاقَةِ وَالْوَعُورَةِ^٤.

فِي نَقْلِ كَلَامِ ابْنِ أَبِي
الْحَدِيدِ فِي حُسْنِ
خُلُقِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﷺ
وَحِلْمِهِ

إِلَى أَنْ قَالَ: فِي حِلْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ وَصَفْحِهِ وَلِينِهِ، حِلْمُهُ وَصَفْحُهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ
الْحَكَمِ بَعْدَ وَقْعَةِ الْجَمَلِ، وَظَفَرَهُ عَلَيْهِ؛ مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَهُ، وَصَفْحُهُ عَنْ
عَائِشَةَ وَإِرْجَاعِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ مُحْتَرِمةً مَكْرَمَةً، وَمُعَامَلَتَهُ مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مُعَامِلَةً رَسُولِ

١. فِي الْمَصْدَرِ: عَلَى الْأَقْرَبِ فَاَلْأَقْرَبِ مِنْ مَعَامِلِهِ.

٢. الْجَبَّةُ: الْمُقَابَلَةُ بِمَا يَكْرَهُ الْآخَرُ، وَالْفَحَّةُ: هِيَ قَلَّةُ الْحَيَاءِ وَالْاجْتِرَاءِ عَلَى فِعْلِ الْمَسَاوِي.

٣. فِي الْمَصْدَرِ: الشَّنَّانُ. ٤. شَرَحَ نَهْجُ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ٦: ٣٤٠ - ٣٤٤.

الله ﷺ مع أهل مكة بعد الفتح، مع أنهم حاربوه وضربوا وجهه ووجه أولاده بالسيف، وواجهوه بالشتم واللعن^١.

وقال أيضاً في مقدمة شرحه: إنه ﷺ كان أحلم الناس. ثم استشهد بحلمه عن هؤلاء وغيرهم من أعدائه، مع قدرته على الانتقام. إلى أن قال: وأما سجاحة الأخلاق^٢، وبشر الوجه، فإنه ﷺ المصروب به المثل، حتى عابه بذلك أعداؤه...^٣ إلى آخره.

وأما بسطنا الكلام وخرجنا عما هو المقصود من وضع الكتاب في المقام؛ لأن يشهد الورق عند الله على ولايتي لأوليائه، وبراءتي من أعدائه يوم القيامة.

ثم أنه تعالى بعد مدح نبيه باللين والرفق، رتب عليه الأمر بلوازمه اهتماماً به، بقوله: ﴿فَاعْفُ﴾ وتجاوز ﴿عَنْهُمْ﴾ في ما يتعلق بحقوقك، كما عفا الله عنهم في ما تعلق بحقوقه من الذنب ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ الله ﴿لَهُمْ﴾ في جميع معاصيهم، إتماماً للشفقة عليهم، وإكمالاً للبر بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ واستطلع آراءهم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ المهم عندك، حرباً كان أو غيره، لتطيب قلوبهم، والإحاطة بمراتب عقولهم وخلوصهم وخبرهم، وتعليمهم المشورة في الأمور، وإجراء تلك السنة في الأمة.

روى الفخر الرازي: عن الواحدي، عن ابن عباس ﷺ أنه قال: الذي أمر النبي ﷺ بمشاورته في هذه الآية أبو بكر وعمر^٤.

ثم قال: وعندي فيه إشكال؛ لأن الذين أمر الله نبيه بمشاورتهم في هذه الآية هم الذين أمره بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم، وهم المنهزمون. فهب أن عمر كان منهم فدخل تحت الآية، إلا أن أبا بكر ما كان منهم، فكيف يدخل تحت هذه الآية؟^٥

أقول: وبعد أنه نفسه روى أن عمر كان من المنهزمين^٦، واتفاق أكثر أصحابه عليه، لم يكن مجال لقوله: (هب أنه كان منهم) لدلالة هذا الكلام على عدم التسليم. ثم بعد تسليمه دلالة رواية ابن عباس بالالتزام على أن أبا بكر كان من المنهزمين، لا وجه لإنكاره، وجعله وخجلاً للأشكال في الرواية، مع أن ابن عباس كان أتقن من غيره، وتأيداً بالاعتبار، لوضوح عدم كون أبي بكر أقوى إيماناً وأربط جاشاً من عمر، ولدلالة الإخاء الذي جعله الرسول ﷺ بينهما على أنهما قرسا رهان.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٢ - ٢٣.

٢. سجاحة الأخلاق: ليونتها وسهولتها.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٥.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٩: ٦٧.

٦. تفسير الرازي ٩: ٥٠.

ثُمَّ أَنَّ الرُّوَايَةَ دَالَّةٌ عَلَى قَدْحٍ عَظِيمٍ فِيهِمَا، حَيْثُ إِنَّهَا - لِدَّلَاتِهَا عَلَى تَخْصِصِ الْمَشُورَةِ بِهِمَا، مَعَ وَضُوحِ أَنَّ مَشُورَةَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لَتَطْيِيبِ الْقُلُوبِ - دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ حِفْظَ الْإِسْلَامِ كَانَ مَوْقُوفًا عَلَى تَطْيِيبِ قُلُوبِهِمَا، وَحِفْظِ خَاطِرِهِمَا أَزِيدَ مِنْ تَطْيِيبِ قُلُوبِ الْمُتَهْزَمِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ مَعَ مَلَالَةِ خَاطِرِهِمَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ إِخْلَالِهِمَا فِي أَمْرِهِ، وَإِفْسَادِهِمَا فِي دِينِهِ، فَافْهَمْ.

وَعَنِ الْعِيَّاشِيِّ رحمه الله: كَتَبَ الْجَوَادُ عليه السلام إِلَى عَلِيِّ بْنِ مَهْزَارٍ «أَنَّ سَلَّ قُلَانًا أَنْ يُشِيرَ عَلَيَّ وَيَتَخَيَّرَ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَجُوزُ فِي بَلَدِهِ، وَكَيْفَ يُعَامَلُ السَّلَاطِينُ، فَإِنَّ الْمَشُورَةَ مُبَارَكَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ - وَتِلَا هَذِهِ الْآيَةِ وَقَالَ -: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يَعْنِي: الْاسْتِخَارَةَ^١.

فِي (نَهْجِ الْبَلَاغَةِ): «مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عَقُولِهَا»^٢.

وَفِيهِ: «الْاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ»^٣.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ»^٤.

ثُمَّ نَبَّهَ شُبْحَانَهُ عَلَى وُجُوبِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي إِنْجَاحِ الْمَقْصُودِ بَعْدَ الْمَشَاوَرَةِ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وَأَحْكَمَتِ الرَّأْيَ بَعْدَ الْمَشَاوَرَةِ عَلَى عَمَلٍ، وَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ نَفْسُكَ، فَلَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، بَلْ إِذَا أَرَدْتَ إِنْجَازَهُ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وَاعْتَمِدْ عَلَيْهِ فِيهِ، حَتَّى يَرْشِدَكَ إِلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ وَأَرْشَدَ لَكَ، حَيْثُ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا اللَّهُ، لَا أَنْتَ وَلَا مَنْ تَشَاوَرَهُ.

فِي مَعْنَى التَّوَكُّلِ ثَمَّ بَيْنَ شُبْحَانِهِ فَضِيلَةَ التَّوَكُّلِ تَرْغِيبًا إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فِي

أُمُورِهِمْ عَلَيْهِ، حَيْثُ إِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، وَتَفْوِضَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ مُتْلَازِمَةٌ لِمَحَبَّتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ اللَّهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ نَصَرَهُ وَهَدَاهُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَصَلَحٍ. قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَهْمَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَلَا يُرَاعِيَ الْأَسْبَابَ الظَّاهِرَةَ، كَمَا تَوَهَّمَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَالِ، وَإِلَّا لَكَانَ أَمْرُهُ تَعَالَى بِالْمَشَاوَرَةِ مُتَأَنِّيًا لِأَمْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنْ يُرَاعِيَ الْإِنْسَانَ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ وَالْمُعِيدَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَلَكِنْ لَا يَعُولُ بِقَلْبِهِ عَلَيْهَا، بَلْ يَعُولُ عَلَى لُطْفِ اللَّهِ وَعِصْمَتِهِ.

إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [١٦٠]

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٤/٣٤٨، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.

٢. نهج البلاغة: ١٦١/٥٠٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٤. ٣. نهج البلاغة: ٢١١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.

٤. الخصال: ٢٢٢/١٦٩، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.

ثم بالغ سبحانه في حثّ المؤمنين على التوكّل، بتوجيه الخطاب إليهم تشريعاً لهم وتخييباً، بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون على أعدائكم، كما نصركم يوم بدرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من الموجودات، ولا قاهر عليكم من الممكّنات، بل أنتم الغالبون القاهرون ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ الله، ويترك نصركم، ويخلّي بينكم وبين الأعداء، كما خذلكم يوم أحدٍ ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ على الأعداء، ويقدر على عونكم في الأمور ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وعند خذلانه.

ثم بعد التنبيه على أن جميع الأمور من النصر، والخذلان، وغيرهما، بإرادة الله وقضائه، أكد وجوب التوكّل على عباده، بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وخذه دون غيره.

استقلالاً وتشريعاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كلّهم في كلّ الأمور، وليعتمد على لطفه العارفون، لاشتيازام العرفان والإيمان به، سلب القدرة عن النفس، وتفويض الأمور إليه، والاعتماد بلطفه وفضله. في فضيلة التوكّل عن عمران بن حصّين، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب». قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «هم الذين لا يكيدون، ولا يشترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقال عكاشة بن مخصن: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال ﷺ: «أنت منهم»، ثم قام آخر، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبّك بها عكاشة». وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله، يرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»^١.

وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [١٦١]

ثم أنه روي أن الرّواة الذين تركوا المركز يوم أحد، وأفاضوا في طلب الغنيمة، قالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتّى يأتيكم أمري؟». فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أننا نغل^٢ ولا نقسم بينكم»^٣.

فنزّه الله تعالى نبيه عن العلول والخيانة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصحّ وينبغي ﴿لِنَبِيِّ﴾ ولا يستقيم له، مع

٢. الغلّ: الخيانة.

١. تفسير روح البيان ٢: ١١٧.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١١٨.

كَوْنَهُ آمِينَ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ الْمُسْلِمِينَ، وَيُحَوِّنُهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ، لَغَايَةِ التَّنَافِي بَيْنَ ذَلِكَ الْمُنْصِبِ، الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ دَرَجَةِ كَمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَبَيِّنَ الْخِيَانَةَ الَّتِي هِيَ سَبَبٌ لِلْعَارِ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ.

وَرُوي أَنَّهُ ﷺ بَعَثَ طَلَانِعَ، فَغَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَهُمْ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْحَاضِرِينَ، وَلَمْ يَتْرُكْ لِلطَّلَانِعِ شَيْئًا، فَنَزَلَتْ^١.

وَالْمَعْنَى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يُعْطِيَ قَوْمًا مِنَ الْعَشْكَرِ الْغَنِيمَةَ، وَيَمْنَعَهَا مِنَ الْآخَرِينَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُقَسِّمَهَا بَيْنَ الْكُلِّ بِالسَّوِيَّةِ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ حِرْمَانِ بَعْضِ الْغَزَاةِ بِالْفُؤُلِ لِلتَّغْلِيظِ فِي النِّهْيِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَشْرَافَ النَّاسِ طَمِعُوا أَنْ يُخْصَصَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ بَشْيَءَ زَائِدٍ، فَنَزَلَتْ^٢.

وَرُوي أَنَّهُ ﷺ غَنِمَ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ وَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، وَتَأَخَّرَتِ الْقِسْمَةُ لِبَعْضِ الْمَوَانِعِ، فَجَاءَ قَوْمٌ فَقَالُوا: أَلَا تُقَسِّمُ غَنَائِمَنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ لَكُمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا حَبَسْتُ عَنْكُمْ دِرْهَمًا، أَتَحْسِبُونَ أَنِّي أَغْلَبُكُمْ مَعَكُمْ؟» فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^٣.

وَعَنِ الْقَمِّي رضي الله عنه: نَزَلَتْ فِي حَرْبِ بَدْرٍ، وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّهُ كَانَ فِي الْغَنِيمَةِ الَّتِي أَصَابُوهَا يَوْمَ بَدْرٍ قَطِيفَةٌ حُمْرَاءُ فَقَطِدَتْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا لَنَا لَا نَرَى الْقَطِيفَةَ؟ مَا أَطْلُنَ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ أَخَذَهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ قُلَانًا غَلَّ قَطِيفَةً، فَأَخْفَرَهَا هُنَاكَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، فَأَخْرَجَ الْقَطِيفَةَ^٤.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَنَّ رِضَا النَّاسِ لَا يَمْلِكُ، وَالسِّتْمُ لَا تُضْبَطُ، ... أَلَمْ يَنْشَبْهُ يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى أَنَّهُ أَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْمَغْنَمِ قَطِيفَةً حُمْرَاءَ حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ الْقَطِيفَةَ، وَبَرَأَ نَبِيَّهُ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَأَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ الْآيَةُ^٥. وَعَنْ عِكْرَمَةَ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ^٦.

وَرُوي أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي آدَاءِ الْوُخْيِ، [حَيْثُ] كَانَ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَفِيهِ عَيْبٌ دِيْنَهُمْ، وَسَبٌّ آلِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَتْرُكَ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ^٧.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ عَنِ الْفُؤُلِ بَيْنَ شِدَّةِ قُبْحِهِ وَحُرْمَتِهِ تَأْكِيدًا لِنَزَاهَتِهِمْ عَنْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ﴾ وَيُخُونُ فِي مَالٍ فِي الدُّنْيَا ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ وَخَانَ فِيهِ بَعِيْتَهُ، حَامِلًا [لَهُ] عَلَى ظَهْرِهِ ﴿يَوْمَ

١. تفسير روح البيان ٢: ١١٨.

٢ و ٣. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

٤. في المصدر: فَاخْبَأَهَا.

٥. تفسير الصافي ١: ٣٦٥.

٦. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

٨. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

الْقِيَامَةُ ﴿١﴾

في حرمة الخيانة عن ابن عباس عليه السلام، أنه قال: يمثل له ذلك الشيء في قعر جهنم، ثم يقال له: أنزل إليه فشذبه، فينزل إليه، فإذا انتهى إليه حملته على ظهره، فلا يقبل منه^١.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَلَا لَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي بيبعير له رُغَاء، وبيقرة لها خُوار، وبشاة لها ثُغَاء، فينادي: يا محمد، يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، فقد بلغت^٢».

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ بعثناه على عملٍ ففعل شيئاً، جاء يومَ القيامة يحمله على عُنقه^٣».

قيل لأبي هريرة: كيف يأتي بما غلّ وهو كثير كبير، بأن غلّ أموالاً جَمَةً؟ فقال: أرايت مَنْ كان ضرره مثل أخذ، وفخذه مثل جبل^٤، وساقه مثل ودقان^٥، ومجلسه مابين المدينة وريدان^٦، يحيل مثل هذا؟ وقيل: إن المراد: يأت بما احتمل من إثمه^٧.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ وتعطى كاملاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصلت في مدة عمرها من جزاء عملها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً، لا بزيادة العذاب، ولا بتقص الثواب.

قيل: كان المناسب أن يقال: ثم يوفى الغال ما كسب^٨، وإنما عدل عنه إلى حكم عموم الناس ليكون كالبرهان على المقصود، والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله، فالغال مع عظم جرمه أولى بذلك^٩.

روى أن النبي صلى الله عليه وآله جعل سلمان رضوان الله عليه على الغنيمة، فجاءه رجل وقال: يا سلمان، كان في ثوبي خرق، فأخذت خيطاً من هذا المتاع فخطته به، فهل علي جناح؟ فقال سلمان: كل شيء بقدره، فسأل الرجل الخيط من ثوبه، ثم ألقاه في المتاع^{١٠}.

وروي أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وآله بشراك^{١١} أو شراكين من الغنم، فقال: أصبت هذا يوم خير، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «شراك أو شراكين من نار»^{١٢}.

وروي أن رجلاً رمى بسهم في خير، فقال القوم لما مات: هنيئاً له الشهادة، فقال [النبي صلى الله عليه وآله]: «كلاً».

١. تفسير الرازي ٩: ٧٣. ٢. تفسير الرازي ٩: ٧٣، تفسير روح البيان ٢: ١١٨.

٣. تفسير الرازي ٩: ٦٩، تفسير روح البيان ٢: ١١٨. ٤. جبل: منطقة يراد بها العراق.

٥. ودقان: اسم موضع. ٦. ريدان: حصن باليمن.

٧. تفسير روح البيان ٢: ١١٨. ٨. في النسخة: توفى الغال ما كسبت.

٩. تفسير روح البيان ٢: ١١٨. ١٠. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

١١. الشراك: سير التل على ظهر القدم. ١٢. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

والذي نفس محمد بيده، إِنْ الشُّمْلَةُ^١ التي أخذها مِنَ الغنائم قبل قِسْمَتِهَا لِلنَّهْبِ^٢ عليه ناراً^٣.
وعنه ﷺ قال: «هَذَا يَا الْوَلَاءُ غُلُولٌ»^٤.

أَقْمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [١٦٢]

ثم أكد سبحانه تنزه النبي ﷺ عن الخيانة ببيان التناهي بين مرتبة الثبوة المستلزمة للتمحُّص في طاعة الله وطلب مرضاته، وبين ارتكاب الظُّلم الذي هو أشدُّ القبائح وأكبر المعاصي، بقوله: «أَقْمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ» وسعى في العمل بطاعته، من الإيمان به وباليوم الآخر، وامتنال أحكامه التي منها حرمة الغلول.

وقيل: إِنْ المعنى: أَمَنْ اتَّقَى فَاتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ يُمكن أن يكون «كَمَنْ بَاءَ» ورجع إلى مخضر غزله مُلتبساً «بِسَخَطٍ» عظيم، وغضبٍ شديد، ومُستحقاً للعذاب الأليم الكائِن «مِنْ أَقَمِ» العظيم بشوء أعماله، وعظم معاصيه؟

عن الصادق عليه السلام: «الَّذِينَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ هُمُ الْأَتَمَّةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٥.
وفي رواية أخرى، عنه عليه السلام: «وَالَّذِينَ بَاءُوا بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ جَحَدُوا حَقَّ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَحَقَّ الْأَتَمَّةُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَبَاءُوا لِذَلِكَ بِسَخَطِ اللَّهِ»^٦.

«وَوَ» كان «مَأْوَاهُ» ومُستقرّه في الآخرة «جَهَنَّمُ» والدُّرْكُ^٧ مِنَ النَّارِ، «وَوَ» هي «بِئْسَ الْمَصِيرُ» قيل: الفَرْقُ بَيْنَ الْمَصِيرِ وَالْمَرْجِعِ: أَنَّ الْمَصِيرَ يَجِبُ أَنْ يُخَالَفَ الْمَقَرُّ الْأَوَّلُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْمَرْجِعُ.

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ [١٦٣]

ثم أَنَّهُ تعالى - بعد بَيَانِ الثَّبَانَةِ بَيْنَ الْمُطِيعِ وَالْعَاصِي - تَبَّهَ عَلَى أَنَّ النُّفُوسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْمَاهِيَةِ وَالْحَقِيقَةِ، كَمَا عَلَيْهِ جَمْعٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ رِوَايَاتُ الطَّيْبَةِ^٨، وَحَدِيثُ: «النَّاسُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ»^٩ بَعْضُهَا ثَوْرَانِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا ظُلُمَانِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا زَكِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا بَلِيدَةٌ.
وَلَمَّا كَانَ اخْتِلَافُهَا فِي دَرَجَاتِ الْقُرْبِ وَالتَّبَعْدِ دَائِرَةً مَدَارِ هَذَا الْاِخْتِلَافِ، عَبَّرَ عَنْهُ بِنَفْسِ الدَّرَجَاتِ

١. الشُّمْلَةُ: ثوب أو كساء من صوف أو شعر، يتلفى به أو يتلفف به.

٢. في تفسير الرازي: للنَّهْبِ.

٣. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

٤. تفسير الرازي ٩: ٦٩.

٥ و ٦. تفسير العياشي ١: ٨٠٦/٣٤٩، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.

٧. الدُّرْكُ: أسفل كل شيء.

٨. بحار الأنوار ٦١: ٥١/٦٥.

٩. انظر الكافي ٢: باب ١.

بقوله: ﴿هُم﴾ بسبب اختلاف أحوالهم وتباين أخلاقهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ وطبقات متفاوتة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي علمه وحكمه، فكما أن أهل الجنة يختلفون في الدرجات، كذلك أهل النار يختلفون في الدرجات.

عن الرضا عليه السلام: «الدرجة ما بين السماء والأرض»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «الأيمة والله، درجات للمؤمنين، وبمواالاتهم ومعرفتهم إيانا يُضَاعَفُ الله لهم أعمالهم، ويرفع لهم الدرجات العلى»^٢.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «[أن] أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ يُحْدِثُ لَهُ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْ حَرِّهِمَا دِمَاعُهُ، يُنَادِي: يَا رَبِّ، وَهَلْ أَحَدٌ يُعَذِّبُ عَذَابِي؟»^٣.

قيل: في الآية حذف، والتقدير: لهم درجات، أو: هم ذوو درجات.

ثم لما كان توفية جزاء الأعمال، وعطاء الدرجات بها، متوقفة على العلم بها، بين سعة علمه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ ومحيط علماً ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات، بحيث لا يعزب عنه مثقال ذرة.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

مُبين [١٦٤]

ثم بالغ سبحانه في الزجر عن نسبة الغلول وكل ما لا يليق بساحة نبيه إليه، ووجوب حفظ حرمة، والألتزام بطاعته، ومعرفة قدره، ببيان كونه صلى الله عليه وآله من أعظم نعم الله على أهل العالم، بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾ وتفضل بنعمة عظيمة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ من غير توقع عوض. وتخصيصهم بالامتنان لزيادة انتفاعهم بها، وإن كانت نعمة على المؤمن والكافر، بل نعمة على العالمين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ وأرسل إليهم ﴿رَسُولًا﴾ عظيم الشأن.

في فوائد كون
الرسول صلى الله عليه وآله من
العرب
ومن كمال تلك النعمة أن ذلك الرسول كان ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ومن جنسهم لأنسابه،
ومن أهل لسانهم ليفهموا لسانه، ومن قبيلتهم ليكونوا واقفين على أخلاقه وكمالاته،

ويفتخروا على العالم بالانساب إليه، أو كونهم قومه، حيث إنه حصل للعرب

بكونه صلى الله عليه وآله عربياً شرف عظيم بعد كونه قبل بعثته من أذل الناس وأبعدهم من شؤون الإنسانية.

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٧/٣٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.

٢. تفسير العياشي ١: ٨٠٦/٣٤٩، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.

٣. تفسير الرازي ٩: ٧٦.

قيل: إِنْ مِنْ فَوَائِدَ كَوْنِهِ ﷺ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجْوه:

الأول: أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ فِيهِمْ وَفِي بَلَدِهِمْ، وَنَشَأَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُمْ كَانُوا عَارِفِينَ بِأَحْوَالِهِ، مُطَّلِعِينَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَمَا شَاهَدُوا مِنْهُ مِنْ أَوَّلِ عُمُرِهِ إِلَى آخِرِهِ إِلَّا الصِّدْقَ وَالْعَقَافَ، وَعَدَمَ الْإِثْفَاتِ إِلَى الدُّنْيَا، وَالبُّغْدَ عَنِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ وَالْكِذْبِ. ثُمَّ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَالرَّسَالَةَ، الَّتِي يَكُونُ الْكِذْبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَى مِنْ أَقْبَحِ أَنْوَاعِ الْكِذْبِ، فَمَنْ عَرَفَهُ بِهَذِهِ الْكَمَالَاتِ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ، بَلْ يَتَيَقَّنُ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى.

الثاني: أَنَّهُمْ كَانُوا عَالِمِينَ بِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَتَلَمَّذْ لِأَحَدٍ، وَلَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا، وَلَمْ يُعَارَسْ دَرْسًا وَلَا تَكَرُّارًا، وَأَنَّهُ إِلَى تَمَامِ الْأَرْبَعِينَ لَمْ يَنْطِقْ قَطُّ بِحَدِيثِ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ. ثُمَّ أَنَّهُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ادَّعَى الرَّسَالَةَ، وَظَهَرَ عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْعُلُومِ مَا لَمْ يَظْهَرْ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَذَكَرَ قِصَصَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ عَلَى الْوُجْهِ الَّذِي كَانَ مَوْجُودًا فِي كُتُبِهِمْ، فَكُلٌّ مِّنْ لَهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ عِلِمٌ أَنَّ هَذَا لَا يَتَأْتَى إِلَّا بِالْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ، وَالْإِلْهَامِ الْإِلَهِيِّ.

الثالث: أَنَّهُ بَعْدَ ادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْأَمْوَالُ الْكَثِيرَةَ وَالْأَزْوَاجَ لِيَتْرَكَ هَذِهِ الدَّعْوَى، فَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ قَنِعَ بِالْفَقْرِ وَصَبَرَ عَلَى الْمَشَقَّةِ، وَلَمَّا عَلَا أَمْرُهُ، وَعَظُمَ شَأْنُهُ، وَأَخَذَ الْبِلَادَ، وَعَظُمَتِ الْغَنَائِمُ، لَمْ يُعَيِّرْ طَرِيقَهُ فِي الْبُغْدِ عَنِ الدُّنْيَا، وَالدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ. وَالْكَاذِبُ إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَلَى الْكِذْبِ لِيَجِدَ الدُّنْيَا، فَإِذَا وَجَدَهَا تَمَتَّعَ بِهَا، وَتَوَسَّعَ فِيهَا، فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عِلِمٌ أَنَّهُ كَانَ صَادِقًا.

الرابع: أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ، وَالتَّنْزِيهِ، وَالْعَدْلِ، وَالنُّبُوَّةِ، وَإِثْبَاتِ الْمَعَادِ، وَشَرْحِ الْعِبَادَاتِ، وَتَقْرِيرِ الطَّاعَاتِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَعْرِفَ الْحَقَّ لِدَاثَةِ، وَالْخَيْرَ لِأَجْلِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، وَلَمَّا كَانَ كِتَابُهُ لَيْسَ إِلَّا فِي تَقْرِيرِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، عِلِمٌ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي مَا يَقُولُهُ.

الخامس: أَنَّ قَبْلَ مَجِيئِهِ كَانَ دِينُ الْعَرَبِ أَرْدَلُ الْأَدْيَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَأَخْلَاقُهُمْ أَرْدَلُ الْأَخْلَاقِ، وَهِيَ الْغَارَةُ، وَالثُّهْبُ، وَالْقَتْلُ، وَأَكْلُ الْأَطْعِمَةِ الرَّذِيئَةِ. ثُمَّ لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ تَقْلَهُمُ اللَّهُ بِبِرْكَةِ مَقْدَمِهِ، مِنْ تِلْكَ الدَّرَجَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الدَّرَجَاتِ، إِلَى أَنْ صَارُوا أَفْضَلَ الْأُمَمِ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَعَدَمَ الْإِثْفَاتِ إِلَى الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا. وَلَاشَكَّ أَنَّ فِيهِ أَعْظَمَ النِّعْمَةِ وَالْمِنَّةِ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْوُجُوهَ، فَقُولْ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وُلِدَ فِيهِمْ، وَنَشَأَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانُوا مُشَاهِدِينَ لِهَذِهِ

الأحوال، مُطْلَعِينَ عَلَى هَذِهِ الدَّلَالِ، فَكَانَ إِيمَانُهُمْ مَعَ مُشَاهَدَةِ الْأَحْوَالِ أَسْهَلَ مِمَّا إِذَا لَمْ يَشَاهِدُوهَا، وَلَمْ يَطْلُعُوا عَلَيْهَا^١.

وَرَوَى عَنْ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ، عِنْدَ تَرْوِيعِ خَدِيجَةَ: ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، مَنْ لَا يُوزَنُ بِهِ فِتْنَى مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا رَجَحَ بِهِ، وَهُوَ وَاللَّهُ لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ^٢.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شَبَحَانَهُ أَعْظَمَ فَوَائِدَ يَغْتَنِي مِنْ تَكْمِيلِ قُوَّتِي الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ فِيهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَتْلُوا﴾ وَيَقْرَأُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾. أَوَّلًا، لِإثْبَاتِ صِدْقِ دَعْوَتِهِ، وَكَوْنِهِ مَبْعُوثًا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ ﴿آيَاتِهِ﴾ الْقَرَأَنِيَّةِ الْمُشْتَبِلَةِ عَلَى غُلُومٍ كَثِيرَةٍ، مَعَ إِعْجَازِ الْبَيَانِ الدَّلَالِ عَلَى كَوْنِهَا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ بَعْدَمَا كَانُوا أَجْهَلًا لَمْ يَسْمَعُوا الْوَحْيَ، ﴿وَبَعْدَ ذَلِكَ يُزَكِّيهِمْ﴾ وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ أَدْنَسِ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الزَّائِفَةِ، وَالْأَرْجَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنْجَاسِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ﴾ بَعْدَ التَّلَاوَةِ ذَلِكَ ﴿الْكِتَابَ﴾ الْمُنَزَّلَ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ حَقَائِقَهُ وَتَأْوِيلَاتِهِ، وَيُوضِّحُ مُتَشَابِهَاتِهِ، ﴿وَيُذَرِّسُهُمُ﴾ الْحِكْمَةَ وَالسَّنَّ الْإِلَهِيَّةَ. ثُمَّ بَالِغُ شَبَحَانِهِ فِي إِيضَاحِ كَمَالِ النُّعْمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ كُلُّهُمْ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بِشْتِهِ، وَفِي الْأَزْمَةِ الْمُتَطَاوِلَةِ السَّابِقَةِ عَلَى طُلُوعِ شَمْسِ ثُبُوتِهِ، وَإِشْرَاقِ نُورِ هِدَايَتِهِ ﴿لَقَدْ ضَلَّالٌ مُبِينٌ﴾ وَتَبَّ الْجَهَالَةِ مُتَحِيرِينَ، يَرْعَوْنَ كَالْهَنَامِ فِي مَرَعَى الشَّهَوَاتِ، وَيَتَرَدَّدُونَ عَمَى الْعَيُونِ فِي الظُّلُمَاتِ.

فِي نَقْلِ رُؤْيَا عَبْدِ الْمُطَّلَبِ جَدَّ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَا هُوَ نَائِمٌ فِي الْحَجَرِ انْتَبَهَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ

مَذْعُورًا، قَالَ الْعَبَّاسُ: تَبِعْتَهُ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ أَعْقِلُ مَا يُقَالُ، فَأَتَى كَهَنَةً قُرَيْشٍ فَقَالَ: رَأَيْتُ كَأَنَّ سِلْسِلَةً مِنْ فِضَّةٍ خَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِي، وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَطْرَافٍ: طَرَفٌ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ، وَطَرَفٌ قَدْ بَلَغَ مَغَارِبَهَا، وَطَرَفٌ قَدْ بَلَغَ عَنَانَ السَّمَاءِ، وَطَرَفٌ قَدْ جَاوَزَ الثَّرَى، فَبَيْنَا أَنَا أَنْظُرُ عَادَتْ شَجَرَةٌ خَضْرَاءُ لَهَا نُورٌ، فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ قَامَ عَلَيَّ شَيْخَانُ فَقُلْتُ لِأَحَدِهِمَا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا نُوحٌ نَبِيُّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقُلْتُ لِلْآخَرِ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ.

قَالُوا: إِنْ صَدَقْتَ زُؤْيَاكَ، لِيُخْرِجَنَّ مِنْ ظَهْرِكَ مَنْ هُوَ يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، وَدَلَّتِ السِّلْسِلَةُ عَلَى كَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ وَأَنْصَارِهِ وَقُوَّتِهِمْ، لِتَدَاخُلِ خَلْقِ السِّلْسِلَةِ، وَرُجُوعِهَا شَجَرَةً تَدُلُّ عَلَى ثَبَاتِ أَمْرِهِ وَعُلُوِّ ذِكْرِهِ، وَسِيْهْلِكَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ كَمَا هَلَكَ قَوْمُ نُوحٍ، وَسَتَظْهَرُ بِهِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ^٦.

أَقُولُ: هَذِهِ الرَّوَايَةُ وَالرَّوَايَةُ السَّابِقَةُ دَالَّتَانِ عَلَى إِيْمَانِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَأَبِي طَالِبٍ ﷺ بِهِ ﷺ قَبْلَ

٢. فِي النُّسَخَةِ: بِنَاءٍ، وَفِي رُوحِ الْبَيَانِ: وَاللَّهُ لَهُ بَعْدَ هَذَا نَبَأٌ.

٤. الْكَهَنَةُ: جَمْعُ كَاهِنٍ، وَهُوَ الْمُنْجِمُ عِنْدَ الْعَرَبِ.

٦. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ١٢١.

١. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٩: ٧٩ و ٨٠.

٣. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ١٢٠.

٥. فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ: نَبِيٍّ.

بِغْثِهِ.

أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٦٥]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ مَا نَزَّهَ نَبِيَّهِ عَنِ الْغُلُولِ، وَبَيَّنَّ اسْتِنَاعَ صُدُورِ ذَلِكَ الْفِعْلِ الشَّنِيعِ مِمَّنْ لَهُ مَنَصِبُ
النُّبُوَّةِ - أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى الشُّبْهَةِ الَّتِي أَلْقَاهَا الْمُنَافِقُونَ بَيْنَ الصُّعْفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَبَّخَهُمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا
بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ﴾، قَالُوا: الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِخِ، وَالْمَعْنَى: أَحْيَنَ أَصَابَتْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَحَدٍ
﴿مُصِيبَةٍ﴾ وَبَلَيَّةٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجُرْحِ، مَعَ أَنَّكُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ فِي يَوْمٍ بَدَّرَ مِنْهُمْ ﴿مِثْلُهَا﴾ وَأُورِدَتْ
عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجُرْحِ وَالْأَشْرِ ضِعْفٌ مَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ، جَزِعْتُمْ؟ وَ﴿قُلْتُمْ﴾: إِنكَارًا لِلنُّبُوَّةِ، أَوْ اسْتِيعَادًا
لِمَا وَقَعَ ﴿أَنِّي هَذَا﴾ الْبَلَاءُ؟ وَمِنْ أَيْنَ هَذِهِ الْغَلْبَةُ لِلْمُشْرِكِينَ؟ وَلَايَ وَجْهِ صَارُوا مَنصُورِينَ؛ مَعَ
شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ وَنَحْنُ نَضُرُّ رَسُولَ اللَّهِ. وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا أَصِيبَ الْمُؤْمِنُونَ،
وَلَمَا انْهَزَمَ عَسَاكِرُهُ مِنَ الْكُفَّارِ.

عن العياشي: عن الصادق عليه السلام: «كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَصَابُوا بِدَّرٍ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ رَجُلًا؛ قَتَلُوا سَبْعِينَ
رَجُلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ أُحْدِثَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ رَجُلًا، فَاعْتَمَوْا لِذَلِكَ»^١.
ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ بِأَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ سَبَبَ الْإِصَابَةِ، رَدًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَتَثْبِيهًا لِلْمُؤْمِنِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ:
لَا تَشْكُرُوا فِي ثُبُوتِي لِأَجْلِ مَا أَصَابَكُمْ، إِذْ ﴿هُوَ﴾ كَائِنٌ ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. وَنَازَلَ عَلَيْكُمْ بِشُوءِ
فِعَالِكُمْ وَعِصْيَانِكُمْ.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: قال: «هُوَ بِاخْتِيَارِكُمُ الْفِدَاءَ يَوْمَ بَدَّرَ»^٢.

عن القمي عليه السلام: كَانَ الْحُكْمُ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدَّرَ الْقَتْلَ، فَقَامَتْ الْأَنْصَارُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَبْهُمْ لَنَا
وَلَا تَقْتُلْهُمْ حَتَّى تُفَادِيَهُمْ، فَنَزَلَ جَبْرِئِيلُ عليه السلام فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ لَهُمُ الْفِدَاءَ بِأَنْ يَأْخُذُوا مِنْ هَؤُلَاءِ
الْقَوْمِ وَيُطْلِقُوهُمْ، عَلَى أَنْ يَسْتَشْهِدَ مِنْهُمْ فِي عَامٍ قَابِلٍ بِعَدَدٍ مَن يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، فَأَخْبَرَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ بِهَذَا الشَّرْطِ، فَقَالُوا: قَدْ رَضِينَا بِهِ، نَأْخُذُ الْعَامَ الْفِدَاءَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَنَتَقَوَّى بِهِ، وَيُقْتَلُ مِنَّا فِي عَامٍ
قَابِلٍ بِعَدَدٍ مَن نَأْخُذُ مِنْهُ الْفِدَاءَ، وَنَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

فَأَخَذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ وَأَطْلَقُوهُمْ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ أُحْدِثَ قِتْلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعُونَ، فَقَالُوا:

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٨/٣٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.

٢. مجمع البيان ٢: ٨٧٧، تفسير الصافي ١: ٣٦٧.

يا رَسُولَ اللَّهِ، ما هذا الذي أصابنا، وقد كُنْتَ تَعِدُّنا النَّصْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي بما شرطتم يومَ بدر^١.

ورَوَى الفخر الرازي في تفسيره، عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يَقْرُبُ مِنْهُ^٢.

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لزيادةِ الرُّوعَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَازْتِدَاعِهِمْ عَنِ الْمُعْصِيَةِ، نَبِّهَهُمْ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِالْقَتْلِ وَالْمَصَابِ، وَالنَّصْرِ وَالْجِدَالِ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ عَنْ إِنْفَازِ إِرَادَتِهِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ فِي إِجْرَاءِ مَشِيتِهِ.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَيَعْلَمَ
الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ [١٦٦ و ١٦٧]

ثمَّ أَشارَ شُبْحَانَهُ إِلَى عَدَمِ انْجِصَارِ سَبَبِ الْمُصِيبَةِ فِي ما ذَكَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْمَصَابِ
﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وَحِينَ تَلَقَّى الْعَشْرَانِ: عَشَرُ الْمُسْلِمِينَ، وَعَشَرُ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ جَبَلٍ
أَحَدٍ ﴿فَيَاذَنْ اللَّهُ﴾ وَتَقْدِيرُهُ وَإِرَادَتُهُ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْعِلْمِ بِحِكْمِ كَثِيرَةٍ ﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَيُظْهِرُ
إِيمَانَهُمْ ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ مَعَ الرُّسُولِ أَصْحَابِهِ، وَيُظْهِرُ كُفْرَهُمْ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَمُعْتَبٌ بْنُ
قُثَيْرٍ وَأَصْحَابُهُمَا، حَيْثُ خَذَلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَانْصَرَفُوا يَوْمَ أَحُدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿وَعِنْدَ ذَلِكَ
﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ وَالْقَائِلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حِزَامٍ، أَبُو جَابِرٍ، قَالَ: يَا قَوْمُ، اذْكُرُوا اللَّهَ أَنْ تَخْذِلُوا نَبِيَّكُمْ وَقَوْمَكُمْ
﴿تَعَالَوْا﴾ وَارْجِعُوا إِلَى الْجِهَادِ ﴿قَاتِلُوا﴾ الْمُشْرِكِينَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَنُصْرَةَ دِينِهِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ عَنَّا الْأَعْدَاءَ بِتَخْيِيرِ سَوَادِنَا إِنْ لَمْ تَقَاتِلُوا مَعَنَا، فَإِنَّ كَثْرَةَ السَّوَادِ مِمَّا يَرْوِعُ
الْعَدُوَّ، وَيَزِيدُ فِي الْهَيْبَةِ وَالْعَظَمَةِ فِي نَظَرِهِمْ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ: ادْفَعُوا الْعَدُوَّ عَنْ بِلَدِكُمْ وَأَهْلِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ، وَقَاتِلُوا دُونَهُمْ إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.
وعلى أيِّ تَقْدِيرٍ، فَلَمَّا رَأَوْا إلْحَاحَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حِزَامٍ وَإِسْرَارَهُ فِي مَنَعِهِمْ عَنِ الْانْصِرَافِ ﴿قَالُوا﴾ فِي
جَوَابِهِ دَعْلًا وَاسْتِهْزَاءً بِالرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾ مَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى ﴿قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾
وَسَاعِدَانَاكَ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِقِتَالٍ، لَعَدَمَ كَوْنِهِ عَنْ تَذْبِيرٍ وَرَأْيٍ مَبِينٍ، بَلْ هُوَ إِيْقَاءُ النَّفْسِ فِي التَّهْلُكَةِ.
وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي كَانَ يَرَى الْإِقَامَةَ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَسْتَحْصِبِ الْخُرُوجَ إِلَى أَحَدٍ.

ثم كشف الله سريرتهم بقوله: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ﴾ لَكُونَهُ رَاسِخاً فِي قُلُوبِهِمْ، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وَحِينَ انْصَرَفَهُمْ، وقولهم ما قالوا ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لَكُونَهُ لَعَقَةً عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وقيل: المراد أَن هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لِأَهْلِ الْكَفْرِ أَقْرَبُ نُصْرَةً يَوْمَ أَحَدٍ مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ: لِأَنَّهُمْ بِالْإِنْعِزَالِ عَنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ أَعَانُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ.

وفيه نَصٌّ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ، وَإِنْ كَانُوا بِالْإِقْرَارِ بِالشَّهَادَتَيْنِ فِي الظَّاهِرِ بِحُكْمِ الْمُسْلِمِينَ.

ثم بالغ سبحانه في تثبيت نفاقهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، وَتَكَلِّمُونَ نِفَاقاً ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وَأَلْسِنَتِهِمْ ﴿مَا لَيْسَ﴾ مَعْنَاهُ وَحَقِيقَتُهُ، مِنْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ، أَوْ اتِّبَاعِكُمْ فِي الْقِتَالِ، دَاخِلًا وَثَابِتًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ بَلْ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْمُوَافَقَةِ مُبَايِنٌ لِمَا يُضْمِرُونَهُ مِنَ الْكَفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ بَلْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ عَنْكُمْ، وَمَا يَسْتُرُونَ فِي ضَمَائِرِهِمْ، مِنَ الْكَفْرِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ، وَمِنْ بُغْضِكُمْ وَمُخَالَفَتِكُمْ.

عن الصادق عليه السلام في حديثٍ يَذْكُرُ فِيهِ حَالُ ضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ: «وَمِنْ ضَعْفٍ يَقِينُهُ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْأَسْبَابِ، وَيُرْخِصُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَيَتَّبِعُ الْعَادَاتِ وَأَقَاوِيلَ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ، وَيَسْعَى فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَجَنَعِهَا وَإِمْسَاكِهَا، يُقِرُّ بِاللِّسَانِ أَنَّهُ لَا مَانِعَ وَلَا مُعْطَى إِلَّا اللَّهَ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يُصِيبُ إِلَّا مَا رَزَقَ وَقُسِمَ لَهُ، وَالْجَهْدُ لَا يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ، وَيُنْكِرُ ذَلِكَ بِفَعْلِهِ وَقَلْبِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾»^١.

أقول: فيه دلالة على أَنَّ إظهار كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ يَكُونُ خِلَافَ مَا فِي مَكْنُونِ الْقَلْبِ، نِفَاقٌ، وَشَمُولٌ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ

الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٦٨]

ثم بالغ سبحانه في تفضيح المنافقين، بإفشاء ما كانوا أَسْرَوْهُ مِنْ قَوْلِ سَيِّئٍ آخَرَ، بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ وَالْمُوَافِقِينَ مَعَهُمْ فِي النِّفَاقِ، وَعَدَاوَةُ الرَّسُولِ ﷺ ﴿وَقَدْ هُمُ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وَقَعَدُوا عَنْ الْجِهَادِ، وَتَخَلَّفُوا عَنْهُ: إِنَّ الْجَمَاعَةَ الَّتِي قَاتَلُوا فِي أَحَدٍ وَقُتِلُوا ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وَاتَّبَعُوا رَأْيَنَا فِي الْإِقَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ، وَقَعَدُوا عَنِ الْقِتَالِ، كَمَا قَعَدْنَا ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كَمَا لَمْ تَقْتُلْ.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بردهم، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد؛ تَنكِتًا لهم، وإثباتًا لفساد ظُهُم، وإظهارًا لكيذبهم: ﴿فَاذْرُوْا﴾ واذفَعُوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِالْجِيلِ وَالتَّذْيِيرِ ﴿الْمَوْتُ﴾ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي مَا يُبَيِّنُ عَنْهُ قَوْلُكُمْ، مِنْ أَنَّ الْحَذَرَ يَدْفَعُ الْقَتْلَ عَنْ كَيْبٍ عَلَيْهِ، وَيُطِيلُ الْأَجَلَ الْمَحْتَمِ، فَإِذَا التَزَمْتُمْ بِأَنَّ الْمَوْتَ مِمَّا لَا يُمَكِّنُ دَفْعَهُ بِالْحَذَرِ وَالتَّذْيِيرِ، لَكُوْنُهُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، فَكَذَلِكَ الْقَتْلُ وَخُصُوصِيَّاتِهِ، مِنْ زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ، يَكُونُ بِقَضَاءِ اللَّهِ، لَا يَنْفَعُ الْحَذَرَ مِنْهُ فِي دَفْعِهِ، وَلَا يُقِيدُ الْفِرَارَ فِي تَاخِيرِهِ. فَكُلُّ مَنْ قُتِلَ كَانَ قَتْلُهُ بِسَبَبٍ كَوْنُهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ، لَا بِسَبَبِ عَدَمِ حَذَرِهِ، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَقْتُلْ لَمْ يَكُنْ الْقَتْلُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُزْزَقُونَ [١٦٩]

ثم لما كان تحرُّزُ المُنَافِقِينَ عَنِ الشَّهَادَةِ مَبْنِيًّا عَلَى حِسَابِ أَنَّ الْقَتْلَ مَوْتُ، وَانْقِطَاعُ حَيَاةٍ، وَجِرْمَانٌ مِنَ النَّعْمِ وَاللَّذَائِدِ، رَدَّاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَنَالُوا الشَّهَادَةَ فِي طَرِيقِ مَرْضَاتِهِ وَطَاعَتِهِ، مِنَ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ، كَشُهَدَاءِ أَحَدٍ، وَلَا تَنْظُنَّهُمْ ﴿أَمْوَاتًا﴾ مُتَقَطِّعِينَ عَنِ الْحَيَاةِ، مَحْرُومِينَ عَنِ النَّعْمِ ﴿بَلْ﴾ هُمْ ﴿أَحْيَاءُ﴾ بِالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، مَقْرَبُونَ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مُسْتَفْرَقُونَ فِي رَحْمَةِ مَلِيكَهِمْ ﴿يُزْزَقُونَ﴾ مِنَ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَيَتَنَعَّمُونَ بِالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِمَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ.

فَلَوْ فُرِضَ أَنَّ التَّذْيِيرَ يَكُونُ مُقِيدًا فِي دَفْعِ الْقَتْلِ، إِلَّا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ السَّعْيُ فِي تَخْصِيلِهِ، وَالمُسَارَعَةُ إِلَيْهِ، لَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ.

وَأَمَّا وَجْهُ الْخُطَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: مَعَ أَنَّ الْمَقْصُودَ أَمْتَهُ، وَنَهَاهُ عَنِ الْحِسَابِ مَعَ أَنَّهُ مُنْزَعٌ عَنْهُ، لَشَرَفَتِهِ وَلِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ التَّبَشِيرَ مِنْ وَطَائِفِهِ. عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّهُا نَزَلَتْ فِي شُهَدَاءِ أَحَدٍ»^٢.

وَرُوي أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعِينَ، أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ شِهَابٍ، وَالبَقِيَّةُ مِنَ الْأَنْصَارِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ^٣.

وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي رَاغِبٌ فِي الْجِهَادِ، قَالَ: فَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ

٢. مجمع البيان ٢: ٨٨١، تفسير الصافي ١: ٣٦٨.

١. زاد في تفسير الصافي: يَدْرُو.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ١١١، تفسير روح البيان ٢: ١٢٣.

الله، فَإِنَّكَ إِنْ تَقَتَّلَ حَيًّا عِنْدَ اللَّهِ تُرْزَقَ، وَإِنْ تَمُوتَ فَقَدْ وَفَّعَ أَجْرُكَ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ رَجَعْتَ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ إِلَى اللَّهِ. هذا تفسير ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ الآية^١.

نسي حال أرواح المؤمنين في البرزخ وعن النبي ﷺ: «أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم يرزقون، يأكلون ويتنعمون»^٢.

وعنه ﷺ، قال: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحْدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طُيُورٍ خَضِرٍ، تَدُورُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^٣.

وفي رواية: «تَرِدُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام أنه قيل له: يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش، فقال: «لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حواصل طير، ولكن في أبدان كابدانهم»^٥. أقول: يمكن أن يكون وجه اختلاف الروايات، اختلاف المؤمنين في مراتب الكمال.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [١٧٠]

ثم بالغ سبحانه في بيان حسن حال الشهداء، بأنهم - مع عدم دخول الحزن في قلوبهم على ما فاتهم من حياة الدنيا وتعيمها - يكونون «فَرِحِينَ» مسرورين غاية السرور «بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ» وحبائهم من الكرامات الكائنة «مِنْ فَضْلِهِ» وإحسانه الخاص بهم من شرف الشهادة الموجبة لحسن الذكر في الدنيا، والمحبة الشديدة في قلوب المؤمنين، والزلفى من الله تعالى، وتبل النعم الدائمة غير المتناهية في الآخرة.

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَبْشُرُكَ أَنْ أَبَاكَ حَيْثُ أُصِيبَ بِأُحْدٍ أَحْيَاهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا تُرِيدُ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُرِيدُ أَنْ تَوَدِّعَنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى»^٦.

نسي بيان بقاء الأرواح بعد الموت ثم اعلم أنه قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية، بل بالضرورة من جميع الأديان، أن الأرواح باقية بعد موت الأجساد وانحلالها، ودلت الروايات الكثيرة على أن لها

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٩/٣٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٨.

٢ و ٣. تفسير أبي السعود ٢: ١١٢.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١١٢.

٥. تفسير الرازي ٩: ٩٠.

٦. تفسير الصافي ١: ٣٦٩.

تعلقاً بالأجساد الجاثلية التي هي جواهر تلك الأجساد، سارية فيها سريان النار في الفحم، والدُّهن في السَّمسم، والماء في الوَرْد.

فالرُّوح بهذا التعلُّق تلتذُّ باللذائذ الجِسمانيَّة من الأكل والشُّرب وغيرهما، وتُعَذَّب بالنار والعقارب والسلاسل وغيرها، فإذا لم يَدَلْ دليلٌ قاطع على امتِناع ذلك التعلُّق والحياة، والتَّعَمُّم والتَّعَذِيب، وجب المصير إليه والالتزام به، ولا يصغى إلى الشُّبهات التي أوردت على ثواب القَبْرِ والتَّعَمُّم البرزخيَّة بل الظَّاهر أنَّ أرواح الشُّهداء والكااملين من المؤمنين لها تعلق خاصٌّ بأبدانهم العنصريَّة، به تحفَظ من البلاء.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه لما أراد معاوية أن يُجري العَين على قُبور الشُّهداء، أمر بأن يُنادى: مَنْ كان له قَتِيلٌ فَلْيُخْرِجْهُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِع. قال جابر: فخرَجنا إليهم فأخرجناهم رِطاب الأبدان، فإن أصابَتْ المِسْحاة إصْبِعَ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَطَرَتْ دَمًا^١. وفي ذلك رِوايات وحِكَايات كثيرة لا تُحصى.

ثم أخبر الله سبحانه بلذَّتهم الرِّحانيَّة، بقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويسرُّون بالبشارة ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ويحسُن حال إخوانهم وأقربانهم الَّذِينَ لَمْ يَقْتُلُوا معهم في الجِهاد، وبثَّوا في الدُّنيا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ومن بعد شهادتهم، وتفرَّع عنهم بالإخبار بأن من حَسُن حالهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نَيْل مَكْرُوهِ إِنْ قُتِلُوا ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَوْنَ﴾ على فَوَات مَطْلُوبٍ إِنْ لَمْ يَقْتُلُوا؛ حيث إنَّهم أيضاً يَفُوزُونَ بالحياة الأبدية والتَّعَمُّم الدَّائمة إن ماتوا.

وعن ابن عَبَّاسٍ عليه السلام، في رواية: فلَمَّا رَأَوْا طَيْبَ مَسْكَنِهِمْ وَمَطْعَمِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ قالوا: يَا لَيْتَ قَوْمَنَا يَعْلَمُونَ ما نَحْنُ فِيهِ مِنَ التَّعَمُّم، وما صَنَعَ اللهُ بِنَا، كَيْ يَرْغَبُوا فِي الْجِهاد، فقال اللهُ تعالى: أنا مُخْبِرٌ عَنْكُمْ، ومُبَلِّغٌ إِيَّاكُمْ، ففرِّحُوا بِذَلِكَ واشتَبِروا، فأنزل اللهُ هذه الآية^٢.

وعن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، قال: «هُم والله شَيْعَتُنَا، حِينَ صَارَتْ أَرْواحُهُمْ فِي الْجَنَّة، واستقبلوا الكرامة من الله عزَّ وجلَّ، عَلمُوا واشتَبَقُوا أَنَّهُمْ كانوا على الْحَقِّ، وعلى دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فاشتَبَرُوا بِمَنْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ إخوانهم مِنْ خَلْفِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^٣.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مَنْ اللهُ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [١٧١]

ثم أخبر سبحانه بأن استيشارهم بحسن حال إخوانهم ليس بصرف فراغ قلوبهم من الخوف والحزن، بل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مع ذلك في حق إخوانهم ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ لا يُقَادَر قَدْرُهَا ﴿وَفَضْلٍ﴾ عظيم أو زيادة كثيرة على ما يتوقع لهم من ثواب الأعمال، لا يعلمها إلا الله. وقيل: إن الإشارة الأولى فقط متعلقة بإخوانهم، وأما الثانية فإنها متعلقة بأنفسهم، وبيان ما أجمل في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ﴾.

ثم أكد تلك الإشارة بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ تعالى بكرمه، ولتعالى ذاته عن ارتكاب القبيح ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يبطل ثواب من تنور قلبه بثور اليقين، [سواء] قيل في سبيل الله أو بقي حياً في طاعة الله.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ
وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ إِنَّا لَنَاسٌ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَوَادَّاهُمْ إِمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ
لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [١٧٢-١٧٤]

ثم أنه زوي أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد وبلغوا الروحاء^١ ندموا، وقالوا: إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا قليل فلم تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم، فهؤما بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهب الكفار ويُرهبهم من نفسه ومن أصحابه قوة، فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان، وقال: «لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال، فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه - قيل: كانوا سبعين رجلاً - حتى بلغوا حمراء الأسد، وهو [موضع] من المدينة على ثلاثة أميال، فالتقى [الله] الرغب في قلوب المشركين فانهمزموا^٢.

فمدح الله المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ بقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وأطاعوا أمرهما بالخروج في طلب قریش ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ وأنختهم الجراح في وقعة أحد.

عن القمي رحمه الله: أن النبي ﷺ لما دخل المدينة، من وقعة أحد، نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم، ولا يخرج معك إلا من به جراحة، فأمر رسول الله ﷺ متنادياً ينادي: يا معشر المهاجرين والأنصار، من كان به جراحة فليخرج، ومن لم يكن به جراحة

فَلْيَقِم، فَأَقْبَلُوا يُضْمِدُونَ جِرَاحَتَهُمْ وَيُدَاوُونَهَا، فَخَرَجُوا عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْأَلَمِ وَالْجِرَاحَاتِ.
فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَمَاءَ الْأَسَدِ، وَقُرَيْشٌ قَدْ نَزَلَتْ الرِّوْحَاءُ قَالَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ،
وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: نَرْجِعُ وَنَعْبِرُ عَلَى الْمَدِينَةِ، قَدْ قَتَلْنَا سِرَاتَهُمْ،
وَكَبَشْنَاهُمْ - يَعْنُونَ: حِمْرَةَ - فَوَافَاهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: تَرَكْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ
بَحَمَاءِ الْأَسَدِ يَطْلُبُونَكُمْ جَدَّ الطَّلَبِ، فَقَالَ أَبُو شَفِيانٍ: هَذَا التُّكْدُ وَالبَغْيُ، فَقَدْ ظَفَرْنَا بِالْقَوْمِ وَبَغَيْنَا، وَاللهُ
مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ قَطُّ بَعْوًا.

فَوَافَاهُمْ ثَمِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِي، فَقَالَ أَبُو شَفِيانٍ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْمَدِينَةَ، لَأَمْتَارَ لِأَهْلِ طَعَامًا،
قَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَمُرَّ بِحَمَاءِ الْأَسَدِ، وَتَلْقَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، وَتُعَلِّمَهُمْ أَنْ حُلَفَاءَنَا وَمَوَالِينَا قَدْ وَافُونَا
مِنَ الْأَحَابِيشِ، حَتَّى يَرْجِعُوا عَنَّا، وَلَكَ عِنْدِي عَشْرَةُ قَلَانِصٍ أَمْلَأُهَا ثَمَرًا وَزَبْيِبًا؟ قَالَ: نَعَمْ.

فَوَافَى مِنْ غَدٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَمَاءَ الْأَسَدِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: قُرَيْشًا،
قَالَ: ارْجِعُوا، إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِمْ حُلَفَاؤُهُمْ، وَمَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُمْ، وَمَا أَظُنُّ إِلَّا أَنْ أَوَائِلَ
خَيْلِهِمْ يَطْلَعُونَ عَلَيْكُمْ السَّاعَةَ، فَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، مَا ثَبَالِي، فَنَزَلَ جَبْرِئِيلُ ﷺ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ارْجِعْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْعَبَ قُرَيْشًا، وَمَرُّوا لَا يَلُودُونَ عَلَى شَيْءٍ، فَرَجَعَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَالرُّسُولِ﴾ الْآيَةَ^١.

وَرُوي أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى عُنُقِهِ سَاعَةً، ثُمَّ كَانَ الْمَحْمُولُ يَحْمِلُ حَامِلَهُ سَاعَةً
أُخْرَى، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَتَوَكَّأُ عَلَى صَاحِبِهِ سَاعَةً، وَيَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ سَاعَةً، كُلُّ ذَلِكَ لِإِخْطَانِ
الْجِرَاحَاتِ فِيهِمْ^٢.

وَقِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي يَوْمٍ أَخَذَ لَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ﷺ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ، فَشَدَّ بِهِمْ حَتَّى كَشَفَ
الْمُشْرِكِينَ، وَكَانُوا قَدْ هَمُّوا بِالْمَثَلَةِ فَدَفَعَهُمْ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ مَثَلُوا بِحِمْرَةِ ﷺ فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ
الرُّعْبَ فَانْهَزَمُوا، وَصَلَّى عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَفَنَهُمْ بِدِمَانِهِمْ^٣.

وَرُوي أَنَّ صَفِيَّةَ جَاءَتْ لَتَنْظُرَ إِلَى أَخِيهَا حِمْرَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: «رَدَّهَا لِئَلَّا تَجَزَّعَ مِنْ مَثَلَةِ
أَخِيهَا» فَقَالَتْ: قَدْ بَلَغَنِي مَا فَعَلَ بِهِ، وَذَلِكَ يَسِيرُ فِي جَنْبِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: «فَدَعْهَا
تَنْظُرَ إِلَيْهِ». فَقَالَتْ خَيْرًا وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ^٤.

وَقِيلَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ قَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَأَبُوهَا وَأَخُوهَا وَابْنُهَا، فَلَمَّا رَأَتْ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ حَيٌّ قَالَتْ: إِنَّ

كُلُّ مُصِيبَةٍ بِعَدِّكَ هَدْرٌ^١.

نسي قضية بدر ثم أنه تعالى بعد الثناء عليهم وعدهم بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بطاعة أوامر الله الصغرى ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله في مخالفة نواهيهِ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يسع البيان وصفه.

ثم أنه روي عن الباقر عليه السلام: «أن أبا سفيان قال يوم أحد، حين أراد أن ينصرف: يا محمد، الموعد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى، القابل إن شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذلك بيننا وبينك»، فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية مَرِّ الظَّهْرَانِ^٢، ثم التقى الله عليه الرُّعْبُ، فبدا له في الرُّجُوع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي^٣ - وفي رواية أخرى: فمر به ركب من بني عبد قيس يُريدون المدينة للميرة - فقال له أبو سفيان: إني واعدتُ محمدًا وأصحابه أن نلتقي موسم بدر الصغرى، وإن هذا عام جذب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن لا نخرج إليها، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جُرأً، فالحق بالمدينة ونبتطهم، ولك عشرة من الإبل أضعها على يد سهيل بن عمرو.

فأتى نعيم بن مسعود المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فقال لهم: بشئ الرأي رأيكم، أتوكم في قراركم فلم يفلت منكم إلا شريد، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، فوالله لا يفلت منكم أحد، فكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الخروج، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده، لأخرجن ولو وُخِدي، وأنا الجبان فإنه رجع. وأنا الشجاع فإنه تأهب للقتال. وقال: حسبتنا الله ونعم الوكيل»^٤.

فمدحهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ﴾ الَّذِينَ استقبلوا من بني عبد قيس، أو المراد نعيم بن مسعود، وإطلاق (الناس) عليه لكونه من جنسهم وكلامه كلامهم، أو لأنه انضم إليه ناس من منافقي المدينة وأذاعوا كلامه: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ وهم أبو سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا﴾ خلفاءهم ومواليهم ﴿لَكُمْ﴾ وتظاهروا إلى حربكم ﴿فَأَخْشَوْهُمْ﴾ أيها المسلمون، ولا تخرجوا إليهم فهلكوا، فلم يلتفت المؤمنون المخلصون إلى قولهم ﴿فَوَآذَهُمْ﴾ الترهيب ﴿إِيمَانًا﴾ وبقيناً وثباتاً على نصرته الإسلام، وخلوصاً في البتة، وتأهبوا للقتال ﴿وَقَالُوا﴾ عند التخويف ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكفانا مؤنة الأعداء ﴿وَنَعْمُ الْوَكِيلُ﴾ ربنا.

١. تفسير الرازي ٩: ٩٨. ٢. في النسخة: فقاتل.

٣. مخنة: اسم سوق للعرب في الجاهلية، قرب جبل يقال له: الأصفر بأسفل مكة، ومَرِّ الظَّهْرَانِ: موضع على مرحلة من مكة.

٤. مجمع البيان ٢: ٨٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٧٠.

٥. مجمع البيان ٢: ٨٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٧١، وصدر الرواية في تفسير روح البيان ٢: ١٢٧.

زوي أنه هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار^١.

فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه ووافي بذر الصغرى، وهو ماء لبني كنانة، وكان موضع شوق للعرب في الجاهلية يجتمعون إليه في كل عام ثمانية أيام، فأقام عليه ببذر يستظر أبا سفيان، وقد أنصرف أبو سفيان من مجئته إلى مكة فسماهم أهل مكة جيش السويق^٢؛ ويقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

ولم يلق رسول الله ﷺ وأصحابه أحداً من المشركين ببذر، ووافق الشوق، وكانت لهم تجارات، فباعوا وأصابوا بالدرهم درهمين ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ ورجعوا من بذر الصغرى إلى المدينة مصاحبين ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ من العافية والسلامة والزيادة في الإيمان واليقين ﴿وَفَضْلٍ﴾ وزيادة كثيرة في المال، بسبب الرزح في التجارة، مضافاً إلى أنه ﴿لَمْ يَمَسِّنْهُمْ سُوءٌ﴾ ولم يصبهم مكروه أصلاً ولو أقل قليل ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ في سفرهم ذلك، وطاعتهم الرسول في الأفعال والأقوال ﴿وَضَوَّانَ﴾ الله، الذي هو مناط الفوز بخير الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ﴾ بحبه للمؤمنين ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ عليهم من توفيقهم للثبات على الإيمان، والتوطين على لقاء الأعداء، والجهد في سبيل الله، والتصلب في الدين، وحفظهم من كل سوء في الدنيا، وذو عطاء جسيم عليهم بالجنة والنعمة الدائمة، وحفظهم من كل مكروه في الآخرة.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ [١٧٥]

ثم ذم الله سبحانه الذين خوفوا المسلمين، وقرع المتبطين^٣ الذين تخلفوا وعصوا الرسول ﷺ جبناً، بقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ المصل المغوي بوسوسته وشيطنته، والقاءته على لسان الركب، أو نعيم بن مسعود ﴿يُخَوِّفُ﴾ من سطوة المشركين ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ ومطيعيه من المنافقين وضعفاء المؤمنين.

وقيل: إن المراد: الشيطان يخوفكم أيها المؤمنون من أوليائه المشركين، كأبي سفيان وأصحابه، لتقعّدوا عن قتالهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا﴾ في مخالفة أوامري، وأوامر رسولي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بي وبرسالة

١. مجمع البيان ٢: ٨٨٩، تفسير أبي السعود ٢: ١١٤.

٢. طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لاثنيبائه في الحلق.

٣. في النسخة: المتبطين.

رَسُولِي؛ لَأَن عَذَابِي فِي الْآخِرَةِ شَدِيدٌ.

وَلَا يَخْرُتُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١٧٦]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ سَعْيُ الْكُفَّارِ - فِي تَخْوِيفِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَضْعِيفِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ، وَازْتِدَادِ قَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الضُّعْفَاءِ خَوْفاً مِنْ قُرَيْشٍ - مُوجِباً لِحَزَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُشْرَ قَلْبِهِ الشَّرِيفِ، أَخَذَ اللَّهُ فِي تَسْلِيَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُتُكَ﴾ الْمُنَافِقُونَ وَضَعْفَةُ الْمُسْلِمِينَ ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ لِشِدَّةِ حِرْصِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا، وَحُبِّهِمُ الْحَيَاةِ، فِي الدُّخُولِ ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ بِالْازْتِدَادِ، أَوْ بِمُظَاهَرَةِ الْكُفَّارِ، وَالسَّعْيِ فِي إِطَالِ أَمْرِ رِسَالَتِكَ.

قِيلَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ يُخَوِّفُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَيُؤْيِسُونَهُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْعَلْبَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا طَالِبٌ مُلْكٍ، فَتَارَةُ الْأَمْرِ لَهُ، وَتَارَةٌ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ رَسُولًا مَا غَلِبَ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كَانَتْ تُثْفِرُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ.

وَقِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَاللَّهُ جَعَلَ رَسُولَهُ آمِناً مِنْ شَرِّهِمْ، وَالْمَعْنَى ﴿وَلَا يَخْرُتُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بِأَن يَقْصِدُوا جَمْعَ الْعَسَاكِرِ ﴿إِنَّهُمْ﴾ بِهَذَا الصَّنْعِ ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ وَأُولِيَاءَهُ ﴿شَيْئاً﴾ بَلْ إِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ أَشَدَّ الضَّرَرِ، وَيَهْلِكُونَهَا أَسْوَأَ هَلَاكِ.

ثُمَّ أَشَارَ شُبْحَانَهُ إِلَى عِلَّةِ تَرْكِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْهَامَاكِ فِي الْكُفْرِ، وَالسَّعْيِ فِي إِطْفَاءِ نَوْرِهِ الْحَقِّ، وَالْجِدِّ فِي مُشَاقَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُعَارَضَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أَن يَظْهَرَ مَا فِي ذَوَاتِهِمْ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَيَصِلَ اسْتِعْدَادُهُمْ الذَّاتِي بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ إِلَى مَقَامِ الْفِعْلِيَّةِ حَتَّى لَا تَبْقَى فِيهِمْ قَابِلِيَّةُ التَّفَضُّلِ، وَ﴿أَلَّا يَجْعَلَ﴾ لَهُمْ ﴿بَسَبَبٍ عَدَمِ الْأَهْلِيَّةِ﴾ حِطَّاً، وَإِن كَانَ قَلِيلاً، وَنَصِيباً وَإِن كَانَ يَسِيراً ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ وَالْدَّارِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوَابِ ﴿وَلَهُمْ﴾ مُضَافاً إِلَى الْجِرْمَانِ الْكُلِّيِّ مِنَ التَّوَابِ، بَدَلًا مِنْهُ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لَا يَعْلَمُ عَظَمَتَهُ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ، فَإِنَّ عَظَمَةَ عَذَابِهِمْ لِعَظَمَةِ شَأْنِ الْمُسَارَعَةِ فِي الْكُفْرِ عِنْدَهُمْ.

إِنَّ الَّذِينَ أَشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٧٧]

ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْتَرَوْا﴾ وَاسْتَبَدَّلُوا ﴿الْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بِأَن اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ، وَتَرَكَوا الْإِيمَانَ الَّذِي كَانَ لَوْضُوحِ دَلَالَتِهِ وَسَهُولَةِ مَأْخِذِهِ كَأَنَّهُ فِي مِلْكِهِمْ وَقَبْضَتِهِمْ ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ أَبَداً ﴿شَيْئاً﴾ يَسِيرُوا مِنَ الضَّرَرِ، بَلْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرراً كَثِيراً،

ويخسرون بصفقتهم خسراناً ميبناً ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قيل: لما كانت العادة باغتيال المشتري بما اشتراه، وشروءه بتخصيله عند كَوْن الصَّفقة رابحة، وبثألمه عند كَوْنها خاسرة، وصف الله عذابهم بالإيلام مراعاةً لذلك.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا
إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ [١٧٨]

ثم لما كان تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ بتوهم أن البقاء في الدنيا خير من القتل في سبيل الله، وأن حياتهم وطول تعيشهم أنفع من شهادة شهداء أحد، أبطل الله ذلك التوهم بقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتخلفوا عن رسول الله ﷺ حباً للحياة، ولم يطيعوه في الخروج إلى الجهاد ﴿أَنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ﴾ وتُطيل في أعمارهم في الدنيا، وتعيشهم فيها.

قيل: إن (ما) موصولة، وقيل: مصدرية. وعليه يكون المعنى لا يتوهمون أن إسمالهم في الدنيا وإبقاءهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأصلح ﴿لأنفسهم﴾ ولا تسر قلوبهم بطول عيشهم فيها، لأن إسمالنا إياهم ليس بداعي الإحسان إليهم، بل ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ﴾ وتُطيل أعمارهم ﴿لِيَزْدَادُوا﴾ بازدياد خبثهم في كل آي من الآيات ﴿إِنَّمَا﴾ على آثامهم من الاستمرار على الكفر والطغيان، واشتداد بغضهم للحق، وجدهم في محق الدين ومحو آثاره ﴿وَلَهُمْ﴾ خاصة بترك الآثام في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهم زائداً على ما في عذاب غيرهم من المهانة والدُّل.

قيل: إنما وصف سبحانه عذابهم بالوصف لأنه كان عَرَضهم من البقاء في الدنيا التعرُّز والتكبر فيها، والتمتع بطيباتها وزينتها.

عن النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»^١. وعن العياشي: عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن الكافر، الموت خير له أم الحياة؟ فقال: «الموت خير للمؤمن والكافر؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^٢، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾»^٣.

روي أنه قال الله تعالى لرسول الله ﷺ ليلة المعراج: «إِنْ مِنْ نَعَمِي عَلَى أُمَّتِكَ أَنِّي قَصَرْتُ أعمارهم كي لا تكثر ذنوبهم، وأقللت أموالهم كي لا يشتد في القيامة حسابهم»^٤.

٢. آل عمران ٣: ١٩٨.

١. تفسير روح البيان ٢: ١٣٠.

٣. تفسير العياشي ١: ٨١٢/٣٥١، تفسير الصافي ١: ٣٧٢.

٤. تفسير روح البيان ٢: ١٣٠.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ [١٧٩]

ثم أكد الله سبحانه عليه امتحان المؤمنين في التكليف بالمشاق، من أمرهم بتعقيب المشركين مع ما بهم من ألم الجراحات، وبالخروج في العام القابل إلى بذر الصغرى بقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ﴾ بجكمته البالغة يريد ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين منكم أيها المسلمون ويتزكهم ﴿عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الاختلاط واشتتار الحال، بل عليه تعالى أن يقدر الأمور، ويسبب الأسباب من جعل التكليف الشاقة، وتسلط الكفار، وإيراد المحن والبليات، والبعث إلى العزوات وغيرها ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ المنافق ﴿الْخَبِيثَ﴾ الذات، السيء السريرة ﴿مِنْ﴾ المؤمن المخلص ﴿الطَّيِّبِ﴾ النفس، المنور الفكر ويظهر حال كل منهما بظهور ما في قلوبهم من الكفر والإيمان، والغدر والصدق، وما في ضمائرهم من النيات الحسنة والسيئة.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ لما في علمه من النظام الأتم ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وأن يعلمكم بما في القلوب والضمائر بغير الأسباب الظاهرية والعادية، وليس من جكمته أن يوحى إلى كل أحد: أن هذا مؤمن خالص، وهذا كافر منافق ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ ويصطفى ﴿مِنْ﴾ بين جماعة ﴿رُسُلِهِ﴾ وأنبيائه العظام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إعلامه بالمعانيات فيخصه بعلمها، ويوحى إليه: أن هذا مؤمن مخلص، وذاك منافق غادر.

وقيل: إن المراد: ولكن الله يمتحن الفريقين بأن يجتبي من يشاء من خلقه للرسل، ويخصه بالشرعة، وأحكام شاقة بطاعته وعصيانته يمتاز الفريقان.

ثم بعد ذكره سبحانه مصلحة الابتلاء بالمكارة والتكاليف الشاقة، وأن الثاق لا ينتج إلا الفضيحة في الدارين، أمر الناس بالإيمان الخالص عن شوب الثاق بقوله: ﴿فَأَمَتُوا﴾ أيها الناس إيماناً خالصاً ﴿بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ لظهور دلالة التوحيد والنبوة، بحيث لم يبق لأحد عذر في التشكيك والامتناع. قيل: في ذكر جميع الرسل هنا إشعار بأن ملاك الإيمان بجميع الرسل واحد، وهو ظهور المعجزة، فمن آمن برسول كان عليه الإيمان بالجميع.

ثم أردف سبحانه أمره بالإيمان بالوعد بالثواب تأكيداً وإشعاراً بعظم فائدته، بقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسله عن صميم القلب ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الثاق، وعصيان الله، ومخالفة أوامر الرسل ﴿فَلَكُمْ﴾ بمقابل الإيمان والتقوى في الدنيا والآخرة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ من الله لعظم شأن الإيمان والتقوى عنده تعالى.

وَلَا يَخْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ
لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [١٨٠]

ثم - لما كان من دأب الله تعالى في كتابه العزيز أنه كلما أمر بالجهد أرفده بالحث على إنفاق المال، لكمال الازتياب بينهما، وتوقف الحرب على المال، وقد بالغ سبحانه في الآيات السابقة في التحريض على بذل النفس في الجهاد، وفي دفع توهم أن الحياة خير منه - شرع في الحث على بذل المال، والردع من توهم أن البخل ومنع حقوق الله خير منه، بقوله: «وَلَا يَخْسَبَنَّ» المؤثرون «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ» وهب لهم من الثروة والمال «مِنْ فَضْلِهِ» وإحسانه من غير أن يكون لهم مدخل فيه واشتقاق، البخل بما وجدوه من المال «هُوَ خَيْرٌ» وأنفع «لَّهُمْ» من صرفه في سبيل الله، فإنه حسيب باطل؛ لأنه ليس في البخل وجمع المال ومنع حقوق الله خير أصلاً «بَلْ هُوَ شَرٌّ» مخض «لَّهُمْ» لأنه موجب لا يتلأنهم بأشد العقوبات، حيث إنهم «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ» وسيجعل ذلك المال - الذي امتنعوا من إنفاقه في سبيل الله، حثاً له وشحاً عليه - طوقاً في عثقم «يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

عن (الكافي): عن الباقر والصادق (عليه السلام)، قالوا: «ما من أحد يمتنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نارٍ مطوقاً في عثقه، ينهش من لحمه، حتى يفرغ من الحساب، وهو قول الله: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني ما بخلوا به من الزكاة»^١.

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما): «ثجعل تلك الزكاة الممنوعة في عثقم كهتمة الطوق، شجاعاً^٢ ذا زبيبتين^٣ يلدغ بهما خديه، ويقول: أَنَا الزَّكَاةُ [التي] بَخِلْتُ فِي الدُّنْيَا بِه»^٤.

أقول: ظاهر الروايتين أن عين مال الزكاة بصورتها الواقعية البرزخية يصير طوقاً في عثق البخيل. وقيل: المراد: سيطوقون وبأل ما بخلوا به. ويؤيده ما روي عن الصادق (عليه السلام)، قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما من ذي زكاة مال، نخل أو زرع أو كرم [يمنع زكاة ماله]، إلا قلده الله ثربة أرضه يطوق بها من سبع أرضين إلى يوم القيامة»^٥.

٢. الشجاع: الحية.

١. الكافي ٣: ١٥٠٢ و ١٠/٥٠٤، تفسير الصافي ١: ٣٧٣.

٤. تفسير الرازي ٩: ١١٤.

٣. الزبيبتان: نقطتان سوداوان فوق عيني الحية والكلب.

٥. الكافي ٣: ٤/٥٠٣، تفسير الصافي ١: ٣٧٣.

وقيل: إنَّ المعنى: سيُكلّفون أن يأتوا بما يدخلوا به يوم القيامة.

وقيل: إنَّ المعنى: سيلزّمون إثم ما يدخلوا به في الآخرة. وهذا على طريق التمثيل.

ثمَّ لما كان للجاهل مجال توهم أن يُبالغته تعالى في الحثِّ على إنفاق المال لمكان حاجته، دَفَع ذلك التوهم بالثبته على غنائه المطلق، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ شَرِيكَ﴾ ﴿مِيرَاثُ﴾ أهل ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما يُخلفونه عند موتهم، فلا يبقى لأحدٍ مُلكٌ إلَّا له، وكلُّ مُلكٍ باطلٌ إلَّا مُلكه سبحانه.

ويُحتمل أن يكون ذكْر هذه القضية للإشعار بأنَّه إذا كانت الأملاك زائلة غير باقية لأحد، يكون منع الحقوق والبخل به بخلاف العقل. وفيه تأكيد في الحثِّ على الإنفاق.

ثمَّ بالغ سبحانه في الوعيد على ترك الإنفاق، بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الجرص على جمع الأموال والتعزُّز بها، ومنع الحقوق الواجبة فيها ﴿خَيْرٌ﴾ ومُطْلَع لا يخفى عليه خافية.

وحاصل المضمون: أنَّه ما لهم يبخّلون بالزكاة والحقوق المالية الواجبة، مع كونه في غاية الضرر عليهم، وعدم بقاء الأموال لهم، وغنائه تعالى عنهم، وشدة حاجتهم إلى الأداء، وإحاطته تعالى بخفيات أعمالهم، واشتداد غَضَبه تعالى على سيئاتهم.

وقيل: إنَّ قراءة (تعملون) بالناء - على الالتفات إلى الخطاب - أبلغ في الوعيد.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا
وَقَتْلُهُمُ الْآنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [١٨١]

ثمَّ أنه تعالى - بعد الحثِّ على الإنفاق، وذمَّ البخل، ودَفَع توهم الحاجة إلى الخلق عن ساحته المقدسة - تعرّض لقول من نسب إليه الحاجة، بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ وعلمكم بالمسموعات ﴿قَوْلَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا﴾ استهزاء بالقرآن، أو إلزاماً للمسلمين: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ عديم المال، محتاج إلى أموالنا، حيث سأل مِنَّا الصَّدَقَاتِ ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لاشتقاقه مِنَّا. قيل: في التعبير عن العلم بهذا القول الشنيع بالسَّماع إيذاناً بأنَّه من الشناعة والقباحة بمكان لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع^١.

رُوي أنَّ النبي ﷺ كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قَيْنَقَاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم^٢، فوجد

ناساً كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقال له: فنحاص بن عازوراء، وكان من عُلَمائهم، ومعه جَبَرٌ آخر يُقال له: أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: اتقِ الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فأمن وصدق وأقرض الله قرضاً حسناً، يدخلك الجنة، ويضاعف لك الثواب. فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا! وما يستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله فقير ونحن أغنياء، وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عتقك يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى النبي ﷺ فشكاه وجحد ما قاله، فنزلت الآية ردّاً عليهم^١.

وقيل: القائل حبي بن أخطب^٢.

وعن القمي رحمه الله، قال: والله، ما رأوا الله فيعلموا أنه فقير، ولكنهم رأوا أولياء الله فقراء فقالوا: لو كان غنياً لأغنى أولياءه؛ ففخروا على الله بالغنى^٣.

وعن (المناقب): هم الذين زعموا أن الإمام يحتاج^٤ إلى ما يحملونه إليه^٥.

ثم هدّد الله سبحانه القائلين على قولهم الشيع بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ في صحيفة الكتبة أو المراد: سنثبت في القرآن، أو نحفظ في علمنا، للاهتمام بالحفظ ﴿مَا قَالُوا﴾ من هذا القول السيئ، لتغذيبهم عليه، أو لإبقاء شينه عليهم إلى آخر الدهر. وقيل: إن المراد: سنثبت عليهم ثم هذا القول وعقوبته. (السين) دالٌّ على التأكيّد.

ثم أردف سبحانه أقوالهم الشيعية بأعمالهم التي في الشناعة كأقوالهم، بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ المقربين، مع كونه عالمين أنه ﴿بَغْيٌ حَقٌّ﴾ وجزم.

وفيه تنبيه على أن من كان في الجهالة والشقاوة بدرجة يكون قاتلاً للأنبياء، أو راضياً بفعل من قتلهم، أو من تسلمهم، لا يبعد منه هذا القول الشنيع الذي في العظمة يمثل ذلك الفعل.

ثم بالغ في التهديد بقوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم عند الموت، أو في المحشر، أو بعد قراءة تهم الكتاب: اذْخُلُوا النَّارَ، ﴿ذُوقُوا﴾ واطعموا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وأنظروا كيف طعمه، كما أذقتهم المرسلين والمسلمين مرارة الكرب والغصص.

٢. مجمع البيان ٢: ٨٩٨.

٤. زاد في المصدر: منهم.

١. تفسير روح البيان ٢: ١٣٤.

٣. تفسير القمي ١: ١٢٧، تفسير الصافي ١: ٣٧٣.

٥. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٤٨.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [١٨٢]

ثمَّ نَبِّهَهُمْ بِأَنَّهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الدَّائِمُ، وَصِرْتُمْ مُسْتَحَقِّينَ لَهُ جَزَاءً ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾. وَبِمَا عَمِلْتُمْ جَوَارِحَكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَتَكَ الْحُرُمَاتِ، وَإِخَافَةِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالنَّفْوَةِ بِجَثْلِ هَذَا الْقَوْلِ الشَّنِيعِ، وَالتَّجَرِّيِ عَلَى اللَّهِ بِاقْتِرَافِ الْمَعَاصِي.

﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أَنَّ اللَّهَ ﴿حَكِيمٌ، عَدْلٌ﴾ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿وَلَيْسَ بِمُعَذِّبٍ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، لَتَنَافِي الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِبْلَامِ بِغَيْرِ الْاِسْتِحْقَاقِ، حَيْثُ إِنَّ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي مَا وَضَعَ لَهُ، وَمُقْتَضَى الْعَدْلِ إِعْطَاءُ كُلِّ شَيْءٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَهُمَا مَعَ الظُّلْمِ - الَّذِي هُوَ التَّعْذِيبُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِيَّةٍ وَاسْتِحْقَاقٍ - مُتَضَادَّانِ.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا ۖ لَآ نُؤْمِنُ ۚ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۚ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَإِلَّآذِي قُلْتُمْ فَلِمَ تَقْتُلُوهُمْ ۚ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [١٨٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ تَهْدِيدِ الْيَهُودِ عَلَى قَوْلِهِم الَّذِي فِيهِ هَتَكَ حُرْمَتَهُ وَحُرْمَةَ كِتَابِهِ، هَدَّاهُمْ عَلَى قَوْلِهِم الْآخَرِ الَّذِي فِيهِ إِبْطَالُ رِسَالَةِ رَسُولِهِ، يَقُولُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾، قِيلَ: التَّعْدِيرُ: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ أَيْضاً قَوْلَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا إِبْطَالاً لِّدَعْوَى الرَّسُولِ، وَاعْتِدَاراً مِنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ، مَعَ مُشَاهَدَتِهِمُ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَاسْتِمَاعِهِمُ الْآيَاتِ النَّبِيِّاتِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بِتَوْسُطِ أَنْبِيَائِهِ ﴿عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾ وَأَحْذِ الْمِيثَاقَ الْأَكِيدَ مِنَّا ﴿لَآ نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ﴾ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تُصَدِّقْ دَعْوَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا﴾ مُدَّعِي الرِّسَالَةِ ﴿بِقُرْآنٍ﴾ وَتَفْذِيَةِ اللَّهِ، وَصَدَقَةَ مَا لِيَجْعَلَهُ لَهُ وَيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ، فَيَقْبَلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، وَ﴿تَأْكُلُهُ﴾ وَتَحْرِقُهُ ﴿النَّارُ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامة الْقَبُولِ، وَدَلِيلُ صِدْقِهِ، كَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ أَنْبِيَائِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

عَنْ عَطَاءٍ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَذْبَحُونَ لِلَّهِ، فَيَأْخُذُونَ الثُّرُوبَ وَأَطْيَابَ اللَّحْمِ فَيَضْمُونَهَا فِي وَسْطِ بَيْتِ السَّقْفِ مَكْشُوفٍ، فَيَقُومُ النَّبِيُّ فِي الْبَيْتِ وَيُنَاجِي رَبَّهُ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ خَارِجُونَ وَاقِفُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ، فَتَنْزِلُ نَارٌ بَيضاءَ لَهَا دَوَى خَفِيفٌ وَلَا دَخَانُ لَهَا، فَتَأْكُلُ ذَلِكَ الْقُرْبَانَ^١.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وَوَهْبِ بْنِ يَهُوذَا، وَزَيْدِ بْنِ النَّابُوبِ^٢، وَفَنَحَاصِ بْنِ عَازُورَاءَ، وَغَيْرِهِمْ، أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ كِتَاباً، وَقَدْ عٰهَدَ اللَّهُ إِلَيْنَا فِي التَّوْرَةِ أَنْ لَا

نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار، ويكون لها دويٌّ خفيف، تنزل من السماء، فإن جئنا بهذا صدقناك. فنزلت هذه الآية^١.

ثم لما كان ذلك السؤال من باب التعنت بهذه المعجزة، وأن أنبياءهم أتوهم ومع ذلك قتلوهم، كزكريا، ويحيى، وعيسى، باغتيالهم، مع أن العهد الذي ادعوه كان من مفترياتهم وأباطيلهم؛ لوضوح أنه لا ينحصر دليل صدق النبي في هذه المعجزة، بل كل معجزة كافية في إثبات النبوة لاشتراك الجميع في كونه خارجاً عن طوق البشر، وتضديقاً من الله للدعوى من أتى بها.

ومن الواضح أن السؤال التعنتي لا يحسن إجابته، أمر الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تبيئنا لهم، وإظهاراً لكدِّبهم في أن عدم إيمانهم بك لعدم إيتائك بقربان تأكله النار: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ وأتى أسلافكم الذين تتخلقون أنتم بأخلاقهم، وتتبعون أثرهم ﴿رُسُلٌ﴾ كثيرة العدد، عظيمة الشأن ﴿من قبلي بالبينات﴾ والمعجزات الباهرات ﴿وبالذي قُلْتُمْ﴾ وسألتهم بعينه من القربان الذي تأكله النار ﴿قُلْتُمْ قَاتِلُوهُمْ﴾ بعدما أتوكم بما اقترحتموه عليهم، مضافاً إلى غيره من المعجزات الدالة على صدقهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ما دلَّ عليه قولكم من أنكم ملتزمون بالإيمان بنبي يأتيكم بقربان.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ

الْمُنِيرِ [١٨٤]

ثم لما كانت مقالات المفسركين واليهود سبباً لكُدورة قلب النبي ﷺ وتحزُّنه، أخذ في تسلية حبيبه بقوله: ﴿فَإِنْ﴾ عارضك اليهود والمشركون و﴿كَذَّبُوكَ﴾ في دعوى نبوتك، وصحة شريعتك، وفي ما تخبرهم به من سوء صنع أسلافهم، فإن هذا التكذيب والمعارضة ليس أمراً يخصك ﴿فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ﴾ كثيرة العدد، كبيرة المقدار، كانوا ﴿من قبلك﴾ كنعان، وإبراهيم وموسى وأضرابهم، وهم صبروا على التكذيب، وما نالهم من المكذبين، مع أنهم ﴿جاءوا﴾ وأتوهم ﴿بالبينات﴾ المعجزات الطاهرات التي لم يبق لأحد معها مجال للتكذيب ﴿والزُّبُرِ﴾ والصُّحف السماوية المشتملة على الأحكام والمواعظ والزواجر ﴿والكتابِ المُنِيرِ﴾ الموضح للحقائق من التوراة، والإنجيل.

وتخصيص الكتاب بالذكر مع كونه داخلًا في عموم الزُّبر، للإشعار بكونه أشرف منها. وعطف جميعها على البينات، للدلالة على عدم كَوْن واحد منها معجزاً للأنبياء، وأن كَوْن نفس الكتاب معجزاً، من خصائص خاتم النبيين ﷺ، وكتاباه المجيد. ووجه كَوْن الآية تسليةً وضوح أن البلية إذا

عَمَتْ طَابَتْ.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [١٨٥]

ثم بالغ سبحانه في تشليقه قلبه الشريف بتذكيره الموت الذي ذكره يهون الخطوب، ويسهل جميع المصائب، ويزيل الكرب، بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البشرية والحيوانية بالآخره ﴿ذَائِقَةُ﴾ طعم ﴿الْمَوْتِ﴾ وزهوق الروح، بل كل موجود من الجسمانيات، وكل مركب من المركبات آيل أمره إلى الانحلال والانهدام، فلا يبقى إلا وجهه الكريم.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، أنه قال: «يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد، ثم يموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد إلا ملك الموت، وحملة العرش، وجبرئيل، وميكائيل» قال: «فيجيء ملك الموت حتى يقوم بين يدي الله عز وجل فيقول له: مَنْ بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب، لم يبق إلا ملك الموت، وحملة العرش، وجبرئيل، وميكائيل. فيقال له: قل لجبرئيل وميكائيل فليمتوا. فتقول الملائكة عند ذلك: يا رب، رسولك وأمينك. فيقول: إني قضيت على كل نفس فيها الروح الموت. ثم يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقال له: مَنْ بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب، لم يبق إلا ملك الموت، وحملة العرش. فيقول: [قل] لحملة العرش فليمتوا ثم يجيء كتيباً حزيناً لا يرفع طرفه فيقول: مَنْ بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب، لم يبق إلا ملك الموت. فيقول له: مَتَّ يا ملك الموت، فيموت.

ثم يأخذ الأرض بيمينه والسموات بيمينه، فيقول: أين الذين كانوا يدعون معي شركاً؟ أين الذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر؟^٢ انتهى. فإذا كان ذلك، فلا ينبغي للعاقل أن يغتم في المصائب. ثم أنه سبحانه بعدما كثر عن الدار الأخرى بدوق الموت، بين توفية ثواب المصدق، وعقاب المكذب، بقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ﴾ وتعطون على نحو الكمال جزاء أعمالكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قيل: إن في لفظ التوفية إشعاراً بأن بعض أجورهم يصل إليهم قبل القيامة، كما نبئ عنه قوله ﷺ: «الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّارِ»^٣.

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ﴾ وأبعد ﴿عَنِ النَّارِ﴾ ونُحِّيَ منها يومئذٍ ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿فَقَدْ

٢. الكافي ٣: ٢٥٦/٢٥، تفسير الصافي ١: ٣٧٥.

١. في النسخة: من، بدل أين.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ١٢٣، تفسير روح البيان ٢: ١٣٨.

فَارَزَ بِالْمَقْصَدِ الْأَعْلَى، وَظَهَرَ بِالتَّبَغِيهِ الْعُلْيَا.

رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَقَرَأَ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾^١.

وَعَنْ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيُوثِقَ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^٢.

وَعَنْ (الكَافِي): عَنِ الصَّادِقِ ع: «خِيَارُكُمْ سَمَحَاؤُكُمْ، وَشِرَارُكُمْ بُخْلَاؤُكُمْ، وَمِنْ خَالِصِ الْإِيمَانِ الْبِرُّ بِالْإِخْوَانِ، وَالسَّغْيُ فِي حَوَانِجِهِمْ، وَإِنَّ الْبَارَّ بِالْإِخْوَانِ لِيَحِبَّهُ الرَّحْمَنُ، وَفِي ذَلِكَ مَرْجَمَةٌ^٣ الشَّيْطَانِ، وَتَزْحَرُحُ عَنِ النَّارِ، وَتُدْخُلُ فِي الْجَنَّةِ»^٤.

وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ، فِي حَدِيثٍ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ، وَبِجَلَالِي أَقْسَمْتُ أَنْ لَا يَتَوَكَّلَ عَلَيَّ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي إِلَّا زُحِرَتْهُ عَنِ النَّارِ، وَأُدْخِلَتْهُ الْجَنَّةَ، وَلَا يَبْقُضُهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي إِلَّا ابْغَضَتْهُ، وَأُدْخِلَتْهُ النَّارَ وَيُبْسِ الْمَصِيرُ»^٥.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ مَا بَيَّنَّ أَنَّ أَعْلَى الْمَقَاصِدِ النِّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَالدُّخُولَ فِي الْجَنَّةِ - بَيَّنَّ أَنَّ أَرْدَا الْمَطَالِبِ وَأَدْنَى الْمَقَاصِدِ هُوَ الدُّنْيَا، بِقَوْلِهِ: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» وَعَيْشُهَا وَلَذَائِهَا وَزُخَارِفُهَا بِشَيْءٍ «إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ» وَسِلْعَةٌ مُدْلَسَةٌ. فَشَبَّهَ سُبْحَانَهُ الدُّنْيَا بِالْمَتَاعِ الَّذِي يُدْلَسُ عَلَى الْمُسْتَامِ^٦ وَيُغَرَّحُ حَتَّى يَشْتَرِيهِ.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَمَّا مَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ بِهَا، فَإِنَّهَا نِعَمُ الْمَتَاعِ^٧.

لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَمُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ [١٨٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ تَكْذِيبِ الْكُفَّارِ وَأَقْوَالِهِمُ السَّيِّئَةِ الْمُفْرِحَةِ لِلْقَلْبِ - سَرَعَ فِي تَسْلِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا يَلْقَوْنَهُ مِنَ الْكُفَّارِ فِيمَا بَعْدَ: لِيُوطِنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى اخْتِمَالِهِ عِنْدَ وَقُوعِهِ، وَيَسْتَعِدُّوا لِقَائِهِ وَيُقَابِلُوهُ بِحُشْنِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، فَإِنَّ هُجُومَ الْأَجَالِ يُزَلْزِلُ أَقْدَامَ الرُّجَالِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمُرُكُوبِ

٣. في المصدر: مَرْغَمَةٌ.

١. تفسير الرازي ٩: ١٢٦.

٥. أمالي الصدوق: ٣٢٦/٢٩٢، تفسير الصافي ١: ٣٧٥.

٤. الكافي ٤: ١٥/٤١، تفسير الصافي ١: ٣٧٥.

٦. المُسْتَام: المشتري. ٧. تفسير الرازي ٩: ١٢٦.

يَمَّا يَهْوَنَ الْخُطُوبَن فَقَالَ تَعَالَى: «تَسْتَبْلُونَ» الْبَيْتَ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ أُيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَلِتُعَامِلُنَّ مُعَامِلَةَ الْمُخْتَبِرِ؛ لِيُظْهَرَ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ وَلِوَازِمِهِ بِمَا يَقَعُ «فِي أَمْوَالِكُمْ» مِنْ ضُرُوبِ الْأَفَاتِ وَالْمَضَارِ، «وَقَدْ» بِمَا يَقَعُ فِي «أَنْفُسِكُمْ» مِنَ الْقِتَالِ، وَالْجَرْحِ، وَالْأَسْرِ، وَسَائِرِ الْمَتَاعِبِ وَالشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ.

عَنِ الرِّضَاءِ عليه السلام: «فِي أَمْوَالِكُمْ»: بِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، «وَقَدْ» فِي «أَنْفُسِكُمْ»: بِالتَّوطينِ عَلَى الصَّبْرِ^١.
 «وَقَدْ» بِاللَّهِ «لِتَسْمَعُنَّ» أَقْوَالَ سَيِّئَةِ «مِنْ» الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى «الَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ» السَّمَاءِي مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ «مِنْ قَبْلِكُمْ» وَفِي زَمَانٍ سَابِقٍ عَلَى نَزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْكُمْ «وَقَدْ» أَقْوَالاً «مِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» بِاللَّهِ وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ، كَأَبِي جَهْلٍ وَأَبِي سَفْيَانَ وَأَصْرَابِهِمَا، فِيهَا «أَذَى كَثِيرٌ» لَكُمْ، وَإِيْلَامٌ شَدِيدٌ فِي قُلُوبِكُمْ، كَالطُّعْنِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَدْحِ فِي أَحْكَامِهِ، وَالْقَاءِ الشُّبُهَاتِ، وَتَخْطِئَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِجَانِهِمْ، وَتَحْرِيزِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مُضَادَّةِ الرَّسُولِ ﷺ «وَإِنْ تَصْبِرُوا» عَلَى مَا يُصِيبُكُمْ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَتُعَابِلُوهُ بِحُسْنِ الْقِرَاءِ وَالتَّحَمُّلِ «وَتَتَّقُوا» اللَّهَ فِي مُحَالَفَةِ مَرْضَاتِهِ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِ، وَمِنْ الْمُدَاهَنَةِ مَعَهُمْ «فَإِنَّ ذَلِكَ» الْمَذْكُورَ مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى يَكُونُ «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» وَصَوَابِ التَّدْبِيرِ، وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْزِمَ الْعَارِمُونَ وَيَتَنَافَسَ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ، لِمَا فِيهِ مِنْ كَمَالِ الْمَرْيَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْفَازِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْإِرْشَادِ وَالْهِدَايَةِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى دُخُولِ الْمُخَالَفِ فِي الدِّينِ.
 وَلِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُدَارِئاً لِلنَّاسِ صَبُوراً عَلَى الْأَذَى أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَى، بَلْ كَانَ مُدَارَاتِهِ وَصَبْرَهُ مِنْ كَرَامَاتِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ.

رَوَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ إِلَى فِنْحَاصِ الْيَهُودِيِّ يَسْتَمِدَّهُ، فَقَالَ فِنْحَاصٌ: قَدْ أَحْتَاجَ رُبُّكَ إِلَى أَنْ نَمُدَّهُ، فَهَمَّ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ حِينَ بَعَثَهُ: «لَا تَغْلِبَنَّ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُؤْذِيَ إِلَيَّ» فَتَذَكَّرَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ وَكَفَّ عَنِ الضَّرْبِ، فَنَزَلَتْ^٢.
 قِيلَ: أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ تَقْلِيلًا لِمَضَارِّ الدُّنْيَا، وَأَمَرَ بِالتَّقْوَى تَقْلِيلًا لِمَضَارِّ الْآخِرَةِ، فَكَانَتِ الْآيَةُ جَامِعَةً لِأَدَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^٣.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ
 وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَآشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَسْسَ مَا يَشْتَرُونَ [١٨٧]

١. علل الشرائع: ٣/٣٦٩، تفسير الصافي: ١: ٣٧٦.

٢. تفسير الرازي: ٩: ١٢٨.

٣. تفسير الرازي: ٩: ١٢٩.

ثم - لما كان كتمان اليهود والنصارى ما في التوراة والإنجيل من دلائل نبوة خاتم النبيين ﷺ وصفاته وعلائمه، من أشد أنواع إيدانهم للرسول والمؤمنين، وأظهر مصاديقه - تعرض سبحانه لذلك بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، قيل: إن المراد: وتذكر يا محمد وقتاً أخذ الله - ميثاقاً - اليهود والنصارى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ والعهد المتحكم المبرم عليهم على لسان الأنبياء والرسل، حيث قالوا لأمتهم - بعدما بينوا لهم ما في الكتاب من صفات نبي آخر الزمان وعلائمه -: يا عباد الله، بالله عليكم ﴿تَلْبِثُونَهُ﴾ ولتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي منها أمر نبوة محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ﴾ الذين لا يطلعون بما فيه كما أوضحناه وبيناه لكم ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ عن العوام بوسيلة تحريف عباراته، أو إبداء التأويلات، أو إلقاء الشبهات.

هذا حاصل العهد الأكيد بقنوت التأكيدات، ومع ذلك ﴿فَتَبَدُّوهُ﴾ وطرحوه لحبهم الدنيا وألقوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه مع قبوله والالتزام بالعمل به ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ وأخذوا بدل الميثاق والوفاء ﴿ثَمَنًا﴾ وعوضاً ﴿قَلِيلًا﴾ من الزخارف الدنيوية والطمع الفانية، وأخفوا الحق، واستهانوا بالعهد الأكيد الإلهي طمعاً في أموال سفلتهم، وحفظاً للرئاسة على جهلتهم ﴿فَبَشِّرْ مَا يَشْتَرُونَ﴾ وساء ما يستبدلون به.

وفيه دلالة على نهاية قباحة كتمان الحق، وشدة حرمة على العالم به، للأغراض الدنيوية والأهواء الفاسدة، ولو كان الكاظم من المسلمين.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»^١.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٨٨]

ثم بالغ سبحانه في تهديد الكاظمين لعلائم النبي ﷺ المدلسين للحق، بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد، ولا تنوهمن الكاظمين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ويسرون ﴿بِمَا أَتَوْا﴾ من الأموال والرياسات، أو بما فعلوا من نقض العهد، وكتمان آيات نبوتك ﴿وَيُجِبُونَ﴾ بقلوبهم ويتمنون ﴿أَن يُحْمَدُوا﴾ بين الناس ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من الوفاء بالعهد، والصّدق في الإخبار، والتعوى في الدين.

ثم أكد سبحانه النهي عن الحسبان بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ﴾ متمكنين ﴿بِمَقَارَةِ﴾ ومنجاة ﴿مِنْ

العَذَابُ فِي الْقِيَامَةِ.

وعن القَمِي، عن الباقر عليه السلام: «أَيَّ بَعِيدٍ مِنَ الْعَذَابِ»^١.

﴿وَلَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿عَذَابٌ﴾ بالنار ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته، بسبب كفرهم، وكيتمانهم، وتذليسهم.

عن ابن عباس رضي الله عنه: هُم الْيَهُودُ، حَرَفُوا التَّوْرَةَ، وَفَرِحُوا بِذَلِكَ، وَأَحَبُّوا أَنْ يَوْصَفُوا بِالذَّيَانَةِ وَالْفُضْلِ^٢.

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ الْيَهُودَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا فِي التَّوْرَةِ فَكْتَمُوا الْحَقَّ، وَأَخْبَرُوهُ بِخِلَافِهِ، وَأَرَوْهُ أَنَّهُمْ قَدْ صَدَّقُوهُ، وَاسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا فَعَلُوا^٣.

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: نَزَلَتْ فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْغَزَا، وَيَفْرَحُونَ بِعُغُودِهِمْ، فَإِذَا قَدِمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ فَيَقْبَلُ عُذْرَهُمْ، فَطَمِعُوا أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِمْ كَمَا كَانَ يُثْنِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ^٤.

أَقُولُ: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ، فَتَوَهَّم^٥ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٨٩]

ثُمَّ أَعْلَنَ سُبْحَانَهُ بِعَظَمِ سُلْطَانِهِ، وَسَعَةِ قُدْرَتِهِ أَزْدِياداً لِلرَّهْبَةِ فِي الْقُلُوبِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وَخُذْهُ ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالسُّلْطَنَةُ الْاِسْتِقْلَالِيَّةُ النَّامَةُ فِيهِمَا، بَحِيْثٌ لَا يَخْرُجُ مِنْ سُلْطَانِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَذَرَّةٌ مِنَ الذَّرَاتِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ وَالتَّعْذِيبِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لَا يَدْفَعُهُ شَيْءٌ عَنْ إِنْفَازِ إِرَادَتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَيْفَ يَجْتَرِئُ الْعَاقِلُ عَلَى عَصْيَانِهِ؟

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ [١٩٠]

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ تَخْصِيصَهُ بِالسُّلْطَنَةِ النَّامَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ السَّنْعِ أَوْ التَّنْصِيعِ، وَإِنْشَائِهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَوَاتِهَا، وَصِفَاتِهَا، وَكَوَاكِبِهَا، وَحَرَكَاتِهَا، وَسَائِرِ أُمُورِهَا الَّتِي تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، قَالَ فِي صِفَةِ السَّمَاوَاتِ: «جَعَلَ شَفَافَةً مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً

٢ و ٣. تفسير أبي السعود ٢: ١٢٥.

٥. أي أبو سعيد الخدري.

١. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.

٤. تفسير الرازي ٩: ١٣٢.

محفوظاً وسنمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولا دسار^١ يتنظمها^٢، ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمرأ^٣ مثيراً في فلك دائر، وسقف سائر، ورقم ما^٤.

﴿وَفِي خَلْقِ الْأَرْضِ﴾ على ما هي عليه في ذاتها، وصفاتها، وأجزائها، وما خلق فيها من البحار والجبال والمعادن والأشجار، ﴿وَفِي أَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وتعاقبهما، وقيل: اختلاف لونهما وتفاوتهما بازدياد كل منهما ونقص الآخر، بحسب اختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قريباً وبعيداً ﴿لَايَاتٍ﴾ عظيمة، ودلائل واضحة على وحدة خالقها، وكمال قدرته، وسعة علمه، وبلوغ حكيمته، وعظم سلطانه، وغلو شأنه، ولكن لا لجميع الخلق لعَمَى قلوب أكثرهم، وعدم تفكيرهم فيهان بل ﴿الْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ منهم، وذوي العقول السليمة، والأفهام المستقيمة الخالصة عن شوائب الأوهام والشهوات الحيوانية، والأهواء الزائغة النفسانية خاصة، لتتور قلوبهم، وتتوذ بصيرتهم.

قيل: لما كان رسول الله ﷺ يدعو أهل مكة إلى عبادة الله وحده سألوه أن يأتيهم بأية تصح دعواه، فنزلت.

قيل: إنه تعالى ذكر في سورة البقرة في نظير الآية، الآيات الثمانية، واخفى هنا بذكر الثلاثة منها؛ لأن السالك إلى الله في أول الأمر لابد له من تكثير الدلائل، فإذا اشتار قلبه بتور المعرفة صار اشتغالها بالدلائل كالحيجاب له عن اشتغراق القلب في المعرفة، فيصير طالباً لتقليلها.

ففي الآية الأولى إشارة إلى مبدأ السلوك، ولذا قال هناك: ﴿لَايَاتٍ يَقُومُ يَتَقَبَّلُونُ﴾^٥ وهنا: ﴿لَايَاتٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، فإن لب العقل خالصه ومصفاه وكماله.

عن ابن عمر، قال: قلت لعائشة: ما أعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ! فبكت فأطالت، ثم قالت: كل أمره عجيب، أتاني في ليلة فدخل لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال لي: «يا عائشة، هل لك أن تأذني لي في عبادة ربّي؟»، فقلت: يا رسول الله، إنّي لأحبّ قربك وأحبّ مرادك، قد أذنت لك، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ، ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي فقرأ من القرآن فجعل يبكي، ثم رفع يديه وجعل يبكي، حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! فقال: «يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ثم قال: «ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

١. الدسار: المسمار. ٢. في نهج البلاغة: ينظمها.

٤. البقرة ٢: ١٦٤.

٣. نهج البلاغة: ٤١ الخطبة ١.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...؟» ثُمَّ قَالَ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»^١.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: «وَيْلٌ لِمَنْ لَاحَظَهَا بَيْنَ فَكَيْهِ، وَلَمْ يَتَأَمَّلْ فِيهَا»^٢.

وعن عليٍّ عليه السلام: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَسَوَّكُ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقُولُ: ﴿إِنْ فِي خَلْقِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»^٣.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ [١٩١]

ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أُولَى الْأَلْبَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ بِالسُّتُورِ وَقُلُوبِهِمْ حَالٌ كَوْنُهُمْ
﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ مُتَضَاعِفِينَ ﴿عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ.

قِيلَ: إِنَّهُ ثَبَتَ فِي الطَّبِّ: أَنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ مُسْتَلْقِيًا عَلَى قَفَاهُ، يَمْتَنِعُ عَنْ اسْتِكْمَالِ الْفِكْرِ وَالتَّدْبِيرِ،
بِخِلَافِ الْأَضْطِجَاعِ عَلَى الْجَنْبِ، وَأَنَّ الْأَضْطِجَاعَ عَلَى الْجَنْبِ يَمْنَعُ مِنَ النَّوْمِ الْمُتَفَرِّقِ^٤.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيَكْثِرْ ذِكْرَ اللَّهِ»^٥.
وَعَنْ عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ [اللَّهُ]»^٦.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «[لَا يَزَالُ] الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ قَانِمًا وَجَالِسًا وَمُضْطَجِعًا، إِنَّ اللَّهَ
يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، الَّذِي يَكُونُ أَوْضَعُ مِنَ الْمَرِيضِ الَّذِي
يُصَلِّي جَالِسًا»^٧.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: «صَلِّ قَانِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ [فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ] فَعَلَى
جَنْبٍ تَوْمَنَ إِيمَاءً»^٨.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ كَمَالُ الذِّكْرِ بِكَوْنِهِ مَعَ التَّفَكُّرِ، وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾
وَأَنْشَانِهَا ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وَإِبَادَهَا، وَيَعْتَبِرُونَ بِهَا.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ يَتَفَكَّرُونَ فِي مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَفِي مَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالْوَحُوشِ وَالطُّيُورِ.

١. تفسير الرازي ٩: ١٣٣، تفسير روح البيان ٢: ١٤٥. ٢. تفسير الرازي ٩: ١٣٤.

٤. ٥. تفسير الرازي ٩: ١٣٦. ٦. الكافي ٢: ٣٦٢، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.

٧. العياشي ١: ٨٢٩/٣٥٧، تفسير الصافي ١: ٣٧٧ عن الباقر عليه السلام.

٨. تفسير أبي السعود ٢: ١٢٩.

وإنما حَصَّ التَّفَكُّرُ بِالْخَلْقِ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ تَعَالَى غَيْرُ مُمَكِّنَةٍ لِلْبَشَرِ، فَلَا فَايِدَةَ لَهُمْ فِي التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ»^١.

قِيلَ: لِمَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُرَكَّبًا مِنَ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ، كَانَتْ الْعُبُودِيَّةُ بِحَسَبِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ، فَأَشَارَ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْبَدَنِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ...﴾، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ وَأَشَارَ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾.

فِي فَضِيلَةِ التَّفَكُّرِ ثَمٌّ - لِمَا كَانَ نَتِيجَةُ التَّفَكُّرِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ تَنَوُّرُ الْقَلْبِ، وَزِيَادَةُ الْمَعْرِفَةِ بِسَعَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَفَوَائِدِهِ

وَكَمَالُ حِكْمَتِهِ - وَصَفَهُمْ بَعْدَ التَّفَكُّرِ فِي عَجَائِبِ صُنْعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِإِظْهَارِ الْمَعْرِفَةِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا﴾ اعْتَرَفْنَا بِأَنَّكَ ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الْخَلْقَ الْعَظِيمَ، وَالْمَصْنُوعَ

الْعَجِيبَ ﴿بِاطِلًا﴾ وَعَبْتًا، بَلْ فِيهِ حِكْمٌ بِالْغَةِ وَأَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ لَا تُحِيطُ بِأَقْلٍ قَلِيلٍ مِنْهَا عُقُولُ الْكَائِنَاتِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْلُغَ إِلَى عَشْرِ مِنْ أَعْشَارِهَا إِدْرَاكُ الْمُمَكِّنَاتِ.

ثُمَّ لِمَا كَانَ مِنَ لَوَازِمِ التَّفَكُّرِ فِي الْخَلْقِ، تَنْزِيهِ خَالِقِهِ عَنِ التَّشْبِيهِ بِهِ، يُيَادِرُونَ بَعْدَ التَّفَكُّرِ إِلَى تَنْزِيهِهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ الْإِمْكَانِيَّةِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أَنْ يَكُونَ لَكَ خِصَائِصُ الْمُمَكِّنَاتِ، وَتُقَدَّسَ عَنْ نَقَائِصِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتُنْزَهَكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِكَ مِنَ الْعَيْثِ، وَفَعَلَ مَا لَا حِكْمَةَ فِيهِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً»^٢.

وَعَنِ امْرِئِ الْمُؤْمِنِينَ ؑ: «نَبَّهَ بِالتَّفَكُّرِ قَلْبَكَ، وَجَافَ عَنِ اللَّيْلِ جَنْبُكَ، وَاتَّقِ اللَّهَ رَبَّكَ»^٣.

وَعَنِ الرِّضَا ؑ: «لَيْسَ الْعِبَادَةُ كَثْرَةُ الصَّلَاةِ وَالصُّومِ، وَإِنَّمَا الْعِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ»^٤.

وَرُوي أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرُ عِبَادَةِ أَبِي ذَرٍّ التَّفَكُّرَ [وَالاعتبار]^٥.

وَيَشْهَدُ عَلَى كَوْنِ التَّفَكُّرِ أَفْضَلَ الْعِبَادَاتِ، وَضَوْحُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْخَلْقِ الْمَعْرِفَةُ، وَهِيَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي صَنَائِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ مَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا - عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ النَّمَطِ الْبَدِيعِ - فَضَى بِاتِّصَافٍ صَائِعِهَا بِالْوُجُوبِ الذَّاتِيِّ، لَا تَتَيْنِاعُ انْتِهَاءُ وُجُودِ الْمُمَكِّنِ إِلَّا إِلَى الْوَاجِبِ. وَمِنْ اتِّسَاقِهَا عَلَى النِّظَامِ الْأَمِّ، عِلْمُ بَوَاحِدَانِيَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ، وَقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ، وَعِلْمُهُ الْوَاسِعِ، وَحِكْمَتُهُ الْبَالِغَةِ.

وَمِنْ لَوَازِمِ حِكْمَتِهِ جَعَلَ التَّكَالِيفَ، وَلَازِمَهُ جَعَلَ الثُّوَابَ وَالْعِقَابَ، وَلَازِمَهُ إِيجَادَ عَالَمٍ آخَرَ، وَبَعَثَ الْمُكَلَّفِينَ فِيهِ، لِيَتَعَاطَلَ مَعَهُمْ عَلَى حَسَبِ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَأَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى إِنْشَانِهِمْ بِلَا مِثَالٍ كَانَ عَلَى

١. تفسير الرازي ٩: ١٣٧.

٢. تفسير روح البيان ٢: ١٤٥.

٣. الكافي ٢: ١١/٤٥، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.

٤. الكافي ٢: ٤/٤٥، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.

٥. الخصال: ٣٣/٤٢، بحار الأنوار ٢٢: ٣٩/٤٣٦.

إعادتهم أقدر. فظهر أن معرفة المبدأ والمعاد، ووظائف العبودية، ووجوب القيام بها نتيجة التفكير في الآفاق والأنفس.

ثم لما كان على المؤمن بعد معرفة الله، وظهور عظمته في قلبه، غاية التخصُّص، وإظهار ذلّة العبودية - ومن الواضح أن أحب أنواعه عند الله الصُّراعة وسؤال الحاجة، وأن أهمّ الحوائج للعباد، المؤمنين بالمعاد، النجاة من العذاب، والسلامة من العقاب - حكى الله بعد مدحهم بالتفكير والمعرفة والتسبيح، صراعتهم ومسألتهم النجاة من النار بقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الذي أعدّه للكافرين بك، والجاحدين لرؤيبيتك، واحتفظنا منه بالتوفيق للاجتناب عن الزلات والمعاصي، حيث إنه لا تسلم نفس من افتتار الذنوب مع خذلانك، ولا يرجى النجاة من المهالك إلا بحفظك، فإن النفس أماراة بالسوء، والشيطان عدوٌ مبين.

قيل: في ذكر (الفاء) إشعار بترتب هذا السؤال على الذكر والفكر، وحصول المعرفة الكاملة، كأنهم قالوا: وإذا عرفنا سرّك، وأطعنا أمرك، ونزهناك عما لا يليق بك، فاحتفظنا من عذاب النار الذي هو جزاء من لا يعرفك.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [١٩٢]

ثم لما كان الالتفات بعظم الحاجة موجبا لقوة الداعي في الطلب والإلحاح، حكى عنهم ذكر عظمته مطلوبهم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ غاية الجزى، وأبعده من مقام قربك، وحرمة من ساحة رحمتك، وأهتته بين خلقك، وفضحته على رؤوس الأشهاد، وأهلكته أبد الأباد. وفي التصدير بالنداء مبالغة في التصرُّع، وإلحاح في الدعاء، وفي توصيفه بالرؤيوية وإضافتها إلى ضمير المتكلم اشتراحاً واستعطاف. وفي التأكيد بـ (إن) إظهاراً لكمال اليقين بمضمون الجملة، وإيداً بشدة الخوف. وفي ذكر النار موضع الإضمار إشعاراً بتحويل أمرها. وفي ذكر (تدخل) بدل (تعذب) تعيين كيفية التعذيب، وتبيين غاية فظاعته. وفي ترتيب الجزى على التعذيب بالنار دلالة على أن العذاب الروحاني أشد من الجسماني، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «هَبْنِي صَبْرْتُ عَلَى عَذَابِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ؟»^١.

ثم بالغوا في إظهار نهاية فظاعة حالهم تأكيداً لاشتداعهم، بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بعصيانك، حين دخولهم في النار ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وأعوان كي يدفعوا عنهم العذاب.

وفيه إشعارٌ بخلود عَذَابِهِمْ، بِفقدان مَنْ يَقُومُ بِتَضَرُّعِهِمْ وَتَخْلِيصِهِمْ. وفي ذِكْرِ الظَّالِمِينَ مَوْضِعَ الصَّمِيرِ الرَّاجِعِ إِلَى الْمُدْخَلِينَ دَلَالَةً عَلَى ذَمِّهِمْ، وَعِلَّةَ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ بِالنَّاصِرِ هُوَ الْمُدَافِعُ بِالْقَهْرِ، فَلَا دَلَالَةَ فِي نَفْيِهِ عَلَى نَفْيِ الشَّفَاعَةِ الَّتِي هِيَ ضَرَاعَةُ الشَّفْعِ فِي التَّخْلِيصِ.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ: «مَا لَهُمْ مِنْ أُنْمَةٍ يَسْتَوْنَهُمْ بِأَسْمَانِهِمْ»^١.

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ [١٩٣]

ثُمَّ - لَمَّا كَانَ الْإِثْقَادُ وَحُسْنُ الْخِدْمَةِ وَالطَّاعَةِ دَخِيلًا فِي تَعَطُّفِ الْمَسْئُولِ، وَإِقْدَامِهِ فِي قَضَاءِ حَاجَةِ السَّائِلِ، وَإِجَابَةِ دُعَائِهِ - حَكَى اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِظْهَارَ إِيمَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ لَهُ وَلِرَسُولِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا﴾ وَمَلِيكُنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وَدَاعِيًا عَظِيمَ الشَّانِ، كَثِيرَ الْاهْتِمَامِ بِالدَّعْوَةِ، بِحَيْثُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِهَا، وَهُوَ ﴿يُنَادِي﴾ وَيَدْعُو عَامَّةَ النَّاسِ بِصَوْتٍ عَالٍ ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بِكَ وَبِوَحْدَانِيَّتِكَ، وَكَمَالِ صِفَاتِكَ، وَصِحَّةِ شَرِيعَتِكَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى سَبِيلِ مَرْضَاتِكَ، وَالْإِثْرَامِ بِطَاعَتِكَ بِكَلِمَةٍ جَامِعَةٍ لَجَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ، هِيَ ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ وَخَالِقِكُمُ اللَّطِيفُ بِكُمْ، وَالرَّؤُوفُ الْمُتَوَلَّى لَجَمِيعِ أُمُورِكُمْ، الْحَافِظُ لِمَصَالِحِكُمْ، لَوْضُوحُ أَنَّ مَعْرِفَتَهُ تَعَالَى بِصِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهِ مُلَازِمٌ لِلْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ وَشَرِيعَتِهِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وَجْهَ تَخْصِيصِ الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِالرَّبِّ، تَفْخِيمُ شَأْنِهِ.

﴿فَآمَنَّا﴾ بِهِ بِلَا مُطَاطَلَةٍ امْتِنَالًا لِأَمْرِهِ، وَبَادَرْنَا إِلَى الْإِقْرَارِ بِهِ إِجَابَةً لِدَعْوَتِهِ ﴿رَبَّنَا﴾ إِذَنْ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ وَتَجَاوَزْ عَنْ كِبَائِرِ مَعَاصِينَا، جَزَاءً لِإِيمَانِنَا بِكَ ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ وَأَمْنُ صَغَائِرِ زَلَاتِنَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْجُمْلَةَ تَأْكِيدٌ لِلأُولَى.

ثُمَّ بَعْدَ سُؤَالِ الْمَغْفَرَةِ وَالتَّمَنِّيِّ مِنَ الْقُوَّةِ، يَتَوَجَّهُونَ إِلَى النَّعْمِ وَاللَّذَائِدِ، وَيَسْأَلُونَ أَتَمَّهَا وَأَعْلَاهَا بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَتَوَقَّنَا﴾ وَأَقْبَضْ أَرْوَاحَنَا، وَأَخْرِجْنَا مِنَ الدُّنْيَا حَالًا كَوْنُنَا مُصَاحِبِينَ ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مُحَظَّوظِينَ بِجِوَارِهِمْ، مُلْتَذِّينَ بِمِرَافَقَتِهِمْ وَصُحْبَتِهِمْ، فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَحِبَّةِ أَمُّ اللَّذَائِدِ وَأَعْلَى الْحِظُوظِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ: حَالُ كَوْنِنَا مَعْدُودِينَ فِي زُمَرَةِ الْمُطِيعِينَ، أَوِ التَّابِعِينَ لَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى نَكُونَ فِي دَرَجَاتِهِمْ.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

الْمِيعَادُ [١٩٤]

ثم بعد طلب الأمن من العقوبة، وسؤال أهم النعم، يعمون السؤال، ويستندون جميع المثوبات الموعودة للمؤمنين، بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾ برحمتك، وأعطنا بجودك وكرمك ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ من الثواب والأجر الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ﴾ تصديق ﴿رُسُلِكَ﴾. وقيل: إن المراد: ما وعدتنا بالوعد الكائن على ألسنة رُسلك، ووسائط تبليغ وخيك.

وفي تكرير النداء بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار المبالغة في الصراعة.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ حَزَبَهُ^١ أَمَرَ فَقَالَ: رَبَّنَا؛ خَمْسَ مَرَّاتٍ، أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْهَا يَخَافُ، وَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ»^٢. وفي ذكر جميع الرُّسل - مع كَوْنِ المراد من المنادي للإيمان خصوص خاتم النبيين ﷺ - إشعار بأثاقهم في الوعد، وتأكده بكثرة الشُّهود، وإظهار كمال الثقة بإنجازه.

ثم أنه تعالى - بعدما حكى عن المؤمنين تقديم سؤال المغفرة والأمن من العقوبة على سؤال الجنة وسائر النعم والمثوبات، إظهاراً لأهميته وكونه أصلاً، وغيره فرعاً وتبعاً - حكى عنهم ختم دعواتهم به توثيقاً لذلك، بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ ولا تُهَيِّئَنَّ النَّاسَ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بالعذاب الدائم.

وقيل: إن السؤال الأول - وهو الوقاية من النار - طلب الأمن من العذاب الجسماني، والسؤال الآخر من قولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾، طلب السلامة من الخزي والهوان؛ وهو العذاب الروحاني، حيث يظهر يوم القيامة لبعض العباد أن اعتقادهم كان ضلالاً، وعمله كان ذنباً؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَذَّأ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾^٣، فعند ذلك يحصل لهم خجلة عظيمة، وحسرة كاملة، وأسف شديد، وذلك هو العذاب الروحاني، وهو أشد من العذاب الجسماني.

وقيل: إن المراد: لا تُهَيِّئَنَّ حين إعطاء الثواب، بل عظمنا وأكرمنا. فإنه يمكن أن يكون إعطاء الثواب مقروناً بالتوهين.

ثم حكى الله سبحانه عن المؤمنين إظهار اليقين بامتناع صدور خُلف الوعد منه تعالى، بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لإظهار أن سؤال الوفاء بالوعد ليس لخوف صدور خُلف الوعد منه تعالى، بل لإظهار الاشيكانة، أو احتمال التقصير من قِبلهم، والخوف من أنهم لا يكونون من جملة الموعودين، لسوء العاقبة، أو القصور في الائتثال، فمرجعها إلى الدُعاء بالتثبت على الإيمان والطاعة.

٢. تفسير الرازي ٩: ١٥١، تفسير أبي السعود ٢: ١٣٣.

١. حزبه الأمر: اشتد عليه.

٣. الزمر: ٤٨/٣٩.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّهُ التَّبْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ^١. يعني: المُرَاد مِنَ الْمِيْعَادِ: التَّبْتُ الْمَوْعُود.

نسي ذكر آداب ثُمَّ اعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِلْمَ عِبَادِهِ - فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾^٢
الدُّعَاءَ وَكَيْفِيَتَهُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تُخْلَفُ الْمِيْعَادُ﴾ - آدَابُ الدُّعَاءِ وَكَيْفِيَاتِهِ، حَيْثُ ظَهَرَ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُزُّ

لِلدَّاعِي قَبْلَ الدُّعَاءِ [مِنْ] التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَتَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ، ثُمَّ ثَنَانِهِ بِالنَّسِيحِ
وَالْتَهْلِيلِ، ثُمَّ مُحَاطَبَتِهِ بِخُطَابٍ فِيهِ كِمَالُ الضَّرَاعَةِ، وَإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَالِاسْتِكَانَةِ، ثُمَّ يَدَانِهِ بِمَا فِيهِ جَلْبُ
الْعُطُوفَةِ: يَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَحِيمَ، يَا رُؤُوفَ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَذَكُّرُ مَا فِيهِ اشْتِدَادُ شَوْقِهِ إِلَى الدُّعَاءِ، وَمَا
يُؤَثِّرُ فِي تَقْوِيَةِ دَاعِي الْمَدْعُوِّ إِلَى الْإِجَابَةِ، ثُمَّ يَخْصُ دُعَاءَهُ بِالْمُهْمَّاتِ، وَيَكُونُ نَظَرُهُ إِلَى الْحَوَانِجِ
الْأُخْرَوِيَّةِ، وَلَا يَعْنِي إِلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَا يَطْلُبُ فِي دُعَائِهِ شَيْئاً مِنْهَا، وَيَقْدَمُ أَوَّلاً طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ؛
لَأَنَّهَا - مَعَ كَوْنِهَا مِنْ أَهَمِّ الْحَوَانِجِ - لَهَا أَثَرٌ تَامٌ فِي إِجَابَةِ الدُّعَاءِ بِهِ.

عن ابن عباس رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ
مَخْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» الْخَبَرُ^٣.

وَيَسْأَلُ النِّجَاةَ مِنَ النَّارِ وَالْهَوَانَ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ يَطْلُبُ النِّعَمَ وَالذَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةَ فِي الْجَنَّةِ - لَتَقْدُمَ
التَّحْلِيلَةَ عَلَى التَّحْلِيَةِ - وَأَنْ يَكُونَ عَلَى يَقِينٍ بِكَرَمِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ حَسَبَ مَا
وَعَدَ، وَأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَلَا يَسُوءُ ظَنَّهُ بِهِ تَعَالَى.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنَّى لَا أَصْبِحَ عَمَلٍ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ
مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا
وَقُتِلُوا أَكْفَرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [١٩٥]

ثُمَّ رَتَّبَ اللَّهُ عَلَى دَعَوَاتِهِمُ الْجَامِعَةَ لِآدَابِهَا الْإِجَابَةِ السَّرِيعَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وَتَحَقَّقَ
إِنْجَاحُ مَسْئُولِهِمْ مِنْ مَلِيكَهِمُ اللَّطِيفِ بِهِمْ، الْمُكْمِّلُ لثَنُوسِهِمْ.
وَقِيلَ: إِنَّ (اسْتَجَابَ) أَخْصَصَ مِنْ (أَجَابَ)، فَإِنْ (أَجَابَ) مَعْنَاهُ: أَعْطَاهُ الْجَوَابَ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ إِعْطَاءِ
الْمَطْلُوبِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: (اسْتَجَابَ) إِذَا حَصَلَ الْمَطْلُوبُ.

٢. آل عمران: ١٩١/٣.

١. تفسير البضاوي ١: ١٩٦، تفسير أبي السعود ٢: ١٣٣.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١٤٩.

واستجابته كانت بإنجاز وعده بالتواب على الإيمان وأعمالهم الصالحة المستلزمة للمغفرة والوقاية من النار، موجهاً الخطاب إليهم تشريفاً لهم، وتطبيهاً لقلوبهم، بقوله: ﴿أَتَى لَا أَضِيعُ﴾ ولا يبطل ﴿عَمَلٌ عَامِلٍ﴾ أي عاملٍ كان ﴿وَمِنْكُمْ﴾ من الكاملين في الإيمان، أو الصُّعفاء ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ ومن خسيس النسب أو شريفه؛ لأنه ﴿بِفَضْلِكُمْ﴾ مُنْشَعِبٌ ﴿مِنْ بَغْضٍ﴾ آخَر، وكُلُّكُمْ من أصلٍ واحدٍ، فلا مَرِيَّةٌ لأحدٍ على أحد عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح، فمع تساوي النسبة إلى الله، وكَوْنُ التَّفَاوُتِ والمَرِيَّةِ بالإيمان والقيام بوظائف العبودية، لا يُمكن إثابة بعض دون بعض.

وقيل: إن المراد من قوله: ﴿بِعِصْيَانِكُمْ مِنْ بَغْضٍ﴾ أنكم متوافقون في الدين والأعمال؛ كما قال في حق المنافقين: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَغْضٍ﴾^١.

وقيل: إن (من) بمعنى: (الكاف) والمعنى: بعضكم كبعض^٢، والمقصود: بيان شِركة النساء مع الرجال في ما وعد للأعمال.

رُوي أن أُم سَلَمَةَ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهِجْرَةِ، وَلَا يَذْكُرُ النِّسَاءَ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ^٣.

ثم ذكر الله تفصيل أعظم الأعمال التي يُستَحَقُّ بها غاية التواب، بقوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أوطانهم حِفْظاً لدينهم، واختياراً لخدمة الرُّسُولِ ﷺ، وشوقاً إلى صحبته - عن القمِّي رحمه الله يعني: أمير المؤمنين، وسلمان^٤ - أو لم يهاجروا اختياراً ﴿وَوَ﴾ لكن ﴿أُخْرِجُوا﴾ قَهْرًا وَجَبْرًا ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ التي وُلِدُوا فيها وَتَوَطَّنُوا، وَأَضْطُرُّوا إلى تَرْكِ الْإِقَامَةِ بها بسبب إيذاء المُشْرِكِينَ، والخَوْفِ على أنفسهم وأعراضهم، ﴿وَوَ﴾ الَّذِينَ ﴿أُودُوا﴾ مِنَ الْكُفَّارِ، بأي نوعٍ من أنواع الإيذاء ﴿فِي سَبِيلِي﴾ لأجل تَحْصِيلِ مَرْضَاتِي مِنَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ، والدُّخُولِ فِي الْمِلَّةِ الْخَفِيَّةِ ﴿وَوَ﴾ الَّذِينَ ﴿قَاتَلُوا﴾ أعداء الدين، وجاهدوا معهم نُصْرَةً لِلْإِسْلَامِ ﴿وَوَقْتَلُوا﴾ في تَرْوِيجِ الشَّرِيعَةِ، تالله ﴿لَا تُكْفِرُونَ﴾ وأَمْحُونَ ﴿عَنْهُمْ﴾ ومن صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِمْ ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَخَطَايَاهُمْ ﴿وَلَا دُخْلَتْهُمْ﴾ في الْقِيَامَةِ بِرَحْمَتِي وَفَضْلِي ﴿جَنَّاتٍ﴾ عديدة، تكون من مُحَسِّنَاتِهَا وَصِفَاتِهَا أَنَّهُ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، ولأَثْبِيَّتِهِمْ وَفَاءً بِالْوَعْدِ ﴿تَوَابًا﴾ عَظِيمًا على هذه الأعمال وغيرها، حال كَوْنِ ذَلِكَ التَّوَابِ تَشْرِيفًا لَهُمْ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ومن قَبْلِ فَضْلِهِ وَجُودِهِ.

ثم بالغ سبحانه في تأكيد الوعد، وتشريف الثواب بقوله: ﴿وَأَنَّهُ مَذْخُورٌ عِنْدَهُ﴾ وفي خَزَائِنِ

١. التوبة: ٦٧/٩. ٢. ٣. تفسير الرازي ٩: ١٥٠.

٤. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٧٩.

جوده ﴿حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ وأكمل الجزاء على طاعته، لا يُعَادِلُهُ ثَوَابٌ، ولا يُشَابِهُهُ جَزَاءٌ.

قيل: في تَصْدِيرِ الوَعْدِ الكريم بَعْدَ الإِضَاعَةِ، ثُمَّ تَعْقِيهِ بِهَذَا الإِحْسَانِ الْجَسِيمِ الَّذِي لَا يَقَادِرُ قَدْرُهُ مِنْ لُطْفِ الْمَسْلُوكِ الْمُتَيْنِ مِنْ عَظَمِ شَأْنِ الْمُحْسِنِ مَا لَا يَخْفَى.

ثُمَّ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ وَإِنْ كَانَ ثُبُوتُ هَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ لِلَّذِينَ اجْتَمَعَتْ لَهُمْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْأَوْطَانِ، وَالْإِيذَاءِ، وَالْمُقَاتَلَةِ وَالْقَتْلِ، وَلَكِنْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ لَهُ أَحَدُهَا، وَيُؤَيِّدُهُ سَعَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ.

عن (الأمالي): أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَلْحَقَ النَّبِيَّ ﷺ؛ وَقَدْ قَارَعَ الْفُرْسَانَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَعَهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ الزُّبَيْرِ، فَسَارَ ظَاهِرًا قَاهِرًا حَتَّى نَزَلَ صَحْجَانَ^١ فَتَلَوَّمَ بِهَا يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَلَحَقَ بِهِ نَقَرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِيهِمْ أَمُّ أَيْمَنَ مَوْلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يُصَلِّيَ لَيْلَتَهُ تِلْكَ هُوَ وَالْفَوَاطِمُ وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُثُوبِهِمْ، فَلَنْ يَزَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَصَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْفَجْرِ، ثُمَّ سَارَ لَوَجْهِهِ.

فَجَعَلَ هُوَ وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ مَزَلًا بَعْدَ مَزَلٍ، يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَرْغَبُونَ إِلَيْهِ كَذَلِكَ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، وَقَدْ نَزَلَ الْوَحْيُ بِمَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ قَبْلَ قُدُومِهِمْ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾^٢ الْآيَاتِ، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ الذِّكْرُ: عَلَى السَّلَامِ، وَالْأُنْثَى: الْفَوَاطِمُ ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: يَعْنِي: عَلَيَّ مِنْ فَاطِمَةَ، أَوْ قَالَ: مِنْ الْفَوَاطِمِ، وَهُمْ مِنْ عَلَيٍّ^٣.

وعن الْقَمِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: يَعْنِي: أَبَا ذَرٍّ حِينَ أُخْرِجَ وَعَمَّارَ الَّذِينَ أَوْذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^٤.

أقول: الظَّاهِرُ أَنَّ الرُّوَايَةَ بَيَانٌ لِأَظْهَرِ مَصَادِقِ الْآيَةِ وَأَكْمَلِهَا، لَا أَنَّهَا تَفْسِيرٌ لَهَا، بَلْ هِيَ عَامَّةٌ لِكُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الْأَذْيَانِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمِهَادُ [١٩٦ و ١٩٧]

ثُمَّ لَمَّا وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ فِي شِدَّةِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ، صَارُوا مَعْرُضًا لِلطَّغْنِ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُمْ مَزَلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ لِأَعْطَاهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَعِيشُونَ بِهِ فِي

١. صَحْجَانَ: جَبَلٌ عَلَى بَرِيدٍ مِنْ مَكَّةَ.

٢. آل عمران ١٩١/٣.

٣. أمالي الصدوق: ١٠٣١/٤٧١، تفسير الصافي: ١: ٣٧٩.

٤. تفسير القمي: ١: ١٢٩، تفسير الصافي: ١: ٣٧٩.

الراحة، فدفع الله ذلك الطعن، وسلى قلوب المؤمنين مخاطباً للنبي ﷺ تشريفاً له، وإيداناً بكونه المسلى عن الله والمبلغ، بقوله: ﴿لَا يَغُورُكَ﴾ ولا يلقينك في اعتقاد خلاف الواقع - وقيل: إن الخطاب لكل أحد - ﴿تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ وتصرفهم في المكاسب والمتاجر، وتبسطهم في المعيشة، والمؤمنون في شدة الفاقة - أو المراد: سيبرهم في الأرض آمينين، والمؤمنون في خوف - أن للكفار منزلة عند الله دون المؤمنين، فإن الغنى أو الأمن الذي يكون للكفار ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا، وارتفاع يسير فيها، يزول بسرعة ولو كانت مدته طويلة، لوضح أن أمد الدنيا - بالنسبة إلى طول مدة الآخرة - أقل من دقيقة بالإضافة إلى أضعاف عمر الدنيا، وأنه لا قدر لنعمة في جنب أقل قليل من نعم الآخرة.

عن النبي ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إضبعه في اليم، فليُنظر ما يرجع»^١.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء أجلهم يكون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم إلى الأبد ﴿جَهَنَّمَ﴾ يصلونها ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ تلك جهنم، وساء ما مهدوا وهيئوا لأنفسهم من النار بسبب كفرهم بالله، وحُبهم للدنيا. قيل: إن مشركي مكة كانوا يتجرون ويتنعمون، وإن بعض المسلمين كانوا يرونهم في رخاء ولين عيش فيقولون: [إن] أعداء الله في ما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت^٢. وقيل: إن اليهود كانت تضرب في الأرض فتصيب الأموال، فنزلت^٣، فبين الله تعالى أن الدنيا مع قلتها وخساستها موروثة للعذاب الدائم. ومن الواضح أن النعمة القليلة لا تعد نعمة إذا كانت مستتبعة للمصرة الشديدة، بل يجب على العاقل أن يتحرز منها، ويفر عنها.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ [١٩٨]

ثم أتبع الله سبحانه وعيد الكفار المنهكين في حب الدنيا بوعد المؤمنين المهتمين بأمور الآخرة، بالثواب العظيم، وبين حسن حالهم فيها، غيب^٥ بيان كثر ذكره إثر ما قرر، مع زيادة بيان شلودهم في الجنات العالية والنعم الباقية، ليتم بذلك شروهم، ويتزايد به إيضاح سوء حال مخالفيهم، بقوله: ﴿لَكِنَّ﴾ المؤمنون ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وخافوا من عصيان مليكهم، واحترزوا عن الإشراك به

٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٣٥.

٥. الغيب: بمعنى بغي.

١. في تفسير أبي السعود: بم.

٣ و٤. تفسير الرازي ٩: ١٥٢.

والكُفْرانَ لِنِعْمِهِ، يكون ﴿لَهُمْ﴾ خاصةً بالاستحقاق ﴿جَنَّتْ﴾ عديدة، وبساتين عالية ذوات أشجار وفيرة ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حال كَوْنِهِمْ ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، آمينين من الخروج منها، وتكون تلك النعم العظيمة ﴿نُزُلًا﴾ ونهضةً تشريفيةً ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ للنازلين عليه، والوافدين لَدَيْهِ.

وقيل: إِنْ المَراد أنها تكون رِزْقاً وعطاءً لهم من فضله.

﴿وَمَا﴾ هُوَ مَذْخُورٌ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مِنَ النِّعَمِ ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفع: لكثرتها ودوامها، وخلوصها مِنْ شُوبِ المَكَارِهِ ﴿لِلْأَبْرَارِ﴾ والمُطِيعِينَ لله، يَمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الكُفْرانُ، ويكتسبون مِنَ الأموال، ويتمتع به المُجَار، ويتفجعون مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا؛ لِقِلَّتِهِ، وسُرْعَةِ زَوَالِهِ، وشَوْبِهِ بأنواع المَكَارِهِ والآلَامِ، مَعَ وَخَامَةِ تَبِعَاتِهِ وَوَبَالِهِ.

عن ابن مسعود رضي الله عنه: ما مِنْ نَفْسٍ بَرَةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا والموت خَيْرٌ لَهَا، أَمَّا الْبَرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وَأَمَّا الْفَاجِرَةُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا تَمْلِكُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾.

وعن ابن الخطاب، قال: جَنَّتْ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي مَشْرُبَةٍ^٢، وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ قِرْطَأٌ مَصْبُورًا^٣، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهْبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «مَا يُبْكِيكَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقِصْرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ»^٤.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ
لَهُ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ [١٩٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا بَيَّنَّ شَوْءَ حَالِ الْكُفْرانِ، الَّذِينَ مِنْهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِينَ، بَشَّرَ بِخُسْنِ حَالِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْرَابِهِ ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وَيُصَدِّقُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّ﴾ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ حَقٌّ، وَأَنَّهُمَا مِنَ اللَّهِ.

٢. المَشْرِبَةُ: الغُرْفَةُ.

١. تفسير روح البيان ٢: ١٥٤، والآية من سورة آل عمران ١٧٨/٣.

٣. الْقِرْطَأُ: وَرَقٌ السَّلْمُ يُدْبَغُ بِهِ، وَمَصْبُورٌ، أَيُّ مَجْمُوعٌ مَكْتُومٌ.

٤. الأَهْبُ: جَمْعُ إِهَابٍ، وَهُوَ الْجِلْدُ قَبْلَ الدَّبْغِ. ٥. تفسير روح البيان ٢: ١٥٤.

وتقديمه^١ على قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين، في الذكر - مع أن الأمر في الوجود بالعكس - للإشعار بأشرفية الإيمان بالأول من الثاني، وأن الإيمان بالكتابين متوقّف على ثبوتهما بالقرآن، لانتقطاع التواتر عنهما، وثبوت التحريف فيهما، حسب ما حَقَّق في محله، فلو لم يكن إخبار القرآن بكونهما من عند الله لم يكن طريقاً إلى الإيمان بهما.

ثم وصفهم الله بكونهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ متواضعين ﴿لِلَّهِ﴾ خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، أو تعظيماً له، وبكونهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ ولا يستبدلون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة في الكتابين ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعوضاً يسيراً، ولا يحرفونها، ولا يكتُمون ما فيهما من شواهد نبوة مُحَمَّد ﷺ استجلاباً لحطام الدنيا، وحفظاً لرئاستهم، كما هو دأب من لم يسلم من أحبارهم وقسيسهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصنفون بهذه الصفات الكريمة الفائقة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ العظيم الموعود، وثوابهم المذخور ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم، يصل إليهم في الآخرة بلا تأخير ولا تسويف، بسبب طول الحساب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لسعة علمه بجميع الأشياء، فلا حاجة له في تعيين جزاء العاملين إلى فكر ووغي صدر، ومدة وتحقيق وكتب، فيكون أجر كل أحد سريع الوصول إليه.

عن ابن عباس: أنها نزلت في النجاشي، فإنه لما مات نعا جبرئيل للنبي ﷺ فقال ﷺ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»، فخرج إلى البقيع، ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي، وصلى عليه واستغفر له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا، يصلي على عِلَج^٢ نصراني لم يره قط، وليس على دينه، فنزلت^٣.

وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران، وأثنين وثلاثين رجلاً من الحبشة، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام^٤.

وقال بعض: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم^٥.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَقْلِحُونَ [٢٠٠]

ثم أنه تعالى لما ذكر في السورة المباركة كثيراً من الأصول كالوحد والعذل والنبوة والمعاد، وكثيراً من الفروع كالصح والجهاد وغيرهما، ختمها ببيان ما يوجب المحافظة عليها، والقيام بالعمل بها،

١. أي تقديم قوله تعالى: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾. ٢. العِلج: الكافر من العجم.

بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا﴾ على مشاقِّ التكليف، وما يصيبكم من الشدائد كاللَحْظ، والفقر، والبَلَايا، والأمراض، وسائر المَصائب، أو على أداء الواجبات ﴿وَصَابِرُوا﴾ في قتال أعداء الله في مواطن الحروب، وفي أداء حقوق النَّاس وتحمل المكَّارِ مِنْهُمْ، أو على تَرْك المُحَرَّمات. وتخصيص المُصابِرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصَّبْر، لاختصاصها بمزيد التَّعَبِ والمَشَقَّةِ.

عن الثَّمَنِي: عن الصادق عليه السلام: «اصْبِرُوا عَلَى الْمَصَائِبِ، وَصَابِرُوا عَلَى الْقَرَانِصِ»^١.

وعن العياشي: عنه عليه السلام: «اصْبِرُوا عَلَى الْمَعَاصِي، وَصَابِرُوا عَلَى الْقَرَانِصِ»^٢.

وفي رواية: «اصْبِرُوا عَلَى دِينِكُمْ، وَصَابِرُوا عَدُوَّكُمْ يَمَنْ يُخَالِفُكُمْ»^٣.

وعن (المعاني): عنه عليه السلام: «اصْبِرُوا عَلَى الْمَصَائِبِ، وَصَابِرُوهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ»^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «وَصَابِرُوهُمْ عَلَى التَّقِيَّةِ»^٥.

﴿وَرَابِطُوا﴾ على الأئمة، كما عن الصادق عليه السلام^٦. وفي روايةٍ أُخرى: «ورابطوا إمامكم»^٧. وفي أخرى: «رابطوا على ما تقتدون به»^٨.

أو المراد: رابطوا الصَّلوات، أي انتظروها واحدةً بعدَ واحدة، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام، مُعَلِّلاً بأنَّ الرِّابطةَ لَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ^٩.

وعن أبي سَلَمَةَ، أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ غَزْوٌ يَرَابِطُ فِيهِ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي انْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ^{١٠}.

وَتَقُلُّ أَنَّهُ ذَكَرَ انْتِظَارَ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^{١١}.

وَيُحْتَمَلُ إِرَادَةُ الْقَدَرِ الْمَشْتَرِكِ بَيْنَ الْمَعْنَى الْمَذْكُورَةِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ الرِّبَاطِ انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ»^{١٢}.

وَيُحْتَمَلُ أَلَّا يَكُونَ الْمَعْنَى: أَقِيمُوا فِي الثُّغُورِ رَابِطِينَ خَيْلَكُمْ فِيهَا، مُتَرَصِّدِينَ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ عِنْدَ الْعَرَفِ.

عَنِ الثَّمَنِي رحمه الله: عَنِ السَّجَّادِ عليه السلام: «نَزَلَتْ فِي الْعَبَّاسِ وَفِينَا، وَلَمْ يَكُنْ الرِّبَاطُ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ، وَسَيَكُونُ

١. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠. ٢. تفسير العياشي ١: ٨٣٦/٣٥٨، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٣٨/٣٥٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.

٤. معاني الأخبار: ١/٣٦٩، وفيه: عَلَى التَّقِيَّةِ، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.

٥. معاني الأخبار: ١/٣٦٩، عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.

٦. الكافي ٢: ٣/٦٦، تفسير الصافي ١: ٣٨٠. ٧. تفسير العياشي ١: ٨٣٨/٣٥٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.

٨. معاني الأخبار: ١/٣٦٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠. ٩. مجمع البيان: ٩١٨، تفسير الصافي ١: ٣٨١.

١٠ و ١١. تفسير الرازي ٩: ١٥٦. ١٢. مجمع البيان ٢: ٩١٨، تفسير الصافي ١: ٣٨١.

من نَسَلْنَا المُرَابِطَ، ومن نَسَلْنَا المُرَابِطَ^١. انتهى.

والظاهر أن المراد: المُرَابِطَةُ في زَمَانِ القَانِمِ المُتَنَطِرِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

ثم - لِمَا كَانَ الإِقْدَامُ عَلَى تِلْكَ المَشَقَّاتِ، وَالتَّحْمِلُ لِهَذِهِ المَرَارَاتِ شَدِيداً عَلَى النَّفْسِ، مُحْتَاجاً إِلَى قُوَّةِ الدَّاعِي - ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَقْوَى الدَّوَاعِي، وَهُوَ التَّقْوَى وَالخَوْفُ مِنَ اللَّهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَخَافُوهُ فِي مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَأَحْكَامِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ وَكَيْ تَفُوزُوا بِأَعْلَى المَقَاصِدِ مِنَ النِّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَالتَّنْعَمَ وَالرَّاحَةَ فِي دَارِ القَرَارِ.

عن النَّبِيِّ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟». قالوا: بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الوُضوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَى إِلَى المَسَاجِدِ، وَإِنِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ المُرَابِطُ»^٢.

وَقُلَّ عَنْ أَصْحَابِ التَّذْكِيرِ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ المُرَادَ مِنَ الآيَةِ المَبَارَكَةِ: أَصْبِرُوا عِنْدَ قِيَامِ اليَقِينِ عَلَى اخْتِمَالِ الكَرْبِ، وَصَابِرُوا عَلَى مَقَاسَةِ العَنَاءِ وَالتَّعَبِ، وَرَابِطُوا فِي دِيَارِ أَعْدَائِي بِلا هَرْبٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْإِثْفَاتِ إِلَى السَّبَبِ، لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ غَداً بِلِقَانِي عَلَى نَشَاطٍ وَطَرَبٍ.

وَقَالَ السَّرْقَسِيُّ: أَصْبِرُوا عَلَى الدُّنْيَا رَجَاءَ السَّلَامَةِ، وَصَابِرُوا عِنْدَ لِقَاءِ أَعْدَائِي بِالثَّبَاتِ وَالِاسْتِثْمَةِ، وَرَابِطُوا هَوَى النَّفْسِ اللَّوَامَةِ، وَاتَّقُوا مَا يَعْقِبُ النَّدَامَةَ، لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ غَداً عَلَى إِسْبَاطِ الكَرَامَةِ.

وَقِيلَ: أَصْبِرُوا عَلَى التَّعَمُّاتِ، وَصَابِرُوا عَلَى البِئْسَاءِ وَالفَضَاءِ، وَرَابِطُوا فِي دَارِ الأَعْدَاءِ، وَاتَّقُوا إِلَهَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ فِي دَارِ البَقَاءِ.

وَقِيلَ: أَصْبِرُوا عَلَى مَضَضِ الطَّاعَاتِ، وَصَابِرُوا عَلَى رَفْضِ العَادَاتِ، وَرَابِطُوا السَّرَّ عَلَى جَنَابِ وَاهِبِ العَطِيَّاتِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ بِالتَّبَرِّيِّ مِمَّا سِوَاهُ مِنَ الكَاثِنَاتِ، لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا بِأَعْلَى المَقَامَاتِ، وَفِي الآخِرَةِ بِأَرْفَعِ الدَّرَجَاتِ.

أَقُولُ: اعْلَمْ أَنَّ القَلْبَ الْإِنْسَانِي إِذَا زَكَا بِالرِّيَاضَةِ - مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَتَرَكَ اتِّبَاعَ الهَوَى، وَقَطَعَ عِلَاقَةَ الدُّنْيَا، وَالمُصَابِرَةَ عَلَى البِئْسَاءِ وَالفَضَاءِ، وَالثَّبَاتَ فِي مُكَايَدَةِ الأَعْدَاءِ، وَتَحَمُّلِ الشَّدَائِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي تَحْصِيلِ رِضَاهِ - وَتَوَجَّهَ عَنِ التَّفَاقِ وَخَبَائِثِ الأخْلَاقِ، وَظَهَرَ عَنِ دَسَسِ الشَّهَوَاتِ بِالتَّقْوَى، يُفَاضُ عَلَيْهِ أَوَّلاً خَوَاطِرُ الخَيْرِ، وَثُمَّ الهِدَايَةُ إِلَى حَقَاقَتِ الأُمُورِ مِنْ خَزَائِنِ المَلَكُوتِ وَعَالَمِ الجَبَرُوتِ، فَيَصْرِفُ عَقْلَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي مَا فِيهِ خَيْرُهُ وَصَلَاحُهُ، وَمَا بِهِ كَمَالُ نَفْسِهِ، وَالقُرْبُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَالنَّظَرُ فِي مَقْدَمَاتِهِ وَمُحْصَلَاتِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطْلُعُ عَلَى أَسْرَارِ الطَّاعَاتِ، وَيُنَكِّشُ لَهُ بِثُورِ البَصِيرَةِ حَقَاقَتِ

الْخَيْرَاتِ وَالْحَسَنَاتِ، فَيَلْزِمُهُ عَقْلُهُ بِغَلْظِهَا، وَيُزْجِرُهُ عَنْ أَضْدَادِهَا مِنَ الشُّرُورِ وَالْقَبَاحِ، فَيَتَقَرَّبُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَيَلْتَزِمُ بِهِ، وَيَتَبَاعَدُ عَنْ كُلِّ شَوْءٍ وَيَجْتَنِبُ عَنْهُ.

فَإِذَا نَظَرَ الْمَلَكُ الْمُرِيدُ وَالْمُعَلِّمُ لِلْحَقَائِقِ إِلَى هَذَا الْقَلْبِ - الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ - وَوَجَدَهُ طَيِّباً بِجَوْهَرِهِ، طَاهِراً بِنُفُوهِهِ، نَقِيّاً مِنْ خَوَاطِرِ السُّوءِ، مُسْتَنِيْراً بِضِيَاءِ الْعَقْلِ، أَفَاضَ عَلَيْهِ أَنْوَارَ الصَّعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْهَدْيِ، وَأَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَا تَرَى، وَأَرْشَدَهُ إِلَى خَيْرَاتٍ أُخْرَى، وَسَدَّدَهُ بِإِلْهَامَاتٍ تَثْرِي فَيْشْرِقُ فِي تِلْكَ اللَّطِيفَةِ الرِّبَانِيَّةِ جِبِيناً بَعْدَ جِبِينٍ تَوَرَّ عَلَى نُورٍ، مِنْ مِشْكَاتِ نُورِ الْأَنْوَارِ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ مِنْ ظُلْمَةِ الشُّرْكِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ أَخْفَى مِنْ ذَيْبِ التَّمَلَةِ السُّودَاءِ، فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ، عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ، فَلَا يُوَثِّرُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ وَدَسَائِسِهِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى حَيْلِهِ وَمَكَائِدِهِ، بَلْ يَتَوَجَّهُ بِشَرَائِرِهِ^١ إِلَى رَبِّهِ، وَيَسْتَغْرِقُ بِكُلِّهِ فِي ذِكْرِهِ.

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْفَلَاحِ الْحَقِيقِيِّ فِي الدُّنْيَا الْمُسْتَقْبِقِ لِلْفَلَاحِ الْأَبَدِيِّ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرُّضْوَانِ، وَالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ الْبَاقِيَةِ فِي الْجَنَانِ، وَمُرَافَقَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ، وَمُصَاحَبَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾^٢.

وَأَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: كَيْ تَكُونُوا مُفْلِحِينَ، إِشْعَاراً بِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ، وَيَكُونُ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ، مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، وَشِيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فِي خَطَرٍ عَظِيمٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ، فَإِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا مُقَالاً مِنَ الزَّلَّاتِ، سَلِيماً مِنَ الْهَوَاتِ^٣ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، حَتَّمْ لَهُ الْفَلَاحَ وَأَتَقَنَّ^٤ بِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^٥.

فَعَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ خَائِفاً مِنَ مَكَائِدِ الشَّيَاطِينِ الْمُغْوِيَةِ وَعَلْبَةِ الْهَوَى الْمُرِيدَةِ، فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ وَأَنَاتِ عَمَرِهِ، وَيَسْتَعِيزُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ شَرِّ أَعْدَائِهِ عَدُوِّهِ، وَيَلْتَجِئُ إِلَى رَبِّهِ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ. أَنْ يَحْفَظَهُ مِنَ الضَّلَالِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ بَلَطْفِهِ وَعِنَايَتِهِ، وَأَنْ لَا يَدْخُلَهُ بِإِيكَالِهِ إِلَى نَفْسِهِ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾^٦، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٧، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾^٨.

٣. الفجر: ٨٩/ ٢٧ - ٣٠.

٢. شراشر القلب: أطرافه، أو كَلَّ القلب بجملته.

١. أي القلب.

٧. فاطر: ٦/ ٣٥.

٦. المؤمنون: ١/ ٢٣.

٤. في النسخة: الهوات.

٩. النور: ٢١/ ٢٤.

٨. النساء: ٨٣/ ٤.

فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ أَنْ يَعِجِبَ بِنَفْسِهِ، وَيَغْتَرَّ بِعَمَلِهِ، وَيَأْمَنَ مِنْ زَلَّهِ، إِلَى زَمَانٍ حُلُولِ أَجَلِهِ. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادِ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ.

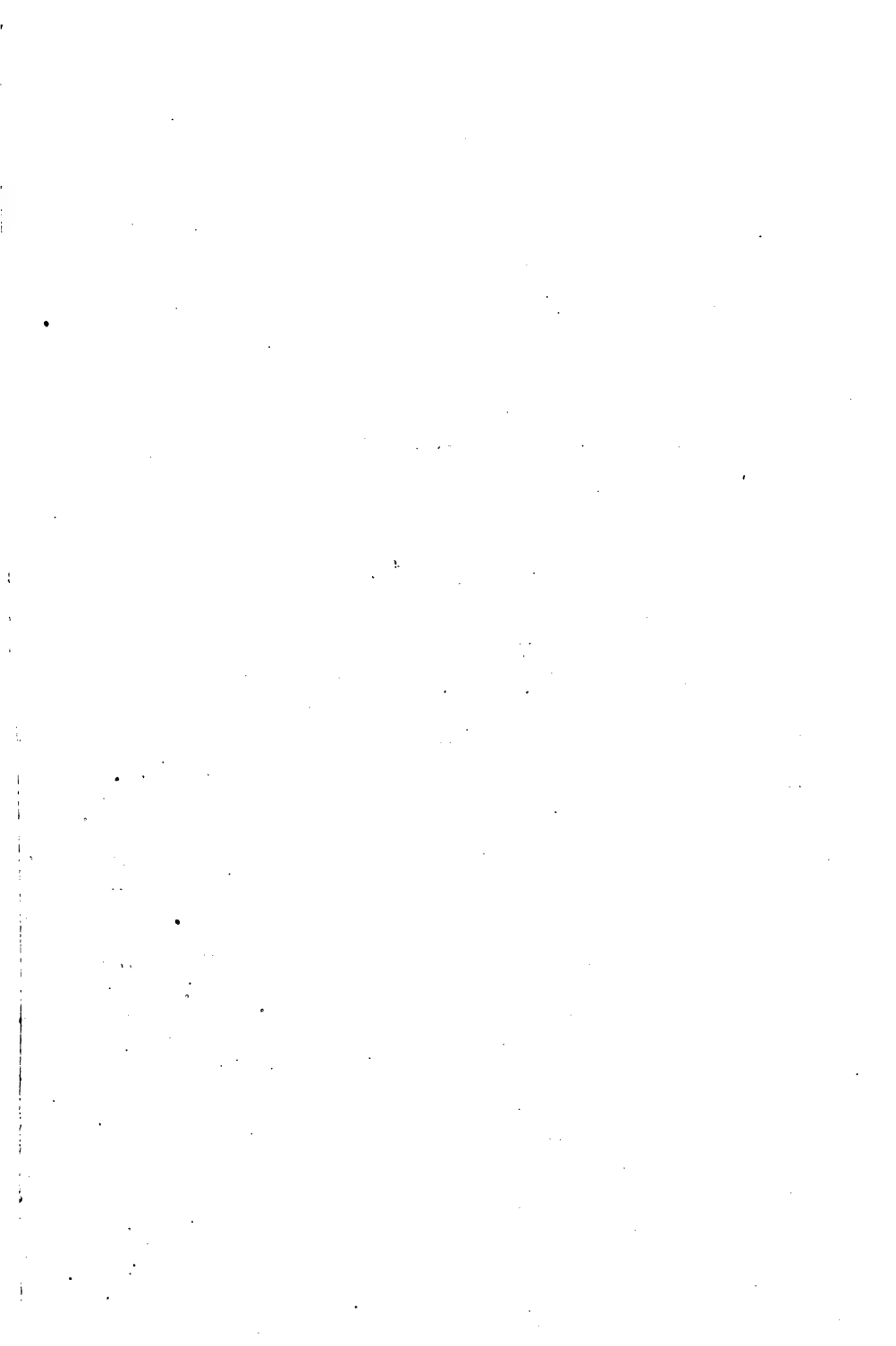
قال الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^١﴾، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^٢﴾.

ولذا ورد الأمر بالإكثار من قول: ﴿رَبَّنَا لَا تُغِ غُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا^٣﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

عن النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ أُعْطِيَ بِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا أَمَانًا عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ»^٤.

وعنه ﷺ: «مَنْ قَرَأَ السُّورَةَ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَتُهُ حَتَّى تَخْتَجِبَ الشَّمْسُ»^٥.

وَقَفَّنا الله وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَدَاءِ حَقِّهِ.



في تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [١]

في وجه نظم سورة النساء - المَحْضَمَتَانِ لِإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، والرِّسَالَةِ، ومُحَاجَةِ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى، وَبَيَانِ مَهْمَاتِ حَقُوقِ اللَّهِ، كَوُجُوبِ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ،
وَالْجِهَادِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ - بِسُورَةِ النِّسَاءِ الْمُشْتَمِلَةِ لِبَيَانِ مَهْمَاتِ حَقُوقِ النَّاسِ، كَالْيَتَامَى وَالْأَزْوَاجِ
وَالسُّفَهَاءِ وَالزَّوَارِثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَافْتَتَحَهَا بِالْبَسْمَلَةِ لِيَتَعَلَّمَ الْعِبَادُ التَّيَرُّكُ بِهَا عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي
بَالٍ.

ثُمَّ لَمَّا خَتَمَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ بِآيَةٍ فِيهَا الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى مُعَلِّلاً بِرَجَاءِ الْفَلَاحِ فِي الْمَعَادِ - وَلِذَا خَاطَبَ
الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ لَتَوْفُّ هَذَا الرَّجَاءِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِمَا - أَكَّدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى ثَانِيًا مُعَلِّلاً
بِمَعْرِفَةِ الْمَبْدَأِ، وَالْخَوْفِ مِنْ سَعَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَتَعَوُّذِ إِرَادَتِهِ، وَلِذَا خَاطَبَ جَمِيعَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ﴾ الظَّاهِرُ فِي إِرَادَةِ جَمِيعِ الْمَوْجُودِينَ مِنْهُمْ فِي زَمَانِ الْخِطَابِ، وَإِنْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ خِطَابٌ
لَأَهْلِ مَكَّةَ^١. وَعَلَيْهِ يَشْتَرِكُ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مَعْدُومِينَ فِي الْحُكْمِ الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:
﴿اتَّقُوا﴾ وَخَافُوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ وَمُكْمَلُ وُجُودِكُمْ، فِي مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ الَّتِي سَيَّبِنَهَا لَكُمْ وَغَيْرَهَا.
وَفِي تَوْصِيفِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِالرُّبُوبِيَّةِ تَنْبِيْهُ عَلَى كَمَالِ رَأْفَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، اللَّتَيْنِ هُمَا عِلَّتَانِ تَامَتَانِ لِلْقِيَامِ
إِلَى طَاعَتِهِ وَالْاجْتِنَابِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

في مبدأ خلق في تعريف رَأْفَتِهِ وَقُدْرَتِهِ بِتَوْصِيفِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي﴾ بِجُودِهِ
حَوَاءِ وَجِئْتُهُ ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وَقَدَّرَ وُجُودَكُمْ الَّذِي هُوَ أَصْلُ النِّعَمِ وَأَعَالِيهَا، الْمَوْجِبُ لِعَايَةِ

الشكر، والتمحُّص للطَّاعة، والقيام بوظائف العبودية.

ثم لما كان الترهيب أدخل من التَّغريب في البعث على امتثال التكليف، وتحمل المشاق، أوضح كمال قُدْرته بقوله: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وشخص فارد، كان إيجاد جميع الخلائق التي لا تُحصى كثرة [مِنْهُ] وهو آدم.

عن ابن عباس رضي الله عنه: سُمِّيَ به لأنه خُلِقَ مِنْ أديم الأرض كُلِّها، أحمرها وأسودها، طَبَّيْها وَخَبَّيْها، فلذلك كان في وُلْدِه الأحمر والأسود، والطَّبُّ والخَبِيثُ^١.

أقول: يُمكن كَوْنُ المراد مِنَ الأحمر والأبيض: لآلِه^٢ مِنَ الأضداد.

عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ مِنَ المَاءِ وَالمَاءِ الطَّيْنِ، فَهَمَّةُ ابنِ آدَمَ فِي المَاءِ وَالمَاءِ الطَّيْنِ»^٣.

ثم قَرَّرَ سُبْحانَه ائْتِفاءَ الخَلْقِ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، بقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَاءَ، فَزَوْجَهَا مِنْ فَرْعِها، فَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ الخَلْقَ كانَ مِنْ أَصْلَيْنِ، وَمِنْ نَفْسَيْنِ.

عن الصادق عليه السلام، فِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ الله خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ، فَهَمَّةُ النِّسَاءِ فِي الرِّجَالِ»^٤.

عن القمِّي: «بَرَأَها مِنْ أَصْفَلِ أَضْلاعِهِ»^٥.

عن العياشي: عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «خُلِقَتْ حَوَاءَ مِنْ قَصِيرَى جَنْبِ آدَمَ - وَالْقَصِيرَى: هُوَ الصِّلَعُ الأصغر - فَأَبْدَلَ الله مَكَانَهُ لَحْماً»^٦.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنَّ المَرأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَجَ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُها كَسَرَتْها، وَإِنْ تَرَكْها فِيها عِوَجٌ اسْتَمْتَعَتْ بِها»^٧.

وعن ابن عباس رضي الله عنه، فِي رِوَايَةٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيتِ المَرأَةُ بِحَوَاءَ؛ لِأَنَّها خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلاعِ آدَمَ، فَكانَتْ مَخْلُوقَةً مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ، فَلَا جَزَمَ سُمِّيتِ بِحَوَاءَ^٨.

ورَوَّاهَا فِي (معاني الأخبار) أَيْضاً^٩.

فِي بَيانِ حِكْمَةِ خَلْقِ وَلَعَلَّ حِكْمَةَ جَعْلِ مَبْدَأِ خَلْقِ حَوَاءَ الصِّلَعِ الأيسر، تَأْثِيرُهُ فِي تَعْطُفِ الزَّوْجِ بِالزَّوْجَةِ^{١٠}، وَحَصُولِ الأَلْفَةِ بَيْنَهما، وَتَعَلُّقِ قَلْبِ الزَّوْجِ بِها، وَيُسْرَ دُخُولِها تَحْتَ يَدِ الزَّوْجِ وَسلطانَه، وَتُمْكِينِها مِنْ مُصَاجَعَةِ الزَّوْجِ: حَيْثُ إِنَّ الصِّلَعِ الأيسرَ جُزءٌ مُتَعَطِّفٌ

١. تفسير الرازي ٩: ١٦١.

٢. كذا، والظاهر: أَنَّهُ.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٤٦/٣٦١، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.

٤. تفسير القمي ١: ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.

٥. تفسير العياشي ١: ٨٤٤/٣٦١، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.

٦. معاني الأخبار ٤٨/١.

٧. تفسير الرازي ٩: ١٦١.

٨. كذا، والظاهر: عَلَى الزَّوْجَةِ.

واقِعَ فِي الْجَنْبِ، قَرِيبٌ مِنَ الْقَلْبِ، تَحْتَ الْبَدَنِ الْيَسْرَى الَّتِي بِهَا تَبْطِشُ بِالْأُمُورِ السَّهْلَةِ، وَيُنَامُ عَلَيْهِ غَالِبًا، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْعَامَّةِ، وَعَلَيْهِ جُلٌّ مَفْسَرِيهِمْ.

وَفِي عِدَّةِ رَوَايَاتٍ - مِنْ طُرُقِ الْخَاصَّةِ عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) - تَكْذِيبُهُ، وَتَأْوِيلُ الصَّلَعِ الْأَيْسَرِ بِالطَّيْنَةِ الَّتِي فَضَّلَتْ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَيْسَرِ.^١ وَرَدَّ عَلَيْهِ إِلَى الرَّاسَخِينَ فِي الْعِلْمِ أَوَّلَى - بَعْدَ عَدَمِ حُجِّيَّةِ أَمْثَالِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي لَا رِبْطَ لَهَا بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ - مِنْ تَكْلُفِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا بِمَا فِي حَاشِيَةِ (أَسْرَارِ التَّنْزِيلِ)^٢، وَتَبِعَهُ الْقَيْضُ فِي (الصَّافِي)^٣.

فِي تَزْوِيجِ حَوَاءَ ثُمَّ أَنَّهُ زَوِيَ عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ، وَأَمَرَ مِنَ آدَمَ

الْمَلَانِكَةَ فَسَجَدُوا لَهُ، أَلْقَى عَلَيْهِ السُّبَاتَ، ثُمَّ أَبْدَعَ لَهُ حَوَاءَ، فَجَعَلَهَا فِي مَوَاضِعِ الثَّقَرَةِ الَّتِي بَيْنَ وَرْكِهِ، لَكَيْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ تَبْعًا لِلرَّجُلِ، فَأَقْبَلَتْ تَتَحَرَّكُ فَاتَّبَعَهُ، فَلَمَّا انْتَبَهَ نُوْدِثَ أَنْ تَتَحَيَّ عَنْهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا نَظَرَ إِلَى خَلْقٍ حَسَنٍ يُشَبِّهِ صُورَتَهُ غَيْرَ أَنَّهَا أَنْثَى، فَكَلَّمَهَا فَكَلَّمَتْهُ بِلُغَتِهِ، فَقَالَ لَهَا: مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: خَلَقَ خَلْقَنِي اللَّهُ كَمَا تَرَى، فَقَالَ آدَمُ عِنْدَ ذَلِكَ: يَا رَبِّ، مَنْ هَذَا الْخَلْقُ الَّذِي أَنْسَنِي قُرْبَهُ وَالنَّظَرَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ اللَّهُ: يَا آدَمَ، هَذِهِ أَمْتِي حَوَاءُ، أَفْضَحَبَ أَنْ تَكُونَ مَعَكَ فَتُزْنِسَ وَتُحَدِّثَكَ وَتَأْتِمِرَ لِأَمْرِكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَبِّ، وَلَكَ عَلَيَّ بِذَلِكَ الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ مَا بَقِيَتْ. فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: فَاخْطُبْهَا إِلَيَّ فَإِنَّهَا أَمْتِي وَقَدْ تَصَلَّحَ لَكَ أَيْضًا زَوْجَةٌ لِلشَّهْوَةِ.

وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّهْوَةَ، وَقَدْ عَلِمَهُ قَبْلَ ذَلِكَ الْمَعْرِفَةَ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّي أَخْطُبُهَا إِلَيْكَ، فَمَا رِضَاكَ لَذَلِكَ؟ فَقَالَ: رِضَايَ أَنْ تُعَلِّمَهَا مَعَالِمَ دِينِي. فَقَالَ: ذَلِكَ لَكَ يَا رَبِّ عَلَيَّ، إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ فِيَّ^٤، فَقَالَ: قَدْ شِئْتُ ذَلِكَ، وَقَدْ زَوَّجْتُكَمَا، فَصَمَّمَا إِلَيْكَ، فَقَالَ لَهَا آدَمُ: إِنِّي فَأَقْبِلِي. فَقَالَتْ: لَا، بَلْ أَنْتَ فَأَقْبِلِ إِلَيَّ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهَا فَقَامَ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ النِّسَاءُ يَذْهَبْنَ حَتَّى يَخْطُبْنَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ»^٥.

وَفِي (الِاحْتِجَاجِ): عَنِ السَّجَادِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَحْدِثُ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ، قَالَ: «لَمَّا تَابَ اللَّهُ عَلَى آدَمَ وَاقَعَ حَوَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ غَشِيَهَا مِنْهُ خَلْقٌ وَخُلِقَتْ إِلَّا فِي الْأَرْضِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ آدَمُ يُعْظَمُ الْبَيْتَ وَمَا حَوْلَهُ مِنْ حُرْمَةِ الْبَيْتِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْشَى حَوَاءَ خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ وَأَخْرَجَهَا مَعَهُ، فَبَإِذَا

١. تفسير العياشي ١: ٨٤٩/٣٦٣، من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٣٥/٢٤٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٣.

٢. يبريد أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، والحاشية للشيخ البهائي، ذكرها المؤلف ضمن مصادر هذا التفسير.

٣. تفسير الصافي ١: ٣٨٣. ٤. في من لا يحضره الفقيه: لي.

٥. علل الشرائع: ١/١٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٣٣/٢٣٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.

جاز الحَرَمَ غَشِيَهَا في الحَلِّ، ثُمَّ يَفْتَسِلَانِ إِعْظَاماً مِنْهُ لِلحَرَمِ. الخبر^١.

فَنَسَلَا «وَيَبْتَغِ» الله ونَشَرَ في الأرض «مِنْهُمَا» بالولادة «رِجَالاً كَثِيراً» بِنِئاً «وَنِسَاءً» كثيرة بناتاً، وَإِنَّمَا لَمْ يَصِفْنَهُ بِالكَثَرَةِ لَوْضُوحِ أَنَّ الحِكْمَةَ مُقْتَضِيَةٌ لَكَوْنِهِن كَثِيرَاتٌ^٢، بَلْ أَكْثَرُ.

وَلَمَّا كَانَ التَّغَرُّعُ وَالتَّشْعُّبُ مِنْ أَرْوَمَةٍ^٣ وَاحِدَةٍ مُوجِباً لِرِعَايَةِ حُقُوقِ النَّاسِ سِيَمَا الْأَقْرَابِ، دَاعِياً لِحِفْظِهَا، نَبَّهَ عَلَيْهِ تَوَطُّعَهُ لِلنَّهْيِ عَنْ تَضْيِيعِهَا، وَإِشْعَاراً بِكَمَالِ الْإِهْتِمَامِ [بِهَا]، كَمَا يَدُلُّ جَعْلُهُ قَرِيناً لِلنَّهْيِ عَنْ تَضْيِيعِ حُقُوقِ نَفْسِهِ، الْمُسْتَفَادِ مِنْ إِعَادَةِ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى تَأْكِيداً، بِقَوْلِهِ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» فِي تَرْكِ آدَاءِ حُقُوقِهِ. وَذَكَرَ اسْمَ الْجَلَالَةِ هُنَا لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ.

في وجوب صلة الأرحام
ثُمَّ وَصَفَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِقَوْلِهِ: «الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ» فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَتَقُولُونَ عِنْدَ طَلَبِ الْحَاجَةِ مِنَ الْغَيْرِ: أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ كَمَا تُعْظَمُونَهُ بِالسِّتْكِمْ وَأَقْرَأَ الْكَمَّ عَظُمُوهُ بِطَاعَتِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ.

ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ بِحِفْظِ حُقُوقِ الْأَرْحَامِ بِقَوْلِهِ: «وَالْأَرْحَامَ» وَالتَّسْبِيحِ إِلَيْكُمْ بِالْوِلَادَةِ اتَّقَوْهُمْ مِنْ أَنْ تَقْطَعُونَهُمْ - كَمَا عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام - وَتَتَرَكُوا رِعَايَةَ حُقُوقِهِمْ.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «يَا أَيُّهَا أَرْحَامُ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِصِلَتِهَا وَعَظَمَهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ جَعَلَهَا مَعَهُ»^٥.
وَعَنِ (الْكَافِي): عَنْهُ، عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، قَالَ: «صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالتَّسْلِيمِ»، ثُمَّ تَلَاهُ هَذِهِ الْآيَةَ^٦.

وَعَنِ (الْعَيُونِ): عَنْهُ عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِثَلَاثَةِ مَقْرُونٍ [بِهَا] ثَلَاثَةٌ - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَأَمَرَ بِثَقَاءِ اللَّهِ وَصِلَةِ الرَّاحِمِ، فَمَنْ لَمْ يَصِلْ رَحِمَهُ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ»^٧.

وَعَنِ الرِّضَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عَلِيِّ عليه السلام، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ رَأَيْتُ رَحِمًا مُعَلَّقَةً بِالْعَرْشِ تَشْكُو رَحِمًا إِلَى رَبِّهَا، فَقُلْتُ: كَمْ يَبْتَكَ وَيَتَنَّى مِنْ أَبٍ؟ فَقَالَتْ: نَلْتَقِي فِي أَرْبَعِينَ أَبًا»^٨.

وَعَنِ الْقَمِّي، قَالَ: تَسَاءَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ التَّقْوَى هَلْ اتَّقَيْتُمْ، وَعَنِ الْأَرْحَامِ هَلْ وَصَلْتُمُوهَا؟^٩.

١. الاحتجاج: ٣١٤، تفسير الصافي ١: ٣٨٦.

٢. الأرومة: أصل الشجرة، والمراد أصل نسب الإنسان.

٣. مجمع البيان ٣: ٦، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.

٤. الكافي ٢: ٢٢/١٢٤، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣/٢٥٨، تفسير الصافي ١: ٣٨٨.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥/٢٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٨٨.

٧. تفسير القمي ١: ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.

٨. في النسخة: كثيرة.

٩. الكافي ٢: ١/١٢٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.

أقول: يُمكن القول بشمول الآية لرحم آل محمد ﷺ ولو بالفحوى والأزلية، وبذل عليه ما روي عن الرضا عليه السلام: «أَنْ رَحِمَ آلَ مُحَمَّدٍ: الْأَنْمَةُ عَلَيْهِمْ مُعَلَّقةٌ بِالْعَرْشِ تقول: اللَّهُمَّ صَلِّ مَنْ وَصَلَنِي، وَأَقْطَعْ مَنْ قَطَعَنِي، ثُمَّ هِيَ جاريةٌ بعدها في أرحام المؤمنين»، ثم تلا هذه الآية^١.

ثم وعد [تعالى] الثواب على رعاية الحقوق، وأوعد على تضييعها، بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» وحفيظًا، مراقب لأعمالكم وأقوالكم، ومطلع على ضمائركم وسرائركم، فيجازيكم بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

عن النبي ﷺ: «ما من شيء أطيع الله به أعجل ثواباً من صلة الرّحِم»^٢.
وعنه عليه السلام: «أَنَّ الصَّدَقَةَ وَصِلَةَ الرَّحِمِ يَزِيدُ اللَّهُ بِهِمَا فِي الْعُمُرِ، وَيُدْفَعُ بِهِمَا مِيتَةَ السُّوءِ، وَيُدْفَعُ اللَّهُ بِهِمَا الْمَحْذُورَ وَالْمَكْرُوهَ»^٣.

وَأَتُوا أَلْيَتَايَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا [٢]

ثم لما كان المقصود الأهم في السورة المباركة - كما ذكرنا في وجه النظم - بيان أحكام حقوق الناس من الأرحام والصّغفاء والمؤمنين، ولذا بدأ سبحانه فيها بذكر بدء خلقه البشر، وكَوْن جميعهم من أصل واحد براءة للاستيهلال، وحثًا على الامتثال، بدأ عند ذكر الأحكام بإيجاب رعاية حقوق أضعف الناس وأحوجهم إلى الرعاية؛ وهُم الصغار الذين مات آباؤهم، لإظهار كمال العناية بأمرهم وملاستهم بالأرحام، بقوله: «وَأَتُوا أَلْيَتَايَ» أي الكافلون لهم القيمين بأمرهم، بعد بلوغهم ورشدهم «أَمْوَالَهُمْ» وأملاكهم التي تكون عندكم، بلا نقص وبخس.

وقيل: إن المراد: اقطعوا الطمّع عن أموالهم، وكفّوا عن التّعدي والتفريط فيها.
«وَلَا تَتَّبِعُوا» ما لهم «الْخَبِيثَ» والمحرّم عليكم «بِالطَّيِّبِ» والحلال من أموالكم، بل أعطوهم أعيان أموالهم.

وقيل: هو التّهي عن أخذ الرّفع من أموالهم، وجعل الخسيس مكانه.
وقيل: إن المراد: لا ترتزقوا بأموالهم المحرّمة، فيقطع عنكم الرّزق الحلال الذي قدّر لكم.
«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ» ولا تصرفوا فيها منضمّة «إِلَى أَمْوَالِكُمْ» بأن تخلطوهما، فإن حرمة الحرام لا تزول بخلطه بالحلال.

ثم أنه تعالى عَلَّلَ رَدَّعَهُ عَنْ صَرْفِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْإِنْفَاعِ بِهَا بِجَمِيعِ الرُّجُوهِ، بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾
عِنْدَ اللَّهِ ﴿حُبًى كَبِيرًا﴾، وإثماً عظيماً، فَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً.

رُوي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ غُطَفَانَ، كَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لِابْنِ أَخٍ لَهُ يَتِيمٌ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَالُ طَلَبَ الْمَالِ فَمَنَعَهُ
عُمُهُ، فَرَجَعَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ، فَلَمَّا سَمِعَهَا الْعَمَّ قَالَ: أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ، نَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنَ الْحُوبِ الْكَبِيرِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ مَالَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَنْ يُوَقُّ شُحَّ نَفْسِهِ، وَيُطْعِمَ رِيَهُ هَكَذَا، فَإِنَّهُ
يَحُلُّ دَارَهُ، أَيْ جَنَّتَهُ» فَلَمَّا قَبِضَ الصَّبِيُّ مَالَهُ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: «ثَبِتَ أَجْرُ الْغُلَامِ»، وَبَقِيَ
الْوِزْرُ عَلَى وَالِدِهِ^٢.

أقول: فِي نَهْيِهِ تَعَالَى عَنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ مُخْتَلِطاً بِمَالِ نَفْسِهِ، بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ مُطْلَقِ التَّصَرُّفِ وَالتَّبْدِيلِ
فِيهِ، إِشْعَاراً بِأَنَّ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ لَدَى الْيَسَارِ أَقْبَحُ وَأَشْنَعُ، وَأَمَّا النَّهْيُ عَنِ التَّبْدِيلِ - بِنَاءً عَلَى التَّفْسِيرِ
الْأَوَّلِ - فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ الْغَبْطَةُ لِلْيَتِيمِ.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَشْنَى
وَتِلْكَ وَرَبَّاعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَى
أَلَّا تَعُولُوا [٣]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ تَوَلَّى أَمْرَ الْيَتِيمِ وَحَفِظَ مَالَهُ فِي الْأَغْلَبِ لَازِماً لِكِفَالَتِهِ وَعِشْرَتِهِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ لِلصَّغِيرِ
غَالِباً أَقْتِرَاحَاتٍ عَلَى مَنْ هُوَ فِي جِغْرِهِ وَتَرْبِيَتِهِ، وَكَثِيراً مَا لَا يَجُوزُ أَوْ لَا يُمَكِّنُ مُوَافَقَتَهُ فِي مُرَادَاتِهِ
وَمَسْؤُولَاتِهِ، وَلَا يَهْتَدِي الرُّجَالُ إِلَى الْجَيْلِ فِي صَرْفِهِ عَنْهَا وَتَرْصِيَةِ خَاطِرِهِ، سَيِّمًا إِذَا كَانَ لَجُوجاً،
سَيِّئاً الْخُلُقِ، فَحَيْثُزِدَ قَدْ لَا يَحِلُّمُ الزَّوْجِيَّ أَوْ الْقَيْمَ فَيَبْتَلِي بِصَرْبِهِ وَشَتْمِهِ وَالتَّعَدِّيِّ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ مِنْ حَقِّهِ
الْإِيْتَامُ الْمُدَارَاةَ مَعَهُمْ، فَعَلِمَ اللَّهُ كَافِلِهِمْ بِطَرِيقِ الْأَمْنِ مِنْ إِيْذَانِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾
بِسَبَبِ قِلَّةِ الْجَلْمِ، وَضِيقِ الصَّدْرِ ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، وَلَا تَعْدِلُوا ﴿فِي﴾ شَأْنِ ﴿الْيَتَامَى﴾ الَّذِينَ تَكُونُ
أُمُورُهُمْ، وَتَتَكَلَّفُونَ تَرْبِيَتَهُمْ ﴿فَانكِسُوا﴾ وَتَزُوجُوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ وَمَنْ يُوَافِقْ مِثْلَ قُلُوبِكُمْ ﴿مِنْ﴾
النِّسَاءِ، فَإِنْ شَأْنُهُنَّ حَضَانَةُ الْأَطْفَالِ، وَالرَّفَقُ بِهِمْ، وَالْمُدَاوَاةُ مَعَهُمْ^٣، وَالتَّذْيِيرُ فِي رِضَايَتِهِمْ، وَإِعْمَالُ
الْجَيْلِ فِي صَرْفِهِمْ عَنْ أَقْتِرَاحَاتِهِمْ، وَإِسْكَاتِهِمْ عَنِ الْبُكَاءِ بِأَفْعَالٍ مُضْحِكَةٍ، وَأَصْوَابٍ هَانِلَةٍ، وَتَغْمَاتٍ
مُثْلِيَةٍ، وَكَلِمَاتٍ لِأَغْيَةٍ.

١. فِي تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ: «ثَبِتَ الْأَجْرُ وَبَقِيَ الْوِزْرُ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّهُ ثَبِتَ الْأَجْرُ، فَكَيْفَ بَقِيَ الْوِزْرُ وَهُوَ
يَنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: ثَبِتَ أَجْرُ الْغُلَامِ...
٢. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٩: ١٦٩.
٣. كَذَا، وَالظَّاهِرُ: مُدَارَاتُهُمْ.

ومن الواضح أن التَّصَبُّيَّ وازْتِكَابَ أمثال ذلك، في غاية الصُّعوبة على الرِّجال لأَكْمَلِيَّة عُقُولِهِمْ، وفي كمال السُّهولة على النِّساء لَصَغَف عُقُولِهِنَّ، ولِذَا عَبَّرَ سُبْحَانَهُ عَنْهُنَّ فِي الْآيَةِ بِكَلِمَةِ (مَا) الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ ذَوِي الْعُقُولِ، تَنْزِيلًا لَهُنَّ مَنَزِلَتَهُ^١.

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ بِالنِّكَاحِ بَيْنَ الْعَدَدِ الَّذِي يُجُوزُ تَزَوُّجُهُ مِنَ الْحَرَائِرِ بِالْعَدِّ الدَّائِمِ، وَلَا يُجُوزُ التَّجَاوُزُ عَنْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿مِثْنَيْنِ وَثَلَاثَ وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ﴾ فَأَذِنَ سُبْحَانَهُ لِلنَّاسِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ النِّسَاءِ فِي التَّزْوِجِ اثْنَيْنِ، وَثَلَاثَ وَثَلَاثَ، وَأَرْبَعَ أَرْبَعَ.

فَيَكُونُ الْحَاصِلُ جَوَازَ اخْتِيَارِ أَيِّ عَدَدٍ شَاءَ مِنَ الْأَعْدَادِ، مُتَّفَقِينَ أَوْ مُخْتَلِفِينَ، بِأَنْ اخْتَارَ وَاحِدَ اثْنَيْنِ، وَوَاحِدَ ثَلَاثَ، وَوَاحِدَ أَرْبَعَ. وَلَوْ كَانَ (أَوْ) بَدَلَ (الْوَاوِ) لَمْ يَجُزِ الْاِخْتِلَافُ.

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى أَنَّهُ كَمَا يَجِبُ الْعَدْلُ فِي حَقِّ الْإِيثَامِ، يَجِبُ الْعَدْلُ فِي حَقِّ الْأَزْوَاجِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فِي صُورَةِ اخْتِيَارِ الْمُتَعَدِّدِ ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بَيْنَهُنَّ، وَلَا تَقْمُوا بِحُقُوقِهِنَّ - وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «يَعْنِي: فِي الثَّقَةِ»^٢. - فَوَاحِدَةً^٣ مِنَ النِّسَاءِ اخْتَارُوا لِلتَّزْوِجِ، وَاخْتَفَوْا بِهَا، وَاتَّزَكُوا الْجَمْعَ ﴿أَوْ﴾ اخْتَارُوا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ، وَإِنْ تَعَدَّدْنَ وَبَلَغْنَ أَرْبَعِينَ وَأَزِيدَ، لَعَدَمَ كَوْنِ حُقُوقِهِنَّ عَلَى مَوَالِيَهُنَّ كَحُقُوقِ الْحَرَائِرِ عَلَى الْأَزْوَاجِ، مِنَ التَّسْوِيَةِ وَالْقَسَمِ^٤ وَغَيْرِهِمَا، فَلَا تَبْتَلُونَ بَرَكَةَ الْعَدْلِ.

﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْاِكْتِفَاءِ بِالمَهْرَةِ^٥ الْوَاحِدَةِ أَوْ بِالمَمْلُوكَةِ، وَإِنْ كُنَّ مُتَعَدَّدَاتٍ ﴿أَذْنَى﴾ وَأَقْرَبَ طَرِيقٍ إِلَى ﴿أَلَّا تَقُولُوا﴾ وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ، أَوْ لَا تَمُوتُوا؛ لِأَنَّ رُجُوبَ الْقَسَمِ وَالمُجَامَعَةَ وَغَيْرَهُمَا مُخْتَصَّ بِالنِّكَاحِ الدَّائِمِ دُونَ الْمُلْكِ وَالتَّمَتُّعِ. عَنِ الْقَمِّيِّ: أَيُّ لَا يَتَزَوَّجُ مَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُعُولَ^٥.

ثُمَّ اعْلَمْنَا أَنَّ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ وَجْهِ النِّظْمِ، هُوَ الَّذِي سَنَحُّ بِخَاطِرِي وَقَوِي فِي نَظْرِي. وَمِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ رِوَايَاتٍ فِي شَأْنِ تَزْوِيلِهَا، وَوَجْهَ نَظْمِهَا:

أَحَدَاهَا: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ عُرُو: قُلْتُ لَهَا: مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْأَيْمَانِ﴾

١. أي منزلة غير العاقل، وقد ذُكِرَ فِي (مَا) هُنَا وَجْهٌ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا الْجِنْسَ، كَمَا تَقُولُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَيُقَالُ: رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ، وَثَانِيهَا: أَنَّ (مَا) وَمَا بَعْدَهَا فِي تَقْدِيرِ الْمَصْدَرِ، أَيُّ فَانْكَحُوا الطَّيِّبَ مِنَ النِّسَاءِ، وَثَالِثُهَا: أَنَّ (مَا) وَ(مِنْ) رُبَّمَا يَتَعَايَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وَقَالَ: ﴿فَمَنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾. رَاجِعْ: تَفْسِيرَ الرَّازِيِّ ٩: ١٧٢.

٢. الكافي ٥: ٣٦٣، ١/ تفسير الصافي ١: ٣٨٩.

٤. المهرية: الحرة الغالية المهر.

٣. القسم: نصيب الزوجة من المبيت.

٥. تفسير القمي ١: ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.

فَقَالَتْ: يَا بَنَ أَخْتِي، هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرٍ وَلَيْهَا فِيرَغَبُ فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا، إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْكِحَهَا بِأَدْنَى مِنْ صَدَاقِهَا، ثُمَّ إِذَا تَزَوَّجَ بِهَا عَامِلُهَا مُعَامِلَةٌ رَدِيئَةٌ، لَعَلَّمَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا مَنْ يَذُبُّ عَنْهَا وَيُدْفَعُ شَرَّ ذَلِكَ الزَّوْجِ عَنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْيَتَامَى عِنْدَ نِكَاحِهِمْ فَانْكِحُوا﴾ مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^١.

وَأُخْرَى: عَنْ عِكْرَمَةَ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ عِنْدَهُ النِّسْوَةُ وَيَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتَامَى، فَإِذَا أَنْفَقَ مَالَ نَفْسِهِ عَلَى النِّسْوَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَالٌ وَصَارَ مُحْتَاجًا، أَخَذَ فِي إِنْفَاقِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى عَلَيْهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي لَكُمْ﴾ عِنْدَ كَثْرَةِ الزَّوْجَاتِ، فَقَدْ حَظَرَتْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ، كَيْ يَزُولَ هَذَا الْخَوْفُ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فِي الْأَرْبَعِ أَيْضًا ﴿فَوَاحِدَةً﴾، فَذَكَرَ الطَّرْفَ الزَّائِدَ وَهُوَ الْأَرْبَعُ، وَالنَّاقِصَ وَهُوَ الْوَاحِدَةُ، وَنَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى مَا بَيْنَهُمَا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: فَإِنْ خِفْتُمْ مِنَ الْأَرْبَعِ فَثَلَاثٌ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَاثْنَتَانِ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَوَاحِدَةٌ^٢.

وَالثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْيَتَامَى، وَمَا فِي أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ مِنَ الْحُبِّ الْكَبِيرِ، خَافَ الْأَوْلِيَاءُ أَنْ يُلْحِقَهُمُ الْحُبُّ بِتَرْكِ الْإِقْسَاطِ فِي حُقُوقِ الْيَتَامَى، فَتَحَرَّجُوا مِنْ وَلَايَتِهِمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ رُبَّمَا كَانَ تَحْتَهُ الْعَشْرُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَأَكْثَرُ، فَلَا يَقُومُ بِحُقُوقِهِمْ وَلَا يَعْدِلُ بَيْنَهُمْ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ خِفْتُمْ تَرْكَ الْعَدْلِ فِي حُقُوقِ الْيَتَامَى فَتَحَرَّجْتُمْ مِنْهَا، فَكُونُوا خَافِئِينَ مِنْ تَرْكِ الْعَدْلِ بَيْنَ النِّسَاءِ فَقَلَّلُوا عَدَدَ الْمَنْكُوحَاتِ، لِأَنَّ مَنْ تَحَرَّجَ مِنْ ذَنْبٍ وَتَابَ عَنْهُ وَهُوَ مُرْتَكِبٌ لِمِثْلِهِ، فَكَأَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَرِّجٍ^٣.

وقيل: إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ وَلَايَةِ الْيَتَامَى، فَقِيلَ: إِنْ خِفْتُمْ فِي حَقِّ الْيَتَامَى، فَكُونُوا خَافِئِينَ مِنَ الزَّانَا، فَانْكِحُوا مَا حَلَّ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا تَخُومُوا حَوْلَ الْمَحْرَمَاتِ^٤.

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِخْلَةً فَإِنْ طِئِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا

مَرِيئًا [٤]

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ شَبَحَانَهُ وَجُوبَ إعْطَاءِ مَهْرِ النِّسَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتُوا﴾ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ ﴿النِّسَاءَ﴾ اللَّاتِي تَزَوَّجْتُمُوهُنَّ ﴿صَدَقَاتِهِنَّ﴾ وَمَهْرَهُنَّ الَّتِي اسْتَحْلَلْتُمْ بِهَا فُرُوجَهُنَّ، لَكُونُهَا ﴿نِخْلَةً﴾ وَفَرِيضَةً فَرَضَهَا اللَّهُ فِي دِينِهِ، أَوْ عَطِيَّةً مِنَ اللَّهِ لَهُنَّ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِإِعْطَاءِ الزَّوْجِ الْمَهْرَ، مَعَ أَنَّهُ وَالْمَرْأَةُ مُشْتَرِكَانِ فِي مَنَافِعِ النِّكَاحِ، مِنْ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ وَالتَّوَالُدِّ.

وقيل: إنها عطية من الأزواج لهنّ مَجَاناً بلا عوض؛ لأنهم لا يملكون البضع، وإنما يباح لهم الانتفاع عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أحقّ الشرط أن يوفى به^١، ما اشتحلتم به الفروج»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «من تزوج امرأة ولم ينو أن يوفىها صداقها، فهو عند الله زان»^٣.
عن الباقر عليه السلام: «أن الخطاب فيه للأولياء؛ لأن الرجل منهم كان إذا زوج أئمة أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك»^٤. وعليه جمع من مفسري العامة.

وقيل: إن العرب كانت في الجاهلية لا تعطي النساء شيئاً، ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئاً لك النافجة، ومعناه: إنك تأخذ مهرها إبلاً فتضّمها إلى إبلك، فتفجع مالك، أي تعظمه^٥.

ثم رخص سبحانه في أخذه منهن بشرط الرضا والطيب، بقوله: «فإن طبنّ لكم» أيها الأزواج، أو الأولياء «عن شئ» قليل أو كثير «منه نفساً» ورضين بأكلكم منه، وتصرفكم فيه، وتملككم له؛ قلباً من غير أن يكون عطاؤه فداءً عن أنفسهن، لئلا أخلاقكم ورداءة صحتكم «فكلوه» أكلاً «هنيئاً» سائناً لذياً «مريئاً» بلا غصة ولا داء، وتصرفوا فيه كتصرفكم في أموالكم، بلا تبعة عليكم في الدنيا ولا في الآخرة. وفيه غاية التبالغة في التحليل وعدم التبعة.

زوي أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساقه إليها، فنزلت^٦.
فالأية دالة على تملك المرأة مهرها بالعقد وجواز مطالبتها، وعدم جواز تصرف غيرها فيه، إلا بطيب نفسها، ولها التصرف فيه بالتملك وأنواع الانتفاعات قبل الدخول وبعده.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا [٥]

ثم أنه تعالى - بعد بيان وجوب رعاية حقوق الضعيفين؛ اليتيم والزوجة التي هي كالأسيرة - بين وجوب رعاية حق ثالث الضعفاء وهو السفه، بقوله: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ» والأشخاص الذين لا رشد لهم في إصلاح مالهم، ولا يميزون لضعف عقولهم بين الخير والشر، والنفع والضرر، أموالهم

١. في من لا يحضره الفقيه: إن أحقّ الشروط أن يوفى بها...

٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٥٢/١٢٠١، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.

٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٥٢/١٢٠٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.

٤. الأئمة: المرأة غير المتزوجة بكر أو ثيباً، جمعها أيامى.

٥. مجمع البيان ٣: ١٢، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

٦. الكشف ١: ٤٧٠، تفسير الرازي ٩: ١٧٩، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٣، تفسير روح البيان ٢: ١٦٣.

٧. تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

التي يجب أن تغدوها ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ في كمال الرعاية، وشدة العناية والاهتمام بالحفظ؛ لأنها ﴿أَلْتِي جَعَلَ اللَّهُ إِيَّاهَا لَكُمْ﴾ بحكمته ﴿قِيَاماً﴾ تقومون بها، وقواماً تقومون بمنافعها، ومعاشاً تتعيشون بالارتزاق منها، فلا تفسدوها بتسليطهم عليها، بل اقطعوا أيديهم عنها، واتجروا بها واشتريوها منها ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ﴾ من الرزق الذي يكون ﴿فِيهَا﴾ بالتجارة ﴿وَأَكْسُوهُمْ﴾ به.

والحاصل أن على الأولياء أن يجعلوا أموال السفهاء محل ارتزاقهم، وأرباحها مدار نفقاتهم؛ حتى يعيشوا في ظل ولايتهم ورافتهم برحمة وسعة، مع بقاء أصل مالهم مدى أعمارهم.

وقيل في وجه النظم: إنه لما أمر الله سبحانه برّد أموال اليتامى ومهور الزوجات، ذكر في الآية أن وجوب الرّد والإيتاء يكون حال كونهم رشدين، وأما إذا كانوا سفهاء فلا تؤثرهم.

عن العياشي: عن الصادق (عليه السلام): «هم اليتامى، لا تعطوهم حتى تعرفوا منهم الرشد»، قيل: فكيف تكون أموالهم أموالنا؟ فقال: «إذا كنت أنت الوارث لهم»^١.

وعن (الفقيه): عن الباقر (عليه السلام)، أنه سئل عن هذه الآية فقال: «لا تؤثرها شراب الخمر، ولا النساء» ثم قال: «وأي سفيه أسفه من شارب الخمر»^٢.

وفي رواية: «كُلٌّ مَن يَشْرَبُ الْخَمْرَ فَهُوَ سَفِيه»^٣.

وعن الباقر (عليه السلام)، في هذه الآية، قال: «السفهاء: النساء والولد، إذا علم الرجل أن امرأته سفيهة مفسدة، وولده سفيه مفسد، لا ينبغي له أن يسلط أحداً منهما على ماله الذي جعل الله [له] قياماً، يقول: معاشاً»^٤.

وقيل: إن في الآية نهياً لكل أحد أن يعتمد إلى ما حوله الله من المال فيعطي امرأته وأولاده، ثم ينظر إلى أيديهم، وإنما سمّاهم الله سفهاء استخفافاً بعقلهم، واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم.

أقول: لا يبعد حمل الآية على النهي من تسليط السفهاء على الأموال مطلقاً، سواء كانت لهم أو لغيرهم من الأولياء، وبه يجمع بين الروايات، والله العالم.

ثم أمر سبحانه بالتلطّف بهم وترضيّتهم وتطبيب قلوبهم بقوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ إذا اقترحوا عليكم أمراً، وسألوا منكم ما لا يجوز أو لا يمكن إجابتهم فيه ﴿قُولاً﴾ وجواباً ﴿مَعْرُوفاً﴾ ومستحسناً عند الشرع والعقل من عِدّة جميلة، وكلامٍ لئِن طيّب لا يكون فيه كذب ولا إيذاء، بل تطيب به نفوسهم.

١. تفسير العياشي ١: ٣٦٨/٨٦٥، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٨٦/١٦٨، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

٣. تفسير العياشي ١: ٣٦٨/٨٦٤، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

٤. تفسير القمي ١: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

عن الباقر عليه السلام: «المعروف العدة»^١.

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: هو مثل أن يقول: إذا ربحت في سفرتي هذه فعلت بك ما أنت أهله، وإن غيمت في غزاتي أعطيتك^٢.

قيل: إن الله أمر بذلك: لأن القول الجميل يؤثر في القلب، فيزيل السَّغَه، وأما خلاف القول المعروف فإنه يزيد السَّغَه سَفْهاً ونقصاً^٣.

وقيل: إن المراد: علموه - مع إطعامكم وكسوتكم - أمر دينهم مما يتعلق بالعلم والعمل^٤.

وَأَتَّبِعُوا أَلْيَتَايَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِفْ وَمَنْ
كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى
بِاللَّهِ حَسِيبًا [٦]

ثم - لما أمر الله سبحانه بإعطاء أموال اليتامى، ونهى عنه إذا كانوا سفهاء - أمر الأولياء باختيار عقلهم ورشدهم قبل البلوغ، بقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَلْيَتَايَ﴾ أيها الأولياء، واختبروا رشدهم إذا لم يكن بينا لكم قبل بلوغهم بتتبع أحوالهم في أمور الدين والمعاملات، والاهتداء إلى حفظ المال عن الضرر، وحسن التصرف فيه، والتحرز عن الإسراف والتبذير، وأديموا تجربتكم ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا﴾ واستأهلوا ﴿النِّكَاحَ﴾ وصلحوا للزواج بالاختلام أو اشتكمال خمس عشرة سنة إن كانوا ذكراً، ورؤية الحيض أو اشتكمال تسع سنين إن كن إناثاً ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾ وأحرزتم بالاختيار والتجارب ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ وصلاًحاً بتسليطهم على المال، واهتداء إلى وجوه التصرفات العقلانية فيه، واخترازاً عن السرف والتبذير ﴿فَادْفَعُوا﴾ وسلموا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بلا تأخير ومطل ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ التي تكون بأيديكم كلها.

في بيان المراد عن الصادق عليه السلام: «إيناس الرشد: حفظ المال»^٥.

من الرشد وعن الباقر عليه السلام: «الرشد: العقل، وإصلاح المال»^٦.

عن القمي رضي الله عنه في هذه الآية قال: «مَنْ كان في يده مَالٌ بعض اليتامى، فلا يجوز أن يعطيه حتى يبلغ النكاح ويحتلم، فإذا اختلم وجب عليه الحدود وإقامة الفرائض، ولا يكون

١. تفسير القمي ١: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٩١. ٢. تفسير الرازي ٩: ١٨٦.

٤. تفسير الرازي ٩: ١٨٦.

٥. من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٧٥/١٦٤، تفسير الصافي ١: ٣٩١.

٦. مجمع البيان ٣: ١٦، تفسير الصافي ١: ٣٩١.

مُضِيعاً، ولا شاربَ خَمَرٍ، ولا زانياً.

إلى أن قال: «وإن كانوا لا يعلمون أنه قد بلغ فإنه يمتحن بربح إبطه، أو تبث عاتيه، فإذا كان ذلك فقد بلغ، فيُدفع إليه ماله إذا كان رَشِيداً، ولا يجوز له أن يحبس عنه ماله، ويعتل عليه أنه لم يكبر بعد»^١.

ثم أكد سبحانه النهي عن أكل أموالهم بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا﴾ حال كون أكلكم منها ﴿إِسْرَافاً﴾ وزيادة على استحقاقكم منها ﴿وَيَذَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾ واشتقاقاً بلوغهم.

أو المراد: لا تأكلوها لإسراف ومبادرة كبرهم بأن تُغرطوا في أموالهم وتقولوا: تُنفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى ويتزعوها من أيدينا، كذا قيل^٢.

في بيان جواز أكل الولي من مال اليتيم وفيه إشعار بجواز الأكل - إذا لم يكن إسرافاً وِذَاراً، بل كان بمقدار الحاجة، مع رعاية الغبطة - وإجمالاً لما فصله بعد، بقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿غَنِيّاً﴾ اليتيم

ذا ثروة كافية لمعاشه ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وليتزنه عن الأكل من مال اليتيم، وليقنع بما آتاه الله إشفاقاً عليه، وإبقاءً لما له ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ منهم ﴿فَقِيراً﴾ ومحتاجاً في معاشه إلى الأكل من مال اليتيم، لاشغاله بإصلاح ماله، وعدم فراغه له لكسب معيشة نفسه وعياله وتحصيل مؤنتهم ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ ذلك الفقير من مال اليتيم، وليصرف منه في حوائجه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وبقدر حاجته وكيفاته من غير إسراف، أو بمقدار أجره وعمله وسعيه.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «مَنْ كَانَ يَلِي شَيْئاً لِلْيَتَامَى، وَهُوَ مُحْتَاج لَيْسَ لَهُ مَا يَقِيْمُهُ، وَهُوَ يَتَقَاضَى أَمْوَالَهُمْ وَيَقُومُ فِي ضَيْعَتِهِمْ، فَلْيَأْكُلْ بِقَدَرٍ وَلَا يُسْرِفْ، فَإِنْ كَانَتْ ضَيْعَتُهُمْ لَا تَشْغَلُهُ عَمَّا يَعَالَجُ لِنَفْسِهِ فَلَا يِرْزَأَنَّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئاً»^٣.

أقول: الظاهر أن المراد من (قدر): قَدَرُ الحاجة والضرورة العرفية، ومن قوله (لا يرزأ) لا يتقصّر. وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «هَذَا رَجُلٌ يَحْبِسُ نَفْسَهُ لِلْيَتِيمِ عَلَى حَزْثٍ أَوْ مَاشِيَةٍ، وَيَشْغَلُ فِيهَا نَفْسَهُ، فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ فِي الدَّنَانِيرِ وَالْدَرَاهِمِ الَّتِي عِنْدَهُ مَوْضُوعَةٌ»^٤.

وعنه عليه السلام: «ذَلِكَ رَجُلٌ يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَنِ الْمَعِيشَةِ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا كَانَ يُصْلِحُ لَهُمْ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنْ كَانَ الْمَالُ قَلِيلاً فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئاً»^٥.

١. تفسير القمي ١: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٩١. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٤٦.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٧٢/٣٧٠، الكافي ٥: ١/١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٩١.

٤. تفسير العياشي ١: ٨٧٣/٣٧٠، تفسير الصافي ١: ٣٩٢.

٥. تفسير العياشي ١: ٨٧١/٣٦٩، الكافي ٥: ٥/١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٩٢.

أقول: الظاهر أن المنع من المال القليل في الرواية، ومن الذنابير والذراهم في السابقة، لعدم الرحمة في حفظها، وعدم مزاحمته لاشتغاله بكسبه، وعليه لو أتجر بالتقدين، أو بالمال القليل، وكان الاتجار بهم شاغلاً له عن التكسب لنفسه، فلا بأس بالأكل منها.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «المعروف هو القوت، وإنما عنى الوصي والقيّم في أموالهم وما يتصلحهم»^١.

عن الباقر عليه السلام: «من كان فقيراً فليأخذ من مال اليتيم قدر الحاجة والكفاية، على جهة القرض، ثم يردّ عليه ما أخذ إذا وجد»^٢.

أقول: على تقدير كون المراد هو الولي أو القيّم الفقير دون غيرهما، لا بدّ من حملّه على الذنب، كما أنّه يمكن حمل النهي عن أكل الولي الغني على الكراهة، لإشعار مائة الاستيعاف، ومعنى التنزه بها، وأدلة اختيار عمل المسلم، ونفي الضرر. وعليه يجوز للغني الأكل بمقدار أجرة عملة، والأحوط التجنب.

ثم أمر الله تعالى الأولياء - لطفاً بهم، وحفظاً لهم عن التهمة، وسداً لباب الخصومة - بالإشهاد على دفع أموال اليتامى إليهم، بقوله: «فَإِذَا دَفَعْتُمْ» وسلمتم «إِلَيْهِمْ» بعد البلوغ والرشد «أَمْوَالَهُمْ» جميعاً بلا نقص وتقریط «فَأَشْهَدُوا» شاهدين عدلين «عَلَيْهِمْ» بأنكم سلمتم إليهم جميع ما كان لهم عندهم، وأنهم تسلموه وبرئت ذممكم عنه، حتّى لا ترموا بالخيانة، ولا تثبتوا بالخصومة.

أقول: الظاهر أن الأمر بالإشهاد للإرشاد، لا الإيجاب المولوي. قيل: بدلالته على عدم قبول دعوى الردّ من الولي والقيّم إلا بالبيّنة، وفيه تأمل.

ثم نبّه سبحانه على أن الإشهاد طريق التخلص من خصومة الخلق لا الخالق، بقوله: «وَكَفَى» لليتيم «بِاللّهِ حَسِيباً» فيحاسبكم في محضر عدله، ويخاصمكم على ما صدر منكم من الخيانة، ويؤاخذكم بالتغير والقطير، ويعاقبكم على ما دقّ وخفي من التقریط والخيانة في أموال الناس وحقوقهم، فلا تقصروا في حفظ أموال الأيتام وغيرهم، ولا تخونوا في أمانة الله، ولا تجاوزوا ما حدّ لكم في دينه وشريعته.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً [٧]

ثم لما بين الله سبحانه حقوق اليتامى والزوجات والسفهاء، شرع في بيان حقوق الأولاد والأقارب، قيل: إن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء والأطفال، وكانوا يقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرمح، وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة^١، فأبطل الله تعالى هذا الحكم، وشرك النساء مع الرجال في الإرث بقوله: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ من الأولاد والأقارب ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظاً ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوارثون من الأموال والحقوق المالية ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ منهم أيضاً ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظاً معلوم ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ وخلف ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

وفي ذكر حكم إرث النساء استيقلاً بعد ذكر حكم الرجال، إيذاناً بكمال العناية بشأتهن، ومبالغة في إبطال حكم الجاهلية.

ثم أكد سبحانه تعميم نصيبهن في جميع التركة بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ ودق أو جل. قيل: فيه إبطال لحكم بعض العرب من عدم توريث النساء من آلات الكسب والحرب، وتخصيصهما بالرجال.

ثم بالغ سبحانه في تأكيد ثبوت النصيب لكل من الفريقين بقوله: ﴿نَصِيباً﴾ وقسماً ﴿مَفْرُوضاً﴾، وثانياً واجباً من الله لهم، لا يسقط بإسقاطهم، ولا بوصية الميت بعدم إعطائهم.

نسي بيان شأن عن ابن عباس عليه السلام، في شأن نزول الآية: أن أوس بن ثابت الأنصاري ثوفي عن نزول الآية ثلاث بنات وزوجة يقال لها أم كحة، فجاء رجلان من بني عمه، وهما صبيان له،

يقال لهما شويد وعرفجة - وفي رواية: اسمهما قتادة وعرفطة - وأخذاهما، فجاءت أم كحة زوجة أوس إلى رسول الله ﷺ، وذكرت القصة، وذكرت أن الوصيين ما دفعا^٢ إلى بناته شيئاً من المال، فقال النبي ﷺ: «أزجعي إلى بيتك حتى انظر ما يحدث الله في أمرك».

فنزلت الآية، ودلت على أن للرجال نصيباً، وللنساء نصيب، ولكنه تعالى لم يبين المقدار في هذه الآية، فأرسل الرسول ﷺ إلى الوصيين وقال: «لا تقربا من مال أوس شيئاً». ثم نزل بعد ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^٣ وفرض الزوج، وفرض المرأة، فأمر رسول الله ﷺ الوصيين أن يدفعا إلى المرأة الثمن ويُمسكا نصيب البنات، وبعد ذلك أرسل إليهما «أن ادفعاً نصيب بناتها إليها» فدفعاهما إليها^٤.

قيل: لما كانت عادة العرب عدم توريث النساء، وكان تقلهم عن تلك العادة دفعة إلى التورث بالسهم المفروضة ثقيلاً على طباعهم، عظيماً في قلوبهم، ذكر سبحانه أولاً في هذه الآية نصيبهن

١. تفسير الرازي ٩: ١٩٤، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٦. ٢. زاد في تفسير الرازي: إليّ شيئاً، وما دفعا. ٣. النساء: ١١/٤. ٤. تفسير الرازي ٩: ١٩٤، تفسير البيضاوي ١: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٧.

بنحو الإجمال، وفي الآية الآتية بنحو التفصيل، ليسهل عليهم القبول بهذا التدرج^١.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا [٨]

ثم أنه تعالى بعد حكمه بحرمان بني الأعمام من مال الميت إراثاً، مع وجود البنت الوارث، بتطبيب قلوب غير الوارث من الأقارب بالإحسان إليهم، وحسن العشرة معهم، بقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ لِلرَّكَّةِ، وشهد إفراز الأنصبة﴾ «أُولُوا الْقُرْبَىٰ» وذوو الأرحام الذين لا يرثون من الميت «وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ» من الأجانب والأبعدين «فَارْزُقُوهُمْ» مما رزقكم من المال المقسوم، وأعطوهم شيئاً «مِنْهُ» تطيب به قلوبهم، للأرحام صلة ولغيرهم صدقة «وَقُولُوا لَهُمْ» مع الإعطاء وبعده «قَوْلًا مَعْرُوفًا» وكلاماً حسناً من الاعتذار إليهم من قلة العطاء ببيان لطيف، والدعاء لهم، وإظهار الاثنان من قبولهم القليل، ونحو ذلك.

وقد مر في الطرفة العشرين قول بأنها منسوخة بآية الإراث بالنسب، وروايات دالة عليه، وذكرنا أنها لو صحت، محمولة على نسخ الوجوب دون الاستحباب، فيستحب للورثة - حين قسمتهم للتركة - الرضخ^٢ لمن لا سهم له من الأقارب والأيتام والمساكين.

وقيل: إن ذلك مختص بالعين، وأما الأرضون والرقيق فلا يستحب الإعطاء، بل عليهم الاعتذار، والقول بالمعروف^٣.

وقيل: إن القول بالمعروف والاعتذار إليهم فيما لو كان في الورثة صغير، فلا يجوز إعطاؤهم من سهمه، بل يعتذر إليهم وليه بأن يقول لهم: لو كان لي لأعطيتكم^٤.

قيل: إن الخطاب في الآية للمريض - إذا حضرته أمارات الموت، وأراد قسمة أمواله، والإيصال بها - أن يفعل ذلك^٥. والأول أشهر بين المفسرين.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا [٩]

ثم لما كان ضعف الأيتام إلى الغاية، أظهر الله بهم كمال العناية بعد الأمر بإرزاقهم عند القسمة،

٢. في النسخة: الوضخ، والرضخ: الشيء اليسير.

١. تفسير الرازي ٩: ١٩٤.

٣ و ٤. كنز العرفان ٢: ٣٣٧.

والإحسان إليهم بالتأكيد في إيجاب حفظ أموالهم، والاهتمام في رعاية صلاحهم، والمبالغة في حسن العشرة معهم، والتهديد على تضييع مالهم والإساءة إليهم بالعقوبة بالمثل في الدنيا، بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ كإفلاوا اليتامى ﴿الَّذِينَ﴾ يكون حالهم أنه ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أو خلفوا من بعد موتهم ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وأولاداً صغاراً ﴿ضِعَافًا﴾ لا يقومون إلا بكافل شفيق ﴿خَافُوا﴾ عند وفاتهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الضياع والفقر بعدهم، وعدم الكافل لهم، أو إساءة الكافل العشرة معهم، إن ظلموا الأيتام الذين في حُجُورهم وفي كفالتهم وضيعوهم، وأتلفوا أموالهم، وأساءوا العشرة معهم، من أن يفعل بذرِّيَّتهم بعدهم مثل ما فعلوا بهم.

فإذا تبين لهم أن أثر الإساءة بأيتام الغير، وتضييع مالهم، الإساءة بأيتام أنفسهم، وتضييع حقوقهم ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تضييع يتامى غيرهم، وترك الشفقة والرحمة بذراري إخوانهم المؤمنين.

وحاصل المراد أنه تعالى حثَّ كافلي اليتامى على حفظ مالهم، وتنزيلهم أنفسهم في حفظ أموالهم والإحسان إليهم، منزلة كافل يتييم أنفسهم لو فاتوا^١ وخلفوا لهم مالاً. ولا يخفى أنه من أقوى الدواعي في الشفقة بالأيتام.

ثم بالغ سبحانه في الوصية إلى الأولياء برعاية الأيتام وحسن صحبتهم، بقوله: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ في مكالمتهم اليتامى ومخاطبتهم ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وكلاماً صواباً. قيل: هو بأن يكلموهم باللطف والترحيب، ويخاطبوهم كما يخاطبون أولادهم من قول: يا بني، ويا قرّة عيني^٢.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «مَنْ يَظْلِمُ يَتِيماً سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ يَظْلِمُهُ، أَوْ عَلَى عَقِبِهِ، أَوْ عَلَى عَقِبِ عَقِبِهِ»^٣.

وقيل: إن المقصود بالخطاب في الآية الذين يجلسون عند المريض فيقولون: إن ذرّيتك لا يغنون عنك من الله شيئاً فأوصِ بمالك لفلان ولفلان، فلا يزالون يأمرونه بالوصية للأجانب حتى لا يبقى من ماله للورثة شيئاً، فقال الله تعالى لهم: كما تكرهون ابتلاء أولادكم بعدكم بالجوع والضعف والفقر، فآخسوا الله، ولا تحمّلوا المريض على أن يحرم أولاده الضعفاء من ماله^٤.

عن النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^٥.

وقيل: إن المقصود هو من قرب موته، فنهاه الله عن الإكثار في الوصية بماله لئلا يبقى ورثته

١. فاتوا: مضوا، ويريد هنا ماتوا.

٢. الكشف ١: ٤٧٨، تفسير الرازي ٩: ١٩٩، وفيهما: يا بني، ويا ولدي.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٧٩/٣٧١، الكافي ٢: ٢٥٠/١٣، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.

٤ و٥. تفسير الرازي ٩: ١٩٨.

ضايعين^١.

وتؤيده ما رواه الكليني رحمه الله مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال للرجل من الأنصار أعتق مماليكه لم يكن له غيرهم: «ترك صنيعةً صغيراً يتكفون الناس»^٢.

والأظهر هو التفسير الأول، وإن أمكن القول بعموم الملاك لمن له رعاية الأيتام من الأولياء والأوصياء والأجانب والموصيين.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [١٠]

ثم بالغ سبحانه في تأكيد وجوب حفظ أموال الأيتام بتهديد آكلي أموالهم ظلماً بالقوبة بالنار في الآخرة، بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ» ويصرفون «أَمْوَالَ الْيَتَامَى» في محابيحهم على وجهه يكون أكلهم وصرفهم «ظُلْماً» على اليتامى، وتعدياً عن الحق، مثل كَوْن الأكل زائداً على أجره المثل، فهم «إِنَّمَا يَأْكُلُونَ» ويدخلون «فِي بُطُونِهِمْ» ويملاؤن أجوافهم «نَاراً» لا توصف شدة حرها.

وقال كثير من المفسرين: إن المراد بالنار ما يؤدى إليها مجازاً بعلاقة السببية^٣.

وفيه: أنه لا وجه له مع إمكان إرادة الحقيقة، لما ثبت من أن لكل شيء صورة برزخية، فكما أن للصلاة صورة وللصوم صورة، وللقرآن صورة، يمكن أن تكون لمال اليتيم المحرم صورة النارية، فأهل البصيرة يرون أن من يأكله يأكل النار^٤.

عن أبي بردة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يبعث الله تعالى قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم نارا، فقيل: من هم؟ فقال ﷺ: «ألم تر أن الله يقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً»^٥»

وعنه ﷺ: «أَنْ أَكَلَ مَالِ الْيَتِيمِ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ مِنْ فِيهِ وَأَنْفِهِ وَأُذُنِيهِ وَعَيْنِيهِ، فيعرف الناس أنه أكل مال اليتيم»^٦.

وعن القمي رحمه الله: عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي إلى السماء رأيت قوماً تغذف في أجوافهم النار وتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء [الذين]

١. تفسير الرازي ٩: ١٩٩.

٢. الكافي ٧: ١٠/٩.

٣. راجع: تفسير الرازي ٩: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٢: ١٧٠.

٤. جوامع الجامع: ٨٠، تفسير الرازي ٩: ٢٠٠.

٥. تفسير البضاوي ١: ٢٠٣، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٨.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ١٤٨.

يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا^١.

وفي (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «أَنْ أَكَلَ مَالُ الْيَتِيمِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالنَّارُ تَلْهَبُ فِي بَطْنِهِ حَتَّى يَخْرُجَ لَهَبُ النَّارِ مِنْ فِيهِ، يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ أَنَّهُ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ»^٢.

«وَسَيَصْلُونَ» وعن قريب يدخلون مع ذلك في الآخرة «سَعِيرًا» ذات لَهَبٍ لا يَعْرِفُ نَبْدَتَهَا غيرُ الله.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ ثَقُلَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَاحْتَرَزُوا عَنْ مُخَالَطَةِ الْيَتَامَى بِالْكَلْبَةِ، فَصَعِبَ الْأَمْرُ عَلَى الْيَتَامَى، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ تَخَالَطُواهُمْ فَأَخَوَانُكُمْ»^٣.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مُنْشَأُ انْتِزَاعِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ الرَّعَايَةِ، النَّسَبَةِ الْحَاصِلَةِ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَقْوَاهَا هِيَ النَّسَبَةُ الْحَاصِلَةُ بِالْوِلَادَةِ، وَأَضْعَفُهَا الْحُقُوقُ الْحَاصِلَةُ بِالْوِلَايَةِ وَالْوَصَايَةِ وَالْمُصَاهَرَةِ. وَقَدَّمَ الْوِلَايَةَ وَالْوَصَايَةَ لِإِظْهَارِ الْاهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَالْهَنُّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُورِثُهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَلْسُدُسٌ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمُتِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمُتِّهِ أَلْسُدُسٌ مِنَ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا [١١]

ثُمَّ شَرَعَ شَبَحَانَهُ فِي بَيَانِ حُقُوقِ الْوِلَادَةِ، فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ مَا هُوَ أَوْلَى بِالرَّعَايَةِ مِنْهَا مِنْ حُقُوقِ الْأَبَوَيْنِ وَالْأَوْلَادِ، بِقَوْلِهِ: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ» أَيُّهَا النَّاسُ وَيَعْهَدُ إِلَيْكُمْ «فِي» شَأْنِ «أَوْلَادِكُمْ» وَأَمْرَ حُقُوقِهِمْ. وَإِنَّمَا قَدَّمَ هُمْ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْكَلَالَةِ وَسَائِرِ الْأَرْحَامِ، لَكُونَهُمْ أَقْرَبُ وَالصَّقُّ، وَلَأنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ حَقَّهُمْ فِي آيَةِ «لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ»^٤ إجمالاً، فَبَدَأَ فِي الْآيَةِ بِذِكْرِ تَفْصِيلِهِ بِقَوْلِهِ: «لِلذَّكَرِ» مِنْهُمْ حَظٌّ «مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ» وَمَا يُسَاوِي نَصِيبَ الْبَتَيْنِ مِنْ جَمِيعِ أَمْوَالِكُمْ وَحُقُوقِكُمْ. وَإِنَّمَا خَصَّ الذَّكَرَ بِالنَّصِيبِ عَلَى حَظِّهِ لِلإِشْعَارِ بِتَفْصِيلِهِ، وَبِأَنَّ تَضْعِيفَ حَظِّهَا.

١. تفسير القمي ١: ١٣٢، تفسير الصافي ١: ٣٩٣. ٢. الكافي ٢: ١٧٦، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.

٣. تفسير الرازي ٩: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٨، والآية من سورة البقرة ٢: ٢٢٠.

٤. النساء: ٧/٤.

ففي بيان وجوه استفادة نصيب البنين من الآية

ثم أن هذا في صورة اجتماع الصنفين، وأما نصيب الذكور في صورة الانفراد عن الإناث فجميع التركة، لدلالة تعيين نصيب الإناث في حال انفرادها عن الذكور، بقوله: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً﴾ وبناتاً فإن كان عددهن اثنتين، أو عدداً ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ وزائداً عليه، بلغن ما بلغن ﴿فَلَهُنَّ﴾ بالفرض ﴿ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ وخلف المتوفى من المال، والثلث الباقي لهن رداً، إن لم يكن وارث غيرهن.

وهذا مما لا إشكال ولا شبهة فيه عندنا نصاً وفتوى، إنما الإشكال في استفادة حكم إرث البنتين من الآية المباركة، وقد ذكروا لها وجوهاً ثلاثة:

الأول: أنه لما بين الله تعالى أن حظ الذكر الواحد - إذا كانت معه أنثى واحدة - مثل حظ الأنثيين، وهو الثلثان، عليم أن فرض الاثنين الثلثان في صورة الانفراد.

الثاني: أنه لما عليم من قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الأنثى الواحدة، عليم أن حظ الأنثيين الثلثان، لعدم القول بالفرق.

الثالث: أنه لما عليم أن نصيب بنت الواحدة - إذا كانت مع الذكر الواحد - الثلث، عليم أنه إذا لم يكن معها الذكر، وكانت معها الأنثى الأخرى، كان نصيبها الثلث لأقواتية الذكر. وأحسن الوجوه الوجه الأول.

﴿وَإِنْ كَانَتْ الْبِنْتُ وَاحِدَةً﴾ ليس معها غيرها من الأولاد، ذكوراً وإناثاً ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ مما ترك الميت بالفرض، والنصف الآخر بالردة، إذا لم يكن معها من الوالدين والزوجين أحد. ثم بين الله تعالى حكم إرث والذي المتوفى حال اجتماعهما مع أولاده، بقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لكن لا مجموعاً، بل ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ أباً كان أو أمّاً ﴿النِّصْفُ﴾ فرضاً، ولكليهما النِّصْفان ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ المتوفى، قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِنْ كَانَ لَهُ﴾ حين وفاته ﴿وَلَدٌ﴾ وإن نزل، ذكر كان أم أنثى، واحداً كان أو متعدداً.

نعم، في صورة انحصار الولد في بنت واحدة، وفي صورة تعددها ووجود أحد الأبوين، يزد ما زاد على القروض إلى جميعهم على حسب سبب سببهم.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أصلاً، لا ذكراً ولا أنثى، بلا واسطة أو معها ﴿وَوَرِثَتُهُ﴾ من الأقارب النسبي ﴿أَبَوَاهُ﴾ فقط، وإن كان معها الزوج والزوجة ﴿فَلَهُمُ الثُّلُثُ﴾ مما ترك ولأبيه الثلثان، إن لم يكن الزوج أو الزوجة، فإن كان أحدهما فله النصيب الأعلى، وللأم فرضها، وما بقي من فرض الأم وأحد الزوجين فللاب.

ولكن كَوْنُ نَصِيبِ الْأُمِّ الثَّلَاثَ مَشْرُوطٌ بِعَدَمِ وَجُودِ الْإِخْوَةِ لِلْمَيِّتِ ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ لِلأَبِ أَوْ لِلأُيُوبِينَ، كَانُوا اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ﴿فَلَأُتِمَّ﴾ إِذَا كَانَ أَبُوهُ حَيًّا ﴿السُّدُسُ﴾ وَلأَيُّهُ بَقِيَّةُ التَّرِكَةِ، لَكَوْنُهُ ذَا عَيْلَةٍ^١ بِوُجُودِهِمْ، فَانْقَضَتْ الْحِكْمَةُ التَّوْفِيرُ عَلَيْهِ لِمَكَانِ تَقْتَتِهِمْ. وَالْأَخْتَانِ لِلأَبِ تَقْوَمَانِ مَقَامَ أَخٍ وَاحِدٍ لَهُ. فِي (الكافي) وَ(التَّهْذِيبِ): عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّهُ لَا يَحْتَجُّبُ الْأُمُّ عَنِ الثَّلَاثِ إِلَّا أَخَوَانِ، أَوْ أَخٌ وَأَخْتَانِ^٢، أَوْ أَرْبَعُ أَخَوَاتٍ لِأَبٍ وَأُمٍّ، أَوْ لِأَبٍ^٣».

وَعَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَقُولُ فِي الْإِخْوَةِ مِنَ الْأُمِّ: «لَا يَحْتَجُّبُونَ [الْأُمَّ] عَنِ الثَّلَاثِ^٤». ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ شَبَحَانَهُ أَنَّ الْإِرْثَ وَالْفَرُوضَ لَا مَحْلَ لَهَا إِلَّا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إِخْرَاجِ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي﴾ الْمَيِّتُ ﴿بِهَا﴾ مِنَ التَّرِكَةِ - قِيلَ: فَانْدَةً تُوصِفُ الْوَصِيَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوصِي بِهَا﴾ التَّرْغِيبَ بِهَا، وَالتَّنْذِرَ إِلَيْهَا - ﴿أَوْ﴾ بَعْدَ إِخْرَاجِ ﴿ذَيْنِ﴾ ثَابِتٍ عَلَى الْمَيِّتِ وَإِنْ لَمْ يُوصِ بِهِ، كَانَ ثُبُوتُهُ بِإِقْرَارِهِ بِهِ حَالِ صِحَّتِهِ، أَوْ بِالْبَيِّنَةِ، أَوْ بِغَيْرِهِمَا.

وَفِي إِثَارِ كَلِمَةِ (أَوْ) عَلَى (الْوَاوِ) دَلَالَةٌ عَلَى تَسَاوِيهِمَا^٥ فِي وَجُوبِ الْإِخْرَاجِ، إِذَا وَسَعَتْهُمَا التَّرِكَةُ، وَلَمْ يَكُنِ الدِّينُ مُسْتَوْعِبًا لَهَا.

وَفِي تَقْدِيمِ ذِكْرِ الْوَصِيَّةِ عَلَى الدِّينِ مَعَ تَأَخُّرِهَا عَنْهُ فِي الرُّبْعَةِ، إِشْعَارًا بِكَمَالِ الْعِنَايَةِ وَالْاهْتِمَامِ بِتَنْفِيزِهَا.

رَوَى الْفَخْرُ الرَّازِي عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَقْرَأُونَ الْوَصِيَّةَ قَبْلَ الدِّينِ، وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَضَى بِالْأُيُوبِينَ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ^٦».

ثُمَّ لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ شَبَحَانَهُ هَذَا التَّفَاوُتَ بَيَّنَّ نَصِيبَ الْأَبَاءِ وَالْأَوْلَادِ فِي الْإِرْثِ، وَقَدْ لَا تُسَاعِدُهُ الْعُقُولُ الضَّعِيفَةُ وَالْإِغْتِيَارَاتُ السَّخِيفَةُ، نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قُصُورِ الْعُقُولِ عَنْ إدْرَاكِ حِكْمَةِ هَذَا التَّفَاوُتِ، وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِوَصِيَّتِهِ تَعَالَى فِي نَصِيبِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَكُمْ ﴿لَا تَذَرُون﴾ وَلَا تَذَرِكُ عُقُولُكُمْ ﴿أَنَّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ فِي الدُّنْيَا، وَأَكْثَرُ فَانْدَةً لَكُمْ، مِنْ جِهَةِ التَّرْبِيَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالتَّضَرُّعِ وَغَيْرِهَا، فَقَدْ تَخَيَّلُوا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَنْفَعُ لَكُمْ مِنَ الْآخَرِ، وَرُبَّمَا يَخْطِرُ بِأَلْبَابِكُمْ أَنَّ الْقِسْمَةَ بِغَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ أَصْلَحُ، وَهُوَ خِلَافُ الْوَاقِعِ، فَسَلَّمُوا لِحُكْمِ اللَّهِ - الْعَالِمِ بِالْمَغْشِيَّاتِ وَحَقَائِقِ الْأُمُورِ - بِأَقْرَبِيَّةِ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ، وَبِتَوْفِيرِ الْقِسْمَةِ عَلَى بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ فِي التَّقْدِيرَاتِ الَّتِي قَدَّرَهَا

١. الْعَيْلَةُ: الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ.

٢. (أَوْ أَخٌ وَأَخْتَانِ) لَيْسَ فِي الْكَافِي وَالتَّهْذِيبِ.

٣. الْكَافِي ٥/٩٢، التَّهْذِيبُ ٩: ١٠١٧/٢٨١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٣٩٤.

٤. الْكَافِي ٧: ٦/٩٣، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٣٩٤.

٥. أَيْ تَسَاوَى الْوَصِيَّةِ وَالدِّينِ.

٦. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٩: ٢١٦.

في أموالكم، وأتذكروا موافقة هؤل أنفسكم في قسمة الموارث.

وقيل: إن المراء: أقرب لكم نفعاً في الآخرة^١.

رؤي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن الله ليشفع بعض المؤمنين في بعض، فأطوعكم الله عز وجل من الأبناء والآباء أرفعكم درجة في الجنة، وإن كان الولد أرفع درجة في الجنة من ولده رفع الله إليه ولده بمسألته ليغير بذلك عنيته، وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله إليه والديه، فقال: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ لأن أحدهما لا يعرف أن انشغافه في الجنة بهذا أكثر أم بذلك^٢.

أقول: يمكن القول بإرادة النفع الأعم من الدنيوي والأخروي.

وقيل: إن الخطاب للورثة، والمراد أنه لا تدرسون أيها الورثة، أي مورثكم من الأصول والفروع أقرب لكم نفعاً، أم وصي ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته، أم من لم يوص بشيء فوفر عليكم حظكم من تركته، فإنكم تحكمون بأن الثاني أنفع، والواقع خلافه، بل الأول أنفع لأنه لا يعدل ثواب الآخرة جميع الدنيا وما فيها.

ثم أكد سبحانه وجوب الالتزام بما فرضه في الموارث بقوله: ﴿قَرِيبَةً﴾ كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ التزموها، وقسمة قسمها الله فلا تعدلوا عنها إلى ما تحيل إليه طباعكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ في الأزل ﴿عَلِيماً﴾ بمصالح عياده ﴿حَكِيماً﴾ في كل ما فرض وقدر، فإذا كان كذلك كانت قسمة أصح وأحكم. وفي ذكر اسم الجلالة وتكراره مبالغة في تربية مهابة في القلوب.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ
الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يَوْصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ
فَلَكَلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ [١٢]

ثم لما بين سبحانه حكم إرث أقرب القرابات النسبية وأقواها؛ وهي القرابة بالولادة التي تكون بين
الوالدين والأولاد، أردفه ببيان إرث أقرب القرابات السببية، وهي النسبة بالمزاوجة التي تكون شريكاً
للسببية في جميع الطبقات في الإرث.

قيل: إن العرب كانوا في الجاهلية لا يورثون الزوجة من تركة زوجها، فنسخه الله سبحانه بحكمه بالتوارث.

ولما كان الحكم يارث الزوجة ثقيلًا على الطباع، قدم بيان حكم إرث الأزواج، تطبيبا لقلوبهم، وإظهارا لفضلهم بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج بجهة الإرث ﴿نِصْفٌ﴾ جميع ﴿مَا تَرَكَ﴾ وخلف ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ ويساؤكم المنكوحات بالنكاح الدائم، دون المنقطع على الأصح، من الأموال كانت عقارا أو غيرها، منقولة أو غيرها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا﴾ حين موتهن ﴿وَلَدٌ﴾ وإرث أصلا منكم، أو من غيركم، ذكور أو إناث، بلا واسطة أو معها ﴿فَإِنْ كَانَ لَهَا﴾ حين موتهن منكم أو من غيركم ﴿وَلَدٌ﴾ وإرث، وإن كان أنثى واحدة سافلة^١ ﴿فَلَكُمْ﴾ إرثا وفرضا ﴿الرُّبْعُ مِنْ﴾ جميع ﴿مَا تَرَكَتْ﴾ وخلفت من الأموال، إذا لم يكن لهن وصية بمال، أو عليهن دين، وإن كانا فالإرث ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ﴾ كن ﴿يُوصِيَنَّ بِهَا﴾ في حياتهن ﴿أَوْ﴾ قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ ثابت في ذمتهن.

ثم بين سبحانه نصيب الزوجات الدائمات من تركة أزواجهن، بقوله: ﴿وَلَهُنَّ﴾ إن ممتن وبتعين بعدكم ﴿الرُّبْعُ مِنْ﴾ جميع ﴿مَا تَرَكَتُمْ﴾ وخلفت من الأموال المنقولة عينا، ومن الأبنية والأشجار قيمة لا عينا ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ﴾ بعد موتكم منهن أو من غيرهن ﴿وَلَدٌ﴾ وإرث أصلا، وإن كان أنثى نازلة. والباقي لغيرهن من ورائكن، فإن لم يكن لكم وإرث غيرهن فلا إمام عليه السلام ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ ولو من الأمة، أو المنقطعة، أو في الحمل بشرط الانفصال حيا، وإن نزل ﴿فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ من المال، سيوى الأراضى وأعيان الأبنية والأشجار، دون قيمتها - كما مر - على الأصح، ولكن ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ﴾ كنتم ﴿تُوصُونَ بِهَا﴾ في حياتكم ﴿أَوْ﴾ أداء ﴿دَيْنٍ﴾ كان عليكم.

قيل: لما فضل الله تعالى الرجال على النساء في النصب، نبه على فضيلتهم عليهن بذكرهم في الآية على سبيل المخاطبة سبع مرات، وذكرهن على سبيل المغايبه أقل من ذلك^٢.

في بيان علل تفضيل الرجال على النساء
وقد علل آتتا صلوات الله عليهم تفضيل الرجال على النساء في النصب بوجوه،
على ما في روايات أصحابنا رضوان الله عليهم أجمعين:
في النصب

منها: ما روي عن الرضا عليه السلام، في جواب من سأل عن ذلك من: «أن المرأة إذا

تزوجت أخذت، والرجل يعطي، ولذلك وفر على الرجل، ولأن الأنثى في عيال الذكر إن احتاجت، وعليه أن يعولها وعليه ثققتها، وليس على المرأة أن تعول الرجل ولا تؤخذ بثقلته إن احتاج، فوفر

على الرجل لذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾ الآية^١.

ومنها: ما روي عن الصادق عليه السلام، في جواب عبدالله بن سنان حين سأله عن علة التوفير، حيث قال عليه السلام: «لِمَا جَعَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ»^٢.

ومنها: ما روي عن العسكري سلام الله عليه، في جواب الفهفكي، لما قال له عليه السلام: ما بأل المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهماً ويأخذ الرجل القوي سهمين؟ فقال عليه السلام: «لأن المرأة ليس عليها جهاد ولا نفقة ولا متعقلة»^٣، إنما ذلك على الرجال.

فقلت في نفسي: قد كان قيل لي: إن ابن أبي العوجاء سأل الصادق عليه السلام عن ذلك، فأجابه مثل هذا الجواب، فأقبل عليه فقال: «نعم، هذه مسألة ابن أبي العوجاء، والجواب من واحد»^٤.

ثم أنه تعالى بعدما بين حكم إرث أقوى الانسابات النسبية، وهو القرابة بالولادة كقرابة الأبوين والأولاد، وأقوى الانسابات السببية، وهو الفزوجة كالزوجين، ولذا يرثان مع جميع طبقات الوارث، شرع سبحانه في بيان حكم إرث أضعف القرابات النسبية، وهي القرابة من قبل الأم إلى الميت، بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ مَيِّتٌ يُوْرَثُ مِنْهُ، لَكُوْنُهُ أَوْ حَالُ كُوْنِهِ كَكَلَالَةٍ﴾ وذا قريب، ليس بينه وبين ذلك القريب نسبة أبوة وبوة، كما عن الصادق عليه السلام فإنه فسرها بمن ليس بولد ولا والد^٥، «أو» كانت «أمرأة» متوفاه كذلك.

قيل: إن الكلالة في اللغة بمعنى الإحاطة، وسمي من عدا الوالد والولد من القرابات بالكلالة لإحاطتهم بالشخص.

ثم كنى سبحانه عن الرجل دون المرأة إظهاراً لشرفه وفضله، بقوله: ﴿وَلَهُ﴾، وقيل: إن المراد من (الضمير) الميت، الصادق على الرجل والمرأة «أخ» واحد «أو أخت» واحدة، من قبل الأم «فلكل واحد منهما» في تلك الصورة «الشَّدُس» مما ترك الميت من المال «فإن كانوا» هؤلاء الأقرباء الأُميون «أكثر» وأزيد «من ذلك» العدد الوجداني بواحد أو بأكثر، [سواء أ] كانوا متفقين في الذكورة والأنوثة، أو مختلفين «فهم شركاء في الثلث» من المال يتساوون فيه لافضيلة للذكور منهم على الإناث في النصيب. وتعليقه بكون الانساب بمحض الأنوثة - كما عن بعض العامة^٦ - عليل.

٢. علل الشرائع: ٢/٥٧٠.

١. علل الشرائع: ١/٥٧٠، والآية من سورة النساء: ٣٤/٤.

٤. الكافي: ٧: ٢/٨٥، التهذيب: ٩: ٩٩٢/٢٧٤.

٣. المتعقلة: دية القتل تدفع من الإرث.

٥. الكافي: ٧: ٢/٩٩ و ٣. ٦. تفسير روح البيان: ٢: ١٧٥.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَيْنِ الْفَرَضَيْنِ أَيْضاً كَسَانِرُ الْفُرُوضِ، يَكُونَانِ فِي التَّرَكَةِ «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ ذَيْنَ» حَالِ كَوْنِ الْمُوصَى «غَيْرَ مُضَارٍّ» لَوَرَثَتِهِ بِوَصِيَّةٍ زَائِدَةٍ عَلَى الثَّلَاثِ، أَوْ بِالْإِقْرَارِ بِالذَّيْنِ كَذِباً لِإِصْلَاحِ النَّفْعِ إِلَى الْمُقَرَّرِ لَهُ وَتَقْيِصِ حَقِّ الْوَرَثَةِ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ وَجُوبَ تَوْرِيثِ الْأَزْوَاجِ وَالْكَلَّالَةِ عَلَى النَّحْوِ الْمَذْكُورِ، بِقَوْلِهِ: «وَصِيَّةٌ» كَانَتْ «مِنْ أَقْرَبٍ» قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: يُوصِيكُمْ اللَّهُ بِتَوْرِيثِ هَؤُلَاءِ الْأَقْرَابِ وَصِيَّةٌ لَا يَجُوزُ تَغْيِيرُهَا.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: تَلَقَّوْا أَيُّهَا النَّاسُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ بِعُنْوَانِ كَوْنِهَا وَصِيَّةً أَكِيدَةً مِنْ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ بَدَّلَهَا فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ.

قِيلَ: إِنَّهُ تَعَالَى خَتَمَ آيَةَ إِرْثِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ بِقَوْلِهِ: «فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ»^١، وَهَذِهِ آيَةٌ بِقَوْلِهِ: «وَصِيَّةٌ مِنْ اللَّهِ»^٢ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ رِعَايَةَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ أَهَمُّ وَأَوْلَى مِنْ رِعَايَةِ غَيْرِهِمْ، لِأَنَّ لَفْظَ الْفَرَضِ أَقْوَى وَآكَدَ مِنْ لَفْظِ الْوَصِيَّةِ^٣.

وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ النِّكْتَةُ أَنَّ تَوْرِيثَ الْأَبَوَيْنِ وَالْأَوْلَادِ لَمَّا كَانَ مُوَافِقاً لَطِبَاعِهِمْ شَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ، بِخِلَافِ تَوْرِيثِ الرُّوْحَاتِ وَالْأَبْعَادِ فَإِنَّهُ كَانَ مُخَالَفاً لَطِبَاعِهِمْ فَأَكَّدَهُ بِمَا فِيهِ تَطْيِيبٌ لِقُلُوبِهِمْ وَاسْتِمَالَةٌ لِحَاطِرِهِمْ أَوَّلًا ثُمَّ أَرَدَفَهُ بِالْتِهْدِيدِ عَلَى الْمُخَالَفَةِ، بِقَوْلِهِ: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بِأَعْمَالِكُمْ «حَلِيمٌ» عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَعَصَاهُ، لَا يُعَاجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١٣]

ثُمَّ بَالِغَ سُبْحَانِهِ فِي التَّأَكِيدِ فِي الْعَمَلِ بِجَمِيعِ الْأَحْكَامِ السَّابِقَةِ، بِقَوْلِهِ: «تِلْكَ» الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ الْمُنْفَصِلَةُ «حُدُودُ اللَّهِ» الَّتِي حَدَّهَا، فَلَا يَرْضَى بِالتَّجَاوُزِ عَنْهَا، وَالْقَوَانِينِ الَّتِي قَنَّنَهَا، فَلَا يَجُوزُ مُخَالَفَتُهَا.

ثُمَّ رَغَّبَ فِي إِطَاعَةِ جَمِيعِ أَحْكَامِهِ بِالْوَعْدِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ عَلَيْهَا، بِقَوْلِهِ: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وَامْتَثِلْ أَمْرَهُمَا وَتَوَاهِيَهُمَا الَّتِي مِنْهَا مَا فَصَّلَهُ فِي السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ «يُدْخِلْهُ» اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ «جَنَّاتٍ» وَبَسَاتِينَ ذَوَاتِ أَشْجَارٍ مُلْتَمَّةٍ «تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الْكَثِيرَةُ، حَالِ كَوْنِهِمْ «خَالِدِينَ» مُقِيمِينَ «فِيهَا» أَبَدًا «وَذَلِكَ» الثَّوَابُ هُوَ «الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» وَالظَّفَرُ الْأَتَمُّ بِأَعْلَى الْمَقَاصِدِ، وَالنَّجَاحُ الْكَامِلُ بِأَسْنَى الْمَطَالِبِ.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ

مُهِينٌ [١٤]

ثم أرفد الوعد بأشد الوعيد، ترهيباً من المعصية، وتتميماً للطف، بقوله: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ويخالف أحكامه «وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ» ويتجاوز حماه «يُدْخِلْهُ» الله «ناراً» لا توصف شدة حرّها، حال كونه «خَالِداً فِيهَا» في الآخرة «وَلَهُ» مع ذلك «عَذَابٌ» لا يعرف كُنْه أحد إلا الله «مُهِينٌ» له، لاستهانتها بأحكام الله وحدوده.

وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ

سَبِيلاً [١٥]

ثم أتت تعالى بعدما بين وجوب رعاية النساء، والعذر بينهما، وإبتائهن مهورهن، وتورثتهن من أزواجهن وأرحامهن، شدد عليهن في ما يأتيه من الفاحشة، بقوله: «وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ» والعمل الذي هو في غاية القباحة، وهو الزنا، وهن الكائنات «مِنْ نِسَائِكُمْ» وزوجاتكم، أو الحرائر والمؤمنات «فاسْتَشْهِدُوا» واطلبوا للشهادة «عَلَيْهِنَّ» من قاذبهن «أَرْبَعَةٌ» من الرجال الذين يكونون «مِنْكُمْ» وعلى دينكم «فَإِنْ شَهِدُوا» عليهن بازتيكاب الفاحشة، وكانوا عدولاً «فَأَمْسِكُوهُنَّ» واحبسوهن أيها المؤمنون «فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ» ويقطع من الدنيا علاقتهن «الْمَوْتُ» وقيل: إن المراد: ملك الموت بحذف المضاف «أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً» للخلاص من الحبس.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية «وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ...»، قال: «هذه مسوخة»، قيل: كيف كانت؟ قال: «كانت المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود، أذخلت بيتاً ولم تحدث ولم تكلم ولم تجالس، وأوتيت بطعامها وشرابها حتى تموت»، «أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً»، قال: «جعل السبيل: الجلد والرجم»^١.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»^٢.

١. تفسير العياشي ١: ٣٧٧/٩٠٣، تفسير الصافي ١: ٣٩٨.

٢. مجمع البيان ٣: ٣٤، تفسير الصافي ١: ٣٩٨.

قد مرّ في بعض الطرّاف أن المراد بالنسخ هنا غير معناه المصطلح^١.

قيل: إن المراد بالسبيل هو النكاح المغني عن السفاح^٢.

وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
تَوَّاباً رَحِيماً [١٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان العقوبة المختصة بالمرأة الزانية، بين العقوبة المشتركة بين الرجل والمرأة إذا زنيا بقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَرْتَكِبَانِ الْفَاحِشَةَ وَ﴿يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾ سَوَاءٌ كَانَا بَكَرَيْنِ أَوْ نَسِيَيْنِ﴾ فَأَذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعير.

عن ابن عباس رضي الله عنه: [هو التعبير باللسان و] الضرب بالنعال^٣.

﴿فَإِنْ تَابَا﴾ ونديما عن فعلهما القبيح ﴿وَأَصْلَحَا﴾ والتزما بخسن العمل ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ واتركوا إيذاءهما؛ فإنّه يرتفع بالتوبة استحقاق العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ بكرمه ﴿تَوَّاباً﴾ مبالغاً في قبول التوبة، عانداً على التائبين بالفضل والمغفرة ﴿رَحِيماً﴾ بهم.

قيل: إن المراد من الآية الأولى النّيات، ومن الثانية الأبكار من الرجال والنساء^٤؛ لأنّ العذاب في الثانية أخفّ من الأولى.

وقيل: إن الأولى في السّحاقات، والثانية في أهل اللواط^٥.

والقولان مخالفان لروايات الخاصة والعامة، وعلى أيّ تقدير لا شبهة في أن الآية الثانية مسبوخة بآيات الحدّ.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ
فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [١٧]

ثمّ أنّه تعالى لما ذكر أن التوبة ماحية للذنوب رافعة للعقوبة، حتّى العصاة عليها بيان إيجابه قبول التوبة على نفسه؛ بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ واجبة القبول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لكمال حسنه عقلاً، وإفضاء كرمه، وسعة رحمته، قبولها وامتناع ردّها - وهذا أشدّ مراتب الوجوب - ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ والعصيان صغيراً كان أو كبيراً، ولكن إذا كان ارتكابهم له ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وسفاهة، وغلبة الهوى، وإعانة النفس،

٣. مجمع البيان ٣: ٣٥.

١. راجع الطرفة (٢٠). ٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٥.

٥. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٦.

٤. تفسير الرازي ٩: ٢٣٥.

وَالْفَعْلَةُ عَنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، لَا بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَعَدَمِ الْإِعْتِقَادِ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ؛ فَإِنَّ الْكَافِرَ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مَعَ بَقَائِهِ عَلَى الْكُفْرِ.

فَتَحْصُلُ مِنَ تَقْيِيدِ قَبُولِ التَّوْبَةِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ بِكَوْنِهَا مُسَبِّبَةً عَنْ جَهَالَةٍ أَنْ تَحْتَمَّ الْقَبُولُ عَلَى اللَّهِ مَشْرُوطٌ بِكَوْنِ الْعَمَلِ السَّيِّئِ صَادِرًا عَنِ السَّفَاهَةِ، وَعَدَمِ التَّدَبُّرِ فِي سُوءِ عَاقِبَتِهِ، لَا عَنْ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، أَوْ الْبَسِيطِ.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَمِلَهُ الْعَبْدُ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا فَهُوَ جَاهِلٌ حِينَ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّهِ، فَقَدْ حَكَّى اللَّهُ شَبْحَانَهُ قَوْلَ يُوسُفَ لِإِخْوَتِهِ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذَا أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾»^١.

ثُمَّ يَبَيِّنُ شَبْحَانَهُ الشَّرْطَ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَتَوَبُّونَ﴾ وَيَرْجِعُونَ إِلَى الدَّمِ وَالْتَوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ فِي جُزْءٍ ﴿مِنْ﴾ زَمَانٍ ﴿قَرِيبٍ﴾ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَلَا يُؤَخِّرُونَهَا إِلَى زَمَانٍ حُضُورِ الْمَوْتِ، وَمُشَاهَدَةِ عَالَمِ الْبَرْزَخِ، وَمُعَايَنَةِ أَهْوَالِهِ.

وَتَسْمِيَةِ هَذَا الزَّمَانِ قَرِيبًا، لِأَنَّهُ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ، وَلَوْ جُوبِ أَنْظَارُ الْإِنْسَانِ مَوْتَهُ فِي كُلِّ آنٍ، وَيَحْسَبُهُ قَرِيبًا، وَيُبَادِرُ إِلَى التَّوْبَةِ.

رَوَى أَنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا هَبَطَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ [وَجَلَّالَتُكَ] وَعَظَمَتُكَ، لَا أَفَارِقُ ابْنَ آدَمَ حَتَّى تَفَارِقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي [وَجَلَّالِي] لَا أَحْجِبُ التَّوْبَةَ عَنْ عَبْدِي حَتَّى يُغْرَغَرَ^٢ بِهَا^٣.

وَفِي (الْفَقِيهِ): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خُطِبَهَا: «مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بَسَنَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَنَّ السَّنَةَ لَكَثِيرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَنَّ الشَّهْرَ لَكَثِيرٌ [مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمُعَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَنَّ الْجُمُعَةَ لَكَثِيرٌ] مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَنَّ الْيَوْمَ بِكَثِيرٍ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَاعَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَنَّ السَّاعَةَ لَكَثِيرٌ، مَنْ تَابَ [قَبْلَ مَوْتِهِ] وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُ هَذِهِ وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ «تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^٤.

قِيلَ: إِنَّ كَلِمَةَ (مَنْ) هُنَا، لَيْسَ لِلتَّبَعِضِ، بَلْ هِيَ لِاتِّدَاءِ الْغَايَةِ، وَالْمَعْنَى: يَجْعَلُ مُبْتَدَأُ تَوْبَتِهِ زَمَانًا قَرِيبًا مِنَ الْمَعْصِيَةِ؛ لِئَلَّا يَقَعَ فِي زُمَرَةِ الْمُصْرَبِينَ^٥.

١. مجمع البيان ٣: ٣٦، تفسير الصافي ١: ٣٩٨، والآية من سورة يوسف: ٨٩/١٢.

٢. في النسخة: يرغغ، ومعنى الفرغرة هنا تردد الروح في الحلق.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٧.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٥٤/٧٩، تفسير الصافي ١: ٣٩٩.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٥.

وقيل: إن المراد من قوله تعالى: (من) زمان قريب قبل أن يثرب في قلوبهم حبه، فيطبع عليها، فيعذر^١ عليهم الرجوع^٢.

ثم أكد سبحانه وعده بقبول التوبة، بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الواجدون لشرطي قبول التوبة ﴿يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. عملاً بما كتب على نفسه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بضمانر التائبين من الإخلاص، وحقيقة الندم، والعزم على عدم العود ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله، لا يمكن صدور عقوبة التائبين منه؛ لثناها حِكْمَتَهُ وَكَرَمَهُ.

وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
إِنِّي تُبْتُ آلَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا [١٨]

ثم بين الله سبحانه زمان عدم قبوله التوبة فيه، والمعصية التي لا تقبل التوبة منها، بقوله: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ﴾ المقبولة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ويستغلون بالذنوب ويدimon عليها، لاهين عن ذكر الله وعن التوبة ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وشاهد علاماته، وعاین أهواله، وصار معرفته بالله وعلمه بدار الجزاء ضرورياً، ﴿قَالَ﴾ عند رؤية بأس الله: ﴿إِنِّي تُبْتُ آلَانَ﴾ من ذنوبي ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ﴾ حين موتهم ومعايبتهم الآخرة ﴿كُفَّارٌ﴾ وغير مستاهلين لقبول توبتهم وإن آمنوا بعده، لقوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا﴾^٣ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الفريقان ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيناً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا﴾ دائماً ﴿أَلِيمًا﴾ موجعاً في الغاية.

فسوى سبحانه بين المؤمن الفاسق المأسوف للتوبة إلى وقوعه في سكرة الموت، وبين الكافرين الذين لا يؤمنون ولا يتوبون إلى رؤية ملك الموت، في عدم قبول التوبة واشتقاق العذاب الأليم. قيل: إن المراد من الذين يعملون السيئات المنافقون، لدلالة قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^٤، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^٥، ولدلالة روايات كثيرة على شمول الرحمة والشفاعة لعصاة المؤمنين.

أقول: يمكن أن يكون المراد منه خصوص من أخرجه سيئات أعماله من الإيمان إلى الكفر عند

مَوْتَهُ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^١ فَإِنَّ فِيهِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ التَّمَادِي فِي الْعِصْيَانِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مُوجِبٌ لَطَبْعِ الْقَلْبِ وَقَسَاوَتِهِ، وَمُخْرَجِ الْمَعَاصِي مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ إِلَى ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ، بَلْ فِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ أَنَّ أَثَرِ بَعْضِ الْمَعَاصِي - كَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَمَنْعِ الزَّكَاةِ - ذَلِكَ، مِثْلُ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّهُ يُقَالُ لِمَانِعِ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَوْتِهِ: مِثْتُ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ^٢.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجَلْ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ
كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا [١٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ التَّشْدِيدِ عَلَى النِّسَاءِ فِي إِزْتِكَابِ الْفَاحِشَةِ، وَالْوَعْدِ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ، وَبَيَانِ شُرُوطِ قَبُولِهَا، عَادَ إِلَى بَيَانِ وَجُوبِ رِعَايَةِ النِّسَاءِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّعَدِي عَلَيْهِمْ بِإِجْبَارِهِنَّ عَلَى التَّرْوِيجِ، وَمَنْعِهِنَّ مِنْ اخْتِيَارِهِنَّ الْأَزْوَاجَ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿لَا يَجَلْ لَكُمْ﴾ فِي شَرْعِ الْإِسْلَامِ ﴿أَنْ تَرْتُوا﴾ مِنْ أَقَارِبِكُمْ ﴿النِّسَاءَ﴾ وَالزَّوْجَاتِ، وَتَمَلَّكُوا أَزْوَاجَهُمْ لِلْإِسْتِمْتَاعِ، كَمَا تَمَلَّكُونَ أَمْوَالَهُمْ بِعَنْوَانِ الْمِيرَاثِ ﴿كَرْهًا﴾ مِنْهُمْ، وَبِغَيْرِ رِضَائِهِنَّ بِالنِّكَاحِ.

قِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ، جَاءَ ابْنُهُ مِنْ غَيْرِهَا، أَوْ بَعْضُ أَقَارِبِهِ فَأَلْقَى ثَوْبَهُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ: وَرِثْتُ زَوْجَتَهُ كَمَا وَرِثْتُ مَالَهُ. فَصَارَ أَحَقَّ بِهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ وَمِنْ نَفْسِهَا، فَإِنْ شَاءَ تَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ إِلَّا الصَّدَاقَ الَّذِي أَصْدَقَهَا الْمَيِّتَ، وَإِنْ شَاءَ زَوَّجَهَا مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ، وَأَخَذَ صَدَاقَهَا وَلَمْ يُعْطِهَا مِنْهُ شَيْئًا، فَهِيَ اللَّهُ عَنْ إِرْثِ عَيْنِ النِّسَاءِ^٣.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ لَوَارِثِ الْمَيِّتِ أَنْ يَحْبِسَ زَوْجَتَهُ حَتَّى تَمُوتَ وَيَرِثَ مَالَهَا، أَوْ يُضَيِّقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ بِمَا وَرِثَتْ مِنْ زَوْجَتِهَا، فَهِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وَتَحْبِسُوهُنَّ وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴿لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ وَأَعْطَيْتُمُوهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ وَالْمِيرَاثِ، وَتَأْخُذُوهُنَّ مِنْهُنَّ فِدَاءً مِنْ أَنْفُسِهِنَّ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ إِذَا ذَكَرَهُ زَوْجَتَهُ أَسَاءَ عِشْرَتِهَا، وَضَيِّقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَهْرِهَا، فَهِيَ اللَّهُ

٣. تفسير الرازي ١٠: ١٠.

٢. المحاسن: ٢٨/٨٧، عقاب الأعمال: ٢٣٦.

١. الروم: ١٠/٣٠.

٤. تفسير روح البيان ٢: ١٨١.

عن التَّزَوُّجِ بَيْنَ الْإِكْرَاهِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِنَ، وَإِسَاءَةِ الْعِشْرَةِ مَعَهُنَّ بَعْدَ التَّزْوِيجِ لِيَفْتَدِينَ بِصَدَاقِهِنَّ أَوْ بَعْضُهُ^١.

فَإِنْ أَخَذَ صَدَاقَهُنَّ وَمَالَهِنَّ لَا يَجُوزُ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿إِلَّا﴾ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ﴿أَنْ يَأْتِيَنَّ بِقَاحِشَةٍ﴾ وَفَعْلَةٌ قَبِيحَةٌ فِي الْغَايَةِ ﴿مُتَّبِعَةٌ﴾ ظَاهِرَةٌ، كَعَدَمِ التَّعَفُّفِ، أَوْ التَّشَوُّزِ وَشُكَااسَةِ الْخُلُقِ وَإِسَاءَةِ الْعِشْرَةِ مَعَ الزَّوْجِ وَأَهْلِهِ.

عن الباقِرِ (ع)، فِي تَفْسِيرِ الْفَاحِشَةِ، قَالَ: «كُلُّ مَعْصِيَةٍ»^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ (ع): «إِذَا قَالَتْ لِرَّوْجِهَا: لَا أَغْتَسِلُ لَكَ مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَا أَبْرُكَ لَكَ قَسَمًا، وَلَا وَطَنَ فِرَاشِكَ مَرَّ تَكَرُّهٍ، حَلَّ لَهُ أَنْ يَخْلَعَهَا، وَحَلَّ لَهُ مَا أَخَذَ مِنْهَا»^٣.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ وَجُوبَ الرَّفْقِ بِالزَّوْجَاتِ، وَحُسْنَ عَشْرَتِهِنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَبِمَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ عِنْدَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، مِنَ الْإِنصَافِ فِي الْمَيْبِتِ وَالنَّفَقَةِ، وَالْإِجْمَالِ فِي الْقَوْلِ ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ طَبْعًا، وَسَيَمْتُمُّ مِنْ صُخْبَتِهِنَّ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ عَصِيَانِهِنَّ وَتَشَوُّزِهِنَّ، فَلَا تُبَادِرُوا فِي التَّفْرِيقِ بِمُجَرَّدِ كَرَاهَةِ النَّفْسِ، بَلْ امْسِكُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاضْبِرُوا عَلَى مَعَاشِرَتِهِنَّ ﴿فَقَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ وَتَتَنَفَّرُوا مِنْ أَمْرِ ﴿وِ﴾ الْحَالِ أَنَّهُ ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فِي الدُّنْيَا كِرْلَادَةِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ كَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَى مُخَالَفَةِ النَّفْسِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا [٢٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ مُضَارَاةِ النِّسَاءِ، وَأَخَذَ شَيْءٍ مِنْ مُهَوَّرِينَ بِأَيِّ سَبَبٍ، أَكَّدَ النَّهْيَ عَنْهُ فِي صُورَةِ إِرَادَةِ الِاسْتِبْدَالِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ وَاخْتِيَارَ زَوْجَةٍ ﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾ وَامْرَأَةٍ كَانَتْ لَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ سَوَاءٌ كَانَتْ الْمَرْأَةُ الْأُولَى أَوِ الثَّانِيَةِ ﴿قِنْطَارًا﴾ وَمَالًا كَثِيرًا غَايَتِهِ، عَنِ الصَّادِقِينَ (ع): «الْقِنْطَارُ مَلءُ مَسْكٍ^٤ ثَوْرٍ ذَهَبًا»^٥ «فَلَا تَأْخُذُوا» وَلَا تَتَّبِعُوا «مِنْهُ شَيْئًا» وَلَوْ كَانَ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ.

زُوي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا مَالَ إِلَى التَّزَوُّجِ بِامْرَأَةٍ أُخْرَى، رَمَى زَوْجَتَهُ نَفْسَهُ بِالْفَاحِشَةِ حَتَّى يُلْجِئَهَا إِلَى الْإِفْدَاءِ مِنْهُ بِمَا أَعْطَاهَا، لِيَصْرِفَهُ إِلَى تَزَوُّجِ الْمَرْأَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا^٦.

١. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٩: ١١. ٢. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٣: ٤٠، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٠١.

٣. مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهَ ٣: ١٦٣٠/٣٣٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٠١. ٤. الْمَسْكُ: الْجِلْدُ.

٥. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٢: ٧١٢، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٠١. ٦. تَفْسِيرُ الرَّازِي ١٠: ١٣.

فنهى سبحانه عن ظلم المرأة بالأخذ من مهرها، وإن كان في غاية الكثرة، وأنكر على الأزواج أخذهم من مهورهن بسبب رُميهن بالفاحشة، بقوله: «وَأَتَاخَذُوهُنَّ» بسبب أن تتهموهن «بِهَتَانًا وَ» تركبون بالبهتان، ورُميهن بالفاحشة، وبظلمهن بأخذ صداقهن «إِنَّمَا مُبِينًا» وذنباً ظاهراً عظيماً، فإن البهتان والظلم من أكبر الكبائر.

في دلالة الآية على جواز المغالاة في المهر.
جواز المغالاة في المهر
وروى الفخر الرازي: أن عمر قال على المبر: ألا لا تغلوا^٢ في مهور نساكنكم، فقامت امرأة فقالت: يا بن الخطاب، الله يعطينا وأنت تمنعنا! وتلت هذه الآية، فقال عمر: كل الناس أफقه من عمر، ورجع عن كراهة المغالاة^٣.

أقول: تقريب دلالة الآية على الجواز أن النهي عن الأخذ منه دال على صحة جعل القنطار مهراً وتملكهن له بالمقد، ولا معنى للجواز وعدمه في المقام إلا الصحة وعدمها، والخمرة للأمر الخارج والجهة العرضية، كحرمة البيع وقت النداء وإن كان ممكناً، إلا أنها محتاجة إلى الدليل المعتبر، بل في الآية إشعار بعدمها، ويشهد لما ذكر فهم المرأة وجميع الحاضرين في المسجد ذلك، ورجوع عمر عن قوله.

ولا معنى للدلالة إلا فهم العرب من الكلام، والعجب مع ذلك من الفخر أنه بعد نقل الرواية قال: وعندي أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة^٥... إلى آخره.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنٰ مِنْكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا [٢١]

ثم بالغ سبحانه في إنكار الأخذ من المهر بجعله لشدّة الشناعة محلّاً للتعجب، بقوله: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ» منهن، ولأني سبب تستردون شيئاً مما استحللتم به فروجهن يطيب أنفسكم؟! والحال أنه «وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ» واستمتع كل منكما - بالجماع وغيره من وجوه الاستمتاع - من الآخر، وحصلت بينكما الألفة التامة والقرابة الكاملة، حيث إن العرب يقولون: صُحبة عشرين يوماً قرابة^٦. فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟

«وَأَخَذْنٰ مِنْكُم» على الصداق مع ذلك الإفضاء والاتصال «مِثَاقًا غَلِيظًا» وعهداً وكيداً. عن ابن

١. تفسير الرازي ١٠: ١٣. ٢. في المصدر: تغالوا. ٣. تفسير الرازي ١٠: ١٣.

٤. زاد في النسخة: وليس، ولا يصح.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١٧.

عباس عليه السلام: العيثاق الغليظ: كلمة النكاح المعقودة على الصداق، وتلك الكلمة كلمة يستحل بها فروج النساء^١.

قال عليه السلام: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^٢. وعن عكرمة: هو قولهم: زوجتك هذه المرأة على ما أخذ الله للنساء على الرجال، من إمسالكه بمعروف، أو تشريح بإحسان، فإذا ألجأها إلى أن بذلت المهر، فما سرحها بإحسان، بل سرحها بالإساءة^٣.

وعن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «العيثاق هي الكلمة التي عقد بها النكاح، والغليظ هو ماء الرجل يفضيه إليها»^٤. ولعل بعض مفسري العامة تبعوا هذه الرواية، حيث قالوا: أخذن منكم - بسبب إفضاء بعضكم إلى بعض - ميثاقاً غليظاً، فوصفه بالغلظة لقوته وعظمته^٥.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

وَسَاءَ سَبِيلًا [٢٢]

ثم أنه تعالى بعدما منع من إرث أعيان النساء، وكان الرِّجُل في الجاهلية يرث زوجة أبيه كما يرث ماله وينكحها، نهى الله سبحانه عن نكاح زوجة الأب، بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ وإن علوا ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولا تتزوجوا بزوجاتهم ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من هذا النكاح منكم.

قيل: إن التقدير: إن هذا النكاح قبيح حرام يعاقبكم الله عليه، إلا النكاح الذي سلف منكم في الجاهلية، فإنه لجهلكم كشتم مذورين فيه.

عن القمي عليه السلام: عن الباقر عليه السلام: قال: «كان في الجاهلية في أول ما أسلموا في قبائل العرب إذا مات حميم الرِّجُل وله امرأة، ألقى الرِّجُل ثوبه عليها، فورث نكاحها بصدّاق حميمه الذي كان أصدقها كما يرث ماله، فلما مات أبو قيس بن الأسلت ألقى محصن بن أبي قيس ثوبه على امرأة أبيه؛ وهي كبيشة بنت معمر بن معبد، فورث نكاحها، فتركها لا يدخل بها ولا يتفق عليها، فأثرت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، مات أبو قيس بن الأسلت فورث ابنه محصن نكاحي، فلا يدخل عليّ، ولا يتفق عليّ، ولا يخلّي سبيلي فألحق بأهلي. فقال رسول الله ﷺ: «ارْجعي إلى بيتك، فإن يحدث الله في شأنك

٣- تفسير الرازي ١٠: ١٦.

٤- تفسير العياشي ١: ٩١٠/٣٨٠، الكافي ٥: ١٩/٥٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٠٢، ولم نجده في المجمع، والظاهر أن

المصنف أخذه من تفسير الصافي.

٥- تفسير الرازي ١٠: ١٧.

شيئاً أعلمتكم» فنزلت الآية^١.

ثم بالغ سبحانه في الردع عنه ببيان علل التحريم بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في جميع الليل ﴿فَاحِشَةً﴾ شديدة الفحاحة لكونه تهجماً على فراش الآباء الذين حقوقهم أعظم من حق كل أحد، وكان ﴿مَفْتَنًا﴾ وموجباً لغضب الله، وغضب ذوي المروءات - قيل: إن العرب كانوا يُسمون من تولد منه بالمفتي^٢ - ﴿وَهُوَ﴾ إنه ﴿سَاءَ سَبِيلًا﴾ وبسّ طريقاً، حيث إنها تنتهي إلى النار.

قيل: أشار بالفاحشة إلى الفتنح العقلي، وبالمفت إلى الفتنح الشرعي، ويقول: ﴿سَاءَ سَبِيلًا﴾ إلى الفتنح العادي^٣، فبين سبحانه أن فيه جميع جهات الفتنح ومراتبه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الْأَبْنَى أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ الْأَبْنَى فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الْأَبْنَى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [٢٣]

ثم أنه تعالى بعدما ذكر حرمة منكوحة الأب على ابنه، شرع في بيان حرمة نكاح أصناف آخر من النساء، بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في شرع الإسلام ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ نكاحاً واشتيماعاً، وإن غلن كالجدات، وجدات الجدات ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وإن سفلن ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ من الأب، أو من الأم، أو منهما ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ من قبل الأب، أو من قبل الأم، وإن علون ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ للأب، أو الأم، أولهما، وإن نزلن، ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ بالتفصيل المذكور.

ثم بعد ذكر المحرمات السبع السببية، ذكر المحرمات بالرضاع بقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ الْأَبْنَى أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وتدخل فيها الجدات ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ فنزل سبحانه الرضاع منزلة النسب، حيث سمي الرضعة أمّاً، والرضاعة أختاً، فبه بذلك على حرمة العناوين السبعة الحاصلة بالرضاع كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرضاع لُحْمَةٌ كُلُّحْمَةُ النَّسَبِ»^٤ وقال: «يحرم من الرضاع ما يحرم

١. تفسير القمي ١: ١٣٤.

٢. تفسير الرازي ١٠: ٢٤، تفسير أبي السعود ٢: ١٦٠.

٣. تفسير الصافي ١: ٤٠٣.

٤. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٧، مجمع البيان ٣: ٤٣.

من النَّسَب^١.

ثم شرع في المحرمات بالمصاهرة، بقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وزوجاتكم الدائمات، أو المنقطعات المدخول بهن أولاً، وإن علّت الأمهات وكُنّ رضاعيات ﴿وَزَبَائِكُمُ الْآلِي﴾ يَكُنّ في حُجُورِكُمْ، وإن سَقَلن، إذا كُنّ ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وأزواجكم ﴿الآلِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ وباشرتموهن. سميت بنت الزوجة إذا كانت من الزوج الأخر ربيبة؛ لأن الغالب أن الإنسان يُربّيها كما يُربّي ولده. واشتعر الجحر للتربية؛ لأنه يُجلس الطفل الذي يُربّيهِ في حجره. وفي تقييد الزبائب بالآلِي في الحُجُور، مع كونه تخصيصاً، إشعاراً بأنهن بمنزلة البنات.

﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ولم تجامعوهن ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في تزوج بناتهن ﴿وَحَلَائِلَ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ سواء كانت حليلة الابن زوجة دائمة له، أو منقطعة، أو ملك يمين، وسواء كان الابن نسيباً، أو رضاعياً، بلا واسطة أو معها، والتقييد بكونه من الصُّلب لإخراج الأدعياء.

قيل: إن الرّيب المتبني كان في الجاهلية بمنزلة الابن الصُّلبي، لا ينكح المتبني زوجة المتبني ولذا غير المشركون رسول الله ﷺ حين تزوج زينب بنت جحش بعدما فارقت زوجها زيد بن حارثة، وكان ﷺ تبناه ودعاه ابناً، فنزل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾^٢ وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾^٣ إلى آخره.

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا﴾ في النكاح، أو في ملك اليمين مع الوطء ﴿بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، ثم استثنى من لازم الحكم بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسبق منكم من الجمع في زمان الجاهلية. والمعنى: أنكم تفاعبون على الجمع بين الأختين إلا على الجمع في زمان الجاهلية، فإنه لجهلكم معفوٌّ ومغفورٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ للمذنبين ﴿رَحِيماً﴾ بالمؤمنين.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجِّلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَقْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ أَفْرِضَةٍ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً [٢٤]

٢. الأحزاب: ٣٣/٤٠.

١. تفسير الرازي ١٠: ٢٩، تفسير البيضاوي ١: ٢٠٨، تفسير الصافي ١: ٤٠٣.

٣. الأحزاب: ٣٣/٤١.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ وَالْمَرْجُوحَاتُ ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللَّاتِي أَحْصَنَ فُرُوجَهُنَّ بِالتَّزْوِيجِ ﴿إِلَّا مَا﴾ كَانَتْ مِنَ الْمَرْجُوحَاتِ اللَّاتِي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إِيَّاهُنَّ وَاشْتَرَقْتُمُوهُنَّ بِالنِّسَاءِ أَوْ الْإِسْتِيْبَاءِ أَوْ الْأَسْرِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَالِكِ فَسْخَ عَقْدِ نِكَاحِهِنَّ إِذَا كُنَّ مَرْجُوحَاتِ الْغَيْرِ، وَوُطِّأَهُنَّ بَعْدَ الْعِدَّةِ أَوْ الْإِسْتِيْبَاءِ، بَلْ رُؤِي أَنْ يَبْعَثَهُنَّ طَلَاقَهُنَّ^١.

وعن أبي سعيد الخُدْري: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَصَابُوا فِي غَزَاةِ أَوْطَاسِ نِسَاءً، وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَلَا لَا تُوطَأُ الْحَبَالِيُّ حَتَّى يَضَعْنَ، وَلَا [غَيْرِ] الْحَبَالِيُّ حَتَّى يَسْتَبْرَأَ بِخَيْضَةٍ^٢.

ثُمَّ أَكَّدَ شَبْحَانَهُ تَحْرِيمَ الْمُحْرَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: الزَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَيْكُمْ، وَفَرِيضَتَهُ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْكُمْ.

ثُمَّ صَرَّحَ بِعُمُومِ حِلِّ التَّزْوِيجِ بِغَيْرِ الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ﴾ فِي دِينِ اللَّهِ ﴿مَا وَزَّاءَ ذُلُكُمْ﴾ وَمَا سِوَى هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ لِإِرَادَةِ ﴿أَنْ تَنْتَقُوا﴾ وَتَطْلُبُوا نِكَاحَهُنَّ ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ وَبِصَرْفِهَا فِي مَهْرِهِنَّ أَوْ أَثْمَانِهِنَّ، حَالٌ كَوْنَكُمْ بِتَزْوِيجِهِنَّ أَوْ تَمْلُكِهِنَّ ﴿مُخَصَّصِينَ﴾ وَمُحْرَزِينَ فُرُوجَكُمْ مِنَ الزِّنَا.

ثُمَّ أَكَّدَ شَبْحَانَهُ وَجُوبَ الْإِحْصَانِ وَالتَّعَفُّفِ عَنِ الزِّنَا بِقَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ وَغَيْرِ زَانِينَ ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ، وَمَنْ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴿بِجَمَاعٍ أَوْ عَقْدٍ﴾ فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَمَهْرَهُنَّ، لَكُنَّ الْمَهْرُ ﴿فَرِيضَةٌ﴾ مِنَ اللَّهِ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْكُمْ. قِيلَ: إِنَّ (فَرِيضَةً) مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، وَالتَّقْدِيرُ: فَرَضَهَا اللَّهُ فَرِيضَةً^٣.

فِي (الكَافِي): عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا نَزَلَتْ: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)»^٤. أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ: إِنَّمَا نَزَلَتْ بِهَذَا التَّفْسِيرِ، لَا أَنَّهُ نَزَلَتْ بِهَذَا التَّعْبِيرِ، لِطُلَانِ الْقَوْلِ بِالتَّحْرِيفِ، وَلَا شُبْهَةَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا التَّمَتُّعُ، وَهِيَ النِّكَاحُ الْمُؤَقَّتُ. وَنَقَلَهُ الْفَخْرُ الرَّازِي عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ^٥. ثَمَّ بَيَّنَّ شَبْحَانَهُ جَوَازَ تَجْدِيدِ التَّمَتُّعِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ وَلَا حَرَجَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إِذَا أَرَدْتُمْ تَجْدِيدَ الْعَقْدِ عَلَى الْمُتَمَتِّعِ بِهَا ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ مِنَ الْأَجَلِ وَالْمَهْرِ ﴿مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ الْأُولَى، وَهِيَ الْأَجَلُ وَالْمَهْرُ الْمُتَقَرَّرَانِ فِي الْعَقْدِ الْأَوَّلِ.

٢. مجمع البيان ٣: ٥١.

٤. الكافي ٥: ٣٢/٤٤٩، تفسير الصافي ١: ٤٠٦.

١. تفسير الرازي ١٠: ٤١.

٣. الكشف ١: ٤٨٨، تفسير الرازي ١٠: ٥٤.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٥١.

عن العياشي: عن الباقر عليه السلام: «لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجل آخر، برضى منها الخبر»^١.
 «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا» بمصالح العباد «حَكِيمًا» في ما شرع من الأحكام.

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
 فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ
 مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَأَنْ تَضَيَّرُوا
 خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٢٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان جواز نكاح الحرائر ذواماً ومثعة، أذن في نكاح الإماء، بقوله: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ» ولم يقدر «وَمِنْكُمْ طَوْلًا» وغنى - كما عن الباقر عليه السلام ^٢ - «أَنْ يَنْكِحَ» النساء «الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» والحرائر العفيفات، لغلاء صداقهن، وكثرة نفقاتهن «فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمْ» وإيمانكم «الْمُؤْمِنَاتِ» تزوجوا واقتنوا منهن بظاهر الحال في الإيمان «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ» القلبى الحقيقى، مطلع على سرائركم، ففوضوا الإيمان الباطن إلى علمه تعالى.
 ثم ردع سبحانه عن التأفف من تزويجهن لدناءة نسبهن، بقوله: «بَعْضُكُمْ» من بعض «بَعْضٍ» وكلكم من أزومة واحدة، لا فصل لبعضكم على بعض من جهة الأصل والنسب، وإنما الفضل بالإيمان.

وقيل: إن المراد: كلكم مشتركون في الإيمان، وهو أعظم الفضائل، وغيره لا يلتفت إليه ^٣. فبِهِ رَدْعٌ عن الافتخار بالأنساب.

رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ثلاث من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، ولا يدعها الناس في الإسلام»^٤.

ثم تبه سبحانه على شرط صحة هذا النكاح، بعد الإشعار بإشرافها بالإيمان، بقوله: «فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ»

١. تفسير العياشي ١: ٩٢٨/٣٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٠٦.

٢. مجمع البيان ٣: ٥٤، تفسير الصافي ١: ٤٠٧.

٣. تفسير الرازي ١٠: ٦٠.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٦١.

يَأْذِنُ أَهْلِيهِمْ» وَمَوَالِيَهُمْ، فَإِنَّهُمْ مَمْلُوكَات لَّهُمْ عَيْنًا وَمَنْفَعَةً، فَلَا يُجُوزُ التَّصَرُّفُ فِيهِمْ إِلَّا بِرِضَاهُمْ السَّابِقِ عَلَى التَّصَرُّفِ، وَإِنْ قُلْنَا بِصِحَّةِ الْعَقْدِ بِالْإِجَازَةِ لِلْآخِطَةِ، كَمَا هُوَ الْحَقُّ.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ: هَلْ يَتَزَوَّجُ الرَّجُلُ بِالْأَمَةِ بِغَيْرِ عِلْمِ أَهْلِهَا؟ قَالَ: «هُوَ زِنَا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَانكِحُوهُمْ يَأْذِنُ أَهْلُهُمْ﴾»^١. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ كَوْنِ الْمَوْلَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، وَلَا بَيْنَ النِّكَاحِ الدَّائِمِ وَالْمُنْتَقِطِ.

فَمَا فِي (الكَافِي)، عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «لَا بَأْسَ بِأَنْ يَتَمَتَّعَ الرَّجُلُ بِأَمَةِ الْمَرْأَةِ، وَأَمَّا أَمَةُ الرَّجُلِ فَلَا يَتَمَتَّعُ بِهَا إِلَّا بِأَمْرِه»^٢، فَلَعَلَّهُ لَا عَمَلَ بِهِ.

﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ بِأَذْنِ مَوَالِيهِمْ «أُجُورَهُمْ» وَمُتَّوَرِّعِينَ، وَتَسْمِيَةِ الْمَهْرِ أَجْرًا لَكُنْهَ عِوَضَ الْبُضْعِ، وَهُوَ الْمَنْفَعَةُ. وَإِنَّمَا قَيْدُنَا الْإِيتَاءَ بِأَذْنِ مَوَالِيهِمْ لَكُنْهَا مَلْكًَا لَّهُمْ، وَلِيَكُنَّ الْإِيتَاءُ مَلَبَسًا «بِالْمَعْرُوفِ» وَهُوَ عَدَمُ الْمَطْلِ وَالضَّرَارِ وَالنَّقْصِ. وَقِيلَ: فِي إِطْلَاقِ إِيْجَابِ إعْطَاءِ الْمَهْرِ ذِلَّةٌ عَلَى وَجْهِهِ وَإِنْ لَمْ يُسَمَّ لَهَا مَهْرًا، فَيَجِبُ فِي الصُّورَةِ مَهْرُ الْمِثْلِ بِالْذَّخُولِ. وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «بِالْمَعْرُوفِ» مَا هُوَ الْمُتَعَارَفُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمَهْرِ.

ثُمَّ أَشَارَ شَبِيحَانِهِ إِلَى أَنَّ وَجُوبَ إِيْتَاءِ الْمَهْرِ فِيمَا إِذَا كُنَّ «مُخَصَّنَاتٍ» عَقِيْفَاتٍ. وَقِيلَ: إِنَّ جَوَازَ نِكَاحِ الْأَمَةِ أَوْ اسْتِحْبَابَهُ مُقَيَّدٌ بِهِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمَعْنَى: فَاكِحُوهُمْ حَالَ كَوْنِهِمْ عَقَائِفَ غَيْرِ زَانِيَاتٍ.

ثُمَّ أَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَفْرُقُونَ بَيْنَ الْمُتَجَاهِرَاتِ بِالزَّنَا وَالْمُسْتَتَرَاتِ، وَلِذَا نَصَّ اللَّهُ شَبِيحَانَهُ عَلَى عَدَمِ الْفَرْقِ بِقَوْلِهِ: «غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ» وَمُتَجَاهِرَاتٍ بِالزَّنَا «وَلَا مُتَخَذَّاتِ أَخْدَانٍ» وَمُصَاحِبَاتِ لِلْأَصْدِقَاءِ فِي السَّرِّ، يَزْنُونَ بِهِنَّ.

ثُمَّ ذَكَرَ شَبِيحَانَهُ حَكْمَ حَدِّهِنَّ فِي الزَّنَا بِقَوْلِهِ: «فَإِذَا أُحْصِيْنَ» بِالتَّزْوِيجِ «فَإِنْ أَتَيْنِ» بَعْدَ النِّكَاحِ وَالْإِحْصَانِ «فَفَاحِشَةٌ» وَارْتِكَبْنَ الزَّنَا سِرًّا أَوْ عَلَانِيَةً «فَعَلَيْهِنَّ» ثَابِتٌ شَرْعًا «نِصْفُ مَا» ثَبَتَ «عَلَى الْمُخَصَّنَاتِ» وَالنِّسَاءِ الْخَرَائِرِ «مِنَ الْعَذَابِ» وَالْحَدِّ، وَهُوَ الْجَلْدُ دُونَ الرَّجْمِ، لِلْإِجْمَاعِ وَلَعَلَّ تَبْعُضَ الرَّجْمِ. فَلَا يَزِيدُ حَدُّهَا عَلَى خَمْسِينَ جَلْدَةً إِذَا كَانَتْ مُحَصَّنَةً فَضْلًا عَمَّا إِذَا كَانَتْ بِكَرًّا. ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا النِّكَاحَ الْمُحَرَّمُ فِي الْأَصْلِ عَلَى قَوْلٍ، أَوْ الْمَكْرُوهُ عَلَى آخَرٍ، جَائِزٌ لَا خَرَاةَ فِيهِ «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ» عَلَى نَفْسِهِ «الْعَنَتَ» وَالْمَشَقَّةَ «وَمِنْكُمْ» لَغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَيْهَا،

١. تفسير العياشي ١: ٩٣٣/٣٨٧، تفسير الصافي ١: ٤٠٨.

٢. الكافي ٥: ٤٦٤/٤، تفسير الصافي ١: ٤٠٨.

حتى خاف من نفسه الوقوع في الزنا، ﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ «أَنْ تَضَيَّرُوا» على المَشَقَّة، وتَكْفُوا عن الزنا، وِنِكَاح الإماء فهو «خَيْرٌ لَّكُمْ» ديناً ودنياً من الإقدام على نِكَاحِهِنَّ لكَثْرَةِ مَفاسده ﴿وَأَلَّهَ غَفُورٌ» للذنوب «رَحِيمٌ» بالعباد.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ [٢٦]

ثم أنه تعالى - بعد ذكر هذه الآيات المقرونة بأعلى درجة الفصاحة، وبيان هذه الأحكام المشتملة على المصالح الكثيرة - أظهر البينة وغاية اللطف بالعباد ترغيباً لهم في الطاعة بقوله: «يُرِيدُ اللَّهُ» بإنزال هذه الآيات وبيان تلك الأحكام «لِيُبَيِّنَ لَكُمْ» ما فيه صلاح آخرتكم ودنياكم «وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ» الأنبياء والمؤمنين «الَّذِينَ» كانوا «مِنْ قَبْلِكُمْ» في الأزمنة السالفة.
قيل: فيه دلالة على أن هذه الأحكام كانت في جميع الشرائع^١.

﴿وَمَعَ﴾ «أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ» لوضوح أنه لو لم تكن الأحكام لم يتحقق العصيان، ولولا لم يتحقق التوبة، ولولاها لم تظهر صفة تَوَابِيته، وعفويته، وغفوريته، ولطفه في تَوْفِيقِهِ للتوبة «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بمصالح العباد «حَكِيمٌ» في وضع أحكامه.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا
عَظِيمًا [٢٧]

ثم أعاد ذكر الحكمة الثالثة اهتماماً بإظهار سعة رحمته بقوله: «وَاللَّهُ يُرِيدُ» «وَيَجِبُ» «أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ» ويعفو عنكم إثر ندمكم على عصيانكم «وَيُرِيدُ» أعداء الله «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ» وينهزمون فيها «أَنْ تَمِيلُوا» إلى الباطل بعد إعراضكم عنه وقبولكم الحق «مَيْلًا عَظِيمًا» وتضلوا بعد الهداية ضلالاً بعيداً.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا [٢٨]

ثم تحبب إلى عباده بإعلامهم بغاية رافتهم بهم، وإحسانه إليهم بقوله: «يُرِيدُ اللَّهُ» بتشريعة الحنيفة السهلة التي منها تحليل نِكَاح الإماء «أَنْ يُخَفِّفَ» ويضع «عَنْكُمْ» التكاليف الشاقة،

والأصار والأغلال التي كانت على الأمم الماضية.

ثم أشار إلى علة هذا التخفيف بقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ في نفسه وعقله وقواه، عاجزاً عن احتمال المشاق، جزوعاً عند الشدائد، لا يصبر عن الشهوات، ولا يحتمل مشقة الطاعات.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ...﴾^١، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ...﴾^٢، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ...﴾^٣، ﴿إِنْ تَجِدُوا كِبَارًا مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾^٤، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْضَحُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾^٥، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾^٦، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾^٧، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ...﴾^٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا [٢٩]

ثم لما أجاز سبحانه في التصرف في النفوس بالنكاح، وأمر باتباعه بالأموال، وإيفاء المهور والنفقات، نهى عن التصرف في الأموال بغير الوجه العقلائي والنحو المحلل في الشرع أولاً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾، ولا تصرفوا فيها ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالأسباب غير المبيحة للمال، كالقمار والرشوة والغصب والسرقه ونحوها. وعلى هذا التفسير تكون الآية مجملة. عن الباقر عليه السلام: «الرِّبَا والقِمَار والبُخْس والظُّلْم»^٩.

وعن الصادق عليه السلام: «عنى بها القمار، وكانت قریش تقامر [الرجل] بأهله وماله فنهاهم [الله] عن ذلك»^{١٠}.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الباطل [هو] كُلُّ مَا يُؤْخَذُ مِنَ الْإِنْسَانِ بِغَيْرِ عَوَضٍ^{١١}.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ التِّجَارَةُ﴾ التجارة كائنة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ بها. وعليه لا يكون الاستثناء منقطعاً لعدم كون التجارة من جنس الباطل، ويكون المعنى: ولكن يحل أكلها بالتجارة عن التراضي ويمكن توجيه الآية بنحو يكون الاستثناء متصلاً.

ثم بعد النهي عن التصرف في الأموال بغير الوجه المحلل، نهى عن التصرف في النفوس بالقتل - ثانياً - بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

١. النساء: ٤/٢٦. ٢. النساء: ٤/٢٧. ٣. النساء: ٤/٣١. ٤. النساء: ٤/٤٨.
٥. النساء: ٤/٤٠. ٦. النساء: ٤/١١٠. ٧. تفسير الرازي ١٠: ٦٨، والآية من سورة النساء: ٤/١٤٧.
٨. مجمع البيان ٣: ٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٠٩. ٩. في تفسير العياشي: نهى عن.
١٠. تفسير العياشي ١: ٩٤٥/٣٩٠، تفسير الصافي ١: ٤٠٩. ١١. تفسير الرازي ١٠: ٦٩.

قيل: إِنَّ الْمُرَادَ لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا^١.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الشَّخْصِ نَفْسِهِ^٢.

عن الصادق عليه السلام: «أَنْ مَعْنَاهُ: لَا تُخَاطِرُوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْقِتَالِ فَتَقَاتِلُوا مَنْ لَا تَطِيقُونَهُ»^٣.

وعنه عليه السلام: «كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَدْخُلُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي الْمَغَارَاتِ، فَيَتِمَكَّنُ مِنْهُمْ عَدُوُّهُمْ فَيَقْتُلُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ، فَهَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ فِي الْمَغَارَاتِ»^٤.

وعن القمي قال: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْغَزْوِ يَحْمِلُ عَلَى الْعَدُوِّ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَهَيْهَاتَ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ أَمْرِهِ^٥.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْجَبَائِرِ تَكُونُ عَلَى الْكَسِيرِ، كَيْفَ يَتَوَضَّأُ صَاحِبُهَا، وَكَيْفَ يَغْتَسِلُ إِذَا أَجْنَبَ؟ قَالَ: يُجْزِيهِ الْمَسْحُ^٦ بِالْمَاءِ عَلَيْهَا فِي الْجَنَابَةِ وَالْوُضوءِ، قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ فِي بَرْدٍ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا أَفْرَغَ الْمَاءَ عَلَى جَسَدِهِ؟ فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾»^٧.

أقول: يُمَكِّنُ بِاسْتِعْمَالِ لَفْظِ (الْقَتْلِ) وَ (النَفْسِ) فِي عُمُومِ الْمَجَازِ إِرَادَةَ تَعْرِيطِ نَفْسِهِ وَنَفْسِ غَيْرِهِ لِلْهَلَاكِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ.

ثُمَّ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ النَّهْيَ عَنِ إِتْلَافِ الْمَالِ وَالنَّفْسِ لِمَخْصَصٍ رَحِمَهُ بِالْعِبَادِ، حَتَّى عَلَى الطَّاعَةِ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ لَا يَرْضَى بِتَلَفِ أَمْوَالِكُمْ وَنَفْسِكُمْ، وَتَوْقُوعِكُمْ فِي الضَّرَرِ وَالْمَشَقَّةِ.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرًا [٣٠]

ثُمَّ أَحْذَرَ سُبْحَانَهُ بِالتَّهْدِيدِ عَلَى الْمُخَالَفَةِ بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ﴾ وَيُرْتَكِبُ ذَلِكَ الْمَذْكُورَ مِنْ إِتْلَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، حَالٌ كَوْنِ إِتْرَاكِبِهِ «عَدُوًّا» عَلَى الْغَيْرِ، وَتَجَاوُزًا عَنِ الْخُدُودِ الْإِلَهِيَّةِ «وُظْلَمًا» عَلَى الْعِبَادِ «فَسَوْفَ نُصْلِيهِ» وَتُدْخِلُهُ «نَارًا» لَا تُوصَفُ شِدَّةَ حَرِّهَا «وَكَانَ ذَلِكَ» التَّعْذِيبُ وَالتَّصْلِيَةُ «عَلَى اللَّهِ» الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ «يَسِيرًا» وَسَهْلًا.

١. تفسير الرازي ١٠: ٧٢، مجمع البيان ٣: ٥٩.

٢. مجمع البيان ٣: ٥٩.

٣. مجمع البيان ٣: ٦٠، تفسير الصافي ١: ٤١٠.

٤. تفسير القمي ١: ١٣٦، تفسير الصافي ١: ٤١٠.

٥. في تفسير العياشي: المس.

٦. تفسير العياشي ١: ٩٤٤/٣٨٩، تفسير الصافي ١: ٤١٠.

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا [٣١]

ثُمَّ بَالِغُ شُجْرَانِهِ فِي إِظْهَارِ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْغِيهِ فِي الطَّاعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا﴾ وَتَحْتَزُوا ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ مِنَ الْقَبَاحِ ﴿تُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ وَنَغْفِرْ لَكُمْ ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الصَّغِيرَةِ، وَذُنُوبِكُمُ الْحَقِيرَةِ ﴿وَنُدْخِلَكُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مُدْخَلَ﴾ وَمَنْزِلًا ﴿كَرِيمًا﴾ وَحَسَنًا مَرْضِيًّا.
قيل: إِنَّ الْمُرَادَ: إِدْخَالَ مَعَ كَرَامَةٍ^١.

في بيان الكبائر عن الباقر عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «كُلُّ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^٢.
وعن الصادق عليه السلام: «الْكَبَائِرُ الَّتِي أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّارَ»^٣.

وعنه عليه السلام، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «مَنْ أَجْتَنَبَ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ، إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا، كَفَرَ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ مُدْخَلَ كَرِيمًا، وَالْكَبَائِرُ السَّبْعُ الْمُوجِبَاتُ: قَتْلُ النَّفْسِ الْحَرَامِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ»^٤.

أَقُولُ: لَا شُبْهَةَ فِي وَجُودِ الْمُعْصِيَةِ الصَّغِيرَةِ، وَبُطْلَانِ ادِّعَاءِ أَنَّ جَمِيعَ الْمَعَاصِي كَبَائِرُ، لظُهُور الْكِتَابِ، وَصَرَاحَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي وَجُودِ الْقِسْمَيْنِ لِلْمَعَاصِي.

وَمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: - مِنْ أَنَّ كُلَّ مَا عَصِيَ اللَّهُ فِيهِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهَا شَيْئًا فَلَيْسَتْ غَفِيرَةً اللَّهُ^٥.
- فَمَحْمُولٌ عَلَى إِرَادَةِ وَجُوبِ اخْتِرَازِ الْعَبْدِ عَنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي، وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْهُ إِذَا ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْهَا، وَلَا يَجُوزُ لَهُ التَّهَاقُوتُ بِهَا.

ثُمَّ لَا رَيْبَ أَنَّ جَمِيعَ الْكَبَائِرِ لَيْسَتْ عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ، بَلْ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ، لَوْضُوحِ أَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ أَكْبَرُ مِنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَلَعَلَّ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ أَكْبَرُ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ أَكْبَرُ مِنْ قَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فَالْمِيزَانُ الثَّابِتُ بِالْأَخْبَارِ لِلْكَبَائِرِ هُوَ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ، وَإِنْ كَانَ الْوَعِيدُ بِالْإِثْرَةِ الْإِتْرَاقِيَّةِ، وَمَا ذُكِرَ فِي الْأَخْبَارِ مِنْ عَدَدِ الْكَبَائِرِ مِنَ السَّبْعِ، فَمَحْمُولٌ عَلَى بَيَانِ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ مُتَقَوْلٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَاعْتِرَاضُ الْفَخْرِ الرَّازِي عَلَيْهِ - بِأَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ مُتَعَلِّقٌ لِلدُّمِّ فِي الْعَاجِلِ وَالْعَقَابِ فِي الْآجِلِ^٦، فَلَا تَبْقَى صَغِيرَةٌ - سَطَطَ مِنَ الْكَلَامِ، لَوْضُوحِ عَدَمِ ذِكْرِ كَثِيرٍ مِنَ

٢. تفسير العياشي ١: ٩٥٧/٣٩٣، تفسير الصافي ١: ٤١١.

٤. نواب الأعمال ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٤١١.

٦. تفسير الرازي ١٠: ٧٤.

١. تفسير الصافي ١: ٤١١.

٣. الكافي ٢: ٢١١/١، تفسير الصافي ١: ٤١١.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٧٣.

المُحَرَّمَات كَالْأَشْيَاءِ وَالْقُبْلَةَ وَأَمْثَالَهُمَا فِي الْقُرْآنِ.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا
وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا [٣٢]

ثم - لما كان عدم الرضا بما قسمه الله لخلقه موجباً للحسد، وأخذ الأموال بالباطل، وقتل النفوس المحترمة بغير الحق - نهى الله سبحانه عن الطمع في ما في أيدي الناس وتمنيه، بقوله: «وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» من الأموال والأولاد والجاه مما يجري التنافس فيه، فإن ذلك قسمة من الله صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد، مترتبة على الإحاطة بجلائل شؤونهم وذقانتها.

فكل ما كنتم فاقدين له من الأمور الدنيوية وكان غيركم واجداً له، فلعل عدمه خير لكم، فعلى كل أحد من المفضل والمفضل عليه أن يرضى بما قسم له، ولا يتمنى المفضل عليه حظ المفضل، ولا يحسده عليه؛ لأنه معارضة لحكمة المقدّر، فإن الأنبياء كالأشكال والصُّور، وكما أن الأشكال والصُّور واختلافهما بمقتضى الحكمة الإلهية لا يطلع على سرّها أحد، فكذلك الأنسام والأنبياء. عن الصادق عليه السلام، في تفسير الآية: «أَيُّ لَا يَقُلُّ أَحَدُكُمْ: لَيْتَ مَا أُعْطِيَ فَلَانِ مِنَ الْمَالِ وَالنَّعْمَةِ وَالْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ كَانَ لِي، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ حَسْداً، وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي مِثْلَهُ»^١.

أقول: ومما ينبغي أن يقول: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي ما فيه صلاح دنياي وآخرتي، بل أحسن الأدعية ما علمه الله عباده في كتابه المجيد من قوله: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً»^٢. وقيل: إن وجه النظم أنه تعالى بعدما أمر بتطهير الجوارح من أقيح القبايح، وهو أخذ المال بالباطل، وقتل النفس المحترمة، أمر بتطهير القلب من أرذل الصفات، وهو الحسد على ما أعطاه الله غيره، ليصير الباطن موافقاً للظاهر في الطهارة من الذمائم^٣.

ثم علل سبحانه النهي عن التمني بقوله: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ» وحظ معين لا يتخطاه «مِمَّا اكْتَسَبُوا» بأعمالهم وصلاح حالهم، من النعم الدنيوية والأخروية «وَلِلنِّسَاءِ» أيضاً «نَصِيبٌ» وحظ «مِمَّا اكْتَسَبْنَ» فاطلبوا ما تريدون بالأعمال، لا بالتمني والحسد «وَسَأَلُوا اللَّهَ» بعضاً «مِنْ فَضْلِهِ» والتجسوا من جميع ما توجبونه وتحتاجون إليه من خزائن جوده ورحمته التي لا تنفد، فإن أعطاكم وأجاب شؤلكم فاشكروه، وإن منعكم فازضوا بما قسمه لكم، فإنه ليس إلا ليعلمه بصلاحكم «إِنَّ اللَّهَ

كَانَ يَكُلُّ شَيْءًا مِّنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ ﴿عَلِيمًا﴾ خَبِيرًا.

عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَبُّ شَيْئًا لِّنَفْسِهِ وَأَبْغَضُهُ لِحَلْقِهِ، أَبْغَضَ عَزَّ وَجَلَّ لِحَلْقِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَأَحَبُّ لِنَفْسِهِ أَنْ يُسْأَلَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ، فَلَا يَسْتَحْيِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَلَوْ شِيعَ نَعْلُهُ»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَهَا رِزْقًا حَلَالًا يَأْتِيهَا فِي عَافِيَةٍ، وَعَرَضَ لَهَا بِالْحَرَامِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، فَإِنْ هِيَ تَنَاوَلَتْ شَيْئًا بِالْحَرَامِ قَاصًّا بِهِ مِنَ الْحَلَالِ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ لَهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ سِوَاهُمَا فَضْلٌ كَثِيرٌ»^٢ وهو قوله: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

ثم قال: «وَذَكَرَ اللَّهُ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أُبْلَغَ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ مِنَ الصَّرْبِ فِي الْأَرْضِ»^٣.

قيل: إِنَّ سَبَبَ نُزُولِ آيَةِ أَنَّهُ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَلَهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ ضِعْفٌ مَا لَنَا، فَلَيْتَنَا كُنَّا رِجَالًا، فَنَزَلَتْ^٤.

وقيل: لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْمِيرَاثَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، قَالَتِ النِّسَاءُ: نَحْنُ أَحْوَجُ لِأَنَّا ضِعْفَاءُ، وَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى طَلَبِ الْمَعَاشِ^٥.

في بيان طبقة
الوزرات

وقيل: أُنْتُ وَاحِدَةٌ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَتْ: رَبُّ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنْتَ الرَّسُولُ إِلَيْنَا وَإِلَيْهِمْ، وَأَبُونَا آدَمُ وَأَمْنَا حَوَاءُ، فَمَا السَّبَبُ فِي أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ

وَلَا يَذْكُرُنَا؟ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، فَقَالَتْ: وَقَدْ سَبَقْنَا الرِّجَالَ بِالْجِهَادِ، فَمَا لَنَا؟

فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ لِلْحَامِلِ مِنْكُمْ أَجْرَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، فَإِذَا ضَرَبَهَا الطَّلُقُ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَا لَهَا مِنَ الْأَجْرِ، فَإِذَا أَرْضَعَتْ كَانَ لَهَا بِكُلِّ مَصَّةٍ أَجْرُ إِحْيَاءِ النَّفْسِ»^٦.

وقيل: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْمَوَارِيثِ قَالَ الرِّجَالُ: نَرْجُو أَنْ تُفَضَّلَ عَلَى النِّسَاءِ فِي الْآخِرَةِ كَمَا فَضَّلْنَا فِي الْمِيرَاثِ، وَقَالَتِ النِّسَاءُ: نَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْوِزْرُ عَلَيْنَا يَنْصِفُ مَا عَلَى الرِّجَالِ كَمَا فِي الْمِيرَاثِ، فَنَزَلَتْ^٧.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ

فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا [٣٣]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى، بَعْدَ ذِكْرِ مِيرَاثِ الْأَقْرَابِ وَالْأَزْوَاجِ، وَالْمَنَعَ عَنِ إِرْثِ نِسَاءِ الْمَيِّتِ، خُصُوصًا زَوْجَةَ الْأَبِ وَحُرْمَةَ نِكَاحِهَا، وَحُرْمَةَ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَذَكَرَ أَحْكَامَ آخِرَ بِالْمُنَاسِبَةِ، عَادَ إِلَى بَيَانِ

١. الكافي ٤: ٢٠، تفسير الصافي ٤١٣: ١.

٢. تفسير العياشي ١: ٩٦١/٣٩٤، تفسير الصافي ٤١٣: ١.

٣. تفسير العياشي ١: ٩٦٢/٣٩٤، تفسير الصافي ٤١٣: ١.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٨٢.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٨٢.

٦. تفسير العياشي ١: ٩٦٢/٣٩٤، تفسير الصافي ٤١٣: ١.

٧. تفسير الرازي ١٠: ٨٢.

حُكُم الْإِثْرَ وَذَكَرَ طَبَقَاتِ الْوَرَاثِ بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أفراد نَوْعِ الْإِنْسَانِ، ذَكَرَ كَانَ أَوْ أُنْثَى ﴿جَعَلْنَا﴾ وَقَرَرْنَا ﴿مَوَالِي﴾ وَوَرَاثًا يَرِثُونَهُ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَهُمْ أَوْلَى: ﴿الْوَالِدَانِ﴾ وَفِي طَبَقَتِهِمَا الْأَوْلَادُ وَالْأَزْوَاجُ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَذْكُرُوا هُنَا لِمَعْلُومِيَّةِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَلِتَعْظِيمِ شَأْنِهِمَا فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى. ثُمَّ ذَكَرَ الطَّبَقَةَ الثَّانِيَةَ بقوله: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِنَّمَا عَنِ ذَلِكَ أُولَى الْأَرْحَامِ فِي الْمَوَارِيثِ، وَلَمْ يَغْنِ أَوْلِيَاءُ النُّعْمَةِ، فَأَوْلَاهُمْ بِالْمَيِّتِ أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الرَّحْمِ الَّتِي تَجْرُوهُ إِلَيْهَا»^١.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ الثَّلَاثَةُ: بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾.

فِي (الكَافِي): عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِذَا وَالَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلَهُ مِيرَاثُهُ، وَعَلَيْهِ مَعْقَلَتُهُ»^٢، يَعْنِي: دِيَّةَ جُنَايَةِ خَطْئِهِ.

وَعَنِ الرِّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «عَنِ ذَلِكَ الْإِنَّمَةُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِهِمْ عَقْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيْمَانُكُمْ»^٣.

فَسَيَنْقُلُ كَلَامَ الْفَاضِلِ الْمَقْدَادِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي (آيَاتِ الْأَحْكَامِ): الْإِيمَانُ هُنَا جَمْعٌ: يَمِينُ الْيَدِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ الْعَهْدِ يَمْسُحُونَ الْيَمِينَ بِالْيَمِينِ، فَيَقُولُ الْعَاقِدُ: ذَلِكَ دَمِي، وَثَأْرُكَ ثَأْرِي، وَحَرْبُكَ

حَرْبِي، وَسِلْمُكَ سِلْمِي، تَرِثْنِي وَأَرِثُكَ، وَتَطْلُبُ بِي وَأَطْلُبُ بِكَ وَتَعْقِلُ عَنِّي وَأَعْقِلُ عَنْكَ، فَيَكُونُ لِلْحَالِفِ السُّدُسُ مِنْ مِيرَاثِ حَلِيفِهِ. وَهَذَا مِنْ إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى آلَتِهِ. وَقِيلَ: الْإِيمَانُ جَمْعُ يَمِينِ الْجَلْفِ، فَيَكُونُ مِنْ إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى سَبَبِهِ^٤.

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَهَذَا فَوَائِدُ:

الْأُولَى: كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَوَارَثُونَ بِهَذَا الْعَقْدِ دُونَ الْأَقَارِبِ، فَأَقْرَبُهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالْإِسْلَامِ وَالْهَجْرَةِ.

رُوي أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَكَانَ الْمُهَاجِرُ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ وَبِالْعَكْسِ، وَلَمْ يَرِثِ الْقَرِيبَ مِمَّنْ لَمْ يَهَاجِرْ، وَنَزَلَ فِي ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا»^٥، ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِالْقَرَابَةِ وَالرَّحْمِ وَالْأَنْسَابِ وَالْأَسْبَابِ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ»^٦.

١. التهذيب ٩: ٢٦٨/٩٧٥، تفسير الصافي ١: ٤١٣. ٢. الكافي ٧: ١٧١/٣، تفسير الصافي ١: ٤١٤.

٣. تفسير العياشي ١: ٣٩٥/٩٦٣، تفسير الصافي ١: ٤١٤. ٤. كنز العرفان ٢: ٣٢٤.

٥. الأنفال: ٧٢/٨. ٦. كنز العرفان ٢: ٣٢٤، والآية من سورة الأنفال: ٧٥/٨.

الثانية: هذا الحكم - أعني: الميراث بالمعاهدة والمعاقدة، وهو المسمى بضمّان الجريرة - منسوخ عند الشافعي مطلقاً، وقال: لا إرث به، وعند أصحابنا ليس كذلك، بل هو ثابت عند عدم الوارث النسبي والسببي لما روي عن النبي ﷺ، أنه خطب يوم الفتح فقال: «ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به، فإنه لم يردّه الإسلام إلا شدة، ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام».

إلى أن قال الفاضل: على ما قلناه من بقاء حكم الإرث بالمعاهد، فتكون الآية غير منسوخة بجملة، بل تكون محكمة، لكن الإرث فيها مجمل مفتقر إلى شرائط ومخصصات تعلم من موضع آخر من الكتاب، أو من السنة الشريفة.

وقال بعضهم: المعاقدة هنا هي المصاهرة، فيكون إشارة إلى إرث الزوجين، واختاره المعاصر^١، وفيه بُعد؛ لأنه عدول عن الظاهر، وعن قول الأكثر، انتهى^٢.

وقد سبق في طرفه من الطوائف بعض التحقيق في ذلك^٣.

وقيل: إن المراد من قوله تعالى: ﴿فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ النصرة والنصيحة، والمضافة في العشرة، والمخالصة في المخالطة، لا التوارث.

ثم وعد سبحانه المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمٌ مِّنَ الْغُيُوبِ﴾ والكليات وجميع أعمال العباد «شهيداً» وخبيراً يجازيهم على حسب أعمالهم إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشرّاً.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالضَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالْآتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فِعْظُوهُنَّ وَأَهْجُزُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا [٣٤]

في بيان فضل الرجال على النساء
ثم لما كان شأن نزول آية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^٤ - على ما ورد في بعض الروايات - في رذع النساء عن التكلم في تفضيل الرجال على النساء في الميراث، وتمنيهن المساواة لهم في النصيب، أشار سبحانه إلى وجه

١. مراد الفاضل المقداد من (المعاصر) هو ابن المتوج، وهو فخر الدين أحمد بن عبدالله بن سعيد بن المتوج

البحراني صاحب كتاب (النهاية في تفسير الخمسمائة آية). الذريعة ٢٤: ٢١٣٧/٤٠٢.

٢. كنز العرفان ٢: ٣٢٤. ٣. راجع: الطرفة (٢٠). ٤. النساء: ٣٢/٤.

التفضيل بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ مهيجون عليهن، مهتمون بتنظيم أمورهن، مبالعون في حفظهن، ناظرون في صلاحهن.

ثم علل سبحانه هذه القيمة بأمرين:

الأول: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى الْبَعْضِ﴾ الغالب ﴿عَلَى بَعْضِ﴾ الأغلب من النساء، من العقل والحزم، والقوة والفطنة، والشجاعة والسماحة، والعلم، [وغيرها] من الفضائل الداخلية والكمالات النفسانية.

والثاني: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ عليهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في نكاحهن، كالمهر والتفقة والإحسان وغيرها من الفضائل العملية. وفيه دلالة على وجوب نفقتهن على الأزواج.

عن النبي ﷺ أنه سئل: ما فضل الرجال على النساء؟ فقال: «كفضل الماء على الأرض، فبالماء تحيا الأرض، وبالرجال تحيا النساء، ولولا الرجال ما خلقت النساء» ثم تلا هذه الآية، ثم قال: «ألا ترى إلى النساء كيف يحضن ولا يمكنهن العيادة؛ من القدارة، والرجال لا يصيبهم شيء من الطمث»^١.

رؤي أن سعد بن الربيع أحد ثقباء الأنصار نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فطمعها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ وشكا، فقال صلوات الله عليه: «لنقتضن منه». فنزلت الآية، فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير، ورفع القصاص»^٢.

ثم أنه تعالى بعدما أشار إلى وظيفة الرجال، بين وظيفة النساء بقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ الخيرات منهن ﴿قَاتِنَاتٌ﴾ لله، مطيعات له ولأزواجهن، قائمات بأداء حقوقهم ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ من الأزواج بحفظ أنفسهن من الأجانب، وأموال أزواجهن من التلف والتبذير في غيابهم.

عن الصادق عليه السلام عن آبائه، عن النبي ﷺ: «ما أشتاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة، تشره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها، في نفسها وماله»^٣.

وقيل: إن المراد: حافظات لما يكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوات من الأسرار^٤.

﴿بِمَا حَفَظَ اللَّهُ لَهُنَّ﴾ وبعرض الحقوق التي جعلها الله لهن رعاية لهن على أزواجهن، من العدل والإحسان إليهن، وإيجاب إمساكنهن بالمعروف، وإعطائهن المهور والنفقات وغيرها.

وحاصل المعنى: أن حفظهن لحقوق الأزواج يكون في مقابل حفظ الله حقوقهن على الأزواج.

وقيل: إن المعنى: كونهن حافظات للغيب يكون بسبب حفظ الله لهن من الرزق، وتوفيق الله إياهن للقيام بحقوق الأزواج^٥.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٠٢.

١. علل الشرائع: ١/٥١٢، تفسير الصافي ١: ٤١٤.

٤. كنز العرفان ٢: ٢١٢. ٥. تفسير الرازي ١٠: ٨٩.

٣. الكافي ٥: ١/٣٢٧، تفسير الصافي ١: ٤١٤.

حكم نشوز الزوجة ثم لما بين سبحانه وظيفة الزوجة من التمكين والطاعة للزوج، بين حكم خروجها عن الطاعة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ وترفعهن عن الطاعة بظهور أماراته في أقوالهن وأفعالهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ وخوفهن بشيء عاقبة النشوز، وعقاب الله عليه، وانصحوهن بالترغيب إلى حسن العشرة والقيام بالطاعة ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ﴾ وتبعدوا منهن ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾ والمرآقد، إن لم يُفد الوعظ والنصح. قيل: هو أن لا يبيت معها في فراشها، بل في فراش آخر^١. وقيل: هو أن يؤلفها ظهره في الفراش^٢.

وقيل: هو أن لا يجامعها^٣. ولا يبعد أن يكون من الوجوه امتناعه عن التكلم معها. ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ إن لم يُفد الهجران، ضرباً غير جرح لَحْماً، أو كاسر عظماً. عن الباقر عليه السلام: «أنه الضرب بالمسواك»^٤. ولا يبعد أنه بيان أقله ووجوب رعاية ما يوجب ردعها في الهجر والضرب، وعدم جواز التعدي عنه.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ وقمن بحقوقكم بالضرب، ورجعن عن النشوز إلى الطاعة ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ ولا تطلبن إلى إيدائهن طريقاً بالتوبيخ والضرب وغيرهما.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعضها بلسانه، فإن انتهت فلا سبيل له عليها، فإن أبث هجر مضجعها، فإن أبث ضررها، فإن لم تعيط بالضرب بعث الحكمين»^٥.

ثم رغب سبحانه الأزواج بعد انتهاهن بالرفق بهن، واشتمالة قلوبهن، وقبول توبتهن، بقوله: ﴿إِنْ أَنَّى تَنَاصَرْتُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ شَانَاً كَبِيراً﴾ قدرة.

ففيه إشارة إلى أنه تعالى مع علو شأنه، وكمال قدرته، يعاملكم مع عصيانكم بالرفق، ويخطبكم بالشفقة ويستميل قلوبكم، ويقبل توبتكم، فعاملوا أزواجكم بعد ندمهم على النشوز معاملة ربكم العلي معكم.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَانْبِئْهُمَا بِحُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً [٣٥]

ثم أنه تعالى - بعد بيان حكم النشوز من طرف الزوجة - بين حكم النشوز، وعدم القيام بالحقوق، إذا كان من الزوجين، مخاطباً للحكام بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ والنشوز،

وتجاوز الحدود الشرعية منهما ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾ عادلاً منصفاً، صالحاً للحكومة من طرف الزوج كائناً ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ وأقاربه إلى الزوجة ﴿وَحَكَمًا﴾ آخر، على صفة حكم الزوج من طرف الزوجة، كائناً ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وعشيرتها إلى الزوج لإصلاح ذات البين.

قيل: نعين أهل الزوجين للحكمة لكونه أعرف بحالهما^١.

وقيل: هو على سبيل التدب، ويجوز البعث لغير الأهل لخصول الغرض^٢.

وعلى أي حالٍ وتقدير فالحكمان المعينان ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ وقصداً ﴿إِصْلَاحًا﴾ وتوفيقاً بين الزوجين بالشروط والالتزامات نظراً إلى صلاحهما ﴿يُوقِي الله﴾ ويؤلف بقدرته ﴿بَيْنَهُمَا﴾ قيل: إن ضمير الثانية الأولى أيضاً راجع إلى الزوجين^٣، وقيل: الثانية أيضاً راجعة إلى الحكّمين^٤ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بالكليات ﴿خَبِيرًا﴾ بالجزئيات، أو عليماً بالبوطن خبيراً بالظواهر من الأقوال والأفعال.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «الحكمان يشترطان إن شاء فرقا وإن شاء جمعا، فإن جمعا فجانز، وإن فرقا فجانز»^٥.

[و]أقال: ليس لهما أن يفرقا حتى يستأمرهما»^٦.

وَأَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا [٣٦]

ثم أنه تعالى لما أرشد الزوجين إلى طريق الإصلاح بينهما، أرشد الناس إلى طريق الإصلاح بينهم وبين الله بقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللهَ﴾ وأطيعوه أيها الناس جوارحاً وجوارحاً ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من الإشراك جليلاً وخفياً، ﴿وَوَاحِدًا﴾ بالوالدين، وإن علواً ﴿إِحْسَانًا﴾ لانقاً بظيم حقوقهما.

وفي إقران ذكر وجوب برهما بوجوب عبادة ذاته المقدسة تنبيه على كمال العناية بهما، وعلو قدرهما، والتأكيد في وجوب طاعتهما، والقيام بخدمتهما، والسعي في حوائجهما، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة، والخضوع لهما، وتليين الكلام معهما.

رُوي أن رجلاً جاء إلى رَسُولِ الله ﷺ من اليمن فاستأذنه في الجهاد، فقال صلوات الله عليه: «هل لك أحد باليمن؟» فقال: أبوي، فقال: «أبوك أذن لك؟» قل: لا، فقال: «فارجع فاستأذنهما، فإن أذنا

١. تفسير الرازي ١٠: ٩٣.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٥.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٥.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٥.

٥. الكافي ٦: ١٤٧، ٥/١٤٧، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

٦. الكافي ٦: ١٤٦، ٣/١٤٦، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

لَكَ فَجَاهِدْ، وَلَا فِرْهُمَا»^١.

وعن العياشي: عنهما عليهما السلام، في هذه الآية: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَحَدُ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلِيًّا عليه السلام الْآخَرُ»^٢.
ثُمَّ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَرْحَامِ بِقَوْلِهِ: «وَيَذِي الْقُرْبَى» وَالْأَرْحَامُ الْقَرِيبُ مِنْكُمْ وَالْبَعِيدُ، فَإِنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْإِحْسَانِ مِنْ غَيْرِهِمْ. «وَيَبْغُضُهُمُ الْيَتَامَى» لَضَعْفِهِمْ، وَصِغَرِهِمْ، وَعَدَمُ الْكَافِلِ لَهُمْ، «وَيَبْغُضُهُمُ الْمَسَاكِينُ» وَالْفُقَرَاءُ، «وَيَبْغُضُهُمُ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى» وَمَنْ لَهُ قُرْبُ الدَّارِ، «وَيَبْغُضُهُمُ الْجَارِ الْجُنُبِ» وَمَنْ يَكُونُ لَهُ بُعْدُ الدَّارِ.

بيان حدِّ الجار في (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «حَدُّ الْجَوَارِ أَرْبَعُونَ دَارًا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَخَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ»^٣.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ أَرْبَعِينَ دَارًا جِيرَانٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ»^٤.

وعن النبي ﷺ: «الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ. حَقُّ الْجَارِ وَحَقُّ الْقَرَابَةِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ: حَقُّ الْجَارِ، وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَجَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ: حَقُّ الْجَارِ، وَهُوَ الْمُشْرِكُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «حُسْنُ الْجَوَارِ يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»^٦.

وقال: «حُسْنُ الْجَوَارِ يُعَمِّرُ الدِّيَارَ، وَيَزِيدُ فِي الْأَعْمَارِ»^٧.

وعن الكاظم عليه السلام: «لَيْسَ حُسْنُ الْجَوَارِ كَفَّ الْأَذَى، وَلَكِنْ حُسْنُ الْجَوَارِ صَبْرُكَ عَلَى الْأَذَى»^٨.
وعن النبي ﷺ، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي مَحْمُودٌ بِيَدِهِ، لَا يُؤْذِي حَقَّ الْجَارِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، أَنْتَدِرُونَ مَا حَقَّ الْجَارِ؟ إِنْ افْتَقَرْتَ أَغْنَيْتَهُ، وَإِنْ اسْتَقْرَضْتَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَيْتَهُ، وَإِنْ مَرِضَ عَدَدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَعْتَ جَنَازَتَهُ»^٩.

وقيل: عنى بالجار ذي القربى: القريب النسب، وبالجار الجنب: الجار الأجنبي^{١٠}.

ثُمَّ ذَكَرَ الصَّنْفَ السَّابِعَ بِقَوْلِهِ: «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ» قِيلَ: هُوَ الَّذِي صَحَبَكَ وَحَصَلَ فِي جَنْبِكَ،

١. تفسير الرازي ١٠: ٩٥.

٢. تفسير العياشي ١/٣٩٧ و٩٧٢، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

٣. الكافي ٢: ٤٩١، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

٤. الكافي ٢: ٤٩١، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

٥. في مجمع البيان: الجوار.

٦. مجمع البيان ٣: ٧٢، تفسير الصافي ١: ٤١٦.

٧. الكافي ٢: ٤٨٩، وفيه: يزيد في الرزق، تفسير الصافي ١: ٤١٦.

٨. الكافي ٢: ٤٨٩، تفسير الصافي ١: ٤١٦.

٩. الكافي ٢: ٤٨٩، تفسير الصافي ١: ٤١٦.

١٠. تفسير الرازي ١٠: ٩٦.

إِنَّا بكونه رَقيقاً في سفر، أو جاراً مُلاصقاً، أو شريكاً في تَعْلُم أو حِرْفة، أو قاعداً بجنبك في مَجْلِس أو مُسجِد، أو غير ذلك مِمَّنْ له أدنى صِحة التَّامُّتِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فعليك أن [ترعى ذلك الحقَّ ولا تنساه و] تجعله ذريعة إلى الإحسان إليه^١.

وقيل: إِنَّه المرأة فإِنَّهَا تكون مَعَكَ وتَضْجَعُ إلى جَنْبِكَ^٢.

﴿وَبَعْدَهُمُ ابْنُ السَّبِيلِ﴾ وهو المُسافر المُتَطْعِمُ عن بَلَدِهِ وماله، والإحسان إليه بأن تُزوِّيه وتُرْزُده، وقيل: هُوَ الضَّيْفُ^٣. ﴿وَبَعْدَهُ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء.

عن القمي رحمه الله قال: الصَّاحِبُ بِالْجَنْبِ يعني صاحِبَك في السفر، وابن السبيل يعني أبناء الطَّرِيق الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ بِكَ في طريقهم، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ يعني الأهل والخادم^٤.

وقيل: هُوَ كُلُّ حَيوان تَمْلِكُهُ^٥. وعلى كُلِّ تقديرٍ، فَإِنَّ الإحسانَ إلى الكُلِّ طاعة عظيمة.

قيل: كانوا في الجاهلية يُسَيِّئُونَ إلى المَمْلُوكِ، فيُكَلِّفُونَ الإمامَ بالبُغْيِ^٦ والتَّكْسِبِ بِفُرُوجِهِمْ^٧.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ عُمْدَةُ المَوَانِعِ عن الإحسان والتَّوَجُّهُ إلى الفُقَرَاءِ والضُّعَفَاءِ والمَمَالِكِ التَّكْبُرُ والتَّطَاوُلُ، هَدَّدَ الله التَّارِكِينَ للإحسان إليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً^٨ وَتُكْبِراً^٩ فَخُوراً^{١٠} وَمُتَطَاوِلاً عَلَى النَّاسِ^{١١}.

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً [٣٧]

ثُمَّ قَسَمَهُمُ شَبَحَانَهُ قِسْمَيْنِ، وَعَرَفَ القِسْمَ الأوَّلَ بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بأموالهم ولا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ الله وَوُجُوهِ البرِّ مِنَ الجِهَادِ، وإعانة الفُقَرَاءِ، وصِلَةِ الأرحامِ، وأمثال ذلك.

ثُمَّ بالغَ شَبَحَانَهُ في [بيان] حُبِّهِمُ البُخْلَ بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ وَيُرْغَبُونَهُمْ فِيهِ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِإِنْفَاقِ أَحَدٍ إلى أَحَدٍ ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾ وَيَسْتَرُونَ مِنَ النَّاسِ ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وَأَعْطَاهُمْ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَسَعَةً جُودِهِ، بَأَن يُظْهِرُوا الفَقْرَ والإعْسَارَ مَعَ كَوْنِهِمْ أَغْنِيَاءَ مُوسِرِينَ لثَلَا يَتَوَقَّعَ مِنْهُمْ البَذْلَ أَحَدٌ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ هَذَا المَخْلَقُ الرَّذِيلَ مُلَازِماً لِلْكُفْرِ - وَلَوْ بِسَبَبِ إنْكَارِ حَقِّقِ الله مِنَ الزَّكَاةِ، وصِلَةِ الرُّحْمِ،

٢. تفسير الرازي ١٠: ٩٧.

١. تفسير الرازي ١٠: ٩٦.

٤. تفسير القمي ١: ١٣٨، تفسير الصافي ١: ٤١٦.

٣. تفسير الرازي ١٠: ٩٧.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٩٧، تفسير روح البيان ٢: ٢٠٦.

٧. تفسير الرازي ١٠: ٩٧.

٦. كذا، وفي تفسير الرازي: البغاء.

والإحسان إلى الفقراء - وإظهار الشكاية من الله وصفهم الله بالكفر، وهددهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيناً في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بالله ونعمته والدار الآخرة ﴿عَذَاباً مُهِيناً﴾ لهم لاستهانتهم بأحكام الله وعباده.

عن النبي ﷺ: «خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُسْلِمٍ الْبُخْلُ، وَشَوْءُ الْخُلُقِ»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «مَا كَانَ فِي شِيعَتِنَا فَلَا يَكُونُ فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ: لَا يَكُونُ فِيهِمْ مَنْ يَسْأَلُ بِكَفِّهِ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ بَخِيلٌ...»^٢

عن ابن عباس: أَنَّهُمُ الْيَهُودُ، بَخِلُوا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِمَا عَرَفُوا مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَتِهِ فِي التَّوْرَةِ، وَأَمَرُوا قَوْمَهُمْ أَيْضاً بِالْكَثْمَانِ، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنْ الْعِلْمِ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ فِي الْآخِرَةِ لِلْيَهُودِ ﴿عَذَاباً مُهِيناً﴾^٣.

وقيل: إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْأَنْصَارِ بِطَرِيقِ النَّصِيحَةِ: لَا تَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، فَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكُمْ الْفَقْرَ.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا [٣٨]

ثم عَرَفَ اللهُ الْقِسْمَ الثَّانِي بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ وَيَصْرِفُونَ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ فِي وَجْهِ الْبِرِّ، وَلَكِنْ لَا لِعَرْضِ طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْقُرْبِ إِلَيْهِ، وَطَلَبِ الْآخِرَةِ، بَلْ يَكُونُ غَرْضُهُمْ مِنَ الْبَذْلِ وَالْإِنْفَاقِ ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ وَلِتَحْصِيلِ الْجَاهِ بَيْنَهُمْ، وَالْمَدْحِ فِي أَلْسِنَتِهِمْ.

ثم أَشَارَ شَبَحَانَهُ إِلَى عِلَّةِ رِيَانِهِمْ بِالْإِنْفَاقِ بقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ حَتَّى يَقْصِدُوا بِإِنْفَاقِهِمُ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ وَطَاعَتَهُ، وَالنَّجَاةَ فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُرَائِينَ قَرَنَاءَ الشَّيْطَانِ يُضِلُّهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَجِيمِ ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ وَمُصَاحِبًا فِي الدُّنْيَا، لَا يُرْجَى مِنْهُ خَيْرٌ، وَلَا يَكُونُ لَهُ فَلَاحٌ ﴿فَسَاءَ﴾ إِذَنْ الشَّيْطَانُ ﴿قَرِينًا﴾ وَبَشَرٌ مُصَاحِبًا، حَيْثُ إِنَّهُ يَحْزُمُ قَرِينَهُ مِنَ النَّعَمِ الدَّائِمَةِ، وَيُدْخِلُهُ بِتَسْوِيلَاتِهِ الْجَحِيمِ الْحَاطِمَةِ.

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ لِذِكْرِ الرِّيَاءِ فِي إِنْفَاقِهِمْ، وَهُوَ النَّفَاقُ^٥.

وقيل: نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^٦.

١. الخصال: ١١٧/٧٥، تفسير الصافي ٤: ١١٧.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٦.

٣. تفسير الرازي ١٠: ٩٩.

٤. الخصال: ١١٧/٧٥، تفسير الصافي ٤: ١١٧.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٩٨.

٦. تفسير الرازي ١٠: ٩٩.

وعلى أي تقدير، تدل الآية على أن المنافق رياءٌ والبخلاء الذين لا ينفقون بشيءٍ مشاركون في الذم والعقاب لا شريكهم في ترك الإنفاق في ما ينبغي وكما ينبغي.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ
عَلِيمًا [٣٩]

ثم لام الله سبحانه كلا الفريقين على ترك الإيمان والإنفاق لوجه الله وفي سبيله الذي فيه نفع عظيم، وفي تركه ضرر كثير، بقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ من الضرر المتصور ﴿لَوْ﴾ أنهم ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مع وضوح دلائل التوحيد والمعاد ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ في سبيل الله شيئاً ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من المال مع كثرة منافعه، وعدم تصور الضرر فيه. وفيه غاية الحث والتحريض إليهما.

ثم هدّد سبحانه على تركهما بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ﴾ بأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والخفية ﴿عَلِيمًا﴾ ومن الواضح أن الاعتقاد بأن الله القادر، المنتقم، الشديد العقاب، مطلع على ظاهره وباطنه من أقوى الروايع عن الكفر والعصيان والتفارق والرياء.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضَافْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا [٤٠]

ثم بالغ سبحانه في ترغيب الناس إلى الإيمان والإنفاق في سبيله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ أحداً عَمَلٌ عملاً بزيادة عقابٍ، أو ينقص ثواب ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، ويقدّر ثمنه صغيرة لا شئالة صدور الظلم منه، مع كمال حكمته، وعدم حاجته. وفيه مبالغة في تنزيهه ساحته عن الظلم.

ثم أعلن عن سعة رحمته وعظمته فضله بقوله: ﴿وَإِنْ تَكَ﴾ زنة الذرة ﴿حَسَنَةً﴾ وفعله خير ﴿يُمْضَافْهَا﴾ الله بإضعاف ثوابها ﴿وَيُؤْتِ﴾ صاحبها ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ ومن خزان رحمته، زائداً على ما يستحقّه في مقابل عمله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جسيماً لا يعرف أحدٌ عظمته هذا الفضل وجسامته. وفي توصيفه بالعظمة دلالة على أنه أضعاف الدنيا وما فيها، حيث إنه وصف الدنيا وما فيها في كتابه بالمتاع القليل.

فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [٤١]

ثم أنه تعالى - بعد تهديد الكفار والمنافقين والبخلاء والمنفقين رياءً يعلمهم بسرائرهم وبواطن أمورهم، وتغذيبهم من غير ظلم - هدّدهم بأنه يقطع عذرهم، ويقيم عليهم الحجة، مضافاً إلى علمه

بإقامة الشهود عليهم من الأنبياء والرسل؛ بحيث لا يمكن لأحدٍ منهم الإنكار ودَعْوَى العُدْر، بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ ترون حال الكفّرة والعصاة في القيامة، من شِدَّة الهَوْل والْفَزَع ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِشَهِيدٍ﴾ عليهم من أنفسهم، وهو رُسولهم، يشهد بفساد عقائدهم، وعنادهم لله ورُسله، وارتكابهم السيئات طغياناً وكُفْراً ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد، بعد شهادة الرُّسل ﴿عَلَى﴾ صِدْقِ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الرُّسل ﴿شَهِيداً﴾ تشهد بصِدْقهم في ما شهدوا به.

وقيل: إن كلمة (هؤلاء) إشارة إلى المُكذِّبين، والمعنى: أنك تشهد بكُفْرهم، كما شهدت الأنبياء ﷺ.

رُوي أن النبي ﷺ قال لابن مسعود: «اقرأ القرآن عليّ» قال: فقلت: يا رسول الله، أنت الذي علمتنيه. فقال: «أحب أن أسمعه من غيري» قال ابن مسعود: فأفتحت سورة النساء، فلما انتهيت إلى هذه الآية، بكى الرُّسول ﷺ، قال ابن مسعود: فأمسكتُ عن القراءة^١.

وفي حديث، قال: «في مقام الرُّسل فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى أممهم، فأخبروا أنهم قد أدُّوا ذلك إلى أممهم وتُسال الأمم فيجحدون، كما قال الله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢، فيقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، فتشهد الرُّسل رُسولَ الله ﷺ فيشهد بصِدْقِ الرُّسل، ويكذِّب مَنْ جحدَها من الأمم، فيقول لكل أمة منهم: بلَى قد ﴿جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٣، أي مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم، بتبليغ الرُّسل إليكم رسالاتهم.

ولذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ فلا يستطيعون ردَّ شهادته خوفاً من أن يختم الله على أفواههم، وتشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون. ويشهد على منافقي أمته وكفارهم بالحادهم، وعنادهم، ونقضهم عهدهم^٤، وتغييرهم سنته^٥ الخبر.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة، في كل قرنٍ منهم إمام [منا] شاهِد عليهم، ومحمد شاهد علينا»^٦.

يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

١. تفسير الرازي ١٠: ١٠٥.

٢. الأعراف: ٦٧/٧.

٣. المائدة: ١٩/٥.

٤. زاد في الاحتجاج: قومه و.

٥. في الاحتجاج: عهد.

٦. الإحتجاج: ٢٤٢، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

٧. الكافي ١: ١٤٦، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

الله حديثاً [٤٢]

ثم كانه قيل: ما شدة حالهم التي أشرت إليها بقولك: ﴿فَكَيْفَ﴾ إلى آخره، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿يُودُّ﴾ ويتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوْا الرُّسُولَ﴾ وخالفوا أحكامه، وعارضوه بالكذب ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ وتنطبق عليهم بعد انشقاقها، وسقوطهم في بطنها، بحيث لا يبقى منهم أثر فوقها.

وقيل: إن المراد: يودون أنهم لم ينعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء^١.

وقيل: يودون أنهم صاروا كالبهائم ثراباً، كما حكى الله أن الكافر يقول يومئذ: ﴿يَا لَيْسَنِي كُنْتُ ثَرَاباً﴾^٢.

وعن القمي رحمه الله، قال: يتمنى الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض ابتلعتهم في اليوم الذي اجتمعوا [فيه] على غصبه^٣.

﴿وَ﴾ إذن ﴿لَا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً﴾ لعدم قدرتهم على الكتمان بعد ظهور أعمالهم وعقائدهم عند الله، وثبوت كفرهم وعصيانهم بشهادة الرسل.

عن الصادق عليه السلام، عن جده أمير المؤمنين صلوات الله عليه في خطبة يصف فيها هول يوم القيامة: «ختم على أفواههم، وتكلمت الأيدي، وشهدت الأرجل، ونطقت الجلود بما عملوا، فلا يكتُمون الله حديثاً»^٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يودون لو تنطبق عليهم الأرض، ولم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وآله، ولا كفروا به ولا نافقوا^٥.

وعن القمي: [يتمنى الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض ابتلعتهم في اليوم الذي اجتمعوا فيه على غصبه، و] أن لم يكتُموا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام^٦.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً

٢. تفسير الرازي ١٠: ١٠٦، والآية من سورة النبأ: ٤٠/٧٨.

١. تفسير الرازي ١٠: ١٠٦.

٤. تفسير العياشي ١: ٣٩٨/٩٧٦، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

٣. تفسير القمي ١: ١٣٩، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

٦. نفسى القمي ١: ١٣٩، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١٠٦.

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا [٤٣]

ثم لما أمر الله سبحانه الناس بعبادته، والإحسان إلى الأقارب والضعفاء، ورغب في ما أمر، ورهب عن المخالفة، بين شرائط أهم عباداته، وهي الصلاة، بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَشْتِغِلُوا بِهَا، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ لَا تَدْخُلُوا مَوَاضِعَ الصَّلَاةِ، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ «وَأَنْتُمْ سُكَارَى» مِنْ الْخَمْرِ، أَوْ مِنَ النَّوْمِ^١ «حَتَّى تَعْلَمُوا» وَتَفْهَمُوا «مَا تَقُولُونَ» فِي حَالِ الصَّلَاةِ.

رُوي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ صَنَعَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ طَعَامًا وَشَرَابًا، حِينَ كَانَتِ الْخَمْرَةُ مُبَاحَةً، فَأَكَلُوا وَشَرَبُوا، فَلَمَّا ثَجِلُوا جَاءَ وَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ، فَقَدَّمُوا أَحَدَهُمْ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ، فَقَرَأَ: (أَعْبُدْ مَا تَعْبُدُونَ وَأَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، فَتَزَلَّتْ. فَكَانُوا لَا يَشْرِبُونَ [فِي] أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّوْا الْعِشَاءَ شَرَبُوهَا، فَلَا يُصْبِحُونَ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُمْ الشُّكْرُ، وَعَلِمُوا مَا يَقُولُونَ^٢.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَكَانُوا يَشْرِبُونَهَا، ثُمَّ يَأْتُونَ الْمَسْجِدَ لِلصَّلَاةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْهُ^٣.

وعن الكاظم عليه السلام: «أَنَّ الْمُرَادَ شُكْرَ الشَّرَابِ، ثُمَّ نَسَخَهَا تَحْرِيمُ الْخَمْرِ»^٤.
وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ، وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّهُ إِذَا صَلَّى وَهُوَ يَنْعَسُ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيُسَبِّحُ نَفْسَهُ»^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «لَا تَقُمُ إِلَى الصَّلَاةِ مُتَكَاسِلًا وَلَا مُتَنَاعِسًا وَلَا مُتَنَاقِلًا، فَإِنَّهَا مِنْ خِلَالِ التَّنَاقُ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ أَنْ تَقُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» قَالَ: «شُكْرُ النَّوْمِ»^٦.

وعن الصادق عليه السلام قَالَ: «شُكْرُ النَّوْمِ»^٧.
وعنه عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: «يَعْنِي شُكْرَ النَّوْمِ، يَقُولُ: بِكُمْ تُعَاسُ يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ فِي رُكُوعِكُمْ وَسُجُودِكُمْ وَتَكْبِيرِكُمْ، وَلَيْسَ كَمَا يَصِفُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْكُرُونَ مِنَ الشَّرَابِ، وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَشْرَبُ مُسْكِرًا وَلَا يَسْكُرُ»^٨.

تحقيق في جميع وقد تصدَّى شيخنا البهائي لجمع الأخبار في حاشية (أسرار التنزيل)، ونقله الأخبار الفيض عليه السلام في (صافيه) بعين عباراته، فراجع^٩.

١. مجمع البيان ٣: ٨١. ٢. تفسير الرازي ١٠: ١٠٧.

٣. تفسير الرازي ١٠: ١١٠. ٤. مجمع البيان ٣: ٨٠، تفسير الصافي ١: ٤١٩.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١١٠. ٦. تفسير العياشي ١: ٩٧٧/٣٩٨، علل الشرائع: ١/٣٥٨، تفسير الصافي ١: ٤١٩.

٧. الكافي ٣: ٣٧١/١٥، تفسير الصافي ١: ٤١٩. ٨. تفسير العياشي ١: ٣٩٩/٩٨٠، تفسير الصافي ١: ٤١٩.

٩. تفسير الصافي ١: ٤١٩.

والتحقيق والأولى في الجمع أن العامة خصوا الآية بالسكر من الخمر، وأنكروا شمولها لشكر النوم لكونه مجازاً. فتلك الأخبار الواردة عن المعصومين ناطرة إلى المنع عن تخصيص الآية بالسكر من الخمر، وتعميمها بالدلالة المطابقة أو الالتزامية والفحوى لجميع أحوال عدم إتيان الإنسان لهما يقول، ولو كان من جهة غلبة النوم.

ومعنى قوله عليه السلام: «نسخها تحريم الخمر». منع تحريم الخمر عن وجود شكر الخمر للمؤمن، وانحصار السكر في السكر من النوم. ولعل ما ذكرنا كان مراد الشيخ.

ثم ذكر سبحانه الشرط الآخر لصحة الصلاة، أو للقرب إلى مكانها، بقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونكم ﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ ومجتازين من المسجد ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ من الجنابة. عن الباقر عليه السلام، والقمي عن الصادق عليه السلام: «الحائض والجنب لا يدخلان المسجد إلا متجازين، فإن الله يقول: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾»^١.

وقد صحح إرادة الأركان المحصورة من ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾ بقرينة قوله: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا مَا تَقُولُونَ﴾، وإرادة موضع الصلاة، وهو المسجد، بقرينة قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ وهذا الوجه وإن كان خلاف الظاهر إلا أنه لا يهد منه بعد ثبوت إرادة الحكمين من القضيتين بدلالة الروايات المتبعة. ثم ذكر حكم تعذر الطهارة المائية بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي حَالِ الْجَنَابَةِ مَرَضَى﴾ يضركم استعمال الماء والاعتسال ﴿أَوْ﴾ كنتم ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ ومثلسين به، في طريق لا يوجد فيه الماء ﴿أَوْ﴾ جاء أحد منكم من الغائط والمكان المنخفض من الأرض، كُنِيَ به عن الحدث، لغلبة وقوعه فيه ﴿أَوْ لَمْ تَمْسُشْ﴾ وبأشركم ﴿النِّسَاءَ﴾ بالجماع قُبلاً أو ذُبْراً، كما في المستفيض من الأخبار ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ بعد الحدث الأصغر أو الأكبر ﴿مَاءً﴾ كافياً للوضوء أو الغسل، أو لم تتمكنوا من استعماله للضرر أو الخرج ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ وتعمدوا ﴿صَعِيداً طَيِّباً﴾ وأرضاً طاهرة.

في بيان معنى عن الصادق عليه السلام: «الصعيد: الموضع المرتفع، والطيب: الذي ينحدر منه الماء»^٢. الصعيد

أقول: قال الفاضل المقداد، في (آيات الأحكام)، في تفسير الآية: واقتصدوا شيئاً من وجه الأرض - إلى أن قال -: ولذلك قال أصحابنا: لو ضرب المتيمم يده على حجر

صَلَبَ ومسح أجزأه، وبه قال أبو حنيفة... إلى آخره^٣.

وعن الزجاج أنه قال: الصعيد: وجه الأرض؛ ثراباً [كان] أو غيره^٤، ولا أعلم خلافاً بين أهل اللغة^٥.

١. تفسير القمي ١: ١٣٩، تفسير العياشي ١: ٩٨١/٣٩٩، علل الشرائع: ١/٢٨٨، تفسير الصافي ١: ٤١٩.

٢. معاني الأخبار: ١/٢٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٠. ٣. كنز العرفان ١: ٩/٢٦. ٤. مجمع البيان ٣: ٨٠.

وقال الفخر الرازي: الصَّعِيد الطُّيْب: هُوَ الْأَرْضُ الَّتِي لَا سَبِيحَةَ فِيهَا.^٧

وقال البيضاوي، في تفسير الآية: فَتَعَمَدُوا شَيْئاً مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ [طاهراً].^٨

والحاصل: أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ لَفْظَ الصَّعِيدِ فِي اللَّغَةِ: مُطْلَقٌ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَعَلَيْهِ جُلُّ اللَّغَوِيِّينَ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَأَنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي خُصُوصِ التُّرَابِ إِمَّا مَجَازاً وَإِمَّا مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ عَلَى الْفَرْدِ. وَعَلَيْهِ يُحْتَمَلُ كَلَامُ بَعْضِ اللَّغَوِيِّينَ يَمُنُّ قَالَ إِنَّهُ التُّرَابُ، لَوْضُوحُ أَنَّ مَقْصُودَ اللَّغَوِيِّ بَيَانُ مَوْرَدِ الْإِسْتِعْمَالِ، لَا خُصُوصِ الْمَعْنَى الْمَوْضُوعِ لَهُ اللَّفْظُ، وَلِذَا نَقَلَ ذَلِكَ الْبَعْضُ اسْتِعْمَالَهُ فِي مُطْلَقِ وَجْهِ الْأَرْضِ أَيْضاً، كَمَا لَا رَيْبَ أَنَّهُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيداً زَلَقاً﴾^٩ وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾^{١٠}. وَعَلَيْهِ جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ، وَإِنَّمَا فَسَّرَهُ بَعْضُهُم بِالتُّرَابِ فِي الْآيَةِ بِتَوْهَمِ كَوْنِ كَلِمَةِ (مِنْهُ) فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ^{١١} قَرِينَةً عَلَى إِرَادَةِ التُّرَابِ مِنْهُ فِي الْآيَةِ^{١٢}. وَهُوَ مَمْنُوعٌ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى جَوَازِ التَّيَمُّمِ بِالرَّمْلِ وَالْحَجَرِ وَالْمَدَرِ وَسَائِرِ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ عِنْدَ فَقْدِ التُّرَابِ. وَكَلِمَةُ (مِنْهُ) - عَلَى فَرْضِ إِرَادَةِ التَّبَعِضِ مِنْهَا - تَدُلُّ عَلَى اخْتِيَارِ الْعُلُوقِ^{١٣}، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ إِرَادَةُ التُّرَابِ^{١٤}، لِإِمْكَانِ كَوْنِ الْعُلُوقِ مِنْ غَيْرِهِ.

وَلَيْسَ فِي أَغْلَبِ أَخْبَارِ بَيَانِ التَّيَمُّمِ إِلَّا لَفْظُ الْأَرْضِ، وَمَا فِي قَلِيلٍ مِنْهَا مِنْ لَفْظِ التُّرَابِ لَا مَقْهُومَ لَهُ يُوجِبُ تَشْيِيدَ مُطْلَقَاتِ لَفْظِ الْأَرْضِ.

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ الْإِثْنَانِيَّةُ، فَمَا هُوَ الثَّابِتُ مِنْ طَرِيقِ أَصْحَابِنَا فَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»^{١٥} وَأَمَّا مَا زَوِيَ مِنْ قَوْلِهِ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتُرَابُهَا طَهُوراً»^{١٦} فَلَمْ تَثْبُتْ صِحَّتُهُ، مَعَ وَضُوحِ بَطْلَانِ مَضْمُونِهِ، لِإِذَا ذَكَرْنَا مِنْ اتِّفَاقِ النُّصُوصِ وَالْفَتَاوَى عَلَى جَوَازِ التَّيَمُّمِ بِغَيْرِ التُّرَابِ عِنْدَ فَقْدِهِ، فَالْأَرْضُ جَمِيعُهَا طَهُورٌ، لَا خُصُوصَ تُرَابِهَا، إِنَّمَا الْكَلَامُ فِي التَّرْتِيبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَعَدَمِهِ، نَعَمْ لَوْ كَانَ قَوْلُهُ: «وَتُرَابُهَا طَهُوراً» صَحِيحاً مِنْ حَيْثُ السَّنَدُ، أَوْ مَقْبُولاً عِنْدَ الْأَصْحَابِ، حَمَلْنَاهُ عَلَى صُورَةِ وَجْدَانِهِ، وَالْأَخْبَارِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى صُورَةِ فَقْدِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَاهَانَهُ كَيْفِيَّةَ التَّيَمُّمِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَامْسَحُوا بِبِاطِنِ كَفَيْكُمْ، بَعْدَ ضَرْبِهِمَا عَلَى الْأَرْضِ مَرَّةً ﴿بِوُجْهِكُمْ﴾ مِنْ قِصَاصِ الشَّعْرِ إِلَى طَرَفِ الْأَنْفِ ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ مِنَ الزَّنْدِ إِلَى رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ ﴿إِنَّ آفَةَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾.

٥. مجمع البيان ٣: ٨٢.

٦. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.

٧. تفسير البيضاوي ١: ٢١٧.

٨. المائدة: ٦/٥.

٩. الكهف: ٨/١٨.

١٠. المائدة: ١٠/١١٤.

١١. زاد في النسخة: منه.

١٢. العُلُوق: مَا يَمْلِكُ بِالْيَدِ مِنَ التُّرَابِ وَغَيْرِهِ، بَعْدَ الضَّرْبِ عِنْدَ التَّيَمُّمِ.

١٣. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.

١٤. أمالي الطوسي: ٨١/٥٧.

قيل: هذا التذليل إشارة إلى أنه تعالى إذا كان مُسهلاً على العُصاة بالعمو والعُقران، كان بالتسهيل على المطيعين في أحكامه وأوامره أولى^١.

عن الصادق عليه السلام في كيفية التيمم: فضرِبَ يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَهُمَا فَنَفَضَهُمَا، ثُمَّ مَسَحَ عَلَى جَبِينِهِ وَكَفَّيْهِ مَرَّةً وَاحِدَةً^٢.

وفي رواية أخرى: ثُمَّ مَسَحَ كَفَّيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى ظَهْرِ الْأُخْرَى^٣.

وفي رواية ثالثة: وَلَمْ يَمْسَحِ الذَّرَاعَيْنِ بَشْيْءً^٤.

أقول: لا شبهة في كيفية المسح على الجبين وظهر الكفين مع تقديم مسح ظهر الكف اليمنى بباطن اليسرى، وعدم وجوب مسح تمام الوجه والذراعين كما يفعله بعض العامة^٥، بل لا ريب في حرمة بقصد المشروعية، إنما الإشكال في كيفية الضرب الواحد للوجه واليدين مطلقاً، أو وجوب الضريتين، إحداهما للوجه والأخرى لليدين مطلقاً، أو الضرب الواحد في ما هو يدل عن الوضوء، والضريتان في ما هو يدل عن الغسل. ومنشأ الإشكال اختلاف الأخبار.

والأظهر في الجمع هو الاجتزاء بالضرب الواحد مطلقاً، واشتيجاب الزيادة، والأفضل مرتان للوجه ومرتان لليدين مطلقاً، ودونه في الفضل مرتان للوجه ومرة لليدين، ودونه مرة للوجه ومرة لليدين، وتأكد في ما هو يدل عن الغسل، فتزل الزيادة في الضرب منزلة الإِسْبَاح في الوضوء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَقْضُوا السَّبِيلَ [٤٤]

ثم - لما ذكر سبحانه من أول السورة إلى هنا كثيراً من حقوق الناس من الأرحام والأيتام والأزواج والسلفاء والأبوين والكلالة، وسائر الناس من المساكين والجار والصاحب والمماليك وغيرهم، والترغيب في الطاعة والترهيب في المخالفة ببيان فيه غاية الإعجاز، ومع ذلك كان أهل الكتاب الذين هم أهل العلم مصرين على الكفر والضلال - أظهر سبحانه وتعالى التعجب من ضلالهم بعد وضوح آيات صدق النبي، وصحة دين الإسلام، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى﴾ اليهود ﴿الَّذِينَ أُوتُوا

١. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.

٢. الكافي ٣: ١/٦٦، والتهذيب ١: ٢٠٧/٦٠١، عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ١: ٤٢١.

٣. الكافي ٣: ٣/٦٢، التهذيب ١: ٢٠٧/٦٠٠، تفسير الصافي ١: ٤٢١.

٤. التهذيب ١: ٢٠٨/٦٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٢١.

٥. راجع: تفسير الرازي ١٠: ١١٤، تفسير أبي السعود ٢: ١٨١.

تَصِيًّا» وَحَظًّا قَلِيلاً «مِنْ» عِلْمِ «الْكِتَابِ» الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ «يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ» لأنفسهم بَعْوَضَ الْهِدَايَةِ الَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ اللَّهِ وَيَؤَسُّطُكَ، بَلِ الْأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْنَعُونَ بِصَّلَاةِ أَنْفُسِهِمْ «وَيُزِيدُونَ» أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِكَيْثَمَانِ تُعَوِّتُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْقَاءِ الشُّبُهَاتِ وَالْجِيلِ وَالتَّسْوِيلَاتِ «أَنْ تَصِلُوا السَّبِيلَ» الْمُسْتَقِيمَ، وَتَرْجِعُوا عَنِ الْحَقِّ، وَتَكْفُرُوا بِدِينِ الْإِسْلَامِ.

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَبْرَيْنِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ كَانَا يَأْتِيَانِ رُؤُوسَ الْمُنَافِقِينَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَرَهْطَةَ يَنْتَظِمَانِهِمَا^١ عَنِ الْإِسْلَامِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ: عَوَامُ الْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْطُونَ عِلْمَاءَهُمْ بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَنْصُرُوا الْيَهُودِيَّةَ وَيَتَعْصَبُوا لَهَا، فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَشْتَرِي الصَّلَاةَ بِمَالِهِ^٢.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا [٤٥]

ثُمَّ تَبَيَّنَ لِلَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَاوَتَهُمْ، بِقَوْلِهِ: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ» جَمِيعاً مِنْكُمْ، بَلِ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِهِمْ، فَتَقُولُونَ الْيَهُودُ الَّذِينَ هُمْ أَعْدَى عَدُوِّكُمْ، وَتَتَوَقَّعُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَنْصُرُوكُمْ «وَكَفَى بِاللَّهِ لَكُمْ» وَلِيّاً» وَكَافِلاً لِكُلِّفَةِ أُمُورِكُمْ، وَمُجِبّاً «وَكَفَى بِاللَّهِ لَكُمْ» نَصِيراً» وَمُعِيناً فِي دَفْعِ أَعْدَانِكُمْ، فَلَا تَحْتَاجُونَ إِلَى وَلِيٍّ وَنَاصِرٍ غَيْرِهِ، فَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَلَا تَبَالُوا بِعَدَاوَةِ غَيْرِهِ.

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْتَ بِالْأَسْتِثْمِ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً [٤٦]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شَبَحَانَهُ كَيْفِيَّةَ إِضْلَالِهِمْ، وَشِدَّةَ عَدَاوَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَدِينِهِ، بِقَوْلِهِ: «مِنَ الَّذِينَ هَادُوا» قَوْمٌ «يُحَرِّفُونَ» وَيُمِيلُونَ «الْكَلِمَ» الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ «عَنْ مَوَاضِعِهِ» الَّتِي وَضَعَهَا فِيهَا إِلَى غَيْرِ تِلْكَ الْمَوَاضِعِ.

قِيلَ: إِنَّ تَحْرِيفَهُمْ كَانَ بِإِزَالَةِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِثْبَاتِ غَيْرِهِ مَكَانَهُ^٣.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ بِتَأْوِيلِهَا إِلَى الْمَعَانِي الْفَاسِدَةِ^٤.

١. فِي النُّسخَةِ: لِيُطَوِّدَهُمْ.

٢. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٠: ١١٥، تَفْسِيرُ أَبِي السَّعْدِ ٢: ١٨١، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ٢١٤. ٣. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٠: ١١٥.

٤. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٠: ١١٧، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١: ٤٢٢. ٥. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٠: ١١٨.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرهم الرسول بأمرٍ ﴿سَمِعْنَا﴾ أمره ﴿وَعَصَيْنَا﴾ استحقاراً به، وإظهاراً لمخالفته، ﴿وَقَالَ﴾ يقولون: ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامنا يا محمد، حال كونك ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ كلاماً ترضاه.

وقيل: إنَّ معناه: غير مُجابٍ إلى ما تدعو إليه^١.

وقيل: إنَّه دُعاءٌ عليه بالصَّمت، أو الموت^٢.

ويقولون: ﴿رَاعَيْنَا﴾ حين مخاطبتهم النبي ﷺ ﴿لَيَّا﴾ وقتلاً ﴿بِالْإِسْتِثْمِ﴾ قيل: إنَّهم كانوا يفيلون أشداقهم وألستهم عند ذِكْرِ هذا الكلام استهزاءً وسخرية^٣ ﴿وَوَطَعْنَا﴾ منهم ﴿فِي الَّذِينَ﴾ وقدحاً منهم في الرسول.

قيل: كانوا يلوون ألستهم حتَّى يصير قولهم (راعينا) (راعينا) وكانوا يريدون: إنَّك ترعى أغنامنا^٤. كانوا يقولون لأصحابهم: إنَّا نشتمه ولا نعرف، ولو كان نبياً لعرف ذلك، فأظهره الله تعالى لنبيه وعزفه، فصار ما فعلوه طعنًا في ثبوته دليلاً قاطعاً عليها؛ لأنَّ الإخبار بالغييب معجزة عظيمة.

ثم وبخهم الله على ما قالوا بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا﴾ عند استماع أوامر الله ورسوله، بدَّل قولهم: سمعنا وعصينا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أمر الرسول تعظيماً له وإظهاراً لطاعته، ﴿وَقَالَ﴾ يقولون: ﴿أَسْمَعُ﴾ ولا يلحقون به كلمة (غير مسموع)، ﴿وَقَالَ﴾ يقولون: ﴿أَنْظَرْنَا﴾ حتَّى نفهم كلامك، بدَّل قولهم (راعينا)، ولم يدسوا تحت كلامهم شراً وشوئاً، والله ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وأنفع في الدنيا والآخرة ممَّا قالوا، ﴿وَقَالَ﴾ كان ﴿أَقْوَمُ﴾ وأعدل عند العقل ﴿وَلَكِنْ﴾ لأجل أنَّه ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وخذَّلهم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ عمَّت قلوبهم، وبعُدوا عن الهدى، وتمزَّنوا في الضلال وجُحود الحق ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وآياته ورسوله ﴿إِلَّا﴾ إيماناً ﴿قَلِيلاً﴾ لا يُعْبَأُ به، وهو إيمانهم ببعض الآيات والرسول، أو إيمانهم باللَّسان دون القلب، أو إلَّا فريقاً قليلاً، كعبد الله بن سلام وأضرابه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ الْأَسْبَتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا [٤٧]

ثم لما ذكر سبحانه شدة عناد اليهود وشوئهم وفعالهم وأقوالهم، بأشَر بذاته المقدسة دعوتهم إلى الإيمان بمحمد وبكتابه، وخاطبهم بما فيه استمالة قلوبهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من قبل الله

٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٣.

١. تفسير الرازي ١٠: ١١٨.

٣. تفسير الرازي ١٠: ١١٩.

﴿الْكِتَابَ﴾ الْمُسَمَّى بِالتَّوْرَةِ، وَعَلِمُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَتَابَهُ ﴿آمَنُوا﴾ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي يَشْهَدُ بِصِدْقِهِ كَوْنُهُ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي فِيهَا نَعَتْ هَذَا الْكِتَابَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ لَمْ تَكُنْ أَخْبَارُ سَائِرِ الْكُتُبِ بِهِ صِدْقًا، وَكَوْنُهُ مُوَافِقًا لَهَا فِي النَّصَصِ، وَالذَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ، وَسَارِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَطْمِئِنَّ﴾ وَتُغَيَّرَ ﴿وُجُوهًا﴾ كَانَتْ لِلْمُصْرِفِينَ عَلَى الْكُفْرِ مِنَ الصُّورَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى صُورَةِ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْآخِرَةِ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ تَغْيِيرِهَا: مَخَوُّ آثَارِ الصُّورَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَاجِبِ، وَجَعْلِهَا كَحُفِّ الْبَعِيرِ وَحَافِرِ الدَّابَّةِ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ^١ «فَنَزَّذَهَا عَلَى أَذْبَارِهَا» وَأَقْبَيْتَهَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: نَجْعَلُهَا مَطْمُوسَةً عَلَى هَيْئَتِهَا ^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ الْمَعْنَى نَطْمِئِسُهَا عَنِ الْهَدْيِ فَنَزَّذَهَا فِي أَذْبَارِهَا، أَيْ فِي ضَلَالَتِهَا...» ^٣.
﴿أَوْ﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْ «تَلْعَنَهُمْ» وَتُخْرِجَهُمْ بِالْمَسْخِ فِي الدُّنْيَا «كَمَا لَعَنَّا» وَمَسَخْنَا «أَصْحَابَ السَّبْتِ» فِي زَمَانِ دَاوُدَ بِصُورَةِ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ.

ثُمَّ أَكَّدَ شَبْحَانَهُ التَّهْدِيدَ بِالْإِخْبَارِ بِتَحْتَمُّ الْعَذَابِ الْمَوْعُودِ، بِقَوْلِهِ: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ» وَعِقَابُهُ الْمَوْعُودِ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ﴿مُتَقُولًا﴾ لَا مُحَالَةَ، وَوَاقِعًا أَبَدِيَّةً لَا يُدَافَعُ شَيْءٌ.

قِيلَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ أَنْتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَاسْلَمَ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتُ أَرَى أَنْ لَا أُصِلَ إِلَيْكَ حَتَّى يَتَحَوَّلَ وَجْهِي فِي قَفَايَ ^٤.

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالطَّمْسِ وَرَدَّ الْوُجُوهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا لَمْ يَقَعْ لِأَنَّهُ كَانَ مَشْرُوطًا بِعَدَمِ إِيْمَانِ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَقَدْ آمَنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ ^٥.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا [٤٨]

ثُمَّ أَشَارَ شَبْحَانَهُ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِلَّتُهُمُ الشُّرْكَ، وَيَتَحْتَمُّ الْعَذَابُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أَبَدًا إِذَا لَمْ يَتُبِ الْمُشْرِكُ مِنْ شِرْكِهِ وَمَاتَ عَلَيْهِ، لِعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِ لِلْغُفْرَانِ وَأَقْبِضَاءِ الْحِكْمَةِ سَدِّ بَابِ الشُّرْكَ وَالْكَفْرِ، وَاحْتِمَالِ الْعَفْوِ عَنْهُ مُوجِبٍ لِفَتْحِهِ.

١. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٥.

٢. في مجمع البيان: على.

٣. تفسير الرازي ١٠: ١٢٢، تفسير أبي السعود ٢: ١٨٦.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٦.

٥. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٥.

٦. مجمع البيان ٨٦: ٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٣.

ثُمَّ بَشَّرَ سَبْعَةَ رَحِمَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فِي الْقُبْحِ مِنَ الْمَعَاصِي بِغَضَلِهِ وَإِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً، وَلَكِنْ لَا لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ.

فِي (الْفَقِيهِ): أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَثَلَ: هَلْ تَدْخُلُ الْكِبَائِرُ فِي مَثْبُتَةِ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، ذَلِكَ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شَاءَ عَذَّبَ عَلَيْهَا، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهَا»^١.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - فِي حَدِيثٍ - قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِإِخْلَاصٍ، فَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ الشُّرْكِ، وَمَنْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ - ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ -: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» مِنْ شِيعَتِكَ وَمُحْبِبِكَ يَا عَلِيُّ» قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الشِّيعَتِي؟ قَالَ: إِي وَرَبِّي، إِنَّهُ لَشِيعَتُكَ»^٢.

وَعَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَثَلَ عَنْ أَدْنَى مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُشْرِكًا، قَالَ: «مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَاحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ»^٣.

وَعَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» يَعْنِي لَا يَغْفِرُ لِمَنْ يَكْفُرُ بِوِلَايَةِ عَلِيٍّ ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي لِمَنْ وَالِيَ عَلِيًّا»^٤.

ثُمَّ أَشَارَ شَبَّاحَانَهُ إِلَى عِلَّةِ عَدَمِ مَغْفَرَةِ الشُّرْكِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ» شَيْئًا مِنْ صَنَمٍ أَوْ غَيْرِهِ «فَقَدْ أَفْتَرَى» وَافْتَرَفَ «إِنَّمَا عَظِيمًا» يَسْتَحَقُّ دُونَهُ الْأَثَامَ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا [٤٩]

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْيَهُودُ مَعَ سُوءِ أَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ مُبَالِغِينَ فِي تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ بِأَدْعَائِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَحِبَّاءُ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، أَظْهَرَ شَبَّاحَانَهُ التَّعَجُّبَ مِمَّا كَانَ يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنَ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ، مُخَاطَبًا لِنَبِيِّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: «أَلَمْ تَرَ» يَا مُحَمَّدٌ «إِلَى» هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ «الَّذِينَ يُزَكُّونَ» وَيَمْدَحُونَ «أَنْفُسَهُمْ» بِالطَّهَارَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَقُرْبِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَأَوَّلِيَّتِهِمُ بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ، وَالْحَالِ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ مَلْعُونُونَ عِنْدَ اللَّهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ تَزْكِيَةُ نَفْسِهِ ﴿بَلِ اللَّهُ» الْمُطَّلِعُ عَلَى صَمَائِرِ الْعِبَادِ «يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ» تَزْكِيَتِهِ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِتَقْوَى النُّفُوسِ وَكَمَالِهَا، كَمَا قَالَ: «فَلَا تَزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ

١. مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهِ ٣: ١٧٨٠/٣٧٦، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٢٣.

٢. مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهِ ٤: ٨٩٢/٢٩٥، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٢٣.

٣. تَفْسِيرُ الْعِبَاشِيِّ ١: ٩٩٣/٤٠٣، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٢٤.

٤. تَفْسِيرُ الْعِبَاشِيِّ ١: ٩٩٢/٤٠٣، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٤٢٤.

يَعْنِ أَتَقَى^١ فَيَجْزِيهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْجَزَاءِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بِالْعِقَابِ أَوْ يَنْتَقِصَ الثَّوَابُ ﴿فَتَيْلَا﴾ وَقَدَرًا قَلِيلًا.

أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا [٥٠]

ثم أشار سبحانه إلى وجه التعجب بقوله: ﴿أَنْظُرْ﴾ إلى هؤلاء المُرَكِّين لأنفسهم ﴿كَيْفَ﴾ يجترون و﴿يَفْتَرُونَ﴾ بدعاويهم الباطلة، من قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإنا لا نُعَذَّبُ في الآخرة ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ويجاهرون بهذا الافتراء ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ وذنباً ظاهراً.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا [٥١]

ثم بالغ سبحانه في ذمهم بما هو أقيح من الافتراء بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا﴾ وحظاً ﴿مِنْ﴾ عِلْمِ ﴿الْكِتَابِ﴾ وآيات التوراة، حتَّى تتعجب من خُبث ذاتهم، وقبح فعالهم، أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ ويعبدون الأصنام عناداً لدين الإسلام، وتعصباً لدين اليهودية. رَوَى أَن حَيَّيْ بْنَ أَخْطَبٍ وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِيَّيْنِ خَرَجَا إِلَى مَكَّةَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْيَهُودِ يُحَالِفُونَ قَرِيشًا عَلَى مُحَارَبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأَنْتُمْ أَقْرَبُ إِلَى مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ إِلَيْنَا فَلَا نَأْمَنُ مِنْكُمْ، فَاسْجُدُوا لَأَهْلِنَا حَتَّى تَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا، ففعلوا ذلك، فهذا إيمانهم بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ: لَأَنَّهُمْ سَجَدُوا لِلْأَصْنَامِ^٢.

عن الباقر عليه السلام: «الْجَنَّةُ وَالطَّاعُوتُ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ»^٣.

﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿وَأَشْرَكُوا وَلَتَطْلُبَ قُلُوبُهُمْ﴾: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الْمُشْرِكُونَ ﴿أَهْدَى﴾ وَأَرشَد ﴿مِنْ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا ﴿بِمُحَمَّدٍ﴾ سَبِيلًا ﴿وَأَحْسَنَ دِينًا﴾.

رَوَى أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ: أَنْحَنُ أَهْدَى سَبِيلًا أَمْ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ كَعْبٌ: مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: يَأْمُرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِهِ، وَيَنْهَى عَنِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَرْكِ دِينِ آبَائِهِ، وَأَوْقَعَ الْفُرْقَةَ؛ قَالَ: وَمَا دِينُكُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ وَلَدَةُ الْبَيْتِ، نَسَقِي الْحَاجَّ، وَنَقْرِي الضَّيْفَ، وَنَفْلُكَ الْعَانِي^٤، وَذَكَرَ أفعالَهُمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ أَهْدَى سَبِيلًا^٥.

١. النجم: ٣٢/٥٣. ٢. تفسير الرازي ١٠: ١٢٨.

٣. تفسير العياشي ١: ٩٩٦/٤٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١٢٨.

٤. العاني: هو الأسير.

عن القمي، قال: نزلت في اليهود حين سألهم مشركو العرب: أديتوا أفضل أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم أفضل^١.

عن الباقر (عليه السلام): «يقولون لأنتم الضلال والدعاة إلى النار: هؤلاء أهدى من آل محمد»^٢.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا [٥٢]

ثم هددهم الله تعالى بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون بالجنت والطاغوت، القائلون بهذا القول السيء، هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وطردهم عن رحمته، وخذلهم في الدنيا ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ﴾ ويخذله ويخزيه ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ومحامياً يدفع عنه العذاب في الدنيا والآخرة، فلا ينالون مطلوبهم من نصرة قریش وغيرهم.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا [٥٣]

ثم لما كانوا مدعين أن الملك والسلطنة لابد من أن تكون فيهم، وتعود إليهم، أبطل الله هذه الدعوى، وأنكر عليهم هذا الزعم بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وحظ ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ والسلطنة أو النبوة، فإن ذلك لا يكون أبداً؛ لأنهم أبخل الناس، فإن ملكوا ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ومقدار النقطة التي تكون في وسط النواة، ومن المعلوم أن البخل والسلطنة لا يجتمعان، لأن البير يستعبد الحر. عن الباقر (عليه السلام): «﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ يعني الإمامة والخلافة. قال: - ونحن الناس الذين عنى الله»^٣.

أَمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [٥٤]

ثم لما لم تكن عداوتهم للنبي ودينه، وسعهم في إبطال أمره، لا عقابهم بصحة دينهم وبطلان دين الإسلام، بل كان لغاية حسدهم، ذمهم الله بالحسد بعد ذمهم بالجهل والعصية والبخل، وأنكر عليهم ذلك الخلق الرذيل، بقوله: ﴿أَمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ من النبوة والكتاب، ووجوب الطاعة، والعز والنصرة على الأعداء، وغير ذلك من الكرامات التي كلها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ تعالى عليهم، لكمال وجودهم، وحسن فطرتهم، وثورات طيبتهم.

٢. الكافي ١: ١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.

١. تفسير القمي ١: ١٤٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٤.

٣. الكافي ١: ١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.

وليس هذه التفضلات من الله على عباده المخلصين بذعاً بلا نظير حتى تستبعدوها ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ قبل محمد ﷺ ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأولاده المعصومين الذين هم أسلاف محمد ﷺ وبنو أعمامه ﴿الْكِتَابِ﴾ السماوي ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ التي تلازم النبوة ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ مضافاً إلى ذلك ﴿مُلْكاً عَظِيماً﴾ لا يقادر قدره، فاستكملوا بكمال العلم والقدرة، فإذا لم يكن اجتماع تلك التفضلات في آل إبراهيم مستبعداً، لم يكن في محمد ﷺ مستبعداً.

عن الصادق عليه السلام: «الكتاب: النبوة، والحكمة: الفهم والقضاء، والملك العظيم: الطاعة المفروضة»^١. وعن الباقر عليه السلام، قال: «الملك العظيم: أن جعل فيهم أئمة، من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم»^٢.

وعنه عليه السلام: «يعني جعل منهم الرسل والأنبياء والأئمة، فكيف يقرّونه في آل إبراهيم، ويُنكرونها في آل محمد؟»^٣.

وعن ابن عباس عليه السلام: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليه السلام^٤.

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا [٥٥]

ثم لما ذم اليهود بالחסد وعدم الإيمان بمحمد ﷺ، نبّه على براءة بعضهم من هذه الرذيلة، ودخول بعضهم في الإيمان، وعدم شمول الذم لجميعهم، بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ كعب الله بن سلام، وبعض من الأحزاب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وأعرض عن دين محمد ﷺ ولم يؤمن به. وقيل: إن المراد أن بعض أولاد إبراهيم آمن به، وبعضهم كفر به^٥، ولم يكن في كفرهم به توهين أمره، فكذا لا يوهين أمرك كفر هؤلاء.

ثم بين وخامة عاقبة أمر المعرضين بقوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾ في عقوبتهم ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ حال كونها ﴿سَعِيرًا﴾ ووقوداً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَنْضَجُتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا [٥٦]

١. تفسير القمي ١: ١٤٠، الكافي ٣/١٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.

٢. تفسير العياشي ١: ١٠٠١/٤٥٥، الكافي ٥/١٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٦.

٣. تفسير العياشي ١: ٩٩٦/٤٠٤، الكافي ١/١٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٩٠. ٥. تفسير أبي السعود ٢: ١٩١.

ثم بالغ سبحانه في الوعيد وعممه لجميع الكفار؛ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولم يؤمنوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وبراھیننا الدالة على التوحيد، ورسالة رسلنا، واليوم الآخر ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾، ونُدخلهم ﴿نَارًا﴾، ثم كأنه قيل: كيف يبقون فيها؟ فقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ واخترقت ﴿جُلُودُهُمْ﴾ بالنار ﴿بَدَلْنَاَهُمْ﴾ وألبسناهم بالقدرة الكاملة ﴿جُلُودًا﴾ جديدة حاسة، تكون عين الجلود المنصوجة مادة، و﴿غَيْرَهَا﴾ صورة ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الشديد، ويذكروا ألمه.

ثم لما كان مجال ثوبهم عدم إمكان بقاء جسد الإنسان في النار أبد الآباد، وعدم لياقة العذاب الشديد الدائم بسعة رحمة الرحيم، سد الله تعالى باب المتوهمين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ وقادراً ﴿حَكِيمًا﴾ لا يصدر منه إلا الصواب، ولا يضع شيئاً إلا في موضعه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا [٥٧]

ثم أنه تعالى: على حسب دأبه في الكتاب العزيز، أرفد الوعد بالوعيد بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا موت لهم ولا زوال نعمة ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الأدناس، منزّهة من الأخلاق الذميمة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا﴾ دائماً ﴿ظَلِيلًا﴾ لا حر فيه. قيل: هو كناية عن النعمة التامة الدائمة^١، وقيل: كناية عن الراحة الأبدية^٢.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا [٥٨]

ثم عاد سبحانه إلى بيان حقوق الناس التي من أهمها ردّ الأمانات، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أيها المؤمنون، ويوجب عليكم ﴿أَنْ تُؤَدُّوا﴾ وتوصلوا ﴿الْأَمَانَاتِ﴾ والودائع الكائنة عندكم ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وأصحابها.

رُوي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح، أغلق عثمان بن طلحة بن عبد الدار - وكان سادن الكعبة - باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى علي بن أبي طالب عليه السلام يده وأخذه منه وفتح، ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين،

فلَمَّا خَرَجَ سَأَلَهُ الْعَبَّاسُ أَنْ يُعْطِيَهُ الْمِفْتَاحَ وَيَجْمَعَ لَهُ السَّقَايَةَ وَالسَّدَانَةَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

فَأَمَرَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى عُثْمَانَ وَيَعْتَذِرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ عُثْمَانُ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَكْرَهْتَ وَأَذَيْتَ، ثُمَّ جِئْتَ تَرْفُقُ، فَقَالَ: «لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِكَ قُرْآنًا» وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْآيَةَ، فَقَالَ عُثْمَانُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَهَبْتُ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخْبَرْتُ الرَّسُولَ أَنَّ السَّدَانَةَ فِي أَوْلَادِ عُثْمَانَ^١.

وَفِي رَوَايَاتٍ عَدِيدَةٍ: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَشُجُودِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ اغْتَادَهُ، فَلَوْ تَرَكَهَ اسْتَوْحَشَ لَذَلِكَ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ»^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنْ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتِلَهُ، لَوِ انْتَمَنِي وَاسْتَنْصَحَنِي وَاسْتَشَارَنِي، ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ، لَأَذَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ»^٣.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّا عَنِّي، أَنْ يُؤْذِيَ الْإِمَامُ الْأَوَّلُ إِلَى الَّذِي بَعْدَهُ الْعِلْمُ وَالْكِتَابُ وَالسَّلَاحُ»^٤.

وَفِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ هِيَ جَارِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَمَانَاتِ»^٥.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا أَمَرَ كُلَّ أَحَدٍ بِرَدِّ مَا عِنْدَهُ مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ وَأَمْوَالِهِمْ، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا عَلَى الْغَيْرِ بِرَدِّ أَمْوَالِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ﴾ وَقَضَيْتُمْ إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ عِنْدَ تَنَازُعِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْحُقُوقِ ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾ بَيْنَهُمْ ﴿بِالْعَدْلِ﴾ وَالْإِنْصَافِ، وَتَادِيَةِ حَقِّ الْمُسْتَحِقِّ إِلَيْهِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا إِذَا قَالَتْ صَدَقْتُ، وَإِذَا حَكَمْتُ عَدَلْتُ، وَإِذَا اسْتَرْجِمْتُ رَحِمْتُ»^٦.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لِلْوُضُوحِ مُوَافَقَةً هَذِينَ الْحُكَمِينَ لِلْعَقُولِ مَذْهَبًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ وَمَا أَحْسَنَ مَا رَغَبَكُمْ فِيهِ مِنْ رَدِّ الْأَمَانَاتِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ! فَاعْمَلُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ، وَاتَّقُوا بِمَا وَعَظَكُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿بَصِيرًا﴾ بِأَعْمَالِكُمْ، يَسْمَعُ حُكْمَكُمْ بِالْعَدْلِ وَالْجَوْرِ، وَيُبَصِّرُ رَدَّكُمْ لِلْأَمَانَاتِ وَخِيَانَتِكُمْ فِيهَا، فَيُجَازِيَكُمْ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

١. الكافي ٢: ١٢/٥١، تفسير الصافي ١: ٤٢٧.

١. تفسير الرازي ١٠: ١٣٨.

٢. الكافي ١: ٢١٧/١، تفسير الصافي ١: ٤٢٧.

٣. الكافي ٥: ٥/١٣٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٧.

٤. تفسير الرازي ١٠: ١٤١.

٥. معاني الأخبار: ١/١٠٨، تفسير الصافي ١: ٤٢٦.

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [٥٩]

ثم أكد الأمر بأداء الأمانات، وأوجب الرجوع في المنازعات إلى حكم الرسول ﷺ وخلفائه المعصومين عليه السلام، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع ما يبلغكم عنه ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ والأئمة الذين فرض الله طاعتهم عليكم في جميع أحكامهم.

عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: لما نزلت الآية قلت: يا رسول الله، عرفنا الله ورَسُولَهُ، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال ﷺ: «هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي؛ أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي، المعروف في التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرنه مِنِّي السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سبيي محمد وكيبي؛ حجة الله في أرضه، وبقية على عباده، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها، وذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت [فيها] على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان». قال جابر: فقلت: يا رسول الله، فهل لشيعته الانتفاع به في غيبته؟

فقال: «إي والذي بعثني بالنبوة، إنهم يستضيئون بنوره ويتفجعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلأها سحباب. يا جابر، هذا من مكنون سر الله، ومخزون علم الله، فاكتمه إلا عن أهله».

في دلالة الآية على
عصمة أولي
الأمر عليه السلام وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية، قال: «نزلت في علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين».

ف قيل: إن الناس يقولون: فماله لم يُسمَّ علياً وأهل بيته في كتابه؟

فقال: «فقولوا لهم نزلت الصلاة، ولم يُسمَّ [الله] لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله ﷺ [هو الذي] فسر ذلك لهم. ونزلت عليه الزكاة، ولم يُسمَّ لهم من كل أربعين درهماً درهم، حتى كان رسول الله ﷺ [هو الذي] فسر ذلك لهم، ونزل الحج، فلم يقل لهم: طوفوا أسبوعاً، حتى كان رسول الله هو الذي فسر ذلك لهم.

ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، ونزلت في علي والحسن والحسين،

فقال رسول الله ﷺ [في علي]: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، وقال: أَوْصِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَهْلِ بَيْتِي، فَأَبَى سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ لَا يَفَرِّقَ بَيْنَهُمَا حَتَّى يُورِذَهُمَا عَلِيٌّ الْحَوْضَ، فَأَعْطَانِي ذَلِكَ، وقال: لَا تُعْلَمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ، وقال: إِنَّهُمْ لَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بَابٍ هَدَيْ، وَلَنْ يُدْخِلُوكُمْ فِي بَابٍ ضَلَّالَةٍ.

فَلَوْ سَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ، لَادَّعَاهَا آلُ فُلَانٍ، وَآلُ فُلَانٍ، وَلَكِنْ [اللَّهُ] أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ تَضَدِيقًا لِنَبِيِّهِ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^١ فَكَانَ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَفَاطِمَةُ عليها السلام، فَأَدْخَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الْكِسَاءِ، فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَهْلًا وَتَقْلًا، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَتَقْلِي، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ إِلَيَّ خَيْرٌ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلِي وَتَقْلِي^٢ الْحَدِيثُ.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ؛ إِذَا أُخِذَ بِهَا زَكَ الْعَمَلِ، وَلَمْ يَصُرْ جَهْلُ مَنْ جَهَلَ بَعْدَهُ؟ فَقَالَ: «شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَحَقٌّ فِي الْأَمْوَالِ الزَّكَاةُ، وَالْوِلَايَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَلَايَةَ آلِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ مَاتَ وَلَا يَعْرِفُ إِمَامَ زَمَانِهِ، مَاتَ مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فَكَانَ عَلِيٌّ، ثُمَّ صَارَ مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ الْحُسَيْنُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ هَكَذَا يَكُونُ الْأَمْرُ، إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِإِمَامٍ»^٣ الْحَدِيثُ.

فِي اسْتِدْلَالِ الْفَخْرِ قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي التفسير الكبير: اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى دَلَالَةِ آيَةِ عَلَى حُجَّةِ الْاجْتِمَاعِ عَلَى أَنَّ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ حُجَّةٌ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ وَالْقَطْعِ لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا كَانَ بِتَقْدِيرِ إِقْدَامِهِ عَلَى الْخَطَا يَكُونُ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِمُتَابَعَتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا بِفِعْلٍ ذَلِكَ الْخَطَا، وَالْخَطَا لِكُونِهِ خَطَاً مَنَهِيٌّ عَنْهُ، فَهَذَا يُفْضِي إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي الْفِعْلِ الْوَاحِدِ بِاعْتِبَارٍ وَاحِدٍ وَإِنَّهُ مُحَالٌ، فَثَبِتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ، وَثَبِتَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا، فَثَبِتَ قَطْعًا أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا.

ثُمَّ نَقُولُ: ذَلِكَ الْمَعْصُومُ إِمَّا مَجْمُوعُ الْأُمَّةِ أَوْ بَعْضُ الْأُمَّةِ، لَا جَائِزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْأُمَّةِ، لِأَنَّا بَيْنَا أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ طَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَطْعًا، وَإِجَابَ طَاعَتِهِمْ قَطْعًا مَشْرُوطٌ بِكَوْنِنَا عَارِفِينَ بِهِمْ،

١. الأحزاب: ٣٣/٣٣. ٢. تفسير العياشي ١: ١٠١٢/٤٠٨، الكافي ١: ٢٢٦/١، تفسير الصافي ١: ٤٢٨.

٣. الكافي ٢: ٩/١٨، تفسير الصافي ١: ٤٢٨.

قادرين على الوصول إليهم، والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أننا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن الاستفادة الذين والعلم منهم، فإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاد الأمة، ولا طائفة من طوائفهم، ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله: ﴿أولى الأمر﴾ أهل الحل والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة^١.

أقول: لم يثبت عصمة مجموع الأمة عن الخطأ لعدم الدليل على ذلك، والدليل المذكور كما لا يثبت عصمة بعض الأمة، لا يثبت عصمة مجموع الأمة. نعم، لو علمنا وأثبتنا إرادة بعض من نعرفه، كان اتفاق مجموع الأمة حجة، لوجود ذلك البعض المجهول فيهم، كما هو الوجه في حجية الإجماع على قول بعض أصحابنا.

والحاصل: أن لفظ (أولى الأمر) ليس موضوعاً لأهل الحل والعقد، ولا ظاهراً فيه، فيكون من المحتمل، ولا بد لتعيين المراد منه من دليل، وقرينة لزوم اجتماع الأمر والنهي على تقدير كونهم غير معصومين، يدل على لزوم كونهم معصومين، فإذا دل ذلك دليل على إرادة بعض معين أو مجموع الأمة، نقول - بهذه القرينة - بعصمتهم.

فكما أن إرادة بعض معين محتاج إلى الدليل، [فإن] إرادة مجموع أهل الحل والعقد أيضاً محتاج إلى الدليل، فكما لا يعلم بعصمة بعض معين، لا نعلم بعصمة الكل، مع إمكان اتفاقهم على الباطل، كما وقع الاتفاق من بني إسرائيل على عبادة العجل.

نعم، يمكن القول بأنه المتيقن حيث إن المجموع إما هم المعصومون، أو المعصوم يكون فيهم، فلا بد من اتباع قولهم، ولكن ليس هذا تعيين معنى اللفظ والمراد منه.

في نقل كلام الفخر الرازي وتزييفه
ثم اعترض على نفسه بأن المفسرين ذكروا في (أولى الأمر) وجوهاً آخر سوى ما ذكر:

أحدها: أن المراد من (أولى الأمر) الخلفاء الراشدين.

والثاني: المراد: أمراء السرايا.

قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عبدالله بن حذافة السهمي، إذ بعثه النبي ﷺ أميراً على سرية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في خالد بن الوليد، بعثه النبي ﷺ أميراً على سرية فيها عمار بن

ياسر، فجرى بينهما اختلاف في شيء، فنزلت هذه الآية، وأمر بطاعة أولي الأمر.
 وثالثها: المراد: العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية، ويعلمون الناس دينهم. وهذه رواية
 الثعلبي عن ابن عباس، وقول الحسن ومجاهد والضحاك.
 ورابعها: نقل عن الزوافض أن المراد به الأئمة المعصومون.
 ولما كانت أقوال الأمة في تفسير هذه الآية محصورة في هذه الوجوه، وكان القول الذي نصرتموه
 خارجاً عنها، كان ذلك بإجماع الأمة باطلاً.

ثم أجاب عن الاعتراض بإبطال الأقوال، إلى أن قال: وأما حمل الآية على الأئمة المعصومين، على
 ما تقوله الزوافض، ففي غاية البعد لوجوه:

أحدها: ما ذكرنا من أن طاعتهم مشروطة بمعرفتهم وقدرة الوصول إليهم، فلو أوجب علينا طاعتهم
 قبل معرفتهم كان هذا تكليفاً بما لا يطاق، ولو أوجب علينا طاعتهم إذا صرنا عارفين بهم وبمذاهبهم،
 صار هذا الإيجاب مشروطاً، وظاهر قوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» يقتضي
 الإطلاق.

وأيضاً ففي الآية ما يدفع هذا الاختيال، وذلك لأنه تعالى أمر بطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر في
 لفظة واحدة [وهو قوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»]، واللفظة الواحدة لا يجوز
 أن تكون مطلقة ومشروطة معاً، فلما كانت هذه اللفظة مطلقة في حق الرسول، وجب أن تكون
 مطلقة في حق أولي الأمر.

الثاني: أنه تعالى أمر بطاعة أولي الأمر، وأولوا الأمر جمع، وعندهم لا يكون في الزمان الواحد إلا
 إمام واحد، وحمل الجمع على المفرد خلاف الظاهر.

الثالث: أنه قال: «فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول»، ولو كان المراد بأولي الأمر
 الإمام المعصوم لوجب أن يقال: (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الإمام) فنبت أن الحق تفسير الآية
 بما ذكرنا^١. انتهى كلامه بطوله المجل الذي لا يمكن التطويل في العبارة أزيد منه.

ثم أقول: حاصل ما ذكرنا سابقاً في رده: أن وجوب كون أولي الأمر معصومين من الخطأ حق لا
 محيص عنه، كما روي: «أنه لا طاعة لمن عصى الله، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، إنما أمر الله
 بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر، لا يأمر بمعصيته، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون

مُطَهَّرُونَ، لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْصِيَتِهِ»^١.

وَأَمَّا حَتْلُ الْآيَةِ عَلَى إِرَادَةِ الْإِجْمَاعِ، فَهُوَ فَرْعٌ ثُبُوتٌ كَوْنُ مَجْمُوعِ الْمُجْمَعِينَ - مِنْ حَيْثُ الْمَجْمُوعُ - مَعْصُومِينَ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ غَيْرَ مَعْصُومٍ؛ وَهُوَ مُتَحْتَاجٌ إِلَى الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى عَصَمَتِهِمْ، كَمَا اخْتِاجُ عِصْمَةِ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ - إِنْ كَانَ - إِجْمَاعُ جَمِيعِهِمْ، فَهُوَ مِمَّا لَا يُمْكِنُ الْإِطْلَاعُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ وَأَهْلَ الْبُوَادِي وَالْجِبَالِ وَالَّذِينَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ.

وَأِنْ أَرَادَ طَائِفَةٌ خَاصَّةٌ مِنْهُمْ، وَهِيَ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، كَمَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ: (مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ)، فَمَعَ أَنَّهُ مُتَافٍ لِقَوْلِهِ: (وَلَا جَائِزَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَعْضُ الْأُمَّةِ)، فَإِنَّهُ مُجْمَلٌ، لَا يَعْلَمُ الْمُرَادُ مِنْهُ هَلْ هُوَ الْمُهَاجِرُونَ، أَوْ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ، أَوْ جَمِيعُ الْعُلَمَاءِ؟

وَعَلَى أَيْ تَقْدِيرٍ، عَلَّمْنَا بِرَأْيِ جَمِيعِهِمْ، بِحَيْثُ نَقَطَعَ بِقَوْلِ كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَيْضاً مُتَمَتِّعٌ عَادَةً أَلْبَنَةً؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ غَالِبِهِمْ رَأْيٌ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْمُصَنِّفِينَ أَوْ الْمَشْهُورِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْفَتْوَى مِنْهُمْ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ، [وَأَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ (أُولَى الْأَمْرِ) هُوَ الْعُمُومُ الْأَفْرَادِي لَا الْمَجْمُوعِي].

وَلَا يُطْلَقُ (ذُو أَمْرٍ) عَلَى أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَ أَمْرُهُ وَاجِبُ الْإِطَاعَةِ عَقْلاً أَوْ شَرْعاً - مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ - فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ؛ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَالْمُعَامَلَاتِ، وَالسِّيَاسَاتِ، وَالْكَلِّيَّاتِ، وَالْجُزْئِيَّاتِ، وَيَكُونُ أُولَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ كَالرَّسُولِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِهِ: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^٢، وَهُوَ لَيْسَ إِلَّا الْمَعْصُومُ الَّذِي يَجِبُ عَقْلاً وَشَرْعاً طَاعَتُهُ، وَاتِّبَاعُ أَمْرِهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّا عَاجِزُونَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، عَاجِزُونَ عَنِ الرُّصُولِ إِلَيْهِ، عَاجِزُونَ عَنْ اسْتِفَادَةِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ مِنْهُ.

فَفِيهِ: أَنَّ الْعَجْزَ الْمَدْعَى - مَعَ وَجُودِ الْأَدَلَّةِ الْقَاطِعَةِ عَلَى تَغْيِينِهِ وَتَغْرِيفِهِ - لَيْسَ إِلَّا كَعَجْزِ أَبِي جَهْلٍ وَأَضْرَابِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ الْحَاصِلِ بِسَبَبِ طَبْعِ الْقَلْبِ، وَعَشَاوَةِ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَكَعَجْزِ غَيْرِ الْمُعَانِدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ الْحَاصِلِ بِسَبَبِ عَدَمِ النَّظَرِ فِي الْأَدَلَّةِ وَالْآيَاتِ. وَمِنْ الْبَدِيهِيِّ أَنْ هَذَا الْعَجْزُ لَا يَكُونُ عُذْراً عِنْدَ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

فِي رَدِّ مَا نَالَهُ وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْأَدَلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى إِمَامَةِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاحِدٌ عَشْرٌ مِنْ دُرَرِهِتِهِ لَيْسَتْ أَقْلَ عَدَداً، وَأَخْفَى دَلَالَةً مِنَ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ، وَحَالُ مُنْكَرِهَا لَيْسَ إِلَّا كَحَالِ مُنْكَرِي التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ، وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ، كَمَا أَنَّ مُنْكَرِي الْوِلَايَةِ أَكْثَرُ الْفُجَرِ

المسلمين.

وأما الوجه الأول الذي ذكره - رَدًّا على قول أصحابنا - من أن وجوب طاعة المعصوم مشروط بمعرفته، والوجوب في الآية مطلق.

ففيه: أن المعرفة شرط عقلي لتنجز التكليف، لا شرط شرعي موجب لتقييد التكليف بإطاعة أولي الأمر؛ كتنقيده وجوب الحج بالاشتطاعة. وليس إشراف هذا التكليف إلا كإشراف التكليف بالإيمان بالرسول بمعرفته، والتكليف بالصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات بمعرفتها. ومن المعلوم أن هذا الشرط يجب تحصيله كما يجب تحصيل الطهارة المائية للعمل المشروط بها، وكمعرفه الإجماع على مذهبه السخيف.

وبهذا يظهر الجواب عن الوجه الثاني^١ من قوله: (إن الأمر بطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر في لفظة ... إلى آخره).

فإن معرفة أولي الأمر إن كان شرطاً في وجوب طاعة أولي الأمر، كان معرفة الله ومعرفة رسوله شرطاً في وجوب طاعتهم أيضاً، وإن لم يكن شرطاً في وجوب طاعتهم، لم يكن شرطاً في وجوب طاعتهم.

فإن قيل: إن الخطاب في الآية للمؤمنين، فهم كانوا عارفين بالله ورسوله، فإيجاب طاعتهم بالنسبة إليهم مطلق، بخلاف وجوب طاعة أولي الأمر الذين لم يكونوا عارفين بهم.

قلنا: وجود الشرط لا يوجب انقلاب الواجب المشروط إلى المطلق، بل الواجب المشروط مشروطاً أبداً [سواء أكان الشرط حاصلاً أو غير حاصل، والواجب المطلق مطلقاً أبداً].

وأما الوجه الثالث من أنه لو كان المراد من أولي الأمر المعصوم، لقال: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الإمام)، ولم يقل: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. ففاسد جداً؛ لأنه فرق واضح بين أوامر الإمام وأحكامه في المشاجرات؛ فإن أوامره قد تكون بملك المصالح التي يراها في تنظيم المملكة الإسلامية وتجهيز الجيش والتدبير في القلب على الأعداء، ولا يكون في تلك الأوامر واسطة في التبليغ، بل الأمر أمره، ولذا أمر الله بطاعته كما أمر بطاعة الرسول، بخلاف أحكامه فإنها لا تكون إلا أحكام الله ورسوله، ففي الحقيقة يكون مبلّغاً عن الرسول، كما أن الرسول مبلّغ عن الله، فإطاعته إطاعة الرسول، والرد إليه رد إلى الرسول، ولذا اقتصر الله سبحانه في الآية - في صورة التنازع في

١. لا يزال المصنف في معرض الرد على الوجه الأول، والعبارة التي ذكرها هنا هي من الوجه الأول لا من الثاني الذي ذكره أولاً وأغفله هنا.

شيء - بالأمر بالرد إلى الرسول، ولم يعطف عليه الرد إلى القضاء والولاية الذين كانوا منصوبين من قبل الرسول في البلاد، كما أن الفقهاء في زمان غيبة الإمام منصوبون من قبله ﷺ للحكومة بين الأنام، ويكون الرد إليهم رداً إليه، وحكمتهم حكمته، وقد بين الله شراكة أولي الأمر مع الرسول ﷺ في وجوب الرد إليهم في الآية التي بعدها بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَةَ الَّذِينَ يُسْتَبْطِئُونَ مِنْهُمْ﴾^١.

في الاعتراض على الفخر الرازي والعجب من هذا الرجل المتعصب، كيف رضي بالقول بأن الله أمر بطاعة أولي الأمر، ولم يبين المراد من أولي الأمر لرسوله، ولم يفسره الرسول للناس، حتى التجأ هذا القاصر إلى الاجتهاد في تعيين المراد، ولم يكتف في تعيينهم بقوله تعالى: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^٢، وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾^٣، وقوله: ﴿وَأَنْفُسَنَا﴾^٤، وقوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾^٥ وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^٦ وغيرها من الآيات الكثيرة المفسرة - في روايات بعض العامة وجميع الخاصة - بعلي.

والرواية المتواترة من قوله: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»^٧، وقوله: «عَلِيٌّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»^٨. وغير ذلك.

وعن سليم بن قيس الهلالي: عن أمير المؤمنين ﷺ أنه سأل عن أدنى ما يكون الرجل به ضالاً؟ فقال: «أَنْ لَا يَعْرِفَ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ، وَفَرَضَ وِلَايَتَهُ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً فِي أَرْضِهِ، وَشَاهِداً عَلَى خَلْقِهِ». قال: فَمَنْ هُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قال: «الَّذِينَ قَرَنَهُمُ اللَّهُ بِنَفْسِهِ وَنَبِيِّهِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾»، قال: فَقَبِلْتُ رَأْسَهُ وَقُلْتُ: أَوْصَحْتَ لِي، وَفَرَجْتَ عَنِّي، وَأَذْهَبْتَ كُلَّ شَكٍّ كَانَ فِي قَلْبِي»^٩.

ثم أمر الله تعالى بالرجوع في ما اختلفوا فيه إلى المعصومين بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بالرجوع إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولِ﴾ بالرجوع إلى سنته، وإلى الأئمة المعصومين الذين هم خلفاؤه المنصوبون من قبله بنصه الجلي،

١. النساء: ٨٣/٤. ٢. التوبة: ١١٩/٩. ٣. المائدة: ٥٥/٥. ٤. آل عمران: ٦١/٣.

٥. المائدة: ٦٧/٥. ٦. هود: ١١٧/١١.

٧. الكافي: ١/٢٢٧، معاني الأخبار: ٦٥ - ١/٦٦ - ٥، علل الشرائع: ٩/١٤٤، سنن الترمذي ٥: ٣٧١٣/٦٣٣، مسند أحمد ١: ٨٤ و ٨٨ و ١١٩ و ١٥٢ و ٣٢١، مستدرک الحاكم ٣: ١١٠ و ١٣٤.

٨. علل الشرائع: ٢٢٢، عبون أخبار الرضا ﷺ ١٠: ٢٣/١٠، مسند أحمد ٣: ٣٢ و ٦: ٤٣٨، صحيح مسلم ٤: ٣٠/١٨٧٠. ٩. كتاب سليم: ٥٩، معاني الأخبار: ٤٥/٣٩٤، تفسير الصافي ١: ٤٢٩. ٣٢ -

الْمُبْلَغُونَ عَنْهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللِّسَانِ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ إِيْمَانًا خَالِصًا ﴿يَا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ﴾، فَإِنَّ الْإِيْمَانَ الْحَقِيقِي مُلَازِمُ التَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِمْ.

﴿ذَلِكَ﴾ الرَّدُّ إِلَيْهِمْ، وَالْإِيتِيَادُ لَهُمْ ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ مِنَ التَّنَازُعِ ﴿وَأَحْسَنُ﴾ وَأَصْلَحُ لَكُمْ ﴿تَأْوِيلًا﴾ وَعَاقِبَةٌ مِنَ الْعَمَلِ بِأَرَائِكُمْ مِنْ غَيْرِ الرَّدِّ.

في (نَهْجِ الْبَلَاغَةِ) فِي مَعْنَى الْخَوَارِجِ، لَمَّا أَنْكَرُوا تَحْكِيمَ الرِّجَالِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمَ إِلَى أَنْ نُحْكَمَ بَيْنَنَا وَالْقُرْآنَ، لَمْ نَكُنْ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَّ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ [قَدْ] قَالَ اللَّهُ شَبَّاحَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكَمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِشَيْئِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصَّدَقِ [فِي كِتَابِ اللَّهِ] فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِشَيْءٍ رَسُولِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَوْلَاهُمْ [بِهِ]»^١.

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي عَهْدِهِ لِلْأَشْتَرِ: «وَارْزُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِيهِ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ شَبَّاحَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَالْزُّدْ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذَ بِكِتَابِهِ^٢، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذَ بِشَيْئِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرَّقَةِ»^٣.

وَفِي (الْإِحْتِجَاجِ): عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي خُطْبَتِهِ: «وَأَطِيعُونَا، فَإِنَّ طَاعَتَنَا مَقْرُوضَةٌ، إِذْ كَانَتْ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ مَقْرُونَةً، قَالَ اللَّهُ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَا تَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾»^٤.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ هَكَذَا: «فَإِنْ خِفْتُمْ تَنَازُعًا فِي أَمْرِ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ، قَالَ - كَذَا نَزَلَتْ -.

أَقُولُ: بِعَنِي تَفْسِيرُهَا.

ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ يَأْمُرُ اللَّهُ بِطَاعَةِ وَلَاَةِ الْأَمْرِ وَيُرَخِّصُ فِي مَنَازَعَتِهِمْ؟! إِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِلْمَأْمُورِينَ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ...﴾»^٥.

أَقُولُ: هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ فَسَّرَ التَّنَازُعَ بِالتَّنَازُعِ مَعَ وَلَاَةِ الْأَمْرِ.

١. نهج البلاغة: ١٨٢/الخطبة ١٢٥، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

٢. في المصدر: بِمَحْكَمِ كِتَابِهِ. ٣. نهج البلاغة: ٤٣٤/الرسالة ٥٣، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

٤. الاحتجاج: ٢٩٩، تفسير الصافي ١: ٤٣٠. ٥. الكافي ١: ٢١٧/١، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

في استدلال الفخر
بالآية على حجة
القياس ورده

ثم اشتدل الفخر الرازي بقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ على حُجَّةِ الْقِيَاس؛ بتقريب أن المراد من التنازع والرَّد في صورة لَيْسَ الْحُكْمَ مَنْصُوصاً فِي الْكِتَابِ والسُّنَّةِ، وَإِلَّا كَانَ دَاخِلاً تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، فيكون الأمر بالرَّد تَكَرَّراً لَهُ، فيكون معنى الرَّد في تلك الصورة رَدُّ حُكْمِهِ إِلَى الْأَحْكَامِ الْمَنْصُوصَةِ فِي الْوَقَائِعِ الْمُشَابِهَةِ لَهُ، وَهُوَ الْقِيَاسُ^١.

أقول: هذا مُلَخَّصٌ مَا أَطْنَبَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ، لَوْضُوحٌ عَدَمُ صِدْقِ الرَّدِّ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الْقِيَاسِ، بَلْ هُوَ رَدُّ إِلَى الْحُكْمِ الْعَقْلِيِّ الظَّنِّي. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُصَابُ بِالْعُقُولِ الضَّعِيفَةِ الْكَاسِدَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الزَّائِغَةِ الْفَاسِدَةِ، بَلْ فِي الْأَمْرِ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْقِيَاسِ فِي مَوْرَدِ الْاِخْتِلَافِ إِدَامَةُ النَّزَاعِ لَا رَفْعُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ بِأَنَّ الْأَمْرَ بِالرَّدِّ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ الْحُكْمِ مَنْصُوصاً فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَكُونُ تَكَرَّراً لِقَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾. فَنَبِّهْ: - مَعَ أَنَّ التَّأَكِيدَ هُنَا فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، لَكِنَّ التَّنَازُعَ مُوجِباً لِهَيْجَانِ الثُّغُوسِ إِلَى الْأَعْرَاضِ الْفَاسِدَةِ، وَشَدَّةِ اهْتِمَامِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ الْفَاسِدَةِ، وَنَبْذِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَرَاءَ الْأَظْهَرِ، وَلَدَفْعِ تَوَهُّمِ اخْتِصَاصِ أَحْكَامِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بغير مَوْرَدِ التَّنَازُعِ، وَاحْتِمَالِ تَغْيِيرِ الْمَصَالِحِ - أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْمَقَامِ أَمْرٌ بِالذَّقَّةِ فِي تَطْبِيقِ الْوَاقِعَةِ الْجَزْئِيَّةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الْكُلِّيَّةِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ
أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا [٦٠]

ثم وبخ الله سبحانه المنافقين الذين لم يصنفوا إلى الرسول ولم يرضوا بحكمه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ ويقولون كَذِباً ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحْكَامِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ الزَّعْمِ وَالادِّعَاءِ ﴿يُرِيدُونَ﴾ فِي مَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّنَازُعِ ﴿أَنْ يُتَحَاكَمُوا﴾ وَيَتَرَفَعُوا ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وَالْأَصْنَامِ وَالْكَفَّارِ الْآخِذِينَ لِلرَّشْوَةِ ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ الْمُغْوِي ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عَنْهُ، بَحِثْ لَا يَرْجَى مِنْهُمْ الْهِدَايَةَ أَبَدًا.

قيل: كان المشركون يتحاكمون إلى الأوثان، وكانت طريقتهم أنهم يضربون بالقداح عند الوثن، فما

خَرَجَ عَلَى الْقِدَاحِ عَمِلُوا بِهِ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ أَرَادَ التَّحَاكُمَ إِلَى الْوَتَنِ، وَلَمْ يَرْضَ بِالتَّحَاكُمِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وقيل: إنه أسلم ناس من اليهود ونافق بعضهم، وكانت قُرَيْظَةُ والنَّضِيرُ في الجاهلية إذا قَتَلَ قُرَظِيٌّ نَضِيرًا قُتِلَ بِهِ، وَأَخِذَ دَمُهُ^١ مائة وشقي من ثمر، وإذا قَتَلَ نَضِيرِيٌّ قُرَظِيًّا لَمْ يَقْتُلْ بِهِ، لَكِنْ أُعْطِيَ دَمُهُ^٢ سَتِينَ وَشَقًّا مِنْ ثَمَرٍ.

وَكَانَ بَنُو النَّضِيرِ أَشْرَفَ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ، وَقُرَيْظَةُ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ، فَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ قَتَلَ نَضِيرِيٌّ قُرَظِيًّا، فَاجْتَصَمَا فِيهِ، فَقَالَتْ بَنُو النَّضِيرِ: لَا قِصَاصَ عَلَيْنَا، إِنَّمَا عَلَيْنَا سَتُونٌ وَشَقًّا مِنْ ثَمَرٍ، عَلَى مَا اصْطَلَحْنَا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ. وَقَالَتْ الْخَزْرَجُ: هَذَا حُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَنَحْنُ وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ إِخْوَةٌ، وَدِينُنَا وَاحِدٌ، وَلَا فَضْلَ بَيْنُنَا، فَأَبَى بَنُو النَّضِيرِ ذَلِكَ.

فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: انْطَلِقُوا إِلَى أَبِي بَرْدَةَ الْكَاهِنِ الْأَسْلَمِيِّ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: بَلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَأَبَى الْمُنَافِقُونَ وَانْطَلَقُوا إِلَى الْكَاهِنِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَدَعَا الرَّسُولُ ﷺ الْكَاهِنَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ^٣.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ
عَنْكَ صُدُودًا [٦١]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى سُوءَ فِعْلِهِمْ بَعْدَ بَيَانِ سُوءِ إِرَادَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا وَجِئُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْحُكْمِ ﴿وَإِلَى﴾ حُكْمِ «الرَّسُولِ» وَأَمْرِهِ «رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ» وَيَمْنَعُونَ مِنَ التَّحَاكُمِ إِلَيْكَ «صُدُودًا» وَمَنْعًا أَكِيدًا، أَوْ يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا شَدِيدًا، لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ لِدِينِكَ، وَلِعِلْمِهِمْ بِأَنَّكَ لَا تَحْكُمُ إِلَّا بِمَرِّ الْحَقِّ، وَلَا تَقْبَلُ الرِّشْوَةَ.

فَكَتِفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ
أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا [٦٢]

ثُمَّ أَوْعَدَهُم بِالْعِقَابِ عَلَى ثَقَرَتِهِمْ عَنِ الْحُضُورِ عِنْدَ الرَّسُولِ، وَإِثْنَانِهِمْ مِنَ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَكَتِفَ﴾ يَكُونُ حَالُهُمْ «إِذَا أَصَابَتْهُمْ» وَنَالَتْهُمْ «مُصِيبَةٌ» وَعُقُوبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَبَلِيَّةٌ شَدِيدَةٌ «بِمَا

٢. فِي تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ: دَيْتُهُ.

١. فِي تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ: وَأَخِذَ مِنْهُ دِيَّةً.

٣. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٠: ١٥٤.

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» من الاتِّيناع من التسليم للحُكْم بالْحَقِّ، والرِّضَا بِحُكُومَةِ الطَّغَاةِ.

ثمَّ بَيَّنَّ نِفَاقَهُمْ بقوله: «ثُمَّ» بعد الاتِّيناع «جَاءَوكَ» مُعْتَذِرِينَ إِلَيْكَ مِنْ عَدَمِ حُضُورِهِمْ عِنْدَكَ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِكَ، وَهُمْ «يَخْلِفُونَ بِأَفْهِ» لَكَ «إِنْ أَرَدْنَا» مِنَ التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِكَ، وَمَا طَلَبْنَا بِهِ «إِلَّا إِحْسَانًا» إِلَيْكَ بِرَفْعِ الْكُلْفَةِ وَالتَّصَدِيعِ عَنكَ، أَوْ إِلَى الْخُصُومِ حَيْثُ إِنَّكَ تَحْكُمُ بِمَرِّ الْحَقِّ، وَغَيْرِكَ بِأَمْرِ كُلِّ مَنَّهُم بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْآخِرَةِ، «وَلَا تَوْفِيقًا» وَاصِلًا بَيْنَهُمْ.

وقيل: إِنَّ الْآيَةَ تَبْشِيرٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَعْنَى: كَيْفَ حَالُكَ مِنَ الْفَرَحِ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ تُلْجِئُهُمْ إِلَى الْحُضُورِ عِنْدَكَ لِرَفْعِهَا؟ ثُمَّ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكَ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِنْ عَدَمِ الْحُضُورِ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ مُخَالَفَتِكَ، بَلْ أَرَادُوا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا [٦٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ التَّنَاقُ لَا يَنْفَعُهُمْ، وَهُوَ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ بقوله: «أُولَئِكَ» الْمُنَافِقُونَ هُمْ «الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» مِنَ الْكُفْرِ وَعَدَاوَةِ الْحَقِّ، فَيَفْضَحُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ الْكِتْمَانُ وَالْحَلْفُ عَنِ الْعِقَابِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ «فَأَعْرِضْ» أَنْتَ «عَنْهُمْ» وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ بِسُوءِ فِعَالِهِمْ، وَلَا تَهْتِكْ سِرَّهُمْ بَيْنَ النَّاسِ، بَلْ «وَعِظْهُمْ» مَوْعِظَةً حَسَنَةً، وَخَوِّفْهُمْ بِالْعِقَابِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَالكَذِبِ وَالْعِنَادِ مَعَ الْحَقِّ «وَقُلْ لَهُمْ فِي» شَأْنِ «أَنْفُسِهِمْ» الْخَبِيرَةَ «قَوْلًا بَلِيغًا» مُؤَثِّرًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَافِيًا بِمَقْصُودِكَ مِنَ الْهَدَايَةِ.

وقيل: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ «فِي أَنْفُسِهِمْ» خَالِيًا^١ بِهِمْ غَيْرِ فَاشٍ؛ لظُهُور كَوْنِ التُّضْحِ فِي الْخَلْوَةِ وَالسَّرِّ لِمَحْضِ النَّفْعِ^٢.

وقيل: إِنَّ مَعْنَى (البليغ): الْكَلَامُ الطَّوِيلُ، الْحَسَنُ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ وَقَعًا فِي الْقَلْبِ^٣.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [٦٤]

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ وَجُوبَ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا» إِلَى النَّاسِ مِنْ بَدْوِ الْخِلْفَةِ «مِنْ رَسُولٍ» لِقَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ «إِلَّا لِيُطَاعَ» فِي أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَأَحْكَامِهِ «بِإِذْنِ اللَّهِ»

وإرادته وتوفيقه.

وفيه دلالة على عصمة الأنبياء، كما استدلل الفخر الرازي بالتقريب الذي ذكره في آية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^١.

ثم حثَّ الله سبحانه المتنافقين إلى التوبة عن نفاقهم وشؤ أفعالهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالثفاق والتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَاءُوكَ﴾ نادمين على معاصيهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ منها مُخلصين ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ بعد اغتذارهم إليه ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ﴾ ولقوة ﴿تَوَاباً﴾ على العاصين ﴿رَحِيماً﴾ بالمُذنبين.

وإنما قال: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل: (واستغفرت) إظهاراً لعظمته^٢، وإشعاراً بأن من كان سفيراً بين الله وخلقه لا تردَّ شفاعته.

قيل: إن قوماً من المتنافقين اضطلحوا على كَيْدٍ في حقَّ رسول الله ﷺ، ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض، فأتاه جبرئيل فأخبره به، فقال ﷺ: «إِنْ قَوْمًا دَخَلُوا بُرِيدُونَ أَمْرًا لَا يَنَالُونَهُ، فَلْيَقُومُوا وَلْيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ» فلم يقوموا، فقال ﷺ: «أَلَا تَقُومُونَ؟» فلم يفعلوا، فقال ﷺ: «قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ» - حَتَّى عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْهُمْ - فقاموا وقالوا: كُنَّا عَزَمْنَا عَلَى مَا قُلْتَ، وَنَحْنُ نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ ظُلْمِنَا أَنْفُسَنَا، فَاسْتَغْفِرْ لَنَا، فقال ﷺ: «[الآن] أَخْرِجُوا، أَنَا كُنْتُ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ أَقْرَبَ إِلَى الْاسْتِغْفَارِ، وَكَانَ اللَّهُ أَقْرَبَ إِلَى الْإِجَابَةِ، أَخْرِجُوا عَنِّي»^٣.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيمًا [٦٥]

ثم بين الله سبحانه ملازمة الإيمان بالرسول للرضا بحكمه، والتسليم لقضائه، مؤكِّداً له بالخلف عليه، وزيادة (لا) للتأكيد، بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ إِنْ النَّاسُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك إيماناً صادقاً ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ ويترافعوا إليك ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ واختلَف فيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من الأمور، فتقضي فيه بمُرِّ الحَقِّ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿حَرَجًا﴾ وضيقتاً ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾ به وحكمت فيه ﴿وَيَسْلُمُوا﴾ لقضائك ﴿تَسْلِيمًا﴾ قَلْبِيًّا، وينقادوا لحُكْمك انقياداً باطِنِيًّا.

زوي أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في ماء يسقى به النخل، فقال ﷺ للزبير: «اسْقِ أَرْضَكَ، ثُمَّ

أُرْسِلَ الْمَاءُ إِلَى أَرْضِ صَاحِبِك^١، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: لِأَجْلِ أَنَّهُ ابْنُ عَمَّتِكَ. فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لِلزُّبَيْرِ: «اشْقِ ثَمَّ أَحْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَدْرَ»^٢.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا * وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٦-٦٨)

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ضَعْفَ إِيمَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَوَهْنَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقِلَّةَ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلُص^٣، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ وَفَرَضْنَا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كَمَا كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْبَةِ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ وَاتَّزَكُوا أَوْطَانَكُمْ ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ عِصْيَانًا، لَضَعُوبَتِهِ عَلَيْهِمْ ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ الْكَامِلُونَ فِي الْإِيمَانِ، الْخُلُص^٤ فِيهِ. رُوي أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ بَيْنَ شَتَّاسٍ نَاطِرٍ يَهُودِيًّا، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّ مُوسَى ﷺ أَمَرَنَا بِقَتْلِ أَنْفُسِنَا فَقَبِلْنَا ذَلِكَ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا بِأَتَمِّكُمْ بِالْقِتَالِ فَتَكَرَّهْنَاهُ، فَقَالَ: مَا أَنْتَ^٥، لَوْ أَنَّ مُحَمَّدًا أَمَرَنِي بِقَتْلِ نَفْسِي لَفَعَلْتُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^٦.

وَرُوي أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ [مِثْلَ] ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ^٧.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ مِنْ أُمَّتِي رِجَالًا الْإِيمَانُ أَثْبَتَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي»^٨.

وَقِيلَ: إِنْ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ بَيَانُ حَالِ الْمُتَنَافِقِينَ^٩. وَالْمَعْنَى: مَا فَعَلُوهُ، فَيُظْهِرُ كُفْرَهُمْ وَيُنَاقِضُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ رِيَاءً وَسُمْعَةً.

ثُمَّ حَثَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَالتَّوْبَةِ إِلَى الْإِيمَانِ الْخَالِصِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ عَنْ خُلُوصِ الْإِيمَانِ، وَصِدْقِ الْيَتَةِ ﴿فَعَلُوا﴾ وَامْتَثَلُوا ﴿مَا يُوعَظُونَ﴾ وَيُؤْمَرُونَ ﴿بِهِ﴾ مِنْ تَابِعَةِ الرَّسُولِ، وَإِطَاعَةِ أَحْكَامِهِ ﴿لَكَانَ﴾ ذَلِكَ ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وَأَنْفَعُ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ ﴿وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ لِإِيمَانِهِمْ. عَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْخِلَافِ فَعَلُوا...»^{١٠}.

٢. في تفسير الرازي ١٠: ١٦٣، والجدر، جمع جذر، الحائط.

٤. في النسخة: الخُلُص.

٦-٩. في تفسير الرازي ١٠: ١٦٧.

١. في تفسير الرازي: جارك.

٣. في النسخة: الخُلُص.

٥. في تفسير الرازي: يا أنت.

١٠. تفسير العياشي ١٧: ١٠٣٢/٤٣٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٢.

وعن الباقر عليه السلام: «مَا يُوعَظُونَ بِهِ» فِي عَلِيٍّ قَالَ: «هَكَذَا نَزَلَتْ»^١.

ثُمَّ كَانَتْ قِيلَ: فَمَاذَا يَكُونُ لَهُمْ بَعْدَ النَّبِيِّ؟ فَقَالَ: «وَإِذَا» لَوْ ثَبِتُوا بِاللَّهِ «لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا» وَمِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِنَا «أَجْرًا» وَثَوَابًا «عَظِيمًا» فِي الْآخِرَةِ، لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا «وَلَهَدَيْنَاهُمْ» فِي الدُّنْيَا بِالتَّوْفِيقِ «صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» يُوصِلُهُمْ إِلَى جَوَاهِرِ الْعُلُومِ وَمَقَامِ الرِّضْوَانِ.
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ وَرَثَةُ اللَّهِ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^٢.

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ
اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا [٦٩ و ٧٠]

ثُمَّ بَالِغُ شُبْحَانِهِ فِي الْوَعْدِ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، يَقُولُ: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ» خَالِصًا
لُوجْهِهِ «فَأُولَئِكَ» الْمُطِيعُونَ يُحْشَرُونَ فِي الْآخِرَةِ «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» بِغُلُوِّ الْمَقَامِ، وَعِظَمِ
الْقَدْرِ عِنْدَهُ «مِنَ النَّبِيِّينَ» الْفَائِزِينَ بِكَمَالِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ «وَالصَّادِقِينَ» الْعَارِجِينَ بِأَعْلَى مَدَارِجِ
الْإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ «وَالشُّهَدَاءِ» الْبَازِلِينَ مُتَّحِجِينَ فِي إِظْهَارِ الْحَقِّ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ «وَالصَّالِحِينَ»
الصَّارِفِينَ أَعْمَارَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ.

ثُمَّ بَالِغُ فِي إِظْهَارِ حُسْنِ هَذِهِ الرَّافِقَةِ مَعَ هَؤُلَاءِ، بِإِظْهَارِ التَّعَجُّبِ مِنْ حُسْنِهَا يَقُولُ: «وَحَسُنَ
أُولَئِكَ» الْمَذْكُورُونَ «رَفِيقًا» لِلْمُؤْمِنِ وَمُصَاحِبًا فِي الْجَنَّةِ.

فِي بَيَانِ مَحَبَةِ ثَوْبَانَ رَوَى أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لَهُ، قَلِيلَ الصَّبْرِ عَنْهُ، فَاتَاهُ يَوْمًا
وَقَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، وَنَحَلَ جِسْمُهُ، وَعَرِفَ الْحُزْنَ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ
حَالِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِي وَجَعٌ غَيْرَ أَنِّي إِذَا لَمْ أَرَكَ اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، وَاشْتَوْحَشْتُ
وَحُشَّةً شَدِيدَةً، حَتَّى تَذْكُرْتُ^٣ الْآخِرَةَ وَخِفْتُ أَنْ لَا أَرَكَ هُنَاكَ؛ لِأَنِّي إِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَأَنْتَ تَكُونُ فِي
دَرَجَاتِ النَّبِيِّينَ، وَأَنَا فِي دَرَجَاتِ الْعَبِيدِ، فَلَا أَرَكَ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَحَيْثُ لَا أَرَكَ أَبَدًا. فَنَزَلَتْ
هَذِهِ الْآيَةُ^٤.

فِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الرَّافِقَةِ فِي الْجَنَّةِ: هُوَ رَفْعُ الْحِجَابِ بَيْنَ الْفَاضِلِ وَالْمَفْضُولِ،
صِنْفَانِ بَحِثٌ يَرَى كُلُّ مَنِهَا الْآخَرَ، لَعَدَمِ إِمْكَانِ تَسَاوِيهِمَا فِي الدَّرَجَةِ^٥.

١. الكافي ١: ٦٠/٣٥١، تفسير الصافي ١: ٤٣٢.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٣٢.

٣. تفسير الرازي ١٠: ١٧٠.

٤. في تفسير الرازي: حَتَّى أَفْكَاهُ فَذَكَرْتُ.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١٧١.

عن الصادق عليه السلام: «المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى لله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النسيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وذلك بمن يشفع ولا يشفع له، ولا نصيبه أهوال الدنيا، ولا أهوال الآخرة، ومؤمن زلت به قدّم، فذلك كخامة^١ الزرع، كيفما تحفّت^٢ الريح انكفاً، وذلك بمن نصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة، ويشفع له، وهو على خير»^٣.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، قال: «أعينونا بالورع، فمن لقي الله تعالى^٤ بالورع كان له عند الله فرجاً، إن الله يقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ - وتلا هذه الآية، ثم قال -: ﴿فَمِنَّا النَّبِيُّ، وَمِنَّا الصَّدِيقُ، وَمِنَّا الشَّهَادُ، وَمِنَّا الصَّالِحُونَ﴾^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿أُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ - الآية، فرسول الله في الآية النبيون، ونحن في هذا الموضع الصديقون والشهداء، وأنتم الصالحون، فتمسّوا بالصلاح كما سمّاكم الله»^٦.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ وزيادة الثواب كائن ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ المفصل ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَليماً﴾ بجزاء المطيعين، ومقدار استحقاقهم الفضل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعاً [٧١]

ثم لما كان الجهاد من أهم الطاعات حث الله إليه بعد المبالغة في الحث إلى طاعته وطاعة رسوله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ واحترزوا كيّد أعدائكم، أو خذوا أسلحتكم - كما عن الباقر عليه السلام^٧ - واستعدوا للجهاد ﴿فَانْفِرُوا﴾ واخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ وجماعات متفرقات، سرية بعد سرية ﴿أَوْ أَنْفِرُوا﴾ إلى غزوة واحدة كلكم ﴿جَمِيعاً﴾ وكوكبة واحدة.

وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيْسَ بِطَائِفٍ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً [٧٢ و ٧٣]

١. الخاصة: أول كل شيء، وهنا بمعنى أول ما يثبت من الزرع الغصن.

٢. في الكافي: كفّاته.

٣. الكافي ٢: ١٩٣/٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٣.

٤. زاد في المصدر: منكم.

٥. الكافي ٢: ١٢/٦٣، تفسير الصافي ١: ٤٣٣.

٦. تفسير العياشي ١: ١٠٣٤/٤١٧، الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ١: ٤٣٣.

٧. مجمع البيان ٣: ١١٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٤.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي مَوْقِعِ الْجِهَادِ مَجَالُ بِنَاقِ الْمُنَافِقِينَ، عَادَ شُبْحَانَهُ إِلَى ذِكْرِ حَالِهِمْ وَتَقَاعُدِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ، يَقُولُ: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ اللَّهُ ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّلَنَّ﴾ وَلَيَتَنَاقَلَنَّ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ، وَيَتَخَلَّفَ عَنْكُمْ.

وقيل: إنَّ المعنى: أَنَّهُ لَيُبَطِّلَنَّ سَائِرَ الْمُسْلِمِينَ وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي. ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ﴾ بَعْدَ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وَبَلِيَّةٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ، كَالْقَتْلِ، وَالْجُرْحِ، وَالْهَزِيمَةِ ﴿قَالَ﴾ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ الْمُبْطِلُ: فِرْحَانًا بِتَقَاعُدِهِ، وَحَامِدًا لِرَبِّهِ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ بِالسَّلَامَةِ وَالْحَيَاةِ ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ﴾ فِي الْمَعْرَكَةِ ﴿مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ وَحَاضِرًا، فَيُصِيبُنِي مَا أَصَابَهُمْ ﴿وَلَكِنْ أَصَابَتْكُمْ﴾ وَنَالَكُمْ ﴿فَضْلٌ﴾ مِنْ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ ﴿مِنْ﴾ جَانِبِ ﴿اللَّهِ﴾ وَبِعَاقِبَتِهِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ تَحْسُرًا وَحُزْنًا ﴿كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ وَصَدَاقَةٌ، حَتَّى يَفْرَحَ لِفَرْحِهِمْ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ﴿فَأَفُوزَ﴾ وَأَنَا ﴿فَفُوزًا﴾ وَخَطَأً ﴿عَظِيمًا﴾ وَافِرًا مِنَ الْغَنِيمَةِ.

وَفِي ذِكْرِ الْجُمْلَةِ الْإِعْرَاضِيَةِ بَيْنَ فِعْلِ الْقَوْلِ وَمَفْعُولِهِ، ذَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تَمَيُّهُمُ الْحُضُورَ فِي الْوَقْعَةِ كَانَ لِلْجُرْصِ عَلَى الْمَالِ، لَا لِلشَّيْثَانِ إِلَى نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ بِمُقْتَضَى الْمَوَدَّةِ وَالْخِلَاطَةِ.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [٧٤]

ثُمَّ عَادَ شُبْحَانَهُ إِلَى الْحَثِّ فِي الْجِهَادِ يَقُولُ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أَلْبَتَّةَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَلَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ الْمُؤْمِنُونَ الْخُلَصَّ^١ ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ وَيَبِيعُونَ ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَمَتَاعَهَا ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وَيَخْتَارُونَ الْفَوْزَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ، وَالنَّعْمَ الْخَالِصَةَ الدَّائِمَةَ عَلَى الْعَيْشِ الْمُكْدَّرِ الرَّائِلِ.

ثُمَّ بَالِغٌ فِي التَّرْغِيبِ فِيهِ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ﴾ أَعْدَاءَ الدِّينِ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَالْحَقِّ ﴿فَيُقْتَلْ﴾ بِأَيْدِيهِمْ ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ عَلَيْهِمْ فَيَقْتُلَهُمْ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَثَوَابًا جَسِيمًا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا [٧٥]

ثُمَّ لَمْ يَتَّقُوا الْمُتَقَاعِدِينَ عَنِ الْقِتَالِ وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا الْعَذْرُ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تُقَاتِلُوا الْكُفَّارَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَلِتُخْلِصَ ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ وَالْمُسْتَذَلِّينَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ - الصَّغَارِ ﴿الَّذِينَ﴾ لَا يُؤْخَذُونَ بِحُجْمِ الْكِبَارِ - مِنْ أَسْرِ الْكُفَّارِ، وَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ أَذْيَةِ الْمُشْرِكِينَ ﴿يَقُولُونَ﴾ مُتَضَرِّعِينَ إِلَى اللَّهِ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ وَخَلِّصْنَا ﴿مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا ﴿الظَّالِمِ﴾ عَلَيْنَا ﴿أَهْلُهَا﴾ وَاسْكَنْهَا ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ وَمِنْ رَحْمَتِكَ ﴿وَلِيًّا﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُومُ بِمَصَالِحِنَا، وَحِفْظِ دِينِنَا ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ يَنْصُرُنَا عَلَى أَعْدَائِنَا، وَيُدْفَعُ عَنَّا أَذَاهُمْ.

قِيلَ: هُمُ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ حُبِسُوا فِي مَكَّةَ وَصَدَّاهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ، أَوْ عَجَزُوا عَنْهَا فَبَقُوا فِي الدَّلَّةِ، وَتَلَقَّوْا الْأَذَى^١، فَبَسَّرَ اللَّهُ لِبَعْضِهِمُ الْهَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَجَعَلَ لِبَعْضِهِمْ - الَّذِينَ بَقُوا فِيهَا إِلَى الْفَتْحِ - خَيْرَ وَلِيٍّ وَأَعَزَّ نَاصِرٍ، وَهُوَ نَبِيُّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ: عَنْهُمَا عليهما السلام، فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَا: «نَحْنُ أَوْلَئِكَ»^٢.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [٧٦]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شُبْحَانَهُ أَنَّ الْجِهَادَ لِعَرَضٍ نُصْرَةِ الدِّينِ مِنْ خِصَائِصِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى لَهُمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هُمُ الَّذِينَ ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَلِنُصْرَةِ دِينِهِ، فَاللهُ نَاصِرُهُمْ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وَلَا تَبَاعُ الشَّيْطَانِ، وَتُرَوِّجُ الْبَاطِلَ، فَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ، وَاللَّهُ خَاذِلُهُمْ ﴿فَقَاتِلُوا﴾ يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ وَأَتْبَاعَهُ وَحِزْبَهُ، وَلَا تَخَافُوا كَيْدَهُمْ ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَسَعْيِهِ فِي إِطْفَاءِ نُورِ الْحَقِّ مُتَذَكَّرٌ كَانَ ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ وَبِلا نَتِجَةٍ، بِالإِضَافَةِ إِلَى كَيْدِ اللَّهِ بِالْكَافِرِينَ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَيِلًا [٧٧]

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٢.

٢. تفسير العياشي ١: ٤١٨/١٠٣٧ و ١٠٣٨، تفسير الصافي ١: ٤٣٦.

ثم قيل: إن فريقاً من المؤمنين يُظهرون الرغبة في الجهاد قبل وجوبه، فلما وجب الجهاد ثاقبوا عنه، وأظهروا الكراهة منه، فلامهم الله ووبخهم^١ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ حين إظهارهم الرغبة في الجهاد، واستئذانهم فيه ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عنه، ولا تتعرضوا للكُفَّار ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واشتغلوا بسانر ما أمرت به.

رؤي أن ناساً من المؤمنين أتوا النبي ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة، وشكوا إليه ما يلقونه من أذى المشركين، وقالوا: كُنَّا في عزٍّ في حالة الجاهلية، والآن صرنا أذلةً، فلو أذنت لنا قتلناهم على قوتهم. فقال ﷺ: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ - إِي سَكُوا عَنِ الْقِتَالِ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَاشْتَغِلُوا بِمَا أَمَرْتُ بِهِ، فَإِنِّي لَمْ أُؤَمِّرْ بِقِتَالِهِمْ». وكانوا في مدة إقامتهم بمكة مُستمرِّين على تلك الحالة، فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمروا بالقتال في وقت بدر، كرهه بعضهم وشق ذلك عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾^٢ وفرض ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ وجمع ﴿مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ المشركين أن يقتلوهم، خشية ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الكائنة في قلوبهم أن ينزل عليهم بأسه ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ من خشيتهم من الله، أو من أهل خشية الله. وفي التردد إيهام على المخاطب، أو إشعار باختلاف الفريق في شدة الخوف.

﴿وَقَالُوا﴾ بالسيئتهم، أو في قلوبهم تمنياً لطول البقاء، لا اعتراضاً على الله: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ﴾ وفرضت ﴿عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ مع الكُفَّار ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾ وأمهلتنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أجلته لنا، والموت الذي قدرته علينا.

قيل: إن الآية نزلت في المنافقين؛ وهم المراد بالفريق منهم^٣.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بوعظهم بقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا﴾ والانتفاع بها ﴿قَلِيلٌ﴾ المدة، سريع التفضي، قليل اللذة، لشوبه بالمكاره والغموم، قليل القدر ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من الدنيا وزعمها؛ لأنها دائمة خالصة من الكدورات، عظيمة القدر، ولكن تكون ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ وأطاعه ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بتقص نواب أعمالكم ﴿فَتِيلاً﴾ وشيناً يسيراً.

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ

عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا [٧٨]

ثُمَّ نَبَّهَ شَبَّانَهُ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ لَا مَتَاصَ مِنْهُ، تَقْصِيرًا لِلْأَمَالِ، بِقَوْلِهِ: «أَيُّنَمَا تَكُونُوا» أَيُّهَا النَّاسُ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ تَمَكَّنُوا «يَذَرِكُكُمْ الْمَوْتُ» وَيُصِيبُكُمُ الْفَنَاءُ «وَلَوْ كُنْتُمْ» مُحْصِنِينَ «فِي بُرُوجٍ» وَقُصُورٍ حَصِينَةٍ «مُشِيدَةً» مُحْكَمَةً، أَوْ مُحْصَصَةً، فَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ لَا بَدَّ مِنْهُ، فَإِنْ يَتَّعِ عَلَى وَجْهِهٖ يَكُونُ مُسْتَعِيبًا لِلْسَّعَادَةِ الْآبِدِيَّةِ كَانَ أَوَّلَى.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا ذَكَرَ تَنَاقُلَ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْجِهَادِ، أَرَدَفَهُ بِذِكْرِ سُوءِ مَقَالِهِمْ، مِنْ بَقَوْلِهِ: «وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ» مِنْ سَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَرَاحَةٍ «يَقُولُوا هَذِهِ» الْحَسَنَةُ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وَمِنْ فَضْلِهِ «وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ» مِنْ جَذْبٍ وَغَلَاءٍ وَثِدَةٍ «يَقُولُوا» لَكَ مِنْ غَايَةِ الْجَهْلِ وَالْحُمْقِ، أَوْ الْعِيَادِ: «هَذِهِ» السَّيِّئَةُ «مِنْ عِنْدِكَ» وَمِنْ شُؤْمِكَ.

قِيلَ: كَانَتِ الْمَدِينَةُ مَمْلُوءَةً مِنَ النَّعَمِ وَقَدْ مَقْدَمَ الرَّسُولِ ﷺ، فَلَمَّا ظَهَرَ عِنَادُ الْيَهُودِ وَنِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ أَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْضَ الْإِمْسَاكِ، كَمَا جَرَتْ عَادَتُهُ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ»^١ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ: وَمَا رَأَيْنَا أَظْهَرَ شُؤْمًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، نَقَصَتْ ثِمَارُنَا، وَغَلَّتْ أَسْعَارُنَا مِنْذُ قَدِيمٍ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ» يَعْنِي: الْخَضْبُ، وَرُخْصُ السَّعْرِ، وَتَنَاقُلُ الْأَمْطَارِ، قَالُوا: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ» مِنَ الْجَذْبِ وَغَلَاءِ السَّعْرِ، قَالُوا: هَذَا مِنْ شُؤْمِ مُحَمَّدٍ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِذَا جَاءَ تَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ»^٢، وَعَنْ قَوْمٍ صَالِحٍ قَالُوا: «اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ»^٣.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ بِرَدِّهِمْ بِقَوْلِهِ: «قُلْ» لَهُمْ «كُلُّ» مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» يَقْبِضُ وَيَبْسِطُ عَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شِدَّةَ حِمَاqَتِهِمْ بِإِظْهَارِ التَّعَجُّبِ مِنْ قِلَّةِ فَهْمِهِمْ؛ بِقَوْلِهِ: «فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ» وَيَفْهَمُونَ «حَدِيثًا» مِنَ الْأَحَادِيثِ وَقَوْلًا مِنَ الْأَقْوَالِ، إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا [٧٩]

١. الأعراف: ٩٤/٧. ٢. الأعراف: ١٣١/٧.

٣. تفسير الرازي ١: ١٨٨، والآية من سورة النمل: ٤٧/٢٧.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ إِجَادَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ كُلَّهَا بِيَدِهِ وَعَنْ إِرَادَتِهِ، نَبَهَ عَلَى اخْتِلَافِ أَسْبَابِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ مِنَ الحَسَنَاتِ، وَمِنْ خَيْرٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ ﴿فَمِنْ آثِهِ﴾ وَبِتَفْضُلِهِ وَإِحْسَانِهِ، أَوْ بِحِكْمَةِ الامْتِحَانِ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ وَوَرَدَ عَلَيْكَ ﴿مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ وَبَلِيَّةٍ ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ وَبِسَبَبِ سَيِّئَاتِكَ وَمَعَاصِيكَ، وَإِنْ كَانَ إِجَادُهَا أَيْضاً مِنْ اللَّهِ.

عَنِ الرُّضَا عليه السلام: «قَالَ اللَّهُ: [يَا] ابْنَ آدَمَ [بِمَشِيتِي] كُنْتُ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ [وَأُ] بِقَوْتِي أَدَيْتَ فَرَائِضِي، وَبِنِعْمَتِي قَوِّيتَ عَلَى مَعْصِيَتِي، جَعَلْتُكَ سَمِيعاً بَصِيراً قَوِيّاً، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، وَذَلِكَ أَنِّي أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي، وَذَلِكَ أَنِّي لَا أَسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»^١.

وَعَنْ عَائِشَةَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ وَصَبٌ وَلَا نَصَبٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكِهَا، وَحَتَّى انْقِطَاعُ شَيْعٍ نَعْلُهُ، إِلَّا بَدَنُهَا، وَمَا يَغْفِرُ اللَّهُ أَكْثَرَ^٢.

أَقُولُ: حَاصِلُ الْمُسْتَفَادِ مِنَ [الْآيَةِ] الْكَرِيمَةِ أَنَّ جَمِيعَ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ سَوَاءً أَكَانَ مِنَ الحَسَنَاتِ أَوْ مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَيُجَادِدُ اللَّهُ تَعَالَى، لَا يُشْرِكُهُ أَحَدٌ فِي إِجَادِهِ. وَأَمَّا سَبَبُهَا فَمَا كَانَ مِنَ الحَسَنَاتِ فَبِسَبَبِ التَّفَضُّلِ، وَقَابِلِيَةِ الْفَيْضِ، وَامْتِحَانِ الْعَبْدِ، وَمَا كَانَ مِنَ السَّيِّئَاتِ فَبِسَبَبِ اسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْمَعَاصِي الْحَاصِلَةِ بِالشَّهَوَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ بَيَانُ هَذَا الْمَطْلَبِ الْعَالِي بِعِبَارَةٍ وَافِيَةٍ مِنْ أَدَلَّةِ الرُّسَالَةِ، أَعْلَنَ شُبْحَانَهُ بِرِسَالَتِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ جَمِيعاً الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ، وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ ﴿رَسُولاً﴾ وَبُلُغاً عَنْ اللَّهِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَتَيْتَهَا شَهَادَةُ اللَّهِ عَلَى رِسَالَتِكَ وَصِدْقِكَ ﴿وَوَكَّفَى بِاللَّهِ﴾ لِلنَّاسِ ﴿شَهِيداً﴾ وَصِدْقاً؛ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ التَّشْكِيكَ فِي صِدْقِكَ وَالْخُرُوجَ عَنْ طَاعَتِكَ.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ خَفِيفاً [٨٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى رِسَالَتِهِ، أَكَّدَ وَجُوبَ طَاعَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ﴾ فِي أَمْرِهِ وَتَوَاهِيهِ ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ فِي الْحَقِيقَةِ، لَكُونَهُ مُبْلِغاً عَنْهُ، وَاللَّهُ أَمْرٌ بِطَاعَتِهِ.

قِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مَنْ أَحْبَبَنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: لَقَدْ قَارَبَ^٣ هَذَا الرَّجُلُ الشُّرْكَ، إِنَّهُ يَنْهَى أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللَّهِ، وَيُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ رَبّاً كَمَا اتَّخَذَتْ

١. الكافي ١: ١٢٢/١٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٧ عن الصادق عليه السلام.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٢: ٢٤٢.

٣. في تفسير أبي السعود والصافي: قارف.

النصارى عيسى، فأنزل الله هذه الآية^١.

ثم هدّد الله سبحانه المعرضين عن طاعته، بقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ وأعرض عن طاعتك ﴿فَسَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ كي تكون ﴿عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ومراقباً لأعمالهم، ومحاسباً لهم، بل إنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ووظيفتك الإرشاد بالبيان والينا الهداية بالتوفيق، فلا تحرص على زجرهم عن العصيان، ولا تنغم بسبب إعراضهم عن الطاعة.

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا [٨١]

ثم ونح الله سبحانه المنافقين بإظهار الطاعة، وإبطال المخالفة، بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حين تأمرهم بشي: شأنا ﴿طَاعَةٌ﴾ خالصة دائمة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ وخلّوا إلى أنفسهم ﴿بَيَّتَ﴾ ودبر ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ وهم الساعون في مخالفتك أمراً ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لهم وتأمرهم به ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ﴾ في صحائف أعمالهم ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويدبرون من مخالفتك وعصيانك، فيجازيهم به، ويُعاقبهم عليه أشد العقاب ﴿فَأَعْرِضْ﴾ أنت ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تعرّض لعقوبتهم، وهتك سترهم، وتفضيهم بذكر أسمائهم، حتّى يستقيم أترك وأمر دينك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم، فإن الله يكفيك شرهم ﴿وَكَفَىٰ﴾ لك ﴿بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكافياً لحفظك وجميع أمورك.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [٨٢]

ثم لما كان يفاق المنافقين لعدم اعتقادهم بصِدْق الرّسول مع ظهور معجزاته خصوصاً القرآن المجيد الذي هو أعظمها، وكان لعدم التدبّر فيه، حثّم عليه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ﴾ وهلا يتأملون في إعجاز بيانه وعُلُوّ مطالبه، حتّى يظهر لهم بهذه المعجزة العظيمة صدق محمد ﷺ في دعوى الرّسالة.

في أحد وجوه
إعجاز القرآن
ثم أرشدهم إلى أحد وجوه إعجازه بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ وكلاماً صادراً من البشر، كما زعمه الكفار ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وتفاوتاً فاحشاً في عباراته من جهة الفصاحة والأسلوب، وفي مطالبه من جهة

الصِّحَّةَ وَالْفَسَادَ فَكُنْ جميع عباراته بطولها في أعلى دَرَجَةِ الفَصَاحَةِ، ومُطالِبَةٍ مع كَثْرَتِهَا في غَايَةِ الصِّحَّةِ وَالْمَتَانَةِ، ذَلِيلٌ قاطِعٌ على أَنَّهُ كلامُ اللَّهِ، لا كلامُ الْبَشَرِ، لقضاء العادة بأن كلام الْبَشَرِ لا يخلو من الاختلاف في الفَصَاحَةِ إذا كان طويلاً، والأخبارُ الغيبيةُ الْحَدِيثِيَّةُ لا تخلو من عَدَمِ مُطَابَقَةِ بعضها للواقع، ومُطالِبَةِ الْعِلْمِيَّةِ الكثيرة لا تخلو عن بُطْلان بعضها.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْأَ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَا تَتَّبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا [٨٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَّنَ نَبِيَّهُ مِنْ شَرِّ الْمُنَافِقِينَ، وَأَحْكَمَ أَسَاسَ ثُبُوتِهِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى وَجْهِهِ إِعْجَازَ كِبَايَةِ، أَخْبَرَهُ بِإِفْسَادِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ وَبَلَّغَهُمْ مِنْ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ، أَوْ مِنْ طَرَفِ الْمُشْرِكِينَ ﴿أَمْرٌ﴾ وَشَيْءٌ ﴿مِنَ الْأَمْنِ﴾ لِلْمُسْلِمِينَ كَالظُّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، أَوْ تَقَاعُدِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ حَزْبِهِمْ ﴿أَوْ﴾ مِنْ ﴿الْخَوْفِ﴾ كَتَبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفَهُمْ، أَوْ هَزِيمَتِهِمْ عَنِ الْعَدُوِّ، أَوْ تَجَمُّعِ الْكُفَّارِ لِحَزْبِهِمْ، فَهُمْ بِمَحْضِ سَمَاعِ الْخَبَرِ ﴿إِذَا عُوا بِهِ﴾ وَأَفْشَوْهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقِيٍّ عَنْ صِدْقِهِ، وَمِنْ غَيْرِ مِلَاحَظَةٍ لِلصَّلَاحِ فِي إِفْشَائِهِ، فَقَدْ يَكُونُ فِي إِفْشَائِهِ تَغْرِيرُ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ تَخْوِيفُهُمْ مِنَ الْعَدُوِّ، وَضَعْفُهُمْ فِي التُّعَارُضَةِ أَوْ فِي الْإِيمَانِ ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ وَفَوَضُوهُ ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ﴾ وَأَهْلِ الْبَصِيرَةِ وَالْعِلْمِ ﴿مِنْهُمْ﴾ وَإِلَى نَظَرِهِمْ فِي تَحْقِيقِ الصَّدَقِ، وَتَشْخِصِ الصَّلَاحِ فِي الْإِفْشَاءِ، وَالتَّدْبِيرِ فِي كَيْفِيَّةِ الذِّكْرِ، وَطَلَبُوا مَعْرِفَةَ الْحَالِ مِنْ جِهَتِهِمْ ﴿لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ وَيَسْتَخْرِجُونَ وَاقِعَ الْأَمْرِ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ بِأَنْظَارِهِمُ الصَّائِبَةِ، وَمَعْرِفَتِهِمُ الْكَامِلَةَ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ.

قِيلَ: كَانَ قَوْمٌ مِنْ ضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا بَلَّغَهُمْ خَبَرٌ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ أَخْبَرَهُمُ الرَّسُولُ بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنْ وَعْدٍ بِالظُّفَرِ، أَوْ تَخْوِيفٍ مِنَ الْكُفَرَةِ، أَذَاعُوا بِهِ لَعَدَمَ حَزْمِهِمْ، وَكَانَتْ إِذَاعَتُهُمْ مُفْسَدَةً^١. وَقِيلَ: كَانُوا يَسْمَعُونَ أَرَاغِيفَ الْمُنَافِقِينَ فَيَذِيعُونَهَا فَيَعُودُ وَبَالاً عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ حَتَّى يَسْمَعُوا مِنْهُمْ، وَيَعْرِفُوا هَلْ يَذَاعُ لَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ الدَّيْنِ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَأُولَى الْأَمْرِ^٢.

عَنِ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هُمْ الْأَنْمَةُ الْمَعْصُومُونَ ﷺ»^٣.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٩.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٨.

٣. جوامع الجامع: ٩٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٩.

وعن الرضا عليه السلام: «يعني: آل محمد عليه السلام، وهم الذين يستنبطون من القرآن، ويعرفون الحلال والحرام، وهم حجة الله على خلقه»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «من وضع ولاية الله، وأهل استنباط علم الله في غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء، فقد خالف أمر الله عز وجل، وجعل الجهال ولاية أمر الله، والمتكلمين بغير هدى، وزعموا أنهم أهل استنباط علم الله، فكذبوا على الله، وزاغوا عن وصية الله وطاعته، ولم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلوا وأضلوا أتباعهم، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة»^٢.

ثم لما أمر الله بطاعة رسوله، والجهاد في سبيله، ورد الأمور إلى الرسول عليه السلام وإلى أولي الله، أظهر بيته على العباد بفضله عليهم، وهدايتهم إلى الحق، حثاً على طاعة أحكامه، بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول، وإنزال القرآن ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم بهدایتكم إلى دين الإسلام.

وعن الباقر عليه السلام: «فضل الله: رسول الله، ورحمته: [ولاية] الأنمة عليه السلام»^٣.

وعنهم عليه السلام: «فضل الله ورحمته: النبي، وعلي عليه السلام»^٤.

والله^٥ «لَا تَبْعُمُ الشَّيْطَانَ» في الكفر والطغيان «إِلَّا قَلِيلًا» منكم، وهم أولوا الألباب.

قيل: إن قس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل كانوا مؤمنين بالله قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم^٦.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا [٨٤]

ثم لما أمر الله سبحانه في الآية السابقة بالجهاد، وبين ثمره جمع من صفة المسلمين وجميع المنافقين عنه، حث نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأمره بالجد فيه بنفسه، وتحرير المؤمنين عليه بقوله: ﴿فَقَاتِلْ﴾ يا محمد وحدك ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه، وإن خذلك جميع الناس، ولم ينصرك أحد.

قيل: إن التقدير: إن أردت الفوز فقاتل الكفار^٧.

وقيل: إنه تعالى بعد ذكر سيئات أخلاق المنافقين، ومضادتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسعيهم في الإفساد بين

١. تفسير العياشي ١/٤٢٢/١٠٥٠، تفسير الصافي ١/٤٣٩.

٢. إكمال الدين: ٢/٢١٨، تفسير الصافي ١/٤٣٩. ٣. تفسير العياشي ١/٤٢٢/١٠٥١، تفسير الصافي ١/٤٣٩.

٤. جوامع الجامع: ٩٢، تفسير الصافي ١/٤٣٩.

٥. لا محل للقس هنا، واللام في قوله تعالى: ﴿لَا تَبْعُمُ﴾ واقعة في جواب (لولا) فهي حرف جواب وربط، وليست

٦. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٣.

٧. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٢.

لام القسم.

المسلمين، كأنه قال: فلا تعتدّ بهم، ولا تلتفت إلى أفعالهم، بل قاتل في سبيل الله^١.
 ﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ ولا تحمل عليه ﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فإن الله ناصرُك. ففيه دلالة على أن الجهاد كان واجباً عليه، وإن لم يساعده غيره.
 قيل: نزلت في بذر الصُّغرى، فإنه واعده أبو سفيان اللقاء فيها، فكره بعض الناس الخروج معه، فخرج وما معه إلا سبعون، ولم يلتفت إلى أحد، ولو لم يخرج معه أحد لخرج وحده^٢.
 ثم أمره بتخريض المؤمنين بقوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، ورغبهم فيه بالنصح، ووعد النصر والغنيمة، وثواب الآخرة، ولا تعنف بهم - على ما قيل^٣ - ﴿عَسَىٰ اللَّهُ﴾ وأزجه ﴿أَن يَكُفَّ﴾ ويمنع عنك، وعن المسلمين ﴿بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قریش، ومكروهمهم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ﴾ منهم ﴿بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ وعذاباً.

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا [٨٥]

ثم قيل: إنه لما حرض النبي ﷺ في القتال، شفع بعض المنافقين إلى النبي ﷺ أن يأذن لبعضهم في التخلف عنه^٤، فنهى الله تعالى عن تلك الشفاعة بقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعُ﴾ إلى أحد ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ مرضية عند الله: كان [يشفع] في

الإحسان إلى مؤمن، أو دفع شر عنه، طلباً لمرضاة الله.

وعن ابن عباس: الشفاعة الحسنة أن يشفع إيمانه بالله بقتال الكفار^٥.

﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ وحظُّ ﴿مِنْهَا﴾ بالانتماع من أجرها وثوابها.

عن النبي ﷺ: «اشْفَعُوا تَوْجَرُوا»^٦.

﴿وَمَنْ يَشْفَعُ﴾ عند أحد ﴿شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ غير مرضية، كان يشفع في معصية أو تضییع حق وعن ابن عباس: أن يشفع كفره بالمحبة للكفار، وترك إيدانهم^٧.

﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ﴾ وحظُّ ﴿مِنْهَا﴾ بالاتبلاء بعقوبتها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجر والعقوبة ﴿مُقِيتًا﴾ وقادراً، أو على كل شيء من الشفاعة الحسنة والسيئة مطّلعاً وحافظاً.

٢. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٤.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٦.

٦. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٧.

١. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٣.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٤٨.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٦.

٧. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٦.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، أَوْ أَشَارَ بِهِ، فَهُوَ شَرِيكٌ»^١.

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً [٨٦]

نسي وجوب ردِّ السلام والتحية بقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ وأكرمتم بنوع من الأكرام - [عن] القمي: السلام وغيره من البر^٢ - [سواء] كان المَحْيِي مسلماً أو كافراً ﴿فَحَيُّوا﴾ المَحْيِي وقابلوا تَحِيَّتَهُ ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ كأن تقولوا في جواب مَنْ قال: سلام عليكم؛ عليكم السلام، أو مع زيادة: وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ، لَوْضُوح أَنَّ تَحِيَّةَ الْإِسْلَامِ السَّلَامُ ﴿أَوْ رُدُّوَهَا﴾ بأن تقولوا في جوابه: سلام عليكم.

نسي بيان كيفية الرد بالاحسن عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ [فَسَمَّوْهُ] قولوا: يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ، ويقول هو: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَيَرْحَمُكُمْ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية»^٣.

في (المناقب): جاءت جارية للحسن بطاقة رَئِحَانٍ، فقال لها: «أَنْتِ حُرَّةٌ لَوْجِهَةِ اللَّهِ» فقيل له في ذلك، فقال: «أَدْبَنَا اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية، وكان أحسنَ مِنْهَا إِعْتَاقُهَا»^٤.

عن الباقر عليه السلام: «مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِقَوْمٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوَانُهُ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: لَا تُجَاوِزُوا بِنَا مَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِأَبِينَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَحِمَتْهُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾»^٥.

وروي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فقال: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»، وقال آخر: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فقال: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»، وقال آخر: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فقال: «وَعَلَيْكَ»، فقال الرَّجُلُ نَقَصْتَنِي، فَأَيْنَ مَا قَالَ اللَّهُ - وتلا هذه الآية - فقال: «إِنَّكَ لَمْ تَتْرُكْ لِي فَضْلاً، فَردَدْتُ عَلَيْكَ مِنْهُ»^٦.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ قَالَ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ، فِيهِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ

٣. في الخصال: يرحمكم.

١. الخصال: ١٣٨/١٥٦. ٢. تفسير القمي: ١/١٤٥.

٤. الخصال: ٦٣٣. ٥. مناقب ابن شهر آشوب: ٤/١٨.

٦. الكافي: ٢/١٣٧٤، والآية من سورة هود: ٧٣/١١.

٧. مجمع البيان: ٣/١٣١، تفسير البيضاوي: ١/٢٢٨، تفسير أبي السعود: ٢/٢١١.

الله، فهي عشرون حسنة، ومن قال: السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته؛ فهي ثلاثون حسنة^١.
وعنه عليه السلام: «من تمام التَّحِيَّةِ للمُقيم المُصافحة، وتمام التَّسليم على المُسافر المُعانقة»^٢.
وعنه عليه السلام، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لا تبدأوا أهل الكتاب بالتَّسليم، وإذا سلّموا عليكم فقولوا: وعليكم»^٣.

في كرامة التَّسليم عنه، عن أبيه عليه السلام: «لا تُسلّموا على اليهود، ولا على النَّصارى، ولا على المَجُوس، ولا على عبدة الأصنام^٤، ولا على موائد شرب الخمر، ولا على صاحب الشُّطرنج والرُّد، ولا على المُخنث، ولا على الشَّاعر الذي يقذف المُحصَّات، ولا على المُصلّي؛ وذلك أن المُصلّي لا يستطيع أن يردَّ السَّلام، لأنَّ التَّسليم من المُسلم تَطَوُّع، والردُّ عليه فَرِيضَة، ولا على آكل الرُّبَا، ولا على رَجُلٍ جالسٍ على غائط، ولا على الذي في الحَمَّام، ولا على الفاسق المُعلن بِقُتْلِهِ»^٥.

ثمَّ هدّد الله سبحانه على مُخالفة الأمر بِردِّ التَّحِيَّةِ، أو الإساءة بالمُحِيَّةِ، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من التَّعْيِير والقُطْمِير من أعمالكم ﴿حَسْبِيَ﴾ فيحاسبكم على جميع ما يصدر منكم، ويُجازيكم عليها، فكونوا من مُخالفته على حذر.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا [٨٧]

ثمَّ أظهر سبحانه عَظَمَتَهُ وَوَحْدَانِيَّتَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ، وَذَكَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ واجتماعهم للحِساب فيه، إِرْعَاباً لِلْقُلُوبِ وَتَخْوِيفاً مِنَ الْعَصِيَانِ، بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فَاخْضَعُوا لِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَخُصَّوهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالطَّاعَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بِاللَّهِ ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وَيُسَوِّفَنَّكُمْ مِنَ الْقُبُورِ ﴿إِلَى﴾ حِسَابِ ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿لَا رَيْبَ﴾ لِعَاقِلٍ ﴿فِيهِ﴾.
ثمَّ أكَّد صِدْقَ هَذَا الْحَدِيثِ، بَعْدَ الْحَلْفِ وَتَقْيِ الرَّيْبِ عَنْهُ، بقوله: ﴿وَمَنْ﴾ هُوَ ﴿أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ وَخَبِراً، فَإِنَّ الْكَذِبَ مُمَكِّنٌ فِي خَبَرٍ غَيْرِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ فِي خَبَرِهِ؛ لِمَنَافَاتِهِ لِحِكْمَتِهِ وَغِيَاةِ.
في الحديث القدسي: «كذَّبني ابنُ آدمَ، ولم يكنْ له ذلك»^٦.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ

١. الكافي ٢: ٤٧١/٩. ٢. الكافي ٢: ٤٧٢/١٤. ٣. الكافي ٢: ٤٧٤/٢. ٤. في الخصال: الأوَّتان.
٥. الخصال: ٤٨٤/٥٧. ٦. تفسير روح البيان ٢: ٢٥٥.

أَصْلَ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [٨٨]

ثم أنه تعالى بعد إرعاب الناس بعظمته وقدرته، وبعنهم إلى يوم الجزاء، ونفي الريب فيه، ردع المؤمنين عن مودة المنافقين، وعن الرُبِّب في كفرهم، بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ اختلتم ﴿فِي﴾ كفر ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ بعد ظهوره، وتفرقتم فيه ﴿فَتَتَيْنِ﴾ وفرقتين.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في قوم أظهرُوا الإسلام بمكة، وكانوا يُعينون المشركين على المسلمين، فاختلف المسلمون في كفرهم وإسلامهم وتشاجروا فيه^١.

وعن عكرمة: أنها نزلت في قوم ضلُّوا، وأخذوا أموال المسلمين وانطلقوا بها إلى اليمامة، فاختلف المسلمون فيهم^٢.

وقيل: أنها نزلت في قوم قَدِمُوا إلى النبي ﷺ مسلمين، فأقاموا بالمدينة ما شاء الله، ثم قالوا: يا رسول الله، نريد أن نخرج إلى الصحراء فأذن لنا فيه، فأذن لهم، فلما خرجوا لم يزالوا يرحلون مَرَحَلَةً مَرَحَلَةً حَتَّى لَجِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ، فتكلم المؤمنون فيهم فقال بعضهم: لو كانوا مسلمين مثلنا لبَقُوا معنا وصَبَرُوا كما صَبَرْنَا، وقال قوم: هُم مسلمون، وليس لنا أن ننسبهم إلى الكُفْرِ حَتَّى يَظْهَرَ لنا أمرهم^٣. فبيَّن الله تعالى نفاقهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ ورَدَّهُم إلى أحكام الكُفْرِ، من الذل والصغار، والقتل والسبني ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من إظهار الازدياد.

ثم لما كان المؤمنون يتمنون إيمان المنافقين ويحتالون فيه، قطع الله طمعهم في إيمانهم، بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ إلى الحق وطريق الجنة ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وخذله ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ﴾ عن الهدى، وخذله ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الإيمان، وطريقاً إلى الجنان.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [٨٩]

ثم بالغ سبحانه في صرف قلوب المؤمنين عن موالاتهم بقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا أن ترتدوا إلى الكُفْرِ ﴿كَمَا كَفَرُوا﴾ وارتدوا عن الإسلام ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهم ﴿سَوَاءً﴾ في الكُفْرِ، فلما عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ طَالِبُونَ هَلَاكِكُمُ الْآبِدِيِّ ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ لأنفسكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ولا ترضوا بهم لكم

٢. تفسير الرازي ١٠: ٢١٩.

١. تفسير الرازي ١٠: ٢١٨.

٣. تفسير الرازي ١٠: ٢١٨.

أصدقاء ﴿حَتَّى﴾ يَوْمًا، وتحققوا إيمانهم بأن ﴿يُهَاجِرُوا﴾ عن بلاد الشُّرك إلى دَار الإسلام ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولتُضْرَبَ دِينُهُ، وخدمة الرُّسُول، لا للأغراض الدُّنيوية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن موافقتكم في الإيمان، والهجرة عن الأوطان يخلُوص النِّية ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قَدَرْتُمْ عليهم ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ مِنَ الْجَلِّ وَالْحَرَمِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ لأنفسكم ﴿وَلِيًّا﴾ ولا صديقاً ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا مُعِيناً يُوَجِّهُ أَبَدًا، ما داموا على حالة الكُفْر والشَّقَاق.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا [٩٠]

ثم استثنى مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أُمِرَ بِقَتْلِهِمْ طَائِفَتَيْنِ، أَمَّا الطَّائِفَةُ الْأُولَى: فبقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ ويستنهون ﴿إِلَى قَوْمٍ﴾ كافرين يكون ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وعهد أكيد، أن لا تحاربوا.

قيل: هُمُ الْأَسْلَمِيُّونَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَاذْعَ^١ وَقَتَّ خُرُوجَهُ إِلَى مَكَّةَ هِلَالٌ بَنُ عُوَيْمِرِ الْأَسْلَمِيِّ عَلَى أَنْ لَا يُعِينَهُ وَلَا يُعِينُ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَنْ مَنْ وَصَلَ إِلَى هِلَالٍ وَلَجَّ إِلَيْهِ، فَلَهُ مِنَ الْجَوَارِ مِثْلُ الَّذِي لِهِلَالٍ^٢. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هُمُ بَنُو بَكْرِ بْنِ زَيْدٍ مَنَاءً^٣.

وعن قَتَادَةَ: هُمُ خُرَاعَةُ وَخَزِيمَةُ بَنِ عَبْدِ مَنَاءَ^٤.

وَأَمَّا الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: فبقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ حَالُ كَوْنِهِمْ ﴿حَصِرَتْ﴾ وَضَاقَتْ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عَنْ ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مَعَ قَوْمِهِمْ، لَكُنْزِكُمْ مُسْلِمِينَ مُعَاهِدِينَ مَعَهُمْ ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ مَعَكُمْ، لَكُنْزِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَهُمْ لَا لَكُمْ وَلَا عَلَيْكُمْ.

فِي مَعَاهِدَةِ الرُّسُولِ ﷺ مَعَ بَنِي مَدَلَجِ قِيلَ: هُمُ بَنُو مَدَلَجٍ، عَاهَدُوا الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُمْ، وَعَاهَدُوا قُرَيْشًا أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُمْ، فَضَاقَتْ صُدُورُهُمْ عَنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ لِلْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَلِلرُّعْبِ الَّذِي قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَضَاقَتْ صُدُورُهُمْ عَنْ قِتَالِ قَوْمِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينِهِمْ^٥. ثُمَّ مَنْ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّ أَذَى الْمُعَاهِدِينَ عَنْهُمْ بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تَسْلِيْطُ الْكُفَّارِ عَلَيْكُمْ

٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٥٧.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٣، عن مقاتل.

١. أي صالح وهادئ وسالم.

٣. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٢.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٢٥٧.

﴿لَسَطَطْهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بَرَفَ أثر العهد، وَثَوِيه قلوبهم، وإزالة الرُعب عنهم، إِذَنْ ﴿فَلَقَاتْلُوكُمْ﴾ البينة وقتلوكم، ولكن لم يشأ ذلك، لكرامتكم عليه بأتباع الرَسُول ودين الإسلام، فإذا عَلِمْتُمْ ذلك ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ﴾ واجتنبوا عن التَعَرُّض لكم ﴿فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ﴾ بمشيئة الله ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ﴾ وتلقوكم بالانقياد والتسليم ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ بالقتل والأسر.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «نزلت في بني مدليج، جاءوا إلى رَسُول الله ﷺ فقالوا: إنا [قد] حَصِرَتْ صُدُورُنَا أَنْ نَشْهَدَ أَنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ، فَلَسْنَا مَعَكَ وَلَا مَعَ قَوْمِنَا عَلَيْكَ، فَوَادَعَهُمْ إِلَى أَنْ يَفْرُغَ مِنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَدْعُوهُمْ فَإِنْ أَجَابُوا وَإِلَّا قَاتَلَهُمْ»^١.

ذكر معاهدة الرسول ﷺ مع بني الأشجع
عن القمي، في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ إلى آخر الآية: أنها نزلت في أشجع، وبني ضَمْرَة، وكان خبرهم أنه لما خرج رَسُول الله ﷺ إلى يَذْرَ لموعده مَرَّ قَرِيبًا مِنْ بِلَادِهِمْ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَادِنَ بَنِي ضَمْرَة وَوَادَعَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: هَذِهِ بَنُو ضَمْرَة قَرِيبًا مِنَّا، وَنَحَافُ أَنْ يُخَالِفُونَا إِلَى الْمَدِينَةِ، أَوْ يُعِينُوا عَلَيْنَا قَرِيشًا، فَلَوْ بَدَأْنَا بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا إِنَّهُمْ أَبْرَ الْعَرَبِ بِالْوَالِدِينَ، وَأَوْصَلَهُمْ لِلرَّحِمِ، وَأَوْفَاهُمْ بِالْعَهْدِ». وَكَانَ أَشْجَعُ بِلَادِهِمْ قَرِيبًا مِنْ بِلَادِ بَنِي ضَمْرَة، [وَهُمْ بَطْنٌ مِنْ كِنَانَةَ، وَكَانَتْ أَشْجَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي ضَمْرَة حَلَفَ فِي الْمِرَاعَاةِ وَالْأَمَانِ، فَأَجْدَبَتْ بِلَادَ أَشْجَعٍ وَأَخْصَبَتْ بِلَادَ بَنِي ضَمْرَة، فَصَارَتْ أَشْجَعُ إِلَى بِلَادِ بَنِي ضَمْرَة] فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسِيرَهُمْ إِلَى بَنِي ضَمْرَة، تَهَيَّأَ لِلْمَصِيرِ إِلَى أَشْجَعٍ فَيَغْزُوهُمْ لِلْمُوَادَعَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ضَمْرَة، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا...﴾، ثُمَّ اسْتَشْنَى أَشْجَعُ فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَيْنَا قَوْمٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية.

وكانت أشجع محالها البيضاء والجبل والمستباح، وقد كانوا قريبا رَسُول الله ﷺ، فهابوا لقرههم من رَسُول الله ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وكان رَسُول الله ﷺ قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئا، فهم بالمسير إليهم، فبينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رُخيلة^٢ وهم سبعمانة، فنزلوا شِغْبَ سَلْعٍ^٣، وذلك في شهر ربيع سنة بيت، فدعا رَسُول الله ﷺ أسيد بن حصين

١. الكافي ٨: ٣٢٧/٥٠٤.

٢. مسعود بن رُخيلة؛ بالخاء، انظر: أسد الغابة ٤: ٣٥٧ والإصابة في تمييز الصحابة ٣: ٧٩٤٣/٤١٠، وفي النسخة والصابي (رُخيلة) بالحاء وفي القمي: (رُخيلة) بالجيم.

٣. الشَّغْبُ: هو الطريق في الجبل، وَسَلْعٌ: هو جبل يسوق المدينة، أو هو نفسه الشق في الجبل، انظر معجم البلدان

فقال [له]: «اذهب في ثَمَرٍ من أصحابك حَتَّى تَنْظُرَ ما أقدم أشجع»، فخرج أسيد ومعه ثلاثة ثَمَرٍ من أصحابه فوقف عليهم فقال: ما أقدمكم؟ فقام إليه مسعود بن ربيعة: وهو رئيس أشجع، فسَلَّمَ على أسيد وعلى أصحابه وقالوا: جئنا لثَوادع محمدًا، فرجع أسيد إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فأخبره، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خاف القوم أن أغزوهم، فأرادوا الصُّلْحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ».

ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ بِعَشْرَةِ أَحْمَالٍ^١ ثَمَرٌ فَقَدَمَهَا أَمَامَهُ، ثُمَّ قَالَ: «نِعْمَ الشَّيْءُ الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ»، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ أَشْجَعٍ، مَا أَقْدَمَكُمْ؟ قَالُوا: قَرِيبٌ دَارُنَا مِنْكَ، وَلَيْسَ فِي قَوْمِنَا أَقَلُّ عِدْدًا مِنَّا، فَضِقْنَا بِحَرْبِكَ لِقُرْبِ دَارِنَا، وَضِقْنَا بِحَرْبِ قَوْمِنَا^٢ لِقَلَّتْنَا فِيهِمْ، فَجِئْنَا لثَوَادِعِكَ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَوَادَعَهُمْ، فَأَقَامُوا يَوْمَهُمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^٣.

وَالْقَمِيُّ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَانَتِ السَّيْرَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ بَرَاءَةِ أَنْ لَا يُقَاتَلَ إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُ، وَلَا يُحَارَبُ إِلَّا مَنْ حَارَبَهُ وَأَرَادَهُ، وَقَدْ كَانَ نَزَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ فَاسْلُمُوا أَوْ فَتَقُوا عَلَيْهِمُ الْمَسْلِمِينَ﴾ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُقَاتِلُ أَحَدًا قَدْ تَنَحَّى عَنْهُ وَاعْتَزَلَهُ، حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ بَرَاءَةِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ مَنْ اعْتَزَلَهُ وَمَنْ لَمْ يَعْتَزِلْهُ، إِلَّا الَّذِينَ قَدْ عَاهَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ إِلَى مَدَّةٍ، مِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَسِجْيَةُ تَمَامُ الْحَدِيثِ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى آلِفَتَنَةٍ
أُزْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا [٩١]

ثُمَّ أُذِنَ سُبْحَانَهُ فِي قِتَالِ الْمُعَاهِدِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا بِعَهْدِهِمُ الْعَدُوَّ بِالْمُسْلِمِينَ، وَتَقَضَوْهُ بِقَوْلِهِ: «سَتَجِدُونَ» قَوْمًا «آخَرِينَ» مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ «يُرِيدُونَ» بِعَهْدِهِمْ «أَنْ يَأْمَنُوكُمْ» وَيَسْتَرْحُوا مِنْ بَأْسِكُمْ بِالْعَهْدِ، أَوْ بِإِظْهَارِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ «وَيَأْمَنُوا» أَيْضًا «قَوْمَهُمْ» بِإِظْهَارِ الْكُفْرِ عَنْهُمْ.
قِيلَ: هُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَغُفَّانٍ، إِذَا أَتَوْا الْمَدِينَةَ أَسْلَمُوا وَعَاهَدُوا لِأَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ كَفَرُوا وَنَكثُوا عَهْدَهُمْ لِأَيْمَانِ قَوْمِهِمْ^٥.

١. في المصدر: أجمال. ٢. في المصدر: قومك. ٣. تفسير القمي ١: ١٤٥، تفسير الصافي ١: ٤٤٤.

٤. تفسير القمي ١: ٢٨١، تفسير الصافي ١: ٤٤٥، وفي النسخة: سهل بن عمر.

٥. تفسير أبي السعود ٢: ٢١٤، تفسير روح البيان ٢: ٢٥٨.

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في عيينة بن حصين^١ القَرَاري، أجدبَتْ بلادهم، فجاء إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وادعه على أن يقيم ببطن نَخل ولا يتعرَّض له، وكان مُثاقفاً مُلْعوناً، وهو الذي سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَحْمَقَ الْمُطَاعَ»^٢.

﴿كُلُّ مَا رُدُّوْا﴾ ودَعَوْا ﴿إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ فِي الْإِسْلَامِ، وَقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، نَقَضُوا الْعَهْدَ، وَ﴿أَزَكِسُوا﴾ وَاتَّقِلُوا ﴿فِيهَا﴾ أَقْبَحَ اتَّقِلَابِ، وَدَخَلُوا فِيهَا أَشْنَعَ دُخُولِ. وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ لِشِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ مَنْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مَنكُوساً يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ عَذْرِهِمْ وَتِفَاقِهِمْ، أَذِنَ فِي قِتَالِهِمْ بَعْدَ نَقْضِهِمُ الْعَهْدَ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَغْتَرْ لَكُمْ﴾ وَلَمْ يَنْتَحُوا عَنْ قِتَالِكُمْ، وَلَمْ ﴿يُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ﴾ وَلَمْ يَطْلُبُوا مِنْكُمْ الصُّلْحَ، ﴿وَلَمْ يَكْفُوا يَدِيَهُمْ﴾ عَنْ قِتَالِكُمْ، ﴿فَخَذَوْهُمْ﴾ كُلَّمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَأَقْتَلَوْهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ تَمَكَّنْتُمْ مِنْهُمْ فِي جِلٍّ أَوْ حَرَمٍ ﴿وَأَوَّلَيْتُمْ﴾ الْكَافِرُونَ الْغَادِرُونَ ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فِي قَتْلِهِمْ وَأَسْرِهِمْ ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وَحُجَّةً ظَاهِرَةً، مِنْ ظُهُورِ كُفْرِهِمْ، وَعَدَاوَتِهِمْ، وَنَقْضِهِمُ الْعَهْدَ، وَإِضَارِهِمُ بِالْإِسْلَامِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ السُّلْطَانِ الْمُبِينِ: إِذْنُهُ تَعَالَى فِي قَتْلِهِمْ^٣.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [٩٢]

ثُمَّ لَمَّا أَذِنَ اللَّهُ فِي الْقِتَالِ، وَكَانَ مَعْرَضاً لِقَتْلِ مُؤْمِنٍ فِيهِ خَطَاٌ أَوْ اِشْتِبَاهاً، بَيَّنَّ حُكْمَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ فِي زَمَانٍ مِنْ أَرْسَةِ التَّكْلِيفِ جَائِزاً ﴿لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ ذَلِكَ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿إِلَّا﴾ حَالُ كَوْنِهِ ﴿خَطَاً﴾ وَبِغَيْرِ الْقَصْدِ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْاِشْتِبَاءَ مِنْ لَازِمِ الْحُكْمِ، وَهُوَ أَنَّهُ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا كَانَ خَطَاً^٤.

١. في النسخة: عيينة بن الحصين، تصحيف، انظر: أسد الغابة ٤: ١٦٦.

٢. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٦.

٣. تفسير القمي ١: ١٤٧، مجمع البيان ٣: ١٣٦، تفسير الصافي ١: ٤٤٦.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٨.

وعن القمّي: يعني [لا عمدًا] ولا خطأ^١.

عن الباقر عليه السلام: «نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي أخي أبي جهل لأُمّه، كان أسلم وقتل بعد إسلامه رجلاً مسلماً وهو لا يعلم بإسلامه، وكان المقتول الحارث بن يزيد بن أنسة^٢ العامري، قتله بالحرّة بعد الهجرة، وكان أحد من رَدّه عن الهجرة، وكان يُعَذِّب عيَّاشاً مع أبي جهل»^٣.

وروي عن عروة بن الزبير أن حذيفة بن اليمان كان مع رسول الله ﷺ في أحد، فأخطأ المسلمون وظنوا أن أباه اليمان واحد من الكفار، فأخذوه وضربوه بأسيا ففهم وحذيفة يقول: إنه أبي، فلم يفهموا قوله إلا بعد أن قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، فلما سمع الرسول ﷺ ذلك ازداد وقع حذيفة عنده. فنزلت الآية^٤.

وقيل: إن الآية نزلت في أبي الدرداء، ذلك أنه كان في سرية، فعدّل إلى شعبٍ لحاجة له، فوجد رجلاً في غمّ له فحمل عليه بالسيف، فقال الرجل: لا إله إلا الله، فقتله وساق غنمه، ثم وجد في نفسه شيئاً، فذكر الواقعة لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «هَلَا شَقَقْتَ عن قلبه»، وندم أبو الدرداء. فنزلت الآية^٥.

في كُفارة قتل المؤمن خطأ ثم بين الله حال الكفارة والدية بقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ **﴿خَطَأً﴾** وبغير قصد **﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾** وعِتق نَسَمَةٍ **﴿مُؤْمِنَةٍ﴾** وإِجب عليه، كفارة للقتل.

عن الصادق عليه السلام: «كُلُّ الْعِتْقِ يَجُوزُ فِيهِ الْمَوْلُودُ، إِلَّا كَفَّارَةُ الْقَتْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني بذلك: الْمُقَرَّةُ و[قد] بلغت الجَنّت»^٦.

عن الكاظم عليه السلام، كيف تُعرف المؤمنة؟ قال: «على الفِطْرة»^٧.
﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ ومُؤَدَاةٌ **﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾** واجبة عليه **﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾** عليه، ويعفوا عنها.
قيل: سُمِّيَ العَفْوُ عن الدِّيةِ صَدَقَةً حَتّاً عليه، وتَنْبِيهاً على فَضْله. وفي الحديث: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^٨.

سُئِلَ الصادق عليه السلام عن الخطأ الذي فيه الدِّية والكفارة، هو الرجل يضرب الرجل ولا يتعمد قتله؟

١. تفسير القمّي ١: ١٤٧.

٢. في النسخة: الحارث بن يزيد أبو هنيشة، تصحيف، وهو الحارث بن يزيد بن أنسة، وقيل: أنيسة، راجع: أسد الغابة

٣. مجمع البيان ٣: ١٣٨. ٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٧.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٧.

٦. تفسير العياشي ١: ٤٢٦/١٠٦٣، الكافي ٧: ٤٦٢/١٥، والمراد من بلوغها الجَنّت: أي بلوغها مبلغ الرجال ومبلغ

التكليف الشرعي والمعصية والطاعة. النهاية ١: ٤٤٩. ٧. تفسير العياشي ١: ٤٢٦/١٠٦٤، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.

٨. تفسير أبي السعود ٢: ٢١٥.

قال: «نعم»، قيل: فإذا رمى شيئاً فأصاب رجلاً؟ قال: «ذلك الخطأ الذي لا شك فيه، وعليه الكفارة والذية»^١.

﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ كافرين ﴿عَدُوٌّ﴾ ومُحَارِب ﴿لَكُمْ﴾ لا عَهْدَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لَمْ يَعْلَمْ الْقَاتِلُ إِيْمَانَهُ، لَكُنْهُ بَيْنَ الْكُفَّارِ، وَفِي دَارِ الْحَرْبِ، وَلَمْ يُهَاجِرْ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ ﴿فَتُخْرِجُ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً﴾.

عن الصادق عليه السلام: فِي رَجُلٍ مُسْلِمٍ [كَانَ] فِي أَرْضِ الشُّرْكَ، فَقَتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ، ثُمَّ عَلِمَ بِهِ الْإِمَامُ بَعْدُ؟ فَقَالَ: «يَعْتَقُ مَكَانَهُ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ﴾ الآية»^٢.
وفي رواية: «وَلَيْسَ عَلَيْهِ الذِّيَّةُ»^٣.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ كَفَرَةٍ، وَلَكِنْ كَانَ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وَعَهْدٌ أَكِيد ﴿فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ وَمَوْذَاءٌ ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ وَوَارِثُهُ، وَاجِبَةٌ عَلَى الْقَاتِلِ ﴿وَتُخْرِجُ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً﴾ لَا زِمَ عَلَيْهِ كَفَّارَةُ لِقَتْلِهِ؛ كَمَا عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٤.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ وَلَمْ يَمْلِكِ الرَّقَبَةَ، وَلَمْ يَتِمَّ مِنْ شِرَائِهَا بِمَا زَادَ عَنْ نَفَقَتِهِ وَنَفَقَةِ عِيَالِهِ ﴿فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ﴾ هِلَالَيْنِ ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ وَمُتَوَالِيَيْنِ بَدَلًا عَنْ الْعِتْقِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَإِنَّمَا شَرَعَتْ هَذِهِ الْكَفَّارَةُ لِكُونِهَا ﴿تَوْبَةً﴾ مَقْبُولَةٌ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْمُبَالِغَةِ فِي الْاِخْتِيَاطِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الْعَمْدِ وَعَدَمِهِ ﴿حَكِيمًا﴾ فِي مَا أَمَرَكُمْ بِهِ فِي مَوْضِعِ قَتْلِ الْخَطَا.

عن الصادق عليه السلام: «إِنْ كَانَ عَلَى رَجُلٍ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ فَأَظْطَرَّ أَوْ مَرَضَ فِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ، فَإِنْ عَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ الصِّيَامَ، وَإِنْ صَامَ الشَّهْرَ الْأَوَّلَ وَصَامَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي شَيْئًا، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ مَا لَهُ فِيهِ الْعُذْرُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْضِيَ»^٥. يَعْنِي مَا بَقِيَ عَلَيْهِ.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ
وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا [٩٣]

ثُمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي التَّهْدِيدِ عَلَى قَتْلِ الْمُؤْمِنِ مُتَعَمِّدًا، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ حَالُ كَوْنِ الْقَاتِلِ ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ فِي قَتْلِهِ قَاصِدًا لَهُ ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِهَذَا الْقَتْلِ عِنْدَ اللَّهِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ فَيَدْخُلُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَالُ كَوْنِهِ ﴿خَالِدًا﴾ وَدَانِمًا ﴿فِيهَا﴾ حَكَمَ اللَّهُ بِذَلِكَ ﴿وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أَشَدَّ الْعَظَبِ

١. تفسير العياشي ١: ٤٢٨/١٠٧٣، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.

٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٣/١١٠. ٣. تفسير العياشي ١: ٤٢٥/١٠٦١، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.

٤. مجمع البيان ٣: ١٤٠. ٥. الكافي ٤: ٧/١٣٩، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.

﴿وَلَقَدْ﴾ وأبعده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ﴾ وَهِيَ ﴿لَهُ﴾ فِي جَهَنَّمَ ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

في ذكر قصة ارتداد مقيس ولحوته في بني النجار، فاتى رسول الله ﷺ وذكر القصة، فأرسل ﷺ معه الزبير بن العيا^٢ الفهري؛ وكان من أصحاب بدر، إلى بني النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتص منه إن علموه، وبأداء الدية إن لم يعلموا، فقالوا: سمعاً وطاعة لله ورسوله، لا نعلم له قاتلاً، ولكننا نؤذي دينه، فأتوه بمائة من الإبل، فأنصرفا راجعين إلى المدينة، حتى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال: اتقبل دية أخيك فيكون مسبة^٣ عليك، أقتل هذا الفهري الذي معلن فتكون نفس مكان نفس، وتبقى الدية فضيلة، فرماه بصخر فشدخ رأسه فقتله، ثم ركب بعيراً من الإبل وساق بقية إلى مكة كافراً، وهو يقول:

قتلت به فيهما وحملت عقله
وأدركت ناري واضطجعت مؤسداً
فنزلت الآية. وهو الذي استثناه رسول الله ﷺ يوم فتح مكة من أمنه، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة^٤.

عن الصادق عليه السلام، أنه شغل عن المؤمن يقتل المؤمن متعمداً، أله التوبة؟ قال: «إن كان قتله لإيمانه فلا توبة له، وإن كان قتله لغضب أو لشيء من أشياء الدنيا، فإن توبته أن يقاد منه، وإن لم يكن علم به انطلق إلى أولياء المقتول فأقر عندهم بقتل صاحبهم، فإن عفوا عنه فلم يقتلوه أعطاهم الدية، واعتق نسمة، وصام شهرين متتابعين، وأطعم ستين مسكيناً توبة إلى الله عز وجل»^٥.

وعنه عليه السلام: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً [حراماً]».

وقال: «لا يوفق قاتل المؤمن متعمداً للتوبة»^٦.

١. في تفسير أبي السعود: ضيابة.

٢. في النسخة: وولده هشام، تصحيف صوابه من تفسير أبي السعود، وراجع: تاريخ الطبري ٢: ٦٠٩، الكامل في التاريخ ٢: ٢٥٠.

٣. كذا في النسخة، وفي تفسير أبي السعود وروح البيان: الزبير بن عياض، ولم نجده في أصحاب بدر، وفي مجمع البيان ٣: ١٤١: ميس بن هلال، وراجع: بحار الأنوار ٢٢: ٢١.

٤. أي يكون عاراً عليك وسبباً للساب.

٥. في تاريخ الطبري ٢: ٦٠٩ (أصحاب فارع) وفارع: حصن لبني النجار.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ٢١٦، تفسير القرطبي ٥: ٣٣٣ مع اختلاف في كلمات الشعر.

٧. الكافي ٧: ٢٧٦، تفسير الصافي ١: ٤٤٨. ٨. الكافي ٧: ٢٧٢، تفسير الصافي ١: ٤٤٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ
السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَىٰ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [٩٤]

ثم أمر الله سبحانه المجاهدين بالتبُّت في القتل، والاختفاء بظاهر الإسلام في الكف عنه بقوله:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ وسافرتُمْ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولجِّهوا الكُفَّار ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وتبيَّنوا
واستكشفوا حالَ مَنْ يُريدون قتله، وميزوا بين الكافر والمؤمن، حتَّى لا تقتلوا مؤمناً بغير حقِّ،
وعليكم الاختفاء بظاهر الحال في الإيمان ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ الذي هو تحية
المسلمين وأمانة الإسلام، أو لِمَنْ ألقى إليكم الانقياد والتسليم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما أظهرت
الإسلام طلباً للسلامة وحفظاً على نفسك، بل عاملوه بظاهر الحال، ولا تنهؤوه بالكفر فتقتلوه حال
كونكم بقتله ﴿تَبْتَغُونَ﴾ وتطلبون اغتيام أمواله التي تكون ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومَتَاع الدَّارِ
الفانية، والحطام السريع الزوال، فإن أردتم الغنيمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ من أموال المشركين
تغنيكم عن أموال المقتولين المظهرين للإسلام بثمة الكفر وعدم كون إسلامهم عن صميم القلب،
فإنكم ﴿كَذَلِكَ﴾ [كهؤلاء] المظهرين للإسلام ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي بدو إسلامكم، لم تكن فيكم
علامة قطعية على صدق إيمانكم، وتحقق اليقين بالعقائد الحقَّة في قلوبكم ﴿فَمَنْ أَتَىٰ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول
إسلامكم الظاهري، فحقن به دماءكم، وصان به أموالكم من غير توقيف على العلم بموافقة ما سمع
من أفواهكم لما في قلوبكم.

ثم أكد سبحانه الأمر بالتبيين^١ والتبُّت في شأن مَنْ يُريدون قتله، بقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولا تعجلوا في
قتل أحدٍ حتَّى تحرزوا كُفْرَه، ثم بالغ في ذلك بوعد العقاب على ترك التبيين، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ من التبيين وعدمه والطاعة والعصيان، ﴿خَبِيرًا﴾ ومُطَّلِعاً حتَّى الاطلاع، فيجازيكم عليه حتَّى
الجزاء.

في ذكر قتل أسامة
رجلاً بطن
الكفر
رؤي أن يزداس بن نهيك - رجُلٌ من أهل فدك - أسلم ولم يسلم من قومه غيره،
فذهبت سرية الرسول إلى قومه وأميرهم غالب بن فضالة، فهرب القوم وبقي
يرداس لثقتَه بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول^٢ من الجبل، فلما
تلاحقوا وكبروا وكبر ونزل وقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد

١. كذا، والظاهر أن الصواب التبيين، في المواضع الثلاثة.

٢. العاقول هنا: الأرض الوعرة، الكثيرة المعاطف.

وساق عَنَّمَهُ، فأخبروا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فوجدَ وَجداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادة ما معه»، ثم قرأ الآية على أسامة، فقال أسامة: يا رسول الله، استغفر لي، فقال: «وكيف وقد تلا: لا إله إلا الله؟!»، قال أسامة: فما زلت أعيدها حتى ودِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ اسْتَغْفِرَ لِي وَقَالَ: «أَغْنِي رَقَبَةً»^١.

وعن القمّي رحمه الله: نزلت لما رجع رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من غَزْوَةِ خَيْبَرَ، وبعث أسامة بن زيد في خَيْلٍ إِلَى بَعْضِ [قُرَى] الْيَهُودِ فِي نَاحِيَةِ فَدَكْ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُدْعَى مِرْدَاسُ بْنُ نَهْيَكِ الْفَدَكِيِّ فِي بَعْضِ الْقُرَى، فَلَمَّا أَحْسَسَ بِخَيْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَصَارَ فِي نَاحِيَةِ جَبَلٍ، وَأَقْبَلَ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَمَرَّ بِهِ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَطَعَنَهُ وَقَتْلَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ [لَهُ] رَسُولُ اللَّهِ: [قَتَلْتَ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَ تَعَوِّذًا مِنَ الْقَتْلِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: [فَلَا شَقَقْتُ الْغِيَاءَ عَنْ قَلْبِي [وَأَنَا] لَا مَا قَالَ بِلِسَانِهِ قِيلَتْ، وَلَا مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ عَلِمْتُ]، فَحَلَفَ أُسَامَةُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ لَا يَقْتُلَ أَحَدًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَتَخَلَّفَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي حُرُوبِهِ^٢، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ»^٣.

وقيل: إِنَّ الْقَاتِلَ مُحَلِّمٌ بِنِجَامَةٍ، لِقِيهِ عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ بَيْنَ مُحَلِّمٍ وَبَيْنَهُ إِخْنَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ»، فَمَا مَضَتْ بِهِ سَبْعَةُ أَيَّامٍ حَتَّى مَاتَ، فَدَفَنُوهُ، فَلَفَظَتْهُ الْأَرْضُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُرِيَكُمْ عَظَمَ الذَّنْبِ عِنْدَهُ»، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْحِجَارَةُ^٤.

وقيل: إِنَّ الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسَدِ [قَدْ] وَقَعَتْ لَهُ مِثْلُ وَاقِعَةِ أُسَامَةَ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ لَاحَظَ شَجَرَةً فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ تَعَالَى، أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَطَعَ يَدَيَّ؟

١. تفسير الرازي ١١: ٣.

٢. وتلك حجة داحضة، لأن أمير المؤمنين عليه السلام يدور مع الحق حينما دار بنص الرسول ﷺ، فضلاً عن أن الرسول ﷺ قد أخبره بقتال الفئات الباغية من الناكثين وهم أصحاب الجمل، والقاسطين وهم أهل الشام، والمارقين وهم الخوارج، وقد نص الكتاب الكريم على قتال أهل البغي بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾. [الحجرات: ٩/٤٩] وكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قد قال لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية» فقتله أصحاب معاوية في صفين. وكان أمير المؤمنين عليه السلام راية الهدى التي ميزت رجالات الأمة، فبعضهم نصر الحق فكانوا شهداءً وصديقين، وبعضهم نصر الباطل وقاتل الإمام عليه السلام وناصبه العداء فكانوا ناكثين وقاسطين ومارقين، وبعضهم وقف على النل فكانوا مذنبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

٣. تفسير القمي ١: ١٤٨، تفسير الصافي ١: ٤٤٩.

٥. تفسير الرازي ١١: ٣.

٤. الإحنة: الجحد والضن.

فقال ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلك بعد أن تقتله، وأنت بمنزله قبل أن يقول كلمته التي قال»^١.

أقول: لا منافاة بين الروايات، لجواز نزولها عند وقوع جميعها، فكان كلٌ منهم زعم أنها نزلت في واقعه.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى
 الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى
 الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا [٩٥ و ٩٦].

ثم أنه تعالى - بعد ما بين حكم قتل المؤمن في الجهاد خطأ، وحكم وجوب التبيين^٢، ووجوب
 الاختفاء في إحراز الإيمان بالظاهر - بين أن الجهاد من الواجبات الكفائية، فيجوز القعود عنه مع قيام
 من به الكفاية، ولكن غاية الفضل والثواب للقائمين به بقوله: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ» والمتخلفون
 عن الجهاد، حال كونهم «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» وكونهم «غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ» من مَرَضٍ، أَوْ عَمَى، أَوْ عَرَجٍ،
 أو غيرها من الأعذار «وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» في القرب عند الله، والأجر
 في الآخرة وفيه إشعار بجواز القعود عن الجهاد، إذا كان القائمون به كافرين له، والترغيب في القيام به.
 روي أنها نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة، ومرة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، وهلال
 بن أمية من بني واقف، تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم تبوك^٣.

وروي عن زيد بن ثابت أنه قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ، فغشيته السكينة، فوقع فتخذه
 على فخذِي حتى خَشِيتُ أَنْ تَرْضَاهَا، ثم شَرِي عَنْهُ، وَأَزِيل عَنْهُ مَا عَرَضَ لَهُ مِنْ شِدَّةِ الْوَحْيِ، فقال:
 «اكْتُبْ» فكتبت «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ»، فقال ابن أمّ مكتوم^٤ وكان

١. تفسير الرازي ١١: ٣. ٢. كذا، والظاهر أن الصحيح: التبيين.

٣. مجمع البيان ٣: ١٤٧، تفسير الصافي ١: ٤٤٩.

٤. وهو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم القرشي العامري، وأم مكتوم أمه، واسمها عاتكة بنت عبد الله، وهو خال أم
 المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فإن أمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وقد اختلف في اسمه فقيل: عبد الله،
 والأكثر عمرو، وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة ليصلي بالناس، وكان ضريب البصر، شهد القادسية وهو أعمى،
 وقتل فيها سنة ٢٣ هـ. أسد الغابة ٤: ١٢٧، الأعلام للزركلي ٥: ٨٣.

أعنى: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فغشيتُه السَّكِينَةُ كذلك، ثم سُرِّي عنه فقال: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ...﴾»، قال زيد: أنزلها الله وخذها فالحقَّتْها^١.

أقول: فيه دلالة على أنَّ أُولَى الضَّرَرِ مُساوٍ للمُجاهدين.

ثم لم يكتفِ سبحانه في ترغيب المُجاهدين بذكر عَدَم مساواتهم للقاعدين، بل صرح بتفضيلهم على القاعدين بقوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ الأصْحَاءُ ﴿دَرَجَةً﴾ عظيمة من الأجر.

ثم أكد جواز التَّعَوُّد عند قيام مَنْ به الكفاية بقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمُجاهدين ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ بفضله العاقبة أو المثوبة ﴿الْحُسْنَى﴾ لحسن عقيدتهم، وخلوص نيَّتهم، وحضورهم لطاعة ربِّهم، وإنَّما التَّفَاوُت بزيادة العمل الموجبة لزيادة الثَّوَاب.

ثم أكد فضيلة المُجاهدين بقوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ الأصْحَاءُ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً ثم فَضَّلَ الله الأجر العظيم والدَّرَجَةَ الثَّيِّبَةَ بقوله: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ رفيعة في الجنة كائنة ﴿بَيْنَهُ﴾ تعالى قيل: عددها سبعون، ما يَبَيِّن كُلَّ دَرَجَتَيْنِ عَدُوَّ الْفَرَسِ الجَوَادِ الْمُضْمَرِ سَبْعِينَ خَريفًا، وقيل: سبعمائة.

وُروى أنَّ في الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمُجاهدين في سبيله، ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما يَبَيِّن السَّمَاءُ والأَرْضُ^٢.

أقول: يُمكن أن يكون الاختِلَاف لا خِتْلَاف المُجاهدين في الإيمان، وخلوص النِّيَّة.

﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لما يصدر منهم من الزَّلَّاتِ وَالْخَطَايَا في مَدَّة أعمارهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة من الله لا تُوصف ببيان.

ثم قرَّر المغفرة والرحمة بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للعاصين ﴿رَحِيمًا﴾ بالمؤمنين، وأفضلهم المُجاهدون.

ثم أعلم أنَّ في الآية دلالة واضحة على أنَّ المُجاهد من حيث المُجاهدة أفضل من القاعد عنها، وإن كان القاعد من جهة الكمالات الأخر المعنوية قد يكون أفضل، وعلى هذا يجب الحكم بأفضلية المُجاهد على القاعد، حتَّى يثبت للقاعد جهة فضيلة مُكافئة لفضيلة المُجاهدة، أو راجحة عليها، وقد ثبتت الجهة الراجحة لرسول

في إثبات أفضلية
أمير المؤمنين عليه السلام
وردة الفخر القائل
بأفضلية أبي بكر
منه

الله ﷺ لَوْضُوح أَنَّ الكَمَال الذي أوجب استِحْقاق مَنَصِب الرِّسَالَة كَمَال لَا يَكافئه شَيْءٌ. ولذا لَا يُمكن أَن يُقال بأفضليَّة المُجاهد على رَسول الله ﷺ وإن كان من القاعدين، ووجب القول بأفضليَّة المُجاهد على غيره ﷺ.

إذا تمَّهَّد ذلك فنقول: لَا شُبْهَة أَنَّ أمير المؤمنين ﷺ كان أَفضل المُجاهدين، فيجب أَن يُحكم بأنَّه أَفضل من أبي بكر وأضرابه من القاعدين، كما استدلَّ أصحابنا رضوان الله عليهم بهذه الآية عليها. واعتراض الفخر الرازي عليه بَلْزوم أَفضليَّة أمير المؤمنين على رَسول الله ﷺ مِنَ الخُرفات التي لَا ينبغي صُدورها من ذي شُكَّةٍ لِمَا ذُكرنا.

وأما قوله: إِنَّ أبي بكر كان مُجاهداً في سبيل الله، فغير ثابت، إِنَّ لَمْ يثبت كونه مِنَ الفَازِين مِنَ الجِهَاد في أَحَدٍ.

وأما كونه مُجاهداً بدَعْوَة النَّاس إلى الإسلام، ولذا أسلم بدَعْوته جَمْعٌ مِنَ الصَّحابة، كما قال المُعتَرَض، فغير مَلْعوم أيضاً، لَعَدَم دلالة دليل قاطع عليه، وعلى تَقدير ثبوته لَمْ تَكُن دَعْوته أَكثر من دَعْوَة عليّ ﷺ، وقد ثبت بالروايات المُسلمة بَيِّن الخاصَّة والعامة أَنَّهُ المُراد من قوله: ﴿وَيَتَّبِعُوا شَاهِدًا مِنْهُ﴾^٢. وليت شِعري من أين عَلِمَ هذا الرَّجُل المُتَعَصِّب مُبالغة أبي بكر في إسلام سائر النَّاس!

وقوله بأنَّه أسلم بدَعْوته عِدَّة قليلة مِنَ الصَّحابة، على تَقدير تَسليمه، لَا يَدُلُّ على مُبالغته في الدَّعوة، وإدَّعائه أَنَّهُ صَرَفَ ماله ونفسه في الدَّبِّ عن النَّبي، فدَعَوَى بِلا بُرْهان، مع ثُبوت بخله بصدقة

١. لقد انفتحت كتب السيرة والتاريخ أَنَّهُ لم يبق مع رسول الله ﷺ يوم أَحَد عند هزيمة النَّاس إِلَّا أمير المؤمنين عليّ ﷺ وأبو دجانة، وسهل بن حنيف، وقيل: عبدالله بن مسعود، وكان لأمير المؤمنين عليّ ﷺ الفضل في ردِّ الكتابات وقتل أصحاب الألوية من المشركين، ومن ثم في ثبات من ثبت من المسلمين، فنادت الملائكة بفضله: (لَا سِيف إِلَّا ذُو الْفَقَارِ، وَلَا فِئْتِي إِلَّا عَلِيٌّ) وتباهوا بِعَظِيم منزلته في مواساة رسول الله ﷺ (راجع: تاريخ الطبري ٢: ٥١٤، ومجمع الزوائد ٦: ١١٤، وشرح ابن أبي الحديد ١٣: ٢٦١ و١٤: ٢٥٠).

قال ابن عباس: لعليّ ﷺ أربع خصال ليست لأَحَدٍ... وعَدَّ منها صبره مع رسول الله ﷺ يوم فرَّ النَّاس عنه في أَحَد (راجع مستدرک الحاكم ٣: ١١١، الاستيعاب ٣: ٢٧، شرح ابن أبي الحديد ٤: ١١٦).

وفي حنين لم يبق مع رسول الله ﷺ غير تسعة نفرٍ من بني هاشم، وكان على رَأْسهم أمير المؤمنين عليّ ﷺ، وعاشروهم أَيْمَن من أَم أَيْمَن الذي استشهد فيها.

وفي خيبر بعث رسول الله ﷺ أبا بكر بالراية إلى خيبر فانهزم ولم يكن فتح، وبعث بعده عمر فرجع يجتنب أصحابه ويجتنبونه (تاريخ الطبري ٣: ١٢، مستدرک الحاكم ٣: ٣٧) فقال عليّ ﷺ: «لَأُعْطِينَ الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، كراماً غير فرارٍ» فأعطاهَا أمير المؤمنين عليّ ﷺ وكان الفتح على يديه (راجع: البداية والنهاية ٧: ٣٤٩، وأسد الغابة ٤: ٢١، وحلية الأولياء ١: ٦٢).

وأخرج البخاري حديث الراية في الصحيح ج ٥ ص ٨٧، كتاب المناقب - باب مناقب عليّ ﷺ حديث ١٩٧ وص ٢٧٩ من نفس الجزء - كتاب المغازي - باب غزوة خيبر. وأخرجه مسلم في الصحيح ٤: ١٨٧١، كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل عليّ ﷺ.

دَرَّهَمَ قَدَامَ نَجْوَى الرَّسُولِ^١، وِغَايَةَ خَوْفِهِ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْغَارِ، وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَائِمَ فِي فِرَاشِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَكَيْفَ أَنَّهُ كَانَ يُقِيمُ الدَّلَائِلَ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُزِيلُ الشُّبُهَاتِ وَالضَّلَالَاتِ عَنِ الْقُلُوبِ، مَعَ جَهْلِهِ بَعْدَ مَدَّةٍ مَدِيدَةٍ مِنْ إِسْلَامِهِ بِمَعْنَى (الْإِب) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾^٢ وَلَوْلَا الْإِطْنَابُ الْمُخَلَّ فِي عِبَارَةِ هَذَا الرَّجُلِ لَنَقَلْتَهَا حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ الْعَصِيَّةَ كَيْفَ أَعْمَتَتْهُ حَتَّى قَالَ بِأَفْضَلِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ كَوْنِ بَطْلَانِهَا أَظْهَرَ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ^٣ النَّهَارِ.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [٩٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِجَابِ الْهَجْرَةِ يَقُولُ: ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وَحُكْمُهُ يَقْتُلُ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ يَقُولُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فُخِّدُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾^٤ وَبَيَانَ أَحْكَامِ الْقِتَالِ، شَرَعَ فِي تَهْدِيدِ غَيْرِ الْمُهَاجِرِينَ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ﴾ وَتَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الْمُوَكَّلُونَ عَلَى قَبْضِ الْأَرْوَاحِ، حَالَ كَوْنِهِمْ ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بِتَرْكِ الْهَجْرَةِ، وَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ وَالْعَمَلَ بِهَا، وَالْقِيَامَ بِالْجِهَادِ، وَبِالرِّضَا بِمُجَاوَرَةِ الْمُشْرِكِينَ.

﴿قَالُوا﴾ سَأَلَتِ الْمَلَائِكَةُ الْمُتَوَفِّينَ^٥ تَقْرِيراً لَهُمْ: إِنَّكُمْ ﴿فِيمَ﴾ وَفِي أَيِّ حَالٍ ﴿كُنْتُمْ﴾ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ؟ وَلِمَ تَرَكْتُمْ الْجِهَادَ وَالْعَمَلَ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ؟ ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ اعْتِذَارٌ عَنْ تَقْصِيرِهِمْ فِي الْقِيَامِ بِالْوُظَائِفِ الدِّينِيَّةِ: إِنَّا ﴿كُنَّا﴾ بَعْدَ إِسْلَامِنَا ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾ مُسْتَذَلِّينَ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، مَقْهُورِينَ لَهُمْ، عَاجِزِينَ عَنِ الْعَمَلِ بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فِي﴾ هَذِهِ ﴿الْأَرْضِ﴾ الَّتِي تَكُونُ دَارَ الشَّرْكِ وَالْكُفْرِ. فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَ﴿قَالُوا﴾ فِي جَوَابِهِمْ تَقْرِيراً أَيْضاً: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ وَمَمْلَكَتُهُ عَرِيضَةً ﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وَتَنْتَقِلُوا إِلَى قَطْرِ آخَرٍ مِنْ أَقْطَارِهَا يَسْكُنُهُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى تَتِمَّكَوْا مِنْ إِقَامَةِ دِينِكُمْ، وَالْعَمَلِ بِوُظَائِفِكُمْ، وَلَا يَمْنَعُكُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنْهَا، كَمَا فَعَلَ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَوْ

١. لما نزلت آية النجوى (المجادلة: ١٢/٥٨) لم يعمل بها أحدٌ من الصحابة إلا أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، راجع: تفسير الطبري ٢٨: ١٤، سنن الترمذي ٥: ٣٣٠٠/٤٠٦، الخصائص للنسائي: ج ٦، ١٤٦، مستدرک الحاكم ٢: ٤٨١.

٢. الدر المنثور ٨: ٤٢١، والآية من سورة عبس: ٣١/٨٠.

٣. في الأصل: رابعة، تصحيف.

٤. النساء: ٨٩/٤.

٥. في النسخة: المتوفون عنهم.

الحَبْشَةُ، فأنتم بهوى أنفسكم مع قدرتكم على الهجرة، بقيتم في دار الشرك وأرض الكفر. فبعد إتمام الحجة عليهم أو عدمه بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الَّذِينَ تَعَدُّوا فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ، وقصروا في تعلم الدين والعمل بالأحكام ﴿وَمَا وَهُمْ﴾ ومزلتهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة، كما كان مأواهم دار الشرك في الدنيا، ومصيرهم ومقلبهم النار ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ومقلباً لهم. قيل: إن جمعاً من المسلمين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة، ثم خرجوا مع المشركين إلى بدر فقتلوا فيها، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقالوا لهم ما قالوا^١.

وعن الباقر عليه السلام: «هم قيس بن الفاكهة بن الثغيرة، والهارث بن زععة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن الثغيرة، وأبو العاص بن المُنْبَه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف»^٢.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: نزلت في من اعتزل أمير المؤمنين عليه السلام ولم يقاتلوا معه، فقالت الملائكة لهم عند الموت: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ؟﴾ قالوا: كُنَّا مُسْتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ، أَي لَمْ نَعْلَمْ مَعَ مَنْ الْحَقِّ، فقال الله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ أَي دِينَ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَاسِعٍ، فتنظروا فيه^٣. أقول: هذه الرواية تأويل، والسابقة تنزيل.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ فَرَّ يَدِينَهُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَإِنْ كَانَ شِيبَرًا مِنَ الْأَرْضِ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^٤. وفي (نهج البلاغة)، قال: «لَا يَقَعُ اسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أَذُنُهُ، وَوَعَاها قَلْبُهُ»^٥.

وعن الكاظم عليه السلام أنه شغل عن الضعفاء؟ فكتب: «الْمُسْتَضَعِّفُ مَنْ لَمْ تُرْفَعْ [إِلَيْهِ] حُجَّةٌ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْاِخْتِلَافَ، فَإِذَا عَرَفَ الْاِخْتِلَافَ فَلَيْسَ بِمُسْتَضَعِّفٍ»^٦.

إِلَّا الْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا [٩٨]

ثم استثنى الله تعالى من الزَّعِيدِ غير القادرين على الهجرة بقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضَعِّفِينَ﴾ والمقهورين في أيدي الكفار ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الَّذِينَ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ ولا يتمكنون تدبيراً للخروج من بلد الكفر، ولا يملكون نفقة للسفر، أو لا يقدرّون على حركة للمرَضِ ﴿وَلَا

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٣، تفسير روح البيان ٢: ٢٦٩.

٢. مجمع البيان ٣: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٣.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٣، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

٤. نهج البلاغة: ١٨٩/٢٨٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٣.

٥. الكافي ٢: ١١/٢٩٩، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» ولا يعرفون طريقاً.

في معنى المستضعف رُوي أنه بعث النبي ﷺ بهذه الآية إلى مسلمي مكة، فقال جندب بن صُمرة^١ لبيته:

احملوني فأني لسْتُ مِنَ المُستضعفين، ولا إني لا أهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة

بمكة، فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً، فمات في الطريق^٢.

قيل: إن الاستثناء مُنقطع، لعدم دخول المُستضعفين في «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ»^٣.

وقيل: إنَّ ضَمَّ الْوَلَدَانِ إِلَى الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ، مَعَ عَدَمِ كَوْنِهِمْ مُكَلَّفِينَ، لِلْمُبَالِغَةِ فِي إِيْجَابِ الْهَجْرَةِ، أَوْ

لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ أَنْ يَهَاجِرُوا بِهِمْ^٤.

عن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ؟ فَقَالَ: «الْبُلْهَاءُ فِي خِذْرَاهَا، وَالْخَادِمَةُ تَقُولُ لَهَا: صَلِّي

فَتُصَلِّي، لَا تَدْرِي إِلَّا مَا قُلْتَ لَهَا، وَالْجَلِيبُ الَّذِي لَا يَدْرِي إِلَّا مَا قُلْتَ لَهُ، وَالْكَبِيرُ الْفَانِي^٥، وَالصَّغِيرُ»^٦.

قيل: الْجَلِيبُ: الَّذِي يُجْلِبُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرٍ^٧.

وعنه عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «قَالَ نَسَاؤُكُمْ وَأَوْلَاكُمْ» ثُمَّ قَالَ: «أَرَأَيْتَ أَمَّ أَيْمَن؟ فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهَا

مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَا كَانَتْ تَعْرِفُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»^٨.

وعنه عليه السلام: «هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ حِيلَةً يَدْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْكُفْرَ، وَلَا يَهْتَدِي سَبِيلًا إِلَى الْإِيمَانِ، لَا يَسْتَطِيعُ

أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ» قَالَ: «الصَّيَّيَانِ، وَمَنْ كَانَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ عَلَى مِثْلِ عُقُولِ الصَّيَّيَانِ»^٩.

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا عَفُورًا [٩٩]

«فَأُولَئِكَ» الْمُسْتَضْعَفُونَ «عَسَى اللَّهُ» وَيُرْجَى مِنْهُ «أَنْ يَغْفُوَ» وَيَصْنَحَ «عَنْهُمْ» وَفِي التَّعْبِيرِ

عَنْ عَدَمِ اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعُقُوبَةَ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ، إِشَارَةً إِلَى مَبْغُوضِيَّةِ عَدَمِ الْهَجْرَةِ فِي نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانُوا

مَعْذُورِينَ فِيهِ.

ثُمَّ قَرَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَفْوُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا» وَصَفُوحاً عَنِ الْمَعَاصِي «عَفُورًا»

وَسَتَّارًا لِلذُّنُوبِ.

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ

٢. تفسير الرازي ١١: ١٣.

١. في النسخة: جندب بن مغيرة، تصحيف، أنظر: أسد الغابة ١: ٣٠٣.

٣. النساء: ٩٧/٤. ٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٣.

٦. تفسير العياشي ١: ١٠٩٥/٤٣٥، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

٥. زاد في تفسير العياشي: والصبي.

٨. الكافي ٢: ٦٢٩٨، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

٧. تفسير الصافي ١: ٤٥٥.

٩. الكافي ٢: ٣٢٩٧، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

بَيَّنَّهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [١٠٠]

ثم بالغ في الترغيب إلى الهجرة بقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ﴾ من دار الشرك إلى دار الإسلام ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولطَّابَ مَرْضَاتِهِ، وحَفِظَ دِينَهُ ﴿يَجْزِي فِي الْأَرْضِ مَرْاعِمًا﴾ ومنازل كثيرة النعمة والراحة، بحيث يُوجِبُ رَغَمَ أَنْفِ الْأَعْدَاءِ، ويكون ﴿كَثِيرًا﴾ يظفر بها بسهولة ﴿وَوُجِدَ سَعَةً﴾ في الرزق وإظهار الدين.

ولما كان مجال توهم أن فائدة الهجرة فيما إذا بلغ المقصد، دون ما إذا مات في الطريق، كجندب بن ضمرة^١، دفعه الله بقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ حال كونه ﴿مُهَاجِرًا﴾ ومفارقاً وطنه وعشيرته، مُتَوَجِّهًا ﴿إِلَى﴾ طاعة ﴿اللَّهِ﴾ وحذِّه، ﴿وَوُجِدَ سَعَةً﴾ أو بلد يتمكن فيه من القيام بوظائف دينه ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ في الطريق ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ وثبت ﴿أَجْرُهُ﴾ وثوابه ﴿عَلَى اللَّهِ﴾. ثم قرّر الوعد بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سَبَقَ مِنَ التَّهَاقُوتِ فِي الْهَجْرَةِ إِلَى أَنْ خُرُوجِهِ ﴿رَحِيمًا﴾ بإكمال ثواب هجرته.

في هجرة جندب بن ضمرة لما أشرف على الموت في التَّعْنِيمِ^٢، أخذ يصفق يمينه على شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَذِهِ لَكَ، وَهَذِهِ لِرَسُولِكَ، أَبَايُكَ عَلَى مَا بَايَعَكَ عَلَيْهِ رَسُولُكَ. فَمَاتَ حَمِيدًا، فَلَمَّا بَلَغَ خَبْرَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: لَوْ تَوَفَّى فِي الْمَدِينَةِ لَكَانَ أَمْثَ أَجْرًا. وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ وَهُمْ يَضْحَكُونَ: مَا أَدْرَكَ هَذَا مَا طَلَبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^٣. عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، قَالَ: وَجَّهَ زُرَّارَةُ بْنُ أَعْيَنَ ابْنَهُ عُبَيْدًا^٤ إِلَى الْمَدِينَةِ يَسْتَخْبِرُ خَيْرَ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ ﷺ، وَعَبْدُ اللَّهِ^٥، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ عُبَيْدٌ، قَالَ ابْنُ أَبِي عُمَيْرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَكِيمٍ، قَالَ: ذَكَرْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ ﷺ تَوَجُّهَ عُبَيْدٍ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «إِنِّي لأرجو أن يكون زُرَّارَةُ وَمَنْ

١. تقدّم ذكره في تفسير الآية (٩٨) من هذه السورة.

٢. التَّعْنِيمُ: موضع على فرسخين من مكة وقيل: على أربعة.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٧١.

٤. في النسخة: عبيد الله، في جميع المواضع، تصحيف، انظر: رجال الكشي: ٢٥٥/١٥٥.

٥. هو عبدالله بن جعفر، المعروف بالأفطح، وقد ادّعى الإمامة بعد أبيه الصادق ﷺ، فهجرته الشيعة بعد أن امتحنوه فلم يروا فيه مواصفات الإمامة كالعصمة والعلم والدلائل وغيرها، وبعد أن تحققوا من النصّ على الإمام موسى الكاظم ﷺ بعد أبيه الصادق ﷺ.

قال الله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية^١.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا [١٠١]

ثم لما كانت الهجرة مستلزمة للسفر أو الخوف، بين الله حكم الصلاة فيهما بقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ وسافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للهجرة أو لغيرها من الأغراض المحللة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وخرج في ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بتقصير رباعياتها، وترك نوافل ما قصر منها، وكذا ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويلقوكم بالمكروه، فلا جناح عليكم في التقصير في الصلاة.

وإنما عبر شبحانه عن وجوب التقصير بنفي الجناح، لدفع توهم الناس فيه، حيث إن الأذهان كانت مألوفة بالإتمام، كما عبر عن وجوب السعي^٢ به لذلك.

وإنما ذكرنا (وكذا إن خفتهم)^٣ لثبوت كون كل من السفر والخوف علة مستقلة لوجوب التقصير، وعدم اشتراط عليّة كل [منهما] بوجود الآخر.

وقيل: إن اشتراط القصر في السفر بالخوف مبني على الغالب من أسفار النبي ﷺ، حيث لم يكن في الغالب خالياً عن الخوف، فلا مفهوم للشرط هنا.

والحق أن ظاهر الآية تعليق القصر على وجود الخوف الدال على اثنيان عند اثنيان، إلا أنه ثبت بالنص والفتوى عدم إرادة التعليق، وكون كل من السفر والخوف سبباً مستقلاً له^٤.

في صلاة السفر عن زرارة، ومحمد بن مسلم قال: قلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر،

كيف هي، وكَم هي؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ فصار التقصير واجباً كوجوب التمام في الحضر».

قالا: قلنا له: قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، ولم يقل (افعلوا)، فكيف أوجب ذلك كما

أوجب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: «أَوَّلُ لَيْسَ [قد] قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْؤَةَ مِنْ شَعَائِرِ

اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^٥، ألا ترون أن الطواف بهما واجب

١. تفسير العياشي ١: ٤٣٥/١٠٩٧، تفسير الصافي ١: ٤٥٥.

٢. كذا، والصواب: وجوب الطواف، وذلك في الآية (١٥٨) من سورة البقرة، راجع: تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٥، وتفسير روح البيان ٢: ٢٧٣، والحديث الآتي لاحقاً عن أبي جعفر عليه السلام.

٣. هذه إشارة إلى عبارة المصنف المتقدمة آنفاً في تفسير الآية.

٤. راجع كنز العرفان ١: ٢/١٨٥.

٥. زاد في تفسير العياشي: في السفر.

٦. البقرة: ١٥٨/٢.

مفروض، لأن الله عز وجل ذكره في كتابه، وصنعه رسول الله ﷺ، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي ﷺ وذكره الله في كتابه.

قالا: قلنا له: فمن صلى في السفر أربعاً، أيعيد أم لا؟ قال: «إن كان [قد] قرئت عليه آية التقصير وفُتِرَ له وصلى أربعاً أعاد، وإن لم يكن قرئت عليه، ولم يعلمها فلا إعادة عليه، والصلاة كلها في السفر الفريضة ركعتان كل صلاة، إلا المغرب فإنها ثلاث ليس فيها تقصير، وتركها رسول الله ﷺ في السفر والحضر ثلاث ركعات»^١.

وزاد في (الفتاوى): «وقد سافر رسول الله ﷺ إلى ذي حُثَب، وهي مسيرة يوم من المدينة، يكون إليها برّيدان، أربعة وعشرون ميلاً، فقصر وأفطر، فصار ستة، وقد سمى رسول الله ﷺ قوماً صاموا حين أفطر العصاة، قال: فهم العصاة إلى يوم القيامة، وإنّا لنعرف أبناءهم وأبناء ابنائهم إلى يوم القيامة»^٢.

وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: [صلاة الخوف وصلاة السفر] تقصران جميعاً؟ قال: «نعم، وصلاة الخوف أحق أن تقصر من صلاة السفر؛ لأن فيها خوفاً»^٣.

وعن أبي عبد الله عليه السلام، في صلاة الخوف، فقال: «هذا تقصير ثانٍ، وهو أن يؤدّ الرجل الركعتين إلى الركعة»^٤.

وفي رواية: قال في الركعتين: «تتقص منهما واحدة»^٥.

وقال بعض: إن ردّ الركعتين إلى ركعة يواد به ردّ الأربع إلى ركعتين^٦.

وعن الرضا عليه السلام، في رواية: «التقصير في ثمانية فراسخ وما زاد، وإذا قصرَ أفطرت»^٧.

وعن زرارة: قد سألت أبا عبد الله عليه السلام عن التقصير، فقال: «بريد ذاهب وبريد جاني - إلى أن قال: - إنما فعل ذلك لأنه إذا رجع كان سفره يزيد، ثمانية فراسخ»^٨.

في صلاة الخوف ثم بين سبحانه الموقعية للخوف من الكفار، بقوله: «إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ» من

سابق الزمان وقديم الأيام «عَدُوًّا مُبِينًا» وخصماً ظاهراً، والآن زادت عداوتهم

فيستهزون الفرصة عليكم، فلذا أمركم الله بتخفيف الصلاة، لتكونوا منهم على حذر.

١. تفسير العياشي ١: ٤٣٦/١٠٩٨، تفسير الصافي ١: ٤٥٥.

٢. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٧٨/١٢٦٦، وفيه: إلى يومنا هذا.

٣. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٩٤/١٣٤٣.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٩٤/١٣٤٣.

٥. الكافي ٣: ٤٥٨/٤، تفسير الصافي ١: ٥٦٦.

٦. وسائل الشيعة ٨: ٤٣٤/ذيل الحديث ٤.

٧. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٨٧/١٣٠٤، عن الباقر عليه السلام.

٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١٢٣.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا
فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ
أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [١٠٢]

ثم بين الله سبحانه كيفية صلاة الخوف بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ مع المؤمنين ومقيماً ﴿فيهم﴾ فأرادوا أن يصلي بهم ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ جماعة، وكان العدو في مقابلكم، فاجعل أصحابك طائفتين، فإذا شرعت في الصلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ خليفك يصلون ﴿مَعَكَ﴾ والطائفة الأخرى يحرسونكم من العدو ﴿وَالْمُصَلُّونَ﴾ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ويستصحبوا آلات دفاعهم ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ معكم قاموا وأثردوا، وصلوا ركعة أخرى وسلموا ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ ووقفوا تجاه العدو لِحراستكم ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى﴾ الذين كانوا بإزاء العدو و﴿لَمْ يُصَلُّوا﴾ بعد ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ جماعة، ﴿وَلَكِنْ لِيَأْخُذُوا﴾ ألبنة ﴿حِذْرَهُمْ﴾ وليراعوا غاية تيقظهم من العدو، ﴿وَلَكِنْ كَذَا﴾ أَسْلِحَتَهُمْ و﴿الآلات حُرْبِهِمْ﴾.

ثم علل إيجاب أخذ الحذر والسلاح بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتمنوا أنكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ وتبعدون ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أن ينالوا منكم غيرة في صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ حيثذ ﴿عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ويحبلون عليكم حملة شديدة.

وأما أقصر سبحانه في الطائفة الأولى بإيجاب أخذ الأسلحة، وضم في الطائفة الثانية إليه أخذ الحذر؛ لأن الكفار لا يلتفتون غالباً في أول الصلاة إلى أن المسلمين مشغولون بها، فلا يحتاجون إلى شدة الاختراز عنهم، بخلاف الركعة الثانية فإنهم بعد الركوع والسجود يعلمون بكونهم في الصلاة، فلا بد من شدة التحذر واليقظ.

ثم رخص سبحانه في وضع الأسلحة إذا كان في أخذها حرج، بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المسلمون الخائفون من العدو ﴿إِنْ كَانَ بَكُمْ أَذًى﴾ وكلفة في أخذ الأسلحة لثقلها الحاصل ﴿مِنْ﴾ بلل ﴿مَطَرٍ﴾ شديد ﴿أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ وضغمت عن حملها في ﴿أَنْ تَضَعُوا﴾ عنكم ﴿أَسْلِحَتَكُمْ﴾ في حال الصلاة - ويلحق بالحالتين كل حالة يكون في حملها مشقة - ﴿وَلَكِنْ خُذُوا﴾ في تلك الحالة ﴿حِذْرَكُمْ﴾ والزمو تيقظكم لمكرهم، أشد التيقظ كيلا يهجم

عليكم العَدُوّ وأنتم في الصّلاة.

ثمّ لما كان في إيجاب الحَذَرِ مجال توهُمُ القُوّةِ والشُّوكَةِ للكُفَّارِ، دَفَعَهُ اللهُ تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ من القَتْلِ والأسْرِ والخِزْيِ في الدُّنْيَا، ومن النَّارِ في الآخِرَةِ، ويكون ذلك العذاب ﴿مُهِينًا﴾ ومَذَلًّا لهم لتكِبْرِهِم عن الاتِّقيادِ لله وطاعة الرُّسُولِ. وفيه بِشارةٌ للمُؤْمِنِينَ بِتَضَرُّعِهِمْ، وخِذلانِ الكُفَّارِ على أيِّ حال.

نسي كيفية صلاة الخوف وأنواعها
عن القمي عليه السلام: نزلت لما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية يريد مكة، فلما وقع الخبر إلى قريش بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس يستقبل رسول الله ﷺ، فكان

يعارض رسول الله ﷺ على الجبال، فكان في بعض الطريق وحضرت صلاة الظهر فأذن بلال وصلى رسول الله ﷺ بالناس، فقال خالد بن الوليد: لو كنّا حملنا عليهم وهم في الصلاة أصبناهم، فإنهم لا يقطعون الصلاة، ولكن يجيء لهم الآن صلاة أخرى هي أحب إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا فيها حملنا عليهم، فنزل جبريل بصلاة الخوف بهذه الآية، ففرق رسول الله ﷺ أصحابه فريقتين: فوقف بعضهم تجاه العدو وقد أخذوا سلاحهم، وفرقة صلوا مع رسول الله ﷺ قياماً، ومزوا فوقوا مواقف أصحابهم، وجاء أولئك الذين لم يصلوا فصلّى بهم رسول الله ﷺ الركعة الثانية ولهم الأولى، وقعد رسول الله، وقام أصحابه فصلّوا هم الركعة الثانية، وسلم عليهم.^٢

وعن الصادق عليه السلام: «أنها نزلت في غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف، ففرق أصحابه فريقتين؛ أقام فرقة بإزاء العدو، وفرقة خلفه، فكبر وكبروا، وقرأ وأنصتوا، وركع وركعوا، وسجد وسجدوا، ثم استمرّ رسول الله ﷺ قائماً، وصلّوا لأنفسهم ركعة، ثم سلم بعضهم على بعض، ثم خرجوا إلى أصحابهم وقاموا بإزاء العدو، وجاء أصحابهم فقاموا خلف رسول الله، فصلّى بهم ركعة، ثم تشهد وسلم عليهم، فقاموا وصلّوا لأنفسهم ركعة، ثم سلم بعضهم على بعض».^٣

وعنه عليه السلام أنه شغل عن صلاة الخوف، قال: «يقوم الإمام وتجيء طائفة من أصحابه فيقومون خلفه، وتقوم طائفة بإزاء العدو، فيصلي بهم الإمام ركعة ثم يقوم ويقومون [معه] فيمثل قائماً، ويصلون هم الركعة الثانية، ثم يسلم بعضهم على بعض، ثم ينصرفون فيقومون في مقام أصحابهم، ويجيء الآخرون فيقومون خلف الإمام، فيصلي بهم الركعة الثانية، ثم يجلس الإمام، فيقومون هم فيصلون

١. (فكان ... رسول الله ﷺ) ليس في المصدر.

٢. في النسخة: قائماً.

٣. تفسير القمي ١: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٧.

٤. في النسخة: ابن عباس عليه السلام.

٥. في الكافي: استتم.

٦. الكافي ٣: ٢/٤٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٥٧.

رُكْعَةً أُخْرَى، ثُمَّ يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ وَيَتَفَرَّقُونَ بِتَسْلِيمِهِ».

قال: «وفي المغرب مثل ذلك، يقوم الإمام وتجيء طائفة فيقومون خلفه، ثُمَّ يُصَلِّيَ بِهِمْ رُكْعَةً، ثُمَّ يقوم ويقومون، فيمثل الإمام قائماً، فيصلون ركعتين فيشهدون، وَيُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ ينصرفون فيقومون في موقف أصحابهم، ويجيء الآخرون ويقومون موقف أصحابهم^١ خلف الإمام، فيصلي بهم رُكْعَةً يقرأ فيها، ثُمَّ يجلس فيشهد، ثُمَّ يَقُومُ ويقومون معه وَيُصَلِّيَ بِهِمْ رُكْعَةً أُخْرَى ثُمَّ يجلس، ويقومون هُمْ فَيَتِمُّونَ رُكْعَةً أُخْرَى، ثُمَّ يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ»^٢.

أقول: حال الخوف إن كان بحيث لا يمكن معه الاستقرار وإيقاع الأفعال، كحال المسابقة^٣ والمعاقبة صلى الناس فرادى بحسب إمكانهم، فإن الصلاة لا تترك بحال، فيقتصر في الصلاة حيثنذ كمية وكيفية.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْأَصْحَابِ فِي كَيْفِيَّةِ صَلَاةِ الْخَوْفِ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:
الْأَوَّلُ: صَلَاةُ بَطْنِ النَّخْلِ^٤.

وهي أن يكون العدو في جهة القبلة، فيفترق الإمام أصحابه فرقتين؛ يُصَلِّيَ بِأَحَدِهِمَا رُكْعَتَيْنِ وَيُسَلِّمُ بِهِمْ، وَالثَّانِيَةَ تَحْرُسُهُمْ، ثُمَّ يُصَلِّيَ بِالثَّانِيَةِ رُكْعَتَيْنِ نَافِلَةً وَمُعَادَةً لَهُ وَفَرِيضَةً لِأَصْحَابِهِ، وَهَذِهِ تَصِحُّ مَعَ الْأَمْنِ أَيْضاً.

وَالثَّانِي: صَلَاةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ^٥.

وَشَرْطُهَا كَوْنُ الْعَدُوِّ فِي خِلَافِ جِهَةِ الْقِبْلَةِ، أَوْ فِي جِهَتِهَا، وَلَكِنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَائِلٌ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الرُّؤْيَةِ لَوْ هَجَمُوا، وَقُوَّةُ الْعَدُوِّ بِحَيْثُ يُخَافُ هُجُومَهُمْ، وَكَثَرَةُ الْمُسْلِمِينَ بِحَيْثُ يُمَكِّنُ افْتِرَاقُهُمْ فِرْقَتَيْنِ يُقَاوِمُ كُلَّ فِرْقَةٍ الْعَدُوَّ، وَعَدَمُ الْإِحْتِيَاجِ إِلَى زِيَادَةِ التَّفْرِيقِ، فَيَنْحَازُ الْإِمَامُ بِطَائِفَةٍ إِلَى حَيْثُ لَا يَلْفُغُهُمْ سِهَامُ الْعَدُوِّ، فَيُصَلِّيَ بِهِمْ رُكْعَةً، فَإِذَا قَامَ إِلَى الثَّانِيَةِ انْفَرَدُوا وَاجِباً وَأَتَمَّوْا، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى تَحْرُسُهُمْ، ثُمَّ تَقُومُ الْأُولَى مَقَامَ الثَّانِيَةِ، وَتَنْحَازُ الثَّانِيَةُ إِلَى الْإِمَامِ وَهُوَ يَنْتَظِرُهُمْ فَيَقْتَدُونَ بِهِ فِي الثَّانِيَةِ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ لِلتَّشَهُدِ قَامُوا وَأَتَمَّوْا وَلَجُّوْا بِهِ وَسَلَّمُ بِهِمْ، وَيَطْوِلُ الْإِمَامُ الْقِرَاءَةَ فِي انْتِظَارِ الثَّانِيَةِ، وَالتَّشَهُدِ^٦ فِي انْتِظَارِ فَرَاعِهَا.

٢. الكافي ١: ٤٥٥، تفسير الصافي ١: ٤٥٧.

١. (موقف أصحابهم) ليس في الكافي.

٣. المسابقة: التضارب بالسيف.

٤. بطن نخل: قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة، وفي النسخة: بطن النجل.

٥. ذات الرقاع: اسم شجرة في موضع الغزوة سميت بها، وقيل: لأن أقدامهم نعبت من المشي فلقوا عليها الخرق.

٦. في النسخة: كثر. ٧. أي يطول الإمام التشهد في انتظار فراغ الفرقة الثانية.

وفي المغرب يُصَلِّي بالْأُولَى رَكَعَتَيْنِ، وبِالثَّانِيَةِ رَكْعَةً، أَوْ بِالْعَكْسِ. وهذا النوع هو مدلول الروايات السابقة.

والثالث: صلاة عُشْفَانَ^١.

وهي أن يكون العَدْوُ في جِهَةِ الْقِبْلَةِ، فَيَرْبُتْهُمَ صَفَّيْنِ، وَيُحْرِمَ الْإِمَامَ بِهِمَا جَمِيعاً وَبِرُكْعَ بِهِمَا، وَيَسْجُدُ بِالْأُولَى خَاصَّةً، وَيَقِفُ الثَّانِي لِلْجَرَّاسَةِ، فَإِذَا قَامَ الْإِمَامُ بِالْأُولَى سَجَدَ الثَّانِي، ثُمَّ يَتَقَبَّلُ كُلٌّ مِنَ الصَّفَّيْنِ إِلَى مَكَانِ الْآخَرِ، فَيَرْكَعُ الْإِمَامُ بِهِمَا، ثُمَّ يَسْجُدُ بِالَّذِي يَلِيهِ^٢ وَيَقُومُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ أَوَّلاً لْجَرَّاسَتِهِمْ، فَإِذَا جَلَسَ بِهِمْ سَجَدُوا وَسَلَّمَ بِهِمْ جَمِيعاً^٣.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً [١٠٣]

ثم أمر الله النَّاسَ بِالْتَّوَجُّهِ إِلَى ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ فِي قِبَالِ الْكُفَّارِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ﴾ وَأَذَيْتُمْ ﴿الصَّلَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ وَالتَّجَنُّوا إِلَيْهِ وَاسْأَلُوهُ النَّصْرَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ [سِوَاهُ] أَكْتُمُ ﴿قِيَاماً﴾ فِي مُقَابِلِ الْعَدْوِ ﴿وَقُعُوداً﴾ لِلرَّمْيِ، أَوْ غَيْرِهِ ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ مِنْ الْجِرَاحِ ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ وَاسْتَقَرَّرْتُمْ فِي مَنَازِلِكُمْ وَأَوْطَانِكُمْ، أَوْ فِي مَحَلٍّ قَصَدْتُمُ الْمَقَامَ فِيهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْمَأْنَنْتُمْ قُلُوبَكُمْ مِنْ خَوْفِ الْعَدْوِ ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ تَمَاماً كَمَا كُنْتُمْ تُتِمُّونَهَا قَبْلَ السَّفَرِ وَالْخَوْفِ.

ثم لما ذَكَرَ صَلَاةَ السَّفَرِ وَالْخَوْفِ، أَكَّدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ﴾ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْمِلَلِ وَالْأَعْيَانِ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ﴿كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ وَفَرْضاً مَوْقُوتاً، أَوْ مَقْدَرًا.

عن الباقر عليه السلام: «يعني مفروضاً، وليس يعني وقت فوتها، إذا جاز ذلك الوقت ثم صلاها لم تكن صلاتها مؤداة، ولو كان ذلك [كذلك] لهلك سليمان بن داود حين صلاها لغير وقتها، ولكن متى ما ذكرها صلاها»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «﴿مَوْقُوتاً﴾ أي ثابتاً، وليس إن عجلت قليلاً أو أخرت قليلاً بالذي يضرُّك ما لم

١. عُشْفَان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وقيل: عسفان بين المسجدين، وهي من مكة على مرحلتين.

٢. في النسخة: بالذي بينه.

٣. كنز العرفان ١: ١٨٩.

٤. في تفسير العياشي: وقتاً وقفتها.

٥. في تفسير العياشي: بغير.

٦. تفسير العياشي ١: ١١٠٣/٤٣٩، تفسير الصافي ١: ٤٥٨.

تُضَيِّعُ بِلَاكِ الْإِضَاعَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾^١.

أقول: الظاهر أن الروائيين ناظران إلى نفي التوقيت بوقت الفضيلة.

وَلَا تَهْتُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [١٠٤]

ثم أنه تعالى بعد بيان وجوب قتال الكفار، وشدة عداوتهم، وكيفية الصلاة فيهم، أمر بالجد في قتالهم، ونهى عن التهاون فيه بقوله: ﴿وَلَا تَهْتُوا﴾ ولا تضعفوا أيها المؤمنون ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ الكافرين الذين دونكم، وجدوا في طلبهم، واجتهدوا في قتالهم، ولا تخافوا من الآلام التي تصيبكم، فإنكم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ﴾ من الجراحات التي تصيبكم في حربهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿يَأْلُمُونَ﴾ من الجراحات التي تصيبهم منكم ﴿كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ من الجراحات التي تصيبكم منهم، وهم مع ذلك لا يفترون عن قتالكم، ولا يتهاونون فيه، مع أنكم وهم سواء في ما يوجب الخوف ﴿وَأَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ بجهدكم، وما يصيبكم من الآلام والمصائب ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من الثواب والأجر؛ لأنكم تعتقدون بدين الإسلام ودار الجزاء، وتعلمون أن لكم بالجهد درجات عظيمة عند الله في الآخرة، والمشركون لا يعتقدون بشيء من ذلك، فإذا كانوا مع إنكارهم الحشر ودار الجزاء صابرين على قتالكم مجدين فيه، فأنتم أولى بالجد والصبر عليه منهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بصلاح دينكم ودنياكم ﴿حَكِيمًا﴾ في ما يأمركم وينهاكم، وفي تدبير أموركم.

عن القمي عليه السلام: أن النبي ﷺ لما رجع من وقعة أحد ودخل المدينة، نزل [عليه] جبرئيل فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تخرج في إثر القوم، ولا يخرج معك إلا من به جراحة، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: يا معشر المهاجرين والأنصار، من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم يكن به جراحة فليقيم، فأقبلوا يصدقون جراحاتهم ويدأونوها، فأنزل الله على نبيه ﴿وَلَا تَهْتُوا﴾ الآية^٢.
وقيل: إنها نزلت في بدر الصغرى^٣. وقد مضت كلتا القصيتين في سورة آل عمران.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [١٠٥ و ١٠٦]

١. الكافي ٣: ٢٧٠/١٣، تفسير الصافي ١: ٤٥٨، والآية من سورة مريم: ٥٩/١٩.

٢. تفسير القمي ١: ١٢٤، تفسير الصافي ١: ٤٥٩. ٣. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٢: ٢٧٧.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَيِّنٌ - بَعْدَ الْأَمْرِ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ - أَنَّهُمْ إِنْ وَجِبَ قِتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجُوزُ خِيَانَتُهُمْ، وَلَا الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْحَقِّ لَمَنْ خَانَهُمْ، يَقُولُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الَّذِي هُوَ ذَلِيلٌ صِدْقُكَ، لَكُنْهُ مَقْرُونًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَشَوَاهِدُ الصَّدْقِ، وَأَنَّهُ مِنْ اللَّهِ ﴿لِتُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ وَفِي مُتَاذَعَاتِهِمْ ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَمِمَّا عَرَفَكَ مِنَ الْوَحْيِ، فَاحْكُمْ بِهِ بَيْنَهُمْ ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ وَلَا جُلْهُمْ ﴿خَصِيمًا﴾ وَمُعَارَضًا لِلرَّبِّينِ وَالْمُحْفِينَ ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ وَمِمَّا وَقَعَ فِي قَلْبِكَ مِنَ الْحُكْمِ لِلْخَائِنِينَ وَمُسَاعَدَتِهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾ لَمَنْ أَسْتَغْفَرَهُ ﴿رَحِيمًا﴾ بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

في قصة سرقة بني أبيرق رُوِيَ أَنَّ أَبَا طَعْمَةَ بْنَ أَبِي رَافٍ سَرَقَ دِرْعًا مِنْ جَارٍ لَهُ اسْمُهُ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَخَبَأَهَا عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخَذَ الدَّرْعَ مِنْ مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ أَبُو طَعْمَةَ، فَجَاءَ بَنُو أَبِي رَافٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَلَّمُوهُ أَنْ يُجَادَلَ عَنْ صَاحِبِهِمْ وَقَالُوا: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ أَفْتَضَحَ أَبُو طَعْمَةَ، وَبَرَى الْيَهُودِيُّ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ وَأَنْ يُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ، فَنَزَلَتْ^١ وَعَنِ الْقَمِيِّ ﷺ: أَنْ سَبَّ نَزَلَهَا أَنْ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي أَبِي رَافٍ، وَهُمْ إِخْوَةُ ثَلَاثَةِ طَعْمَةَ^٢ وَبَشِيرٍ وَبَشِيرٌ كَانُوا مُتَاقِفِينَ، فَتَقَبَّوْا عَلَى عَمِّ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، وَكَانَ بِذُرْيَا، وَأَخْرَجُوا طَعْمًا كَانَ أَعَدَّهُ لِعِيَالِهِ وَسَيْفًا وَدِرْعًا، فَشَكَا قَتَادَةُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَوْمًا نَقَبُوا عَلَى عَمِّي، وَأَخَذُوا طَعْمًا كَانَ أَعَدَّهُ لِعِيَالِهِ، وَدِرْعًا وَسَيْفًا، وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ شَوْءٍ، وَكَانَ مَعَهُمْ فِي الرَّأْيِ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ سَهْلٍ.

فَقَالَ بَنُو أَبِي رَافٍ لِقَتَادَةَ: هَذَا عَمَلُ لَبِيدُ بْنُ سَهْلٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ لَبِيدًا، فَأَخَذَ سَيْفَهُ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا بَنِي أَبِي رَافٍ، أَتَرْمُونِي بِالسَّرْقِ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِهِ مِنِّي، وَأَنْتُمْ الْمُتَاقِفُونَ، تَهْجُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَتَنْشُبُونَهُ إِلَى قُرَيْشٍ، لِتُبَيِّنَ ذَلِكَ أَوْ لِأَمْلَتَنَّ سَيْفِي مِنْكُمْ، فَدَارَوْهُ وَقَالُوا لَهُ: ازْجِعْ رَحِمَكَ اللَّهُ، فَإِنَّكَ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ. فَمَشَى بَنُو أَبِي رَافٍ إِلَى رَجُلٍ مِنْ رَهْطِهِمْ، يُقَالُ لَهُ أَسِيدُ بْنُ عُرْوَةَ، وَكَانَ مُنْطَلِقًا بَلِيغًا، فَمَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ عَمَدَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ مَنَا أَهْلٍ شَرَفٍ وَحَسَبٍ وَنَسَبٍ، فَرَاهِمُ بِالسَّرْقِ، وَأَتَاهُمْ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ. فَاعْتَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، وَجَاءَ قَتَادَةُ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ شَرَفٍ وَحَسَبٍ وَنَسَبٍ فَرَمَيْتَهُمُ بِالسَّرِقَةِ»، فَعَاتَبَهُ عِتَابًا شَدِيدًا.

فَاعْتَمَ قَتَادَةَ مِنْ ذَلِكَ، وَرَجَعَ إِلَى عَمِّهِ وَقَالَ: لَيْتَنِي مِتُّ وَلَمْ أَكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ كَلَّمَنِي بِمَا

كرهته. فقال عنه: الله المستعان، فأنزل الله في ذلك على نبيه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الآيات^١.
أقول: لابد لنا - على ما ثبت عندنا من عصمة الأنبياء عن الخطأ والزلل - من حمل هذه الروايات على أن النبي ﷺ رأى مصلحة دينه في إظهار موافقة المنافقين ومساعدتهم إلى أن تنزل الآيات، ويكون معذوراً عندهم عن الموافقة بإعذار الله تعالى له، كما أنه ﷺ كان يصدق كل ما كانوا يقولون، حتى قالوا: إنه أذن.

وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا [١٠٧]

ثم نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يحامي عن بني أبيرق ويجادل عنهم اليهودي أو قتادة^٢، بقوله: ﴿وَلَا تَجَادِلْ﴾ ولا تخاصم اليهودي أو قتادة ﴿عَنِ﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يبنفاهم وخيانتهم في أموال المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾ للناس في أموالهم، ومن كان ﴿أَثِيمًا﴾ وعصياً، فلا تحبهم.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا [١٠٨]

ثم ونح هؤلاء المنافقين السارقين بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ ويسترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ كفرهم وسرقتهم، ويستحيون أن تظهر أعمالهم القبيحة ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ أن يسرقوا الأموال بعينه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ في جميع الأحوال، و﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ ويرتبون ﴿مَا لَا يَرْضَى﴾ به الله ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ من رمي اليهودي أو ليبد ابن سهل^٣، والحلف على براءة أنفسهم، وأمثال ذلك.
[عن] القمي: يعني: الفعل، فوق القول على الفعل^٤.
عن الباقر عليه السلام، في قوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾، قال: «الأول والثاني^٥، وأبو عبيدة بن الجراح^٦».

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث: «وقد بين الله قصص المغيرين بقوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ

١. تفسير القمي ١: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٩.

٢. راجع تفسير الآيتين (١٠٦ و ١٠٥) من هذه السورة.

٣. تفسير القمي ١: ٥٥١، تفسير الصافي ١: ٤٦٠.

٤. في تفسير العياشي: فلان وفلان وفلان.

٥. تفسير العياشي ١: ٤٤١/١١١١.

٦. تفسير العياشي ١: ٤٤١/١١١١.

مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴿ بَعْدَ فَقْدِ الرُّسُولِ ﷺ مَا يَتِيمُونَ بِهِ أَوْ ذَّ بَاطِلِهِمْ، حَسَبَ مَا فَعَلَتْهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْدَ فَقْدِ مُوسَى وَعِيسَى ﷺ مِنْ تَغْيِيرِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ ١. ثُمَّ هَدَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ مِنَ النِّفَاقِ وَالسَّرِقَةِ وَالبُهْتَانِ «مُحِيطًا» وَمُطْلِعًا، فَيُجَازِيهِمْ أَسْوَأَ الْجَزَاءِ.

هَٰ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا [١٠٩]

ثم عاتب الله المؤمنين الذين كانوا يذَّبُونَ عن هؤلاء المتنافقين بَطْنِ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿هَٰ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ الْمُخْطِئُونَ، هَبُوا أَنْكُمْ «جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ» وَخَاصَمْتُمُ الْيَهُودِي أَوْ قَتَادَةَ، وَخَفِظْتُمْ عِزَّضَ بَنِي أُبَيْرِقَ ٢ «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» وَالذَّارِ الْغَانِيَةِ «فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ» وَيُحَامِي «عَنْهُمْ» إِذَا حَكَمَ عَلَيْهِم بِالْعَذَابِ «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَفِي مَخْضَرِ عَذَلِهِ «أَمْ مَنْ يَكُونُ» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَتِلْكَ الْحَالَةِ «عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» وَحَافِظًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعَقُوبَتِهِ.

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [١١٠]

ثم أنه تعالى بعد التهديد والوعيد بالعذاب، دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ «سُوءًا» مِنَ السَّرِيقَةِ وَرَمَى الْغَيْرَ بِهَا «أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ» بَارِئًا بِكَابِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَالْخَلْفِ بِهِ كَذِبًا «ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ» وَيَتُوبَ إِلَيْهِ «يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا» لِمَعَاصِيهِ «رَحِيمًا» وَمُتَفَضِّلًا عَلَيْهِ.

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [١١١]

ثم رَغَّبَ شَبَحَانَهُ فِي التَّوْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا» مِنَ الْإِثَامِ، وَيَحْصُلُ بِكَذِّ يَمِينِهِ وَيُسُوءِ سَرِيرَتِهِ ذَنْبًا مِنَ الذَّنُوبِ «فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ» وَيُطْلَبُ بِجِدِّهِ ضَرَرًا «عَلَىٰ نَفْسِهِ» لَا يَتَعَدَّى ذَلِكَ الضَّرَرَ إِلَى غَيْرِهِ «وَكَانَ اللَّهُ» بِمَا يَكْسِبُهُ مِنَ الْإِثَامِ وَمَا يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذَّنْبِ «عَلِيمًا» وَفِي مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الْمُجَازَاةِ «حَكِيمًا» لَا يُجَاوِزُ عَنْ حَدِّ اسْتِحْقَاقِهِ.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا
مُؤْنِنًا [١١٢]

ثُمَّ بِالْحَقِّ شَبَّحَهُ فِي التَّوْبَةِ بِالمُبَالَغَةِ فِي عَظَمَةِ خُصُوصِ المَعْصِيَةِ الَّتِي أَرْتَكِبُهَا مِنْ السَّرْقَةِ، وَبُهْتَانِ الْبَرِيِّ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ﴾ وَيَرْتَكِبْ ﴿خَطِيئَةً﴾ قِيلَ: هِيَ الصَّغِيرَةُ، أَوْ مَا يَكُونُ بِغَيْرِ عَمْدٍ، ﴿أَوْ﴾ يَقْتَرِفْ ﴿إِنَّمَا﴾ كَالسَّرْقَةِ، أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْكِبَائِرِ ﴿ثُمَّ يَرَمُ﴾ بِمَا يَكْسِبُ وَيَقْذِفُ ﴿بِهِ﴾ مَنْ يَكُونُ ﴿بَرِيئًا﴾ مِنْهُ ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ﴾ عَلَى ظَهْرِهِ، بِتَبَيُّنَةِ نَفْسِهِ مِنْهُ، وَتَحْمِيلِهِ عَلَى غَيْرِهِ الْبَرِيِّ مِنْهُ ﴿بُهْتَانًا﴾ قَبِيحًا، وَتُهْمَةٌ عِنْدَ مَوْتِهِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ وَذَنْبًا ظَاهِرًا يُلْحَقُهُ أَشَدُّ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِوْنَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [١١٣]

ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ شَبَّحَهُ عَلَى حَبِيبِهِ بِحِفْظِهِ عَنِ الْخَطَا فِي الْحُكْمِ، وَعِصْمَتِهِ مِنْ زَلَلٍ مُسَاعِدَةِ الْخَائِنِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ وَإِنْعَامُهُ الْجَزِيلَ ﴿عَلَيْكَ﴾ بِإِعْلَامِكَ، بِتَوَسُّطِ الْوَحْيِ، بِشَوْءِ ضَمَانِ الْمُنَافِقِينَ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمُ الْمُخْفِيَةِ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عَلَيْكَ بِعِصْمَتِكَ مِنَ الزَّلَلِ، وَحِفْظِكَ مِنْ مَكَائِدِ أَهْلِ الضَّلَالِ ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ﴾ وَفِرْقَةٌ ﴿مِنْهُمْ﴾ قِيلَ: هُمْ بَنُو ظَفَرِ الدَّابَّوْنَ عَنْ طَعْمَةٍ^٢ ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عَنِ الْحُكْمِ بِالْحَقِّ بِتَلْبِيْسِهِمُ الْأَمْرَ عَلَيْكَ، ﴿وَ﴾ الْحَالَ أَنَّهُمْ ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بِسَبَبِ تَعَاوُنِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدَاوَانِ، وَشَهَادَتِهِمْ بِالزُّورِ وَالبُهْتَانِ ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا يَصْرِوْنَ أَنْفُسَهُمْ بِالْإِثْلَاءِ بِفَضِيحَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا يَصْرِوْنَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ؛ لِأَنَّكَ مَعْصُومٌ بِعِصْمَةِ اللَّهِ أَبَدًا.

﴿وَ﴾ لِذَا ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ السَّمَاءِيِّ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ، وَالرَّسَالَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِحُكْمَتِهِ أَنْ لَا يَعِصِمَكَ عَنِ الْحُكْمِ بِغَيْرِ الْحَقِّ؟ ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ بِالْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ مِنَ الْعُلُومِ الْوَفِيرَةِ، بِحَقَاقَتِ الْأَشْيَاءِ وَخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُكَ حَيْلُ الْمُنَافِقِينَ وَمَكَائِدِهِمْ، وَمَا تَقْدِرُ بِهِ عَلَى الْاِخْتِرَازِ مِنْهَا ﴿وَكَانَ﴾ مِنْ بَذْوِ خِلْقَتِكَ فِي عَالَمِ الْأَنْوَارِ وَالْأَشْبَاحِ وَالْأَجْسَامِ ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ وَإِنْعَامُهُ ﴿عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ لَا يَقَادِرُ قَدْرُهُ.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٠.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣١، وراجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة.

عن الباقر عليه السلام: «إِنَّ نَاسًا مِنْ رَهْطِ بَشَرٍ^١ الْأَدْنَيْنِ قَالُوا: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُكَلِّمَهُ فِي صَاحِبِنَا وَنَعِذِرُهُ، فَإِنْ صَاحِبِنَا بَرِيءٌ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مِنْهُمْ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَكَيْلًا»^٢، أَقْبَلَتْ رَهْطُ بَشَرٍ فَقَالَتْ: يَا بَشَرُ، اسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَثَبِّ مِنَ الذَّنْبِ، فَقَالَ: وَالَّذِي أَحْلَفَ بِهِ، مَا سَرَقَهَا إِلَّا لِبَيْدٍ، فَتَرَلْتُ: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا»^٣، ثُمَّ إِنَّ بَشَرًا كَفَرَ وَلِحِقَ بِمَكَّةَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ أَعْدَرُوا بَشَرًا وَأَتُوا النَّبِيَّ لِيَعِذِرَهُ «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ»^٤ الْآيَةَ^٥.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [١١٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُحَامِدُونَ عَنْ بَشَرٍ أَوْ طَعْمَةٍ يَتَنَاجَوْنَ فِي الدَّفَاعِ عَنْهُ، كَمَا قَالَ: «إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ»^٥، رَدَعَ اللَّهُ النَّاسَ عَنْ نَجْوَى السُّوءِ بقوله: «لَا خَيْرَ» لِلنَّاسِ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا فائدة «فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ» وَإِسْرَارِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ «إِلَّا» فِي نَجْوَى «مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ» وَإِنْفَاقٍ لِلْمُحْتَاجِينَ، لَوَجْهٍ اللَّهِ «أَوْ» فِعْلٍ «مَعْرُوفٍ» وَمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، كَفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ «أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ» عِنْدَ تَشَاجُرِهِمْ وَمُعَادَاتِهِمْ.

في فضيلة إصلاح ذات البين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ»^٦.

وعنه عليه السلام: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ دَرَجَةٍ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قال: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ»^٧.

وعن أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ خُمْرِ النَّعَمِ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا، وَتُقَرِّبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»^٨.

وعن الصادق عليه السلام: «الْكَلَامُ ثَلَاثَةٌ: صِدْقٌ، وَكَذِبٌ، وَإِصْلَاحٌ بَيْنَ النَّاسِ - وَفَسْرُ الْإِصْلَاحِ - بَأَنْ تَسْمَعَ مِنَ الرَّجُلِ كَلَامًا يَبْلُغُهُ فَتُخَبِّثُ نَفْسَهُ، فَتَلْقَاهُ فَتَقُولَ: سَمِعْتُ مِنْ فُلَانٍ [قَالَ] فَيْكَ مِنَ الْخَيْرِ: كَذَا وَكَذَا،

١. في تفسير القمي وتفسير الصافي: بشير، وكذا ما بعدها، وراجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة.

٢. النساء: ١١٢/٤.

٣. النساء: ١٠٨/٤ و ١٠٩.

٤. النساء: ١٠٨/٤.

٥. تفسير القمي ١: ١٥٢، تفسير الصافي ١: ٤٦١.

٦ و ٧. تفسير روح البيان ٢: ٢٨٤.

٨. تفسير روح البيان ٢: ٢٨٤.

خِلَافَ مَا سَمِعْتَ مِنْهُ»^١.

وعنه، عن أبانه، عن النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ يَحْسُنُ فِيهِنَّ الْكَذِبُ: الْمَكِيدَةُ فِي الْحَرْبِ، وَعِدَّتُكَ زَوْجَتِكَ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ»^٢.

قِيلَ: إِنَّ عَمَلَ الْخَيْرِ إِمَّا بِإِصَالِ النِّعَمِ، أَوْ بِدَفْعِ الضَّرَرِ. وَالنِّعَمُ إِمَّا جِسْمَانِي؛ وَهُوَ إِعْطَاءُ الْمَالِ، وَهُوَ الصَّدَقَةُ، وَإِمَّا رُوحَانِي؛ وَهُوَ تَكْمِيلُ الْغَيْرِ بِالْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَدَفْعُ الضَّرَرِ؛ وَهُوَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ. فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى مَجَامِعِ الْخَيْرِ^٣.

ثُمَّ رَغِبَ شُبْحَانَهُ فِيهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْأُمُورِ ﴿اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وَطَلَبًا لثَوَابِهِ، لَا رِيَاءَ وَلَا سُمْعَةً ﴿فَسَوْفَ تُؤْتِيهِ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَثَوَابًا جَزِيلًا لَا يُوصَفُ بَيَّانٌ.

ثُمَّ أَنَّهُ رَوَى بَعْضُ الْعَامَّةِ أَنَّ طَعْمَةَ هَرَبٍ إِلَى مَكَّةَ وَارْتَدَّ، وَتَقَبَّ حَانِطًا هُنَاكَ لِأَجْلِ السَّرَقَةِ، فَسَقَطَ الْحَانِطُ عَلَيْهِ فَمَاتَ^٤.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
تَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [١١٥]

وَفِي رِوَايَةِ الْقَمِيِّ ﷺ: ثُمَّ إِنَّ بَشَرًا كَفَرَ وَلِحِقَ [بِمَكَّةَ]، وَنَزَلَ فِيهِ وَهُوَ بِمَكَّةَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ»^٥ وَيُخَالِفُهُ فِي اتِّبَاعِ دِينِهِ، وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وَأَنْضَحَ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ﴿الْهُدَى﴾ وَدِينَ الْحَقِّ ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ وَيَسْلُكُ سَبِيلًا ﴿غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَطَرِيقًا غَيْرَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَسْتَمِرُّونَ عَلَيْهَا مِنَ الْإِغْتِقَادِ بِالتَّوْحِيدِ، وَرِسَالَةِ نَبِيِّهِ، وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ ﴿تَوَلَّاهُ﴾ وَنَجَعَلَهُ يَلِي وَيَقْرَبُ ﴿مَا تَوَلَّى﴾ وَاعْتَمَدَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّرِّكَ وَالضَّلَالِ، وَتَوَكَّلَ إِلَى مَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿وَنُصْلِهِ﴾ وَتَدَخَّلَهُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ وَالنَّارَ الْمُوقَدَةَ ﴿وَسَاءَتْ﴾ جَهَنَّمَ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا ﴿مَصِيرًا﴾ وَمُتَقَلِّبًا لِلْكَافِرِينَ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا [١١٦]

١. الكافي ٢: ٢٥٥/١٦٦، تفسير الصافي ١: ٤٦٢.

٢. الخصال: ٢٠/٨٧، تفسير الصافي ١: ٤٦٢.

٣. تفسير الرازي ١: ١١: ٤١.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٩.

٥. تفسير القمي ١: ١٥٢، تفسير الصافي ١: ٤٦٣، وفيهما: بشير، بدل بشر.

ثم أنه تعالى أكد الإعلان بعدم شمول مغفرته للمشركين تنبيهاً على سوء حال طعمة^١، وتزيهاً للناس من الشرك، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. قيل: جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهك في الذنوب، إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته، وأمنت به ولم ألتزم من دونه ولياً، ولم أوقع المعاصي جراً عليه، وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب^٢، فما ترى حالتي عند الله؟ فنزلت هذه الآية^٣. ثم علل عدم قابلية الشرك للمغفرة بقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ عَنْ الْحَقِّ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ حيث إن الشرك أعظم أنواع الضلال، وأبعدها من الصواب.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا [١١٧ و ١١٨]

ثم بين أن الشرك غاية الضلال؛ بقوله توبيخاً للمشركين: ﴿إِنْ يَدْعُونَ﴾ وما يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سوى الله ﴿إِلَّا إِنَانَا﴾.

قيل: إنما سُمي الأصنام إناناً؛ لأن العرب كانوا يُصَوِّرونها بصورة الإنان، ويلبسونها أنواع الخلل التي يتزين بها النساء، ويسمونها بأسماء المؤنثات، نحو: اللات التي هي تانيث الله، والعزى التي هي تانيث العزير، ومناة^٤.

وقيل: لم يكن حيي من العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، ويسمونه أنثى فلان^٥.

وقيل: إن المراد من الإنان: الملائكة، حيث إنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله^٦.

ثم بين سبحانه أن عبادة الأوثان عين عبادة الشيطان، بقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ وما يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾، مبالغاً في التمرد عن طاعة الله، ولذا ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وأبعده من ساحة رحمته، وطرده عن سماواته.

ثم ذم بمعارضته له بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان بعد امتناعه عن السجدة لآدم معارضةً لله، وعداوة لبني آدم: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ يا رَبَّ ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ وإمانك ﴿نَصِيبًا﴾ وخطأً وإفراً ﴿مَفْرُوضًا﴾ ومقطوعاً، أو مقدراً لعبادتي واتباع خطواتي.

١. راجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٣.

٣. زاد في تفسير أبي السعود: مستغفر.

٤ و ٥. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٣.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٢٨٦.

عن النبي ﷺ: «مَنْ كُلَّ أَلْفٍ وَاحِدَ اللَّهِ، وَسَاثِرَهُ لِإِبْلِيسَ»^١.

وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَتَّبِعُونَّ خَلْقَ
اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا [١١٩]

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ مَعْنَى اتِّخَاذِهِ النَّصِيبَ بِقَوْلِهِ: «وَلَا ضَلَّتْهُمْ» عَنْ صِرَاطِ تَوْحِيدِكَ وَعِبَادَتِكَ.
ثُمَّ لَمَّا ادَّعَى إِضْلَالَهُ النَّاسَ ذَكَرَ حِيلَتَهُ فِيهِ، بِقَوْلِهِ: «وَلَا مَنِيَتْهُمْ» وَالْقِيَرِ فِي قُلُوبِهِمُ الْأَمَالَ الْبَاطِلَةَ،
مِنْ تَوَهُُّهُمْ طَوْلَ الْعَمَرِ وَتَرْيِيبِ جَمْعِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ، وَالِاتِّبَازِ بِهَا سِينِينَ مُتَطَاوِلَةَ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ
«وَلَا مَرَّتْهُمْ» يَبْنِيكَ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَقَطْعَهَا «فَلْيَتَّبِعْكُنَّ» وَلْيَقْطَعْنَ امْتِنَالًا لِأَمْرِي «أَذَانَ الْأَنْعَامِ» مِنْ
الْإِبْلِ وَالْبَقَرِ وَالْعِجَمِ، تُسَكِّفُ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، بَطْنٌ أَنَّ ذَلِكَ نَحْوُ عِبَادَةٍ لَهَا.
وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: قَطَعَ أَذُنَ الْبَحِيرَةِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ إِذَا وَلَدَتْ نَاقَةً لَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُنَ، وَكَانَ الْخَامِسُ ذَكَرًا،
يَشْفُونَ أَذْنَهَا، وَيَحْرَمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْإِتِّفَاعَ بِهَا^٢.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لْيَقْطَعَنَّ الْأَذْنَ^٣ مِنْ أَصْلِهَا»^٤.

«وَلَا مَرَّتْهُمْ» بِالْتَّغْيِيرِ «فَلْيَتَّبِعُونَّ خَلْقَ اللَّهِ» وَفِطْرَتَهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، كَذَا قِيلَ^٥.

وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «يُرِيدُ دِينَ اللَّهِ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ»^٦.

وَعَنْ عِيْكَرْمَةَ: هُوَ هَذَا الْإِخْصَاءُ، وَقَطْعُ الْأَذَانِ، وَفَقْدُ الْعْيُونِ^٧.

قِيلَ: كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا بَلَغَتْ إِبِلَ أَحَدِهِمْ أَلْفًا عَوَّرُوا عَيْنَ فَحْلِهَا^٨.

ثُمَّ رَدَعَ اللَّهُ شَبَحَانَهُ عَنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَاتِّبَاعِهِ، بِقَوْلِهِ: «وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ» وَيَخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ
«وَلِيًّا» وَثَبَاتًا، أَوْ مَتَّبِعًا فِي أَعْمَالِهِ «مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا» وَتَضَرَّرَ ضَرَرًا عَظِيمًا
فَاحْشَا، فَإِنَّهُ يَحْرِمُهُ مِنَ النَّعْمِ الدَّائِمَةِ، وَيَغْرُهُ بِاللَّذَائِدِ الْوَهْمِيَّةِ الْفَانِيَةِ، وَيَبْدُلُ مَكَانَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْقُصُورِ
الْعَالِيَةِ الْبَاقِيَةِ بِمُسْتَقَرٍّ مِنَ الْجَحِيمِ الْخَاطِمَةِ.

يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [١٢٠]

١. مجمع البيان ٣: ١٧٣، تفسير الرازي ١١: ٤٧، وفي مجمع البيان: وسائرهم للآثار ولإبليس، وفي تفسير الرازي:

٢. تفسير الرازي ١١: ٤٨.

٣. في مجمع البيان: الأذان. ٤. مجمع البيان ٣: ١٧٣، تفسير الصافي ١: ٤٦٣.

٥. تفسير الرازي ١١: ٤٨.

٦. مجمع البيان ٣: ١٧٣، تفسير الصافي ١: ٤٦٣، وكلمة (نهي) ليست في مجمع البيان وتفسير الصافي.

٧ و ٨. تفسير الرازي ١١: ٤٩.

ثم نبه سبحانه الناس ببطان أميناته، وكذب عِدَّاته، بقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ﴾ الشيطان بوسوسته ﴿وَيُمَتِّعُهُمْ﴾ بالأمني الباطلة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وَعْدًا ﴿إِلَّا﴾ كان ﴿عُثُورًا﴾ وكذبًا مؤرثًا لمن اغتره الحسرة الأبدية.

قيل: إنَّ العُور: إظهار النفع في ما فيه الضرر^١.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾^٢ صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له نُور، فصرخ بأعلى صوته بمقارنته فاجتمعوا إليه، فقالوا: يا سيدنا، لِمَ دَعَوْتَنَا؟ قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَمَنْ لَهَا؟ فقام غفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا. قال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمتهم حتى يواقعوا الخطيئة، [فإذا واقعوا الخطيئة] أنسيهم الاستغفار. فقال: أنت لها. فوكله بها إلى يوم القيامة»^٣.

أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا [١٢١]

ثم أوعد الله سبحانه أولياء الشيطان بالعذاب الدائم بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الضالون المغرورون ﴿مَاوَاهُمْ﴾ ومنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ حال كونهم خالدين فيها ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم مهرباً ﴿عَنْهَا﴾ ولا ﴿مَحِيصًا﴾ وملجأ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا [١٢٢]

ثم أردف سبحانه الوعيد بوعد المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله، ورسالة رُسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لوجه الله ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة جزاءً على إيمانهم وعملهم الصالح ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات أشجار ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دائماً. ثم لما كذب مواعيد الشيطان أكد سبحانه صدق مواعيد ذاته المقدسة بقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾، قيل: إنَّ المعنى وعد الله وَعْدًا، وَحَقَّ ذَلِكَ ﴿حَقًّا﴾ ثم بالغ في التأكيد بقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ وخبراً.

٢. آل عمران ١٣٥/٣.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٤.

٣. أمالي الصدوق: ٧٣٦/٥٥١، تفسير الصافي ١: ٤٦٤.

لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [١٢٣]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنَ تَشْوِيلَاتِ الشَّيْطَانِ تَغْيِيرِ الْإِنْسَانَ بِكَرَمِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَغْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ بِإِلَاعَمَلٍ، نَبَّهَ اللَّهُ النَّاسَ بِأَنَّ التَّوَابَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، لَا بِالْأُمْنِيَّةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ﴾ النِّجَاةُ مِنَ النَّارِ، وَالذُّخُولُ فِي الْجَنَّةِ ﴿بِأَمَانِيَّتِكُمْ﴾. وَغُرُورُكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُكُمْ، بَلْ يُدْخِلُكُمْ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ. ﴿وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حَيْثُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، بَلِ الشَّوَابُ وَالْعِقَابُ دَائِرَانِ مَدَارِ الْعَمَلِ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ وَيُرْتَكِبْ ذَنْبًا ﴿يُجْزَى بِهِ﴾ إِمَّا فِي الدُّنْيَا، أَوْ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِيهِمَا.

وقيل: إِنَّ المعنى: ليس الإيمان بالْتَمَنِي، ولكن ما وقرَّ في الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ^١.

وعن الْقَمِي رحمته الله: ليس ما تَتَمَنُونَ أَنْتُمْ وَلَا أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ لَا تُعَذِّبُونَ بِأَفْعَالِكُمْ^٢.

فِي (الْعِيُونَ): أَنَّ إِسْمَاعِيلَ قَالَ لِلصَّادِقِ عليه السلام: [يَا أَبَتَاهُ] مَا تَقُولُ فِي الْمَذْنَبِ مِنَّا وَمِنْ غَيْرِنَا؟ فَقَالَ عليه السلام: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾^٣.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ وَثَفِيحًا ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمُدَافِعًا يَدْفَعُ عَنْهُ الْعَذَابَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ بِكَيْفَانَا وَحَزَنَاتِنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَبْقَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ: «أَمَّا الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَكَمَا نَزَلَتْ، وَلَكِنْ ابْتِشِرُوا وَقَارِبُوا وَسَدُّوا، إِنَّهُ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنْكُمْ مُصِيبَةً إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا خَطِيئَتَهُ، حَتَّى الشُّوكَةُ يُشَاكُهَا أَحَدُكُمْ فِي قَدَمِهِ»^٤.

أَقُولُ: مَعْنَى قَارِبُوا وَسَدُّوا: اقْصِدُوا فِي أُمُورِكُمْ، وَاطْلُبُوا بِأَعْمَالِكُمُ السَّدَادَ وَالِاسْتِقَامَةَ، مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ.

عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ قَالَ بَعْضُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَشَدَّهَا مِنْ آيَةٍ! فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تُبْتَغُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَذَرَائِعِكُمْ؟». قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «هَذَا مِنَّا يَكْتُبُ اللَّهُ لَكُمْ [بِهِ] الْحَسَنَاتِ، وَيَمْحُو بِهِ السَّيِّئَاتِ»^٥.

وَفِي (الكَافِي): عَنْهُ عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ يُكْرِمَ عَبْدًا وَلَهُ ذَنْبٌ ابْتِلَاءٌ بِالسَّقَمِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِ ابْتِلَاءً بِالْحَاجَةِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِ شَدَّدَ عَلَيْهِ الْمَوْتَ، لِيُكَافِتَهُ بِذَلِكَ الذَّنْبِ»^٦.

٢. تفسير القمي ١: ١٥٣، تفسير الصافي ١: ٤٦٤.

١. تفسير روح البيان ٢: ٢٩٠.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥٢٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٤.

٥. تفسير العياشي ١: ١١٢٣/٤٤٥، تفسير الصافي ١: ٤٦٥.

٤. مجمع البيان ٣: ١٧٦، تفسير الصافي ١: ٤٦٥.

٦. الكافي ٢: ١/٣٢٢، تفسير الصافي ١: ٤٦٥.

وَمَنْ يَفْعَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا [١٢٤، ١٢٥]

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ﴾ بعضاً ﴿مِنْ﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنْ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ كُلِّهَا، سَوَاءَ كَانَ
العامل ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله، وَرَسُولِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّهُ لَا اعْتِدَادَ بِالْعَمَلِ مِنْ دُونِ
الْإِيمَانِ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿وَلَا
يَظْلَمُونَ﴾ وَلَا يَنْقُصُونَ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ ﴿نَقِيرًا﴾ وَقَدَرًا قَلِيلاً.

قيل: النقيير: خفرة في ظهر النواة، منها يثبت النخل، ثُمَّ صَارَ كِنَايَةً عَنْ غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ.
قيل: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَفْعَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ﴾ قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ، فَنَزَلَتْ
هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾.

ثُمَّ لَمَّا شَرَطَ اللَّهُ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ فِي الثَّوَابِ، شَرَحَ الشَّرْطَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ﴾ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ
﴿أَحْسَنُ دِينًا﴾ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وَأَخْلَصَ قَلْبَهُ، وَجَعَلَ جَمِيعَ مَا لَهُ ﴿فَقَهُ﴾ وَصَوَّرَ
كُلَّهُ فَنَائِيًا فِيهِ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ﴾ فِي الْعَمَلِ ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَشَرِيعَتَهُ الْمُتَوَافِقَةَ لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِ،
حَالَ كَوْنِ ذَلِكَ النَّابِغِ ﴿حَنِيفًا﴾ وَمَانِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَهْوَاءِ الزَّائِفَةِ.

فِي وَجْهِ تَسْمِيَةِ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ
بِالْخَلِيلِ
ثُمَّ بَيَّنَّ أَصْلَحِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّبَعِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ﴾
وَاضْطَفَا مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ لِنَفْسِهِ ﴿خَلِيلًا﴾ شَدِيدَ الْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ لَهُ.

قيل: لَمَّا اطَّلَعَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ، وَدَعَا قَوْمَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى
إِلَى التَّوْحِيدِ، وَمَتَّعَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، ثُمَّ سَلَّمَ نَفْسَهُ لِلتَّوْحِيدِ، وَوَلَدَهُ
لِلتَّوْحِيدِ، وَمَالَهُ لِلتَّوْحِيدِ، جَعَلَهُ اللَّهُ إِمَامًا لِلخَلْقِ وَرَسُولًا إِلَيْهِمْ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ الْمُلْكَ وَالثَّوْبَةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ.
فلهذه الاختصاصات سَمَّاهُ خَلِيلًا؛ لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ لَخَلْقِهِ عِبَارَةٌ عَنْ إِيصَالِ الْخَيْرَاتِ وَالْمَنَافِعِ إِلَيْهِ.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا، وَأَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ
رَسُولًا، وَأَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، وَأَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِمَامًا»^١.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي حَدِيثٍ: «قَوْلُنَا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، فَإِنَّمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَلَّةِ، وَالْخَلَّةُ إِنَّمَا
مَعْنَاهُ: الْفَقْرُ وَالْفَاقَةُ، فَقَدْ كَانَ خَلِيلًا إِلَى رَبِّهِ فَقِيرًا، وَإِلَيْهِ مُتَقَطِّعًا، وَعَنْ غَيْرِهِ مُتَعَفِّفًا مُعْرِضًا مُسْتَغْنِيًا،

وذلك أنه لما أريد قذفه في النار فزّمي به في المنجنيق، بعث الله إليه جبرئيل فقال له: اذكر عبيدي، فجاءه فلقية في الهواء، فقال: كلّمني ما بدا لك، فقد بعثني الله لثُمرتكَ، فقال: بل حَسْبِيَ الله ونيعم الوكيل، إنّي لا أسأل غيره، ولا حاجة لي إلّا إليه، فسماه خليله، أي فقيره ومُحتاجه والمُتقطع إليه عما سواه».

قال: «وإذا جعل معنى ذلك من الخلّة؛ وهو أنه قد تخلّل معانيه، ووقف على أسرار لم يقف عليها غيره، كان معناه العالم به وبأموره، ولا يُوجب تشبيهه الله بخلقه، ألا ترون أنه إذا لم يتقطع إليه لم يكن خليله؟»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «إنما اتّخذ الله إبراهيم خليلًا لأنه لم يرد أحدًا، ولم يسأل أحدًا قطّ إلّا الله»^٣.
وعنه عليه السلام: «لكثرة شجوده على الأرض»^٤.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «لإطعامه الطعام، وصلاته بالليل والناس نيام»^٥.

وعن الهادي عليه السلام: «لكثرة صلّاته على محمد وأهل بيته»^٦.

أقول: الجامع بين الأخبار هو كمال معرفته بالله، وطاعته له.

وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا [١٢٦]

ثم لما كان تسمية إبراهيم بالخليل موهمة لخروجه عن عبودية، والاحتياج في ذات الله، دفع الله سبحانه التوهمين ببيان مالكية لجميع الموجودات، وكمال قدرته، بقوله: ﴿وَلِلّٰهِ بِالْمُلْكِيَةِ الْإِشْرَاقِيَّةِ﴾ «مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» فلا يخرج أحد عن عبوديته، ولا يحتاج إلى شيء في ألوهيته. قيل: لما لم يكن فيه دلالة على علمه وقدرته بما هو خارج عن السماوات والأرض، أثبت علمه وقدرته غير المتناهيين بقوله: ﴿وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ «مُحِيطًا» علمًا وقدرًا، فيختار منها ما يشاء، ويتفضل بجلّوده على من يشاء.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللّٰهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَّى النِّسَاءِ الْأُنثَى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَظْفِعِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ

٢. الاحتجاج: ٢٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٦.

٤. علل الشرائع: ١/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.

٦. علل الشرائع: ٣/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.

١. زاد في الاحتجاج: الخليل.

٣. علل الشرائع: ٢/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.

٥. علل الشرائع: ٤/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا [١٢٧]

ثم لما وصف دين الإسلام المتوافق في غالب أحكامه لعلمة إبراهيم، وكان من جهات حسن الإسلام حفظ حقوق الضعفاء، وكانت النساء والأيتام أضعف الناس وأولاهم بالرعاية، عاد إلى التوصية بحفظ حقوقهم بقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ ويسألونك عن حكم الله ﴿فِي﴾ شأن ﴿النِّسَاءِ﴾ وما لهن من الميراث.

عن الباقر عليه السلام: «سئل النبي ﷺ عن النساء، وما لهن من الميراث، فأنزل الله الرُّبْعَ والثُّمْنَ»^١.
 روي أن عبيدة بن حصين أتى النبي ﷺ فقال: أخبرنا بأنك تُعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نُورث من يشهد القتال، ويحوز الغنمة، فقال ﷺ: «كذلك أمرت»^٢.

فأمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويبيِّن لكم ما أبهم عليكم من الحكم ﴿فِيهِمْ﴾ وفي أمر إرثهم أن تُورثهم إرثهم، ﴿وَمَا يَتْلَى﴾ ويُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من الآيات ﴿فِي﴾ هذا ﴿الكِتَابِ﴾ الكريم، يوضح لكم ﴿فِي﴾ حقَّ ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ وفي شأن البنات ﴿الْأَبْنَى﴾ لا تُورثهنَّ ما كُتِبَ وفرض ﴿لَهُنَّ﴾ من الميراث في آية ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^٣، ﴿وَتَرَعَّبُونَ﴾ في ﴿أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ لجمالهنَّ ومالهنَّ.

قيل: كانت اليتيمة عند الرجل، فإن كانت ذات جمال ومال تزوج بها وأكل مالها، وإن كان ذميمة فیرغب الرجل عن أن يتزوجها، ولا يعطيها مالها، ويمنعها عن النكاح حتى تموت، ويرث مالها، فهنيئ الله عن ذلك.

﴿وَمَا كَذَّبَ فِي﴾ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالصَّغَارِ ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ هو يفتيكم أن تُعطوا إرثهم.
 قيل: إن أهل الجاهلية كانوا لا يُورثون الولدان، وكانوا يقولون: لا تُورث إلا من قاتل ودفع عن الحرم؛ فأنزل الله الآيات التي في أول السورة وهو معنى قوله: ﴿لَا تُورثُوهنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ﴾^٤.
 ﴿وَمَا كَذَّبَ فِي﴾ أَنْ تَقُولُوا لِلنِّسَاءِ ﴿فِي أَمْوَالِهِنَّ وَحَقُوقِهِنَّ﴾ بِالْقِسْطِ والعَدل، وما يتلى عليكم من الكتاب في حقهنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُنَّ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾^٥.

ثم رغب الله في حفظ تلك الحقوق بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمل صالح من أداة الحقوق المذكورة، وغيره من الصالحات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه أحسن الجزاء.

١. تفسير القمي ١: ١٥٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٨. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٨.

٣. النساء: ١١/٤. ٤. مجمع البيان ٣: ١٨٠، تفسير الصافي ١: ٤٦٨. ٥. النساء: ٢/٤.

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [١٢٨]

ثم بين فتوى وحكما آخر في شأن النساء بقوله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا بِسَبَبِ ظُهُور الْأُمَارَاتِ «نُشُوزًا» وَتَجَافِيًا عَنْهَا، وَتَرْفَعًا عَنْ أَداء حَقَّقِهَا لِكِرَاهَتِهِ لَهَا «أَوْ» خَافَتْ «إِعْرَاضًا» لَهُ مِنْهَا وَطَلَّاقِهَا، وَعَدَمِ الْاِغْتِنَاءِ بِهَا، وَالْاِتِّفَاتِ إِلَيْهَا مَعَ حِفْظِ حَقَّقِهَا «فَلَا جُنَاحَ» وَلَا حَرَجَ «عَلَيْهِمَا» إِذَنْ فِي «أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا».

قيل: نزلت في سودة بنت زمعة، كانت كبيرة مُسِنَّة، أراد النبي ﷺ طَلَّاقِهَا، فَالْتَمَسَتْ أَنْ يُمَسِّكَهَا وَيَجْعَلَ تَوْبَتَهَا لِعَاشَةِ، فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ وَلَمْ يُطَلِّقْهَا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في ابن أبي السائب، كانت له زوجه وله منها أولاد، وكانت شَيْخَةً، فَهَمَّ بِطَلَّاقِهَا فَقَالَتْ: لَا تُطَلِّقْنِي، وَدَعْنِي أَشْتَغِلَ بِمَصَالِحِ أَوْلَادِي، وَأَقِسِمَ فِي كُلِّ شَهْرٍ لِيَالِي قَلِيلَةٍ، فَقَالَ الزَّوْجُ: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ أَصْلَحُ.^٢

وعن الصادق عليه السلام: «هِيَ الْمَرْأَةُ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ فَيَكْرَهُهَا، فَيَقُولُ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُطَلِّقَكَ، فَتَقُولُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يُشَمَّتَ بِي، وَلَكِنْ أَنْظُرْ فِي لَيْلَتِي فَاصْنَعْ بِهَا مَا شِئْتَ، وَمَا كَانَ سِوَى ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكَ، وَدَعْنِي عَلَى حَالَتِي. وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا» هَذَا هُوَ الصُّلْحُ».^٣

ثم ندب الله تعالى إلى الصلح بقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ مِنَ الْفُرْقَةِ وَسُوءِ الْعِشْرَةِ. ثم أشار إلى بُعد وقوع الصلح بذكر علته بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ﴾ وَطُبِعَ فِيهَا «الشُّحُّ» وَالتَّحَلُّ، فَلَا الْمَرْأَةُ تَسْمَحُ بِحَقَّقِهَا مِنَ الرَّجُلِ، وَلَا الرَّجُلُ يَجُودُ بِحُسْنِ الْعِشْرَةِ مَعَ الزَّوْجَةِ الذَّمِيمَةِ الْمُسِنَّةِ، وَلِذَا حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى كُلًّا مِنْهُمَا إِلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْآخَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ، كُلُّ إِلَى الْآخَرِ بِبَذْلِ الْحَقَّقِ، وَالْإِمْسَاكِ بِالْمَعْرُوفِ، وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ «وَتَتَّقُوا» اللَّهُ وَلَا تَعْصُوهُ بِالظُّلْمِ، وَإِسَاءَةِ الْكَلَامِ، وَاللُّجَاجِ فِي الْخُصُومَةِ «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ» مِنَ الْإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى «خَبِيرًا» فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ.

قيل: إِنَّ الْخِطَابَ إِلَى غَيْرِ الزَّوْجَيْنِ، وَالْمُرَادُ: إِنْ تُحْسِنُوا فِي الْمُصَالَحَةِ بَيْنَهُمَا، وَتَتَّقُوا الْمَيْلَ إِلَى

٢. تفسير الرازي ١١: ٦٥.

١. تفسير الرازي ١١: ٦٥.

٣. الكافي ٦: ٢/١٤٥، تفسير العياشي ١: ١١٢٩/٤٤٧، تفسير الصافي ١: ٤٦٩.

واحدٍ منهما^١.

عن الرّمخسري: أن عمران بن حطان الخارجي، كان من أدم^٢ بني آدم، وامرأته من أجملهم، فنظرت إليه يوماً فقالت: الحمد لله. فقال عمران: مالك؟ فقالت: حمدت الله على أني وإياك من أهل الجنة؛ لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت، وقد وعد الله بالجنة عبادة الشاكرين والصّابرين^٣.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَضْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُضْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً [١٢٩]

ثم أمر الله عز وجل بالعدل والتسوية بين الزوجات في حُسن العشرة، ذون الميل القلبي، بقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ وتُسَوُوا ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ في المحبة، والميل القلبي كما روي^٤، أو في جميع الأمور وجميع الوجوه على رواية أخرى^٥ ﴿وَلَوْ حَرَضْتُمْ﴾ على ذلك وبالغتم فيه، ولذا لم يكلفكم الله به، إذن ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾ ولا تعرضوا عن إحداهما إلى الأخرى ﴿كُلَّ الْمِيلِ﴾ ومن جميع الجهات ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ وتبقوها أو تتركوها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ لا أيمناً حتى تختار زوجاً، ولا ذات بعل حتى تنتفع ببعلها.

وعن ابن مسعود: فتذروها كالمسجونة^٦.

روي أن النبي ﷺ كان يقسم بين زوجاته ويقول: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِي مَا أَمْلِكُ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا لَا أَمْلِكُ»^٨.

عن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن النبي ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف به بينهن^٩.

وروي أن علياً عليه السلام كان له امرأتان، إذا كان يوم واحدة لا يتوضأ في بيت الأخرى^{١٠}.

﴿وَإِنْ تُضْلِحُوا﴾ بالعدل في القسَم، أو مامضى من يتلکم، وتنداركوه بالتوبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن الجور، أو عن الميل في المستقبل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ لميل قلوبكم في ما مضى ﴿رَحِيماً﴾ بكم بعدم التشديد عليكم في التكاليف.

١. تفسير الرازي ١١: ٦٧.

٢. في تفسير الرازي والكشاف: آدم، والأدم: هو من يملو وجهه بثر اسود فيصبح قبيح الوجه، والأدم: الشديد الأدمة، أي السُمرة.

٣. تفسير الرازي ١١: ٦٧، الكشاف ١: ٥٧١.

٤ (و٤) مجمع البيان ٣: ١٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٦٩. ٦. الأيم: المرأة بلا زوج بكرة أو ثيباً.

٧. تفسير الرازي ١١: ٦٨، تفسير أبي السعود ٢: ٢٤٠. ٨. مجمع البيان ٣: ١٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٧٠.

١٠. مجمع البيان ٣: ١٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٧٠.

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا [١٣٠]

ثم أشار سبحانه إلى رُجحان التفريق عند عدم الصلح وتوافقهما عليه، بقوله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ وأيّاً من الصلح، واجتماعاً على الطلاق ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين، ويكفي مهماتهما ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ ورحمته وغناه وقدرته ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ في القُدرة والرحمة والرِّزق ﴿حَكِيمًا﴾ ومُتقناً في أحكامه وأفعاله.

في (الكافي): عن الصادق (عليه السلام)، أنه شكا رجلاً إليه الحاجة، فأمره بالتزويج فاشتدَّت به الحاجة، فأمره بالمفارقة فأتى وحسن حاله، فقال: «أمرتك بأمرين أمر الله بهما، قال: ﴿وَاتَّكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ - إلى قوله - إن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^١، وقال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾»^٢.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا [١٣١]

ثم قرأ الله سبحانه سعة قدرته ورحمته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من المَوجودات، فإذا كان كذلك فهو واسعٌ حَكَمَةٌ وقُدرةٌ ورحمةٌ، فيُغْنِيكم عن زَوجكم وعن غيرِه. ثم لما حثَّ سبحانه على^٣ التقوى في الآيتين السابقتين، بيَّن الله أنه شريعة عامة، بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ السماوي ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ كاليهود والنصارى وغيرهم من الملل، وأمرناهم في كتبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يا أمة خاتم النبيين في كتابكم ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، ﴿وَقُلْنَا: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بالله﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومنه وجود الممكّنات، فلا يحتاج إلى إيمانكم، ولا يتضرر بكمفرهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن جميع المَوجودات، وعن إيمانكم ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حميدٌ موهٍ أو لا تحمدوه.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَوْ يُبَدِّلْكُمْ
النَّاسَ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [١٣٢ و ١٣٣]

ثم بالغ في تقرير قدرته وغناه بقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يخرج عن سلطانه شيء، وهو مدبر أمور الكائنات ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ومدبراً للأمور.

قيل: إن الله تعالى بتكرار قوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إلى آخره ثلاث مرّات، قرّر ثلاثة أمور: فبالمرّة الأولى قرّر سعة جوده وكرمه وحكمته في أفعاله وأحكامه. وبالمرّة الثانية قرّر غناه عن إيمان الخلق وطاعتهم وتوابعهم، وعدم تضرّره بكفر الكافرين وعصيان العاصين. وبالمرّة الثالثة قرّر كمال قدرته مقدّمة للتهديد^١ بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ الله ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ ويغيّبكم عن وجه الأرض ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بالمرّة بحيث لا يبقى منكم أثر ﴿وَيَأْتِ﴾ مكانكم ﴿بِآخَرِينَ﴾ من جنسكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ﴾ الإعدام والإيجاد ﴿قَدِيرًا﴾ مقتدرًا، لا يمنعه عن إنفاذ إرادته شيء.

رُوي أنه لما نزلت الآية ضرب النبي ﷺ يده على ظهر سلمان عليه السلام وقال: «هُم قَوْمٌ هَذَا» يعني عَجَمَ الفُرس^٢.

ورُوي أنه لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنه يُشرك به ويُجعل له الولد ثم هو يُعافيههم ويرزقهم^٣.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا

بَصِيرًا [١٣٤]

ثم أنه تعالى بعد التهديد والترهيب على الكفر وترك التقوى، رغب الناس في الإيمان والطاعة بقوله: ﴿مَنْ كَانَ﴾ بعمله ﴿يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وأمتعته الفانية فليثم إلى طاعة الله ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فإن العاقل لا يقنع بالقليل الفاني، مع تمكنه من الكثير الباقي ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم وضمانركم، فليثيبكم على قدر طاعتكم وخلوص نيتكم.

عن الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «كانت الحكماء والفقهاء إذا كاتب بعضهم بعضاً كتبوا بثلاث ليس معهم رابعة: من كانت الآخرة هيته كفاه الله همه في الدنيا، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «الدُّنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتّى يُخرجه منها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتّى تُوفيه رزقه»^٥.

٢. مجمع البيان ٣: ١٨٧، تفسير الصافي ١: ٤٧١.

٤. الخصال ١٢٩/١٣٣، تفسير الصافي ١: ٤٧١.

١. تفسير الرازي ١١: ٧٠.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٩٩.

٥. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٨٣/٢٩٣، تفسير الصافي ١: ٤٧١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ
 الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ
 أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [١٣٥]

ثم لما بين الله وجوب العدل بين الزوجات، والالتزام بالتقوى، والترهيب من تركه، والوعد بالنواب
 عليه، بين وجوب العدل في العمل، وإقامته بين الناس، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ
 بِالْقِسْطِ﴾ مقيمين على العدل، مواظبين عليه، مُجَدِّين فيه، وأقيموا العدل بين الناس بكونكم
 ﴿شُهَدَاءَ﴾ بالحق ﴿لِلَّهِ﴾ وطلباً لمَرْضاته وثوابه ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ بأن تَقْرُوا
 عليها ﴿أَوْ﴾ على ﴿الْوَالِدِينَ﴾ الذين هم أعز الناس عندكم ﴿وَوَ﴾ أَحَقُّهُمْ عَلَيْكُمْ، أو على الأرحام
 ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾.

وفي تقديم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة بالحق إشعاراً بأن حنل الإنسان نفسه على
 العدل مقدّم على حمل الغير عليه، وأن دفع الضرر عن النفس أولى من دفع الضرر عن الغير.
 ثم نهى الله سبحانه عن الشهادة بغير الحق، أو كتمانها طلباً لرضا الغني أو ترحمًا على الفقير بقوله:
 ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ ذا ثروة ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فليس لكم أن ترعوا مصلحتهما في الشهادة
 ﴿فَاللَّهُ﴾ الخالق لهما، المُدَبِّر لأمورهما ﴿أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وأحق برعاية مصلحتهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾
 وأتركوا موافقة شهوة النفس لأجل ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ في القول، وتنطقوا بالحق ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ وتحرفوا
 ألتستم عن الشهادة بالحق، بأن تشهدوا بغيره ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عن أداء الشهادة رأساً وتكتموها
 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من تغيير الشهادة أو كتمانها، وتضييع حقوق المؤمنين ﴿خَبِيرًا﴾ ومُطَّلِعًا
 فيعاقبكم عليه أشد العقاب.

عن الباقر عليه السلام: «إِنْ تَلَوْا» أي تبدلوا الشهادة، «أَوْ تُعْرِضُوا» أي تكتموها^١.

وعن الصادق عليه السلام: «إِنْ تَلَوْا» الأمر «أَوْ تُعْرِضُوا» عما أمرتم [به]^٢.

عن ابن عباس عليه السلام: أَنَّ الْمُرَاد بِالآيَةِ: الْقَاضِي يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ الْخَصْمَانِ، فَيُعْرَضُ عَنْ أَحَدِهِمَا، وَيُدَافِعُ
 فِي إِمضاء الْحَقِّ، أَوْ لَا يَسْوِي بَيْنَهُمَا فِي الْمَجْلِسِ وَالنَّظَرِ وَالْإِشَارَةِ^٣.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ

١. مجمع البيان ٣: ١٩٠، تفسير الصافي ١: ٤٧٢.

٢. الكافي ١: ٤٥/٣٤٩، تفسير الصافي ١: ٤٧٢.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٠١.

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا [١٣٦]

ثم لما كان القيام بالقسط، والشهادة بالحق ولو على النفس، وترك اتباع الهوى منوطاً بحقيقة الإيمان ورُسُوخه في القلب، أمر الله سبحانه بتحصيل حقيقة الإيمان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الظاهر وباللسان ﴿آمِنُوا﴾ في الواقع، وعن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالتحديد والرُسالة ﴿وَالْكِتَابِ الْمَجِيدِ الَّذِي نَزَّلَ﴾ الله بنحو ما ﴿عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ﴾ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ دُفْعَةً ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أعظمه التوراة والإنجيل، وأزادوا في جميع هذه العقائد طمأنينةً و يقيناً.

زوي أن جماعة من أhabar اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إنا نؤمن بك وبكتابك، وبموسى والتوراة، وبعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرُسل، فقال ﷺ: «بل آمنوا بالله وبرسوله، وبمحمد وبكتابه القرآن، وبكل كتاب كان قبله»، فقالوا: لا نفعل. فنزلت هذه الآية^١.

ثم هدّد الله سبحانه الكافرين بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ من الناس ﴿بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ من آدم إلى خاتم الأنبياء ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ودار الجزاء جميعاً، أو بأحدٍ من المذكورات ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن صراط الحقّ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عنه بحيث لا يكاد يصل إليه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [١٣٧ و ١٣٨]

ثم بين أن الإيمان المطلوب المفيد هو الإيمان المستقر الثابت، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ به وارتدّوا كالمنافقين ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ مرة ثانية ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وارتدّوا ﴿ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ وأصرّوا على الجحود وإنكار الحقّ حتّى ماتوا عليه.

قيل: إن المراد: اليهود، آمنوا بموسى والتوراة، ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بدّاؤد، ثم كفروا بعبسى، ثم أزدادوا كُفْرًا بمحمد ﷺ^٢.

أقول: هذا التفسير في غاية البعد وعلى أيّ تقدير ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أبداً ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إلى الحقّ والجنة.

عن القمي رحمه الله: نزلت في الذين آمنوا برسول الله ﷺ إقراراً لا تصديقاً، ثم كفروا لما كتبوا الكتاب فيما بينهم أن لا يزّدوا الأمر في أهل بيته أبداً، فلما نزلت الولاية وأخذ رسول الله ﷺ الميثاق لأمير

المؤمنين ﷺ آمنوا إقراراً لا تضديقاً، فلما مضى رسول الله ﷺ كفروا وازدادوا كفراً^١. وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في فلان وفلان، آمنوا برسول الله ﷺ في أول الأمر، ثم كفروا حين عرّضت عليهم الولاية؛ حيث قال [النبي ﷺ]: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ. ثم آمنوا بالبيعة لأمر المؤمنين عليه السلام، حيث قالوا: بأمر الله وأمر رسوله. وبايعوه، ثم كفروا حيث مضى رسول الله ﷺ فلم يقرّوا بالبيعة، ثم ازدادوا كفراً بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم، فهو لاء لم يبقَ فيهم من الإيمان شيء»^٢. وفي رواية عنهما عليه السلام: «نزلت في عبدالله بن أبي سرح الذي بعثه عثمان إلى مصر [قال]: «ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا» حتى لم يبقَ فيه من الإيمان شيء»^٣. وفي رواية: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَمْرَ حَرَامٌ ثُمَّ شَرِبَهَا، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الزُّنَا حَرَامٌ ثُمَّ زَنَى، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الزَّكَاةَ حَقٌّ وَلَمْ يُؤَدِّهَا»^٤.

أقول: بعض الروايات [في] بيان التنزيل، وبعضها [في] بيان التأويل فلا شافاة. ثم أنه تعالى بعدما يأس المنافقين^٥ من المغفرة والهداية إلى الحق أو الجنة، أوعدهم بلفظ الإشارة نهكماً بدخول النار، بقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابًا﴾ بِالنَّارِ ﴿أَلِيمًا﴾ مُوجِعًا يَخْلُصُ إِلَهُ فِي قُلُوبِهِمْ.

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّنَ عَنْهُمْ الْعِرَّةَ فَإِنَّ الْعِرَّةَ لِلْجَمِيعِ [١٣٩]

ثم لما ذكر الله سوء حال المنافقين، عرفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ هُم ﴿يَتَّخِذُونَ﴾ ويختارون لأنفسهم ﴿الْكَافِرِينَ﴾ من اليهود والمشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأصدقاء ويزكون إليهم في العون والنصرة ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المُخْلِصِينَ، وبدلاً منهم. ثم أنكر عليهم الداعي لئوالاتهم بقوله: ﴿أَبِيتُّنَ﴾ ويطلبون لأنفسهم بمؤالاة الكفار و﴿عَنْهُمْ﴾ العِرَّةَ والقوة، مع أنهم أذلاء عند الله، فقد أخطأوا في ما توهموه ﴿فَإِنَّ الْعِرَّةَ﴾ والقوة والغلبة ﴿فَ﴾ وخذها ﴿جَمِيعًا﴾ وبتمام مراتبها، ليس لأحد غيره وغير من جعلها له، وهم الرسول ﷺ والمؤمنون،

١. تفسير القمي ١: ١٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٢. الكافي ١: ٤٢/٣٤٨، تفسير العياشي ١: ١١٣٤/٤٥١، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٣. تفسير العياشي ١: ١١٣٢/٤٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٤. تفسير العياشي ١: ١١٣٣/٤٥١، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٥. يقال: يأسه من كذا، بمعنى أبأسه أو جعله يأس.

كما قال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [١٤٠]

عن القمّي: نزلت في بني أمية، حيث خالفوا [نبيهم علي] أن لا يردوا الأمر في بني هاشم^٢.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا [١٤٠]

ثم قرع المنافقين الموافقين للكفار مخاطباً بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المنافقون آية ﴿في﴾ هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، يكون مآذاها ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ من الكفار ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ حال كون تلك الآيات المقروءة ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ ويُنكرون كونها من الله ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ عند قراءتها ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾ في مجلس الكفرة المستهزين، ولا تُجالسوا ﴿مَعَهُمْ﴾ اختياراً ﴿حَتَّى يَخُوضُوا﴾ ويشروعوا ﴿فِي حَدِيثٍ﴾ وكلامٍ ﴿غَيْرِهِ﴾ فإن قعدتم مع الكفار في مجلس يكفرون بالآيات ويستهنون بها ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ عند الله في الكفر والعقاب، أو في الإثم، لقد رتكم على الإنكار وترك المجالسة. نقل الفخر الرازي عن المفسرين: أن المشركين كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهنون به، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^٣، وهذه الآية نزلت بمكة.

ثم أن أخبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام هم المنافقون، فقال تعالى مخاطباً للمنافقين: إنه ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية^٤، دللت الآية على أن الراضي بالفسق، والحاضر في مجلسه مع قذوته على الإنكار، في حكم المباشرة وإن لم يرتكب.

عن الرضا عليه السلام، في تفسير الآية: «إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَجِدُّ الْحَقَّ، وَيُكَذِّبُ بِهِ، وَيَقَعُ فِي أَهْلِهِ، فَقُمْ مِنْ عِنْدِهِ وَلَا تُقَاعِدْهُ»^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «وَفَرَضَ اللَّهُ [على السمع] أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنِ الْاِسْتِمَاعِ [إلى] مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَنْ يَعْرِضَ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالْإِصْغَاءَ إِلَى مَا أَسْخَطَ اللَّهَ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

١. المنافقون: ٨/٦٣. ٢. تفسير القمي ١: ١٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٧٣. ٣. الأنعام: ٦٨/٦.

٤. تفسير الرازي ١١: ٨١.

٥. تفسير العياشي ١: ١١٣٥/٤٥١، مجمع البيان ٣: ١٩٥، تفسير الصافي ١: ٤٧٤.

٦. زاد في تفسير العياشي والكافي: لا يحل له مما.

الْكِتَابِ ﴿الْآيَةُ، ثُمَّ اسْتَشْنَى مَوْضِعَ النَّسْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^١.

الْقَمِي لِلَّهِ: آيَاتِ اللَّهِ: هُمُ الْأَمَنَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٢.

ثُمَّ حَقَّقَ شَبَحَانَهُ كَوْنُ الْمُتَافِقِينَ الْمُوَافِقِينَ لِلْكَفَّارِ مِثْلَهُمْ فِي الْعِقَابِ، يَقُولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَافِقِينَ﴾، الْقَاعِدِينَ مَعَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾، الْمُتَعَوِّدَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا [١٤١]

ثُمَّ عَرَفَ الْمُتَافِقِينَ بِتَعْرِيفٍ آخَرَ يَقُولُهُ: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ﴾، وَيَتَنظَرُونَ ﴿بِكُمْ﴾، وَبِمَا يَحْدُثُ لَكُمْ فِي جِهَادِ الْكُفَّارِ ﴿فَإِنْ كَانَ﴾، وَحَصَلَ ﴿لَكُمْ﴾، فِي جِهَادٍ ﴿فِتْنَةٌ﴾ وَظَفَرَ ﴿مِنْ﴾، جَانِبِ ﴿اللَّهِ﴾، وَبَعَوْنُهُ وَتَأْيِيدُهُ ﴿قَالُوا﴾، طَلَبًا لِقِسْمَةٍ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿أَلَمْ نَكُنْ﴾، مُوَافِقِينَ ﴿مَعَكُمْ﴾، فِي الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، مُظَاهِرِينَ لَكُمْ فِي الْقِتَالِ فَأَشْرِكُونَا فِي الْعَنَانِ ﴿وَإِنْ كَانَ﴾، بِحَسَبِ الْأُتْفَاقِ ﴿لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾، وَحَظٌّ مِنَ الْغَلَبَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿قَالُوا﴾، لِلْكَافِرِينَ تَحَبُّبًا لَهُمْ ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ﴾، وَلَمْ نَسْتَوْلِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وَلَمْ نَكُنْ مُتَمَكِّنِينَ مِنْ قَتْلِكُمْ وَأَسْرَكُمْ بِمُظَاهَرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَكَفَفْنَا عَنْكُمْ، ﴿وَلَمْ نَمْنَعْكُمْ﴾، وَنَحْفَظْكُمْ ﴿مِنْ﴾، بِأَسْ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، بَأَن خَلَيْنَا لَهُمْ مَا ضَعُفَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَتَوَانِينَا مِنْ مُظَاهَرَتِهِمْ عَلَيْكُمْ؟

قِيلَ: إِنَّ الْكُفَّارَ وَالْيَهُودَ أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، فَحَذَرَهُمُ الْمُتَافِقُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَبَالَغُوا فِي تَغْيِيرِهِمْ عَنْهُ، وَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّهُ سَيُضَعَفُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ وَيَقْوَى أَمْرُكُمْ. فِإِذَا اتَّفَقَتْ لَهُمُ الصُّوْلَةُ قَالُوا: أَلَسْنَا غَلَبْنَا عَلَى رَأْيِكُمْ فِي الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَتَعْنَاكُمْ مِنْهُ، فَلِذَا فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا أَصَبْتُمْ. وَإِنَّمَا سَمَّى اللَّهُ غَلَبَةَ الْمُؤْمِنِينَ فَتْحًا، وَغَلَبَةَ الْكُفَّارِ نَصِيبًا، تَعْظِيمًا لِشَأْنِ غَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَحْقِيرًا لَغَلَبَةِ الْكَافِرِينَ^٣.

ثُمَّ لَمَّا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ حُكْمَ الْإِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا لِمَصْلَحَةِ رَغْبَةِ الْعُمُومِ فِي الْإِسْلَامِ

١. تفسير العياشي ١: ٤٥٢/١١٣٧، الكافي ٢: ٢٩/١، تفسير الصافي ١: ٤٧٤، والآية من سورة الأنعام: ٦٨/٦.

٢. تفسير القمي ١: ١٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٧٤. ٣. تفسير الرازي ١: ٨٢.

الظَاهِرِي وغيرها، وَعَدَ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَبَيْنَ الْمُتَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ مُخَاطَباً لَجَمِيعِهِمْ بقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَخْضَعُ لَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْفَرِيقَانِ بِالْفَرْقِ وَالِامْتِيازِ فِي الظَّاهِرِ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بِإِكْرَامِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ^١ وَإِعْطَانِهِمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، وَإِذْلالَ الْمُتَافِقِينَ وَإِدْخَالَهُمُ النَّارَ. ثُمَّ لَمَّا أَثْبَتَ اللَّهُ لِلْكَفَّارِ الْعَلَبَةَ الْإِثْمَانِيَّةَ بِالسَّيْفِ، نَفَى عَنْهُمْ الْعَلَبَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُجَّةِ بقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُمْ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بِالْحُجَّةِ أَبَداً، وَإِنْ اتَّفَقَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ أَحْيَاناً وَبَحَسَبَ الْحُكْمَةَ سَبِيلًا فِي الْقُوَّةِ.

في معنى عدم جعل السبيل للكفار على المؤمنين
عن الرضا عليه السلام - في رواية - أنه قيل له: قوم يزعمون أن الحسين بن علي عليه السلام لم يقتل، وأنه ألقى سبته على خطلة بن أسعد الشامي^٢، وأنه رفع إلى السماء كما رُفِعَ عيسى بن مريم، ويحتجون بهذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟

فقال عليه السلام: «كذبوا، عليهم غضب الله ولعنته، وكفروا بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وآله في إخباره بأن الحسين عليه السلام سيقتل، والله لقد قُتِلَ الحسين عليه السلام، وقُتِلَ مَنْ كَانَ خَيْراً مِنَ الحسين؛ أمير المؤمنين، والحسن بن علي، ومايت إلا مقتول، وإني لو الله مقتول باغتيال مَنْ يَغْتَالِي، أعرف ذلك بعهدي مَهْمُودٍ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أخبره به جبرئيل عن رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فأما قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فإنه يقول: لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِكَافِرٍ عَلَى مُؤْمِنٍ حُجَّةً، ولقد أخبر الله عن كُفَّارٍ قَتَلُوا النَّبِيَّ بغيرِ الْحَقِّ، وَمَعَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُمْ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ سَبِيلًا مِنْ طَرِيقِ الْحُجَّةِ^٣.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ عَدَمِ جَعْلِ السَّبِيلِ فِي الْقِيَامَةِ وَقِيلَ: إِنَّهُ عَامٌّ فِي الْكُلِّ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ^٤. أقول: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ جَعْلِ اللَّهِ فِي الْمَقَامِ: الْجَعْلُ التَّشْرِيعِي لَا التَّكْوِينِي، وَلَا الْأَعْمَ مِنْهُمَا حَتَّى يَشْمَلَ الْعَلَبَةَ فِي الْحَرْبِ وَالْمُصَارَعَةِ وَأَمْثَالِهِمَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَعْمٌ مِنْ جَعْلِ آيَاتِ الدَّالَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالْأَحْكَامِ الْوُضْعِيَّةِ أَوِ التَّكْلِيفِيَّةِ، الْمَوْجِبَةِ لاشْتِيَاءِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلِذَا اسْتَدَلَّ الْفُقَهَاءُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي مَسَائِلَ:

منها: عَدَمُ جَوَازِ إِبْقَاءِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ فِي مِلْكِ الْكَافِرِ، بَلْ يَقْهَرُ الْكَافِرُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْ مُسْلِمٍ، فَإِنْ امْتَنَعَ

١. في النسخة: الْخُلَصِينَ.

٢. كذا، وروى الشامي، وشام بطن من همدان، انظر: كتاب أنصار الحسين عليه السلام: ١٨/٧٠.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/٢٠٣، ٥؛ تفسير الصافي: ١: ٤٧٤.

٤. تفسير الرازي: ١١: ٨٣.

باعه الحاكم عليه، ويُسلم ثمنه إليه.

منها: أنه لا يصح بيع العبد المسلم من الكافر.

منها: أنه لا يصح إيجاز العبد المسلم للكافر.

منها: أنه لا يجوز إيجاز الحر المسلم نفسه من الكافر للخدمة، وأما لغيرها فلا يجوز إذا كان أجيراً خاصاً.

منها: رهن العبد المسلم عند الكافر مع قبضه له.

منها: عدم صحة جفله وصياً على صبي مسلم.

منها: عدم صحة إعارة العبد المسلم للكافر. إلى غير ذلك، وإن كان في كثير من الفروع نظر.

إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُزَآوُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [١٤٢ و ١٤٣]

ثم لما بين الله سبحانه خدع المتافقين بالمؤمنين والكافرين، بين إفراطهم في الخدعة بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ ويمكرونه. وقد مر تفسير خدعهم بالله^١ في سورة البقرة^٢.

وقيل: إن المراد بخدعهم بالله: خدعهم برسوله والمؤمنين، تنزيلاً لخدعهم بهم بإظهار الإيمان وإبطان الكفر منزلة خدعهم له تعالى^٣.

﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ومجازيهم بالعقاب على خدعهم.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه تعالى يخادعهم في الآخرة، وذلك أنه تعالى يعطيهم ثوراً كما يعطي المؤمنين، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا في الظلمة^٤.

ثم شرح الله بعض أنواع خداعهم بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ مع المؤمنين وفي جماعتهم ﴿قَامُوا﴾ حال كونهم ﴿كُسَالَى﴾ متناقلين متباطئين لضعف داعيهم إلى الصلاة حيث إنهم لكفرهم لا يرجون بها ثواباً، ولا يخافون من تركها عقاباً، بل يفعلها ﴿يُزَآوُونَ النَّاسَ﴾ ليحسبهم مؤمنين لا داعي لهم إلى الصلاة غيره ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في صلواتهم مع المؤمنين وفي جماعتهم ﴿إِلَّا﴾ ذكراً ﴿قَلِيلًا﴾ من أذكار الصلاة، وهو الذي يظهر للمؤمنين كالتكبيرات، وأما الذي الذي مثل القراءة

١. عدى الفعل (خدع) بالباء في جميع المواضع المتقدمة والآتية، والصواب أنه متعد بنفسه كما في الآية.

٢. تقدم في تفسير الآية (٩) من سورة البقرة.

٣. تفسير الرازي ١١: ٨٣.

٤. تفسير الرازي ١١: ٨٣.

والتسبيحات وأمثالها، فلا يذكرونها.

هذا [في] كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِمْ، وَأَمَّا حَالُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانِ وَالْكَفَرِ فَانَّهُمْ^١ يَكُونُونَ «مُذَبِّذِينَ» وَمُتَحَرِّينَ فِي الْإِيمَانِ وَالْكَفَرِ، وَمُتَرَدِّدِينَ «بَيْنَ ذَلِكَ» الْمَذْكُورِ لِاخْتِلَافِ الدَّوَاعِي فِي نَظَرِهِمْ، فَقَدْ يَرَوْنَ نَفْعَهُمْ فِي مُوَافَقَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَيَكُونُونَ مَعَهُمْ، وَقَدْ يَرَوْنَ نَفْعَهُمْ فِي مُوَافَقَةِ الْكَفَّارِ فَيَكُونُونَ مَعَهُمْ، فَلِذَلِكَ «لَا إِلَى هَؤُلَاءِ» الْمُؤْمِنِينَ يُنْسَبُونَ «وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ» الْكَفَّارِ يُضَافُونَ، فَهُمْ دَانِمُونَ فِي الْخَيْرَةِ وَالضَّلَالِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ» وَيُخْذِلْهُ لُحْبُثُ ذَاتِهِ، وَعَدَمَ قَابِلِيَّتِهِ لِلْهُدَايَةِ «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ» أَبَدًا «سَبِيلًا» إِلَى الْحَقِّ، وَطَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ
أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا [١٤٤]

ثُمَّ لَمَّا ذَمَّ اللَّهُ شُبْحَانَهُ الْمُتَافِقِينَ بِمُؤَالَاةِ الْكَفَّارِ، نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» عَنْ صِمِيمِ الْقَلْبِ «لَا تَتَّخِذُوا» وَلَا تَخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ «الْكَافِرِينَ» الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاؤُكُمْ وَأَعْدَاءُ دِينِكُمْ «أَوْلِيَاءَ» وَأَصْدِقَاءَ «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» الْخُلَصَّ وَبَدَلًا مِنْهُمْ، وَلَا تَتَوَقَّعُوا مِنْهُمْ النُّصْرَةَ، فَإِنَّ مُؤَالَاتِهِمْ مِنْ شِعَارِ الْمُتَافِقِينَ «أَتُرِيدُونَ» بِهَذَا الصَّنِيعِ «أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ» عَلَى نِفَاقِكُمْ وَفَسَادِ عِقَادِكُمْ «سُلْطَانًا مُبِينًا» وَحُجَّةً ظَاهِرَةً لَا يُمْكِنُكُمْ دَفْعُهَا.

قِيلَ: إِنَّ الْأَنْصَارَ بِالْمَدِينَةِ كَانَ لَهُمْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ رِضَاعٌ وَجِلْفٌ وَمَوَدَّةٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ نَتَوَلَّى؟ فَقَالَ: «الْمُهَاجِرِينَ» فَنَزَلَتْ^٢.

إِنَّ الْمُتَافِقِينَ فِي الدُّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ
تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا [١٤٥ و ١٤٦]

ثُمَّ ذَكَرَ شُبْحَانَهُ سُوءَ حَالِ الْمُتَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ تَنْفِيرًا لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَادَّتِهِمْ، بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الْمُتَافِقِينَ» فِي الْآخِرَةِ مُسْتَقَرُّونَ «فِي الدُّرْكِ الْأَسْفَلِ» وَالْقَعْرِ الْأَنْزَلِ «مِنْ النَّارِ»، قِيلَ: هِيَ الْهَآوِيَةُ، وَعَذَابُ مَنْ فِيهَا أَشَدُّ مِمَّنْ^٣ فِي الطَّبَقَاتِ السَّتِّ الْآخِرَةِ^٤.

٣. في النسخة: من.

١. في النسخة: كأنهم. ٢. تفسير الرازي ١١: ٨٦.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٠٩.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، [وقد شئ] عن الذُّرك الأسفل، فقال: هُوَ تَوَابِيَّتٌ مِنْ حَدِيدٍ مُبْهَمَةٌ عَلَيْهِمْ، لَا أَبْوَابَ لَهَا^١.

ثُمَّ بَيَّنَّ انْقِطَاعَ طَمَعِهِمْ عَنِ الْخَلَّاصِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾، وَمُخْلَصًا مِنَ النَّارِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾، وَرَجَعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، أَيْضًا أَعْمَالَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ ﴿وَأَعْتَصَمُوا﴾، وَاتَّقُوا ﴿بِاللَّهِ﴾، بِالتَّمَسُّكِ بِخَبْلِ شَرِيعَتِهِ ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾، عَنِ الشُّوبِ بِالْأَهْوِيَةِ^٢ الْفَاسِدَةِ ﴿لَهُ﴾ لَا يَتَنَوَّنُونَ بِطَاعَتِهِ وَإِيْمَانِهِمْ بِهِ إِلَّا رِضَاهُ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ يَكُونُونَ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ الْآخِرِيَّةِ ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الَّذِينَ كَانُوا مِنْ بَدْوٍ إِيْمَانَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾، الْخُلَصَ عُمُومًا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لَا يُمَكِّنُ بَيَانَ عَظَمَتِهِ وَقَدْرَهُ. وَفِي جَعْلِ التَّائِبِينَ عَنِ النِّفَاقِ تَبَعًا لِلْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَ فِي الْأَجْرِ، إِشْعَارًا بِتَشْرِيفِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَ عَلَيْهِمْ.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا [١٤٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ وَعِيدِ الْمُتَنَافِقِينَ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ، وَوَعَدِهِمْ عَلَى الْإِيْمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِأَعْلَى الثَّوَابِ مِنْهُ. جَعَلَ الْعَذَابَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ لِتَحْمِيلِ النَّاسِ عَلَى الْإِيْمَانِ وَالطَّاعَةِ، لُطْفًا بِهِمْ، لَا لِلتَّشْفِي، أَوْ جَلَبِ النَّفْعِ إِلَى نَفْسِهِ، أَوْ دَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهَا، بِقَوْلِهِ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾، وَأَيُّ دَاعٍ لَهُ إِلَى عِقَابِكُمْ ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ﴾، نِعْمَةً وَامْتِنَانًا أَحْكَامَهُ ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾، بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، بَلْ إِنَّمَا أَمَرَكُمْ بِمَا أَمَرَ وَنَهَاكُمْ عَمَّا نَهَى جَفْظًا لِمَصَالِحِ الْحُكْمِ، وَتَكْمِيلًا لِنَفْسِكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾، مَعَ ذَلِكَ لَطَاعَتَكُمْ ﴿شَاكِرًا﴾، بِإِعْطَاءِ الْأَجْرِ، وَبَذْلِ الثَّوَابِ ﴿عَلِيمًا﴾، بِهَا وَبِمِقْدَارِ مَا تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْأَجْرِ عَلَيْهَا.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا

عَلِيمًا [١٤٨]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُتَنَافِقُونَ التَّائِبُونَ - بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ وَتَخْلِيصِ إِيْمَانِهِمْ - فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ وَالتَّعْيِيرِ لِمَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنْ فُسَادِ الْعَقِيدَةِ وَسُوءِ الْأَعْمَالِ، نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ﴾، وَالتَّظَاهَرَ ﴿بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، فِي حَقِّ أَحَدٍ، سِوَاءَ مَا كَانَ الْقَوْلُ السَّيِّئُ سَبًّا أَوْ غِيْبَةً أَوْ تَهْنَاتًا أَوْ تَعْيِيرًا، لَا

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٠٩.

٢. كذا، والظاهر: بالأهواء؛ لِأَنَّ الْأَهْوِيَّةَ جَمْعُ هَوَاءٍ، وَالْأَهْوَاءُ جَمْعُ هَوًى وَهُوَ الْمَرَادُ.

٣٠٨ نفعات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

بَلْ يَغْضَهُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ به وأسيء إليه، بأن يدَعُو على المسيء، أو يذكر إساءته، أو يشتكي منه بأن يقول: ضربني ظُلماً، أو شتمني، أو غصب أو سرق مالي، أو يرُدُّ بالشَّيْمة على شاتميه. عن الباقر عليه السلام: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الشُّتْمَ فِي الْإِنْتِصَارِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَتَصَيَّرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ بِمَا يَحُوزُ الْإِنْتِصَارَ بِهِ فِي الدُّنْيَا»^١ الخبر.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ الصَّيْفُ يَنْزِلُ بِالرَّجُلِ، فَلَا يُحْسِنُ ضِيَاغَتَهُ، [فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ سُوءَ مَا فَعَلَهُ]»^٢.

وعنه عليه السلام في هذه الآية: «مِمَّنْ أَضَافَ قَوْماً فَاسَاءَ ضِيَاغَتَهُمْ فَهُوَ مِمَّنْ ظَلَمَ» [فَلَا جُنَاحَ فِي مَا قَالُوا فِيهِ]»^٣.

وفي رواية: «إِنْ جَاءَكَ رَجُلٌ وَقَالَ فِيكَ مَا لَيْسَ فِيكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّثَاءِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَلَا تَقْبَلْهُ مِنْهُ وَكَذِّبْهُ، فَقَدْ ظَلَمَكَ»^٤.

ثم هدّد المجاهر بالسوء بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيماً﴾ لآقواكم السيئة «عليماً» باستحقاقكم ومقدار جزائكم.

قيل: نزلت في أبي بكر، فَإِنْ رَجَلًا شَتَمَهُ مِرَاراً فَسَكَتَ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: شَتَمَنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَّدْتَ عَلَيْهِ قُمْتَ؟ فَقَالَ ﷺ «إِنْ مَلَكًا كَانَ يُجِيبُ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَّدْتَ عَلَيْهِ، ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَلَكُ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَجْلِسْ عِنْدَ مَجِيءِ الشَّيْطَانِ». فنزلت هذه الآية^٥.

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيراً [١٤٩]

ثم لما أذن الله سبحانه في الوقوع في الظالم، وإساءة القول له، رغب في العمل بالخير والإحسان إلى الخلق، والعفو عن إساءتهم بقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ وتظهروا «خَيْراً» وبراً وإحساناً «أَوْ تُخَفُّوهُ» وتيسروه «أَوْ تَعْفُوا عَنْ» كُلِّ «سُوءٍ» ولا تنتقموا من الظالم مع قدرتكم على الانتقام، ولا تقابلوه بالقول السيئ، وتختلفوا بأخلاق الله «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً» عن القصة وعن المسيء والمساء إليه مع كونه «قَدِيراً» على عقوبتهم والانتقام منهم فأنتم أولى بالعفو.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ

١. مجمع البيان ٣: ٢٠١، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.

٢. مجمع البيان ٣: ٢٠٢، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.

٣. تفسير العياشي ١: ٤٥٣/١١٤١، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.

٤. تفسير القمي ١: ١٥٧، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.

٥. تفسير الرازي ١١: ٩١.

تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [١٥٠ و ١٥١]

ثم لما كان أغلب المنافقين من اليهود، شرع في ذم اليهود بعد الفراغ من ذم المنافقين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ولكن لا بالصرحة، بل بالالتزام لما نسب إليه بقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا﴾ في الإيمان ﴿بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم، ولكن لا بالتصریح بهذا التفريق، بل هو المدلول الالزامي لما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرُّسل كموسى وعزير ﴿وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ﴾ آخر كعيسى ومحمد، مع أن الكفر بأحد الرُّسل كُفْرٌ بجميعهم، والكفر بجميعهم كُفْرٌ بالله عز وجل.

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم بالتفريق في الإيمان بينهم ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ ويختاروا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الإيمان والكفر المطلق ﴿سَبِيلًا﴾ ومذهباً وسطاً، مع أنه لا واسطة بينهم، فإن الإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان برُسْله، وتصدقهم في ما بلغوا عنه، وتكذيب واحدٍ منهم في حكم تكذيب جميعهم؛ فلذلك ﴿أُولَئِكَ﴾ المَفْرُقُونَ بَيْنَ الرُّسُلِ الْمُبْعُضُونَ في الإيمان ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المُسْتَهُونَ في الكفر إلى الغاية، وحق ذلك القول ﴿حَقًّا﴾ لا يشوبه شك ولا ريب.

ثم أوعدهم بعقاب الكفار بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ هَؤُلَاءِ الْمَفْرُقُونَ مِنْ أَطْرَفِ مَصَادِقِهِمْ ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ وعقوبة مقرونة بغاية الذل، لاشتيكبارهم عن الإيمان بالرُّسل.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [١٥٢]

ثم أتبع ذم الكفار وعيدهم بتمنح المؤمنين وعدهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كلهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان والتصدق؛ مع كون جميعهم ذوي المعاجز الباهرة والآيات الظاهرة ﴿أُولَئِكَ﴾ الكاملون في الإيمان ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ الله تعالى من فضله في الآخرة ﴿أَجُورَهُمْ﴾ التي وعدهم على لسان رُسْله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرطَ منهم، ﴿رَحِيمًا﴾ بهم بتضعيف حسناتهم، واشتغافهم بأنواع النعم الدائمة.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ فَأَخَذْتَهُمْ الصَّاعِقَةُ يُظْلِمُهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا [١٥٣]

ثم وَبَّخَ الله سبحانه اليهود بافتراحهم على النبي ﷺ كما اقترح اسلافهم على موسى، بقوله: ﴿يَسْئَلُكَ﴾ اليهود الذين هم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ والمؤمنون بالثورة ﴿أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

قيل: إنهم قالوا: إن كُنْتُ رُسُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَأْتِنَا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ جُمْلَةً، كما جاء موسى بالألواح. وقيل: طلبوا أن يُنْزَلَ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى قَلَانٍ، وَكِتَابًا إِلَى قَلَانٍ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ^١. وقيل: كِتَابًا تُعَايَنُهُ حِينَ تُرْوَاهُ^٢.

ولمَّا كَانَ سُؤَالُهُمْ عَنِ التَّعْتُّتِ وَاللَّجَاجِ لظهور معجزات النبي أكثر مما يحتاج إليه في ظهور صدقه، وَلَمْ يَحْسُنْ إِجَابَةُ سُؤُولِهِمْ، أَجَابَهُمْ بِأَنْ طَبَاعَكُمْ مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّعْتُّتِ وَالْإِفْتِرَاحِ، فَإِنَّكُمْ أَوْلَادُ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا وَتَعْتَتُوا عَلَى نَبِيِّهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ﴾ وَأَعْظَمُ ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ السُّؤَالِ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِزُولِ الثَّوَرَةِ دُفْعَةً وَجُمْلَةً، وَبُظُورِ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ فِي تَصْدِيقِهِ بِأَنْ اللَّهُ يُكَلِّمُهُ، حَتَّى اخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ كِبَرَانِهِمْ وَضَلَّحَانِهِمْ، فَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ طَوْرٍ لِيَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ، فَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ سَأَلُوهُ أَنْ يُرِيَهُمْ اللَّهَ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ بِأَبْصَارِهِمْ ﴿فَقَالُوا﴾ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وَعِيَانًا حَتَّى تُصَدِّقَ ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ وَشُعْلَةُ النَّارِ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُمْ ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَعَتَّتَهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ.

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿الْعِجْلَ﴾ الَّذِي صَنَعَهُ السَّامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّهِمْ إِلَهًا وَمَعْبُودًا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ الْمُعْجَزَاتُ ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ مِنَ الْعَصَا، وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَفُلْقِ الْبَحْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿فَعَقَوْنَا﴾ وَتَجَاوَزْنَا ﴿عَنْ ذَلِكَ﴾ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ، وَلَمْ نَسْتَأْصِلْهُمْ بِالْعَذَابِ مَعَ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَهُ ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى﴾ مَعَ شِدَّةِ لَجَاجِ قَوْمِهِ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وَغَلْبَةً ظَاهِرَةً عَلَى أَعْدَائِهِ حَتَّى ظَهَرَ دِينُهُ وَقَوِيَ أَمْرُهُ. وَفِي ذَلِكَ بَشَارَةٌ لِلرُّسُولِ بِضُرَّتِهِ وَظُهورِ دِينِهِ، كَمَا صَرَّحَ بِتِلْكَ الْبَشَارَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾^٣.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثَاقًا غَلِيظًا [١٥٤]

ثم بالغ سبحانه في بيان شدة لجاحهم وطغيانهم بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ - وقد مر تفسير القضييتين في سورة البقرة^١ - ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ - بلسان نبيهم ﴿لَا تَفْعَلُوا﴾ ولا تتجاوزوا حدود الله ﴿فِي﴾ يَوْمَ السَّبْتِ باضطياد الجيتان ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ﴾ على العمل بأحكام التوراة عموماً، أو ترك الصيد في السبت ﴿مِثْقَالًا﴾ وعهداً ﴿عَلِيظًا﴾ وكيداً.

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [١٥٥]

ثم نقضوا الميثاق، وخالفوا التوراة، واصطادوا في السبت ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ وبسبب خلفهم عهدهم ﴿وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وحججه الظاهرة من القرآن، أو جميع المعجزات، أو خصوص آيات التوراة الدالة على صفات النبي ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ كزكريا ويحيى ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مع ظهور ثبوتهم لهم ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ في مقام اللجاج جواباً لمحمد ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومتعساً، أو أوعية العلم، ومع ذلك لا خير فيها من ثبوتك.

ثم ردهم الله بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وجحودهم، فحجبت عن العلم خذلاناً من الله، وقست بحيث لا تؤثر فيها الدعوة والموعظة، ولذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالأنبياء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كموسى وعزيراً، أو إيماناً قليلاً لا يعاب به.

قيل: إن التقدير: أنه بسبب هذه المعاصي لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا [١٥٦]

﴿و﴾ كذا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وإنكارهم قدرة الله على خلق الولد بغير أب ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ﴾ بنت عمران ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ وفرية في غاية القباحة من نسبة اختيالها إلى الرضا، مع أن الله قبلها بقبول حسن لخدمة البيت المقدس، وكفلها زكريا، وشهد بطهارتها، وتكلم عيسى في المهد، إلى غير ذلك من الأدلة القاطعة عند اليهود على أن هذا القول في حقها بهت صرف.

في نقل بهتان الفخر الرازي، بعد ذكر براءة مريم من كل ريبة: فلا جرم وصف الله تعالى طغن اليهود فيها بأنه بهتان عظيم، وكذلك وصف طغن المنافقين في عائشة بأنه بهتان عظيم، حيث قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^٢ وذلك يدل على أن الزوافض

في نقل بهتان الفخر الرازي على الشيعة وتكذيبه

الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي عَانِشَةِ الزَّانَا بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا فِي مَرْيَمَ ٢.

أقول: سبحانهك هذا بهتان عظيم على الشيعة، انظروا إلى الرجل كيف افترى على الشيعة بما هم براء منه، فإن أحداً من الشيعة لم يطعن في عانشة بذلك لقطعهم ببراءتها من الفحش، لكرامة النبي ﷺ، لا لكمال ذاتها وطهارتها من المعصية، لصدور ما هو أكبر من الزنا منها كخروجها على خليفة الرسول، وإيدانها لفاطمة البضة. بل نقول بعصمة جميع زوجات النبي عن الفاحشة تنزيهاً له ﷺ من الشين.

فاصرار الناصب بطهارتها من المعصية ردٌ للكتاب الناطق بعصيانها، حيث قال سبحانه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ ٣ الآية.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا [١٥٧]

ثم حكى سبحانه وتعالى افتخار اليهود بقتل الأنبياء بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مفتخرين به مع كونه ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾.

ثم كذبهم الله في هذه الدعوى بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ بل ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أصلاً ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ﴾ المقتول والمصلوب ﴿لَهُمْ﴾، قيل: يعني: وقع الشبهة لهم ٤.

في رفع عيسى ﷺ رُوي أن رَهطاً من اليهود سبّوه وقالوا: هو السّاحر بن السّاحرة، والفاعل بن الفاعلة. إلى السماء فقدذوه وأمه فلما سمع ﷺ ذلك دعا عليهم، فقال: [اللهم] أنت ربّي وأنا من رُوحك

خرجت، وبكلمتك خلقتني، ولم آتهم من يلقاء نفسي، اللهم فآلن من سبني وسب أمي. فاستجاب الله دعاءه ومسح الذين سبّوه وسبوا أمه قردةً وخنازير، فلما رأى ذلك يهودا رأس القوم وأميرهم فزع لذلك، وخاف دعوته عليه أيضاً، فاجتمعت اليهود على قتل عيسى ﷺ، فبعث الله جبرئيل فأخبره بأنّه يرفعه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبيهي، فيقتل ويصلب فيدخل الجنة، فقال رجل منهم: أنا، فألقي شبيهه عليه فقتل وصلب ٥.

وقيل: إن الشبه ألقى على وجهه دون بدنه، فلما قتلوه نظروا إلى بدنه فقالوا: الوجه وجه عيسى،

٢. تفسير الرازي ١١: ٩٩.

١. (بالزنا) لم ترد في المصدر.

٣. التحريم: ٤/٦٦. ٤. تفسير روح البيان ٢: ٣١٧.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٣١٧.

وَالْبَدَنَ بَدَنٍ غَيْرِهِ^١.

وقيل: إِنَّ الْيَهُودَ حَبَسُوا عِيسَى ﷺ مَعَ عَشْرَةٍ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ فِي بَيْتٍ، فدخل [عليه] رَجُلٌ [من اليهود] لِيُخْرِجَهُ وَيَقْتُلَهُ، فَألقى الله شِبْهَ عِيسَى عَلَيْهِ، [ورفع إلى السماء] فأخذوا ذلك الرَّجُلَ وَقَتْلُوهُ عَلَى أَنَّهُ عِيسَى، ثُمَّ قَالُوا: إِنْ كَانَ هَذَا عِيسَى فَأَيْنَ صَاحِبُنَا؟ وَإِنْ كَانَ صَاحِبُنَا فَأَيْنَ عِيسَى؟^٢ فأشار سُبْحَانَهُ إِلَى اخْتِلَافِ الْيَهُودِ فِي قَتْلِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - كما قيل إِنَّهُمْ أَيْضاً مُخْتَلِفُونَ فِي قَتْلِهِ^٣ - أَوْ [مِنَ] الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ خَالَفُوا وَأَعْتَقَدُوا قَتْلَهُ ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ وَتَرَدَّدَ فِيهِ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ شَيْءٌ ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ وَاعْتِقَادَ جَازِمٍ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي ادِّعَاءِ قَتْلِ عِيسَى، أَوْ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ عَمَلٌ وَدَابٌّ ﴿إِلَّا اتَّبَاعَ الظُّلِّ﴾ وَلَا يَغْنِي الظُّلُّ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً. ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ تَكْذِيبَهُمْ فِي دَعْوَى قَتْلِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ قَتلاً ﴿يَقِيناً﴾ أَوْ الْمُرَادُ: أَنَّ نَفْيَ الْقَتْلِ يَكُونُ يَقِيناً وَحَقّاً، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَكَّ فِيهِ.

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [١٥٨]

ثُمَّ أَضْرَبَ وَأَعْرَضَ عَنِ الدَّعْوَى الْكَاذِبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وَإِلَى سَمَانِهِ وَمَحَلِّ كَرَامَتِهِ وَقَرَّبِهِ.

قيل: إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ تَبَرُّكُ الْمَلَائِكَةِ بِصُحْبَتِهِ؛ لِأَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ^٤. وقيل: إِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ دُخُولُهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ بَابِ الشُّهُوَةِ، لَمْ يَكُنْ خُرُوجُهُ مِنْهَا مِنْ بَابِ الْمَنِيَّةِ، بَلْ دَخَلَ مِنْ بَابِ الْقُدْرَةِ، وَخَرَجَ مِنْ بَابِ الْعِزَّةِ^٥. أقول: فِيهِ نَظَرٌ، إِذْ لَا يَدَّ مِنْ خُرُوجِهِ بَعْدَ عَوْدِهِ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ بَابِ الْمَنِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^٦. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْحِكْمَةُ فِي رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ تَقْرِيبَ صِحَّةِ دَعْوَى الرُّسُولِ الْعُرُوجَ إِلَى السَّمَاءِ، وَالِاسْتِدْلَالَ بِهِ عَلَى إِمْكَانِهِ. ثُمَّ دَفَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ اسْتِيعَادَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ بِهَذَا الْبَدَنِ الْعُنْصُرِيِّ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً﴾ غَالِباً عَلَى أَمْرِهِ، قَادِراً عَلَى مَا يُرِيدُ ﴿حَكِيماً﴾ فِي أَعْمَالِهِ. عَنِ السَّجَادِ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ بِقَاعاً فِي سَمَاوَاتِهِ، فَمَنْ عَرَّجَ بِهِ إِلَى بَقْعَةٍ مِنْهَا فَقَدْ عَرَّجَ بِهِ إِلَيْهِ، أَلَا تَسْمَعُ اللَّهُ يَقُولُ فِي قِصَّةِ عِيسَى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾؟»^٧.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣١٨.

٦. آل عمران: ١٨٥/٣.

١ و ٢. تفسير الرازي ١١: ١٠١.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٢: ٣١٩.

٧. من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٧/٦٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٧٩.

وعن القمي^١: رُفِعَ وعليه بذرة من صوف^١.

عن الصادق عليه السلام قال: «رُفِعَ عيسى بن مريم ببذرة صوف من غزل مريم، ومن نسج مريم، ومن خياطة مريم، فلما انتهى إلى السماء تودي: يا عيسى، ألقى عنك زينة الدنيا»^٢. وفي (الإكمال): عن النبي صلى الله عليه وآله: «أن عيسى بن مريم أتى بيت المقدس، فمكث يدعوهم ويرغبهم في ما عند الله ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى طلبته اليهود وادّعت أنها عذبه ودفتته في الأرض حياً، وادّعى بعضهم أنهم قتلوه وصلبوه، وما كان الله ليجعل لهم سلطاناً عليه، وإنما شبّه لهم، وما قدروا على عذابه ودفتته، ولا على قتله وصلبه: لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾»^٣.

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً [١٥٩]

ثم حرض الله اليهود بالإيمان^٤ بشيعة عيسى عليه السلام، والنصارى بالإيمان بأنه عبد الله ورسوله حين ينفعهم الإيمان به، بقوله: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى أحد^٥ «إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» وزهوق رُوحه، وحين معاينة عالم الآخرة ولكن لا ينفعه إيمانه.

قيل: إنه إذا حضر اليهودي الوفاة وعاین الآخرة، ضربت الملائكة وجهه وذبره وقالت: أذاك عيسى نبياً فكذبت به، فيؤمن حين لا ينفعه إيمانه، وتقول للنصراني: أذاك عيسى عبد الله، فزعمت أنه هو الله وابن الله، فيؤمن بأنه عبد الله حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع التكليف^٦.

رؤي عن شهر بن حوشب، قال: قال الحجاج: إنّي ما قرأتها إلا وفي نفسي منها شيء - يعني هذه الآية - فإنّي أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضر الموت ضربت الملائكة وجهه وذبره وقالوا: يا عدو الله، أذاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول: آمنت به، وتقول للنصراني: أذاك عيسى نبياً فزعمت أنه هو الله وابن الله، فيقول: آمنت أنه عبد الله، فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان، فاستوى الحجاج جالساً وقال: عمّن نقلت هذا؟ فقلت: حدّثني به محمد بن علي [ابن] الحنفية، فأخذ ينكث بقضيبه الأرض ثم قال: أخذتها من عَيْنِ صافية^٧.

٢. تفسير العياشي ١: ٦٩٢/٣١٠، تفسير الصافي ١: ٤٧٩.

٤. كذا، والظاهر: على الإيمان.

٦. تفسير الرازي ١١: ١٠٣.

١. تفسير القمي ١: ٢٢٤، تفسير الصافي ١: ٤٧٩.

٣. كمال الدين: ٢٥٠/٢٢٥، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٢٠.

وعن الثُمِّي، عن شَهْر مابَقَرَب مِنه، إلى أن قال: فقلْتُ: أصلح الله الأمير، ليس على ما تأوَلْتُ، قال: كيف هو؟ قلتُ: إنَّ عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا، فلا يبقى أهل مِلَّة يهودي ولا غيره إلا آمن به قبل موته، ويصلي خلف المهدي عليه السلام، قال: ويحك، أتئى لك هذا، ومن أين جئت به؟ فقلتُ: حدَّثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: جئت بها [والله] من عين صافية^١.

وعن الباقر عليه السلام، في تفسيرها: «ليس من أحدٍ من جميع أهل الأديان يموت إلا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وأُمير المؤمنين عليه السلام حقاً من الأولين والآخرين»^٢.

وفي (الجوامع): عنهما عليه السلام: «حرام على رُوح [أمرئ] أن تفارق جسدها حتَّى ترى محمداً وعلياً صلوات الله عليهما»^٣.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «هذه نزلت فينا خاصة، أنه ليس رجُلٌ من وُلد فاطمة يموت ولا يخرج من الدنيا حتَّى يقرَّ للإمام بإمامته، كما أقرَّ وُلد يعقوب لِيُوسف حين قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ آيَةً كَبِيرًا﴾»^٤.

وفي (المجمع): في أحد معانيه: «الْيَوْمَ مَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ مَوْتِ الْكِبَارِيِّ»^٥.
 ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عيسى عليه السلام أو محمد ﷺ ﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالكذب، وعلى النصارى بأنهم دَعَوَا عيسى ابن الله.

فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْهُمْ عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
 وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [١٦٠ و ١٦١]

ثم بعد ذكره سبحانه فضائح اليهود، ذكر تشديده عليهم في الدنيا بقوله: ﴿فَيُظْلَمُ﴾ عظيم صادر
 ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ لا بغيره من الأسباب ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ ولذايذ مخصوصة من الأطعمة
 التي ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ولمن قبلهم، كلحوم الإبل وألبانها، والشحوم ﴿وَبِصَدْهُمْ﴾ ومنعهم ﴿عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ﴾ من الإيمان بالنبي ﷺ، والدخول في دين الإسلام صدأً ومنعاً ﴿كَثِيرًا﴾ بإلقاء الشبهات

٢. تفسير العياشي ١: ٤٥٥/١١٤٨، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.

١. تفسير القمي ١: ١٥٨، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.

٣. جوامع الجامع: ١٠١، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٤٥٤/١١٤٥، تفسير الصافي ١: ٤٨١، والآية من سورة يوسف: ٩١/١٢.

٥. مجمع البيان ٣: ٢١٢، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.

٣١٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

والمكاند والتسويلات ﴿وَأَخْذِهِمُ الرُّبَا﴾ من الناس، ﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ قَدْ تَهَوَّأَتْهُ فِي التَّوْرَةِ
وغيرها من الكتب ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وَبَغْيِ الْوَجْهِ الْمُحَلَّلِ، كَالرُّشْوَةِ وَغَيْرِهَا.
ثم ذكر تشديده عليهم في الآخرة بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ ذُنُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ،
كثيرون من الأحبار ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي الْآخِرَةِ.

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ
مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا [١٦٢]

ثم أنه تعالى بعدَ ذَمِّ الْكُفَّارِ وَذَكَرِ قَبَاحِ أَعْمَالِهِمْ وَشَوْءِ عَاقِبَتِهِمْ، ذَكَرَ مَحَامِدَ الْمُؤْمِنِينَ وَحُسْنَ
عَاقِبَتِهِمْ عَلَى حَسَبِ دَابَّهِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بقوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ﴾ وَالْمُسْتَفْرِقُونَ ﴿فِي الْعِلْمِ
مِنْهُمْ﴾ بَحِيثٌ لَا يَضْطَرُّونَ بِإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ، وَلَا يَمِيلُونَ إِلَى الْخُرَافَاتِ بِالتَّسْوِيلَاتِ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾
الْخُلَاصُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ وَصِدْقِ النَّيَّةِ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ إِلَى
سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، ﴿وَأَخْصُ﴾ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴿بِالْمَدْحِ.
وقيل: إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾^١، والمعنى: يُؤْمِنُونَ بِالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ
وَالْمَلَائِكَةُ. ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَأَمَّا
قَدْ مَشَّحَانَهُ الْإِيمَانَ بِالْكَتَبِ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْمَعَادِ لِكُونِهِ الْمَقْصُودَ الْأَهَمَّ فِي
الْمَقَامِ.

﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُتَصَفُّونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَثَوَابًا
جَزِيلًا لَا يَتَقَادَرُ قَدْرُهُ.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ
وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَدَاوُدَ زُيْنًا [١٦٣]

ثم أنه تعالى بعدَ بَيَانِ شِدَّةِ إنْكَارِ الْيَهُودِ وَتَعَتُّبِهِمْ عَلَى الرُّسُولِ، بَيَّنَّ أَنَّ الرِّسَالَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْبَدَائِعِ
وَالْأُمُورِ الْجَدِيدَةِ غَيْرِ الْمَانُوسَةِ، بَلْ كَانَتْ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ تَقْرِيبًا لِلْأَذْهَانِ، وَدَفْعًا لِلتَّحَاشِي عَنْ

الطَّاع، بقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وشرفناك بمنصب الرسالة ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ بَعْدِهِ يُرْجُونَ شريعته إلى زمان إبراهيم عليه السلام، ﴿وَ﴾ كما ﴿أَوْحَيْنَا﴾ بعدهم ﴿إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق، ﴿وَ﴾ أنبياء ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ الاثني عشر، وهم أولاد يعقوب، ﴿وَ﴾ إلى ﴿عِيسَى وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسَلِيمَانَ﴾.

وفي ذكر هؤلاء بأسمانهم، مع كونه من الأسباط وكون الأنبياء أكثرهم منهم، دلالة على أفضليتهم من الغير المذكورين. وإنما قدم ذكر نوح لكونه آدم الثاني، وأول من شرع الله على لسانه الأحكام، وأول أولي العزم من الرسل.

ثم أجمال في ذكر سائر الأنبياء الذين كانوا بعده، ثم ذكر الأفاضل منهم تفصيلاً، وبدأ بذكر إبراهيم عليه السلام لكونه أفضل المذكورين وأقدمهم، وثاني أولي العزم، ثم ذكر أنبياء الأسباط بنحو الإجمال، ثم ذكر أسماء أفاضلهم، وبدأ في هذا التفصيل بذكر اسم عيسى، لكونه أفضل المذكورين في الآية وثالث أولي العزم ولتبيكيت اليهود، حيث إنهم شددوا في إنكار نبوته وصحة نسبه.

في بيان الزبور
وتلاوة داود عليه السلام
إياه،
ثم خص داود عليه السلام من بينهم بفضيلة إيتائه الكتاب بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ رُزُومًا﴾ لشهرة كتابه بين اليهود ونزوله نجوماً كالقرآن، فأشار بذكره إلى أنه لو كان نزول كتاب نجوماً قادحاً فيه، لكان على اليهود القذح في الزبور، مع أنهم يُعظمونه غاية التعظيم.

قيل: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم، وإنما هي حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله عز وجل، وكان داود يبرز إلى البرية ويقرأ الزبور، فيقوم علماء بني إسرائيل خلفه، ويقوم الناس خلف العلماء، ويقوم الجن خلف الناس، وتجيء الدواب التي في الجبال إذا سمعت صوت داود، فيقمن بين يديه تعجباً لما يسمعن من صوته، وتجيء الطير حتى يظللن على داود في خلائق لا يحصيها إلا الله، يفرفن على رأسه، وتجيء السباع حتى تحيط بالدواب والوحش لما يسمعن، فلما قارف الذنب^١ - وهو تزوج امرأة أوريا من غير انتظار الوحي بجبرئيل عليه السلام - لم يروا ذلك^٢.

في ذكر عدد
الأنبياء والرسل
ثم أنه تعالى ذكر أسماء الأنبياء المشهورين، ولم يذكر موسى عليه السلام معهم، لأن اليهود كانوا يحتجون على النبي صلى الله عليه وآله بأن كتابك لو كان من السماء لكان ينزل دفعة كما

١. اقتراف الذنوب مما لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام لأنهم معصومون، ولا يبعد أن تكون حكاية زواج داود عليه السلام من امرأة أوريا هي من الروايات الاسرائيلية التي تسربت إلى ساحة التفسير، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا أذنن برجل يزعم أن داود عليه السلام تزوج بامرأة أوريا إلا جلدته حدّين: حدّ النبوة، وحدّ الاسلام» راجع تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى: ٩٠ - ٩٢.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٢٣.

أنزلت التوراة على موسى دفعةً، فأجاب الله عن تلك الشبهة بأن هؤلاء المذكورين كانوا كلهم أنبياء مع أن واحداً منهم ما أتى بكتاب مثل التوراة دفعةً، فلا يقدح نزول الكتاب نجوماً في كونه من عند الله، كذا قيل^١.

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [١٦٤]

ثم أكمل البيان وأتم الحجة بقوله: ﴿وَرُسُلًا﴾ آخرين أرسلناهم إلى الناس جماعةً منهم ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ وتلونا أحوالهم ﴿عَلَيْكَ﴾ وسَمَّيْنَاهُمْ لك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في السور الآخر من القرآن، كهود وصالح وإدريس عليه السلام ﴿وَرُسُلًا﴾ آخر ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ في كتابك، ولم نسمهم لك، ولم نذكر أحوالهم.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم كانت الأنبياء؟ وكم كان المرسلون؟ قال: «كانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر»^٢.

ثم بين مزية موسى عليه السلام من بينهم بقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ من بينهم في الطور ﴿تَكْلِيمًا﴾ بطريق المشافهة.

قيل: فيه إشارة إلى أن تخصيص موسى عليه السلام بهذه المزية، كما لا يقدح في نبوة غيره من الأنبياء، لا يقدح نزول كتابه دفعةً في نبوة نبي نزل كتابه نجوماً كالقرآن^٣.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [١٦٥]

ثم بين سبحانه حكمة إرساله الرسل بقوله: ﴿رُسُلًا﴾ كثيرة أرسلناهم إلى الناس من بدو الخليقة حال كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لهم بالثواب على الإيمان بتوحيد الله والقيام بعبوديته ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم بالعقاب على الشرك والعصيان ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ ومَعذرة، أو اعتراض ملزم ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿الرُّسُلِ﴾ بأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَنَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٤.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ وقادراً على إرسال الرُّسل، وإنزال الكتب، وتكميل النفوس، وإعطاء الثواب، وتغذيب الغصاة، وقطع الأعدار ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله.

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا [١٦٦]

ثم قيل: إنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^١ الآية، قال قوم: [نحن] لا نشهد لك بذلك. فزود الله عليهم، وسلى نبيه ﷺ بقوله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾^٢ لك ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ من السماء وهو القرآن أنه حق وصدق، وشهادته تعالى بأشيماله على إعجاز البيان، والأخبار الصادقة بالمغيبات، والعلوم الكثيرة مع كون الجاني به أمياً.

ثم وصف ما أنزله بقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ غير المتناهي، وحكمته البالغة، فلما كان علمه غير المتناهي سبباً لتزوله، صار في غاية الحسن ونهاية الكمال بحيث عجز الأولون والآخرون عن تعارضته والإتيان بمثله.

وقيل: إن المراد: أنزله بعلمه بأنك مستأهل له.^٣

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ كلهم أيضاً ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بأن القرآن نازل من عند الله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بذلك لا يحتاج إلى شهادة غيره.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا [١٦٧]

ثم أنه تعالى بعد شهادته بصدق القرآن وصحة دين الإسلام، وبخ المنكرين له الصادقين عنه، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقرآن ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنعوا الناس بإلقاء الشبهات ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الإسلام ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهدى وطريق الجنة ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لا يرجئ منهم الهداية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا [١٦٨ و ١٦٩]

ثم هددهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ أنفسهم بإصرارهم على الكفر، والناس بصددهم عن

الحَقُّ، ومحمد ﷺ بتكذيبه وإخفاء نُعوته وكيماها.

عن الباقر عليه السلام قال: «نزل جبرئيل بهذه الآية هكذا: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ...»^(١).
 «لَمْ يَكُنْ اللَّهُ» مُريداً «لِيُغْفِرَ لَهُمْ» عن ذُنُوبِهِمْ، لعدم قابليتهم للمغفرة «وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً» مِنَ الطُّرُق «إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ» فلا مناص لهم في الآخرة عن دخولها، حال كونهم «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً» دائماً «وَكَانَ ذَلِكَ» الإدخال في النار والإخلاد فيها مع بقاء الأجساد أبداً الأبد «عَلَى اللَّهِ» وفي جنب قُدْرته الكاملة غير المتناهية «يَسِيرًا» سهلاً، وإن كان في نظر المشككين لقُدرة الله مُتَعَذِّراً مُستحيلاً.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [١٧٠]

ثم أنه تعالى بعد دَفْعِ شبهات اليهود في رسالة النبي ﷺ، وصِدْقِ كتابه، وتَوْثِيخِهِم بِالضَّلَالِ والإِضْلَالِ، وتَوْعِيدِهِم بِالنَّارِ، بِأَشْرَ بذاته المُقَدَّسة دَعْوَتِهِمْ ودَعْوَةَ سائر النَّاسِ إلى الإيمان بِرِسالته بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ» محمد ﷺ «الرَّسُولُ» الصَّادِقُ «بِالْحَقِّ» وَالْقُرْآنُ الْمُصَدِّقُ بِالْإِعْجَازِ، أَوِ الدِّينِ الْمُوَافِقُ لِلْعَقْلِ السَّلِيمِ «مِنْ» عِنْدَ «رَبِّكُمْ» اللَّطِيفُ بِكُمْ، الْحَافِظُ لَصَلَاحِكُمْ «فَأَمِنُوا» بِهِ وَبِكِتَابِهِ، يَكُنْ الْإِيمَانُ بِهِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ «خَيْراً لَكُمْ» وَأَحْمَدُ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْكَارِ رِسالته وَكِتَابِهِ «وَإِنْ تَكْفُرُوا» بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَلَا يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً «فَإِنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فَلَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى إِيْمَانِكُمْ، وَلَا يَعْجَزُ عَنْ تَغْذِيْبِكُمْ «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً» بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ وَبِإِيْمَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ وَسِرِّهِمْ «حَكِيماً» فِي مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ تَغْذِيْبِ الْكَافِرِ، وَإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [١٧١]

ثم أنه تعالى بعد دفع شبهات اليهود في نبوة النبي ﷺ، وإنذارهم ودعوتهم إلى الإيمان، صرف الخطاب إلى النصارى بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَقُولُوا﴾ ولا تتجاوزوا عن حدود العقل ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ بالإفراط في شأن عيسى عليه السلام، وأدعاء ألوهيته، أو نبوته لله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ قَوْلًا إِلَّا الْحَقَّ﴾ والصواب، من تنزيهه عن الشُّرك والصَّاحبة والوَلَد، ولا تصفوه بالحلول في المسيح أو الاتحاد معه المُستحيلين على الواجب، ولا باتخاذ المسيح وَلَدًا لَعَدَم الحاجة له، وعَدَم السُّنْجِيَةِ بينه تعالى وبين الحادثِ مع لزوم السُّنْجِيَةِ بين الوالد والوَلَد.

ثم بعد نهيهم عن الغلو، أرشدهم إلى القول الوَسط والحق بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ﴾ الذي اسمه ﴿عِيسَى﴾ ونَسَبه أنه ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران هو ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ إليكم لتكميل نفوسكم، وتبليغ شرائعكم ﴿وكلمته﴾ التامة وآيته العظمى التي ﴿أَلْفَاهَا﴾ من عالم القدس والأمر، وأوصلها ﴿إِلَى﴾ رَحِمِ ﴿مَرْيَمَ﴾ الصَّديقة. ولما كان مبدأ وجوده نَفْخَةُ الرُّوح الأمين، وصفه بالروحانية، ونَسَبه إلى نفسه تَشرِيفاً له بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنِّي﴾.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها، فقال: «هي رُوح مخلوقة خلقها الله في آدم وعيسى»^١ وعن الباقر عليه السلام: «رُوحان مخلوقان اختارهما واضطفاهما: رُوح آدم، ورُوح عيسى»^٢. ثم أنه تعالى بعد إثبات عبودية عيسى ورسالته وتَعْظِيمه بأنه كلمته ورُوحه، أمر النصارى بالإيمان بتوحيد الله ورسالة المسيح كسائر الرُّسل بقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الَّذِينَ هُمْ مُبَلَّغُونَ عنه، ومنهم عيسى عليه السلام ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ بِالْجَوهر ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ بالاقانيم، على ما قيل^٣.

﴿انْتَهَوْا﴾ أيها النصارى وارتدعوا عن هذا القول الباطل، فَإِنَّ الانْتِهَاءَ عن التَّثْلِيث يكون ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ من القول بالتَّثْلِيث لأنه كُفْرٌ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بالذات والصفات، مُنَزَّهٌ عن التَّعَدُّد والكثرة. ثم نَزَّهه عن اتِّخَاذ الوَلَد بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ كما ادَّعاه النصارى؛ لأنَّ الوَلَد لا يُمْكِن أن يكون مُلْكًا لوالده، والحال أن الله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلَقًا ومُلْكًا وتصرفًا، لا يخرج من ملكوته عيسى عليه السلام وغيره من المَوجودات، ولا يحتاج إلى وَلَد ومُعِين، إذ بذاته وقُدْرته يُدَبِّر كُلَّ شَيْءٍ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ ﴿وَكَيْلًا﴾ وتدبراً لأمور الكائنات، فَمَنْ يكون له الْغِنَى والقُدْرَةُ غير الْمُتَنَاهِيَيْنِ، يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ صَاحِبَةً ووَلَدًا.

٢. التوحيد: ١٧٢، ٤/ تفسير الصافي ١: ٤٨٤.

١. الكافي ١: ٢/١٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٨٤.

٣. تفسير الرازي ١١: ١١٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٣٠.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ
يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا [١٧٢]

ثم أنه تعالى بعد إثبات عبودية عيسى عليه السلام له بالحجة القاطعة، نبه العالمين بأن عيسى عليه السلام غير مستنكف عن عبوديته، وغير راض بما يقول النصارى في حقه من كونه ثالث ثلاثة، أو ولدًا لله، بقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ ولا يأبى أبدًا عن ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ خاضعًا ﴿لِلَّهِ﴾ وإن استنكف النصارى عنه، بل ﴿وَلَا﴾ يستنكف ﴿الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ والكروبيون الذين هم حول العرش، كجبرئيل وأضرابه، عن أن يكونوا عبيدًا لله، مع كونهم أشد قوة من عيسى، وأعظم خلقه، وأقل حاجة منه، وإن كان عيسى عليه السلام أقرب منزلة وأعلى قدرًا منهم عند الله. فظهر من التفسير الذي ذكرنا أن الاشتدال بالآية على أفضلية الملائكة من الأنبياء - كما نسب إلى المعتزلة - فاسد جدًّا.

زوي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟». قالوا: عيسى، قال: «وأي شيء قلت؟». قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله، قال: «[إنه] ليس بعابر أن يكون عبدًا لله». فنزلت الآية^١.

ثم هدّد الله تعالى المستنكفين عن عبادته بقوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ ويتأنّف ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وطاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ويرتفع عنها ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ من القبور ويشوقهم ﴿إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾ لا يشد منهم [أحدًا].

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [١٧٣]

ثم بشر المقرّين بتوحيده وعبوديته بالثواب وزيادة التفضل بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برُبوبية الله وعبودية أنفسهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ ويُعطيهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وثواب أعمالهم من غير نقص ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أضعافها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وسعة رحمته.

ثم هدّد سبحانه المستنكفين بالعذاب الشديد بقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا﴾ وتأنّفوا عن عبادة الله ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ وترفعوا عن طاعته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الغاية لا يمكن وصفه ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ﴾ فيها أحدًا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه

﴿وَلَيْتُمْ﴾ يُنَجِّهِم مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ومُعِينًا مُدَافِعًا عَنْهُمْ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا [١٧٤]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا أَبْطَلَ دَعَايَ النَّصَارَى بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، وَالْوَعْدَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَالْوَعْدَ عَلَى الْإِسْتِنكَافِ عَنِ الْعِبُودِيَّةِ، أَعَادَ الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَكَتَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى الْحَقِّ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اللَّطِيفُ بِكُمْ، وَهُوَ الرَّسُولُ الْمُبِينُ لِلْحَقَائِقِ، الْقَاطِعُ لِلْأَعْذَارِ.

وقيل: هُوَ الْمُعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ^١.

﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ مِنَ السَّمَاءِ ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لِهَدَايَتِكُمْ ﴿نُورًا مُبِينًا﴾ وَقَرَأْنَا مُوضَّحًا لِلْعُلُومِ، كَاشِفًا طَرِيقَ الْهَدَايَةِ، وَمُزِيلًا لظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْغَوَايَةِ، فَمَا بَقِيَ لَكُمْ فِي الْإِنْجِرَافِ عَنِ الْحَقِّ وَتَرْكِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ عُدْرٌ.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصِمُوا بِهِ فَنَسِيذُ خُلُوفِهِمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [١٧٥]

ثُمَّ رَغِبَ النَّاسُ فِي قَبُولِ دِينِ الْحَقِّ وَالْإِتِمَارِ بِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ وَأَقْرَبُوا بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِهِ﴾ فِي أَنْ يَحْفَظَهُمْ مِنَ الزَّلَّاتِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ بِتَوْفِيقِهِ ﴿فَنَسِيذُ خُلُوفِهِمْ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَيُّ فِي الْجَنَّةِ^٢.

﴿وَفَضْلٍ﴾ هُوَ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَيْهِ﴾ وَإِلَى مَقَامِ قَرْبِهِ ﴿صِرَاطًا﴾ وَطَرِيقًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ مُوَصِّلًا.

عَنِ الثَّقَفِيِّ رحمته الله: الثُّورُ: إِمَامَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَالْإِعْتِصَامُ: التَّمَسُّكُ بِوَلَايَتِهِ وَوَلَايَةِ الْأَنْمَةِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ^٣.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: عَلِيٌّ عليه السلام»^٤، وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ (الصِّرَاطِ) فِي الْفَاتِحَةِ.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٢: ٣٣٣.

٢. تفسير الرازي ١١: ١٢٠، تفسير أبي السعود ٢: ٢٦٣.

٣. تفسير القمي ١: ١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٨٦.

٤. تفسير العياشي ١: ١١٥٣/٤٥٧، تفسير الصافي ١: ٤٨٦.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفَيِّدُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ آمَرُوا مَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً وَجَالًا فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [١٧٦]

نسي بيان إرث الأخوة والأخوات
ختم السورة بما بدأ به من حقوق الناس التي منها إرث الإخوان والأخوات من الأب، من قبل الأب أو الأوين
بقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا رسول الله [الله] عن حكم إرث الإخوة والأخوات ﴿قُلِ اللَّهُ يُفَيِّدُكُمْ﴾ ويبيِّن لكم الحكم ﴿فِي الْكَلَالَةِ﴾ والقرابة التي لا تكون بوالد ولا ولد.

رؤي أن جابر بن عبد الله كان مريضاً، فعاده رسول الله ﷺ، فقال: إني كلاله - أي لا يخلفني والد ولا ولد - فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت^١.

﴿إِنْ آمَرُوا مَلَكَ﴾ ورَجُل مات، وكان مِمَّنْ ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وإن نزل ﴿وَلَهُ﴾ من الوارث القريب ﴿أُخْتٌ﴾ واحدة من قِبَلِ الأب، سواء كانت من قِبَلِ الأم أيضاً أم لا، لِذَكَرَهُ تعالى حُكْمُ كَلَالَةِ الأم في أول السورة ﴿فَلَهَا﴾ بالفرض ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ المِيت من الأموال والحقوق، والنِّصْف الآخر بالرُّدِّ إن لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ.

ثم بيَّن حُكْمَ إرث الأخ من الأخت بقوله: ﴿وَهُوَ يَرِيهَا﴾ جميع مالها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وإن نزل، ولا زوج ولا غيره من الإخوة والأخوات، وإلا فللزَّوج نصيبه الأعلى، وللإخوة من الأم نصيبهم، والباقي للأخ من الأب والأم، وإن لَمْ يَكُنْ فللأخ من الأب وحده.

ثم بيَّن حُكْمَ إرث الأختين فصاعداً من الأب بقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ أو كُنَّ أَكْثَرَ ﴿فَلَهُمَا﴾ أولهنَّ جميعاً ﴿الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ المِيت أحياناً كان أو أختاً، يُقَسَّمُ بَيْنَهُنَّ بالسوية، والباقي لهنَّ بالرُّدِّ، إن لَمْ يَكُنْ معهنَّ زَوْجٌ أو زَوْجَةٌ أو كَلَالَةُ الأم.

ثم بيَّن حُكْمَ اجتماع الأخ والأخت في الإرث بقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً﴾ مختلفين^٢ ﴿وَرِجَالًا وَنِسَاءً﴾ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ.

عن الباقر عليه السلام: «إذا مات الرَّجُل وله أخت، تأخذ نِصْفَ الميراث^٣ بالآية، كما تأخذ البنت لو كانت، والنِّصْف الباقي يُرَدُّ عليها بالرَّجْم، إذا لَمْ يَكُنْ للمِيت وارث أقرب منها، فإن كان موضع الأخت أخ،

٢. في النسخة: مختلفة.

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٣٤.

٣. في تفسير القمي: تأخذ نصف ما ترك من الميراث، لها نصف الميراث.

أخذ الميراث كله بالآية، لقول الله: ﴿وَهُوَ يَرْتُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وإن كانتا أختين، أخذتا الثلثين بالآية، والثلث الباقي بالرحم، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً، فللذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك كله إذا لم يكن [للमित] ولد، أو أبوان، أو زوجة^١.

ثم من سبحانه وتعالى على الناس بقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ المعارف والأحكام بالبيان الواضح، كراهة ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ عن الحق ﴿وَأَنَّ يَكُلَّ شَيْءٌ﴾ من الأشياء، ومصالح الأحكام ﴿عَلَيْكُمْ﴾ خبير. قيل: هذه الآية آخر آية نزلت في الأحكام^٢، وسميت بآية الصيف، لأنها نزلت بالصيف، وآية الكلاله في أول السورة نزلت بالشتاء^٣.

[وجه نظم المائدة ومن لطائف هذه السورة المباركة أن الله بدأ فيها ببيان كمال قدرته بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^٤، وختمها ببيان كمال علمه بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٥. بعد النساء]

وهذان الوصفان مرجع جميع صفاته تعالى، ومثبت ألوهيته وربوبيته الموجبتين لكمال طاعته والانقياد له على العبد، ولذا ردّفها بسورة المائدة، المبدأ فيها بالأمر بطاعة جميع أحكامه التي هي عقود الله وعهوده إلى عياده، مضافاً إلى تصدر السورتين بالخطاب الشفاهي مع تقدّم عائمه وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ على خاصّة وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^٦ واشتمال سورتي البقرة وآل عمران على عمّد أحكام العبادات، وسورة النساء على مهمّات حقوق الناس، وسورة المائدة على كثير من أحكام الأطعمة والأشربة، واشتمال السور الثلاثة السابقة على حاجة أهل الكتاب، وهذه السورة على نتيجة الحاجة من إيمان بعضهم كالتجاشي.

وفي السور السابقة بيان الدّين، وفي هذه السورة البشارة بتكميله، وفي النساء بيان حكم الوصية، وفي هذه السورة بيان كيفية إثباتها، إلى غير ذلك من الوجوه التي اقتضى حسن النظم ذكر المائدة بعد النساء، فابتدأ فيها تيمناً وتعليماً للعباد بذكر: بسم الله الرحمن الرحيم.

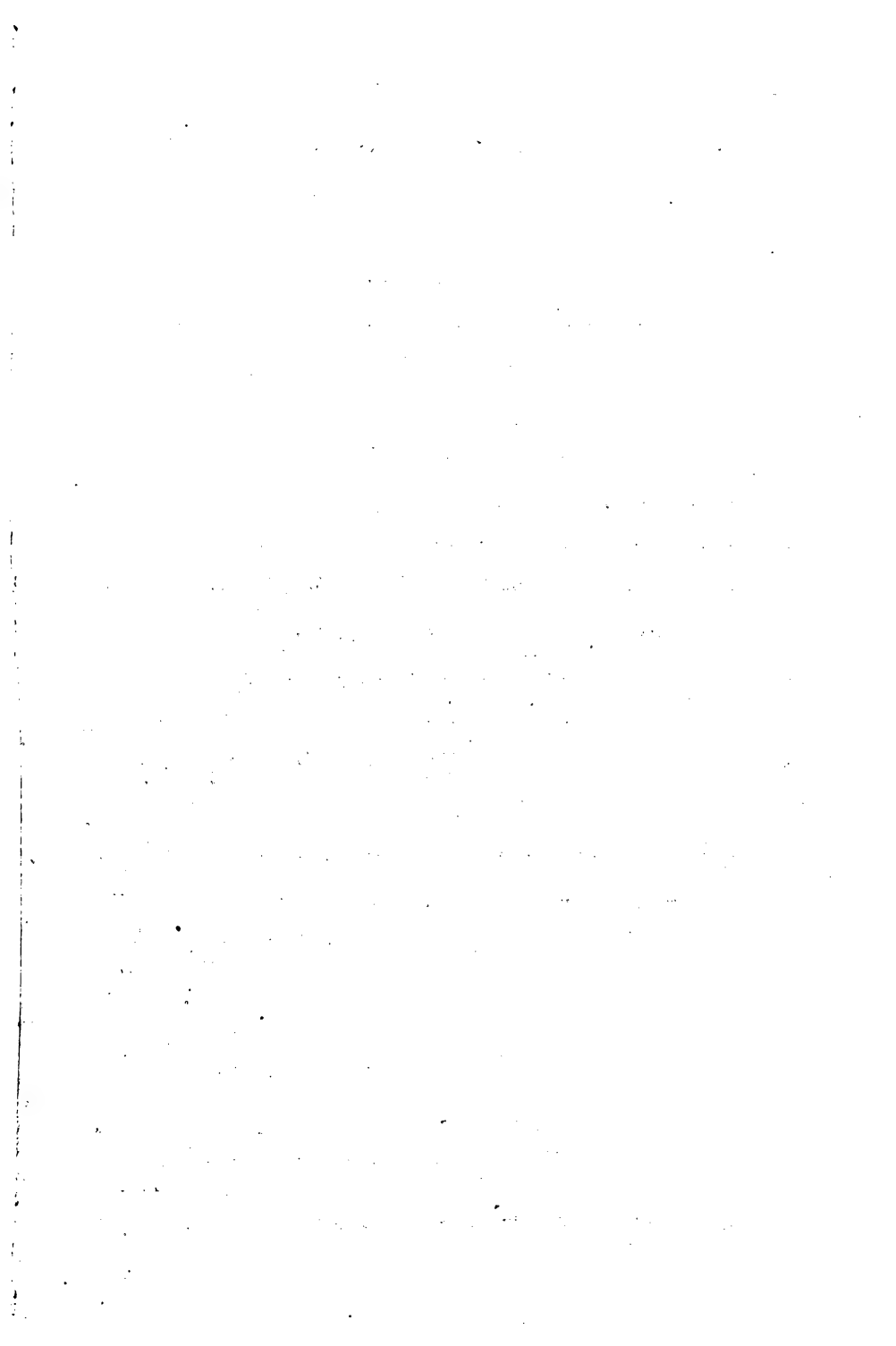
١. تفسير القمي ١: ١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٨٦، وفي النسخة: ولد وأبوان وزوجة.

٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٥١.

٣. مجمع البيان ٣: ٢٢٩. وفيه: أن الله تعالى أنزل في الكلاله آيتين: إحداهما في الشتاء، وهي التي في أول هذه

السورة، وأخرى في الصيف، وهي هذه الآية. ٤. النساء: ١/٤. ٥. الأنعام: ١٠١/٦.

٦. المائدة: ١/٥.



في تفسير سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
غَيْرَ مُجْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [١]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد سبق تفسيره في سورة الفاتحة.

نسي دلالة آية: ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْأَنْقِيَادُ لأحكام الله وَالْوَفَاءُ بعهوده من لَوَازِمِ الْإِيمَانِ، وشاقاً على الطَّبَاعِ،
﴿أوفوا بالعقود﴾ خاطب أهل الإيمان على وَجْهِ الْمُشَافَهَةِ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صَمِيماً
على لزوم كل عقد

وحقيقةً بتوحيد الله وكَمَالِ صِفَاتِهِ، ورسالة رُسُولِهِ وأحكام دينه ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾
والتزيموا بالعمل بالعهود الموثقة التي يَبْنِيكُمْ وَبَيِّنُ رَبَّكُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ وَوَجَائِبَاتِهِ وَمُحَرَّمَاتِهِ، أو يَبَيِّنُ
غيركم من العباد كعقود المعاملات، أو يَبَيِّنُ أَنْفُسَكُمْ كَالْإِقَاعَاتِ مِنَ الطَّلَاقِ وَالتَّحْرِيرِ وَالْإِبْرَاءِ وَالنَّذْرِ
وَالْعَهْدِ وَالْيَمِينِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ خُصُوصَ مَا يَعْقِدُ النَّاسُ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ، وَمِنْ الْوَفَاءِ الْقِيَامُ بِمُقْتَضَاهُ مِنَ الْلُزُومِ
وَالْجَوَازِ، فَإِنْ كَانَ لَازِمَ الْعَمَلِ عَمَلٌ بِلُزُومِهِ، وَإِنْ كَانَ جَائِزَ الْعَمَلِ عَمَلٌ بِجَوَازِهِ.

أَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مِنْ تَخْصِيصِهِ بِخُصُوصِ الْمُعَامَلَاتِ، فمخِلَافُ الظَّاهِرِ. وَأَمَّا الثَّانِي، ففَاسِدٌ جَدًّا؛ لِأَنَّ
الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ هُوَ الْعَمَلُ بِمَضْمُونِهِ، وَلِزُومِ الْعَهْدِ وَجَوَازِهِ لَيْسَ مِنْ مَدْلُولِهِ، بَلْ هُمَا حُكْمَانِ شَرْعِيَانِ فِي
مَوْضِعِ الْعَهْدِ.

فعلى ما ذَكَرْنَا لَا إِجْمَالُ فِي الْآيَةِ، كَمَا ادَّعَاهُ الْفَاضِلُ الْمِقْدَادُ^(١)، وَتَبِعَهُ بَعْضُ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ، بَلْ
عُمُومُهَا مَثْبُتٌ بِلُزُومِ كُلِّ عَقْدٍ حَتَّى يَثْبُتَ بِالْذَّلِيلِ جَوَازُهُ وَالْخِيَارُ فِيهِ.

وعن الْقَسَمِيِّ^(٢): عَنْ الْجَوَادِ^(٣): «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَقَدَ عَلَيْهِمْ لَعْنُ^(٤) [بِالْخِلَافَةِ] فِي عَشْرَةِ
مَوَاطِنَ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الَّتِي عَقِدْتُمْ عَلَيْكُمْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ

الله عليه^١.

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ بِاطَاعَةِ أَحْكَامِهِ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ، شَرَعَ فِي تَفْصِيلِهِ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مَا يَجِلُّ وَمَا يَحْرُمُ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ﴾ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ ﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، أَهْلِئِهَا وَوَحْشِيَّهَا.

وعن الباقر عليه السلام: «هِيَ الْأَجِئَةُ الَّتِي فِي بَطْنِ الْأَنْعَامِ، وَقَدْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَأْمُرُ بِبَيْعِ الْأَجِئَةِ^٢.
وعن أحدهما عليه السلام، فِي تَفْسِيرِهَا: «الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا أَشْعَرَ وَأَوْبَرَ، فَذَكَاتُهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ»^٣.
وزَادَ فِي (الْكَافِي) وَ(الْقَمِّي): «فَذَلِكَ الَّذِي عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^٤.
وَفِي رِوَايَةٍ: «وَأَنْ لَمْ يَكُنْ تَامًا فَلَا تَأْكُلُهُ»^٥.

وقيل: إِضَافَةُ الْبَهِيمَةِ إِلَى الْأَنْعَامِ بَيَانِيَّةٌ، وَالْمُرَادُ: عُمُومُ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ^٦.
وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام شَتَلَ عَنْ أَكْلِ لَحْمِ الْفِيلِ وَالذَّبِّ وَالْقِرْزِدِ، فَقَالَ: لَيْسَ هَذَا مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي تُؤْكَلُ»^٧.

ثُمَّ اسْتَشْنَى عَنْ عُمُومِ الْجَلِّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا يُثَلَّى﴾ وَبَقَرَا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فِيمَا بَعْدَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ»^٨، ثُمَّ خَصَّ الْجِلَّ مِنَ الْوَحْشِيِّ بِكُؤُنُكُمْ ﴿غَيْرِ سَحْلَى الصَّيِّدِ﴾ وَمُقْتَضِيهِ ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ مُتَلَبِّسُونَ بِأَحْرَامِ الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكُمْ الصَّيْدُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ.
ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَجَالُ تَوْهُمٍ عَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ حَالِ الْإِحْرَامِ وَالْإِحْلَالِ، وَبَيْنَ الصَّيْدِ وَغَيْرِهِ، دَفَعَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصُمُ مَا يُرِيدُ﴾ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ الَّتِي لَا تَبْلُغُهَا الْعُقُولُ، فَعَلَيْكُمْ التَّسْلِيمُ وَالْإِثْبَادُ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقُلُودَ وَلَا أُمِينَ الْأَنْبِيَاءِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ
فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاةُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ
تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمِ وَالْتَّقَوْا وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَتَّقُوا

١. تفسير القمي ٢: ١٦٠، تفسير الصافي ٢: ٥.

٢. تفسير العياشي ٢: ١١٦٩/٥، تفسير الصافي ٢: ٦.

٣. تفسير العياشي ٢: ١١٧٠/٥، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ٥.

٤. تفسير القمي ١: ١٦٠، الكافي ٦: ١/٢٣٤، تفسير الصافي ٢: ٦.

٥. الكافي ٦: ٢/٢٣٤، تفسير الصافي ٢: ٦.

٦. تفسير البيضاوي ١: ٢٥٣، تفسير روح البيان ٢: ٣٣٧.

٧. تفسير العياشي ٢: ١١٧١/٥، تفسير الصافي ٢: ٦.

٨. المائدة: ٣/٥.

اللهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [٢]

ثم لما حرم الله الصيد في حال الإحرام، أكد ذلك بالنهي عن التهاون بأحكامه ومحرّماته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجَلَوْا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ولا تَجَلَوْا بشيءٍ من أحكامه التي يكون الالتزام بها علامة الإيمان وأهله وشعاراً للمسلم. أو المراد: لا تتهاونوا بشيءٍ مما حرم الله عليكم حال الإحرام أو شيءٍ من مناسك الحجّ.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن المشركين كانوا يحجون البيت، ويهدون الهدايا، ويعظمون المشاعر، وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فأنزل الله: ﴿لَا تَجَلَوْا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾^١. قيل: كانت العرب لا يزون الصفا والمروة من شعائر الحجّ، ولا يطوفون بهما، فأنزل الله: لا تستجلّوا ترك شيءٍ من مناسك الحجّ^٢.

﴿وَلَا﴾ تستجلّوا ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتل والغارة فيه.

عن الباقر عليه السلام: «نزلت في رجلٍ من بني ربيعة يقال له الحطيم»^٣.

في قضية شرح وقيل: اسمه شريح بن ضبيعة البكري، أتى المدينة من اليمامة وخلف خيله خارج المدينة، ودخل وحده على النبي صلى الله عليه وآله فقال له: إلام تدعو الناس؟ فقال: «إلى شهادة ر» أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة»، فقال: حسن، إلا أن لي أمراً لا أقطع أمراً دونهم لعلّي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: «يدخل عليكم رجلٌ من ربيعة يتكلم بلسان الشيطان»^٤.

ثم خرج شريح من عنده فقال صلى الله عليه وآله: «لقد دخل بوجه كافر، وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم»، فمرّ بسرح^٥ المدينة فاستاقه فأطلق، فتبعوه فلم يدركوه، فلما كان العام المقبل خرج حاجاً في حجاج بني بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلّدوا الهدّي، فقال المسلمون للنبي صلى الله عليه وآله، هذا الحطيم قد خرج حاجاً، فحلّ بيننا وبينه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنه قد قلّد الهدّي»، فقالوا: يا رسول الله، هذا شيءٌ كنّا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي صلى الله عليه وآله. فأنزل الله تعالى هذه الآية^٦.

﴿وَلَا﴾ تستجلّوا ﴿الْهَدْيَ﴾ الذي يهدى إلى الكعبة بقضبه، أو بمنعه من بلوغ محله ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ التي تقلّد بها الهدّي. وفيه مبالغة في النهي عن التعرّض لذوات القلائد من الهدّي، وتخصيصها

١. ٢. تفسير الرازي ١١: ١٢٨.

٣. مجمع البيان ٣: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٦، وفيهما: الحطم، بدل الحطيم.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٣٨.

٥. الشرح: الماشية تسرح في الأرض.

٦. في تفسير روح البيان: الخطيم.

٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٣٨.

بالذِّكْر مع كَوْنِهَا داخله في الهَدْي لكَوْنِهَا أَشْرَفُ الهَدْي.

﴿وَلَا تَسْتَجِلُّوا﴾ **أَمِينَ التَّيْتِ الْحَرَامِ** وقاصدي زيارته، حَال كَوْنِهِمْ لَا يَقْضِدُونَ بِزِيَارَتِهِمُ الْكَعْبَةَ قِتَالَكُمْ وَغَدْرَكُمْ، بَلْ **يَبْتَغُونَ** وَيَطْلُبُونَ بِسَفَرِ الزِّيَارَةِ **فَضْلًا** وَثَوَابًا، أَوْ رِنَجَ تِجَارَةٍ **مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا** مِنْهُ بِاغْتِقَادِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ لَا يَنَالُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَكُونُ لَهُمْ بِبِرْكَةِ هَذَا الْقَضْدِ وَهَذَا السَّفَرِ نَوْعٌ مِنَ الْحُرْمَةِ.

عن ابن عباس: أَنَّهُ مَسْوُوحٌ بِقَوْلِهِ: **﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾**^١.

وَرُوي أَنَّهُ لَمْ يَسْخَرْ مِنَ الْمَانِدَةِ حُكْمٌ^٢. وَعَلَيْهِ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الرُّادَّ مِنَ الْآمِنِ خُصُوصَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ يُقَالُ: لَا تَنَافِي بَيْنَ مَنَعِهِمْ مِنْ قُرْبِ الْمَسْجِدِ، وَعَدَمِ جَلِيَّةِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْفَارَةِ. ثُمَّ لَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْ تَحْلِيلِ الصَّيْدِ حَالَ الْإِحْرَامِ، صَرَّحَ بِجَوَازِهِ بَعْدَ التَّحْلِيلِ بِقَوْلِهِ: **﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾** مِنَ الْإِحْرَامِ وَخَرَجْتُمْ مِنْهُ **﴿فَاصْطَلُّوا﴾** بَعْدَ لَزْوَالِ الْمَانِعِ.

ثُمَّ بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ التَّعَدِّيِّ عَلَى الْكُفَّارِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرْمِ بِالْقَتْلِ وَالْفَارَةِ، وَعَنِ اسْتِحْلَالِ قَاصِدِي زِيَارَةِ الْبَيْتِ، صَرَّحَ بِأَنَّ تَعَدِّيَ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحَرْمِ لَا يُوجِبُ جَوَازَ التَّعَدِّيِّ عَلَيْهِمْ فِيهَا، بِقَوْلِهِ: **﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾** أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَلَا يَحِيلَنَّكُمْ **﴿شَنَّانُ قَوْمٍ﴾** مِنَ الْكُفَّارِ، وَشِدَّةَ عَدَاوَتِكُمْ لَهُمْ لِأَجْلِ **﴿أَنْ صَدَّوْكُمْ﴾** وَمَنْعُوكُمْ **﴿عَنْ﴾** دُخُولِ **﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** وَزِيَارَتِهِ وَطَوَافِهِ لِلْعُمْرَةِ عَامَ الْحَدِيثِيَّةِ عَلَى **﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾** وَتَجَوَّزُوا عَلَيْهِمْ انْتِقَامًا مِنْهُمْ وَتَشَفِيًا.

ثُمَّ بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ التَّعَدِّيِّ، أَمَرَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ، وَنَهَى عَنِ مُعَاوَنَةِ الْمُتَعَدِّيِّ أَيْضًا بِقَوْلِهِ: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى﴾** عَمَلِ **﴿الْبِرِّ﴾** وَالْخَيْرِ؛ وَهُوَ الْعَفْوُ **﴿وَوُ﴾** فِعْلُ **﴿التَّقْوَى﴾** وَهُوَ إِطَاعَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ **﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾** وَلَا تَعَاوَدُوا **﴿عَلَى الْإِثْمِ﴾** وَعَصِيَانِ اللَّهِ، **﴿وَوُ﴾** لَا **﴿الْعُدْوَانَ﴾** وَالظُّلْمَ عَلَى الْغَيْرِ لِلتَّشَفِيِّ وَالْإِنْتِقَامِ.

ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِالتَّعَاوُنِ عَلَى التَّقْوَى بِقَوْلِهِ: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** وَلَا تَسْتَجِلُّوا شَيْئًا مِنْ مَحَارِمِهِ. ثُمَّ هَدَّدَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ بِقَوْلِهِ: **﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** بِحَيْثُ لَا يُطِيقُ أَحَدُ الصَّبْرِ عَلَيْهِ فَخَافُوا - فِي مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ وَتَرْكِ التَّقْوَى - عِقَابَهُ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ

١. مجمع البيان ٣: ٢٣٩، والآية من سورة التوبة: ٢٨/٩.

٢. مجمع البيان ٣: ٢٣٩، تفسير الصافي ٢: ٧.

وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فَنَى أَلْيَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ
فَأِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٢]

جمله من المأكولات المحرمة ثم تلا سبحانه ما استثناء - من تحليل عموم أجزاء بهيمة الأنعام بقوله في الآية الأولى: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ - بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون من قبل الله أشياء:

أحدها: ﴿الْمَيْتَةُ﴾ وما زهق روحه من كل حيوان بحتف أنفه، أو بغير التذكية الشرعية؛ لأن في أكله مضار عظيمة، لتعفن الدماء المحتبس في عروقه.

﴿و﴾ الثانية: ﴿الدَّمُّ﴾ غير المتخلف في الذبيحة، سمي بالمسفوح.

﴿و﴾ الثالثة: ﴿لَحْمُ الْخَنَزِيرِ﴾ لأن الخنزير مطبوع على الجِرْص والشهوة، والإنسان يتخلق بأخلاق الحيوان الذي تصير أجزاؤه جزءاً من بدنه.

قيل: إنما خصه بالذكر من بين سائر الحيوانات المحرمة؛ لأن العرب كانوا يعتادون أكله^١.

﴿و﴾ الرابع: ﴿مَا أَهْلٌ لغيرِ الله به﴾ وهو المذبوح الذي رفع الصوت عند ذبحه باسم الأصنام. وعن الباقر (عليه السلام): «يعني ما ذبح للأصنام»^٢.

﴿و﴾ الخامسة: ﴿الْمُنْحَقَّةُ﴾ وهي الحيوان الذي يُعَصَّر حلقه حتى يموت.

﴿و﴾ السادسة: ﴿الْمَوْقُودَةُ﴾ وهي الحيوان الذي يُضْرَب حتى يموت.

﴿و﴾ السابعة: ﴿الْمُتَرَدِّيةُ﴾ وهي الحيوان الذي يموت بالسقوط من شاق.

﴿و﴾ الثامنة: ﴿النَّطِيحَةُ﴾ وهي الحيوان الذي يموت بالمناطحة.

﴿و﴾ التاسعة: ﴿مَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ منه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إياه وطهرتموه بما جعله الله له تطهيراً من الخمر أو الذنب.

عن الرضا (عليه السلام): «المتردة، والنطحة، وما أكل السبع، إذا أدركت ذكاته فكله»^٣.

وعن الباقر والصادق (عليهما السلام): «أن أدنى ما يدرك به الذكاة أن تدركه وهو يحرك أذنه وذنبه، أو تطرف عينيه»^٤.

١. تفسير الصافي ٢: ٧. ٢. الخصال: ٥٧/٤٥١، تفسير الصافي ٢: ٧.

٣. تفسير العباسي ٢: ١١٧٦/٨، تفسير الصافي ٢: ٩. ٤. مجمع البيان ٣: ٢٤٤، تفسير الصافي ٢: ٩.

وعن الصادق عليه السلام: «في كتاب علي: إذا طرقت العين أو ركضت الرجل، أو تحرك الذئب، فكل منه، فقد أدركت ذكاته»^١.

في معنى الاستقام **﴿وَالْعَاشِرُ: ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾** وفوق الأحجار التي [هي] منصوبة حول البيت، وكان المشركون يذبحون القرابين عليها **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا﴾** وتطلبوا معرفة النصيب **﴿بِالْأَزْلَامِ﴾** والأقداح.

عن الباقر عليه السلام: «أما المنخقة، فإن المجوس كانوا لا يأكلون الذبائح ويأكلون الميتة، وكانوا يخفون البقر والغنم فإذا انخفت وماتت أكلوها. والموقوذة كانوا يشدون أرجلها ويضربونها حتى تموت، فإذا ماتت أكلوها. والصلحية كانوا يئاطحون بالكباش^٢، فإذا مات أحدهما أكلوه، **﴿وَمَا أَكَلَ السَّيِّئُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾** فكانوا يأكلون ما يأكله^٣ الذئب والأسد، فحرم الله ذلك، **﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾** كانوا يذبحون لبيوت الثيران، وقریش كانوا يعبدون الشجر والصخر فيذبحون لها»^٤.

وعن الجواد عليه السلام، في رواية قال: «كانوا في الجاهلية يشترون بعيراً فيما بين عشرة ... فمن خرج باسمه سهم [من التي] لا أنصباء لها ألزم ثلث ثمن البعير، فلا يزالون كذلك حتى تقع السهام الثلاثة التي لا أنصباء لها إلى ثلاثة منهم فيلزمونهم ثمن البعير، ثم ينحرونه، ويأكله السبعة الذين لم ينقدوا في ثمنه شيئاً، ولا يطعمون منه الثلاثة الذين وفروا ثمنه شيئاً، فلما جاء الإسلام حرم الله تعالى ذكره ذلك فيما حرم، فقال عز وجل: **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾**، **﴿ذَلِكُمْ فُسْقٌ﴾** يعني حرام»^٥.

قيل: إنما سمي الله الاشتقسام بالأزلام فسقاً؛ لأنه طلب معرفة الغيب، مع أنه مختص بالله تعالى^٦. عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من تكهن أو اشتقسم أو تطير طيرة تردّه عن سفره، لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة»^٧.

وقيل: إن العرب كانوا يجبلون تلك الأزلام عند الأصنام، ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام فيأرشاد الأصنام وإعانتهم^٨.

ثم أنه تعالى بعد بيان غالب أحكام دينه، وأمره بنصب أمير المؤمنين عليه السلام علماً وخليفة في المسلمين، وظهور قوة الإسلام، بشر المسلمين بخذلان الكفار بقوله: **﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** والآن انقطع طمئنتهم **﴿مِنْ﴾** توهين **﴿وَيُنْكِرُ﴾** وغلبتهم عليكم، ومن إضلالكم وانصرافكم عن

١. في النسخة: بالكباش.

٢. الكافي ٦: ٢٣٢/٣، تفسير الصافي ٢: ٩.

٣. الخصال: ٥٧/٤٥١، تفسير الصافي ٢: ٧.

٤. في الخصال: ما يقتله.

٥. تفسير الرازي ١١: ١٣٦.

٦. التهذيب ٩: ٣٥٤/٨٣، تفسير الصافي ٢: ٨.

٧ و ٨. تفسير الرازي ١١: ١٣٦.

التوحيد ورجوعكم إلى الشُّرك ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ من أن يغلبوكم، ويمنعوكم من العمل بأحكام دينكم بعد اليوم ﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ فقط في ترك طاعتي ومخالفة شريعتي أن تحل بكم عقوبتي.

ثم بشرهم سبحانه بعد تعليمهم مناسك الحج، وتزيفهم الحجة البالغة عليهم بعد نبيهم ﷺ بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنص على جميع المعارف، وعمد الأحكام، والدلالة على باب العلم ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بإتمام الدين ﴿وَنِعْمَتِي﴾ وفضلِي ورحمتي ﴿وَوَضِيتُ﴾ واخترت ﴿لَكُمْ الْإِسْلَامَ﴾ الذي هو دين الله ودين ملائكته ﴿وَدِينًا﴾.

عن (المجمع): عنهما ﷺ: «إِنَّمَا نَزَلَ بَعْدَ أَنْ نَصَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَمًا لِلْإِسْلَامِ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ» قالا: «وهي آخر فريضة أنزلها الله، ثم لم تنزل فريضة بعدها»^١.

وعن الباقر ﷺ: «الْفَرِيضَةُ تَنْزِلُ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ الْأُخْرَى، وَكَانَتِ الْوَلَايَةُ آخِرَ الْفَرَائِضِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، قَالَ [الله عز وجل]: لَا أَنْزِلُ بَعْدَ هَذِهِ فَرِيضَةً، قَدْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ الْفَرَائِضَ»^٢.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ الْبَكْيِ عُمَرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟» قَالَ: أَبْكِيَانِي أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَإِذَا اكْتَمَلَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمُلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ، قَالَ: «صَدَقْتَ»، فَكَانَتْ هَذِهِ آيَةُ تَنْعِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وعاش بعدها أحدًا وثمانين يوماً، ومات يوم الاثنين^٣.

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حُرْمَةِ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَطْعِمَةِ - وَالْفَضْلِ بِالْجُمْلَةِ الْاِغْتِرَاضِيَةِ لِلتَّأْكِيدِ وَالتَّبْشِيرِ - عَادَ إِلَى بَيَانِ حُكْمِ الْأَضْطِرَّارِ إِلَى تَنَاوُلِهَا، بقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَذْكُورَةِ ﴿فِي﴾ حَالِ «مَخْصَصَةٍ» وَمَجَاعَةٍ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهَا الْهَلَاكَ أَوْ الضَّرَرَ، فَلْيَتَنَاوَلْ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَكْلِهِ «غَيْرُ مُتَجَانِفٍ» وَمُتَعَمِّدٍ «لِإِثْمٍ» بِأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ حَدِّ الْأَضْطِرَّارِ «فَإِنَّ اللَّهَ عَقُورٌ» غَيْرُ مُوَاضِعٍ «رَحِيمٌ» بِهِ بَرَّخِيصَهُ فِي الْأَكْلِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ
مَكْلِبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [٤]

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حُرْمَةِ جُمْلَةٍ مِنَ الْمَطْعُمَاتِ، حَكَى سُؤَالَ النَّاسِ عَنْ مُحَلَّلَاتِهَا بقوله:

٢. الكافي ١: ٢٢٩/٤، تفسير الصافي ٢: ١٠.

١. مجمع البيان ٣: ٢٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٠.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٤٣.

﴿يَسْتَفْلُوْنَكَ﴾ يا محمد، عن أنه ﴿مَاذَا أَجَلَ لَهُمْ﴾ من المطاعيم؟ وما الذي رُخص لهم في أكله؟ ثم أمر بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ للسانين: ﴿أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ وكل ما لا تستخيه الطباع السليمة، أو [كل ما] يستلذ منه ذؤو المروءات، كما قيل^١.

وقيل: إن العرب في الجاهلية كانوا يحرمون أشياء من الطيبات كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، مع حكمهم بكونها طيبة^٢، فرد الله عليهم بترخيصه في أكلها.

ويمكن أن يكون المراد ما لا ضرر في أكله في نظر الشارع. وعليه تكون مجملة محتاجة إلى البيان. ثم نص سبحانه على حلية قسم خاص منها، للاهتمام بالتنبيه عليه بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ قيل: إن التقدير: صيد ما علمتم^٣ ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ والكواسب من السباع والطير، حال كونهن ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ ومؤدبين الاضطياد^٤.

قيل: سمي تأديب الجوارح تكليفاً، لكثرة كون التأديب في الكلاب^٥. ثم أكد سبحانه اشتراط حل صيدهن بالتأديب، بقوله: ﴿تَعْلُمُوْنَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وألهمكم به من طرق التأديب.

عن الصادق عليه السلام، قال: «في كتاب علي عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: هي الكلاب^٦.

وقيل: إن ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾^٧. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾ من الحيوانات ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لا على أنفسهن. قيل: أدبهن: أرباعهن الصيد بإرسال صاحبهن، وإنزجارهن بجزره، وإنصرافهن بدعائه، وإمساكنهن عليه الصيد: بأن لا يأكلن منه وإن قتلته^٨.

﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حين إرسالهن. عن القمي عليه السلام: عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن صيد البراة والصقور والفهود والكلاب، قال: «لا، [تأكل] إلا ما ذكيت، إلا الكلاب». قيل: فإنه قتله؟ قال: «كل»، فإن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٤٥.

٢. تفسير الرازي ١١: ١٤٢.

٣. كذا، والظاهر من التفاسير: حال كونكم مكليين ومؤدبين للاضطياد.

٤. الكافي ٦: ١٢٠٢، التهذيب ٩: ٨٨/٢٢، تفسير الصافي ٢: ١١.

٥. تفسير الرازي ١١: ١٤٣.

٦. تفسير أبي السعود ٣: ٨.

٧. تفسير أبي السعود ٣: ٨.

مُكَلِّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ^١».

ثم قال ﷺ: «كُلْ شَيْءٍ مِنَ السَّبَاعِ تُمِيسِكَ الصَّيْدَ عَلَى نَفْسِهَا إِلَّا الْكِلَابَ الْمُعَلَّمَةَ، فَإِنَّهَا تُمِيسِكَ عَلَى صَاحِبِهَا، فَإِذَا أُرْسِلَتْ^٢ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَهُوَ ذَكَاتُهُ^٣».

وعنه ﷺ، وقد سُئِلَ عَنْ إِسْرَالِ الْكَلْبِ وَالصَّغْرِ، فَقَالَ: «أَمَّا الصَّغْرُ فَلَا تَأْكُلُ مِنْ صَيْدِهِ حَتَّى تُدْرِكَ ذَكَاتَهُ، وَأَمَّا الْكَلْبُ فَكُلْ مِنْهُ إِذَا ذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، أَكَلِ الْكَلْبُ مِنْهُ أَوْ لَمْ يَأْكُلْ^٤».

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «مَا قَتَلْتُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ وَذَكَرْتُ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوا مِنْ صَيْدِهِنَّ، وَمَا قَتَلْتُ الْكِلَابَ الَّتِي لَمْ تَعْلَمُوها مِنْ قَبْلِ، أَنْ تُدْرِكَهُ فَلَا تَطْعَمُوهُ^٥».

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ لَعْدِي بْنُ حَاتِمٍ: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ^٦».

وَفِي رِوَايَةٍ: «وَأَنْ أَكُلَ فَلَا تَأْكُلْ، إِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ^٧».

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْمَطَاعِمُ مَزَلَةً لِلشَّيْطَانِ، أَكَّدَ اللَّهُ شَبْحَانَهُ التَّكْلِيفِ التَّحْرِيمِيَّةِ وَالتَّحْلِيلِيَّةِ الْمَذْكُورَةَ بِأَمْرِهِ بِالتَّقْوَى يَقُولُهُ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» وَاحْذَرُوا مُخَالَفَةَ أَحْكَامِهِ. ثُمَّ هَدَّدَ عَلَى الْمُخَالَفَةِ يَقُولُهُ: «إِنَّ اللَّهَ فِي الْآخِرَةِ سَرِيعُ الْحِسَابِ» لِأَعْمَالِكُمْ، فَيُؤَاخِذُكُمْ عَلَى مَعَاصِيكُمْ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ.

أَلْيَوْمَ أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ جُلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ [٥]

ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ شَبْحَانَهُ عَلَى الْعِبَادِ بِتَسْهِيلِ أَحْكَامِهِ فِي الْمَأْكُولَاتِ يَقُولُهُ: «أَلْيَوْمَ أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ» وَالْآنَ رَخَّصَ لَكُمْ فِي أَكْلِ الْمُسْتَلَذَاتِ جَمِيعَهَا - وَقَدْ مَرَّتِ الرُّجُوعُ فِي تَفْسِيرِهَا^٨ - «وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى «جُلٌّ لَكُمْ».

[عَنِ الْقَسَمِيِّ ﷺ: عَنْ بَطْعَانِهِمْ هُنَا: الْحُبُوبُ وَالْقَوَاكِي، غَيْرِ الذَّبَائِحِ الَّتِي يَذْبَحُونَهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ

٢. فِي الْمَصْدَرِ: قَالَ: إِذَا أُرْسِلَتِ الْكَلْبُ الْمُعَلَّمُ.

٤. الْكَافِي ٦: ٣٧٢٠٧، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١١.

٦. تَفْسِيرُ الرَّازِي ١١: ١٤٤.

٨. فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

١. تَفْسِيرُ الْقَسَمِيِّ ١: ١٦٢، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١١.

٣. تَفْسِيرُ الْقَسَمِيِّ ٢: ١٦٢، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١١.

٥. الْكَافِي ٦: ٥٢٠٣، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١١.

٧. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعْدِ ٣: ٨.

اسم الله خالصاً على ذبائحهم، ثم قال: والله، لا يستجلون ذبائحكم، فكيف تستجلون ذبائحهم؟^١
 إن قيل: بعد كون ما سوى ذبائح أهل الكتاب داخلًا في عموم الطيبات، فما وجه تخصيصه بالذكر؟
 قلت: لعله دفع توهم حرمة لدخوله في تصرف المشركين كحرمة ذبائحهم، كما دفع سبحانه
 حرمة طعام المسلمين عليهم بقوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

والحاصل: أنه لا شبهة في عدم جواز التمسك بعموم ﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لإثبات حِلِّ
 ذبائحهم، لثبوت تخصيصه بغير ذبائحهم بالروايات المتبعة المعمول بها بين الأصحاب، وتعين
 حمل ما يعارضها على التقيّة.

ثم مرّ أيضاً بتوسّعه على المسلمين في المنائح بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والعفاف أو الحرائر
 ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ - عن الصادق عليه السلام: «هُنَّ الْمُسْلِمَاتُ»^٢ - حِلٌّ لَكُمْ الْعَقْدُ عَلَيْهِمْ مُطْلَقاً
 ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والعفاف ﴿مِنْ﴾ نساء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى،
 أيضاً حِلٌّ لَكُمْ ﴿إِذَا اتَّيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ومهورهنّ - وإنما سمي المهر أجراً لأنه عوض البضع
 والانتفاع، ولا يتقدّر بقدر، وفي الاشتراط مع صحّة النكاح بدوّن إعطاء المهر دلالة على تأكّد وجوب
 أدائه - حال كونكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ فروجكم، وحافظين لها من الزنا بينكاهنّ ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾
 ومجاهرين بالزنا معهنّ ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ومُسْتَرِينَ به.

عن الشعبي: الزنا ضربان: سفاح، وهو الزنا على سبيل الإعلان. واتخاذ خذن: وهو الزنا في السرّ.^٣
 وفي تخصيص المحصنات بالجلّ، مع جواز نكاح غيرهنّ، إشعار بأولويتهنّ.
 وقد مرّ بعض الكلام في كونها ناسخة لقوله: ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾^٤، أو منسوخة به، أو
 بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾^٥ في طرقة بيان الناسخ والمنسوخ.^٦

ثم أنه تعالى بعد بيان تكميل الدين، وتشهيل الأحكام في المطعم والمنكح، هدّد الكافرين بهذه
 العيلة السهلة بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ ويمتنع من الالتزام بتلك الأحكام ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾
 وبطل ﴿عَمَلُهُ﴾ الصالح الذي عمله في السابق، أو قبل موته؛ فلا يثاب عليه أبداً ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾
 يكون ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والمغبونين؛ حيث باع الجنة والتعيم الأبديّ بالجحيم والعذاب الدائم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

٢. تفسير العياشي ١٣/١٩٧، تفسير الصافي ٢: ١٢.

١. تفسير القمي ١: ١٦٣، تفسير الصافي ٢: ١٢.

٤. الممتحنة: ١٠/٦٠. ٥. البقرة: ٢٢١/٢.

٣. تفسير الرازي ١١: ٤٨٨.

٦. راجع الطرفة (٢٠) من المقدمة.

الْمَرَاقِي وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَوْجَلِكُمْ إِلَى الْكَافِبِينَ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٦]

في بيان كيفية ثم أنه تعالى بعد المنة على العباد بتسهيل أحكامه في أهم أمور معاشهم من المطاعم والوضوء

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ مِنَ النُّومِ - كما عنهما عليه السلام ^١ - قاصدين ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾
مُتَهَيِّئِينَ لَهَا، أَوْ التَّوَضُّعِ إِذَا ارْتَدْتُمْ مِنَ الْقِيَامِ إِلَيْهَا ﴿فَاغْسِلُوا﴾ بِالماء المطلق ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ مِنْ قِصَاصِ
الشَّعْرِ إِلَى الذَّقَنِ طَوَّلًا، وَمَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْإِبْهَامُ وَالْوُسْطَى عَرْضًا - كما عن الباقر عليه السلام ^٢ - ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾
لَكِنْ لِأَكْلِهَا، بَلْ مَا بَيْنَ رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ ﴿إِلَى الْمَرَاقِي﴾ وَمَقَاصِلِ السَّوَادِ وَالْأَعْضَادِ، بَحِثْ تَدْخِلُونَ
الْمَرَاقِي فِي الْغَسَلِ.

﴿وَامْسَحُوا﴾ بَعْدَ الْغَسَلَيْنِ أَكْفَكُمْ الْمُبْتَلَةَ بِكُلِّ الْوُضُوءِ ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، وَقَدْ فُسِّرَ فِي صَحِيحِ زُرَّارَةَ
بِغَضِّ الرَّأْسِ، لِمَكَانِ الْبَاءِ ^٣، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى انْكَارِ سَبَبِيَّتِهِ مَجِيءِ الْبَاءِ لِلتَّبَعِيضِ. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي
الرُّبُعِ الْمُقَدَّمِ مِنْهُ، وَيَجْزِي مُسَمَّاهُ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ قَدْرُ ثَلَاثِ أَصَابِعٍ عَرْضًا.
ثُمَّ عَطَفَ شَبْحَانَهُ الْأَنْجَلَ عَلَى الرَّوُوسِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْجَلِكُمْ﴾، فَعَلِمَ أَنَّ الْمَسْحَ يُجْزِي بِغَضِّ
الْأَرْجُلِ، بَحِثْ يَصْدُقُ مُسَمَّاهُ عَرْضًا، وَيُسْتَحَبُّ بِالْكَفِّ، وَأَمَّا طَوَّلًا فَيَجِبُ أَنْ يُمَسَّحَ الْقَدَمُ مِنَ
رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ ﴿إِلَى الْكَافِبِينَ﴾ وَقَبْلِي الْقَدَمَيْنِ.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام أَنَّهُ شَتَلَ عَنْ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِدْعَا بَطَشَتْ أَوْ تَوَرَّءَ فِيهِ مَاءٌ، فَغَمَسَ يَدَهُ
الْيَمْنَى فَغَرَفَ بِهَا غُرْفَةً فَصَبَّهَا عَلَى وَجْهِهِ فَغَسَلَ بِهَا وَجْهَهُ، ثُمَّ غَمَسَ كَفَّهُ الْيُسْرَى فَغَرَفَ بِهَا غُرْفَةً،
فَأَفْرَغَ عَلَى ذِرَاعِهِ الْيَمْنَى، فَغَسَلَ بِهَا ذِرَاعَهُ مِنَ الْمَرْزُوقِ إِلَى الْكَفِّ لَا يَرُدُّهَا إِلَى الْمَرْزُوقِ، ثُمَّ غَمَسَ كَفَّهُ
الْيَمْنَى، فَأَفْرَغَ عَلَى ذِرَاعِهِ الْيُسْرَى مِنَ الْمَرْزُوقِ وَصَنَعَ بِهَا مِثْلَ مَا صَنَعَ بِالْيَمْنَى، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ وَقَدَمَيْهِ
بِكُلِّ كَفِّهِ لَمْ يُحْدِثْ لِهَما مَاءً جَدِيدًا، ثُمَّ قَالَ: «وَلَا تَدْخُلْ أَصَابِعَهُ تَحْتَ الشَّرَاكِ».

١. تفسير العياشي ٢: ١٦/١٢٠٨ و ١٢٠٩، تفسير الصافي ٢: ١٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٨/١٢١٢، من لا يحضره الفقيه ٦: ٢٨/٨٨، تفسير الصافي ٢: ١٥.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٩/١٢١٢، تفسير الصافي ٢: ١٨. ٤. التَّوَرُّ: إِنَاءٌ يَشْرَبُ فِيهِ.

ثم قال: «أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، فليس له أَنْ يَدَعَ شَيْئاً مِنْ وَجْهِهِ إِلَّا غَسَلَهُ، وَأَمْرٌ يَغْتَسِلُ الْبَدَنَ إِلَى الْمَرْفِقَيْنِ، فليس له أَنْ يَدَعَ شَيْئاً مِنْ يَدَيْهِ إِلَى الْمَرْفِقَيْنِ إِلَّا غَسَلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿اغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، فَإِذَا مَسَحَ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْسِهِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْ قَدَمَيْهِ مَا بَيْنَ الْكَعْبَيْنِ إِلَى أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ فَقَدْ أَجْزَأَ».

ف قيل: أَيْنَ الْكَعْبَانِ؟ قال: «هَاهُنَا»، يعني: الْمَفْصِلُ، دُونَ عَظْمِ السَّاقِ.

ف قيل: هَذَا مَا هُوَ؟ فقال: «هَذَا مِنْ عَظْمِ السَّاقِ، وَالْكَعْبُ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ».

ف قيل: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، فَالْعُرْفَةُ الْوَاحِدَةُ تَجْزِي لِلْوَجْهِ، وَغُرْفَةٌ لِلذَّرْعِ؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا بَالِغَتْ فِيهَا، وَالتَّائِيَانِ تَأْتِيَانِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ»^١.

و في صحيح محمد بن مسلم: عن أبي عبد الله عليه السلام: «مَسَحَ الرَّأْسَ عَلَى مَقْدَمِهِ»^٢.

ف لَابِدٌ مِنْ حَمَلٍ مَا دَلَّ عَلَى الْاجْتِزَاءِ بِالْمَسْحِ عَلَى الْمُؤَخَّرِ عَلَى التَّيَمِّةِ.

و عن زُرَّارَةَ، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام قلت: إِنْ أَنَا سَأَلْتُ يَقُولُونَ إِنْ بَطَنَ الْأَذْنَيْنِ مِنَ الْوَجْهِ، وَظَهَرَهُمَا مِنَ الرَّأْسِ، فقال: «لَيْسَ عَلَيْهِمَا غَسْلٌ وَلَا مَسْحٌ»^٣.

و عن حَمَّادٍ فِي الصَّحِيحِ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لَا بَأْسَ بِمَسْحِ الْوُضُوءِ^٤ مُقْبِلاً وَمُدْبِراً»^٥.

و عن أَحَدِهِمَا عليه السلام، فِي الرَّجُلِ يَتَوَضَّأُ وَعَلَيْهِ الْعِمَامَةُ، قال: «يَرْفَعُ الْعِمَامَةَ بِقَدَرٍ مَا يَدْخُلُ إِصْبَعُهُ فَيَمْسَحُ عَلَى مَقْدَمِ رَأْسِهِ»^٦.

و عن أبي جعفر عليه السلام: «الْمَرْأَةُ يَجْزِيهَا مِنْ مَسْحِ الرَّأْسِ أَنْ تَمْسَحَ مَقْدَمَهُ بِقَدَرِ ثَلَاثِ أَصَابِعٍ، وَلَا تُلْقِي عَنْهَا خِمَارَهَا»^٧.

و عنه عليه السلام، قال: «يُجْزَى مِنَ الْمَسْحِ عَلَى الرَّأْسِ مَوْضِعُ ثَلَاثِ أَصَابِعٍ، وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ»^٨.

و عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، سأله عن الْمَسْحِ عَلَى الْقَدَمَيْنِ كَيْفَ هُوَ؟ فَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَى الْأَصَابِعِ، فَمَسَحَهَا إِلَى الْكَعْبَيْنِ - إِلَى ظَاهِرِ الْقَدَمِ - فَقُلْتُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ بِأَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ: هَكَذَا؟ فقال: «لَا إِلَّا بِكَفِّهِ»^٩.

٢. التهذيب ١: ١٧١/٦٢.

١. تفسير العياشي ٢: ١٧١/١٧، تفسير الصافي ٢: ١٧.

٤. في التهذيب: بمسح القدمين.

٣. الكافي ٣: ١٠/٢٩، التهذيب ١: ٢٤٩/٩٤.

٦. التهذيب ١: ٢٣٨/٩٠.

٥. التهذيب ١: ٢١٧/٨٣.

٨. الكافي ٣: ١/٢٩، الاستبصار ١: ١٧٧/٦٠.

٧. الكافي ٣: ٥/٣٠، التهذيب ١: ١٩٥/٧٧.

٩. الكافي ٣: ٦/٣٠، الاستبصار ١: ١٨٤/٦٢.

أقول: لا ريب أن هذه الرواية والرواية السابقة الدالة على الاجتزاء بثلاث أصابع محمولتان على الاستحباب، لقوة إطلاق ما سواهما من الروايات، خصوصاً قوله ﷺ: «إذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه مائتين الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأ»^١ المعتضد بعمل الأصحاب وفتوى المشهور.

في علل تشريع وعن الرضا ﷺ قال: «أمر بالوضوء وبدئي به، لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الوضوء الجبار [و] عند مناجاته إياه، تطيعاً [له] في ما أمره، نقيّاً من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية القواد للقيام بين يدي الجبار»^٢.

قال: «وإنما جُوزنا الصلاة على الميت بغير وضوء؛ لأنه ليس فيها ركوع ولا سجود، وإنما يجب الوضوء في الصلاة التي فيها ركوع وسجود»^٣.

وفي حديث (المعاني) عن الرضا ﷺ: «إنما وجب الوضوء على الوجه واليدين ومسح الرأس والرجلين؛ لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار فإنما يكشف عن جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء، وذلك أنه بوجهه يستقبل ويسجد ويخضع ويده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد، وإنما وجب الغسل على الوجه واليدين، و[جعل] المسح على الرأس والرجلين، ولم يجعل غسل كفه، ولا مسح كفه، لعل شئاً منها: أن العبادة العظمى إنما هي الركوع والسجود، وإنما يكون الركوع والسجود بالوجه واليدين لا بالرأس والرجلين. ومنها: أن الخلق لا يطيقون في كل وقت غسل الرأس والرجلين، ويشتد ذلك عليهم في البرد والسر والمرض [وأوقات من] الليل والنهار، وغسل الوجه واليدين أخف من غسل الرأس والرجلين، وإنما وضعت الفرائض على قدر أقل الناس طاقةً من أهل الصحة، ثم عم [فيها] القوي والضعيف. ومنها: أن الرأس والرجلين ليس هما في كل وقت باديان وظاهران كالوجه واليدين، لموضع العمامة والخفين وغير ذلك»^٤.

في حكمة غسل الوجه واليدين وعن الرضا ﷺ، في رواية: «ثم الوضوء كما أمر الله في كتابه: غسل الوجه واليدين إلى المرفقين»^٥ ومسح الرأس والرجلين، فليقيامه بين يدي الله عز وجل واستقباله إياه بجوارحه الظاهرة، وملاقاته بها الكرام الكاتبين، فغسل الوجه للسجود والخضوع، والرجلين

٢. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١٠٤/١.

٤. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١٠٤/١.

١. التهذيب ١: ٧٦/١٩١.

٣. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١١٥/١.

٥. في علل الشرائع: أن علة الوضوء التي من أجلها صار غسل الوجه والذراعين.

٣٤٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

وَعَسَلَ الْيَدَيْنِ لِتَقْلِبَهُمَا وَيَرْغَبُ بِهِمَا وَيَرْهَبُ [وَيَتَبَلَّ]. وَنَسَحَ الرَّأْسَ وَالرُّجْلَيْنِ لِأَنَّهُمَا ظَاهِرَانِ
مَكْشُوفَانِ يَسْتَقْبِلُ بِهِمَا فِي كُلِّ حَالَاتِهِ، وَلَيْسَ فِيهِمَا مِنَ الْخُضُوعِ وَالتَّبَتُّلِ مَا فِي الْوَجْهِ وَالذَّرَاعَيْنِ^١
الْخَبِرِ.

أقول: الظَّاهِرُ أَنَّهُ وَقَعَ التَّصْحِيفُ فِي قَوْلِهِ: «لَأَنَّهُمَا ظَاهِرَانِ مَكْشُوفَانِ» وَكَانَتِ الْعِبَارَةُ: لَيْسَا ظَاهِرَيْنِ
مَكْشُوبَيْنِ يَسْتَقْبِلُ بِهِمَا فِي كُلِّ حَالَاتِهِ.

وَفِي (الْعِلَلِ): جَاءَ نَقَرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلُوهُ عَنْ مَسَائِلَ، وَكَانَ فِيهَا سَأَلُوهُ: أَخِيرَنَا يَا
مُحَمَّدُ، لِأَيِّ عِلَّةٍ تُؤْضَأُ هَذِهِ الْجَوَارِحُ الْأَرْبَعُ وَهِيَ أَنْظَفُ الْمَوَاضِعِ فِي الْجَسَدِ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَمَّا أَنَّ وَسَّوَسَ الشَّيْطَانُ إِلَى آدَمَ، دَنَا مِنَ الشَّجَرَةِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ مَاءُ وَجْهِهِ، ثُمَّ
قَامَ وَمَشَى إِلَيْهَا، وَهِيَ أَوَّلُ قَدَمٍ مَسَّتْ إِلَى الْخَطِيئَةِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ يَدَهُ مِنْهَا مِمَّا عَلَيْهَا وَأَكَلَ فَتَطَايَرَ الْحُلِيُّ
وَالْحُلَلُ عَنْ جَسَدِهِ، فَوَضَعَ آدَمُ يَدَهُ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ وَبَكَى، فَلَمَّا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
ذُرِّيَّتِهِ تَطْهِيرَ^٢ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الْأَرْبَعِ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِغَسْلِ الْوَجْهِ لِمَا نَظَرَ إِلَى الشَّجَرَةِ، وَأَمَرَ بِغَسْلِ الْيَدَيْنِ
إِلَى الْمَرَافِقِ لِمَا تَنَاوَلَ بِهِمَا، وَأَمَرَ بِمَسْحِ الرَّأْسِ لِمَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ، وَأَمَرَ بِمَسْحِ الْقَدَمَيْنِ لِمَا
مَسَى بِهِمَا إِلَى الْخَطِيئَةِ»^٣.

وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ قَالَ: «ثُمَّ سَرَّ عَلَى أُمْتِي الْمُصْصَمَةِ لِيَتَقَى الْقَلْبَ مِنَ الْحَرَامِ، وَالْإِسْتِنْشَاقَ لِتَحْرِمَ
عَلَيْهِمْ رَانِحَةُ النَّارِ وَتَنْتِهَا».

قَالَ [الْيَهُودِي: صَدَقْتَ] يَا مُحَمَّدُ، فَمَا جَزَاءُ عَامِلِهَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يَمَسُّ الْمَاءَ يَتَبَاعَدُ
عَنِ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَمَضَّضَ نُورُ اللَّهِ قَلْبَهُ وَلَسَانَهُ بِالْحِكْمَةِ، وَإِذَا اسْتَنْشَقَ أَمَنَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَرَزَقَهُ رَانِحَةً
الْجَنَّةِ، وَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ بَيَضَ اللَّهُ وَجْهَهُ يَوْمَ تَبَيَّضَ وَجْهُهُ وَتَسَوَّدَ وَجْهُهُ، وَإِذَا غَسَلَ سَاعِدَيْهِ حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ أَغْلَالَ النَّارِ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ مَسَحَ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، وَإِذَا مَسَحَ قَدَمَيْهِ أَجَازَهُ اللَّهُ عَلَى الصَّرَاطِ يَوْمَ
تَرَى فِيهِ الْأَقْدَامَ»^٤.

وَعَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ ﷺ: يُصَلِّي الرَّجُلُ لَوْضُوءَ [وَاحِدٍ صَلَاةٍ] اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كُلَّهَا؟
قَالَ: «نَعَمْ، مَا لَمْ يُحْدِثْ»^٥.

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهْرُ عَلَى الطُّهْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»^٦.

فِي بَيَانِ غَسْلِ ثَمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْمُحْدِثِ بِالْحَدَثِ الْأَصْفَرِ، كَالثَّوْمِ وَالبَوْلِ وَالعَائِطِ وَالرَّيْحِ،
الْجَنَابَةِ وَأَحْكَامَهُ

١. علل الشرائع: ٢٨٠/١.

٢. في المصدر: غسل.

٣. الكافي: ٣/٧٢/١٠.

٤. الكافي: ٣/٦٣/٤.

١. علل الشرائع: ٢٨٠/٢.

٤. أمالي الصدوق: ٢٥٨/٢٧٩.

بَيْنَ حُكْمِ الْمُحَدِّثِ بِالْحَدِّثِ الْكَبِيرِ، كَالْجَنَابَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ بِخُرُوجِ الْمَنِيِّ، أَوْ التِّقَاءِ الْخِتَانَيْنِ، وَإِنْ لَمْ يَنْزِلِ الْمَنِيُّ ﴿فَاطْفَئُوا﴾ بِالْمَاءِ وَاغْتَسِلُوا.

عَنْ زُرَّارَةَ، قُلْتُ: كَيْفَ يَغْتَسِلُ الْجُنُبُ؟ فَقَالَ: «إِنْ لَمْ يَكُنْ أَصَابَ كَفَّهُ شَيْءٌ غَسَسَهَا فِي الْمَاءِ، ثُمَّ بَدَأَ بِفَرْجِهِ فَأَتَقَاهُ بِثَلَاثِ غُرُوفٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثَ أَكْفَافٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَى مَنْكِبَيْهِ الْأَيْمَنِ مَرَّتَيْنِ، وَعَلَى مَنْكِبَيْهِ الْأَيْسَرِ مَرَّتَيْنِ، فَمَا جَرَى عَلَيْهِ الْمَاءُ فَقَدْ أَجَزَ»^١.

وَعَنْهُ عليه السلام، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ، فَقَالَ: «تَبْدَأُ فَتَغْسِلُ كَفَيْكَ، ثُمَّ تَفْرِغُ بِيَمِينِكَ عَلَى شِمَالِكَ فَتَغْسِلُ فَرْجَكَ وَمِرْفَقَكَ، ثُمَّ تَمْضِضُ وَأَسْتَنْشِقُ، ثُمَّ تَغْسِلُ جَسَدَكَ مِنْ لَدُنْ قَرْنِكَ إِلَى قَدَمَيْكَ، لَيْسَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ وَضُوءٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَمَسَّتَهُ الْمَاءُ فَقَدْ أَنْقَيْتَهُ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا جُنُبًا ارْتَمَسَ فِي الْمَاءِ ارْتِمَاسَةً وَاحِدَةً، أَجَزَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَدْلُكْ جَسَدَهُ»^٢.

وَعَنْهُ عليه السلام، فِي رَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ، فَقَامَ فِي الْمَطَرِ حَتَّى سَالَ عَلَى جَسَدِهِ، أَيْجِزُهُ ذَلِكَ مِنَ الْغُسْلِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»^٣.

وَعَنْهُ عليه السلام، قَالَ: «يَجْزِيكَ مِنَ الْغُسْلِ وَالِاسْتِنْجَاءِ مَا بَلَّتْ يَمِينُكَ»^٤.

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: «إِنَّ الْجُنُبَ مَا جَرَى عَلَيْهِ الْمَاءُ^٥ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ، فَقَدْ أَجَزَ»^٦.

وَعَنْهُ عليه السلام، فِي حَدِيثٍ: «وَمَنْ انْفَرَدَ بِالْغُسْلِ وَحْدَهُ فَلَا يَدَّ لَهُ مِنْ صَاعٍ»^٧.

أَقُولُ: مَحْمُولٌ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ لِدَلَالَةِ الرُّوَايَاتِ الْكَثِيرَةِ عَلَى إِجْزَاءِ مُسَمًّى الْغُسْلِ، وَلَوْ كَالْتَدْهِينِ. عَنْ الثُّعْلَبِيِّ: قَالَ عَلِيُّ عليه السلام: «أَقْبَلُ عَشْرَةً مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لِمَاذَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَلَمْ يَأْمُرْ مِنَ الْبَوْلِ وَالْعَائِطِ وَهُمَا أَقْذَرُ مِنَ الطُّفَةِ؟ فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ تَحَوَّلَ فِي عُرُوقِهِ وَشَعْرِهِ، إِذَا جَامَعَ الْإِنْسَانُ نَزَلَ مِنْ أَصْلِ كُلِّ شَعْرَةٍ، فَافْتَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي تَطَهُّيرًا وَتَكْفِيرًا وَشُكْرًا لِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّذَّةِ الَّتِي يُصِيبُونَهَا»^٨.

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فِي حَدِيثٍ: «مَنْ تَرَكَ شَعْرَةً مِنَ الْجَنَابَةِ تَمَعَمَدًا فَهُوَ فِي النَّارِ»^٩.

وَعَنْهُ عليه السلام، قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ مِنْ جَنَابَتِهِ، فَلَمْ يَغْسِلْ رَأْسَهُ [ثُمَّ يَدَا لَمْ أَنْ يَغْسِلْ رَأْسَهُ]، لَمْ يَجِزْ بَدْءًا مِنْ إِعَادَةِ الْغُسْلِ»^{١٠}.

١. الكافي ٣: ٤٣/٣، التهذيب ١: ١٣٣/٣٦٨.

٢. الكافي ٣: ٤٤/٧، الكافي ٣: ٢٢/٦٧، التهذيب ١: ١٣٨/٣٨٦.

٣. زاد في الكافي والتهذيب: من جسده.

٤. الكافي ٣: ٢١/٤، التهذيب ١: ١٣٧/٣٨٠.

٥. تفسير روح البياض ٢: ٣٥٥.

٦. الكافي ٣: ٤٤/٩، التهذيب ١: ١٣٣/٣٦٩.

٧. التهذيب ١: ١٣٥/٣٧٣.

وعنه عليه السلام، قال: «إِنْ عَلَيَا عليه السلام لَمْ يَرِ بَأْسًا أَنْ يَغْسِلَ الْجُبَّ رَأْسَهُ غَدْرَةً، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ عِنْدَ الصَّلَاةِ»^١.

وعنه عليه السلام، قال: «لَا بَأْسَ بِتَبْعِضِ الْعُثْلِ، تَغْسِلَ يَدَكَ وَفَرْجَكَ وَرَأْسَكَ، وَتُوَخَّرَ غُسْلَ جَسَدِكَ إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ، ثُمَّ تَغْسِلَ جَسَدَكَ إِذَا أَرَدْتَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَحْدَثَ حَدَثًا مِنَ الْبَوْلِ أَوِ الْغَائِطِ أَوِ الرِّيحِ أَوْ الْمَتْنِيِّ بَعْدَمَا غَسَلْتَ رَأْسَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْسِلَ جَسَدَكَ، فَأَعِدْ الْعُسْلَ مِنْ أَوَّلِهِ»^٢.

وعنه عليه السلام، عن آبائه، قال: «كُنْ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا اغْتَسَلْتَ مِنَ الْجَنَابَةِ يُبْقِينَ صُفْرَةَ الطَّيِّبِ عَلَى أَجْسَادِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمْرُهُمْ أَنْ يَصْبِيْنَ الْمَاءَ صَبًّا عَلَى أَجْسَادِهِمْ»^٣.

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ شَبْحَانَهُ حُكْمَ مَنْ لَمْ يَتِمَّكَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ﴾ بحيث يَضْرُكُ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ ﴿أَوْ﴾ زَاكِيَيْنِ ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ اسْتِعْمَالُهُ ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ لِلْوُضوءِ أَوِ الْعُسْلِ ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ وَتَعَمَّدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾، قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُ وَبَعْضُ الْكَلَامِ فِيهِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ^٤.

ثُمَّ صَرَّحَ شَبْحَانَهُ بِالْمِئَةِ عَلَى الْعِبَادِ بِتَخْفِيفِ أَحْكَامِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بِأَمْرِكُمْ بِالْوُضوءِ أَوِ الْعُسْلِ لِلصَّلَاةِ ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ﴾ شَيْئًا ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ وَضِيقٍ وَمَشَقَّةٍ، وَلِذَا لَمْ يَأْتِرْكُم بِتَحْمُلِ الضَّرَرِ، وَتَحْصِيلِ الْمَاءِ بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ وَيُظَفِّفَكُمْ، وَلِذَا أَمْرَكُمْ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ، أَوْ عَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ بِالْتَيَمُّمِ بِالتُّرَابِ، لِكَوْنِهِ أَحَدُ الطَّهَوْرَيْنِ.

أَوْ يُرِيدُ لِيُبْرِئَكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، كَمَا رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْوُضوءِ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَامَ إِلَى وَضُوئِهِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ ثُمَّ غَسَلَ كَفَيْهِ، نَزَلَتْ خَطِيئَتُهُ كَفَيْهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ، فَإِذَا تَمَضَّضَ نَزَلَتْ خَطِيئَةُ لِسَانِهِ وَشَفَتِيهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ، وَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، سَلِمَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ هُوَ عَلَيْهِ، وَكَانَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^٥.

ثُمَّ مَرَّ بِالْمِئَةِ الْآخَرَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ بِتَشْرِيعِهِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعْمَتَهُ، وَتَعْمَلُونَ بِشَرِيعَتِهِ.

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْلَافَهُ الَّذِي وَاتَّفَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٧]

٢. مدارك الأحكام ١: ٣٠٨.

١. الكافي ٣: ٨/٤٤، التهذيب ١: ٣٧٢/١٣٤.

٤. تقدَّم في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء.

٣. علل الشرائع: ١/٢٩٣.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٥٦.

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ تَشْرِيعَ التَّيْمُمِ، وَتَخْفِيفَ أَحْكَامِهِ تَتِمِيمٌ لِنِعْمِهِ، نَهَيْهِمْ بِأَصْلِ نِعْمَتِهِ تَرْغِيباً إِلَى الشُّكْرِ، وَحَثّاً عَلَى الْإِثْقَادِ، يَقُولُ: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ التي أَنْعَمَهَا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من هِدَايَتِكُمْ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَإِخْرَاجِكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشُّرْكِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي سَائِرِ الْأُمَمِ، ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاقَّكُمْ بِهِ، وَعَهْدَهُ الْأَكِيدَ الَّذِي عَاهَدَكُمْ عَلَيْهِ، بِتَوْسُطِ رَسُولِهِ حِينَ بَايَعَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَجَمِيعِ أَمْرِهِ وَأَحْكَامِهِ، فِي حَالِ الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ وَالنَّشَاطِ وَالْكُزْهِ، وَأَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - قَبِلْتُمْ الْعَهْدَ وَالتَّزَمْتُمْ بِهِ ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ فِي جَوَابِ الرُّسُولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَوْامِرَ وَأَحْكَامَكَ.

عن الباقر عليه السلام: «المراد بالميثاق: ما بيّن لهم في حجة الوداع من تحريم المحرمات، وكيفية الطهارة، وفرض الولاية، وغير ذلك»^١.

وعن القمي عليه السلام: لَمَّا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الميثاقَ عَلَيْهِم بِالْوِلَايَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.^٢
ثُمَّ رَهَبَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَنَقْضِ المِيثَاقِ يَقُولُ: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَاحْذَرُوهُ فِي كُفْرَانِ نِعْمَتِهِ وَيَسْيَانِهَا، وَنَقْضِ مِيثَاقِهِ، وَمُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ.

ثُمَّ بَالِغٌ فِي التَّهْدِيدِ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وَمُطْلِعٌ عَلَى مَكْنُونِهَا، فَيُجَازِيكُم عَلَيْهَا، فَكَيْفَ بِجَلِيلَاتِ الْأَعْمَالِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ
عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ [٨]

ثُمَّ أَكَّدَ شَبَاحَهُ وَجُوبَ الْعَمَلِ بِالْمِيثَاقِ، وَالْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ عَلَى امْتِثَالِ أَحْكَامِهِ الَّتِي مَرَّجَعُهَا إِلَى وَجُوبِ الْقِيَامِ بِوُظَائِفِ الْعِبَادِيَّةِ، وَأَدَاءِ حُقُوقِ النَّاسِ، وَالْعَدْلَ فِيهِمْ، يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ بِالْعِبَادِيَّةِ ﴿لِلَّهِ﴾ ثَابِتِينَ عَلَى طَاعَتِهِ، مُبَالِغِينَ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَتَوَاهِيهِ، مُجَدِّدِينَ فِي الْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ، وَكُونُوا ﴿شُهَدَاءَ﴾ بَيْنَ النَّاسِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وَالْعَدْلِ، وَقُولُوا الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُضْراً عَلَى أَوْلِيَانِكُمْ، نَافِعاً لِأَعْدَانِكُمْ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وَلَا يَحْبِلَنَّكُمْ ﴿شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾ وَشِدَّةُ عَدَاوَةِ طَائِفَةٍ ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فِيهِمْ، وَتَجَوَّزُوا عَلَيْهِمْ بِازْتِكَابِ مَا لَا يَجِلُّ لَكُمْ مِنَ الْمُثَلَّةِ، وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّةِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَازْتِكَابِ الْخِيَانَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ ﴿أَعْدِلُوا﴾ فِيهِمْ وَإِنْ ظَلَمَكُمْ،

٢. تفسير القمي ١: ١٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٠.

١. مجمع البيان ٣: ٢٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠.

وأنصِفُوا بَيْنَهُمْ وَإِنْ جَارُوا عَلَيْكُمْ، وَاغْلُمُوا أَنْ الْعَدْلَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ.

قيل: نزلت الآية في مشركي قريش لما صدوا المسلمين عن المسجد الحرام^١.

إن قيل: فكيف يجوز قتل الكفار، وسبى نساءهم وذرياتهم، ونهب أموالهم، مع أنه جور عليهم؟ قلت: الجور هو التجاوز عن حدود الشرع، والمعاملات المذكورة مع الكفار هي الحدود المقررة فيه، وهو عين العدل.

ثم بالغ الله سبحانه في تأكيد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا عباد الله في مخالفة أحكامه. ثم وعد المتزمين بالتقوى بالثواب، وأوعد التاركين له بالعقاب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والعصيان، بحيث لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم خفيها وجليها، فيجازيكم بما تستحقون من الثواب والعقاب.

وفي تكرار النهي عن حنل الشنان على التعدي وترك العدل دلالة على مزيد الاهتمام بالعدل، والمبالغة في إيجاب إطفاء نائرة الغيظ، وترك متابعة الهوى.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [١٠ و ٩]

ثم وعد الله سبحانه المؤمنين المتزمين بالتقوى والعدل والقسط تطيباً لقلوبهم، وتشفياً لهم من غيظ الكفار بالثواب العظيم أولاً بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومنها العدل والتقوى، ثم كأنه قيل: ما وعدهم؟ فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وسر للسننات بتبديلها بالحسنات ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ من الجنة والنعم الدائمة.

ثم وعدهم بتعذيب أعدائهم ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي منها الآيات الدالة على وجوب العدل والتقوى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون المكذبون ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملازموها إلى الأبد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْتَطُوا إِلَيْكُمْ
أَيَّدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [١١]

ثم بالغ سبحانه في الحث على ملازمة التقوى والعَدْل لكونهما شديدي المخالفة للطباع، بتذكير المؤمنين بنعمة عليهم، المقتضية للطاعة والشكر، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ﴾ وهي حفظ نفوسكم ﴿إِذْ هَمَّ﴾ وعزم ﴿قَوْمٌ﴾ من الكفار على ﴿أَنْ يَنْبُسُوتُوا﴾ ويمدوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والأسر والغارة ﴿فَكَفَّ﴾ الله ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بلطفه ورحمته ﴿عَنْكُمْ﴾ ومنعها من الوصول إليكم، إذن فاشكروا تلك النعمة العظيمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مخالفة أوامره ونواهيه، ولا تخافوا في طاعته أحداً ﴿وَعَلَى اللَّهِ الْقَادِرُ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وليعتمد في دفع الأعداء ويكدهم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ به العارفون بولايته لأوليائه.

في بيان حفظ الله روي عن ابن عباس عليه السلام: بعث النبي ﷺ سرية إلى بني عامر فقتلوا بشر مَعونة إلا نبيه ﷺ من القتل ثلاثة نفر أحدهم عمر بن أمية الضمري، وانصرف هو وآخر معه إلى النبي ﷺ ليخبراه خبر القوم، فلقيا رجلين من بني سليم، معهما أمان من النبي ﷺ فقتلتهما ولم يعلمَا أنَّ معهما أماناً.

فجاء قومه إلى النبي ﷺ يطلبون الدية، فخرج النبي ﷺ ومعه علي عليه السلام وأبو بكر وعمر وعثمان حتى دخلوا على بني النضير، وقد كانوا عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال، وأن يعينوه في الديات، فقال النبي ﷺ: «رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَصَابَ رَجُلَيْنِ مَعَهُمَا أَمَانٌ مِنِّي، فَلَزِمَنِي دِيَّتُهُمَا، فَأَرِيدُ أَنْ تُعِينُونِي».

فقالوا: اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم هموا بالقتل برسول الله ﷺ وبأصحابه، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك، فقام رسول الله ﷺ في الحال مع أصحابه وخرجوا، فقال اليهود: إن قُودِرْنَا نَغْلِي، فأعلمهم الرسول ﷺ أنه قد نزل عليه الوحي بما عزموا عليه. قال: ١. وقد تأمروا على أن يطرحوا عليه رَحاً أو حَجَرًا. وقيل: بل ألْقُوا، فأخذه جبرئيل.

وقيل: إن الرسول ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس عنه، وعلق سيفه بشجرة، فجاء أعرابي وسل سيف رسول الله ﷺ، وقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقال: «الله» - قالها ثلاثاً - فأسقطه جبرئيل من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» فقال: لا أحد، ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم، وأبى أن يعاقبه ٢.

أقول: على هاتين الروايتين يكون المراد من تذكيرهم نعمة الله هو دفع الشر عن النبي ﷺ حيث إن قتلَه أعظم المَحَن على المؤمنين.

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ [١٢]

ثم لما ذكر الله سبحانه أخذه الميثاق من المؤمنين ونعمته عليهم، ذكر أخذ الميثاق من بني إسرائيل ونعمته عليهم عبرة للمؤمنين، بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وعهدهم الوثيق على العمل بأحكام التوراة ﴿وَبَعَثْنَا﴾ واختارنا ﴿مِنْهُمْ﴾ بلسان موسى ونُعيِّنُهُ ﴿اثْنَيْ عَشَرَ﴾ بعدد أسباطهم ﴿نَقِيبًا﴾ وحاكماً سانساً بينهم، أو قيماً وكافلاً لأموالهم، أو مفتشاً متنبئاً لأحوالهم، كما جعل النبي ﷺ للانصار اثني عشر نقيباً ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ بلسان موسى لبني إسرائيل أو لتبائنهم لترغيبهم إلى الطاعة، وترهيبهم عن المعصية ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة أسمع مقالكم، وأرى أعمالكم، وأطلع على ضمانتكم وأسراركم، فأجازيكم على ما يصدر منكم.

ثم وعدهم بالثواب مؤكداً له بالقسم بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ عن صميم القلب ﴿بِرُسُلِي﴾ كلهم من غير تفرق في الإيمان بين موسى وعزير وغيرهما، فإن الإيمان بالرُّسل شرط قبول الأعمال ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ ومنشئوهم من الأعداء بالنصرة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾ أموالكم بصرفها في سبيل الخير ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ برغبة وخلوص يته، بلا شوب بالرياء والسُّمعة، إذن بالله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ وأمحو ﴿عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وذنوبكم، صغائرهما وكبائرهما ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار كثيرة ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

ثم تبه الله تعالى على أن الكفر بعد وضوح الحق وظهور النعم من أقبح أنواع الضلال، بقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بالله ونعمته ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد الوثيق، والنعمة العظيمة، والوعد الأكيد بالثواب ﴿مِنْكُمْ﴾ فقد ضلَّ، وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ووسط الطريق الموصل إلى كل خير، ومقام القرب والدراجات الرفيعة من الجنة، ضللاً يتيئلاً وخطأ واضحاً لا عذر معه أصلاً، بخلاف من كفر قبل ذلك، فإنه ربما يكون عن الشبهة وتوهم المعذرة.

فسي أخذ
موسى ﷺ النقاء
وملاقاتهم هوجاً
رؤي أن بني إسرائيل لما استقرّوا بجصر بعد مهلك فزعون، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا من أرض الشام وهي الأرض المقدسة، وكانت لها ألف قرية، في كل قرية ألف بستان، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال لهم: إني كتبها لكم دار قرار، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها؛ وإني ناصركم، وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط نقيباً أميناً يكون

كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به، تَوَثَّقَ عليهم، فاختار الثُّقَبَاءَ، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل لهم الثُّقَبَاءَ، وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان، بعث الثُّقَبَاءَ يتجسسون الأخبار ويعلمون علمها، فأروا أجراماً عظيمة وقوة وشوكة، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا، وقد ناهم موسى عن ذلك، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا نقيب سبط يهودا، ويوشع بن نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصديق.

قيل: لما توجه الثُّقَبَاءُ إلى أرضهم للتجسس لقيهم عوج بن عتق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلاث ذراع، وعاش ثلاثة آلاف سنة، وكان يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قِرار البحر، فيشويه بعين الشمس يرفعها إليها ثم يأكله، فلما لقي عوج الثُّقَبَاءَ وعلى رأسه حزمة خطب أخذهم وجعلهم في الحزمة - وفي رواية: في كُفَّه - فانطلق بهم إلى امرأته وقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون قتالنا.

وفي رواية: أتى بهم الملك فنشرهم بين يديه فقال: ارجعوا إلى قومكم فأخبروهم بما رأيتم، فلما رجعوا قال بعضهم: إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبي الله، ولكن اكتبوه إلا عن موسى وهارون، فيكونان هما يريان رأيهما، فاخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم انصرفوا إلى موسى، فنكثوا عهدهم، وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم، ويخبرهم بما رأوا، إلا كالب ويوشع^١، الخبر.

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [١٣]

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ ونكثهم ﴿ميثاقهم﴾ وعهدهم، وبسبب خلفهم بما التزموا به ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ وطردناهم عن ساحة الرحمة وقيل: يعني: مسخناهم خنازير وقردة^٢ وعن ابن عباس: ضربنا عليهم الجزية^٣.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ صلبة، لا تتأثر بالآيات والتدبر، وقيل: فاسدة رديئة، أو نانية عن قبول الحق، تُنصرف عن الاتقياد للدلائل^٤.

١. تفسير أبي السعود ٣: ١٤، تفسير روح البيان ٢: ٣٦٣.

٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٦٥.

٤. تفسير الرازي ١١: ١٨٧.

٣. تفسير الرازي ١١: ١٨٦.

ثم شرح سبحانه سيئات أعمالهم التي كانت نتيجة اللعن والقساوة، بقوله: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ» التي كانت في التوراة «عَنْ مَوَاضِعِهِ» ومحلّه فيها، ويغيرون ألفاظ آياتها.

وقيل: كانوا يؤولون آياتها بالتأويل الباطل لعدم إمكان تغيير الألفاظ في الكتاب للتواتر^١.

«وَنَسُوا» وتركوا «حِطًّا» وإفراً «مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ» عن ابن عباس: تركوا نصيباً مما أمروا به في كتابهم، وهو الإيمان بمحمد ﷺ^٢.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ بقوله: «وَلَا تَزَالُ» يا محمد «تَطَّلِعُ عَلَى» فرقة، أو أنفس «خَائِنَةٍ» في التوراة «مِنْهُمْ» أو على خيانة صادرة منهم «إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» كعبد الله بن سلام وأضرابه، أو الكافرين الذين لم يؤمنوا، وعلى أي تقدير «فَأَغَفُّ عَنْهُمْ» ولا تتعرض لعقوبتهم «وَأَصْفَحْ» عنهم وأعرض عما صدر عنهم، ولا تعيرهم ولا تعيب عليهم بعد إيمانهم، أو بعد تعاهدتهم والالتزامهم بالجزية. كذا قيل^٣.

ثم علل الأمر بالعمو والصفح بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» إلى الناس وإن كانوا كافرين. عن الثمّني رحمه الله: منسوخة بقوله: «اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ»^٤. وقيل: بقوله: «فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»^٥.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغَرْنَا
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ [١٤]

ثم نبّه الله سبحانه على أن النصارى أيضاً كاليهود في نقض الميثاق وترك العمل بكتاب الله بقوله: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا» وادعوا «إِنَّا نَصَارَى» ونحن أنصار الله، أو أنصار عيسى إلى الله، وليسوا بذلك «أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ» على العمل بأحكام الإنجيل والالتزام بما فيه، وفيه أمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ «فَنَسُوا حَظًّا» وتركوا «حِطًّا» وإفراً ونصيباً وافياً «مِمَّا دُكِّرُوا» وأمروا «بِهِ» فيه من الإيمان بمحمد ﷺ «فَأَغَرْنَا» وألقينا بنحو اللزوم واللصوق فيما «بَيْنَهُمْ» وبين اليهود، أو بين فريقهم المختلفة «الْعَدَاوَةَ» والمباينة بالأفعال «وَالْبَغْضَاءَ» والمنافرة بالقلوب والعقائد بحيث يلعن بعضهم بعضاً «إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وذار الجزاء «وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ» ويخبرهم بشدة عقوبتهم «بِمَا

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٦٥.

١ و ٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٧.

٤. تفسير القمي ١: ١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢١، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.

٥. مجمع البيان ٣: ٢٦٨، والآية من سورة التوبة: ٢٩/٩.

كَانُوا» فِي الدُّنْيَا «يُضَنُّونَ» مِنَ السَّيِّئَاتِ.

وفيه أشدُّ الزَّعِيدِ، وإنَّما عَبَّرَ عَنِ الْعَمَلِ بِالصُّنْعِ، لِلإِذَانِ بِرُسُوخِهِمْ فِي ذَلِكَ.

نُضِيَّةٌ بُولُسُ قِيلَ: الَّذِي أَلْقَى الْعِدَاوَةَ بَيْنَ النَّصَارَى [رَجُلٌ] يُقَالُ لَهُ بُولُسُ، فَإِنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
وَأَنفَادِهِ دِينِ النَّصَارَى قِتَالٌ، قَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، فَأَرَادَ أَنْ يَحْتَالَ حِيلَةً يُلْقِي بَيْنَهُمُ الْقِتَالَ، فَجَاءَ
النَّصَارَى إِلَى النَّصَارَى وَجَعَلَ نَفْسَهُ أَعُورَ وَقَالَ لَهُمْ: أَلَا تَعْرِفُونَنِي؟ فَقَالُوا: أَنْتَ الَّذِي قَتَلْتَ مَا

قَتَلْتَ مِنَّا، وَفَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَقَالَ: فَعَلْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَالْآنَ ثَبَّتْ لَأَنِّي رَأَيْتُ عَيْسَى فِي الْمَنَامِ نَزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ فَلَطَمَ وَجْهِي لَطْمَةً فَقَا عَيْنِي، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ مِنْ قَوْمِي؟ فَنَبَتْ عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ جَنَّتْكُمْ
لَأَكُونَ بَيْنَ ظَهْرَانِيكُمْ، وَأَعَلَّمَكُمْ شَرَائِعَ دِينِكُمْ كَمَا عَلَّمَنِي عَيْسَى فِي الْمَنَامِ، فَأَتَّخِذُوا لَهُ عُرْفَةً، فَصَعِدَ
تِلْكَ الْعُرْفَةَ، وَفَتَحَ كَوْنَهُ إِلَى النَّاسِ فِي الْحَانِطِ، وَكَانَ يَتَعَبَّدُ فِي الْعُرْفَةِ، وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ
وَيَسْأَلُونَهُ وَيُجِيبُهُمْ مِنْ تِلْكَ الْكُوَّةِ، وَرُبَّمَا يَأْتُرُهُمْ بِأَنْ يَجْتَمِعُوا وَيُنَادِيَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْكُوَّةِ وَيَقُولُ لَهُمْ
بِقَوْلِي كَانَ مُتَكَرِّرًا فِي الظَّاهِرِ، وَيُنْكِرُونَ عَلَيْهِ، فَكَانَ يُفَسِّرُ ذَلِكَ الْقَوْلَ تَفْسِيرًا يُعْجِبُهُمْ ذَلِكَ، فَاتَّخَذُوا
كُلَّهُمْ لَهُ، وَكَانُوا يَقْتُلُونَ قَوْلَهُ بِمَا يَأْتُرُهُمْ بِهِ.

فَقَالَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ: اجْتَمِعُوا عِنْدِي فَقَدْ حَضَرَنِي عِلْمٌ، فَاجْتَمِعُوا فَقَالَ: أَلَيْسَ خَلَقَ اللَّهُ الْأَشْيَاءَ فِي
الدُّنْيَا كُلِّهَا لِمَنْفَعَةٍ ابْنِ آدَمَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: لِمَ تَحْزَمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ - يَعْنِي: الْحَمْرَ
وَالْخِزِيرَ - وَقَدْ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، فَأَخَذُوا قَوْلَهُ فَاسْتَحَلُّوا الْحَمْرَ وَالْخِزِيرَ.

فَلَمَّا مَضَى عَلَى ذَلِكَ أَيَّامٌ دَعَاهُمْ وَقَالَ: حَضَرَنِي عِلْمٌ فَاجْتَمِعُوا، فَقَالَ: مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ تَطْلُعُ
الشَّمْسُ؟ فَقَالُوا: مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ. فَقَالَ: مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ يَطْلُعُ الْقَمَرُ وَالنُّجُومُ؟ فَقَالُوا: مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ،
فَقَالَ: وَمَنْ يُرْسِلُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ؟ قَالُوا: اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ: فَاعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى فِي قِبَلِ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ
صَلَيْتُمْ لَهُ فَصَلُّوا إِلَيْهِ. فَحَوَّلَ صَلَاتَهُمْ إِلَى الْمَشْرِقِ، فَلَمَّا مَضَى عَلَى ذَلِكَ أَيَّامٍ دَعَا بِطَائِفَةٍ مِنْهُمْ وَأَمَرَهُمْ
بِأَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِ فِي الْعُرْفَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ نَفْسِي قُرْبَانًا لِلَّيْلَةِ لِعَيْسَى، وَقَدْ حَضَرَنِي
عِلْمٌ فَأُرِيدُ أَنْ أَخْبِرَكُمْ فِي السَّرِّ، لِتَحْفَظُوا عَنِّي وَتَدْعُوا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ بَعْدِي.

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِنَّهُ أَصْبَحَ يَوْمًا وَفَتَحَ عَيْنَهُ الْأُخْرَى ثُمَّ دَعَاهُمْ وَقَالَ: جَاءَنِي عَيْسَى اللَّيْلَةَ وَقَالَ: قَدْ
رَضِيتُ عَنْكَ، فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى عَيْنِي فَبَرِثْتُ، وَالْآنَ أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ نَفْسِي قُرْبَانًا لَهُ.

ثُمَّ قَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى وَيُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؟ فَقَالُوا: لَا،
فَقَالَ: إِنَّ عَيْسَى قَدْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ دَعَا بِطَائِفَةٍ
أُخْرَى فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا وَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ ابْنُ اللَّهِ، ثُمَّ دَعَا بِطَائِفَةٍ أُخْرَى وَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا وَقَالَ:

إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وأخبرهم أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ اللَّيْلَةَ قُرْبَانًا، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِمْ فَظَهَرَانِيهِمْ، فَأَصْبَحُوا وَجَعَلَ كُلُّ فَرِيقٍ يَقُولُ: قَدْ عَلِمْنِي كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ الْفَرِيقُ الْآخَرُ: أَنْتَ كَاذِبٌ، بَلْ عَلِمْنِي كَذَا، فَوَقَعَ بَيْنَهُمُ الْقِتَالُ فَاقْتُلُوا وَقُتِلُوا خَلْقًا كَثِيرًا، وَنَصَبَ الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ ثَلَاثُ فِرَقٍ: السُّنْطُورِيَّةُ، فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَالثَّانِيَّةُ: الْمَلِكَانِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، الْمَسِيحُ وَأُمُّهُ وَاللَّهُ، وَالثَّلَاثَةُ: الْعِيقُوبِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ^١.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ [١٥]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى نَقْضَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِيثَاقَهُمُ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَخِيَانَتِهِمْ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَإِخْبَارِ النَّبِيِّ بِمَا أَخْفَوْهُ عَنِ النَّاسِ مِنْ تَحْرِيفَاتِهِمْ وَتَغْيِيرَاتِهِمْ فِي الْكِتَابِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ مَعَاجِزِهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ، بِأَشْرَافِهِ الْمُقَدَّسَةِ دَعَوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى صِدْقِهِ مِنْهَا: أَنَّهُ مَعَ أُمِّيَّتِهِ وَعَدَمِ قِرَاءَتِهِ الْكِتَابِ، وَعَدَمِ تَعَلُّمِهِ عِنْدَ أَحَدٍ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ السَّمَاوِيِّ، كَتُوبِهِ فِي الْكِتَابِينَ، وَاسْمُهُ الْمَذْكُورُ فِيهَا، وَآيَةُ الرَّجْمِ^٢ - كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٣ - وَذَلِكَ مِنْهُ إِخْبَارُ الْمُنْغِيَّاتِ بِإِخْبَارِ عِيسَى ﷺ بِمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدْخِرُونَ ﴿وَيَعْفُو﴾ وَيَغْمِضُ ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾ مِمَّا تُخْفُونَهُ وَتَكْتُمُونَهُ، فَلَا يُخْبِرُ بِهِ. عَنْ الْقَمِيِّ ﷺ، قَالَ: يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ كَثِيرًا مِمَّا أَخْفَيْتُمُوهُ مِمَّا فِي التَّوْرَةِ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَيَدَعُ كَثِيرًا لَا يُبَيِّنُهُ^٤.

قضية تحكيم ابن
صوريا اليهودي
عن الباقر ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَبِيرٍ ذَاتِ شَرَفٍ بَيْنَهُمْ، رَزَتْ مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَهُمَا مُحَصَّنَانِ، فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا، فَأَرْسَلُوا إِلَى يَهُودِ الْمَدِينَةِ وَكُتِبُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ طَمَعًا فِي أَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ بِرُخْصَةٍ، فَانْطَلَقَ قَوْمٌ مِنْهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسِيدٍ، وَمَالِكُ بْنُ صَيْفٍ، وَكَانَتْ بِنْتُ أَبِي الْحَقِيقِ، وَغَيْرُهُمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا عَنِ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ إِذَا أَحْصَيْنَا، مَا حُدُّهُمَا؟ فَقَالَ: هَلْ تَرْضَوْنَ بِقَضَائِي فِي ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَنَزَلَ جَبْرِئِيلُ بِالرَّجْمِ، فَأَخْبِرَهُمْ بِذَلِكَ، فَأَبَوْا أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ، فَقَالَ جَبْرِئِيلُ: اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمُ ابْنُ صُورِيَا، وَوَصَفَهُ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

١. في تفسير الرازي: وأمر.

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٦٧.

٢. تفسير القمي ١: ١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢٢.

٣. تفسير الرازي ١١: ١٨٩.

هل تعرفون شاباً أُمرداً أبيضَ أعورَ يسكنُ فذك، يُقال له ابنُ صُوريا؟ قالوا: نعم، قال: أيُّ رَجُلٍ هُوَ فيكم؟ قالوا: هُوَ أعلمُ يهودي بقي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى. قال: فأرسلوا إليه. ففعلوا، فأتاهم عبدُ الله بن صُوريا.

فقال له النبي ﷺ: أنشدك الله الذي لا إله إلا هُوَ، الذي أنزل التَّوراةَ على موسى، وفلَّقَ لكم البحرَ فأنجاكم وأغرق آلَ فرعون، وظلَّلَ عليكم الغمامَ، وأنزل عليكم المَنَّ والسَّلوى، هل تجدون في كتابكم الرِّجَمَ على مَنْ أَحْصِن؟ قال ابنُ صُوريا: نعم، والذي ذَكَرْتَنِي به، لَوْلا خَشْيَةُ أَنْ يَحْرِقَنِي رَبُّ التَّوراةِ إِنْ كَذَبْتُ أَوْ غَيَّرْتُ، ما أَعْرَفْتُ لك، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا مُحَمَّد؟ قال: إذا شَهِدَ أربعةٌ رَهْطٍ عدول أَنَّهُ قد أدخله فيها كما يدخل المِيلَ في المُكْحَلَةِ، وجب عليه الرِّجَمُ. فقال ابنُ صُوريا: هكذا أنزل الله في التَّوراةِ على موسى ﷺ.

فقال له النبي ﷺ: فماذا كان أول ما ترخَّصتم به أمر الله؟ قال: كُنَّا إِذَا زَنَى الشَّرِيفَ تَرَكَناه، وَإِذَا زَنَى الضَّعِيفَ أَقَمنا عليه الحَدَّ، فَكَثُرَ الزَّنا في أَشرافنا حتَّى زَنَى ابْنُ عَمِّ مَلِكٍ لَنَا، فلم نَرْجُمْه، ثُمَّ زَنَى رَجُلٌ آخَرُ فَأَرَادَ الْمَلِكُ رَجْمَهِ فَقَالَ قومه: لا، حتَّى تَرْجُمَ فَلاناً - يعنون ابنَ عمه - فقلنا: تعالوا نجتمع فلنَضَعَ شيئاً ذَوْنَ الرِّجَمِ يكون على الشَّرِيفِ والوَضِيعِ، فوضَعنا الجَلْدَ والتفْحِيمَ^١ - وَهُوَ أَنْ يُجْلَدَا أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، ثُمَّ تُسَوَّدَ وَجوههما، ثُمَّ يَحْمَلَا على حِمَارَيْنِ، وَتُجْعَلَ وَجوههما مِنْ قِبَلِ ذُبُرِ الحِمَارِ، وَيُطَافَ بهما - ففعلوا هذا مكانَ الرِّجَمِ.

فَقَالَتِ الْيَهُودُ لابنِ صُوريا: ما أَسْرَعُ ما أَخْبَرْتَهُ به! وما كُنْتُ لِمَا أَتَيْنَا عَلَيْكَ بأَهْلٍ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ غَائِباً فَكِرْهِنَا أَنْ نَعْتَابَكَ، فَقَالَ: إِنَّهُ نَشَدَنِي بِالتَّوراةِ، وَلَوْلا ذَلِكَ لَمَّا أَخْبَرْتَهُ به.

فَأَمَرَ بِهِمَا النَّبِيُّ ﷺ فَوُجِعا عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِهِ، وَقَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتَوْهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

فَقَامَ ابْنُ صُوريا فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِاللَّهِ وَبِكَ، أَنْ تَذْكُرَ [لَنَا] الْكَثِيرَ الَّذِي أَمَرْتَ أَنْ نَعْفُو عَنْهُ، فَأَعْرَضَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ^٢.

وَمِنْ الْبَرَاهِينِ عَلَى رِسالته بقوله^٣: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ بِوَسْاطَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ «نُورٌ» فِي الْحَقِيقَةِ، حَيْثُ تَقْوَى بِهِ بِصِيرَتِكُمْ عَلَى إدراكِ الْمُعْقُولَاتِ كما يَقْوَى بِالنُّورِ الْجَسَدِي

١. في مجمع البيان: والتحميم.

٢. في مجمع البيان: ٣: ٢٩٩، تفسير الصافي ٢: ٢٢.

٣. كذا، وتوجد كلمة بعد (من) غير واضحة. راجع النسخة ج ١ ص ٣٨٨.

بَصْرُكُمْ عَلَى إدْرَاكِ الْمَحْشُوسَاتِ.

ثم أشار سبحانه إلى البرهان الثالث بقوله: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ لِلْحَقِّ، وكاشف عن حقائق الأمور. وقيل: التَّورَ هو النبي ﷺ^١. وقيل: التَّورَ والكتاب واحد^٢. وعن القمي رحمه الله: يعني بالتَّورَ: أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام^٣.

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٦]

ثم بين عظيم فائدة الكتاب تعظيماً له، بقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ﴾ وطلب باتباعه وإطاعة أحكامه ﴿رِضْوَانَهُ﴾ وقُرْبَهُ ﴿سُبُلَ﴾ دَارَ ﴿السَّلَامِ﴾ وطُرُقَ الْجَنَّةِ، أو سُبُلَ السَّلَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ بِوَسِيلَةِ هَذَا الْكِتَابِ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وَأَنْوَاعِ خُذُورَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَالْجَهْلِ وَهُوَ النَّفْسُ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَكَمَالِ النَّفْسِ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وَمَشِيتَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ وَيُرْشِدُهُمْ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَالَّذِينَ الْحَقَّ الْقَوِيمَ، الْمُوصِلَ إِلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ وَأَكْمَلِ السَّعَادَاتِ.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنْهَكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٧]

ثم لما ذكر سبحانه أن القرآن الكريم هادٍ إلى الْحَقِّ، وَمُنْجٍ مِنَ الضَّلَالِ، بَيَّنَّ غَايَةَ ضَلَالَةِ النَّصَارَى بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ النَّصَارَى ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ وَاعْتَقَدُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ وَالْخَلْقَ الْمَعْبُودَ ﴿هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كَمَا نُسِبَتْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ مِنْهُمْ، بَلْ هُوَ لَازِمُ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ الْقَائِلِينَ بِالْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ، حَيْثُ إِنَّهُمْ قَانِلُونَ بِأَنَّ الْكَلِمَةَ اتَّحَدَتْ بَعِيسَى، لِأَنَّهُ إِنْ أَرَادُوا بِهِ ذَاتَهُ تَعَالَى يَلْزَمُ مِنْهُ الْقَوْلُ بِخُلُوقِهِ تَعَالَى فِي عِيسَى، فَيَكُونُ عِيسَى هُوَ اللَّهُ، وَإِنْ أَرَادُوا مِنَ الْكَلِمَةِ عِلْمَهُ تَعَالَى فَخُلُوقَ عِلْمِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِّخُلُوقِ ذَاتِهِ، لِأَنَّ عِلْمَهُ عَيْنُ ذَاتِهِ.

ثم بين الله تعالى بطلان هذا القول وفضاحته بقوله: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ

٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٩، وفيه: والكتاب هو القرآن.

١. مجمع البيان ٣: ٢٧٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣.

٣. تفسير القمي ١: ١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢٣.

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ ويقدر على أن يمنح ﴿مِنْ﴾ نفوذ قُدرة ﴿الله﴾ وإرادته ﴿شَيْئاً﴾ سيراً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ﴾ ويغني ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ بل ﴿وَمَنْ﴾ كان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الْمَسِيحَ وغيره ﴿جَمِيعاً﴾ فإذا كان الْمَسِيحَ مقهوراً تحت قُدرة الغير وإرادته، بحيث لا يمكنه دفع الهلاك عن نفسه وأُمَّه وغيرهما، لا يُعَقَل أن يكون إلهاً.

ثم استدَلَّ على ألوهية ذاته المقدسة بَعْظَمَةِ سلطانه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يخرج شيء من الموجودات عن ملكه وسلطانه، ولا شريك له فيها.

ثم استدَلَّ بِسَعَةِ قُدْرته بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ خلقه وإيجاده كيف يشاء بلا أصلٍ كعالم العقول، أو من أصلٍ كعالم الأجسام، من غير جنسه كآدم وسائر الحشرات، أو من جنسه كأولاد آدم، من ذكرٍ واحدٍ كخواء، ومن أنثى واحدة كعيسى، أو منهما كسائر الناس.

ثم بالغ في تقرير قُدْرته الكاملة بقوله: ﴿وَاللهُ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الممكنات ﴿قَدِيرٌ﴾ وعيسى لا يقدر على شيء إلا بإقداره تعالى له.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [١٨]

ثم أنه تعالى بعد حكمه بكفر النَّصارى لغلُوهم في شأن عيسى وادِّعائهم ألوهيته، وإبطال دَعَوَاهم، حكى عنهم وعن اليهود غلُوهم في حق أنفسهم مع كونهم في أشد مراتب الكفر ومُتتهى دَرَجَةِ الضلال، بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ ترفيعاً لأنفسهم على سائر الناس، وغروراً بشرف آبائهم الأنبياء: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فإنه يحبنا كحبِّ الوالد لولده.

قيل: إن مراد اليهود من قولهم هذا: أنا أشياخ عزيز ابن الله، ومراد النَّصارى: نحن أشياخ عيسى ابن الله، كما يقول أقارب المملوك عند المُفَاخرة: نحن المملوك^١.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بإبطال قولهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، إلزاماً لهم: إن كان ما تزعمون حقاً ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله في الدنيا ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ ومعاصيكم بالمنسوخ والقُتل والأسر والدَّلة، وفي الآخرة إيناماً معدودة باغترافكم؟ فهذه الدَّعوى في غاية الفساد ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ كغيركم ﴿بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ الله، بلا فضيلة لكم على أحدٍ عند الله، وهو ﴿يَغْفِرُ﴾ الذُّنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له، ولا يشاء إلا لأهل

الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تغذيبه، وهم أهل الكُفْر والعصيان. ثم أعاد تقرير كمال قدرته وعظمته سلطانه تربيةً للمهابة في القلوب بقوله: ﴿وَفِي مَلَكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتساوى نسبة جميع الموجودات إليه، لا فضيلة لأحدٍ على أحدٍ إلا بالإيمان والطاعة والعبودية ﴿وَالْيَتِيمَ﴾ وإلى حُكْمِهِ ﴿الْمَصِيرَ﴾ والمرجع في الآخرة، لا إلى غيره، فيجازيكم بكُفْرِكُمْ وسيئات أعمالكم وأقوالكم أسوأ الجزاء.

رؤي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في جماعة من اليهود والنصارى، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، وخوفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف نخوفنا بعقاب الله ونحزأ أبناء الله وأحبأوه^١

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا
مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ [١٩]

ثم أنه تعالى بعدما أبطل تلك الدعاوى من اليهود والنصارى بالحجج القاطعة، وكان ذلك من معجزات النبي ﷺ مع كونه أمياً، أعاد دعوتهم إلى الإيمان به بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ لهدايتكم إلى الحق، حال كونه مع أميته ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شرائع الله وسنته، ويشرح لكم معضلات الأمور ﴿عَلَى﴾ حين ﴿فِتْرَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وفي زمان انقطاع الوحي وظلمة الجهالة.

وكان احتياج الخلق إلى مبيِّن الأحكام الإلهية والشرائع الدنيوية، لتقادم عهدها، وطول زمانها، وتصرف التغيير والتحريف إليها، واختلاط الحق بالباطل والصدق والكذب، بحيث صار ذلك عذراً ظاهراً لأهل الضلال في إعراضهم عن الحق والعبادة.

فكان إرسال الرسول لأجل كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ اغتذاراً: رَبَّنَا ﴿مَا جَاءَنَا﴾ في الدنيا ﴿مِن بَشِيرٍ﴾ بوابك ﴿وَلَا نَذِيرٍ﴾ من عقابك، فتشع آياتك، ونكون من المؤمنين.

فأجابهم الله بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الآن من قِبَلِ اللَّهِ ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فتمت عليكم الحجة، وانقطع العذر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من إرسال الرسول، وقطع الأعداء ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

قيل: كان بين موسى وعيسى عليهما السلام ما يقرب من ألف وسبع مائة سنة، وألفا نبياً، وبين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وأربعة من الأنبياء؛ ثلاثة من بني إسرائيل، وواحد من العرب يقال له خالد

بن سنان العبسي^١.

عن الصدوق في (الإكمال): معنى الفترة أن لا يكون نبي ولا وصي ظاهراً مشهوراً، وإن كان بين نبياً ﷺ وبين عيسى عليه السلام أنبياء وأئمة مستورون خانفون، منهم خالد بن سنان العبسي، لا يدفعه دافع ولا يتركه شكير، وكان بين مبعثه ومبعث نبينا خمسائة سنة^٢.

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مغمور»^٣.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ [٢٠]

ثم لما دعا الله تعالى أهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول ﷺ، بين أن عادة اليهود اللجاج وعدم الانقياد للأنبياء، مستشهداً بمعاملة سلفهم - مع كونهم أبناء الأنبياء - مع موسى، بقوله: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ بني إسرائيل، استعطفافاً واشتمالاً لقلوبهم: «يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ» ومِنَّة العظام «عَلَيْكُمْ» الموجبة لغاية شكركم وطاعتكم له «إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ» ومن أقاربكم «أَنْبِيَاء» كثيرة، ترشدون بإرشادهم، وتفتخرون بآثارهم.

قيل: إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إني لا أبعث نبياً إلا من وُلد لإسماعيل ويعقوب^٤.
«وَ» إِذْ «جَعَلَكُمْ» وبعث فيكم «مُلُوكًا» وحكاماً كثيرة، قيل: إن المعنى: جعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القنيط في مملكة فرعون بمنزلة العبيد وأهل الجزية^٥.
وعن ابن عباس عليه السلام: يعني أصحاب خدام وحشم، وكانوا أول من ملك الخدم^٦.
«وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» من قَلَى البحر، وإهلاك فرعون وجنده، وتظليل الغمام، وإنزال المَن والسَّلوَى، وغير ذلك.

يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ
فَتَنْفَلِحُوا خَاسِرِينَ [٢١]

١. جوامع الجامع: ١٠٧، تفسير الرازي: ١١: ١٩٤.

٢. إكمال الدين: ٢/٦٥٩، تفسير الصافي: ٢: ٢٤.

٣. تفسير الرازي: ١١: ١٩٦.

٤. نهج البلاغة: ٤٩٧ الحكمة ١٤٧، تفسير الصافي: ٢: ٢٤.

٥. تفسير الرازي: ١١: ١٩٦، تفسير روح البيان: ٢: ٣٧٥.

٦. تفسير روح البيان: ٢: ٣٧٥.

ثُمَّ بَعْدَ تَذْكِيرِهِمُ النِّعَمَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَمَرَهُمْ بِمُجَاهَدَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بَعْدَ إِعَادَةِ مُخَاطَبَتِهِمْ مَزِيداً لِلِاسْتِعْطَافِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا قَوْمُ جَاهِدُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ وَأَعْدَاءَكُمْ﴾، وَ﴿ادْخُلُوا﴾ بَعْدَ الْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وَالْبِلَادَ الطَّيِّبَةَ الْكَثِيرَةَ النِّعَمَ ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ﴾ وَقَدَّرَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ إِسْكَانَهَا ﴿لَكُمْ﴾. رُوي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا صَعِدَ جَبَلَ لُبْنَانَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: انْظُرْ، فَمَا أَدْرَكَهُ بِبَصَرِهِ فَهُوَ مُقَدَّسٌ وَمِيرَاثٌ لِدُرِّيَّتِكَ^١.

وعن الباقر عليه السلام: «يعني: الشام»^٢.

﴿وَلَا تَزْنُوا﴾ وَلَا تَرْجِعُوا ﴿عَلَى أَذْبَارِكُمْ﴾ وَأَعْقَابِكُمْ خَوْفاً مِنَ الْجَبَّارَةِ، وَلَا تَهْزَمُوا مِنْ بَأْسِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: لَا تَرْجِعُوا عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ إِلَى الشُّكِّ^٣، أَوْ لَا تَرْجِعُوا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَمَرْتُمْ بِدُخُولِهَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا - وَهِيَ أَرْضُ مِصْرَ^٤ - «فَتَنْقَلِبُوا» وَتَنْصَرِفُوا حَالَ كَوْنِكُمْ ﴿خَاسِرِينَ﴾ مَغْبُوبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِقَوْتِكُمُ الْمَنَافِعَ الْعَظِيمَةَ وَالْثَوَابَ وَابْتِلَانَكُمْ بِالْمِحْنِ وَالْعَذَابِ.

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرِجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرِجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْنَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا
إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٢٢ و ٢٣]

ثُمَّ حَكَّى اللَّهُ تَعَالَى اثْتِنَاعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ امْتِثَالِ أَمْرِ مُوسَى بَعْدَ تِلْكَ التَّرَغِيبَاتِ وَالْمَوَاعِظِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا﴾ بَعْدَ إِطْلَاعِهِمْ عَلَى قُوَّةِ الْجَبَّارَةِ وَشَوْكَتِهِمْ، وَالْخَوْفِ مِنْ قِتَالِهِمْ: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أَقْوِيَاءَ قَاهَرِينَ، أَوْ طَوَالِ عِظَامِ الْأَجْسَادِ، قِيلَ: كَانَتْ أَيْدِي قَوْمِ مُوسَى لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ^٥ «وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا» أَبَدًا خَوْفاً مِنْهُمْ «حَتَّى يَخْرِجُوا مِنْهَا» بِمَلِّ أَنْفُسِهِمْ، وَيُخْلُوا بِلَادَهُمْ لَنَا مِنْ غَيْرِ صُنْعٍ مِنَّا؛ لَعَدَمَ قُدْرَتِنَا عَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا بِالْقَهْرِ.

﴿فَإِن يَخْرِجُوا﴾ بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ «مِنْهَا» مِنْ غَيْرِ دُخُولِ مِنَّا فِي خُرُوجِهِمْ «فَإِنَّا» حَيْثُ ذُكِرَ «دَاخِلُونَ» فِيهَا، فَلَمَّا أَبَوْا عَنِ الدُّخُولِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ - وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، أَوْ بَلَدَةُ أَرِيحَا - «قَالَ» لَهُمْ «رَجُلَانِ» كَامِلَانِ فِي صِفَاتِ الرُّجُولِيَّةِ مِنَ الشُّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ اسْمُهُمَا كَالْب وَشُوعَ،

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٧/١٢٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٥.

١. تفسير الرازي ١١: ١٩٦.

٣ و ٤. تفسير الرازي ١١: ١٩٨.

وهما كانا ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويتقون، وقد ﴿أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بِنِعْمَةِ الْيَقِينِ الصَّادِقِ بَوَّغِدِ الله وباليوم الآخر، والثقة بعونه ونصرتهم، تشجيعاً لهم وتقوية لقلوبهم: يا قوم ﴿اذْخُلُوا﴾ بجماعتكم دفعةً وبغثة ﴿عَلَيْهِمُ الْبَابُ﴾ الذي لبلد الجبارين، وضاعطوهم في المضيق حتى لا يتمكنهم الخروج إلى الصحراء، ولا يجدوا للحزب مجالاً.

ثم أُنْهِمَا بعدَ تعليمهم كيفية الحمله عليهم، وعداهم النصر والغلبة؛ بقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ وضيقتم عليهم العرصة ﴿فَإِنَّكُمْ عَلَى يَدَيْهِمْ﴾ عليهم لا محالة، وهم منهزمون منكم البتة؛ لضعف قلوبهم، وتعسر الكثر عليهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ خاصة ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ في الغلبة عليهم، وفي غيرها من الأمور، ولا تعتمدوا على الأسباب بعد تهيئتها وترتيبها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله، مُصَدِّقِينَ بوعده، عارفين بقدرته.

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ [٢٤]

فلما لم يُغِدِ بني إسرائيل نُصْحَ الرَّجُلَيْنِ، ولم يؤثر فيهم التشجيع، ولم يفيضوا بتعليم كيفية الحرب وطريق الغلبة وتنبههم على التوكل على الله، بالآفاق في الامتناع عن الدخول في الأرض المقدسة خوفاً على أنفسهم، و﴿قَالُوا﴾ تمرّداً عن طاعة الله ورشوله، واستهانةً بهما: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا﴾ خوفاً من الجبارة، ولا نريد أرضهم ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ مُقِيمِينَ، فإن كان لك الغلبة عليهم ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ معاً إلى أرضهم ﴿فَقَاتِلَا﴾ هم ﴿إِنَّا﴾ جميعاً ﴿هَاهُنَا﴾ وفي مكاننا هذا ﴿قَاعِدُونَ﴾ مُتَتَرِّفُونَ نُصْرَتِكُمَا وَعَلْبَتِكُمَا عَلَيْهِم، وإخراجكما إياهم من أرضهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَهْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْقَوٰمِ الْقَاسِقِينَ [٢٥]

فلما ينس موسى ﷺ من طاعة قومه بعد أن سمع منهم الامتناع والاستهزاء ﴿قَالَ﴾ بتأً وحزنًا وتشكيًا من تمرّدهم إلى الله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَهْلِكُ﴾ طاعة أحدٍ ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ الذي هو بمنزلة نفسي، وفي حكم جوارحي التي لا تتخلف عن إرادتي.

وإنما لم يذكر الرجلين اللذين يخافان، مع كونهما في غاية الطاعة والاثنياد له، إعظاماً لشأن هارون من أن يكون له قرين في الاثنياد والتسليم.

ثم دعا لنفسه ولأخيه، وعلى قومه الشمردين بقوله: ﴿فَافْرِقْ﴾ يا رَبِّ وافصل ﴿بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْقَوٰمِ

الْفَاسِقِينَ ﴿الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِكَ، الْمُصْرِينَ عَلَى عَصِيَانِكَ، بَأَن تَحْكُمَ عَلَيْنَا^١ بِمَا نَسْتَحِقُّهُ، وَعَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ. كَذَا قِيلَ^٢.

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [٢٦]

﴿قَالَ﴾ الله تعالى بعد امتناع بني إسرائيل [عن] الدُّخُولِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَشِكَايَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ^٣ وَمَنْعُوعَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ دُخُولًا، يَعْنِي أَنَّ طَائِفَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَدْخُلُونَهَا ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وَيَكُونُ حَالُهُمْ فِي الْمُدَّةِ إِلَى آخِرِهَا أَنَّهُمْ ﴿يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وَيَسِيرُونَ فِيهَا مُتَحِيرِينَ. نَسِيَ ابْتِلَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالنِّيبِ قِيلَ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ، أَخْبَرَهُ اللهُ بِأَحْوَالِ النَّبِيِّ، فَأَخْبَرَ مُوسَى قَوْمَهُ بِذَلِكَ فَقَالُوا لَهُ: لِمَ دَعَوْتَ عَلَيْنَا؟ فَنَدِمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَا عَمِلَ، فَعَزَّاهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾^٤ وَلَا تَحْزَنْ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ بِفِسْقِهِمْ مُسْتَحَقُّونَ لَذَلِكَ.

قِيلَ: لِبَثْوِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي سِتَّةِ فَرَاسِخَ، وَهُمْ سِتَّمِائَةُ أَلْفَ مَقَاتِلَ^٥. وَقِيلَ: [سِتَّةَ] فِي اثْنَيْ عَشَرَ فَرَسَخًا^٥. وَقِيلَ: تِسْعَةُ فَرَاسِخَ فِي ثَلَاثِينَ فَرَسَخًا^٦. وَكَانُوا يَسِيرُونَ كُلَّ يَوْمٍ جَادِينَ، فَإِذَا أَمْسَوْا كَانُوا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي ارْتَحَلُوا مِنْهُ^٧.

قِيلَ: إِنَّ مُوسَى وَهَارُونَ بِشَوْمٍ مُعَامَلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَقِيَا فِي النَّبِيِّ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ بِبَرَكَةِ كَرَامَتِهِمَا ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْعَمَامُ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، لِيَعْلَمَ أَثَرُ بَرَكَةِ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ، وَشَوْمِ صُحْبَةِ الْفَاسِقِينَ^٨.

عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «نِعْمَ الْأَرْضُ الشَّامُ وَبِشْسُ الْقَوْمِ أَهْلِهَا، وَبِشْسُ الْبِلَادِ مِصْرُ، أَمَا إِنَّهَا سِجْنٌ مَنْ سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ دُخُولُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَعْصِيَةً مِنْهُمْ لَهِ، لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾^٩، يَعْنِي الشَّامَ، فَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوهَا، فَتَاهَا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي فَيَافِيهَا، ثُمَّ دَخَلُوهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ: وَمَا خَرَّ وَجْهِي مِنْ مِضْرٍ وَدُخُولِهِمْ فِي الشَّامِ إِلَّا بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ وَرِضَا اللهِ عَنْهُمْ»^{١٠}.

١. في تفسير روح البيان وتفسير أبي السعود: تحكم لنا.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧، تفسير أبي السعود ٣: ٢٥.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ١١: ٢٠٢.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧.

٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧.

٨. تفسير العياشي ٢: ٢٧٥/١٢٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٦.

٩. المائدة: ٢١/٥.

٣. تفسير الرازي ١١: ٢٠١.

وعن الصادق عليه السلام، في رواية ذكر [أهل مصر، وذكر قوم] موسى وقولهم: ﴿اذهب أنت وركبك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾^١، قال: «فحرّمها [الله] عليهم أربعين سنة وتيههم، فكان إذا كان العشاء أخذوا في الرحيل ونادوا: الرحيل الرحيل، الوحاء^٢ الوحاء، فلم يزلوا كذلك حتى تغيب الشمس، حتى إذا ارتحلوا واشتوت بهم الأرض قال الله للأرض ديري بهم، فلم يزلوا كذلك حتى [إذا] أسحروا وقارب الصبح قالوا: إن هذا الماء قد أتيتموه فانزّلوا، فإذا أصبحوا إذا أبنتهم^٣ ومنازلهم التي كانوا فيها بالأمس، فيقول بعضهم لبعض: يا قوم، لقد ضلّلتكم وأخطأتم الطريق، فلم يزلوا كذلك حتى أذن الله لهم فدخلوها، وقد كان كتبها لهم»^٤.

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده، لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقدّة بالقدّة، حتى لا تحطون طريقهم، ولا تحطونكم سنّة بني إسرائيل».

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «قال موسى لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فردّوا عليه وكانوا سيّمان ألف وقالوا: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الآيات، قال: فعصى أربعون ألفاً، وسليم هارون وإثناه، ويوشع بن نون، وكالب بن يوفنا، فسأهم الله فاسقين فقال: ﴿لَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فتأهوا أربعين سنة لأنهم عصوا، فكان حذو النعل بالنعل أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض، لم يكن على أمر الله إلا عليّ والحسن والحسين عليه السلام، وسلمان، وأبو ذر، والمقداد، فمكثوا أربعين سنة حتى قام عليّ عليه السلام فقاتل من خالفه»^٥. الخبر.

ثم أنه اختلف في أن موسى وهارون [هل] كانا في النّبي أم لا؟ فقال قوم: لا، لأنّه دعا الله أن يفرّق بينه وبين قومه ودعوات الأنبياء مجابة^٦.

أقول فيه: إنّه مبنّى على كون المراد بالتفريق: المفارقة في الصّحبة، لا في الحكومة.

وقال آخرون: إنهما كانا في النّبي، ولم يكن عذاباً بالنّسبة إليهما.

في وفاة موسى ثم اختلف هؤلاء في أنّهما [هل] ماتا في النّبي أو خرجا منه؟ فقال بعضهم: إنّهما وهارون خرجا منه، وحاربا الجّبارين وقهراهم وملكا الأرض المقدّسة^٧، وقال آخرون: إنّ هارون مات في النّبي، ثمّ مات موسى بعده بسنة، وبقي يوشع بن نون، وكان ابن أخت

٣. في النسخة: تيههم.

١. المائدة: ٥/٢٤. ٢. الوحاء: كلمة يقال للاستعجال.

٤. تفسير العياشي ٢/٢٧: ١٢٣٤، تفسير الصافي ٢/٢٦.

٥. في تفسير العياشي: لعلّه عليه السلام حسب الأربعين من زمان إظهار النبي صلى الله عليه وآله خلافة أمير المؤمنين عليه السلام. راجع:

بحار الأنوار ١٣: ١٠/١٨٠. ٦. تفسير العياشي ٢/٢٤: ١٢٢٨، تفسير الصافي ٢/٢٦.

٧. تفسير الرازي ١١: ٢٠١. ٨. تفسير الرازي ١١: ٢٠١.

موسى ووصيه بعد موته، وهو الذي فتح الأرض المقدسة^١.

عن النبي ﷺ: «أَنَّ مُوسَى كَلِمَ اللَّهِ مَاتَ فِي النَّبِيِّ، فَصَاحَ صَاحَتُ مِنَ السَّمَاءِ: مَاتَ مُوسَى، وَأَيُّ نَفْسٍ لَا تَمُوتُ»^٢.

وعن القمي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «مَاتَ هَارُونَ قَبْلَ مُوسَى، وَمَاتَا جَمِيعاً فِي النَّبِيِّ»^٣.

وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبْنَا قُورَيْبًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ
مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لَتَفْقَأَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِنْعَامِي وَأُنْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ
الظَّالِمِينَ [٢٧-٢٩]

ثم أنه تعالى - بعد ذكر لجاح بني إسرائيل، وعدم طاعتهم لموسى عليه السلام، وإتيانهم بعداب الله مع كونهم أبناء الأنبياء، وأقرب من الموجودين في زمان النبي ﷺ إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام - بين أن قابيل مع كونه ابن نبي لصّبه، عصى ربه، فذهب فضله وشرّفه، بقوله: ﴿وَأَثَلُ﴾ يا محمد، في مجمع أهل الكتاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أو المراد: على الناس ﴿نَبَأُ﴾ قابيل وهابيل ﴿ابْنِ آدَمَ﴾ أبي البشر - وعن بعض المفسرين: أنهما رجلان من بني إسرائيل^٤ - تلاوةً ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق ﴿إِذْ قُرْبًا﴾ إلى الله، بأن جعل كلّ واحدٍ منهما له تعالى ﴿قُورَيْبًا﴾ وهدية ﴿فَتَقَبَّلَ﴾ من جانب الله أحد الثريّين ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ لكونه مقرباً بالخلوص وصدق النية.

عن سعيد بن جبیر: نزلت نازاً من السماء فاحتملت قربان هابيل، ورفع بها إلى الجنة^٥.

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل، ولم تتعرض النار له، لعدم خلوص نيته، واختياره أخس أمواله للقرآن.

قيل: ما كان في ذلك الوقت فقير يدفع إليه المال الذي يتقرب به إلى الله تعالى، فكانت النار تنزل من السماء فتأكله.

في قصة قابيل عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ حَوَاءَ امْرَأَةَ آدَمَ كَانَتْ تَلِدُ فِي كُلِّ بَطْنٍ غُلَاماً وَهَابِيلَ»

١. تفسير الرازي ١١: ٢٠١.
٢. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٧.
٣. تفسير الرازي ١١: ٢٠٤، تفسير أبي السعود ٣: ٢٦.
٤. الكافي ٣: ١١٢/٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٩.

وجارية، فولدت في أول بطن قابيل - وقيل: قابين - وتوأمته اقليما، والبطن الثاني هابيل وتوأمته ليودا، فلما أدركوا جميعاً، أمر الله تعالى أن يُنكِح [آدم] قابيل أخت هابيل وهابيل أخت قابيل فرضي هابيل وأبى قابيل؛ لأن أخته كانت أحسنهما، وقال: ما أمر الله بهذا، ولكن هذا من رأيك، فأمرهما [آدم] أن يُقرَّبَا قرباناً فرضيا بذلك، فعمد هابيل وكان صاحب ماشية فأخذ من خير غنمه زبد أولبنا، وكان قابيل صاحب زرع فأخذ من شر زرع، ثم صعدا فوضعا قربانين على الجبل فأنت النار فأكلت قربان هابيل، وتجنب قربان قابيل، وكان آدم غائباً بمكة، خرج إليها ليزور البيت بأمر ربه...»^٢.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام، قيل له: إنهم يزعمون أن قابيل إنما قتل هابيل لأنهما تغيبرا على أختهما؟ فقال: «تقول هذا، أما تستحي أن تروي هذا على نبي الله آدم؟» فقيل: «فيم قتل قابيل هابيل؟» قال: «في الوصية». ثم قال: «إن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل، وكان قابيل أكبر [منه]، فبلغ ذلك قابيل فغضب، فقال: أنا أولى بالكرامة والوصية، فأمرهما أن يُقرَّبَا قرباناً بوحي من الله إليه، ففعلا فتقبل الله قربان هابيل، فحسده قابيل»^٣.

في قصة قتل هابيل **وَقَالَ لَهُ: يَا هَابِيلُ، لِمَ قَتَلْتَكَ؟** قيل: إن هابيل قال: لِمَ؟ قال قابيل: لأن الله قبل قربانك ورَدَّ قرباني، وتنكح أختي الحشاء، وأنكح أختك الدميمة، فتحدث الناس أنك خير مِنِّي، ويفتخر ولدك على ولدي^٤.

قَالَ هَابِيلُ: أَمَا تَقْبَلُ قُرْبَانِي فَلَيْسَ مِنِّي دَنِيٍّ؟ **إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ** **الْقُرْبَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ**، وأنا اتقيت ذونك، فعدم قبول قربانك كان من قبل نفسك، والله **«لَئِنْ بَسَطْتُ»** ومددت **«إِلَى يَدِكَ لَتَقْتُلَنِي»** حَسَبًا أوعدتني **«مَا أَنَا بِبَاسِطٍ»** وماذ **«يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ»** بل أستسلم لقضاء الله، ولا يتغلب في قلبي قصد الإساءة إليك، لأجل **«إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ»** وفيه إظهار غاية تقواه. قيل: كان هابيل أقوى من قابيل، ولكن لما كان القتل للدفاع حراماً في ذلك الزمان تخرج عن قتله^٥. ثم ذكر علة أخرى للخروج عن قتله بقوله: **«إِنِّي أُرِيدُ»** من إمساكي عن قتلك **«أَنْ تَبُوءَ»** وترجع إلى الله ملابساً **«يَا نَبِيَّ»** عن ابن عباس عليه السلام: معناه: تحمِلْ إثم قتلي **«وَأَتُوبُكَ»** الذي ارتكبته قبل قتلي^٦.

١. في المصدر: ليودا. ٢. مجمع البيان ٣: ٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٢٨.

٣. تفسير المباشي ٢: ١٢٤٢/٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٨.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٩.

٦. تفسير الرازي ١١: ٢٠٧.

٣٦٢ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

عن الباقر عليه السلام: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا [مُتَعَمِّدًا] اثْبَتَ اللَّهُ عَلَى قَاتِلِهِ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ، وَبَرَأَ الْمَقْتُولَ مِنْهَا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْيَايَ وَإِثْمِكَ﴾»^١.

﴿فَتَكُونُ﴾ بِسَبَبِ قَتْلِي ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، وملازمها أبداً ﴿وَذَلِكَ﴾ الْخُلُودُ فِي النَّارِ ﴿جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى الْعِبَادِ بِالْقَتْلِ.

قيل: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ دَارُ بَيْنَهُمَا عَلَى وَجْهِ الْوَعظِ وَالنَّصِيحَةِ^٢. وَالنَّبِيَّهَ عَلَى أَنْ إِثْمَ الْمَقْتُولِ يُحْمَلُ عَلَى قَاتِلِهِ، وَيَكُونُ جَزَاءُ الْقَاتِلِ ظُلْمًا الْخُلُودُ فِي النَّارِ.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٣٠]

ومقصوده حُبَّ عَدَمِ مَلَابَسَتِهِ بِالْإِثْمِ لَا مَلَابَسَةَ أَخِيهِ بِهِ ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ وَهَوَّنَتْ ﴿لَهُ نَفْسُهُ﴾ بِتَسْوِيلَاتِهَا ﴿قَتَلَ أَخِيهِ﴾ هَابِيلَ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ النَّصْحُ.

رُوي أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ قَالَ لِقَابِيلَ: قَدْ ثَقُلَ قُرْبَانُ هَابِيلَ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ قُرْبَانُكَ، فَإِنْ تَرَكْتَهُ يَكُونُ لَهُ عَقَبٌ يَفْتَخِرُونَ عَلَى عَقَبِكَ^٣.

وقيل: إِنَّ قَابِيلَ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقْتُلُ هَابِيلَ، فتمَثَّلَ لَهُ إِبْلِيسُ، فَأَخَذَ طَائِرًا أَوْ حَيَّةً، وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ شَدَّخَهُ بِحَجَرٍ آخَرَ، وَقَابِيلُ يَنْظُرُ فَتَعَلَّمَ مِنْهُ، فَوَضَعَ رَأْسَ هَابِيلَ بَيْنَ حَجَرَيْنِ وَهُوَ مُسْتَسْلِمٌ لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ^٤.

وفي رواية: أَنَّهُ صَبَرَ حَتَّى نَامَ هَابِيلُ وَغَنِمَهُ تَرَعَى^٥، فَضَرَبَ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ ﴿فَقَتَلَهُ﴾ قيل: قُتِلَ عِنْدَ جَبَلِ ثُورٍ، وَقِيلَ: عِنْدَ عَقَبَةِ حِرَاءَ، وَقِيلَ: فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ بِالْبَصْرَةِ، وَكَانَ لَهُابِيلُ يَوْمَ قَتْلِهِ عِشْرُونَ سَنَةً ﴿فَأَصْبَحَ﴾ قَابِيلُ بِقَتْلِهِ أَخِيهِ ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

عن ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام: أَنَّهُ خَسِرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ: أَمَّا الدُّنْيَا فَاسْخَطَ وَالِدَيْهِ، وَبَقِيَ مَذْمُومًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهُوَ الْعِقَابُ الْعَظِيمُ^٦.

في اطلاع آدم على قتل هابيل وحزنه عليه
روي أَنَّهُ لَمَّا قَتَلَهُ اسْوَدَّ جَسَدُهُ وَكَانَ أَبْيَضَ، فَسَأَلَهُ آدَمُ عليه السلام عَنْ أَخِيهِ، قَالَ: مَا كُنْتُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا، فَقَالَ: بَلْ قَتَلْتَهُ، وَلِذَلِكَ اسْوَدَّ جَسَدُكَ^٨.

وفي رواية: فَانْطَلَقَ آدَمُ عليه السلام فَوَجَدَ هَابِيلَ مَقْتُولًا، فَقَالَ: لَعِنْتَ مِنْ أَرْضٍ كَمَا قَبِلْتَ دَمَ

٢. تفسير الرازي ١١: ٢٠٦.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.

٧ و ٨. تفسير الرازي ١١: ٢٠٨، تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

١. عقاب الأعمال: ٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٢٧.

٣. إكمال الدين: ٢/٢١٣، تفسير الصافي ٢: ٢٨.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.

هابيل، فبكى آدم على هابيل أربعين سنة^١.

وفي رواية أخرى: فلَعَنَ آدم الأرض التي قِيلَت دَم هَابِيل، وأمر أن يَلْعَنَ قابيل، وتُودي قابيل من السماء: لُعِنْتَ كما قَتَلْتَ أخاك، ولذلك لا تشرب الأرض الدَّم، فبكى آدم على هابيل أربعين يوماً وليلة^٢.

وفي رواية: ومكث آدم ﷺ بعده مائة سنة لم يضحك قط^٣، فلما جَزِع عليه شكاً ذلك إلى الله، فأوحى الله إليه: يا آدم، إِنِّي واهِب لك ذكراً يكون خَلْفاً مِن هَابِيل، فولدت حَوَاءَ غُلاماً زَكِيّاً مُباركاً، فلما كان اليوم السابع، أوحى الله إليه: يا آدم، إن هذا الغُلام هبة مِنِّي لك، فسَمِه هبة، فسَمَاه هبة الله^٤.

وقيل: لما هَبَط آدم إلى الأرض تفكَّر في ما أكل فاستقاء^٥، فنبتت شجرة السَّم مِن قِيته، فأكلت الحَيَّة ذلك السَّم، ولذا صارت مؤذية مُهلكة، وكان [قد] بقي شيءٌ مِنّا أكل، فلما غَشِيَ حَوَاءَ حصل قابيل، ولذا كان قاتلاً باعثاً للفساد في وجه الأرض^٦.

زوي أَنَّهُ قال طائوسُ التِّمَنَانِي لأبي جعفر ﷺ: هل تعلم أَيَّ يومٍ مات ثُلث النَّاس؟ فقال: «يا عبدالله^٧، لَمْ يَمُتْ ثُلثُ النَّاسِ قطْ، إِنَّمَا أَرَدْتَ رُبْعَ النَّاسِ»، قال: وكيف ذلك؟ قال: «كان آدم وحَوَاءَ وقابيل وهابيل، [فقتل قابيل هابيل] فذلك رُبْعُ [الناس]»، قال: صدقت^٨.

أقول: هذا مُتَنافٍ لِمَا دَلَّ على أَنَّ لِكُلِّ مِنْهُما تَوَامَهُ، ومُؤَيِّدٌ لِمَا دَلَّ على أَنَّ نِزَاعَهُما كان في الوَصِيَّة.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ

الْثَّامِينَ [٣١]

ثم قيل: إِنَّهُ لَمَّا قَتَلَ قابيلُ هَابِيلَ تَرَكَه بالعرَاء، ولم يذُرْ ما يصنع به؛ لأنَّه كان أَوَّلَ مَيِّتٍ على وَجْهِ الأرض مِن بني آدم، فخاف عليه السَّباع فحَمَلَهُ في جِرابٍ على ظَهره أربعين يوماً - أو سنة - حتَّى أَرُوحَ، وعكفت عليه الطُّيور والسَّباع تنظُر متى يرمي به فتأكَله^٩.

١. إكمال الدين: ٢/٢١٤، تفسير الصافي ٢: ٢٨، وفيهما: أربعين ليلة.

٢. تفسير القمي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٢٩. ٣. تفسير الرازي ١١: ٢٠٨، تفسير أبي السعود ٣: ٢٩.

٤. تفسير القمي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٢٩. ٥. استقاء: تقيّاً.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠. ٧. في الاحتجاج: يا أبا عبدالرحمن.

٨. الاحتجاج: ٣٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٠. ٩. أروح، بمعنى أنقَرُ وظهّرت رِبعه.

١٠. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ وأرسل ﴿غُرَابًا﴾ وهو ﴿يَبْحَثُ﴾ ويحفر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حُفْرَةً ﴿لِإِسْرِيهِ﴾ الله، أو الغراب ﴿كَيْفَ يُؤَادِي﴾ ويستتر من السباع ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ وجيفته أو عورته؛ لأنه كان قد سلب ثيابه. قيل: إن الله بعث غرابين فاقْتِلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر [له] بينقاره ورجليه حُفْرَةً فآلقاه فيها وواراه، وقابيل ينظر إليه^١.

فلما تعلم الدفن ﴿قَالَ﴾ تَلْهُمًا وتحسراً: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ اخْضِرِّي فهذا أوانك ﴿اعْجِزْتِ﴾ مع عقلي وفطانتى ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ البَّهْم، ولا أهندي إلى ما أهدئى إليه من مُوَاراة قَتيله ﴿فَأَوَادِي﴾ واستتر بالتراب ﴿سَوْءَةَ أَخِي﴾ وجيفته ﴿فَأَضْبَحَ﴾ قابيل إذن ﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتل هابيل، حيث صار سبباً لكلفته، لتحمله على زقته مدة طويلة، وتحيره في أمره، أو لِمَا رَأَى أَنَّ الله أكرمه بعد موته ببعث الغراب.

قيل: إن الغراب حثا التراب على هابيل، ومن عادة الغراب دفن الأشياء^٢.
رُوي أَنَّهُ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهُ رَجَعَتِ الْأَرْضُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ بِمَا عَلَيْهَا، ثُمَّ شَرِبَتِ الْأَرْضُ دَمَ هَابِيلَ كَشْرَبِ الْمَاءِ، فَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ أَنْ تَشْرَبَ دَمًا بَعْدَهُ أَبَدًا^٣.
قيل: إن السباع والوحوش كانت تستأنس قبل ذلك، فلما قتل قابيل هابيل نفروا، فلجحت الطيور بالهواء والوحوش بالبرية والسباع بالغياض، وأشتاك الشجر، وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه، وأمر الماء، وأغبرت الأرض^٤.

في حزن آدم على ورثي آدم ﷺ هابيل وأنشأ يقول:
هابيل وراثه له

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَنَ سَ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الصَّبِيحُ^٥

وعن ابن عباس رضي الله عنه: مَنْ قَالَ إِنَّ آدَمَ قَالَ شِعْراً فَقَدْ كَذَّبَ، إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَالْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ فِي النَّهْيِ عَنِ الشَّعْرِ سَوَاءً، وَلَكِنْ لَمَّا قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ رثاه آدم، وهو شرياني، فلما قال آدم مَرثِيَةً قال لثييث: يَا بَنِي إِنَّكَ وَصِيِّي، أَحْفَظْ هَذَا الْكَلَامَ لِتَوَارِثَ فِيرِقِ النَّاسِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُنْقَلُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالسَّرْيَانِيَّةِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ، فَنَظَرَ فِي الْمَرثِيَةِ فَرَدَّ الْمُقَدَّمَ إِلَى الْمُؤَخَّرِ وَالْمُؤَخَّرَ إِلَى الْمُقَدَّمَ، فَوَزَنَهُ شِعْراً، وَزِيدَ فِيهِ آيَاتٌ^٦.

٢. تفسير الرازي ١١: ٢٠٩.

١. تفسير الرازي ١١: ٢٠٩، تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١، خزنة الأدب ١١: ٣٧٧.

وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ يَوْمِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: «يَوْمَ الدِّمِّ، فِيهِ حَاضَتْ حَوَاءٌ، وَفِيهِ قُتِلَ ابْنُ آدَمَ»^١.

وقيل: إِنَّ قَابِلَ ذَهَبَ طَرِيداً شَرِيداً فَرِعاً مَرْعُوباً لَا يَأْمَنُ مَنْ يَرَاهُ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَخْتِهِ إِقْلِيمَا وَهَرَبَ بِهِمَا إِلَى عَدَنَ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ، فَاتَاهُ إِبْلِيسُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا أَكَلْتَ النَّارَ قُرْبَانَ هَابِيلَ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْبُدُ النَّارَ، فَالْتَهَبَ^٢ أَنْتَ أَيْضاً نَاراً تَكُونُ لَكَ وَلِعَقِيبِكَ، فَبَنَى بَيْتَ النَّارِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَبَدَ النَّارَ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا رَمَاهُ، فَأَقْبَلَ ابْنُ لَهُ أَعْمَى وَمَعَهُ ابْنُ لَهُ، فَقَالَ لِلأَعْمَى ابْنِهِ: هَذَا أَبُوكَ قَابِلُ، فَرَمَى الأَعْمَى أَبَاهُ بِجِجَارَةٍ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ ابْنُ الأَعْمَى: قَتَلْتُ أَبَاكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَلَطَمَ ابْنَهُ فَمَاتَ، فَقَالَ الأَعْمَى: وَيْلَ لِي قَتَلْتُ أَبِي بَرَمِيَّتِي، وَ [قَتَلْتُ] ابْنِي بَلَطَمْتِي.

قال مجاهد: فَغَطَّلتُ إِحْدَى رِجْلَيْ قَابِلَ إِلَى فَخْذِهَا وَسَاقِهَا، وَعَلَّقْتُ مِنْ يَوْمِنِذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجْهَهُ إِلَى الشَّمْسِ حَيْثُمَا دَارَتْ عَلَيْهِ، فِي الصَّيْفِ حَظِيرَةٌ مِنْ نَارٍ [وَفِي الشِّتَاءِ حَظِيرَةٌ مِنْ ثَلَجٍ]^٣.
وروي أَنَّهُ لَا تَقْتُلُ نَفْسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، وَهُوَ أَبُو^٤ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ شَرَّ أَوْلَادِ تَوَالِدُوا مِنْ شَرِّ وَالِدِهِ.

قيل: اتَّخَذَ أَوْلَادُ قَابِلَ آلَاتَ اللّٰهُو، وَانْهَمَكُوا فِيهِ وَفِي شَرْبِ الخَمْرِ، وَعِبَادَةِ النَّارِ وَالزُّنَا وَالْفَوَاحِشِ، حَتَّى غَرَقَهُمُ اللَّهُ بِالطُّوفَانِ أَيَّامَ نُوحٍ، وَبَقِيَ نَسْلُ شِيثَ^٥.

وقيل: لَمَّا ذَهَبَ قَابِلُ إِلَى الْيَمَنِ كَثُرُوا وَطَفِقُوا يَتَحَارِبُونَ مَعَ سَائِرِ أَوْلَادِ آدَمَ إِلَى زَمَنِ مِهْلَانِيلَ بْنِ قَيْنَانَ بْنِ أَنُوشَ بْنِ شِيثَ، فَفَرَّقَهُمُ مِهْلَانِيلُ إِلَى أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَسَكَنَ هُوَ فِي أَرْضِ بَابِلَ، وَكَانَ كَيُومَرْتُ أَخَاهُ الصَّغِيرَ، وَهُوَ أَوَّلُ السَّلَاطِينِ فِي الْعَالَمِ، فَأَخَذُوا يَبْنُونَ الْمُدُنَ وَالْحُصُونِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ^٦.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِقُونَ [٣٢]

٢. في تفسير روح البيان: فانصب.

٤. تفسير الرازي ١١: ٢٠٨، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.

٥. في النسخة والمصدر: أب.

٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.

ثم لما بين سبحانه غاية فصاحة أمر القتل، وكونه موجباً لخسران الدنيا والآخرة، ذكر أن ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الخسران المبين في قتل النفس وبعلة هذه الفصاعة الشديدة فيه شدداً أمره في شرع موسى، و﴿كَتَبْنَا﴾ في اللوح المحفوظ، وفي التوراة، وقصينا ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وسائر أمة موسى ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة ﴿بَغْيًا﴾ علة قصاص ﴿نَفْسٍ أَوْ﴾ بغير ﴿فَسَادٍ﴾ ظاهراً من المقتول ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الموجب لاستحقاقه القتل وإصدار دمه، كالشوك والازدياد، أو قطع الطريق وغير ذلك من أسبابه ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ﴾ عمداً وعدواناً ﴿النَّاسَ جَمِيعًا﴾ في استجلاب غضب الله والعذاب العظيم، لا في مقدارهما، على ما قيل^١.

ثم أنه تعالى بعد المبالغة في تعظيم قتل النفس وإتلافها بغير حق، بالغ في تأكيد وجوب حفظها عن التلف بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بحفظها عن الهلاك والتلف بالعمو عن القصاص، أو منعها عن أن تقتل بغير الحق، أو استيقاظها من الهالك ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

عن الصادق عليه السلام: «وإِذَا فِي جَهَنَّمَ لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا كَانَ فِيهِ، وَلَوْ قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً كَانَ فِيهِ»^٢. وعن الباقر عليه السلام: «يُوضَعُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ جَهَنَّمَ إِلَيْهِ يَنْتَهِي شِدَّةُ عَذَابِ أَهْلِهَا، لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا إِنَّمَا كَانَ يَدْخُلُ ذَلِكَ الْمَكَانَ»، قيل: فإن قتل آخر؟ قال: «يُضَاعَفُ [عليه]»^٣.

وفي رواية: «لَهُ فِي النَّارِ مَقْعَدٌ لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا لَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ الْمَقْعَدِ»^٤. القمي: قال: مَنْ أَنْقَذَهَا مِنْ حَرْقٍ أَوْ غَرَقٍ أَوْ هَذَمٍ أَوْ سَبْعٍ، أَوْ كَفَّلَهُ حَتَّى يَسْتَعْنِيَ، أَوْ أَخْرَجَهُ مِنْ قَفَرٍ إِلَى غَنًى، وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ مَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى^٥.

وعنه عليه السلام: «مَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ [إِلَى هُدًى] فَكَأَنَّمَا أَحْيَاهَا، وَمَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ هُدًى إِلَى ضَلَالٍ فَقَدْ قَتَلَهَا»^٦.

وفي رواية: «فَمَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى، قَالَ: ذَلِكَ تَأْوِيلُهَا [الأعظم]»^٧.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «تَأْوِيلُهَا الأعظم أن دعاها فاستجابت له»^٨.

ثم أخذ في توبيخ بني إسرائيل على سفكهم الدماء بعد هذه التشديدات بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾

١. تفسير البيضاوي ١: ٢٦٤، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٤٦/٣٧.

٣. الكافي ٧: ٢٧١/١.

٤. الكافي ٧: ٢٧٢/٦، تفسير الصافي ٢: ٣٠.

٥. في الكافي: لم يرد إلا إلى.

٦. تفسير القمي ١: ١٦٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٢٤٥/٣٧، تفسير الصافي ٢: ٣١، عن الصادق عليه السلام.

٨. الكافي ٢: ١٦٨/٣، تفسير الصافي ٢: ٣١.

٩. الكافي ٢: ١٦٨/٣، تفسير الصافي ٢: ٣١.

لتقرير ما كتبنا عليهم ﴿رُسُلُنَا﴾ حَسْبَ مَا أَرْسَلْنَاهُمْ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التأكيد والتشديد في أمر القتل ومجيء الرُّسُل بتقريره ﴿فِي الْأَرْضِ لِمُسْرِفُونَ﴾ في القتل غير مُبَالِينِ بِعَظَمَتِهِ حَتَّى قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ.

إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا
أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [٣٣]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى جَوَازِ قَتْلِ الْمُفْسِدِينَ، صَرَحَ بِبِلَاغَتِهِ، بَلْ وَجُوهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بِمُحَارَبَةٍ أَوْ لِيَانِهِمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «مَنْ حَمَلَ السَّلَاحَ بِاللَّيْلِ فَهُوَ مُحَارِبٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الرِّيْبَةِ»^١
﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ ويمشون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لأجل أن يعملوا ﴿فَسَادًا﴾ في أموال المسلمين، أو أنفسهم
كَالْثَّهْبِ وَالْفَارَةِ وَالْقَتْلِ ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ بَأَن تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ بِالسَّيْفِ؛ إِنْ قَتَلُوا ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ وَيُقَتَّلُوا
بِالصُّلْبِ، أَوْ يُقَتَّلُوا ثُمَّ يُصَلَّبُوا؛ إِنْ قَتَلُوا نَفْسًا وَأَخَذُوا مَالًا ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ مَفْصِلِ الْأَصَابِعِ
الْأَرْبَعِ، وَيُتْرَكَ الرَّاحَةُ وَالْإِبْهَامُ ﴿وَأَرْجُلُهُمْ﴾ وَلَكِنْ بِنَحْوِ بَقِي الْعَقَبِ، إِنْ اقْتَصَرُوا عَلَى اخْذِ الْمَالِ،
وَلَكِنْ لِأَبَدٍ أَنْ يَكُونَ الْقَطْعُ ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ بَأَن تُقَطَّعَ الْيَمْنَى أَوَّلًا، ثُمَّ تُقَطَّعَ الرَّجُلُ الْيُسْرَى ثَانِيًا
﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الَّتِي يَسْكُنُهَا إِلَى مُضَرٍّ آخَرَ؛ إِنْ أَخَافُوا السَّبِيلَ.

ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ شِجَانَهُ عَلَى عَدَمِ انْجِصَارِ عُقُوبَتِهِمْ بِتِلْكَ الْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْحَدَّ الْمَقْرُورَ
فِي الشَّرْعِ ﴿لَهُمْ جِزْيٌ﴾ وَفَضِيحَةٌ ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ مُضَافًا إِلَى ذَلِكَ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
وَعِقَابٌ شَدِيدٌ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَوْمٌ مِنْ بَنِي ضَبَّةٍ مَرَضَى، فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: أَقِيمُوا عِنْدِي فَإِذَا بَرَثْتُمْ بَعْثْتُكُمْ فِي سَرِيَّةٍ. فَقَالُوا: أَخْرَجْنَا مِنْ
الْمَدِينَةِ، فَبِعِثَ بِهِمْ إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ يَسْرِبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَلَمَّا بَرِنُوا
وَاشْتَدَّ قَتْلُ ثَلَاثَةِ مِائَةٍ كَانُوا فِي الْإِبِلِ وَسَاقُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله الْخَبَرَ، فَبِعِثَ إِلَيْهِمْ
عَلِيًّا عليه السلام وَهُمْ فِي وَادٍ قَدْ تَحَيَّرُوا، لَيْسَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ، فَأَسْرَهُمْ وَجَاءَ
بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَاخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله الْقَطْعَ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ

خلاف^١.

وفي رواية: «أنها نزلت في قوم هلال بن عويمر الأسلمي، وكان وادعه رسول الله ﷺ على أن لا يُعينه ولا يُعين عليه، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يُهاج، ومن مز بهلال إلى رسول الله ﷺ [فهو آمن] لا يُهاج، فمَرَّ قومٌ من بني كِنانة يريدون الإسلام بنابس من قوم هلال، ولم يكن هلال يومئذ حاضراً، فقتلوا عليهم وقتلواهم وأخذوا أموالهم»^٢.

في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مَنْ شَهَرَ السِّلَاحَ فِي مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ فَعَمَّرَ؛ اقْتَصَصَ مِنْهُ وَتَنَّى مِنْ تِلْكَ الْبَلَدِ، وَمَنْ شَهَرَ السِّلَاحَ فِي غَيْرِ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ وَضَرَبَ وَعَمَّرَ وَأَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ فَهُوَ مُحَارِبٌ، فَجَزَاؤُهُ جَزَاءُ الْمُحَارِبِ وَأَمْرُهُ إِلَى الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ قَتْلُهُ، وَإِنْ شَاءَ [صَلْبُهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدُهُ وَرِجْلُهُ. قَالَ: وَإِنْ ضَرَبَ وَقَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ، فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى بِالسَّرْقَةِ، ثُمَّ يَدْفَعُهُ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فَيَتَّبِعُونَهُ بِالْمَالِ ثُمَّ يَقْتُلُونَهُ».

قال: فقال له أبو عبيدة: أرايت إن عفا عنه أولياء المقتول؟

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «إِنْ عَفَا عَنْهُ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَارَبَ وَقَتَلَ وَسَرَقَ».

قال: فقال أبو عبيدة: أرايت إن أراد أولياء المقتول أن يأخذوا منه الدية ويدعونه، ألهم ذلك؟ قال^٣: «عليه القتل»^٤.

وعن جميل بن دراج في الصحيح، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ إلى آخر الآية، [فقلت]: أي شيء عليهم من هذه الحدود التي سَمَى الله عز وجل؟ قال: «ذلك إلى الإمام إن شاء قَطَعَ، وإن شاء نَفَى، وإن شاء صَلَّبَ، وإن شاء قَتَلَ».

قلت: التَّغْيِي إلى أين؟ قال: «مِنْ مِصْرَ إِلَى مِصْرَ آخَرَ» - وقال: - «إِنْ عَلِيّاً نَفَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ»^٥.

وعن عبيد الله المدائني، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، فما الذي إذا فعله استوجب واحدة من هذه الأربع؟ فقال: «إذا حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ [فساداً] فَقَتَلَ قَتْلَ بَهٍّ، وَإِنْ قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ قَتَلَ وَصَلَّبَ، وَإِنْ

١. تفسير العياشي ٢: ٣٩/١٢٥٠، الكافي ٧: ٢٤٥/١، تفسير الصافي ٢: ٣١.

٢. تفسير أبي السعود ٣: ٣١، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٥.

٣. زاد في الكافي: فقال: لا.

٤. الكافي ٧: ٢٤٨/١٢، ٥. الكافي ٧: ٢٤٥/٣.

أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن شَهِرَ السَّيْفَ وحارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً ولم يقتل ولم يأخذ المال نفي من الأرض^١.

وعن أحمد بن الفضل الخاقاني من آل رزين، قال: قطع الطريق بجلولاء على السابلة من الحاج وغيرهم، وأفلت القطاع - إلى أن قال: - وطلبهم العامل حتى ظفر بهم، ثم كتب بذلك إلى المعتصم، فجمع الفقهاء وابن أبي ذؤاد، ثم سأل الآخرين عن الحكم فيهم، وأبو جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام حاضر، فقالوا: قد سبق حكم الله فيهم في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ولأمر المؤمنين أن يحكم بأي ذلك شاء فيهم.

قال: فالتفت إلى أبي جعفر وقال: [ما تقول فيما أجابوا فيه؟ فقال: «قد تكلم هؤلاء الفقهاء والقاضي بما سمع أمير المؤمنين» قال: و] أخبرني بما عندك؟ قال: «إنهم قد أضلوا في ما افتوا به، والذي يجب في ذلك أن ينظر أمير المؤمنين في هؤلاء الذين قطعوا الطريق، فإن كانوا أخافوا السبيل فقط ولم يقتلوا أحداً ولم يأخذوا مالاً، أمر بإيداعهم الحبس، فإن ذلك معنى نفهم من الأرض بإحافتهم السبيل، وإن كانوا أخافوا السبيل وقتلوا النفس أمر بقتلهم، وإن كانوا أخافوا السبيل وقتلوا النفس وأخذوا المال، أمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم بعد ذلك». فكتب إلى العامل بأن يحتل ذلك فيهم^٢.

أقول: الظاهر أن هذا التفصيل هو المراد من خبر يزيد بن معاوية، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال: «ذلك إلى الإمام يفعل ما يشاء». قلت: فمفوض ذلك إليه؟ قال: «لا، ولكن نحو الجناية»^٣. وفي رواية: «ولكن بحق الجناية»^٤.

وفي أخرى: «ولكنه يصنع [بهم] على قدر جناياتهم»^٥. ثم أنه اختلف الأصحاب وغيرهم لاختلاف الأخبار، فمنهم من قال بالتخيير لصحة أخباره، وموافقتها لظاهر الكتاب الكريم، وضعف أخبار الترتيب، ومنهم من قال بالترتيب لاستيفاضة رواياته، وانجبارها بالشهرة والإجماع المتقولين، وموافقتها للاختيار، ومخالفتها لأكثر العامة، كما ثومى إليه بعض النصوص.

١. تفسير العياشي ٢: ٤٢/١٢٥٨، الكافي ٧: ٢٤٦/٨، تفسير الصافي ٢: ٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ٣٩/١٢٥١.

٣. تفسير العياشي ٢: ٤١/١٢٥٢، الكافي ٧: ٢٤٦/٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ٤١/١٢٥٢.

٥. الكافي ٧: ٢٤٦/١١، تفسير الصافي ٢: ٣٢.

في الجمع بين الأخبار يحمل أخبار الترتيب على رُححان رِعاية قَدْر الجِناية،
أخبار حدّ وصلاحي الوقت، وخصوصيات حال الجاني، وغير ذلك من المُرُجحات، كما دلّ
المحارب عليه الخبر الوارد في شأن التَّروُل من قوله ﷺ: «فاختار الرُّشول القطع»^١.

واختلاف الأخبار في كَيْفِيَّة التَّرتيب، وإن اتَّفقت على تَعْيِن النَّفْي للإخافة المُجرَّدة عن القَتْل وأخذ
المال، وإن اختلفت في المُرَاد من النَّفْي، ففي بعضها فُسِّر بالإبداء في الحَبْس، وفي آخر بالغرق في
البحر، ولكنَّ المشهور قَتْوٌ ونَصاً هو النَّفْي من مِصرٍ إلى مِصرٍ، ويُمكن حَمْل الأول على مَنْ لا
يُؤْمَن فساده بَتبعيده إلى أرضٍ أُخرى.

ثمَّ لا فَرْق في الحُكْم بين الذِّكْر والأنثى إذا تحقَّقت الإخافة، وتَجريد السُّلاح بَقُصدها، بَل قال
بعضُ بعدَم اعتبار تحقُّق الإخافة، كما إذا كان مَنْ جَرَد السُّلاح ضَعيفاً في الأنظار، تَمسُكاً بإطلاق
الأدلة، كإطلاقها لِمَا إذا كان في بَرٍّ أو تَحَرٍّ، أو مِصرٍ، أو ليلٍ أو نهارٍ.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٤]

ثمَّ استثنى سبحانه من عُموم الحُكْم بالجزء الثانيين بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ إلى الله من مُحاربتِهِ
وَإِخافته المُؤْمِنين وإفساده في الأرض ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا﴾ وتستولوا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُ
الْحَدُّ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ دُونَ حُقُوق النَّاسِ مِنَ الضَّمان والقِصاص للإشعار به بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وعَدَم ثُبُوت مُخَصَّص لأدلة القِصاص والضَّمان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ [٣٥]

ثمَّ لَمَّا كان الدَّاعِي إلى مُحاربة المُؤْمِنين والسَّعي في الفَساد حُبَّ المال والمنافع الدُّنيوية، أُرشد
النَّاسَ بعدَ زَجْرهم عنه إلى عَمَلٍ فيه جميع الخَيْرَات الدُّنيوية والأخروية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَنَفْعها، فلا تَطْلُبُوهُ بِالْإفساد في الأرض وقَطْع الطَّرِيق، بَل ﴿اتَّقُوا
اللَّهَ﴾ واحترزوا عن مُخالفة أَحكامه ﴿وَابْتَغُوا﴾ لأنفسكم ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ واطْلُبُوا القُرْبَةَ مِنْهُ بِالْأعمال
الصَّالحة والائْتِقاد والطَّاعة.

الْقَمِي: «تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْإِيمَانِ»^١.

ثُمَّ خَصَّ الْجِهَادَ بِالذِّكْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ لِنَايَةِ الْإِهْتِمَامِ بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَتَفُوزُونَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٣٦]

ثُمَّ أَشَارَ شَبَحَانَهُ إِلَى أَنَّ الْمَالَ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الْآخِرَةِ مَعَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْوَالِهَا وَخَزَائِنِهَا وَزَخَارِفِهَا جَمِيعًا وَكُلًّا وَمِثْلَهُ وَضَعْفَهُ مَعَهُ﴾ فَرَضًا، ثُمَّ جَاءَ بِذَلِكَ ﴿لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ أَنْفُسَهُمْ وَيُخَلِّصُوهَا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وَعُقُوبَاتِ عِقَابِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ تِلْكَ الْفِئْدَةُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَخْلُصُ إِلَهُ إِلَى قُلُوبِهِمْ.

قِيلَ: إِنَّ الْجُمْلَةَ تَعْمِيلٌ [لِلزُّومِ الْعَذَابِ لَهُمْ وَ] اسْتِحَالَةِ نَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُحَقَّقَةِ وَالْمَفْرُوضَةِ^٢.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ [لَكَ] مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟» فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّكَ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ^٣.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ عَنْهُمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنْتُمْ أَعْدَاءُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^٤.

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ [٣٧]

ثُمَّ أَكَّدَ شَبَحَانَهُ اسْتِنَاعَ خَلَّاصِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ﴾ وَيَتَمَنُّونَ الْخَلَاصَ مِنْهَا، قِيلَ: إِذَا رَفَعَهُمْ لَهُمْ النَّارُ إِلَى فَوْقِ فَهَذَا تَمَنُّونَ الْخُرُوجَ ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ وَنَاجِينَ ﴿مِنْهَا﴾ وَمِنْ شِدَائِهَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ثَابِتٌ عَلَيْهِمْ لَا يَزُولُ أَبَدًا. وَفِي تَخْصِصِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ بِالْكَفَّارِ دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ الْخُلُودِ لِلْعَصَاةِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

١. تفسير القمي ١: ١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٩.

٣. تفسير الرازي ١١: ٢٢١، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٩.

٤. تفسير العياشي ٢: ٤٣/١٢٦٠ و١٢٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٣.

حَكِيم [٣٨]

نسي بيان حَدّ ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حَدّ مَنْ أخذ أموال الناس بالمُحاربة وقَطَعَ الطريق، بَيْنَ حَدّ السارق أخذ أموالهم خُفْيَةً بقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ حدّهما الثَّابِت في الكتاب أنّه إذا قَدِرْتُمْ عليهما ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

مثل الصادق عليه السلام، في كَمْ يَقْطَع السَّارِق؟ قال: «في رُبع دينار، بَلَغَ الدِّينَارُ ما بَلَغَ»^١، قيل: أَرَأَيْتَ مَنْ سَرَقَ أَقْلَ مِنْ رُبع دينار، هل يَقَعُ عليه حينَ سَرَقَ اسمُ السَّارِقِ، وهل هُوَ عِنْدَ الله سارق في تلك الحال؟ فقال: «كُلُّ مَنْ سَرَقَ مِنْ مُسْلِمٍ شَيْئاً قَدْ حَوَاهُ وَأَحْرَزَهُ، فَهُوَ يَقَعُ عَلَيْهِ اسمُ السَّارِقِ، وَ[هُوَ] عِنْدَ الله سارق، ولكن لا يَقْطَعُ إِلَّا في رُبع دينار أو أَكْثَرَ، ولو قُطِعَتْ أَيْدِي السَّارِقِ في ما هُوَ أَقْلَ مِنْ رُبع دينار لَأَلْفَيْتَ عَامَةَ النَّاسِ مُقْطَعِينَ»^٢.
وعنه عليه السلام: «الْقَطْعُ مِنْ وَسْطِ الْكَفِّ، وَلَا يَقْطَعُ الْإِبْهَامَ»^٣.

وفي رواية: «يَقْطَعُ أَرْبَعَ أَصَابِعَ وَيُتْرَكُ الْإِبْهَامُ، يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي الصَّلَاةِ وَيَغْسِلُ بِهَا وَجْهَهُ [لِلصَّلَاةِ]»^٤.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه كان إذا قَطَعَ السَّارِقَ ترك له الإِبْهَامَ وَالرَّاحَةَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَرَكْتَ عَامَةً يَدَهُ؟ فَقَالَ: «إِنْ تَابَ فَبَأَيِّ شَيْءٍ يَتَوَضَّأُ، يَقُولُ اللهُ ﴿فَمَنْ تَابَ...﴾»^٥ الْخَبَرِ.
ثمّ علَّلَ الْحُكْمَ بِقَطْعِ الْيَدِ بقوله: ﴿جَزَاءُ﴾ مِنْ اللهِ لهما ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ مِنَ الْخِيَانَةِ وَمُكَافَأَةً لهما عَلَى ما فَعَلَا مِنَ السَّرْقَةِ، وَ﴿تَكَالُفٌ﴾ وَعُقُوبَةٌ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ رَادِعَةٌ لهما عَنِ الْعُودِ، وَلِغَيْرِهما مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهما ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وَغَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، يُعْضِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي شُرَائِعِهِ يَحْكُمُ بِمَا يَقْضِيهِ الصَّلَاحُ.

في الاستدلال على
وجوب نصب
الامام
ثمّ اعْلَمْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ اسْتَدَلُّوا بِالْآيَةِ عَلَى وَجوبِ نَصْبِ الْإِمَامِ، بِتَقْرِيبِ أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى وَجوبِ إِقَامَةِ الْحَدِّ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهَا لِلْإِمَامِ خَاصَّةٌ ذَوْنُ الرَّعِيَّةِ، فَوَجوبِ وَجُودِ الْإِمَامِ، وَإِلَّا يَلْزَمُ وَجُودُ التَّكْلِيفِ وَالْخِطَابِ بِذَوْنِ الْمُكَلَّفِ وَالْمُخَاطَبِ؛ وَهُوَ مُحَالٌ إِنَّمَا الْاِخْتِلَافُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعَامَّةِ فِي أَنَّ نَصْبَ الْإِمَامِ هَلْ هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الرَّعِيَّةِ، أَوْ عَلَى اللهِ؟ وَالْعَامَّةُ قَانِلُونَ بِالْأَوَّلِ، وَالْخَاصَّةُ بِالثَّانِي، لِاشْتِرَاطِهَا عِنْدَهُمْ بِشُرَائِطٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا

٢. الكافي ٧: ٢٢٢/٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤.

٤. تفسير العياشي ٢: ٤٤/١٢٦٣، تفسير الصافي ٢: ٣٤.

١. الكافي ٧: ٢٢١/٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣.

٣. الكافي ٧: ٢٢٥/١٧، تفسير الصافي ٢: ٣٤.

إِلَّا اللَّهَ، وَلَئِنَّمَا عَهْدُ اللَّهِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^١. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِيَدِ غَيْرِهِ تَعَالَى حَتَّى النَّبِيِّ.

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٩]

ثُمَّ أَنَّهُ بَعْدَ إِظْهَارِ الْغَضَبِ عَلَى السَّارِقِ بِحُكْمِهِ بَقْطَعِ يَدِهِ، أَعْلَنَ بَسْعَةَ رَحْمَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ مِنَ السَّرَاقِ إِلَى اللَّهِ وَنَدِمَ مِنْ فِعْلِهِ الشَّنِيعِ ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَعَلَى غَيْرِهِ بِسَرَقَةِ مَالِهِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نِيَّتَهُ فِي التَّوْبَةِ، وَعَمَلَهُ بِرَدِّ الْمَالِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ وَيَعْفُو عَنْهُ، فَلَا يُعَذِّبُهُ بِالْقَطْعِ فِي الدُّنْيَا وَبِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ إِذَا كَانَتْ تَوْبَتُهُ قَبْلَ الظُّفْرِ، وَبِالنَّارِ فَقَطْ إِنْ كَانَتْ بَعْدَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بِالتَّائِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

فِي (الكَافِي): عَنْ أَحَدِهِمَا عليه السلام، فِي رَجُلٍ سَرَقَ أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ أَوْ زَنَى، فَلَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَمْ يُؤْخَذْ حَتَّى تَابَ وَصَلَحَ، [فَقَالَ: «إِذَا صَلَحَ»] وَعُرِفَ مِنْهُ أَمْرٌ جَمِيلٌ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ الْحَدُّ^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ سَارِقًا فَعَفَا عَنْهُ فَذَلِكَ لَهُ، فَإِذَا رُفِعَ إِلَى الْإِمَامِ قَطْعُهُ، فَإِنْ قَالَ الَّذِي سَرَقَ مِنْهُ: أَنَا أَهَبُ لَهُ؛ لَمْ يَدَعْهُ الْإِمَامُ حَتَّى يَقْطَعَهُ إِذَا رَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا الْهَبَةُ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ إِلَى الْإِمَامِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾^٣، فَإِذَا انْتَهَى الْحَدُّ إِلَى الْإِمَامِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَهُ»^٤.

وَعَنِ عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَأْخُذُ اللَّصَّ يَرْفَعُهُ أَوْ يَتْرُكُهُ؟ فَقَالَ: «إِنْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ كَانَ مُضْطَجِعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَخَرَجَ يُهْرِيقُ الْمَاءَ، فَوَجَدَ رِدَاءَهُ قَدْ سُوقَ حِينَ رَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ ذَهَبَ بِرِدَائِي؟ فَذَهَبَ يَطْلُبُهُ، فَأَخَذَ صَاحِبُهُ فَرَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ [النَّبِيُّ]: اقْطَعُوا يَدَهُ، فَقَالَ صَفْوَانُ: تَقْطَعُ يَدَهُ مِنْ أَجْلِ رِدَائِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي أَهْبُهُ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: فَهَلَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَيَّ؟ قِيلَ: فَإِلَّا بِمَنْزِلَتِهِ إِذَا رُفِعَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»^٥.

أَقُولُ: لِأَجْلِ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ ذَهَبَ أَصْحَابُنَا إِلَى اشْتِرَاطِ الْقَطْعِ بِمُطَالَبَةِ الْمَسْرُوقِ مِنْهُ، وَرَفْعِهِ السَّارِقَ إِلَى الْإِمَامِ، فَإِنْ عَفَا عَنْهُ قَبْلَ الرِّفْعِ سَقَطَ الْحَدُّ. وَقَدْ ادَّعَى بَعْضُ الْأَصْحَابِ عَدَمَ الْخِلَافِ فِيهِ.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٤٠]

١. البقرة: ١٢٤/٢. ٢. الكافي: ٧/٢٥٠، تفسير الصافي: ٢: ٣٥. ٣. التوبة: ١١٢/٩.

٤. الكافي: ٧/٢٥١، تفسير الصافي: ٢: ٣٥. ٥. الكافي: ٧/٢٥١، تفسير الصافي: ٢: ٣٥.

ثم لما أوجب الله تعالى قطع يد السارق للمال وإن كان قليلاً، ووعد به بالمغفرة إذا تاب، عرف ذاته المقدسة بالسلطنة التامة المطلقة، بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة على جميع الموجودات، إذن ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه بحكمته ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ غفرانه برحمته [سواء أ] كان الذنب صغيراً أو كبيراً، لا يسئل عما يفعل.

ثم قرر قدرته غير المتناهية بقوله: إن ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب والمغفرة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنعه مانع عن إنفاذ إرادته، ولا يدفعه دافع عن إمضاء مشيئته.

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْزِقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [٤١]

ثم أنه تعالى - بعد إثبات ثبوت نبيه ﷺ بالأخبار الغيبية من قصة مخالفة بني إسرائيل أمر موسى عليه السلام بالجهاد مع العمالة وإبتلائهم بالثبوت، وقصة قابيل وهابيل ابني آدم، المواقفتين لما في الكتب السماوية، مع كونه ﷺ أمياً، وبالأحكام المحكمة الموافقة للعقول السليمة، وكان الكل أدلة على صدق نبوته، ومع ذلك كان المنافقون واليهود مبالغين في إنكار رسالته والإخلال في أمره - سأل قلب حبيبه بعد خطابه بالتشريف والتعظيم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ﴾ صنع ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ويبادرون إلى إنكار رسالتك بعد تمامية الحجة ووضوح صدقك ﴿وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ﴾ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِكَ، ولكن ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، وألستهم، ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ لَمْ تُؤْمِنْ بِكَ قُلُوبُهُمْ، وأفندتهم ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وآتبوا دين اليهودية، هم ﴿سَمَاعُونَ﴾ ومبالغون في القبول ﴿لِلْكَذِبِ﴾ والفرية من علمانهم وأخبارهم.

وقيل: إن المراد أنهم مبالغون في سماع أخبارك وأحاديثك ليكذبوا عليك بالزيادة والنقص والتغيير^١.

قيل: إنهم كانوا يسمعون من الرسول، ثم يخزجون ويقولون: سمعنا منه كذا وكذا؛ مع أنهم لم

يَسْمَعُوا ذَلِكَ مِنْهُ^١.

ومع ذلك هم ﴿سَمَاعُونَ﴾ ومبالغون في القبول ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ من اليهود الذين ﴿لَمْ يَأْتَوْكَ﴾ ولم يحضروا عندك تكبراً وإفراطاً في البغضاء.

قيل: (سَمَاعُونَ) بنو قريظة، و(قوم آخريين) يهود خيبر^٢.

وهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة، ويزيلونه عن مواضعه ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ أن الله وضعه في ﴿مَوَاضِعِهِ﴾، ثم القوم الآخرون المحرفون ﴿يَقُولُونَ﴾ لعوانهم وأتباعهم السماعين لهم عند إلقائهم الأقاويل الباطلة والكلمات المحرفة إليهم: ﴿إِنْ أَوْتَيْتُمْ﴾ من قِبل محمد ﴿هَذَا﴾ القول الذي قلنا لكم ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ وأقبلوا منه، واعملوا بمقتضاه لأنه الحق، مع كونه باطلاً محرفاً ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أوتيتم غيره ﴿فَاحْذَرُوا﴾ وامتنعوا عن قبوله.

قيل: سبب نزول الآية ما مر من حكم النبي بالرحم، وحكومة ابن سوريا فيه^٣.

وعن القمي رحمه الله: كان سبب نزولها أنه كان في المدينة بطنان من اليهود من بني هارون؛ وهم النضير وقريظة، وكانت قريظة سبعمائة، والنضير ألفاً، وكانت النضير أكثر مالاً وأحسن حالاً من قريظة، وكانوا حلفاء لعبد الله بن أبي، فكان إذا وقع بين قريظة والنضير قتل، وكان القتل من بني النضير قالوا لبني قريظة: لا نرضى أن يكون قتيلاً منا بقتيل منكم؛ فجرى بينهم في ذلك مخاطبات كثيرة، حتى كادوا أن يقتتلوا، حتى رضيت قريظة وكتبوا بينهم كتاباً على أنه أي رجل من النضير قتل رجلاً من بني قريظة أن يجنب ويحرم^٤، والتجنب أن يقعد على جمل، ويولى وجهه إلى ذنب الجمل، ويُلطخ وجهه بالحناء^٥، ويدفع نصف الدية، وأما رجل من قريظة قتل رجلاً من النضير أن يدفع إليه الدية كاملة، ويقتل به.

فلما هاجر رسول الله ﷺ [إلى المدينة] ودخل الأوس والخزرج في الإسلام، ضعف أمر اليهود، فقتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير، فبعث إليهم بنو النضير أن ابغضوا إلينا دية المقتول وبالقاتل حتى نقتله، فقالت قريظة: ليس هذا حكم التوراة، وإنما هو شيء غلبتمونا عليه، فأما الدية وأما القتل، وإلا فهذا محمد بيننا وبينكم، فهلّموا وتحاكموا إليه.

فمشت بنو النضير إلى عبد الله بن أبي فقالوا: سل محمداً أن لا يتقض شرطنا في هذا الحكم الذي

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٣.

٢. مجمع البيان ٣: ٢٩٩، تفسير روح البيان ٢: ٣٩٤، تفسير الصافي ٢: ٢٢.

٣. في المصدر: وكان القاتل.

٤. التجنب: الطين الأسود.

٥. بجنب: يبعد، ويحرم: يسود وجهه بالفحم.

بيننا وبين بني قريظة في القتل، فقال عبدالله بن أبي: ابعثوا [معي] رجلاً يسمع كلامي وكلامه، فإن حكم لكم بما تريدون وإلا فلا ترضوا به، فبعثوا معه رجلاً، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هؤلاء القوم، قريظة والنضير، قد كتبوا كتاباً بينهم وعهداً وثيقاً تراضوا به، والآن في قدومك يريدون نقضه، وقد رضوا بحكمك فيهم، فلا تنقض كتابهم وشرطهم، فإن [بني] النضير لهم القوة والسلاح والكرأ، ونحن نخاف^١ اللوائر، فاعتم رسول الله ﷺ من ذلك ولم يجبه بشيء، فنزل عليه جبرئيل بهذه الآيات ﴿... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَغْيٍ مُوَاضِعِهِ﴾ يعني: عبدالله بن أبي، وبني النضير، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾، يعني: عبدالله [بن أبي]، قال لبني النضير: إن لم يحكم [لكم] بما تريدونه فلا تقبلوا^٢.

ثم لما بين الله عز وجل فضائح اليهود والمنافقين كعبدالله بن أبي، نبه على عدم إمكان علاج مرض كفرهم، بقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِالْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ﴾ **﴿فَتَنَّتْهُ﴾**، وإتياءه بالكفر والضلال، أو فضيخته بالكفر، أو تعذيبه **﴿فَلَنْ تَمْلِكَ﴾** ولن تستطيع **﴿لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾** في دفعها **﴿شَيْئاً﴾** سيراً، إذن فاعلم أن **﴿أُولَئِكَ﴾** اليهود والمنافقين هم **﴿الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾** من الزين والرئيس والطبيع والصيق، ولذا ثبت **﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾** وذلة، بضرب الجزية على اليهود منهم، وإجلاء بني النضير، وإظهار كذبهم وكمائنهم للحق، ونقض المنافقين بإظهار كفرهم، وإجلائهم بين المؤمنين **﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾** ودار الجزاء **﴿عَذَابٌ﴾** بالنار **﴿عَظِيمٌ﴾** بالخلود فيها.

سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّخْتِ إِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُواكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [٤٢]

ثم بالغ سبحانه في ذمهم وتقريعهم بقوله: **﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّخْتِ﴾** والمال الحرام. وإنما ذمهم بالوصفين لتوغلهم فيها.

قيل: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه من كان مبطلاً في دعواه برشوة، سمع كلامه ولا يلتفت إلى خصمه، وكان يسمع الكذب ويأكل السحت^٣.

وقيل: كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالاً ليقبضوا على ما هم عليه من اليهودية، فالفقراء كانوا

٢. زاد في المصدر: الغوائل و.

٤. تفسير الرازي ١١: ٢٣٥.

١. الكرأ: اسم يجمع الخيل والسلاح.

٣. تفسير القمي ١: ١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣٦.

يسمعون أكاذيب الأغنياء، ويأكلون السُّحت الذي يأخذونه مِنْهُم^١.

وقيل: كانوا سَمَاعُونَ للكُذِب الذي ينسُبونه إلى التوراة، أَكَالُونَ للرِّبَا^٢.

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، في قوله تعالى: ﴿أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ﴾ قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَقْضِي لِأَخِيهِ الْحَاجَةَ [ثُمَّ] يَقْبَلُ هَدِيَّتَهُ»^٣.

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «السُّحْت أنواع كثيرة؛ منها: أجور الفَوَاجِرُ، وَثَمَنُ الْخَمْرِ وَالتَّبِيدِ الْمُسْكِرِ، وَالرِّبَا بَعْدَ الْبَيْتَةِ، وَأَمَّا الرُّشَا فِي الْحُكْمِ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِرَسُولِهِ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «السُّحْت ثَمَنُ الْبَيْتَةِ، وَثَمَنُ الْكَلْبِ، وَثَمَنُ الْخَمْرِ، وَمَهْرُ الْبَغْيِ، وَأَجْرُ الْكَاهِنِ، وَالرِّشْوَةُ»^٥.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ سَبَبُ نَزُولِ آيَةِ السَّابِقَةِ مُحَاكِمَةُ الْيَهُودِ عِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَمْرِ الْقَتْلِ، أَوْ حَدِّ زِنَا الْمُحْصَنِ، خَيَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ مُحَاكِمِينَ إِلَيْكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَاتِ ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ بِمَا هُوَ الْحَقُّ عِنْدَ اللَّهِ ﴿أَوْ أَعْرِضْ﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴿وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ﴾.

ثُمَّ أَمَنَهُ اللَّهُ شِجَانَهُ - إِثْرَ التَّخْيِيرِ - مِنَ الضَّرَرِ عَلَى الْحَالِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تَقْبَلِ الْحُكُومَةَ بَيْنَهُمْ ﴿فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾. يسيراً مِنَ الضَّرَرِ بِسَبَبِ إِعْرَاضِكَ عَنْهُمْ وَعَدَمِ اغْتِنَانِكَ بِهِمْ، وَإِنْ زَادَتْ مُعَادَاتُهُمْ فَاللَّهُ عَاصِمُكَ ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ وَقَبِلْتَ الْفَصْلَ بَيْنَهُمْ ﴿فَاحْكُمْ﴾ وَأَقْضِ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بِحُكْمٍ وَقَضَاءٍ مُلَائِسٍ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وَالْعَدْلِ الَّذِي أَمَرْتَ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. فِي الْحُكْمِ، الْعَادِلِينَ فِي الْقَضَاءِ؛ فَيَحْفَظُهُمْ مِنْ كُلِّ شَوْءٍ وَمَكْرُوهِ، وَيُكْرِمُهُمْ بِالْقُرْبِ إِلَيْهِ. فِي الْحَدِيثِ: «الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ ثَوَرٍ»^٦.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «إِنَّ الْحَاكِمَ إِذَا أَتَاهُ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَ[أَهْلُ] الْإِنْجِيلِ يَتَحَاكِمُونَ إِلَيْهِ، كَانَ ذَلِكَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَهُمْ»^٧.

في أن الحاكم مخير	أقول: حُكِيَ اتِّفَاقُ أَصْحَابِنَا عَلَى تَخْيِيرِ الْحَاكِمِ فِي الصُّورَةِ إِذَا كَانَ الْخَصْمَانِ أَهْلَ مِلَّةٍ
في الحكم بين أهل الكتاب إذا كان	واحدة، وأما إذا كان أحدهما مسلماً؛ فلا يجوز رَدُّ الْحُكْمِ فِيهِ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ. وَإِنَّمَا
المخاصمان أهل	الْخِلَافِ فِيمَا إِذَا كَانَ ذِمِّيَّينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتَيْنِ كَالْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ. وَالْأَفْوَى تَحْتُمُ
مِلَّةً واحدة	

١. ٢٣٥: ١١ الرازي

٢. ٣٨: ٢ تفسير الصافي

٣. ١/١٢٦: ٥، تفسير الصافي

٤. ٣٧: ٢ تفسير الصافي

٥. ٣٨: ٦ التهذيب

٦. ٣٧: ٢ تفسير الصافي

٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٥

الحكم بينهما بمذهب الإسلام، لعمومات وجوب الحكم والقضاء بالحق، وبما أنزل الله، ولم يثبت التخصيص إلا فيما [إذا] كانا من أهل ملة واحدة، ويؤيده أن [في] الرد إلى إحدى الملتين إثارة الفتنة. وقيل: إن التخيير منسوخ بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنه ٢، قال: ما نسخ من المائدة غير هذه الآية، وغير قوله تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ٣، نسخها قوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ٤.

وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ [٤٣]

ثم ويخ الله سبحانه اليهود على إعراضهم عن التوراة التي يعتقدون أنهم مؤمنون بها، وتحكيمهم من لا يؤمن به، باستيفاهم فيه تعجب للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾ ويرضون هؤلاء اليهود بقضائك بينهم، ﴿وَالْحَالُ أَنْ عِنْدَهُمْ﴾ وفي منظرهم ﴿التَّوْرَةُ﴾ التي تمنعهم عن حكمك، إذ ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ صريحاً في موضوع تشاجرهم في أمر القصاص والدية ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التحكيم والرضا بقضائك ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ المتحاكمون إليك ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بشيء من التوراة ولا بحكمك لإعراضهم عنها وعنك، بل عرضهم اتباع الهوى، وتحصيل مصالح الدنيا.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَتُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [٤٤]

ثم بالغ سبحانه في ذمهم وتقرعهم على إعراضهم عن التوراة ببيان عظم شأنها بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ إلى بني إسرائيل، والحال أن ما ﴿فِيهَا هُدًى﴾ من الضلال، ورشاد إلى الحق، وبيان لكل حكم، ﴿وَتُورٌ﴾ فيها ﴿تُورٌ﴾ ترتفع به ظلمة الجهل، وتزول به كدورة الشك، وقد كانت من أول نزولها ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ واتقادوا لله ولأحكامه ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ واتباعوا شريعة موسى

١. المائدة: ٤٩/٥. ٢. تفسير الرازي ١١: ٢٣٥، تفسير أبي السعود ٣: ٣٩. ٣. المائدة: ٢/٥.

٤. تفسير أبي السعود ٣: ٣٩، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.

من بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أيضاً كانوا يحكمون به، وكان اهتمامهم ببعث الناس إلى العمل بها ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ وبسبب كونهم موكلين على وقايته من التحريف والتغيير والصّياغ والإهمال، حسب ما وصّاهم الله به ﴿وَكَانُوا﴾ جميعاً لشدة اهتمامهم بحفظه كلّ زمان ﴿عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ بين الناس يشهدون بصدقه ونزوله من الله. أو المراد: أنهم عليه رقباء يراقبون على أن لا يغير ولا يضيع.

عن الصادق عليه السلام: «الرَّبَّانِيُّونَ: هُمُ الْأَثَمَةُ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ بِعِلْمِهِمْ، وَالْأَحْبَارُ: هُمُ الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ - قال: - ثُمَّ أَخْبِرْ عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: بِمَا حَمَلُوا مِنْهُ»^١.

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «فِينَا نَزَلَتْ»^٢.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان قيام النبيين والرَّبَّانِيِّينَ والأحبار بحفظ التّوراة والاهتمام بامضاء أحكامها من غير مبالاة، خاطب اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ وحرّضهم وحرّض رؤساءهم وأخبارهم بالانقياد بمن قبلهم من الأنبياء، واتباعهم في عدم المبالاة من أحد في حفظ التّوراة وإمضاء أحكامها؛ بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ﴾ [سواء أكانوا ملوكاً أو غير ملوك، على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، في أن تحكموا بحكم التّوراة في الرّجم والقتل وغيرهما، وإياكم أن تحرّفوا كتاب الله بإسقاط الحدّ الواجب والتساوي في الدية والقيصاص] ﴿وَأَخْشَوْا اللَّهَ﴾ وخافوا من عقابي على تغيير كتابي والحكم بغير الحق.

ثمّ بعد الردع عن داعي الرّهبة الذي هو أقوى الدّواعي، ردّع عن داعي الرّغبة بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ وأحكام كتابي ﴿فَتَمْنًا﴾ وِعِوَضًا ﴿قَلِيلًا﴾ من الرّشوة والجّاه وسائر الخطوط الدنيوية.

ثمّ هدّد المتغيّرين لكيابه، الحاكمين بغير أحكامه بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الأحكام، مُسْتَهْنِئاً بها، رادّاً لها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنكرون له بقلوبهم، التاركون له بأعمالهم ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وبكتابه حقّاً، الخالدون في النّار أبداً.

عن (الكافي): عن النبي ﷺ: «مَنْ حَكَمَ فِي دِرْهَمَيْنِ بِحُكْمِ جَوْرٍ، ثُمَّ جَبَرَ عَلَيْهِ، كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ

١. تفسير العياشي ٢: ١٢٧٩/٥١، تفسير الصافي ٢: ٣٨.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٧٨/٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٩.

الآية^١.

وعنهما عليهما السلام: «مَنْ حَكَمَ فِي دِرْهَمَيْنِ بغير ما أنزل الله، مِمَّنْ لَهُ سَوَاطُ أَوْ عَصَا؛ فَهُوَ كَافِرٌ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ»^٢.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٤٥]

ثم أخبر الله بما في التّوراة من حكم القصاص والمساواة فيه بين الوضيع والشريف بقوله: «وَكَتَبْنَا» وأثبتنا «عَلَيْهِمْ فِيهَا» بالصرّاحة «أَنَّ النَّفْسَ» القاتلة تُقَادُ «بِالنَّفْسِ» المقتولة بغير حقّ مطلقاً، من غير فرق بين الوضيع والشريف، والقويّ والضعيف، والصغير والكبير، «وَالْعَيْنَ» تُفَقِّدُ «بِالْعَيْنِ» إذا فُقِيت بغير حقّ «وَالْأَنْفَ» يُجَذَّمُ «بِالْأَنْفِ» إذا جُذِمَ بغير حقّ، «وَالْأُذُنَ» تُقَطَّعُ «بِالْأُذُنِ» المقتوعة بغير حقّ، «وَالسِّنَّ» تُقْلَعُ «بِالسِّنِّ» المقلوعة بغير حقّ، «وَالْجُرُوحَ» كُلُّهَا إذا عُرِفَ حَدُّهَا فِيهَا «قِصَاصٌ» مُعَيَّنٌ، ومُجازاة بالمِثْلِ إذا أمكنت المساواة، وأما إذا لَمْ يُمْكِنِ الْمُسَاوَاةُ وَالْقِصَاصُ بِالْمِثْلِ غَالِباً؛ كَالْجَانِفَةِ وَنَحْوِهَا، ففِيهَا الدِّيَةُ أَوْ الْحُكُومَةُ.

ثم حثّ سبحانه المَجْنِيَّ عليه بالعفو عن القصاص بقوله: «فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ» على الجاني، وعفا عنه القصاص «فَهُوَ كَفَّارَةٌ» ومآجِية للذنوب «لَهُ».

في الحديث: «مَنْ أَصِيبَ بِشَيْءٍ مِّنْ جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ اللَّهُ، كَانَ كَفَّارَةً لَهُ»^٣.

ورُوي أَنَّهُ «ثَلَاثٌ مَّنْ جَاءَ بِهِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْإِيمَانِ دَخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ، وَتَزَوَّجَ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ حَيْثُ شَاءَ: مَن عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ، وَمَن قَرَأَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» أَحَدَ عَشَرَ مَرَّةً^٤، وَ[مَنْ] أَدَّى دِيْنًا خَفِيًّا»^٥.

وقيل: إِنَّ ضَمِيرَ (لَهُ) رَاجِعٌ إِلَى الْجَانِي، وَالتَّرَادُّ: أَنَّهُ إِذَا عَفَا الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ عَنِ الْجَانِي فَعَفَوْهُ كَفَّارَةٌ لِّذَنْبِ الْجَانِي، فَلَا يُؤْخَذُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّ الْقِصَاصَ كَفَّارَةٌ، وَأَمَّا أَجْرُ الْعَافِي فَعَلَى اللَّهِ^٦.

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حُكْمِ الْقِصَاصِ وَاسْتِحْبَابِ الْعَفْوِ، هَدَّدَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ بِقَوْلِهِ: «وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» مِنْ حُكْمِ الْقِصَاصِ وَغَيْرِهِ «فَأُولَئِكَ» الْمُخَالَفُونَ «هُمُ الظَّالِمُونَ» عَلَى

١. الكافي ٧: ٣٧/٤٠٨، تفسير الصافي ٢: ٣٩.

٢. الكافي ٧: ١٤٠٧، تفسير الصافي ٢: ٣٩.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٨.

٤. كذا في النسخة وتفسير روح البيان.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٨.

أنفسهم بإيتلائها بالعقاب الدائم، أو الظالمون على المَجْنِي عليه.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَتُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ [٤٦]

ثم لما ذكر الله سبحانه أن النبيين والربانيين والأحبار كانوا يحكمون بحكم التوراة، ذكر أن
عيسى عليه السلام مع كونه صاحب شرع وكتاب، مُصَدِّقٌ لِلتَّوْرَةِ أيضاً، بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾
وأتبعناهم في الإسلام والاثقياد لحكم الله ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وجننا به بعدهم رَشَولاً، حال كونه
﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾ نزل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقبل بعثته ﴿مِنْ﴾ كتاب ﴿التَّوْرَةِ﴾ وشاهداً على أنها من الله،
ومتعترفاً بصِدْقِهَا ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الذي يكون ﴿فِيهِ هُدًى﴾ للحق، وإرشاداً إلى تَثْرِيهِ الله من
الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالْمِثْلِ، وإلى جميع المعارف الحَقَّةِ الإلهية، ﴿وَو﴾ فيه ﴿تُورٌ﴾ ينكشف به سبيل
السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْأَدَابِ وَالْأَخْلَاقِ، ﴿وَو﴾ يكون ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ﴾ في العلوم والمعارف، ﴿وَو﴾ يكون ﴿هُدًى﴾ ورشاداً إلى ثبوت محمد ﷺ - كما قيل -
﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ونصحاء وزَجْرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم المُستَفْعُونَ به.

وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمْ الْقَاسِقُونَ [٤٧]

في بيان أن القرآن حافظ الكتب السماوية
ثم أنه تعالى بعد إخباره بأن في الإنجيل هُدًى إلى ثبوت محمد ﷺ، أمر النَّصَارَى
بالإلتزام بجميع ما فيه بقوله: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ البتة ﴿أَهْلَ الْإِنْجِيلِ﴾ والمؤمنون به ﴿بِمَا
أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ من الأحكام، والِبِشَارَةِ بِبَغْتَةِ رَشُولِ اسْمِهِ أَحْمَدَ، ولازم ذلك هو
الإلتزام بَنَسْخِ مَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ بَنَسْخِهِ.

ثم هَدَّدَ عَلَى تَرْكِ الْإِثْمِ بِهِ بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ﴾ ولم يلتزم ﴿بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ فيه، ولم يحِمل
النَّاسَ عَلَيْهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله وحدود العقل.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ
فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا
مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

أَتَاكُمْ فَاسْتَقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٤٨]

ثم بعد بيان فضائل الكتابين، شرع سبحانه في ذكر فضائل القرآن بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ السماوي؛ وهو القرآن العظيم، حال كونه ملبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ومقروناً بشواهد الصدق و﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما أنزل قبله ﴿مِنْ﴾ جنس ﴿الْكِتَابِ﴾ السماوي و﴿مُتَّبِعِينَ﴾ وشاهداً ﴿عَلَيْهِ﴾ دالاً على صدقه، أو حافظاً له، لكون القرآن معجزة باقية دون سائر الكتب، ومصوناً من التغيير والتحريف أبد الدهر، وليس على صدق سائر الكتب، دليل لعدم اشتغال واحد منها على الإعجاز، وانقطاع نواترها، ولولا القرآن وصراحته بصدقها، لا طريق لأحد إلى تضديقها، فمادام بقاء القرآن تبقى الحجة على صدق سائر الكتب.

ثم لما ذكر فضائل القرآن، أمر النبي ﷺ بالعمل به، وإجراء ما فيه من الأحكام بقوله: ﴿فَاخُذْهُمُ﴾ يا محمد ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وعند مشاجراتهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك فيه من الأحكام ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولا تراعِ مشتبهات أنفسهم، ولا تعدل؛ خوفاً من ضررهم وطمعاً في إيمانهم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وما تبين لك من الحكم، إلى غيره.

ففيه سد باب احتمال تغيير حكم الله على النبي وسائر الناس لمصلحة دفع الضرر عن النفس أو عن الإسلام، أو ملاحظة أن تغيير الحكم أدخل في الهداية إلى الحق. فظهر مما ذكرنا أنه لا يجوز التمسك بهذه الآية في الطعن ببعض الأنبياء بعد دلالة الأدلة القاطعة على عصمتهم.

وقيل: إن الخطاب للنبي ﷺ، والمقصود به غيره^١، من باب إياك أعني واسمعي يا جارة.

رؤي أن جماعة من اليهود قالوا: تعالوا نذهب إلى محمد لعلنا نغيثه عن دينه، ثم دخلوا عليه وقالوا: يا محمد، قد عرفت أننا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعك كل اليهود، وأن بيننا وبينك خصومتنا حكومة؛ فحاكمهم إليك، فاقض لنا ونحن نؤمن بك، فأنزل الله هذه الآية^٢.

ثم لما ذكر الله كتب الفرق الثلاث وأحكامهم، نبه على أن كل دين كان حقاً قبل نسخه؛ بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها^٣ الفرق ﴿شُرْعَةً﴾ وديناً كان العمل به سبباً لحياتكم؛ كشرعية الماء و﴿مِنْهَا جَاءَ﴾ وطريقاً واضحاً إلى الحق.

ثم بين حكمة اختلاف الأديان في القرون [الماضية] بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ واقتضت حكمته

٢. تفسير الرازي ١٢: ١١، تفسير أبي السعود ٤٧: ٣.

١. تفسير الرازي ١٢: ١٢.

٣. في النسخة: أيها.

البالغة ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ من أول الدنيا إلى فنانها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وأهل ملة فاردة ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك، بل جعل أديانكم مختلفة بعضها ناسخ لبعض ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويمتحنكم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الدين والأحكام، هل تعملون بها متقادين لله، خاضعين لأحكامه، مُصدِّقين بالحكمة في اختلافها، أو تُقصرون من العمل، وتتبعون الشبهات والشهوات؟

فإن أمتهم بأن دين الإسلام حق، وما في القرآن - سواء كان موافقاً للكتابيين أو مخالفاً لهما - أحكام الله وشرائعه ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيها الفريقين ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ التي هداكم الله إليها من العقائد الحقّة، والأعمال الصالحة، وبايدروا إليها انبهازاً للفرصة كي لا تموتوا مع فساد العقائد، وشوء الأعمال، فإنه يكون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ أيها المؤمنون بالقرآن، والمُنكرون له ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ الله، ويخبركم إذن ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من كون القرآن كتاب الله وأحكامه، وإخباره تعالى بإثابة المؤمنين به، وعقاب الجاحد له؛ فلا يبقى شك للمبطل والمُحِقّ.

وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ [٤٩]

ثم أكد الله وجوب الحكم بما أنزل الله أهتماً به بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ﴾ - قيل: إن التقدير: وأنزلنا إليك أن أحكم^٢، أو أنزلنا إليك الكتاب بالحق وبأن أحكم، فيكون عطفاً على الحق، أو أمرناك أن أحكم^٣ - ﴿بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك.

رؤي عن الباقر عليه السلام: «إنما كَرَّرَ الأمر بالحكم بينهم؛ لأنهما حُكمان أمر بهما جميعاً، لأنهم اختكما إليه في زنا المحصن، ثم اختكما إليه في قتل كان بينهم»^٤.
أقول: عليه بعض مفسري العامة^٥.

ثم لما كان الحاكم في معرض اتباع هوى المتخاصمين، بالغ سبحانه في النهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولا ترع ميولهم.

ثم نبه الله تعالى نبيه ﷺ بسوء قصد اليهود، وإرادتهم تخريفه عن الحكم بالحق بقوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ من ﴿أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ ويصرفوك بخديعتهم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ من الأحكام

١. في النسخة: أيها. ٢. تفسير الرازي ١٢: ١٣.

٣. تفسير الرازي ١٢: ١٤، تفسير البضاوي ١: ٢٦٩. ٤. مجمع البيان ٣: ٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤١.

٥. راجع: تفسير الرازي ١٢: ١٤. ٦. كذا، والظاهر: على سوء.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكمك بما نزل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ تعالى بخذلانهم وتوليهم عن حكمك ﴿أَنْ يُصِيبَهُمْ﴾ ويعاقبهم في الدنيا ﴿بِنَفْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ الكثيرة، وقليل من معاصيهم التي لا تحصن: من تشليطك عليهم وتغذيتهم بالقتل والإجلاء، والذلة والمسكنة، وضرب الجزية، ويعاقبهم على بغيها في الآخرة.

ثم سلى سبحانه قلب حبيبه ﷺ بقوله: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ وقليل منهم مزمون شاكرون، فلا يعظم عليك توليهم عن حكمهم.

أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَنْفَعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ [٥٠]

ثم أنكر سبحانه عليهم التولي عن الحق، ووبخهم عليه بقوله: ﴿أَمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ﴿فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وميلتها التي هي مخض الهوى والجهالة ﴿يَنْفَعُونَ﴾ ويطلبون؛ مع أنهم أهل الكتاب والعلم. ثم أنكر كون حكم أحسن وأصلح من حكمه بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ﴾ وأعدل ﴿حُكْمًا﴾ ثم نبه على أن هذا الخطاب والاستفهام الإنكاري أو التعجبي^١ يكون ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بحكمة الله وعده؛ لأنهم العارفون بأن لا أحد أعدل من الله، ولا حكم أحسن من حكمه، لا اليهود الذين هم أهل الشك والريب والعناد.

رؤي أنه كان بين النضير وقريظة دم قبل أن يبعث الله محمد ﷺ، فلما بعث تحاكموا إليه فقالت قريظة: بنو النضير إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، وكتابنا واحد، فإن قتل بنو النضير منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً^٢ من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منا مائة وأربعين وسقاً من تمر، وأروش جنائياتنا^٣ على النصف من أروش جنائياتهم^٤، فاقض بيننا وبينهم، فقال ﷺ: «فأني أحكم أن دم القرظي وفاء من دم النضيري، ودم النضيري وفاء من دم القرظي، ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم، ولا عقل^٥، ولا جراحة». فغضب بنو النضير وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنك عدو لنا، فأنزل الله هذه الآية ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَنْفَعُونَ﴾ يعني: حكمهم الأول^٦.

وقيل: إنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفانهم ألزمهم إتياء، وإذا وجب على أقويانهم لم

١. في النسخة: التعجبي.

٢. الوسق: مكبال، وهو ستون صاعاً، والصاع خمسة أرباط وثلث.

٣. في تفسير الرازي: جراحاتنا، والأروش جمع أوش: دية الجراحة.

٤. في تفسير الرازي: جراحاتهم.

٥. العقل: الدية.

٦. تفسير الرازي ١٢: ١٥.

يأخذهم به، فمنعهم الله تعالى منه بهذه الآية^١.

عن الصادق عليه السلام: «الحكم حُكمان؛ حكم الله، وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية»^٢.

[وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحكم حُكمان؛ حكم الله، وحكم الجاهلية» وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِتُونَ﴾، وأشهد على زيد بن ثابت لقد حكم في القرآن بحكم الجاهلية»^٣.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [٥١]

ثم لما شرح الله سبحانه خيانة اليهود والنصارى في كتاب الله، وعداوتهم للنبي صلى الله عليه وآله، واستنكافهم عن قبول الحق، وتوليهم عن حكم الله ورسوله، نهى المؤمنين عن موالاهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء، ولا تعاشروهم معاشره الأصدقاء، ولا توقعوا منهم الضر بعد وضوح كونهم لكم ولدينكم أعداء، كما لا يكون اليهود أولياء النصارى ولا بالعكس؛ مع اتفاقهم على الكفر، بل كل من الفريقين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ آخر ممن وافقهم على الدين، دون من خالفهم، لوضوح أن اتلاف القلوب لا يمكن مع الاختلاف في الدين، ﴿وَعَلَىٰ هَذَا﴾ على هذا ﴿مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ فِي الْبَاطِنِ﴾ فلا بد أن يحكم عليه بحكمهم، ويحشر في القيامة في زميرهم.

روى أن عبادة بن الصامت قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن لي موالى من اليهود كثيراً عددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، وأوالي الله ورسوله، فقال عبدالله بن أبي: إنى رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالى؛ وهم يهود بني قينقاع^٤.

ثم أشار سبحانه إلى علة تولي الكفار بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ولا يرشد إلى الحق وعمل الخير بالتوفيق والتأييد ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم^٥ بترك موالاة المؤمنين، واختيار موالاة الكافرين، بل يخذلهم ويحلهم شأنهم فيقعون في الكفر والضلال بهوى أنفسهم لا محالة.

٢. الكافي ٧: ٤٠٧، تفسير الصافي ٢: ٤١.

١. تفسير الرازي ١٢: ١٥.

٤. تفسير أبي السعود ٩: ٤٩، تفسير روح البيان ٢: ٤٠٢.

٣. الكافي ٧: ٤٠٧، تفسير الصافي ٢: ٤١.

٥. كذا، والظاهر: الظالمين أنفسهم؛ لأنه متعمد بلا حرف جر.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْيِعُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَادِيمٍ [٥٢]

ثم وَبَح شبحانه المنافقين بقوله: ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد، المنافقين ﴿الَّذِينَ﴾ استقر ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الكُفْر والْتَفَاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ ويبادرون إلى موالاتهم ومرافقتهم، و﴿يَقُولُونَ﴾ للمؤمنين اعتذاراً مِنْ صَنِيعِهِمُ التَّبَيُّحِ: إِنَّا نُوَالِيهِمْ لَأَنَّا ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا﴾ وتَدُور علينا ﴿دَائِرَةٌ﴾ مِنْ دَوَانِرِ الدَّهْرِ، ودَوَلَةٍ مِنْ دَوْلَةٍ: كَانْتِقَالُ الأَمْرِ وَكَوْنُ الْعَلَبَةِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ. قيل: إِنَّ هَذَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَمَّا فِي الظَّاهِرِ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُصِيبَنَا مَكْرُوهٌ مِنْ مَكَارِهِ الزَّمَانِ كَالْجَذْبِ وَالْقَحْطِ، فَلَا يُعْطُونَا الْمِيرَةَ وَالْقَرْضَ^١.

فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ﴾ وَبُرْجَى مِنْ فَضْلِهِ ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ، أَوْ فَتْحِ قِلَاعِ خَيْبَرَ لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿أَوْ أَمْرٍ﴾ آخِرُ فِيهِ اسْتِنصَالُ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَإِعْزَازُ الْمُؤْمِنِينَ، كَانٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَبَقْدَرَتِهِ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ ﴿فَيُضْيِعُوا﴾ أُولَئِكَ الْمُنَافِقُونَ الْمُتَعَذِّرُونَ ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا﴾ وَأَخْفَوْا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِبِ فِي أَمْرِ الرُّسُولِ ﴿تَادِيمٍ﴾. عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي تَأْوِيلِ آيَةِ: «أَذِنَ فِي هَلَاكِ بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَ إِحْرَاقِ زَيْدٍ بِسَبْعَةِ أَيَّامٍ»^٢.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْوََاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ [٥٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى سُوءَ عَاقِبَةِ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَعَذِّرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لِلْيَهُودِ عِنْدَ ظُهُورِ نَدَامَةِ الْمُنَافِقِينَ تَعَجُّباً أَوْ تَعْرِيفاً ﴿أَهْوَاءَ﴾ الْمُنَافِقُونَ هُمْ ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ وَحَلَفُوا ﴿بِاللَّهِ﴾ لَكُمْ، حَالُ كَوْنِهِمْ يَجْهَدُونَ ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وَيُبَالِغُونَ فِي تَغْلِيظِهَا ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ بِالنُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ، فَلَمَّا ظَهَرَتْ شَوْكَةُ الْإِسْلَامِ وَدَوْلَتُهُ بِحَيْثُ لَا يُرْجَى لغيره دَوْلَةٌ، وَذَلِكَ رِقَابَكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وَبَطَلَتْ مَسَاعِيهِمْ فِي حِفْظِ مَوَالِيَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ مَغْبُونِينَ بِتَحْمَلِ الْمَشَاقِّ وَعَدَمِ الثَّمَرَةِ، وَاسْتِحْقَاقِ الْقَتْلِ وَالْهَوَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.

١. تفسير أبي السعود ٣: ٤٩، تفسير روح البيان ٢: ٤٠٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٩٣/٥٤، تفسير الصافي ٢: ٤٢.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَئِيمٌ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٥٤]

ثم لما كان نَوَلِي الكُفَّار أمارَة الازدياد وفي حكمه، هدّد الله تعالى المرتدين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ﴾ ويرجع ﴿مِنْكُمْ﴾ بَنَوَلِي الكُفَّار ﴿عَنْ دِينِهِ﴾ الْحَقُّ؛ وهو الإسلام، إلى الكُفَر، فلن يضر الله شيئاً، فإن دين الله لا يخلو من أنصار يحمونه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ آخَرِينَ ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ الله ويكرمهم بألطافه ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ ويُطيعونه حَقَّ طاعته ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ خاضعين لهم رُحَمَاءُ بينهم ﴿أَعِزَّةٌ﴾ وَأَشَدَّاءُ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ومن شدّتهم أَنَّهُمْ ﴿يُجَاهِدُونَ﴾ ويُقاتلون الكُفَّار ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وإِعلاءِ كلمته، وتقوية دينه ﴿وَلَا يَخَافُونَ﴾ لغاية تصلُّبهم في الدِّين، وحِرصهم على نُصرة الْحَقِّ ﴿لَوْمَةً﴾ أَيِ ﴿لَئِيمٌ﴾ وطعن أي طاعن في ما يأتونه من الجهاد، وطاعة أمر الله ﴿ذَلِكَ﴾ الأوصاف الحميدة والأخلاق الكريمة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ ولطفه وإنعامه تعالى ﴿يُؤْتِيهِ﴾ ويُعطيه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إيتاء وإعطاءه إِيَّاه من النفوس الزكية والذوات المستعدة، لا أَنَّهُمْ مُسْتَقْلُونَ بكسبه وتحصيله من غير حاجة إلى توقيفه وتأْييده ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضلاً وإنعاماً على العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بِقَابَلِيَّتِهِم واستعداداتهم.

عن السُّدِّي: أَنَّهُما نزلت في الأنصار لأنَّهُم [هم] الذين نَصَرُوا الرُّسُولَ، وأعانوه على إظهار الدِّين^١. وعن مُجاهد: أَنَّهُما نزلت في أهل اليَمَن^٢. وزُوي من طُرُق العامة: أَنَّهُما لما نزلت أشار النبي ﷺ إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هُم قوم هذا»^٣.

وزُويوا أيضاً: أَنَّ النبي ﷺ لما سُئِلَ عن هذه الآية، ضرب بيده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذُؤوه» ثم قال: «لَوْ كان الدِّين مُعَلَّقاً بِالثَّرِيَّا لَنالَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْناءِ فارس»^٤. وعن الباقر والصادق (عليهما السلام): «هُم أمير المؤمنين صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وأصحابه حينَ قاتل مَنْ قاتله من النَّاكثين والقاسِطين والمارقين»^٥. وعن أمير المؤمنين صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، قال يومُ البَصرة: «والله ما قُوتِلَ أَهْلُ هذه الآية حتَّى اليوم»، وتلا هذه الآية^٦.

٣ و٤. تفسير الرازي ١٢: ١٩، تفسير أبي السعود ٣: ٥١.

٦. مجمع البيان ٣: ٣٢٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣.

١ و٢. تفسير الرازي ١٢: ١٩.

٥. مجمع البيان ٣: ٣٢١، تفسير الصافي ٢: ٤٣.

عن القمي: «أنها نزلت في مهدي هذه الأمة وأصحابه»^١.

في نقل كلام الفخر الرازي: وقال قوم: إنها نزلت في علي عليه السلام، ويدل عليه وجهان:

الأول: أنه عليه السلام لما دفع الزاية إلى علي يوم خيبر قال: «لأدفعن الزاية غداً إلى رجلٍ

يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله»، وهذا هو الصفة المذكورة في الآية.

الوجه الثاني: أنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» إلى آخره، وهذه الآية

في حق علي، فكان الأولى نزول ما قبلها أيضاً في حقه.

إلى أن قال: المقام الأول: أن هذه الآية من أدل الدلائل على فساد مذهب الإمامية من الزوافض،

وتمرير مذهبهم: أن الذين أقروا بخلافة أبي بكر وإمامته كلهم كفروا وصاروا مرتدين؛ لأنهم أنكروا

النص الجلي على إمامة علي عليه السلام.

فتقول: لو كان الأمر كذلك لجاء الله بقوم يحاربهم ويقهرهم ويؤدهم إلى الدين الحق بديل قوله:

«مَنْ يَزِدْكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ» إلى آخر الآية، وكلمة (من) شرطية للعموم، فهي

تدل على أن كل من صار مرتداً عن دين الإسلام، فإن الله يأتي بقوم يقهرهم ويؤدهم ويبطل

شوكتهم، فلو كان الذين نصبوا أبا بكر للخلافة كذلك، لوجب بحكم الآية أن يأتي الله بقوم يقهرهم

ويبطل مذهبهم، ولما لم يكن [الأمر] كذلك، بل الأمر بالصد، فإن الزوافض هم المتهورون

المنوعون عن إظهار مذهبهم^٢ الباطلة [أبدأ] منذ كانوا، علمنا فساد مقالتهم ومذهبهم، وهذا كلام

ظاهر لمن أنصف^٣.

أقول: ظاهر الآية أن الخلق إذا كفروا وارتدوا، فلن يضروا الله شيئاً، وأن دينه لا يخلو من أنصار -

كما ذكرنا سابقاً - وليس في الآية وعْد بآتيان قوم يجاهدون المرتدين حتى يقهروهم ويؤدهم عن

دينهم الباطل، كما ادّعاء الناصب، ولو كان معنى الآية كما ذكره، لكان كذباً - نعوذ بالله - لوضوح أنه

حدث بعد النبي عليه السلام مذاهب فاسدة، وارتد القائلون بها قطعاً؛ كمذهب التجسيم والنصب وغيرهما،

ولم يقاتلوا ولم يقهروا، ولم يزودوا عن مذهبهم، بل لازم ذلك أن لا يبقى مرتد على وجه الأرض إلى

يوم القيامة للعموم الآية، وهو خلاف الجس والضرورة.

وقد رَوَوْا أَنَّ جَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ أسلم على يد عمر، وكان يطوف يوماً جازاً رداءه، فوطأ رجل طَرَفَ

ردائه، فغضب فطمه، فتظلم الرجل إلى عمر، فقضى له بالقصاص عليه إلا أن يعفو عنه، فقال جَبَلَةُ:

١. تفسير القمي ١: ١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٤٣.

٢. في المصدر: مقالاتهم.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.

أنا أشتريها بألف، فأبى الرجل، فلم يزل يزيد في الفداء إلى أن بلغ عشرة آلاف، فأبى الرجل إلا الإقصاء، فاستنظر عمر فأنظره، فهرب إلى الروم وارتد^١. ولم يقتله أحد.

والقول بأن حكم الواحد ليس حكم الجماعة شطط من الكلام، نعم لا يبعد دلالتها على أنه يكون في كل زمان جماعة متصفة بالصفات الكريمة المذكورة في الآية، وقد كان بعد النبي ﷺ - وحين ازدياد المسلمين بإنكارهم النص الجلي - جماعة متصفة بالصفات كأمر المؤمنين، وسلمان، وأبي ذر، والعقدا، وعمار، ولكن لم يكن صلاح الإسلام في جهادهم، ولأن كانوا يجاهدون ولا يخافون في الله لومة لائم، كما لم يكن صلاح الدين في إقدام النبي ﷺ في جهاد المنافقين مع كثرتهم في زمانه، بل في جهاد المشركين قبل الهجرة.

ثم قال الناصب: هذه الآية مختصة بمحاربة المرتدين، وأبو بكر هو الذي تولى محاربة المرتدين^٢. أقول: لم يجاهد أبو بكر أحدا من المرتدين، وإنما حاربهم جيش المسلمين بأمر أبي بكر، ولم يكن هو في الجيش، بل لم يكن من حارب جيش أبي بكر من المرتدين، بل كانوا منكرين لخلافته، وإنما منعه من الزكاة بدعوى عدم أهليته لأخذها، فاتهمهم بالازدياد وإنكار وجوبها، حيث نقل أنهم قالوا: أما الصلاة فصلي، وأما الزكاة فلا تغصب أموالنا.

رؤي عن أنس بن مالك أنه قال: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة، وقالوا: هم أهل القبلة، فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره^٣.

نعم بعث خالد بن الوليد في جيش كثير إلى مسلمة حتى أهلكه الله على يد وحشي قاتل حمزة سيد الشهداء، وكان يقول: قتل خير الناس في الجاهلية، وشرهم في الإسلام^٤.

فكان الأولى أن يقول الناصب: إن الآية نزلت في خالد بن الوليد، ووحشي - وهو مما يضحك به الثكلى، لوضوح أن خالد كان ممن يبغضه الله^٥ - لأن صدق المجاهد عليهما حقيقة، وعلى أبي بكر مجاز بعلaque السببية، كما أن صدقه على أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأصحابه - عند محاربتهم الفرق الثلاث المنكرين للنص الجلي على وجوب موالة علي عليه السلام وأشياعه - حقيقة، وعلى الرسول ﷺ الأمر له بجهادهم مجاز.

ثم قال الناصب: ولا يمكن أن يكون المراد هو الرسول؛ لأنه لم يتفق له محاربة المرتدين^٦.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.

٥. زاد في النسخة: ويبغضه.

١. تفسير الرازي ١٢: ١٩.

٣ و٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٠٥.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.

أقول فيه: إنه ﷺ قد جاهد الأسود العنسي المرتد بالمعنى الذي ذكره [وكما] اتفق لأبي بكر، لأنه ﷺ على ما نقله هو في تفسيره، وغيره من العامة، قالوا: إن بني مدلج ارتدوا في زمانه، وكان رئيسهم ذو الحمار، وهو الأسود العنسي، وكان كاهناً ادعى النبوة في اليمن، واستولى على بلادها، وأخرج عمال رسول الله ﷺ، فكتب ﷺ إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمي؛ دخل بيته فقتله، وأخبر رسول الله بقتله ليلة قتل، فسر المسلمون، وقبض رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول^١.

ثم قال الناصب: ولأنه تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾، وهذا للاستقبال لا للحال، فوجب أن يكون هؤلاء القوم غير موجودين في وقت نزول هذا الخطاب، فإن قيل: هذا لازم عليكم لأن أبا بكر كان موجوداً في ذلك الوقت، قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن القوم الذين قاتل بهم أبو بكر أهل الردة ما كانوا موجودين في الحال^٢.

أقول فيه: إنه لا شبهة أن نزول هذه السورة والآية كان في أواخر عمر النبي ﷺ، وكانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وستة أشهر تقريباً، فلا بد من أن يكون عامة جيش أبي بكر موجودين في زمان النزول. وأما جِهاد أمير المؤمنين ﷺ مع المرتدين فإنه كان بعد أزيد من ثلاثين سنة من زمان الخطاب، فيمكن أن يقال أن أغلب جيشه ﷺ لم يكونوا موجودين في زمان نزول الآية، فظهر مما ذكر أنه لا يمكن أن يقال بصدق الآية على جيش أبي بكر ونزولها في شأنه.

ثم قال: والثاني: أن معنى الآية: فسوف يأتي الله بقوم قادرين متمكنين من هذا الجراب، وأبو بكر وإن كان موجوداً في ذلك الوقت إلا أنه ما كان مستقلاً في ذلك الوقت بالجراب والأمر والنهي، فزال السؤال^٣.

أقول: كان الأولي أن يقول: إن المراد من الآية: فسوف يبعث [الله] قوماً يحبهم ويحبونه، لا سوف يوجد قوماً، مع أن الآية - على تقدير دلالتها على قيام قوم تكون لهم تلك الصفات بجِهاد مخصوص المرتدين، وعلى تقدير تسليم كون الأمر بالجِهاد، ولو لم يلبس به مجاهد، حقيقة - لا تدل على كون كل من جاهدهم واجداً لتلك الصفات، بحيث لا يكون معهم غيرهم، بل الظاهر إرادة أن جماعة ممن لهم هذه الصفات يجاهدونهم، وإن كان معهم غيرهم ممن كان مُصفاً بضد تلك الصفات.

فلا تدل الآية على انصاف كل فرد من أفراد جيش أبي بكر حتى خالد بن الوليد الذي نكح زوجة

مالك بن نويرة بعد قتل، أو الأمر بالجهاد لتلك الصفات، فلا بد من تعيين المتصنفين بالصفات من دليل آخر، وإنما قلنا أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه متصنف بتلك الصفات لدلالة (رواية الزاوية) المتواترة بين الفريقين وغيرها عليه، وإن قال هذا المتعصب إنها من الأحاد^١.

فتحصل من جميع ما ذكرنا أنه لم يثبت أن أبا بكر بعث جيشاً نحو المرتدين؛ لأن المرتد هو الذي كفر بعد إيمانه. ولم يثبت أن مسيلمة وأصحابه كانوا مسلمين ثم كفروا، وأما غيرهم من سائر الطوائف الذين^٢ نسبهم إلى الارتداد، فالظاهر أنهم كانوا ممتنعين من دفع زكاتهم إلى أبي بكر لإنكارهم خلافته، لا لإنكارهم وجوب الزكاة.

ويؤيده ما رواه العامة من أن أبا بكر قال: والله، لو منعوني عتوداً^٣ مما أدوا إلى رسول الله لقاتلتهم عليه^٤، ولم يقل: لو جحدوا الزكاة لقاتلتهم. وأما الذين قاتلهم أمير المؤمنين صلوات الله عليه فكانوا من أظهر مصاديق المرتدين؛ لأن وجوب حب أمير المؤمنين^٥ وكونه مع الحق والحق معه^٦، كان متواتراً ضرورياً بين الأمة، وكذا قوله ﷺ: «حربك حربى، وسلمك سلمى»^٧، وغيره من النصوص الجليلة.

ولو سلم ذلك نقول: لم يجاهد أبو بكر أحداً منهم؛ لأن الظاهر من قوله: «يُجَاهِدُونَ» مباشرة الجهاد؛ كما بآثر أمير المؤمنين عليه السلام جهاد الفرق الثلاث، لا القعود في البيت والراحة، والأمر به؛ كما فعله أبو بكر.

وعلى تقدير التسليم لا دلالة في الآية على انضمام جميع المجاهدين بتلك الصفات حتى تكون الآية مدحاً لجميع أفراد الجيش، بل تدل على أن جماعة ممن لهم تلك الصفات يجاهدونهم، وإن كان معهم أو كان رئيسهم غير متصنف بها، بل متصفاً بضدّها. فإثبات تلك الصفات لشخص معين محتاج إلى دليل خارج.

ثم قال الناصب المتعصب: فثبت أنه لا يمكن أن يكون المراد هو الرسول، ولا يمكن أن يكون المراد هو علي أيضاً؛ لأنه لم يتفق له قتال مع أهل الردة، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليه؟^٨

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٣.

٢. في النسخة: التي.

٣. العتود: ما قوي وأتى عليه خوفاً من أولاد المعزى.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٠٥.

٥. راجع: فضائل الصحابة/أحمد بن حنبل ٢: ١١٤١/٦٦٩، مستدرک الحاكم ٣: ١٧٢، الدر المنثور ٦: ٧، الصواعق

المحرقة: ١٧٠، الكشف ٤: ٢١٩.

٦. راجع: تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣: ١١٧٢/١٥٣.

٧. شرح نهج البلاغة/الابن أبي الحديد ٢: ٢٩٧.

٨. تفسير الرازي ١٢: ٢١.

أقول: قد ظهر وثبت مما ذكرنا أن علياً عليه السلام وجماعة من أصحابه كانوا من أظهر المتصفين بالصفات المذكورة في الآية، وأن الفريق الثالث الذين قاتلهم صلوات الله عليه من أظهر مصاديق المرتدين، ولم يثبت للآية مورد انطباق [على] غيرهم.

ثم قال الناصب: فإن قالوا: بل كان قتاله مع أهل الردة؛ لأن كل من نازعه في الإمامة كان مرتدًا. قلنا: هذا باطل من وجهين؛ الأول: أن اسم المرتد إنما يتناول من كان تاركاً للشرائع الإسلامية، والقوم الذين نازعوا علياً ما كانوا كذلك في الظاهر، وما كان أحد يقول إنه يحاربهم لأنهم خرجوا من دين الإسلام، وعلي لم يستهم البتة بالمرتدين، فهذا الذي يقوله الزوافض (لعنهم الله) بُهت على جميع المسلمين، وعلى علي أيضاً^١.

أقول: إن كان المراد من تارك الشرائع: جميعها، فلم يكن تارك الزكاة وخدعها مرتدًا، مع أنه وأصحابه سموا مانعي الزكاة مرتدين. وإن كان المراد: تارك بعضها، فتارك طاعة الإمام، وتارك حب علي، ومستحل قتاله يكون مرتدًا.

وأما قوله: إن علياً لم يستهم بالمرتدين^٢، ففيه: أن الناصب مع طول بابه لم يفهم ترادف لفظ المرتد والمارق من الدين؛ لأن الله طبع على قلبه، أو لعدم اطلاعه على أن الرسول عليه السلام وعلياً وعامة المسلمين سموا الخوارج مارقين؛ لأنهم مرقوا، أي خرجوا من دين الله، واشتعلوا قتال خليفة رسول الله. فإنكار الناصب (لعنه الله) ارتدادهم - بل ارتداد الفريق الثالث الذين ذانوا ببغض علي عليه السلام - مكابرة وإنكار للضروري بين المسلمين.

ثم قال الناصب: [الثاني: أنه] لو كان كل من نازعه في الإمامة كان مرتدًا، لزم في أبي بكر وفي قومه أن يكونوا مرتدين، ولو كان كذلك لوجب بحكم ظاهر الآية أن يأتي الله بقوم يقهرونهم ويؤدوونهم إلى الدين الصحيح، ولما لم يوجد ذلك البتة، علمنا أن منازعة علي في الإمامة لا تكون ردة، وإذا لم تكن ردة، لم يمكن حمل الآية على علي؛ لأنها نازلة في من يحارب المرتدين^٣.

أقول: نحن نلتزم باللازم الذي ذكره، بل نقول: إنه وأخوه لم يؤمنا بالله طرفه عين، كما أن علياً عليه السلام لم يكفر بالله طرفه عين، وأما قوله: لو كان كذلك... إلى آخره، ففيه: أن الآية لا تدل على وجوب إتيان قوم يؤدوونهم إلى الدين، وإلا لما وجد مرتد في العالم، وهو خلاف الوجدان - كما ذكرنا سابقاً - مع أنه نسب ابن أبي الحديد إلى المعتزلة أنهم يقولون: إن علياً عليه السلام رضي بخلافة الثلاثة، ولم ينازعهم

فيها، ولو نازعوا علينا فيها لكان دَمُهُمْ هَذراً^١، وقد تكلف في توجيه الخطبة الشَّشَقِيَّة بما لا يرضى به صاحبها. وإنما أطلنا في المقام المقال لتظهر شِدَّة عَصِيَّة إمام الضَّلال، عليه أشدُّ العَذاب والنَّكال، وليعلم أنَّ الهداية إلى الحَقِّ لا تحصل بكثرة الفضل وزيادة الاطلاع على كلمات الرُّجال، وإنما هي موهبة من الله المتعال.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [٥٥]

ثمَّ أنه تعالى بعد الثَّبالغة في النَّهي عن موالاة الكُفَّار، وتَنْزِيل أوليائهم مَزَلَّتْهم، وتَسْمِيَتهم باسم المرتدِّين، وإظهار غَنائهم عنهم في نُصرة دينه، حَثَّ الْمُؤْمِنِينَ إلى موالاة ذاته المُقدَّسة، وموالاة أوليائه بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ والحافظ لصلاحكم، ومُدَبِّرُ أُمُوركم، ومُربِّي نفوسكم، وسائق جميع الخَيْرَات إليكم ﴿اللَّهُ﴾ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا فيه، فاختصُّوهم أيضاً أنتم بالمُوالاة، ولا تُخطئوهم إلى غيرهم.

عن الصادق عليه السلام: «يعني: أولى بكم، أي أحقَّ بكم وبأُمُوركم من أنفسكم»^٢.
ثمَّ عَرَفَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لله من غير رِيَاءٍ وَكَسَلٍ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ والصَّدقة إلى الفقراء، بِلا مَنٍّ وَلَا أَدَى ﴿وَهُمْ﴾ في حَال الإيتاء ﴿رَاكِعُونَ﴾ في الصَّلَاة. وقيل: خاضعون لله مُتواضعون له^٣.

في تصدَّق أمير المؤمنين بخاتمته على الفقير
عن الصادق عليه السلام: «يعني علينا وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة، ثمَّ وصَّفهم الله فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وكان أمير المؤمنين في صلاة الظُّهر، وقد صلَّى رَكَعتين، وهو رَاكِع، وعليه حُلَّة قيمتها ألف دينار، وكان النبي ﷺ أعطاه إياه، وكان التجاشي أهداها له، فجاء سائل فقال: السَّلام عليك يا وَلِيَّ الله، وأولى بالمؤمنين من أنفسهم، تصدَّق على مسكين، فطرح الحُلَّة إليه [أو أُمأ بيده إليه] أن اخِمْها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه هذه الآية، وصيِّر نِعْمة أولاده بنعمته ... إلى أن قال: «والسَّائل الذي سأل أمير المؤمنين عليه السلام من الملائكة»^٤.

١. لم نجد في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة.

٢. الكافي ١: ٣/٢٢٨ وفيه: وأنفسكم، تفسير الصافي ٢: ٤٤.

٣. تفسير أبي السعود ٣: ٥٢، تفسير روح البيان ٢: ٤٠٧.

٤. الكافي ١: ٣/٢٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤.

٣٩٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

وعنه عليه السلام أنه سئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: «نعم، هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^١ وهم الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية^٢.

وعن (الخصال)، في احتجاج علي عليه السلام على أبي بكر، قال: «فأنشدك بالله، ألي الولاية من الله مع ولاية رسوله في آية زكاة الخاتم أم لك؟» قال: بل لك^٣.

وفيه في تعداد مناقب أمير المؤمنين عليه السلام، قال عليه السلام: «وأما الخامسة والسّتون: فَإِنِّي كُنْتُ أَصْلِي فِي الْمَسْجِدِ فَجَاءَ سَائِلٌ وَأَنَا رَاكِعٌ، فَنَاقَبَ خَاتَمِي مِنْ إصْبَعِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية^٤».

وفيه عنه صلوات الله عليه - في حديث - قال: «وليس بين الأمة خلاف أنه لم يؤت الزكاة أحدٌ وهو راكع غير رجلٍ»^٥.

نسي نقل كلمات قال الفخر الرازي في تفسيره: رَوَى عِكْرَمَةُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ. وَرَوَى الفخر الرازي ورده

عطاء عن ابن عباس عليه السلام أنها نزلت في علي بن أبي طالب، [و] رَوَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا رَأَيْتُ عَلِيًّا تَصَدَّقَ بِخَاتَمِهِ عَلَى

مُحْتَاجٍ وَهُوَ رَاكِعٌ، فَنَحْنُ نَتَوَلَّاهُ؟

وَرَوَى عَنْ أَبِي ذَرٍّ عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَوْمَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، فَسَأَلَ سَائِلٌ فِي الْمَسْجِدِ فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ، فَرَفَعَ السَّائِلُ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَشْهَدُ أَنِّي سَأَلْتُ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ فَمَا أَعْطَانِي أَحَدٌ شَيْئاً، وَعَلَيَّ كَانَ رَاكِعاً فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِخِنْصرِهِ الْيَمْنَى، وَكَانَ فِيهَا خَاتَمٌ، فَأَقْبَلَ السَّائِلُ حَتَّى أَخَذَ الْخَاتَمَ بِمَرَأَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ أَخِي مُوسَى سَأَلَكَ فَقَالَ: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَأَخْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي - إِلَى قَوْلِهِ: - وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، فَأَنْزَلْتَ قُرْآنًا نَاطِقًا: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾^٦ اللَّهُمَّ وَأَنَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّكَ وَصَفِيكَ، فَاشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي اشْدُدْ بِهِ ظَهْرِي».

قال أبو ذرٍّ: فَوَاللَّهِ، مَا أَتَمَّ رَسُولُ اللَّهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ حَتَّى نَزَلَ جَبْرِئِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اقْرَأْ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^٧.

ثم قال الفخر: قالت الشيعة: إن هذه الآية دالة على أن الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو علي بن أبي

١. النساء: ٥٩/٤. ٢. الكافي ١: ١٤٦/١٦، تفسير الصافي ٢: ٤٥.

٣. الخصال: ٣٠/٥٤٩، تفسير الصافي ٢: ٤٥. ٤. الخصال: ١/٥٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٥.

٥. الاحتجاج: ٢٥٥، تفسير الصافي ٢: ٤٥. ٦. القصص: ٣٥/٢٨. ٧. تفسير الرازي ١٢: ٢٦.

طالب عليه السلام ١.

بيان المقام الأول: أن الولي في اللغة جاء بمعنى الناصر، والمُحِب، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^٢، وجاء بمعنى المتصرف، قال عليه السلام: «أينما امرأة نكحت بغير إذن وليها...»، فنقول: ها هنا وجهان:

الأول: أن لفظ الولي جاء بمعنيين^٣، ولم يُعَيَّن الله مراده، ولا منافاة بين المعنيين، فوجب حمله عليهما، فوجب دلالة الآية على أن المؤمنين المذكورين في الآية متصرفون في الأمة.

الثاني: أن نقول: الولي في هذه الآية لا يجوز أن يكون بمعنى الناصر، فوجب أن يكون بمعنى المتصرف، وإنما قلنا أنه لا يجوز أن يكون بمعنى الناصر؛ لأن الولاية المذكورة في [هذه] الآية غير عامة في كل المؤمنين، بدليل أنه تعالى ذكر بكلمة (إنما)، وكلمة (إنما) للخصر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾^٤، والولاية بمعنى النصرة عامة لقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^٥، وهذا يوجب القطع بأن الولاية المذكورة في هذه [الآية] ليست بمعنى النصرة، وإذا لم تكن بمعنى النصرة كانت بمعنى التصرف؛ لأنه ليس للولي معنى غير هذين المعنيين، فصار تفسير الآية: إنما المتصرف فيكم أيها المؤمنون هو الله ورَسُوله والمؤمنون الموصوفون بالصفة الفلانية، وهذا يقتضي أن المؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة في الآية متصرفون في جميع الأمة، ولا معنى للإمام إلا الإنسان الذي يكون متصرفاً في كل الأمة، فثبت بما ذكرنا دلالة الآية على أن الشخص المذكور فيها يجب أن يكون إمام الأمة.

أما بيان المقام الثاني: وهو أنه لما ثبت ما ذكرنا، وجب كون ذلك الإنسان هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ويانه من وجوه:

الأول: أن كل من أثبت بهذه الآية إمامة شخص قال: [إن] ذلك الشخص [هو] علي بن أبي طالب، وقد ثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على إمامة شخص، فوجب أن يكون ذلك الشخص هو علي، ضرورة أنه لا قائل بالفرق.

الثاني: أنه تضافرت الروايات على أن هذه الآية نزلت في [حق] علي، ولا يمكن المصير إلى قول من يقول أنها نزلت في أبي بكر؛ لأنها لو نزلت في حقه لدلت على إمامته، وأجمعت الأمة على أن هذه الآية لا تدل على إمامته، فبطل هذا القول.

٢. التوبة: ٧١/٩.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٦.

٤. النساء: ١٧١/٤.

٥. في المصدر: تقدير.

٣. في المصدر: جاء بهذين المعنيين.

والثالث: أن قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لا يجوز جعله عطفاً على ما تقدم؛ لأن الصلاة قد تقدمت، والصلاة مشتملة على الركوع، وكانت إعادة ذلك الركوع تكراراً، فوجب جعله حالاً، أي يؤتون الزكاة حال كونهم راكعين، وأجمعوا على أن إيتاء الزكاة حال الركوع لم يكن إلا في حق علي، فكانت الآية مخصوصة به، ودالة على إمامته من الوجه الذي قررناه^١.

ثم تجسم المتعصب العنود في الجواب - تعصباً على مذهبه الباطل، وبغضاً لعلي عليه السلام وشيعته - بأجوبة أو هن من نسج العنكبوت، ولما كان مبالغاً في إطناب العبارة في الكتاب بحيث يكون نقلها مثيلاً، لخصتها ونقلت حاصِل مضمونها غالباً.

قال: والجواب: أما حمل لفظ الولي على الناصر والمتصرف فغير جائز، لما ثبت في الأصول من عدم جواز استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى واحد^٢.

أقول فيه: أنه على تقدير التسليم، ليس من المشترك اللفظي، بل الأظهر أنه موضوع للجامع، وهو المتصدي لما هو صلاح المولى عليه، من دفع خصومة، والتصرف في نفسه وماله على الوجه الأحسن، ولما كان لازم ذلك المحبة، قد يراد منه المحب، على سبيل الكناية، فقوله: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾^٣ معناه: الله هو المتولي لجميع أمورهم على وفق الصلاح من نصرتهم على الأعداء، وحفظهم من الهلاك الدنيوي والأخروي، وتربيتهم وتكميلهم وتنظيم أمورهم، ثم رتب على ولايته لهم، تصديهم لأهم مصالحهم من إخراجهم من الظلمات إلى النور، بقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾^٤ الآية، كما رتب على قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾^٥ قوله: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^٦ لوضح أن المراد من الولي ليس خصوص الناصر أو المحب أو المتصرف، لركاكة قولك: أنت ناصرنا فانصُرنا، وأنت محبنا، وأنت المتصرف في أموالنا فانصُرنا، بل المراد: أنت المتولي لما فيه خيرنا وصلاحنا، ومن المصالح المهمة نصرتنا على الكفار، فانصُرنا عليهم.

ثم استدلل على كون المراد من الولي: المحب والناصر بوجوه:

الأول: أن اللاحق - بما قبل الآية من قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾^٧، وبما بعد الآية من قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءاً وَلَعِباً﴾^٨ إلى آخره - أن يكون الولي بمعنى المحب والناصر، لكون لفظ الأولياء فيما قبل وفيما بعد بمعنى الأحياء والأنصار، لا أئمة متصرفين في

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٦.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٧.

٣. البقرة: ٢٥٧/٢.

٤. البقرة: ٢٥٧/٢.

٥. الأعراف: ١٥٥/٧.

٦. البقرة: ٢٨٦/٢.

٧. المائدة: ٥١/٥.

٨. المائدة: ٥١/٥.

أرواحكم وأموالكم، لضرورة بطلانه، فإذا كان معنى لفظ الأولياء في الآيتين ذلك، كان لفظ الولي الواقع بينهما ذلك، لا الإمام، وإلا لزم وقوع الكلام الأجنبي فيما بين كلامين سيقا لغرض واحد^١.
أقول فيه: أنه قد ذكرنا أن المحبة والنصرة من لوازم الولاية المطلقة المناسبة لله ولرسوله، مقتضية لتخصيص المحبة والاعتماد بهما، وصرف التوجه من غيرهما حتى من المؤمنين إليهما، إلا المؤمنين الذين هم بمنزلة الرسول والقائمين مقامه.

ثم قال: إن ظاهر الآية اتصاف المؤمنين حال نزول الآية بالولاية، وأمير المؤمنين لم يكن حال نزولها إماماً متصرفاً، فلا بد من حملها على المحبة والنصرة الحاصلتين في الوقت^٢.

أقول فيه: إنا نمنع عدم اتصاف أمير المؤمنين عليه السلام في الوقت بالولاية بمعنى أولوية التصرف، بل نقول: إنه كان إماماً مفترض الطاعة نافذ التصرف، ولكن في طول الرسول صلى الله عليه وسلم لا في عرضه، كما كان هارون كذلك في زمان موسى، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم، في الرواية المسلمة بين الفريقين من قوله: «عليّ مني بمنزلة هارون من موسى»^٣.

ثم قال الناصب: إن لفظ المؤمنين جمع، وإطلاقه على الواحد مجاز، فيجب حمله على العموم لأصالة الحقيقة^٤.

أقول: إن لفظ الجمع مستعمل في المفهوم العام المتصف بالصفات المذكورة في الآية، ولا يلزم من وحدة المضداق الخارجي استعمال اللفظ فيه، كما تقول: العلماء العدول قولهم حجة، وكان العالم في عصرك منحصراً في شخص واحد، فلا يلزم مجاز.

ثم قال الناصب: إنا بينا بالبرهان البين أن الآية المتقدمة وهي قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ»^٥ من أقوى الدلائل على صحة إمامة أبي بكر، فلو دلت [هذه] الآية على إمامة علي بعد الرسول، لزم التناقض بين الآيتين، فوجب القطع بأن هذه الآية لا دلالة فيها على إمامة علي بعد الرسول^٦.

أقول فيه: إنه بعد ما ثبت دلالة هذه الآية على إمامة علي عليه السلام وجب القطع بأن الآية السابقة لا دلالة فيها على إمامة أبي بكر، مع أنه قد بينا أنه لا ربط للآية السابقة بأبي بكر أصلاً ولو لم تكن هذه المعارضة، وليس هو بمن يحببه الله ورسوله ويحبهما، ويشهد على ما ذكرنا أنه لم يتمسك عامة

٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٨.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٧.

٣. صحيح البخاري ٥: ٢٠٢/٨٩، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤/١٨٧٠، سنن الترمذي ٥: ٣٧٣٠، مستدرک الحاكم ٢: ٣٣٧.

٥. المائدة: ٥٤/٥.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٢٨.

٤. تفسير الرازي ١٢: ٢٨.

شيعه أبي بكر على خلافته بالنص، وإنما كان تمسكهم بالإجماع، واتفاق أهل الحل والعقد، وانتهوا علياً عليه السلام بالموافقة. نعم قالوا بتطبيق الآية السابقة على أبي بكر، وكل من حارب المرتدين إلى يوم القيامة، ويلزمهم دخول خالد بن الوليد، والحجاج بن يوسف فيها، وهو في غاية الفضاحة.

ثم قال الناصب: الحجة الخامسة: أن علياً كان أعرف بتفسير القرآن من هؤلاء الزوافض، فلو كانت [هذه] الآية دالة على إمامته لاحتج بها في محفل من المحافل، ولم يتمسك بها البتة، وذلك يوجب القطع بشقوط قول الزوافض (لعنهم الله).^١

أقول فيه: إنه قد تضافرت الروايات في احتجاجه عليه السلام بهذه الآية على إمامته في كثير من المحافل^٢، وقد نقلنا بعضها، ومن المعلوم أن إنكار هذا الناصب وأضرابه (لعنهم الله) ليس بأنكر وأقبح من إنكارهم النصوص الجلية التي هي أجلى من الآية في إمامته عليه السلام.

ثم قال الناصب: لو سلمنا دلالة الآية على إمامته علي وتنفذ تصرفاته، نقول: إنه لم يكن نافذ التصرف في وقت الرسول وزمان الرسول، فلا بد من القول بدلالاتها على أنه سيصير إماماً بعد الرسول، ونحن نقول بموجبه، ونحمله على إمامته بعد الثلاثة، إذ ليس فيها تعيين الوقت، فإن قالوا: الأمة فيها على قولين؛ وكل من قال بدلالاتها على إمامته قال بإمامته بعد الرسول بلا فصل، فالقول بدلالاتها على إمامته مع الفصل قول ثالث، قلنا: الظاهر أنه كان هذا الاحتمال مقروناً بهذا الاستدلال^٣.

أقول: قد ذكرنا أنه عليه السلام كان في زمان الرسول ونزول الآية نافذ التصرف كما كان هارون في زمان موسى، فالحجة داخضة، والسؤال ساقط، ويظهر جواب حجته السابقة والثامنة مما ذكرنا فلا تطيل بذكرهما.

في نقل اعتراضات الفخر الرازي
ورده

ثم قال: وأما الوجه الذي عولوا عليه من أن الولاية بمعنى النصرة عامة، بخلاف الولاية في الآية فإنها مختصة بالمؤمنين الموصوفين فيها، فجوابه من وجهين:

الأول: منع اختصاص الولاية في الآية، ومنع دلالة (إنما) على الحصر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ^٤﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَأَهْوٍ^٥﴾، ومن المعلوم عدم انحصار مثل الدنيا بالمثل المذكور، وحصول اللب واللغو في غير الحياة الدنيا^٦.

٢. راجع: أمالي الطوسي: ١١٦٨/٥٤٩.
٤. يونس: ٢٤/١٠.
٥. محمد عليه السلام: ٣٦/٤٧.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٨ و ٢٩.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٩.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.

أقول فيه: إن إنكار دلالة (إنما) على الحصر إنكاراً للضرورة، وأما آية ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دالة على حصر المثل الكامل في المثلية، والآية الثانية دالة على حصر الحياة الدنيا في اللعب، لا حصر اللعب واللهو فيها.

ثم قال: والثاني: أنا نُسَلِّم الاختصاص، ونقول: إن الله قَسَمَ الْمُؤْمِنِينَ قِسْمَيْنِ: أَحَدَهُمَا: الَّذِينَ جَعَلَهُمْ مَثَلًا لِّأُولَئِكَ؛ وَالثَّانِي: الْأُولَئَاءِ؛ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوصَفُونَ فِي الْآيَةِ، فَاَلْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ أَحَدَ الْقِسْمَيْنِ أَنْصَارًا لِلْقِسْمِ الْآخَرِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا أَنْصَارًا لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى أَنْفُسِهِمْ، فَثَبَّتَ أَنَّ نُصْرَةَ أَحَدِ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأُمَّةِ غَيْرُ ثَابِتَةٍ لِكُلِّ الْأُمَّةِ، بَلْ مَخْصُوصَةٌ بِالْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْأُمَّةِ، فَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ كَوْنِ الْوَلَايَةِ فِي الْآيَةِ خَاصَّةً أَنْ لَا تَكُونَ بِمَعْنَى النُّصْرَةِ، وَهَذَا جَوَابٌ حَسَنٌ دَقِيقٌ لَا يَدَّ مِنْ التَّأَمُّلِ فِيهِ^١.

أقول: معنى كَوْنِ النُّصْرَةِ عَامَةً أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَكُونُ نَاصِرًا لِّغَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَخْتَصُّ بِخُصُوصٍ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوصُوفِينَ بِالْوَصْفَيْنِ فِي الْآيَةِ، فَظَهَرَ أَنَّ بَطْلَانَ جَوَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْوُضُوحِ غَيْرُ مُتَحْتَاجٍ إِلَى التَّأَمُّلِ.

ثم قال: وأما اشتِدالُهم بأنَّ هذه الآية نزلت في [حق] علي، فهو مَمْنُوعٌ، فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُفَسِّرِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَقِّ أَبِي بَكْرٍ.

أقول: قال البيضاوي في تفسيره: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ مُتَخَشِّعُونَ فِي صَلَاتِهِمْ وَزَكَاتِهِمْ، وَقِيلَ: هُوَ حَالُ مَخْصُوصَةٍ بـ (يُؤْتُونَ)، أَيْ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ فِي حَالِ رُكُوعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ جِرْصًا عَلَى الْإِحْسَانِ وَمَسَارَعَةً إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَهُ سَائِلٌ وَهُوَ رَاكِعٌ فِي صَلَاتِهِ، فَطَرَحَ لَهُ خَاتَمَهُ^٢.

وقال آية الله العلامة الجلي في (نهج الحق)، بعد ذكر الآية: أَجْمَعُوا عَلَى نُزُولِهَا فِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي الصَّحَاحِ السِّيَةِ، لَمَّا تَصَدَّقَ بِخَاتَمِهِ عَلَى الْمَسْكِينِ فِي الصَّلَاةِ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ^٣.

وقرَّره فَضْلُ بْنُ رُوَيْهَانَ مَعَ شِدَّةِ تَعْصُّبِهِ وَكَمَالِ اهْتِمَامِهِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ عَلَى دَعْوَى الْإِجْمَاعِ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُنَاقِشْ فِي سَنَدِ الرَّوَايَةِ^٤.

ثم قال الفخر الناصب: أَمَا اشْتِدَالُهم أَنَّ الْآيَةَ مُخْتَصَّةٌ بِمَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ فِي الرُّكُوعِ وَهُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَتَقُولُ: هَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ مِنْ وَجْهِ:

٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٧٧.

١. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.

٤. راجع: إحقاق الحق ٢: ٤٠٨.

٣. نهج الحق: ١٧٢، جامع الأصول ٩: ٤٧٨.

الأول: أَنَّ الزَّكَاةَ اسْمٌ لِلوَاجِبِ لَا لِلْمَدْحِ، لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾^١ فَلَوْ أَنَّهُ أَذَى الزَّكَاةِ فِي الرُّكُوعِ لَكَانَ قَدْ أُخِّرَ [أداء] الزَّكَاةِ الْوَاجِبِ عَنْ أَوَّلِ أَوْقَاتِ الْوُجُوبِ، وَذَلِكَ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ مَعْصِيَةٌ، وَلَا يَجُوزُ إِسْنَادُهُ إِلَى عَلِيٍّ، وَحَمَلَ الزَّكَاةَ عَلَى الصَّدَقَةِ النَّافِلَةِ خِلَافَ الْأَصْلِ، لِإِمَّا بَيْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ زَكَاةً فَهُوَ وَاجِبٌ^٢.

أقول: الزَّكَاةُ فِي اللُّغَةِ: التَّمَوُّ، وَإِنَّمَا سَمِيَتِ الصَّدَقَةُ زَكَاةً لِكَوْنِهَا سَبَبًا لَتَمَوِّ الْمَالِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَنْحَقِّ اللَّهُ الرُّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾^٣ وَلَمْ يَثْبُتْ لِلْفِعْلِ الزَّكَاةَ حَقِيقَةُ شَرْعِيَّةٍ حَالِ نُزُولِ الْآيَةِ، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتُوا الزَّكَاةَ﴾ دَلَالَةٌ عَلَيْهَا، وَلَوْ فُرِضَ ظُهُورُهُ فِي خُصُوصِ الْوَاجِبَةِ كَانَ ظُهُورُ الرُّكُوعِ فِي رُكُوعِ الصَّلَاةِ أَقْوَى، كَمَا أَنَّ ظُهُورَ الرَّمْيِ فِي رَمْيِ السَّهْمِ أَقْوَى مِنْ ظُهُورِ لَفْظِ الْأَسَدِ فِي الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرَسِ، فَيَصِيرُ قَرِينَةٌ عَلَى صَرْفِهِ عَنِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ إِلَى الْمَجَازِي، فَيُحْمَلُ لَفْظُ الزَّكَاةِ عَلَى الْمَدْنُوْبَةِ بِالْقَرِينَةِ الْمُقَارَنَةِ لَهُ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ فِي بَيَانِ مَدْحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَمَلَ لَفْظَ الزَّكَاةِ وَالرُّكُوعِ عَلَى مَعْنَاهُمَا الْحَقِيقِيَّةِ لَا يَنْسَبُ الْمَدْحُ، فَلَا بُدَّ مِنْ صَرْفِ أَحَدِ اللَّفْظَيْنِ إِلَى الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّةِ، وَصَرْفِ لَفْظِ الزَّكَاةِ أَوَّلَى، مُضَافًا إِلَى دَلَالَةِ الرُّوَايَاتِ الْكَثِيرَةِ مِنْ طُرُقِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ فِي الْآيَةِ خُصُوصُ الْمَدْنُوْبَةِ.

ثُمَّ قَالَ النَّاصِبُ: الثَّانِي: أَنَّ اللَّاتِقَ بَعَلِيٍّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْرِقُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللَّهِ حَالِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَتَفَرَّغُ لِسَمَاعِ كَلَامِ الْغَيْرِ وَفَهْمِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾^٤ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^٥.

أقول فيه: إِنَّ مَقَامَ الْوِلَايَةِ الْمُطْلَقَةِ مَقَامُ الْجَامِعِيَّةِ، لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، فَالتَّوَجُّهُ إِلَى كَلَامِ الْفَقِيرِ تَوَجُّهًُ إِلَى اللَّهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ أَنَّ الرُّشُولَ ﷺ مَعَ كَوْنِهِ أَكْمَلُ مِنْ عَلِيٍّ ؑ كَانَ مُتَنَفِّذًا لِرُكُوبِ الْحَسَنِ عَلَى ظَهْرِهِ فِي سُجُودِ الصَّلَاةِ الْمَقْرُوضَةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ حَتَّى يَنْزِلَ الْحَسَنُ مِنْ ظَهْرِهِ لثَلَاثِ سَقَطٍ وَلَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ.

ثُمَّ قَالَ النَّاصِبُ: الثَّلَاثُ: أَنَّ دَفْعَ الْحَاثِمِ إِلَى الْمِسْكِينِ فِي الصَّلَاةِ عَمَلٌ كَثِيرٌ، وَاللَّاتِقُ بِحَالِ عَلِيٍّ أَنْ لَا يَفْعَلَ ذَلِكَ^٦.

أقول فيه: إِنَّهُ مَمْنُوعٌ، مَعَ أَنَّ فِي الرُّوَايَةِ أَنَّهُ ﷺ أَوْمَأَ بِخِنْصَرِهِ، فَأَخْرَجَهُ الْفَقِيرُ مِنْ خِنْصَرِهِ، مَعَ أَنَّهُ

٣. البقرة: ٢٧٦/٢.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٣١.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.

٥. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.

١. البقرة: ٢٧٧/٢.

٤. آل عمران: ١٩١/٣.

قال النَّاصِبُ بعدَ ذلكَ بقليلٍ: إِنَّ الْعُلَمَاءَ احْتَجُّوا بِالْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ لَا يَقْطَعُ الصَّلَاةَ^١. وَمِمَّا ذَكَرْنَا يُعْلَمُ فسادُ سائرِ ما لَفَّقَهُ النَّاصِبُ.

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [٥٦]

ثم بالغ سبحانه في الحثِّ على تولِّي الرِّشُولِ وخلفائه بقوله: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» ويتَّخِذُهُمْ أَوْلَىٰ بِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ، ويعتقد أنهم مُتَصَرِّفُونَ في أموره، فهو مِنْ حِزْبِ اللَّهِ وَجُنُودِهِ، وغالب على أعدائه «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ» وأولياءه «هُمُ الْغَالِبُونَ» على حِزْبِ أعداء الله، وجند الشَّيْطَانِ، وأعوان الجَهْلِ.

عن الباقر عليه السلام، في قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ» الآية، قال: «إِنَّ رَهْطًا مِنَ الْيَهُودِ أَسْلَمُوا، مِنْهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَأَسِيدٌ^٢، وَتَعْلِبَةٌ، وَابْنُ أَمِينٍ^٣، وَابْنُ صُورِيَا، فَأَتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ مُوسَىٰ أَوْصَىٰ إِلَىٰ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ، فَمَنْ وَصِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ وَلَّيْنَا بَعْدَكَ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» الآية.

[ثم] قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قوموا، فقاموا فَأَتُوا الْمَسْجِدَ فإذا سائل خارج، فقال: يا سائل، أما أعطاك أحدَ شيئاً؟ قال: نعم، هذا الخاتم، قال: مَنْ أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرَّجُلُ الَّذِي يُصَلِّي، قال: على أَيِّ حالٍ أعطاك؟ قال: كان رَاكِعًا، فَكَبَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَبَّرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَيَّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ وَلِيَّكُمْ [بعدى]، قالوا: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَبِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَلِيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ»^٤.

وفي (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» في هذا الموضع: الْمُؤْتَمِنُونَ عَلَى الْخَلَائِقِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْأَوْصِيَاءِ فِي عَصْرِ بَعْدَ عَصْرٍ^٥.

وفي (التوحيد): عن الصادق عليه السلام: «يَجِيءُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا بِحُجْرَةِ رَبِّهِ، وَنَحْنُ آخِذُونَ بِحُجْرَةِ نَبِيِّنَا، وَشِيعَتُنَا آخِذُونَ بِحُجْرَتِنَا، فَنَحْنُ وَشِيعَتُنَا حِزْبُ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَاللَّهُ لَا يُزَعِّمُ أَنَّهَا حُجْرَةُ الْإِزَارِ وَلَكِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، يَجِيءُ رَسُولُ اللَّهِ آخِذًا بِدَيْنِ اللَّهِ وَنَجِيءِ [نَحْنُ] آخِذِينَ بِدَيْنِ نَبِيِّنَا، وَتَجِيءُ شِيعَتُنَا آخِذِينَ بِدِينِنَا»^٦.

٢. في الأمالي: وأسد. ٣. في الأمالي: وابن يامين.

٤. أمالي الصدوق: ١٩٣/١٨٦، تفسير الصافي ٤: ٤٦٠. ٥. الاحتجاج: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧.

٦. التوحيد: ٣/١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٤٧.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [٥٧]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن مولاة أهل الكتاب، بالغ سبحانه في تأكيده، وعممه إلى جميع الكفار بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ وتعاملوا مع شريعتكم الغراء معاملة الساجر والغائب ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾ الذين لم يؤمنوا بكتاب ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لأنفسكم.

قيل: كان رفاة بن زيد، وشويد بن الحارث أظهرها الإيمان ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يؤادونهما^١. فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

ثم حذرهم عن مخالفة نهي بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عذابه في موالاتهم ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ عن صميم القلب بالله واليوم الآخر، فإن حقيقة الإيمان تلزم الاتقاء عن مخالفة أحكام الله وموالاة أعدائه.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ [٥٨]

ثم ذكر الله سبحانه استهزاءهم بالصلاة التي هي أعظم العبادات وركن دين الإسلام ازدياداً لتغيير قلوب المسلمين منهم، بقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ المسلمين ودعوتهم ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ بأن أذن المؤذنون ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ فيما بينهم، أو عند أنفسهم ﴿هُزُؤًا﴾ وسخرية ﴿وَلَعِبًا﴾ وعبثاً اغتياهم بأنه لا فائدة فيها، و﴿ذَلِكَ﴾ الاستهزاء واللعب معلن ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حُسن عبادة الله والخضوع له، وقباحة الهُزء بها، ولو كان لهم عقل لما اجترأوا على تلك العظيمة.

قال بعض الحكماء: أشرف الحركات الصلاة، وأنفع السكّنات الصوم^٢.

قيل: كان المؤذنون إذا أذنوا للصلاة تضاحكت اليهود فيما بينهم، وتغامزوا سَفَهًا في استهزاء اليهود بدین الإسلام واشتِهزاء بالصلاة، وتجهيلاً لأهلها، وتنفيراً للناس عنها^٣.

وقيل: كان مُنادي رسول الله ﷺ يُنادي للصلاة، وقام المسلمون إليها، فقالت اليهود:

قاموا لا قاموا، صلّوا لا صلّوا، على طريق الاستهزاء، فنزلت الآية^٤.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٣٣.

١. في النسخة: وعاملوا. ٢. مجمع البيان ٣: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧.

٥. تفسير الرازي ١٢: ٣٣.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٠٨.

وقيل: كان المنافقون يتضحكون عند القيام إلى الصلاة تنغيماً للناس عنها^١.

وقيل: قالوا: يا محمد، لقد أبدعت شيئاً لم يسمع فيما مضى، فإن كنت نبياً فقد خالفت فيما أبدعت جميع الأنبياء، فمن أين لك صباح كصباح العيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية^٢.
وقيل: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، يقول: أحرق الكاذب فدخلت خادمته بنار ذات ليلة، فتطايرت منها شرارة في البيت، فاحترق البيت، واحترق هو وأهله^٣.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُصُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ [٥٩]

ثم لما حكى الله عز وجل استهزاء أهل الكتاب بالذين أمر نبيهم ﷺ بتوبيخهم بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُصُونَ﴾ وتكرهون ﴿مِنَّا﴾ وتسخطون علينا بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا﴾ بسبب ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته وكمال صفاته ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ على سائر الأنبياء ﴿مِن قَبْلُ﴾ نزول القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون عن قبول الحق، كافرون بجميع الكتب، حيث إنكم إن كنتم مؤمنين بكتبكم الناطقة بصحة القرآن لأمثم به.

وقيل: إن المراد: ولأجل أنكم فاسقون، ولسنا مثلكم^٤، أو لأجل اعتقادنا بأنكم فاسقون^٥.

قيل: إنما قال: ﴿أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ لأن أكثرهم كانوا متمردين طلباً للرئاسة والجاه والخطام، لا للشبهة في الرسالة والدين، أو لئلا يظن من آمن منهم [أنه] داخل في ذلك^٦.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن نقرأ من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل وسألوه عن دينه، فقال: «أؤمن بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والتبوت من ربهم، لا نفرق بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون»، فحين سمعوا ذكر عيسى قالوا: لا نعلم أهل دين أقل خطأ في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم. فأنزل الله هذه الآية^٧.

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ

٤. تفسير الرازي ١٢: ٣٤.

٧. مجمع البيان ٣: ٣٣٠.

١- ٣. تفسير الرازي ١٢: ٣٣.

٥ و ٦. تفسير الرازي ١٢: ٣٥.

مِنْهُمْ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ وَعَبَدُ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ

السَّبِيلِ [٦٠]

ثُمَّ أَنَّهُمْ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ شَرُّ الْأَدْيَانِ، وَأَهْلَهُ شَرُّ النَّاسِ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِشَكَايَتِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ﴾ وَأَخْبِرْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴿بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ﴾ الَّذِي زَعَمْتُمْ شَرَّهُ، وَتَقَعَّمْتُمْ مِنْهُ ﴿مُتَوَبَّةً﴾ وَجَزَاءً ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَفِي حُكْمِهِ.

ثُمَّ كَانَهُمْ قَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَأَجَابَ شَبَّاحُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: دِينَ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ^١ ﴿وَعَظِيبٌ عَلَيْهِ﴾ بِكُفْرِهِ، وَشَوْءٌ سَرِيرَتِهِ، وَإِنِّهَا مَكَهٌ فِي التَّعَاصِي بَعْدَ وَضُوحِ الْآيَاتِ ﴿وَجَعَلَ﴾ جَمَاعَةً ﴿مِنْهُمْ الْقِرْدَةُ﴾ فِي زَمَانِ دَاوُدَ بَدْعَانَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ اغْتَدَوْا فِي السَّبْتِ، ﴿وَو﴾ جَمَاعَةً ﴿الْخَنَازِيرُ﴾ فِي زَمَانِ عِيسَى حِينَ كَفَرُوا بَعْدَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ وَأَكَلُهَا، ﴿وَو﴾ بَعْضًا ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ وَأَطَاعَ الشَّيْطَانَ.

وَرُوي أَنَّ الْمُسَخِّينَ كَانُوا فِي أَصْحَابِ السَّبْتِ، فَإِنْ شَبَّانَهُمْ مُسَخَّوْا قِرْدَةً، وَمَشَايِخَهُمْ مُسَخَّوْا خَنَازِيرُ^٢.

قِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِلْيَهُودِ: يَا أَخَوَةَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، فَتَكْسُوا رُؤُوسَهُمْ وَافْتَضَحُوا^٣.

وقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالطَّاغُوتِ: الْعَجَلُ^٤، وَقِيلَ: الْأَحْبَارُ الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ^٥.
ثُمَّ قَرَّرَ شَرَّ مُتَوَبَّتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَلْعُونُونَ الْمَسْخُوحُونَ مِنَ الْيَهُودِ ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ وَأَسْوَأُ مَقَرًّا مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: مَكَانُهُمْ سَقَرٌ، وَلَا مَكَانَ أَشَدَّ شَرًّا مِنْهُ^٦ ﴿وَو﴾ هُمْ ﴿أَضَلُّ﴾ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وَقُضِدَ الطَّرِيقُ وَالنَّهْجُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا انْحِرَافَ فِيهِ عَنِ الْحَقِّ إِلَى غُلُوِّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ صِفَتِي التَّفْضِيلِ لِلزِّيَادَةِ، لَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

كَانُوا يَكْتُمُونَ [٦١]

٢. مجمع البيان ٣: ٣٣٣، تفسير الصافي ٢: ٤٨.

٤. مجمع البيان ٣: ٣٣٣، تفسير الرازي ١٢: ٣٧.

١. مجمع البيان ٣: ٣٣٢، تفسير الصافي ٢: ٤٨.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٣٣، تفسير الرازي ١٢: ٣٧.

٥ و ٦. تفسير الرازي ١٢: ٣٧.

ثُمَّ وَنَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْيَهُودَ بِنِفَاقِهِمْ وَقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ وَعَدَمِ تَأَثُّرِهِمْ بِالْمَوَاعِظِ وَالْآيَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ وَكُفُّوا﴾ وَحَضَرُوا عِنْدَكُمْ ﴿قَالُوا﴾ لَكُمْ نِفَاقًا: ﴿أَمَنَّا﴾ بِمَا آمَنْتُمْ، وَاتَّبَعْنَا الرُّسُولَ، ﴿وَوُجِدَ الْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوا﴾ مَجْلِسَكُمْ مُلَابِسِينَ ﴿بِالْكُفْرِ﴾ مُلَازِمِينَ لَهُ ﴿وَهُمْ قَدْ حَسَرُوا﴾ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِهِ﴾ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ مَا سَمِعُوا وَشَهِدُوا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْآيَاتِ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ وَيَسْتَرُونَ مِنْكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْحَسَدِ، وَالْاجْتِهَادِ فِي الْمَكْرِ بِالْمُسْلِمِينَ، وَالتَّبْغُضِ وَالْعَدَاوَةِ.

قالوا: نزلت في ناسٍ من اليهود كانوا يدخلون على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُظْهِرُونَ لَهُ الْإِيمَانَ نِفَاقًا، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ بِشَأْنِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ مَجْلِسِهِ كَمَا دَخَلُوا، لَمْ يَتَعَلَّقْ بِقُلُوبِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالنَّصَاحِ وَالتَّذَكِيرَاتِ^١.

وقيل: ضمير الخطاب في الجمع راجع إلى الرُّسُولِ ﷺ، وَالْجَمْعُ لِلتَّعْظِيمِ^٢.
وعن القمِّي: «نزلت في عبدالله بن أبي»^٣.

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * لَوْلَا يُنَهَايَهُمُ الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٦٢ و ٦٣]

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ اللَّهُ عَلَى نِفَاقِهِمْ بِشَوْءِ أَعْمَالِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَى﴾ يَا مُحَمَّدُ وَتَبَصَّرْ ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ﴾ غَيْرَ مُسْتَحْيِينَ مِنْكَ، وَيُسْرِعُونَ بِالْعَجَلَةِ شَوْقًا وَرَغْبَةً ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ وَقَوْلِ الْكَذِبِ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وَالظُّلْمِ عَلَى الْخَلْقِ ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ وَأَخَذَ الرُّشُوءَ، وَاللَّهُ ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مِنْ تِلْكَ الْمَعَاصِي الْعِظَامِ.

ثُمَّ وَنَحَ سُبْحَانَهُ الرُّهَادَ وَالْعُلَمَاءَ عَلَى تَرْكِ نَهْيِهِمْ عَنِ الْمُتَكْرَرَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا يُنَهَايَهُمُ﴾ وَبِرَدِّعِهِمُ ﴿الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ﴾ مِنَ الْيَهُودِ ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ وَكَلَامِهِمُ الْكَذِبَ ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ وَالْمَالَ الْحَرَامَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِقُبْحِهَا وَخُرْمَتِهَا، وَمُشَاهَدَتِهِمْ مُبَاشَرَتَهُمْ لَهَا، بِاللَّهِ ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مِنَ الْمُدَارَاةِ مَعَ الْعِصَاةِ، وَتَرْكِ نَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ.

قيل: الرِّبَايُونُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ، وَالْأَخْبَارُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ، وَقِيلَ: كُلُّهُمْ فِي الْيَهُودِ^٤.

نسي ذم تبارك قيل: في الآيتين دلالة على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه؛ لأنه تعالى النهي عن المنكر

٢. تفسير أبي السعود ٣: ٥٦، تفسير روح البيان ٢: ٤١٢.

٤. مجمع البيان ٣: ٣٣٥، تفسير الرازي ١٢: ٣٩.

١. تفسير الرازي ١٢: ٣٨.

٣. تفسير القمي ١: ١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٤٨.

٤٠٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

ذَمَّهِمَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، بَلْ قِيلَ: إِنَّ ذَمَّ تَارِكِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَقْوَى مِنْ ذَمِّ مُرْتَكِبِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي ذَمِّ تَارِكِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وَالصَّنْعُ أَقْوَى مِنَ الْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الصَّنْعَ هُوَ الْعَمَلُ إِذَا صَارَ رَاسِخًا، فَجَعَلَ ذَنْبَ تَارِكِ النَّهْيِ ذَنْبًا رَاسِخًا^١.

عن ابن عباس رضي الله عنه: هي أشد آية في القرآن. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها^٢.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [٦٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَمِّهِمْ وَتَرْعِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، ذَمَّهُمْ بِعَقَائِدِهِمُ السَّخِيفَةِ الْفَاسِدَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مَقْبُوضَةٌ مُسَيِّكَةٌ عَنِ الْعَطَاءِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ: إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ مَالًا وَأَخْصَبَهُمْ نَاحِيَةً، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلوات الله عليه وَكَذَّبُوهُ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَعِيشَةَ، فَوَصَفُوا اللَّهَ بِالْبُخْلِ^٣.
وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُمْ عَبَرُوا عَنْ عَدَمِ تَعْذِيهِمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا أَبَاطًا قَلِيلَةً بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعَجْزِ^٤.

وَعَنِ الْقَمِّي: [قَالُوا:] قَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْأَمْرِ، لَا يُحْدِثُ اللَّهُ [غَيْرَ مَا قَدَرَهُ] فِي التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ^٥.
وَفِي (التَّوْحِيدِ): عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «لَمْ يَعْنُوا أَنَّهُ هَكَذَا، وَلَكِنْهُمْ قَالُوا: قَدْ فَرَّغَ مِنَ الْأَمْرِ فَلَا يَزِيدُ وَلَا يُنْقِصُ»^٦.

وَعَنِ الرِّضَا عليه السلام، فِي كَلَامٍ لَهُ فِي إِثْبَاتِ الْبِدَاءِ مَعَ سُلَيْمَانَ الْمَرْزُوقِيِّ وَقَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ، فَقَالَ عليه السلام: «أَحْسِبُكَ ضَاهِيَةً الْيَهُودِ فِي هَذَا الْبَابِ؟»، قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ؟ قَالَ: «[قَالَتْ:] يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، يَعْتُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَّغَ مِنَ الْأَمْرِ، فَلَيْسَ يُحْدِثُ شَيْئًا»^٧ الْحَدِيثُ.

ثُمَّ دَعَا شَبَّاحَانَهُ عَلَيْهِمَا بِقَوْلِهِ: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» فِي نَارِ جَهَنَّمَ، أَوِ الْمُرَادُ: أَلْبَسَهُمُ اللَّهُ الْفَقْرَ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ وَالْإِعْطَاءِ «وَلَعْنُوا» وَأَبْعَدُوا عَنِ الرَّحْمَةِ «بِمَا قَالُوا» مِنَ الْكَلِمَةِ الشَّنِيعَةِ، وَبِمَا

١. تفسير الرازي ١٢: ٣٩.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٤٠.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٤١.

٤. التوحيد: ١/١٦٧، تفسير الصافي ٢: ٤٩.

٥. تفسير القمي ١٧١: ١، تفسير الصافي ٢: ٤٩.

٦. تفسير الصافي ٢: ٥٠.

٧. تفسير الرازي ١٢: ٤١، تفسير روح البيان ٢: ٤١٤.

٨. تفسير القمي ١٧١: ١، تفسير الصافي ٢: ٤٩.

٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٨٢، تفسير الصافي ٢: ٥٠.

اغْتَفَدُوا مِنَ الْعَقَائِدِ السَّخِيفَةِ.

ثم رَدَّهم بقوله: ﴿بَلْ يَذَاهُ مَبْشُوطَتَانِ﴾ وقدرته ورحمته واسِعَتان، وخَزَائِنه غير نافذة ﴿يُنْفِقُ﴾ منها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويختار على مَنْ يشاء، يُوسِع تَارَةً وَيُضَيِّقُ أُخْرَى، على حَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه. فالِإِدَان كِنَايَة عن القُدْرَة، والجُود وإِسْنَاد البَسْط إليهما كِنَايَة عن غَايَة الجُود، حيثُ إِنْ مَنْ لَه غَايَة الجُود يُعْطِي بِيَدَيْهِ جَمِيعاً.

ثم ذَهَبَ بازِدِيَاد كُفْرَهم بِزُور الآيَات، بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ وهم عِلْمَاؤُهم ورُؤَسَاؤُهم - على ما قيل^١ - «مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» مِنَ الْقُرْآنِ «طُغْيَانًا» على طُغْيَانِهِمْ «وَكُفْرًا» على كُفْرِهِمْ السَّابِقِينَ.

ثم ذَكَر ابتِلَاءَهم بِالْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ بقوله: ﴿وَالْقَيْنَا﴾ وأَوْقَعْنَا «بَيْنَهُمْ» وفي فِرْقِهِمْ «الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ» المُسْتَمَرَّتِينَ «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» حيثُ إِنَّهم لَمَّا أَنْكَرُوا الْحَقَّ وَعَارَضُوا الرُّسُولَ طَلِبَاءَ لِلرَّاحَةِ، وَحِفْظاً لِلجَاهِ والرَّئَايَةِ، ابتَلَاهُمُ اللهُ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ الْعَقَائِدِ والأَهْوَاءِ بِالمَشَقَّاتِ الكَثِيرَةِ، وَالثُّمُومِ الوَفِيرَةِ، فَحَرَمُوا عَن نَّيْلِ مَقْصَدِهِمْ، وفَاتَهُمْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا والأُخْرَى، وَلِذَلِكَ التَّخَالُفُ وَالتَّبَاغُضُ بَيْنَهُمْ «كُلَّمَا أَوْقَدُوا» وَأَشْعَلُوا «نَارًا لِلْحَرْبِ» مَعَ الرُّسُولِ ﷺ، وَأَنَارُوا فِتْنَةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ «أَطْفَأَهَا اللَّهُ» وَأَخْمَدَهَا بِإِقْبَاعِ الْمُنَازَعَةِ وَالمُعَادَاةِ فِيهِمْ، فَلَا يَتَّفِقُونَ عَلَى رَأْيٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِصَرَفِهِمْ عَنِ الْحَرْبِ، وَمَقْهُورِيَّتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ.

قِيلَ: كَانَ الْيَهُودُ فِي أَشَدِّ بَأْسٍ وَأَمْنٍ دَارٍ، حَتَّى إِنْ قَرِيشًا كَانَتْ تَعْتَصِدُ بِهِمْ، وَكَانَ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ تَتَكَثَّرُ بِمُظَاهَرَتِهِمْ، فَذَلُّوا وَقَهَرُوا، وَقَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَجْلَى بَنِي النُّضَيْرِ، وَغَلَبَ عَلَى خَيْبَرَ وَفَدَكَ، فَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ شَأْنَهُمْ حَتَّى إِنْ الْيَوْمَ تَجَدَّدَ الْيَهُودُ أَذَلَّ النَّاسَ^٢.

ثم ذَكَرَ اللهُ شُجْرَانَهُ غَايَة جُهِدِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ أَنْوَاعِ الْحِجْلِ وَالمَكْرِ فِي تَضْعِيفِ الْإِسْلَامِ، مَعَ غَايَة ذُلِّهِمْ وَضَعْفِهِمْ، بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ» مَعَ الْوَصْفِ «فِي الْأَرْضِ» لِيُوقِعُوا «فَسَادًا» بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. قِيلَ: إِنَّهم لَمَّا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَةِ سَلَطَ اللهُ عَلَيْهِمْ بُخْتَ نَصْرٍ، ثُمَّ أَفْسَدُوا فَسَلَطَ عَلَيْهِمْ بَطْرُسُ الرُّومِيِّ، ثُمَّ أَفْسَدُوا فَسَلَطَ عَلَيْهِمُ الْمَجُوسُ، ثُمَّ أَفْسَدُوا فَسَلَطَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ.

﴿وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فِي الْأَرْضِ وَالسَّاعِينَ فِيهَا لِإِثْرَةِ الْفِتَنِ، بَلْ هُوَ مَقْمُوتٌ عِنْدَهُ^٣.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتٍ

التَّعِيم [٦٥]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا، وَتَهْجِينَ طَرِيقَتَهُمْ، وَنَحْمَ عَلَى سَفَهِهِمْ وَخَطَاهُمْ فِي الرَّأْيِ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ نَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الرِّذَالِ، وَأَنْصَرَفُوا عَنِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، وَآمَنُوا بِالرُّسُولِ، وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ ﴿وَأَتَّقُوا﴾ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ وَالْإِفْسَادَ وَسَانَرِ الْمُعَاصِي، وَاللَّهُ لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. وَلَسَرْنَا عَلَيْهِمُ بِالْعَفْوِ خَطِيئَتَهُمْ ﴿وَلَا دَخَلْنَاهُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وَخَلَدْنَاهُمْ فِي الْعِلْيَيْنِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَإِنْ جَلَّ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ [٦٦]

ثُمَّ ذَكَرَ الْفَوَائِدَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِلْإِيمَانِ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وَعَمِلُوا بِأَحْكَامِهَا، وَحَفِظُوا مِنْ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، وَوَفَّوْا بِمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَهْدِ عَلَيْهِمُ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ سَانَرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، أَوِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْمُصَدَّقِ لِكُتُبِهِمْ، وَاللَّهُ لَأَكَلُوا وَارْتَزَقُوا مِنَ الْبَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ مِنَ الْخُبُوبِ وَالْفَوَاكِهِ وَالتَّبَاتَاتِ.

وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الضَّكِّ وَالضُّيْقِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ شُومِ جِنَايَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ تَرَكُوها لَوَجَدُوا سَعَادَةَ الدُّنْيَا مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَالْعِزِّ وَالْجَاهِ، وَسَعَادَةَ الْآخِرَةِ مِنَ النِّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالتَّعَمُّدِ الدَّائِمَةِ، فَلَا قُصُورَ فِي فَيْضِ الْفَيَاضِ.

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ مَحَلُّ الْأَسْفِ أَنْ قَلِيلًا ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ وَجَمَاعَةٌ ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ عَادِلَةٌ غَيْرُ مَائِلَةٍ إِلَى طَرَفٍ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ، وَغَيْرُ مُتَحَرِّفَةٍ عَنْ نَهْجِ الْحَقِّ وَالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ.

عَنِ الْقَمِيِّ ﷺ: قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَسَمَّاهُمُ اللَّهُ مُقْتَصِدَةً.^٢

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قِيلَ: فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ. وَالْمَعْنَى: مَا أَسَوُا أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الْجُحُودِ، وَأَصْرَوْا عَلَى الْكُفْرِ^٣ وَالضَّلَالِ، وَعَارَضُوا الرُّسُولَ ﷺ.

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

١. قوله: (والله) يشير إلى وجود قسم، وليس ثمة قسم في الآية.

٢. تفسير القمي ١: ١٧١، تفسير الصافي ٢: ٥١.

٣. تفسير الصافي ٢: ٥١.

يَغْصِيكُمْ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [٦٧]

ثُمَّ لَمَّا وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُتَقَصِّدِينَ مِنْهُمْ بِالْقَلَّةِ، وَالْجَاحِدِينَ الْمُتَمَرِّضِينَ مِنْهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ بِالْكُفْرِ، حَثَّ الرُّسُولَ ﷺ بِالتَّبْلِيغِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاهِ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ الْجَاحِدِينَ، مَعَ وَعْدِهِ بِالْعِصْمَةِ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ﴾ إِلَى النَّاسِ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فِي عَلَيٍّ، عَلَى مَا تَصَافَرُ عَنْهُمْ ﷺ وَقَالُوا: «كَذَا نَزَلَتْ»^١.

ثُمَّ هَدَدَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى تَرْكِ التَّبْلِيغِ إِعْذَاراً لَهُ وَإِظْهَاراً لِلْإِفْتِمَامِ بِالْأَمْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ مَا أَمَرْتُكَ مِنْ تَبْلِيغِ هَذَا الَّذِي أُنْزِلَ فِي عَلَيٍّ ﷺ وَكَتَمْتَهُ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ ﴿وَرِسَالَتَهُ﴾ وَمَا أَمَرْتُ مِنْ أَوَّلِ بَعَثَتِكَ بِتَبْلِيغِهِ؛ لَعَدَمِ تَرْتُّبِ الْفَائِدَةِ عَلَى سَائِرِ الْأَحْكَامِ الَّتِي بَلَّغْتَهَا بِدُونِ تَبْلِيغِ هَذَا الْأَمْرِ، فَتَكُونُ بَرَكَةُ تَبْلِيغِ وَلَايَةِ عَلِيٍّ ﷺ بِمَنْزِلَةِ تَارِكِ التَّبْلِيغِ رَأْساً، وَيَكُونُ عِقَابُكَ عِقَابَهُ ﴿وَاللَّهُ يَغْصِيكُمْ﴾ وَيَحْفَظُكَ ﴿مِنْ﴾ شَرِّ النَّاسِ وَضَرَمَهُمْ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ وَلَا تُبَالِ بِهِمْ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ وَعَدَهُ بِعِصْمَتِهِ وَحِفْظِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي﴾ إِلَى تَلِيلِ الْمَقَاصِدِ «الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» وَلَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ إِنْغَازِ مَرَامِهِمْ.

قِيلَ: بَنَزَلُوهَا فِي قَضِيَّةِ الرَّجْمِ وَالْقِصَاصِ^٢. وَقِيلَ: فِي قَضِيَّةِ أَخْذِ الْأَعْرَابِيِّ سَيْفِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِرَادَتُهُ قَتْلَهُ فَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ^٣. وَقِيلَ: فِي أَمْرِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ^٤. وَقِيلَ: فِي حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ^٥. وَقِيلَ: فِي اسْتِهْزَاءِ الْيَهُودِ وَسُكُوتِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُمْ^٦. وَقِيلَ: فِي سُكُوتِ النَّبِيِّ عَنْ تَعْيِيبِ الْأَصْنَامِ^٧. وَقِيلَ: فِي تَبْلِيغِ حُكْمِ الْجِهَادِ^٨. وَقِيلَ: لِرَفْعِ مَهَابَةِ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَابَهُمْ^٩. أَقُولُ: لَا شُبْهَةَ فِي نَزُولِهَا فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ، فَتِلْكَ الْوُجُوهُ الَّتِي ذَكَرَهَا مُفَسِّرُو الْعَامَّةِ غَيْرَ مُنَاسِبَةٍ لِنَزُولِهَا فِي الْوَقْتِ الْمَذْكُورِ.

ثُمَّ أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ بَعْدَ تَعَلُّقِ الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ عَنِ الْعَامَّةِ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ: الْعَاشِرُ - أَيُّ مِنَ الْوُجُوهِ - أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي فَضْلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيٌّْ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، فَلِقِيهِ عُمَرُ فَقَالَ: هُنَيْئاً لَكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ، أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ^{١٠}. أَقُولُ: قَالَ آيَةُ اللَّهِ الْعَلَامَةُ الْحَلِّيُّ فِي (نَهْجِ الْحَقِّ) بَعْدَ ذِكْرِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ: نَقَلَ الْجُمْهُورُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي فَضْلِ عَلِيٍّ ﷺ يَوْمَ عَدِيرِ حِمٍّ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ عَلِيٍّ ﷺ وَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَسْتُ أَوْلَى

بينكم بأنفسكم؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاً فِهَذَا عَلَيَّ مَوْلَا، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَأَخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَذِرْ الْحَقَّ مَعَهُ كَيْفَمَا دَارَ»^١.

وقال فضل بن رُوَبهان رَدًّا عَلَى الْعَلَمَةِ: أَمَا مَا ذَكَرَهُ مِنْ إِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ لَمْ يَجْتَمِعُوا^٢ عَلَى هَذَا، وَأَمَا مَا رَوَى [مَنْ] أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَهُ يَوْمَ غَدِيرٍ [خَم] حِينَ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ قَالَ: «أَلَسْتُ أَوَّلِي»، فَقَدْ ثَبَتَ هَذَا فِي الصَّحاحِ^٣.

وقال القاضي نور الله التُّسْتَرِي (نور الله مضجعه)، فِي رَدِّ النَّاصِبِ ابْنِ رُوَبهان، وَاثْبَاتِ رِوَايَةِ الْعَلَمَةِ (أَعْلَى اللَّهِ فِي الْخُلْدِ مَقَامَهُ): رَوَى الْحَدِيثَ - يَعْنِي مَا ذَكَرَهُ الْعَلَمَةُ - فِي صَحاحِ الْقَوْمِ كَالْبُخَارِيِّ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إِمَامُهُمْ فِي مُسْنَدِهِ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ، وَكَذَا رَوَاهُ الثُّعْلُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَابْنُ الْمَغَازَلِيِّ الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِ (الْمَنَاقِبِ) مِنْ طُرُقٍ شَتَّى، وَابْنُ عُقْدَةَ فِي مِائَةِ وَخَمْسَةِ طُرُقٍ، وَذَكَرَ الشَّيْخُ ابْنُ كَثِيرٍ الشَّامِيُّ الشَّافِعِيُّ عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ: أَنِّي رَأَيْتُ كِتَابًا جَمَعَ فِيهِ أَحَادِيثَ غَدِيرِ خُمٍ فِي مُجَلَّدَيْنِ ضَخْمَيْنِ، وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ أَبِي الْمُعَالِيِّ الْجَوِينِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ: شَاهَدْتُ مُجَلَّدًا بِبَغْدَادٍ فِي يَدِ صَحَّافٍ فِيهِ رِوَايَاتُ هَذَا الْخَبَرِ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ: الْمَجْلَدُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ طُرُقٍ «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاً فَعَلَيَّ مَوْلَا» وَبَتْلُوهُ الْمَجْلَدُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ، وَاثْبَتَ الشَّيْخُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ الشَّافِعِيُّ فِي رِسَالَتِهِ الْمَوْسُومَةِ بِ(أَسْنَى الْمَطَالِبِ فِي مَنَاقِبِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ) تَوَاتُرَ هَذَا الْحَدِيثِ.

إِلَى أَنْ قَالَ الْقَاضِي: وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ بَلَغَ هَذَا الْخَبَرُ فِي الْأَشْتِهَارِ إِلَى حَدٍّ لَا يُؤَاوِئُ بِهِ خَبَرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَتَلَقَّيْتُهُ مُحَقِّقُوا الْأَمَّةَ بِالْقَبُولِ، أَنْتَهَى^٤.

وَفِي (الْجَوَامِعِ)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَنْصِبَ عَلِيًّا لِلنَّاسِ وَيُخْبِرَهُمْ بِوِلَايَتِهِ، فَتَخَوَّفَ أَنْ يَقُولُوا: حَامِي ابْنِ عَمِّهِ، وَأَنْ يَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍ وَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاً فِهَذَا عَلَيَّ مَوْلَا» وَقَرَأَهَا^٥.

وَفِي (الْكَافِيِّ): عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَدِيثٍ -: «ثُمَّ نَزَلَتِ الْوِلَايَةُ، وَإِنَّمَا أَنَا هَذَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِعَرَفَةَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^٦، وَكَانَ كَمَالُ الدِّينِ بِوِلَايَةِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَتِي حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، وَمَتْنِي أَخْبَرْتُهُمْ بِهَذَا

١. نهج الحق: ١٧٣.

٢. في المصدر: لم يجمعوا.

٣. إحقاق الحق ٢: ٤٨٢.

٤. جوامع الجامع: ١١٤، تفسير الصافي ٢: ٥١.

٥. إحقاق الحق ٢: ٤٨٥.

٦. المائدة: ٣/٥.

في ابن عمي يقول قاتل، ويقول قاتل، فقلْتُ في نفسي من غير أن ينطق لِساني، فأتتني عزيمةٌ من الله بتلة^١، أوعدني إن لم أبلغ أن أعذبني، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ﴾ الآية، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلِي إِلَّا وَقَدْ عَمَّرَهُ اللَّهُ ثُمَّ دَعَاهُ فَأُجَابَهُ، فَأَوْشِكُ أَنْ أَدْعَى فَأُجِيبَ، وَأَنَا مَسْؤُولٌ وَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَاتِلُونَ، فقالوا: نشهدُ أنك قد بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ وَأَذَيْتَ مَا عَلَيْكَ، فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين، فقال: اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثلاث مرَّات - ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا وَلِيُّكُمْ مِنْ بَعْدِي، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ^٢.

وقال أبو جعفر عليه السلام: «كَانَ وَاللهُ، آمِينَ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ وَغَيْبِهِ الَّذِي أَرْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ»^٣. وعنه عليه السلام: «أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُوْلَهُ بِوِلَايَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُوْلُهُ﴾^٤ الآية، وفرض ولاية أولي الأمر، فلم يدروا ما هي، فأمر الله محمداً، أن يفسر لهم الولاية كما فسر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، فلما أتاه ذلك من الله ضاقَ بذلك صدرُ رسول الله ﷺ، وتخوف أن يرتدوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاقت صدره وراجع ربه عز وجل، فأوحى الله إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ﴾ الآية، وصعد بأمر الله تعالى ذكره، فقام بولاية علي عليه السلام يومَ غدير خم، فنادى: الصلاة جامعة، وأمر الناس أن يبلِّغَ الشَّاهِدَ الْغَائِبَ.

قال عليه السلام: «وَكَانَتِ الْفَرِيضَةُ تَنْزِلُ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ الْأُخْرَى، وَكَانَتِ الْوِلَايَةُ آخِرَ الْفَرَائِضِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ قال: يقول الله عز وجل: لا أنزل عليكم بعدها فريضةً، قد أكملت لكم الفرائض»^٥. الخبر، إلى غير ذلك من الروايات.

ومع ذلك قال الفخر الرازي: واعلم أن الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حملة على أنه تعالى آمنه من اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها^٦.

وفيه: أن الظاهر أن الله آمنه من ضرر جميع الكفار سواء أكانوا يهوداً أو نصارى أو غيرهم من المجوس والمشركين، والمتردِّين في زمانه، والمتافقين، كأصحاب الصحيفة الملعونة والعقبة. ومن المعلوم أن العام ليس أجنبياً عن الخاص، مع أن الظاهر بل المتيقن أن الآية نزلت بعد تبليغ غالب

١. أي قاطعة. ٢. الكافي ١: ٦/٢٢٩، تفسير الصافي ٢: ٥٢.

٣. الكافي ١: ٦/٢٣٠، تفسير الصافي ٢: ٥٢. ٤. المائدة: ٥٥/٥.

٥. الكافي ١: ٦/٢٢٩، تفسير الصافي ٢: ٥٢. ٦. تفسير الرازي ١٢: ٥٠.

الأحكام، بل بعد تكميل الدين، فلو كان المقصود تأمينه في تبليغ مطلق الأحكام كان الأنسب نزولها في أوائل البعثة، أو في أوائل الهجرة، والحال أنه ﷺ كسر الأصنام ووبخ المشركين مع غاية شوكتهم وجزصهم على عبادتها، ولعن اليهود والنصارى على رؤوس الأشهاد، وحول القبلة من البيت المقدس إلى الكعبة، وقاتل المشركين واليهود، ولم يتغل منه ﷺ خوف في مورد من الموارد.

والحاصل: أنه لم يكن للنبي ﷺ خوف في تبليغ الأحكام وتعليم العقائد سيما بعد تدليل اليهود، وقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح قلاع خيبر، وقدك، مع أنه ليس من شأن النبي ﷺ الخوف من الأعداء في التبليغ لعلمه بأن الله يحفظه حتى يتم الحجة.

وبعد تكميل الدين وإتمام الحجة على العالمين، يكون مجال الخوف من القتل عند تبليغ آخر الأحكام، وهو وجوب طاعة الإمام والخليفة بعده، فاحتاج إلى التأمين فيه من العدو فامنه بقوله: ﴿وَأَنَّهُ يَفْصُمُكُمْ﴾ ويشهد لذلك مارواه كثير من العامة في شأن نزول آية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^١.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا
تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [٦٨]

ثم أنه تعالى بعد تسفيه أهل الكتاب في ترك العمل بما أنزل الله، وتخطيتهم في عدم الإيمان بالقرآن، وتأمين الرسول من ضرر الكفار، أمره بتغليظ القول عليهم في ترك العمل بالكتب السماوية بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لليهود والنصارى تحقيراً لهم، وتضعيفاً لشأنهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَلَا يَكُونُ فِي قَوْلِكُمْ وَفِعْلِكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من سائر الكتب السماوية، أو من القرآن العظيم، وثؤمنوا جميعها، وثوفوا بعهد الله الذي فيها من وجوب الإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه، وتلتزموا بما فيها.

ثم بين غاية خبثهم وشدة عداوتهم بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من الآيات الدالة على صدقك في الثبوت ﴿طُغْيَانًا﴾ و﴿كُفْرًا﴾ وجحوداً، فإذا كانوا بهذه المراتبة من الخيابة والعياد ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ ولا تحزن ﴿عَلَى﴾ زيادة كفر ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن ضرر ذلك

١. المعارج: ١/٧٠، راجع: تفسير القرطبي ١٨: ٢٧٨، وتفسير أبي السعود ٩: ٢٩، والدر المنثور ٨: ٢٧٧، والغدير ١:

راجع إليهم، لا إليك ولا إلى المسلمين.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٦٩]

ثم أنه تعالى بعد تغليظ القول على الكافرين من أهل الكتاب، أظهر اللطف بالمؤمنين منهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكُتِبَ ورُسُلُهُ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ الْفِرْقِ كُفْرًا وَضَلَالًا ﴿وَالنَّصَارَى﴾ خصوص ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، قد مر تفسيره في البقرة^١.

قيل: فيها تنبيه على أن لا فضيلة لأحد إلا بالإيمان والعمل الصالح من غير فرق بين مَنْ آمَنَ أولاً، أو بعد الكُفْرِ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِالْوَصْفَيْنِ كَانَ لَهُ الْأَمْنُ فِي الْقِيَامَةِ^٢.
أقول: لاشك في فضيلة الأول على الثاني.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا
تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ [٧٠]

ثم سَلَّى سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بتذكُّرِ أَنْ حُبَّتْ ذات طائفة بني إسرائيل وَغَتَوْهُمْ بِنَقْضِ عَهْدِ الله، وَقَتْلِ الأنبياءِ واتباع الهوى، ليس مُخْتَصًّا بزمانه بقوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بالتوحيد والإيمان، والعمل بأحكام التَّوْرَةِ ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ مع ذلك العهد ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بعد موسى ﴿رُسُلًا﴾ كثيرة لِيَذْكُرُوهُمْ العهد، وَيُبَيِّنُوا أَحْكَامَ دِينِهِمْ.

ثم كأنه قيل: فما عاملوا^٣ مع الرسل؟ فأجاب بقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ﴾ مِنْ قِتْلِ الله ﴿رَسُولٌ﴾ مِنْ أُولَئِكَ الرُّسُلِ ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ وَلَا يُوَافِقُ شَهَوَاتِهِمْ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَحْكَامِ غَيْرِ المرضية لهم، خَالَفُوهُ وَعَادَوْهُ.

ثم كأنه قيل: كيف خالفوا الرُّسُلَ، وما عاملوا^٤ معهم؟ فأجاب سُبْحَانَهُ بقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿كَذَّبُوا﴾ هُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لَهُمْ بِالْإِضْرَارِ وَالْقَتْلِ ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخَرُ مِنْهُمْ كَانُوا ﴿يَقْتُلُونَ﴾ هُمْ كَزَكَرَيَّا وَيَحْيَى.

١. سورة البقرة: ٦٢/٢. ٢. تفسير روح المعاني ٦: ٢٠٣.

٣ و ٤. كذا، والظاهر: كيف تعاملوا.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ [٧١]

ثم أشار سبحانه إلى علة جرأتهم على الأنبياء بقوله: ﴿وَحَسِبُوا﴾ وظنوا الغرورهم بكونهم أولاد الأنبياء، وأنهم بشفاعتهم يدفعون عنهم العذاب ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ لهم بمعاصيهم ﴿فِتْنَةً﴾ وبلاء من الله ﴿فَعَمُوا﴾ عن رؤية الآيات، وكَفَّ بَصَرَهُمْ عن إدراك المعجزات ﴿وَصَمُوا﴾ عن استماع الحق الذي ألقى إليهم الرُّسل.

قيل: كانت تلك الحالة إلى زمان داود وسليمان عليهما السلام ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^١ بسبب إيمانهم بهما، وانقيادهم لهما ﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ عن الدين وطريق الهداية ﴿وَصَمُوا﴾ عن استماع مواعظ الأنبياء مرة أخرى، ولكن لأكلهم بل ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بعد بعثة عيسى عليه السلام وخاتم الأنبياء عليه السلام؛ لأن قليلاً منهم آمنوا بهما.

قيل: إنهم أفسدوا حتى سَلَطَ الله عليهم بُخْتَ نَصْرٍ، فَقَتَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِمَّنْ يقرأ التوراة، وذهب بالبقية إلى أرضه، فبقوا هنالك على أقصى ما يكون من الدُّلِّ والتُّكْدِ إلى أن أحدثوا توبة صحيحة، فردَّهم الله إلى أحسن حال، ثم أفسدوا مرة أخرى فسلط الله عليهم مَلَكًا بابل^٢.

ثم هدَّدهم على سيئاتهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ﴾ وخبير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرُّسل وقتلهم، وسائر معاصيهم.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [٧٢]

ثم أنه تعالى بعد الفراغ من ذم اليهود، شرع في ذم النصارى وبيان غاية كفرهم وضلالهم، فبدأ بذكر الفرقة التي هي أضلِّ فِرَقِهِمْ بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ واعتقدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهم اليعقوبية القائلون بحلول الله في عيسى، واتحاده معه، ﴿وَقَالُوا﴾ الحال أنه ﴿قَالَ الْمَسِيحُ﴾ حين كونه فيهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ولا تُشركوا به شيئاً، وخصَّوه بالخضوع والطاعة لكونه ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وخالقي وخالقكم.

واغْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شَيْئاً فِي الْآلُوهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ فَلَن يَدْخُلَهَا أَبَداً لَّأَنَّهُا دَارُ الْمُوَحِّدِينَ ﴿وَمَا وَاهُ﴾ وَمَسْكَنُهُ فِي الْآخِرَةِ هُوَ ﴿النَّارُ﴾ لِأَنَّهَا مَعْدَةُ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِاخْتِيَارِ الشُّرْكِ ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يَنْصُرُونَهُمْ وَيُدْفَعُونَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ بِالْغَلْبَةِ أَوْ الشَّفَاعَةِ.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٧٣]

ثُمَّ دَمَّ شُبْحَانَهُ الْفِرْقَةُ الْأُخْرَى مِنْهُمْ، وَهُمْ الْمَلَكَائِيَّةُ أَوْ النَّسْطُورِيَّةُ - عَلَى مَا قِيلَ^١ - وَحَكَمَ بِكَفَرِهِمْ أَيْضاً بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ عِيسَى وَآمَنَ إِلَهُانَ، وَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ آلِهَةٌ، ﴿وَوَ الْحَالُ أَنَّهُ مَا مِنْ إِلَهٍ﴾ وَمَعْبُودٌ مُسْتَحَقٌّ بِالذَّاتِ لِلْعُبُودِيَّةِ ﴿إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وَمَعْبُودٌ فَارِدٌ، هُوَ الْوَاجِبُ الْوُجُودَ، الْكَامِلُ الصِّفَاتِ.

ثُمَّ هَدَّدَ الْفَرِيقَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا﴾ وَلَمْ يَرْتَدَّعُوا ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وَيَعْتَقِدُونَ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ وَلَيُصِيبَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَثَبَتُوا عَلَى الشُّرْكِ ﴿مِنْهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ﴾ بِالنَّارِ ﴿أَلِيمٌ﴾ فِي الْعَايَةِ.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٧٤]

ثُمَّ أُنْشِأَ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِنْ اخْتِيَارِهِمْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلَ الْفَاسِدَةَ، وَاصِرَارَهُمْ عَلَيْهَا، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَرْكَ التَّوْبَةِ حَتَّى عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾.

قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: أَيْضَرُونَ عَلَى الْكُفْرِ، فَلَا يَتُوبُونَ^٢! ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ حَتَّى يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴿وَوَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَمَنْ عَصَاهُ بِالْكَفْرِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعَاصِي إِنْ آمَنَ وَتَابَ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بِمَنْ اسْتَرْحَمَهُ.

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا

يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نَبِّئُكَ لَهُمُ آيَاتٍ ثُمَّ أَنْظُرْ أَتَنَّى يُؤْفَكُونَ [٧٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ شُبْحَانَهُ غَايَةَ شَأْنِ عِيسَى وَآمَنَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الَّذِي تَعْلُونَ فِي شَأْنِهِ ﴿إِلَّا﴾

رَجُلٌ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، وَمَرْبُوبٌ لَهُ، وَإِنَّمَا ائْتِازٌ عَنْ غَيْرِهِ بِأَنَّهُ «رَسُولٌ» وَبُلُغٌ عَنِ اللَّهِ شَرَانَعَهُ وَأَحْكَامَهُ، وَلَهُ مُعْجَزَاتٌ بَاهِرَةٌ «قَدْ خَلَّتْ» وَمَضَتْ فِي الْعَالَمِ «مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُلُ» الْكَثِيرَةُ، خَصَّهُمُ بِالْمُعَاجِزِ الْعَظِيمَةِ: كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَإِحْيَاءِ الْعَصَا وَجَعْلِهَا ثَعْبَانًا، وَفَلَقِ الْبَحْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا أَلُوْهِيَّتِهِمْ بِظُهُورِ الْمُعْجَزَاتِ مِنْهُمْ، هَذَا شَأْنُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، «وَوَ» أَمَّا «أُمُّهُ» مَرْيَمُ فَإِنَّهَا أَيْضًا أَمْرَأَةٌ مَخْلُوقَةٌ، غَايَةُ شَأْنُهَا أَنَّهَا «صِدِّيقَةٌ» مُوقِنَةٌ، مُصَدِّقَةٌ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ كَسَائِرُ الصِّدِّيقَاتِ، مِثْلُ حَوَّاءَ وَآسِيَةَ. وَأَدُلُّ الدَّلِيلُ عَلَى عَدَمِ كَوْنِهِمَا إِلَهَيْنِ أَنَّهُمَا «كَانَا» فِي الدُّنْيَا «يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ» وَالْإِلَهُ الْخَالِقُ مُنْزَعٌ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

فِي (الْعِيُونَ): عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَعْنَاهُ: أَنَّهُمَا كَانَا يَتَغَوَّطَانِ»^١.
وَالْقَمِّيُّ: «كَانَا يُحَدِّثَانِ، فَكُنَى عَنِ الْحَدِّثِ، وَكُلُّ مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ يُحَدِّثُ»^٢.
أَقُولُ: عَلَيْهِ بَعْضُ مُفَسَّرِي الْعَامَّةِ^٣.

عَنِ (الاحتجاج): عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فِي جَوَابِ الزَّنَدِيقِ، قَالَ: «وَأَمَّا هَفَوَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ» إِلَى أَنْ قَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ فِي صِفَةِ عِيسَى، حَيْثُ قَالَ فِيهِ وَفِي أُمِّهِ: «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ» يَعْنِي: أَنَّ مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ كَانَ لَهُ ثِقَلٌ^٤، وَمَنْ كَانَ لَهُ ثِقَلٌ فَهُوَ بَعِيدٌ مِمَّا أَدْعَتْهُ النَّصَارَى لِابْنِ مَرْيَمَ»^٥.

ثُمَّ بَاهَى سُبْحَانَهُ بِإِبْطَالِ عَقِيدَتِهِمْ بِأَحْسَنِ بَيَانٍ بِقَوْلِهِ: «أَنْظُرْ» يَا مُحَمَّدُ «كَيْفَ نَبِيُّنٌ» وَنَوَضَحَ «لَهُمُ الْآيَاتِ» وَتَقِيمُ الْبَرَاهِينَ الْمُحْكَمَاتِ عَلَى بُطْلَانِ عَقَائِدِهِمْ.
ثُمَّ بَالِغَ سُبْحَانَهُ فِي الْإِعْلَانِ بِغَايَةِ ضَلَالَتِهِمْ وَتُعْدَهُمْ عَنِ الْحَقِّ بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ أَنْظُرْ أُنَّى يُؤْفَكُونَ» وَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ وَاسْتِمَاعِ الْآيَاتِ وَالتَّأَمُّلِ فِيهَا.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ [٧٦]

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ النَّبِيَّ ﷺ بِتَوْبِيخِهِمْ، وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِنِ عَلَى فَسَادِ عَقِيدَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ النَّصَارَى: «أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» وَمِمَّا سِوَاهِ «مَا لَا يَمْلِكُ» بِنَفْسِهِ وَبِذَاتِهِ «ضَرًّا» مِنْ

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٢٠١، تفسير الصافي ٢: ٧٣.

٢. تفسير القمي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٧٣. ٣. راجع: تفسير القرطبي ٦: ٢٥٠.

٤. كذا في المصدر والنسخة، والظاهر: ثقل، كما في تفسير الصافي، والثقل: ما سفل أو رسب من كل شيء.

٥. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٧٣.

الآلام والأسقام والفقر ﴿وَلَا تَفْعَلُوا﴾ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْغِنَى وَالْعِزِّ.

ثُمَّ هَدَدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَلَّهِ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِعَقَائِدِهِمْ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا أَسْوَأَ الْجَزَاءِ.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ [٧٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَفْصِيحِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَدَمَهُمْ وَتَوْبِيخِهِمْ، أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِتَضَحُّجِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، مُخَاطِبًا لِلْفَرِيقَيْنِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ وَلَا تَجَاوَزُوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ وَعَقَائِدِكُمْ عَنِ الْحَدِّ غُلُوءًا وَتَجَاوُزًا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ كَادْعَاءَ الْوَهْيَةِ عَيْسَى وَأُمِّهِ، وَبُتُوَّةَ عُزَيْرِ اللَّهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ وَمَيُولَ أَنْفُسِ جَمْعٍ جَمَعُوا جَمِيعَ مَرَاتِبِ الضَّلَالِ، وَهُمْ أَسْلَافُهُمْ وَأَنْتَهُمُ الَّذِينَ ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وَفِي الْأَزْمَنَةِ السَّابِقَةِ عَلَى بَغْتَةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يَمُنُّ تَابِعُهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ وَيَدْعُهُمْ ﴿وَضَلُّوا﴾ بَعْدَ ظَهُورِ نُورِ الْإِسْلَامِ ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وَالتَّهْجِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ.

لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٧٨ و ٧٩]

ثُمَّ لَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْ اتِّبَاعِ الْأَسْلَافِ لِكُونِهِمْ فِي غَايَةِ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، وَكَانُوا مُتَفَخِّرِينَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ، بِالْغِ شُبْحَانَهُ فِي دَمِهِمْ بَكُونِ أَسْلَافِهِمْ مَلْعُونِينَ فِي أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مَعَ كَوْنِهِمْ أَقْرَبَ مِنْكُمْ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ كَانَ لَعْنُهُمْ ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

في ذكر مسخ بني إسرائيل قردة
في زمانه، فقال: اللَّهُمَّ أَلْبَسْهُمْ اللَّعْنَةَ مِثْلَ الرِّدَاءِ عَلَى الْمُنْكَبِينَ، وَمِثْلَ الْمُنْطَقَةِ^٢ عَلَى الْحَقْوِينَ^٣، فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرْدَةً، وَأَمَّا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَعَنَ الَّذِينَ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَائِدَةُ ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ^٤.

١. أَيْلَة: مَدِينَةُ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ الْقُلُزْمِ مِمَّا يَلِي الشَّامَ، وَهِيَ مَدِينَةُ الْيَهُودِ الَّذِينَ حَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْدَ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ فَخَالَفُوا، فَمَسَخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ.
٢. الْمُنْطَقَةُ: مَا يُشَدُّ فِي الْوَسْطِ.
٣. الْحَقْوُ: الْخَصْرُ.
٤. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٣: ٣٥٧؛ تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٧٤.

٤١٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

وزاد في (الجوامع): «فقال عيسى عليه السلام: اللَّهُمَّ عَذِّبْ مَنْ كَفَّرَ بعدما أكل من المائدة عذاباً لا تُعَذِّبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فصاروا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجلاً»^١. وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «الخنازير على لسان داود، والقردة على لسان عيسى بن مريم»^٢. وبه قال أكثر المفسرين، على ما قيل^٣.

ثمَّ كأنه قيل: بأي سبب وقع ذلك؟^٤ فأجاب بقوله: «ذَلِكَ» اللعن والمسخ وقع «بِمَا عَصَوْا» الله. القمِّي عليه السلام: كانوا يأكلون لحم الخنزير، ويشربون الخمر، ويأتون النساء أيام حيضهن^٥ «وَكَانُوا يَفْتَدُونَ» على الناس، أو يبالغون في العصيان، وفي ارتكاب ما حرم الله عليهم. ثمَّ بين كيفية مبالغتهم في المعصية بقوله: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ» ولا يردعون «عَنْ مُنْكَرٍ» وإثم «فَعَلُوهُ».

وقيل: إن المعنى: لا ينهى بعضهم [بعضاً] عن قبيح يعملونه، وتصالحوها على السكوت والكف عن النهي^٦.

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لَمَّا وَقَعَ التَّقْصِيرُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ الرَّجُلَ [مِنْهُمْ] يَرَى أَخَاهُ فِي الذَّنْبِ فَيَنْهَاهُ فَلَا يَنْتَهِي، فَلَا يَمْتَنِعُهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَكْيَلُهُ وَجَلِيسُهُ وَشَرِيبُهُ، حَتَّى ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ يَقُولُ جَلَّ وَعَزَّ: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآية»^٧. وعن الصادق عليه السلام: «لَمْ يَكُونُوا يَدْخُلُونَ مَدَاحِلَهُمْ، وَلَا يَجْلِسُونَ مَجَالِسَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا لَقَوْهُمْ^٨ أُنْسُوا بِهِمْ»^٩.

ثمَّ قال سبحانه تعجباً من سوء فعلهم مؤكداً له بأنفسهم بقوله: «لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». القمِّي عليه السلام، عن الصادق عليه السلام أنه سئل [عن] قوم من الشيعة يدخلون في أعمال السلطان، ويعملون لهم، ويحبون لهم ويؤاؤنهم؟ قال: «ليس هم من الشيعة، ولكنهم من أولئك، ثمَّ قرأ: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...»»^{١٠}.

١. جوامع الجامع: ١١٦، تفسير الصافي ٢: ٧٤.

٢. تفسير القمي ١: ١٧٦، الكافي ٨: ٢٤٠/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ٧٤.

٣. راجع: تفسير الرازي ١٢: ٦٣.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٥.

٥. تفسير القمي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٧٥.

٦. ثواب الأعمال: ٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ٧٥.

٧. في تفسير العياشي: ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم و.

٨. تفسير العياشي ٢: ٦٧/١٣٢٢، تفسير الصافي ٢: ٧٥.

٩. تفسير القمي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٧٥.

أقول: اظن أن ذكر الآية سهو من الراوي، فإن المناسب قوله: «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»^١.

تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ
اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ [٨٠]

ثم لما وصف الله تعالى أسلافهم بفساد العقائد والأعمال، ذم الحاضرين منهم بموالات الكفار بقوله: «تَرَى» يا محمد «كثيراً منهم» وهم كعب بن اشرف وأصحابه، على ما قيل^٢. «يَتَوَلَّوْنَ» ويتصادقون [مع] «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالإشراك بالله، والله «لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ» وهياوا لسفر آخرتهم من الزاد وهو «أَنْ سَخِطَ اللهُ» وغضب «عَلَيْهِمْ» بتوليهم الكفار، وبغضهم الرسول والمؤمنين «وَفِي الْعَذَابِ» بالنار «هُمْ» في الآخرة «خَالِدُونَ» مقيمون أبداً.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [٨١]

ثم بين سبحانه أنهم ليسوا على دين موسى ﷺ أيضاً بقوله: «وَلَوْ كَانُوا» هؤلاء اليهود الذين يتولون المشركين «يُؤْمِنُونَ» عن صميم القلب «بِاللهِ وَالنَّبِيِّ» الذي يدعون أنهم على دينه، ويعترفون بنبوته، وهو موسى ﷺ «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ» من التوراة، ما تصادقوا [مع] المشركين، و«مَا اتَّخَذُوهُمْ» لأنفسهم «أَوْلِيَاءَ» وأحباء؛ لأن حرمة مولاة المشركين متأكدة في التوراة وفي شرع موسى ﷺ «وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» خارجون عن دين موسى وحكم التوراة، وإنما غرضهم من إظهار التدين بأحكام التوراة ودين موسى ﷺ حفظ الجاه والرياسة، كذا قيل^٣. وقيل: إن المراد أن المشركين لو كانوا مؤمنين بالله وبمحمد وكتابه ما اتخذهم هؤلاء اليهود أولياء^٤. وذلك بعيد في الغاية.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ
أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ
وَوُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [٨٢]

ثم أنه تعالى بعد ذمهم بئواله المشركين، ذمهم بمعادة المؤمنين كمعادة المشركين لهم بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ بالله يا محمد ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ وأكثرهم بغضاً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك واتبعوك ﴿الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من العرب لشدة حرص الفريقين على الدنيا والجاه.

قيل: إن مذهب اليهود وجوب الإضرار بمن خالفهم في الدين، وأما النصارى فمذهبهم كف الأذى عن الغير مطلقاً، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا﴾ وادعوا ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه: المراد به النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على رسول الله ﷺ وأمنوا به، ولم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين^٢.

قيل: إن الغرض من بيان التفاوت تخفيف أمر اليهود على الرسول ﷺ^٣، وتفرغ خاطره عنهم، وعدم مبالاة به.

قيل: كان جعفر يوم وصل المدينة إلى رسول الله ﷺ وصل في سبعين رجلاً عليهم ثياب صوف، منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة، وثمانية من أهل الشام منهم بحيرا الراهب، فقرأ رسول الله ﷺ عليهم سورة يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، فآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى. فأنزل الله هذه الآية^٤.

ثم كأنه قيل: ما سبب كونهم أقرب مودة؟^٥ فأجاب بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الأقرية التي قلنا ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ﴾ وعلماء، ﴿وَمِنْهُمْ رُهْبَانَان﴾ وعُباداً ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بسبب علمهم وزهدهم ﴿لَا يَشْتَكِرُونَ﴾ عن قبول الحق، ولا يتأنفون من الإيمان بك كاليهود.

قيل: كان الذين آمنوا به أصحاب الصوامع^٦.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنَّا بِهِمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ

الْمُحْسِنِينَ [٨٥-٨٣]

ثم وصف شدة تأثيرهم باستماع الحق بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من آيات القرآن ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ﴾ عند استماعه ﴿تَفِيضٌ﴾ وتصب ﴿مِنَ الدَّلْعِ﴾ لاثباتها منه ﴿بِمَا عَرَفُوا﴾ ما أنزل على الرسول ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾.

عن ابن عباس: يُريد النجاشي وأصحابه، وذلك أن جعفر الطيار قرأ عليهم سورة مريم، فأخذ النجاشي يثني من الأرض وقال: والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا، وما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة^١.

ثم كأنه قيل: ما كانوا يقولون عند استماع القرآن؟^٢ فأجاب بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بأن ما سمعناه هو الحق، وشهدنا به، إذن ﴿فَاكْتُنَّا﴾ وأثبت أسماءنا ﴿مَعَ﴾ أسماء ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ على أن ما أنزلته هو الحق، واخلعنا في زمرةهم ﴿وَمَا﴾ العذر ﴿لَنَا﴾ ولائي علة ﴿لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا﴾ مع وضوح أن ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الثابت من عند الله، ﴿وَالْحَالُ أَنَا﴾ نطمع ﴿وَتَوَقَّعُ﴾ أن يَدْخُلَنَا رَبُّنَا في جنته ﴿مِنَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ويرزقنا ثراقتهم وصحبهم ﴿فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ﴾ وجازاهم ﴿بِمَا قَالُوا﴾ من الاعتراف بالحق، والشهادة عليه، وإظهار الإيمان عن صميم القلب.

عن ابن عباس [قال: قوله: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ يريد بما سألوا]، يعني قولهم: ﴿فَاكْتُنَّا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^٣. ﴿جَنَّتِكَ﴾ وبساتين ذات أشجار مثمرة، وعُرف عالية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿وَذَلِكَ﴾ الجزاء الأوفى من الله ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عقابهم وأقوالهم وأعمالهم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [٨٦]

ثم ردف الله سبحانه وعد المحسنين بالثواب بإيعاد الكافرين بالعقاب بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله رُسوله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من القرآن بعد ما سمعوها، وجحدوا المعجزات بعدما شاهدوها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ في الآخرة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملازموها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [٨٧]

ثم لما ناظر الله سبحانه^١ اليهود والنصارى، وأبطل عقاندهم الفاسدة بالحجج القاطعة، ومدح النصارى وقسيسهم وزهبانهم بعودة المؤمنين، وعدم الاستنكاف عن التسليم للحق، وكان مجال توهم حسن الرهبانية ومشروعيتها في دين الإسلام، بين حرمتها في هذا الدين، وإباحة المأكولات والمشروبات الطيبة، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا﴾ على أنفسكم ﴿طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ولذا نذ ما أباحه مما لا ضرر فيه عليكم ﴿وَلَا تَغْتَدُوا﴾ ولا تجاوزوا عن الحدود المقررة في دينكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْتَدِينَ﴾ عن حدوده، المجاوزين عن شرائعه.

في التزام بعض
المصاحبة بترك
الطيبات
عن الصادق عليه السلام: «نزلت في أمير المؤمنين صلوات الله عليه وبلال وعثمان بن مظعون، فأما أمير المؤمنين فحلف أن لا ينাম بالليل أبداً، وأما بلال فإنه حلف أن لا يفتطر بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً».

وزاد القمي: «فدخلت امرأة عثمان على عائشة وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة: مالي أراك متعطلة؟^٢ فقالت: لمن أترين، فوالله ما قربني زوجي منذ كذا وكذا، فإنه قد ترهب ولبس المشوح^٣ وزهد في الدنيا، فلما دخل رسول الله ﷺ أخبرته عائشة بذلك، فخرج فنادت: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟! [لا] إني أنام بالليل، وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن شتي فليس مِنِّي، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله، فقد حلفنا على ذلك. فنزل الله ﴿لَا يُوَاجِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾^٤.

وفي (الاحتجاج): عن الحسن بن علي عليه السلام - في حديث - أنه قال لمعاوية وأصحابه: «أنشدكم الله، أنعلمون أن علياً أول من حرّم الشهوات على نفسه من أصحاب رسول الله ﷺ، فنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^٥.

في نهى النبي ﷺ
عن الترهّب
وعن بعض مفسري العامة أنه ذكر النبي ﷺ يوماً النار، ووصف القيامة، وبالغ في الإنذار، ففرّق له الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي، وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المشوح، ويحبوا مذاكيرهم^٦، ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم والودك^٧، ولا يقرّبوا النساء

١. زاد في النسخة: مع. ٢. أي غير منزنية بالخلي.

٣. المشوح: جمع مسح، وهو كساء من شعر، ولباس الراهب.

٤. مجمع البيان ٣: ٣٦٤، تفسير القمي ١: ١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٧٩، والآية من سورة المائدة: ٨٩/٥.

٥. الاحتجاج: ٢٧٣، تفسير الصافي ٢: ٨٠. ٦. حبّ المذاكر: قطعها.

٧. الودك: الدسم والشحم.

والطَّيِّب، ويسبحوا في الأرض، فبلغ ذلك رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى دارَ عُثْمَانَ بنِ مَطْعُونٍ فَلَمْ يَصَادَفْهُ، فَقَالَ لِمَرَأَتِهِ أُمُّ حَكِيمٍ بِنْتُ أُمِّيَّةَ، واسمها خَوْلَة، وكانت عَطَّارَةً: «أَحَقُّ مَا بَلَغَنِي عَنْ زَوْجِكَ وَأَصْحَابِهِ»، فَكَرِهَتْ أَنْ تُكَذِّبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَرِهَتْ أَنْ تُبْذِيَ خَبَرَ زَوْجِهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَ قَدْ أَخْبَرَكَ عُثْمَانُ فَقَدْ صَدَّقَ.

فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ عُثْمَانُ أَخْبَرَتْهُ زَوْجَتُهُ بِذَلِكَ، فَمَضَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ النَّبِيَّ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا إِنِّي لَمْ أَمْرٌ بِذَلِكَ، إِنْ لَأَنْفُسَكُمْ [عَلَيْكُمْ] حَقًّا، فَصُومُوا وَأَفْطِرُوا، وَقُومُوا وَانَامُوا، فَإِنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ وَالْدَّسَمَ، وَأَتِي النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سِتِّي فليس مِنِّي».

ثُمَّ جَمَعَ النَّاسَ وَخَطَبَهُمْ وَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ حَرَمُوا النِّسَاءَ وَالطَّعَامَ وَالنَّوْمَ وَشَهَوَاتِ الدُّنْيَا؟ أَمَّا إِنِّي لَا أَمْرُكُمْ أَنْ تَكُونُوا قَتِيسِينَ وَلَا رُهْبَانًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي تَرْكُ اللَّحْمِ وَالنِّسَاءِ، وَلَا اتِّخَاذُ الصَّوَامِ، وَإِنْ سِيَّاحَةً أَمْتِي الصُّومِ، وَرَهْبَانِيَّتِهِمُ الاجْتِهَادَ، فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحُجُّوا وَاعْتَمَرُوا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَصُومُوا رَمَضَانَ، وَاسْتَقِيمُوا يُسْتَقَمَ لَكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ قَبْلَكُمْ بِالتَّشْدِيدِ، شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأُولَئِكَ بَقَايَاهُمْ فِي الدِّيَارَاتِ وَالصَّوَامِعِ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^١.

وَرُوي أَنَّ عُثْمَانَ بنَ مَطْعُونٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِأَنْ أَخْطِئَ، فَأَذُنْ لِي فِي الْاِخْتِصَاءِ. قَالَ: «مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنْ اخْتِصَاءَ أَمْتِي الصِّيَامِ».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِأَنْ أَتَرْهَبَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ قَالَ: «مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنْ تَرْهَبُ أَمْتِي الْجُلُوسِ فِي الْمَسَاجِدِ لانتظار الصلاة».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِأَنْ أَخْرُجَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: «مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنْ صَدَقْتَكُمْ يَوْمًا يَوْمٌ، وَتُعِفَّ نَفْسُكَ وَعِيَالُكَ، وَتَرْحَمَ الْمَسَاكِينَ وَالْيَتِيمَ فَتُعْطِيَهُمْ، أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنْ أَطْلُقَ زَوْجَتِي خَوْلَةَ؟ قَالَ: «مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنْ الْهَجْرَةَ فِي أَمْتِي مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ هَاجَرَ [إِلَى] فِي حَيَاتِي، أَوْ زَارَ قَبْرِي بَعْدَ وَفَاتِي، أَوْ مَاتَ وَلَهُ امْرَأَةٌ أَوْ امْرَأَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ أَوْ أَرْبَعٌ».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنْ نَهَيْتَنِي أَنْ لَا أَطْلُقَهَا، فَإِنْ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنْ لَا أَغْشَاهَا؟ قَالَ: «مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا غَشِيَ امْرَأَتَهُ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، فَلَمْ يَكُنْ [لَهُ] مِنْ وَقَعْتِهِ تِلْكَ وَلَدًا، كَانَ لَهُ وَصِيفٌ فِي

الجَنَّةَ، وإن كان له من وقته تلك ولدَ فماتَ قبله، كان له فَرَطاً وشُفيعاً يومَ القيامة، وإن مات بعده كان له نوراً يومَ القيامة».

قال: يا رسول الله، إن نفسي تُحدِّثني أن لا أكلَ اللحم؟ قال: «مهلاً يا عثمان، فإني أُحِبُّ اللحم وأكله إذا وجدته، ولو سألتَ ربِّي أن يُطعمنيهِ في كُلِّ يومٍ لأطعمَنيهِ».

قال: يا رسول الله، إن نفسي تُحدِّثني أن لا أُمسَ الطَّيِّب؟ قال: «مهلاً يا عثمان، فإن جَبْرِئِلَ أمرني بالطَّيِّبِ غيًّا^١ وقال: يومَ الجُمعة لا تَمُرَّكَ له، يا عثمان لا ترعَبَ عن سِتِّي، فَمَنْ رَغِبَ عن سِتِّي ثم ماتَ قبلَ أن يَتُوبَ، صرفَتِ الملائكةُ وَجْهَهُ عن حَوْضِي يومَ القيامة^٢».

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ [٨٨]

ثم صرَّحَ شُبَّحَانُهُ بِبَاحَةِ المأكولات والمشروبات الطَّيِّبَةِ بقوله: ﴿وَكُلُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ حال كونه ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ومباحاً لذيداً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في تحريم ما حَلَّلَ، وتخليل ما حرَّم، فإن الإيمان موجبٌ للالتزام بأحكام الله والاجتناب عن مخالفتها والتجاوز عن حدوده.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَبَّةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٨٩]

ثم لما كان نزول الآية في شأن بعض كبار الصحابة الذين حلفوا على ترك الطَّيِّبَات وقالوا: يا رسول الله، ما نصنع بأيماننا؟ بينَ الله حُكْمَ اليمين وكفَّارته بقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ بالكفارة في الدنيا، وبالنار في الآخرة ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وحلفكم غير المقصود به الجِدُّ ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ ووثقتم ﴿الْأَيْمَانَ﴾ بالسَّكْمِ وقلوبكم إذا حثَّتم، فَمَنْ حَلَفَ وَحِثَ ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ وما يستتر به ذنبه ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ﴾ وتغذيتهم مُشْبَعاً، أو إعطاء كُلِّ مُدٍّ ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وأقصد ما ترزقون عيالكم.

في كفارة اليمين (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «الوسط: الخَلّ والزيتون^١، وأرفعه الخبز واللحم، والصدقة مُدٌّ^٢ من حِنطة لكلِّ مسكين»^٣.

وعنه عليه السلام: «كما يكون في البيت، فمنهم من يأكل أكثر من المُدِّ، ومنهم من يأكل أقل من المُدِّ فبين ذلك، وإن شئت جعلت [لهم] أذماً، والأذم أدناه المِلح، وأوسطه الخَلّ والزيت، وأرفعه اللحم»^٤.
عن الباقر عليه السلام: «ما تقوَّنتَ به عيالك من أوسط ذلك. [قيل: وما أوسط ذلك؟] فقال: الخَلّ والزيت والتمر والخبز تُشبعهم به مرّة واحدة»^٥.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، عنه عليه السلام، قال: «ثوب واحد»^٦.

وفي رواية: «ثوب يُؤاري [به] عورته»^٧.

وعن الصادق عليه السلام: «الكِسوة ثوبان»^٨.

أقول: هذا محمولٌ على ما إذا لم يؤاره واحدٌ.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وإعتاق نسمة ذكرًا كانت أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، لإطلاق الآية والرّواية.

وعن الصادق عليه السلام: «كُلُّ شيءٍ في القرآن (أو) فصاحبه [فيه] بالخيار، يختار ما يشاء»^٩.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة، عن الكاظم عليه السلام، أنه سئل عن كفارة اليمين، ما حدّ من لم يجد، وإن الرّجل يسأل في كفّه وهو يجد؟ فقال: «إذا لم يكن عنده فضل من قوت عياله فهو بمن لا يجد»^{١٠} ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ يكون كفّارُها.

عن الصادق عليه السلام: «كُلُّ صَوْمٍ يَفْرَقُ فيه، إلا ثلاثة أيام في كفارة اليمين»^{١١}.

وعنه عليه السلام: «صيام ثلاثة [أيام] في كفارة اليمين [مُتتابعات] لا يفصل بينهما»^{١٢}.

وقرأ ابن مسعود: ثلاثة أيام مُتتابعات^{١٣}.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر وأمر به «كفّارة أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» وحيثم «وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» من أن تكثروا ومن أن يحث فيها، أو بالتكفير بعد حثها «كَذَلِكَ» البيان الواضح «يُبَيِّنُ اللَّهُ» ويوضح «لَكُمْ آيَاتِهِ» وحججه الدالة على معارفه وسائر أحكامه «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» نعمة تعليمه وتبيينه

١. في المصدر: والزيت.

٢. الكافي ٥/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨٠.

٣. الكافي ٧/٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٤. الكافي ٧/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٣٦/٧١، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٦. الكافي ٧/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٧. الكافي ٤: ٢/١٤٠، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٢. زاد في المصدر: مُدٌّ.

٤. الأدم: ما يستمرّ به الخبز.

٦ و٧) الكافي ٧/٤٥٤، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٩. الكافي ٧/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨١.

١٢. الكافي ٤: ١/١٤٠، تفسير الصافي ٢: ٨١.

١٤. تفسير الرازي ١٢: ٧٧.

جميع ما يحتاجون إليه.

في أقسام اليمين عن الصادق عليه السلام: «الأيمن ثلاثة: [يمين] ليس فيها كفارة، ويمين فيها كفارة، ويمين غموس ثوجب النار، فاليمين التي ليس فيها كفارة: الرّجل يحلف [بالله] على باب برّ أن [لا] يفعله [فكفارته أن يفعله]، واليمين التي تجب فيها الكفارة: الرّجل [يحلف] على باب معصية أن لا يفعله فيفعله، فتجب عليه الكفارة، واليمين الغموس التي ثوجب النار: الرّجل يحلف على حق امرئ مسلم^١ وعلى حبس ماله^٢.

وعنه عليه السلام: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فأتى ذلك، فهو كفارة يمينه»^٣.

وعنه عليه السلام: «ما حلفت عليه مِمّا فيه البرّ فعليك الكفارة إذا لم تف به، وما حلفت عليه مِمّا فيه المعصية فليس عليك فيه الكفارة إذا رجعت عنه، وما كان سيئاً ذلك مِمّا ليس فيه برّ ولا معصية فليس بشيء»^٤.

وعنه عليه السلام: «لا جنث ولا كفارة على من حلف تقيّة، يدفع بذلك ظلماً عن نفسه»^٥.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لا يمين لولد مع والده، ولا للمرأة مع زوجها»^٦.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ [٩٠ و ٩١]

ثم لما نهى الله تعالى عن تحريم طيبات ما أحل، بين أن الخمر وما أردفها ليس منها، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ الذي يدخل فيه كل مسكر ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ وما يتأمر به ﴿وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾ - وقد مرّ تفسيرهما^٧ - كل ذلك ﴿رِجْسٌ﴾ وقدّر تنفّر منه القول السليمة، كائن ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وتزيينه الداعي إليه، وهو كناية عن نهاية قبحه. فإذا كان كذلك ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واحترزوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ باجتنابه ﴿تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بسعادة الدارين.

عن الباقر عليه السلام: «لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله ما الميسر؟ فقال: كل ما ثومر عليه حتى

١. الكافي ٧: ٤٣٨، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٢. الكافي ٧: ٤٤٦، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٣. الخصال: ٩٠/٦٢١، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٤. (و) ليست في الكافي.

٥. الكافي ٧: ٤٤٣، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٦. الخصال: ٩٠/٦٠٧، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٧. تقدم في تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

الكعباب والحِوز، قيل: فما الأنصاب؟ قال: ما ذبحوا لألهتهم، قيل: فما الأزلام؟ قال: قِداحهم التي يستقسمون بها^١.

وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «أَمَّا الْخَمْرُ، فَكُلُّ مُسْكِرٍ مِنَ الشَّرَابِ إِذَا خَمِرَ فَهُوَ خَمْرٌ، وَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ شَرِبَ قَبْلَ أَنْ يُحَرَّمَ الْخَمْرُ، فَسَكَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ الشُّعْرَ وَيَبْكِي عَلَى قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَاثْبِتْ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ السُّكْرُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَحْرِيمَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الْخَمْرُ يَوْمَ حُرِّمَتْ بِالْمَدِينَةِ فَضِيخَ^٢ الْبَشَرِ وَالتَّمْرِ، فَلَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُهَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَعَدَ بِالْمَسْجِدِ ثُمَّ دَعَا بِأَتِيَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَنْبِذُونَ فِيهَا فَأَكْفَاهَا كُلَّهَا وَقَالَ: هَذِهِ كُلُّهَا خَمْرٌ، وَقَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ، فَكَانَ أَكْثَرُ شَيْءٍ أَكْفَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَشْرِبَةِ الْفَضِيخِ، وَلَا أَعْلَمُ أَكْفَى يَوْمَئِذٍ مِنْ خَمْرِ الْعِنَبِ شَيْءٌ، إِلَّا إِنَاءٌ وَاحِدٌ كَانَ فِيهِ زَبِيبٌ وَتَمْرٌ جَمِيعاً. وَأَمَّا عَصِيرُ الْعِنَبِ فَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ مِنْهُ شَيْءٌ، حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ قَلِيلَهَا وَكَثِيرَهَا، وَبَيْعَهَا وَشِرَاءَهَا، وَالِاتِّفَاعَ بِهَا.

في عقاب شارب الخمر وحده
وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فِي الرَّابِعَةِ فَاقْتُلُوهُ.

وقال: حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ مِمَّا يَخْرُجُ مِنْ فُرُوجِ الْمُوَسِمَاتِ. وَالْمُوَسِمَاتُ: الزَّوَانِي يَخْرُجُ مِنْ فُرُوجِهِنَّ صَدِيدٌ؛ وَالصَّدِيدُ: قَيْحٌ وَدَمٌ غَلِيظٌ مُخْتَلَطٌ يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ حَرَّهُ وَنَشْتَهُ. وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَإِنْ عَادَ فَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً مِنْ يَوْمٍ شَرِبَهَا، فَإِنْ مَاتَ فِي تِلْكَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ طِينَةِ خَبَالٍ. وَسُمِّيَ الْمَسْجِدُ الَّذِي قَعَدَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أَكْفَتِ الْأَشْرِبَةَ مَسْجِدَ الْفَضِيخِ مِنْ يَوْمَئِذٍ، لِأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرُ شَيْءٍ أَكْفَى مِنَ الْأَشْرِبَةِ الْفَضِيخُ.

وَأَمَّا الْمَيْسِرُ، فَالْتَّرَدُّ وَالشُّطْرُنَجُ، وَكُلُّ قِمَارٍ مَيْسِرٍ، وَأَمَّا الْأَنْصَابُ فَالْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا الْمُشْرِكُونَ، وَأَمَّا الْأَزْلَامُ فَالْأَقْدَاحُ الَّتِي كَانَ يَسْتَقْسِمُ بِهَا مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي الْأُمُورِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُلُّ هَذَا بَيْعُهُ وَشِرَاؤُهُ وَالِاتِّفَاعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَرَامٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَقَرَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ مَعَ الْأَوْثَانِ^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةَ: عَارِسَهَا، وَحَارِسَهَا، وَعَاصَرَهَا، وَشَارِبَهَا،

٢. في تفسير القمي: فهو حرام وأما المسكر.

٤. تفسير القمي ١: ١٨٠، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

١. الكافي ٥: ٢/١٢٢، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٣. الفضائح: شراب البُسر من غير أن تمسه النار.

وساقها، وحاملها، والمحمول إليه، وبائعها، ومشتريها، وأكل ثمنها^١.

ففي بيان حكمة حرمه الخمر قُبِحَ تعاطيها، أفردهما بذكر مقاسدهما الدنيوية والأخروية، فبدأ بذكر مفسادها والميسر

الدنيوية بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ بسبب تعاطيها ﴿أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ﴾ مع غاية

انتلافكم ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ والتنازع والتحاقد ﴿فِي﴾ شرب ﴿الْخَمْرِ وَ﴾ عمل ﴿الْمَيْسِرِ﴾

وبسببها، ولوضح أن ذهاب العقل والمال موجبان لهيجان الغضب على من خالف هوى السكران،

وذهب ببال المغلوب في المقامرة، فتقع المنازعة بين المخمورين فيضاربون ويقاتلون، والعداوة الشديدة بين الغالب والمغلوب في المقامرة.

ثم ذكر المفسد الأخروية بقوله: ﴿وَيَصُدُّكُمْ﴾ الشيطان ويمنعكم ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والتوجه إليه بالقلب.

ثم خص الصلاة بالذكر مع أنها من الذكر بقوله: ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ تعظيماً لسانها بين العبادات، وإشعاراً بأن الصّد عنها كالصدّ عن الإيمان لأنها عماده وركنه.

ثم بالغ سبحانه بعد ذكر مقاسدهما في الردع عنهما بإنشاء الاستيفهام التقريري عن آنتهانهم عنها بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمُ﴾ أيها المسلمون بعد هذا النهي الأكيد والاطلاع بمفسادهما ﴿مُتَّهِنُونَ﴾ عنهما، مرتدعون عن ارتكابهما أم لا؟

رؤي أن عمر لما سمعها قال: قد آنتهينا يا رب^٢.

ففي بيان وجوه التأكيد في حرمه الأول: حصر الرّجس فيهما وفي قرئتيهما بكلمة (إنما).
والثاني: تقرينهما بعبادة الأوثان.

والثالث: الأمر باجتنابهما.

والرابع: ترتيب الفلاح على تركهما.

والخامس: شرح مقاسدهما الدنيوية والأخروية.

والسادس: المبالغة في الردع عنهما والحثّ على اجتنابهما بالاستيفهام التقريري عن آنتهانهم

عنهما، فإنه أمر بالآتياء مقروناً بأخذ الإقرار من المكلفين باثباته.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَآخِذُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ [٩٢]

ثم زاد سبحانه في التأكيد بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في نهيه عنهما ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَآخِذُوا﴾ عن مخالفتهما.

ثم هدّد على المخالفة بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن الامتثال والطاعة ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ والرّسالة بالبيان الواضح حتّى تبيّن الحجة عليكم، وقد فعل بما لا مزيد عليه، وأنتم الحجة بحيث لم يبق لكم مجال العذر، فليس في مخالفتكم إلا استحقاق العقاب الشديد، وهو إلينا لا إليه.

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «أما والله، ما هلك من كان قبلكم، وما هلك من هلك حتى يقوم قائمنا إلا في ترك ولايتنا ووجود حقنا، وما خرج رسول الله ﷺ من الدنيا حتّى أُرِمَ رِقَاب هذه الأُمّة حقنا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»^١.

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُحْسِنِينَ [٩٣]

عن القمي عليه السلام: لما نزل تحريم الخمر والميسر والتشديد في أمرهما، قال الناس من المهاجرين والأنصار: يا رسول الله، قُتِل أصحابنا وهم يشربون الخمر، وقد سمّاه الله رجساً وجعله من عمل الشيطان، وقد قلت ما قلت، أفبصر أصحابنا ذلك شيئاً بعد ما ماتوا؟

فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^٢ من فعل الواجبات وترك

المحرّمات ﴿جُنَاحٌ﴾ وبأس ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ وأكلوا واشتدّوا به من المأكولات والمشروبات.

في (المجمع): في تفسير أهل البيت عليه السلام: «فيما طعموا من الحلال»^٣.

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ عن الكفر ﴿وَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ جميع الكبائر ﴿وَأَمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ الصغائر ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ إلى الخلق.

وقيل: التكرار للتأكيد.

٢. تفسير القمي ١: ١٨١، تفسير الصافي ٢: ٨٤.

١. الكافي ١: ٣٥٣، ٧٤، تفسير الصافي ٢: ٨٤.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٧٢.

ثم بين سبحانه أن فائدة الإحسان ليس منحصرة في نفي الجناح، بل له فائدة عظيمة بقوله: ﴿وَأَنَّهُ يُجِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فَإِنَّ حُبَّ اللَّهِ عِبْدَهُ أَعْظَمُ الْفَوَائِدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعْلَى الْمَقَامَاتِ لِلْمُؤْمِنِ، وَلِذَا سَمَّى رَسُولُ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ الرُّسُلِ بِحَبِيبِ اللَّهِ.

عن الشَّعْبِيِّ: هَذَا لَمَنْ مَاتَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَالْجَنَاحِ هُوَ الْإِثْمُ، وَهُوَ عَلَى مَنْ شَرِبَهَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ^١. وَقِيلَ: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ [أَي] يَمَّا لَمْ يُحْرَمْ عَلَيْهِمْ ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ أَيِ الْمُحْرَمِ ﴿وَأَمْسُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيِ تَبَوُّوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ أَيِ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ كَالْخَمْرِ ﴿وَأَمْسُوا﴾ بِتَحْرِيمِهِ ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ أَيِ اسْتَمَرُّوا وَتَبَوُّوا عَلَى اتِّقَاءِ الْمَعَاصِي ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أَيِ وَتَحَرَّوْا الْأَعْمَالَ الْجَمِيلَةَ وَاشْتَغَلُوا بِهَا^٢.

وروى البهائي (أعلى الله مقامه) في (حاشية أسرار التنزيل) عن (مصباح الشريعة): عن الباقر^٣ عليه السلام: «التَّقْوَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: تَقْوَى فِي اللَّهِ^٤؛ وَهِيَ تَرْكُ الْحَلَالِ^٥ فَضْلاً عَنِ الشُّبْهَةِ، وَهِيَ تَقْوَى خَاصٍّ الْخَاصِّ، وَتَقْوَى مِنْ اللَّهِ؛ وَهِيَ تَرْكُ الشُّبْهَاتِ فَضْلاً عَنِ الْحَرَامِ، وَهِيَ تَقْوَى الْخَاصِّ، وَتَقْوَى مِنْ خَوْفِ النَّارِ وَالْعِقَابِ؛ وَهِيَ تَرْكُ الْحَرَامِ، وَهِيَ تَقْوَى الْعَامِّ.

وَمَثَلُ التَّقْوَى كَمَا يَجْرِي فِي نَهْرٍ، وَمَثَلُ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ فِي مَعْنَى التَّقْوَى كَأَشْجَارٍ مَغْرُوسَةٍ عَلَى حَافَةِ ذَلِكَ النَّهْرِ [مِنْ] كُلِّ لَوْنٍ وَجِنْسٍ، وَكُلُّ شَجَرٍ يَمْتَصُّ الْمَاءَ مِنْ ذَلِكَ النَّهْرِ عَلَى قَدَرِ جَوْهَرِهِ وَطَبْعِهِ وَلَطَافَتِهِ وَكَثَافَتِهِ، ثُمَّ مَنَافِعُ الْخَلْقِ مِنْ تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالثَّمَارِ عَلَى قَدَرِهَا وَبِقِيَمَتِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿صِنَوَاتٌ وَعَيْرٌ صِنَوَاتٌ يَسْقَى إِمَاءٌ وَوَاحِدٌ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾^٦.

فَالْتَقَوَى فِي الطَّاعَاتِ^٧ كَالْمَاءِ لِلْأَشْجَارِ، وَمَثَلُ طَبَائِعِ الْأَشْجَارِ [وَالْأَثْمَارِ] فِي لَوْنِهَا وَطَعْمِهَا مَثَلُ مَقَادِيرِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ كَانَ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْإِيمَانِ وَأَصْفَى جَوْهراً بِالرُّوحِ كَانَ أَتْقَى، وَمَنْ كَانَ أَتْقَى كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَخْصَصَ وَأَظْهَرُ^٨، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مِنْ اللَّهِ أَقْرَبَ، وَكُلُّ عِبَادَةٍ غَيْرِ مُؤَسَّسَةٍ عَلَى التَّقْوَى فِيهِ هَبَاءٌ مَنثورٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُوفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾^٩. انْتَهَى كَلَامُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ رحمه الله: فَتَقُولُ فِي بَيَانِ ذَلِكَ: إِنَّ أَوَانِلَ [دَرَجَاتِ] الْإِيمَانِ تَصْدِيقَاتٌ مَشْبُوبَةٌ بِالشُّكُوكِ

١. تفسير الصافي ٢: ٨٤.

٢. تفسير الصافي ٢: ٨٤.

٣. في المصباح: الصادق.

٤. في المصباح: بالله.

٥. في المصباح: الخلاف.

٦. الرعد: ١٣/٤.

٧. في المصباح: للطاعات.

٨. في المصباح: أخلص وأظهر.

٩. مصباح الشريعة: ٣٨، تفسير الصافي ٢: ٨٥، والآية من سورة التوبة: ١٠٩/٩.

والشبهات على اختلاف مراتبها، ويُمكن معها الشُّرك، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^١، ويُعبّر عنها بالإسلام، كما قال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^٢، والتقوى المُتقدِّمة عليها [هي] تقوى العام. وأوسطها تصديقات لا يشوبها شك ولا شبهة، كما قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزَازُوا﴾^٣، وأكثر إطلاق الإيمان عليها خاصّة؛ كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^٤، والتقوى المُتقدِّمة عليها [هي] تقوى الخاص.

وآخرها تصديقات كذلك، مع شهود وعيان، ومحبّة كاملة لله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^٥، ويُعبّر عنها تارةً بالإحسان؛ كما ورد في الحديث النبوي: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^٦، وأخرى بالإيقان، كما قال الله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^٧، والتقوى المُتقدِّمة عليها [هي] تقوى خاص الخاص.

وإنما قدّمت [التقوى] على الإيمان لأن الإيمان [إنما] يتحصّل ويتقوى بالتقوى، لأنها كلّما ازدادت ازداد الإيمان بحسب ازديادها، وهذا لا ينافي تقدّم أصل الإيمان على التقوى، بل ازديادها بحسب ازديادها، وأيضاً لأن الدّرجة المُتقدِّمة لكُلِّ منها غير الدّرجة المُتأخّرة، ومثل ذلك مثل من يمشي بسراج في ظلمة، فكُلّما أضاء له من الطّريق قطعة مشى فيها، فيصير ذلك المشي سبباً لإضاءة قطعة أخرى، وهكذا^٨.

أقول: مقصود الشيخ من ذكر الرواية وتوضيحها توجيه تكرر الأمر بالتقوى في الآية بالمراتب الثلاث المذكورة في الرواية.

وعن الصادق عليه السلام قال: «أتني عمر بقدامة بن مظعون وقد شرب الخمر وقامت عليه البيّنة، فسأل أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فأمره أن يُجلّد ثمانين جلدة، فقال قدامة: يا أمير المؤمنين، ليس عليّ حدّ، أنا من أهل هذه الآية «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا»، قال أمير المؤمنين عليه السلام: لست من أهلها، إنّ طعام أهلها لهم حلال، ليس يأكلون ولا يشربون إلّا ما أحله الله لهم. ثم قال علي عليه السلام: إنّ الشارب إذا شرب لم يذر ما يأكل ولا ما يشرب، فاجلّدوه ثمانين جلدة»^٩.

١. يوسف: ١٠٦/١٢. ٢. الحجرات: ١٤/٤٩. ٣. الحجرات: ١٥/٤٩. ٤. الأنفال: ٢/٨.
٥. المائدة: ٥٤/٥. ٦. مجمع البيان: ٣/١٧٨. ٧. البقرة: ٤/٢. ٨. تفسير الصافي: ٢/٨٥.
٩. الكافي: ٧/٢١٥، ١٠/٢١٥، تفسير الصافي: ٢/٨٦.

ثم قال الشيخ بعد نقل الرواية: أقول: في قوله: (إلا ما أحله الله لهم) تنبيه على أنهم يحترزون عن الشبهات، بل [عن] كل ما يمنهم عن الشهود مع الله. والجنح في الآية نكرة في سياق النفي يعم كل مراتبه، كاستحقاق العتاب^١، والسر فيه أن شكر نعم الله تعالى أن تصرف في طاعة الله سبحانه على وجهها، فليتدبر فيه.

وعلى ما حققناه إن صح [أن] نزول [هذه] الآية ما ذكره القمي وفقاً لطائفة من المفسرين، فمعنى الآية: أن الذين كانوا يشربون الخمر قبل نزول تحريمها، إذا كانوا بهذه المثابة من الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فلا جناح عليهم في شربها^٢.

أقول: حمل الآية على المعنى الذي ذكره غير ممكن، لوضوح عدم إمكان كون الجنح على شاربها قبل نزول تحريمها لقبح العقاب بلا بيان عقلاً وإن لم يكونوا واجدين لأول مراتب التقوى. نعم إذا كان المراد من قوله: ﴿فِيمَا طَعُمُوا﴾ جميع المأكولات والمشروبات، يصح اشتراط نفي الجنح على الإطلاق، وبجميع مراتبه بما إذا اتقى جميع محرماتها ومشتبهاتها، ويكون غرضهم من أكلها القيام بالأعمال الصالحة، وأنهم لا يشبعون من الطعام وهم مطلعون على بطون غرثي وأكباد حري، بل يحسنون إليهم بالزائد مما يحفظون به رمتهم وأنفسهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ
لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَغْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٩٤]

ثم أنه تعالى بعد بيان حرمة الخمر من المشروبات، ذكر حرمة لحم الصيد من المأكولات على خصوص المحرم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ ويمتحنكم ويختبرن طاعتكم وعصيانكم ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل، وبلاء يسير بالنسبة إلى سائر البليات الشاقة العظيمة، كبذل النفس والمال، ثم فسر ذلك الشيء بقوله: ﴿مِنَ الصَّيْدِ﴾ وهو ابتلاء سهل يسير^٣.
وقيل: إن المراد: بعض الصيد، وهو صيد البر^٤.

قيل: إن الله امتحن أمة محمد بصيد البر، كما امتحن أمة موسى بصيد البحر^٥.
أما كيفية الابتلاء فإنه قربه منكم بحيث ﴿تَنَالُهُ﴾ وتصل إليه ﴿أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ فيسهل عليكم أخذه وطعنه.

عن القمي: نزلت في غزوة الحُدَيْبِيَّة، جمع الله عليهم الصِّيد، فدخل بين رِحالهم^١. وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «حُشِرَ عليهم الصِّيد في كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى دَنَا مِنْهُمْ لِيَبْلُوَهُمَ اللهُ بِهِ»^٢. وعنه عليه السلام: «حُشِرَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُمَرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ الْوَحُوشَ حَتَّى نَالَتْهَا أَيْدِيهِمْ وَرِمَاحُهُمْ»^٣. وفي رواية: «مَا نَالَهُ الْأَيْدِي الْفِرَاحُ أَوْ الْبَيْضُ، وَمَا نَالَهُ الرِّمَاحُ فَهُوَ مَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأَيْدِي»^٤. وفي (المجمع): عنه عليه السلام: «الَّذِي نَالَهُ الْأَيْدِي فِرَاحَ الطَّيْرِ وَصِغَارِ الْوَحْشِ وَالْبَيْضُ، وَالَّذِي نَالَهُ الرِّمَاحُ الْكِبَارُ مِنَ الصَّيْدِ»^٥.

ثم أشار سبحانه إلى عِلَّةِ الْإِتْيَاءِ بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ﴾ ويُمَيِّزُ بَيْنَ النَّاسِ ﴿مَنْ يَخَافُهُ﴾ ويخاف عقابه، وهو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن الأنظار، ومستور عن الأبصار، فيتقَي الصِّيدَ مِمَّنْ لَا يَخَافُهُ. وقيل: في الآية حَذَفٌ، والتقدير: ليعلم أولياء الله مَنْ يَخَافُهُ حال إيمانه بِالْغَيْبِ^٦. ثم هَدَّدَ مَنْ يَتَّقِي الصِّيدَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ بقوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى﴾ على نفسه، وتعرض للصِّيدِ ﴿بِعَدْوٍ﴾ ذَلِكَ التَّحْرِيمَ وَتَوْضِيحَ عِلَّتِهِ ﴿فَلَهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي الدُّنْيَا التَّعْزِيرَ الْمُوجِعَ. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هَذَا الْعَذَابُ هُوَ أَنْ يُضْرَبَ بَطْنُهُ وَظَهْرُهُ ضَرْباً وَجِيعاً وَيَنْزَعُ ثِيَابُهُ^٧.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَنْمَا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ [٩٥]

ثم أَكَّدَ سبحانه حرمة الصِّيدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بِالتَّصْرِيحِ بِالتَّهْنِيهِ عَنْهُ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأحكامه ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ وَالْحَيَوَانَ الْوَحْشِيَّ [سواء أ] كَانَ مِمَّا يُؤْكَلُ أَمْ لَا ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ مُحْرَمُونَ بِإِحْرَامِ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ.

عن الصادق عليه السلام: «فَاتَّقُوا قَتْلَ الدَّوَابِّ كُلِّهَا إِلَّا الْأَفْعَى وَالْعَقْرَبَ وَالْفَأْرَةَ، [فَأَمَّا الْفَأْرَةُ] فَإِنَّهَا تُوهِي السَّقَاءَ وَتُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ [النَّيْتَ]، وَأَمَّا الْعَقْرَبُ فَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْحَجَرِ فَلَسَعَتْهُ عَقْرَبٌ فَقَالَ: لَعَنَكَ اللهُ، لَا تَدْعِينَ بَرًّا وَلَا فَاجِرًا، وَالْحَيَّةُ إِذَا أَرَادَتْكَ فَاقْتُلْهَا، وَإِنْ لَمْ تَرُدَّكَ فَلَا تُرْدَهَا، وَالْكَلْبُ

٢. الكافي ٤: ٢/٣٩٦، تفسير الصافي ٢: ٨٧.

٤. الكافي ٤: ٢/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٨٧.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٨٦.

٨. في تفسير الصافي: إِذَا أَحْرَمْتَ فَاتَّقِ.

١. تفسير القمي ١: ١٨٢، تفسير الصافي ٢: ٨٧.

٣. الكافي ٤: ٢/٣٩٦، تفسير الصافي ٢: ٨٧.

٥. مجمع البيان ٣: ٣٧٧، تفسير الصافي ٢: ٨٧.

٧. تفسير الرازي ١٢: ٨٦.

٤٣٤ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

العقور والسبع إذا أراداك فاقتلها، فإن لم يُريدك فلا تُردهما، والأسود الغدير فاقتله على كُلِّ حال،
وازِمِ الغراب والجذأة رميةً على ظَهَرِ بَعِيرِكَ»^١.

وعنه عليه السلام: «المُحَرَّمُ يَقْتُلُ الزُّبُورَ وَالسُّرَّ وَالْأَسْوَدَ الْغَدِيرَ وَالذَّنْبَ وَمَا خَافَ أَنْ يَعْدُو عَلَيْهِ» وقال:
«الْكَلْبُ الْعَقُورُ هُوَ الذَّنْبُ»^٢.

وعنه عليه السلام: «كُلُّ مَا خَافَ الْمُحَرَّمُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْحَيَاتِ فَيَقْتُلُهُ، وَإِنْ لَمْ يُرِدْكَ فَلَا تُرْده»^٣.
وعن النبي صلى الله عليه وآله بطريقٍ عاميٍّ: «خَمْسَ فَوَاسِقَ لَا جَنَاحَ عَلَى الْمُحَرَّمِ أَنْ يَقْتُلَهُنَّ فِي الْجَلِّ وَالْحَرَمِ:
الْغُرَابُ، وَالْجَذَاءُ، وَالْحَيَّةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^٤.
وفي روايةٍ: «السَّبْعُ الضَّارِي»^٥.

أقول: الظاهر من مجموع الروايات جواز قتل كُلِّ مؤذٍ لَا يَأْمَنُ الْمُحَرَّمُ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ.
ثُمَّ يَبَيِّنُ اللهُ شَبَاحَهُ كَقَارَةِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بقوله: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ» أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ حَالَ
كَوْنِهِ «مُتَعَمِّدًا» فِي قَتْلِهِ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ وَإِنْ كَانَ اشْتِرَاطُ الْعَمْدِ فِي وُجُوبِ كَقَارَةِ الصَّيْدِ، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ الْعَامَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ
نُسِبَ إِلَى أَكْثَرِهِمْ، وَعَامَّةُ أَصْحَابِنَا عَدَمَ الْإِشْتِرَاطِ، بَلْ قَالُوا بِوُجُوبِهَا وَإِنْ كَانَ الْقَتْلُ خَطَأً أَوْ نِسْيَانًا،
وَقَالُوا: وَجْهُ التَّقْيِيدِ فِي الْآيَةِ أَنَّ سَبَبَ تَزْوُلِهَا فِي مَنْ تَعَمَّدَ^٦.

رُوي أَنَّهُ عَنْ^٧ لَهُمْ فِي عُمَرَةِ الْحَدْيِيَّةِ جِمَارَ وَخَشٍ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَبُو الْيَسْرِ فَطَعَنَهُ بِرُمَحِهِ فَقَتَلَهُ،
فَقِيلَ: إِنَّكَ قَتَلْتَ الصَّيْدَ وَأَنْتَ مُحَرَّمٌ. فَتَزَلَّتْ^٨.

وقال بعضٌ: نَزَلَ الْكِتَابُ بِالْعَمْدِ، وَوَرَدَتْ الشَّيْءُ بِالْخَطَأِ^٩.

وعلى أَيِّ تَقْدِيرٍ «فَجَزَاءٌ» وَاجِبٌ عَلَى قَاتِلِ الصَّيْدِ، وَفِدْيَةٌ ثَابِتَةٌ؛ حَيَوَانٍ «مِثْلُ مَا قَتَلَ» وَشَبِيهِه مَا
صَادَ، وَلَكِنْ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَيَوَانُ الْمُمَاتِلَ «مِنْ» جِنْسِ «الْتَّمَعِ» الثَّلَاثُ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ،
وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمَعَزُ.

عن الصادق عليه السلام، فِي تَفْسِيرِهَا: «فِي الظُّبْيِ شَاةٌ، وَفِي جِمَارِ الْوَحْشِ بَقَرَةٌ، وَفِي النَّعَامَةِ جَزُورٌ»^{١٠}.

١. الأسود: العظيم من الحيات.

٢. التهذيب ٥: ١٢٧٣/٣٦٥، تفسير الصافي ٢: ٨٧.

٣. الكافي ٤: ٣٦٣، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٤. الكافي ٤: ١/٣٦٣، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٥. راجع: تفسير أبي السعود ٣: ٧٩، كنز العرفان ١: ٣٢٢٤.

٦. عَنْ: أَيِ ظَهَرَ أَمَامَهُ وَاعْتَرَضَ.

٧. كنز العرفان ١: ٣٢٢٤.

٨. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩.

٩. التهذيب ٥: ١١٨٠/٣٤١، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

قيل: الجَزور والبَدَنَة واحد، والفرق أن البَدَنَة ما يُحَرَّز للهِدْي، والجَزور أعم^١.
وفي صحيح سليمان: في البقرة بقرة، وفي الجِمار بَدَنَة، وفي النعامة بَدَنَة، وفي ما سيؤى ذلك قيمته^٢.

ثم وصف سبحانه الجزاء بكونه مما «يُحْكَمُ بِهِ» وبمماثلته للصيد المقتول رجلاً «ذَوَا عَدْلٍ» ولكن لا في دينه، وإن كان من غيركم، بل لا بد من أن يكونا «مِنْكُمْ» وأهل دينكم.
قال بعض العامة: لو كان أحدهما القاتل، جاز إذا كان القتل خطأ لا عمداً؛ لأنه فاسق^٣.

في (المجمع): عن الباقر والصادق (عليه السلام): «ذو عدل»^٤.

وفي (الكافي): عنهما (عليه السلام): وعن العياشي: عن الباقر (عليه السلام): «العدل: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، والإمام من بعده» ثم قال: «هذا مما أخطأت به الكتاب»^٥.

والعياشي: «يعني رجلاً واحداً» يعني الإمام^٦.

وعن الباقر (عليه السلام): «العدل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، والإمام من بعده يحكم به وهو ذو عدل، فإذا علمت ما حكم به رَسُولُ اللَّهِ والإمام فحسبك، ولا تسأل عنه»^٧.

أقول: لعل المراد من «ذَوَا عَدْلٍ» النبي والإمام، على معنى الاختصاص بحكم أحدهما، وأن المراد من الحكم بيان الجثث للمقتول، فيحتاج في تعيين الجثث إلى النص من النبي أو الإمام، لا أنه ينظر العدلين من سائر الناس، كما عليه العامة.

وروي أن رجلاً سأل أبا حنيفة عن كفارة الصيد فأجاب، فقال: مَنْ يُحْكَمُ بِهَا؟ قال: ذُو عَدْلٍ، قال: إن اختلفا؟ قال: يتوقف عن الحكم حتى يتفقا، قال: إنك لا تحكم وحدك في الصيد حتى يتفق معك آخر، وتحكم في الدماء والفروج والأموال ب رأيك^٨.

ثم وصف سبحانه الجزاء ثانياً بكونه «هَدْيًا» ومُرسلاً بقصد التقرب إلى الله، ولا بد من كونه «بَالِغَ الْكَفَّةِ» وواصلاً إليها.

عن الصادق (عليه السلام): «مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ هَدْيٌ فِي إِحْرَامِهِ، فَلَهُ أَنْ يَنْحَرَهُ حَيْثُ شَاءَ إِفْدَاءَ الصَّيْدِ، فَإِنَّ اللَّهَ

١. التهذيب ٥: ١١٨٢/٣٤١.

١. جواهر الكلام ٢٠: ١٩١.

٢. مجمع البيان ٣: ٣٧٥، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٩٢.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٣٦٠/٧٨، الكافي ٤: ٣/٣٩٦ و ٥/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٣٦١/٧٨، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٦. دعائم الإسلام ١: ٣٠٦.

٧. التهذيب ٦: ٨٦٧/٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

يقول: ﴿هَذَا بِأَلْفِ الْكَعْبَةِ﴾^١.

وعنه عليه السلام: «مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ فِدَاءُ صَيْدٍ أَصَابَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَإِنْ كَانَ حَاجِبًا نَحَرَ هَدْيِهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ، وَإِنْ كَانَ مُعْتَمِرًا نَحَرَ بِمَكَّةَ قِبَالَ الْكَعْبَةِ»^٢.

ثمَّ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِجَعْلِ الْبَذْلِ لِلْجَزَاءِ الْمَذْكُورِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَفَّارَةً﴾ مَعْنَى: وَهِيَ «طَعَامٌ مَسَاكِينَ» وَاطْعَامٌ لِلْفُقَرَاءِ «أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ» الطَّعَامُ وَمُسَاوِيهِ، وَهُوَ يَكُونُ «صِيَامًا».

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ مُحْرِمٍ أَصَابَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارًا وَخَشَشَ، قَالَ: «عَلَيْهِ بَذَنَةٌ». قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى بَذَنَةٍ؟ قَالَ: «فَلْيُطْعِمْ سِتِينَ مِسْكِينًا». قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَتَصَدَّقَ؟ قَالَ: «فَلْيُصِمْ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ يَوْمًا، وَالصَّدَقَةُ مَذَّ عَلَى كُلِّ مِسْكِينٍ».

وَسُئِلَ عَنْ مُحْرِمٍ أَصَابَ بَقْرَةً، قَالَ: «عَلَيْهِ بَقْرَةٌ». قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى بَقْرَةٍ؟ قَالَ: «فَلْيُطْعِمْ ثَلَاثِينَ مِسْكِينًا». قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَتَصَدَّقَ؟ قَالَ: «فَلْيُصِمْ تِسْعَةَ أَيَّامٍ». قِيلَ: فَإِنْ أَصَابَ طَیْئًا؟ قَالَ: «عَلَيْهِ شَاةٌ». قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ؟ قَالَ: «فَاطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَعَلَيْهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^٣.

فِي بَيِّنَةِ الْمُتَّجِدِ عليه السلام، فِي حَدِيثِ الرَّهْزَرِيِّ: «أَوْ تَدْرِي كَيْفَ يَكُونُ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا يَا زَهْرِي؟»، قَالَ: [الصَّيْدُ]: «لَا أَدْرِي. قَالَ: «يَقُومُ الصَّيْدُ قِيَمَةً، ثُمَّ تُقَضَّ تِلْكَ الْقِيَمَةُ عَلَى الْبَرِّ، ثُمَّ يَكَالُ ذَلِكَ الْبَرُّ أَصْوَاعًا، فَيَصُومُ لِكُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا»^٤.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِذَا أَصَابَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ وَلَمْ يَجِدْ مَا يَكْفُرُ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي أَصَابَ فِيهِ الصَّيْدَ قَوْمَ جَزَاؤِهِ مِنَ النَّعَمِ دَرَاهِمَ، ثُمَّ قُوِّمَتِ الدَّرَاهِمُ طَعَامًا لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفِ صَاعٍ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الطَّعَامِ صَامَ لِكُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا»^٥.

وَعَنْهُ عليه السلام، فِي مُحْرِمٍ قَتَلَ نَعَامَةً، قَالَ: «عَلَيْهِ بَذَنَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَاطْعَامَ سِتِينَ مِسْكِينًا» [وَقَالَ: إِنْ كَانَ قِيَمَةُ الْبَدَنَةِ أَكْثَرَ مِنْ إِطْعَامِ سِتِينَ مِسْكِينًا لَمْ يَزِدْ عَلَى إِطْعَامِ سِتِينَ مِسْكِينًا، وَإِنْ كَانَ قِيَمَةُ الْبَدَنَةِ أَقَلَّ مِنْ إِطْعَامِ سِتِينَ مِسْكِينًا] لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ إِلَّا قِيَمَةُ الْبَدَنَةِ^٦.

وَأَمَّا فَرَضُ اللَّهِ الْكَفَّارَةَ عَلَى قَاتِلِ الصَّيْدِ حَالَ الْإِحْرَامِ «لِيَتَذَوَّقَ» ذَلِكَ الْقَاتِلُ «وَيَبَالَ أَمْرُهُ» وَشَوْءُ عَاقِبَةِ فِعْلِهِ مِنْ هَتَكِهِ حُرْمَةِ الْإِحْرَامِ.

٢. الكافي ٤: ٣/٣٨٤، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

١. الكافي ٤: ٢/٣٨٤، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٣. الكافي ٤: ١/٣٨٥، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

٤. تفسير الفمّي ١: ١٨٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٠٨/٤٧، تفسير الصافي ٢: ٨٩. ٥. الكافي ٤: ١٠/٣٨٧.

٦. الكافي ٤: ٥/٣٨٦.

ثُمَّ نَبِهَ شَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْكَفَّارَةُ إِنَّمَا هِيَ إِذَا كَانَ الْقَتْلُ بَعْدَ تَحْرِيمِ الصَّيْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَفَا اللَّهُ﴾ وَتَجَاوَزَ ﴿عَمَّا سَلَفَ﴾ مِنْكُمْ مِنْ قَتْلِ الصَّيْدِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، أَوْ مِنْ الدَّفْعَةِ الْأُولَى ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إِلَى قَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ بَعْدَ التَّحْرِيمِ وَعِلْمِ الْقَاتِلِ بِهِ، أَوْ بَعْدَ التَّعَمُّدِ فِي الدَّفْعَةِ الْأُولَى ﴿فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وَيُعَذِّبُهُ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وَغَالِبٌ لَا يَغَالِبُ ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ شَدِيدٌ يَمْنُ أَصْرَ عَلَى عِصْيَانِهِ. عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ مُرْسَلًا: «إِذَا أَصَابَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ خَطَأً فَعَلَيْهِ أَبَدًا فِي كُلِّ مَا أَصَابَ الْكَفَّارَةَ^١، فَإِنْ عَادَ فَأَصَابَ ثَانِيًا مُتَعَمِّدًا فَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ الْكَفَّارَةُ، وَهُوَ يَمْنُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾^٢».

وعن الصادق عليه السلام، في الصحيح: «الْمُحْرِمُ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ، فَعَلَيْهِ جِزَاؤُهُ وَيَتَصَدَّقُ بِالصَّيْدِ عَلَى يَسْكِينٍ، فَإِنْ عَادَ فَقَتَلَ صَيْدًا آخَرَ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جِزَاؤُهُ، وَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ، وَالتَّعْمَةُ فِي الْآخِرَةِ»^٣. وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَصْحَابِ - كَمَا قِيلَ^٤ - وَالْأَظْهَرُ اغْتِيَارُ الْعَوْدِ فِي إِحْرَامٍ وَاحِدٍ، وَكَوْنُ الدَّفْعَةِ الْأُولَى أَيْضًا عَنْ عَمْدٍ، وَإِنْ أُمِكنَ دَعْوَى الْإِطْلَاقِ، إِلَّا أَنَّهُ مَمْنُوعٌ.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [٩٦]

ثُمَّ لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّيْدَ وَكَانَ مَظَنَّةَ فَهَمِّ الْعُمُومِ، صَرَّحَ بِتَخْصِيصِهِ بِصَيْدِ الْبَرِّ، وَإِبَاحَةَ صَيْدِ الْبَحْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ مِنَ السَّمَكِ الَّذِي لَهُ فُلْسٌ، سِوَاهُ أَخْذٍ مِنَ الْمَاءِ بِعِلَاجٍ، أَوْ لَفْظِهِ الْبَحْرُ وَنَضَبَ عَنْهُ الْمَاءَ وَأَخْذَ مِنْ غَيْرِ حِيلَةٍ وَعِلَاجٍ ﴿وَطَعَامُهُ﴾ وَالْمَمْلُوحُ مِنْهُ - كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام^٥، وَقِيلَ: إِنَّهُ مَذْهَبُ أَهْلِ الْبَيْتِ^٦، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَعَمٌّ مِنَ الطَّرِيِّ وَالْمَمْلُوحِ - لِيَكُونَ ﴿مَتَاعًا﴾ وَانْتِفَاعًا ﴿لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُقِيمُونَ ﴿وَالِلْسَّيَّارَةِ﴾ وَالْمُسَافِرِينَ بِأَنْ يَتَزَوَّدُوا بِهِ.

عَنْ (الكافي): عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام: «لَا بَأْسَ بِصَيْدِ الْمُحْرِمِ السَّمَكِ وَيَأْكُلُهُ مَا لِحِهِ وَطَرِيهِ، وَيَتَزَوَّدُ». وَقَالَ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ﴾ قَالَ: «مَالِحُهُ الَّذِي يَأْكُلُونَ»^٧. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ اضْطِيَادًا وَقِتْلًا وَإِشَارَةً وَدَلَالَةً وَإِعْلَاقًا وَإِعْرَاءً لِلْحَيَوَانِ بِهِ، وَيَبْعًا وَشِرَاءً وَتَمْلُكًا وَامْسَاكًا وَأَكْلًا ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وَعَلَيْهِ يَكُونُ نَهْيُ الْآيَةِ أَعَمٌّ مِنَ النَّهْيِ السَّابِقِ لَا تَأْكِيدُ لَهُ.

١. الكافي ٤: ٣/٣٩٤.

٢. كنز العرفان ١: ١٢/٣٢٧.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٨٠.

٤. زاد في الكافي: وإذا أصابه متعمداً فإن عليه الكفارة.

٥. التهذيب ٥: ١٢٩٧/٣٧٢.

٦. مجمع البيان ٣: ٣٨٠.

٧. الكافي ٤: ١/٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

٤٣٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

عن الصادق عليه السلام: «كُلَّ طَيْرٍ يَكُونُ فِي الْأَجَامِ يَبْيَضُ فِي الْبَرِّ وَيَغْرُخُ فِي الْبَرِّ فَهُوَ مِنْ صَيْدِ الْبَرِّ، وَمَا كَانَ مِنْ صَيْدِ الْبَرِّ يَكُونُ فِي الْبَرِّ وَيَبْيَضُ فِي الْبَحْرِ فَهُوَ مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ»^١.

وعنه عليه السلام: «كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَصْلُهُ فِي الْبَحْرِ وَيَكُونُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرُ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُحْرَمِ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَإِنْ قَتَلَهُ فَعَلِيهِ الْجَزَاءُ، كَمَا قَالَ [الله عز وجل]:»^٢.

وعن أحدهما عليه السلام: «لَا يَأْكُلُ الْمُحْرَمُ طَيْرَ الْمَاءِ»^٣.

ثم بالغ سبحانه في التأكيد والوعيد بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَوْنَ﴾ في القيامة - لا إلى غيره - في ما نهاكم عنه من المعاصي التي من جملتها الصيد في حال الإحرام، فيجازيكم على المخالفة.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَبِيتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٩٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان حرمة الإحرام والحرم، وكونهما سبباً لأمن الحيوانات من ضرر الإنسان، بين أن الكعبة والحرم، والأشهر الحرم، وهدي الكعبة أسباب لأمن الإنسان من جميع المخوفات والآفات، ولتليهم بالخيرات والسعادات، بقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾ وصير ﴿الْكَعْبَةَ﴾ التي تكون لكمال حرمتها عنده وعند أنبيائه ﴿الْيَبِيتَ الْحَرَامَ﴾ المحترم ﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ وقواماً لهم، وما به صلاح أمورهم.

في بيان وجوه كون قيل في وجه كونها قواماً للناس أمور:

الأول: أن مكة بلدة لا ضرع فيها ولا زرع، ولا يوجد فيها غالب ما يحتاج إليه أهلها، فجعل الكعبة معظمة في القلوب حتى صار أهل الدنيا راغبين في زيارتها، فيسافرون إليها من كل فج عميق، ويأتون بجميع ما يحتاج إليه، فصار سبباً لإسباغ الثعم على أهلها.

الثاني: أن العرب كانت عاداتهم القتل والغارة، وكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وأموالهم حتى أن الرجل لو رأى قاتل أبيه أو ابنه التجأ بالحرم ما كان يتعرض له.

الثالث: أن أهل مكة صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته، وسادات الخلق إلى يوم القيامة.

٢. الكافي ٤: ٣٩٣، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

١. الكافي ٤: ٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

٣. الكافي ٤: ٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

الرابع: أن الله تعالى جعل الكعبة قياماً للناس في دينهم بسبب ما جعل الله فيها [من] المناسك العظيمة والطاعات الشريفة، وجعل تلك المناسك سبباً لحط السيئات ورفع الدرجات وكثرة الكرامات^١.

وعن الصادق سلام الله عليه: «من أتى هذا البيت يريد شيئاً في الدنيا والآخرة أصابه»^٢.
وعن القمي رحمه الله، قال: ما دامت الكعبة قائمة ويحج الناس إليها لم يهلكوا، فإذا هُدمت وتركوا الحج هلكوا^٣.

﴿وَجَعَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الذي يؤدَّى فيه الحج ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الذي يهدى إلى البيت ويذبح عنده ﴿وَالْقَلَائِدَ﴾ التي يقلدون الهدي بها قياماً للناس من العرب وأمثالهم، وسبباً لراحتهم والسعة في معاشهم.

أما الشهر الحرام فلترك العرب فيه القتال والغارة، فلذا كان الخوف يزول عنهم، وكانوا يسافرون للحج والتجارة، ويشغلون باكتساب منافع الدين والدنيا، وإصلاح المعاش والمعاد.
وأما الهدي فكانوا يذبحونه هناك ويفرقون لحمه بين الفقراء، فيصلح به معيشتهم، ويقوم به أمر دينهم ودنياهم.

وأما القلائد - وهي الناقة والبقرة وكل ما يجوز في الهدي - فإن العرب كانوا مبالغين في التحرز عن التعرض لها، حتى إنهم كانوا يقلدون زواحلهم عند رجوعهم من مكة من لحاء شجرة الحزم فيأمنون بذلك، وكانوا يموتون من الجوع ولا يتعرضون لها؛ وهي أفضل الهدايا، ولذا خصها بالذكر.

ثم ذكر سبحانه علة جعل الأمور المذكورة قياماً للناس بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الجعل المذكور، أو التنبية بذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ بالنظر إلى المصالح والمنافع الدينية والدنيوية ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وحقائق جميع الموجودات، ومصالحها ومقاسدها.

ثم أكد سعة علمه بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بذاته ﴿يَكُلُّ شَيْءًا﴾ من الأشياء ﴿عَلِيمٌ﴾ فعلم أن طيباع العرب مَجْبُولَةٌ على الجِرس الشديد بالمال والقتل والغارة، وعلم أنه لو دامت بهم هذه الحالة لأدَّى ذلك إلى فئانهم وانقطاعهم بالكلفة، فشرع لهم حرمة القتال في الأشهر الحرم وفي الحرم، وألزمهم بحرمة البيت الحرام حتى يقدرُوا على تحصيل ما يحتاجون إليه، وإصلاح معاشهم في الأشهر المعينة والمكان المعين؛ كذا قيل^٤.

٢. مجمع البيان ٣: ٣٨٢، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

٤. تفسير الرازي ١٢: ١٠١.

١. تفسير الرازي ١٢: ١٠٠.

٣. تفسير القمي ١: ١٨٧، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٩٨]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِعْلَامِ بِغَايَةِ لُطْفِهِ، أَعْلَمَهُمْ بِشِدَّةِ عِقَابِهِ عَلَى مَنْ عَصَاهُ يَقُولُ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عَلَى مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ وَهَتِكَ حُرْمَاتِهِ: فَلَا تَغْتَرَوْا بِسَعَةِ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا تَأْمَنُوا مِنْ أَخْذِهِ.

ثُمَّ بَعْدَ تَرْبِيَتِهِ الْمَهَابَةِ وَالْخَوْفِ فِي الْقُلُوبِ، أَعْلَنَ بِسَعَةِ غُفْرَانِهِ وَرَحْمَتِهِ تَرْبِيَةً لِلرَّجَاءِ فِي قُلُوبِ الْعَصَاةِ يَقُولُ: ﴿وَوَاعِلَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِالْعِيَادِ، فَلَا تَيَاسُوا بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَافْتَدَلَا»^١.

عَنِ الصَّادِقِ، عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَنْ جَبْرِئِيلَ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ أَذْنَبَ [ذَنْبًا] صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لِي أَنْ أَعَذِّبَهُ وَأَنْ أَعْفُو عَنْهُ، عَفَوْتُ عَنْهُ»^٢.

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ [٩٩]

ثُمَّ أَنَّهُ شَبَّحَانَهُ بَعْدَ التَّرْهيبِ وَالتَّرْغِيبِ حَثَّ عَلَى طَاعَةِ أَحْكَامِهِ، وَالزَّجْرَ عَنِ الْعِصْيَانِ مُبَالِغًا فِي الْوَعِيدِ عَلَيْهِ يَقُولُ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ وَلَيْسَ فِي عَهْدِهِ ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وَقَدْ بَلَغَ الْأَحْكَامَ وَالْوَعْدَ بِالنَّوَابِ وَالْوَعِيدَ بِالْعِقَابِ، وَبَالَغَ فِي بَيَانِهَا، وَخَرَجَ عَمَّا فِي عَهْدِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَبَقِيَ عَلَيْكُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْإِثْنَالِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وَتُخْفُونَ مِنَ الضَّمَائِرِ وَالنِّيَّاتِ، وَالْخُلُوصِ وَالْإِتْقَانِ، وَيُجَازِيكُمْ بِحَسَبِهَا.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ [١٠٠]

ثُمَّ لَمَّا نَهَى عَنِ تَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَعْمَالِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْخَمْرَ وَلَحْمَ صَيْدِ الْمُحْرَمِ مِنَ الْخَبَائِثِ، حَثَّ عَلَى الْإِتِّزَامِ بِالطَّيِّبَاتِ وَاجْتِنَابِ الْخَبَائِثِ يَقُولُ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، لِلنَّاسِ ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَفِي حُكْمِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ ﴿الْخَبِيثُ﴾ الرَّذِيلُ الرُّوحَانِي مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ وَعِصْيَانِهِ ﴿وَالطَّيِّبُ﴾ الْمُسْتَحْسِنُ الرُّوحَانِي مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَطَاعَتِهِ، كَمَا لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ الْجِسْمَانِيَّانِ فِي أَنْظَارِ النَّاسِ وَطِبَاعِهِمْ، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ وَسَرَكَ ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وَشُيُوعِهِ

وتداوله بين الناس، فَإِنَّ الْعَيْبَةَ بِالْجُودِ وَالْحُسْنِ وَالزَّادَةِ وَالشَّيْخِ، ذُونَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ، والتعارف بين الناس وعدمه، فَإِنَّ الْمَحْمُودَ الْقَلِيلَ خَيْرٌ مِنَ الْمَذْمُومِ الْكَثِيرِ.

فإذا كان كذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أوامره ونواهيه ﴿يَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة والإدراكات الصافية عن كدورات الشهوات ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بأعلى المقاصد من الخيرات الدنيوية والنعم الأخروية.

قيل: نزلت في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يوقعوا بهم، بسبب أنه كان فيهم الحطيم، وقد أتى المدينة في السنة السابقة، واشتاق سرح^١ المدينة، فخرج في العام القابل - وهو عام عمرة القضاء - حاجاً، فبلغ ذلك أصحاب السرح، فقالوا للنبي ﷺ: هذا الحطيم خرج حاجاً مع حجاج اليمامة، فحل بيننا وبينه؟ فقال ﷺ: «[إنه] قلد الهدى». ولم يأذن لهم في ذلك، بسبب استحقاقهم الأمن بتقليد الهدايا. فنزلت الآية تصديقاً له ﷺ في نهيه إياهم^٢.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبُدُّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبُدُّ لَكُمْ عَمَّا آتَاهُ اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ [١٠١]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن النبي ﷺ وظيفته التبليغ وبيان الأحكام، وكان المسلمون يسألونه عما لا يعينهم من المسائل، نهاهم عن إختار السؤال عما يوجب التشديد عليهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا﴾ الرسول ﴿عَنَ أَشْيَاءٍ﴾ ومطالب وأحكام ﴿إِن تَبُدُّ﴾ وتظهر ﴿لَكُمْ﴾ تلك الأمور ببيان الرسول ﴿تَسْؤُكُمْ﴾ وتعمكم لما ترؤن من مخالفتها لطباعكم.

روى أنس أنهم سألوا النبي ﷺ فأكثرُوا المسألة، فقام على المنبر فقال: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء ما دُمْتُ في مقامي هذا إلا حدثتكم به»، فقام عبدالله بن حذافة - وكان يطعن في نسبه - فقال: يا نبي الله، من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة بن قيس»^٣.

في ذكر سؤال وقال شرافة بن مالك - ويروى عكاشة بن محصن - يا رسول الله، الحَجَّ علينا في كل عكاشة عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ، حتى أعاد مرتين أو ثلاثة، فقال ﷺ: «ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لتركتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

٤٤٢ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

وقام آخر فقال: يا رسول الله، أين أبي؟ فقال: «في النار». ولما اشتد غضب الرسول قام عمر وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فأنزل الله هذه الآية^١.

﴿وَلَا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ **إِنْ تَسْأَلُوا** **الرَّسُولَ** **عَنْهَا حِينَ يَنْزِلُ الْفَرْدَانُ** ﴿وَفِي زَمَانِ إِيَّانِ الْوَحْيِ تَبْدَأُ لَكُمْ﴾ **تِلْكَ الْمَسْأَلَةُ** وتظهر.

وقيل: إن المراد: إن تسألوا عن شيء نزل به القرآن لکنکم ما فهمتم المراد منه، فهذا السؤال جائز، ويظهر لكم جوابه.

عن الثمعي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَاتَ ابْنُ لَهَا فَأَقْبَلَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: عَطِيَ قُرْطُكَ^٢، فَإِنْ قَرَابَتِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَنْفَعُكَ شَيْئاً، فَقَالَتْ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ لِي قُرْطاً يَا بْنَ اللَّحْنَاءِ^٣، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ بِذَلِكَ وَبَكَتْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ فَنادى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّ قَرَابَتِي لَا تَنْفَعُ لَوْ قَدِمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لَشَفَعْتُ فِي خَارِجِكُمْ^٤، لَا يَسْأَلُنِي الْيَوْمَ أَحَدٌ مِنْ أَبْوهِ إِلَّا أَخْبَرْتَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَبُوكَ الَّذِي تُدْعَى لَهُ، أَبُوكَ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ، فَقَامَ آخِرَ فَقَالَ: مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَبُوكَ الَّذِي تُدْعَى لَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَالُ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ قَرَابَتِي لَا تَنْفَعُ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ أَبِيهِ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ فَقَالَ لَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَغَضَبِ رَسُولِ اللَّهِ، اعْفُ عَنِّي عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية^٥».

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءٍ فَلَا تَتَّهَكُّوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءٍ وَلَمْ يَدْعُهَا نِسْيَاناً فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا^٦».

ثم أشار سبحانه إلى أن حكمة النهي عن السؤال ليست منحصرة في الصيانة عن مسألة المؤمنين، بل لكونه إيذاءً للنبي ومعضيةً لله، بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ﴾ عن مسألتكم السابقة وإيذانكم للرسول، وتجاوز عنها والله عفوورٌ حلِيمٌ، وفيه الحث على الانتهاء عن المسألة وعدم العود إلى إكثارها.

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ [١٠٢]

١. تفسير الرازي ١٢: ١٠٦.

٢. القُرْطُ: ما يُعَلَّقُ فِي شِمَةِ الْأُذُنِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ نَحْوِهَا.

٣. اللّحناء: المرأة المثنتة.

٤. في المصدر: أخوَجِكُمْ.

٥. تفسير القمي ١: ١٨٨، تفسير الصافي ٢: ٩١.

٦. نهج البلاغة: ٤٨٧ الحكمة ١٠٥، تفسير الصافي ٢: ٩٢.

ثم بالغ سبحانه في الزجر عنه حيث وعظهم بأن أمثال هذه السُّؤالات سُؤالات «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ» كانوا «مِنْ قَبْلِكُمْ» مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ، فَأَجِيبُوا عَنْهَا «ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ» حيث جحدوا بالأجوبة، ولم يعملوا بها.

قيل: إن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء، فإذا أمرُوا تركوها، فهلكوا^١.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [١٠٣]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن السؤال عما يُحتمل أن يكون في جوابه فُصِّحَتْهُمْ، أو المشقة عليهم، نهاهم عن التكليف بما لم يكلّفهم الله به بقوله: «مَا جَعَلَ اللَّهُ» وما شرع شيئاً «مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ».

عن (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا وَلَدَتْ النِّاقَةُ وَلَدَيْنِ فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ قَالُوا: وَصَلَتْ، فَلَا يَسْتَحْلُونَ نَحْرَهَا وَلَا أَكْلَهَا، فَإِذَا وَلَدَتْ عَشْرًا جَعَلُوهَا سَائِيَةً وَلَا يَسْتَحْلُونَ ظَهْرَهَا وَلَا أَكْلَهَا، وَالْحَامُ: فَخْلُ الْإِبِلِ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحْلُونَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ». وقد رُوي أَنَّ الْبَحِيرَةَ: النِّاقَةُ إِذَا أَنْتَجَتْ خَمْسَةً أَبْطُنَ، فَإِذَا كَانَ الْخَامِسُ ذَكَرًا نَحَرُوهُ وَأَكَلَهُ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنْ كَانَ الْخَامِسُ أُنْثَى بَحَرُوا أَذْنَهَا - أَيِ شَقَوْهَا - وَكَانَتْ حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ^٢؛ لَحْمَهَا وَلَبَنُهَا، فَإِذَا مَاتَتْ حَلَّتْ لِلنَّسَاءِ.

والسائبة: البعير يُسَيَّبُ بَنَدَرٍ يكون على الرَّجُلِ إِنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ بَلَغَ مَنْزِلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. والوصيلة: مِنَ الْغَنَمِ، كَانُوا إِذَا وَلَدَتْ الشاة سَبْعَةً أَبْطُنَ، فَإِذَا كَانَ السَّابِعُ ذَكَرًا ذُبِحَ وَأَكِلَ مِنْهُ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ، [وَأِنْ كَانَتْ أُنْثَى تَرَكْتَ فِي الْغَنَمِ] وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا فَلَمْ تُذْبَحْ، وَكَانَ لَحْمُهَا^٣ حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَجِلَّ أَكْلُهَا لِلرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

والحام: الْفَحْلُ إِذَا رُكِبَ وَلَدَ وَلَدَهُ قَالُوا: قَدْ حُمِيَ ظَهْرُهُ. ويُرْوَى أَنَّ الْحَامَ هُوَ مِنَ الْإِبِلِ، إِذَا أَنْتَجَ عَشْرَةً أَبْطُنَ قَالُوا: قَدْ حُمِيَ ظَهْرُهُ، فَلَا يَرُكَّبُ وَلَا يُنَمَعُ مِنْ كَلَا وَلَا مَاءٍ^٤.

قيل: إن عمر بن لُحَي الخُزَاعِي كان قد ملك مكة، وكان أول مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ، فَاتَّخَذَ الْأَصْنَامَ،

٢. زاد في المصدر: والرجال.

٤. معاني الأخبار: ١/١٤٨، تفسير الصافي ٢: ٩٢.

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٤٩.

٣. في المصدر: لحومها.

٤٤٤ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

ونصب الأوثان، وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقال النبي ﷺ: «ولقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه»^١. ويروى يجر قصبه في النار^٢.

وقال ابن عباس: قوله: «وَلِكُلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَتْوَرِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ» يريد عمر بن لحي وأصحابه، يقولون على الله هذه الأكاذيب والأباطيل في تحريم هذه الأنعام^٣.

وقيل: إن الرؤساء يفترون على الله الكذب، فأما الأتباع والعوام فهم المعتبرون بقوله: «وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^٤ أنه افتراء على الله حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ [١٠٤]

ثم تبه سبحانه على غاية قصور عقولهم، وإيهامهم في التقليد بقوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» على سبيل الارشاد والهداية «تَعَالَوْا إِلَى» قبول «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» من الكتاب المبين للحلال والحرام «وَإِلَى الرَّسُولِ» المبلغ عنه، حتى يتقوا على الحق «قَالُوا» عصياناً وعناداً: «حَسْبُنَا» وكفانا دليلاً على الحق «مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» من الاعتقاد والأعمال.

ثم ردهم الله بقوله: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» من الدين، «وَلَا يَهْتَدُونَ» إلى شيء من الحق والصواب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١٠٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان إيهامك كثير من الكفار في الضلال، وإصرارهم على الكفر، أمر المؤمنين بالثبات على الإيمان، والعمل بأحكام الإسلام، وعدم المبالاة بضلالة أهل الضلال بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» والتزموا بحفظها من الضلال والعصيان، واهتموا بتكميلها بحسن الأخلاق، ولا تغمتموا بانحراف الناس عن الحق، فإنه «لَا يَضُرُّكُمْ» بوجه من الوجوه «مَنْ ضَلَّ» عن الحق بضلالة «إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» بتوفيق الله إلى دينه ومرضاته.

عن الثمعي قال: أصلحو أنفسكم، ولا تتبعوا عورات الناس ولا تذكروهم، فإنه لا يضرهم ضلالتهم

١. القُصب: البعى، وجمعه أقصاب، وقيل: القُصب: اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن منها.

٢. تفسير الرازي ١٢: ١١٠.

٣ و ٢. تفسير الرازي ١٢: ١١٠.

إِذَا كُنتُمْ صَالِحِينَ^١.

عن (المجمع): أَنَّ أَبَا بَكْرٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ دُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَشَحَاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبِعاً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكُمْ بِخَوَاصِّهِ^٢ نَفْسِكُمْ^٣».

ثُمَّ وَعَدَ شُجْبَانَهُ وَأَوْعَدَ الْفَرِيقَيْنِ بِقَوْلِهِ: «إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ» «مَرْجِعُكُمْ» فِي الْقِيَامَةِ «جَمِيعاً» صَالِكُمْ وَمُتَّهِدِيكُمْ «فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ» فِي الدُّنْيَا «تَعْمَلُونَ» مِنَ الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ؛ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى حَسَبِ مَا تَسْتَحَقُّونَ.

عن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قِيلَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْجَزِيَّةَ وَلَمْ يَقْبَلِ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السَّيْفَ، عَيَّرَ الْمُتَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَبُولِ الْجَزِيَّةِ مِنْ بَعْضِ الْكُفَّارِ دُونَ بَعْضٍ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، أَيْ لَا يَضُرُّكُمْ مَلَامَةُ الْكَافِرِينَ، إِذَا كُنتُمْ عَلَى الْهَدْيِ^٤.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ لَمَّا أَشْتَدَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَقَاءُ الْكُفَّارِ فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ^٥.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ لَمَّا اعْتَمَّ الْمُؤْمِنُونَ لِعِشَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ، فَتُهَوَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ^٦.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نُشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَوْ حَقٌّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا أَعْتَدْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ [١٠٦ و ١٠٧]

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ شُجْبَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحِفْظِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعِصْيَانِ، أَرَدَفَهُ بِالْأَمْرِ بِحِفْظِ أَمْوَالِهِمْ مِنَ التَّلَفِ وَالضَّيَاعِ، وَتَعْلِيمِ طَرِيقَةِ بَقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ» وَعِنْدَ تَنَازُعِكُمْ «إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ» وَأَشْرَفَ عَلَيْهِ «حِينَ الْوَصِيَّةِ» هِيَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْهَا «أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ»

١. تفسير القمي ١: ١٨٨، تفسير الصافي ٢: ٩٤.

٢. خَوَاصُّهُ الْإِنْسَانُ: الَّذِي يَخْتَصُّ بِخِدْمَتِهِ، وَيَعْنِي عَلَيْكَ بِمَا يَنْصِلُ بِكَ مِنْ خِدْمَتِكَ وَمَوَالِكَ وَدَعِ مَا سِوَاهُمْ. وَتَطْلُقُ عَلَى حَادِثَةِ الْمَوْتِ الَّتِي تَخْصُ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَيَعْنِي عَلَيْكَ بِمَبَادِرَتِهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِهَا قَبْلَ وَفُوعِهَا.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٩٤.

٤. تفسير الرازي ١٢: ١١٢.

وَصَلَّاحٌ ﴿مِنْكُمْ﴾ وَمِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ، [سواء أ] كان الموصي في الحضر أو في السفر ﴿أَوْ﴾ رَجُلَانِ ﴿آخِرَانِ﴾ كَانَتَا ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وَمِمَّنْ خَالَفَكُم فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمَا ﴿إِنْ أَنتُمْ صَرَرْتُمْ﴾ وَسِرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ، وَسَافَرْتُمْ فِيهَا ﴿فَأَصَابَتْكُمُ﴾ وَنَالَتْكُمُ ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وَقَارَبَكُمْ الْأَجَلَ.

ثم كانه قيل: كيف يقيمَان الشهادة؟ فأجاب بقوله: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ وَتَصْبِرُونَهُمَا لِلتَّحْلِيلِ ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ لِتَغْلِيظِ الْيَمِينِ بِشَرَفِ الْوَقْتِ، كما روي عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ وَفَّقَنِي حَلْفَ مَنْ حَلَفَ»، ولأنه وقت اجتماع الناس فينقل على النفوس الأبية الكذب في مشهد الناس، فيستحلف حيثن الأخران ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ وَلَكِنْ هَذَا ﴿إِنْ أَزْتَبْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْوَرَاثُ فِيهَا بِخِيَانَةٍ فِي التَّرِكَةِ.

ثم يقولون بعد الشهادة والقسم: إِنَّا ﴿لَا تَشْتَرِي﴾ بِالْقَسَمِ، أَوْ بِاللَّهِ وَلَا تَطْلُبُ ﴿بِهِ﴾ لَأَنْفُسِنَا ﴿ثَمَنًا﴾ وَعِوَضًا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا ﴿وَلَوْ كَانَتْ﴾ الْمُقَسَّمُ لَهُ وَهُوَ الْمَيِّتُ ﴿ذَا قُوتِي﴾ وَتُصَلَّى بِالرَّحْمِ ﴿وَلَا تَكْتُمُ﴾ شَهَادَةَ اللَّهِ، التي أمرنا الله بها وبحفظها، ونهانا عن كتمانها وتضييعها، فَإِنْ كَتَمْنَاهَا أَوْ ضَيَعْنَاهَا ﴿إِنَّا إِذَا﴾ بِاللَّهِ ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ وَالْعَاصِينَ.

روي من طريق العامة أَنَّ تَمِيمَ بْنَ أَوْسٍ الدَّارِي وَعَدِيَّ بْنَ زَيْدٍ خَرَجَا إِلَى الشَّامِ لِلتَّجَارَةِ، وَكَانَا حَيْثُ نَصْرَانِيَيْنِ، وَمَعَهُمَا بُدَيْلُ بْنُ أَبِي مَرِيمَ^٢ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَكَانَ مُسْلِمًا مُهَاجِرًا، فَلَمَّا قَدَمَا إِلَى الشَّامِ مَرَضَ بُدَيْلٌ، فَكَتَبَ كِتَابًا فِيهِ أَسْمَاءُ جَمِيعِ مَا مَعَهُ وَطَرَحَهُ فِي دَرَجِ الثَّيَابِ، وَلَمْ يُخْبِرْهُمَا بِذَلِكَ، وَأَوْصَى إِلَيْهِمَا بِأَنْ يَدْفَعَا مَتَاعَهُ إِلَى أَهْلِهِ فَمَاتَ، فَفَتَّشَاهُ فَوَجَدَا فِيهِ إِثْمًا مِنْ فِضَّةٍ وَزَنَهُ ثَلَاثُمِائَةَ مِثْقَالٍ مَقْشُوشًا بِالذَّهَبِ، فَغَيَّاهُ وَدَفَعَا الْمَتَاعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَأَصَابُوا فِيهِ الْكِتَابَ فَقَالُوا لَهُمَا: هَلْ بَاعَ صَاحِبُكُمَا شَيْئًا مِنْ مَتَاعِهِ؟ قَالَا: لَا، قَالُوا: فَهَلْ طَالَ مَرَضُهُ فَأَنْفَقَ شَيْئًا عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَا: لَا، إِنَّمَا مَرَضَ حِينَ قَدِمَ الْبَلَدَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ. قَالُوا: فَإِنَّا وَجَدْنَا فِي مَتَاعِهِ صَحِيفَةً فِيهَا تَسْمِيَةُ مَتَاعِهِ، وَفِيهَا إِثْمٌ مَقْشُوشٌ مَوْهٍ بِالذَّهَبِ وَزَنَهُ ثَلَاثُمِائَةَ مِثْقَالٍ. قَالَا: مَا نَدْرِي، إِنَّمَا أَوْصَى إِلَيْنَا بِشَيْءٍ وَأَمَرَنَا أَنْ نَدْفَعَهُ إِلَيْكُمْ فَفَعَلْنَا، وَمَا لَنَا بِالْإِثْمِ مِنْ عِلْمٍ. فَرَفَعُوهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَاسْتَحْلِفْهُمَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ عِنْدَ الْمِثْبَرِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَنَّهُمَا لَمْ يَخُونَا شَيْئًا مِمَّا دَفَعَ، وَلَا كَتَمَا، فَحَلَفَا عَلَى ذَلِكَ، فَخَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبِيلَهُمَا.

ثم أَنَّهُ وَجَدَ الْإِثْمَ فِي مَكَّةَ، فَقَالَ مَنْ بِيَدِهِ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ - وَقِيلَ: لَمَّا طَالَتِ الْمُدَّةُ أَظْهَرَاهُ -

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٥.

٢. كذا في النسخة وروح البيان أيضاً، لكن في اسد الغابة ١: ١٦٩ بدیل بن ماریة.

فَبَلَغَ ذَلِكَ بَنِي سَهْمٍ^١ أَوْلِيَاءَ بَدِيلٍ، فَطَلَبُوهُ مِنْهُمَا، فَقَالَا: كُنَّا أَشْتَرَيْنَاهُ مِنْ بَدِيلٍ، فَقَالُوا: أَلَمْ نَقُلْ لَكُمَا: هَلْ بَاعَ صَاحِبُنَا مِنْ مَتَاعِهِ شَيْئًا؟ فَقُلْتُمَا: لَا. قَالَا: مَا كَانَ لَنَا بَيْتَةٌ، فَكْرَهْنَا أَنْ نَقْرَبَهُ، فَرَفَعُوهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عَثِرَ﴾ الْآيَةُ^٢.

وعن (الكافي)، مرفوعاً: «خَرَجَ تَمِيمُ الدَّارِيِّ وَابْنُ بَيْدِي وَابْنُ أَبِي مَارِيَةَ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيِّ مُسْلِمًا وَابْنُ بَيْدِي وَابْنُ أَبِي مَارِيَةَ نَضْرَانِيَيْنِ، وَكَانَ مَعَ تَمِيمِ الدَّارِيِّ خُزْجٌ لَهُ فِيهِ مَتَاعٌ وَأَنْيَةٌ مَتَّقُوشَةٌ بِالذَّهَبِ وَقِلَادَةٌ أَخْرَجَهَا إِلَى أَسْوَاقِ بَعْضِ الْعَرَبِ لِلْبَيْعِ، فَاعْتَلَّ تَمِيمُ الدَّارِيُّ عِلَّةً شَدِيدَةً، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ دَفَعَ مَا كَانَ مَعَهُ إِلَى ابْنِ بَيْدِي وَابْنِ أَبِي مَارِيَةَ، وَأَمْرَهُمَا أَنْ يُوصِلَاهُ إِلَى وَرَثَتِهِ، فَقَدِمَا الْمَدِينَةَ، وَقَدْ أَخَذَا مِنَ الْمَتَاعِ الْآنِيَةِ وَالْقِلَادَةَ، وَأَوْصَلَا سَائِرَ ذَلِكَ إِلَى وَرَثَتِهِ، فَافْتَقَدَ الْقَوْمُ الْآنِيَةَ وَالْقِلَادَةَ، فَقَالَ أَهْلُ تَمِيمٍ [لَهُمَا]: هَلْ مَرِضَ صَاحِبُنَا مَرَضًا طَوِيلًا أَنْفَقَ فِيهِ نَقْعَةً كَثِيرَةً؟ فَقَالَا: لَا، مَا مَرِضَ إِلَّا أَبَاطًا قَلِيلًا. قَالُوا: فَهَلْ شَرِقَ مِنْهُ شَيْءٌ فِي سَفَرِهِ هَذَا؟ قَالَا: لَا، قَالُوا: فَهَلْ اتَّجَرَ تِجَارَةً خَيْرَ فِيهَا؟ قَالَا: لَا، قَالُوا: [فَقَدْ] أَفْتَقَدْنَا أَفْضَلَ شَيْءٍ كَانَ مَعَهُ: أَنْيَةٌ مَتَّقُوشَةٌ مُكَلَّلَةٌ بِالْجَوْهَرِ، وَقِلَادَةٌ؟ فَقَالَا: مَا دَفَعَ إِلَيْنَا فَقَدْ أَذِنَا إِلَى الْيَكْمِ، فَقَدَّمُوهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمَا الْيَمِينَ فَحَلَفَا، فَخَلَا عَنْهُمَا»^٣.

عن الصادق عليه السلام، في تفسير الآية: «الَّذَانِ مِنْكُم مُّسْلِمَانِ، وَالَّذَانِ مِنْ غَيْرِكُم [مِنْ] أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَمِنْ الْمَجُوسِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَنَّ فِي الْمَجُوسِ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْجَزِيَةِ، وَذَلِكَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ فَلَمْ يَجِدْ مُسْلِمِينَ، أَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُحِبَّسَانِ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَيُقَسَّمَانِ بِاللَّهِ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ، إِنَّا إِذَا لَمَنْ الْأَثَمِينَ. قَالَ: وَذَلِكَ إِنْ أَرْتَابَ وَلِيَّ الْمَيِّتِ»^٤.

﴿فَإِنْ عَثِرَ﴾ وَأُطْلِعَ بَعْدَ خَلْفِ الْوَصِيِّينَ «عَلَى أَثْمَانِهِمَا» بِشَهَادَتِهِمَا بِالْبَاطِلِ، وَحِثَّهُمَا فِي الْيَمِينِ بِالْكَذِبِ فِي الْقَوْلِ أَوْ الْخِيَانَةِ فِي الْمَالِ «أَسْتَحَقَّ إِثْمًا» وَارْتَكَبَا ذَنْبًا، فَلَا يَنْقُضُ الْحَاكِمُ شَهَادَتَهُمَا لِاحْتِمَالِ شِرَانِهِمَا الْمَالِ مِنَ الْمَيِّتِ، فَإِنْ ادَّعِيَاهُ وَأَنْكَرَ الْوَارِثُ «فَأَخْرَانِ» يَجِئَانِ بَعْدَ ظُلْمِ الشَّاهِدَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، وَ«يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا» فِي الْحَبْسِ إِلَى بَعْدِ الصَّلَاةِ وَالْحَلْفِ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْآخِرَانِ «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» الْحَلْفُ.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٤.

٤. في الكافي: الصلاة.

١. في تفسير روح البيان: بني سهم.

٣. الكافي ٧: ٧/٥، تفسير الصافي ٢: ٩٥.

٥. الكافي ٧: ٦/٤، تفسير الصافي ٢: ٩٥.

ثم كآئه قيل: من الذين استحق الكيآيان المدعيان للشراء عليهم الحلف؟ قيل: هما ﴿الْأَوْلِيَانِ﴾ بالميت والأقربان إليه ﴿فَيَقْسِمَانِ﴾ كلا الآخرين ﴿بِأَفٍّ لِّشَهَادَتِنَا﴾ وحلفنا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقتول وأولى ﴿مِنْ﴾ حلف الكيآيين و ﴿شَهَادَتُهُمَا﴾ مع كونها كاذبة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا في شهادتنا، وما ظلمنا على الكيآيين بإبطال حقهما ﴿إِنَّا إِذَا لَمَوْا الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسنا بتعريضها لسخط الله بهتك حرمة اسمه المبارك، أو لمن الواضعين للحق في غير موضعه.

فتحصل من الآيتين الشريفتين أن من أشرف على الموت ينبغي أن يوصي ويشهد على وصيته شاهدين عدلين من أهل الإيمان، فإن لم يوجد بأن كان في سفر فيشهد رجلين من أهل الكتاب عدلين في دينهما، فإن أرتاب الوارث فيهما يؤمران بأن يحلفا بعد صلاة العصر أنهما ما كتما الشهادة وما خانا في التركة شيئاً، فإن أطلع على كذبهما في الشهادة أو خيانتهم في التركة بأن ظهر بأيديهما شيء منها، وأدعى أن الميت ملكهما إياه، وأنكره الورثة، حلف اثنان منهم وعمل بحلفهما.

رؤي أن رسول الله ﷺ بعد نزول: ﴿فَإِنْ عَثِرَ﴾ إلى آخر الآية أمر أولياء تميم الداري أن يحلفوا بالله على ما أمرهم به فحلفوا، فأخذ رسول الله ﷺ القلادة والآنية من ابن بيدي وأبن أبي مارية ورددتهما إلى أولياء تميم الداري^١.

وفي رواية بعض العامة: كان تميم الداري يقول بعدما أسلم: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله^٢.

وعن ابن عباس ؓ: أنه بقيت تلك الواقعة مخفية إلى أن أسلم تميم الداري، فلما أسلم أخبر بذلك وقال: حلفت كاذباً، وأنا وصاحبي بعنا الإناء بألف وقسمنا الثمن، ثم دفع خمسمائة درهم من نفسه، ونزع من صاحبه خمسمائة أخرى ودفع الألف إلى موالي الميت^٣.

قيل اتفق العلماء على أن هذه الآية أشكل ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً^٤.

ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَحَاثُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [١٠٨]

ثم بين سبحانه حكمة تشريع هذه الكيفية من الشهادة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي ذكرناه، والطريق الذي شرعناه ﴿أَذْنَى﴾ وأقرب إلى ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ وأن يؤدبها الشهود ﴿وَعَلَى

وَجِهَهَا. وَنَحْوَهُ الَّذِي تَحْمَلُوهَا عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَخِيَانَةٍ، مِنْ جِهَةٍ أَنَّ الشُّهُودَ إِذَا أَنْ يَخَافُوا بِسَبَبِ الْحَلْفِ وَالتَّغْلِيزِ فِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ مِنْ «أَنْ تُرَدَّ» مِنْ قِبَلِ الْحَاكِمِ «أَيَّمَانٌ» عَلَى الْوَرْتَةِ، فَيَحْلِفُوا عَلَى خِيَانَةِ الشُّهُودِ «بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» فَيَفْتَضَحُوا بِإِطَالِ أَيْمَانِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ وَالْعَمَلِ بِأَيْمَانِ الْوَرْتَةِ، فَأَيُّ الْخَوَافِينَ حَصَلَ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَهُوَ الْإِتْيَانُ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا.

ثُمَّ حَتَّى اللَّهُ شَبَّحَانَهُ النَّاسُ عَلَى الْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ، وَحَفِظَ الْأَمَانَاتَ وَرَدَّهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ فِي شَهَادَاتِكُمْ مِنْ أَنْ تَحْرِفُوهَا، وَفِي أَيْمَانِكُمْ مِنْ أَنْ تُكَذِّبُوهَا فِيهَا، وَفِي أَمَانَاتِكُمْ مِنْ أَنْ تَخُونُوهَا، وَفِي أَحْكَامِ دِينِكُمْ مِنْ أَنْ تُخَالِفُوهَا ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ مَوَاعِظَ اللَّهِ سَمْعَ طَاعَةٍ وَقَبُولَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿وَالَّذِي لَا يَهْدِي﴾ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَلَا يُوفِّقُ لِعَمَلِ الْخَيْرِ «الْقَوْمُ الْفَاسِقِينَ» وَالْفَرِيقَ الْخَارِجِينَ عَنْ حُدُودِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ

الْغُيُوبِ [١٠٩]

فِي بَيَانِ بَعْضِ أحوالِ الْقِيَامَةِ
ثُمَّ لَمَّا كَانَ دَأْبُهُ شَبَّحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْغَزِيرِ بَعْدَ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ إِذَا بَيَانِ
مِقْدَارٍ مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ تَنْشِيطاً لِلْقُلُوبِ، أَوْ شَرَحَ قِصَّةً مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمِهِمْ
أَعْتِبَاراً وَمَوْعِظَةً لِلنَّاسِ وَبَعَثَ لَهُمْ إِلَى امْتِنَالِ الْأَحْكَامِ، أَوْ ذَكَرَ أحوالِ الْقِيَامَةِ رَدْعاً لَهُمْ
عَنْ مُخَالَفَتِهَا، أَرَدَفَ الْأَحْكَامَ الْمَذْكُورَةَ بِذِكْرِ أحوالِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ وَأَمَمِهِمْ
فِيهِ، أَذْكُرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَقُولُ﴾ لَهُمْ تَوْبِيخاً لِأَمَمِهِمْ: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ مِنْ قِبَلِ
أَمَمِكُمْ حِينَ دَعَوْتَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِي وَطَاعَةِ أَحْكَامِي؟ أَكَانَتْ إِجَابَتُهُمْ إِجَابَةً إِقْرَارَ وَتَسْلِيمَ، أَمْ إِجَابَةً
إِنْكَارَ وَجُحُودَ؟ ﴿قَالُوا﴾ تَشْكِيّاً مِنْ أَمَمِهِمْ: رَبَّنَا «لَا عِلْمَ لَنَا» بِمَا أَنْتَ تَعْلَمُ مِنْ ضَمَانِهِمْ وَبِوَاطِنِ
قُلُوبِهِمْ «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ إِلَّا مَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْجُحُودِ وَالْعِصْيَانِ.

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: إِنَّ عِلْمَكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَعِلْمُنَا فِي جَنْبِ عِلْمِكَ كَالْمَعْدُومِ، فَتَعْلَمُ مَا ابْتَلَيْنَا
مِنْ قِيْلِهِمْ، وَكَابَدْنَا مِنْ سُوءِ إِجَابَتِهِمْ، فَتَلَجَّيْ إِلَيْكَ فِي الْإِتِّقَامِ مِنْهُمْ^١.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ وَذَلِكَ عِنْدَ زَفَرَةِ جَهَنَّمَ
وَجُئُوا الْأَمَمَ عَلَى رُكْبِهِمْ، لَا يَبْقَى مَلِكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا قَالَ: نَفْسِي نَفْسِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ

القلوب من أماكنها، فيقول الرُّسُل من شِدَّةِ هَوْلِ المسألة وهَوْلِ المَوطن: لا علم لنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الغُيوب، ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ عَقُولَهُمْ، فيشْهَدُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا الرُّسَالَ، وَأَنْ قَوْمَهُمْ كَيْفَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ^١.

وفي (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «يقولون: لا علم لنا ببيوأك».

وقال: «القرآن كله تَفْرِيع، وباطنه تَقْرِيب»^٢.

وفي (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «أُلْ لهذا تأويلًا، يقول: ماذا أَجَبْتُمْ في أوصيائكم الَّذِينَ خَلَقْتُمُوهُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ؟ فيقولون: لا علم لنا بما فعلوا مِن بَعْدِنَا»^٣ الخبر.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُبْدِئُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِجِينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرُسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنْ

الشَّاهِدِينَ [١١٠-١١٣]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ فِي أَوَانِلِ السُّورَةِ سُوءَ اعْتِقَادِ النَّصَارَى فِي حَقِّ عِيسَى وَآمِهِ، وَكَانُوا أَحَقَّ الْأُمَمِ بِالْتَّوْبِخِ حَيْثُ إِنَّهُمْ تَعَدَّوْا مِنْ إِسَاءَةِ الْأَدَبِ بِسَاحَةِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي كَانَتْ لِسَانِ الْأُمَمِ إِلَى إِسَاءَةِ الْأَدَبِ بِسَاحَةِ جَلَالِ اللَّهِ وَكِبَرِيَانِهِ بِقَوْلِهِمْ بِحُلُولِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِيسَى، أَوْ أَنَّهُ ابْنُهُ، شَرَعَ فِي إِثْبَاتِ عُبُودِيَّةِ عِيسَى بِخُضْرَةِ الرُّسُلِ فِي الْيَمَامَةِ، أَوَّلًا بِإِظْهَارِ الْمَنَّةِ عَلَيْهِ بِنِعْمَتِهِ بِقَوْلِهِ: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ» مَرْيَمَ. وَفِي ذِكْرِ وَالدَةِ تَفْرِيعٌ عَلَى مَنْ تَكَلَّمَ فِي نَسَبِهِ بِمَا تَكَلَّمَ، وَعَلَى مَنْ ادَّعَى آلُوهُيَّتَهُ مَعَ كَوْنِهِ مُتَوَلِّدًا مِنْ أُمِّ.

٢. معاني الأخبار: ١/٢٣٢، تفسير الصافي: ٢: ٩٧.

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٨.

٣. الكافي ٨: ٥٣٨/٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٩٧.

ثُمَّ شَرَعَ فِي تَعْدَادِ نِعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ بِالْأَصَالَةِ وَعَلَى أُمِّهِ بِالتَّبَعِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَتَيْدُكَ﴾ وَأَعْتَنَكَ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَوَاسِطَةِ إِفَاضَةِ الْعُلُومِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ، وَلِذَا كُنْتَ ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ، حَالِ كَوْنِكَ طِفْلاً كَانَتْ ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ وَفِي جِجَرَ أُمِّكَ ﴿وَوَ﴾ كَوْنِكَ ﴿كَهْلاً﴾ مِنْ غَيْرِ تَغَاوُتٍ فِي كَلَامِكَ بَيْنَ الْوَقْتَيْنِ وَالْحَالَتَيْنِ ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ السَّمَاوِيَّ كُلَّهُ، أَوِ الْكِتَابَةَ وَالْحَطَّ^١ - كَمَا قِيلَ^٢ - ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الَّذِينَ هُمَا أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَالْهَمَّتُكَ الْأَسْرَارُ الْمُودَعَةُ فِيهِمَا ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ وَتُسَوِّي ﴿مِنَ الطِّينِ﴾ هَيْئَتَهُ ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ وَالْخَفَافِشِ ﴿بِإِذْنِي﴾ وَإِقْدَارِي وَتَعْلِيمِي ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ بَعْدَ تَصْوِيرِهَا ﴿فَتَكُونُ﴾ تِلْكَ الْهَيْئَةُ طَيْراً كَسَانِرِ الطُّيُورِ ﴿بِإِذْنِي﴾ وَإِيجَادِي.

رَوَى أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا مِنْهُ ﷺ عَلَى وَجْهِ التَّعَتُّتِ، فَقَالُوا لَهُ: اخْلُقْ لَنَا خَفَاشاً، وَاجْعَلْ فِيهِ رُوحاً إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فِي مَقَالِكَ، فَأَخَذَ طِيناً وَجَعَلَ مِنْهُ خَفَاشاً، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ فَإِذَا هُوَ يَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. نَسِيَ ذِكْرَ عَجَابِ الخَفَاشِ قِيلَ: إِنَّمَا طَلَبُوا مِنْهُ خَلْقَ الْخَفَاشِ لِأَنَّهُ أَعْجَبُ مِنْ سَائِرِ الْخَلْقِ، وَمِنْ عَجَابِهِ أَنَّهُ لَحْمٌ وَدَمٌ يَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ، وَيَلِدُ كَمَا يَلِدُ الْحَيَّوانُ وَلَا يَبْيِضُ كَمَا يَبْيِضُ سَائِرُ الطُّيُورِ، وَلَهُ صَرْعٌ يَجْرِي مِنْهُ اللَّبَنُ، وَلَا يُبْصِرُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ وَلَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا يَرَى فِي سَاعَتَيْنِ، بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ سَاعَةً، وَبَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ سَاعَةً قَبْلَ أَنْ يُسْفِرَ جِداً، وَيَضْحَكُ كَمَا يَضْحَكُ الْإِنْسَانُ، وَيَحِيضُ كَمَا تَحِيضُ الْمَرْأَةُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ مِنْهُ ضَحِكُوا وَقَالُوا: هَذَا سِحْرٌ^٣.

﴿وَتُبَيِّرُ الْأَكْمَةَ﴾ وَالْأَعْمَى الْخَلْقِي ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ مَعَ عَجَزِ جَمِيعِ الْأَطْبَاءِ عَنْ إِبْرَانِهِمَا وَعِلَاجِهِمَا ﴿بِإِذْنِي﴾ وَاجَابَتِي لِدَعَانِكَ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ إِحْيَانِهِمْ فِيهَا ﴿بِإِذْنِي﴾ وَإِذْ كَفَفْتَ^٤ وَمَنْعْتَ ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ وَعَنْ التَّعَرُّضِ لَكَ ﴿إِذْ جَسَّتْهُمْ بَالَيْتَاتٌ﴾ وَأَتَيْتَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَقَصَدُوكَ بِالسُّوءِ، وَعَارِضُوكَ بِالْجُحُودِ ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ وَجَحَدُوا بِتُوبَتِكَ: مَا هَذَا بِإِعْجَازِ بَلٍ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَشَعْبَةٌ ظَاهِرَةٌ.

﴿وَوَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ وَالْقِيَتْ فِي قُلُوبِهِمْ حِينَ دَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ بِى وَبِرَسُولِي، قَدْ مَرَّ ذِكْرُ عَدَدِ الْحَوَارِيِّينَ، وَوَجْهٌ تَسْمِيَتُهُمْ بِهَذَا الْاسْمِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ^٥. فَهُمْ بَعْدَ الْقَاءِ اللَّهِ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴿قَالُوا﴾: يَا عِيسَى ﴿آمَنَّا﴾ بِاللَّهِ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَأَشْهَدُ﴾ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ لَهُ، مُتَقَادُونَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ مُخَاطَبِينَ لَكَ ﴿يَا

١. فِي تَفْسِيرِ الرَّازِي: وَهِيَ الْخَطُّ.

٢. تَفْسِيرِ الرَّازِي ١٢: ١٢٥.

٣. تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ٤٦٠.

٤. تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٥٢) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

عيسى ابن مريم.

قيل: كان ذلك منهم في بذو أمرهم وحال عدم استحكام معرفتهم بالله ويقينهم برسالة عيسى، ولذا أساءوا الأدب بخطابه باسمه ونسبته إلى أمه، وكان حقهم أن يقولوا: يا رسول الله، ويا زوج الله.^١
«هَلْ يَسْتَطِيعُ» ويقدر **«رَبُّكَ»** على **«أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً»** ويخواناً^٢ عليه الطعام **«مِنْ السَّمَاءِ»** قيل: إن المراد: هل جازز في حكمة الله إنزال المائدة من السماء؟ وهل يعطيك ربك إن تسأله ذلك؟^٣

أقول: هذان التوجيهان ثافيان لما حكاه الله عن عيسى عليه السلام في جوابهم بقوله: **«قَالَ عيسى: أَتَقُولُوا اللَّهُ»** من أمثال هذا السؤال الكاشف عن شككم في قدرته **«إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»** بكمال قدرته وموقنين به **«قَالُوا»** لعيسى اعتذاراً: إنه ما دعانا إلى هذا السؤال الشك في قدرته تعالى، بل إنا **«نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا»** للاستشفاء من أمراضنا على قول، أو لسد الرمق على قول آخر، حيث قيل: إن السؤال كان في زمن المجاعة^٤.

«وَتَطْمَئِنَّ» بمشاهدتها **«قُلُوبُنَا»** ويتفوى علمنا الاستبدالي بالعلم الشهودي **«وَنَعْلَمَ»** بعين اليقين **«أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا»** في ادعاء الرسالة، لكون هذه المعجزة آية الأدلة عليه **«وَنَكُونُ عَلَيْهِ»** عند أهل العالم **«مِنَ الشَّاهِدِينَ»** حتى يزداد المؤمنون برسالتك إيماناً، ويؤمن الكافرون بك باطلاعهم عليها.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآزْوَاقُنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ [١١٤ و ١١٥]

نفسية نزول المائدة فلما أظهروا أغراضاً ظاهرة الصّحة لسؤالهم **«قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»** متضرعاً إلى الله: **«اللَّهُمَّ رَبَّنَا»** اللطيف بنا، المكمل لقوسنا **«أَنْزِلْ عَلَيْنَا»** بخودك وتفضلك **«مَائِدَةً»** ويخواناً من الطعام **«مِنَ السَّمَاءِ»** كي **«تَكُونُ لَنَا»** تلك المائدة ويوم نزولها **«عِيداً»** وشروراً، ويوم شروق **«لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا»** وسابقنا ولاحقنا إلى يوم القيامة **«وَمَنْ يَكُونُ**

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٦٢.

٢. الخوان: ما يؤكل عليه.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٦٢.

٣. تفسير الرازي ١٢: ١٢٩.

﴿آيَةٌ﴾ ودلالة ﴿مِنْكَ﴾ على كمال قدرتك، وصحّة ثبوتيّ ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها، فإنك خير المسؤولين ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تخلّق الرزق وتُعطيهِ بلا منٍّ ولا عَوْض.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ بطريق الوحي لعيسى، إجابةً لمسئوله من إنزال المائدة: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ومُجِيب لسؤلכם ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ بتوحيدي ورسالة رُسولي ﴿بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ يا بني إسرائيل مع مشاهدة الآية العظيمة الباهرة ﴿فَأَنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ بسبب إصراره على الكفر، وتمرّنه في الضلال ﴿عَذَابًا﴾ شديداً ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ ولا أبْتلي بمثله ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

في (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ عِيسَى عليه السلام قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: صُومُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا، ثُمَّ أَشْأَلُوا اللَّهَ مَا سِئْتُمْ يُعْطِيكُمْوه، فصاموا ثلاثين [يوماً]، فلَمَّا فَرَّغُوا قَالُوا: [يَا عِيسَى] إِنَّا لَوِ عَمِلْنَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَقَضَيْنَا عَمَلَهُ لِأَطْعَمْنَا طَعَامًا، وَإِنَّا صُمْنَا وَجَعْنَا، فَادَّعَى اللَّهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَقْبَلْتُ الْمَلَائِكَةُ بِمَائِدَةٍ يَحْمِلُونَهَا، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَرْغَافَةٍ، وَسَبْعَةُ أَحْوَاتٍ^١ حَتَّى وَضَعْتُهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَأَكَلَ مِنْهَا آخِرُ النَّاسِ كَمَا أَكَلَ أَوَّلُهُمْ»^٢.

وعن عمار بن ياسر، عن النبي صلى الله عليه وآله [قال]: «نَزَلَتِ الْمَائِدَةُ خُبْرًا وَلَحْمًا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عِيسَى طَعَامًا لَا يَنْفَدُ يَأْكُلُونِ مِنْهُ» قال: «فَقِيلَ لَهُمْ: فَإِنَّهَا مَقِيمةٌ لَكُمْ مَا لَمْ تَخُونُوا وَتُخْبَأُوا وَتَرْفَعُوا، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ عَذَّبْتُمْ» قال: «فَمَا مَضَى يَوْمُهُمْ حَتَّى خَبَأُوا وَتَرْفَعُوا وَخَانُوا»^٣.

وعن سلمان الفارسي عليه السلام، قال: والله، ما تبع عيسى شيئاً من المساوئ قط، ولا انتهر يتيماً، ولا قَهَقَه ضِحْكاً، ولا ذَبَّ ذُبَاباً عَنْ وَجْهِهِ، ولا أَخَذَ عَلَى أَنْفِهِ مِنْ ثَنٍّ شَيْءٍ قط، ولا عَبَثَ قط.

ولمَّا سَأَلَهُ الْخَوَارِيُّونَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَائِدَةُ لَيْسَ صَوْفاً وَيَكُونُ وقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، فنزلت شفرة حمراء بين غَمَامَتَيْنِ وَهُنَّ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَهْوِي مُنْقَضَةً حَتَّى سَقَطَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَبَكَى عِيسَى عليه السلام وقال: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الشَّاكِرِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً وَلَا تَجْعَلْهَا مِثْلَةَ وَعُقُوبَةٍ. وَالْيَهُودُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، يَنْظُرُونَ إِلَى شَيْءٍ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قط، وَلَمْ يَجِدُوا رِيحاً أَطْيَبَ مِنْ رِيحِهِ.

فقام عيسى عليه السلام فتوضاً وصَلَّى صَلَاةً طَوِيلَةً، ثُمَّ كَشَفَ الْمِنْدِيلَ عَنْهَا وقال: بِسْمِ اللَّهِ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. فَإِذَا هُوَ سَمَكَةٌ مَشْوِيَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فُلُوسُهَا، تَسِيلُ سَيْلًا مِنَ الدَّسَمِ، وَعِنْدَ رَأْسِهَا [مِلْح] وَعِنْدَ ذَنْبِهَا خَلٌّ، وَحَوْلَهَا أَنْوَاعُ الْبَقُولِ مَا عَدَا الْكَرَاثَ، وَإِذَا خَمْسَةُ أَرْغَافَةٍ: عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا زَيْتُونٌ، وَعَلَى الثَّانِي عَسَلٌ،

١. في النسخة: خوان، تصحيف، صوابه من مجمع البيان، والأحوات: جمع حوت.

٢ و ٣. مجمع البيان ٣: ٤١٠، تفسير الصافي ٢: ٩٨. ٤. في النسخة: ولا انتهر شيئاً.

وعلى الثالث سَمْنٌ، وعلى الرابع جُبْنٌ، وعلى الخامس قَدِيدٌ، فقال سَمْعُونُ: يا رُوحَ الله آمين طَعَامُ الدُّنْيَا هَذَا أَمْ مِنْ طَعَامِ الآخِرَةِ؟ فقال عيسى: لَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ طَعَامِ الدُّنْيَا، وَلَا مِنْ طَعَامِ الآخِرَةِ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ افْتَعَلَهُ اللهُ بِالْقُدْرَةِ الْغَالِبَةِ، كُلُوا مَا سَأَلْتُمْ، يَمْدِدْكُمْ وَيَرْزُقْكُمْ^١ مِنْ فَضْلِهِ.

فقال الحواريون: يا رُوحَ الله، لو أَرَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْيَوْمَ آيَةً أُخْرَى؟ فقال عيسى ﷺ: يا سَمَكَةَ، اخْبِي بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، فَاضْطَرَبَتِ السَّمَكَةُ وَعَادَ عَلَيْهَا قُلُوسُهَا وَشَوَّكُهَا فَفَرَّقُوا مِنْهَا، فقال [عيسى]: مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَشْيَاءَ إِذَا أُعْطِيتُمُوهَا كَرِهْتُمُوهَا! مَا أَخُوْنِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا^٢ يا سَمَكَةَ، عُوْدِي كَمَا كُنْتَ بِإِذْنِ اللهِ، فَعَادَتْ السَّمَكَةُ مِثْلَ الْيَوْمِ كَمَا كَانَتْ، فقالوا: يا رُوحَ الله، كُنْ أَوَّلَ مَنْ يَأْكُلُ مِنْهَا ثُمَّ نَأْكُلُ نَحْنُ، فقال عيسى: مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَكُلَ مِنْهَا، وَلَكِنْ يَأْكُلُ مِنْهَا مَنْ سَأَلَهَا، فَخَافُوا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا، فَدَعَا أَهْلَ الْفَاقَةِ وَالزُّمَاءَ وَالرَّضَى وَالْمُبْتَليْنَ فقال: كُلُّوا مِنْهَا، وَلَكُمْ الْهَنَاءُ وَلِغَيْرِكُمُ الْبَلَاءُ، فَأَكَلَ مِنْهَا أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْ فَقِيرٍ وَمَرِيضٍ وَمُبْتَليٍّ، وَكُلَّهُمْ شَبِعَانِ يَتَجَشَّأُ^٣.

نسي ذكر مسخ أصحاب المائدة

ثُمَّ نَظَرَ عِيسَى إِلَى السَّمَكَةِ فَإِذَا هِيَ كَهَيْئَتِهَا حِينَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ طَارَتْ الْمَائِدَةُ صُعْدًا وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا حَتَّى تَوَارَتْ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَأْكُلْ يَوْمَئِذٍ مِنْهَا زَمِينٌ^٤ إِلَّا صَحَّ، وَلَا مَرِيضٌ إِلَّا بَرَّى، وَلَا فَقِيرٌ إِلَّا اسْتَفْنَى، وَلَمْ يَزَلْ غَنِيًّا حَتَّى مَاتَ، وَنِدِمَ الْحَوَارِيُّونَ وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا، وَكَانَتْ إِذَا نَزَلَتْ اجْتَمَعَتِ الْأَغْنِيَاءُ وَالْفُقَرَاءُ وَالصُّغَارُ وَالْكِبَارُ يَتَزَاخَمُونَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عِيسَى جَعَلَهَا نُزُوءَةً بَيْنَهُمْ، فَلَبِثَتْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا تَنْزِلُ ضَحَى، فَلَا تَزَالُ مَصْصُوبَةً يُؤْكَلُ مِنْهَا حَتَّى إِذَا فَاءَ الْفَيْئِ طَارَتْ صُعْدًا وَهُمْ يَنْظُرُونَ فِي ظِلِّهَا حَتَّى تَوَارَتْ عَنْهُمْ، وَكَانَتْ تَنْزِلُ غِيًّا يَوْمًا وَيَوْمًا.

فَأَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى ﷺ: اجْعَلْ مَائِدَتِي لِلْفُقَرَاءِ دُونَ الْأَغْنِيَاءِ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ حَتَّى شَكُّوا وَشَكَّكَوا النَّاسَ فِيهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى ﷺ: إِنِّي شَرَطْتُ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ شَرْطًا أُنْ مِنْ كَفَرٍ بَعْدَ نُزُولِهَا أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فقال عيسى ﷺ: إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَمَسَخَ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةَ وَثَلَاثَةَ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا، بَاثُوا لِيْلَتَهُمْ عَلَى فِرَاسِهِمْ مَعَ نِسَانِهِمْ فِي دِيَارِهِمْ، فَأَصْبَحُوا خَنَازِيرَ يَسْعَوْنَ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْكُنَاسَاتِ، وَيَأْكُلُونَ الْعَذِيرَةَ وَالْحُشُوشَ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ فَرَّعُوا إِلَى عِيسَى ﷺ وَبَكَوْا، وَبَكَى عَلَى الْمَمْسُوحِينَ أَهْلُهُمْ، فَعَاشُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ هَلَكُوا^٥.

وفي (المجمع): وفي تفسير أهل البيت ﷺ: «كَانَتِ الْمَائِدَةُ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا وَيَأْكُلُونَ

١. في المصدر: وَيَزِدْكُمْ. ٢. تَجَشَّاتُ الْمَعْدَةُ: تَنْفَسْتُ مِنْ امْتَلَاءٍ.

٣. الزَّمِينُ: الْمُبْتَليُّ بِمَرَضٍ مَزْمَنٍ طَالَتْ مَدَّتُهُ. ٤. مجمع البيان ٣: ٤١٠، تفسير الصافي ٢: ٩٨.

مِنْهَا ثُمَّ تَرْفَعُ، فَقَالَ كِبْرَاهُومُ وَمُتْرَفُوهُمْ: لَا نَدْعُ سَفَلَتَنَا يَأْكُلُونَ مِنْهَا، فَرَفَعَ اللَّهُ الْمَائِدَةَ بَيْنَهُمْ، وَمُسِخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرًا^١.

وعن العياشي: عن الباقر عليه السلام [قال]: «المائدة التي نزلت على بني إسرائيل كانت مدلاةً بسلايل من ذَهَبٍ، عليها تسعة أخونة^٢ وتسعة أرغفة»^٣.

وفي رواية: «تسعة ألوان أرغفة»^٤.

وفي (المجمع): عن الكاظم عليه السلام: «أنهم مسِخُوا خَنَازِيرًا»^٥.

وعن الرضا عليه السلام: «والجريت والضب فرقة من بني إسرائيل، حيث نزلت المائدة على عيسى بن مريم، لم يؤمنوا فتأهوا، فوقعت فرقة في البحر، وفرقة في البر»^٦.

وعن (الخصال): عن النبي صلى الله عليه وآله، في حديث المسوخات: «وأما الخنازير فقوم من النصارى سألوا ربهم إنزال المائدة عليهم، فلما نزلت عليهم كانوا أشد ما كانوا كُفْرًا وأشد تكذيبًا»^٧.

قيل: نزلت المائدة يوم الأحد، فاتخذها النصارى عيداً^٨.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [١١٦]

ثم بالغ سبحانه في تفريع النصارى على اتخاذ عيسى وأمه إلهين بحكاية خطابه في القيامة بما فيه تفريع منه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ في القيامة بمشهد من النصارى: ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

عن العياشي: عن الباقر عليه السلام: «لم يقل، وسيقول؛ لأن الله إذا علم شيئاً هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان»^٩.

وعن بعض المفسرين أنه تعالى خاطب عيسى حين رفعه إلى السماء بقوله: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ

١. مجمع البيان ٣: ٤١٢، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.

٢. الأخرقة. جمع خوان، وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، وفي نسخة من المصدر: أحوتة.

٣. تفسير العياشي ١٣٨٧/٨٥، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٣٨٩/٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.

٥. مجمع البيان ٣: ٤١٠، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.

٦. التهذيب ٩: ١٦٦/٣٩، تفسير الصافي ٢: ١٠١.

٧. الخصال: ٢/٤٩٤، تفسير الصافي ٢: ١٠١.

٨. تفسير الرازي ١٢: ١٣١.

٩. تفسير العياشي ٢: ١٣٩٢/٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٠١.

لِلنَّاسِ^١ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ﴾ وَمَعْبُودَيْنِ لَأَنْفُسِكُمْ ﴿مِنْ دُونِ آفَ﴾ وَفِي قِبَالِهِ، فَعَمِلَ الْقَائِلُونَ بِالْأَقَانِيمِ بِقَوْلِكَ، وَادَّعَوْا أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؟ ﴿قَالَ﴾ عَيْسَى خُضُوعاً وَتَوَاضَعاً: ﴿شُبْحَانِكَ﴾ وَأَنْزَهَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ شَرِيكَ فِي شَيْءٍ تَنْزِيهاً ﴿مَا يَكُونُ﴾ وَمَا يَنْبَغِي ﴿لِي﴾ مَعَ مَعْرِفَتِي وَتَمَحُّضِي فِي عِبُودِيَّتِكَ وَالْإِقْبَادِ لِأَمْرِكَ ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وَأَنْ أَدَّعِيَ لِنَفْسِي غَيْرَ الْعِبُودِيَّةِ.

ثُمَّ فَوَضَّ الصَّدْقَ وَالْكَذِبَ إِلَى عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ حِفْظاً لِلْأَدَبِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ وَتَفَوُّهُتْ بِهِ ﴿فَقَدْ عَلِمْتُهُ﴾ حَيْثُ إِنَّكَ بِحَاطَتِكَ بِي ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ أَخْفِي ﴿فِي نَفْسِي﴾ وَضَمِيرِي مِنْ الْمَعْلُومَاتِ ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا﴾ خَفِيَ ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ وَغَيْبِكَ مِنْ مَعْلُومَاتِكَ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ خَفِيَّاتِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا فِي نَفْسِهِ لِلْمُشَاكَلَةِ وَالْإِزْدِوَاجِ.

ثُمَّ أَكَّدَ سَعَةَ عِلْمِهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مِمَّا كَانَ وَمِمَّا يَكُونُ.

في ذكر عدد حروف عن العياشي: عن الباقر عليه السلام، في تفسيرها: «أَنَّ الْاسْمَ الْأَكْبَرَ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، الْاسْمُ الْأَعْظَمُ فَاحْتَجَبَ الرَّبُّ تَعَالَى بِحَرْفٍ، فَمِنْ ثَمَّ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا فِي نَفْسِهِ عَزَّ وَجَلَّ، أُعْطِيَ آدَمُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَرْفاً فَتَوَارَتْهَا الْأَنْبِيَاءُ حَتَّى صَارَتْ إِلَى عَيْسَى عليه السلام، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، يَعْنِي اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَرْفاً مِنَ الْاسْمِ الْأَكْبَرِ، يَقُولُ: أَنْتَ عَلِمْتَنِيهَا، فَأَنْتَ تَعْلَمُهَا ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، يَقُولُ: لِأَنَّكَ احْتَجَبْتَ مِنْ خَلْقِكَ بِذَلِكَ الْحَرْفِ، فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا فِي نَفْسِكَ»^٢.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ [١١٧]

ثُمَّ بَالِغٌ فِي تَنْزِيهِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْقَوْلِ الشَّنِيعِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ مِنْ قَبْلِي وَلَا مِنْ قِبَالِكَ قَوْلاً ﴿إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ مِنَ الْقَوْلِ الْحَقِّ. ثَمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الَّذِي يَكُونُ ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وَخَالَفَنِي وَخَالَفَكُمْ ﴿وَكُنْتُ﴾ بِحَسَبِ وَظِيفَةِ الرِّسَالَةِ ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ وَرَقِيباً ﴿مَا دُمْتُ﴾ مُقِيماً ﴿فِيهِمْ﴾ أَرَأَيْتُمْ أَحْوَالَهُمْ وَأَحْمَلَهُمْ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَمْنَعَهُمْ عَنِ الضَّلَالِ وَالْعَصْيَانِ، أَوْ كُنْتُ مُشَاهِداً لِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ وَقَطَعْتَ عِلَاقَتِي مِنَ الْأَرْضِ، وَرَفَعْتَنِي إِلَى

٢. تفسير العياشي ٢: ٨٧/١٣٩٤، تفسير الصافي ٢: ١٠١.

١. تفسير الرازي ١٢: ١٣٦.

السَّاءُ ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾ والحافظ المُتَّقِرُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الناظر في أحوالهم وأعمالهم.
ثم لأجل دفع توهم الاختصاص بين إحاطته بجميع الموجودات بقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾
من الأشياء وكل موجود من الموجودات ﴿شَهِيدٌ﴾ وراقيب، لا يخرج من سلطانك وتنفوذ إرادتك
شيء.

إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [١١٨]

ثم أنه ﷺ بعد تنزيه نفسه من الدَّخَلِ^١ في عقائدهم الفاسدة وأعمالهم السيئة، تبرأ من الدَّخَلِ في
مجازاتهم بالشَّفاعَةِ وغيرها بقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ على كفرهم وعصيانهم ﴿فَأِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ مَقْهُورُونَ
تحت قُدْرَتِكَ مملوكون لك لا تعاملهم إلا بالعدل ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وتغفو عن سيئاتهم ﴿فَأِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ﴾ الغالب في إرادتك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعالك لا تغفو إلا عمن هو أهل له.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١١٩]

ثم بين سبحانه نفع قول الحق والصديق إشعاراً بتصدق عيسى ﷺ بقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا﴾ اليوم
﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ في الدنيا ﴿صِدْقُهُمْ﴾ في القول والاعتقاد والنية والعمل.
ثم شرح النفع بقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ وبساتين ممتلئة الأشجار ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة
حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ليس لهم خوف الخروج عنها.
ثم بشرهم بأعلى المنافع والحظوظ بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم وصدقهم في القول والعمل
﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ببليهم أعلى الكرامات، وهو مقام الرضوان و ﴿ذَلِكَ﴾ المقام هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
والنجاح بأعلى المقاصد.

عن الثَّمَنِ ﷺ: الدليل على أن عيسى لم يثقل [لهم] ذلك، قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ
صِدْقُهُمْ﴾^٢.

وعنه بإسناده عن الباقر ﷺ، في هذه الآية: [قال]: «إذا كان يوم القيامة وحشر الناس للحساب،
فيمضون بأهوال يوم القيامة، ولا ينتهون إلى العَرَصَةِ حَتَّى يَجْهَدُوا جَهْداً شَدِيداً».

قال: «ثُمَّ يَقِفُونَ بِنَاءَ الْعَرْشِ^١، وَيَشْرَفُ الْجِبَارُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ، فَأُولَ مَنْ يَدْعَى بِنَاءً يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ أَجْمَعُونَ أَنْ يُهْتَفَ بِاسْمِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ النَّبِيِّ الْقُرْشِيِّ الْعَرَبِيِّ» قال: «فِيَتَقَدَّمُ حَتَّى يَقِفَ عَلَى يَمِينِ الْعَرْشِ».

قال: «ثُمَّ يَدْعَى بِصَاحِبِكُمْ [عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ] يَتَقَدَّمُ حَتَّى يَقِفَ عَلَى يَسَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ يَدْعَى بِأَمَّةٍ مُحَمَّدٌ فَيَقِفُونَ عَلَى يَسَارِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ يَدْعَى بِنَبِيِّ وَأَمَّتِهِ مَعَهُ، مِنْ أَوَّلِ النَّبِيِّينَ إِلَى آخِرِهِمْ وَأَمَّتِهِمْ مَعَهُمْ فَيَقِفُونَ عَلَى يَسَارِ الْعَرْشِ».

قال: «ثُمَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْعَى لِلْمَسْأَلَةِ الْقَلَمُ»، قال: «فِيَتَقَدَّمُ فَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فِي صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ فَيَقُولُ [اللَّهُ]: هَلْ سَطَرْتَ فِي اللَّوْحِ مَا أَلْهَمْتُكَ وَأَمَرْتُكَ بِهِ [مَنْ الْوَحْيِ]؟ فَيَقُولُ الْقَلَمُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي سَطَرْتُ فِي اللَّوْحِ مَا أَمَرْتَنِي وَأَلْهَمْتَنِي بِهِ مِنْ وَحْيِكَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: فَمَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، هَلْ أَطَّلَعَ عَلَى مَكُونِ سِرِّكَ غَيْرُكَ؟ فَيَقُولُ لَهُ [اللَّهُ]: أَفَلَحْتَ حُجَّتُكَ».

ثُمَّ يَدْعَى بِاللَّوْحِ فَيَتَقَدَّمُ فِي صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ حَتَّى يَقِفَ مَعَ الْقَلَمِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ سَطَرْتَ فِيكَ الْقَلَمُ مَا أَلْهَمْتُكَ وَأَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ وَحْيِي؟ فَيَقُولُ اللَّوْحُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، وَبَلَّغْتُهُ إِسْرَافِيلَ، ثُمَّ يَدْعَى بِإِسْرَافِيلَ، فَيَتَقَدَّمُ إِسْرَافِيلُ، مَعَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ فِي صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ فَيَقُولُ اللَّهُ: هَلْ بَلَّغْتَ اللَّوْحَ مَا سَطَرَ فِيهِ الْقَلَمُ مِنْ وَحْيِي؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، وَبَلَّغْتُهُ جِبْرَائِيلَ، فَيَدْعَى بِجِبْرَائِيلَ [فَيَتَقَدَّمُ] حَتَّى يَقِفَ مَعَ إِسْرَافِيلَ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ إِسْرَافِيلَ مَا بَلَّغَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، وَبَلَّغْتُهُ جَمِيعَ أَنْبِيَائِكَ، وَأَنْفَذْتُ إِلَيْهِمْ جَمِيعَ مَا أَنْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أَمْرِكَ، وَأَدَيْتُ رِسَالَاتَكَ إِلَى نَبِيِّ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ رَسُولٍ، وَبَلَّغْتُهُمْ كُلَّ وَحْيِكَ وَحِكْمَتِكَ وَكُتُبِكَ، وَإِنْ آخِرَ مَنْ بَلَّغْتُهُ رِسَالَاتَكَ وَوَحْيَكَ وَحِكْمَتَكَ وَعِلْمَكَ وَكِتَابَكَ وَكَلَامَكَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْشِيِّ الْقُرْشِيِّ حَبِيبِكَ».

قال أبو جعفر عليه السلام: «فَأَوَّلَ مَنْ يَدْعَى لِلْمَسْأَلَةِ مِنْ وُلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فَيَدْنِيهِ اللَّهُ حَتَّى لَا يَكُونَ خَلْقٌ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ مِنْهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ بَلَّغْتَ جِبْرَائِيلَ مَا أَوْحَيْتُ إِلَيْكَ وَأَرْسَلْتَهُ بِهِ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِي وَحِكْمَتِي وَعِلْمِي، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ؟ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ يَا رَبِّ، قَدْ بَلَّغْنِي جِبْرَائِيلَ جَمِيعَ مَا أَوْحَيْتَهُ إِلَيْهِ وَأَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنْ كِتَابِكَ وَحِكْمَتِكَ وَعِلْمِكَ، وَأَوْحَاهُ إِلَيَّ. فَيَقُولُ اللَّهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: هَلْ بَلَّغْتَ أَمَّتَكَ مَا بَلَّغْتَ جِبْرَائِيلَ مِنْ كِتَابِي وَحِكْمَتِي وَعِلْمِي؟ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ يَا رَبِّ، قَدْ بَلَّغْتُ أُمَّتِي جَمِيعَ مَا أَوْحَى إِلَيَّ مِنْ كِتَابِكَ وَحِكْمَتِكَ وَعِلْمِكَ، وَجَاهَدْتُ فِي سَبِيلِكَ. فَيَقُولُ اللَّهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: فَمَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ: يَا رَبِّ، أَنْتَ الشَّاهِدُ لِي بِتَبْلِيغِ

الرَّسَالَةَ، وَمَلَانِكُكَ، وَالْأَبْرَارَ مِنْ أُمَّتِي، وَكَفَى بِكَ شَهِيداً. فَيُدْعَى بِالْمَلَانِكَةِ فَيَشْهَدُونَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ [ثُمَّ يُدْعَى بِأَمَةِ مُحَمَّدٍ فَيَسْأَلُونَ: هَلْ بَلَّغَكُمْ مُحَمَّدٌ رِسَالَتِي وَكِتَابِي وَحُكْمَتِي وَعِلْمِي وَعَلَمَكُمْ ذَلِكَ؟ فَيَشْهَدُونَ لِمُحَمَّدٍ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ] وَالْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ.

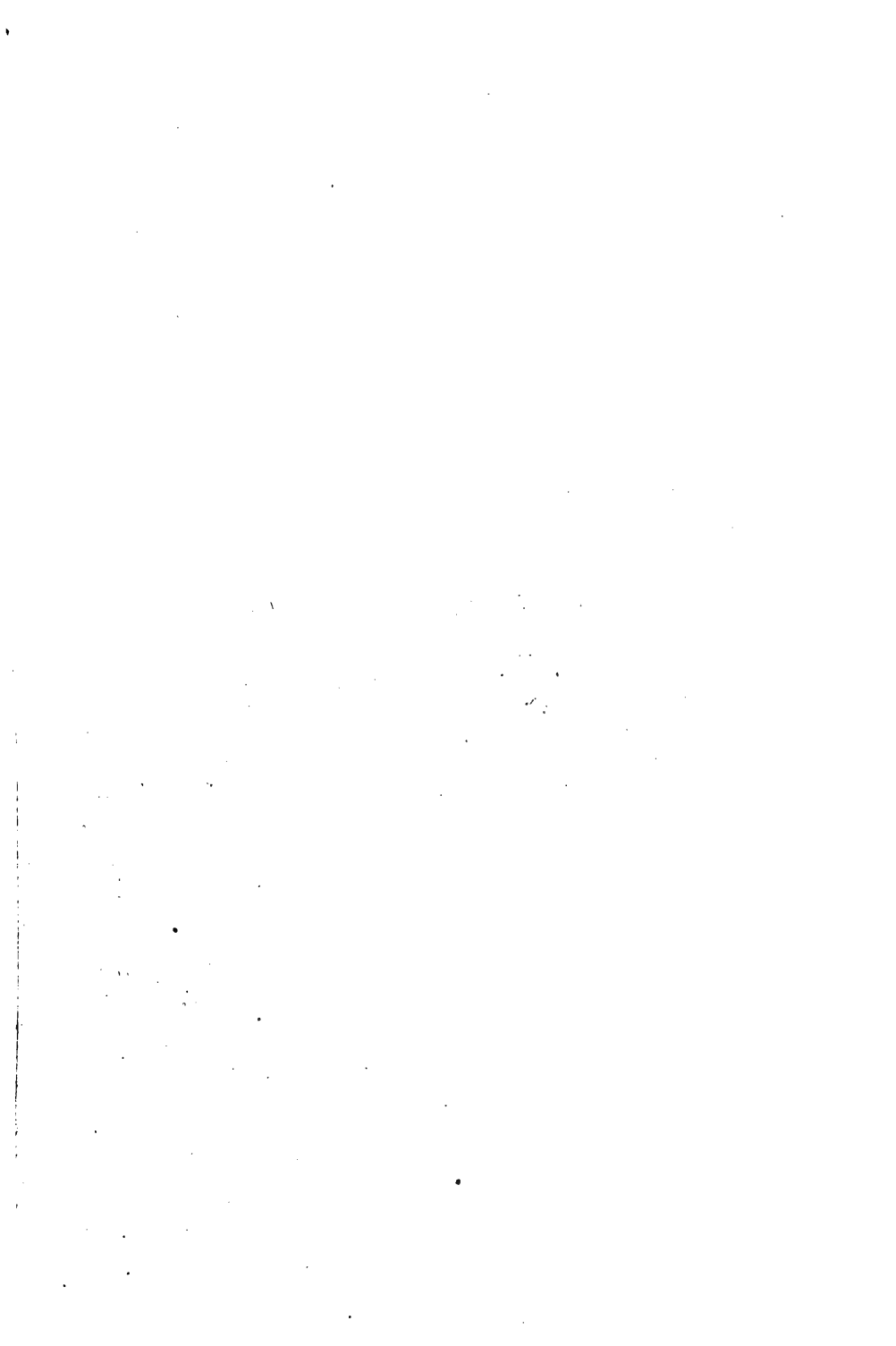
فيقول الله لِمُحَمَّدٍ ﷺ: هَلْ اسْتَخْلَفْتَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ مَنْ يَقُومُ فِيهِمْ بِحُكْمَتِي وَعِلْمِي، وَيُفَسِّرُ لَهُمْ كِتَابِي، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ حُجَّةً لِي، وَخَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ؟ فيقول مُحَمَّدٌ: نَعَمْ يَا رَبِّ، قَدْ خَلَفْتُ فِيهِمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخِي وَوَزِيرِي وَوَصِيِّي وَخَيْرَ أُمَّتِي، وَنَصَبْتُهُ لَهُمْ عَلَماً فِي حَيَاتِي، وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، وَجَعَلْتُهُ خَلِيفَتِي فِي أُمَّتِي [وَأَمَاماً] تَعْتَدِي بِهِ الْأُمَّةَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُدْعَى بِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

إِلَى أَنْ قَالَ: «فَيُدْعَى بِإِمَامٍ إِمَامٍ، وَبَأَهْلِ عَالَمِهِ، فَيَحْتَجُّونَ بِحُجَّتِهِمْ، فَيَقْبَلُ اللَّهُ عُذْرَهُمْ، وَيُجِيزُ حُجَّتَهُمْ. قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾»^١.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٢٠]

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ سَعَةَ مُلْكِهِ، وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ، وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ، إِطْلَافاً لِدَعَاوِي النَّصَارَى، وَتَقْرِيراً لِمَا وَعَدَ الصَّادِقِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ، لَكُنُوهَا مَقْهُورَةٌ تَحْتَ قُدْرَتِهِ وَقَضَائِهِ، بِمَنْزِلَةِ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى شَيْءٍ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَيْدَنِي لِإِتِمَامِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَأَسْأَلُهُ الْإِنْعَامَ عَلَيَّ بِالتَّوْفِيقِ لِإِتِمَامِ مَا يَتْلُوها مِنْ سُورَةِ الْإِنْعَامِ.



في تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ [١]

نفي بيان وجه نظم سورة الأنعام
ثُمَّ لَمَّا تَمَّتِ السُّورَةُ الَّتِي كَانَ أَهَمُّ الْمَقَاصِدِ فِيهَا مُحَاجَّةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ

أَعْلَمُ الْمِلَلِ الْبَاطِلَةِ، وإبطال شُبُهَاتِهِمْ وَعَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَبَيَانُ مَا يَنْتَظِمُ بِهِ أُمُورُ الْمَعَادِ وَالْمَعَاشِ، مِنْ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالسِّيَاسَاتِ، وَحُقُوقِ النَّاسِ، وَالْمُحَلَّلَاتِ وَالْمَحْزَمَاتِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرَبَةِ وَالْمَنَاجِحِ، وَالْمِنَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِتَكْمِيلِ الدِّينِ وَإِتِمَامِ النِّعْمَةِ بِنَضْبِ الْحُجَّةِ عَلَى الْعَالَمِينَ، ثُمَّ خَتَمَ الْمَائِدَةَ بِبَيَانِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَنَتِهِ، انْتَضَمَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ الْمُبْتَدَأُ فِيهَا بِالْحَمْدِ عَلَى نِعَمَانِهِ، وَتَأْكِيدِ مَا فِي آخِرِ السُّورَةِ السَّابِقَةِ بِإِعَادَةِ بَيَانِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَشَرْحِ مَلَكَيَّتِهِ بِالْمَلَكَيَّةِ الْإِسْرَاقِيَّةِ الْإِبْجَادِيَّةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ أَجْهَلُ الْمِلَلِ، وَإِبْطَالِ بِدْعِهِمْ، وَبَيَانِ بَعْضِ أَحْكَامِ الْأَطْعِمَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُوجِبَةِ لِحُسْنِ النُّظْمِ.

فَابْتَدَأَ فِيهَا بِقَوْلِهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُ، ثُمَّ بِحَمْدِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ﴾ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَأَفْرَادِهِ، وَالتَّائِءِ الْجَمِيلِ بِأَيِّ نَحْوٍ وَجِدَ مُلْكُ ﴿اللَّهُ﴾ وَمُخْتَصَّصٌ بِالْوَاجِبِ الْمُسْتَجْمَعِ لَجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ لَا يَشْرَكَهُ فِيهِ غَيْرُهُ حَمْدٌ أَمْ لَمْ يُحْمَدِ.

ثُمَّ عَرَفَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَسَعَةِ الْإِنْعَامِ تَقْرِيراً لِاخْتِصَاصِهِ بِهِ وَحَقّاً عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وَسَوَّى بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وَمَا عَلَيْهَا وَفِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنباتات وغيرها.

وَتَخْصِيصُهُمَا بِالذِّكْرِ لَكُونَهُمَا أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فِي الْأَنْظَارِ. وَقَدْ مَرَّ وَجْهُ جَمْعِ السَّمَاوَاتِ وَإِفْرَادِ الْأَرْضِ مَعَ كَوْنِهَا يَتْلُوهَا. وَإِنَّمَا قَدَّمَ ذِكْرَ السَّمَاوَاتِ مَعَ تَأْخُرِهَا فِي الْوُجُودِ مِنَ الْأَرْضِ، لَكُونِهَا أَعْظَمَ وَأَشْرَفَ فِي الْأَنْظَارِ، وَلِتَزُولَ الْبَرَكَاتُ مِنْهِنَّ، وَكُونَهُنَّ بِمَنْزِلَةِ الْآبَاءِ لِلْمَوَالِدِ،

والأرض بِمَنْزِلَةِ الْأَمِّ.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كَانَ رَدًّا عَلَى الدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَا بَدَوَ لَهَا وَهِيَ قَانِمَةٌ»^١.

﴿وَجَعَلَ﴾ وَأَنْشَأَ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ إِنَّمَا جَمَعَهَا لِكَثْرَةِ أَسْبَابِهَا ﴿وَالنُّورِ﴾ أَفَزَدَهُ لِأَنَّهُ بِسَبَبِ وَاحِدٍ، قِيلَ: هُوَ النَّارُ، وَإِنَّمَا قَدِّمَتِ الظُّلُمَاتُ فِي الذِّكْرِ لِكُونِهَا عَدَمِيَّةً، وَمُقَدِّمَةُ عَلَى النُّورِ الَّذِي هُوَ وُجُودِيٌّ^٢.
رُوي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَضَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ^٣.

وَرُوي أَنَّهُا نَزَلَتْ تَكْذِيبًا لِلْمَجُوسِ فِي قَوْلِهِمْ: اللَّهُ خَالِقُ النُّورِ، وَالشَّيْطَانُ خَالِقُ الظُّلُمَاتِ^٤.
وقيل: عَلَى ذَلِكَ خُلِقَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ^٥.

عن ابن عباس عليه السلام: قَالَ: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ أَي ظَلَمَةُ الشَّرِّ وَالنَّفَاقِ وَالْكَفْرِ، وَالنُّورُ يُرِيدُ نُورَ الْإِسْلَامِ^٦. وَعَلَيْهِ يَكُونُ إِفْرَادُ النُّورِ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، وَجَمْعُ الظُّلُمَاتِ لِأَنَّ الْبَاطِلَ كَثِيرٌ.
ثُمَّ وَبَّخَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ وَأَشْتَبَعَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مِنْ عَقْلِهِمُ الشَّرِّ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاعْتِقَادِ الشَّرِّ «بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ» وَيُشْرِكُونَ مَعَ دَلَالَةِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ [٢]

ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِأَوْضَحِ الْأَدَلَةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَأَتَمِّ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وَأَوْجَدَكُمْ «مِنْ طِينٍ» لِأَنَّ مَبْدَأَ وُجُودِ الْبَشَرِ آدَمَ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ طِينٍ، أَوْ لِأَنَّ مَبْدَأَ وُجُودِهِمُ النَّطْفَةَ، وَهِيَ مُتَكُونَةٌ مِنَ الْأَغْذِيَةِ النَّبَاتِيَّةِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنْ طِينٍ «ثُمَّ» بَعْدَ الْخَلْقِ «قَضَى» وَقَدَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ «أَجَلًا» خَاصًّا بِهِ، وَأَمَدًا مُعَيَّنًا يُؤَخَّرُ إِلَيْهِ مَوْتُهُ، «وَقَدْ» لَهُ «أَجَلٌ» آخَرُ وَقَدْ مَضَرُوبٌ «مُسَمًّى» وَمُعَيَّنٌ «عِنْدَهُ» ثُبُتَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ.

فِي أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَنِ الْقَمِيِّ: عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «الْأَجَلُ الْمَقْضَى» هُوَ الْمَحْتَمُومُ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ وَحُتْمَهُ، وَالْمُسَمًّى هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَدَاءُ، يُقَدِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ، وَالْمَحْتَمُومُ لَيْسَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَلَا تَأْخِيرٌ^٧.

حُكِيَ عَنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَجَلَيْنِ: الْأَجَلَ الطَّبِيعِيِّ، وَالْأَجَلَ الْاِخْتِرَامِيِّ. أَمَّا الطَّبِيعِيُّ:

١. الاحتجاج: ٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٠٦، وفي الاحتجاج: وهي دائمة. ٢. تفسير الرازي ١٢: ١٥١.

٣. تفسير الرازي ١٢: ١٥١. ٤ و ٥. تفسير روح البيان ٣: ٣.

٦. تفسير الرازي ١٢: ١٥١. ٧. تفسير القمي ١: ١٩٤، تفسير الصافي ٢: ١٠٧.

فهو الذي لو بقي ذلك العِزاج ولم تعترضه العوارض الخارجية، لانتَهت مُدَّة بقائه إلى أن تتحلَّل رُطوبته وتُتلفن حرارته الغريزيتان. وأما الاختيرامي: فهو الذي يحصل بالعوارض كالغرق والحرق وغيرهما من المُهلكات.^١

وقيل: إن المُراد من الأجل المُتقضي: مُدَّة عُمره في الدُّنيا، ومن الأجل المُسمَّى: مُدَّة عُمره في الآخرة، فإنَّه لا آخِر لها، ولا يُعلم كَيْفِيَّة الحال فيها إلا الله.^٢

وقيل: إن الأول مُدَّة حياة الدُّنيا، والثاني مُدَّة البرزخ.^٣

ثم بالغ شُبْحانه في استبعاد الشُّرك منهم مع ذلك، أو في استبعاد إنكارهم البعث بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أيُّها المُشركون ﴿تَمْتَرُونَ﴾ وتشكُّون في توحيد الله، أو البعث مع كَوْن الإعادة أهون من الابتداء.

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ [٣]

ثمَّ أنه تعالى بعدَ تخصيص خلق العالم بنفسه خَصَّ استِحْقاق العبادة بذاته المُقدَّسة بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ والمعبود المُطلق ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ والمَلَكوت الأعلى ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ وعالم المُلْك. عن الصادق عليه السلام: «كذلك هو في كلِّ مكان».^٤

ثم لما كانت معرفته باستِحْقاق العبادة لا تُوجب الإثبات إليها إلا بعدَ معرفته بالعلم الكامل بضمائر العباد وأعمالهم، عَرَف ذاته المُقدَّسة بسَعَةِ العلم بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ وخَفِيَّاتكم مِنَ العقائد والنبات ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ وإعلانكم مِنَ الأقوال والأعمال ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وتحصلون لأنفسكم مِنَ الخَيْرِ والشرِّ، والطَّاعة والعِصيان، فيجازيكم على جميع ذلك بما تستحقُّون.

عن الصادق عليه السلام، في رواية: «ولكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علماً وقُدرةً وإحاطةً وسلطاناً، ليس علمه بما في الأرض بأقلِّ مِنَّا في السَّماء، لا يبعدُ مِنه شيءٌ، والأشياء عنده سواء علماً وقُدرةً وسلطاناً ومثلُك وإحاطةً».^٥

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ [٤ و ٥]

ثم لما كان بيان هذه المعارف من النبي الأمي بالعبارة التي فيها الإعجاز من الأدلة الواضحة على صدق نبوته، ونج شبحانه المشركين على عدم الالتفات إليها، وترك التأمل فيها والاعتناء بها بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ وما ينزل عليهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وحجة واضحة ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وحججه الباهرة على صدق نبوته ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير متعتين، بل إلى تكذيبها مسارعين، بل بها مستهزئين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ والقرآن المقترن بدلائل الصدق، أو بمحمد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وأنزل إليهم، أو بعث فيهم، واشتهزوا به ﴿فَتَسَوَّفُ يَأْتِيهِمْ﴾ ويبين لهم ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وصدق ما أخبروا به من العذاب في الدنيا يقتلهم بأيدي المسلمين، وفي الآخرة بتضليلهم في نار الجحيم.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ
وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ [٦]

ثم أشهد على صدق وعيده بما نزل من العذاب على الأمم الماضية ووعظهم به بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أولئك المكذبون، ولم يعلموا علماً يكون بمنزلة الرؤية ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وأهل عصر، كقوم عاد وثمود، وقوم نوح ولوط وأضرابهم.
ثم كأنه قيل: كيف كان حالهم؟ فأجاب بقوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ وأقدرناهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وأعطيناهم من التسلطة في الجسم والسعة في المال ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ﴾ ومقداراً لم نعطيكهمو ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ وأنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مطراً ﴿مِدْرَارًا﴾ غزيراً متتابعاً ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿الْأَنْهَارَ﴾ الكثيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ في مساكنهم وبساتينهم، فهم لم يشكروا تلك النعم، بل قابلوها بالكفر والتكذيب للرسول والاشتهاء بالآيات ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وسيئات عقاندهم وأعمالهم، ولم يعظم علينا إهلاكهم، لأننا عمرنا الأرض بغيرهم ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ وخلقنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بدلاً منهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فاعتبروا أيها المشركون بهم، وأخذروا أن تكونوا مثلهم، وتعاملكم الله معاملة من كفرتم وطغياكم.

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذَيْنِ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [٧]

ثم قطع الله رجاء رسوله عن إيمانهم بعد التهديد والوعظ ورؤية الآيات بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾

من السماء ﴿كِتَابًا﴾ تماماً كالنوراة، وكان مكتوباً ﴿فِي فُرْقَانٍ﴾ وورق كما اقترحوه وشاهدوا نزوله بأعينهم ﴿فَلَمَّسُوهُ﴾ بعد نزوله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ كي لا يبقى لهم شك في كونه كتاباً نازلاً من السماء، والله ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على الكفر طعناً فيه، وعناداً للحق: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة لكل أحد.

روي أن بعض المشركين قالوا: يا محمد، لن تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، معه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله، وأنت رسول الله، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية^١.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٨ و ٩﴾

ثم أنه تعالى بعد حكاية بعض اقترحات المشركين، حكى بعض اعتراضاتهم على النبي ﷺ بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يشهد بصدق نبوته، فإنه أقرب إلى قبول قوله: لأن كل من يرى الملك يقبل قوله، ويؤمن به، فرد الله ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا﴾ من السماء ﴿مَلَكًا﴾ بصورته الأصلية ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وانقطع صحة التكليف، لكون إيمانهم بالإلجاء كما في القيامة، فحق إهلاكهم ﴿ثُمَّ﴾ إذن ﴿لَا يُنْظَرُونَ﴾ ولا يمهلون، فيفاجأهم عذاب الاستئصال: لكون رؤية الملك كروية الآخرة لا ينفع الإيمان بعدها، ﴿وَ﴾ لذا ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ يعاينوه ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ وصورناه بصورة البشر كضيفان إبراهيم ولوط، وكالمملكين المتخاصمين عند داود، وكجبرئيل المتصور عند النبي بصورة دحية الكلبي؛ لأن الأبصار لا تقوى لرؤية الملك في هذا العالم الجسماني، ﴿وَ﴾ إذن ﴿لَلَبَسْنَا﴾ وشبهنا^٢ الأمر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ نحو ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ ويشبهون^٣؛ لأنهم يظنون أنه بشر، فيعود اعتراضهم بقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾، ولذا استحال أن يجعل الرسل ملائكة لعدم الفائدة فيه.

نسي حاجة
النبي ﷺ مع
المشركين
عن العسكري عليه السلام، قال: «قلت لأبي علي بن محمد: هل كان رسول الله ﷺ يُناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: [بلى] مراراً كثيرة، إن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة، إذ ابتدأ عبد الله بن [أبي] أمية المخزومي فقال: يا محمد، لقد أذعيت دعوى عظيمة، وقلت مقالاً هائلاً، زعمت أنك رسول رب العالمين، ولا ينبغي

١. تفسير روح البيان ٣: ١١.

٢. في النسخة: يشبهون.

٣. في النسخة: واشتبهنا.

٤. المؤمنون: ٢٣/٢٤.

لَرَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَكَ رَسُولُهُ بَشَرًا مِثْلًا، وَلَوْ كُنْتَ نَبِيًّا لَكَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يُصَدِّقُكَ وَشَاهِدُهُ، بَلْ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا نَبِيًّا لَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْنَا مَلَكًا لَا بَشَرًا مِثْلًا، مَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ إِلَّا [رَجُلًا] مَسْحُورًا وَلَسْتُ بِنَبِيٍّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّامِعُ لِكُلِّ صَوْتٍ، وَالْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، تَعَلَّمَ مَا قَالَهُ عِبَادُكَ، فَأَنْزَلَ [اللَّهُ] عَلَيْهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا يَلْسُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: وَأَمَّا قَوْلُكَ: وَلَوْ كُنْتَ نَبِيًّا لَكَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يُصَدِّقُكَ وَشَاهِدُهُ، بَلْ لَوْ أَرَادَ [اللَّهُ] أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا نَبِيًّا، لَكَانَ إِنَّمَا يَبْعَثُ إِلَيْنَا مَلَكًا لَا بَشَرًا مِثْلًا، فَالْمَلَكُ لَمْ تَشَاهِدْهُ حَوَاشِكُ لَأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْهَوَاءِ، لَا عِيَانَ مِنْهُ، وَلَوْ شَهِدْتُمُوهُ بِأَنْ يُزَادَ فِي قُوَى أَبْصَارِكُمْ لَقُلْتُمْ: لَيْسَ هَذَا مَلَكًا، بَلْ هَذَا بَشَرٌ؛ لَأَنَّهُ إِنَّمَا يَظْهَرُ لَكُمْ بِصُورَةِ الْبَشَرِ الَّذِي أَلْفَعْتُمُوهُ، لَتَفْهَمُوا عَنْهُ مَقَالَهُ، وَتَعْرِفُوا خِطَابَهُ وَمُرَادَهُ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَ الْمَلَكِ وَأَنْ مَا يَقُولُهُ حَقٌّ، بَلْ إِنَّمَا بَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا، وَأَظْهَرَ عَلَى يَدِهِ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ الَّذِينَ قَدْ عَلِمْتُمْ ضَمَائِرَ قُلُوبِهِمْ، فَتَعْلَمُونَ بِعَجْزِكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مُعْجِزٌ، وَأَنْ ذَلِكَ شَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ بِالْصَّدْقِ لَهُ، وَلَوْ ظَهَرَ لَكُمْ مَلَكٌ وَظَهَرَ عَلَى يَدِهِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ، لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يَذَلُّكُمْ أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ فِي طِبَاعِ سَائِرِ أَجْنَاسِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ مُعْجِزًا، أَلَا تَرَوْنَ الطُّيُورَ الَّتِي تَطِيرُ، لَيْسَ ذَلِكَ مِنْهَا بِمُعْجِزٍ؛ لِأَنَّ لَهَا أَجْنَاسًا يَقَعُ مِنْهَا بِمِثْلِ طَيْرَانِهَا، وَلَوْ أَنَّ آدَمِيًّا طَارَ كَطَيْرَانِهَا كَانَ ذَلِكَ مُعْجِزًا، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَهَّلَ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ وَجَعَلَهُ بِمِثْلِكُمْ بِحَيْثُ تَقُومُ عَلَيْكُمْ حُجَّتُهُ، وَأَنْتُمْ تَقْتَرِحُونَ عَمَلِ الصُّعْبِ الَّذِي لَا حُجَّةَ فِيهِ» الحديث.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ [١٠]

ثُمَّ لَمَّا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى إِعْرَاضَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُعْجَزَاتِ، وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بِهَا، وَإِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَدَمَ تَأَثُّرِ قُلُوبِهِمْ بِالْصَّحْحِ، وَكَانَتْ كُلُّهَا سَبَبًا لِحُزْنِ النَّبِيِّ ﷺ، سَلَى قَلْبَ حَبِيبِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ﴾ كَثِيرَةٌ ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وَفِي الْأَزْمَنَةِ السَّابِقَةِ عَلَى بَيْتِكَ، وَهُمْ صَبَرُوا عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ ﴿فَخَاقَ﴾ وَأَحَاطَ، أَوْ حَلَّ ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ عَقِيبَ اسْتِهْزَائِهِمْ وَسَخَرِيَّتِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِنَ الدِّينِ، أَوِ الْعَذَابِ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ يُخْبِرُهُمْ بِهِ وَهُمْ يَسْتَهْزِءُونَ بِهِ. وَفِيهِ وَعَدَ النَّبِيُّ بِإِهْلَاكِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ، فَانْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ يَوْمَ بَدْرٍ.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ [١١]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِي تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ اسْتِهْزَاءَ قَوْمِهِ بِهِ، أَمَرَهُ بِتَهْدِيدِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِلْمُشْرِكِينَ الْمُكْذِبِينَ بَلَى: ﴿سِيرُوا﴾ وَسَافَرُوا ﴿فِي﴾ أَقْطَارِ ﴿الْأَرْضِ﴾ لِتَعْرِفُوا أَحْوَالَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ بِأَبْصَارِكُمْ، وَتَفَكَّرُوا بِقُلُوبِكُمْ فِي أَنَّهُ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ بِالرُّسُلِ وَإِلَى مَا صَارَ مَالُ أَعْرَاضِهِمْ عَنِ آيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، فَاعْتَبِرُوا مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ الْاسْتِنْصَالِ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالسَّعَةِ.

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [١٢]

ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بَعْدَ تَهْدِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَتُصَحُّهِمْ بِالْإِزَامِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِلْمُشْرِكِينَ وَاسْأَلُهُمْ عَنْ أَنَّهُ: ﴿لِمَنْ﴾ يَكُونُ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا وَمُلْكًا وَتَصَرُّفًا؟

فَلَمَّا كَانَ الْجَوَابُ مِنْ أَبَدِهِ الْبَدِيهِيَّاتِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ بِحَيْثُ لَا يَنْبَغِي الْخِلَافُ فِيهِ، أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كُلُّهَا ﴿لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِيْمَاءً إِلَى أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ الْإِنْتِظَارُ فِي الْجَوَابِ، بَلْ حَقٌّ أَنْ يُبَادَرَ إِلَى جَوَابِهِ بِالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ الْكُلَّ لِلَّهِ؛ لظُهُورِ أَثَارِ الْخُذُوثِ وَالْإِمْكَانِ فِي الْأَجْسَامِ، وَاحْتِيَاجِ الْحَادِثِ إِلَى الصَّانِعِ الْوَاجِبِ مِنْ أَبَدِهِ الْبَدِيهِيَّاتِ.

ثُمَّ بَشَّرَ بِرَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ مَعَ كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ تَرْبِيَةً لِلرَّجَاءِ فِي الْقُلُوبِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ﴾ وَحَتَمَ ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ وَذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ ﴿الرَّحْمَةَ﴾ وَالْعُطُوفَةَ عَلَى الْعِبَادِ، وَلِذَا لَا يَعَجَلُ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِهِ وَعَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ، وَيَقْبَلُ مِنْهُمْ التَّوْبَةَ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالرَّحْمَةِ: الْهِدَايَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِنَصْبِ الدَّلَائِلِ عَلَى تَوْحِيدِهِ^١ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْخَلْقِ كَتَبَ كِتَابًا: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^٢.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ مِنْ سَبْقِ الرَّحْمَةِ هُوَ الْغَلْبَةُ وَالْكَثْرَةُ، لَا السَّبْقُ الزَّمَانِي.

وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ مِائَةٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَعِنْدَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ رَحْمَةً وَوَاحِدَةٌ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ وَيَتَرَأَّحُونَ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الْأَمْرِ قَصَرَهَا عَلَى الْمُتَّقِينَ^٣.

ثم أردف الإشارة بالرحمة بالتهديد بالعقوبة تربيةً للخوف بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ الله وبيعتكم من القبور ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ﴾ لعاقل ﴿فِيهِ﴾.

وقيل: إن من شؤون رحمته بالعباد جمع الناس في يوم القيامة، وجعل دار الجزاء والعيد بها، وإلا لحصل الهرج والمرج، ولازنع الضبط وكثر الخبط^١، واختل النظام.

ثم نبه الله سبحانه على أن ترك الإيمان بالتوحيد مع سعة رحمته تعالى، والوعيد بالعقاب على الشرك غاية الخسران بقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وغبوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ وأضرّوا عليها بتضييع رأس المال من الفطرة الأصلية والعقل السليم، باتباع الهوى والأنهماك في الشهوات ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوحداية الله، بل يصرون على الشرك والعصيان، ولذا يخرجون عن قابلية شمول الرحمة الواسعة، ويستحقون العذاب الدائم.

وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَعْيَرُ اللَّهَ أَتُخَذُ وَلِيًّا
فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٣ و ١٤]

ثم أنه تعالى بعد ذكر كونه مالك المكان والمكانات من السماوات والأرض وما فيهما، ذكر أنه مالك الزمان والزمانات بقوله: ﴿وَلَوْ مَا سَكَنَ﴾ واشتقر ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واشتملا عليه من الموجدات، أو ما سكن وتحرك فيهما.

روي أن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، قد علمنا أنه ما يحملك على ما تدعونا إليه إلا الفقر والحاجة، فنحن نجتمع لك من القبائل أموالاً تكون أغنانا رجلاً، وترجع عما أنت عليه من الدعوة، فأنزل الله تعالى هذه الآية^٢.

ثم أنه تعالى بعد التنبيه على كونه مالك جميع الموجودات، نبه على إحاطته بها علماً بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل المسموعات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع المعلومات، فيسمع نداء المضطرين، ويعلم حاجات المحتاجين.

ثم أنه تعالى بعد بيان سعة ملكه ورحمته، وكمال غناه وإحاطته، أمر نبيه ﷺ بأن يعلن بتخصيصه بولايته، وإعراضه عن ولاية غيره بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين إنكاراً على نفسك: ﴿أَعْيَرُ اللَّهَ﴾ من مخلوقاته ﴿أَتُخَذُ﴾ واختار لنفسه ﴿وَلِيًّا﴾ وكافلاً ومعبوداً؟ حاشاي من ذلك، مع أنه تعالى

بِكَمَالٍ قُدْرَتِهِ كَانَ ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومُبدِعهما مِن غيرِ مِثَالٍ، ﴿وَهُوَ﴾ بِجُودِهِ وَغِنَاهُ ﴿يُطْعِمُ﴾ وَيَرْزُقُ جَمِيعَ المَوْجُودَاتِ، ويُوصلُ إِلَهاها ما تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿وَلَا يَطْعَمُ﴾ وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ، فَهُوَ تَعَالَى جَوَادٌ بِالذَّاتِ غَنِيٌّ بِالذَّاتِ، وَغَيْرُهُ عَاجِزٌ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ. فَالْعُدُولُ عَنْ وِلَايَةِ القادِرِ العَنِيِّ الجَوَادِ إِلَى وِلَايَةِ العَاجِزِ الفَقِيرِ المُحْتَاجِ غَايَةُ الجَهْلِ، وَعَيْنُ السُّفْهَةِ.

ثُمَّ بَعْدَ إقامَةِ البَرهانِ العَقْلِيِّ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ العُدُولِ عَنْ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ فِي الوِلَايَةِ وَالْعِبَادَةِ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِإِعْلَامِ النَّاسِ بِوُجُوبِ وِلَايَتِهِ وَالتَّمَحُّصِ بِعُبُودِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لِلنَّاسِ: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ مِنْ قِبَلِ رَبِّي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وَجْهَهُ وَنَفْسَهُ، وَخَصَّ وِلَايَتَهُ وَعِبَادَتَهُ بِهِ، وَأَمَرَ غَيْرِي أَنْ يَكُونَ تَابِعاً فِي ذَلِكَ، وَتُهِيتُ عَنْ التَّوَجُّهِ إِلَى غَيْرِهِ حَيْثُ خَاطَبَنِي اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بِي وَبِعِبَادَتِي وَوِلَايَتِي.

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٥]

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ النَّاسَ بِتَخْصِصِ اللَّهِ بِالْوِلَايَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ بِأَبْلَغِ بَيَانٍ، وَكَانَ مِنْ لَوَازِمِ مَخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ العُقُوبَةُ، أَمَرَ بِإِظْهَارِ الخَوْفِ مِنَ المَخَالَفَةِ تَخَوُّفًا لِلنَّاسِ مِنَ العَذَابِ، وَرَدَعًا لَهُمْ عَنِ العِصْيَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، لِعُمُومِ النَّاسِ وَخُصُوصِ المُشْرِكِينَ: ﴿إِنِّي﴾ مَعَ قُرْبِي وَرِسَالَتِي ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وَخَالَفْتُ نَهْيَهُ فِي اخْتِيَارِ الشِّرْكِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَهْوَالُهُ وَعَذَابُهُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ، فَلَمْ يَعُدْ إِلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ»^١.

مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ [١٦]

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَثَارِ رَحْمَتِهِ وَوِلَايَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يُضْرَفْ﴾ وَيُدْفَعُ ﴿عَنْهُ﴾ العَذَابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ اللَّهُ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِأَنْ وَفَّقَهُ فِي الدُّنْيَا لِلتَّبَرُّؤِ عَنِ الشِّرْكِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَلِلْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ﴿وَذَلِكَ﴾ الصَّرْفُ أَوْ الرِّحْمُ هُوَ «الْفَوْزُ الْمُبِينُ» وَالتَّجَاحُ بِأَعْلَى الْمَقَاصِدِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ نَاسٍ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَغْتَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ». وَوَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ^٢.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٧]

ثم أنه تعالى بعد ذكر البرهان العقلي والأمر الإلهي علة لوجوب اختصاص ولايته بالله، ذكر علة
ثالثة له بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وتبتليك ﴿بِضُرٍّ﴾ وبلاء كالمرض والفقر ونحوهما ﴿فَلَا
كَاشِفَ﴾ ولا دافع ﴿لَهُ﴾ بقدرته ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾ ويصيبك ﴿بِخَيْرٍ﴾ ونفع
من شروء وصحة وغنى وأمثاله، فلا قادر على منعه ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الضَّرِّ
والخير وإبقائهما ورفعهما، وغير ذلك من الأمور ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنعه عن إنفاذ إرادته مانع.

عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه [قال]: أهدني إلى النبي ﷺ بقلة، أهداها كسرى، فركبها بحبل من شعر، ثم
أرذني خلفه، ثم سار بي ملياً، ثم التفت إلي فقال: «يا غلام»، فقلت: لبيك يا رسول الله، فقال: «أَحْفَظْ
الله يحفظك، أَحْفَظْ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل
الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم
يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه، فإن
أستطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً
كثيراً»^١.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْخَبِيرُ [١٨]

ثم قرر سبحانه كمال قدرته وعلمه وحكمته، الموجب على العاقل تخصيص ولايته به، وعدم
العدول عنه إلى غيره، بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والغالب عليهم بقدرته ﴿وَهُوَ
الْخَبِيرُ﴾ المتيقن في صنعه، الحافظ للمصالح في أفعاله، و﴿الْخَبِيرُ﴾ والعليم بما صح أن يخبر عنه،
فإذا كان الله مستجعماً لجميع الصفات الكمالية التي مرجع جميعها إلى العلم والقدرة، كان حقيقاً بأن
يعول عليه في جميع الأمور، ويرجع إليه في كل المطالب، ويعرض عما سواه.

قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ
لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ
إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [١٩]

ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَقْنَعِ الْمُشْرِكُونَ بِالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَصِدْقِ دَعْوَى رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْجُحُودِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الشَّاهِدَ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاهُ مَعَ أَنَّ مُعْجَزَاتِهِ شَهَادَةُ اللَّهِ عَلَى صِدْقِهِ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِجَوَابِهِمْ بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِمَنْ طَلَبَ مِنْكَ الشَّاهِدَ: ﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَأَيُّ مَوْجُودٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ﴿أَكْبَرُ﴾ وَأَعْظَمُ ﴿شَهَادَةٌ﴾ عَلَى الْمُدَّعَى بِحَيْثُ لَا يُدَانِيهَا شَهَادَةٌ غَيْرُهُ.

ولمَّا كَانَ الْجَوَابُ مِنَ الْبِدَاهَةِ بِحَيْثُ لَا يَنْبَغِي التَّمَلُّلُ وَالِاتِّظَارُ فِيهِ، أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِنْ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَسَالِمُثْمٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. عَنْ الْقَمِّيِّ عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَجَدَ اللَّهُ رَسُولًا يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ؟ مَا نَرَى أَحَدًا يُصَدِّقُكَ بِالَّذِي تَقُولُ. وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ مَا دَعَاهُمْ وَهُوَ يَوْمُنِزِ بِمَكَّةَ، قَالُوا: وَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فزَعَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ ذِكْرٌ عَنْدهُمْ، فَأَتَيْنَا بِأَمْرِي^١ يَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»^٢.

ثُمَّ شَرَحَ شَهَادَةَ اللَّهِ بِصِدْقِهِ بقوله: ﴿وَأُوحِيَ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﴿إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الَّذِي يَكُونُ لَفْظًا وَمَعْنَى مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجَزَاتِ، وَمِنْ أَوْضَحِ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِي ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ﴾ وَأَخَوْفَكُم مِنَ اللَّهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ أَتِيهَا الْمَوْجُودُونَ فِي وَقْتِ نُزُولِهِ ﴿وَوَ﴾ أَنْذَرِ ﴿مَنْ بَلَغَ﴾ وَوَصَلَ إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ وَسَمِعَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال بعض: مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا رَأَى مُحَمَّدًا ﷺ وَسَمِعَ مِنْهُ^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «وَمَنْ بَلَغَ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، فَهُوَ يُنْذِرُ بِالْقُرْآنِ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^٤.

ثُمَّ وَبَّحَ الْمُشْرِكِينَ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ بِتَعَدُّدِ الْأَلِهَةِ بِلا دَلِيلٍ وَلَا شَاهِدٍ، بقوله: ﴿أُنْثِيَكُمْ﴾ أَتِيهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ وَتَدْعُونَ ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ الْكَثِيرَةِ وَالْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا ﴿قُلْ: أَنَا لَا أَشْهَدُ﴾ بِمَا تَدْعُونَ مِنَ الشُّرْكَاءِ لِهَلْ لَمْ يَلِدْ الشَّاهِدَ عَلَيْهِ، بَلْ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَمَعْبُودٌ وَوَاحِدٌ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِلْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَامْتِنَاعِ الشَّرِيكِ لَهُ، ﴿وَوَ﴾ لِذَا ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا

٢. تفسير القمي ١: ١٩٥، تفسير الصافي ٢: ١١٢.

٤. مجمع البيان ٤: ٤٣٧، تفسير الصافي ٢: ١١٢.

١. في المصدر: فَأَتَيْنَا مِنْ.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٧.

أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٢٠]

ثُمَّ لَمَّا أَنْكَرَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ثُبُوتَ ذِكْرِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِهِمْ، كَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يُغْرِقُونَهُ﴾ بِحِلْيَتِهِ وَتُعَوِّثُهُ الْمَذْكُورَةُ فِي كُتُبِهِمْ ﴿كَمَا يُغْرِقُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بِجِلَاحِهِمُ الْمُعَيَّنَةِ.

عَنِ الْقَمِيِّ ﷺ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَةَ أَصْحَابِهِ وَمُهَاجِرِهِ^١، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾^٢ فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَزَّاهُ أَهْلَ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^٣.

رُوي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ قَالَ عُمَرُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ: أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَيْفَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ؟ فَقَالَ: يَا عُمَرُ، لَقَدْ عَرَفْتَهُ فَيَكُمُ حِينَ رَأَيْتَهُ كَمَا أَعْرِفُ أَبْنِي، وَلَأَنَا أَشَدُّ مَعْرِفَةً بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنِّي بَابْنِي؛ لِأَنِّي لَا أَدْرِي مَا صَنَعَ النَّسَاءُ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى^٤.

ثُمَّ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِغَايَةِ الْخُسْرَانِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وَغَبَوَا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْعَوْتُ فِيهَا ﴿فَهُمْ﴾ لِأَجْلِ الْخُسْرَانِ وَالطَّبَعِ عَلَى الْقُلُوبِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِبُيُوتَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ [٢١]

ثُمَّ نَبَّهَ شَبْحَانَهُ بِأَنَّ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ بِنِسْبَةِ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِهِ إِلَيْهِ، أَوْ نِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ وَالْمُكَذِّبِينَ لِلْمُعْجَزَاتِ، أَظْلَمُ النَّاسُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عَلَى نَفْسِهِ ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ صِفَاتَ النَّبِيِّ الْمَوْعُودِ فِي الْكِتَابَيْنِ غَيْرُ الصِّفَاتِ الَّتِي تَكُونُ لِمُحَمَّدٍ، أَوْ قَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَإِنَّ الْأَصْنَامَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَسَائِرِ مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ.

ثُمَّ هَدَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وَلَا يَفُوزُونَ بِمَطْلُوبٍ مِنَ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَالْدُّخُولِ فِي الْجَنَّةِ، فَكَيْفَ يُحْتَمَلُ الْفَلَاحُ فِي حَقِّ مَنْ هُوَ أَظْلَمُ النَّاسُ؟

٢. الفتح: ٢٩/٤٨.

١. في المصدر: أصحابه ومبعثه وهجرته.

٤. تفسير الرازي ١٢: ١٧٩.

٣. تفسير القمي ١: ٣٣، تفسير الصافي ٢: ١١٢، والآية من سورة البقرة: ٨٩/٢.

وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ [٢٢ و ٢٣]

ثم بالغ سبحانه في تهديد المشركين وتهويلهم بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ﴾ في عَرَصَةٍ واحدة ﴿جَمِيعاً﴾ يكون لهم من الأحوال والأحوال ما لا يحيط به المقال. وقيل: إن التقدير: وأذكروا يَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعاً ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ بلسان الملائكة ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على رؤوس الأشهاد توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ﴾ وأندادكم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهتكم أو شفعاؤكم عند الله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ - عن الصادق عليه السلام: «يعني: معذرتهم»^١. وقيل: يعني: جوائهم^٢. وقيل: يعني إشراكهم في الدنيا من حيث العاقبة^٣ - شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في الجواب تبرؤاً منهم: ﴿وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿مُشْرِكِينَ﴾ بك.

قيل: وجه التعبير عن الجواب بالفتنة، أنه يكون كذباً مع علمهم بأنه لا ينفعهم أصلاً، وكان من كثرة الدهشة والوحشة^٤.

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٢٤]

ثم أظهر التعجب من كذبهم في المقام وجرمانهم من نفع آلهتهم بقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بإنكار إشراكهم في الدنيا، ﴿وَكَيْفَ﴾ ضَلَّ ﴿عَنْهُمْ﴾ وبطل ما كانوا يفترون^٥ على الله ينسب قبول شفاعة الأصنام إليه.

عن (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه - في حديث يذكر فيه أحوال القيامة -: «ثم يجتمعون في مواطن آخر يستنطقون فيه، فيقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وهؤلاء خاصة هم المقررون في الدنيا بالتوحيد، فلم ينفعهم إيمانهم بالله مع مخالفتهم رُسُلَه، وشكهم في ما أتوا به عن ربهم، ونقضهم عهودهم في أوصيائهم، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكذبهم الله في ما اتحلوه من الإيمان بقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾»^٦.

والقمي عليه السلام قال: إنها في قدرية هذه الأمة، يحشرهم الله يوم القيامة مع الصابئين والنصارى والمجوس، فيقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، يقول الله ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ

٢. مجمع البيان ٤: ٤٤٠، تفسير الصافي ٢: ١١٣.

٤. تفسير روح البيان ٣: ١٨.

٦. الاحتجاج: ٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ١١٣.

١. تفسير الرازي ١٢: ١٨١.

٣. مجمع البيان ٤: ٤٤٠.

٥. تفسير روح البيان ٣: ١٩.

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ لَكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا قَدْرَ، وَيَزْعُمُونَ [أَنْ] الْمَشِينَةَ وَالْقُدْرَةَ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ»^١.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [٢٥]

ثم لما بين الله سوء حال المشركين في الآخرة، ذكر سوء حالهم في الدنيا، وشدة قساوة قلوبهم، وعدم تأثرهم بالآيات [يقوله]: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» حين تقرأ القرآن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: حضر عند رسول الله ﷺ أبو شفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعقبة وعتبة وشيبة أبناء ربيعة، وأمّية وأبي ابن خلف، والحارث بن عامر، وأبو جهل، واستمعوا إلى حديث رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: لا أدري ما يقول، لكنني أراه يُحرّك شفتيه ويتكلّم بأساطير الأولين كالذي كنتُ أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى، وقال أبو شفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقًا. فقال أبو جهل: كلاً، فانزل الله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ»^٢.

«وَجَعَلْنَا» وأنشأنا «عَلَى قُلُوبِهِمْ» من الكبر والحسد وحُب الدنيا، وسائر الأخلاق الذميمة «أَكِنَّةً» وأغطية مانعة من دخول الآيات فيها وتأثرها بها كراهة «أَنْ يَفْقَهُوهُ» ويفهموه حقّ الفهم، «وَجَعَلْنَا» وفي آذانهم «وَقْرًا» وصممًا كراهة أن يسمعوها حقّ الاستماع.

وفيه مبالغة في غاية جهلهم بشؤون القرآن، وتأنيهم عن قبول الحقّ، وتبعدهم عن الهداية. ثم أنه تعالى بعد ذكر طبع قلوبهم، وصمم آذانهم، أشار إلى عمى أعينهم بقوله: «وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ» ولا يُصدّقوا إعجازها، لقرط عنادهم وعُتُوهم عن قبول الحقّ، بل لا يكتفون بعدم الإيمان، ويشاققون الله «حَتَّى» إنهم «إِذَا جَاءَهُمْ» وحضروا عندك وسمِعوا منك القرآن «يُجَادِلُونَكَ» ويخاصمونك في أنه كلام الله «يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وأصروا على معاندة الحقّ: «إِنْ هَذَا» القرآن، وما هو «إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» والتّرهات التي سطّرت في كُتب السابقين، مع وضوح أنه أصدق الحديث وأحسنه عندهم.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [٢٦]

ثم بعد ذكر طعنهم في القرآن، وتكذيبهم أنه كلام الله، ذكر معاملتهم معه بقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْهُ﴾ ويمنعونهم عن الإيمان به ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ويتباعدون ﴿عَنْهُ﴾ بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم منه، وتأكيذاً لنهيهم عنه وقيل: إن الصميرين راجعان إلى الرسول ﷺ^١. ﴿وَالْحَالُ﴾ إن يُهْلِكُونَ هلاك الأبد ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بسعيهم في إطفاء نور الحق، ولا يتعدى ضرره إلى غيرهم، ﴿وَلَكِنْ مَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يدركون هذا الأمر الواضح لغاية غباوتهم.

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [٢٧]

ثم بين كيفية هلاكهم بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد، أو أيها الزاني أولئك الكفار ﴿إِذْ وَقَفُوا﴾ وأشرفوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾ والدخول فيها، رأيت أمراً هائلاً عظيماً لا يمكن بيانه. وقيل: إن جواب (لو) ما يفهم من قوله: ﴿فَقَالُوا﴾، قيل: التقدير: إنهم ينوحون ويقولون تمنياً: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ ونرجع إلى الدنيا وعالم التكليف، ونتدارك سيئاتنا، ﴿وَلَوْ أَنَّا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ وأدلة توحيده، ورسالة رسوله ﴿وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به وبنبيه.

بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [٢٨]

ثم ردهم الله سبحانه بأن هذا التمني ليس للرجعة في الإيمان، وترك التكذيب ﴿بَلْ﴾ لأجل أنه ﴿بَدَأَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بشهادة الجوارح، أو تجسم العقائد والأعمال ﴿مَا كَانُوا يُخْشَوْنَ﴾ من الكفر والجحود، وبغض الرسول، وسيئات الأعمال ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا، أو في موطن قالوا: ﴿وَالله ربنا ما كنا مشركين﴾ فخافوا من الوقوع في النار [حين] وقفوا عليها ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ وأرجعوا إلى الدنيا فرضاً، واطمأنوا بالخلاص من العذاب، والله ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ورجعوا إلى الكفر والطغيان، واستمروا على الطريقة لغفلتهم عن ما رأوا في القيامة وغلبة حب الدنيا والشهوات عليهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في التمني المتضمن للإخبار بإيمانهم، وإصلاح أعمالهم بعد الرجوع إلى الدنيا. عن القمي^٢: نزلت في بني أمية.

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ [٢٩ و ٣٠]

ثم أنه تعالى بعد حكاية تكذيبهم لآيات الله، حكى عنهم إنكار المعاد بقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وتعيشنا فيها، ثم نموت بعده ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ من القبور، ومخرجين منها إلى النشور.

ثم بين الله أن إنكارهم سيعود إلى الإقرار، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحسبوا للسؤال في محضر عدله كما يحبس العبد الجاني بين يدي مولاه للعتاب، أو المراد: إذا أطلعوا على جزاء ربهم لترى لهم حالة فضيحة.

ثم ﴿قَالَ﴾ ربهم مشافهةً أو بلسان الملك توبيخاً لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ البعث مثلاً بـ ﴿بِالْحَقِّ﴾ والواقع؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ﴾ الله: إِذْنٌ ﴿فَذُوقُوا﴾ واطعموا ﴿الْعَذَابَ﴾ طعماً ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في دار الدنيا ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالبعث وتجحدونه.

فَدَخَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ ثَمَّهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا
عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ [٣١]

ثم أن الله تعالى بعد الإعلان بغاية خسران المنكرين للتوحيد والرئاسة، أعلن بغاية خسران المنكرين للمعاد بقوله: ﴿فَدَخَسِرَ﴾ وغُيِبَ في التجارة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ﴾ وأنكروا الرجوع إليه في الدار الآخرة لجزاء الأعمال، حيث ضيعوا رأس مالهم من العقل السليم والفطرة الأصلية، وأشتروا لأنفسهم العذاب الأليم الدائم، وفوتوا عليها الثواب العظيم، وهم مستمرون على التكذيب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ ثَمَّهُمْ﴾ وظهرت عليهم ﴿السَّاعَةُ﴾ التي لا يعلم وقتها إلا الله ﴿بَغْتَةً﴾ وفجأة.

قيل: سميت القيامة بالساعة لشرة الحساب فيها كأن وقته بمقدار ساعة، أو لشروعها إلى الوقوع لكون مسافتها الأنفاس. وإنما جعلها الله غايةً لتكذيبهم مع أن الموت غايته، ازدياداً للتهويل، وإلحاقاً للموت وعالم البرزخ بالقيامة. وقد روي «أَنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتِ قِيَامَتُهُ»^٢.

ثم بين الله سبحانه أنه يحصل لهم حالتان سيئتان: إحداهما: شدة الحسرة بقوله: ﴿قَالُوا﴾ حين رأوا

السَّاعَةِ وَشِدَّةَ أَهْوَالِهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَرَى أَهْلَ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: «يَا حَسْرَتَنَا»^١ وَنَدَامَتَنَا «عَلَى مَا فَرَطْنَا» وَقَصَرْنَا «فِيهَا» وَفِي مُرَاعَاةِ حَقِّهَا، وَتَهَيَّئَةً مَا يُوجِبُ السَّلَامَةَ فِيهَا مِنْ الْعَذَابِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِهَذَا الْيَوْمِ، وَتَحْصِيلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: عَلَى مَا فَرَطْنَا فِي الدُّنْيَا^٢.

ثُمَّ يَبَيِّنُ الْحَالَةَ الْآخِرَى بِقَوْلِهِ: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ» حِينَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ «أَوْزَارَهُمْ» وَأَثْقَالِ دُنُوبِهِمْ «عَلَى ظُهُورِهِمْ إِلَّا» أَيُّهَا النَّاسُ تَنَبَّهُوا أَنَّهُ «سَاءَ» وَبِئْسَ الشَّيْءُ «مَا يَزِرُّوْنَ» وَيَحْمِلُونَ مِنَ الثَّقَلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: رَوَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ اسْتَقْبَلَهُ شَيْءٌ هُوَ أَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ صُورَةً وَأَطْيَبُهَا رِيحاً، وَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، طَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا فَارْكَبْنِي أَنْتَ الْيَوْمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا»^٣، قَالُوا: رُكَبْنَا. وَأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ اسْتَقْبَلَهُ شَيْءٌ هُوَ أَقْبَحُ الْأَشْيَاءِ صُورَةً وَأَخْبَثُهَا رِيحاً، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْفَاسِدِ طَالَمَا رَكِبْتَنِي فِي الدُّنْيَا، فَانَا أُرْكَبُكَ الْيَوْمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ»^٤.

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ [٣٢]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا وَلَذَاتُهَا مَانِعاً عَنِ التَّفَكِيرِ فِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ وَعَنِ الْإِعْتِرَافِ بِهِ وَبَاعِثاً عَلَى إِنْكَارِهِ، يَبَيِّنُ اللَّهُ غَايَةَ خَسَاسَةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا، وَكَمَالَ شَرِّ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» وَالتَّعْيِشُ فِيهَا، وَالتَّلَذُّذُ بِمَا فِيهَا «إِلَّا لَعِبٌ» وَالتَّلَازُذُ سَفْهَى سَرِيعِ الْإِنْقِضَاءِ «وَلَهْوٌ» وَشَاغِلٌ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَتَكْمِيلِ النَّفْسِ، وَهُمَا لَا يَصْلُحَانِ إِلَّا لِلصَّبِيَّانِ وَالْجُهَالِ، «وَمَا لِلْآخِرَةِ» وَنِعْمَهَا لَشَرَفِهَا وَدَوَامِهَا وَخُلُوصِهَا عَنِ الْكُدُورَاتِ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: هِيَ الْجَنَّةُ^٥ - «خَيْرٌ» وَأَفْضَلُ وَأَصْلَحُ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» اللَّهُ وَيَجْتَنِبُونَ الثُّبُوقَاتِ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أَيُّهَا النَّاسُ وَتَفْهَمُونَ ذَلِكَ؛ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَنَالُونَ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَخْرُجَنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ

اللَّهِ يَجْحَدُونَ [٣٣]

١. مجمع البيان ٤: ٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ١١٥.

٢. تفسير الرازي ١٢: ١٩٨.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٠٣.

٤. تفسير الرازي ١٢: ١٩٩.

٥. مريم: ٨٥/١٩.

ثم لما كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله والاعتقاد بالمعاد، والأشقياء منهم يُسَفِّهونهم وينسبون أخباره الغيبية إلى الكهانة، ومُعْجَراته إلى السحر، ودَعَواه الثُّبُوة إلى الكَذِب، وكان ذلك سبباً لحُزن النبي ﷺ وتكدُّر خاطره الشَّريف، سَلَّى شِبحانه قَلْب حَبِيبه بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ من الخرافات وإساءة الأدب في شأنك؛ فلا تحزَن ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ في الواقع ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكُفْر، وعليك بالإساءة والتكذيب ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والمعجزات التي أجزاها على يدك ولسانك ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويُكذِّبون، فتكذيبهم راجع إلى الله لا إليك. وفيه دلالة على كَمال مَحَبوبِيته عِنْد الله.

وقيل: إنَّ المعنى: أتهم لا يكذبونك في الباطن والسر؛ فإنهم مُتَعَدِّدون بِصِدْقك، ولكنهم يُكذِّبونك في الظَّاهر والعَلانية^١.

رُوي أن الأحنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحَكَم، أخبرني عن محمدٍ أصادقٌ هُو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غَيْرُنَا، فقال له: والله، إنَّ محمدًا لصادق، وما كَذَب قطَّ، ولكن إذا ذهبَ بِنو قُصَيِّ باللَّواء والسَّقاية والحِجَابة والثُّبُوة، فماذا يكون لسائر قُرَيش؟ فنزلت هذه الآية^٢.

ورُوي أنَّ حارث بن عامر من قُرَيش قال: يا محمد، والله ما كذبتنا قطَّ، ولكنَّا إن اتَّبعناكَ تُخْطَف من أرضنا، فنحن لا نؤمن بك لهذا السَّبب^٣.

ورُوي أنَّ رَسول الله ﷺ لقي أبا جهل فصافحه [أبو جهل]، فقيل له في ذلك، فقال: والله، إنِّي لأعلم أنه صادق، ولكنَّا متى كُنَّا تَبَعاً لِعَبد مناف، فأنزل الله الآية^٤.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أنه قرأ رجُلٌ على أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾، فقال: بلى والله، لقد كَذَّبوه أشدَّ التَّكْذِيب، ولكنها مُخَفِّفة ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أي لا يأتون بباطلٍ يُكذِّبون به حَقَّك»^٥.

وفي روايةٍ أخرى، قال: «لا يأتون بحَقٍّ يُبطلون حَقَّك»^٦.

وعن العياشي: عنه عليه السلام: «أي لا يستطيعون إبطال قولك»^٧.

وفي (المجمع): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه كان يقرأ: ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أي لا يأتون

٤. مجمع البيان ٤: ٤٥٥، تفسير الصافي ٢: ١١٦.

١. ٣- تفسير الرازي ١٢: ٢٠٥.

٦. تفسير القمي ١: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ١١٦.

٥. الكافي ٨: ٢٤١/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ١١٦.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٤١٦/٩٧، تفسير الصافي ٢: ١١٦.

٨. في المصدر: كان يقرأ ﴿لا يكذبونك﴾ ويقول: إن المراد بها أنهم.

بِحَقِّ أَحَقِّ مِنْ حَقِّكَ^١.

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمُوسِيِّينَ [٣٤]

ثم بالغ سبحانه في تسلية نبيه ﷺ ببيان ابتلاء عموم الرُّسل بتكذيب أممهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ كثيرة وذوو معارج باهرة، بُعثوا إلى النَّاسِ ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي القرون السابقة على بعثتك ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ وأنت أولى منهم بالصبر ﴿وَأَوْدُوا﴾ بأنواع الأذى من الضرب والسَّتم وغير ذلك، واستمروا على ذلك مدة طويلة ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ والظفر مينا، وأنت أحق بالنصر والظفر على قومك.

ثم أكد وعد النصر بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ ولا مغيِّر ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وعِداته، ولا موجب للخلف فيها، ولذا لم يتفق ذلك في وعد سائر الرُّسل ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ﴾ في القرآن، وبلغك بالوحي كثير ﴿مِنْ نَبِيِّ الْأُمُوسِيِّينَ﴾ السابقين، أنهم كيف كُذِّبُوا وأودوا وصبروا أولاً، ثم نُصِرُوا على قومهم أخيراً، فيكون حالك كحالهم.

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ
سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ [٣٥]

ثم تبه سبحانه على أنه لا حيلة له إلا الصبر تسكيناً لحرصه البالغ على إيمان قومه، بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ وشقَّ ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان بك وبكتابك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت على ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ ومنفذاً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿أَوْ سُلْمًا﴾ ومصعداً ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فتصعد إليها ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ من جوف الأرض أو من فوق السماء ﴿بِآيَةٍ﴾ يخضعوا لها ويلجأوا إلى الإيمان بها، فافعل، ولا تقدر على ذلك.

عن القمي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام [قال]: «كان رسول الله ﷺ يحب إسلام الحارث [بن عامر] بن نوفل بن عبد مناف، ودعاه وجهده به أن يسلم، فغلب عليه الشقاء، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فانزل الله هذه الآية»^٢.

وعن ابن عباس عليه السلام: أن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النبي صلى الله عليه وآله في نفر من قريش، فقالوا: يا محمد، آتينا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل، فإننا نصدق بك، فأبى الله أن يأتيهم بها، فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية^١.

ثم أشار سبحانه إلى علة عدم إنزال ما اقترحوه من الآية بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ هِدَايَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ لَجَمَعْتُهُمْ﴾ والزهم ﴿عَلَى الْهَدَى﴾ ودين الحق، ولكن لم يشأ ذلك لخبث ذاتهم، وغاية فساد أخلاقهم، فمنعهم التوفيق، وشملهم الخذلان ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ ألبنة ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بشدة الله وحكمته، وبخبث المشركين وعدم قابليتهم للهداية.

عن القمي عليه السلام: مخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله والمعنى الناس^٢

عن النبي صلى الله عليه وآله: «يا علي، إن الله قد قضى الفرقة والاختلاف على هذه الأمة، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى حتى لا يختلف اثنان من هذه الأمة ولا يتنازع في شيء من أمره، ولا يجحد المفضول لذي الفضل فضل»^٣.

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [٣٦]

ثم تبه الله سبحانه على علة عدم هدايتهم، وعدم تأثرهم بالآيات والمواعظ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ دعوتك إلى التوحيد والإيمان بك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مواظك سمع القبول، ويفهمون كلامك فهم تدبر، لا الذين لا يسمعون دعوتك، ولا يفهمون كلامك؛ فإنهم بمنزلة الموتى لا سمع لهم ولا فهم، حتى يتأثروا بمواعظك، ويهتدوا بهدايتك ﴿وَهُؤَلاءِ الْمَوْتَى﴾ سوف ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ ويخرجهم أحياء من قبورهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ﴿يُرْجَعُونَ﴾ في القيامة؛ فيجازيهم على كفرهم، فحيثنذ يسمعون ويستجيبون ولكن لا ينفعهم.

قيل: إنما سمى الله الكفار موتى؛ لأن العقل والمعرفة حياة الروح، والروح حياة الجسد، فكما أن الجسد إذا فارقه الروح يكون ميتاً، فكذا الروح إذا فارقه العقل والمعرفة يكون ميتاً، فموتهم يكون روحانياً.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ [٣٧]

٢. تفسير القمي ١: ١٩٨، تفسير الصافي ٢: ١١٨.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٠٧.

٣. كمال الدين: ١٠/٢٦٤، تفسير الصافي ٢: ١١٧.

ثم حكى الله لجاج المشركين مع النبي ﷺ بأقتراحهم، بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ عناداً وتعنتاً، لا طلباً لوضوح الحق: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومُعْجزة غير الذي جاء به ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ كناقاة صالح، وعصا موسى ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ عظيمة حسبما اقترحتموه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن نزول الآية يكون وبالأعلى عليهم؛ حيث إنهم إذا لم يؤمنوا بها لهلكوا كما عن القمي ﷺ^١. أو لا يعلمون أن إجابة مسؤولهم متافية للحكمة؟ أو لا يعلمون أنه لا يحسن إجابة السؤالات التعنتية عند العقل. عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «سيترككم في آخر الزمان آيات منها دابة الأرض، والدجال، ونزول عيسى بن مريم، وطلوع الشمس من مغربها»^٢.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ [٣٨]

ثم لما بين سبحانه قدرته على إنزال كل آية، وأن حكمته مانعة عنه، استشهد على كمال قدرته وحكمته بخلق جميع الحيوانات، وتنظيم أمورها على وفق الحكمة بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وحيوان متحرك يدب ويتحرك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وقطر من أقطارها ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ فِي الْجَوِّ ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ﴾ وجماعات ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ محفوظة أحوالها، مقدرة أرزاقها وآجالها، مقطورة على معرفة خالقها. ومعلوم أن القادر على خلقها وتدبير جميع أمورها قادر على إنزال آية.

وإنما ذكر (جناحيه) لدفع احتمال إرادة السرعة من الطيران.

ثم نبه سبحانه بعد بيان هذه المعارف على وفور ما في القرآن من العلوم بقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ وما تركنا ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ المنزل إليكم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من العلوم المحتاج إليها. ثم بين أن سائر الحيوانات مثلكم في الحشر إلى القيامة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ ويبحثون لإحقاق حقهم من ظالميه، ولاشفاء جزائهم على ما صدر منهم من الخيرات.

عن النبي ﷺ، قال: «يَقْتَصُّ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْآنِ»^٣.

وعنه عليه السلام، أنه أبصر ناقةً معقولة وعليها جهازها، فقال: «أَيْنَ صَاحِبُهَا؟ مُرَّوهُ فَلْيَسْتَعِدَّ [غداً] لِلْخُصُومَةِ»^٤.

١ و ٢. تفسير القمي ١: ١٩٨، تفسير الصافي ٢: ١١٨. ٣. تفسير الرازي ١٢: ٢١٤.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٦٧/١٩١، تفسير الصافي ٢: ١١٩.

وعن الصادق عليه السلام: «أي يعبر حُجَّ عليه ثلاث سنين، جعل من نَعَم الجنة^١، وفي رواية: «سبع سنين»^٢.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ
يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٣٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان كمال قدرته، ودفع اعتراض المشركين في الثبوت، ذم المكذبين، بقوله: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» من القرآن العظيم وسائر المعجزات «صُمُّ» عن استماع دعوة النبي إلى التوحيد، ودين الحق، والمواعظ الإلهية «وَبُكْمٌ» عن الإقرار بالتوحيد والثبوت، والنطق بالخير، غمي لكونهم خائضين «في» أنواع «الظُّلُمَاتِ» من الجهل والكفر وحُب الدنيا والشهوات، بحيث لا يرون المعجزات والآيات.

ثم تبه سبحانه على أن الكفر والضلال يكون بسبب خذلانه، والهداية بتوفيقه بقوله: «مَنْ يَشَأِ اللَّهُ» ضلّاته لأجل حُب طيبته ورذالة أخلاقه «يُضِلُّهُ» عن طريق الحق والصواب البتة بخذلانه وإيكاله إلى نفسه «وَمَنْ يَشَأِ» هدايته وخيره «يَجْعَلُهُ» ويضعه «عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» يوصله إلى كل خير، ويوقفه للسُّلوك في الدين القويم والعمل به.

عن القمي عليه السلام: عن الباقر عليه السلام: «نزلت في الذين كذبوا الأوصياء، هم صُمُّ وبُكْمٌ كما قال الله: «في الظُّلُمَاتِ»، [مَنْ كَانَ] من ولد إبليس فإنه لا يُصَدِّق بالأوصياء، ولا يؤمن أبداً، وهم الذين أضلهم الله، وَمَنْ كَانَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ آمَنَ بِالْأَوْصِيَاءِ فَهُمْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^٣.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ
مَا تَشْرِكُونَ [٤٠ و ٤١]

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله بالاستيفهام التقريري من المشركين والسؤال التبكيتي عنهم بقوله: «قُلْ» يا محمد لهم: «أَرَأَيْتُمْ كُنْتُمْ» وأخبروا في «إِنْ أَتَاكُمْ» ونزل عليكم «عَذَابُ اللَّهِ» في الدنيا، كما نزل على الذين من قبلكم من الأمم «أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ» وجاءتكم القيامة التي فيها العذاب والأهوال

١. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٧٢/١٩١، تفسير الصافي ٢: ١١٩.

٢. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٧٣/١٩١، تفسير الصافي ٢: ١١٩.

٣. تفسير القمي ١: ١٩٩، تفسير الصافي ٢: ١١٩.

﴿أَعِزَّ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ وهل إلى ما سواه من الأصنام تلجئون لكشف العذاب والتخلص من الأحوال؟ أم إليه تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى ألوهية أصنامكم، ومن المعلوم أنكم لا تدعون غير الله ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وإليه خاصة تلجئون لكشف العذاب عنكم في الدنيا والآخرة، لمعرفتكم بالفيطرة أنه لا قدرة لغيره على كشفه ﴿فَيَكْشِفُ﴾ إثر دعائكم ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ الله ﴿إِلَيْهِ﴾ من العذاب ﴿إِنْ شَاءَ﴾ كشفه، واقتضت حكمته الإجابة ﴿وَتَسْئَلُونَ﴾ وتتركون ﴿مَا﴾ كنتم ﴿تُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام. عن ابن عباس رضي الله عنه: المراد: تتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلكم بأنهم لا تضر ولا تنفع^١. وقيل: إن المراد: لا تذكرونها في ذلك الوقت من شدة الهول والوحشة^٢.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ [٤٢]

ثم لما ذكر سبحانه أنهم عند معايتهم العذاب الشديد يدعونهم دون غيره، تبه على أنه قد يتبليهم بالبليات الدنيوية العادية لتأديبهم، وصرف قلوبهم إلى ذاته المقدسة وأرتدعهم عن الكفر والعصيان بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَى أُمَمٍ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقبل عصرك، فكذبوهم وخالفوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وأبليناهم ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ كالقفر والمحط، كالأمراض والأوجاع، ونقصان الأموال والأنفس ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنهم ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويخشعون لنا، ويتقادون للرسل.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٣-٤٥]

ثم لام المصرين منهم على الكفر، وبخهم بعدم تأثرهم بتلك البليات بقوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ وهلاك ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ وعذابنا ﴿تَضَرَّعُوا﴾ إلينا في دفعه والتخلص منه مع انحصار طريقه فيه، وعدم العذر في تركه، ثم ذمهم ببيان ما ينعمهم عنه بقوله: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وصبأت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بحيث لم يكن فيها رقة وخوف ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ وحسن في نظرهم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادة

الأصنام، ومعارضة الرُّسل، وتَوَعُّلهم في المعاصي، وإنهماكهم في الشهوات ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ لذلك ﴿مَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا ﴿بِهِ﴾ من البليات اللاتي كانت، أخذهم بها لاجل اتعاضهم بها وتوبتهم من الشرك والمعاصي، استدرجناهم بأن ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ﴾ من جميع الجهات ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المنافع التي كانت مغلقة عنهم، وكثرنا عليهم النعم من الصحة والقوة والسعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا﴾ وبطروا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم، واشتغلوا باللذات، وأنهمكوا في الشهوات ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستنصال ﴿بِغَتَّةٍ﴾ وفجأة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة، متحسرون على ما فاتهم من النعم الدنيوية والأخروية.

قيل: إن عذاب الاستدراج أشد، لكون التحسر فيه أشد^١.

عن الباقر عليه السلام: «إذا رأيت الله يعطي على المعاصي، فإن ذلك استدراج منه» وتلا هذه الآية^٢.

وفي الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة، ويذكره الاستغفار، وإذا أراد الله تعالى بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها»^٣.

وعن القمي عليه السلام: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ» يعني: [فلما] تركوا ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد أمروا بها ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ذونهم^٤ في الدنيا، ومابسط لهم فيها ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ﴾ يعني: بذلك قيام القائم، حتى كأنهم لم يكن لهم سلطان قط^٥.

وقيل: إن المقصود أنه تعالى عاملهم بتسليط المكاره والشدائد عليهم تارة، فلم يتفنعوا به، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها وهو فتح أبواب الخيرات عليهم، وتسهيل موجبات المسرات والسعادات لديهم، فلم يتفنعوا [به] أيضاً، وهذا كما يفعله الأب الشفيق بولده، يخاشنه تارة، ويلاطفه أخرى طلباً لصلاحه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخيرات والنعم، لم يزدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر، ولا إقدام على اغتدار وتوبة، فلا جرم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ﴾^٦.

﴿فَقَطِّعَ﴾ واشتوصل ﴿ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم، وفنوا من أولهم إلى آخرهم، ثم لما كان إهلاكهم تظهيراً للأرض، ونعمة على الرُّسل والمؤمنين، حميد ذاته المقدسة بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاكهم، وتظهير الأرض منهم، وإراحة أوليائه من شرهم.

٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: عن النبي صلى الله عليه وآله.

٤. علل الشرائع: ١/٥٦١.

٦. تفسير القمي ١: ٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ١٢١.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٦.

٣. مجمع البيان ٤: ٤٦٧، تفسير الصافي ٢: ١٢٠.

٥. في المصدر: يعني دولتهم.

٧. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٦.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ آيَاتِ تُمْ هُمْ يَصْدِفُونَ [٤٦]

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بإقامة البرهان على توحيده للمشركين، وأخذ الإقرار منهم به بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ وسلب عنكم ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ اللذين هما أشرف القوى الظاهرية ﴿وَخَتَمَ﴾ وطبع ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وأزال عقولكم التي هي أشرف القوى الباطنية.

عن ابن عباس رضي الله عنه، معناه: وطبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى^١.

القمي: عن الباقر عليه السلام «إذا أخذ الله منكم الهدى»^٢.

﴿مَنْ إِلَهٌ﴾ قادر ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ العزيز المقتدر ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ ويرد إليكم ما أخذ منكم، وينعم عليكم ﴿بِهِ﴾ فبالبدية لا قادر عليه إلا الله، فهو المستحق للعبادة دون الأصنام وغيرها.

﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد وتعجب ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ ونقرر ﴿الآيَاتِ﴾ والبراهين والإنذارات والتبشيرات بأساليب متفاوتة وبيانات مختلفة ﴿تُمْ﴾ المشركون ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ويعرضون عنها، ولا يؤمنون بها.

وفي لفظ (ثم) إشارة لغاية بعد ذلك من العاقل.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ [٤٧]

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بسؤال فيه تهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ ونزل عليكم ﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾ في هذه الدنيا ﴿بَغْتَةً﴾ وبغير سبق أمانة تدلّكم على إتيانه - وقيل: يعني: ليلاً^٣ - ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ ومع سبق الأمانة عليه - وقيل: يعني: نهراً^٤ - ماذا يكون حالكم؟ ثم بين الحال بقوله: ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ به هلاك السخط والأبد ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالشرك والمعاصي، وأنتم هم.

عن القمي رضي الله عنه: نزلت لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصاب أصحابه الجهد والعِلَل

٢. تفسير القمي ١: ٢٠١، تفسير الصافي ١: ١٢١.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٧.

٣ و٤. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٨، تفسير أبي السعود ٣: ١٣٥.

والمرض فشكوا ذلك إليه، يعني لا يصيبكم^١ إلا الجهد والضّر في الدنيا، فأما العذاب الأليم الذي فيه الهلاك، فلا يصيب إلا القوم الظالمين^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «يؤخذ بنو أمية بغتة، وبنو العباس جهرة»^٣.

وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ [٤٨ و ٤٩]

ثم لما كان المشركون يعارضون النبي ﷺ باقتراحهم، كما حكى الله عنهم قولهم: «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّهِ»، ويقدحون في ثبوته بعدم إجابة مسؤولهم، ردّهم الله بقوله: «وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ» لأن يفتّح عليهم المعجزات، فإنها بيد الله يظهرها على مقتضى حكمته، بل ليس الغرض من إرسالهم «إِلَّا» أن يكونوا «مُبَشِّرِينَ» للناس بالجنة والمغفرة على الإيمان والعمل الصالح «وَمُنْذِرِينَ» لهم بالعذاب على الكفر والعصيان.

هذه وظيفة الرّسول وشأن الرّسالة، وأما الناس «فَمَنْ آمَنَ» بما يجب الإيمان به «وَأَصْلَحَ» عمله وأخلاقه «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من الهلاك والعذاب «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» في الآخرة على ما فاتهم من الدنيا، وما لم ينالوا من أعلى الدرجات في الجنة «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» وأنكروا براهين التوحيد ومعجزات الأنبياء «يَمَسُّهُمْ» ويصيبهم «الْعَذَابُ» الشديد في الآخرة «بِمَا كَانُوا» في الدنيا «يَفْسُقُونَ» من الشّرك والتّمرّد عن طاعة الله ورّسوله.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ [٥٠]

ثم أمر النبي ﷺ بالجواب عن اقتراحاتهم بقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ» وما ادّعي أن «عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ» أن لي قدرته الكاملة على إيجاد الممكّنات والتصرّف فيها كيف أشاء، حتّى تفتّحوا عليّ إنزال الكتاب من السماء، أو قلب الجبال ذهباً، أو غيرها «وَلَا أَعْلَمُ» بنفسى «الْغَيْبَ» الذي حصّ ذاته المقدّسة به حتّى تسألوني عن وقت الساعة، أو وقت نزول العذاب، أو نحوهما «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي

١. في المصدر: فشكوا ذلك الى رسول الله ﷺ، فأذن الله عزّ وجلّ «قل» لهم يا محمّد: «أرايتم... الظالمون» أي أنهم لا يصيبهم.

٢. تفسير القمي ١: ٢٠١، تفسير الصافي ٢: ١٢١.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٤١٩/٩٨، تفسير الصافي ٢: ١٢١.

مَلَكٌ ﴿ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى تَكَلِّفُونِي الرُّقْيَ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ تَتَوَقَّعُوا مِنِّي أَنْ لَا أَكُلَ الطَّعَامَ وَلَا أَمْشِيَ بَيْنَ النَّاسِ.

قيل: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَاطْلُبْ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُوسِّعَ عَلَيْنَا مَنَافِعَ الدُّنْيَا وَخَيْرَاتِهَا، وَيَفْتَحْ عَلَيْنَا أَبْوَابَ السَّعَادَاتِ^١. وكانوا يقولون: إِنْ كُنْتَ رَسُولًا فَأَخْبِرْنَا عَمَّا يَفْعَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ، حَتَّى نَسْتَعِدَّ لِحَصِيلِ تِلْكَ الْمَصَالِحِ، وَلِنُدْفِعَ الْمَضَارَّ^٢. وكانوا يقولون: مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ^٣.

وقيل: إِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِصَّةِ التَّبَرِّيِّ مِنَ دَعْوَى الْأُلُوهِيَّةِ^٤.

ثُمَّ أَنَّهُ ﷺ بَعْدَ التَّبَرِّيِّ عَنِ الدَّعَاوِي الثَّلَاثِ، أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الثَّبُوتَ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْكَمَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَامْتِيَازِهِ عَنِ سَائِرِ النَّاسِ بِمَنْصِبِ الرِّسَالَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ فِي قَوْلِي وَعَمَلِي ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ مِنْ رَبِّي، دُونَ رَأْيِي وَاجْتِهَادِي، وَلَا أُوَدِّي إِلَيْكُمْ إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى. وَهِيَ مِنَ الْكَمَالَاتِ الْمُحْتَمَلَةِ لِلْبَشَرِ، لَا مَجَالَ لِاشْتِبَاعِ ثُبُوتِهَا لَهُ، فَضْلًا عَنِ الْجَزْمِ بَعْدَهَا.

عَنِ الرِّضَا ﷺ، أَنَّهُ شَتَلَ يَوْمًا وَقَدْ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَدْ كَانُوا تَنَازَعُوا فِي الْحَدِيثَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ حَرَامًا وَأَحْلَلَ حَلَالًا وَفَرَضَ فَرَائِضَ، فَمَا جَاءَ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ تَحْرِيمِ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ، أَوْ رَفَعَ فَرِيضَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ رَسْمَهَا [بَيْنَ] قَائِمٍ بِلَا نَاسِخٍ^٥ نَسَخَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَسَعُ الْأَخْذَ بِهِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيُحَرِّمَ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ، وَلَا لِيُحِلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَا لِيُغَيِّرَ فَرَائِضَ اللَّهِ وَأَحْكَامَهُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ كُفْلُهُ مُتَّبِعًا مُسْلِمًا مُؤَدِّيًا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، فَكَانَ ﷺ مُتَّبِعًا لِلَّهِ مُؤَدِّيًا عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَبْلِغِ الرِّسَالَةِ^٦.

ثُمَّ أَكَّدَ عَدَمَ تَسَاوِيهِ لِسَائِرِ النَّاسِ بِوُجُودِ مَلَكَ الرِّسَالَةِ فِيهِ مِنَ الْبَصَارَةِ فِي قَلْبِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ الْكَامِلَةَ بِاللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وَالْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ بِاللَّهِ وَبِحَقَائِقِ الْأُمُورِ، وَالضَّالُّ وَالْمُهْتَدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: لَا تَسْمَعُونَ كَلَامِي الْحَقِّ فَتَتَفَكَّرُونَ فِيهِ^٧ حَتَّى تَعْرِفُوا الْفَرْقَ بَيْنَ الْأُلُوهِيَّةِ، وَالثَّبُوتِ، وَالبَشَرِيَّةِ، وَبَيْنَ الْجَاهِلِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالْعَالِمِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

١- ٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٠. ٤. تفسير البيضاوي ١: ٣٠٢.

٥. في النسخة: نسخ. ٦. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ٤٥/٢٠، تفسير الصافي ٢: ١٢٢.

٧. تفسير أبي السعود ٣: ١٣٧، تفسير روح البيان ٣: ٣٤.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [٥١]

ثم أمره الله سبحانه بإنذار الناس على حسب وظيفة الرسالة بقوله: ﴿وَأَنْذِرْ﴾ بالقرآن أو بما يؤحي إليك، وخوف ﴿بِهِ﴾ من عقاب الله ﴿الَّذِينَ﴾ يعتقدون بالمعاد كالمؤمنين وأهل الكتاب، والذين يترددون فيه من أهل الشرك ﴿يَخَافُونَ﴾ من ﴿أَنْ﴾ يُخْشَرُوا، و ﴿يُخْشَرُوا﴾ من قُبورهم، ويساقوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحكمه لجزاء أعمالهم، في حال ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَمِمَّنْ سِوَاهُ﴾ و﴿لَوْلَىٰ﴾ وناصر يدفع عنهم العذاب بالقوة والقهر ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم في أن يعفى عن عقوبتهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنهم ﴿يَتَّقُونَ﴾ ويحترزون عن العقائد الفاسدة والأعمال السيئة، ويتوبون من ذنوبهم المثوبة.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: معناه: إنذارهم لكي يخافوا في الدنيا، ويتنزهوا عن الكفر والمعاصي^١.

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ [٥٢]

ثم لما بين سبحانه مهانة المشركين عنده واستحقاقهم عذابه، نهى نبيه ﷺ عن إهانة المؤمنين وتبعيدهم عن مجلسه بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدْ﴾ ولا تبعد عن محضرك المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿رَبَّهُمْ﴾ ويصلون ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ صلاة الصبح والعصر، أو يذكرونه في كل حال، وهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعبادتهم ودعائهم وذكرهم ﴿وَجْهَهُ﴾ ومرضاته، لا الرياء والسُّمعة وسائر الأعراض الدنيوية.

ثم أكد النهي ببيان عدم العلة لطردهم بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى تملهم. قيل: إن المشركين قالوا: يا محمد، إنهم اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنهم يجدون بهذا السبب مأكولاً وملبوساً عندك، وإلا فهم فارغون عن دينك^٢.

فقال الله: ليس عليك ضرر عقائدهم الباطنية، وأعمالهم السيئة الخفية حتى تستحقهم، وتطعن في إيمانهم فيشوغ لك طردهم، وإنما عليك الاعتبار بظاهر حالهم وهو اتسامهم بسملة المتقين ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾ وجزاء أعمالك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ويبداهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى تخافهم وتنفر منهم.

وقيل: إن المعنى: أن ضَرَر أعمالهم لا يرجع إليك، كما أن ضَرَر أعمالك لا يعود إليهم^١.
 وقيل: إن رزقهم ليس عليك، كما أن رزقك ليس عليهم^٢ ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ عنك، لذلك إذن فلا تطردهم ﴿فَتَكُونُ﴾ بسبب طردهم ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على نفسك بجرمان الأجر، وعليهم بمنعهم مما يستحقون من مزيد التقرب والإلطف.

نسي بيان حال أصحاب الصفة عن الثمعي^٣ قال: كان سبب نزولها أنه كان بالمدينة قوم فقراء مؤمنون يُسمون أصحاب الصفة^٤، وكان رسول الله ﷺ أمرهم أن يكونوا في صفة يأوون إليها، وكان رسول الله ﷺ يتعاهدهم بنفسه، وربما يحمل إليهم ما يأكلون، وكانوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ فيقرَّبهم ويقعد معهم ويؤنسهم، وكان إذا جاء الأغنياء والمترفون من أصحابه يُنكرون عليه ذلك ويقولون: اطردهم عنك، فجاء يوماً رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وعنده رجل من أصحاب الصفة قد لَزِق برسول الله ﷺ يحدثه، فقعد الأنصاري بالبعد منهما، فقال له رسول الله ﷺ: «تقدم»، فلم يفعل، فقال رسول الله ﷺ: «لعلك خفت أن يلزق فقره بك؟» فقال الأنصاري: اطرد هؤلاء عنك. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية^٥.

وعن عبد الله بن مسعود، أنه قال: مرَّ الملا من قريش على رسول الله ﷺ وعنده ضُحَيْب وخبَّاب وبلال وعمار وغيرهم من ضُعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أَرْضِيتَ بهؤلاء عن قومك؟ أفنَحْنُ نكون تبعاً لهؤلاء؟ فاطردهم عن نفسك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك، فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين»، فقالوا: فأقيمهم عنا إذا جئنا، فإذا قُمنا فاقعدهم معك إن شئت، فقال: «نعم» طمعاً في إيمانهم^٥.

وروي أن عمر قال له: لو فعلتَ حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، ثم ألحوا وقالوا للرسول ﷺ: اكتب لنا بذلك كتاباً، فدعا بالصَّحِيفَةَ وبعلي عليه السلام ليكتب، فنزلت هذه الآية، فرمى الصَّحِيفَةَ واعتذر عمر عن مقالته، فقال سلمان وخبَّاب: فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا وندنو منه حتى تمسَّ رُكْبَتَنَا رُكْبَتَهُ، وكان يقوم عنا إذ أراد القيام، فنزل قوله: ﴿واصبر﴾ الخبر.

وفي رواية: أن رؤساء قريش قالوا للرسول ﷺ حين رأوا في مجلسه [الشريف] فقراء المؤمنين مثل [ضُحَيْب و] عمار وخبَّاب وبلال وسلمان وغيرهم: لو طردت هؤلاء الأعبُد وأرواح

٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٧.

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٦.

٣. الصَّفة: وهو مكان مظلل في مسجد المدينة يأوي إليه فقراء المهاجرين وبرعاهم الرسول ﷺ.

٥. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٤.

٤. تفسير القمي ١: ٢٠٢، تفسير الصافي ٢: ١٢٣.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٤.

جبابهم - وكان عليهم حجاب صوف لا غير - لجالسناك وحادثناك، فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين»، فقالوا: فإذا نحن جئناك فأقيمهم عنا حتى يعرف العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء، فإذا قمنا عن مجلسك فأقعدهم معك إن شئت، فهم ﷺ أن يفعل ذلك طمعاً في إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية^١.

وقد غلط من استدل بالآية على عدم عصمة الأنبياء ﷺ.

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [٥٣]

ثم بين سبحانه أن فقر المؤمنين فتنة للأغنياء من المشركين بقوله: «وَكَذَلِكَ» الفتن والابتلاء «فَتَنَّا» وابتلينا «بَعْضَهُمْ» الأغنياء «بِبَعْضٍ» الفقراء من المؤمنين، بأن قدمناهم وفضلناهم مع فقرهم على أشراف قریش في أمر الدين «لِيَقُولُوا» في العاقبة: لجهلهم بحناف الفضل عند الله، مشيرين إلى فقر المؤمنين، محقرين لهم: «أَهَؤُلَاءِ» الفقراء الأذلاء «مَنَّ اللَّهُ» وأنعم «عَلَيْهِمْ» بالهداية والتوفيق لإصابة الحق «مِنْ بَيْنِنَا» ونحن الأشراف والرؤساء.

قيل: إن رؤساء الكفار وأغنياءهم كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام، مسارعين إلى قبوله، فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن نقاد لهؤلاء المساكين، وأن نعترف لهم بالتبعية، فكان ذلك يشق عليهم^٢. فردهم الله بقوله: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ» لنعمة هدايته، والتوفيق للإيمان والعمل الصالح.

ففيه تنبيه على أن علة تزيينهم والإنعام عليهم شكرهم لنعمة الرسول والقرآن، والتسليم لحكمهما، وهؤلاء المشركون بمعزل من ذلك.

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٥٤]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن إهانة المؤمنين أمر نبيه ﷺ بإكرامهم بقوله: «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا» ويسلمون لدلائل توحيدنا وإعجاز كتابنا «فَقُلْ» تكريماً لهم وتعطفاً بهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»

من كُلِّ آفَةٍ وَمَكْرُوهٍ جِسمَانِي وَرُوحَانِي.

ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ «كُتِبَ» وَحَتَمَ «رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» وَالتَّفَضُّلَ عَلَيْكُمْ.

ثُمَّ فَسَّرَ «أَنَّهُ» رَحْمَتَهُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ» عَمَلًا «سُوءًا» وَازْتَكَبَ ذَنْبًا كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا «بِجَهَالَةٍ» وَغَفَلَةً عَنْ قُبْحِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ «ثُمَّ تَابَ» وَنَدِمَ عَلَى عَمَلِهِ «مِنْ بَعْدِهِ» وَسَأَلَ اللَّهَ الْعَقْفَ عَنْ عُقُوبَتِهِ «وَأَصْلَحَ» مَا أَفْسَدَهُ قَبْلَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ وَيَرْحَمَهُ «فَأَنَّهُ غَفُورٌ» لِلذُّنُوبِ «رَحِيمٌ» بِعِبَادِهِ بِاعْطَانِهِمُ الثَّوَابَ.

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الصُّفَّةِ الَّذِينَ نَهَى اللَّهُ عَنْ طَرْدِهِمْ^١.

عَنْ عِكْرَمَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَاهُمْ بِدَاهِمٍ بِالسَّلَامِ وَيَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمْتِي مِنْ أَمْرِنِي أَنْ أَبْدَاهُ بِالسَّلَامِ»^٢.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ عُمَرَ لَمَّا اعْتَذَرَ مِنْ مَقَالَتِهِ وَأَسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْهَا، وَقَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^٣.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ أَقْدَمُوا عَلَى ذُنُوبٍ، ثُمَّ جَاءَ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُظْهِرِينَ لِلنَّدَامَةِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِمْ^٤.
عَنْ (الْمَجْمَعِ): عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي التَّائِبِينَ»^٥.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي حَمْزَةٍ، وَجَعْفَرٍ، وَعَمَّارٍ، وَمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَغَيْرِهِمْ^٦.

وَكَذَلِكَ نَفْصُلُ آيَاتِ وَلِسْتَسْبِيْن سَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ [٥٥]

«وَكَذَلِكَ» التَّفْصِيلُ وَالتَّبَيِّنُ الْوَاضِحُ لِدَلَالَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّوْبَةِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ «نَفْصُلُ الْآيَاتِ» وَتَبَيَّنَ جَمِيعٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ لِيُظْهَرَ الْحَقُّ كُلَّهُ «وَلِسْتَسْبِيْن» وَتُظْهِرُ لَكَ «سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ» وَالمُشْرِكِينَ، وَسَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّحِدِينَ، وَيُمْتَازَ طَرِيقَهُمَا.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ

ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [٥٦]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ شَبْحَانَهُ أَنْ تَفْصِيلُ الْآيَاتِ لِاسْتِثْنَاءِ سَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ، نَهَى النَّاسَ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِهِمْ بِقَوْلِهِ: «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: «إِنِّي» بِحُكْمِ عَقْلِي السَّلِيمِ، وَدَلَالَةِ الْآيَاتِ وَالتَّبَرَاهِينَ عَلَى

التوحيد ﴿نُهِيتُ﴾ وَمُنِعْتُ مِنْ قِتْلِ رَبِّي ﴿أَنْ أُعْبِدَ﴾ الأصنام ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ أَفْوِهِ وَمِمَّا سِوَاهِ﴾ قُلْ لَهُمْ قِطْعاً لَأَطْعَمَهُمْ: إِنِّي ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ التي دَعَنْتُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَحْجَارِ وَالْأَخْشَابِ وَسَائِرِ مَا عَمِلْتُمْ أَيْدِيكُمْ، مَعَ وَضُوحِ عَدَمِ قَابِلِيَّةِ شَيْءٍ مِنْهَا لِعِبَادَةِ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ مِنْهَا وَمِنْ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ، وَعَدَمِ الدَّاعِي إِلَيْهَا إِلَّا مَخْضُ الْهَوَى، بَلْ أَتَّبِعْ عَقْلِي النَّاهِي عَنْهَا وَالْحَاكِمِ بِأَنْ شَيْئاً مِمَّا سِوَى اللَّهِ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، فَإِنْ وافَقْتُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَإِنِّي ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ﴿إِذَا﴾ كَمَا ضَلَلْتُمْ بِحُكْمِ الْعَقْلِ الْفِطْرِيِّ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُفْتَنِينَ﴾ إِلَى شَيْءٍ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا أَنْتُمْ لَا تَهْتَدُونَ إِلَيْهِ . قِيلَ: إِنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَانُوا يَدْعُوهُ ﷺ إِلَى رَبِّهِمْ^١.

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ [٥٧]

ثُمَّ لَمَّا تَبَرَّأَ مِنَ الشُّرْكِ وَاتَّبَعَ الْهَوَى، أَمَرَهُ شَبِيحَانِهِ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اتِّبَاعِ الْبَرَهَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِنِّي﴾ فِي مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّبَرِّيِّ مِنَ الشُّرْكِ ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ، وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ كَائِنَةٍ ﴿مِنْ﴾ قِيلَ ﴿رَبِّي﴾ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَسَائِرِ مَعَارِفِهِ وَصِفَاتِهِ. وَهِيَ كِتَابَةُ النَّاطِقِ بِالْحَقِّ، ﴿وَوُضِّعَ﴾ كَذَّبْتُمْ بِهِ، وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ، فَاسْتَعْدَّوْا لِلْعَذَابِ الَّذِي أَوْعَدَهُ اللَّهُ عَلَى الشُّرْكِ وَتَكْذِيبِ الْقُرْآنِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنِّي التَّعْجِيلَ فِي نَزْوِلِهِ، فَإِنَّهُ ﴿مَا عِنْدِي﴾ وَلَيْسَ بِإِرَادَتِي ﴿مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا حُكْمَ لِي فِيهِ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ فِي تَعْجِيلِهِ وَتَأْخِيرِهِمَا مِنَ الْأُمُورِ لِأَحَدٍ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وَحْدَهُ، وَكُلَّمَا يَقْضُ وَيُخْبِرُ بِالْعَذَابِ أَوْ بغيرِهِ ﴿يَقْضُ﴾ وَيُخْبِرُ ﴿الْحَقُّ﴾ وَالصَّدْقُ لَا خُلْفَ فِيهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ وَالْحَاكِمِينَ بَيْنَ عِبَادِهِ.

قِيلَ: إِنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيْشٍ كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَيَقُولُونَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ اسْتِهْزَاءً وَالزَّمَامَ، حَتَّى قَامَ النَّصْرُ مِنَ الْحَارِثِ فِي الْحُطَيْمِ وَقَالَ: ﴿أَلَلَّهُمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^٢.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ [٥٨]

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٠.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٤١، والآية من سورة الأنفال: ٣٢/٨.

ثم أمره الله سبحانه بتأكيد عدم اختياره في تعذيبهم بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندِي﴾ وفي قدرتي واختياري ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب بالله لعدبتكم وأهلكتكم عقوب استعجالكم غضباً لربي، و﴿لَقَضَى الْأَمْرُ﴾ واقطع التنازع والكلام ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكن الله لم يكمل الأمر إليّ، بل إلى إرادته وحكمته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبأحوالهم، وبصلاح التعجيل في تعذيبهم، أو إهمالهم بطريق الاستدراج، ليكون عذابهم أشد.

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [٥٩]

ثم لما أخبر سبحانه بعلمه بأحوال الظالمين، أخبر بعلمه المحيط بجميع الموجودات بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ﴾ تعالى خاصة، وتحت قدرته الكاملة ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ وخزائنه.

وقيل: إن المراد بالغيب: جميع الممكنات^١، فإنها من آثاره وصنائه، ولازم ذلك إحاطته بها وحضورها عنده.

وقيل: إن المراد بالمفاتيح: ما يتوصل به إلى معرفة الموجودات، وهو علل وجودها المنتهية إلى ذاته المقدسة التي هي علة عللها، والعلم بالعلة مستلزم للعلم بالمعلولات^٢، ولذا ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ أحد^٣ إلا هو.

وقيل: إن المراد بالغيب: خصوص ما غاب من الحواس مما في عوالم الملكوت والجبروت^٤.

وقيل: إن المراد: الخمسة التي خص الله علمها بذاته المقدسة.

عن النبي ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في القدر إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا يعلم بأي أرض تموت النفس إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»^٥.

ثم أنه تعالى بعد التنبيه على علمه بجميع الموجودات، أو خصوص ما غاب منها من الحواس، قرّر سعة علمه بجميع المحسوسات بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الحيوانات والنباتات والجمادات على اختلاف أجناسها وأنواعها وأفرادها.

ثم أشار إلى علمه بأحوال الموجودات بقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ﴾ على الأرض ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾ من أوراق

الأشجار ﴿إِلَّا﴾ وهو ﴿يَعْلَمُهَا﴾ قيل: إن المراد: أنه تعالى يعلم عدد أوراق الأشجار ثابتها وساقطها^١
 ﴿وَلَا حَبِيبٌ﴾ صغيرة تكون ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ ويطونها وتخرمها إلا يعلمها.

ثم قرّر إحاطته بجميع ذرات عالم الأجساد بقوله: ﴿وَلَا رَظِيٍّ وَلَا يَاسِيٍّ﴾ من الموجودات ﴿إِلَّا﴾
 وهو مكتوب ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واللوح المحفوظ.

في بيان فائدة كتابة قيل: فائدة كتابة الأشياء في اللوح المحفوظ، مع أن الله منزّه عن الجهل والسيان، أن
 الأشياء نسي الحوادث إذا كانت موافقة للمكتوب ازدادت الملائكة بذلك علماً ويقيناً بعظيم
 اللوح المحفوظ صفات الله واعترض عليه بأن الملائكة ليست من أهل الرقي والتزّل، فقصر الفائدة
 على ذلك ممّا لا معنى له^٢.

وفيه: أن زيادة المعرفة خطّ عظيم للملائكة، وإن لم يحصل لهم بذلك علوّ في المقام، لكون
 معرفتهم ضرورية.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ
 أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [٦٠]

ثم بالغ سبحانه في توضيح كمال قدرته وسعة علمه بأحوال العباد بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾
 ويمنع أرواحكم عن التصرف الكامل في أبدانكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ ويجعلكم فيها بالنوم كالمت، كما روي
 أن النوم أخ الموت^٣.

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك
 يرى الرؤيا، فإذا اتّبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة»^٤.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ وكسبتم بجواركم من الحسنات والسيئات ﴿بِالنَّهَارِ﴾ وفي تخصيص النوم
 بالليل والاكتماب بالليل جزئي على العادة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويوقظكم ﴿فِيهِ﴾ من النوم مع علمه بما
 يصدر عنكم من السيئات ليُمهلكم و﴿لِيُقْضَىٰ﴾ وينقضي ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وتستوفوا مدة حياتكم
 المقدّرة في الدنيا.

عن القمي رحمه الله عن الباقر عليه السلام، في قوله: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال: «هو الموت»^٥.
 ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ بالموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لمجازاة أعمالكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في

٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٣.

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٤.

٥. تفسير القمي ١: ٢٠٣، تفسير الصافي ٢: ١٢٦.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٤.

الدُّنْيَا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بِالْثَوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَهُوَ أَقْفَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُوسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ
تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ [٦١ و ٦٢]

﴿وَهُوَ أَقْفَاهُ﴾ والمستولي ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والمُتَقَدِّر عليهم، والمُتَصَرِّف فيهم كيف يشاء تصحيحاً
وتسقيماً، وإحياء وإماتة، وتعديباً وإثابة، ﴿و﴾ من قهاريته أنه ﴿يُوسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ملائكة
﴿حَفَظَةً﴾ يحفظونكم من الآفات والعاهات والبلليات، ويحفظون أعمالكم.

في كتابة الملائكة عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، في تفسير (المُعَقَّبَات): «أنهم ملائكة يحفظونه
أعمال الناس وبيان حكمته من المهالك حتى يتنوها [به] إلى المقادير فيُخْلَوْنَ^١ بينه وبين المقادير»^٢.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أُنْ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَنِ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِهِ،
فَإِذَا تَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا مَنْ عَلَى الْيَمِينِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِسَيِّئَةٍ قَالَ مَنْ عَلَى الْيَمِينِ لَمَنْ عَلَى الْيَسَارِ:
انْتَظِرْهُ لَعَلَّهُ يَتُوبَ مِنْهَا، فَإِنْ لَمْ يَتُبْ كَتَبَ عَلَيْهِ^٣.

وَرُوي أَنَّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مَلَكَيْنِ بِاللَّيْلِ، وَمَلَكَيْنِ بِالنَّهَارِ، يَكْتُبُ أَحَدُهُمَا الْحَسَنَاتِ وَالْآخَرُ
السَّيِّئَاتِ، وَصَاحِبُ الْيَمِينِ أَمِيرٌ عَلَى [صَاحِبِ] الشَّامِ، فَإِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ حَسَنَةً كُتِبَتْ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،
وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً فَأَرَادَ صَاحِبُ الشَّامِ أَنْ يَكْتُبَ قَالَ لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ: أَمْسِكْ، فَيَمْسِكُ عَنْهُ سِتٌّ
سَاعَاتٍ أَوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإِنْ هُوَ أَشْتَغَرَ اللَّهُ لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَ سَيِّئَةً وَاحِدَةً^٤.

قيل: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَاحَ مِنْ فِيهِ رَائِحَةُ الْمِسْكِ، فَيَعْلَمُونَ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ فَيَكْتُبُونَهَا، وَإِذَا هَمَّ
بِسَيِّئَةٍ فَاحَ مِنْ فِيهِ رَائِحَةُ النَّفْسِ^٥.

قيل: إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي كِتَابَةِ الْأَعْمَالِ أَنَّ الْمُكَلَّفَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تُكْتَبُ عَلَيْهِ وَتُعْرَضُ عَلَى رُؤُوسِ
الْأَشْهَادِ كَانَ أَزْجَرَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَثِقَ بِلُطْفِ سَيِّدِهِ وَاعْتَمَدَ عَلَى عَفْوِهِ وَسَرَّهَ، لَمْ يَحْتَشِمِ
مِنْهُ اخْتِشَامَهُ مِنْ خَدَمَةِ الْمُطَّلَعِينَ عَلَيْهِ^٦.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ حِفْظَ الْأَعْمَالِ يَكُونُ مُسْتَمِرّاً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ وانتهت مدة حياتكم
﴿تَوَفَّتْهُ﴾ وقبضت روحه ﴿رُسُلُنَا﴾ المأمورون بقبض الأرواح، وهم عزرائيل وأعوانه ﴿وَهُمْ لَا

٢. مجمع البيان ٦: ٤٣١.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٥.

٦. تفسير البضاوي ١: ٣٠٥.

١. في مجمع البيان: فيحبلون.

٣. تفسير الرازي ١٣: ١٤.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٥.

يَفْرُطُونَ» ولا يقصرون في ما يؤمرون، ولا يؤخرونه طرفة عين ﴿ثُمَّ﴾ إنهم بعد الموت ﴿وُودُوا﴾ وأرجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ومالكهم المتولي لأمورهم، وهو ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت، أو القدر في حكمه وقضائه ﴿أَلَا﴾ تنهوا أن ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ بين عياده في ذلك اليوم لا لغيره، يحكم للمطيع بالثواب وللعاصي بالعقاب ﴿وَهُوَ أَشْرَعُ الْخَاسِبِينَ﴾.

في الاعتقادات: أن الله تعالى يخاطب عياده من الأولين والآخرين يوم القيامة بمجمل^١ حساب عملهم مخاطبة واحدة، يسمع منها كل واحد قضيته دون غيره^٢، ويظن أنه المخاطب دون غيره، لا يشغله عز وجل مخاطبة عن مخاطبة، ويفرغ من حساب الأولين في مقدار نصف ساعة من ساعات الدنيا^٣.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ [٦٣ و ٦٤]

ثم لما استدلَّ سبحانه بسعة علمه بجميع ما في البرِّ والبحر من الموجودات وأحوالها على توحده، اشتدَّ عليه بكمال قدرته على إنجاء من في البرِّ والبحر من ممالكهما، وغاية رافته بعباده، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ ويُخلصكم ﴿مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والممالك والأحوال التي تنفق لكم فيهما في أسفاركم؛ بحيث يُظلم عليكم طريق الخلاص منها. وقيل: إن المراد من الظلمات: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة الرياح الشديدة، وظلمة الأمواج الهائلة^٤.

وممن ترجون النجاة بمقتضى العقل السليم والفتوة الأصلية، ومن ﴿تَدْعُونَهُ﴾ بخلوص النية، وتسألونه ﴿تَضَرُّعًا﴾ باللسان ﴿وَخُفْيَةً﴾ وفي السر، وتلتزمون بالقيام بوظائف عبوديته، وتقولون: بالله ﴿لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ الممالك والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ البتة بعد النجاة منهما ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ليعتمه، المطيعين لأوامره، والثابتين على عبوديته، فإن منعمهم العناد والعصية من الاعتراف بمنجيهم، مع وضوحه عندهم، فلا تنتظر لجوابهم، و﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ بفضله، بل ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغم شديد ينزل بكم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ بعد مشاهدة النعمة واطمئنانكم بالنجاة تنقضون العهد ولا

١. في النسخة: بمحل. ٢. في المصدر: غيرها. ٣. الاعتقادات للصدوق: ٧٥، تفسير الصافي ٢: ١٢٧.

٤. تفسير الرازي ١٣: ٢١.

تشكرونها، بل تكفرونها بأن ﴿تُشْرِكُونَ﴾ غيره في الألوهية والعبادة، وهذا من أقبح القبائح.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ تُصْرَفُ آيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَقَهُونَ [٦٥]

ثم أمر نبيه ﷺ بهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: لا تأمنوا بعد النجاة من عذاب الله، فإنه ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ لأجل إشراككم وكفرانكم ﴿عَذَاباً﴾ عظيماً نازلاً ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من المطر، والظوفان، والصّاعقة، والحجارة، والرياح الهائلة والصّيحة، كما فعل بقوم نوح وقوم لوط وأصحاب الفيل، ﴿أَوْ﴾ ظاهراً ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ومن أسفل منكم كالغرق، والخسف، والرجفة، كما فعل بفرعون وقومه، وقارون، وأصحاب الأيكة ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلطكم ﴿شِيْعاً﴾ وبقراً متخالفين بالأهواء والمذاهب، بحيث يشب بينكم الحرب ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ويقتل بعضهم بعضاً.

عن القمي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «﴿عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ هُوَ الدُّخَانُ والصّيحة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ هُوَ الخسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً﴾ هُوَ الاختلاف في الدين، وطعن بعضهم على بعض ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هُوَ أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وكُلُّ هَذَا فِي أَهْلِ الْقَبِيلَةِ الْخَبِرُ^١.

وفي (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ مِنَ السَّلَاطِينِ الظُّلْمَةِ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الْعَبِيدُ السُّوءُ، وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً﴾ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ بِمَا يُلْقِيهِ بَيْنَكُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْعَصِيَّةِ ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هُوَ سُوءُ الْجَوَارِ^٢.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أَي مِنَ الْأُمَرَاءِ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أَي مِنَ الْعَبِيدِ وَالسُّفُلَةِ^٣.

عن ابن عباس: لما نزل جبرئيل بهذه الآية شق ذلك على الرسول ﷺ وقال: «ما بقاء أمتي إن عوملوا بذلك!» فقال له جبرئيل: إنما أنا عبدٌ مثلك، فاذن ربك لأمتك، فسأل ربه أن لا يفعل بهم ذلك، فقال جبرئيل: إن الله قد أمتهم من خصلتين: أن لا يبعث عليهم عذاباً من فوقهم كما بعثه على قوم نوح ولوط، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون، ولم يُجرهم من أن يلبسهم شيعاً بالأهواء

١. مجمع البيان ٤: ٤٨٧، تفسير الصافي ٢: ١٢٧.

٢. تفسير القمي ١: ٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ١٢٧.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٢٢.

المختلفة، ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف^١.

وعن النبي ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُظْهَرَ عَلَى أُمَّتِي أَهْلَ دِينٍ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَهُمْ جَوْعاً فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْمَعَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شَيْعاً فَمَنْعَنِي»^٢.

ثُمَّ بَيَّنَّ شِبْحَانَهُ أَنَّ مَحَلَّ التَّعَجُّبِ عَدَمُ تَأَثُّرِ الْمُشْرِكِينَ بِالْآيَاتِ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، وَتَعَجَّبَ أَنَا ﴿كَيْفَ تُصَرِّفُ﴾ وَتُبَيَّنَ ﴿الْآيَاتِ﴾ وَالذَّلَالُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْوَعِيدُ بَيِّنَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ ﴿يَقْفَهُونَ﴾ الْآيَاتِ وَيَفْهَمُونَهَا فَيَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُمْ لَا يَتَأَثَّرُونَ بِهَا، وَلَا يَرْتَدُّعُونَ مِنْ عِقَابِهِمُ الْبَاطِلَةَ وَأَهْوَانِهِمُ الرَّائِغَةَ.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَاءٍ مُسْتَقَرٌّ
وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [٦٦ و ٦٧]

ثُمَّ ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ بِتَكْذِيبِهِمْ مَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَوْ الْقُرْآنَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الْمُشْرِكُونَ الْمُصَرِّقُونَ عَلَى الشَّقَاقِ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ الْعَذَابَ﴾ «هُوَ الْحَقُّ» الْوَاقِعُ، أَوْ الْقُرْآنَ هُوَ الصَّدَقُ الثَّابِتُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: إِنِّي ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وَحَفِيزٌ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ بِالْقَهْرِ، حَتَّى أَمْنَعَكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَأَجْبِرْكُمْ عَلَى التَّصْدِيقِ، وَإِنَّمَا عَلَيَّ تَبْلِيغُ وَعْدِ اللَّهِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ، وَقَدْ بَلَّغْتُ، ﴿وَلِكُلِّ نَبَاءٍ﴾ وَخَبَرٍ مِنْ أَخْبَارِ اللَّهِ ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وَوَقْتُ وَقُوعِ يَقَعُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ خُلْفٍ وَتَأْخِيرٍ ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صِدْقُ خَبَرِهِ وَوَعِيدِهِ عِنْدَ وَقُوعِهِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِيهِمَا.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي
حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُى لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ [٦٨ و ٦٩]

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ شِبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ مَجْلِسِ الْمُكَذِّبِينَ إِذَا أَضَافُوا إِلَى تَكْذِيبِهِمُ الْاسْتِهْزَاءَ بِالْآيَاتِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ الْمُكَذِّبِينَ ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ وَيَشْرَعُونَ فِي الطَّعْنِ ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَاخْرُجْ مِنْ مَجْلِسِهِمْ، وَاسْتَمِرَّ عَلَى مُفَارَقَتِهِمْ ﴿حَتَّى﴾ يَنْصَرِفُوا

عن الاستهزاء بالآيات، و﴿يَخُوضُوا﴾ ويشرعوا ﴿فِي حَدِيثٍ﴾ وكلام ﴿غَيْرِهِ﴾.

قيل: إن الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره^١، وقيل: الخطاب لغيره، والمراد: إذا رأيت أيها السامع^٢.
تُيْلُ أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقَّعوا في رسول الله ﷺ وفي القرآن فشتَّموا واستهزءوا، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يشتغلوا بحديث غيره^٣.

ثم عذَّروهم في حال النسيان بقوله: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أمرنا بترك مجالستهم وقعدت معهم، فلا بأس عليك إذن ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ والآنفات إلى أمرنا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستيعظام، أو على أنفسهم بذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال المسلمون: لئن كنا كلَّما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قُمتنا عنهم، لَمَّا قَدَرْنَا على أن نجلس في المسجد الحرام، وأن نطوف بالبيت^٤؛ لأنهم يخوضون أبداً.

فرخص الله المؤمنين في مجالستهم عند ذلك مع الوَعظ والتذكير بقوله: ﴿وَمَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾
﴿الَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾ ويجتنبون قبائح أعمال الخائضين وأقوالهم ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ وجرمهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يسير ﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم ﴿ذِكْرًا﴾ هم وعظهم والتنبية على قبائح أعمالهم وأقوالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يُتَّقُونَ﴾ الخوض حياءً، أو كراهة لمساءتهم.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ
نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ
لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [٧٠]

ثم أكد الله سبحانه أمره بالإعراض عن المستهزئين بقوله: ﴿وَذَرِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ وشخيرة وهزواً بآيات الله، أو جعلوا دينهم اتباع الهوى والشهوات بعبادتهم الأصنام، أو جعلوا عيدهم - الذي هو يوم العيادة - يوم لعبهم ولهوهم، كما عن ابن عباس رضي الله عنهما^٥.

﴿وَعَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وألهتهم شهواتها عن التفكر في عاقبة أمرهم، وأعرض عن مجالستهم وملاطفتهم، ولا تشغل قلبك بهمتهم، ولا تبال بتكذيبهم، بل أنذرهم بالقرآن ﴿وَذَكَّرَ﴾ هم ﴿بِهِ﴾ مخافة ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ وتسلم ﴿نَفْسٌ﴾ إلى الهلاك والعذاب ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت من القبائح

والسينات.

وعن ابن عباس عليه السلام: أي ترتهن في جهنم بما كسبت في الدنيا.

والحال أن النفس «لَيْسَ لَهَا» عند إبتلائها بالعذاب «مِنْ دُونِ آفٍ وَلَئِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ» يدفعه عنها «وَأَنْ تَعْدِلَ» تلك النفس وتعد منا في الأرض «كُلَّ عَدْلٍ» وفداء، لا يقبل ولا يؤخذ منها ذلك الفداء، فجميع طرق الخلاص شئدة عليها.

ثم أثبت الإيسال والتسليم للعذاب على المستهزئين بقوله: «أُولَئِكَ» اللاعبون اللاهون المعزورون بالدنيا هم «الَّذِينَ أُبْسِلُوا» وسلموا إلى ملائكة العذاب «بِمَا كَسَبُوا» وحصلوا لأنفسهم من العقائد والأعمال.

ثم كأنه قيل: ما يكون له إذا سلموا إلى العذاب أو إلى ملائكته؟ فأجاب بقوله: «لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ» ماء «حَمِيمٍ» مغلي يتججر في بطونهم، وتتقطع به أمعاؤهم «وَعَذَابٌ أَلِيمٌ» بنار تشتعل بها أبدانهم «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» بالله وبآياته.

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِدْ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي أَشْتَهَوْتُمُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [٧١ و ٧٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان إصرار المشركين على شركهم، وتكذيبهم بالقرآن الناطق بالتوحيد، واشتهائهم بآياته، أمر نبيه عليه السلام بتوضيح بطلان دينهم، وأنه مما ينكره العقل بقوله: «قُلْ» لهم إنكاراً على نفسك، وعلى كل عاقل: «أَدْعُوا» ونعبد «مِنْ دُونِ اللَّهِ» القادر على كل نفع وضرر «مَا لَا يَنْفَعُنَا» شيئاً إن عبدناه «وَلَا يَضُرُّنَا» إن تركناه «وَهُ» هل «تُرَدُّ» ونرجع من مقام العلم وكمال العقل، وملة التوحيد ودين الإسلام «عَلَى أَعْقَابِنَا» وجهلنا الذاتي وضلالنا الجبلي الباعثين إلى الإشراك «بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ» وأرشدنا بواسطة العقل السليم، ودلالة الآيات، ومساعدة توفيقه إلى التوحيد ودين الإسلام، إذن نكون «كَالَّذِي أَشْتَهَوْتُمُ» وذهبتم به «الشَّيَاطِينُ» ومردة الجن والغيلان، وأصلته «فِي» مغاور «الْأَرْضِ».

قيل: إنه مبني على ما زعمته العرب من أن الغيلان تستهوي الإنسان^٢، وقيل: إن المعنى: كالذي

ألقته الشياطين في هذه عميقة في الأرض،^١ حال كونه «خَيْرَان» لا يدري ما يصنع، ولا يهتدي إلى طريق السلامة والنجاة، وفي تلك الحالة يكون «لَهُ أَصْحَابٌ» ورُفقاء «يَدْعُوهُ إِلَى الْهَدْيِ» ويهدونه إلى الطريق المستقيم قائلين له: «أَتَيْنَا» وتعال إلينا حتى نوصلك إلى المأمن والمقصود، وهو لا يجيبهم ولا يترك متابعة الغيلاں فيهلك «قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِالْهَدْيِ» والمخدع، وما سواه هو الضلال البخت.

ثم شرح الدين الذي هو هدى الله بقوله: «وَأْمُرْنَا» وألزمنا بحكم عقولنا «لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ونقاد لإرادته وحكمه، وهذا رأس الأعمال القلبية، «وَأْمُرْنَا» أيضاً «أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» التي هي رأس الطاعات الجوارحية، وأفضل الواجبات البدنية «وَأَتَّقُوا» تعالى في مخالفته، وعصيان نواهيه. ثم أشار سبحانه إلى وقت ظهور عمد منافع تلك الأعمال حثاً عليها بقوله: «وَهُوَ» تعالى «الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» من قبوركم، وفي القيامة تجمعون للحساب والجزاء؛ فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ [٧٣]

ثم لما استدل على عدم قابلية الأصنام للعبادة بعجزهم عن النفع والضّر، بين كمال قدرته حثاً على تخصيصه بالعبادة، وإثباتاً للمعاد بقوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ» وما فيها من العلويات «وَالْأَرْضَ» وما فيها من السفليات، قائماً «بِالْحَقِّ» والحكمة الكاملة والنظام الأتم، لا بالباطل والعيب «وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ» وحين يريد إيجاد شيء فيوجد بلا ريث. «قَوْلُهُ» وإرادته «الْحَقُّ» الثابت النافذ، وقيل: إن المراد: وخلق يومَ يقول، أو وأتوا يومَ يقول^٣، وعلى التقديرين هو يوم القيامة، «وَلَهُ» تعالى خاصة «الْمُلْكُ» والسلطنة التامة الظاهرية والواقعية «يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ» لا ملك فيه لغيره، كما كان في الدنيا بحسب الظاهر.

عن أبي هريرة، قال: قلت: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: القرن، قلت: كيف هو؟ قال: عظيم، والذي نفسي بيده، إن أعظم دائرة فيه كعرض السماء والأرض^٤. قيل: إن فيه من الثقب على عدد أرواح

الْخَلْقِ^١.

ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَكُنْ كَمَالُ قُدْرَتِهِ بَاعِثًا عَلَى الْقِيَامِ بِعُودِيَّتِهِ، وَثَبَّتًا لِلْمَعَادِ لِكُلِّ أَحَدٍ، إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ كَمَالِ عِلْمِهِ بِمَنْ أَطَاعَهُ وَعَصَاهُ وَمَنْ أَمَاتَهُ وَأَحْيَاهُ، عَرَفَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِكَمَالِ الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وما لا تُدْرِكُهُ الْخَوَاسِ ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ وما يُدْرِكُهُ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ [٧٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مَعْرُوفًا بَيْنَ جَمِيعِ الْمِلَلِ بِكَمَالِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، وَاسْتِقَامَةِ الرَّأْيِ، وَإِصَابَةِ النَّظَرِ، وَحُسْنِ الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، وَعِظَمِ الشَّانِ، وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَشُرَكَو الْعَرَبِ مُتَفَتِحِينَ بِأَنْهَمُ دُرِّيَّتُهُ، مُتَعَرِّفِينَ بِغُلُوِّ مَقَامِهِ، اخْتَجَّ اللَّهُ شَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِإِقْرَارِهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ الشُّرْكِ، وَتَوْبِيخِهِ وَإِنْكَارِهِ عَلَى النَّاسِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ﴾ مُوْبِحًا لَهُ، وَإِنْكَارًا عَلَيْهِ: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ وَتَخْتَارُ لِنَفْسِكَ ﴿أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ وَمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَفِي تَنْكِيرِ الْأَصْنَامِ إِشْعَارًا بِتَحْقِيرِهَا ﴿إِنِّي﴾ بِعَيْنِ عَقْلِي، وَبَصِيرَةِ قَلْبِي ﴿أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ الَّذِينَ وَافَقُوكَ فِي عِبَادَتِهَا رَاسِخِينَ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عَنِ الْحَقِّ، وَبُعْدٍ عَنِ الصَّوَابِ ﴿مُبِينٍ﴾ وَوَاضِحٍ عِنْدَ الْعَقْلِ وَالْعَقْلَاءِ.

نَسِيَ أَنْ أَرَزَّرَ كَانَ
جَدُّ إِبْرَاهِيمَ لِأُمِّهِ
كَانَ لِقَبِّهِ، أَوْ كَانَ لَهُ إِسْمَانٌ، أَوْ كَانَ أَرَزَّرَ عَمَّهُ، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ الْأَبُ؛ لِأَنَّ الْعَمَّ صِنُو

الْأَبِ؟ أَوْ كَانَ جَدَّهُ لِأُمِّهِ وَهُوَ الْحَقُّ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَ الْأَبِ عَلَيْهِ حَقِيقَةً وَعَلَى الْعَمِّ مَجَازًا، وَاتِّفَاقَ أَصْحَابِنَا ظَاهِرًا عَلَى أَنَّ آبَاءَ النَّبِيِّ عليه السلام كُلَّهُمْ كَانُوا مُوَحِّدِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^٢.

عَنِ الْقَمِيِّ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام، قَالَ: «فِي أَصْلَابِ النَّبِيِّينَ»^٣.

وَفِي (الْمَجْمَعِ): عَنْهُمَا عليه السلام، قَالَا: «فِي أَصْلَابِ النَّبِيِّينَ؛ نَبِيٌّ بَعْدَ نَبِيٍّ، أَخْرَجَهُ مِنْ صُلْبِ أَبِيهِ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ»^٤.

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «لَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ

المُطَهَّرَات، حَتَّى أَخْرَجَنِي فِي عَالَمِكُمْ هَذَا لِمَ يَدْنَسُنِي بَدَنَسِ الْجَاهِلِيَّةِ^١.
وعنه ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ أَهْبَطَنِي فِي صُلْبِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقَذَنِي فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ [لَمْ يَزَلْ] تَعَالَى يَنْقُلُنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَرْحَامِ حَتَّى أَخْرَجَنِي بَيْنَ أَبَوَيْ لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ^٢. وَلَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ كَافِرٌ لَمْ يَصِفْ أَصْلَابَهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالْكَرَامَةِ.

وَرُوي أَنَّ حَوَاءَ لَمَّا وَضَعَتْ شَيْئاً انْتَقَلَ النُّورُ الْمُحَمَّدِي مِنْ جَبْهَتِهَا إِلَى جَبْهَتِهِ، فَلَمَّا كَبُرَ وَبَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ أَخَذَ آدَمَ عَلَيْهِ الْعُهُودُ وَالْمَوَاقِيقُ أَنْ لَا يُودِعَ هَذَا الْبِرَّ إِلَّا فِي الْمُطَهَّرَاتِ الْمُحَصَّنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، لِيَصِلَ إِلَى الْمُطَهَّرِينَ^٣.

وَحَمَلَ الْفَخْرُ الرَّازِي وَبَعْضُ آخَرٍ مِنَ الْعَامَّةِ الرِّوَايَاتِ النَّبَوِيَّةَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي آبَائِهِ وَلَدٌ زَنَّا، وَاشْتَهَدُوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ، لَا مِنْ سِفَاحٍ^٤.
وفيه: أَنَّهُ لَا شَهَادَةَ فِيهِ لظُهُورِ كَوْنِهِ فَخْراً آخِراً، مَعَ بُعْدِ حَمْلِ الْأَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُهُ فَحْوَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَنْ طَهَّرْنَا بَنِيَّ لِلطَّائِفِينَ» الْآيَةَ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْبَقَرَةِ^٥، وَأَنَّهُ كَانَ ﷺ جَامِعاً لَجَمِيعِ الْمَفَاخِرِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ كَوْنَ بَعْضِ آبَائِهِ مُشْرِكاً لَا يَخْلُو مِنْ شَيْنٍ عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّينَ [٧٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى كَمَالَ عِرْفَانِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِقَوْلِهِ: «وَكَذَلِكَ» الَّذِي أَرَيْنَاهُ مِنْ قُبْحِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَبُصْرَانَا بِفَسَادِ الْإِشْرَاقِ بِتَقْوِيَةِ بَصِيرَتِهِ، كُنَّا «نَرَى» وَنُبْصِرُ «إِبْرَاهِيمَ» بِتَقْوِيَةِ نُورِ بَصَرِهِ «مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» لِنُشَاهِدَ عَجَائِبَ مَخْلُوقَاتِنَا، وَيَطَّلِعَ عَلَى سَعَةِ مَلَكْنَا وَعَظَمَةِ سُلْطَانَانَا «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّينَ» بِوَحْدَانِيَّتِنَا وَقُدْرَتِنَا وَحِكْمَتِنَا.

عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «كُتِبَ لَهُ عَنِ الْأَرْضَيْنِ حَتَّى رَأَاهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ، وَعَنِ السَّمَاوَاتِ حَتَّى رَأَاهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ»^٦.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «كُتِبَ لَهُ عَنِ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَعَنِ السَّمَاءِ وَمَنْ فِيهَا، وَالْمَلَكُ الَّذِي يَحْمِلُهَا، وَالْعَرْشُ وَمَنْ عَلَيْهِ»^٧.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٥٤.

١. مجمع البيان ٤: ٩٧، تفسير الصافي ٢: ١٣١.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٥٤.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٤.

٦. مجمع البيان ٤: ٩٨، تفسير الصافي ٢: ١٣١.

٥. في تفسير الآية (١٢٥) من سورة البقرة.

٧. تفسير القمي ١: ٢٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٣١.

وعن الباقر عليه السلام قال: «أُعطي بصره من القوة ما نفذ السماوات، فرأى ما فيها، ورأى العرش وما فوقه، ورأى ما في الأرض وما تحتها»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، رأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات، ثم رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، إن دعوتك مستجابة، فلا تدع على عيادي، فإنني لو شئت أن أميتهم [لدعائك] ما خلقتهم، فإنني خلقت خلقي على ثلاثة أصناف: صنف يعبدني لا يشرك بي شيئاً فأتبته، وصنف يعبد غيري فليس يفوتني، وصنف يعبد غيري فأخرج من صلبه من يعبدني»^٢.

قيل: إن ملكوت كل شيء باطنه وزواجته، وهو من الأوليات التي خلقها الله تعالى من لا شيء بأمر (كن)، فالملك قائم بالملكوت، والملكوت قائم بقدرة الله، فأرى سبحانه إبراهيم ملكوت الأشياء، والآيات المودعة فيها الدالة على توحيده وكمال صفاته.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَجِبُ الْآفِلِينَ *
فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ
قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [٧٦-٧٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان إنكار إبراهيم عليه السلام على آزر وقومه عبادة الأصنام، وحكمه بضلالهم، اختج على مشركي العرب بما اختج به إبراهيم عليه السلام على بطلان عبادة الأصنام بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ وأظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ وستره بظلامه، وظهرت الكواكب ﴿رَوَّأَ﴾ بينها ﴿كَوْكَبًا﴾ من الكواكب السبعة، قيل: كان الزهرة^٣، وقيل: كان المشتري^٤ ﴿قَالَ﴾ استهزاء بقومه، أو إنكاراً عليهم، أو حكاية لمغالهم لينكره عليهم بإبطاله، أو إظهاراً لمماشاته معهم كي يكون أدعى إلى اشتماع حجته: ﴿هَذَا﴾ الكوكب ﴿رَبِّي﴾.

قيل: لما كان مرجع عبادة الأصنام إلى عبادة الكواكب؛ حيث إن الناس رأوا أن الفصول الأربعة تكون بقرب الشمس وبعدها، وبهما تحدث الأحوال المختلفة في العالم، وتكون السعادات

١. تفسير العياشي ٢: ١٠٢/١٤٣١، تفسير الصافي ٢: ١٣٢.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٠٢/١٤٣٢، تفسير القمي ١: ٢٠٦، الكافي ٨: ٤٧٣/٣٠٥، مجمع البيان ٤: ٤٩٨، تفسير الصافي ٢: ١٣٢.

٣ و ٤. تفسير أبي السعود ٣: ١٥٣، تفسير روح البيان ٣: ٥٦.

٥. كذا الظاهر، وفي النسخة: ليكن.

وَالنُّحُوسَاتِ بِقُورِ الْكَوَاكِبِ فِي طَوَالِهِمْ عَلَى أَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، غَلَبَ عَلَى ظَنِّ أَغْلِبِهِمْ أَنَّ مَبْدَأَ الْخَوَاتِ هُوَ الْكَوَاكِبِ، فَبَالَعُوا فِي تَعْظِيمِهَا حَتَّى اشْتَعَلُوا بِعِبَادَتِهَا.

ثُمَّ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَغِيِبُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، اتَّخَذُوا لِكُلِّ كَوْكَبٍ صَنَماً مِنَ الْجَوْهَرِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ، فَصَنَّمُ الشَّمْسِ مِنَ الذَّهَبِ الْمُرَيْنِ بِأَحْجَارٍ مُنْسُوبَةٍ إِلَيْهَا كَالْيَاقُوتِ وَالْأَلَمَاسِ، وَصَنَّمُ الْقَمَرِ مِنَ الْفِضَّةِ ... وَهَكَذَا.

وَلِذَا اشْتَدَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى بَطْلَانِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ بِبُطْلَانِ رُبُوبِيَّةِ الْكَوَاكِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَتَلَّ﴾ الْكَوَاكِبِ وَغَرَبَ ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ﴾ الْأَرْبَابَ ﴿الْأَقِيلِينَ﴾ الْغَائِبِينَ عَنْ مَرْئِيَّتِهِمْ، لِلْقَطْعِ بِعَدَمِ صَلُوحِ الزَّائِلِ الْمُتَغَيِّرِ لِلرُّبُوبِيَّةِ.

ثُمَّ طَلَعَ الْقَمَرُ ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً﴾ وَطَالَعَا ﴿قَالَ هَذَا﴾ الْجُرْمُ الْمُضْيِءُ ﴿رَبِّي﴾ وَخَالَقِي ﴿فَلَمَّا أَتَلَّ﴾ وَغَابَ ﴿قَالَ﴾ تَنْبِيهاً لِقَوْمِهِ عَلَى عَدَمِ صَلُوحِهِ أَيْضاً لِلرُّبُوبِيَّةِ بِعِلَّةِ أَقْوَلِهِ وَتَغْيِيرِهِ الْمُلَازِمِ لِلْخُدُوثِ، وَتَذْكِيراً لَهُمْ بِعَجْزِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ إِلَّا بِهَدَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِتَوْفِيقِهِ، وَلَمْ يُنَوِّرْ قَلْبِي لِإِدْرَاكِ الْحَقِّ ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ الْبَيَّةُ ﴿مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ نَهْجِ الصَّوَابِ. وَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِضَلَالِ قَوْمِهِ فِي عِبَادَتِهِمُ الْمُتَغَيِّرِ الْمُتَقَهَّورِ بِإِرَادَةِ غَيْرِهِ. عَنْهُمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «﴿لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أَي نَاسِياً لِلْمِيثَاقِ»^١.

أَقُولُ: أَيِ الْمِيثَاقِ عَلَى التَّوْحِيدِ فِي عَالَمِ الدَّرِّ.

ثُمَّ ذَهَبَ اللَّيْلُ وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسُ بَازِغَةً﴾ وَطَالَعَا ﴿قَالَ هَذَا﴾ الْجُرْمُ الْمَشْهُودُ ﴿رَبِّي﴾.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى رُجْحَانِ الْقَوْلِ بِالْهُوِيَّةِ الشَّمْسِ عَلَى الْقَوْلِ بِالْهُوِيَّةِ الْكَوَكِبِ وَالْقَمَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا﴾ الطَّالِعُ ﴿أَكْبَرُ﴾ مِنَ الْكَوَكِبِ وَالْقَمَرِ جُرْماً، وَأَقْوَى مِنْهُمَا ضِيَاءً، فَهُوَ أَوْلَى بِالرُّبُوبِيَّةِ، قِيلَ: فِي تَذْكِيرِ اسْمِ الْإِشَارَةِ رِعَايَةً لِلأَدَبِ وَتَنْزِيهَةً لِلرَّبِّ عَنِ الْأَنْثَوِيَّةِ^٢ ﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾ الشَّمْسُ كَسَانِ الْكَوَاكِبِ، وَنُبِتَ اسْتِنَاعَ رُبُوبِيَّتِهَا أَيْضاً لِأَجْلِ الْأَقْوَلِ وَالتَّغْيِيرِ وَأَلْزِمَ الْفَرْقَ بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ﴿قَالَ﴾ مُخَاطَباً لِجَمِيعِهِمْ، صَادِعاً بِالْحَقِّ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بِاللهِ تَعَالَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا.

إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ

١. تفسير الرازي ١٣: ٣٦.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٥٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٠٣/١٣٤ عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ١٣٣.

الْمُشْرِكِينَ [٧٩]

ثُمَّ بَعْدَ التَّبَرُّؤِ مِمَّا سَوَّى اللَّهُ أَعْلَنَ بِخُلُوصِهِ لِعِبَادَةِ مُوجِدِ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وَصَرَفْتُ قَلْبِي، وَأَخْلَصْتُ عِبَادَتِي ﴿لِلَّذِي﴾ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ ﴿فَطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا، وَأَخْرَجَ الْكُلَّ مِنَ كَثَمِ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَفَوَّضْتُ جَمِيعَ أُمُورِي إِلَيْهِ، حَالًا كَوْنِي ﴿حَنِيفًا﴾ وَمَانِلًا عَنْ كُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرِهِ، وَمُتَعَرِّضًا عَنْ كُلِّ دِينٍ غَيْرِ دِينِهِ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بِهِ شَيْئًا فِي جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ، وَأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ.

فِي (الْعَيُونِ): عَنْ الرُّضَا عليه السلام أَنَّهُ سَأَلَهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَلَيْسَ مِنْ قَوْلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾^١.

فَقَالَ الرُّضَا عليه السلام: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ يَعْبُدُ الزُّهْرَةَ، وَصِنْفٌ يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَصِنْفٌ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَذَلِكَ حِينَ خَرَجَ مِنَ الشَّرْبِ^٢ الَّذِي أَخْفَى فِيهِ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الزُّهْرَةَ، قَالَ: هَذَا رَبِّي؛ عَلَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِخْبَارِ، فَلَمَّا أَفْلَ الْكُوكَبَ قَالَ: لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ؛ لِأَنَّ الْأَقْوَلَ مِنْ صِفَاتِ الْمُحَدَّثِ لَا مِنْ صِفَاتِ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ: هَذَا رَبِّي، عَلَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِخْبَارِ، فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ: لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَرَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ: هَذَا رَبِّي، هَذَا أَكْبَرُ مِنَ الزُّهْرَةِ وَالْقَمَرِ، عَلَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِخْبَارِ، لَا عَلَى الْإِخْبَارِ وَالْإِقْرَارِ، فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ لِلْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ مِنْ عِبَادَةِ الزُّهْرَةِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَإِنَّمَا أَرَادَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِمَا قَالَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ بَطْلَانَ دِينِهِمْ، وَيُثَبِّتَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِخَالِقِهَا وَخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الْخَبَرِ^٣.

أَقُولُ: عَلَيْهِ جَمْعٌ مِنْ مُتَسَرِّي الْعَامَّةِ، وَخُكِّي عَنْ أَكْثَرِهِمْ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ طَلِبًا لِمَعْرِفَةِ الرَّبِّ، وَزَوَّاءَ أَنْ نَمْرُودَ رَأَى رُؤْيَا فَعَبَّرَهَا الْحُكَمَاءُ وَالْكُهَنَاءُ بِأَنَّهُ يُولَدُ غُلَامٌ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، فَأَمَرَ بِذَنْعِ كُلِّ غُلَامٍ يُولَدُ، فَحَبِلَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ بِهِ وَمَا أَظْهَرَتْ حَبْلَهَا، فَلَمَّا جَاءَهَا الطَّلُقُ ذَهَبَتْ إِلَى كَهْفٍ فِي جَبَلٍ وَوَضَعَتْ إِبْرَاهِيمَ وَسَدَّتِ الْبَابَ بِحَجَرٍ، فَجَاءَ جَبْرِئِيلُ عليه السلام وَوَضَعَ إِبْصَعَهُ فِي فَمِهِ فَمَضَاهُ فَخَرَجَ مِنْهُ رِزْقُهُ، وَكَانَ جَبْرِئِيلُ يَتَعَهَّدُهُ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَأْتِيهِ أحيانًا وَتَرْضِعُهُ، فَبَقِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ حَتَّى كَبُرَ وَعَقِلَ وَعَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، فَسَأَلَ أُمَّهُ وَقَالَ: مَنْ رَبِّي؟ فَقَالَتْ: أَنَا. فَقَالَ: وَمَنْ رَبُّكَ؟ قَالَتْ: أَبُوكَ. فَقَالَ: مَنْ رَبُّهُ؟ فَقَالَتْ: مَلِكٌ

١. الْأَنْعَامُ: ٧٦/٦. ٢. الشَّرْبُ: حَفِيرٌ تَحْتَ الْأَرْضِ لَا مَنَعْدٌ لَهُ.

٣. عَيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا عليه السلام ١: ١٩٧، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١٣٣.

البلد. فقال: مَنْ رَبُّهُ؟ فقالت: لا تسأل عن هذا، فإنَّ عليك فيه خَطَرٌ عَظِيمًا، فنظرَ من باب الغار، فرأى النُّجْمَ الذي هُوَ أَضْوَأُ النُّجُومِ، فقال: هذا رَبِّي... إلى آخر القِصَّة^١.

وعن القُصِيِّ: عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ أَزَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ كَانَ مُتَجَمِّعًا لِنَمْرُودَ بْنِ كَنْعَانَ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَرَى فِي حِسَابِ النُّجُومِ أَنَّ هَذَا الزَّمَانَ يُحْدِثُ رَجُلًا، فَيَنْسَخُ هَذَا الدِّينَ وَيَدْعُو إِلَى دِينٍ آخَرَ. فَقَالَ لَهُ نَمْرُودُ: فِي أَيِّ بِلَادٍ يَكُونُ؟ قَالَ: فِي هَذِهِ الْبِلَادِ. وَكَانَ مَنْزِلُ نَمْرُودَ كُوْنِي رِبَاً، فَقَالَ لَهُ نَمْرُودُ: قَدْ خَرَجَ إِلَى الدُّنْيَا؟ قَالَ أَزَرَ: لَا. قَالَ: فَيَنْبَغِي أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَيَفْرُقَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَحَمَلَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَتَبَيَّنْ حَمْلُهَا.

فلَمَّا حَانَتْ وَلادَتْهَا قَالَتْ: يَا أَزَرَ، إِنِّي قَدْ اعْتَلَلْتُ وَأُرِيدُ أَنْ اعْتَزِلَ عَنْكَ. وَكَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانَ [أَنَّ] الْمَرْأَةَ إِذَا اعْتَلَّتْ اعْتَزَلَتْ عَنْ زَوْجِهَا، فَخَرَجَتْ وَاعْتَزَلَتْ فِي غَارٍ وَوَضَعَتْ إِبْرَاهِيمَ وَهَيْئَتَهُ وَقَمَطَتَهُ وَرَجَعَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا وَسَدَّتْ بَابَ الْغَارِ بِالْحِجَارَةِ، فَأَجْرَى اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبَنًا مِنْ إِبْهَامِهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَأْتِيهِ، وَوَكَّلَ نَمْرُودُ بِكُلِّ امْرَأَةٍ حَامِلٍ، وَكَانَ يَذْبَحُ كُلَّ وَلَدٍ ذَكَرٍ، فَهَرَبَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ بِإِبْرَاهِيمَ مِنَ الذَّبْحِ، وَكَانَ يَشِيبُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْغَارِ يَوْمًا كَمَا يَشِيبُ غَيْرُهُ فِي الشَّهْرِ، حَتَّى أَتَى [لَهُ] فِي الْغَارِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ زَارَتْهُ أُمُّهُ، فَلَمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَفَارِقَهُ تَشَبَّهَ بِهَا فَقُلَّ: يَا أُمِّي، لَوْ أَخْرَجْتَنِي؟ فَقَالَتْ لَهُ: يَا بُنَيَّ، إِنْ عَلِمَ أَنَّكَ وُلِدْتَ فِي هَذَا الزَّمَانَ قَتَلَكَ. فَلَمَّا خَرَجَتْ أُمُّهُ وَخَرَجَ مِنَ الْغَارِ وَقَدْ غَابَتِ الشَّمْسُ، نَظَرَ إِلَى الزُّهْرَةِ فِي السَّمَاءِ فَقَالَ: هَذَا رَبِّي. فَلَمَّا غَابَتِ الزُّهْرَةُ قَالَ: لَوْ كَانَ [هَذَا] رَبِّي مَا تَحَرَّكَ وَمَا يَبْرُجُ، ثُمَّ قَالَ: لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ - وَالْآفَلُ: الْغَائِبُ - فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ وَأَحْسَنُ، فَلَمَّا تَحَرَّكَ وَزَالَ قَالَ: لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ وَرَأَى ضَوْءَهَا وَقَدْ أَضَاءَتِ الدُّنْيَا لَطْلُوعِهَا قَالَ: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ وَأَحْسَنُ، فَلَمَّا تَحَرَّكَ وَزَالَتْ كَشَطَ اللَّهُ لَهُ عَنِ السَّمَاوَاتِ حَتَّى رَأَى الْعَرْشَ وَمَنْ عَلَيْهِ، وَأَرَاهُ اللَّهُ مُلْكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَجَاءَ إِلَى أُمِّهِ وَأَدْخَلَتْهُ إِلَى دَارِهَا وَجَعَلَتْهُ بَيْنَ أَوْلَادِهَا^٢.

قال: وسئل أبو عبدالله عليه السلام عن قول إبراهيم عليه السلام: هذا ربِّي، أشرك في قوله: هذا ربِّي؟ قال: «من قال هذا اليوم فهو مشرك، ولم يكن من إبراهيم بشرك، وإنما كان في طلب ربِّه، وهو من غيره شرك»^٣.

١. تفسير الرازي ١٣: ٤٧، تفسير القرطبي ٧: ٢٤، الدر المنثور ٣: ٣٠٤.

٢. كوني ربًا: من أرض بابل بالعراق، فيها مولد إبراهيم عليه السلام وفيها مشهده.

٣. تفسير القمي ١: ٢٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٤. ٤. تفسير القمي ١: ٢٠٧، تفسير الصافي ٢: ١٣٥.

أقول: يمكن الجمع بين الروایتين بأن الاستدلال بالأقول وقَعَ منه ^١مرتين: المرة الأولى طلباً لمعرفة نفسه، والثانية احتياجاً على قومه، مع أن الرواية الأخيرة تتضمن لما لا يقول به الشيعة من كون أبي إبراهيم آزر، مضافاً إلى بُعد أنه من كان يرتضع من إصبعة أو من إصبع جبرئيل، أن يحتمل كون الكوكب المحدود المتحرك رباً له.

وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ [٨٠]

ثم حكى سبحانه حاجة قوم إبراهيم معه بقوله: «وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ» وأقاموا له إبراهيم وإسماعيل على صيحة ما زعموه من ربوبية الكوكب وعبادة الأصنام كجواب تقليد الآباء وغيره بعد احتياج إبراهيم ^{عليه السلام} على فساد بائنياع كون الحادث المتغير خالقاً ورباً، إذن «قَالَ» لهم إبراهيم إنكاراً عليهم واشتيعاباً منهم: يا قوم «أَتُحَاجُّونِي» وتجادلونني «فِي» شأن «اللَّهِ» وتوحيدة «وَمَا» الحال أنه تعالى «قَدْ هَدَانِ» وأرشدني إلى الحق بتقوية عقلي، وإنارة قلبي، ونصب الآيات عليه.

ثم قيل: إن القوم خوفوه من ضرر آلهتهم حين طعن فيهم، وقالوا: أما تخاف أن يخذلك آلهتنا لأجل أنك تشتمهم؟ فأجابهم بقوله: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ»^١ في الربوبية والعبادة كوكباً كان أو صنماً من أن يضرنني بسبب طعني فيه، لوضوح كون جميع الأجرام الفلكية، والأجسام العنصرية مقهورة بقدرة الله وإرادته، لا يقدر شيء منها على نفع أو ضرر «إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا» من الضرر عليّ، فعند ذلك يضرنني هو بتوسط شيء من مخلوقاته ولو كان جماداً، فهو تعالى حقيق بأن يخاف منه لقدرته على كل شيء، ولكن لا يشاء ضرراً على عبده إلا إذا علم صلاحه فيه، أو استحقيقه له، فإنه «وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» وأحاط بجميع خلقه خبراً، ومن المعلوم أنه لا يستحق ضرره وعذابه من يوحده ويُنزه عن المثل والشريك، بل يستحق حفظه ونوابه وإكرامه «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» ذلك، ولا تنبهون أن الله هو الصار النافع دون آلهتكم، وأن المستحق للضرر والعذاب هو المشرِك دون الموحّد.

قيل: إن التقدير: أتعرضون عن التأمل في ما أقول، فلا تذكرون أن آلهتكم عَجْزة؟^٢

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٨١]

ثم أنكر على قومه توقعهم خوفه في مورد الأمن بقوله: «وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ» من الأصنام التي لا قدرة لها على شيء، «وَرَبُّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ» القادر على كل شيء «مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ» وبإشراكه «عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» وبرهاناً قاطعاً مع امتناع وجود البرهان على ربوبية الحادث المتغير المحتاج «فَأَيُّ» فريق من «الْفَرِيقَيْنِ» أفريق الموحدين أم فريق المشركين «أَحَقُّ» وأولى «بِالْأَمْنِ» من الضرر والعذاب من قِبَلِ الله «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» الأحقّ منهما، أخبروني به؟ وإنما لم يقل: فأينا أحق، ليحترز عن تركية نفسه.

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [٨٢]

ثم بادر تعالى إلى الجواب تنبيهاً على وضوحه عند العقل، وبدايته لدى العقلاء بحيث لا يحتاج إلى التأمل، بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» بالله وبوحدانيته «وَلَمْ يَلْبِسُوا» ولم يخلطوا «إِيمَانَهُمْ» ذلك «بِظُلْمٍ» وعصيان من الإشراك به في العبادة - كما فعله الذين قالوا: إنما نعبد الأصنام ليقربونا إلى الله - وازتيكاف القبانح الموبقة «أُولَئِكَ» الفريق فقط «لَهُمُ الْأَمْنُ» من كل عقوبة، دون فريق المشركين الذين ظلموا أنفسهم بازتيكاف أعظم الذنوب والقبانح «وَهُمْ» خاصة «مُهْتَدُونَ» إلى الحق، مُرشدون إلى كل خير دون المشركين الذين هم في ضلال مبين.

في (المجمع): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «أنه من تمام قول إبراهيم عليه السلام»^١.

وعن ابن مسعود عليه السلام: لما نزلت هذه الآية شقّ على الناس وقالوا: يا رسول الله، وإينا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه السلام: «إنه ليس الذي تعتون، ألم تستمعوا إلى ما قال العبد الصالح: «يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»؟»^٢.

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية قال: «الظلم الضلال فما فوقه»^٣.

وعنه عليه السلام أنه سئل «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» الزنا منه؟ قال: «أعوذ بالله من أولئك، لا، ولكنّه ذنب إذا تاب تاب الله عليه». وقال: «مدمن الزنا والسرقة وشارب الخمر كعابد الوثن»^٤.

١. مجمع البيان ٤: ٥٠٦ منسوب إلى القليل، ولم ينسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٢. مجمع البيان ٤: ٥٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٦، والآية من سورة لقمان ١٣/٣١.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٤٢/١٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٤١/١٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

وفي رواية قال: «أُولَئِكَ الْخَوَارِجُ وَأَصْحَابُهُمْ»^١.

وعنه عليه السلام: «أَنْ الظُّلُمَ هُنَا الشُّكُّ»^٢.

وعنه عليه السلام: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: «آمَنُوا بما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْوَلَايَةِ، وَلَمْ يَخْلِطُوهَا بِوَلَايَةِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ»^٣.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ [٨٣]

ثُمَّ تَبَّهْ شَبَّاحَهُ عَلَى أَنْ عِلِمَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وإصابته الحقَّ كان بإفاضته تعالى وتوفيقه بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ الْحُجَّةُ الَّتِي حَكَمَ بِهَا إِبْرَاهِيمَ إِنْ مَآءِي ﴿حُجَّتُنَا﴾ وَبَرَاهِينَنَا الَّتِي «آتَيْنَاهَا» وَأَلْهَمْنَاهَا «إِبْرَاهِيمَ» بِتَقْوِيَةِ بَصِيرَتِهِ وَإِنَارَةِ قَلْبِهِ لِيَقِيمَهَا «عَلَى قَوْمِهِ».

ثُمَّ قَرَّرَ شَبَّاحَهُ ذَلِكَ بِالتَّبْيِيهِ عَلَى أَنْ جَمِيعَ الْكَمَالَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ مِنْهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿نَرْفَعُ﴾ وَنُعَلِّي «دَرَجَاتٍ» كَثِيرَةً وَمَرَاتِبَ عَظِيمَةً مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ وَالثَّبُوتِ، وَالصُّفَاتِ الْكَرِيمَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْجَسِيمَةِ، وَالسَّعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ «مَنْ نَشَاءُ» رَفَعَهُ وَتَعَلَّيْتَهُ فِيهَا، بِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، وَالِاسْتِعْدَادَاتِ وَالْقَابِلِيَّاتِ فِي خَلْقِهِ «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ» فِي فِعَالِهِ مِنَ الرَّفْعِ وَالْخَفْضِ وَغَيْرِهِمَا «عَلِيمٌ» بِاسْتِعْدَادَاتِ الْخَلْقِ وَقَابِلِيَّاتِهِمْ عَلَى كَثَرَةِ مَرَاتِبِهَا الْمُتَفَاوِتَةِ.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ

وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *

وَذَكَرْنَا وَيْحَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [٨٤ و٨٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ تَفْضِيلِهِ بِنِعْمَةِ الْهُدَايَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَإِرَادَتِهِ مَلَكَوَاتِ الْمَوْجُودَاتِ، بَيَّنَّ تَفْضِيلَهُ بِكَرَامَةِ النُّسْلِ وَشَرَافَةِ الْأَصْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ مِنْ رَحْمَتِنَا «إِسْحَاقَ» ابْنَهُ مِنْ صُلَيْهِ «وَيَعْقُوبَ» مِنْ إِسْحَاقَ «كُلًّا» مِنْهُمَا أَوْ مِنْهُمْ «هَدَيْنَا» إِلَى الْحَقِّ، وَأَرَشَدْنَا إِلَى الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، «وَنُوحًا» وَهُوَ كَانَ مِنْ أَجْدَادِهِ «هَدَيْنَا» إِلَى كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَمَقَامِ الرِّسَالَةِ «مِنْ قَبْلُ» وَفِي الْأَزْمَنَةِ السَّابِقَةِ مِنْ زَمَانِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

١. تفسير العياشي ١٠٦/١٤٤٥، تفسير الصافي ١٣٦:٢.

٢. تفسير العياشي ١٠٥/١٤٤٣، تفسير الصافي ١٣٦:٢.

٣. تفسير العياشي ١٠٥/١٤٤٤، تفسير الصافي ١٣٦:٢.

قيل: كان بين إبراهيم ونوح عليهما السلام أحد عشر أباً، أولهم سام بن نوح وآخرهم تارخ أبو إبراهيم.
عن الباقر عليه السلام: «يعني هديناهم ليجعلوا الوصية في أهل بيتهم»^١.

ثم بين سبحانه أنه أنعم على نوح أيضاً نعمة كرامة النسل بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ ونسله هدينا ﴿دَاوُدَ﴾ بن إيشا ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ بن داود اللذين خصهما الله بالملك العظيم مع النبوة ﴿وَأَيُّوبَ﴾ بن أموص الذي خصه الله بالبلاء العظيم، وكمال الصبر عليه مع النبوة ﴿وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب الذي جمع الله له عظيم البلاء، وكمال الصبر، والملك مع النبوة ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ابني عمران بن يصره اللذين خصهما الله بكمال المهابة، والمعجزات العظيمة القاهرة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإنعام بالنعم العظيمة ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على أعمالهم الحسنة.

﴿و﴾ هدينا ﴿زَكَرِيَّا﴾ بن أذن من سبط يهودا ﴿وَيَحْيَى﴾ ابنه ﴿وَعِيسَى﴾ بن مريم بنت عمران بن ماثان ﴿وَالْيَاسَ﴾ بن هارون أخي موسى اللذين خصهم الله بغاية الزهد والإعراض عن الدنيا ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في مكارم الأخلاق وحسن الأعمال.

نــــــــــــي أن
الحسين عليه السلام ابنا
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
قال الفخر الرازي في تفسيره: الآية تدل على أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الله جعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أنه لا ينتسب إلى إبراهيم إلا بالأم، فذلك الحسن والحسين عليهما السلام من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن انتسبا إلى رسول الله بالأم^٢.

ويقال: إن أبا جعفر الباقر اشتدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف^٣.

أقول: زوي عن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «والله لقد نسب الله عيسى بن مريم في القرآن إلى إبراهيم عليه السلام من قبل النساء» ثم تلا هذه الآية^٤.
وعن الكاظم عليه السلام: «إنما ألحق عيسى عليه السلام بذراري الأنبياء من طريق عليه السلام مريم، وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أمنا فاطمة عليها السلام»^٥.

وإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٨٦ و ٨٧]

٢ و ٣. تفسير الرازي ١٣: ٦٦.

١. الكافي ٨: ٩٢/١١٦، كمال الدين: ٢/٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٤٧/١٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩/٨٤، تفسير الصافي ٢: ١٣٧.

﴿وَهَدَيْنَا إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب ﴿وَيُؤُسَ﴾ بن مَثَّى ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالكمالات النفسانية والرسالة.

وقد استدل كثير من المفسرين على رجوع ضمير (ومن ذريته) إلى نوح بعدم كون يونس ووط من ذاري إبراهيم عليه السلام، وعدم إطلاق الذرية على ولد الصلب، وقد عد إسماعيل بن إبراهيم من الذرية^١.

وقيل برجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأن الآيات في بيان رفعة إبراهيم، وأن يونس كان من الأسباط، ولا بُعد في عد لوط من ذريته تنزيلاً لابن أخيه منزلة ابنه، لكونه في تربته^٢.

ويدل عليه استدلال الصادقين عليه السلام بعدي عيسى في الآية من ذرية إبراهيم عليه السلام في الروايتين السابقتين.

وقيل برجوع ضمير (وذريته) إلى إبراهيم عليه السلام، وكون قوله: (واسماعيل) وما بعده عطفاً على قوله: (ونوحاً). ثم أنه ذكر لتأخير ذكر إسماعيل مع كونه ابن إبراهيم لصلبه وجوهاً غير وجهه^٣.

ويحتمل كون لفظ إسماعيل في الآية معرب شمول، وهو النبي الذي نصب طالوت ملكاً لبني إسرائيل، فعلى هذا لم يذكر إسماعيل بن إبراهيم في الآية، لكون المقصود في المقام الاختجاج على المشركين بعلو مقام الأنبياء المذكورين بسبب هدايتهم إلى التوحيد، وإنعام الله عليهم بكرامة أصولهم وفروعهم وفروع إسماعيل نبي غيره عليه السلام.

قيل: في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ دلالة على أفضلية الأنبياء على الملأنة^٤؛ لأن المراد من العالمين جميع ما سوى الله تعالى من المخلوقات، فيدخل فيه الملأنة. وفيه نظر، وإن كان المدعى مسلماً عندنا، بل الظاهر أنه من ضروريات الإمامية، ثم من المعلوم أن المراد من العالمين: هو عالم^٥ زمانهم لوضوح عدم أفضليتهم على خاتم النبيين عليه السلام.

﴿وَهَدَيْنَا بَعْضًا مِنْ آبَائِهِمْ﴾ وأصولهم ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وفروعهم ﴿وَإِخْوَانَهُمْ﴾ الذين هم فروع أصولهم - كإخوة يوسف على ما قيل - إلى المعارف الحقّة والكمالات النفسانية ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ بالثبوت، واضطيقناهم بالرسالة ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وأرشدناهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا ضلال فيه أبداً. قيل: في الآية إشعار بأن شرط الرسالة الرجولية، فلا يجوز أن تكون المرأة رسولاً ولا نبياً^٦.

١. تفسير الرازي ١٣: ٦٤، تفسير أبي السعود ٣: ١٥٧.

٢. راجع: تفسير الرازي ١٣: ٦٤ - ٦٥.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٦٦.

٤. في النسخة: عالمي.

٥. تفسير الرازي ١٣: ٦٧.

قيل: في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ دلالة على كون بعض آباء هؤلاء الأنبياء غير مؤمن^١.

أقول: فيه منع لاختimal كون المراد من هدايتهم: الهداية إلى كمال المعرفة واليقين لا الإيمان، مع احتمال أن يكون المراد من بعض آباءهم: الأجداد الأبوي^٢، ومن البعض الآخر الأجداد الأمي^٣، لإمكان كونهم غير مؤمنين.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٨٨]

ثم عظم الله شأن الهداية التي هداهم بها بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الهدى الذي كان للأنبياء المذكورين، أو لهم ولبعض آباءهم وذرياتهم وإخوانهم، إلى الحق وحقائق الأشياء ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الكامل وفيضة التام ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ إلى أعلى مراتب الكمالات الإمكانية ودرجات القرب ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته الكاملة ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الطيبين بالفطرة، الطاهرين من رذائل الأخلاق.

ثم بالغ سبحانه في عظمته ذنب الشرك بقوله: ﴿وَلَوْ﴾ أن هؤلاء الأنبياء مع علو مقامهم، وكمال قربهم ﴿أَشْرَكُوا﴾ بالله شيئاً في الألوهية أو العبودية على فرض المحال، والله ﴿لَحَبِطَ﴾ وذهب عنهم، وبطل ما كانوا مدة أعمارهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات والحسنات، فلا يثبتون على شيء منها، فكيف بمن دونهم لو أشركوا! وفيه غاية الترهيب.

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْثِرُوا بِهَا كَافِرِينَ [٨٩]

ثم بالغ سبحانه في عظم شأن هؤلاء الأنبياء الثمانية عشر بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأنبياء المكرمون هم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وفهم حقائقه ودقائقه ﴿وَعَلَّمْنَاهُمْ﴾ ﴿الْحُكْمَ﴾ والفصل بين الناس بالحق، أو الحكمة، ﴿وَعَلَّمْنَاهُمْ﴾ ﴿النُّبُوَّةَ﴾ ومنصب هداية الخلق.

ثم بشر سبحانه بضرورة دينه، وأعلن بغناه عن إيمان المشركين بالنبوة، أو بالثلاثة المذكورة بقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ المشركون فقد ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ ووفقنا لحفظها ورعاية حقها ﴿قَوْمًا﴾ آخرين ﴿لَيُؤْثِرُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ قيل: هم الأنبياء الثمانية عشر^٤، وقيل: هم الأنصار^٥، وقيل: هم المهاجرون^٦.

٢. كذا، والظاهر: الأجداد الأبويين.

٤ - ٣. تفسير الرازي ١٣: ٦٨.

١. تفسير الرازي ١٣: ٦٦.

٣. كذا، والظاهر: الأجداد الأميون.

وعن الصادق عليه السلام: «قوماً يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويذكرون الله كثيراً»^١.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [٩٠]

ثم بالغ سبحانه في تحسين طريقة الأنبياء المذكورين بقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ هُمْ» إلى كل حق وخير، ووفّهم لشلوك الطريق المستقيم «فَبِهِدَاهُمْ» وطريقتهم في المعارف والأخلاق الحسنة «أَقْتَدِهْ» واتبع.

في أنضلة خاتم النبيين ﷺ على جميع الأنبياء
قيل: فيه دلالة على أفضليته ﷺ من جميع الأنبياء: لأن خصال الكمال وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من أهل الصبر على البلية، ويوسف كان جامعاً بينهما، وموسى كان صاحب المعجزات القاهرة والتواضع والوقار، وزكريا كان كثير الذكر، ويحيى كان كثير الخوف والبتاء، وعيسى كان كثير الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق. وبالجمله قد غلب على كل منهم خصلة معينة، فجمع الله في حبيبه ﷺ جميع خصالهم بأمره بالاقتداء بهم، ومعلوم أنه لم يقصر في الامتثال^٢.

ثم لما كان من أخلاق الأنبياء عدم الطمع في أموال الناس، وترك سؤال الأجر على تبليغ الرسالة، أمره سبحانه بإعلام الناس بعدم طمعه في الأجر على تبليغ المعارف والأحكام التي جميعها في القرآن بقوله: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» ولا أطلب منكم على تبليغ القرآن جعلاً، كما لم يسأله الأنبياء من قبلي على تبليغ الكتب السماوية.

ثم نبه على علة عدم سؤال الأجر على تبليغ كتابه بقوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ» وعظة من الله «لِلْعَالَمِينَ» والخلق أجمعين من الإنس والجن، والعرب والعجم، والأبيض والأسود، ولا ينبغي سؤال الأجر على الموعظة والتذكير، لوجوب كون غرض المذكر الآخرة، وفيه دلالة على عموم رسالته، وعدم اختصاصها بقوم دون قوم.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ
الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا

وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [٩١]

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَرْكِ سُؤَالِ الْأَجْرِ عَلَى تَبْلِيغِ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ اللَّهِ تَذَكُّرَةٌ لِّجَمِيعِ النَّاسِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُنْكَرِينَ لِرِسَالَتِهِ وَكِتَابِهِ، قَانِلِينَ لَهُ: مَا نَزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ كِتَابًا وَدِينًا، ذَرَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وَمَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

في وجوب ارسال
الرسول وانزال
الكتاب على
الله تعالى عقلاً
وعن ابن عباس: ما عظموه حقَّ تعظيمه، حيث إنهم طعنوا في حِكْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، وَحَسَبُوهُ لَاعِبًا عَابَثًا يَخْلُقُهُ الْعَالَمُ ﴿إِذْ قَالُوا﴾: إنكاراً لِرِسَالَتِكَ وَكِتَابِكَ، وَكُفْرَانًا لِأَعْظَمِ نِعْمَانِهِ عَلَيْهِمْ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْوَحْيِ وَالْكِتَابِ، مَعَ وَضُوحِ أَنَّهُ مُتَأَنِّفٌ لِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ وَتَنْزُهُ مِنَ الْعِبَثِ، فَإِنَّهُ لَا حِكْمَةَ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ إِلَّا تَكْمِيلَ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِعْلِيَّةَ اسْتِعْدَادَاتِهِمْ لِلْفِيوضَاتِ الْأَبَدِيَّةِ بِسَبَبِ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِمْ، وَصَلَاحِ أَخْلَاقِهِمْ، وَحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ، وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِعَثِ الرَّسُولِ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَجَعْلِ الْقَوَانِينِ وَالْأَحْكَامِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ، فَالاعْتِرَافُ بِحِكْمَتِهِ تَعَالَى مُتْلَازِمٌ لِلاعْتِرَافِ بِجَمِيعِ ذَلِكَ.

رَوَى أَنَّ مَالِكَ بْنَ الصَّيْفِ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ وَزُؤْسَانِهِمْ، خَرَجَ مَعَ نَفَرٍ إِلَى مَكَّةَ مُعَانِدِينَ، لِيَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «عَنْ أَشْيَاءَ»، وَكَانَ رَجُلًا سَمِينًا، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالَ [لَهُ] ﷺ: أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَجِدُ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْخَبَرَ السَّمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَأَنْتَ الْخَبَرُ السَّمِينُ»، وَقَدْ سَمِعْتَ مِنْ مَكَائِلِكَ^٢ الَّتِي تُطْعِمُكَ الْيَهُودَ وَلَسْتَ تَصُومُ^٣. فَضَحِكَ الْقَوْمُ، فَخَجَلَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، فَقَالَ^٤: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَلَمَّا رَجَعَ مَالِكٌ إِلَى قَوْمِهِ قَالُوا لَهُ: [وَيْلَكَ، مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْنَا عَنْكَ، أَلَيْسَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، فَلِمَ قُلْتَ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: أَغْضَبَنِي مُحَمَّدٌ، فَقُلْتُ ذَلِكَ، قَالُوا لَهُ: وَأَنْتَ إِذَا غَضِبْتَ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَتَتْرَكَ دِينَكَ، فَاخْذُوا الرِّئَاسَةَ وَالْخَبْرِيَّةَ مِنْهُ. وَجَعَلُوهُمَا إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^٥.

وَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَبْكِيهِمْ وَنَقْضِ قَوْلِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: ﴿مَنْ أَنْزَلَ﴾ مِنَ السَّمَاءِ ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. حَالُ كَوْنِ ذَلِكَ الْكِتَابِ ﴿تُورًا﴾ وَظَاهَرُ أَنْفُسِهِ، أَوْ مَظْهَرُ إِيمَا خَفِيِّ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ﴿وَهْدًى﴾ وَرَشَاداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ إِلَى طَرِيقِ الْفَلَاحِ وَمَقَامِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، أَوْ إِلَى

٢. المأكلة: ما يؤكل، والطَّعْمَةُ والمرْتَق.

٤. زاد في تفسير روح البيان: غضباً.

١. تفسير الرازي ١٣: ٧٢.

٣. زاد في تفسير روح البيان: أي تمسك.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٦٣.

نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ وَصِدْق كِتَابِهِ.

ثُمَّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ مَعَ عَظَمِ شَأْنِ هَذَا الْكِتَابِ ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ فِي ﴿قَرَاطِيسَ﴾ وَتَكْتُبُونَهُ فِي أَوْرَاقٍ مُتَفَرِّقَةٍ، لَكَيْ تَسْتَدْلُوا بِالْأَوْرَاقِ الَّتِي ﴿تُبْدُونَهَا﴾ وَتُظْهِرُونَ لِلْعَوَامِّ مَا تُرِيدُونَ إِظْهَارَهُ مِنْهَا ﴿وَتُخْفُونَ﴾ مِنْهُمْ ﴿كَثِيرًا﴾ مِنْ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ يَمَّا فِيهِ [مِنْ] نُعُوتِ مُحَمَّد وَكِتَابِهِ، وَصِفَاتِ أَصْحَابِهِ، وَبَعْضِ الْأَحْكَامِ الَّذِي تُحِبُّونَ إِخْفَاءَهُ^١ كَحُكْمِ رَجْمِ الْمُحَصَّنِ وَحُكْمِ الْقِصَاصِ، وَغَيْرِهِمَا ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ بِسَبَبِ تَسْمِيرِ مُحَمَّد ﷺ آيَاتِ ذَلِكَ الْكِتَابِ، مِنْ الْعُلُومِ ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ مِنْ قَبْلُ. قِيلَ: إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْمُبَشِّرَةِ بِمُقَدِّمِ النَّبِيِّ ﷺ وَبِعَتِّهِ، وَمَا كَانُوا يَفْهَمُونَ الْمُرَادَ مِنْهَا، فَلَمَّا بُعِثَ ﷺ فَسَرَّهَا لَهُمْ^٢.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ عَنْ مُنْزَلِ كِتَابِ التَّوْرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ أَنْزَلَهُ ﴿آتَةً﴾ تَنْبِيْهَا عَلَى غَايَةِ وَضُوحِهِ بِحَيْثُ لَا شُبْهَةَ لِأَحَدٍ فِيهِ، وَتَعْيْنَهُ بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ غَيْرَهُ، أَوْ عَلَى بَهْتِهِمْ بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ هَدَّاهُمْ سُبْحَانَهُ بَعْدَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَعَدَمِ ارْتِدَائِهِمْ عَنْهُ بِالْحَجَجِ الْقَاهِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَرَزْنَاهُمْ﴾ وَدَعْنَاهُمْ ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ وَبِاطِلِهِمْ - عَنِ الْقَمِيِّ: [يَعْنِي] فِي مَا خَاضُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ^٣ - ﴿يَلْعَبُونَ﴾ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَإِقَامَةُ الْحَجَجِ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ وَعِقَابُهُمْ.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ [٩٢]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ فَسَادِ قَوْلِهِمْ: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) أَعْلَنَ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿كِتَابٌ﴾ عَظِيمُ الشَّانِ، فِيهِ دَلَالٌ عَلَى أَنَّا ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بِالْوَحْيِ وَبِوَسَاطَةِ جِبْرِئِيلَ، وَتَوَلَّيْنَا تَرْكِيبَ أَلْفَاظِهِ وَعِبَارَاتِهِ، بِلَا دَخَلَ بَشَرٌ فِيهِ، مِنْهَا أَنَّهُ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كَثِيرُ خَيْرِهِ، دَائِمُ نَفْعِهِ. وَقَدْ مَرَّ فِي بَعْضِ الطَّرَافِ أَنَّهُ مَا مِنْ عِلْمٍ إِلَّا وَأَصْلُهُ فِيهِ، وَأَنَّ لِتِلَاوَتِهِ أَثَارًا دُنْيَوِيَّةً وَأُخْرَوِيَّةً^٤. قِيلَ: إِنَّهُ مُبَارَكٌ عَلَى الْعَوَامِّ بِأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، وَعَلَى الْخَوَاصِّ بِأَنَّهُ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ، وَعَلَى الْخَوَاصِّ بِأَنَّهُ يُوصِلُهُمْ إِلَيْهِ، وَيُخَلِّقُهُمْ بِأَخْلَاقِهِ^٥.

وَمِنْهَا أَنَّهُ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ وَمُوَافِقٌ لِلْكِتَابِ ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي الْعُلُومِ

٢. تفسير الرازي ١٣: ٧٩.

١. كَذَا، وَالظَّاهِرُ: الَّتِي تُحِبُّونَ إِخْفَاءَهَا.

٣. تفسير القمي ١: ٢١٠، تفسير الصافي ٢: ١٣٨.

٤. راجع: الطرفة (٢٧) و(٣٠) من المقدمة.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٦٤.

والمعارف، مع أمة من جاء به، أو أنه نازل حسب ما وصف في الكتب، وكان إنزاله ليتبرك الناس به **﴿وَلِتُنذِرَ﴾** به يا محمد من يسكن **﴿أَمْ الْقَرْيَ وَمَنْ﴾** يكون **﴿حَوْلَهَا﴾** وأطرافها من أهل الشرق والغرب.

عن ابن عباس رضي الله عنه: سميت مكة بأمة القرى؛ لأن الأرض دحيت من تحتها.^١
وقيل: لأنها قبلة أهل الدنيا^٢ ومحجهم، فصارت كالأصل، وسائر البلاد والقرى تابعة لها، ويجمع الخلق إليها كما يجمع الأولاد إلى الأم، أو لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، أو لأن بكة أول بلدة سكنت.

قيل: اختجت طائفة من اليهود بقوله: **﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقَرْيَ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾** على أنه ﷺ كان رسولاً إلى العرب^٣. وفيه ما لا يخفى من الوهن.

ثم نبه سبحانه بأن عدم الإيمان بالقرآن لا يكون إلا للعناد، بقوله: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾** ويخافون عذاب الله، وظهرت قلوبهم من حب الدنيا ودس العصية والعناد، ككثير من الأحرار والرهبان، بمجرد سماع القرآن **﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** بلا حاجة إلى دلالة أمر خارج على صدقه؛ لأن خوف الآخرة يحيلهم على النظر والتدبر فيه، فيظهر لهم ما يصدق من كونه بجهة الفصاحة والبلاغة في أعلى درجة الإعجاز، وكونه مشتقاً على الأخبار الغيبية، وكونه موافقاً للكتب السماوية في العلوم والمعارف، مع كون من جاء به أمياً، إلى غير ذلك من شواهد صدقه.

ثم بين سبحانه أن خوف الآخرة كما يحيل على الإيمان بمحمد ﷺ وكتابه، يحيل على العبادات التي أهمها وأفضلها الصلوات الخمس، بقوله: **﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾** الخمس بعد الإيمان بمحمد ﷺ وكتابه **﴿يَحَافِظُونَ﴾** ويدأبون.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا
كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [٩٣]

ثم لما كان العلم ببقائه أمر من أقوى الزواجر عن ارتكابه، أكد صدق القرآن بأن الافتراء على الله في دعوى الرسالة ونسبة القرآن إليه، من أشنع الظلم، بقوله: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾** على نفسه وأصح قولاً

﴿مِمَّنْ افْتَرَى﴾ واختلق ﴿عَلَىٰ أَهْلِ كَذِبًا﴾ بادعاء أن القرآن منه مع عدم كونه منه ﴿أَوْ قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قبله دين وشرع ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ من الدين ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ﴾ وأخترع من نفسه كتاباً ﴿يُمِثِّلُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب.

قيل: إن الفقرة الأولى في سبيلمة الكذاب - صاحب اليمامة، فإنه كان يقول: محمد رسول قريش، وأنا رسول بني حنيفة - والأسود العنسي^١.

والثانية في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، روي أنه كان يكتب الوحي، فلما نزل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^٢ وأملأه الرسول ﷺ عليه، عجب عبد الله منه فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال الرسول ﷺ: «هكذا نزلت الآية» فسكت عبد الله، وقال: إن كان محمد صادقاً، فقد أوحى إليّ مثله، وإن كان كاذباً فقد عارضته^٣.

والثالثة في الضر بن الحارث، فإنه قال: لو نشاء لقلنا مثل هذا^٤.

في (الكافي): عن أحدهما عليه السلام: «أنها نزلت في ابن أبي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر، وهو ممن كان رسول الله ﷺ يوم فتح مكة هدر دمه، وكان يكتب لرسول الله ﷺ، فإذا أنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كتب: إن الله عليم حكيم، فيقول له رسول الله ﷺ: «دعها، فإن الله عليم حكيم» وكان ابن أبي سرح يقول للمنافقين: إني لأقول من نفسي مثل ما يجيء به فما يغير عليّ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه الذي أنزل^٥.

في ارتداد عبدالله وعن الثممي عليه السلام: عن الصادق عليه السلام قال: «إن عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخا عثمان بن أبي سرح

[ابن عفان] من الرضاة أسلم وقدم المدينة، وكان له خط حسن، وكان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ دعاه فكتب ما يئمله عليه رسول الله ﷺ [من الوحي]،

فكان إذا قال رسول الله ﷺ: ﴿سَمِعَ بِصِيرٍ﴾ يكتب: سمع عليم، وإذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يكتب: بصير، ويفرق بين التاء والتاء، وكان رسول الله ﷺ يقول: هو واحد، فازد كافراً ورجع إلى مكة وقال لقريش: والله ما يدري محمد ما يقول، أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ ذلك، فأنزل مثل ما أنزل [الله]، فأنزل الله على نبيه ﷺ في ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

١. تفسير الرازي ١٣: ٨٣.

٢. تفسير الرازي ١٣: ٨٤، أسباب النزول للواحيدي: ١٢٥، مجمع البيان ٤: ٥١٨.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٨٤.

٤. الكافي ٨: ٢٤٢/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ١٣٩.

فلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ، فَجَاءَ بِهِ عُثْمَانُ، قَدْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْفُ عَنْهُ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَعَادَ، فَسَكَتَ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]، ثُمَّ أَعَادَ، فَقَالَ: هُوَ لَكَ، فَلَمَّا مَرَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَلَمْ أَقُلْ مَنْ رَأَاهُ فَلْيَقْتُلْهُ. فَقَالَ رَجُلٌ: كَانَتْ عَيْنِي إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تُشِيرَ إِلَيَّ فَأَقْتُلْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَقْتُلُونَ بِالْإِشَارَةِ، فَكَانَ مِنَ الطُّلُقَاءِ^١.

وعن العياشي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام في تأويله: «مَنْ ادَّعَى الْإِمَامَةَ دُونَ الْإِمَامِ»^٢.

ثُمَّ هَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْفِرْقَ الثَّلَاثَ بِشَوْءٍ حَالِهِمْ عِنْدَ الْمَوْتِ يَقُولُهُ: «وَلَوْ تَرَى» يَا مُحَمَّدُ «إِذِ الظَّالِمُونَ» مِنَ الْفِرْقِ الثَّلَاثِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ خَانِضُونَ «فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ» وَسَكَرَاتِهِ وَشِدَائِهِ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا هَانًا «وَالْمَلَائِكَةُ» الْمُؤْكَلُونَ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ «بَاسِطُوا» وَمَادُوا «أَيْدِيَهُمْ» لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ - كَالْغَرِيمِ الْمُلْحِجِ الَّذِي يَسِطُّ يَدَهُ إِلَى مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ، وَيَعْتَفُ عَلَيْهِ فِي الْمُطَالَبَةِ، وَلَا يَحْمِلُهُ - قَائِلِينَ لَهُمْ تَغْلِيظًا وَتَعْنِيفًا: «أَخْرِجُوا» إِلَيْنَا «أَنْفُسَكُمْ» وَأَرْوَاحَكُمْ مِنْ أَجْسَادِكُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ وَهُمْ بِاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ لَتَعْذِيبِهِمْ^٣، يَقُولُونَ: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَيْدِينَا وَخَلِّصُواهَا مِنَ الْعَذَابِ إِنْ قَدَّرْتُمْ.

«الْيَوْمَ» وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ، أَوْ فِي الزَّمَانِ الْمُتَمَتِّدِ بَعْدَ الْمَوْتِ «تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» وَتُعَاقِبُونَ عِقَابًا مُتَضَمِّنًا لِنَايَةِ الدَّلِّ وَالتَّحْقِيرِ.

عن الباقر عليه السلام: «الْعَطَشُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٤.

«بِمَا كُنْتُمْ» فِي الدُّنْيَا «تَقُولُونَ» وَتَفْتَرُونَ «عَلَى اللَّهِ» قَوْلًا «غَيْرَ الْحَقِّ» مِنْ اتِّخَاذِهِ الْوَلَدَ، أَوْ كَوْنِ الشَّرِيكِ لَهُ فِي الْمُلْكِ، أَوْ ادِّعَاءِ الثَّبُوءِ وَالْوَحْيِ «وَكُنْتُمْ» تَعْرِضُونَ «عَنْ آيَاتِهِ» الْقُرْآنِيَةِ، وَبِرَاهِينِ تَوْحِيدِهِ، وَ«تَشْتَكِيُونَ» عَنِ الْإِقْرَارِ بِهَا وَالتَّسْلِيمِ لَهَا.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [٩٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْتَخِرُونَ بِالْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْعَشِيرَةِ، حَكَى شَبَحَانَهُ مُخَاطَبَتَهُ إِيَّاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢. تفسير العياشي ١٠٩/١٤٥٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٠.

١. تفسير الفمى ١: ٢١٠، تفسير الصافي ٢: ١٣٩.

٤. تفسير العياشي ٢: ١١٠/١٤٥٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٠.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٨٥.

تَرْهَبًا لَهُمْ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا مِنْ الدُّنْيَا مُفْرَدًا﴾^١ وَمُقْطَعِينَ عَنِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْعَشِيرَةِ ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَعَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي وُلِدْتُمْ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُمْ يَحْشَرُونَ عُرَاءَ حُفَاةٍ غُرْلًا»^٢، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاسْوَأَاتُهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ كَذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ»^٣.

وَعَنْ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَتْ: وَمَا فِرَادِي؟ فَقَالَ: «عُرَاءُ»، قَالَتْ: وَاسْوَأَاتُهُ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ لَا يُبَدِيَ عَوْرَتَهَا، وَأَنْ يَحْشُرَهَا بِأَكْفَانِهَا^٤.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «تَتَوَقَّوْا فِي الْأَكْفَانِ، فَإِنَّكُمْ تُبْعَثُونَ بِهَا»^٥.

ثُمَّ وَبَحْثَهُمْ عَلَى عَدَمِ تَقْدِيمِ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَى الْآخِرَةِ بِصَرْفِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَقُولُ: ﴿وَتَرَكْتُمْ﴾ وَخَلَقْتُمْ ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ وَتَفَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَتَخَيَّرُونَ بِهِ، وَتَوَثَّرُونَ عَلَى الْآخِرَةِ مِنَ الْحُطَامِ ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وَفِي الدُّنْيَا الَّتِي انْتَقَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى هَذِهِ الدَّارِ، وَمَا قَدَّمْتُمْ مِنْهَا إِلَيْهَا شَيْئًا، وَمَا حَمَلْتُمْ مَعَكُمْ مِنْهُ نَقِيرًا، وَحَرَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْإِثْبَاعِ بِهِ.

ثُمَّ وَبَحْثَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِرَّعْمِ أَنَّهُمْ شَفَعَاؤُهُمْ يَقُولُ: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ﴾ الْيَوْمَ ﴿شَفَعَاءَكُمْ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ مُضَافًا إِلَى الرَّجَاءِ بِشَفَاعَتِهِمْ ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ﴿شُرَكَاءُ﴾ لِلَّهِ ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ﴾ الرُّضْلُ الَّذِي كَانَ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُمْ، وَأَنْفَصَمَ حَبْلُ مَوَدَّتِكُمْ، وَتَشَتَّتَ جَمْعُكُمْ، وَضَلَّ وَضَاعٌ عَنْكُمْ الْيَوْمَ ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ وَتَوَهَّمُونَ مِنْ شَفَاعَتِهِمْ وَنَفْعِهِمْ.

عَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مُعَاوِيَةَ وَبَنِي أُمَيَّةٍ وَشُرَكَائِهِمْ وَأَنْتَهُمْ»^٥ ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ يَعْنِي الْمَوَدَّةَ.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذُلْكُمْ اللَّهُ فَأَنْتُمْ تُوَفُّوْنَ [٩٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَجُمْلَةِ مِمَّنْ دَلَّلَهُ، وَإِبْثَابِ الثَّبُوءِ وَصِدْقِ الْقُرْآنِ تَبَعًا وَاسْتِطْرَادًا، عَادَ إِلَى إِقَامَةِ الْبَرَاهَانِ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْأَهَمُّ فِي

١. غُرْلًا: جَمْعُ أَغْرَلٍ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُحْتَنَ.

٢. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٤: ٥٢١، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٣: ٦٩، وَالْآيَةُ مِنْ سُورَةِ عَبَسَ: ٨٠/٣٧.

٣. الْخَرَائِجُ وَالْجَرَائِحُ ١: ٩١/١٥٠، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١٤٠.

٤. الْكَافِي ٣: ١٤٩/٦، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١٤٠. ٥. تَفْسِيرُ الْقَمِي ١: ٢١١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١٤١.

السُّورُ الْمُبَارَكَةُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ﴾ كَالْحِنطَةِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِهِمَا وَخَالِقَهُ ﴿وَو﴾ فَالِقُ «النَّوَى» الَّتِي تَكُونُ فِي جُوفِ الثَّمَرَاتِ كَالثَّمَرِ وَالْمِشْمَشِ وَأَمْثَالِهِمَا، وَخَالِقَهَا، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^١. أَوْ شَاقَّهْمَا بِالنباتات والأشجار، كَمَا عَنْ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ^٢. فَإِنَّ الْحَبَّ وَالنَّوَى إِذَا وَقَعَتَا فِي الْأَرْضِ الرُّطْبَةِ، وَمَرَّتَ بِهِمَا مَدَّةٌ، يَشْتَقُّهُمَا^٣ اللَّهُ تَعَالَى شَقَّتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا فِي أَعْلَاهُمَا، وَالْأُخْرَى فِي أَسْفَلِهِمَا.

ثُمَّ «يُخْرِجُ» النَّبَاتَ أَوْ الشَّجَرَ «الْحَيَّ» بِالرُّوحِ النَّبَاتِيِّ، وَالقُوَّةَ النَّامِيَّةَ مِنَ الشَّقِّ الْأَعْلَى «مِنْ» الْحَبِّ وَالنَّوَى «الْمَيِّتِ» لَعَدَمِ تِلْكَ الرُّوحِ فِيهِمَا، وَالْعِرْقَ الْحَيَّ بِالرُّوحِ النَّبَاتِيِّ مِنَ الشَّقِّ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا، ﴿وَو﴾ هُوَ تَعَالَى «مُخْرِجُ» الْحَبِّ أَوْ النَّوَى «الْمَيِّتِ مِنْ» النَّبَاتِ أَوْ الشَّجَرِ «الْحَيَّ».

وَفِي (الكافي): عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي حَدِيثِ الطَّيْنَةِ: «تَأْوِيلُ الْحَبِّ طَبِئَةُ الْمُؤْمِنِينَ [الَّتِي] أَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مُحِبَّتَهُ، وَتَأْوِيلُ النَّوَى طَبِئَةُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ نَأَوْا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ» قَالَ: «وَأَمَّا سَمَّى النَّوَى مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ نَأَى عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَتَبَاعَدَ مِنْهُ»^٤.

وَعَنْ الثَّمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «الْحَبُّ مَا أَحَبَّهُ، وَالنَّوَى مَا نَأَى عَنِ الْحَقِّ».

وَقَالَ أَيْضاً: «فَالِقُ الْحَبِّ أَيُّ يَفْلِقُ الْعِلْمَ مِنَ الْأَنْمَةِ، وَالنَّوَى مَا بَعُدَ عَنْهُ»^٥.

وَعَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي حَدِيثِ الطَّيْنَةِ^٦: فَقَالَ اللَّهُ: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ» فَالْحَيُّ: الْمُؤْمِنُ الَّذِي تَخْرُجُ طَبِئَتُهُ مِنَ طَبِئَةِ الْكَافِرِ، وَالْمَيِّتُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحَيِّ هُوَ الْكَافِرُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ طَبِئَةِ الْمُؤْمِنِ»^٧.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَمُخْرِجُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ^٨.

وَعَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ إِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ إِخْرَاجَ الْحَيَّوَانِ مِنَ النَّطْفَةِ أَوْ الْبَيْضَةِ، وَمِنْ إِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ إِخْرَاجَ النَّطْفَةِ أَوْ الْبَيْضَةِ مِنَ الْحَيَّوَانِ^٩.

قِيلَ: لَمَّا كَانَ الْاِعْتِنَاءُ بِإِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَكْثَرَ مِنْ إِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، أَتَى شَبَحَانَهُ فِي بَيَانِ الْأَوَّلِ بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اِعْتِنَاءِ الْفَاعِلِ بِفِعْلِهِ^{١٠}، وَفِي بَيَانِ الثَّانِي بِالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ غَيْرِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ^{١١}.

٢. مجمع البيان ٤: ٥٢٣، عن الحسن وقتادة والسدي.

١. تفسير الرازي ١٣: ٨٩.

٣. في النسخة: يشق. ٤. الكافي ٢: ٧/٤، تفسير الصافي ٢: ١٤١.

٥. تفسير القمي ١: ٢١١، تفسير الصافي ٢: ١٤١. ٦. في النسخة: الغيبة.

٧. الكافي ٢: ٧/٤، تفسير الصافي ٢: ١٤١. ٨. تفسير الرازي ١٣: ٩٢، تفسير روح البيان ٣: ٧٠.

٩. تفسير الرازي ١٣: ٩٢. ١٠. تفسير الرازي ١٣: ٩٣.

١١. تفسير الرازي ١٣: ٩٣.

ثم لما أثبت سبحانه كمال قدرته وحكمته، خَصَّ استحقاق العبادة بذاته المقدسة بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾
القادر المُدَبِّرُ الحَكِيمُ ﴿أَفَهُ﴾ المُسْتَحَقُّ للعبادة دُون غيره ﴿فَأَأْتِي تُؤَفِّكُونَ﴾ وكيف تُصَرِّفون عنه إلى
غيره، وتتركون عبادته، وتشغلون بعبادة خلقه؟!
وقيل: إن المراد: لما أنه تعالى يُخرج الحَيَّ من المَيِّت، والمَيِّت من الحَيِّ، كيف تُنكرون المُعاد
والإحياء بعد الموت؟^١

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ
وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٩٦ و ٩٧]

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال على توحده بقلعه الحب والنوى، وعجيب تصرفه في الأرضيات،
استدل بما هو أعجب منه، من ظهور كمال قدرته بتصرفه في الفلكيات، وقلعه الفجر، بقوله: ﴿فَالِقُ
الْإِصْبَاحِ﴾ وخالق عمود الفجر، أو شاق ظلمة الليل بنور الصبح، أو شاق الصبح بياض النهار
﴿وَجَعَلَ﴾ بقدرة الكاملة وحكمته البالغة ﴿اللَّيْلَ﴾ لأن يكون للناس وعامة الحيوانات ﴿سَكَنًا﴾
وزمان وقوف عن الحركة، أو وقت راحة لاختياجهم إلى الراحة والسكون.
في (نهج البلاغة): «ولا تميز أول الليل فإن الله جعله سكناً، وقدره مقاماً لا ظغناً، فأرخ فيه بذلك
وروح ظهره»^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «تزوج بالليل، فإن الله جعله سكناً»^٣.

وفي (الكافي): كان علي بن الحسين عليه السلام يأمر غلماناً أن لا يذبحوا حتى يطلع الفجر، ويقول: «إن
الله جعل الليل سكناً لكل شيء»^٤.

﴿وَجَعَلَ﴾ جعل ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ على أدوار مختلفة ليكونا ﴿حُسْبَانًا﴾ ومقداراً للأوقات، فإنه
تعالى قدر حركة الشمس والقمر بمقدار من السرعة والبطء لا يتجاوزانه إلى أقصى منازلهما، فتيم
الشمس جميع البروج الاثني عشر في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وتيم القمر في ثمانية
وعشرين يوماً، وبهذا التقدير تتظم مصالح العالم المتعلقة بالفصول الأربعة من نضج الثمار وأمور
الحرث والنسل، ونحو ذلك مما يتوقف عليه النظام ﴿ذَلِكَ﴾ التقدير والتسيير بالحساب المعين

١. تفسير الرازي ١٣: ٩٤.
٢. نهج البلاغة: ٣٧٢ الرسالة ١٢، تفسير الصافي ٢: ١٤١.

٣. الكافي ٦: ٢٣٦، ٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.

٤. الكافي ٥: ٣/٣٦٦، تفسير الصافي ٢: ١٤١.

﴿تَفْدِيرُ﴾ الْمُدِيرِ ﴿الْعَزِيزِ﴾ الْمُقْتَدِرُ الَّذِي قَهَرَهُمَا بِإِرَادَتِهِ ﴿الْعَلِيمِ﴾ بِتَدْيِيرِهِمَا وَتَنْظِيمِ أُمُورِ خَلْقِهِ. ﴿وَهُوَ﴾ الْقَادِرُ ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وَأَنْشَأَ بِقُدْرَتِهِ ﴿لَكُمْ﴾ وَلِأَجْلِ اثْتِفَاعِكُمْ ﴿النُّجُومِ﴾ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُتَفَرِّقَةِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿لِتَعْرِفُوا﴾ بِهَا الطُّرُقَ إِلَى الْبِلَادِ ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ اللَّيَالِي فِي ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وَالْمَافُوزِ وَاللَّجَجِ. وَفِي تَخْصِصِ هَذِهِ الْمَنْفَعَةِ بِالذِّكْرِ بَعْدَ ذِكْرِ مَنَافِعِهَا إجمالاً إِشعارٌ بِعَظَمَةِ نِعْمَةِ الْإِهْتِدَاءِ.

وَعَنِ الْقَمِي رحمته: «النُّجُومُ آلُ مُحَمَّدٍ»^١.

ثُمَّ مَنْ شَبَّحَنَاهُ عَلَى النَّاسِ بِتَعْلِيمِهِمْ دَلَالَتِ تَوْحِيدِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وَشَرَحْنَا ﴿الْآيَاتِ﴾ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَيَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ، وَيَسْتَدَلُّونَ بِالْمَحْسُوسَاتِ عَلَى الْمَعْقُولَاتِ، وَيَتَقَبَّلُونَ مِنَ الْمَشْهُودَاتِ إِلَى الْمُغَيَّبَاتِ، فَإِنَّهُمْ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَفْقَهُونَ [٩٨]

ثُمَّ اسْتَدَلَّ شَبَّاحُنَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَاخْتِلَافِ حَالَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ﴾ اللَّهُ ﴿الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ وَأَوْجَدَكُمْ مَعَ كَثْرَتِكُمْ ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هِيَ أَبُوكُمْ آدَمَ، فَإِنَّ حَوَاءَ خَلَقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ، وَعِيسَى وَإِنْ كَانَ خُلِقَ مِنْ نَفْخِ رُوحِ الْقُدُسِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ أُمِّهِ مَرْيَمَ يَسْتَهِي إِلَيْهِ وَجُودِهِ، فَالْكُلُّ مُتَّهِنُونَ إِلَى أَبِي وَاحِدٍ، وَذَلِكَ مَعَ دَلَالَتِهِ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ مِنْ عَظِيمَةٍ، لَكُونَهُ سَبَباً لِلْأَلْفَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ شَبَّاحُنَا اخْتِلَافَ حَالَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ وَتَبَّاتٍ مُسْتَمَرٍّ لَكُمْ فِي الْأَصْلَابِ، أَوْ فِي الْأَرْحَامِ، أَوْ فَوْقَ الْأَرْضِ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وَتَبَّاتٍ غَيْرِ مُسْتَمَرٍّ فِي الْأَصْلَابِ، أَوْ فِي الرَّحِمِ، أَوْ فِي الْقُبُورِ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِالِاسْتِشْدَاعِ تَشْبِيهاً لَهُ بِالْوَدِيعَةِ عِنْدَ الْوَدْعَى فِي شَرْعَةِ الزَّوَالِ، أَوْ فِي كَوْنِ الثُّبُوتِ فِي الرَّحِمِ، أَوْ فِي الْقُبُورِ مِنْ قِبَلِ الْأَبِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمُسْتَقَرِّ وَالْمُسْتَوْدَعِ مَكَانَ الْاسْتِقْرَارِ وَالِاسْتِشْدَاعِ^٢.

عَنِ الْبَاقِرِ رحمته أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بَصِيرٍ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: «مَا يَقُولُ أَهْلُ بَلَدِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ؟»، قَالَ: [قُلْتُ:] يَقُولُونَ مُسْتَقَرٌّ فِي الرَّحِمِ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي الصُّلْبِ، فَقَالَ: «كَذَّبُوا، الْمُسْتَقَرُّ مَنْ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ فَلَا يُنَزَعُ مِنْهُ أَبَدًا، وَالْمُسْتَوْدَعُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ الْإِيمَانُ زَمَانًا ثُمَّ يُسَلَبُ، وَقَدْ كَانَ الرَّبِيرُ

منهم»^١.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها فقال: «مستقر في الرحم، ومستودع في الصلب، وقد يكون مستودع الإيمان ثم ينزع منه، ولقد مضى الزبير في ضوء الإيمان وتوره حين قبض رسول الله صلى الله عليه وآله حتى مضى بالسيف وهو يقول: لا تباع إلا علينا»^٢.

وفي رواية قال: «المستقر الثابت، والمستودع المعار»^٣.

وعن الكاظم عليه السلام، في هذه الآية: «ما كان من الإيمان المستقر فمستقر إلى يوم القيامة وأبدًا، وما كان مستودعاً سلبه الله قبل الممات»^٤.

وفي (الكافي): عنه عليه السلام: «أن الله خلق النبيين على النبوّة فلا يكونون إلا أنبياء، وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين، وأعار قوماً إيماناً، فإن شاء تمّمه لهم، وإن شاء سلبهم إياه» قال: «وفيهم جرت ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾»^٥.

وقال: «إن قلنا كان مستودعاً إيمانه، فلما كذب علينا سلب إيمانه ذلك»^٥.

وقيل: إن المستقر حال الإنسان بعد الموت، فإن السعادة والشقاوة تبقى بعد الموت أبدًا، والمستودع حالة قبل الموت، فإنه يتبدّل، فقد يكون الكافر مؤمناً، والمؤمن قد يكون زنديقاً، فلكون حالاته في شرف الزوال شُبّهت بالودّيعه.

وعلى أي تقدير، فإن اختلاف الحالات مع اشتراك جميع أفراد الإنسان في الجسمية ولوازمها، دالٌّ على أنه بإرادة القادر المختار الحكيم^٦.

ثم أظهر شبحانه على الناس بتوضيح دلائل توحيده بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرحنا ﴿الآياتِ﴾ وأدلة التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون دقائق الأمور. وإنما ذكر في الآية السابقة ﴿لِقَوْمٍ يَغْلِبُونَ﴾، وفي هذه الآية ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لأن دلالة النجوم ومنافعها على قدرته تعالى وحكمته أوضح من دلالة إيجاد نفوس كثيرة من نفس واحدة واختلاف حالاتها، فإنها محتاجة إلى التأمل والدقّة.

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ

١. تفسير العياشي ٢: ١١١/١٤٦٤، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.

٢. تفسير العياشي ٢: ١١١/١٤٦٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ١١٣/١٤٧٠، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.

٤. تفسير العياشي ٢: ١١١/١٤٦٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.

٥. الكافي ٢: ٣٠٦/٤، تفسير الصافي ٢: ١٤٣.

٦. تفسير الرازي ١٣: ١٠٣.

خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٩٩]

ثم استدلَّ سبحانه على توحيده وقدرته بإنزال الأمطار، وإنبات الزروع والأشجار من الحب والتوى، وإخراج الحبوب والأثمار واختلاف حالاتها، بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ بقدرته ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المعروف^١، أو من جهة الغلو بالأمطار ﴿مَاءً﴾ مباركاً.

ثم بين سبحانه أعظم فوائد الإنزال بتلويين الخطاب إعظماً لنفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من الأرض ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزرع والشجر وغيرهما مما له نبات.

ثم لما أشار في قوله: ﴿فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾^٢ إلى ما يثبت من الحب وهو الزرع، وإلى ما يثبت من التوى وهو الشجر، ذكر القسمين المذكورين وبدأ بذكر ما يخرج من نبات الزرع بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ نباتاً غصاً ﴿خَضِرًا﴾ مُشْتَبِهًا من أصل النبات الخارج من الحب، ثم ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَرَاكِبًا﴾ مُتَضَدًّا بعضه فوق بعض كشبل الجنة والشعير وأمثالهما.

ثم ذكر الشجر وما يخرج منه، وبدأ بذكر النخل لكونها أعظم نفعاً بقوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ لا من جميعها، بل ﴿مِنَ﴾ خصوص ﴿طَلْعِهَا﴾ وهو شيء يخرج منها كأنه تغلان مطبقان، يخرج ﴿قِنْوَانٌ﴾ وأعذاق شبيه عناقيد العنب، يخرج منها التمر ﴿دَانِيَةٌ﴾ مُتَلَفَّةٌ مُتَقَارِبَةٌ، أو بعضها قريبة من المجتني، سهلة المجتني، وبعضها بعيدة لم تذكر اختصاراً.

ثم ذكر أنفع الأشجار بعد النخل بقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿مِنَ أَعْنَابٍ﴾ مختلفة بالصنف ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ أخرجنا من الأرض بذلك الماء الواحد بالطبع، حال كون كلٍّ من الأنواع الثلاثة ﴿مُشْتَبِهًا﴾ متماثلاً في الأوراق ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الثمر طعماً وشكلاً، فإن بعضه خلط وبعضه حامض، وبعضه خلط حامض.

وقيل: إن بعض الثمرات متشابه في الهيئة واللون والطعم، وبعضها غير متشابه^٣.

﴿انظُرُوا﴾ أيها الناس بنظر الاعتبار إلى كل شجر، ﴿وَالِإِلى ثَمَرِهِ﴾ الحاصل منه ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وحين أظهر أكله، كيف يكون صغيراً ضئيلاً لا يتنفع به ﴿وَالِإِلى ثَمَرِهِ﴾ ونضجه، أو حال نضجه، كيف يصير كبيراً لذيذاً نافعاً مع كونه من أرض واحدة وماء واحداً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ الأثمار والأحوال

المختلفة لها، والله ﴿لَا يَاتِ﴾ عظيمة، ودلالات واضحة على وجود الصانع القادر الحكيم ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ويوحدانيته، أو للذين يطلعون بالإيمان بالله، فإنهم المتفتعون بالاغتيار والاستدلال بها.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ
وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ
لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [١٠٠ و ١٠١]

ثم أنه تعالى بعد إبطال مذهب عبدة الأصنام من المشركين بالبراهين المثقمة، وبخ عبدة الملائكة منهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ في اعتقادهم ﴿فَقَدْ﴾ الواحد القادر الحكيم بعد وضوح وحدانيته ﴿شُرَكَاءَ﴾ وأنداداً، أعني بهم ﴿الْجِنَّ﴾ وإنما سمي الملائكة بالجن؛ لسترهم عن الأنظار، وتحقيرهم [بالنسبة إلى مقام الألوهية]، ﴿وَقَدْ﴾ الحال أنه تعالى ﴿خَلَقَهُمْ﴾ بقدرته الكاملة، ولا يكون المخلوق شريكاً لخالقه.

وقيل: إن المراد بالجن الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة الأصنام^٢.
وقيل: إن المراد أهرمن^٣ وجنده من الأبالسة^٤.

عن ابن عباس رضي الله عنه: نزلت الآية في الزنادقة الذين قالوا: إن الله وإبليس أخوان؛ فالله خالق الناس والدواب الأنعام والخيرات، وإبليس خالق السباع والحيات والمقارب والشرور^٥.

ثم وبخ سبحانه المشركين القائلين بأن له الولد بقوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾ واختلقوا ﴿لَهُ﴾ بهوى أنفسهم ﴿بَنِينَ﴾ كاليهود القائلين بأن عزير ابن الله، والنصارى القائلين بأن المسيح ابن الله ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كمشركي العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لهم بعظمة الله وشناعة هذا الزعم لووضح امتناع الولادة من واجب الوجود.

ثم نزه ذاته المقدسة عن كل ما لا يليق به من الشريك والولد وغيرهما بقوله: ﴿سُبْحَانَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ربهم وينسبون إليه من النيد والولد وسائر القانص.

ثم شرع سبحانه في إقامة البراهين على بطلان القول باتخاذ الولد بقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وموجدتهما بلا سبق مثال واستعانة بشيء هو الله، فإذا كان كذلك فهو غني عن الولد. ثم من البديهيات أن الولادة لا يمكن بدون الزوجة والصاحبة، فإذا ﴿أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وكيف

٢. تفسير الرازي ١٣: ١١٥.

١. الزيادة من تفسير أبي السعود ٣: ١٦٧.

٤. تفسير الرازي ١٣: ١١٣.

٣. وهو إله الشر عند المجوس.

٥. تفسير الرازي ١٣: ١١٣.

يُوجد له نَسْلٌ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ﴾ تعالى ﴿صَاحِبَةً﴾ يُلْقِي فِي رَحْمِهَا نُطْفَةً!

ثم أشار إلى البرهان الثالث بقوله: ﴿وَخَلَقَ﴾ سبحانه ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، والمخلوق يتمتع أن يكون ولداً لخالقه.

ثم أشار إلى البرهان الرابع بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا يُمْكِنُ وُجُودُهُ وَمَا لَا يُمْكِنُ ﴿عَلِيمٌ﴾ أَزْلاً وَأَبْداً بحيث لا تخفى عليه خافية، فإذا علم أن لا كمال له ولا نفع في اتخاذه الولد يتمتع عليه اتخاذه.

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وَكَيلٌ [١٠٢]

ثم بعد إبطال دعوى الشُّرك بوجوهه المختلفة، صرَّح سبحانه بتوحيده في جميع الجهات بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ المتَّصِفُ بالصفات الجَلَالِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ هُوَ ﴿اللهُ﴾ المُسْتَحَقُّ للعبادة، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومُدَبِّرُ أموركُم دُونَ غيره ﴿لَا إِلَهَ﴾ وَلَا مَعْبُودٌ فِي الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لَعَدَمِ إمكان التعدُّد لواجب الوجود، وهو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْأَشْيَاءِ، لَا خَالِقَ غَيْرِهِ فِي عَرْضِهِ، لَا مُتَنَاعَ تَعَدُّدِ الْخَالِقِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَحَدُ الْخَالِقِينَ مِثْلًا خَلَقَ شَيْءٍ وَأَرَادَهُ الْآخَرُ وَتَكَافَا، يَحْصُلُ التَّمَانَعُ وَالتَّعْطِيلُ فِي الوجود، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ أَحَدُهُمَا لِإِجَادِ شَيْءٍ لَزِمَ التَّعْطِيلُ فِي وَاجِبِ الوجود، وَهُوَ نَقْصٌ لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَإِنْ أَرَادَ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُزَاحِمَةِ الْآخَرِ، لَزِمَ عَجْزُهُ مِنْ إِنْجَازِ إِرَادَتِهِ، وَهُوَ أَيْضًا نَقْصٌ لَا يَلِيْقُ بِالوَاجِبِ. فَإِذَا ثَبَتَ تَفَرُّدُهُ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ، وَتَرْبِيَةِ الْمَوْجُودَاتِ، وَاسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ.

ثم قرَّر تَفَرُّدَهُ تعالى بِتَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَإِنْجَاحِ حَوَائِجِ النَّاسِ، لَصَرَفِ قُلُوبِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ، وَقَطْعِ تَعَلُّقِهَا بِالْأَسْبَابِ بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى مَعَ كَمَالِ جُودِهِ وَرَأْفَتِهِ، وَسَعَةِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَكُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ ﴿وَكَيْلٌ﴾ وَرَقِيبٌ يُرَاقِبُ أُمُورَكُمْ وَيُدَبِّرُهَا، فَكَلَّوْهَا إِلَيْهِ وَتَوَسَّلُوا بِهِ فِي إِنْجَاحِ مَطَالِبِكُمْ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا، الْوَافِي بِإِتْمَامِهَا، لَا مُنْجِحَ لِلْمَقَاصِدِ وَلَا مُصْلِحَ لِلْمَهْمَاتِ إِلَّا هُوَ.

لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [١٠٣]

ثم بعد التنبيه بوجوب رفع الحاجات إليه، وكان لرؤية مَنْ يتوسَّل به في قضائها وعلمه بها دَخَلُ

في السؤال منه والتوكل عليه، نفى سبحانه إمكان رؤية ذاته المقدسة بحسّ البصر بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ ولا تصل إليه تعالى ﴿الْأَبْصَارُ﴾ الظاهرية.

ثم أثبت علمه وإحاطته بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُدْرِكُ﴾ ويرى ﴿الْأَبْصَارُ﴾ الزافعة إليه للطلب، والأعين المادة إليه للسؤال.

ثم وصف نفسه بما هو علة للقضيتين بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ والغامض الذي لا تدركه العقول، والعميق الذي لا تناله الأوهام وقيل: هو اللطيف في صنعه وألوهيته، أو بعباده^١ ﴿الْخَبِيرُ﴾ المطلع على دقائق الأشياء وخفيات الأمور، لا يعزّب عنه شيء.

عن الرضا عليه السلام، في رواية قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وهذه الأبصار ليست هذه^٢ الأعين، إنما هي الأبصار التي في القلوب، لا تقع عليه الأوهام، ولا يدرك كيف هو^٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، في رواية: «أما قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ﴾ فهو كما قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [يعني لا تحيط به الأوهام] ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [يعني يحيط بها]^٤.

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «يعني إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^٥، ليس يعني بصر العين - إلى أن قال: - إنما عنى إحاطة الوهم، كما يقال: فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفتنة، وفلان بصير بالدراهم، وفلان بصير بالثياب، الله أعظم من أن يرى بالعين^٦.

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولم تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون^٧».

وعن الرضا عليه السلام: «وأما اللطيف فليس على قلة وقضاة^٨ وصغر، ولكن ذلك على النفاذ في الأشياء، والامتناع من أن يدرك [كقولك للرجل]: لطف عني هذا الأمر، ولطف فلان في مذهبه وقوله، يخبرك أنه غمض فيه العقل، وفات الطلب، وعاد متمعماً متلطفاً لا يدركه الوهم، فكذلك لطف الله تبارك وتعالى عن أن يدرك بحده، أو يحده بوصفه، واللطافة من الصغر والقلة، فقد جمعنا الاسم

١. تفسير الرازي ١٣: ١٣٣.

٢. في المياشي والمجمع: هي.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٧٤/١١٤، مجمع البيان ٤: ٥٣٣.

٤. التوحيد: ٥/٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٤٥. وفي النسخة: لا تدركه الأبصار، ولا تحيط بها.

٥. الأنعام: ١٠٤/٦. ٦. الكافي ١: ٩/٧٦، التوحيد: ١٠/١١٢، تفسير الصافي ٢: ١٤٥.

٧. الكافي ١: ١١/٧٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٥.

٨. القضاة: من قُضف يقضف، إذا دقّ ونحّف لا عن هزال.

واختلف المعنى.

قال: «وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء ولا يفوته، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء فتفيده التجربة والاعتبار علماً، ولأولاهما ما علم؛ لأن من كان كذلك كان جاهلاً، والله لم يزل خبيراً بما يخلق، والخبير من الناس المستخير عن جهل المتعلم، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»^١.

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ [١٠٤]

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد والرئاسة، نبه الناس عن لسان رُسوله ﷺ على تمامية الحجة عليهم بقوله: «قَدْ جَاءَكُمْ» أيها الناس آيات فيها «بصائر» وعلوم، أو براهين «من ربكم» تبصركم الحق وتعرفكم الصواب، وتم ما علي من تبليغها، وبقي ما عليكم من التبصر والإيمان بها «فمن أبصر» بها الحق وآمن به «فلنفسه» أبصر، وإياها نفع «ومن عمى» عن رؤية الحق وكفر به «فعليها» ضرر «وما أنا» من قبل ربي «عليكم بخفيظ» حتى أجبركم على قبول الحق والإيمان به، بل إنما أنا نذير، والله مجازيكم بما تستحقون.

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [١٠٥]

ثم لما ادعى النبوة اشتدل سبحانه عليها بقوله: «وكذلك» التصريف البديع، وبيان الحجاج الواضحة بعبارة مختلفة بالغة أعلى درجة الإعجاز «نُصَرِّفُ الْآيَاتِ» الدالة على جميع المعارف والمواظع والأحكام، ونأتي بها حالاً بعد حال، لتبين الحجة على المتعاندين «وليُقُولُوا» في عاقبة الأمر، أو لئلا يقولوا: «دَرَسْتَ» وقرأت يا محمد هذه العلوم على غيرك وتقرأها علينا، وتدعي الوحي بها إليك «ولِنُبَيِّنَهُ» ونوضحه «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ويفهمون، أو يكونوا يتبينه عالمين بما فيه من المعارف والعلوم. وأما كنى عن الآيات بالضمير المفرد المذكور باعتبار القرآن.

اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [١٠٦ و ١٠٧]

ثم لما أشار سبحانه إلى قدح المشركين في القرآن بأنه مطالب مأخوذة من أهل الكتاب، وإلى

تكذيب النبي ﷺ في ادعاء نزول الوحي إليه، وكان مجال فتور النبي ﷺ في التبليغ وتكدر خاطره الشريف، أمره سبحانه بالقيام بوظيفة الرسالة، وعدم الاختناء بثرهات المشكرين بقوله: ﴿أَتُفِجْ﴾ يا محمد ﴿مَأْذُوحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من القرآن، وذم على ما أنت عليه من تبليغه والتدئين بأحكامه التي عمدها وجوب التوحيد، و﴿إِيمَانُ بَأَنَّهُ إِلَهُ إِلَّا هُوَ﴾ تعالى، وحده لا شريك له ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْبَاطِلِ﴾ المشركين، ولا تعتن بها، ولا يكن قدحهم في القرآن سبب فتورك في تبليغ رسالتك، ولا يتقلل عليك إصرارهم على ضلالهم، فإنه بإرادة الله حيث خلى بينهم وبين أنفسهم والشيطان المغوي لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بالمشيئة التكوينية إيمانهم بالتوحيد، وتركهم الشرك ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ أبداً، ولكن تركهم واختيارهم حتى يظهر خُبث طبيعتهم وشوء سريرتهم.

وعن (المجمع)، في تفسير أهل البيت عليه السلام: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعْصومِينَ حَتَّى لَا يَعْصِيَهُ أَحَدٌ مَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَهُمْ وَنَهَاَهُمْ وَاشْتَحَنَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَا لَهُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ مِنَ الْآلَةِ وَالِاشْتِطَاعَةِ، لِيَسْتَحِقُّوا الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ»^١.

وأما بعثناك إليهم نذيراً ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ حتى يجب عليك إجبارهم بالإيمان بالتوحيد والثبوة، وقهرهم على ترك الشرك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من قتل ربك ﴿بِوَكِيلٍ﴾ وقِيم حتى يجب عليك تذيير أمورهم، والنظر في مصالحهم.

قيل: الحافظ للشيء من يصونه عما يضره، والوكيل عليه من يجلب الخير له^٢.

وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا

لِكُلِّ أُمَةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٠٨]

ثم قيل: إنه لما طعن المشركون في القرآن بقولهم للرسل ﷺ: إنما درست على علماء أهل الكتاب، غضب المؤمنون وشتَموا الأصنام، فنهى الله عن ذلك^٣ بقوله: ﴿وَلَا تَسْبُوا﴾ ولا تشتموا أئمتها المؤمنون آلهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿فَيَسْبُوا اللَّهَ﴾ بسبب سبكم آلهم ﴿عَدُوًّا﴾ وغضباً، أو تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعن سفة وجهالة، حيث إنهم ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزل ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^٤ قال

١. مجمع البيان ٤: ٥٣٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٨٢.

٣. الأنبياء: ٩٨/٢١.

٤. تفسير الرازي ١٣: ١٣٩.

المشركون: لَنْ لَمْ تَنْتَه عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا وَتَشْتُمُهَا لِنَهْجُونَ إِلَهَكَ، فَتَنْزَلَتْ^١.

وعن السدي: أَنَّهُ لَمَّا قُرِئَتْ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ قَالَتْ قُرَيْشٌ: نَدْخُلُ عَلَيْهِ وَنَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَنْهِيَ ابْنَ أَخِيهِ عَنَّا، فَإِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ نَقْتُلَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَيَقُولُ الْعَرَبُ: كَانَ يَمْنَعُهُ فَلَمَّا مَاتَ قَتَلُوهُ، فَأَنْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَبُو جَهْلٍ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مَعَ جَمَاعَةٍ إِلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ كَبِيرُنَا، وَخَاطَبُوه بِمَا أَرَادُوا، فَدَعَا مُحَمَّدًا ﷺ وَقَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمُكَ وَبَنُو عَمِّكَ يَطْلُبُونَ مِنْكَ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَيَتْرُكُوكَ عَلَى دِينِكَ. فَقَالَ ﷺ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فَأَبَوْا، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: قُلْ غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَإِنَّ قَوْمَكَ يَكْرَهُونَهَا، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَنَا بِالَّذِي أَقُولُ غَيْرَهَا حَتَّى تَأْتُونِي بِالشَّمْسِ فَتَضَعُوهَا فِي يَدِي». فَقَالُوا لَهُ: اتْرُكْ شَتْمَ آلِهَتِنَا، وَإِلَّا شَتَمْنَاكَ وَمَنْ يَأْمُرُكَ بِذَلِكَ^٢.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ شَتَلَ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الشَّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّحْلَةِ عَلَى صَخْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي لَيْلَةٍ ظُلُمَاءَ». فَقَالَ: «كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَسُبُّونَ مَا يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسُبُّونَ مَا يَعْبُدُ الْمُؤْمِنُونَ، فَهَنَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ، لِكَيْلَا يَسْبُ الْكُفَّارُ إِلَهَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»^٣.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ أَجْرَى شَتْمَ الرَّسُولِ مَنْزِلَةَ شَتْمِهِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُتَعَقِدِينَ بِاللَّهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَهُ، فَلَمْ يُمَكِّنْ إِقْدَامَهُمْ عَلَى سَبِّ اللَّهِ.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ شَتَلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ أَحَدًا يَسُبُّ اللَّهَ؟». فَقِيلَ: لَا، وَكَيْفَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «مَنْ سَبَّ وَلِيَّ اللَّهِ فَقَدْ سَبَّ اللَّهَ»^٤.

وعنه عليه السلام أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِنَّا نَرَى فِي الْمَسْجِدِ رَجُلًا يُعْلِنُ بِسَبِّ أَعْدَانِكَ وَيُسَبِّهِمْ. فَقَالَ: «مَا لَهُ لَعْنَةُ اللَّهِ، يَعْزِضُ بِنَا، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الْآيَةَ.

وقال عليه السلام: «لَا تَسُبُّوهُمْ فَإِنَّهُمْ يَسُبُّوكُمْ».

وقال: «مَنْ سَبَّ وَلِيَّ اللَّهِ فَقَدْ سَبَّ اللَّهَ».

قال النبي ﷺ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ سَبَّكَ فَقَدْ سَبَّنِي، وَمَنْ سَبَّنِي فَقَدْ سَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ سَبَّ اللَّهَ فَقَدْ أَكْبَهَ اللَّهَ عَلَى مَنْخَرِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^٥.

﴿كَذَلِكَ﴾ التَّزْيِينُ الَّذِي يَكُونُ لِسَبِّ اللَّهِ فِي نَظَرِ الْمُشْرِكِينَ ﴿زَيَّنَّا﴾ وَحَسَّنَا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ وَطَائِفَةٍ

١. تفسير الرازي ١٣: ١٣٩. ٢. تفسير الرازي ١٣/ ١٤٠.

٣. تفسير القمي ١: ٢١٣، مجمع البيان ٤: ٥٣٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٧. ٤. تفسير الرازي ١٣: ١٤٠.

٥. تفسير العياشي ٢: ١١٤/ ١٤٧٥، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.

٦. الاعتقادات للصدوق: ١٠٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.

من الكُفَّار ﴿عَمَلْتُمْ﴾ السَّيِّءَ.

قيل: يعني في رَعَمَهُمْ حيثُ قالوا: إِنَّ الله أمرنا بها^١.

وقيل: يعني: أمهلتهم وخليتهم وشأنهم حتَّى حَسَنَ عندهم سُوءُ عملهم، أو أمهلتنا الشَّيْطَانُ حتَّى زَيَّنَ لهم^٢.

وقيل: إِنَّ المراد: زَيَّنَا لِكُلِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ عملهم مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، والطاعة والعصيان، بإيجاد ما يُمْكِنُهُمْ مِنْهُ تَوْفِيقًا وَخِذْلَانًا^٣.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والمالك لأمرهم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ بعد الموت، أو الْبَعْثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ ويُخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ بِإِعْطَانِهِم الْجَزَاءَ الْمُسْتَحَقَّ.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ [١٠٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ حِكَايَةِ طَعْنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ بِكَوْنِهِ مِنْ تَعْلِيمَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَكَّى طَعْنَهُمْ فِي ثُبُوتِ ﷺ النَّبِيِّ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مَا اقْتَرَحْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ وَحَلَفُوا ﴿بِاللَّهِ﴾ وَكَانَ يَمِينُهُمْ ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وَأَغْلَظَهَا وَأَشَدَّهَا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

رُوي أَنَّ قُرَيْشًا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تُخْبِرُنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَتْ مَعَهُ عَصَا، فَيَضْرِبُ بِهَا الْحَجَرَ فَتَنْفَجِرُ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، وَتُخْبِرُنَا أَنَّ عِيسَىٰ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّ صَالِحًا أَخْرَجَ النَّاقَةَ مِنَ الْجَبَلِ، فَاتْنَا أَنْتَ أَيْضًا بِآيَةٍ بَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لِنُصَدِّقَكَ وَتُؤْمِنَ لَكَ، وَحَلَفُوا عَلَىٰ ذَلِكَ وَبَالِغُوا فِي تَأْكِيدِ الْحَلْفِ، فَقَالَ ﷺ: «أَيُّ شَيْءٍ تُحِبُّونَ؟» قَالُوا: تَجْعَلْ لَنَا الصُّفَا ذَهَبًا، أَوْ ابْعَثْ لَنَا بَعْضَ مَوَاتِنَا حَتَّى نَسْأَلَكَ عَنْكَ أَحَقُّ مَا تَقُولُ أَمْ بَاطِلٌ، أَوْ أَرِنَا الْمَلَائِكَةَ يَشْهَدُونَ لَكَ. فَقَالَ ﷺ: «إِذَا فَعَلْتَ بَعْضُ مَا تَقُولُونَ تُصَدِّقُونَنِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَبْعَنَكَ أَجْمَعِينَ، وَسَأَلَ الْمُسْلِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنْزِلَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا، فَهَمَّ ﷺ بِالذُّعَاءِ فَجَاءَ جَبْرِئِيلُ ﷺ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ كَانَ ذَلِكَ، وَلَئِنْ كَانَ فَلَمْ يُصَدِّقْكَ عَنْده لَيُعَذِّبَنَّهُمْ بِعَذَابِ الْاِسْتِثْصَالِ، وَلَئِنْ شِئْتَ تَرَكْتَهُمْ حَتَّى يَتُوبَ تَابَتْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ^٤.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٨٤.

١ و ٢. تفسير الرازي ١٣: ١٤١.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٨٥.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يُحييهم بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ وخوارق العادات كُلُّهَا ﴿عِنْدَ أَقْدَرٍ﴾ ويُقدِّرته وإرادته، لا يُقدِّرتي وإرادتي، وهو يُظهر منها ما يشاء وتقتضيه حكيمته.

ثم بيّن سبحانه حكمة عدم إحيائهم مُخاطباً للمسلمين المُشتاقين إلى إيمانهم بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وأيّ شيء يُعلمكم أيُّها المؤمنون حين سألوا الآية ﴿أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ﴾ يؤمنون بها، فإنَّا نعلم أَنَّهُمْ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها ويَصْرُونَ على كُفْرهم، فيُنزل عليهم عذاب الاشتِصال، كما نزل على أصحاب المائدة، فيكون في ترك إحيائهم إِمهالهم، ورحمةً بَمَن في أصلابهم.

قيل: كلمة (أَنَّ) في ﴿أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ﴾ بمعنى (لعل)، والمعنى لعلها إذا جاءت لا يؤمنون^١. وقيل: إن (لا) في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة^٢.

وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [١١٠]

ثم بيّن سبحانه علة عدم إيمانهم بالآيات بقوله: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ ونُحَوِّل قلوبهم عن قَبول الحق إلى إنكاره، أو نطّيع عليها فلا يفهمون وجه الإعجاز في الآيات، ﴿وَوُحِّلَ أَبْصَارُهُمْ﴾ ونُغْمِيها عن رؤية ما أنزل لفساد استبعادهم، وخبائث طيبتهم، وشوء أخلاقهم، فلا يؤمنون به ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ مع كمال ظهوره ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي بذو الأمر. عن القمّي: يعني في الذر والميثاق^٣.

عن الباقر عليه السلام: «﴿وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾، يقول: تَقَلَّبُ قلوبهم، فيكون أسفل قلوبهم أعلاها، ونُعمي أبصارهم فلا يُبصرون الهدى.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أول ما يُقَلَّبون عنه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بالستكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر منكراً، نُكِّس قلبه وجعل أعلاه أسفله، ولم يقبل خيراً أبداً^٤.

﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ ونتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وعَثَوْهم عن قَبول دينك حال كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الحق، ويتحيرون فيه، عتوية لهم على ترك إيمانهم بك في أول بعثتك.

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا

٢. مجمع البيان ٤: ٥٣٩.

١. تفسير الرازي ١٣: ١٤٤.

٣. تفسير القمي ١: ٢١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.

٤. تفسير القمي ١: ٢١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.

كَانُوا يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ [١١١]

ثم بالغ سبحانه في توضيح شدة إصرارهم على الكفر والعناد، وعدم إيمانهم بأعظم الآيات بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ شاهدين على صدقك كما اقترحوه ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بعد إحيائهم بدعائك في صدقك ووجوب الإيمان بك، بل ﴿وَوَلَوْ﴾ لو ﴿حَشَرْنَا﴾ وجمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من موجودات هذا العالم من الجمادات والنباتات والحيوانات، أو مما يدب في الأرض، حال كونهم ﴿قَبِيلًا﴾ وأفواجاً، أو كفلاء بصدق دعوتك، وصحة نبوتك، وعن القمي عليه السلام: أي عياناً ﴿مَا كَانُوا﴾ مع مشاهدة تلك الآيات ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بك بالطوع والرغبة أبداً ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم بالقهر والإجبار، فلا فائدة في إجابة مسؤولهم من إنزال الآيات، إذ ليس غرضهم من سؤالها إلا التهكم والتعنت، كما هو معلوم عندك وعند قليل من المؤمنين كعلي عليه السلام ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لقصورهم ﴿يَجْهَلُونَ﴾ هذه الدرجة من خُبث ذاتهم وذهالة أخلاقهم، فيطمعون في إيمانهم، أو المراد: أن أكثر المشركين الذين يسألون الآيات، يجهلون أنها لوجاءتهم لا يؤمنون.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [١١٢]

ثم لما كان لجاج القوم سبباً لملافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، سلب سبحانه قلبه الشريف بيان كون هذه البلية عامة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التزيين الذي جعلناه لأعمال الأمم، أو كذلك العدو الذي جعلناه لك ﴿جَعَلْنَا﴾ في كل عصر ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ ومبغضين، كانوا هم ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ ومردتهم. كما عن ابن عباس^٢.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ صِفَةِ الْحَقِّ، فَأُولَئِكَ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^٣.
عن الصادق عليه السلام: ﴿مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَفِي أُمَّتِهِ شَيْطَانَانِ يُؤْذِيَانِهِ وَيُضِلُّانِ النَّاسَ بَعْدَهُ، فَأَمَّا صَاحِبَا نُوحٍ فَنِيطَيْفُوسُ وَخِرَامُ، وَأَمَّا صَاحِبَا إِبْرَاهِيمَ فَمَكْثَلُ وَرَزَامُ، وَأَمَّا صَاحِبَا مُوسَى فَالسَّامِرِيُّ وَمَرْعِقِيَّا، وَأَمَّا صَاحِبَا عِيسَى فَيُولُسُ وَمَرِينُونُ، وَأَمَّا صَاحِبَا مُحَمَّدٍ فَحَبْرُ وَزُرَيْقُ﴾^٤.
قيل: حبر كتعلب وزناً ومعنى، كتى به عن رجل كثير الحيلة، وبزريق عن آخر في عينة زرقه^٥.

١. تفسير القمي ١: ٢١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.

٢. مجمع البيان ٤: ٥٤٤ عن الحسن وقناة ومجاهد.

٣. الكافي ٨: ١١١، تفسير الصافي ٢: ١٥٠.

٤. تفسير القمي ١: ٢١٤، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.

٥. تفسير الصافي ٢: ١٥٠.

ثُمَّ بَيَّنْ شُحَانَهُ كَيْفِيَّةَ عَدَاوَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوحَىٰ﴾ وَيُسَرَّ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لِتَخْرِيبِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ وَالْمَزِينَ مِنَ الْكَلَامِ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ لِيُغَرَّهٗ إِلَىٰ إِهْلَاكِ نَفْسِهِ ﴿عُرُورًا﴾. قِيلَ: إِنَّ مِنَ الْجِنَّ شَيَاطِينَ وَمِنَ الْإِنْسِ شَيَاطِينَ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مِنَ الْجِنَّ إِذَا أَعْيَاهِ الْمُؤْمَنُ ذَهَبَ إِلَىٰ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْإِنْسِ [وَهُوَ شَيْطَانُ الْإِنْسِ]، فَأَغْرَاهُ بِالْمُؤْمَنِ لِيُفْتِنَهُ^١، وَذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لِحِكْمَةِ الْامْتِحَانِ، وَبُرُوزِ الْاسْتِعْدَادَاتِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ عَدَمَ الْعَادَاةِ، أَوْ عَدَمَ الْإِيحَاءِ، أَوْ عَدَمَ التَّزْيِينِ لِلْكَلَامِ ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الْبَتَّةَ، فَإِذَا كَانَ فِعْلُهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ﴿فَقَرَّهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ، أَوْ دَعَاهُمْ مَعَ مَا زَيْنَ لَهُمْ إِبْلِيسُ وَغَرَّهٗ بِهِ - كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٢ - فَإِنَّ لَهُمْ عِنْدَنَا عَقُوبَاتٍ شَدِيدَةً، وَلَكَ عَلَىٰ تَحْمُلِ الْأَذَىٰ مِنْهُمْ مَثُوبَاتٌ عَظِيمَةٌ. وَفِيهِ غَايَةُ التَّهْدِيدِ. وَقِيلَ: مَسْنُوحٌ بِآيَةِ السَّيْفِ^٣.

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ * أَفَقَيْرَ اللَّهُ بِتَبْغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْتَرِينَ [١١٣ و ١١٤]

ثُمَّ بَعْدَ بَيَانِ عِلَّةِ إِحْبَائِهِمُ الْبَاطِلِ، بَيَّنْ شُحَانَهُ عِلَّةَ تَزْيِينِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ وَتَمِيلَ ﴿إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وَتَرْغَبَ إِلَىٰ اسْتِيعَاذِهِ قُلُوبُهُمْ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لَأَنْفُسِهِمْ ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ وَيَكْتَسِبُوا ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾، وَمُكْتَسِبُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَأَمَّا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَمِيلُونَ إِلَىٰ اسْتِيعَاذِهِ وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ لِعِلْمِهِمْ بِبُطْلَانِهِ وَشَوْءِ عَاقِبَتِهِ.

ثُمَّ رُويَ أَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ بَعْدَ اقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَكَمًا مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، أَوْ مِنْ أَسَاقِفَةِ النَّصَارَىٰ يَفْصِلُ بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ، فَإِنَّهُمْ قَرَأُوا الْكِتَابَ قَبْلَكَ^٤، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَتَكْرَعَ عَلَيْهِمْ مَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَقَيْرَ اللَّهُ﴾ قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: أَمِيلَ إِلَىٰ قَوْلِكُمْ، فَغِيرَ اللَّهُ ﴿أَبْتَغَىٰ﴾ وَأَطْلَبَ ﴿حَكَمًا﴾ وَقَاضِيًا بِالْحَقِّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^٥، يَحْكُمُ بِصَحَّةِ ثُبُوتِي ﴿وَهُوَ﴾ تَعَالَىٰ ﴿الَّذِي﴾ حَكَمَ بِهَا حَيْثُ إِنَّهُ ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ السَّمَاوِيَّ الْمُشْتَمِلَ عَلَىٰ وَجْهِهِ مِنَ الْإِعْجَازِ، حَالُ كَوْنِهِ ﴿مُفَصَّلًا﴾ وَمُبَيَّنًا فِيهِ الْمُحَقِّقَ وَالْمُبْطِلَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ حُكُومَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

١. تفسير الرازي ١٣: ١٥٤.

٢. تفسير الرازي ١٣: ١٥٦.

٣. ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: ٣٣.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٣: ٩٠.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ عَدَمَ أَهْلِيَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلْحَكْمِيَّةِ لِشِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَيْفَانِهِمُ الْحَقَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَفَهَّمْنَاهُمْ مَا فِيهِ مِنْ عِلْمٍ مِنَ النَّبِيِّ وَصِفَاتِ كِتَابِهِ﴾ **﴿يَعْلَمُونَ﴾** بِسَبَبِ شَهَادَةِ كُتُبِهِمْ بِصِدْقِ كِتَابِهِ **﴿أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾** ثَلَاثًا **﴿بِالْحَقِّ﴾** وَالصِّدْقَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكْتُمُونَ الشَّهَادَةَ عَلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْهُ **﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾** يَا مُحَمَّدُ **﴿مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾** وَالشَّاكِّينَ فِي عِلْمِهِمْ بِصِدْقِ كِتَابِكَ، وَفِيهِ تَوْبِيخُهُمْ. أَوْ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ فِي أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِسَبَبِ جُحُودِهِمْ، وَفِيهِ تَهْيِيجُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى يَقِينِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْخُطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ^١.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [١١٥ و ١١٦]

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ كَوْنَ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ شَهَادَةٍ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ بِقَوْلِهِ: **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾** وَأَيَّاتِهِ النَّازِلَةُ إِلَيْكَ فِي الْإِعْجَازِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاكَ، وَبَيَّنَّ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَالُ كَوْنِهَا **﴿صِدْقًا﴾** فِي إِخْبَارِهَا **﴿وَعَدْلًا﴾** مُسْتَقِيمًا فِي حُكُومَتِهَا؛ لَا كَذِبَ فِيهَا، وَلَا تَجَاوُزَ عَنِ الْحَقِّ **﴿لَا مُبَدَّلَ﴾** وَلَا مُغَيَّرَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ **﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾**.

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: لَا يَأْتِي أَحَدٌ بِمَا هُوَ أَصْدَقُ وَأَعْدَلُ مِنْهَا، بَلْ وَلَا بِمَا يُسَاوِيهَا فِي الصِّدْقِ وَالْعَدَالَةِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ ابْتِغَاءُ حُكْمِ غَيْرِهِ تَعَالَى؟^٢

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: لَا خُلْفَ فِيهَا وَلَا نَقْصَ، أَوْ لَا تَأْثِيرَ لِشُبُهَاتِ الْكُفَّارِ فِي ذِلَالَتِهَا عَلَى صِدْقِكَ^٣. ثُمَّ هَدَّدَ الْمُتَبَتِّغِينَ لِلتَّحْكِيمِ بِقَوْلِهِ: **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾** لِمَقَالِ الْمُتَحَاكِمِينَ **﴿الْعَلِيمُ﴾** بِخُبْرِ ذَاتِهِمْ وَشَوْءِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَنَّ الْإِمَامَ يَسْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَإِذَا وُلِدَ خُطَّ بَيْنَ كَفْيَيْهِ»^٤ وَفِي رِوَايَةٍ: «بَيْنَ عَيْنَيْهِ»^٥ وَفِي أُخْرَى: «عَلَى عَصَدِهِ الْأَيْمَنِ: **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾** الْآيَةُ^٦، فَإِذَا صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ عَمُودًا مِنْ نُورٍ يَبْصُرُ بِهِ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ كُلِّ بَلَدَةٍ»^٧. وَفِي رِوَايَةٍ: «فَبِهَذَا يَحْتِجُ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»^٨.

٢. تفسير أبي السعود ٣: ١٧٨، تفسير روح البیان ٣: ٩١.

٤. الكافي ١: ٣١٨/٤، تفسير الصافي ٢: ١٥١.

٦. الكافي ١: ٣١٨/٣، تفسير الصافي ٢: ١٥١.

٨. الكافي ١: ٣١٨/٢، تفسير الصافي ٢: ١٥١.

١. تفسير الرازي ١٣: ١٥٩.

٣. تفسير الرازي ١٣: ١٦٢.

٥. الكافي ١: ٣١٩/٦، تفسير الصافي ٢: ١٥١.

٧. الكافي ١: ٣١٨/٤، تفسير الصافي ٢: ١٥١.

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ مُعْجَزَةٌ بَاهِرَةٌ حَكَمَ اللَّهُ بِصِدْقِ نُبُوتِكَ فَلَا حَاجَةَ بَعْدَهُ إِلَى تَحْكِيمٍ غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ، بَيَّنَّ أَنَّ مُوَافَقَةَ الْكُفَّارِ فِي مَا يَطْلُبُونَهُ مِنَ التَّحْكِيمِ وَغَيْرِهِ صِرْفُ الضَّلَالِ، يَقُولُهُ مُخَاطَبًا لِنَبِيِّهِ ﷺ بِطَرِيقٍ (إِنَّا كُنَّا نَعْنِي بِاسْمِ اللَّهِ) «وَأَنْ تَطْلُبَ» الْكُفَّارُ بِمَا مُحَمَّدٌ فِي مَا يَطْلُبُونَهُ وَيَسْتَهْتُونَ، نَظَرًا إِلَى كَوْنِهِمْ «أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ» وَيُحَرِّفُونَ «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» وَدِينِهِ الْحَقِّ، حَيْثُ إِنَّهُمْ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ غَيْرُ قَاطِعِينَ بِهِ، بَلْ «إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ» فِي عِقَابِهِمْ وَمُجَادَلَتِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ وَأَعْمَالِهِمْ «إِلَّا الظَّنُّ» بِصِحَّةِ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، لَا الْقَطْعُ الْحَاصِلُ مِنَ الْبُرْهَانِ «وَأَنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» وَيَكْذِبُونَ فِي ادِّعَاءِ الْقَطْعِ، أَوْ يَقُولُونَ عَنْ تَخْمِينٍ وَاسْتِحْسَانٍ. قِيلَ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا يَسْتَجِلُّونَ [أَكَلَ] الْمَيْتَةَ وَيَدْعُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَكْلِهَا، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّمَا ذَلِكَ ذَنْبُ اللَّهِ، فَهُوَ أَحَلُّ مِمَّا ذُبِحْتُمْ بِسَكَاتِكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^١.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ
أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ [١١٧ و ١١٨]

ثُمَّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ ضَلَالَةَ أَكْثَرِ النَّاسِ، بَيَّنَّ عِلْمَهُ بِأَحْوَالِ جَمِيعِهِمْ يَقُولُهُ: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ» وَأَيُّ شَخْصٍ يَنْحَرِفُ «عَنْ سَبِيلِهِ» وَدِينِهِ الْحَقِّ وَقِيلَ: أَعْلَمُ بِمَعْنَى: يَعْلَمُ^٢ «وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» إِلَى الْحَقِّ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ ضَلَالَةِ الْمُشْرِكِينَ تَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ عَلَيْهِ اسْمَ اللَّهِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ الْمُضِلِّينَ بِتَخْصِصِهِمُ الْمَذْكُورَ بِالْأَكْلِ يَقُولُهُ: «فَكُلُوا» أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» حِينَ ذَبَحَهُ خَاصَّةً دُونَ مَا مَاتَ خَتَفَ أَنْفَهُ، أَوْ ذُكِرَ اسْمُ الْأَصْنَامِ عَلَيْهِ «إِنْ كُنْتُمْ» بِكِتَابِ اللَّهِ وَ«بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ» فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ مُوجِبٌ لِلِاخْتِرَازِ عَنْ غَيْرِ مَا أَحَلَّهُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الشَّرَادُ الْأَمْرَ بِتَعْمِيمِ الْأَكْلِ بِكُلِّ مَا ذُكِّيَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ سَائِبَةً وَأَخَوَاتِهَا.

وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا
مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُعْتَدِينَ [١١٩]

ثم أنكر عليهم الاختراز عن أكل ما حرّمه المشركون على أنفسهم، وإن ذكر اسم الله عليه، بقوله: ﴿وَمَالِكُمْ﴾ من العذر في ﴿أَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حين ذبحه أو نحره، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَضِّلَ﴾ وشرح ﴿لَكُمْ﴾ في كتابه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾^١ الآية، أو قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾^٢ الآية، أو بالوحي على لسان نبيه ﷺ ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من الحيوانات ﴿إِلَّا مَا أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ من المحرّمات، فإن الصّورات تُبيح المحذورات ﴿وإن كثيراً﴾ من الناس كعمرو بن لُحي الذي غيّر دين إسماعيل، وحرّم كثيراً من الأنعام، وأباح الميتة، ومن بعده من المشركين ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ الضّعفاء عن طريق الحقّ بترغيهم إلى عبادة الأصنام، وأكل الميتة، والتحرّج عن أكل السابئة والوصيلة وأخواتهما وإن ذكر اسم الله عليها، والاختجاج بالاعتبارات السخيفة ﴿بأهوائهم﴾ الزائغة والشبهات الفاسدة، و﴿يَغْيِرْ عِلْمَ﴾ وحنة قاطعة، واقتباس من الشريعة.

ثم هددهم بقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ والمتجاوزين عن حدود الله بتحليل ما حرّم وتحريم ما أحل، فيعاقبهم في الآخرة أشدّ العقاب.

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِلَهِمَّ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِلَهِمَّ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا
يَقْتَرِفُونَ [١٢٠]

ثم أنّه تعالى بعد الإشارة إلى حرمة الميتة، وتفصيل المحرّمات من الحيوان، نهى عن مطلق معاصيه بقوله: ﴿وَذَرُوا﴾ واتركوا أيّها المؤمنون ﴿ظَاهِرَ﴾ الذنب وعَلَنَهُ مِمَّا يَعْمَلُ بِالْجَوَارِحِ، فإنّه سبب ﴿الْإِلَهِمَّ﴾ والعقاب ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ وبصره مِمَّا يَعْمَلُ فِي الْقَلْبِ، كإرادة السوء، والكبر، والحسد، وغيرها. وقيل: إنّ أهل الجاهلية كانوا يرون الرُّنَا في البصر خلافاً، فحرّم الله تعالى بهذه الآية البصر منه والعلانية^٣.

ثم هدّد سبحانه المرتكبين للذنب بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ﴾ ويرتكبون ﴿الْإِلَهِمَّ﴾ والعصيان ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ ويعاقبون في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ ويرتكبون.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [١٢١]

ثُمَّ بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى حُرْمَةِ مَا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، صَرَّحَ شَبَّاحُهُ بِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حَالٌ ذَبَحَهُ أَوْ نَحَرَهُ.

ثُمَّ أَكَّدَ شَبَّاحُهُ حُرْمَةَ أَكْلِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَفُسَّقٌ﴾ وَخُرُوجَ عَنْ حُدُودِ اللَّهِ ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ مِنْ إِبْلِيسَ وَجُنْدِهِ ﴿لَيُؤْخَذُونَ﴾ وَلْيُؤْسَوْشُونَ ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وَيُعَارِضُوكُمْ فِي تَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ، بَأَن يَقُولُوا: إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَهُ اللَّهُ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فِي اسْتِحْلَالِ الْحَرَامِ، وَسَاعَدْتُمُوهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ﴿إِنَّكُمْ﴾ إِذَنْ ﴿لَمُشْرِكُونَ﴾ بِاللَّهِ غَيْرِهِ فِي طَاعَتِهِ.

وعن عكرمة: يعني بالشياطين مَرَدَةُ الْمَجُوسِ، لَيُؤْخَذُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْمَيْتَةِ سَمِعَهُ الْمَجُوسُ مِنْ أَهْلِ فَارَسَ فَكَتَبُوا إِلَى قُرَيْشٍ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مُكَاتَبَةٌ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَمْرَ اللَّهِ، ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا يَذْبَحُونَهُ حَلَالٌ وَمَا يَذْبَحُهُ اللَّهُ حَرَامٌ، فَوَقَعَ فِي أَنْفُسِ نَاسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [مَنْ] ذَلِكَ [شَيْءٌ]، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ [الْآيَةَ]¹.

عن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يُسَمِّ إِذَا ذَبَحَ فَلَا تَأْكُلُهُ»².

عن الْوَرْدِ بْنِ زَيْدٍ - فِي حَدِيثٍ - قَالَ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مُسْلِمٌ ذَبَحَ وَلَمْ يُسَمِّ؟ فَقَالَ: «لَا تَأْكُلْ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾³، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾⁴.

عن الْحَلْبِيِّ: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَدِيثٍ - أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنِ الرَّجُلِ يَذْبَحُ فَيَنْسِي أَنْ يُسَمِّيَ أَتُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَانَ لَا يَتَّبِعُهُمْ، وَكَانَ يُحْسِنُ الذَّبْحَ قَبْلَ ذَلِكَ⁵.

عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ ذَبَحَ فَسَبَّحَ أَوْ كَبَّرَ أَوْ هَلَّلَ أَوْ حَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا بَأْسَ بِهِ»⁶.

أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢٢]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُسَاوُونَ الْمُشْرِكِينَ فِي صُورَةِ مُوَافَقَتِهِمْ فِي اسْتِحْلَالِ الْحَرَامِ، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ التَّسَاوِيَّ مَعَ كَثْرَةِ الطَّافَةِ بِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا﴾ لَا حَيَاةَ لَهُ، قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: أَنْتُمْ أَيُّهَا

١. تفسير الرازي ١٣: ١٧٠. ٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١١/٩٨٠.

٣. الأنعام: ١١٨/٦. ٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١٠/٩٧٣.

٥. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١١/٩٧٩.

٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١١/٩٧٨، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

المؤمنون مثل المشركين، وَمَنْ كَانَ مِثْلًا **﴿فَأَخْبَيْنَاهُ﴾** بَنَعَ الرُّوحَ فِيهِ، وَأَعْطَيْنَاهُ الْقُوَى الْمُتَحَرِّكَةَ وَالْمُدْرَكَةَ **﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾** مع ذلك من الخارج **﴿ثَوْرًا﴾** عَظِيمًا **﴿يَمْشِي بِهِ﴾** وَيَسِيرُ بِسَبِيهِ **﴿فِي النَّاسِ﴾** أَمَّا مَحْمُودًا، يُعْكَفُ أَنْ يَكُونَ **﴿كَمَنْ مِثْلُهُ﴾** وَصِفَتُهُ الْعَجِيبَةُ أَنَّهُ ثَابِتٌ أَوْ مُسْتَقَرٌّ **﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾** الْعَدِيدَةِ، وَ**﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾** وَنَاجٍ **﴿مِنْهَا﴾** فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، حَاشَا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ **﴿كَذَلِكَ﴾** الزَّيْنُ الَّذِي يَكُونُ لِلْإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ **﴿زَيْنٌ﴾** وَحُسْنٌ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلَاتِهِ **﴿لِلْكَافِرِينَ﴾** خُصُوصًا الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ **﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

فَقَوْلُهُ: **﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا﴾** تَمَثِيلٌ لِمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَأَنْقَذَهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَجَعَلَ لَهُ ثَوْرَ الْحَجَجِ وَالْآيَاتِ يَتَأَمَّلُ بِهَا فِي الْأَشْيَاءِ، فَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَأَهْلِهِمَا، وَقَوْلُهُ: **﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾** تَمَثِيلٌ لِمَنْ بَقِيَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يُغَارِقُهَا.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: نَزَلَتْ فِي حَمْزَةٍ وَأَبِي جَهْلٍ، قَالَ: إِنَّ أَبَا جَهْلٍ رَمَى النَّبِيَّ ﷺ بِقَرْعٍ، فَأَخْبِرَ حَمْزَةً بِمَا فَعَلَ أَبُو جَهْلٍ وَهُوَ رَاجِعٌ مِنَ الصَّيْدِ وَيَدُهُ قَوْسٌ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ لَمْ يُؤْمَرْ [بَعْدًا]، فَلَقِيَ أَبَا جَهْلٍ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالْقَوْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَمَا تَرَى مَا جَاءَ بِهِ! سَفَّهَ عَقْلَنَا وَسَبَّ آلَهَنَا. فَقَالَ حَمْزَةُ: وَأَنْتُمْ أَسْفَهَ النَّاسِ، تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ^٢.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي جَهْلٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: زَا حَمْنًا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فِي الشَّرَفِ حَتَّى إِذَا جِئْنَا كَفَرَسِي رِهَانًا قَالُوا: مِثْلًا نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ، وَاللَّهُ لَا تُؤْمِنُ بِهِ إِلَّا أَنْ بَاتِنَا وَخَفَى كَمَا يَأْتِيهِ ^٣.

وَعَنْ عِكْرَمَةَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَمَّارٍ وَأَبِي جَهْلٍ ^٤، وَرَوَاهُ فِي (الْمَجْمَعِ) عَنِ الْبَاقِرِ رضي الله عنه ^٥.

وَفِي (الْكَافِي): عَنْهُ ﷺ: **﴿مِثْلًا﴾** لَا يَعْرِفُ شَيْئًا، وَ**﴿ثَوْرًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾** إِمَامًا يُزَوَّمُ بِهِ، **﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾** الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْإِمَامَ ^٦.

وَعَنْهُ ﷺ: **﴿الْمِثَّتِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ هَذَا الشَّانَ، يَعْنِي هَذَا الْأَمْرَ، وَجَعَلْنَاهُ ثَوْرًا﴾** إِمَامًا يَأْتَمُّ بِهِ، يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، **﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾** قَالَ بِيَدِهِ [هَكَذَا]: هَذَا الْخَلْقُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا ^٧.

١. تفسير روح البيان ٣: ٩٦.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٩٦.

٣ و٤. تفسير الرازي ١٣: ١٧٣.

٥. مجمع البيان ٤: ٥٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٤.

٦. الكافي ١: ١٤٢/١٣، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

٧. تفسير العياشي ٢: ١١٧/١٤٨٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ عَنَّا، ﴿فَأَخْيَيْنَاهُ﴾ بِنَا^١.

وعن القمي قال: جاهلاً عن الحق والولاية، فهديناه إليها^٢. قال: النور: الولاية، و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني ولاية غير الأنمة عليه السلام^٣.

وعنه عليه السلام - في حديث -: «قال الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^٤ فالحي: المؤمن الذي تخرج طيبته من طينة الكافر، والميت: الذي يخرج من الحي [هو] الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي: المؤمن، والميت: الكافر، وذلك قوله عز وجل: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾ فكان موته اختلاط طيبته مع طينة الكافر، وكانت حياته حين فرق [الله] بينهما بكلمته، وكذلك يخرج الله عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور، ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله في النور، وذلك قوله عز وجل: ﴿يُنْذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٥.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَسْمَكُزُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُزُونَ إِلَّا
بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ
مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَغَلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ
عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُزُونَ [١٢٣ و ١٢٤]

ثم لما كان أبو جهل من أكابر قريش، وكان يفتخر بعظمته بينهم، نبه سبحانه على أن العظمة والرئاسة من موجبات الفتنة والجدلان بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ النحو الذي فعلنا في مكة من جعل أكابرها وصناديدها مجرمين ماكرين في إطفاء نور الهداية ﴿جَعَلْنَا﴾ في القرون السالفة ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ وبلدة ﴿أَكَابِرَ﴾ ها وأعاضمها ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ ومذنبوها وماكرها في الإخلال بأمر نبيها، وقيل: إن المراد كما زينا للكاشرين أعمالهم، جعلنا مجرمي كل قرية أكابرها، بأن خليئهم وأنفسهم ﴿لِيَمْكُزُوا﴾ ويغديروا ﴿فِيهَا﴾ ويحتالوا في إضلال أهلها، ومعارضة الأنبياء كبراً وحسداً عليهم وحفظاً لرياستهم^٦.

قيل: إن صناديد قريش أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان

٢. في النسخة: إلينا.

١. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٧٠، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

٣. تفسير القمي ١: ٢١٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

٤. يونس: ٣١/١٠.

٦. تفسير الرازي ١٣: ١٧٤.

٥. الكافي ٢: ٧/٤، تفسير الصافي ٢: ١٥٤، والآية من سورة يس: ٧٠/٣٦.

بمحمّد ﷺ، وكانوا يقولون لَكُلِّ مَنْ يَقدَم: إِيَّاكَ وَهَذَا الرَّجُلُ، فَإِنَّهُ كَاهِنٌ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.^١

ثُمَّ سَلَّى سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لَأَنَّ وِبَالَ مَكْرَهُمْ يَجِيجُ بِهِمْ وَلَا يَتَعَدَّاهُمْ ﴿وَمَا يَشْفَرُونَ﴾ بِذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بِكَ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ بَعْضَ جُرْمِ الْأَكَابِرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿آيَةٌ﴾ وَمُعْجَزَةٌ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِكَ ﴿قَالُوا﴾ عِنَادًا وَلَجَاجًا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ بِكَ وَبِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿حَتَّى تَأْتِيَنَا﴾ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ ﴿مِثْلُ مَا أُوتِيَ رُسُلُ أَهْلِهِ﴾ مِنَ الْوَحْيِ وَمَنْصِبِ الرُّسَالَةِ، فَتَكُونُ مَتَبِعًا لَا تَابِعًا. فَبِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ كَانَ لِمَا لِيَاغِيهِ الْحَسَدُ لَا لِمَطْلَبِ الْحُجَّةِ.

زُوي أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الشَّغِيرَةَ قَالَ: وَاللَّهِ، لَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَحَقُّ بِهَا^٢. وَقَدْ مَرَّ مَا حَكِي عَنْ أَبِي جَهْلٍ مِنْ قَوْلِهِ: زَاحِمًا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فِي الشَّرَفِ حَتَّى إِذَا صِيرْنَا كَفَرَسِي رِهَانًا قَالُوا: مَنَا نَبِيٌّ أَوْحَى إِلَيْهِ^٣.

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِرُسُلِ اللَّهِ: خُصُوصَ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْجَمْعَ لِلتَّعْظِيمِ^٤.

ثُمَّ رَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فَإِنَّ اسْتِحْقَاقَهَا لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ، بَلْ إِنَّمَا هُوَ بِالْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ، وَلِذَا خَصَّهَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَكَابِرِ مَكَّةَ الْفَاقِدِينَ لَهَا.

ثُمَّ هَدَّدَ سُبْحَانَهُ الْأَكَابِرَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وَعَصَوْا اللَّهَ بِالْإِسْتِكْبَارِ وَالْحَسَدِ لِلنَّبِيِّ ﷺ^٥ ﴿صَغَارٌ﴾ وَذَلٌّ وَحَقَارَةٌ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مَكَانَ مَا تَمَنَّوْا مِنْ عِزِّ النُّبُوَّةِ وَشَرَفِ الرُّسَالَةِ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَعَذَابٌ﴾ بِالنَّارِ ﴿شَدِيدٌ﴾ غَايَتُهُ ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيَحْسُدُونَهُ.

عَنِ الْقَمِيِّ رحمه الله: «أَيُّ يَعْصُونَ اللَّهَ فِي السِّرِّ»^٦.

فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدُ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ [١٢٥ و ١٢٦]

٢. تفسير الرازي ١٣: ١٧٥.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٩٩.

٦. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٥.

١. تفسير روح البيان ٣: ٩٨.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٩٩، تفسير الصافي ٢: ١٥٤.

٥. في النسخة: والحسد على النبي.

ثُمَّ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى كَمَالِ سُلْطَانَتِهِ بَيَانُ أَنْ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ وَكَثْرَ الْكَافِرِ بِإِرَادَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَمَقَامِ قَرْبِهِ وَرَحْمَتِهِ بِتَعْرِيفِهِ وَتَوْفِيقِهِ لِلْإِيمَانِ ﴿يُشْرَحْ﴾ وَيُوسَّعْ ﴿صَدْرُهُ﴾ وَقَلْبُهُ ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ بِتَجْلِيَّتِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَجْلِيَةِ عَيْنِ بَصِيرَتِهِ بِنُورِ الْعَقْلِ، فَيَرَى الْحَقَّ وَيُبَادِرُ إِلَى قَبُولِهِ بِسَهْوَةٍ وَرَغْبَةٍ.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ سَثَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَرْحِ الصَّدْرِ [مَا هُوَ]. فَقَالَ: «[نُورٌ] يَقْدِرُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، فَيُنْشَرَحُ لَهُ [صَدْرُهُ] وَيَنْفَسِحُ». فَقَالُوا: هَلْ لَذَلِكَ أَمَارَةٌ يُعْرَفُ بِهَا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْفُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»^١.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ وَيَحْرِفُهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ بِسَبَبِ تَرَاكُمِ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ الْكَائِنِ وَالْحَسَدِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ فِيهِ ﴿ضَيْقًا حَرَجًا﴾ شَدِيدَ الضَّيْقِ بَحِثَ لَا يَبْقَى فِيهِ مَجَالٌ لَتَمَكُّنِ الْحَقِّ، أَوْ مُنَسِّدِ الْمَنَافِذِ بَحِثَ لَا تَدْخُلُ فِيهِ الْمَوَاعِظُ وَالْمَعَارِفُ.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، [أَنَّهُ] قَالَ لِمُوسَى بْنِ أَسْمَرَ^٢: «أَتَدْرِي مَا الْحَرَجُ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، فَقَالَ بِيَدِهِ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ، كَالشَّيْءِ الْمُضْمَتِ الَّذِي لَا يَدْخُلُ فِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ^٣.

وَعَنْهُ عليه السلام، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: «قَدْ يَكُونُ ضَيْقًا وَلَهُ مَنَعٌ يَسْمَعُ مِنْهُ وَيُبْصِرُ، وَالْحَرَجُ هُوَ الْمُثْلَتِيمُ الَّذِي لَا مَنَعَ لَهُ يَسْمَعُ بِهِ وَلَا يُبْصِرُ مِنْهُ» الْخَبَرُ^٤ وَلِذَا يَنْبُو عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَيَكُونُ إِيْمَانُهُ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْهُ وَيُقَالُ عَلَيْهِ ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ وَيَعْرُجُ إِلَيْهَا ﴿كَذَلِكَ﴾ الضَّيْقُ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَصَدْرِ الْكَافِرِ ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ﴾ وَالشَّكَّ. كَمَا عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام^٥. أَوِ الْعَذَابُ، أَوِ اللَّعْنَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام: هُوَ الشَّيْطَانُ، أَيْ يُسَلِّطُهُ^٦ عَلَى الَّذِينَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ بِسَبَبِ حُبِّ ذَاتِهِمْ وَشَوْءِ اخْتِيَارِهِمْ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَدِينِ الْإِسْلَامِ أَبَدًا.

عَنِ الرِّضَاءِ عليه السلام أَنَّهُ سَثَلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ بِإِيْمَانِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى جَنَّتِهِ وَدَارِ كِرَامَتِهِ [فِي الْآخِرَةِ] ﴿يُشْرَحْ صَدْرُهُ﴾ لِلتَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَالثَّقَةِ بِهِ، وَالسُّكُونِ إِلَى مَا وَعَدَهُ مِنْ تَوَابِهِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عَنْ جَنَّتِهِ وَدَارِ كِرَامَتِهِ فِي الْآخِرَةِ لِكُفْرِهِ بِهِ وَعِصْيَانِهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ حَتَّى يَشْكُ فِي كُفْرِهِ، وَيَضْطَرِبُ مِنْ اعْتِقَادِهِ قَلْبُهُ حَتَّى يَصِيرَ ﴿كَأَنَّمَا

١. مجمع البيان ٤: ٥٦١، تفسير الصافي ٢: ١٥٥. ٢. في تفسير العياشي: لموسى بن أشيم.

٣. تفسير العياشي ٢: ١١٩/١٤٩٠، تفسير الصافي ٢: ١٥٥.

٤. معاني الأخبار: ١/١٤٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٥. ٥. تفسير العياشي ٢: ١١٩/١٤٩١، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.

٦. تفسير الرازي ١٣: ١٨٤.

يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجَسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ^١.

وعن الصادق عليه السلام - في حديث - «واعلموا أن الله إذا أراد بعبد خيراً شَرَحَ صدره للإسلام، فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق، وعقد قلبه عليه فعمل به، فإذا جمع الله له ذلك تم له إسلامه، وكان عند الله إن مات على ذلك الحال من المسلمين حقاً، وإذا لم يرد الله بعبد خيراً، وكله إلى نفسه فكان صدره ضيقاً حرجاً، فإن جرى على لسانه [حق] لم يعقد قلبه عليه، وإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به، فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال، كان عند الله من المنافقين، وصار ما جرى على لسانه من الحق الذي لم يعطه الله أن يعقد قلبه عليه ولم يعطه العمل به حجة عليه، فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحكمة^٢ حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك»^٣.

وعنه عليه السلام: «أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور، فأضاء لها سمعه وقلبه حتى يكون أحرص على ما في أيديكم منكم، وإذا أراد بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء فاظلم لها سمعه وقلبه» ثم تلا: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ الآية^٤.

وعنه عليه السلام: «أن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور^٥، وفتح مسامع قلبه، ووكل به ملكاً يسدده، وإذا أراد بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء، وسد مسامع قلبه، ووكل به شيطاناً يضلّه» ثم تلا هذه الآية^٦.

﴿وَهَذَا﴾ التشرية لصدور المؤمنين، والتضييق لقلوب الكافرين، وجعل الرجس عليهم ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ ودأبه الذي يستمر عليه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه ولا انحراف عنه، أو هذا البيان الذي يكون في القرآن صراط ربك: كما عن ابن مسعود^٧.

وعن ابن عباس عليه السلام: هذا الذي أنت عليه يا محمد دين ربك مستقيماً^٨.

وعن القمي: «يعني الطريق الواضح»^٩.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرحنا ﴿الآيَاتِ﴾ والمطالب الكثيرة واحداً بعد واحد ﴿لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ ويتنبهون بالآيات والذکر، فإنهم المستفوعون بها.

١. في الكافي: بالحق.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧/١٣١، التوحيد: ٤/٢٤٢.

٣. الكافي ٨: ٤٠٨، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.

٤. في تفسير العياشي: نكتة بيضاء.

٥. الكافي ١: ٢١٢٦، تفسير العياشي ٢: ١٤٨٩/١١٨، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.

٦. مجمع البيان ٤: ٥٦٢.

٧. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٧.

٨. تفسير الرازي ١٣: ١٨٧.

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢٧]

ثم بشر سبحانه المُنذَرين بقوله: ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ ومَنْزِل مَصُون مِنْ جَمِيعِ الْمَكَارِهِ وَالْآفَاتِ، قِيلَ: إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ^١. وإضافة الدَّارِ إِلَيْهِ تَعَالَى مُبَالِغَةٌ فِي تَشْرِيفِهَا وَتَعْظِيمِهَا، وَالْمُرَادُ الْجَنَّةُ.

وعن الْقَمِّي: «يعني: [في] الْجَنَّةِ، وَالسَّلَامُ الْأَمَانُ وَالْعَافِيَةُ وَالسُّرُورُ»^٢.

وهي مُعَدَّةٌ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اللَّطِيفُ بِهِمْ حَاضِرٌ لَدَيْهِ، أَوِ الْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى مُتَكَلِّفٌ بِهَا، وَقِيلَ: عِنْدَ رَبِّهِمْ كِتَابِيَّةٌ عَنْ غَايَةِ شَرَفِهَا وَكِرَامَتِهَا^٣.

ثم بالغ سبحانه في التبشِيرِ بقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ وَمُحِبِّهِمْ، أَوِ النَّاطِرُ فِي صَلَاحِهِمْ، وَعَنْ الْقَمِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يعني: أَوْلَى بِهِمْ»^٤ جَزَاءً ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْحَسَنَاتِ.

وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً يَامْعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [١٢٨ و ١٢٩]

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ لُطْفُهُ بِالْمُؤْمِنِينَ، أَوْعَدَ بَعِثَابَهُ وَشِدَّةَ عَذَابِهِ لِلْمُشْرِكِينَ بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ﴾ إِلَى الْقِيَامَةِ ﴿جَمِيعاً﴾ وَيَقُولُ عِتَاباً وَتَوْبِيخاً لَهُمْ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ وَجَمَاعَةُ الشَّيَاطِينِ، أَنْتُمْ ﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾ وَأَضْفَتُمْ إِلَى جَمَاعَتِكُمْ كَثِيراً ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ بِإِغْوَانِكُمْ وَتَسْوِيلَاتِكُمْ، وَصَبَّرْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَكُمْ وَأَتْبَاعَكُمْ.

عَنْ الْقَمِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ وَالَى قَوْماً فَهُوَ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جَنْسِهِمْ»^٥.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ وَأَتْبَاعُهُمْ ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ بَعْدَ اسْتِمَاعِ الْعِتَابِ وَالتَّوْبِيخِ إِظْهَاراً لِلنَّدَامَةِ: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ﴾ وَانْتَفَعَ ﴿بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أَمَا انْتِفَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ فَبِإِغْوَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَأَمَا انْتِفَاعُ الْإِنْسِ مِنَ الْجِنِّ فَبِإِعَانَتِهِمْ إِيَّاهُمْ عَلَى نِيلِ الشَّهَوَاتِ ﴿وَبَلَّغْنَا﴾ الْآنَ ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وَأَدْرَكْنَا الْوَقْتَ الَّذِي وَقَّهَ لَنَا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَعْدَمَا كُنَّا مُكَذِّبِينَ بِهِ طَاعَةً لِلشَّيَاطِينِ وَأَتْبَاعاً لِلشَّهَوَاتِ.

١. تفسير الرازي ١٣: ١٨٨.

٢. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٧.

٣. تفسير الرازي ١٣: ١٨٩.

٤. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٧.

٥. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

ثم كأنهم قالوا: ماذا تعامل معنا بعد إفرطنا في عصيانك؟ **﴿قَالَ﴾** الله لهم وللشياطين الذين والوهم: **﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾** ومنزل إقامتكم، حال كونكم **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** أبداً، **﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾** عدم كونكم فيها.

قيل: هو وقت المحاسبة^١، وقيل: هي الأوقات التي يخرجون منها لشوب من حميم، ثم يكون مرجعهم إلى الجحيم^٢، وقيل: هو وقت الانتقال من النار إلى الزمهرير^٣.

رُوي أنهم يدخلون وادياً فيه برد شديد، فهم يطلبون الرّد من ذلك البرد إلى الجحيم^٤. ويحتمل أن يكون المراد من المستثنى: العصابة من المؤمنين؛ فإنهم من أولياء الشيطان، ولا تخلود لهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: استثنى الله قوماً سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ^٥.

ثم لما كان مجال توهم الظلم في تخليد الكفار في النار، دفعه سبحانه بقوله: **﴿إِنَّ رَيْكَ حَكِيمٌ﴾** في فعاله لا يصدر منه الظلم، وإنما يعاقب على حسب الاستحقاق **﴿عَلِيمٌ﴾** بأحوال الثقلين وأعمالهم، وبما يستحقون من الجزاء **﴿وَكَذَلِكَ﴾** التولي الذي كان بين الجن والإنس، أو الذي بين الله تعالى وبين المؤمنين **﴿تَوَلَّى بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾** آخر منهم.

قيل: يعني نجعل المحبة والنصرة بينهم^٦، وقيل: نكيل بعضهم إلى بعض في القيامة^٧، وقيل: نقرن بينهم في النار؛ كل ذلك للسنخية التي تكون بينهم طينة وأعتقاداً وأخلاقاً وعملاً، وقيل: يعني نسلط بعضهم على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم^٨.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «ما انصر الله من ظالم إلا بظالم، وذلك قول الله عز وجل: **﴿وَكَذَلِكَ تَوَلَّى بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾**^٩.

وعن القمي عليه السلام: قال: «تولي كل من تولّى أولياءهم فيكونون معهم»^{١٠} جزء **﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** ويرتكبون من الظلم والقبائح.

قيل: إن الآية تدل على أن الرعية إذا كانوا ظالمين، سلط الله عليهم ظالماً مثلهم، وأيضاً تدل على أنه لا بد في الخلق من أمير؛ لأنه تعالى إذا لم يخل أهل الظلم من أمير ظالم، فبان لا يخلي أهل

١. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢.

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٠٣.

٣. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢، تفسير روح البيان ٣: ١٠٣.

٤. تفسير الرازي ١٣: ١٩٣.

٥. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢.

٦. تفسير روح البيان ٣: ١٠٤.

٧. مجمع البيان ٤: ٥٦٥.

٨. تفسير المياشي ٢: ١٤٨٧/١١٨، الكافي ٢: ٢٥١/١٩، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

٩. تفسير القمي ١: ٢١٦، وزاد فيه: يوم القيامة، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

الصَّلاح من أمير يحملهم على زيادة الصَّلاح، كان أولى^١.

فسي لزوم وجود
السلطان في الأرض
ولو كان جائراً
والنهي من سب
السلطان

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر»، فأنكروا قوله: «أو جائر» فقال: «نعم، يؤمن السَّييل، ويُمكن من إقامة الصَّلاة وَحَجَّ البيت»^٢.

وعن مالك بن دينار، [جاء] في بعض كُتب الله تعالى: أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك وتواصيهم بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رَحمةً، ومن عصاني جعلتهم عليه نِقمةً، لا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، لكن توبوا إلي أعطفهم عليكم^٣.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [١٣٠]

ثم تَبَّ سبحانه على أن العذاب في القيامة لا يكون إلا بعد إتمام الحجة بقوله: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ» وجماعة الثقلين المتكبرين للبعث «أَلَمْ يَأْتِكُمْ» في الدنيا من قبلنا «رُسُلٌ مِنْكُمْ» وأنبياء يُجانسونكم حتى تميلوا إليهم، وتُسفيدوا منهم، وهم كانوا «يَقُصُّونَ» ويتلون «عَلَيْكُمْ آيَاتِي» وكتبنا «وَيُنذِرُونَكُمْ» ويخوفونكم «لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» وشِدة أهواله وعذابه؟

قيل: إن الله كما أرسل رُسُلًا من الإنس، أرسل رُسُلًا من الجن، واشتدَّ بهذه الآية ويقول: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير»^٤ والأكثر على أنه ما كان من الجن رُسُل، وإنما كان الرُسُل من الإنس خاصة.

وضمير (منكم) راجع إلى مجموع الثقلين، فيكفي كونه من الإنس، أو إلى أحد الثقلين لا كل منهما، أو إلى كلِّ منهما، أو كان رُسُل الجن رُسُل الإنس؛ للإجماع على اختصاص الرُسُل بالإنس، وما روي من أن الله بعث نبياً إلى الجن يُقال له يوسف فقتلوه^٥، وأرسل محمداً عليه السلام إلى الثقلين، لا دلالة فيه على أن ذلك النبي كان من الجن.

ثم لما لم يجدوا بُدأ من الاعتراف بالرُّسل وتبليغاتهم «قَالُوا» مجيبين: بلى «شَهِدْنَا» وأعترفنا «عَلَى أَنْفُسِنَا» بالكفر واشتقاق العذاب.

ثم بين سبحانه علة كفرهم وشقاقهم مع الرُّسل بقوله: «وَعَرَّبْنَاهُمْ» وفتنتهم «الدُّنْيَا»

١. ٣٠ تفسير الرازي ١٣: ١٩٤.

٢. تفسير الرازي ١٣: ١٩٥، والآية من سورة فاطر: ٢٤/٣٥.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

وشهواتها، فلم يؤمنوا بالرسول ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ في القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالبعث ودار الجزاء.

قيل: تشهد جوارحهم عليهم بالشرك^١ وإنكار الحشر.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَظْلَمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ [١٣١]

ثم أشار سبحانه إلى حكمة بعث الرسول بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إرسال

الرسول، والتبليغ والإنذار، لأجل ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾ مع كمال عدله وحكمته ﴿مُهْلِكَ﴾ أهل ﴿الْفَرَىٰ﴾ ومُعَذِّبهم بعداب الاستيصال ﴿بَظْلَمٍ﴾ صادر منهم، أو متلبساً بظلم منه على القرى ﴿و﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عما يسخطه ويرضاه، معذرون في عصيان أوامره وتواهيه لجهلهم بها حتى يكون لهم على الله حجة، ويصح قولهم: ﴿رَبَّنَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٢.

وحاصل الآية أن إرسال الرسول وإنزال الكتاب، إنما كان لإتمام الحجة على الناس، ولئلا كان تعذيبهم على مخالفة الأحكام مع جهلهم بها ظلماً ممتنعاً صدوره من الله؛ لمنافاته لزبوبيته وألوهيته.

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ [١٣٢]

ثم لما كان بعد إرسال الرسول وإتمام الحجة على الناس تفاوت فاحش بينهم في الإيمان والكفر والطاعة والعصيان، نبه سبحانه بعلمه بمراتب استحقاقاتهم المختلفة بقوله: ﴿وَلِكُلِّ﴾ من مكلفي الجن والإنس؛ كفارهم ومؤمنهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ومراتب متفاوتة في القرب من الله والبعد عنه، وفي مقدار استحقاق الثوبة والعقوبة، حاصلة تلك الدرجات لهم ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ من الحسنات والسيئات ﴿وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وجاهل بما يرتكبون من الطاعة والعصيان، وبمراتب استحقاقاتهم؛ فيجزى كل عامل على حسب استحقاقه.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا

أَنْشَأَكُمْ مِنْ دُورِيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ [١٣٣]

ثم أعلن سبحانه بغناه عن طاعة الخلق بقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ المطلق بذاته لا حاجة له إلى طاعة

المُطِيعِينَ، وَلَا ضَرَرَ عَلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ الْعَاصِينَ، وَإِنَّمَا كَلَّفَ التَّقْلِينَ لِأَنَّهُ ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الواسعة على خلقه، وَمِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكَلِّفَهُمْ بِمَا يُوجِبُ تَكْمِيلَ نُفُوسِهِمْ وَاشْتِعَادَهُمْ لِلْفِيُوضَاتِ الْأَبَدِيَّةِ وَالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ، وَتَعَالِيهِمْ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، وَسَعَادَتِهِمْ بِالْقِيَامِ إِلَى الطَّاعَةِ وَالتَّحَرُّزِ عَنِ الْقِبَاحِ.

ثُمَّ لَمَّا أَعْلَنَ شَبْحَانَهُ بَغْيَاهُ وَسَعَةَ رَحْمَتِهِ، أَرَدَفَهُ بِإِظْهَارِ كِمَالِ قُدْرَتِهِ بَيَانٍ فِيهِ تَرْهِيْبٌ لِلْقُلُوبِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَشَاءُ﴾ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ وَيُهْلِكْكُمْ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ وَيَخْلُقْ بَدْلًا مِنْكُمْ ﴿مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ وَبَعْدَ إِهْلَاكِكُمْ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ خَلْقَهُ مِنْ قَوْمٍ يَكُونُونَ أَطْوَعَ مِنْكُمْ لَهُ تَعَالَى ﴿كَمَا أَتَشَاءُكُمْ﴾ وَأَوْجِدْكُمْ ﴿مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ وَمِنْ نَسْلِهِمْ مَعَ عَدَمِ كَوْنِهِمْ مِثْلَكُمْ فِي الْعِصْيَانِ، بَلْ كَانُوا مُطِيعِينَ كَأَصْحَابِ سَفِينَةِ نُوحٍ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ إِذْهَابَكُمْ، وَلَمْ يَعَجَلْ فِي إِهْلَاكِكُمْ رَحْمَةً عَلَيْكُمْ.

إِنَّ مَا تَوَعَّدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [١٣٤ و ١٣٥]

ثُمَّ بَالِغَ شَبْحَانِهِ فِي تَرْهِيْبِ الْعَصَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ مَا تَوَعَّدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَاللَّهُ ﴿لَآتٍ﴾ وَكَانَ لَوْجُودِ الْمُقْتَضِي وَهُوَ الْاِسْتِحْقَاقُ، وَالْوَعْدُ الَّذِي لَا خُلْفَ فِيهِ، وَعَدَمُ فَرْضِ الْمَانِعِ عَنْهُ إِلَّا قُدْرَتَكُمْ عَلَى تَعْجِيزِ اللَّهِ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لَهُ تَعَالَى، وَفَاتِنِينَ مِنْهُ، وَهَارِبِينَ مِنْ سُلْطَانِهِ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ شَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَهْدِيدِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، تَهْدِيدًا لِقَوْمِكَ الْعَصَاةِ: ﴿يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا﴾ مَا تُرِيدُونَ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْعِصْيَانِ مُجَدِّدِينَ فِيهِ ﴿عَلَى﴾ غَايَةِ ﴿مَكَائِتِكُمْ﴾ وَمُنْتَهَى قُدْرَتِكُمْ وَاسْتِطَاعَتِكُمْ، أَوْ اثْبَتُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَعَدَاوَةِ الرُّشُولِ، وَلَا تَحْرَفُوا عَنْهُ، وَ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أَيْضًا بِمَا أَمَرْتُ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَدَاوَتِكُمْ، وَالْجِدِّ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِي عَلَى مَكَائِتِي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ﴾ هَذِهِ ﴿الدَّارِ﴾ الْفَانِيَةِ الَّتِي خُلِقَتْ لِتِلْكَ الْعَاقِبَةِ، وَالتَّسْجِةِ مِنَ الْفَلَاحِ وَالنَّعْمَةِ وَالرَّاحَةِ الدَّائِمَةِ، وَمَنْ لَا تَكُونُ لَهُ.

ثُمَّ صَرَحَ بِجُرْمَانِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَاقِبَةِ الْمَحْمُودَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ هُمْ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَا يَنْجُونَ أَبَدًا مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَفُوزُونَ بِمَقَاصِدِهِمْ.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [١٣٦]

ثم لما أمرهم تهديداً بالثبات على أعمالهم، شرع في ذكر بعض أعمالهم القبيحة بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿فِى﴾ تعالى ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ وخلق بقدرته الكاملة في الأرض ﴿مِنْ﴾ الحَزْثِ والزَّرْعِ ﴿وَمِنْ﴾ من ﴿الْأَنْعَامِ﴾ الثلاثة: الإبل والبقرة والغنم ﴿نَصِيباً﴾ وسهماً، مع أن الكل له، ولأصنامهم التي جعلوها شركاء أنفسهم في أموالهم نصيباً ﴿فَقَالُوا﴾ مشيرين إلى نصيب الله: ﴿هَذَا﴾ النصيب ﴿فِى﴾ خاصة، وذلك كان ﴿بِرَّغْمِهِمْ﴾ الفاسد وأدعائهم الباطل، لا بالحجة والبرهان ﴿وَهَذَا﴾ النصيب الآخر ﴿لِشُرَكَائِنَا﴾ في أموالنا من الأصنام ﴿فَمَا كَانَ﴾ من النصيب ﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾ وأصنامهم ﴿فَلَا يَصِلُ﴾ ولا يندفع شيء منه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بل يندفع إلى سدنة الأصنام ﴿وَمَا كَانَ﴾ من النصيب ﴿لِللَّهِ﴾ تعالى ﴿فَهُوَ يَصِلُ﴾ ويدفع ﴿إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ بصرفه في سدنتها، وذبح التسانك^٢ عندها. ثم ذمهم سبحانه على ذلك التقسيم، مع أن الجميع لله، ثم صرّفهم نصيب الله في مصارف الأصنام، بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بشركة الجمادات في ما خلقه الله، ثم ترجيحها عليه تعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنه: كان المشركون يجعلون لله من خروثهم وأنعامهم نصيباً وللأوثان نصيباً، فما كان للصنم أنفقوه عليه، وما كان لله أطعموه الصبيان والمساكين، ولا يأكلون منه البتة، ثم إن سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غني، وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردّوه إلى نصيب الصنم وقالوا: إنه فقير^٣.

وقيل: كانوا إذا هلك ما لأوثانهم أخذوا بدله مما لله، ولا يفعلون مثل ذلك في ما لله عز وجل^٤ وقيل: إنه إذا انفجر من سقي ما جعلوه للأصنام في نصيب الله سدّوه، وإن كان على ضيّد ذلك تركوه^٥.

وقيل: إنهم كانوا إذا أصابهم القحط اشتعانوا بما لله، ووفّروا ما جعلوا لشركائهم^٦. وقيل: إن زكا ونما نصيب الآلهة جعلوه لها وقالوا: لو شاء الله زكا نصيب نفسه، وإن زكا نصيب الله ولم يرك نصيب الآلهة قالوا: لا بدّ لآلهتنا من نفقة، فأخذوا نصيب الله وأعطوه السدنة^٧. أقول: لا تنافي بين الوجه لإمكان أن جميعها كان عملهم، وبعض الوجه مروى عن أئمتنا^٨.

وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [١٣٧]

١. أي خدمة الأصنام. ٢. التسانك والتلّسك: جمع التسيكة، وهي الذبيحة.

٣. راجع: مجمع البيان ٤: ٥٧١، تفسير الصافي ٢: ١٦٠.

٤. تفسير الرازي ١٣: ٢٠٤.

ثُمَّ حَكَّى شُبْحَانَهُ عَنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مَذْهَباً آخَرَ أَقْبَحَ مِنَ الْأَوَّلِ إِظْهَاراً لِحَقِّهِ عُقُوبَتُهُمْ، وَتَحْقِيرَ لَهُمْ فِي أَنْظَارِ الْعُقَلَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التَّزْيِينُ الَّذِي يَكُونُ فِي أَنْظَارِهِمْ لِلتَّشْرِيكِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ فِي مَا خَلَقَهُ شُبْحَانَهُ مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ ﴿وَزَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ الْإِنَاثَ بِذَنبِنَهُنَّ أَحْيَاءَ فِي الْأَرْضِ خَوْفاً مِنَ الْفَقْرِ، أَوْ السَّيِّئِ، أَوْ عَاراً مِنَ التَّزْوِيجِ، وَالذُّكُورَ بِحَرَمِهِمْ لِلْحَلْفِ عَلَيْهِ ﴿شُرَكَائُهُمْ﴾ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴿لِيُزِدُوهُمْ﴾ وَيُهْلِكُوهُمْ إِلَى الْأَبَدِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿لِيُزِدُوهُمْ﴾ فِي النَّارِ، بِالْإِغْوَاءِ إِلَى الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ﴿وَلِيُزِيلُوا﴾ وَيُخْلِطُوا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بِالتَّسْوِيلَاتِ ﴿وَيَنْهَيْهُمْ﴾ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ، وَيُضِلُّوهُمْ عَنْهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ شُرَكَائِهِمْ: سَدَنَةُ آلِهَتِهِمْ^١، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمُرَادُ: أَنَّ عَاقِبَةَ تَزْيِينِهِمْ إِهْلَاكَهُمْ وَتَشْوِيشَ دِينِهِمْ عَلَيْهِمْ، لظُهُورِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَصْدُ السَّدَنَةِ مِنَ التَّزْيِينِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ قَصْدُ الشَّيَاطِينِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ شُبُوحُ تِلْكَ الْقَبَائِحِ فِي أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ تَقِيلاً عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَلَّى شُبْحَانَهُ قَلْبَهُ الشَّرِيفَ بِأَنْ صُدُّوا هَذَا الْقَبِيحِ مِنْهُمْ إِنَّمَا كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لِأَنَّهُ خَلَاهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينَ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عَدَمَ صُدُورِهِ مِنْهُمْ أَلْجَاهُمْ عَلَى تَرْكِهِ، أَوْ قَوَّى عُقُوبَتَهُمْ وَصَرَفَ قُلُوبَهُمْ عَنْهُ، إِذَنْ ﴿مَا فَعَلُوا﴾ الْبَتَّةَ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ شَاءَ عِصْيَانَهُمْ، وَأَنَّهُ مَعَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى اخْتِزَامِهِمْ تَرْكَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ لِيَزِيدُوا إِنَّمَا ﴿فَذَرُوهُمْ﴾ وَاتَّزَكَّهِمْ أَنْتَ أَيْضاً ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِهِ، فَإِنَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَاباً عَظِيماً.

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ [١٣٨]

ثُمَّ حَكَّى شُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ قَسَمُوا أَنْعَامَهُمْ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ؛ فَجَعَلُوا قِسْماً مِنْهَا وَمِنْ حَرِّثِهِمْ لِآلِهَتِهِمْ ﴿وَقَالُوا﴾ مُثِيرِينَ إِلَى هَذِهِ الْقِسْمَةِ: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ﴾ لِآلِهَتِنَا ﴿حِجْرٌ﴾ وَمَنْعُوعَةٌ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهَا ﴿لَا يَطْعَمُهَا﴾ وَلَا يَذُوقُ مِنْهَا أَحَدٌ ﴿إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أَنْ يَطْعَمَهَا، وَهُمْ خَدَمَةُ الْأَلْهَةِ، وَخُصُوصُ الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَهَذَا الْحُكْمُ يَكُونُ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الْبَاطِلُ وَهُوَ أَنْفُسُهُمُ الْفَاسِدُ، لَا بِالْحُجَّةِ وَالْأَخْذِ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَقِسْمَةٌ مِنْهَا جَعَلُوهَا بِحِيرَةً وَسَانِيَةً وَحَاماً، وَقَالُوا مُثِيرِينَ إِلَيْهَا: ﴿وُ﴾ هَذِهِ ﴿أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ﴾ عَلَى النَّاسِ ﴿ظُهُورُهَا﴾ وَرُكُوبَهَا، وَقِسْمَةٌ مِنْهَا جَعَلُوهَا لِلذَّبْحِ عَلَى النَّصَبِ، وَقَالُوا مُثِيرِينَ

إليها: ﴿وَهَذِهِ آتِنَاكُمْ﴾ للدَّيْحِ للأصنام، وَهُمْ ﴿لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حِينَ ذَبَحَهَا أَوْ نَحَرَهَا، بَلْ يَذْكُرُونَ عليها اسم الأصنام، وقيل: يعني لا يحجون ولا يلبنون عليها، وَهُمْ نَسَبُوا ذَلِكَ التَّقْسِيمَ إِلَى اللَّهِ ﴿أَفْتَرَاءً عَلَيْهِ﴾ تعالى^١.

ثُمَّ هَدَّاهُمْ بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله وَيُعَاقِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ عليه فيما ينسبون إليه.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ

يَكُنْ مِثْنَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [١٣٩]

ثُمَّ حَكَى سُبْحَانَهُ حُكْمَهُمُ الْبَاطِلَ فِي أَجَنَةِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِ وَالْحَوَامِي بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ مِنَ الْأَجَنَةِ ﴿خَالِصَةٌ﴾ وَمُحَلَّلَةٌ ﴿لِّدُكُورِنَا﴾ خَاصَّةٌ وَقِيلَ: إِنْ تَاءَ (خَالِصَةٌ) لِلْمُبَالَاةِ كِرَاوِيَةٌ^٢.

﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ أَكَلُهَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﴿عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ وَإِنَّا، إِنْ وَلَدَتْ مِنْ أَمْهَا حَيَّةٌ ﴿وَإِنْ يَكُنْ﴾ مَا فِي الْبُطُونِ ﴿مِثْنَةً﴾ حِينَ وَلَادَتْهُ ﴿فَهُمْ﴾ جَمِيعًا ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ مُتَسَاوُونَ لَا تَفَاوُتُ بَيْنَ ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ فِي جَلِيَّةٍ أَكَلِهِ.

ثُمَّ هَدَّاهُمْ بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله فِي الْآخِرَةِ ﴿وَصَفَّهُمْ﴾ وَكَذَّبَهُمْ عَلَيْهِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ فِي فِعَالِهِ، عَامِلٌ مَعَ خَلْقِهِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّونَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَبِمَقْدَارِ اسْتِحْقَاقِهِمْ.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً

عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [١٤٠]

ثُمَّ أشار سُبْحَانَهُ إِلَى مَفْسَدَةِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ وَتَحْرِيمِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْأَنْعَامِ بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وَتَضَرَّرَ أَوْ هَلَكَ الْمُشْرِكُونَ ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ وَفَوْتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ التَّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَأَعْلَى الْخُطُوطِ الْبَشَرِيَّةِ، وَازْتَكَبُوا أَعْظَمَ الذُّنُوبِ وَأَفْحِشَ الظُّلْمِ بِالتَّوَهُُّمَاتِ السَّخِيفَةِ لِأَجْلِ أَنْ لَهُمْ ﴿سَفَهًا﴾ وَخِيفَةٌ عَقْلٌ، وَكَوْنُهُمْ ثَلَاثِينَ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وَغَايَةُ جَهَالَةٍ، بِشَتَاةِ هَذَا الْعَمَلِ وَمُضَارَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَحَرَّمُوا﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي جَعَلُوهَا سَائِبَةً وَحَامِيًا، مَعَ كَوْنِهَا [مِنْ] ﴿مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وَأَشْيَاءَ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِإِبْجَادِهَا، وَتَسْلِيْطِهِمْ عَلَيْهَا، وَإِبَاحَةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا أَكْلًا وَرُكُوبًا وَحِمْلًا، وَهُمْ

بنسبة تحريمها إلى الله يفترون ﴿أَفْتِرَاةٌ عَظِيمًا عَلَى اللَّهِ﴾، فهم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ وانحرفوا عن طريق الرُّشد إلى مصالحهم الدُّنيوية والأخروية ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه أبداً، وإن بالغت في هدايتهم.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [١٤١]

ثم لما وُيِّخَ الله سبحانه المشركين على جعل نصيبٍ من الحرث والأنعام للأصنام، وتحرير ما رزقهم الله، عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده الذي هو المقصود الأصلي في السورة المباركة بكونه خالق الزرع والأشجار والأنعام؛ بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ وأخرج من العدم إلى الوجود ﴿جَنَّاتٍ ذَوَاتُ كُرُومٍ مَعْرُوشَاتٍ وَمَحْمُولَاتٍ عَلَى مَا يُحْمِلُهَا مِنَ الْأَشْجَابِ وَغَيْرِهَا وَ﴿جَنَّاتٍ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

قيل: هي الجَّات التي لا عرس لها، بل يكون فيها ما يثبت مُنْبَسِطاً على وجه الأرض كالقرع والبطيخ وأمثالهما^١، وقيل: هي التي فيها الكُروم المنبسطة على الأرض^٢، وقيل: هي التي فيها الأشجار المستغنية عن العرش لاشيائه وذهابه إلى العلو بقوة ساقه^٣.

﴿و﴾ أنشأ ﴿النَّخْلَ﴾ بأصنافها المختلفة ﴿وَالزَّرْعَ﴾ من الحبوب التي يقتات بها - كما عن ابن عباس^٤ - حال كون كل من النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ وثمره، ومتفاوتاً بعضه مع بعض في الطعم والهيئة، لكل صنف من ثمرهما طعم غير الآخر، وهيئة غير هيئة الآخر، ﴿و﴾ أنشأ ﴿الزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ﴾ حال كون بعض ثمرهما ﴿مُتَشَابِهًا﴾ مع بعض في الطعم والهيئة واللون والجودة والرياءة، ﴿و﴾ بعضه ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ من جميع الجهات أو من بعضها؛ كالرمانتين اللتين لونهما واحد وطعمهما مختلف.

ثم أنه تعالى بعد بيان ما لكَيِّته لجميع النباتات، أذن للناس بالانثفاع بكل واحد منها بقوله: ﴿كُلُوا﴾ وانثفعوا أيها الناس ﴿مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وصلح للانثفاع، وإن لم يدرك ولم يَنْبَغِ لأنه خلق لكم، ولا تحرموا على أنفسكم منه شيئاً، ولا تجعلوا للأصنام منه نصيباً ﴿و﴾ لكن ﴿آتُوا﴾ الفقراء وأعطوهم ﴿حَقَّهُ﴾ وما نبت عليكم فيه من الضَّغث^٥ والحِصَّة ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وحين جذاده.

٢. تفسير الرازي ١٣: ٢١٢.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٢١١.

٤. تفسير الرازي ١٣: ٢١٢.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٢١١.

٥. الضَّغْث: هو قبضة الحشيش المختلط من الأخضر واليابس.

قيل: أريد بالحق ما يتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة؛ لأن الزكاة فرضت بالمدينة، والآية مكية^١. وقيل: بل هو الزكاة، أي لا تؤخروها عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء، والآية مدنية^٢.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «في الزرع حقان: حق تؤخذ به، وحق تعطيه، أما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر، وأما الذي تعطيه فقول الله عز وجل: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فالصنفت تعطيه ثم الصنفت حتى تفرغ»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «هذا من الصدقة تعطي المسكين القبضة بعد القبضة، ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة»^٤.

والقمي: عن الصادق عليه السلام في هذه الآية، قال: «الصنفت من السنب، والكف من التمر إذا خرص»^٥. وعنه عليه السلام: «أعط من حضرك من شرك وغيره»^٦.

وعنه عليه السلام: «لا تصرم بالليل، ولا تحصد بالليل - إلى أن قال: - وإن حصدت بالليل لم يأتك السؤال، وهو قول الله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني القبضة بعد القبضة إذا حصدته، فإذا خرجت فالحفنة [بعد الحفنة]، وكذلك عند الصرام»^٧. الخبر^٨.

وعن الرضا عليه السلام، سئل: إن لم يحضر المساكين وهو يحصد؟ قال: «ليس عليه شيء»^٩. ثم أنه تعالى بعد الأمر بالانقياع والصدقة، نهى عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ولا تتجاوزوا الحد في الصدقة، أو في منعها وقيل: يعني لا تضيعوا ثمرتكم بأن تجعلوها للأصنام فيها نصيباً، أو لا تنفقوها في معصية الله^{١٠} «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» ولا يرضى عنهم.

عن الرضا عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «كان أبي يقول: من الإسراف في الحصاد والجذاذ أن يتصدق الرجل بكفيه جميعاً، وكان أبي إذا حصر شيئاً من هذا فرأى أحداً من غلمانه يتصدق بكفيه صاح به: أعط بيد واحدة، القبضة بعد القبضة، والصنفت بعد الصنفت من السنب»^{١١}.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «كان فلان بن فلان الأنصاري - وسماه - كان له

١. تفسير أبي السعود ٣: ١٩٢.

٢. تفسير أبي السعود ٣: ١٩٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٩٦/١٢٠، الكافي ٣: ١/٥٦٤، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.

٤. الكافي ٣: ٢/٥٦٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.

٥. تفسير القمي ١: ٢١٨، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.

٦. الكافي ٣: ٣/٥٦٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

٧. الكافي ٣: ٣/٥٦٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

٨. في النسخة: تجعلوها.

٩. تفسير العياشي ٢: ١٥٠١/١٢١، الكافي ٣: ٦/٥٦٦، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

١٠. تفسير الرازي ١٣: ٢١٤.

١١. تفسير القمي ١: ٢١٨، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

حَرْتُ، وَكَانَ إِذَا أَخَذَهُ تَصَدَّقَ بِهِ وَيَبْقَى هُوَ وَعِيَالُهُ بِغَيْرِ شَيْءٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ سَرَفًا^١.
وعنه عليه السلام - في حديث - قال: «وفي غير آية من كتاب [الله] يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُشْرِفِينَ﴾
فَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِسْرَافِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّقْتِيرِ، وَلَكِنْ أَمَرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، لَا يُعْطِي جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ ثُمَّ يَدْعُو اللَّهَ
أَنْ يَرْزُقَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُ»^٢.

رُوي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، عَمَدَ إِلَى خَمْسِمِائَةِ نَخْلَةٍ فَجَذَّهَا ثُمَّ قَسَمَهَا فِي يَوْمٍ
وَاحِدٍ، وَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهَا إِلَى مَنْزِلِهِ شَيْئًا^٣.

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [١٤٢]

ثُمَّ اسْتَدَلَّ شَبَحَانَهُ بِأَنَّهُ خَالِقُ الْأَنْعَامِ وَمَالِكُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أَنْشَأَ مَا تَكُونُ ﴿حَمُولَةٌ﴾
تُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ، أَوْ مَا تَكُونُ صَالِحَةً لِلْحَمْلِ عَلَيْهَا لِطُولِ قَوَائِمِهَا وَعِظَمِ جُسْجِهَا، ﴿و﴾ يَكُونُ
﴿فَرَشًا﴾ عَلَى الْأَرْضِ، شَبَّهَ قِسْمَ مِنْهَا بِهِ لِقَصْرِ قَوَائِمِهَا وَذُنُوبِهَا مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ فَرَشًا يُفْرَشُ لِلدَّبْحِ، أَوْ
يُفْرَشُ مَا يُنْسَجُ مِنْ صُوفِهَا وَوَبَرِّهَا.

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ أَنَّهُ مَالِكُهَا، أَوْزَنَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿كُلُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ وَانْتَفِعُوا مِنَ الْأَنْعَامِ
الْحَمُولَةِ وَالْفَرَشِ لِكُونِهَا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وَانْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وَلَا
تُطِيعُوهُ فِي تَسْوِيلَاتِهِ بِجَعْلِ الْأَصْنَامِ شُرِكَا فِيهَا، وَتَحْرِيمِ الْإِنْتِفَاعِ بِبَعْضِهَا بِجَعْلِهِ سَائِبَةً أَوْ بَحِيرَةً أَوْ
حَامِيًا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ أَتْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ أَتْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ مِنْ حَرَمٍ أَمْ
الْأُنثَيْنِ أَمْ أَسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَزْوَاجَ الْأُنثَيْنِ نَبْشُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
وَمِنَ الْإِبِلِ أَتْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ مِنْ حَرَمٍ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمْ
أَسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَزْوَاجَ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ [١٤٣ و ١٤٤]

٢. الكافي ٥: ١٦٧، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

١. الكافي ٤: ٥٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٢١٤.

ثم بين الله سبحانه أصناف الأنعام التي رزقها الله عباده بقوله: ﴿تَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وأصناف متصاحبات، ثم فسرها بقوله: ﴿مِنَ الصَّانِ اثْنَتَيْنِ﴾ الكبش والتعجة، أو الأهلي والوحشي ﴿وَمِنْ أَلْمَغَزِ اثْنَتَيْنِ﴾ التيس والعنز، أو الأهلي والوحشي.

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بأن ينكر على المشركين تحريم ما زعموه حراماً بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿ءَالَذَكْرَيْنِ﴾ من الصان والمغز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ الْاِثْنَيْنِ﴾ منهما ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَزْوَاجَ الْاِثْنَيْنِ﴾ منهما من الأجنة، ذكر أكانت الأجنة أم أنثى، مع أنكم لا تقرّون برسولٍ من الله إليكم حتّى تدعوا أنّه أخبركم بها.

ثم أمره بمطالبة الحجّة على الحرمة بقوله: ﴿تَبَيَّنُوا﴾ وأخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ وحجّة قاطعة على تحريم الله شيئاً من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿صَادِقِينَ﴾ في نسبة التحريم إليه سبحانه.

﴿وَمِنْ الْاِثْنَيْنِ﴾ الجمل والناقة، أو العراب والبخاتي ﴿وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ﴾ الذكر والأنثى، أو الأهلي والوحشي ﴿قُلْ﴾ يا محمد، إنكاراً عليهم وإفحاماً لهم: ﴿ءَالَذَكْرَيْنِ﴾ من الأصناف الأربعة ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ الْاِثْنَيْنِ﴾ منها ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَزْوَاجَ الْاِثْنَيْنِ﴾.

ثم أنكر عليهم وجود الحجّة على ما أدعوه من الحرمة بعد عدم اعترافهم برسولٍ وعدم حكم العقل القاطع بها، بقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ وخصاراً ﴿إِذْ وَصَّاءُكُمْ اللَّهُ﴾ وحكم عليكم ﴿بِهَذَا﴾ الحكم.

وحاصل الاختجاج: أنّ طريق معرفة حكم الله منحصر ببيان الرسول وحكم العقل والمشاهدة والسمع من الله، وأنتم لا تؤمنون برسولٍ، وليس لكم برهان عقلي على التحريم، ولم تسمعوا من الله هذا الحكم، فثبت أنّ القول بتحريم الله هذه الأنعام وما في بطونها افتراءً عليه.

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام [قال]: «حمل نوح عليه السلام في السفينة الأزواج الثمانية التي قال الله عز وجل: ﴿تَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَتَيْنِ﴾ الآية، فكان من الصان اثنتين: زوج داجنة يربّيها الناس، والزوج الآخر الصان التي تكون في الجبال الوحشية، أحلّ لهم صيدها، ومن الممغز اثنتين: زوج داجنة يربّيها الناس، والزوج الآخر الطباء التي تكون في المفاوز، ومن الإبل اثنتين: البخاتي والعراب، ومن البقر اثنتين: زوج داجنة للناس، والزوج الآخر الوحشية، وكلّ طير طيب وحشي وإنسي»^٢.

وفي (الغنية): عن داود الرقي، قال: سألتني الحوارج عن هذه الآية ﴿مِنَ الصَّانِ اثْنَتَيْنِ﴾ الآية، ما الذي أحلّ الله من ذلك، وما الذي حرّم؟ فلم يكن عندي فيه شيء، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام وأنا

حاج، فأخبرته بما كان، فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ فِي الْأُضْحِيَّةِ [بمَنْى الضأن والمعز الأهلية، وحرّم أن يضحى فيه بالجبيلة، وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ فِي الْأُضْحِيَّةِ [بمَنْى] الْإِبِلَ الْعَرَابَ وَحَرَّمَ مِنْهَا الْبُخَاتِي، وَأَحَلَّ الْبَقَرَ الْأَهْلِيَّةَ أَنْ يُضْحَى بِهَا وَحَرَّمَ الْجَبِيلَةَ».

فانصرفت إلى الرّجل وأخبرته بهذا الجواب، فقال: هذا شيءٌ حملته الإبل من الحجاز^١. أقول: الظاهر أنّ الخارجي كان عالماً بالحكم، وأراد أن يمتحن داود بمعرفته. وفي الآية دلالة على أنّ عدم وجدان الدليل على الحرمة كافٍ في القول بإباحة مشكوك الحرمة. ثم أنّه تعالى بعد إثبات كون المشركين في القول بحرمة بعض الأنعام مُفترين عليه، ذمهم بكونهم لأجل افتراءهم عليه أظلم الناس على أنفسهم بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه بإهلاكها الأبدى، وعلى ربّه بتضييع حقّه ﴿مَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ بنسبة تحريم ما أحله إليه ﴿كَذِباً﴾ ليغير دينه الحقّ، كعمرو بن لُحَيّ المغيرة لدين إسماعيل حيث إنّ بحرّ^٢ البحائر وسيب السّوانب، وككبرائهم المقرّون لذلك، و﴿يُضِلُّ﴾ ويحرف ﴿النّاسَ﴾ عن الصّراط المستقيم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بسوء عاقبة هذا التّغيير والإضلال. وقيل: إن لام (يضل) لام العاقبة^٣.

ثم هدّد سبحانه المُفترين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى الحقّ، أو إلى توابه وطريق الجنة ﴿الْقَوْمَ الظّالِمِينَ﴾ فكيف يقوم هم أظلم الناس!

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [١٤٥]

ثم أنّه تعالى بعد أمر نبيّه ﷺ بمطالبة الحجة من المشركين على ما زعموه من حرمة بعض الأنعام وما في بطونها، وظهور عجزهم عن إقامتها، أمر نبيّه ﷺ بإقامة الحجة على حلية جميع الأنعام بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من ربّي من الأحكام طعاماً يكون ﴿مُحَرَّمًا﴾ من قبله ﴿عَلَى طَاعِمٍ﴾ وأكل ﴿يَطْعَمُهُ﴾ ويأكله، [سواء أ] كان ذكراً أو أنثى ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك الطّعام ﴿مَيْتَةً﴾ وحيواناً خرج رُوحه بغير التّذكية الشرعيّة ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ ومصوباً من العروق بعد

٢. بحر النافعة: شقّ أذنها.

١. من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٩٣/١٤٥١، تفسير الصّافي ٢: ١٦٥.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١١٣.

الدَّيْحُ أَوْ النَّحْرُ دُونَ الدَّمِ الْمُتَخَلِّفِ بَعْدَ الدَّيْحِ، كَمَا فِي الْكَبِدِ وَالطَّحَالِ وَاللَّحْمِ ﴿أَوْ لَحْمٍ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وَقَدَّرَ، وَكُلُّ قَدَّرٍ نَجَسٍ وَحَرَامٍ، وَإِنَّمَا خَصَّ حُرْمَةَ لَحْمِهِ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ شَحْمَهُ أَيْضاً حَرَامٌ لِكُونِهِ أَهَمُّ مَا فِيهِ وَغَمْدُهُ مَا يَقْصِدُ بِهِ بِالْأَكْلِ ﴿أَوْ فِشْقاً﴾ وَهُوَ الْحَيَوَانُ الَّذِي ﴿أَهْلٌ لِيَغْيِرَ أَفْئِدَتَهُ﴾ وَرَفَعَ الصَّوْتُ عِنْدَ ذَبْحِهِ أَوْ نَحْرِهِ بِاسْمِ الْأَصْنَامِ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُ فِشْقاً لِتَوَعُّلِهِ فِيهِ.

عَنِ الْقَمِيِّ رحمته الله: قَدْ اخْتَجَّ قَوْمٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ إِلَّا هَذَا، وَأَحَلُّوا أَكْلَ شَيْءٍ مِنَ الْبَهَائِمِ؛ الْقِرْدَةِ وَالْكِلَابِ وَالسَّبَاعِ وَالذَّنَابِ وَالْأَشْدَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ وَالْدَوَابَّ، وَزَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حَلَالٌ وَغَلَطُوا فِي هَذَا غَلْطاً مُبِيناً، وَإِنَّمَا هَذِهِ الْآيَةُ رَدُّ عَلَى مَا أَحَلَّتِ الْعَرَبُ وَحَرَمَتْ: لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُحَلِّلُ عَلَى نَفْسِهَا [أَشْيَاءً] وَتُحَرِّمُ أَشْيَاءً، فَحَكَّى اللَّهُ ذَلِكَ لِنَبِيِّهِ صلوات الله عليه مَا قَالُوا^١.

وَقَالَ الْفَاضِلُ الْمِقْدَادُ: وَهَذَا سُؤَالٌ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَرِّمَاتِ، وَهُوَ غَيْرُ مَذْكُورٍ فِي الْآيَةِ، فَكَيْفَ يَقُولُ: لَا أَجِدُ إِلَّا كَذَا ... الدَّالُّ عَلَى الْحَضَرِ؟ وَكَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ وَ(إِنَّمَا) لِلْحَضَرِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ (أَوْحِي) فِعْلٌ مَاضٍ، وَ(أَجِدُ) لِلْحَالِ، فَمَنْطُوقُهَا: لَا أَجِدُ فِي مَا أَوْحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَاضِي غَيْرَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آخِرَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ صلوات الله عليه، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ جَاءَهُ تَحْرِيمُ أَشْيَاءَ بَعْدَ نَزُولِهَا، وَكَذَا الْكَلَامُ فِي (إِنَّمَا)، فَإِنَّ الْحَصْرَ فِيهَا لِلْحُكْمِ الْحَالِيِّ^٢.

تَحْقِيقٌ فِي دَفْعِ إِشْكَالٍ أَقُولُ: حُكِيَ الرَّجُلَانِ الْمَذْكُورَانِ لَدَفْعِ الْإِشْكَالِ عَنْ بَعْضِ الْعَامَّةِ أَيْضاً، وَفِيهِمَا مَا لَا يَخْفَى مِنَ الضَّعْفِ، مَعَ أَنَّهُمَا مُتَافِيَانِ لِلْأَخْبَارِ الْعَامِيَةِ وَالْخَاصِيَةِ. وَقَدْ رَوَى الْعَامَّةُ أَنَّ

ابن عباس وعائشة استدلا بالآية على حلية لحم الجِمار^٤.

وَرَوَى أَصْحَابُنَا عَنِ الصَّادِقِينَ عليهم السلام أَنَّهُمَا قَالَا: «لَيْسَ الْحَرَامُ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ»، وَتَلَيَا هَذِهِ الْآيَةَ^٥.

فَالْحَقُّ فِي الْجَوَابِ: أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ دَاخِلٌ فِي الْمَيْتَةِ، وَجَمِيعُ النَّجَاسَاتِ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ الرَّجْسِ، فَإِنَّ عُمُومَ الْعِلَّةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ يُوجِبُ عُمُومَ الْحُكْمِ لِكُلِّ رِجْسٍ، وَأَمَّا حُرْمَةُ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ الْوَحْشِ، وَكُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ، وَكُلِّ مَا لَا فَلَاسَ لَهُ مِنَ السَّمَكِ، فَإِنْ قُلْنَا: بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الرَّجْسِ: الْخَبِيثُ، وَأَنَّهُ مَا اسْتَخْبِثَهُ الشَّارِعُ، فَبَادِلَةُ حُرْمَةِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ نَعَلَمُ دُخُولَهَا فِي الْآيَةِ، لِعُمُومِ الْعِلَّةِ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الرَّجْسَ هُوَ الْقَدَرُ، فَيُخْتَصُّ بِالنَّجَاسَاتِ، وَحَيْثُ لَا بَدَّةَ مِنَ الْإِتِمَامِ بِتَخْصِصِ مَقْهُومِ الْآيَةِ بِتِلْكَ الْأَدَلَّةِ، أَوْ كَوْنِهَا قَرِينَةً عَلَى إِرَادَةِ الْحَصْرِ الْإِضَافِيِّ أَوْ الْحَصْرِ الْحَقِيقِيِّ، وَتَنْزِيلِ حُرْمَةِ غَيْرِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مَنْزِلَةَ الْمُبَاحِ إِعْظَاماً لِحُرْمَةِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ.

٣ و ٤. كنز العرفان ٢: ٣٠٣.

٢. تفسير القمي ١: ٢١٩، تفسير الصافي ٢: ١٦٦.

١. في المصدر: بَيِّنَات.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٢٥/١٥١٤، ١٥١٤، تفسير الصافي ٢: ١٦٧.

ثُمَّ بَيَّنْ أَنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ أَيْضاً مُبَاحَةٌ عِنْدَ الضَّرُورَةِ مِثْلَ عَلَى الْعِبَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ﴾ وَالْجَائِةِ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَكَانَ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ لَذَّةً، أَوْ غَيْرِ مُتَعَدٍّ عَلَى مُضْطَرِّ آخَرٍ مِثْلَهُ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ وَتَجَاوَزَ فِي الْأَكْلِ عَلَى قَدَرِ الضَّرُورَةِ ﴿فَإِنَّ رَيْكَ عَقْوُونَ﴾ لَهُ لَا يُؤَاخِذُهُ بِأَكْلِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِ لَا يَرْضَى بِضَرَرِهِ وَمَشَقَّتِهِ.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [١٤٦]

ثُمَّ بَيَّنْ شَبَحَانَهُ أَنَّهُ حَرَّمَ أَشْيَاءَ أُخَرَ عَلَى خُصُوصِ الْيَهُودِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ عِصْيَانِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ حَيَّوانٍ ذِي ظُفْرٍ﴾ وَاضْبَحَ كَالْإِبِلِ وَالطُّيُورِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ الْإِبِلُ وَالنَّعَامَةُ^١. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: إِنَّهُ الْإِبِلُ فَقَطْ^٢.
﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ وَثُرُوبَهُمَا ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ وَاشْتَمَلَتْ بِهِ ﴿ظُهُورُهُمَا﴾ مِنْ شَحْمِ الْكَثِيفِينَ إِلَى الْوَرَكَيْنِ مِنْ دَاخِلٍ وَخَارِجٍ. كَمَا قِيلَ^٣.
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: إِلَّا مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشَّحْمِ^٤.

وَعَنْ قَتَادَةَ: إِلَّا مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ وَالْجَنْبِ مِنْ دَاخِلٍ يُطَوْنَهَا^٥.
﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وَمَا تَصَقَّ بِالْمَبَاعِرِ^٦ وَالْمَصَارِينِ مِنَ الشُّحُومِ ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ﴾ وَالتَّصَقَّ بِعَظْمٍ كَشَحْمِ الْإِلَاقَةِ، وَكَانَ ﴿ذَلِكَ﴾ التَّحْرِيمُ عَلَيْهِمْ جَزَاءً ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ وَظَلَمِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِإِزْكَابِ الْمَعَاصِي مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ، وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ.

قِيلَ: إِنَّهُمْ كُلَّمَا أَتَوْا بِمَعْصِيَةٍ عُوقِبُوا بِتَحْرِيمِ شَيْءٍ مِمَّا أَحَلَّ لَهُمْ. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَا ادَّعَوْا مِنْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَزَلْ مُحَرَّمًا عَلَى الْأُمَّةِ الْمَاضِيَةِ، وَكَانُوا مُصْرِينَ عَلَيْهِ؛ وَلِذَا أَكَّدَ شَبَحَانَهُ كَذِبَهُمْ فِي الدَّعْوَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^٧ فِي إِخْبَارِنَا بِتَخْصِيصِ حُرْمَةِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ بَعْلَةً بَغْيِهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي أَنَّهَا لَمْ تَزَلْ مُحَرَّمَةً.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١١٥.

٥. تفسير الرازي ١٣: ٢٢٣.

٦. المَبَاعِرُ: جَمْعُ مَبْعَرٍ، وَهُوَ مَكَانُ خُرُوجِ الْبَعْرِ مِنَ الْأَمْعَاءِ، أَوْ الْمَصْرَانِ الْحَاوِي لِلْبَعْرِ.

٧. تفسير روح البيان ٣: ١١٥.

١ و ٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٢٣.

٤. تفسير الرازي ١٣: ٢٢٣.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [١٤٧]

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بهديدهم على تكذيبه بقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد، مع شهادتنا بصدقك في اختصاص حرمة الأشياء المذكورة بهم، أو فيه وفي دعوى الرسالة وتبلغ الأحكام ﴿فَقُلْ﴾ للمكذبين: حَقَّ عليكم العذاب، ولكن ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ للمؤمن والكافر، ولذا لا يعجل في عقوبتكم على تكذيبكم رسوله، فلا تغتروا بإمهاله فإنه يُعَذِّبُكُمْ ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ وعذابه إذا جاء وقته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين بتكذيب الرُّسل، والإصرار على الكفر، والعناد مع الحق.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ [١٤٨]

ثم حكى سبحانه احتجاج المشركين على صحة قولهم بالشرك وحرمة السوائب وأخواتها بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله احتجاجاً على صحة قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وأراد منا أن لا نشرك به شيئاً ولا نحرم شيئاً ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الأقدمون ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ لقدرتنا على منعنا عما لا يرضاه، وعدم تمكننا من التخلف عن إرادته، وكوننا مجبورين فيما يصدر منا - كما يقول الأشاعرة - وحيث رأينا أنه صدر منا الشرك والتحريم ولم يمنعنا عنهما، علمنا، أنه أراد منا ذلك ورضي بما نحن عليه من الاعتقاد والعمل، وأنت كاذب عليه فيما تدعيه من بغضه إياه ونهيه عنه.

ثم ردهم سبحانه بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ التكذيب الذي صدر منهم بك على تلك الحجة ﴿كَذَّبَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رُسلهم ولم يؤمنوا بهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وطعموا طعم عذاب الاستئصال، فكان تعذيبهم على تكذيب الرُّسل وبتقائهم على الشرك حجة قاطعة على عدم رضائنا بما هم عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: بعدما ثبت أن حججتكم ضعيفة ظنية ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ﴾ غيرها دليل يُفيد مرتبة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ برضا الله بما أنتم عليه من الشرك وسائر الأباطيل ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ وتظهروه ﴿لَنَا﴾ حتى نتبعه؟ ليس لكم ذلك، بل ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ فيما تدعون شيئاً ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الحاصل لكم من عدم صرف الله قلوبكم من الشرك، وعدم قهره إياكم على التوحيد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وتُخَمِّنُونَ، أو

تَكْذِبُونَ أَفَبِعِ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ.

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [١٤٩]

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتأكيد الحجة عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين: وإن ثبت أن حجتكم على صحة الشرك داحضة ﴿فَلِلَّهِ﴾ على توحده وعدم رضاه بالشرك ﴿الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ غاية المثانة والبيّنة الواضحة من تعذيبه المشركين، وآيات كتابه المقرونة بالإعجاز، والبراهين التي قررها رسله، وإنما وكلّكم إلى عقولكم وقدرتكم واختياركم لاقتضاء ذلك حكمته ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ بالإرادة التكوينية، وأقتضت حكمته إجباركم على الهداية والإيمان ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ البتة، وحملكم على الإيمان لا محالة، فلا يكون منكم ضال ولا مشرك.

عن الثمّي رحمه الله قال: «لو شاء لجعلكم كلّكم على أمر واحد، ولكن جعلكم على الاختلاف»^١.
عن الكاظم رحمه الله: «أن الله [على الناس] حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة: فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة: فالعقول»^٢.

وعن الصادق رحمه الله، شئ عن قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، فقال: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبيدي أكنّت عالماً؟ فإن قال: نعم، قال له: أفلا علمت [بما علمت]، وإن كان جاهلاً قال له: أفلا تعلمت حتّى تعمل، فيخصمه، فيلك الحجة البالغة»^٣.

وعنه رحمه الله: «الحجة البالغة التي تبلغ الجاهل من أهل الكتاب فيعلمها بجهله كما يعلمها العالم بعلمه»^٤.

قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ [١٥٠]

ثم أنه تعالى بعد إبطال دليل المشركين على صحة مفترياتهم وإنكار مشاهدتهم الله وسماعها منه، طالب منهم إحضار غيرهم ممن شاهده وسمع منه بقوله: ﴿قُلْ هَلْمْ﴾ أيها المشركون وأحضروا ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ وقادتكم ﴿الَّذِينَ﴾ ينصرون مذهبكم لأجل أنهم ﴿يَشْهَدُونَ﴾ عن علم وعيان ﴿أَنَّ

١. تفسير الفمي ١: ٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ١٦٨.

٢. الكافي ١: ١٢/١٣، تفسير الصافي ٢: ١٦٨.

٣. تفسير الصافي ٢: ١٦٩.

٤. أمالي الطوسي: ١٠/٩، تفسير الصافي ٢: ١٦٩.

٥. كذا، والظاهر: طالبهم بإحضار.

الله حَرَمَ هَذَا، الذي تدعون حُرْمته، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ على سبيل الفرض أن الله حَرَمَهُ ﴿فَلَا تَشْهَدُوا﴾ أنت ﴿مَعَهُمْ﴾ ولا تصدقهم؛ لأنهم كاذبون متبعون لهوى أنفسهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِنَا ﴿وَالَّذِينَ﴾ يُنْكِرُونَ الْبَيْتَ، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿وَالَّذِينَ﴾ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدُلُونَ غِيْرَهُ وَيُشْرِكُونَهُ خَلْقَهُ.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَاوِحَاشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٥١]

ثم لما أبطل قولهم بحرمة ما حرّمه من قِبَل أنفسهم، أمر سبحانه نبيّه ﷺ بدعوتهم إلى الإيمان بحرمة ما حرّمه الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لقومك المشركين: ﴿تَعَالَوْا﴾ وجئوا يا قوم ﴿أَتْلُ﴾ وأقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ وهو ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من الكواكب والأصنام وغيرهما. ثم أردف النهي عن الشُّرك بالنهي عن إيذاء الوالدين، لكونهما بعده تعالى أعظم نعمةً وحَقًّا بقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أحسنوا ﴿إِحْسَانًا﴾ عظيمًا. وإنما وُضِعَ وجوب الإحسان موضع تحريم الإساءة، للمبالغة في تحريمها، وللإشارة إلى عدم جواز الاكتفاء بترك الإساءة في شأنهما. عن القمي رحمه الله قال: «الوالدين رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما»^١.

﴿وَالَّذِينَ﴾ أن ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ بالدفن في الأرض ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ الإناث ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿إِمْلَاقٍ﴾ وقفر، أو من خشيته، فإنه ليس عليكم رزقهم، بل ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فكما أنه يجب عليكم الاتكال علينا في رزقكم، كذلك يجب عليكم الاتكال علينا في رزقهم؛ فلا تخافوا الفقر والعجز عن الإنفاق عليهم، ﴿وَالَّذِينَ﴾ أن ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ ولا تتركبوا ﴿أَلْفَاوِحَاشَ﴾ والأعمال الشديدة القباحة ككباثر الذنوب أو الزنا، سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وما يفعل علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وخفي منها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يكرهون الزنا علانية ويفعلون ذلك سرًّا، فنهاهم [الله] عن الزنا علانية وسرًّا^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «ما ظهر: هو الزنا، وما بطن: المخالعة»^٣.

١. تفسير القمي ١: ٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ١٦٩. ٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٣٣.

٣. مجمع البيان ٤: ٥٩٠، تفسير الصافي ٢: ١٦٩، والمخالعة: الصداقة.

وفي (الكافي): عن السجاد عليه السلام: «ما ظهر نكاح امرأة الأب، وما بطن: الزنا»^١.
ثم أنه تعالى بعد النهي عن تضييع حقوق الأصول وهم الوالدان، وحقوق الفروع وهم الأولاد، وحقوق نفسه من حفظها من ارتكاب الفواحش الموجبة لهلاك الأبد، نهى عن تضييع حقوق الناس بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها بأي علة من العلة ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي جعله الله من حكمه بوجوب قتلها في الحد، أو جوازه في القصاص.
عن النبي صلى الله عليه وآله: «لا يحل دم أمري مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق»^٢. وإنما خصه سبحانه بالذكر مع دخوله في عموم الفواحش، للإشعار بعظم شأنه.
ثم أكد سبحانه التواهي بالحق على أمثالها بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور من الأحكام مما ﴿وَصَّاكُمْ﴾ الله ﴿به﴾ وأمركم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وتفهمون منافع دينكم ودنياكم.
وإنما عبر عن الأمر بالمحافظة بلفظ الوصية، لما فيه من اللطف والرحمة حتى يكون المكلف أقرب إلى القبول والقيام إلى الطاعة.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [١٥٢]

ثم بين المحرم السادس بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تصرفوا فيه بخضلة من الخصال ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما يفعل به من حفظه وتسميته، أو أحسن من الترك كحفظه فقط، أو تجارة يكون غيرها أنفع، واستمروا على ذلك ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتم ﴿أَشُدَّهُ﴾ وقوته، وهو كناية عن جلمه ورشده.
عن الصادق عليه السلام: «انقطاع يتم اليتم الاختلام، وهو أشده، وإن اختلم ولم يؤنس منه رشده، وكان سفيهاً أو ضعيفاً، فليتمسك عنه وليله [ماله]»^٣.

عن أبي جعفر عليه السلام - في حديث - قال: «إن الجارية ليست مثل الغلام، إن الجارية إذا تزوجت ودخل بها ولها تسع [سنين]، ذهب عنها اليتيم، ودفع إليها مالها، وجاز أمرها في الشراء والبيع، وأقيمت عليها الحدود التامة، وأخذت لها بها» قال: «والغلام لا يجوز أمره في الشراء والبيع، ولا يخرج من اليتيم حتى يبلغ خمس عشرة سنة، أو يحتلم، أو يشعر، أو ثبت قبل ذلك»^٤.

١. الكافي ٥: ٥٦٧/٤٧، تفسير الصافي ٢: ١٦٩.

٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٣٣.

٣. من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٦٩/١٦٣، تفسير الصافي ٢: ١٧٠.

٤. الكافي ٧: ١١٩٨.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ في المكيلات ﴿وَالْوِزَانَ﴾ في الموزونات، وأكملوا الحق فيهما، حال كونكم متلبسين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل والتسوية، لا ينقص من عليه الحق منه شيئاً، ولا يطلب من له الحق زيادة عليه شيئاً، وإن كان اتباع العدل غيراً، فنحن ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ﴾ بعدل يكون ﴿وُسْعَهَا﴾ وميسورها، وأما معسورها فمعتق عنه لا تؤاخذ به.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو نحوهما ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه ولا تجوروا ولا تجاوزوا عن الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ منكم وصاحب رحم ﴿وَبَعْدَ أَفَى﴾ من تذوركهم وأيمانكم، وما أمركم به من ملازمة العدل والعمل بأحكامه ﴿أَوْفُوا﴾ واعملوا على نحو الكمال، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فصل لكم من الأحكام مِمَّا ﴿وَصَّائِكُمْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ وأمركم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه من الحسن والصلاح، وتعملون به.

قيل: إن النكتة في ختم الآية الأولى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾ كون التكاليف الخمسة التي فيها أموراً ظاهرة يكفي في العمل بها التعلل والفهم، وفي ختم هذه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كون التكاليف الأربعة التي فيها أموراً غامضة محتاجة إلى الاجتهاد والفكر حتى يقف المكلف على موضع الاعتدال^١.

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَلِكَمِمْ وَصَّائِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٥٣]

عن ابن عباس رضي الله عنه: هذه الآيات مُحْكَمَاتٌ لَمْ يَنْسَخْهُنَّ شَيْءٌ مِنْ جَمِيعِ الْكُتُبِ، مَنْ عَمِلَ بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ تَرَكَهُنَّ دَخَلَ النَّارَ^٢.

﴿وَوَاعِلَمُوا﴾ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ فِي السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ وَأَحْكَامِ الدِّينِ ﴿صِرَاطِي﴾ وَمَسْلَكِي وَشَرْعِي الْمَوْذِي إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، أَوْ إِلَى جَنَّتِي وَرِضْوَانِي، حَالُ كَوْنِهِ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ مُسْتَوِيًّا لَا عِوَجَ فِيهِ، إِذَنْ ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ، وَلَا تَعْدِلُوا عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الْمُتَفَرِّقَةَ وَالْمَذَاهِبَ الْمُخْتَلِفَةَ كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْعَمَلِ ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ وَتَبَاعَدَ ﴿بِكُمْ﴾ أَوْ أَمَا لَكُمْ^٣ ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الْحَقِّ وَدِينِهِ الْمَرْضِيِّ ﴿ذَلِكَمِمْ﴾ الْإِتِّبَاعُ مِمَّا ﴿وَصَّائِكُمْ﴾ اللَّهُ وَأَمْرُكُمْ ﴿بِهِ﴾ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الصَّلَاتِ.

٢. تفسير الرازي ١٤: ٣.

١. تفسير الرازي ١٣: ٢٣٦.

٣. كذا، والظاهر: تنباعد بكم أو تميلكم...

عن ابن مسعود رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه لما تلا هذه الآية خطَّ خطاً ثم قال: «هذا سبيل الرُّشد» أو «سبيل الله»، ثم خطَّ عن يمينه وشماله خطوطاً، ثم قال: «هذه سُبل، على كُلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه»^١.

عن النبي ﷺ، في هذه الآية: «سألت الله أن يجعلها لعليّ ففعل»^٢.
وفي (الاحتجاج): عنه ﷺ، في خطبة الغدير: «معاشر الناس، إن الله [قد] أمرني ونهاني، وقد أمرت علياً ونهيته فعلم الأمر والنهي من ربه، فاسمعوا لأمره تسلموا، وأطيعوه تهتدوا، وانتهوا لنهيته ترشدوا، وصيروا إلى مراده، ولا تتفرّق بكم السُّبل عن سبيله.
معاشر الناس، أنا الصراط المستقيم^٣ الذي أمركم باتباعه، ثم عليّ من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحقّ وبه يعدلون»^٤.

وعن الباقر عليه السلام، قال لبريد العجلي: «تدري ما يعني بـ ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾؟»، قال: قلت: لا، قال: «ولاية عليّ والأوصياء»، قال: «وتدري ما يعني ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؟»، قال: قلت: لا، قال: «يعني: عليّ بن أبي طالب». قال: «وتدري ما يعني ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؟»، قال: قلت: لا، قال: «ولاية فلان وفلان والله» قال: «وتدري ما يعني ﴿تَفْتَرَقْ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؟»، قال: قلت: لا، قال: «يعني سبيل عليّ»^٥.

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ [١٥٤]

ثم لما بين الله سبحانه وصاياه بجميع الأئمّ بالالتزام بالمحرّمات المفصلة في الآيات غير المتغيرة بتغيير الشرائع، منّ على الناس بتكميل شريعته لهم بالأحكام التي شرّعها في التّوراة المنزلّة على موسى عليه السلام بقوله: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ الْمُسَمَّى بالتّوراة، لأجل أن يكون ﴿تَمَامًا﴾ ومُكَمَّلًا للنعمة والكرامة ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ القيام به، واذى حقّ العمل بأحكامه، واجتهد في تبليغه كأننا من كان من الأنبياء والمؤمنين، ﴿وَلِيَكُونَ ﴿تَفْصِيلًا﴾ كافياً وبياناً وافياً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من العلوم والأحكام التي يحتاج إليها الناس، ومنها البشارة بنبوة خاتم الأنبياء وذكر علانته وتوحيده، ﴿وَلِيَكُونَ ﴿هَدًى﴾ من الضلالة ورشاداً إلى كُلِّ حقّ ﴿وَرَحْمَةً﴾ وتفصلاً عظيماً بالمؤمنين به، العاملين بأحكامه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بالنظر إلى ظهور قدرة الله وكَمال حكّمته في إنزال هذا الكتاب ﴿يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ﴾»

١. تفسير الرازي ١٤: ٣. ٢. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٧١.

٣. في المصدر: صراط الله المستقيم. ٤. الاحتجاج: ٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٧١.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٢٧/١٥٢٠، تفسير الصافي ٢: ١٧١.

والْحَشْرَ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ، أَوْ بِلِقَاءِ رَبِّهِ وَعِقَابِهِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بِهِ عَنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ، وَيُوقِنُونَ حَقَّ الْيَقِينِ.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى الْكِتَابِ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَخِرَ لِلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ [١٥٥-١٥٧]

ثُمَّ لَمَّا مَنَّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ بِإِتْمَامِ النِّعَةِ عَلَيْهِمْ بِإِنزَالِ التَّوْرَةِ، وَبَيِّنَ مَالَهَا مِنَ الْفَضَائِلِ، مَنْ عَلَىٰ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ وَبَنِي إِسْمَاعِيلَ وَغَيْرِهِمْ، وَاسْتَحْجَجَ عَلَيْهِمْ بِإِنزَالِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا﴾ الْقُرْآنُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴿كِتَابٌ﴾ كَرِيمٌ عَظِيمُ الشَّانِ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ مِنَ السَّمَاءِ إِلَيْكُمْ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ قَبْلِنَا لَا مِنْ قِبَلِ الرُّسُولِ كَمَا تَزْعُمُونَ، أَنَّهُ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كَثِيرُ النِّعَمِ لِدِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ. وَقِيلَ: يَعْنِي: ثَابِتٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ النَّسْخُ؛ كَمَا تَطَرَّقَ فِي الْكِتَابَيْنِ ١ ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وَاعْمَلُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَاتَّقُوا﴾ اللَّهَ فِي تَكْذِيبِهِ وَمُخَالَفَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بِاتِّبَاعِهِ وَاتِّقَاءِ مُخَالَفَتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ إِنْزَالُهُ عَلَيْكُمْ لِأَجْلِ كَرَاهَةِ ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْتِدَارًا مِنْ تَفَرُّكِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ وَاجْتِجَاعًا عَلَيْنَا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ كَانَتَيْنِ ﴿مِنْ قَبْلِنَا﴾ هُمَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ وَتِلَاوَتِهِمُ الْكِتَابَ ﴿لَغَافِلِينَ﴾ وَبِمَا فِيهِ جَاهِلِينَ، لَكُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ لَفْتِنَا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ قِرَاءَتِهِ وَفَهْمِهِ ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ نَا﴾ مِنَ السَّمَاءِ ﴿الْكِتَابَ﴾ الْعَرَبِيِّ كَمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ الْكِتَابَ الْعِبْرِيِّ ﴿لَكُنَّا﴾ بِسَبَبِ شِدَّةِ ذِكْرَانَا وَقُوَّةِ أَفْهَامِنَا ﴿أَهْدَىٰ﴾ وَأَرَشَدَ ﴿مِنْهُمْ﴾ إِلَىٰ كُلِّ حَقٍّ، أَوْ إِلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الْقُرْآنُ الَّذِي هُوَ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وَحُجَّةٌ وَاضِحَةٌ قَاطِعَةٌ لِلشُّكِّ، كَانَتْهُ ﴿مِنْ﴾ قِبَلِ ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللَّطِيفِ بِكُمْ ﴿وَهُدًى﴾ إِلَىٰ كُلِّ حَقٍّ، وَخَيْرٌ وَرَشَادٌ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عَظِيمَةٌ وَنِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، كَمَا كَانَتْ التَّوْرَةُ كَذَلِكَ.

قِيلَ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْبَيِّنَةِ وَالْهُدَى، أَنَّ الْبَيِّنَةَ الْوُضُوحُ فِيمَا يُعْلَمُ بِالسَّمْعِ، وَالْهُدَى الْوُضُوحُ فِيمَا يُعْلَمُ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ ٢.

ثُمَّ ذَمَّهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمُ الْقُرْآنَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وَأَضَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ﴿مِمَّنْ كَذَّبَ﴾

بآيَاتِ اللَّهِ، وَالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ فِي دَرَجَةِ الْإِعْجَازِ، مَعَ الْعِلْمِ بِهِ ﴿وَصَدَفَ﴾ وَأَعْرَضَ، أَوْ صَدَّ النَّاسَ ﴿عَنْهَا﴾ وَمَنْعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا.

ثُمَّ هَدَّاهُمْ بَعْدَ انْكَارِ كَوْنِ أَحَدٍ أَظْلَمَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿سَنَجْزِي﴾ فِي الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا الْكُفَّارَ ﴿الَّذِينَ يَصْدُقُونَ﴾ وَيُعْرَضُونَ، أَوْ يَصْدُونَ النَّاسَ ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ الْفَرِيقَةَ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وَأَشَدَّهُ ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَصْدُقُونَ﴾ النَّاسَ وَيُضِلُّونَهُمْ عَنِ الْحَقِّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ
يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ
كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [١٥٨]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ انْقِطَاعَ عَذْرِ الْكُفَّارِ فِي عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ بِتَوْحِيدِهِ وَرِسَالَةِ رَسُولِهِ بِسَبَبِ نُزُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بَلَّغْتَهُمْ، أَكَّدَ شَبَحَانَهُ ذَلِكَ بَيَّانَ أَنَّهُ لَا عَذْرَ لَهُمْ فِي عَدَمِ الْإِيمَانِ إِلَّا انْتِظَارُ وَقُوعِ أَحَدِ أُمُورِ كُلِّهَا مِنَ الْمَحَالَّاتِ، أَوْ بُلُوغِ وَقْتِ انْقِطَاعِ التَّكْلِيفِ، بِقَوْلِهِ انْكَاراً عَلَيْهِمْ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وَيَنْتَظِرُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ بِرِسَالَتِكَ وَصِحَّةِ دِينِكَ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مِنَ السَّمَاءِ بِصُورَتِهِمُ الْمَلَكِيَّةِ، يَشْهَدُونَ عَنْدهُمْ بِرِسَالَتِكَ، أَوِ الْمَلَائِكَةُ الْمُؤَكِّدُونَ عَلَى قَبْضِ الْأَرْوَاحِ ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ عَنْدهُمْ بِتَصَدِيقِكَ وَهُمْ يَشْهَدُونَ بِأَعْيُنِهِمْ، أَوْ بِالْعَذَابِ، أَوْ بِجَمِيعِ آيَاتِ الْقِيَامَةِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَالْهَلَاكِ الْكُلِّيِّ ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْقَاهِرَاتِ أَوْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.
عَنِ الصَّادِقِ (عليه السلام): «الآيَةُ الْمُنْتَظَرَةُ: الْقَانِمُ»^١.

مَعَ أَنَّهُ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ كَالدُّخَانِ، وَدَابَّةِ الْأَرْضِ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ الدَّجَالِ، وَغَيْرِهَا.

وَعَنْهُمْ (عليهم السلام): «أَنَّهُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا»^٢.

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ لَصِّرُورَتِهِ ضَرُورِيًّا لَهَا، وَلَكِنْ ذَلِكَ إِذَا ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ تِلْكَ النَّفْسُ ﴿آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ وَفِي حَالِ عَدَمِ مُعَايِنَةِ الْآخِرَةِ.

عَنِ الصَّادِقِ (عليه السلام): «يَعْنِي [فِي] الْمِيثَاقِ»^٣.

﴿أَوْ﴾ مَا ﴿كَسَبَتْ﴾ وَحَصَلَتْ ﴿فِي﴾ حَالِ ﴿إِيْمَانِهَا﴾ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿خَيْرًا﴾ وَعَمَلًا صَالِحًا.

٢. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ١٧٢.

١. كمال الدين: ٨/٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.

٣. الكافي ١: ٨١/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.

عن أحدهما عليه السلام، في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال: «المؤمن العاصي حالت بينه وبين إيمانه كثرة ذنوبه، وقلة حسناته، فلم يكسب في إيمانه خيراً»^١.

وعن الصادق عليه السلام، في حديث ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال: «الإقرار بالأنبياء والأوصياء وأمير المؤمنين خاصة» قال: «لا ينفع إيمانها لأنه شلب»^٢.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث خروج الدجال وقاتله، ودابة الأرض، وفي آخره: «ثم ترفع الدابة رأسها، فيراها من بين الخافقين بإذن الله جل جلاله، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها، فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة، ولا عمل يُرفع، ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» ثم فسر صعصعة راوي الحديث طلوع الشمس من مغربها بخروج القائم عليه السلام^٣.

ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله بتهديد المصريين على الكفر بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَنْتَظِرُونَ﴾ إتيان أحد الأمور الثلاثة ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مُتَنْظِرُونَ﴾ لذلك، وحينئذ لنا الفوز وعليكم الزيل بما حلّ بكم من سوء العاقبة.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [١٥٩]

ثم أنه تعالى بعد إتمام الحجة على المشركين بترول القرآن بلسان عربي مبين، ووعيدهم على تكذيبه، وتوبيخهم على الإصرار على الكفر، أمر النبي صلى الله عليه وآله بالتبري منهم وعدم التعرض لهم بالقتال، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَشَعَبُوا دِينَهُمْ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يُريد المشركين، بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله، وبعضهم يعبدون الأصنام ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله^٤.

وعن مجاهد: هم اليهود والنصارى، كُلٌّ مِنْهُمْ فَرَّقُوا فِرْقاً، وكفر بعضهم بعضاً^٥.

وقيل: هم أهل البدع من هذه الأمة^٦، [وقد] روي عن الباقر عليه السلام^٧.

﴿وَكَانُوا شِعَاعاً﴾ وأحزاباً في الصلاة، أو كانوا أتباعاً لأنمة الضلال، كُلُّ فِرْقَةٍ تَشَاعٍ^٨ إماماً.

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٢٥/١٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.

٢. الكافي ١: ٨١/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٧.

٤. مجمع البيان ٤: ٦٠٠، تفسير الصافي ٢: ١٧٤.

٥. تفسير الرازي ١٤: ٨.

٦. في النسخة: شافع.

٧. كمال الدين: ١/٥٢٧، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.

٨. تفسير الرازي ١٤: ٨.

وَالْقَمِي [قال]: فارقوا أمير المؤمنين ﷺ، وصاروا أحزاباً^١.

﴿لَسْتُ مِنْهُمْ﴾ ومن السؤال عن تفرقهم وعقائدهم، أو من قتالهم^٢، أو من عقابهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ وقيل: يعني: أنت برئ منهم^٣، أو على التباعّد التام من الاجتماع معهم في شيء من مذاهبهم الفاسدة^٤ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ﴾ في الإهمال والإهلاك في الدنيا، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه راجع ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا إليك ولا إلى غيرك ﴿ثُمَّ يَنْبُئُهُمْ﴾ ويخبرهم يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من المعاصي والقبائح بأن يعاقبهم على رؤوس الأشهاد.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا
وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ [١٦٠]

ثم أعلن سبحانه بكمال فضله على المحسنين، وغاية عدله في عقاب العاصين بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ﴾ وأتى من المؤمنين يوم القيامة ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ من الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَهُ﴾ من الثواب ﴿عَشْرُ﴾ حسنات ﴿أَمْثَالِهَا﴾ تفضلاً من الله تعالى. وقيل: إن العشر كناية عن مطلق الإضعاف^٥.

﴿وَمَنْ جَاءَ﴾ وأتى في ذلك اليوم ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ والفيلة القبيحة ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ الجاني بها ﴿إِلَّا﴾ سيئة ﴿مِثْلُهَا﴾ عدلاً منه تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ بزيادة العقاب.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِبْلِيسَ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ، قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ سَلِّطْهُ عَلَيَّ وَلَدِي، وَأَجْرِيئَهُ فِيهِمْ مَجْرَى الدَّمِّ فِي الْعُرُوقِ، وَأَعْطَيْتَهُ مَا أَعْطَيْتَهُ، فَمَا لِي وَلَوْلَدِي؟ فَقَالَ: لَكَ وَلَوْلَدُكَ السَّيِّئَةُ بَوَّاحِدَةٍ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، قَالَ: رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسَ الْحَلُوقَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: أَغْفِرْ وَلَا أَبَالِي، قَالَ: حَسْبِيَ»^٦.

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٦١]

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد، وإبطال مذهب الشرك وأباطيل أهل الجاهلية، أمر نبيه ﷺ بإعلان الناس بأن توحيده في الربوبية مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، والدِّينُ الْقَوِيمُ، والصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين الزاعمين أنهم على الدِّينِ الْحَقِّ: ﴿إِنِّي هَدَانِي رَبِّي﴾ وأرشدني ﴿رَبِّي﴾ بلطفه ﴿إِلَى

١. تفسير القمي ١: ٢٢٢، تفسير الصافي ٢: ١٧٤.
٢. في النسخة: قبaleهم.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٨.
٤. تفسير الصافي ٢: ١٧٥.
٥. تفسير الرازي ١٤: ٩.
٦. تفسير القمي ١: ٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٧٦.

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ إِلَى قُرْبِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَوْحَى إِلَيَّ ﴿ دِينًا قَيِّمًا ﴾ قَوِيماً، كَانَ هُوَ ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ حَالَ كونه ﷺ ﴿ حَنِيفًا ﴾ وَمَانِعًا عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ، أَوْ حَالَ كَوْنِ مِلَّتِهِ حَنِيفِيَّةً ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ إِبْرَاهِيمَ ﴿ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وَفِيهِ رَدٌّ [عَلَى] مَا دَعَا مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ.

قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [١٦٢ و ١٦٣]

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْإِعْلَانِ بِتَوْحِيدِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَتَمَحُّصِهِ فِي الْخُلُوصِ لَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَخُضُوعِي ﴿ وَنُسُكِي ﴾ وَعِبَادَاتِي كُلُّهَا، أَوْ قُرْبَانِي. وَقِيلَ: إِنَّ الصَّلَاةَ: صَلَاةَ الْعِيدِ، وَالتَّسْلُكُ: الْأَضْحِيَّةُ ١.

﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ وَحَيَاتِي وَمَوْتِي، أَوْ مَا أَنَا عَلَيْهِ فِي حَيَاتِي وَمَا أَكُونُ عَلَيْهِ عِنْدَ مَوْتِي مِنْ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، خَالِصَةً ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَحَدَهُ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ فِيهَا، ﴿ وَبِذَلِكَ ﴾ التَّوْحِيدُ أَوْ الْإِخْلَاصُ ﴿ أُمِرْتُ ﴾ مِنْ جَانِبِ رَبِّي ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَالْمُقَادِينَ لِعِبَادَتِهِ فِي عَالَمِ الدَّرِّ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَجَابَ، أَوْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لِأَنَّ إِسْلَامَ النَّبِيِّ قَبْلَ إِسْلَامِ أُمَّتِهِ.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [١٦٤]

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُبَالِغَ فِي التِّزَامِ بِالتَّوْحِيدِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ بِإِظْهَارِ غَايَةِ قَبَاحَةِ الشُّرْكِ مِنْ نَفْسِهِ، وَإِنْكَارِهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ قِيَامِ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى وَجُوبِ التَّوْحِيدِ بِقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا ﴿ أَبِغِي ﴾ وَأَطْلُبْ لِنَفْسِي ﴿ رَبًّا وَهُوَ ﴾ تَعَالَى ﴿ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، بِاغْتِرَافِ جَمِيعِ الْفِرَقِ، وَبِحُكْمِ الْعَقْلِ الْقَطْعِيِّ لِبِدَاهَةِ وَجُوبِ انْتِهَاءِ وَجُودِ التَّمَكُّنِ إِلَى الْوَاجِبِ، وَاسْتِنَاعِ تَعُدُّدِهِ، وَكَوْنِ التَّمَكُّنِ شَرِيكًا لَهُ.

ثُمَّ نَبِّهَهُمْ عَلَى أَنَّ ضَرَرَ الشُّرْكِ وَعِقَابَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ مِنَ الْأَنْفُسِ ضَرَرًا ﴿ إِلَّا ﴾ كَانَ ذَلِكَ الضَّرَرُ ﴿ عَلَيْهَا ﴾ لَا يَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ وَلَا تَحْتَمِلُ نَفْسٌ ﴿ وَازِرَةً ﴾ وَحَامِلَةً الْمَعْصِيَةِ ﴿ وَوزَرَ ﴾ نَفْسٍ ﴿ أُخْرَى ﴾ وَجَمَلَهَا وَعَقُوبَتَهَا.

وفيه ردٌّ على المشركين القائلين للمؤمنين: ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ٢.

﴿ثُمَّ﴾ أنتم بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، ومليكم، وإلى حكمه ومحضر عدله ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم يومئذ ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الرشد والغبى، والحق والباطل، بإعطاء الثواب العظيم للمحقين، والحكم بالعقاب الشديد للمبطلين.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُتُوْرٌ رَّحِيمٌ [١٦٥]

ثم أنه تعالى لما بدأ في السورة المباركة ببيان كمال قدرته وحكمته وألوهيته في عالم الوجود، ختمها ببيان كمال ميته ورافته وفوره نعمه، وشدة عقابه وسعة رحمته بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ الله القادر ﴿الَّذِي﴾ خلقكم ومن عليكم بأن ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ وساكنها بعد بني الجان، أو بعد فناء الأمم الماضية، أو خلفاء نفسه في الأرض تصرفون فيها كتصرف الملوك في أملاكهم، وتتفنون بها وبما خلق فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ في القوي الجسمانية، والعقل والعلم، والشرف والمال، وغيرها من الكمالات الوجودية والسعادات الدنيوية والأخروية ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ آخر، وفصل كلاً منكم في الصفات الخلقية، والمحاسن الخلقية على الآخر بجوده ورافته إلى ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة متفاوتة، لا للجهل والقرابة أو غيرهما من الدواعي النفسانية، بل ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويُعاملكم مُعاملة المُمتحن لطاعتكم وعصيانكم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ وجعل عليكم من التكاليف والأحكام.

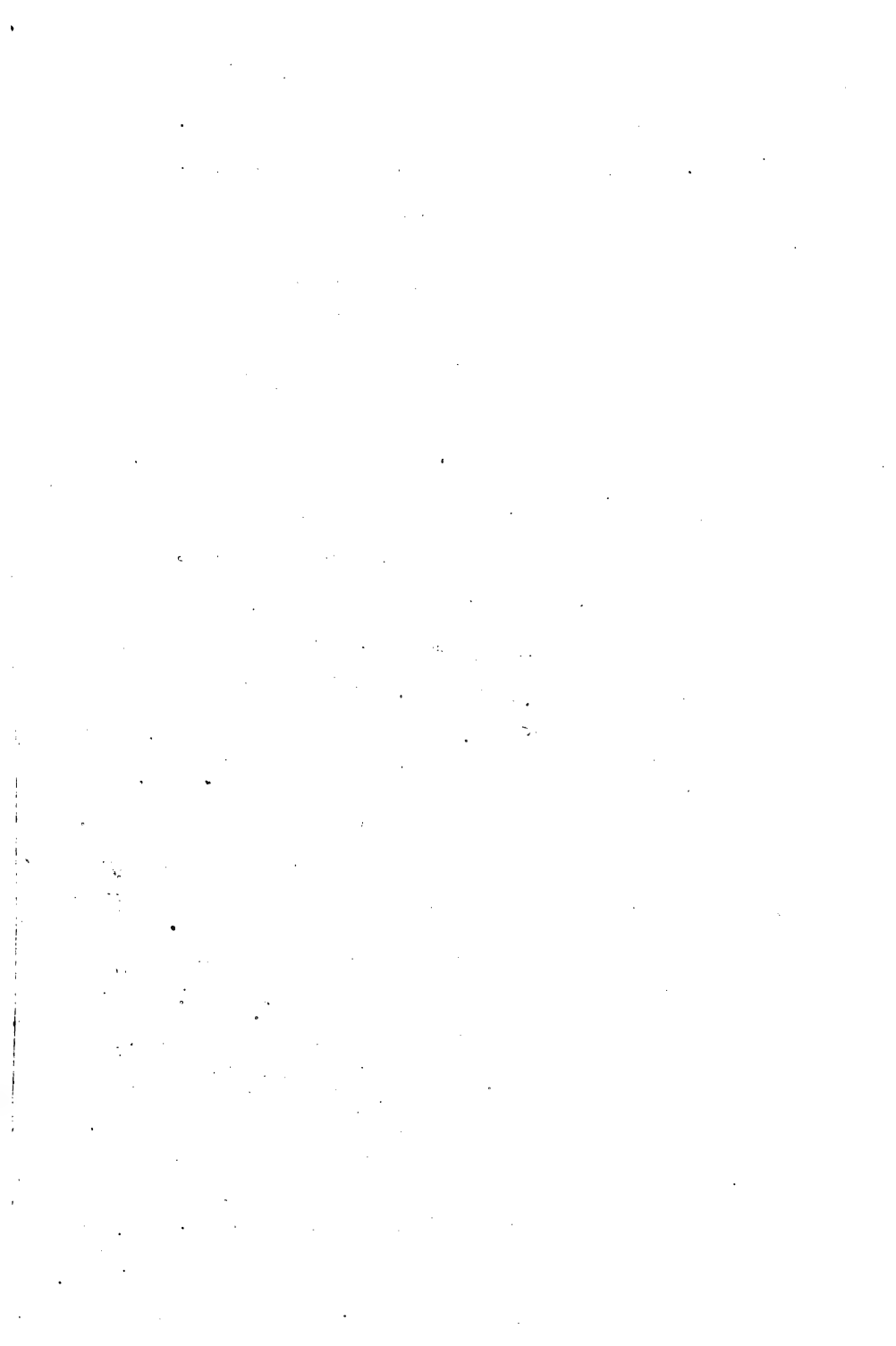
ثم هدّد سبحانه على عصيانه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ في الآخرة على عصيانه ومخالفة أحكامه، ثم رغب في طاعته بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفُتُوْرٌ﴾ للذنوب، وستار للمعاصي بفضلته وكرمه البتة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده المطيعين له بإفاضة نعمه الجسيمة عليهم في الدنيا والآخرة لا محالة.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً، شِيعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَعَظَّمُوهَا وَجَلُّوهَا، فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا فِي سَبْعِينَ مَوْضِعاً، وَلَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَتِهَا مَا تَرَكُوهَا»^١.

وعن الرضا عليه السلام: «نَزَلَتْ الْأَنْعَامُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، شِيعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَهُمْ رَجُلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، فَمَنْ قَرَأَهَا سَبَّحَا لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^٢.

١. الكافي ٢: ١٢/٤٥٥، ثواب الأعمال: ١٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٨.

٢. تفسير القمي ١: ١٩٣، تفسير الصافي ٢: ١٧٨.



في تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصّ * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ [١ و ٢]

ثم لما ختم الله سورة الأنعام - المشتملة على ردّ المشركين وإبطال بدعهم - بالوعيد بالعقاب السريع ووعد المؤمنين بسعة رحمته وغفرانه، أردفها بسورة الأعراف المتضمنة للردّ على المشركين، وتهديدهم بالعقوبات النازلة في الدنيا على الأمم الذين كانوا يمثلهم في الكفر والطغيان ومعارضة الأنبياء العظام، وتوعيدهم بالعقوبات الشديدة في الآخرة، ولمدح المؤمنين بالنصرة والإكرام في الدنيا، والقوز بالنعم الدائمة في الآخرة.

فافتتحها شبحانه - على دأبه الجاري في الكتاب الكريم - بأسمائه المباركة تيمناً وتعليماً للعباد، ليتبركوا بذكرها عند الشروع في كل أمر ذي بال بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد مرّ تفسيره. ثم ابتدأ فيها بذكر الحروف المقطّعات بقوله: ﴿الْمَصّ﴾ توجيهاً للقلوب إلى ما بعدها من المطالب المهمة، وإرمائاً من إسمائه الحسنى، وإيماءً إلى العلوم الكثيرة التي يستنبطها الراسخون في العلم منها.

عن الصادق عليه السلام، في حديث قال: «و ﴿المصّ﴾ أنا الله المتقدر الصادق»^١.

وعن العياشي عنه عليه السلام أنّه أتاه رجل من بني أمية، وكان زنديقاً، فقال له: قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿الْمَصّ﴾ أي شيء أراد بهذا؟ وأي شيء فيه من الحلال والحرام؟ وأي شيء فيه مما يتفيع به الناس؟ قال: فاغتاظ عليه السلام من ذلك فقال: «أَمْسِكْ وَنَحْكُ، الألف: واحد، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، والصاد: تسعون، كم معك؟» فقال الرجل: مائة واحد وستون، فقال: «إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة فينقضي ملك أصحابك»، قال: فنظر، فلما انقضت سنة إحدى وستين ومائة يوم

عاشوراء دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم^١.

وقيل: إن (المص) اسم للكتاب العزيز، وقيل: اسم للسورة^٢. وكلا القولين مبنيان على الاجتهاد الذي لا اعتماد عليه.

ثم بين سبحانه أهم المطالب، وهو صدق الكتاب العزيز الدال على صدق النبوة بقوله: ﴿كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّانِ، كَافٍ لِإِبْثَابِ بُرُوتِكَ يَا مُحَمَّدَ، شَاهِدٌ صِدْقِي عَلَى صِدْقِكَ، وَافٍ بِجَمِيعِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَمْتًا﴾ **﴿أُنزِلَ﴾** من جانب الله بتوسط أمين وحيه **﴿إِلَيْكَ﴾** تفضلاً منه عليك، فإذا علمت ذلك **﴿فَلَا يَكُنْ﴾** ولا يوجد **﴿فِي صَدْرِكَ﴾** وقلبك **﴿حَرَجٌ﴾** وضيق **﴿مِنْهُ﴾**، من جهة الخوف من التكذيب في تبليغه.

قيل: إنه ﷺ كان يخاف تكذيب قومه وإعراضهم من قبول قوله وأذاهم، فكان يضيق صدره في الأداء، فأمنه الله تعالى بهذه الآية^٣.

أو بسبب الشك في أنه نازل من الله **﴿لِتُنْزِرَ﴾** الناس وتخوفهم من سخطه وعذابه على الشرك والعصيان **﴿بِهِ﴾** وبآياته **﴿وَلَا يَكُونُ هَذَا الْكِتَابُ ذِكْرًا﴾** وعظة **﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** به.

آتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ [٣]

ثم أنه تعالى بعد شهادته بصدق القرآن الذي هو دليل على صدق نبيه ﷺ، وأمره رشوله بتبليغه وعدم المبالاة بتكذيب قومه، أمر الناس باتباعه والعمل بكياجه، ودعاهم بذاته المقدسة إليه بقوله: **﴿اتَّبِعُوا﴾** أيها الناس، ولازموا في عقائدهم وأعمالكم **﴿مَا أُنزِلَ﴾** بتوسط محمد ﷺ **﴿إِلَيْكُمْ﴾** جميعاً **﴿مِنْ﴾** قِبَل **﴿رَبِّكُمْ﴾** اللطيف بكم، المراعي لصلاحكم، من القرآن الجامع لجميع المعارف والأحكام.

ثم بعد أمرهم بالمعروف نهاهم عن الشرك الذي هو أعظم المنكرات بقوله: **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾** يا غواة الشياطين شيئاً من خلق الله، ولا تتخذوا **﴿مِنْ دُونِهِ﴾** ومما سواه من الكواكب والأصنام وغيرها

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٤٤/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٩. قوله ﷺ: «إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة...» استظهر صحتها العلامة المجلسي في بحار الأنوار ١٠: ١٦٤، حسب ترتيب الأبجدية عند المغاربة «أبجد، هوز، حطي، كلمن، صفض، قرست، تخذ، ظفش» فالصاد المهملة عندهم ستون، والصاد المعجمة تسعون، فحينئذ يستقيم ما في أكثر النسخ في عدد المجموع، ولعل الاشتباه في قوله: والصاد تسعون من النسخ، لظنهم أنه مبني على المشهور، وبذلك يصح المجموع المذكور ويطابق سنة انهيار وسقوط دولة بني أمية، أي سنة ١٣١ هـ.

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٣٤.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٣٣.

﴿أُولَئِكَ﴾ وآلهة محبوبين، فاذكروا ما ينفعكم، واتعظوا بمواعظ الله، ولكن زماناً أو تذكراً واتعظاً ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ وفي غاية القلة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعضون، لشدة قساوة قلوبكم، وغلبة شهواتكم. ويمكن أن يكون توصيف تذكركم بالقلة بملاحظة قلة المتذكرين.

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [٥ و ٤]

ثم لما كان التخويف بعذاب الاستئصال في الدنيا أوردع لهم من الكفر والقبائح، شرع سبحانه في تهديد المشركين على شركهم وعدم اتعابهم واتباعهم لكتاب الله، ومعارضتهم الرسول وتكذيبه بما نزل على الأمم الماضية - المعارضين للرسل، التابعين للشياطين - من عذاب الاستئصال في الدنيا بقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى، وكثيراً من بلدة من البلاد ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ وأردنا إفناء أهلها عقوبة على شركهم وإصرارهم على الكفر، ومعارضة الأنبياء، واتباعهم في الشهوات، وتعرضهم على قبائح الأعمال.

ثم بين سبحانه كيفية إهلاكهم بقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ وقرب منها عذابنا، إما ﴿بَيَاتًا﴾ وليلاً وهم مستريحون غافلون عنه، تقوم لوط ﴿أَوْ﴾ نهاراً وهم قائلون ﴿نَافِلُونَ﴾ نائمون غير متوقفين شوءاً ومكروهاً، تقوم شعيب، أهلكوا في وسط النهار وهم قائلون. فلا يغتر هؤلاء الكفرة بحال الأمن والراحة، فإن عذاب الله يقع دفعةً وبغتة.

قيل: إن ذكر نزول العذاب في الوقتين، لاختصاصهما بالراحة، وعدم توقع العذاب فيهما، ولذا كان أشد، كما أن النعمة غير المرتقة الذل.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ وتضرعهم، كما عن ابن عباس^١ ﴿إِذَا جَاءَهُمْ﴾ ونزل عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابنا شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ اعترافاً باستحقاقهم له وندامة على شركهم وطغيانهم: يا ويلنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ من قبل ﴿ظَالِمِينَ﴾ باختيار الشرك، وارتكاب السيئات.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُرَنَّ عَنْهُمْ يَوْمَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ (٦ و ٧)

ثم هذّدهم الله بأهوال يوم القيامة بقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ توبيخاً وتقريعاً كافة الأمم ﴿الَّذِينَ أُزِيلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرُّسُلَ، عما أجابوهم بعد دَعْوَتِهِمْ إلى الهدى ودين الحقِّ، ونقول: ماذا أجبتُمُ الرُّسُلِينَ؟ ﴿وَوَاللَّهِ﴾ ﴿لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تأدية الرُّسَالَةِ، وعما أجيبوا به مَنْ رَدُّ وتكذيب، أو قبول وطاعة، فيقولون تشكيّاً مِنْ أَمَمِهِمْ: لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «في مقام الرُّسُلِ فيُسألَنَّ عن تأدية الرُّسَالَاتِ التي حملوها إلى أَمَمِهِمْ، فيُخبرون أنهم قد أدّوا ذلك إلى أَمَمِهِمْ، وتُسألُ الأَمَمُ فيجحدون، كما قال الله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ الآية». وفائدة هذا السؤال تَضْعِيفُ الإِكْرَامِ للرُّسُلِ، والإِهَانَةُ والفَضِيحَةُ للكُفَّارِ.

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ ولِنُبَيِّنُ لَهُمْ^٢ جميعاً جميع ما صدر عنهم من التَّبْلِغِ والإنكار والمُعَارَضَةِ ﴿بِعِلْمٍ﴾ كامل مِنَّا بظواهرهم وبواطنهم، لأنَّا كُنَّا شاهدين عليهم، مُطَّلِعِينَ عَلَى خَفَايَاهُمْ ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم في حالٍ مِنَ الأحوال، ولا غافلين عن أعمالهم وأحوالهم في آنٍ مِنَ الآنَاتِ.

وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ [٨ و ٩]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المشركين بالسؤال عنهم^٤ يوم القيامة، هذّدهم بوزن الأعمال وعقائدهم بقوله: ﴿وَالْوَزْنَ﴾ لأعمال النَّاسِ وعقائدهم: تَعْيِينَ رَاجِحِهَا وَمَرْجُوحِهَا، وَجِدِّهَا وَرَدِّيْهَا ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ بحيث لا مَجَالَ لِلرَّيْبِ فِيهِ.

في بيان الوجوه إنما الكلام في الميزان والموزون. أما الأول: فمُجْمَلُ القول فيه أن الميزان في القيامة جِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، أما الجِسِّيُّ: فالْحَقُّ أَنَّهُ يُنْصَبُ ميزان له عَمُود وَكِفَّتَانِ، في بعض

الروايات العامة: طُولُ عَمُودِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، وإحدى كِفَّتَيْهِ من نور فيوضع فيها

الحَسَنَاتِ، والأُخْرَى مِنْ الظُّلْمَةِ يوضع فيها السَّيِّئَاتِ^٥.

وعن ابن عباس عليه السلام: أَنَّهُ تَعَالَى يُنْصَبُ ميزاناً له لِسَانٌ وَكِفَّتَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُوزَنُ بِهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا^٦.

وعن عبدالله بن سلام: أَنَّهُ مِيزَانُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [يُنْصَبُ] بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، يُسْتَقْبَلُ بِهِ الْعَرْشُ، إِحْدَى كِفَّتَيْهِ الْمِيزَانُ عَلَى الْجَنَّةِ، والأُخْرَى عَلَى جَهَنَّمَ، وَلَوْ وُضِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي إِحْدَاهُمَا

٣. كَذَا، والظاهر: ولننبئَنَّهُمْ.

٢. أي مضاعفة.

١. الاحتجاج: ٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٨٠.

٥. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.

٤. كَذَا، والظاهر: بسؤالهم.

٦. تفسير الرازي ١٤: ٢٤.

لَوْ سِغَتْهُمْ، وَجَبْرِئِلَ أَخَذَ بِعَمُودِهِ يَنْظُرُ إِلَى لِسَانِهِ^١. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ.

وَأَمَّا الْمَعْنَوِي: فَهُوَ النَّبِيُّ وَالْوَصِيُّ وَالذِّينَ، فَمِيزَانُ أَعْمَالِ كُلِّ أُمَّةٍ نَبِيِّهَا وَشَرِيعَتُهَا الَّتِي أَنْبَأَ بِهَا.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّهُ سَثَلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقُنُطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^٢، قَالَ: «هُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ»^٣.

وَفِي رِوَايَةٍ: هُمُ الْمَوَازِينُ^٤.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْعَامَّةِ: أَنَّهُ الْعَدْلُ وَالْقَضَاءُ^٥. وَأَنْكَرُوا الْمِيزَانَ الْحَسَنِيَّ، وَاسْتَدِلَّ لِقَوْلِهِمْ بِأَنَّ الْمِيزَانَ مَا يُعْرِفُ بِهِ مِقْدَارَ الشَّيْءِ، وَمَقَادِيرُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهَا بِالْمِيزَانِ، وَأَمَّا نَفْسُ الْأَعْمَالِ فَغَيْرُ قَابِلَةٍ لِلْوِزْنِ؛ لِأَنَّهَا أَعْرَاضٌ قَدْ فَنِيَتْ، وَوَزَنَ الْمَعْدُومُ مُحَالٌ، وَعَلَى تَقْدِيرِ بَقَائِهَا كَانَ وَزْنُهَا مُحَالًا.

وَعَنِ (الْإِحْتِجَاجِ): عَنْهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّهُ سَثَلَ أَوْ لَيْسَ تَوْزَنُ الْأَعْمَالُ؟ قَالَ: «لَا، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ لَيْسَتْ أَجْسَامًا، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَةٌ مَا عَمِلُوا، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى وَزْنِ الشَّيْءِ مَنْ جَهَلَ عَدَدَ الْأَشْيَاءِ وَلَا يَعْرِفُ ثِقَلَهَا وَخِفَتَهَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ». قِيلَ: فَمَا مَعْنَى الْمِيزَانِ؟ قَالَ: «الْعَدْلُ». قِيلَ: فَمَا مَعْنَاهُ فِي كِتَابِهِ؟ «فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ؟» قَالَ: «فَمَنْ رَجَحَ عَمَلُهُ»^٦.

أَقُولُ: بِنَاءٌ عَلَى مَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ تَجَسُّمِ الْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمْكَانِ تَأْثِيرِ حُسْنِ الْعَمَلِ ثِقَلًا فِيهِ، وَكَوْنِ الْحِكْمَةِ فِي الْوِزْنِ تَهْوِيلِ الْعَاصِي وَتَقْضِيحَةِ، وَتَبْشِيرِ الْمُطِيعِ وَازْدِيَادِ فَرَحِهِ، وَإِظْهَارِ غَايَةِ الْعَدْلِ. فِي الرِّوَايَةِ وَجُودُ مِنَ الْإِشْكَالِ، فَلَا بَدَّ مِنْ تَأْوِيلِهَا إِنْ أُمِكنَ، وَإِلَّا فَطَرَحَهَا أَوْ حَمَلَهَا عَلَى التَّقْيَةِ.

وَأَمَّا الْمَوَزُونُ، فَهُوَ نَفْسُ الْأَعْمَالِ وَمَا يَنْتَهِي إِلَى اخْتِيَارِ الْعِبَادِ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُتَوَى بِعَمَلِهِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَيُؤْضَعُ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، فَتَنْقَلُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ^٧.

وَقِيلَ: الْمَوَزُونُ صَحَائِفُ^٨.

عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ سَثَلَ عَمَّا يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: «الصُّحُفُ»^٩.

٢. الْأَنْبِيَاءُ: ٤٧/٢١.

١. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٤: ٢٥.

٤. بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٧١: ٢٢٦.

٣. الْكَافِي ١: ٣٦/٣٦٦، مَعَانِي الْأَخْبَارِ: ١/٣١، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٢: ١٨١.

٦. أَيُّ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ).

٥. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٤: ٢٥.

٨. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٤: ٢٤.

٧. الْإِحْتِجَاجُ: ٣٥١، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٢: ١٨١.

١٠. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٤: ٢٥.

٩. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٤: ٢٥.

وعنه عليه السلام قال: «يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْمِيزَانِ، وَيُؤْتَى لَهُ بِسَعَةِ وَتُسَمِّنُ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مِنْهَا مَدَّ الْبَصَرِ، فِيهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ، فَيُوضَعُ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، ثُمَّ يُخْرَجُ لَهُ قِرْطَاسٌ كَالْأَنْمَلَةِ فِيهِ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يُوضَعُ فِي الْأُخْرَى فَيُفْرَجُ»^١.

وقيل: إِنَّ الْمَوْزُونَ بِالْمِيزَانِ الْحَسِيِّ هُوَ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ دُونَ أَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ؛ كَالْعَقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّهُ يُقَامُ لَهَا الْمِيزَانُ الْمَعْنَوِي وَهُوَ الْعَدْلُ، فَالْحَسِيُّ لِلْحَسِيِّ، وَالْمَعْنَوِي لِلْمَعْنَوِي.

وقيل: يُوزَنُ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ^٢، فَيُظْهِرُ بِالْمِيزَانِ عِظَمَ قَدْرِ الْأَوَّلِ وَذُلَّ الثَّانِي وَمَهَانَتِهِ. رُوي أَنَّهُ يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ الطَّوِيلِ الْأَكُولِ الشُّرُوبِ فَيُوزَنُ، فَلَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ^٣. وقيل: إِنَّ الْوَزْنَ لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالصَّدَقِ وَأَصْحَابِ الْبِرِّ، دُونَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ لَا وَزْنَ لِلْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ.

عن السَّجَّاد عليه السلام - في حديثٍ -: «اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ أَهْلَ الشُّرْكِ لَا يُنْصَبُ لَهُمُ الْمَوَازِينُ، وَلَا يُنْشَرُ لَهُمُ الدَّوَاوِينُ، وَإِنَّمَا يُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا، وَإِنَّمَا تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ»^٤.

أقول: يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^٥، وَبِمَكْنِ حَمَلِ آيَةِ وَالرَّوَايَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُنْصَبُ لَهُمُ الْمِيزَانُ لِتَعْيِينِ وَزْنِ حَسَنَاتِهِمْ وَمِقْدَارِ ثَوَابِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَيِّئَاتِهِمْ، لِحَبْطِ حَسَنَاتِهِمْ. وَأَمَّا تَعْيِينُ مِقْدَارِ عَظَمَةِ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَنْظَارِ النَّاسِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَصْبِ الْمِيزَانِ.

وقيل: إِنَّ وَزْنَ الْأَعْمَالِ يَكُونُ بَعْدَ الْحِسَابِ؛ لِأَنَّ الْحِسَابَ لِتَقْرِيرِ الْأَعْمَالِ، وَالْوَزْنَ لِإِظْهَارِ مَقَادِيرِهَا؛ لِيَكُونَ الْجَزَاءُ بِحَسَبِهَا، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا.

وعلى أَيِّ تَقْدِيرٍ «فَمَنْ ثَقُلَتْ» وَرَجَحَتْ «مَوَازِينُهُ» بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْحَسَنَاتِ، أَوْ عِظَمِ قَدْرِهَا «فَأُولَئِكَ» الْمُؤْمِنُونَ الْمُحْسِنُونَ «هُمْ» بِالْخُصُوصِ «الْمُفْلِحُونَ» وَالتَّاجُونَ فِي الْآخِرَةِ، الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ وَالْكَرَامَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

رُوي أَنَّ دَاوُدَ عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ الْمِيزَانَ الَّذِي يُنْصَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَرَأَى كُلَّ كِفَّةٍ مِلءًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَغَشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: إِلَهِي مَنْ يَقْدُرُ أَنْ يَمْلَأَ كِفَّتَهُ بِالْحَسَنَاتِ؟ فَقَالَ اللَّهُ

تعالى: يا داود، إذا رضيت عن عبدي ملائمتها بتمرّة من صدقة^١.

عن النبي ﷺ: «ما وضع في الميزان أثقل من حسن الخلق»^٢.

﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بكثرة السيئات، أو شدة قبحها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ خفاف الموازين هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ في الدنيا وغبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بأن ضيعوا فطرتهم السليمة التي هي بمنزلة رأس مالهم في سوق الدنيا ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فيها ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا في الألوهية، وكمال الصفات والمعجزات الشاهدة على صدق نبينا، والبراهين الواضحة على وجوب طاعة أوليانا ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وحقها يضيعون، حيث إن حقها أن يصدقوها، وهم يكذبون.

قيل: إنما قال الله: ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بصيغة الجمع، لأن كل عبد ينصب له موازين بالقسط تناسب حالاته، فلبدنه ميزان توزن به أوصافه، ولروحه ميزان توزن به ثبوته، ولسره ميزان توزن به أحواله، ولخفيه ميزان توزن به أخلاقه^٣.

وقيل: إن لأفعال القلوب ميزاناً، ولأفعال الجوارح ميزان، وللأقوال ميزان^٤.

وعن الزجاج: أنه قد يطلق الجمع على الواحد، كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال^٥.

وقيل: إن الموازين جمع موزون^٦.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنما يعني الحساب^٧، توزن الحسنات والسيئات، والحسنات ثقل الميزان، والسيئات خفة الميزان»^٨.

وعنه عليه السلام: «هي قلة الحسنات وكثرتها»^٩.

وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [١٠]

ثم أنه تعالى بعد زجر الناس عن متابعة الشياطين وعبادة الأصنام، بتخفيفهم من العذاب الدنيوي والأخروي، شرع سبحانه في ترغيبهم إلى اتباع ذاته المقدسة بتذكيرهم بنعمه العظام بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ﴾ وأسكناكم أيها الناس ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أو أقدرناكم على التصرف فيها بالسكونة^{١٠} والزرع وغيرهما من وجوه الانتفاعات ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأوجدنا ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما به بقاؤكم وتقوم أموركم من المطاعم والمشارب والملابس والمناجح، وما به تحصلون الخيرات الدنيوية والأخروية،

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٢٦.

٨. التوحيد: ٥/٢٦٨، تفسير الصافي ٢: ١٨١.

١٠. كذا، والظاهر: بالسكن، أو الشكنى.

١. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.

٧. في النسخة: يعني إنما الحسنات.

٩. تفسير الصافي ٢: ١٨١.

ومَعَ ذَلِكَ ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ تِلْكَ النِّعَمُ الْعَظَامُ. وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^١.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا
خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ
تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ [١١-١٣]

ثُمَّ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى عَدَمِ انْحِصَارِ نِعَمِهِ بِالْمُتَكَبِّرِينَ فِي الْأَرْضِ وَخَلَقَ مَا يَعِيشُونَ بِهِ، بَلْ أَصْلُ الْوُجُودِ
الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ النِّعَمِ مِنْهُ تَعَالَى، يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ وَأَخْرَجْنَاكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، مَبْتَدَأًا
بِخَلْقِ أَبِيكَ آدَمَ مِنْ طِينٍ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بِأَحْسَنِ صُورَةٍ بَعْدَ خَلْقِ آدَمَ وَتَصْوِيرِهِ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ.
عَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَمَّا (خَلَقْنَاكُمْ) فَتَلْفُظٌ ثُمَّ عِلْقَةٌ ثُمَّ مُضْغَةٌ ثُمَّ عَظْمٌ ثُمَّ لَحْمٌ، وَأَمَّا (صَوَّرْنَاكُمْ) فَالْعَيْنُ
وَالْأَنْفُ وَالْأُذُنَيْنِ وَالنَّمِّ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّجُلَيْنِ، صَوَّرَ هَذَا وَنَحَوَهُ، ثُمَّ جَعَلَ الدِّمِيمَ^٢ وَالْوَسِيمَ وَالْجَسِيمَ
وَالطَّوِيلَ وَالْقَصِيرَ، وَأَشْبَاهَ هَذَا»^٣.

فِي أَمْرِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةِ ثُمَّ لَمَّا كَانَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ آدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَكَانَ إِكْرَامُ الْأَبِ مِثَّةً عَلَى الْأَبْنَاءِ، أَسْبَغَ نِعْمَةً
بِالسُّجُودِ لآدَمَ الْخَلْقِ بَيَانِ إِكْرَامِ آدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِاسْجَادِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ جَمِيعًا:
﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تَكْرِيمًا لَهُ، وَقِيلَ: لَمَّا كَانَ خَلَقَ نَوْعَ الْبَشَرِ بِخَلْقِ أَوَّلِ فَرْدٍ مِنْهُ، كُنِيَ
سُبْحَانَهُ عَنْ خَلْقِ أَبِي الْبَشَرِ بِالْخِطَابِ إِلَى النَّوْعِ، وَعَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ ﴿فَسَجَدُوا﴾ كُلُّهُمْ لآدَمَ مِنْ غَيْرِ
رَيْثٍ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فَإِنَّهُ وَحْدَهُ خَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدَمَ، فَعَاتَبَهُ جَلَّ جَلَالُهُ،
﴿قَالَ﴾: يَا إِبْلِيسَ ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ عَنْ طَاعَتِي، وَأَيِّ شَيْءٍ أَجْرَأَكَ عَلَيَّ ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لآدَمَ ﴿إِذْ
أَمَرْتُكَ﴾ مَعَ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَحِينَ أَوْجَبْتُهُ عَلَيْكَ.

﴿قَالَ﴾ إِبْلِيسُ: كَيْفَ أَمَرْتَنِي بِالسُّجُودِ لآدَمَ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وَأَفْضَلُ؟ وَلَا يَجُوزُ أَمْرُ الْأَفْضَلِ
بِالسُّجُودِ وَالتَّوَاضُعِ لِلْمَنْضُولِ، أَمَّا فَضِيلَتِي عَلَى آدَمَ فَلَا تَكُ ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وَهِيَ حَقِيقَةُ لَطِيفَةٍ
مُشْرِقَةٌ عُلُوبِيَّةٌ فَعَالَةٌ ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ كَثِيفٌ ثَقِيلٌ، مُظْلَمٌ مُنْفَعِلٌ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْمَخْلُوقَ مِنَ
الْأَفْضَلِ أَفْضَلُ.

فِي عَدَمِ جَوَازِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ الطَّاعَةُ أَوْلَى بِإِبْلِيسَ مِنَ الْقِيَاسِ، فَعَصَى رَبَّهُ وَقَاسَ،
الْقِيَاسُ فِي الدِّينِ

١. سُبْحًا: ١٣/٣٤. ٢. الدَّمَامَةُ: قُبْحُ الْمَنْظَرِ وَصَغَرُ الْجَسَمِ.

٣. تَفْسِيرُ الْقَمِي: ١: ٢٢٤، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ١٨٢.

وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس^١.
وعن الصادق عليه السلام، في حديث: «فطرده الله عن جواره، ولعنه وسمّاه رجيماً، وأقسم بعزته: لا يقيس أحد في دينه إلا قرنه مع عدوه إبليس في أسفل ذلك من النار»^٢.

وعنه عليه السلام أنه دخل عليه أبو حنيفة، فقال: «يا أبا حنيفة، بلغني أنك تقيس؟»، قال: نعم أقيس، قال: «لا تقيس، فإن أول من قاس إبليس حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس ثورية آدم بثورية النار، عرف فضل ما بين التورين وصفاء أحدهما على الآخر»^٣.
﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس وهو في جنة عدن - كما عن ابن عباس^٤ - أو في جنة الدنيا: ﴿فَاهْبِطْ﴾ وإنزل أو انتقل ﴿مِنْهَا﴾ إلى الأرض، أو إلى خارجها، أو من المنزل التي أنت عليها، أو من زمرة الملائكة ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ جازز ﴿لَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَنْ تَكْبُرَ﴾ وترفع في وقت من الأوقات، أو مكان من الأمكنة، لا سيما ﴿فِيهَا﴾ لأنها مكان المطهرين من الرذائل.

ثم أكد الأمر بخروجه بقوله: ﴿فَاخْرُجْ﴾ من الجنة، أو من زمرة الملائكة المكرمين ﴿إِنَّكَ﴾ بتكبرك وعصيانك بعد ﴿مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ ومن زمرة الأذلاء المهينين.

عن ابن عباس: يريد أن أهل السماوات ملائكة متواضعون خاشعون، فخرج إنك من الصاغرين. والصغار: الذلة^٥.

في التواضع وذم التكبر قيل: إن إبليس طلب التكبر فابتلاه الله بالذلة والصغار، تنبيهاً على صحة ما قاله التكبر النبي ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ»^٦.

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [١٤ و ١٥]

ثم لما اشتدت عداوته لأدم عليه السلام وذريته طلب الفسحة لإغوانهم و﴿قَالَ﴾ بعد طرده من الجنة والرحمة رب ﴿أَنْظِرْنِي﴾ وأمهلي في الدنيا، وأدم حياتي ﴿إِلَى يَوْمٍ﴾ القيامة الذي فيه ﴿يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم ويحشرون إليك لجزاء أعمالهم. ولما اقتضت الحكمة ابتلاء آدم وذريته، استجاب دعاءه و﴿قَالَ﴾ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ والممهلين، ولكن لا إلى يوم البعث، وهو التفخة الثانية، بل إلى يوم يموتون جميعاً بالتفخة الأولى.

٢. علل الشرائع: ١/٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.

١. تفسير الرازي ١٤: ٣٤.

٣. الكافي ١: ٢٠/٤٧، الاحتجاج: ٣٦٢، علل الشرائع: ١/٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.

٥. تفسير الرازي ١٤: ٣٥.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٣٥.

٦. تفسير الرازي ١٤: ٣٥.

عن الصادق عليه السلام: «يموت إبليس ما بين الفخة الأولى والثانية»^١.

وعنه عليه السلام: «أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا»^٢.

عن ابن عباس: أن الدهر يمر بإبليس فيهرم، ثم يعود ابن ثلاثين^٣.

قَالَ قِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ [١٦ و ١٧]

ثم أن اللعين بعدما رأى إسعاف مسألته «قَالَ» معارضة لله: «قِيمَا أَغْوَيْتَنِي» وبسبب أن أوقعني في عصيانك بأمرك إياي بالسجود، بعزتك لأغوي آدم وذريته، و«لَأَقْعُدَنَّ» ترصداً «لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» وعلى منهجك القويم الموصل لهم إلى كل خير، وهو دين الإسلام. وقيل: إن الباء في قوله: (فبما) للقسمة، والمعنى: وبقدرتك عليّ وتقاذ سلطانك في^٤.

ثم أن اللعين بعد إعلانه بترصده لذرية آدم وقعوده على طريقهم إلى الجنة كنعود الشراق على طريق العابرين ترصداً لهم، بين تهاجمه عليهم من الجهات التي يعتاد الهجوم منها، ومحاصرتهم إياهم من الجوانب بقوله: «ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ» ولأحيلهم عليهم «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» وقُدَامِهِمْ، يعني: أشككهم في صحة البعث، أو أفترهم عن الرغبة فيما ينفعهم في الآخرة، أو أزيّن لهم الدنيا، أو أبعثهم إلى تكذيب الأنبياء الحاضرين في عصرهم «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» قيل: يعني: أو همهم أن الدنيا أزيّة باقية، وأزيّنهم في نظرهم، أو أفترهم عن الرغبة في المنافع الآخروية، أو أبعثهم إلى تكذيب الماضين من الأنبياء «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» قيل: يعني: أرغبهم في الكفر، أو أصرفهم عن الحق، أو أفترهم عن الرغبة في الآخرة والأعمال الحسنة «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» قيل: يعني: أوقعهم في المعاصي، وأزيّن لهم السيئات وأرغبهم في الباطل.

عن الباقر عليه السلام: «ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» معناه: أهون عليهم أمر الآخرة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» أمرهم بجمع الأموال والتبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم، «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة، وتحسين الشبهة، «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» بتحبيب اللذات إليهم، وتغليب الشهوات على قلوبهم^٥.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٧/٤٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٣٨.

١. علل الشرائع: ٢/٤٠٢، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٤٢.

٥. مجمع البيان ٤: ٦٢٣، تفسير الصافي ٢: ١٨٤.

وقيل: إِنَّ الجِهَاتِ مُؤَوَّلَةٌ بِالْقَوَى الْأَرْبَعَةِ الْمَفُوتَةِ لِلسَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ، فالمراد من قوله: ﴿مَنْ يَبِينُ أَيْدِيَهُمْ﴾ القُوَّةُ الْخَيَالِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْبَطْنِ الْمُتَقَدِّمِ مِنَ الدُّمَاغِ، تَرُدُّ عَلَيْهَا صُورَ الْمَحْسُوسَاتِ، ومن قوله: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ القُوَّةُ الرَّهْمِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْبَطْنِ الْمُتَوَخَّرِ مِنْهُ، تحكُمُ فِي غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ بِالْأَحْكَامِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْمَحْسُوسَاتِ، ومن قوله: ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ القُوَّةُ الشَّهَوِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْكَبِدِ، ومن قوله: ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ القُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْبَطْنِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ.

قيل: إِنَّ النُّكْتَةَ فِي تَخْصِيصِ الْأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ بِكَلِمَةِ (عَنْ) الدَّالَّةُ عَلَى الْمَجَاوِزَةِ: أَنَّ الْمَلَائِكِينَ الْكَاتِبِينَ لِلْأَعْمَالِ لَمَّا كَانَا قَاعِدِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ، لَا يَقْرُبُ الشَّيْطَانُ مِنْهُمَا، بَلْ يَتَبَاعَدُ عَنْهُمَا. عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لَابْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ: تَدْعُ دِينَ آبَائِكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ لَهُ: تَدْعُ دِيَارَكَ وَتَتَغَرَّبُ^١، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ لَهُ: تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَيُقَسِّمُ مَالُكَ وَتُنْكِحُ امْرَأَتَكَ، فَعَصَاهُ فَقَاتَلَ^٢».

رُوي أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمَّا قَالَ هَذَا الْكَلَامَ رَقَّتْ قُلُوبُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ، فَقَالُوا: يَا إِلَهَنَا، كَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْإِنْسَانُ مِنَ الشَّيْطَانِ، مَعَ كَوْنِهِ مُسْتَوِيًّا عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ: إِنَّهُ بَقِيَ لِلْإِنْسَانِ جِهَتَانِ: الْفَوْقُ وَالتَّحْتُ، فَإِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى فَوْقٍ فِي الدُّعَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْخُشُوعِ، أَوْ وَضَعَ جَبْهَتَهُ عَلَى الْأَرْضِ عَلَى سَبِيلِ الْخُشُوعِ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُ سَبْعِينَ سَنَةً^٣.

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّعِينِ ظُلْمًا بِنَتِيجَةِ حَمَلَاتِهِ وَمُحَاصَرَتِهِ بَنِي آدَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يَارَبِّ ﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لَكَ، مُطِيعِينَ لِأَحْكَامِكَ، عَامِلِينَ بِرِضَاكَ.

قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ [١٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِجْهَارِ اللَّعِينِ بِمُعَارَضَتِهِ لَهُ، وَمُعَانَدَتِهِ لِبَنِي آدَمَ، عَاتِبَهُ زَجْرًا وَمَهَانَةً وَ قَالَ لَهُ طَرْدًا مِنَ الْجَنَّةِ، أَوِ السَّمَاوَاتِ: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ حَالُ كَوْنِكَ ﴿مَذْمُومًا﴾ مَذْمُومًا عِنْدِي وَعِنْدَ مَلَائِكَتِي وَسَائِرِ خَلْقِي ﴿مَذْخُورًا﴾ وَمَطْرُودًا عَنْ جَنَّتِي وَرَحْمَتِي، فَبِعِزَّتِي ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ وَاقْتَفَى خَطَوَاتِكَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ، وَأَطَاعَكَ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، وَخَالَفَنِي فِي أَحْكَامِي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ الْبَيْتَ ﴿جَهَنَّمَ﴾ أَيُّهَا التَّابِعُ وَالْمُتَّبِعُ ﴿مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا لَمْ تَتَوْبُوا.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ
عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا
مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [١٩ و ٢٠]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْعِتَابِ عَلَى اللَّعِينِ وَطَرَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَوَعِدَهُ بِالنَّارِ، خَاطَبَ آدَمَ ﷺ لُطْفًا بِهِ
وَرَحْمَةً عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ حَوَاءَ ﴿الْجَنَّةَ﴾ وَدَارَ الْكَرَامَةِ ﴿فَكُلَا﴾ وَتَمَتُّعًا
﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وَمِنْ أَيْ نَوْعٍ مِنَ الثَّمَارِ وَالنَّعْمِ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
- مَرَّ تَفْسِيرُهُ فِي الْبَقَرَةِ ١ - «فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ» وَزَيْنَ فِي نَظَرِهِمَا قُرْبَ الشَّجَرَةِ وَالْأَكْلَ مِنْهَا
بَيِّنَاتِهِ السُّمُوءَةَ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ وَيُزَيِّرُ فِي نَظَرِهِمَا ﴿مَا وُورِيَ﴾ وَشِيرَ ﴿عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَاتِهِمَا﴾
وَعَوْرَاتِهِمَا، وَيُخْزِيهِمَا بِانْكَشَافِهَا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ.

قِيلَ: إِنَّ اللَّعِينِ عَلِمَ أَنَّ لَهُمَا سُوءَةً، وَأَنَّهُمَا إِنْ أَكَلَا مِنْهَا بَدَتْ، بِقِرَاءَتِهِ فِي كُتُبِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ يَكُنْ
آدَمُ يَعْلَمُ ذَلِكَ.

أَقُولُ فِيهِ: إِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ آدَمَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ لَا يَعْلَمَ عَوْرَةَ نَفْسِهِ؟ مَعَ أَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ
يَكُونَ إِبْلِيسَ أَعْلَمَ مِنْهُ.

وَقِيلَ: لَمْ يَرِيبَا مِنْ أَنْفُسِهِمَا، وَلَا أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخِرِ.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «كَانَتْ سَوَاءَاتُهُمَا لَا تَبْدُو لَهُمَا»، يَعْنِي كَانَتْ دَاخِلَةً ٢.

أَقُولُ: يُحْتَمَلُ كَوْنُ التَّفْسِيرِ مِنَ الرَّاوِي.

ثُمَّ بَيَّنَّ شُبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ﴾ اللَّعِينُ لآدَمَ وَزَوْجَتِهِ: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا
عَنِ﴾ الْأَكْلِ ﴿مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ لِجَلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ ﴿إِلَّا﴾ كَرَاهَةً مِنْ ﴿أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ لَطِيفِينَ قَوِيَّينَ
غَنِيِّينَ عَنْ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيْرِهِمَا ﴿أَوْ تَكُونَا﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿مِنَ الْخَالِدِينَ﴾
وَالدَّائِمِينَ، لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَمُوتُونَ.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِينٌ النَّاصِحِينَ * فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ
لَهُمَا سَوَاءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

١. تقدم في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٤٠/١٥٥٤، تفسير القمي ١: ٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ١٨٦.

أَنَّهُكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبُّنَا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٢١-٢٣]

ثم أكد اللعين صدق قوله ونصحه بأن حلف بالله لهما ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ كذباً: ﴿إِنِّي لَكُمَا﴾ فيما أقول ﴿لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والذالين لكما إلى الخير والصلاح ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ وحطهما من المنزلة العالية التي كانت لهما بطاعة الله إلى مهوى عصيانه الذي هو أنزل المراتب، وأجرأهما على أكل الشجرة المنهي عنها ﴿بِقُرُورٍ﴾ وتسويل عظيم.

عن ابن عباس: أي غرهما باليمين، وكان آدم عليه السلام يظن أن لا يحلف أحد بالله كاذباً.
قيل: إن اللعين أول من حلف بالله كاذباً.

فأكلا منها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ ووجدا طعم ثمرها أخذتهما العقوبة، فتهافت عنهما لباسهما فوراً، و﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ وظهرت عوراتهما بشؤم العصيان.
قيل: كان لباسهما من خلل الجنة.

وقيل: كان ظفراً في أشد اللطافة واللين واليأس، وكان حاجباً من النظر إلى أصل البدن، فلما أصابا الخطيئة نزع عن بدنهما، وبقي على رؤوس الأصابع تذكيراً لما فات من النعم وتجديداً للندم.^٢
وقيل: كان لباسهما ثوراً يحول بينهما وبين النظر إلى البدن، فلما عصيا زال الثور عنهما.^٣
وعلى أي تقدير، لما انكشفت عورتهما، استقبحا ذلك واستحييا من الملائكة ﴿وَطَفِقَا﴾ وأخذوا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ويرقعان ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ وعلى عوراتهما ورقة فوق ورقة ﴿مِنْ وَرَقٍ﴾ أشجار ﴿الْجَنَّةِ﴾.

قيل: كان ذلك الورق من شجرة التين، ولم تسترهما شجرة غيرها، فقال الله تعالى: كما سترت آدم أخرج منك المعنى قبل الدعوى، وسائر الأشجار يخرج منها الدعوى قبل المعنى، ولهذه الحكمة يخرج ثمر سائر الأشجار في أكمائها أولاً، ثم تظهر الثمرة من أكمائها ثانياً، وثمره التين أول ما يبدو يبدو بارزاً^٤ من غير أكماء^٥.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا أَسْكَنَهُ اللهُ الْجَنَّةَ وَأَبَاحَ لَهُ إِلَّا الشَّجَرَةَ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ خَلْقَهُ لَا تَبْقَى إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْغَدَاءِ وَاللِّبَاسِ وَالْأَكْنَانِ وَالتَّنَاجُحِ، وَلَا يُدْرِكُ مَا يَنْفَعُهُ مِمَّا يَشْرَهُ إِلَّا بِالتَّوْقِيفِ، فَجَاءَهُ إِبْلِيسُ

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٤٥.

١. تفسير الرازي ١٤: ٤٩.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٤٦.

٤. كذا، الظاهر: أول ما تبدو تبدو بارزة، والذي في روح البيان: وشجرة التين أول ما يبدو ثمره يبدو بارزاً...

٥. تفسير روح البيان ٣: ١٤٦.

إلى أن قال: «فَقِيلَ آدَمُ عَلَيْكَ قَوْلُهُ، فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ، وَكَانَ كَمَا حَكَى اللهُ «بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا»^١ وسقط عنهما ما ألبسهما الله من لباس الجنة، وأقبلَا يسترَانِ مِنَ وَرَقِ الْجَنَّةِ. الخبر.^٢
فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى قُبْحِ كَشْفِ الْعَوْرَةِ عَقْلًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

«وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا» المالك لأمرهما عتاباً وتوبيخاً: «أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ» مقاربة «تَلِكُمَا الشَّجَرَةِ» قيل: ثُمَّ نَادَى آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ: أما خلقتك بيدي، أما نفخت فيك من رُوحِي، أما أسجدت لك ملائكتي، أما أسكنتك في جَنَّتِي وفي جَوَارِي؟! «وَوَيْلٌ لَكُمَا» ألم «أَقُلْ لَكُمَا» حين أبى الشَّيْطَانُ عَنِ السُّجُودِ وقال: لَأَقْعُدَنَّ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ» ولذريتكما «عَدُوٌّ» ومُبْغِضٌ «مُتَبِئٌ» ظاهر الْعَدَاوَةِ وَالْمُبْغِضِ؟! قيل: كَانَ خَجَلْتُهُمَا بِهَذَا الْعِتَابِ أَشَدَّ عَلَيْهِمَا مِنْ كُلِّ مِحْنَةٍ، فاعترفا بَذَنْبِهِمَا واعتذرا عن خطئهما «وَقَالَا رَبَّنَا» ومليكنَا، إِنَّا «ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» بإيقاعها في العصيان، وتعرضها للجرمان مِنَ الْجَنَانِ «وَأِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا» ذَنْبَنَا «وَتَرْحَمَنَا» بَقَبُولِ تَوْبَتِنَا بِرُبُوبِيَّتِكَ «لَنَكُونَنَّ مِنَ» زَمَرَةِ «الْخَاسِرِينَ» والمغبونين، حيث بعنا الجنة ونعيمها بأكلِكِ مِنَ الشَّجَرَةِ.

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ [٢٤ و ٢٥]

«قَالَ» اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، وَيَا حَوَاءَ، وَيَا إِبْلِيسَ «أَهْبِطُوا» وانزلوا مِنَ الْجَنَّةِ، أَوِ السَّمَاوَاتِ إِلَى الْأَرْضِ، فِي حَالِ «بَعْضُكُمْ» يَكُونُ «لِبَعْضٍ» آخَرُ «عَدُوٌّ» ومُبْغِضٌ إِلَى الْأَبَدِ - قيل: الْعَدَاوَةُ ثَابِتَةٌ بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَبَدًا - «وَوَيْلٌ لَكُمَا» يَكُونُ «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ» وَمَكَانٌ وَتَعِيشٌ «إِلَى حِينٍ» انقضاء أَجَالِكُمْ.

و«قَالَ» تَعَالَى تَقْرِيراً لِمَا سَبَقَ: «فِيهَا تَحْيَوْنَ» وتعيشون «وَفِيهَا تَمُوتُونَ» وتُفْتَنُونَ «وَمِنْهَا» بعدَ إحيائِكُمْ فِي الشُّبُورِ «تُخْرَجُونَ» لِتَجْزُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ [٢٦]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللهُ قِصَّةَ إِبْتِلَاءِ آدَمَ بِكَشْفِ الْعَوْرَةِ وَاضْطِرَّاهُ إِلَى سِتْرِهَا بِأَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ، بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ بَخَلَقِ اللَّبَاسِ وَسَانَرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، مُخَاطِباً لَهُمْ بِقَوْلِهِ: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ» المطر

الذي يخرج به القطر، ويحيي الحيوانات التي لها صوف وفُغْر ووَبر، فكانا أنزلنا إليكم ﴿لِبَاسًا﴾ من السماء كي ﴿يُؤَارِي سَؤَاءَاتِكُمْ﴾ ويغنيكم عن أوراق الأشجار، ويقطع عُذْرَكُمْ في كشف العورة، ﴿و﴾ أنزلنا ﴿رِيشًا﴾ وزينة تتجملون بها بين الناس.

وقيل: إن الرِّيش كل ما يعيش به الإنسان من المتاع والمأكول.

عن الباقر عليه السلام: «أما اللباس: فالثياب التي تلبسون، وأما الريش^١: فالمتاع والمال» انتهى.

﴿و﴾ لكن ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾ والخوف من الله والالتزام بأحكامه ﴿ذَلِكَ﴾ اللباس ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفع لصاحبه ولا يسه، وأقرب له إلى الله تعالى مما خلق من اللباس.

عن الباقر عليه السلام: «ما لباس التقوى: فالعفاف، إن العفيف لا تبدو له عورة وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من الثياب، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يقول: والعفاف خير»^٢.

وعن ابن عباس: لباس التقوى: العمل الصالح^٣.

وعن جماعة من المفسرين هو الإيمان^٤، وقيل: هو السمت الحسن، و [قيل]: هو الحياة^٥، وقيل: هو السكينة والإحبات والعمل الصالح^٦.

وإنما شبه التقوى باللباس لأنه يستر عيوب صاحبه، ويحفظه مما يضره كما يستر اللباس عورته ويحفظه. وقيل: لأنه يقيه من العذاب^٧.

وقيل: إن المراد من لباس التقوى: مُطلق اللباس، والمراد من قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: من التعري، فإن أهل الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري في الطواف بالبيت^٨.

وقيل: إنه ما تلبس في الحروب كالدروع والجواشن والمغافير.

وقيل: إنه الملابس المعدة للصلاة.

عن القمي: لباس التقوى الثياب البيضاء^٩.

١. في تفسير القمي: الرباش.

٢. تفسير الرازي ١٤: ٥٢.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٥٢.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٥٢.

٥. تفسير القمي ١: ٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٧.

٦. تفسير الرازي ١٤: ٥٢، عن قتادة والسدي وابن جرير.

٧. تفسير روح البيان ٣: ١٤٨.

٨. ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كانت سنة العرب في الحج، أنه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف، فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يردّه، ومن لم يجد عارية أكرى ثياباً، ومن لم يجد عارية ولا كرى، ولم يكن له إلا ثوب واحد، طاف بالبيت عرياناً...» راجع بحار الأنوار ٣٥: ٧/٢٩١ عن تفسير القمي.

٩. ومنه يتبين ما كانوا يتعبدون بالتعري في الطواف، بل كانوا يتعزّون عند الاضطراب، وقيل: كانوا يطوفون عراة لأنهم يقولون: لا نعبد في ثياب أذنبتنا فيها. راجع بحار الأنوار ٨٣: ١٦٩، روح البيان ٣: ١٥٣.

١٠. تفسير القمي ١: ٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ١٨٧.

ثُمَّ بَيَّنْ شِحَانَهُ أَهَمَّ مَنَافِعَ خَلْقِ اللَّبَاسِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْإِنزَالُ لِلْبَاسِ، أَوْ خَلْقَهُ بَعْضُ ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ وَدَلَالَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ ﴿لَقَالَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ عِظَمَ نِعَمِهِ، وَيَعْرِفُونَ غَايَةَ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ [٢٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ شِدَّةِ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لآدَمَ وَلذَرِيَّتِهِ وَنَهْيِهِ تَعَالَى عَنْ اتِّبَاعِهِ، أَخَذَ فِي نُصْحِ بَنِي آدَمَ تَأْكِيداً لِنَهْيِهِ السَّابِقِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وَلَا يَغُرَّكُمْ بِتَسْوِيلَاتِهِ، وَلَا يُوقِنَنَّكُمْ فِي الْبَلِيَّةِ، بِأَنْ يَمْنَعَكُمْ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ آدَمَ وَحَوَّاءَ بِإِغْوَاةٍ ﴿وَمِنْ الْجَنَّةِ﴾ بَعْدَ مَا كَانَا فِيهَا، وَعَزَّزْنَا أَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِ لِهَمَا كَانَ ﴿يَنزِعُ﴾ وَيَسْلُبُ ﴿عَنْهُمَا﴾ بِإِقَاعِهِمَا فِي مَعْصِيَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ وَيُخْزِيَهُمَا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُهُمَا بِغَايَةِ الْكَرَامَةِ، فَكَيْفَ أَنْتُمْ وَلَا تَتَوَهَّمُوا حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُ أَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْكُمْ غَافِلٌ عَنْكُمْ^١ ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ﴾ بِنَفْسِهِ ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ وَجُنُودِهِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ نَسْلِهِ ﴿مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ وَمِنْ مَكَانٍ لَا تُبْصِرُونَهُمْ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَذَرَ مِنْ عَدُوٍّ يَرَاكُمْ وَلَا تَرَوْنَهُ أَصْعَبُ، فَكُونُوا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ عَظِيمٍ.

عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ الشَّيْطَانُ: أُعْطِينَا أَرْبَعَ خِصَالٍ: نَرَى، وَلَا تُرَى، وَنُخْرِجُ مِنْ تَحْتِ الثَّرَى، وَيَعُودُ شَيْخُنَا فَتَى^٢.

رُوي «أَنَّهُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»^٣.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَكَّدَ النَّهْيَ عَنْ اتِّبَاعِهِ وَمُؤَالَاتِهِ، وَالْأَمْرَ بِالْحَرُوزِ عَنْهُ، بِالتَّنْبِيهِ عَلَى عَدَمِ الْمُنَاسَبَةِ وَالسُّخْنَةِ الْمُوجِبَةِ لِلْمُؤَالَاةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وَأَصْدِقَاءَ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِتَوْحِيدِنَا، وَرِسَالَةِ رُسُلِنَا، وَدَارِ الْجَزَاءِ، لِلتَّسَانُخِ بَيْنَهُمْ فِي الْخَبَاثَةِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ، وَالتَّنَاسُبِ فِي الطُّغْيَانِ وَالْجِدْلَانِ، دُونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يُسَانِخُونَهُمْ وَلَا يُنَاسِبُونَهُمْ.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٢٨]

٢. تفسير الرازي ١٤: ٥٤.

١. زاد في النسخة: بأنكم لا ترونه.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٥٠.

ثُمَّ شَرَعَ فِي قَدْحِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَوْحِيدِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ فَعَلَةً ﴿فَاجِشَةً﴾ مَتَنَاهِيَةً فِي الشَّيْءِ، كِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَحْرِيمِ السَّائِبَةِ وَأَخَوَاتِهَا، وَالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ غَرَاءً، وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِيهَا ﴿قَالُوا﴾ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى صِحَّةِ عَمَلِهِمْ مِنَ الْفَاحِشَةِ: إِنَّا ﴿وَجَدْنَا﴾ مَرْتَكِبِينَ لِتِلْكَ الْفَاحِشَةِ مُوَاطِبِينَ ﴿عَلَيْهَا﴾ آبَاءَنَا وَكِبْرَاءَنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعْقَلَ وَأَعْلَمَ، فَعَلِينَا أَنْ تَقْلُدَهُمْ ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وَلَمَّا كَانَ اشْتِدَالُهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ، لِأَنَّهُ ظَنَّى، وَالظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً، أَعْرَضَ سُبْحَانَهُ عَنْ رَدِّهِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِرَدِّ دَلِيلِهِمُ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ حَكِيمٌ فِي فِعَالِهِ، عَلِيمٌ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ اللَّهَ الْحَكِيمَ ﴿لَا يَأْمُرُ﴾ عِبَادَهُ ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ وَالْقَبَاحِ. وَقَدْ ثَبَتَ بِحُكْمِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَبَيَانِ الرُّسُلِ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالِ مِنَ أَقْبَحِ الْقَبَاحِ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ بِهَا، مَعَ أَنَّكُمْ لَا تَرَوْنَ اللَّهَ، وَلَا تَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، وَلَا تَعْتَرِفُونَ بِرِسَالَةِ رَسُولِهِ؟ فَبَأَيِّ دَلِيلٍ عَلِمْتُمْ بِأَمْرِهِ؟ ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وَتَفْتَرُونَ ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ مِنْ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِهَا. عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ فَقَدْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَيْهِ فَقَدْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ»^١.

عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «هَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالزُّنَا، وَشَرَبِ الْخَمْرِ، وَشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَحَارِمِ؟» فَقِيلَ: لَا، قَالَ: «مَا هَذِهِ الْفَاحِشَةُ الَّتِي يَدْعُونَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهَا؟» قِيلَ: اللَّهُ أَعْلَمُ وَوَلِيُّهُ. فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا فِي أُنْمَةِ الْجَوْرِ؛ ادْعُوا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهم بِالْإِتِمَامِ بِقَوْمٍ لَمْ يَأْمُرْهم اللَّهُ بِالْإِتِمَامِ بِهِمْ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ»^٢.

أَقُولُ: لَعَلَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْإِنْكَارَ فِي الْآيَةِ رَاجِعٌ إِلَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [٢٩]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ جَمِيعَ النَّاسِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وَالْعَدْلَ فِي الْأُمُورِ، وَالتَّوَسُّطَ فِي التَّعَاشِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَاللَّبَاسِ وَغَيْرِهَا، وَسَائِرَ مَا تَسْتَحْسِنُهُ الْعُقُولُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقِسْطُ هُوَ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^٣ ﴿وَقَدْ﴾ أَنْ أَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ، وَاسْتَقْبَلُوا بِمَقَادِمِ أَبْدَانِكُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ لِلدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وَفِي مَكَانٍ

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٨/١٤١، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٧/١٤٠، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٥٧.

للصلاة، أو في وقتها.

عن الصادق عليه السلام: «المساجد محدثة، فأمرُوا أَنْ يقيمُوا وجوههم شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»^١.

وعنه عليه السلام: «عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» يعني: الأئمة»^٢.

أقول: هذا تأويل، والأول تفسير.

﴿وَأَذْعُوهُ﴾ واعبدوه أيها الناس حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والطاعة بصلاتكم وسائر عباداتكم، مُبْرَأِينَ عن الشُّرْكِ فيها.

ثم هددهم على مخالفة أحكامه بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ الله وأنشأكم أولاً ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه بأن يحييكم بعد موتكم ثانياً، ليجازيكم على أعمالكم وخلوص نياتكم.

عن ابن عباس: كما بدأ خلقكم مؤمناً أو كافراً، تعودون فيبعث المؤمن مؤمناً والكافر كافراً، فإن من خلقه الله في أول الأمر للشقاوة، أعمله بعمل أهل الشقاوة، وكانت عاقبته الشقاوة، وإن [من] خلقه للسعادة أعمله بعمل أهل السعادة، وكانت عاقبته السعادة^٣.

عن الثمّني عليه السلام: عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «خلقهم حين خلقهم مؤمناً وكافراً، وشقيّاً وسعيداً، وكذلك يعودون يوم القيامة مهتدي وضالّ»^٤.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن

دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ [٣٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان ما أمر به من المحسنات المسلمة عند العقول، بين اختلاف الناس في قبوله ورده بقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ من الناس ﴿هدا﴾ هم الله إلى الصواب، ووقفهم بقبول أوامره بطيب طيبتهم وقوة عقولهم وحسن أخلاقهم ﴿وفريقًا﴾ آخر منهم خذلهم بثبت طيبتهم وضعف عقولهم، وشوء أخلاقهم، ولذا ﴿حق﴾ واستقر ﴿عليهم الضلالة﴾ عن الحق.

ثم بين غاية ضلالتهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ ومردة الجن والإنس ﴿أولياء﴾ وأحباء متبوعين لأنفسهم ﴿من دون الله﴾ الذي هو وليهم الحق، فيخالفونه ويطيعونهم فيما أمرهم به ﴿ويحسبون﴾ مع ذلك ﴿أنهم﴾ في طاعتهم لهم ﴿مهتدون﴾ إلى الحق، والحال أنهم مخطئون ضالون.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٤١/١٥٦٠، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

٤. تفسير القمي ١: ٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

١. التهذيب ٢: ٤٣/١٣٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٥٨.

عن (العلل): عنه عليه السلام: «إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعني: أنمة دُون أنمة الحق^١.

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [٣١]

ثم لما أمر الله تعالى بالقسط في جميع الأمور من المأكَل والمشرب واللباس وغيرها، وبإقامة الصلاة، ورغب عباده بالزَّين في الصلاة، ونهاهم عن الإسراف في المأكَل والمشرب بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا﴾ وانتصحبوا ﴿زِينَتَكُمْ﴾ وثيابكم الجيدة الطاهرة، وسائر ما تتجملون به ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وفي وقت كُل صلاة.

نسي استحباب التزين والتمشيط عند كل صلاة
عن الحسن بن علي عليه السلام أنه كان إذا قام إلى الصلاة لیس أجود ثيابه، فقل له في ذلك، فقال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، فَاتَّجَمَّلْ لِرَبِّي» وقرأ الآية^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «أَيُّ خُذُوا ثِيَابَكُمْ الَّتِي تَتَزَيَّنُونَ بِهَا لِلصَّلَاةِ فِي الْجُمُعَاتِ وَالْأَعْيَادِ»^٣.
وَالْقَمِي قَالَ: فِي الْعِيدِينَ وَالْجُمُعَةِ يَغْتَسِلُ وَيَلْبِسُ ثِيَابًا بَيضًا^٤.
وعن الرضا عليه السلام: «مِنْ ذَلِكَ التَّمَشُّطُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «تَمَشَّطُوا فَإِنَّ التَّمَشُّطَ يَجْلِبُ الرِّزْقَ، وَيُحَسِّنُ الشَّعْرَ، وَيُنْجِزُ الْحَاجَةَ، وَيَزِيدُ فِي مَاءِ الصُّلْبِ، وَيَقْطَعُ الْبَلْغَمَ»^٦.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ: مُطْلَقُ اللَّبَاسِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً^٧، وَكَانُوا يَقُولُونَ: لَا نَطُوفُ فِي ثِيَابٍ أَصْنَا فِيهَا الذُّنُوبَ وَدَسَّانَهَا بِهَا، فَكَانَ الرِّجَالُ يَطُوفُونَ بِالنَّهَارِ وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ عُرَاةً^٨، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَلْبَسُوا ثِيَابَهُمْ وَلَا يَتَعَرَّوْا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، سَوَاءً دَخَلُوهُ لِلصَّلَاةِ أَوْ لِلطَّوْفِ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَدْعُونَ ثِيَابَهُمْ وَرَاءَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ قُصْدِ الطَّوْفِ^٩.
عن الصادق عليه السلام، فِي هَذِهِ الْآيَةِ. قَالَ: «الْغُسْلُ عِنْدَ لِقَاءِ الْإِمَامِ»^{١٠}.

١. علل الشرائع: ٨١/٦١٠ عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.

٢. تفسير المياشي ٢: ١٥٧١/١٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.

٣. مجمع البيان ٤: ٦٣٧، تفسير الصافي ٢: ١٨٩. ٤. تفسير القمي ١: ٢٢٩، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.

٥. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٩٩/٧٥، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.

٦. الخصال: ٣/٢٦٨، تفسير الصافي ٢: ١٨٩. ٧ و٨. في النسخة: عرباناً.

٩. تفسير روح البيان ٣: ١٥٣.

١٠. تهذيب الأحكام ٦: ١٩٧/١١٠، تفسير الصافي ٢: ١٩٠.

ثم قيل: كان من بدع المشركين أنهم لا يأكلون في أيام الحج إلا قوتاً، ويعظمون بذلك حَجَّهم، فهم المسلمون به، فنزلت^١ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مما تشتهون من الطعام والشراب ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بالإفراط في الأكل والشرب، وإتلاف نعم الله، وبالتعدي إلى الحرام وتحريم الحلال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لإسرافهم، ولا ينظر إليهم نظر الرحمة.

نقل أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني، فقال لعلي بن حسين بن واقد: ليس في كتابكم شيء من علم الطب؟ فقال له: إن الله جمع الطب كله في نصف آية في كتابنا، قال: ما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فقال النصراني: وهل يؤثر عن رسولكم شيء من الطب؟ قال: نعم، جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: ما هي؟ قال: قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وعودوا كل جسم ما اعتاده»، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئاً^٢. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأك خصلتان: السرف والمخيلة^٣. عن الصادق عليه السلام قال: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَعِنْدَهُ مَا يَقُوتُهُ يَوْمًا فَهُوَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ»^٤.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ [٣٢]

ثم لما طاف المسلمون كساة^٥، وأكلوا اللحم والدسم في أيام الحج، عيَّره المشركون لأنهم كانوا يطوفون عراة، ولا يأكلون اللحم والدسم حال الإحرام، فأمر الله نبيه ﷺ بأن يؤدِّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿حَرَّمَ﴾ على الناس ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الألبسة الفاخرة ﴿الَّتِي أَخْرَجَ﴾ بقدرته ولطفه ﴿لِعِبَادِهِ﴾ من الأرض والحيوانات والمعادن؛ كاللؤلؤ والكتان والحرير والصوف والوبر والدروع وغيرها ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ والمستلذات ﴿مِنَ الرِّزْقِ﴾ كاللحوم والدسم والألبان وغيرها.

عن الصادق عليه السلام: «بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبدالله بن عباس إلى ابن الكواء وأصحابه وعليه قميص رقيق وحلة، فلما نظروا إليه قالوا: يا ابن عباس، أنت خيرتنا في أنفسنا، وأنت تلبس هذا اللباس! قال: هذا أول ما أخاصمكم فيه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

١. تفسير روح البيان ٣: ١٥٤.

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٥٥، وفيه: لجالينوس طبياً.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٥٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٣/١٥٧٠، تفسير الصافي ٢: ١٩٠.

٥. في النسخة: كاسياً.

الرُّزْقِي، وقال الله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^١.

وعنه عليه السلام، أنه رآه شفيان الثوري وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: والله، لآتيه ولأوبخه، فدنا منه فقال: يا بن رسول الله، ما لبس رسول الله ﷺ مثل هذا اللباس، ولا علي ولا أحد من آبائك؟ فقال [له]: «كان رسول الله ﷺ في زمانٍ قَترٍ مُقْتَرٍ، وكان يأخذ لَقَتْرَهُ وإِقْتَارَهُ، وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها^٢، فأحق أهلها بها أبرارها - ثم تلا هذه الآية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ الآية - فنحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله، غير أني يا ثوري، ما ترى علي من ثوبٍ إنما ألبسه للناس».

ثم اجتذب يد شفيان فجرها إليه، ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً، فقال: هذا لبسته لنفسي، وما رأيته للناس. ثم جذب ثوباً على شفيان أعلاه غليظ خشن ودخل ذلك الثوب ثوب لين، فقال: «لبست هذا الأعلى للناس، ولبست هذا لنفسك تشرها»^٣.

وعنه عليه السلام، أنه كان متكئاً على بعض أصحابه، فلقيه عباد بن كثير وعليه ثياب مروية^٤ حسان فقال: يا أبا عبد الله، إنك من أهل بيت النبوة، وكان أبوك من كان^٥، فما هذه الثياب المروية عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب؟ فقال له: «وبلك يا عباد ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرُّزْقِ﴾ إن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يراها عليه، ليس بها بأش، وبلك يا عباد، إنما أنا بضعة من رسول الله ﷺ فلا تؤذني». وكان عباد يلبس ثوبين من قطن^٦.

وعنه عليه السلام أنه قيل له: أصلحك الله، ذكرت أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس [الخن، يلبس] القميص بأربعة ذراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيد؟ فقال له: «[إن] علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمانٍ لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهره، فخير لباس كل زمان لباس أهله، غير أن قانمنا إذا قام لبس لباس علي عليه السلام وسار بسيرته»^٧.

ثم لما لم يكن للمشركين جواب عن السؤال الإنكاري غير السكوت، أمر الله نبيه ﷺ بالجواب عن سؤال نفسه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ما حرّم الله الزينة والطيبات على أحد، بل ﴿هي﴾ حلال للذين آمنوا^٨، بالأصالة ﴿في الحياة الدنيا﴾ وللمشركين والكفار ببغهم، وتكون للمؤمنين حال كونها ﴿خالصة﴾

١. الكافي ٦: ٤٤١/٧، تفسير الصافي ٢: ١٩١.

٢. الغزالي: جمع عزلاء، وهو مصب الماء من القرية ونحوها، وأرخت الدنيا عزاليها: بمعنى كثر نعمها.

٣. الكافي ٨: ٤٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٩١.

٤. نسبة إلى مرو، وهي بلدة بخراسان.

٥. في الكافي: وكان.

٦. الكافي ٦: ٤٤٣/١٣، تفسير الصافي ٢: ١٩٢، وفيه: ثوبين قطريين.

٧. الكافي ٦: ٤٤٤/١٥، تفسير الصافي ٢: ١٩٢.

ومختصة [بهم] لا يشركهم فيها الكفار ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعالم الآخرة ﴿كَذَلِكَ﴾ التفصيل والتبيين الواضح ﴿تَفْصِلُ﴾ ونبين ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على المعارف والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حسن العرفان والطاعة دون غيرهم لعدم أهليتهم للانتفاع بها.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٢٣]

ثم أنه تعالى بعد إبطال حرمة ما حرّم المشركون، أمر نبيه ﷺ ببيان ما حرّم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ على الناس ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ والقبائح التي بلغ قبحها النهاية، سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالزنا المعلن به، وغيره من الكبائر ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وخفي كالزنا في السرّ ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما توسط في القبح كالصغائر ﴿وَالْبَغْيَ﴾ والإضرار بالغير نفساً أو مالاً ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ومجاوز له ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ في ألوهيته وعبادته شيئاً لم يحكم العقل بجواز إشراكه وعبادته، و﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ إليكم ﴿سُلْطَانًا﴾ وبرهاناً.

عن الكاظم عليه السلام: «أما ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ فإنها الزنا، وأما قوله ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني: الزنا المعلن به ونصب الزانيات التي كانت ترفعها الفواحش للفواحش في الجاهلية. وأما قوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يعني ما نكح من أزواج الآباء؛ لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا كان للرجل زوجة ومات عنها تزوجها ابنته من بعده إذا لم تكن أمه، فحرّم الله عز وجل ذلك. وأما ﴿الْإِثْمَ﴾ فإنها الخمر بعينها، وقد قال الله عز وجل في موضع آخر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ^١﴾. فأما ﴿الْإِثْمَ﴾ في كتاب الله فهي الخمر والميسر^٢، وإثمهما كبير، وأما ﴿البغي﴾ فهو الزنا سراً^٣.

أقول: في الرواية ما لا يخفى من الخلل، ولا يبعد حملها على بيان أظهر المصاديق الشائعة بين المشركين في زمان النزول. نعم فسر جمع من المفسرين ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ بخصوص الزنا بدعوى انصراف الفاحشة في العرف إليه، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً^٤﴾، و﴿مَا ظَهَرَ﴾ بالزنا العلانية، أو الثبلة والثلاسة، و﴿مَا بَطَنَ﴾ بالسر منه، أو بالدخول، و﴿الْإِثْمَ﴾، بخصوص الخمر و﴿البغي﴾ بالكبر والظلم على الغير^٥. وفي الكل نظر.

١. البقرة: ٢١٩/٢. ٢. زاد في تفسير العياشي: فهي الرّد.

٣. الكافي ٦: ١٤٠٦، تفسير العياشي ٢: ١٥٨٠/١٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٣.

٤. النساء: ٢٢/٤.

٥. راجع: تفسير الرازي ١٤: ٦٥ و٦٦.

وعلى ما قلنا من عموم الفواحش والإثم، يكون إفراذ البغي بالذكُر مع دخوله في الأولين، للمبالغة في الزجر عنه. وتقييد البغي «بغير الحق» مع دخول القيد في مفهومه للتأكيد. وتقييد الاشتراك بـ «ما لم يُنزل به سلطاناً» للتهكُّم وللإشعار بعدم جواز الالتزام بشيءٍ لا حجة عليه.

عن الصادق عليه السلام: «أن القرآن له ظهْرٌ وبطنٌ، فجميع ما حرّم الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحلّ الله في الكتاب هو الظاهر، والباطن [من ذلك] أئمة الحق»^١.
«وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أي تتقولوا وتفتروا.

عن الباقر عليه السلام أنه سُئل: ما حجة الله على العباد؟ فقال: «أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، في وصيته لابنه محمد بن الحنفية: «يا بني، لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كل ما تعلم»^٣.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [٣٤]

ثم لما بين الله تعالى معظم محرماته، أو بعضها بنحو العموم والإجمال وبعضها بنحو التفصيل، هدّد الناس على مخالفتها بقوله: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ الْأُمَمِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الطَّوَائِفِ «أَجَلٌ» وأمدّ معين في علم الله واللوح المحفوظ، يعيشون فيه ويمهلون إلى انقضائه بمقتضى الحكمة البالغة «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ» وانقضت مدّة عيشهم ومهلّتهم في الدنيا، أتاهم الموت أو عذاب الاستئصال، إذا «لَا يَسْتَأْخِرُونَ» ولا يمهّلون «سَاعَةً» وزماناً قليلاً «وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» ولا يعجلون، ولو كانوا طالبين للتأخير والتقديم، مشتاقين إليهما. فاستنھضوا الفرصة ولا تأمّنوا مكر الله وبأسه.

عن ابن عباس: أن معنى الآية أن الله أمهل كل أمة كذبت رسلها إلى وقتٍ معين، وهو تعالى لا يُعذّبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقّين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة^٤.

عن الصادق عليه السلام: «هو الذي سَمِيَ لَمَلِكِ الموت في ليلة القدر»^٥.
وعنه عليه السلام: «تعدّ السنين، ثم تعدّ الشهور، ثم تعدّ الأيام، ثم تعدّ الأنفاس، فإذا جاء أجلهم لا

١. تفسير العياشي ٢: ١٤٥/١٥٧٨، الكافي ١: ١٠/٣٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.

٢. التوحيد: ٢٧/٤٥٩، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.

٣. من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٨١/١٦٢٧، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٤٧/١٥٨١، ولم يرد فيه: في ليلة القدر، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٦٧.

يستأخرون ساعة ولا يستقدِّمون»^١.

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٣٦ و ٣٥]

ثم بعد بيان المحرمات والتهديد على مخالفتها، بين الله تعالى وجوب متابعة الرُّسل، ووعدهم
بالتَّوَابِ على طاعتهم والعقاب على تكذيبهم ومخالفتهم بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وإذا
جاءكم من قبلي ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ جنساً؛ ليكون إرشادهم أقطع للعدو، وأبين للحجة، وهم ﴿يَقْضُونَ﴾
ويتلون ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ من الكتب السماوية ودلائل التوحيد، ويبيِّن أحكام شريعتي ﴿فَمَنْ
اتَّقَى﴾ مخالفتي في الإيمان بهم ومخالفتهم في أحكامهم ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عقانده وأخلاقه وأعماله
بامتثال أوامره، وانتهائه عما نهوا عنه ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ بوجهٍ من الوجوه مما يُصيب الغصاة من
عذاب الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أبداً على ما فاتهم من الدنيا، لاستغراقهم في اللذات الروحانية في
الدُّنيا، والنَّعم التي أعدها الله للمتقين في الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّة على توحيدي ورسالة رُسلي ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وترفعوا عن
الإيمان بها، وتجاوزوا عن قبولها تعظماً ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون عن رحمتي ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾
وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبداً، لا خلاص لهم منها ولا مناص.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ
مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَأَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ
أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ
أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَاتَيْهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ *
وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ [٣٧-٣٩]

ثُمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي ذِمِّ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، والمفترين على الله بالبدع والأحكام الفاسدة الباطلة بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه، وأخسر في تجارتِهِ ﴿مِمَّنْ أَفْتَرَى﴾ وتقول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ قولاً ﴿كُذِّباً﴾ ونسب إليه حكماً باطلاً، كحرمة البحيرة وأخواتها ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وأنكر دلالة الدالة على توحيدِهِ في الألوهية والعبادة والعظمة، وإرسالة رُسُلِهِ، ودار جزائِهِ.

﴿أُولَئِكَ﴾ البالغون في الظلم غايته ﴿يَنَالُهُمْ﴾ ويصل إليهم ﴿نَصِيْبُهُمْ مِنْ﴾ الشَّافَةِ كما عن ابن عباس^١، أو من العقوبات كما عن القمي^٢، أو من الأرزاق والأعمار والحطوظ الدنيوية المكتوبة لهم في ﴿الْكِتَابِ﴾ ولوح القضاء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ ونزلت عليهم ﴿رُسُلُنَا﴾ والمبعوثون من قِبَلِنَا مِنَ الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، لأجل أنهم ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويقبضون أرواحهم، إذن ﴿قَالُوا﴾ لهم توبيحاً وتقريعاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ في حياتكم ﴿تَدْعُونَ﴾ وتعبّدونه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وبدلاً مِنْهُ، من الأصنام والكواكب وغيرها، وترجون نفعه لكم عند الشدائد؟ فادعوه الآن لئنجوكم من أيدينا ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم تحسراً وتندماً: إنهم قد ﴿ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنَّا﴾ ولا ينفعونا اليوم ﴿وَشَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الخبيثة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله، عابدين لما لا يستحقّ العبادة.

قيل: هذا بيان سوء حالهم في القيامة، والمراد من (الرُّسُل) ملائكة العذاب، ومن (التَّوْفِيَةِ) جمعهم واشتكمال عدّتهم للحشر إلى النار، حتى لا ينفلت منهم أحد^٣ إذن ﴿قَالَ﴾ الله تعالى، أو خازن النار: ﴿أَدْخُلُوا﴾ أيها المشركون اليوم ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَّمٍ﴾ وجماعات مشركين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت تلك الأمم في الأزمنة التي كانت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في الدنيا وهم كانوا ﴿مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ جنساً ﴿فِي النَّارِ﴾ فيدخلونها فوجاً بعد فوج، وأمة بعد أمة.

فلما رأوا سوء عاقبة الشُّرك ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ منهم في النار ﴿لَعَنَتْ﴾ تلك الأمة ﴿أُخْتَهَا﴾ وشريكها في الكفر والضلال، وتبرأت من الجماعة الموافقة لها في الشُّرك، فهم يكونون على تلك الحالة ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا﴾ وتلاحقوا في النار واجتمعوا ﴿فِيهَا جَمِيعاً﴾ وكافة ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ دخولاً وأدناهم منزلة، وهم الأتباع والسفلة، تخفيفاً للعذاب عن أنفسهم، وازدياداً ﴿لِأُولَآئِهِمْ﴾ دخولاً وأعلامهم منزلة في الدنيا من الرؤساء والقادة: ﴿وَرَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ الرؤساء والكبراء ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الدين الحق، بأن سَوَّلُوا لنا سُنَّةَ سَيِّئَةٍ فافتدينا بهم، ﴿فَأَتَيْنَهُمْ﴾ وأنزل بهم ﴿عَذَاباً ضِعْفاً﴾ مضاعفاً ﴿مِنْ

النَّارِ، حَيْثُ إِنَّهُمْ ضَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَأَضَلُّوا أَتْبَاعَهُمْ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ خَازِنَ جَهَنَّمَ: ﴿لِكُلِّ﴾ مِنَ الْمَتَّبِعِ وَالْتَّابِعِ مِنْكُمْ عَذَابٌ ﴿ضِعْفٌ﴾ أَمَّا الرُّؤَسَاءُ فَبِضْلَالِهِمْ وَأَضْلَالِهِمْ، وَأَمَّا الْأَتْبَاعُ فَبِكُفْرِهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَدْرَهُ وَشِدَّتَهُ لِكُلِّ فَرِيقٍ.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾ وَقَادَتْهُمْ مُخَاطَبِينَ ﴿لِأَخْرَاقِهِمْ﴾ وَأَتْبَاعَهُمْ بَعْدَ اسْتِمَاعِهِمْ جَوَابِ اللَّهِ أَوْ الْخَازِنِ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأَتْبَاعُ إِذَنْ ﴿عَلَيْنَا﴾ شَيْءٌ ﴿مِنْ فَضْلِ﴾ وَمَزِيَّةٍ بِخَفَةِ عَذَابِكُمْ وَشِدَّةِ عَذَابِنَا، بَلْ كُنَّا مُتَسَاوِينَ فِي الْعَذَابِ قَدْرًا وَشِدَّةً، لِأَنَّا مَا أَجَانَاكُمْ إِلَى الْكُفْرِ، بَلْ أَتَبَعْتُمْ هَوَى أَنْفُسِكُمْ كَمَا أَتَبَعْنَا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وَاطْعَمُوا طَعْمَهُ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ. عَنِ الْقَمِيِّ: قَالُوا ذَلِكَ شِمَاتَةً بِهِمْ^١.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ [٤٠]

ثُمَّ بَالِغُ شُبْحَانِهِ فِي تَهْدِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ وَالْبَعْثِ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وَامْتَنَعُوا تَرْفُعًا عَنِ الْإِقْرَارِ بِهَا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ حَتَّى تُرْفَعَ إِلَيْهَا أَدْعِيَتُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، وَأَرْوَاحُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ. عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَتُرْفَعُ أَعْمَالُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُهَا، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُصْعَدُ بِعَمَلِهِ وَرُوحِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّمَاءَ نَادَى مُنَادٍ: اهْبِطُوا إِلَى سِجِّينَ؛ وَهُوَ وَادٍ بَحْضَرُ مَوْتٍ يُقَالُ لَهُ بَرَهوت»^٢.

وَرُوي أَنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، وَيُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَيُسْتَفْتَحُ لِرُوحِ الْكَافِرِ فَيَقَالُ لَهَا: ازْجِعِي ذَمِيمَةً^٣، فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ فِي الْآخِرَةِ أَبَدًا ﴿حَتَّى يَلِجَ﴾ وَيَدْخُلَ ﴿الْجَمَلُ﴾ مَعَ عَظَمِ جُسَدِهِ ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وَتَقَبُّ الْإِبْرَةِ، وَهَذَا مُحَالٌ، فَدُخُولُ الْكَافِرِ فِي الْجَنَّةِ أَيْضًا مُحَالٌ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْجِرْمَانُ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿نَجْزِي﴾ فَرَقَ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وَالْعَصَا.

٢. مجمع البيان ٤: ٦٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٦.

١. تفسير القمي ١: ٢٣٠، تفسير الصافي ٢: ١٩٦.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٦٠.

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٤٢ و ٤١]

ثم بين شدة عذابهم بقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وفراش يقدعون ويضطجعون عليه ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وعلى أجسادهم ﴿غَوَاشٍ﴾ وأغطية من النار فيحيط بهم العذاب من كل جانب ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الجزاء الفظيع والعذاب الشديد ﴿نَجْزِي﴾ القوم ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم^١ باختيار الشرِّ ومعارضة الأنبياء.

ثم أنه تعالى على دأبه في الكتاب العظيم بعد وعيد الكفار، شرع في وعد المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وواظبوا على الحسنات وترك السيئات بمقدار وسعة بحيث لا يشق عليهم^٢، فإننا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ من النفوس ﴿إِلَّا﴾ تكليفاً يكون امثالها والقيام به ﴿وُسْعَهَا﴾ ودون طاقتها، بحيث لا يكون حرج عليها، ﴿أُولَئِكَ﴾ العباد المطيعون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وملازمو النعمة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال لنعيمهم ولا نفاد.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّوا أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [٤٣]

ثم بعدما بشرهم ربهم بطيب المسكن ودوام النعمة، بشرهم بفرغ القلب من الآلام الروحية، وصفاء المنظر بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وسلبنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿مِنْ غَلٍّ﴾ وحقد كان لهم على المؤمنين في الدنيا، وحسد على ما أتى الكملين في الآخرة من فضله وإحسانه، فلا يكون بينهم إلا التوادد والتحابب، فهم إخوان على سررٍ متقابلين، كما لا يكون بين الكفار في جهنم إلا التباغض والتنافر بحيث يلعن بعضهم بعضاً.

الثماني: عن الباقر عليه السلام: «العداوة تنزع منهم»، أي من المؤمنين في الجنة^٣. وأما صفاء منظرهم بأنه ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ وأسفل قصورهم ﴿الأنهار﴾ الكثيرة، أو الأربعة، وقيل: إن جريان الأنهار كناية عن المكاشفات والفيوضات الروحية ﴿وَقَالُوا﴾ بعد مشاهدة منازلهم

١. في النسخة: عليه.

١. كذا، والظاهر: الظالمين أنفسهم.

٣. تفسير القمي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

وكثرة فضل الله عليهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾ بفضلِهِ إلى معرفته، وأرشدنا بتوسط رُسوله لهذا الدِّين القويم، وأوصلنا بتوفيقه ﴿لِهَذَا﴾ الجزاء العظيم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ في الدُّنيا ﴿إِلَهْتَدِي﴾ بقولنا وسعينا ﴿لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ بُلطفه إليه.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «إذا كان يوم القيامة دُعي النبي ﷺ وأمير المؤمنين والأنمة من ولده عليه السلام فينصبون للناس، فإذا رأتهم شيعتهم قالوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» الآية، يعني: هَدَانَا إِلَى وَلايَةِ أمير المؤمنين والأنمة من ولده عليه السلام»^١.

ثم يذكرون علّة انبساب هدايتهم إلى الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ وَرُسُلًا﴾ من جانب الله ﴿بِالْحَقِّ﴾ والذين الصدق، أو بالمعجزات ودلائل الصدق، فاهتدنا بإرشادهم، وصدقناهم واتبعناهم بتوفيقه. وإنما يقولون ذلك نشاطاً وسروراً بإنجاز ما وعدهم الله على لسان رُسله، وفرحاً بانقلاب قِيَمَتهم البرهاني باليقين الشهودي ﴿وَوُودُوا﴾ من قِبَل الله عند رؤيتهم الجنة، أو بعد استقرارهم فيها إظهاراً للجنة عليهم: ﴿أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةَ﴾ التي وعد المتقون وأنتم ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ ومُلكتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لطاعة الله ومَرْضاه، فادخلوها، أو أقيموا فيها خالدين.

عن النبي ﷺ: «ما من أحدٍ إلّا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، فذلك قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^٢.
وعنه عليه السلام: «ليس من كافرٍ ولا مؤمنٍ إلّا وله في الجنة والنار منزل، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، رُفعت الجنة لأهل النار، فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل: لهم هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله، ثم يقال لأهل الجنة: رثوهم^٣ بما كنتم تعملون، فيقسم بين أهل الجنة منازلهم»^٤.

وعن الصادق عليه السلام^٥، في هذه الآية: «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سَبَقُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً، فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ: فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيَنْزِعَ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، وَهُوَ الشَّرَابُ الطَّهُّورُ، وَاغْتَسَلُوا مِنَ الْآخَرَى فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَلَمْ يَشْعُرُوا وَلَمْ يَشْعَبُوا، وَيُبَشِّرُهُمْ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوهَا بِأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ: «أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، فَإِذَا دَخَلُوا فِيهَا قَالُوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا» الآية»^٦.

وفي الخبر: «يقال لهم: جُوزُوا الصُّرَاطَ بِعَفْوِي، وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَاقْتَسِمُوا بِأَعْمَالِكُمْ»^٧.

٢. مجمع البيان ٤: ٦٤٩، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٨٢.

٦. تفسير روح البيان ٣: ١٦٣.

١. الكافي ١: ٣٣/٣٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

٣. رثوهم: فعل أمر من ورث يرث.

٥. في روح البيان: عن السدي.

٧. تفسير روح البيان ٣: ١٦٣.

وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [٤٤]

ثم لما بين الله تعالى وعيد الكفار بالنار ووعد المؤمنين بالجنة، ذكر مخاطبة المؤمنين للكفار بقوله: «وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» بعد اشتغالهم فيها، وإشراقهم على جهنم فرحاً بما هم فيه من النعم «أَصْحَابَ النَّارِ» المنكرين للتوحيد والرسالة والحشر، توبيخاً وشماتة لهم: «أَنْ قَدْ وَجَدْنَا» وشهدنا بالعيان «مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا» في الدنيا بلسان رُسوله من الثواب والكرامة على الإيمان والطاعة «حَقًّا» وصدقاً «فَهَلْ وَجَدْتُمْ» اليوم، وشاهدتم أنها المكذوبون «مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ» من العقاب الشديد على الكفر به وعصيانه وتكذيب رُسله «حَقًّا»؟ وإنما لم يقل سبحانه: (ما وعدكم ربكم) إشعاراً بعدم قابليتهم لأن يكونوا طرفاً لوعد الله وتوجهه «قَالُوا» وهم في النار تحسراً وتندماً: «نَعَمْ» وجدنا جميع ما وعده حقاً «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ» من قِبل رَبِّ العِزَّةِ «بَيْنَهُمْ» وفي وسطهم، أو من بينهم أذاًنا يسمع الخلاق - كما عن القمي^١ - «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ» وعذابه ثابت أو مستقر «عَلَى» الكافرين «الظَّالِمِينَ» على أنفسهم بتعريضها للهلاك.

عن الكاظم والرضا عليهما السلام: «المؤذن أمير المؤمنين عليه السلام»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا ذلك المؤذن»^٣.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ [٤٥]

ثم ذم الله الظالمين بقوله: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ» الناس «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» ودين الإسلام، ويمنعونهم عن قبوله بالفهر أو التظميع أو غيرهما من الحيل «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» ويطلبون فيها ميلاً وانحرافاً عما هي عليه من الاستقامة، بإلقاء الشكوك والشبهات فيها وفي دلائل صحتها «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ» ودار الجزاء «كَافِرُونَ» جاحدون. وفيه إشعارٌ بعلّة ما سبق من سوء أعمالهم.

وَيَبْنِيهِمَا جِبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلَّ بِسْمَاهُمْ وَنَادَاوَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ

١. تفسير القمي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٤٧/١٥٨٣، الكافي ١: ٧٠/٣٥٢، تفسير القمي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

٣. مجمع البيان ٤: ٦٥١، تفسير الصافي ٢: ١٩٨.

تِلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٤٦ و ٤٧]

ثُمَّ لَمَّا حَكَّى اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطَبَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ، وَكَانَ مَجَالُ تَوْهُمِ الْقُرْبِ بَيْنَهُمَا، وَتَلَدُّدُ أَهْلِ النَّارِ بِرَانِحَةِ الْجَنَّةِ وَنِعْمَتِهَا، وَتَأْذِي أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ تَنُّنِ الْجَحِيمِ وَخَرَّهَا، دَفَعَ التَّوَهُمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَنْتَهِمَا حِجَابٌ﴾ وَسُورَ كُشُورِ الْمَدِينَةِ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وَأَعَالِي ذَلِكَ السُّورِ - كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^١ - أَوْ الْمَأْمُورُونَ عَلَى تَعْرِيفِ الْقَرِيقَيْنِ ﴿رِجَالٌ﴾ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ قِيلَ: هُمْ الْأَنْبِيَاءُ يُجْلِسُهُمُ اللَّهُ عَلَى أَعَالِي ذَلِكَ السُّورِ تَعِيزًا لَهُمْ عَنْ سَائِرِ أَهْلِ الْقِيَامَةِ، وَاطْهَارًا لِشَرَفِهِمْ وَعُلُوِّ مَرَاتِبِهِمْ، وَلِيَكُونُوا مُشْرِفِينَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، مُطَّلِعِينَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَيَقْدَارِ تَوَابِهِمْ وَعِقَابِهِمْ^٢، وَقِيلَ: هُمْ الشُّهَدَاءُ^٣ «يَعْرِفُونَ كُلًّا» مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ «بِسِيمَاهُمْ» وَعَلَامَتِهِمُ الَّتِي أَعْلَمَهُمُ اللَّهُ بِهَا.

في معنى الأعراف عن الصادق عليه السلام: «الأعراف: كُتُبَانُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالرِّجَالُ: الْأَنْمَةُ»^٥.
والمصدر من وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «نَحْنُ نُوَقَّفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا أَصْحَابَهُ عَرَفْنَاهُ بِسِيمَاهُ فَأَدْخَلْنَاهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ أَبْغَضَنَا عَرَفْنَاهُ بِسِيمَاهُ فَأَدْخَلْنَاهُ النَّارَ»^٦.

وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «نَحْنُ عَلَى الْأَعْرَافِ نَعْرِفُ أَنْصَارَنَا بِسِيمَاهُمْ، وَنَحْنُ الْأَعْرَافُ الَّذِينَ لَا يُعْرِفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا، وَنَحْنُ الْأَعْرَافُ يُوقِفُنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ، فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفْنَا وَعَرَفْنَاهُ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرْنَا وَأَنْكَرْنَاهُ»^٧.

وعَنْ سَلْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرَّاتٍ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّكَ وَالْأَوْصِيَاءَ مِنْ بَعْدِكَ أَعْرَافُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَكُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ»^٨. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ الْكَثِيرَةِ بِهَذَا الْمَضْمُونِ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ. وَفِي بَعْضِهَا: «الرِّجَالُ هُمُ الْأَنْمَةُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَالْأَعْرَافُ صِرَاطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»^٩.

وَعَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَثَلَ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَقَصُرَتْ بِهِمُ الْأَعْمَالُ». الْخَبِيرُ^{١٠}.

وَعَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَثَلَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: «قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَإِنْ أَدْخَلَهُمُ النَّارَ

١- ٣. تفسير الرازي ١٤: ٨٧.

٤. الكُتُبَانِ، جَمْعُ الْكِتَابِ: هُوَ الرَّمْلُ الْمَجْتَمِعُ الْمَحْدُودُ.

٥ و ٦. مجمع البيان ٤: ٦٥٣، تفسير الصافي ٢: ١٩٨. ٧. الكافي ١: ٩١/٩، تفسير الصافي ٢: ١٩٨.

٨. تفسير العياشي ٢: ١٤٨/١٥٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٩.

٩. بصائر الدرجات: ٥/٥١٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٩. ١٠. تفسير الصافي ٢: ١٩٩.

فَبَذَنُوهُمْ، وَإِنْ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ فَبَرَحْتُمْ^١. وعليه جمعٌ من مُفَسِّرِي العامة^٢.

ويجمعُ بين الروايات ما في (الجوامع) عن الصادق عليه السلام قال: «الأعراف كُتبان بين الجنة والنار. يُوقِفُ عليها كُلَّ نَبِيٍّ وَكُلَّ خَلِيفَةٍ نَبِيٍّ مَعَ الْمُذْنِبِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، كَمَا يَقِفُ صَاحِبُ الْجَيْشِ مَعَ الضَّعْفَاءِ مِنْ جُنْدِهِ، وَقَدْ سَبَقَ الْمُحْسِنُونَ إِلَى الْجَنَّةِ». الخبر^٣.
ففيه الدلالة على أَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ عَلَى الْأَعْرَافِ أَشْرَافُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَسْفَلُهُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ.

﴿وَنَادَوْا﴾ أولئك السُّفَلَةُ^٤ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والمُحْسِنِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ إِلَيْهَا، إِذَا عَايَنُوهُمْ يَدْخُلُونَهَا وَهُمْ بَعْدَ وَاقِفُونَ مُتَظَرِّونَ لِلشَّاعَةِ: ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، عن الصادق عليه السلام، في الرواية السَّابِقَةِ: «فَيَقُولُ الْخَلِيفَةُ لِلْمُذْنِبِينَ الْوَاقِفِينَ مَعَهُ: انظُرُوا إِلَى إِخْوَانِكُمُ الْمُحْسِنِينَ قَدْ سَبَقُوا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمُذْنِبُونَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾». الخبر^٥. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أَنْ يَدْخُلَهُمُ اللَّهُ أَيَاها بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ وَالْإِمَامِ.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ ووقعت ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ - حَالُ كَوْنِهِمْ عَلَى الْأَعْرَافِ ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وَمُقَابِلِهِمْ - عَلَيْهِمْ ﴿قَالُوا﴾ تَضَرَّعًا إِلَى اللَّهِ وَتَعَوُّذًا بِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِي النَّارِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

عن الصادق عليه السلام، في الرواية السَّابِقَةِ: «وَيَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَى أَصْحَابِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾. الخبر^٦.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [٤٨ و ٤٩]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى إِشْرَافَ أَشْرَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى الْأَعْرَافِ، حَكَى تَوْبِيخَهُمْ أَصْحَابَ النَّارِ، وَشَمَاتَتِهِمْ بِهِمُ التَّذَادُ لَأَنْفُسِهِمْ، وَازْدِيَادُ الْعَذَابِ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ

١. الكافي ٢: ٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٢٠٠.

٢. تفسير الرازي ١٤: ٨٨.

٣. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٠.

٤. السُّفَلَةُ: نقيض العُلُوَّة، يَفْلُةُ النَّاسِ أَوْ سَفِلَتْهُمْ: أَسَافَلَهُمْ.

٥. في جوامع الجامع: سبقوا.

٦. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠١.

الْأَعْرَافِ» الَّذِينَ هُمْ أَشْرَافُ الْمُؤْمِنِينَ «وَجَالَاءُ» مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا «يَغْرِفُونَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ» تقريباً وتوبيخاً، وَقَالُوا: لقد شاهدتم أيها الرؤساء أنه «مَا أَغْنَى» ولم يَكْفِ في دفع العذاب «عَنْكُمْ» اليومَ «جَمْعُكُمْ» الأعوان والأتباع والأموال في الدنيا «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» به من النَّسَبِ وَالْجَاهِ، على الأنبياء والأولياء والفُقراء من المؤمنين.

وقيل: إن كلمة (ما) في «مَا أَغْنَى» استفهامية، و(ما) في «مَا كُنْتُمْ» مصدرية^١.
ثم بلغوا في تَرْيعِهِمْ وتوبيخِهِمْ بقولهم، مُشيرين إلى فقراء المؤمنين: «أَهْؤْلَاءُ» الفقراء الضُّعفاء «الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ» وحلفتم على أنه «لَا يَنَالُهُمْ اللَّهُ» ولا يُصِيبُهُمْ «بِرَحْمَةٍ» منه وفضلٍ أبداً؟ ثم يلتفتون إلى فقراء المؤمنين ويقولون لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» على رَغَمِ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ عليكم «لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ» حينَ يَخَافُ الْكُفْرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ «وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» حينَ يَحْزَنُ هَؤُلَاءِ. وعن الصادق عليه السلام، في الحديث السابق: «وينادي أصحاب الأعراف - وهم الأنبياء والخلفاء - رجلاً من أهل النار ورؤساء الكفار، يقولون لهم مَقرَّعين: «مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ» واشتباؤكم، «أَهْؤْلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ»، إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويَحْقِرُونَهُمْ لِفَقْرِهِمْ، ويستطيلون عليهم بذيابهم، ويُقسمون أن [الله] لا يَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» يقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المُستضعفين، عن أمرٍ من أمر الله عز وجل لهم بذلك: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» أي لا خائفين ولا محزونين»^٢.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ [٥٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان مخاطبة أهل الجنة وأصحاب الأعراف لأصحاب النار، حكى مخاطبة أهل النار لهم بقوله: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ» بعد استقرارهم فيها «أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» بعد اشتغالهم في نِعَمِهَا: «أَنْ أَفِضُوا» وَضَبُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «عَلَيْنَا» شيئاً قليلاً «مِنَ الْمَاءِ» البارد «أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» وأنعم عليكم بفضلِهِ من سائر الأشربة، أو منها ومن الفواكه والأطعمة لِتُخَفَّفَ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ، أو العطش والجُوع.

عن ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس^٣.

٢. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠١.

١. تفسير روح البيان ٣: ١٦٩.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٩٢.

وقيل: إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَمَّا بَقُوا فِيهَا جِيعاً عِطَاشاً قالوا: يَا رَبَّنَا، إِنَّ لَنَا قَرَابَاتٍ فِي الْجَنَّةِ فَأَذُنْ لَنَا حَتَّى نَرَاهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ، فأمر الله الجنة فتزحزحت^١ فَيُؤْذِنُ فِي ذَلِكَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَى قَرَابَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ، فَيَعْرِفُونَهُمْ وَلَا يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ لِسَوَادِ وَجُوهِهِمْ، فَيُنَادُونَ قَرَابَاتَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ إِخْبَارِهِمْ بِقَرَابَتِهِمْ ويقولون: «أُفِضُوا عَلَيْنَا»^٢.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ (مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ) الْأَطْعَمَةَ وَالْفَوَاكِهَ^٣.

عن الصادق عليه السلام: «يَوْمَ النَّادِ يَوْمٌ يُنَادِي أَهْلُ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ: «أُفِضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ»^٤.

عن أحدهما عليه السلام قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَمُوتُونَ عِطَاشاً، وَيَدْخُلُونَ قُبُورَهُمْ عِطَاشاً، وَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ عِطَاشاً، فَيُزَفُّ لِهِمْ قَرَابَاتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: «أُفِضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ»^٥.
رُوي أَنَّهُ لَا يُؤْذِنُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَوَابِ أَرْبَعِينَ سَنَةً^٦.

ثُمَّ يُؤْذِنُ لَهُمْ فِي جَوَابِهِمْ، كَمَا حَكَّى اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «قَالُوا» فِي جَوَابِهِمْ: «إِنَّ» شَرَابَ الْجَنَّةِ وَطَعَامَهَا مَمْنُوعَانِ مِنْكُمْ؛ لِأَنَّ «اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ» بِأَنكُمْ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَغِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا

نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [٥١]

ثُمَّ شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْكُفَّارِ وَقَدْجِهِمْ بِأَشْنَعِ ذَمَائِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، وَتَهْدِيدِهِمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا» وَجَعَلُوا «دِينَهُمْ» الَّذِي أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْتَّوَكُّلِ بِهِ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ «لَهْوًا» وَبَطْلاً «وَلَغِبًا» وَغَيْبًا، حَيْثُ إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ مَا شَاءُوا، وَيُحِلُّونَ مَا شَاءُوا، وَلَا يَتَّبِعُونَ أَحْكَامَ اللَّهِ، بَلْ يَتَّبِعُونَ هَوَى أَنْفُسِهِمُ الَّتِي زَيَّنَّهَا الشَّيْطَانُ لَهُمْ، قِيلَ: كَانَ دِينُهُمْ دِينُ إِسْمَاعِيلَ فَغَيَّرُوهُ بِهَوَاهُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا اللَّهَ وَاللَّعِبَ دِينًا لِأَنفُسِهِمْ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْمُقْتَسِمِينَ^٧.

«وَوَغَّرَتْهُمْ» وَشَغَلَتْهُمْ «الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» وَلَذَائِهَا وَزَخَارِفُهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالتَّوَكُّلِ فِي آيَاتِهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي عَوَاقِبِهِمْ، فَصَارَ هُمُومُهُمْ فِي تَحْصِيلِ الْجَاهِ وَالْمَالِ وَسَائِرِ الْمُشْتَهَاتِ «فَالْيَوْمَ

٢. تفسير الرازي ١٤: ٩٢.

١. في النسخة: فتزحزحت.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٥٠/١٥٩٢، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٩٣.

٦. تفسر روح البيان ٣: ١٧١.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٤٩/١٥٩١، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢.

٧. تفسير الرازي ١٤: ٩٣.

نَنسَاهُمْ» ولا نعتني بهم، ولا نلتفت إليهم، كما لا يلتفت الناسي إلى المنسي، أو نتركهم في النار أبداً ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ولم يلتفتوا إليه، ولم يعتنوا بما ينفعهم فيه، ولم يستعدوا له.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني بالنسيان أنه لم يُنبههم كما يُنبه أولياء الذين كانوا في دار الدنيا مطيعين ذاكرين حين آمنوا به وبرسله، وخافوه في الغيب، وقد يقول العرب في باب النسيان: قد نسينا فلان فلا يذكرنا، أي أنه لا يأمر لهم بخير ولا يذكرهم به»^١.

وعن الرضا عليه السلام: «أي نتركهم كما تركوا الاستعداد لِقَاءَ يومهم هذا، وقال: إنما يجازي من نسيه ونسي لِقَاءَ يومه بأن ينسيهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾»^٢.

﴿و﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا، ورسالة رسلنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وإياها ينكرون عناداً واشتكباراً.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٥٢]

ثم أنه تعالى بعد شرح أحوال الكفار والمؤمنين في القيامة ببيان معجز، أعلن بانقطاع عذر الكفار في ترك الإيمان بالنبوة والكتاب بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ عظيم الشأن ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ وشرحنا ما فيه من المعارف والأحكام والمواعظ، وغيرها من العلوم واحداً بعد واحد مبيناً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كامل مينا بتفاصيله وواقعيات الأمور، ومنافع ما فيه، ليكون ذلك الكتاب ﴿هُدًى﴾ ورشاداً إلى الحق، وسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وفضلاً عظيماً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، المصدقين بأنه من الله، فإنهم المتنفعون والمتدبرون في آياته، المقتبسون من أنواره.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٥٣]

ثم وبخهم الله على ترك الإيمان مع انقطاع عذرهم فيه بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ويتوقعون شيئاً آخر بعد هذا القرآن يكون باعثاً لهم على الإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر، مع أنه ليس شيء أبعد من

١. التوحيد: ٥/٢٥٩، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٥/١٨، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢، والآية من سورة الحشر: ١٩/٥٩.

هذا الكتاب ﴿إِلَّا تَأْوِيلُهُ﴾ ووقوع ما هددوا به فيه، من عذاب الاستئصال في الدنيا، أو مجيء يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَنُسُوهُ﴾ وتركوا العمل بما فيه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا إيماناً واعتراضاً بصدق الرُّسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ لهدايتنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والدين القويم، أو بالمعجزات الباهرات. فلما رأوا أنه لا ينفعهم إيمانهم، ولا مخلص لهم من العذاب، قالوا تسميئاً وتحسراً: ﴿فَهَلْ لَنَا﴾ اليوم ﴿مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ويدفعوا بشفاعتهم العذاب عنا؟ ﴿أَوْ نُزِدُ﴾ ونرجع إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ﴾ فيها عملاً ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وندين بدين غير الذي كنا ندين به، فإنه لا يمكن الخلاص إلا بأحد هذين الأمرين.

ثم تبه الله سبحانه على امتناع مطلوبهم ومأمولهم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي كانت بمنزلة رأس مالهم، في الكفر والعصيان ﴿وَضَلَّ﴾ وغاب أو فات ﴿عَنْهُمْ﴾ منافع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله أن يقبل شفاعته من الأصنام، وظهر لهم بطلان الأديان التي كانوا ينصرونها.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٥٤]

ثم لما كان الاعتقاد بالتمعاد متوقفاً على معرفة الله بالوحدانية وكمال القدرة والعلم، عرف ذاته المقدسة بتلك الصفات بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ هو ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ بقدرته الكاملة ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ السبع بما فيها من الكواكب وغيرها ﴿وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن القمي رحمه الله: في ستة أوقات^١. عن الصادق عليه السلام: «أن الله خلق الخير يوم الأحد، وما كان ليخلق الشر قبل الخير، وفي الأحد والاثنتين خلق الأرضين، وخلق أوقاتهما يوم الثلاثاء، وخلق السماوات يوم الأربعاء ويوم الخميس، وخلق أوقاتهما يوم الجمعة»^٢. الخبر.

أقول: الظاهر أن المراد من الأيام في الرواية: الأوقات التي لو كانت الشمس - التي بطلوعها وغروبها توجد الأيام وتتعدد - موجودة لكانت تلك الأوقات [هي] تلك الأيام. وأما تقدير الأوقات فيحتمل أنه كان إما بنسبة كل موجود إلى الآخر، وإما بالنسبة إلى حركة فللك الأفلاك. وإرادة غيره من قوله ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾.

وقيل: إن الله خلق الموجودات تدريجاً، ليعلم العباد التأني في الأمور.

٦٠٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٢

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهَا فِي أَقَلِّ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ لَخَلَقَ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْأَنَاءَ وَالْمُدَارَةَ مِثَالاً لِأَمْنَانِهِ، وَإِجَاباً لِلْحُجَّةِ عَلَى خَلْقِهِ»^١.

وعن الرضا عليه السلام: «وَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لِيُظْهَرَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مَا يَخْلُقُهُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَيُسْتَدَلُّ بِحُدُوثِ مَا يَحْدُثُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ»^٢.

وقيل: للتنبيه على أن لكل شيءٍ حداً محدوداً ووقتاً معيناً، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه، فتأخير ثواب المطيعين وعقاب العاصين لذلك.

«ثُمَّ اسْتَوَى» واستولى بعلمه وتدبيره «عَلَى الْعَرْشِ». عن أمير المؤمنين عليه السلام: «استوى تدبيره، وَعَلَا أَمْرَهُ»^٣.

وعن الكاظم عليه السلام: «استولى على ما دَقَّ وَجَلَّ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «استوى على كُلِّ شَيْءٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ»^٥.

وفي رواية: «لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ بَعِيدٌ، وَلَمْ يَقْرُبْ مِنْهُ قَرِيبٌ»^٦.

فحاصل الروايتين^٧: أن المُرَاد بالعرش جميع الموجودات: كما مرَّ في آية الكرسي أنه أخذَ مَعْنِيَهُ. وقيل: إن المُرَاد بالعرش هو السرير^٨، كما هو معناه لغةً، وكُنِيَ به عن الملك، فإنه إذا اختلَّ مُلْكُ مَلِكٍ يُقَالُ: نُلَّ عَرْشُهُ، وإذا استقام مُلْكُهُ واطَّرد أمرُهُ وحُكْمُهُ يُقَالُ: استوى على عَرْشِهِ واستقرَّ على سريرِ مُلْكِهِ.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الملائكة تحيل العرش، وليس العرش كما يُظَنُّ كهيئة السرير، ولكنه شيءٌ محدودٌ مخلوقٌ مُدَبَّرٌ، وربُّكَ عَزَّ وَجَلَّ مالِكُهُ، لا أنه عليه: ككُونِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ»^٩.

ثم استشهد سبحانه على كمال قدرته وتدبيره بقوله: «يُغْشَى» ويغطي «الَّيْلُ» بظلمته «النَّهَارُ» ويذهب بئوره، وهو مع ذلك «يَطْلُبُهُ» ويشتاق إلى مجيئه بعده «حَثِيثًا» وسريعا لا يفصل بينهما شيءٌ، فإن في تنظيم تعاقب الليل والنهار - مع وضوح أن فيه منافع عظيمة: إذ به يتمُّ أمرُ الحياة،

١. الاحتجاج: ٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٠٣.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٤/٣٣، تفسير الصافي ٢: ٢٠٣.

٣. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.

٤. الاحتجاج: ٣٨٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.

٥. الكافي ١: ٩٩/٨، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.

٦. الكافي ١: ٩٩/٨، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.

٧. تفسير روح البيان ٣: ١٧٤.

٨. أي اللتين عن الإمامين الكاظم والصادق عليهما السلام.

٩. التوحيد: ٣/٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٥.

وَكَمَالُ صَلَاحِ الْمَوْجُودَاتِ - دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

ثُمَّ قَرَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالشَّمْسُ﴾ التي هي سلطان الكواكب ﴿وَالْقَمَرُ﴾ الذي هو نانبها ﴿وَالنُّجُومُ﴾ التي هي خَدَمُهَا، خَلَقَهُنَّ حَالٌ كَوْنِيٌّ ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ مقهوراتٍ تحت إرادته.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَا سِوَى اللَّهِ إِمَّا جِسْمَانِيٍّ لَهُ مَادَّةٌ وَمُدَّةٌ وَحَجْمٌ وَمِقْدَارٌ، وَيُسَمَّى بِعَالَمِ الْخَلْقِ، وَإِمَّا رُوحَانِيٍّ لَا مَادَّةَ لَهُ وَلَا مُدَّةَ لَهُ وَلَا حَجْمٍ؛ وَيُسَمَّى بِعَالَمِ الْأَمْرِ، بَالِغٌ شَبْحَانَهُ فِي تَعْرِيفِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالسُّلْطَنَةِ فِيهِمَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا لَهُ﴾ تعالى خَاصَّةٌ ﴿الْخَلْقُ﴾ وَعَالَمُ الْجِسْمَانِيَّاتِ ﴿وَالْأَمْزُ﴾ وَعَالَمُ الرُّوحَانِيَّاتِ، إِيجَاداً أَوْ إِعْدَاماً، وَتَصَرُّفاً وَتَدْبِيراً، لَا مَالِكَ شَيْءٍ مِنْهُمَا غَيْرُهُ ﴿تَبَارَكَ﴾ وَتَعَالَى بِالرُّوحَانِيَّةِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ، وَتَعَظَّمَ بِالْفِرْدَانِيَّةِ فِي السُّلْطَنَةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ﴿اللَّهُ﴾ الَّذِي هُوَ ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَخَالَقَهَا وَمُدَبَّرَهَا.

ففيه رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْبَاباً، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِتَوْحِيدِهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، وَتَنْظِيمِ عَالَمِ الْوُجُودِ، كَالْمَلِكِ الْمُتَمَكِّنِ فِي مَمْلَكَتِهِ بِتَدْبِيرِهِ.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُغْتَبِينَ [٥٥]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ شَبْحَانَهُ أَنَّ تَدْبِيرَ الْعَالَمِ بِيَدِهِ وَجَمِيعَ الْخَيْرَاتِ نَازِلٌ مِنْهُ، أَمَرَ النَّاسَ بِسُؤَالِهِ وَرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَطْعِ طَمَعِهِمْ عَنْ غَيْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ادْعُوا﴾ وَاسْأَلُوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ اللَّطِيفُ بِكُمْ، السَّمِيعُ لِدَعَائِكُمْ، الْقَادِرُ عَلَى إِجَابَتِكُمْ جَمِيعَ حَوَائِكُمْ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَلِيَكُنْ دَعَاؤُكُمْ لَهُ ﴿تَضَرُّعاً﴾ وَخُضُوعاً وَتَذَلُّلاً ﴿وَخُفْيَةً﴾. وَسِرّاً بِحَيْثُ بَلَا يَسْمَعُهُ غَيْرُكُمْ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْخُلُوصِ وَالِاسْتِجَابَةِ، وَلَا تَعْتَدُوا فِي دَعَائِكُمْ، وَلَا تُجَاوِزُوا فِيهِ عَنْ حَدٍّ مَا أَمَرْتُمْ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يَحِبُّ الْمُغْتَبِينَ﴾ وَلَا يَرْضَى عَنِ الْمُتَجَاوِزِينَ عَنِ الْحَدِّ؛ بِالْإِقْتِرَاحِ عَلَيْهِ، وَطَلَبِ مَا لَا يَنْبَغِي طَلَبَهُ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرَّةِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ»^١.

فسي استجاب وعنه ﷺ، أنه كان في غزاة، فأشرف على وادٍ، فجعل الناس يهللون ويكبرون، ويرفعون أصواتهم، فقال: «يا أيها الناس، أزيعوا^٢ على أنفسكم، أما إنكم لا تدعون أصمّاً^٣ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً^٤ إنّه معكم»^٥.

١. اُزْبِعُوا: تَزَيَّعُوا وَانْتَظَرُوا.

٢. تفسير أبي السعود ٣: ٢٣٣.

٣. كذا، وفي المجمع: الأصم، وفي الصافي: أصم.

٤. مجمع البيان ٤: ٦٦٢، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

وعنه عليه السلام قال: «دَعْوَةٌ فِي السِّرِّ تَعْدُلُ سَبْعِينَ دَعْوَةً فِي الْعَلَانِيَةِ»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «اسْتَعِزْ بِاللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ تَضَرَّعاً^٢ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُفْتَدِينَ﴾ وَالْإِعْتِدَاءُ مِنْ صِفَةِ قِرَاءَةِ زَمَانِنَا هَذَا وَعَلَامَتُهُمْ»^٣.

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [٥٦]

ثم أنه تعالى بعد بيان كونه مدبر أمور العالم ومصلحها، نهى الناس عن الإفساد بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بقتل ونهب، وهتك عرض، وإشاعة الكفر ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وتنظيم أمورها على أحسن نظام.

وقيل: يعني لا تفسدوا فيها باختيار الكفر، وإزكاب المعاصي بعد إصلاحها ببعث الرسل وتشريع الأحكام.

عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فَاسِدَةً، فَأَصْلَحَهَا اللَّهُ بِنَبِيِّهِ عليه السلام. الْخَبَرُ^٤.

وَالْقَسَمِيُّ عليه السلام: أَصْلَحَهَا بِرَسُولِ اللَّهِ عليه السلام وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَأَفْسَدُوهَا حِينَ تَرَكُوهَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام^٥.

ثم لما كان داعي الإفساد تحصيل المنافع الدنيوية، وهو يكون في الدُّعاء، أكد التَّوَعُّبَ إليه بقوله: ﴿وَأَدْعُوهُ﴾ واسألوه كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَافِعِ ﴿خَوْفاً﴾ مِنْ أَنْ تُرَدَّ دَعْوَتُكُمْ بِشُوءِ أَعْمَالِكُمْ ﴿وَطَمَعاً﴾ وَرَجَاءُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وَمِنْ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ: الدُّعاء بأدائه.

وفيه ترجيح للطَّعْنِ، وتَغْلِيبُ جَانِبِ الرَّحْمَةِ، وَتَبْيِيهُ عَلَى وَسِيلَةِ الْإِجَابَةِ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِوُضُوءِ الْعِبَادَةِ.

وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً
سَفَّاهُ لِبَلَدٍ مِيتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ
الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [٥٧]

١. في مصباح الشريعة: مُتَضَرَّعاً.

١. تفسير الرازي ١٤: ١٣١.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٠/١٥٩٣، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

٣. مصباح الشريعة: ٥٨، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

٤. تفسير القمي ١: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

ثُمَّ لَمَّا بَشَّرَ شَبْحَانَهُ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، قَرَّزَهُ بِمَا أَرَاهُم مِنْ إِنْزَالِ الْأَمْطَارِ النَّافِعَةِ الَّتِي مِنْهَا حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهَا الشَّهَادَةُ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَتَدْبِيرِهِ لِمَصَالِحِ خَلْقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ﴾ الْقَادِرُ الْمُدَبِّرُ الرَّحِيمُ ﴿الَّذِي يُرْسِلُ﴾ بِقُدْرَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ﴿الزَّيَّاحَ﴾ الْأَرْبَعَةَ، حَالَ كَوْنِهَا ﴿بُشْرًا﴾ وَإِعْلَامًا لِلنَّاسِ بِمَا يُسْرَوْنَ بِهِ ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وَقُدَّامِ الْمَطَرِ الْمُحْيِي لِلأَرْضِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ﴾ الزَّيَّاحُ وَحَمَلَتْ بِسَهْوَةٍ ﴿سَحَابًا﴾ وَغَمَامًا سَارِيَةً فِي الْعُلُوِّ، حَالَ كَوْنِهَا ﴿ثِقَالًا﴾ بِحَمْلِ الْمَاءِ ﴿سُقْنَاءً﴾ وَسِيرَانًا ﴿لِبَلَدٍ﴾ وَإِلَى أَرْضٍ ﴿مَيِّتٍ﴾ حَافٍ^١ لَا نَبَاتَ فِيهَا، أَوْ لِأَجْلِ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أَيَّ بِسَبِّ السَّحَابِ أَوْ بِالْبَلَدِ ﴿الْمَاءَ﴾ وَالْمَطَرِ النَّافِعِ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ مِنَ الْأَرْضِ مَا تَعِيشُونَ بِهِ ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وَجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ شَبْحَانَهُ بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَإِخْرَاجِ الثَّمَرَاتِ مِنْهَا، عَلَى إِحْيَاءِ الرِّثْمِ، وَإِخْرَاجِ الْمَوْتَى مِنْهَا لِلْحَشْرِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْإِحْيَاءُ وَالْإِخْرَاجُ ﴿نُخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْحَشْرِ بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ فِي الْقُبُورِ. وَإِنَّمَا ضَرَبْنَا لَكُمْ الْمَثَلَ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وَتَتَنَبَّهُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ قَدَّرَ عَلَى هَذَا بِلَا رَيْبٍ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا مَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى مَطَرَتْ السَّمَاءُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَبْلَ النَّفْخَةِ الْأُخْرَى مِثْلَ مَيِّتِ الرِّجَالِ، فَيَبْثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِذَلِكَ الْمَطَرِ، كَمَا يَبْثُونَ فِي بَطْنِ أُمَهَاتِهِمْ، وَكَمَا يَبْثُ الزَّرْعُ مِنَ الْمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَكْمَلَتْ أَجْسَادُهُمْ تُفْخَ فِيهَا الرُّوحُ، ثُمَّ تَلْقَى عَلَيْهِمْ نَوْمَةٌ فَيَنَامُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَإِذَا تُفْخَ فِي الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ - وَهِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ - جَاشُوا وَخَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ وَهُمْ يَجِدُونَ طَعْمَ النَّوْمِ فِي رُؤُوسِهِمْ كَمَا يَجِدُهُ النَّائِمُ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُونَ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟﴾ فَيُنَادِيهِمُ الْمُنَادِي: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾^٢.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ

نُصِرَفُ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ [٥٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ رَحْمَتِهِ الْعَامَّةِ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ الثَّمَرِ مِنَ الْأَرْضِ، نَبَهَ عَلَى أَنَّ عَدَمَ نَبْتِ الثَّمَرِ مِنَ الْأَرْضِ الصُّلْبَةِ أَوْ السَّيْخَةِ لَيْسَ لِعَدَمِ نُزُولِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا، أَوْ عَدَمِ النِّعَمِ فِيهِ، بَلْ إِنَّمَا هُوَ لَخِبَائَةِ الْأَرْضِ، وَعَدَمِ قَابِلِيَّتِهَا لِلتَّأَثُّرِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ وَالْأَرْضُ الْخَيْرَةُ لِرَخَاوَتِهَا، وَقُوَّةِ اسْتِعْدَادِهَا

١. كَذَا، وَلَعَلَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَفَا شَارِبُهُ، فَهُوَ حَافٍ، إِذَا بَالِغٌ فِي قَضِهِ. أَوْ تَصْحِيفُ (جَافٍ) مِنَ الْجَفَافِ. وَيَنْبَغِي تَأْنِيثُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ نَظْرًا إِلَى قَوْلِهِ: (أَرْضٍ) ثُمَّ قَوْلِهِ: (لَا نَبَاتَ فِيهَا).

٢. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٣: ١٨٠، وَالآيَةُ مِنْ سُورَةِ يَس: ٥٢/٣٦.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ من الأشجار والزرور والرياحين والأزهار ﴿يَاذَنِي رَبِّي﴾ وقدرته وإرادته، ﴿وَالْبَلَدُ الَّذِي خُبْتُ﴾ بأن كان سبخاً أو صلباً لا تأثر بتأثر بزول المطر عليه، ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته منه ﴿إِلَّا﴾ نباتاً ﴿تَكِدُّ﴾ قليلاً غير نافع.

نسي أن النفوس صنفان طيبة وخبيثة الطيبة والخبيثة، فإن النفوس البشرية بعضها بذاتها وجوهرها طيبة نقية نورانية، مستعدة لقبول الحق والتأثر بالمواعظ والحكم، والتنوير بآيات القرآن الذي هو ماء

الحياة للقلوب الميتة؛ كنفوس المؤمنين على اختلاف مراتبهم، فإنهم إذا ثلثت عليهم آيات القرآن وذكرت لهم دلائل التوحيد والمعاد، ظهر منهم الانقياد والخضوع، وأشرقت قلوبهم بأنوار العقائد الحقة والمعارف الإلهية، وخرجت من جوارحهم أزهار الطاعة والأعمال الحسنة.

وبعضها خبيثة سجيئة ظلمانية، لا تتأثر بشيء من المواعظ والحكم، ولا تنقاد لقبول الحق، بل لا تزیده آيات القرآن ودلائل التوحيد وغيره من المعارف إلا بعداً وكُفراً وطغياناً؛ كنفوس الكفار المصيرين على الكفر. فالنفوس الطيبة الطاهرة يخرج نباتها من المعارف الحقة، والأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة بإذن ربها وتوفيقه وتفعله، والنفوس الخبيثة لا يخرج منها إلا نباتاً نكداً قليل الفائدة.

وقيل: إن المراد من المثل أن الأرض الخبيثة مع قلة نفعها لا يهتم لها صاحبها، بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعاً في تحصيل ما يليق بها. فمن طلب النفع البسر بالمشقة العظيمة كان طلبه للمنافع العظيمة الأخروية بالمشقة أولى.

﴿كَذَلِكَ﴾ التصريف البديع ﴿تُصْرَفُ آيَاتِ﴾ الدالة على المعارف والحكم والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أطياف الله ونيمة الجسمانية والروحانية.

وأما ختم سبحانه الآية السابقة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكونها متضمنة لدليل صحة المعاد، وختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لكونها متضمنة لبيان النعمة الجسمانية والروحانية.

عن القمي عليه السلام: مثل للأنمة يخرج علمهم بإذن ربهم، ولأعدائهم لا يخرج علمهم إلا كثيراً فاسداً. وفي (المناقب): قال عمرو بن العاص للحسين عليه السلام: ما بال إحاكم أوفر من إحانا؟ فقرأ عليه هذه الآية ٢.

وروي أن معاوية سأل الحسن عليه السلام عن ذلك، فقرأ عليه هذه الآية.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُبْلَغَكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٥٩ و ٦٢]

نبي قصة نوح ثم أنه تعالى بعد بيان خُبث ذات الكُفَّار، ذكر سبحانه قصص الأمم الماضية وسوء
وكيفية دعوته عاقبة المُصْرِينَ منهم على الكُفر، تهديداً لِمُشْرِكِي عصر النبي ﷺ، وتسليّةً لِحَاطِرِهِ

الشَّريف، وإثباتاً لِنُبُوَّتِهِ؛ لأنَّ ذِكْرَهَا مع أَمْنِيَّتِهِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْمُغِيبَاتِ، فابتدأ سبحانه
بذِكْرِ مُعَارَضَةِ قوم نُوح وهلاكهم بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ لِهَدَايَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَدِينِ
الْحَقِّ، فدعاهم أولاً إِلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ أَهَمُّ الْأَصُولِ ﴿فَقَالَ﴾ لقومه رَحْمَةً وَشَفَقَةً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ﴾ وحده، وَخُصَّوهُ بِالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ فِي عَالَمِ
الْوُجُودِ ﴿غَيْرُهُ﴾ تعالى.

ثم هَدَدَهُمْ عَلَى الْإِشْرَاقِ بِبَيَانِ مُعْلَنِ بَغَايَةِ شَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى
مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿عَذَابٌ﴾ الْإِسْتِصْغَالُ فِي ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مِنْ
أَيَّامِ الدُّنْيَا لِعَظَمَةِ عَذَابِهِ، أَوْ عَذَابِ النَّارِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ الْأَيَّامِ وَأَشَدُّهَا ﴿قَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنْ
قَوْمِهِ﴾ وَالْأَكْبَرِ مِنْ طَائِفَتِهِ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ وَنَعْتَقُدُّكَ يَا نُوحُ مُنْغَمَرًا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عَنْ الْحَقِّ،
وَانْحِرَافٍ وَاضِحٍ عَنِ الصَّوَابِ حَيْثُ خَالَفَتِ الْعَامَّةُ فِي قَوْلِكَ، وَخَرَجْتَ عَنْ رِبْقَةِ تَقْلِيدِ آبَائِنَا
الْأَقْدَمِينَ فِي رَأْيِكَ.

﴿قَالَ﴾ نُوحٌ مُبَالِغًا فِي اسْتِمَالَتِهِمْ بِدَنَائِهِمْ وَإِضَافَتِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ، بَعْدَ تَغْلِيظِهِمْ عَلَيْهِ فِي الْقَوْلِ
الْمُقْتَضَى لِلتَّغْلِيظِ عَلَيْهِمْ فِي الْجَوَابِ: ﴿يَا قَوْمِ﴾ كَيْفَ تَنْشَبُونَنِي إِلَى الضَّلَالِ وَالْحَالِ أَنَّهُ ﴿لَيْسَ بِي
ضَلَالَةٌ﴾ أَبَدًا وَانْحِرَافٌ عَنِ الصَّوَابِ بِوَجْهِ ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مَبْعُوثٌ مِنْ
قَبْلِهِ إِلَيْكُمْ لِأَرْشَادِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَأَهْدِيَكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، فَأَنَا عَلَى حَسَبِ وَظِيفَتِي ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وَأُؤَدِّي
إِلَيْكُمْ ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَأَحْكَامِهِ وَمَوَاعِظِهِ ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وَأَشِيرُ إِلَيْكُمْ مَا فِيهِ خَيْرٌكُمْ
وَصَلَاحُكُمْ ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ عَقُوبَةِ اللَّهِ﴾ أَوْ مِنْ مَعَارِفِهِ وَأَحْكَامِهِ بِوَحْيِهِ وَتَعْلِيمِهِ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾،
قِيلَ: كَانُوا لَمْ يَسْمَعُوا بِقَوْمٍ حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلِذَا كَانُوا غَافِلِينَ آمِنِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمُ
نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكَرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ [٦٣ و ٦٤]

ثم لما كان القوم تعجبوا من أذعانه الرسالة وبالغوا في تكذيبه، أنكر عليهم بقوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ - قيل: إن التقدير: أكذبتم وعجبتم^١ - من ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ ونزل عليكم ﴿ذَكَرٌ﴾ وموعظة، أو وحي، أو كتاب ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وخالقكم اللطيف بكم ﴿عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ وبشرٍ مثلكم ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ من بأس الله، ويخوفكم من عقوبته ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ مخالفة الله، وتحترزوا سخطه بإذنه، ولأجل أنه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتقوى، وتفوزون بأكمل السعادة وأفضل النعم بطاعته.
وفي ذكر (لعل) إشعارٌ بعدم عِلَّةِ التقوى لشمول الرحمة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد الإلحاح والإنذار والإعذار، وأصرّوا على معارضة حتى حَقَّ عليهم العذاب، فصنع نوح الفلك وفار التثور ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ من أهله وغيرهم ﴿فِي الْفُلْكِ﴾، قيل: هم أربعون^٢ ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأستمروا على التكذيب.
ثم نبه سبحانه على عِلَّةِ إهلاكهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ في البصيرة، مكفوفين عن رؤية المعجزات، قاصرين عن فهم المواعظ، لم يكونوا يرجئ منهم الهداية والإيمان.

وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *
أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ [٦٥-٦٨]

في قصة هود ثم أردف سبحانه قصة قوم نوح بقصة هود وتكذيب قومه، وابتلائهم بالعذاب بقوله: ﴿وَالِىَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ بن إرم بن سام بن نوح، أو ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام، وهم قوم كانوا باليمن بالأحقاف؛ وهو الرَّمْل الذي كان بين عُمان وحَضْرَمَوْت - كذا قيل^٣ - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في التَّسْبِيب كان اسمه ﴿هُودًا﴾ قيل: هو ابن عبدالله بن رباح^٤ بن خلود بن عاد^٥.

١. تفسير الرازي ١٤: ١٥٢.

٢. تفسير البياضوي ١: ٣٤٤، وفيه: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة.

٣. تفسير الرازي ١٤: ١٥٥.

٤. في روح البيان: رباح. ٥. تفسير البياضوي ١: ٣٤٤، تفسير روح البيان ٣: ١٨٥.

عن السجاد عليه السلام أنه قيل له: **إِنْ جَدَّكَ قَالَ: «إِخْوَانُنَا بَعَوْا عَلَيْنَا فَقَاتَلْنَاهُمْ عَلَىٰ بَغْيِهِمْ»**، فقال: **«وَلَيْتَكَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ **﴿وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٌ﴾**، **﴿وَالِإِلَىٰ مَذْيَنٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبٌ﴾**، **﴿وَالِإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾** فهو مثلهم، كانوا إخوانهم في عَشِيرَتِهِمْ، وليسوا إخوانهم في دِينِهِمْ»**.^٣

عن الباقر عليه السلام - في حديث - **«وَيُسْرُوحُ سَامًا يَهُودُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَاعَثَ نَبِيًّا يُقَالُ لَهُ هُودُ، وَأَنَّهُ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ فَيُكَذِّبُونَهُ»**. الخبر^٤.

وعن الصادق عليه السلام: **«لَمَّا حَضَرَتْ تَوْحَا الْوَفَاةِ دَعَا الشَّيْعَةَ فَقَالَ لَهُمْ: [اعلموا] أَنَّهُ سَيَكُونُ مِن بَعْدِي غَيْبَةٌ يَظْهَرُ فِيهَا الطَّوَاغِيبُ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَفْرِجُ عَنْكُمْ بِالْقَانَمِ مِن وَلَدِي، اسْمُهُ هُودُ، لَهُ سَمْتٌ وَسَكِينَةٌ وَوَقَارٌ، يُشَبِّهُنِي فِي خَلْقِي وَخُلُقِي»**.^٥

عن الباقر عليه السلام: **«أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ بُعِثُوا خَاصَّةً وَعَامَّةً، وَأَمَّا هُودُ فَإِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى [عَادٍ] بَنِيوَةً خَاصَّةً»**.^٦

في كيفية دعوته: **﴿قَالَ: هُودُ لِقَوْمِهِ: «يَا قَوْمُ أَغْبِدُوا لِلَّهِ» وَحَدَّهُ «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» وَلَمَّا كَانَ قَوْمُهُ مُطْلَعِينَ عَلَىٰ وَاقِعَةِ الطُّوفَانِ وَهَلَكَ قَوْمُ نُوحٍ، هَدَّدَهُمْ عَلَى الشُّرْكِ بِقَوْلِهِ: «أَفَلَا تَتَّقُونَ» بِأَسْ أَلِلَّهِ وَعَذَابِهِ، أَشَارَ بِهِ إِلَى التَّخْوِيفِ بِجَثَلِ وَاقِعَةِ قَوْمِ نُوحٍ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ **﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ أَنِ اتَّخَذَ اللَّهُ بَنِي آدَمَ آلًا فَنُجِّسْنَا بِهِمُ الذَّلِيلِينَ﴾**، وَخَفَّ الْعَقْلُ، حَيْثُ فَارَقَتْ الْجَمَاعَةُ، وَخَالَفَتِ الْعَامَّةُ **﴿وَأَنَّا لَنُنَظِّقُكَ﴾** الْبَتَّةَ **﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾** فِي دَعْوَى تَوْحِيدِ الْمَعْبُودِ، وَرِسَالَتِكَ.**

﴿قَالَ: هُودُ لَهُمْ بَلِيغٌ وَعُطُوفَةٌ، بَعْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُمْ الْكَلَامَ الشَّنِيعَ: «يَا قَوْمُ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ» أَبَدًا وَلَكِنِّى لَكُمْ عَقْلِي وَغَايَةُ رُشْدِي **﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ الرَّسُولُ إِلَّا مِنْ كَمَلِ عَقْلِهِ وَتَمَّ رُشْدُهُ وَصَلَاحُهُ، وَمَا أَقُولُ لَكُمْ شَيْئًا مِنْ قِيلٍ نَفْسِي، بَلْ **﴿أُبَلِّغُكُمْ وَأُؤَدِّي إِلَيْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى﴾** عَلَى حَسَبِ وَظِيفَتِي **﴿وَأَنَا﴾** مَعَ ذَلِكَ **﴿لَكُمْ﴾** فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِحْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ **﴿فَصَاحُ﴾** وَمُشِيرٍ إِلَى مَحْضِ خَيْرِكُمْ **﴿أَمِينٌ﴾** وَثِقَةٍ عِنْدَ اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ، وَعِنْدَكُمْ فِي النَّصْحِ، لَا أَغْشَى وَلَا أَخُونُ أَبَدًا.**

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ

٣. تفسير العياشي ٢: ١٥٠/١٥٩٥، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.

٥. كمال الدين: ٤/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.

١. الأعراف: ٨٥/٧. ٢. هود: ٦١/١١.

٤. الكافي ٨: ١١٥/٩٢، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.

٦. كمال الدين: ٢/٢١٩، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ [٦٩]

ثُمَّ لَمَّا كَانُوا مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ادِّعَاءِ الرُّسَالَةِ، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَجُّبُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾، وَاسْتَبَعْدْتُمْ ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرُهُ﴾، وَوَعظَ ﴿مِنْ﴾ قِيلَ ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ اللَّطِيفُ بِكُمْ ﴿وَعَلَىٰ﴾ لِسَانِ ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ وَيُحَذِّرَكُمْ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ عَلَى الشُّرْكِ بِهِ وَالطُّغْيَانِ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ التَّهْدِيدِ وَالتَّوْعِيدِ بِالْعَذَابِ عَلَى الْكُفْرِ، شَرَعَ فِي تَرْغِيْبِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَطَاعَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ﴾ وَسُكَّانَ فِي الْأَرْضِينَ مُتَمَتِّعِينَ بِمَا فِيهَا ﴿مِنْ﴾ بَعْدِهِ إِهْلَاكَ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بِالطُّوفَانِ عَقُوبَةً عَلَى شُرْكِهِمْ وَطُّغْيَانِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ سَلَطَكُمْ فِي مَحَالِّهِمْ بِأَنْ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا فِيهَا.

قِيلَ: إِنَّ شَدَادَ بْنَ عَادَ مَلِكَ مَعْمُورَةِ الْأَرْضِ ١.

ثُمَّ بَالِغٌ فِي تَرْغِيْبِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَزَادَكُمْ﴾ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ وَالْجَنَّةِ ﴿بِضَظَّةٍ﴾ وَعَظْمَةٍ مِنْ حَيْثُ الْقَامَةُ وَالْقُوَّةُ.

قِيلَ: لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِمْ مِثْلُهُمْ فِي عِظَمِ الْأَجْرَامِ؛ كَانَتْ قَامَةُ الطَّوِيلِ مِنْهُمْ مِائَةَ ذِرَاعٍ، وَقَامَةُ الصَّغِيرِ سِتُونَ ذِرَاعًا ٢.

عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَانُوا كَالنَّخْلِ الطُّوَالِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَنْحُو ٣ الْجِبِلَّ بِيَدِهِ فَيَهْدِمُ مِنْهُ قِطْعَةً» ٤.

أَلَا فَاذْكُرُوا ٥ اللَّهَ وَنِعْمَةَ الْجِسَامِ عَلَيْكُمْ، كَيْ يَبْعَثَكُمْ ذِكْرُ نِعْمَةِ إِلَى الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ، وَبِذَلِكَ الْجُهِدِ فِي طَاعَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ وَتَقْوِزُونَ بِالْمَقْصِدِ الْأَعْلَى؛ وَهُوَ النِّجَاءُ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْدُّخُولُ فِي الْجَنَّةِ وَالتَّعَمُّ الدَّائِمَةِ.

فِي (الكَافِي): عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَتَدْرِي مَا آيَةُ اللَّهِ؟» قِيلَ: لَا، قَالَ: «هِيَ أَعْظَمُ نِعَمٍ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ؛ وَهِيَ وَلَا يَتَنَا» ٥.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُ مِنْ الْأَصَادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ أُنْتَاجِدُ لَوْ نَبَى فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ

١. تفسير روح البيان ٣: ١٨٦. ٢. تفسير الرازي ١٤: ١٥٧، تفسير روح البيان ٣: ١٨٦.

٣. فِي تَفْسِيرِ الصَّافِي: يَنْحَرُ، يُقَالُ: نَحَا إِلَيْهِ، أَيْ مَالَ إِلَيْهِ، وَأَنْحَى عَلَيْهِ: أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ: نَحَرَ الشَّيْءُ: قَابَلَهُ.

٤. مُجْمَعُ الْبَيَانِ ٤: ٦٧٤، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢١٠. ٥. الْكَافِي ١: ٣٦٩، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢١١.

مِنَ الْمُنتَظِرِينَ [٧٠ و ٧١]

ثم أَنَّهُمْ بعدما سمعوا تلكَ المَوعِظَ البليغة والنَّصائحَ الجلييلة، بالغوا في مُعارضة وتكذيبه و«قَالُوا» مُجيبين عنه إنكاراً عليه واشتِباعاً لِقوله بالتَّوْحِيدِ، حُبّاً لِمَا أَلْفَوْه، وتمسُّكاً بتقليد الآباء: «أَجِثْنَا» يا هُودُ مِن مَّكانِ اغترالك، أو مِن السَّماءِ؟ قالوه اشتِزاءً له، أو المُراد: حضرتَ في مقابلتنا، أو في مُحافلتنا وقلتَ ما قلتَ «لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ» ونَحْصَهُ بِالْخُضُوعِ وَالضَّرَاعَةِ «وَنَذَرَ» ونَتْرَكَ عِبَادَةَ «مَا كَانَ يَغْبِئُ آبَاؤُنَا» الأقدمون، مِن الكَوَاكِبِ أو الأصنام، وتُعرض عن سِيرَتِهِمْ، ونُخْرِجُ عن رِيقِهِ تَقْلِيدِهِمْ، لا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَداً، فإذا عَلِمْتَ أَنَّا نَكُونُ ثَابِتِينَ عَلَى ما نَحْرُ عليه مِن الشُّرْكِ، غَيْرَ مُعْتَنِينَ بِما تَدْعُونَا إِلَيْهِ «فَأَيُّنَا بِمَا تَعِدُنَا» وَتُهَدِّدُنَا بِهِ مِن الْعَذَابِ الَّذِي أَمَرْتَنَا بِالْإِثْمَاءِ مِنْهُ «إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْصَادِقِينَ» فِي دَعْوَى رِسَالَتِكَ وَوَعِيدِكَ، وَكَانُوا مُسْتَهْزِئِينَ بِهِ فِي سُؤَالِهِمْ نُزُولَ الْعَذَابِ، مُظْهِرِينَ عَدَمَ احْتِمَالِهِمْ صِدْقِهِ.

فَلَمَّا رَأَاهُم مُّصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ، مُجَدِّدِينَ فِي تَكْذِيبِهِ، يَبْسُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَ«قَالَ» تَأْسُفاً عَلَيْهِمْ: يَا قَوْمَ «قَدْ وَقَعَ» وَوَجِبَ «عَلَيْكُمْ مِنْ» قِتْلٍ «رَبِّكُمْ» مَعَ سَعَةِ رَحْمَتِهِ «رَبِّحُشْ» وَعَذَابِ، أَوِ الرِّينِ فِي الْقُلُوبِ «وَوَغَضَبْتُ» شَدِيدَ لِأَجْلِ كُفْرِكُمْ وَإِصْرَارِكُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى مُعَارَضَةِ رَسُولِهِ.

ثُمَّ بَالِغٍ فِي تَوْبِيخِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْجَمَادَاتِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً، وَمُجَادَلَتِهِمْ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «أَتَسْجُدُونَ لِنُتْنِي» وَتُعَارِضُونِي «فِي» شَأْنِ «أَسْمَاءٍ» وَالْفَاطِ «سَمَّيْتُهِنَّ» وَوَضَعْتُهُنَّ لِلْجَمَادَاتِ «أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ» مِنْ قِتْلِ أَنْفُسِكُمْ وَبِمُقْتَضَى شَهَوَاتِكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَا مَعْنَى لَهَا فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا مُسَمَّيَاتٍ، لَعَدَمَ إِمْكَانِ تَعَقُّلِ تَحَقُّقِ الْإِلَوهِيَّةِ فِي الْمُمْكِنِ وَلَوْ كَانَ أَعْلَى وَأَشْرَفَ بِمَرَاتِبٍ مِنَ الْجَمَادَاتِ فَضْلاً عَنْهَا، مَعَ أَنَّكُمْ لَمْ تَكْتَفُوا بِالتَّسْمِيَةِ، بَلِ التَّرْتِيبَ بِعِبَادَتِهَا، وَالْحَالُ أَنَّهُ «مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا» وَبِجَوَارِ عِبَادَتِهَا «مِنْ سُلْطَانٍ» بَيِّنٍ، وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ، وَبُرْهَانٍ قَاطِعٍ، وَمِنِ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِدِينٍ لَيْسَ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ سَاطِعَةٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ، فَإِنْ كُشِمَ مُصْرِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّجَاجِ وَعِبَادَةِ الْجَمَادِ، وَمُسْتَهْزِئِينَ بِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَسَائِلِينَ مِنِّي إِنْزَالَ الْعَذَابِ «فَاتَنْظَرُوا» نُزُولَهُ عَلَيْكُمْ وَ«إِنِّي» أَيْضاً «مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ» لَهُ حَتَّى تَرَوْنَ وَارَأَى هَلَاكَكُمْ وَاسْتِئْصَالَكُمْ.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ [٧٢]

ثم أخبر سبحانه بترول عذاب الاستئصال عليهم، وإكرام هود ومن آمن به تسلياً للنبي ﷺ وتهديداً للمعارضيه من مشركي مكة بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وأمنوا به من عذاب الخزي ﴿بِرَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَّا﴾ عليهم، وإكرامنا إياهم بسبب إيمانهم وطاعتهم ﴿وَقَطَعْنَا﴾ بالعذاب ﴿ذَابِرَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ﴾ كفروا و﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من دلائل التوحيد ومعجزات هود، واستأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بشيء من الحق، ولم يرج لهم الإيمان أبداً.

وكان هلاكهم بالريح العقيم تخرج من تحت الأرضين السبع، وما خرجت منها ريح قط إلا على قوم عاد حين غضب الله عليهم، فأمر الخزان عليهم أن يخرجوا منها مثل سعة الخاتم فعتت على الخزان، فخرج على مقدار منخر الثور تغطاً منها على قوم عاد، فضج الخزنة إلى الله تعالى من ذلك فقالوا: ربنا إنها عتت عن أمرنا ونحن نخاف أن يهلك من لم يعصك من خلقك وعمار بلادك، فبعث الله إليها جبرئيل فردّها بجنّاحه فقال لها: اخرجي على ما أمرت به، وأهلكت قوم عاد ومن كان بحضرتهم.

وعن (المجمع): عنه ﷺ: ^٢: «أن الله تعالى بيث ريح مقفل [عليه] لو فتحت لأذرت^٣ ما بين السماء والأرض، فما أرسل إلى عاد إلا قذر خاتم» قال: «وكان هود وصالح وشعيب وإسماعيل ونبيّنا صلى الله عليهم أجمعين يتكلمون بالعربية»^٤.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ [٧٣]

ثم ذكر سبحانه قصة دعوة صالح ومعارضة قومه وهلاكهم بالعذاب بقوله: ﴿وَإِلَى﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهم قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عاد بن إزم بن سام - وقيل: سموا به لِقَلَّةِ ما نهم^٥ - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا﴾.

عن الباقر ﷺ: «أنه أرسل إلى ثمود، وهي قرية واحدة لا تكمل أربعين بيتاً على ساحل البحر صغيرة»^٦.

وقيل: كانت مساكنهم بين الحجاز والشام إلى وادي الثرى، فبعث الله إليهم صالحاً، وكان من

١. في النسخة: بهم. ٢. في مجمع البيان: عن أبي جعفر ﷺ.

٣. أذرت الريح التراب: أطارته وفرقته.

٤. مجمع البيان ٤: ٦٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢١٢.

٥. اكمال الدين: ٢/٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢١٢.

٦. تفسير الرازي ١٤: ١٦١.

أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً، فدعاهم إلى عبادة الله، و﴿قَالَ﴾ لهم بلطف وعطوفة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

نسي كيفية دعوة: قيل: لما دعاهم إلى التوحيد طالبوه بالمُعجزة فقال: ما تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا صالح ومحتاجه ومعارضته قومه

في عيدنا، ونُخرج أصنامنا، وتسال إلهك ونسال أصنامنا، فإذا ظهر دُعَاؤك اتبعناك، وإن ظهر أثر دُعَانَا اتَّبَعْنَا، فخرج معهم فسألوه أن يُخرج لهم ناقةً كبيرة من صخرة مُعَيَّنة، فأخذ مَوَائِقَهُمْ أَنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ آمَنُوا بِهِ فَقَبِلُوا، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَدَعَا اللَّهَ؛ فَتَمَخَّضَتِ تِلْكَ الصَّخْرَةُ كَمَا تَمَخَّضَ الْحَامِلُ، ثُمَّ انْفَرَجَتْ وَحَرَكْتَ النَّاقَةُ مِنْ وَسْطِهَا، وَكَانَتْ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ^١.

فبعد ظُهور هذه المُعجزة قال صالح: يا قوم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة، وَحُجَّةٌ واضحة على صدقي في دَعْوَى الرُّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ ﴿مِنْ﴾ قِبَلِ ﴿رَبِّكُمْ﴾. فلا عذر لكم في ترك الإيمان بعدها، فَإِنَّكُمْ سَأَلْتُمْ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الصَّخْرَةِ نَاقَةً لَتَكُونَ آيَةً عَلَى صِدْقِي، فَانظُرُوا ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ ظاهرة، وَمُعجزة باهرة ﴿فَدَّرَوْهَا﴾ ودَعَوْهَا ﴿تَأْكُلُ﴾ وترتج من الكَلَالِ والعُشْبِ ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ وأكرموها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تقربوها بأيذاءٍ ومكروه فضلاً عن القتل والجرح ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ وَيُصِيبَكُمْ إِذَنْ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَغْنَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ أَلَمْ أَكُلْ أَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ أَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ [٧٤-٧٦]

ثُمَّ أَنَّهُ بَعْدَ تَهْدِيدِهِمْ عَلَى الْعِصْيَانِ رَغِبَهُمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ بِتَذْكِيرِهِمْ نِعَمَ اللَّهِ الْمُوجِبَةِ لَشُكْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِهْلَاكَهُ قَوْمَ ﴿عَادٍ﴾ بِشِرْكِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ وَأَسْكَنَكُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الَّتِي كَانُوا يَسْكُونُهَا، وَهِيَ أَرْضُ حَجَرٍ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ، وَأَنْتُمْ تَتَّخِذُونَ وَتَبْنُونَ ﴿مِنْ سَهُولِهَا﴾ وَالْمُسَطَّحَاتِ اللَّيِّنَاتِ مِنْهَا لِأَنْفُسِكُمْ ﴿قُصُورًا﴾ وَأَبْنِيَّةَ رَفِيعَةٍ ﴿وَتَنْجُونَ﴾ وَتَنْجُرُونَ مِنْ ﴿الْجِبَالِ﴾ وَالصُّخُورِ ﴿بُيُوتًا﴾ وَمَسَاكِنَ.

نَقُلُ أَنَّهُ لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى عَادَ، أَقَامَ ثَمُودَ مَقَامَهُمْ وَعَمَرُوا بِلَادَهُمْ وَأَخْلَفُوهُمْ فِي أَرْضِهِمْ فِي

خَضِبْ وَسَّعَا، وَطَالَتْ أَعْمَارُهُمْ وَكَثُرَتْ نِعَمَتُهُمْ، وَبَنَوْا قُصُوراً فِي الْأَرْضِ السَّهْلَةِ لَصِيفِهِمْ، وَنَحَتُوا فِي الْجِبَالِ بُيُوتاً لَشِتَائِهِمْ.

وقيل: إنهم لطول أعمارهم كانوا يحتاجون إلى أن ينجتوا من الجبال بُيُوتاً؛ لأن السُّقُوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، فَعَتُوا عَلَى اللَّهِ وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ.

ثم بالغ صالح في ترغييهم بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ آفَ﴾ ونِعْمَ الْعِظَامُ عَلَيْكُمْ، واجتهدوا في أداء شُكْرِهَا بِالتَّوْحِيدِ وَالْيَقَامِ بِالطَّاعَةِ ﴿وَلَا تَغْتَوُوا﴾ وَلَا تَسْعُوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ فيها.

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وَتَرَفَعُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتَّبَاعِهِ، وَهُمْ ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ لِلَّذِينَ اسْتَضَمُّوهُمَا، وَاسْتَحَقُّوا لِقَوْمِهِمْ ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ بِهِ ﴿مِنْهُمْ﴾ وَاتَّبَعُوهُ، إنكاراً واستهزاءً بهم: ﴿أَتَقْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وَلَمَّا كَانَتْ رِسَالَتُهُ لَشَهَادَةِ مُعْجَزَاتِهِ وَاضِحَةً، عَدَلَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ جَوَابِ سَوَالِهِمْ، وَأَخْبَرُوا بِإِيمَانِهِمْ بِمَا جَاءَ بِهِ وَ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ صَالِحٌ ﴿بِهِ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْأَحْكَامِ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ مُصَدِّقُونَ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عِنَاداً أَوْ لَجَاجاً: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ مِنْ رِسَالَةِ صَالِحٍ وَصِدْقِ دَعْوَاهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَوَعْدِ الْعَذَابِ ﴿كَافِرُونَ﴾ وَجَاهِدُونَ.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَبِّئُ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ
الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ
وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّاصِحِينَ [٧٧-٧٩]

في كيفية عقر ناقة صالِح ثم أنه رُوي أنه زينت عَقر الناقة امرأتان لما أَضْرَت بِمَوَاشِيهِمَا، وكانتا كثيرتي ناقة صالِح والمواشي، وكانت إحداهما جميلة الخَلْق، فطلبت ابنَ عَمِّ لَهَا يُقَالُ لَهُ بِصَدْعِ ابْنِ دَهْرٍ،

وجعلت له نفسها إن عَقر الناقة، فأجابها إلى ذلك، ثم طلبت قدار بن سالف وكان

رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه وَلَدَ زَنَا، وَلَكِنَّهُ وَلَدَ فِي فِرَاشِ سَالِفٍ، فَقَالَتْ: يَا قَدَارُ، أَزَوَّجُكَ أَيُّ بَنَاتِي شِئْتَ عَلَى أَنْ تَعِقرَ النَّاقَةَ، وكان مُتَّبِعاً فِي قَوْمِهِ، فَأَجَابَهَا أَيْضاً، فَانْطَلَقَ قَدَارُ وَمَصْدَعُ فَاسْتَعَانَا بِطَغْءِ نَمُودَ، فَأَتَاهُمُ تِسْعَةُ رَهْطٍ فَاجْتَمَعُوا عَلَى عَقرِ النَّاقَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى صَالِحٍ: أَنْ قَوْمُكَ سَيَعْقِرُونَ النَّاقَةَ، فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ^١.

وقيل: إن صالح قال لقومه: يُؤلَدُ في شهركم هذا غلام يكون هلاككم بيده، فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم، ثم وُلِدَ العاشر فأبى أبوه أن يذبحه، فنبَت نباتاً سريعاً، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يُصَيِّبون من الشَّراب، فأرادوا ماءً يَمْزُجونه به؛ وكان يومَ شَرْبِ النَّاقَةِ، فما وجدوا الماء واشتدَّ ذلك عليهم، فقال الغلام: هل لكم في أن أعقر النَّاقَةَ؟ فشَدَّ عليها، فلمَّا بَصُرَتْ به شَدَّتْ عليه فهرب منها إلى خلف، فأحاشوها عليه ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فسقطت^١.

﴿وَعَتَوْا﴾ وتجاووا ﴿عَنْ﴾ امتثال ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بترك مَسِّ الناقة بشؤء. قيل: إن مصدعاً وقداراً وأصحابهما التسعة رَصَدُوا النَّاقَةَ حينَ صَدَرَتْ عن الماء، فكَمَنَ لها مصدع في أصل صخرة، فمَرَّت النَّاقَةُ عليه فرماها بسهم، فانتظم به عَصْلَةُ ساقها، ثم خرج قدار فعَقَرَهَا بالسَّيْفِ فخرَّتْ ترغوا^٢، ثم طعنها في لَبَتِهَا^٣ ونَحَرها، وخرج أهل البلد واقتسموا لَحْمَهَا^٤.

﴿وَقَالُوا﴾ استهزاء: ﴿يَا صَالِحُ آتِنَا بِمَا﴾ كُنْتَ ﴿تَعِدُنَا﴾ من العذاب على مَسِّ النَّاقَةِ بشؤء ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فَإِنَّ الرُّسُولَ لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقَ الْقَوْلِ وَالْوَعْدِ.

رُوي أَنَّهُمْ لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ هرب ولَدَّها إلى جبلٍ فَرَاغاً ثلاثاً، وكان صالح قال لهم بعد بُلُوغِهِ خبر قَتَلَ النَّاقَةَ: ادْرُكُوا الْفَصِيلَ عَسَى أَنْ يَدْفَعَ عَنْكُمْ الْعَذَابَ، فلم يقدِّروا عليه، فانفجرت الصخرة بعد رَغَانِهِ فدخلها، فقال صالح: لِكُلِّ رَغْوَةٍ أَجَلٌ يَوْمٌ، تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. وقد عَقَرُوا النَّاقَةَ يَوْمَ الْأَبْعَاءِ، فقال لهم صالح: ابْشِرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ وَبِقِسْمَتِهِ، فقالوا: ما علامته؟ فقال: تُصْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ ووجوهكم مصفرة، ثم تُصْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ووجوهكم مُحْمَرَّة، ثم تُصْبِحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ ووجوهكم مُسَوَّدة، ثم يَصْبَحُكُمْ الْعَذَابُ أَوَّلَ يَوْمٍ الْأَحَدِ.

فكان الأمرُ كما وصف، حيث أصبحوا يَوْمَ الْخَمِيسِ كأَنْ وُجُوهُهُمْ طَلِيَتْ بِالزُّعْفَرَانِ؛ صغيرهم وكبيرهم، ذَكَرَهُمْ وَأَنَاشَهُمْ، فَأَيَقَنُوا بِالْعَذَابِ، فَطَلَبُوا صَالِحاً لِيَقْتُلُوهُ، فهرب منهم واختفى في مَوْضِعٍ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فجعلوا يُعَذِّبُونَ أَصْحَابَهُ لِيَذْلُوهُمْ عليه، فلمَّا أصبحوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَصْبَحَتْ وُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةً كَأَنَّمَا خُضِبَتْ بِالْدَّمَاءِ، فصاحوا بأجمعهم وضجوا وبكوا وعزفوا أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ دَنَا إِلَيْهِمْ، وجعل كُلُّ وَاحِدٍ يُخَيِّرُ الْآخَرَ بِمَا يَرَى فِي وَجْهِهِ، ثم أصبحوا يَوْمَ السَّبْتِ ووجوههم مُسَوَّدة كَأَنَّمَا طَلِيَتْ بِالْقَارِ وَالنَّيْلِ^٥، فصاحوا جميعاً: أَلَا قَدْ حَضَرَ الْعَذَابُ، فلمَّا كانت ليلةُ الْأَحَدِ خرج صالح ومن آمن معه

٢. رَغَتِ النَّاقَةُ: إِذَا صَوَّتَتْ وَضَجَّتْ.

١. تفسير الرازي ١٤: ١٦٢.

٤. تفسير روح البيان ٣: ١٩٣.

٣. اللَّبَّةُ: مَوْضِعُ النَّحْرِ مِنْ عُنُقِ النَّاقَةِ.

٥. القار: الزُّفْتُ، وَالنَّيْلُ: مَادَّةُ زُرْقَاءَ لِلصَّبَاغِ تَسْتَخْرَجُ مِنْ وَرَقِ نَبَاتٍ بِنَفْسِ الْأَسْمِ.

من بين أظهرهم إلى الشام فنزل رَمْلَة فلسطين.

فلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَهُوَ الْيَوْمُ الرَّبِيعُ وَارْتَفَعَ النَّهَارُ، تَحَنَّنُوا بِالصَّبْرِ^١ لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ لَهُمُ السَّبَاعُ لِمَرَاتِهِ، وَتَكْتُمُوا بِالْأَنْطَاعِ^٢، وَأَلْقُوا نَفْسَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ يُقْبَلُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ مَرَّةً وَإِلَى الْأَرْضِ أُخْرَى، لَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ، فَأَتَتْهُمْ صِيحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ وَصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتُ^٣.

﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ بِعَذَابِكَ، وَمِنْ أَثَرِهَا ﴿الرَّجْفَةُ﴾ وَالزَّلْزَلَةُ مِنَ الْأَرْضِ، فَانْقَطَعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ كَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ وَبَلَدِهِمْ ﴿جَائِعِينَ﴾ مَوْتَى غَيْرِ مُتَحَرِّكِينَ. نَسِيَ ذِكْرَ نَصَةِ عَنْ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾^٤: «هَذَا فِيمَا كَذَّبُوا صَالِحًا، ثُمَّ دُمِّرُوا وَهَلَكُوا» وَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْمًا قَطَّ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ الرُّسُلَ فَيَحْتَجُوا عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ صَالِحًا، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ فَلَمْ يُجِيبُوا وَعَتَوْا عَلَيْهِ وَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَخْرُجَ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً عَشْرَاءَ^٥، وَكَانَتِ الصَّخْرَةُ يُعْظَمُونَهَا وَيَعْبُدُونَهَا، وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا فِي رَأْسِ كُلِّ سَنَةٍ، وَيَجْتَمِعُونَ عِنْدَهَا، فَقَالُوا لَهُ: إِنْ كُنْتَ كَمَا تَزْعُمُ نَبِيًّا رَسُولًا، فَادْعُ إِلَهُكَ حَتَّى يُخْرِجَ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءَ نَاقَةً عَشْرَاءَ، فَأَخْرَجَهَا اللَّهُ كَمَا طَلَبُوا مِنْهُ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ يَأْتِيَ صَالِحٌ، قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِهَذِهِ النَّاقَةِ مِنَ الْمَاءِ شَرِبَ يَوْمٍ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ، وَكَانَتِ النَّاقَةُ إِذَا كَانَ يَوْمُ شَرِبِهَا شَرِبَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمَاءَ، فَيَحْلِبُونَهَا فَلَا يَبْقَى صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا شَرِبَ مِنْ لَبَنِهَا يَوْمَ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَأَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَى مَائِهِمْ فَشَرِبُوا مِنْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَمْ تَشْرَبِ النَّاقَةُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَمَكَثُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ أَنَّهُمْ عَتَوْا عَلَى اللَّهِ وَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالُوا: اغْتَرَوْا هَذِهِ النَّاقَةَ وَاسْتَرِيحُوا مِنْهَا، لَا نَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَهَا شَرِبٌ يَوْمٍ وَلَنَا شَرِبٌ [يَوْمٍ]، ثُمَّ قَالُوا: مَنْ الَّذِي يَلِي قَتْلَهَا وَنَجْعَلُ لَهُ جُعَلًا^٦ مَا أَحَبُّ، فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ أَحْمَرُ أَشْقَرُ أَرْزَقٌ وَلَدٌ زَنَا، لَا يَعْرِفُ لَهُ أَبٌ يُقَالُ لَهُ قَدَارٌ، شَقِيٌّ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ مَشْهُومٌ عَلَيْهِمْ، فَجَعَلُوا لَهُ جُعَلًا، فَلَمَّا تَوَجَّهَتْ النَّاقَةُ إِلَى الْمَاءِ الَّذِي كَانَتْ تَرِدُهُ، تَرَكَهَا حَتَّى شَرِبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ وَأَقْبَلَتْ رَاجِعَةً، فَقَعَدَ لَهَا فِي طَرِيقِهَا فَضْرِبُهَا بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً فَلَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا، فَضْرِبُهَا ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَتَلَهَا وَخَرَّتْ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى جَنْبِهَا، وَهَرَبَ فَصِيلُهَا حَتَّى صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ فَرَاغًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَى

١. الصَّبْرُ: عُصَاةُ شَجَرٍ مُرٍّ، وَاحِدَتُهُ: صَبْرَةٌ.

٢. الْأَنْطَاعُ: جَمْعُ نَظْعٍ، وَهُوَ بَسَاطٌ مِنْ جِلْدٍ.

٣. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٣: ١٩٤.

٤. الثَّمُودُ: النَّاقَةُ الَّتِي مَضَى عَلَى حَمْلِهَا عَشْرَةُ أَشْهُرٍ.

٥. الْجُعَلُ: مَا يُجْعَلُ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ أَجْرٍ وَرَشْوَةٍ، وَكَذَا الْجَعَالَةُ وَالْجِعَالُ.

السَّماءِ، وأقبل قومٌ صالح فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا شَرَكه في ضربته، واقتسموا لَحْمها فيما بينهم، فلم يبقَ منهم صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا أكل منها.

فلَمَّا رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقال: يا قوم، ما دَعَاكم إلى ما صنعتم، أعصيتُم ربكم؟! فأوحى الله إلى صالح: إن قومك قد طَعَوْا وبَغَوْا، وقتلوا ناقةً بعثتها إليهم حُجَّةً عليهم، ولم يكن عليهم منها ضَرَرٌ، وكان لهم فيها أعظم المنفعة، فقل لهم: إنِّي مُرْسَلٌ إليكم عَذابي إلى ثلاثة أيام، فإن هُم تابوا ورجعوا قَبِلْتُ تَوْبَتهم وصدَدْتُ عنهم، وإن هُم لم يَتُوبوا ولم يرجعوا بعثتُ عليهم عَذابي في اليوم الثالث، فأتاهم صالح فقال لهم: يا قوم، إنِّي رسول الله ربكم إليكم، وهو يقول لكم: إن أنتم تُبِتُم ورجعتم واستغفرتم غفرْتُ لكم وثبَّت عليكم، فلَمَّا قال لهم ذلك كانوا أَعْتَى ما كانوا وأخِبت، وقالوا: يا صالح، إنَّنا بما نَعِدُنا إن كُنْتَ مِنَ المرسلين، قال: يا قوم، إنكم تُصبحون غداً ووُجوهكم مُصَفَّرة، [والיום الثاني وجوهكم مُحَمَّرة، واليوم الثالث وجوهكم مُسَوَّدة.

فلَمَّا أن كان أوَّل يومٍ أصبحوا ووُجوههم مُصَفَّرة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال الغتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً، فلَمَّا كان اليوم الثاني أصبحوا وجُوههم مُحَمَّرة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال الغتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح، ولا تركنا آلِهتنا التي كان آبائنا يعبدونها، ولم يَتُوبوا ولم يرجعوا، فلَمَّا كان اليوم الثالث أصبحوا ووُجوههم مُسَوَّدة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم، قد أتاكم ما قال لكم صالح، فقال الغتاة منهم: لا نقبل^١ ما قال لنا صالح، فلَمَّا كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخةً خرقَتْ تلك الصرخة أسماعهم، وفلقت قلوبهم، وصدَّعت أكبادهم، وقد كانوا في تلك الثلاثة أيام قد تحطَّطوا وتكفَّنوا وعلموا أنَّ العذاب نازلٌ بهم، فماتوا أجمعون في طَرَفَةِ عين صغيرهم وكبيرهم». إلى أن قال: «ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النَّارَ مِنَ السَّماءِ فأحرقتهم أجمعين»^٢.

﴿فَتَوَلَّى﴾ صالح وأعرض ﴿عَنَّهُمْ﴾ بعد هلاكهم ﴿وَقَالَ﴾ تحسراً وتحزناً عليهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَدَعَوْتُكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بالترغيب والترهيب، وبذلك جهدي في هدايتكم إلى ما فيه خيركم وصلاحتكم ﴿وَلَكِنَّ﴾ لمرارة الحق وثقل النصح عليكم، كشم ﴿لَا تُجِيبُونَ النَّاصِحِينَ﴾ وتستهنون بي وبالمؤمنين.

عن جابر بن عبد الله أنه قال: لما مرَّ النبي ﷺ بالحجر في غزوة تبوك -يعني: مواضع ثمود- قال

لأصحابه: «لا يدخلن أحد منكم هذه القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم». ثم قال: «لا تسألوا رسولكم الآيات، فإن هؤلاء قوم صالح، سألوا رسولهم الآية، فبعث الله إليهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها» وأراهم مرتقى الفصيل [حيث ارتقى]، ثم أسرع رسول الله ﷺ السير حتى جاوز الوادي^١.

في ذكر فضيلة روى الفخر الرازي وغيره من العامة عن النبي ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي، لأمير المؤمنين عليه السلام أندري من أشقى الأولين؟» قال: «الله ورسوله أعلم»، قال: «عاقرة ناقة صالح»، ثم قال: «أندري من أشقى الآخرين؟» قال: «الله ورسوله أعلم». قال: «فأتلك»^٢.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ النِّفَاحَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ *
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَعَطَّهَرُونَ *
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ [٨٠-٨٤]

ثم ذكر سبحانه قصة قوم لوط وهلاكهم بقوله: ﴿وَلُوطًا﴾ أرسلنا إلى قومه. قيل: كان ابن هاران أخي إبراهيم^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «أن أم إبراهيم وأم لوط كانتا أختين، وهما ابنتا لاجح، وكان اللاجح نبياً منذراً ولم يكن رسولاً»^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «كان لوط ابن خالة إبراهيم، وكانت سارة امرأة إبراهيم أخت لوط، وكان لوط وإبراهيم نبيين منذرين»^٥.

في كيفية دعوة وعن الصادق عليه السلام: «أن إبراهيم خرج من بلاد نمرود ومعه لوط لا يفارقه وسارة، لوط إلى أن نزل بأعلى الشامات، وخلف لوط بأدنى الشامات»^٦.

وقيل: إن لوطاً هاجر مع إبراهيم إلى الشام، ونزل الأردن - وهو كورة بالشام - فأرسله

١. تفسير روح البيان ٣: ١٩٤.

٢. تفسير الرازي ١٤: ١٦٣، تفسير روح البيان ٣: ١٩٥، تفسير الكشاف ٢: ٢٢١.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٩٥.

٤. الكافي ٨: ٣٧٠/٥٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.

٥. علل الشرائع: ٤/٥٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.

٦. الكافي ٨: ٣٧١ و٣٧٣، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.

الله إلى أهل سدّوم وهو بلد بجمص^١.

وقيل: أرسل إلى خمسة بلاد أعظمها سدّوم، وكان في كلّ بلد أربعة ألف ألف نفس، وكان لوط يأمرهم بالخيرات وينهاهم عن الفواحش^٢.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ توبيخاً لهم وإنكاراً لعملهم القبيح عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون الفعلة ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ واللّواط البالغة في القبح الغاية ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ وما بادر قبلكم إليها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من بني آدم ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ والقرون الأولين.

ثم صرح بمُراده من الفاحشة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وتتكحون ﴿الزَّجَالَ﴾ والدُّخْران ﴿شَهْوَةً﴾ وطلباً لِلذّة النفس ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ومتجاوزين عن الزّوجات اللاتي خُلِقْنَ لقضاء الشهوة بهنّ، وأبجح التمتع منهنّ. ثم أضرب عن التوبيخ وذمهم بخُثب الذّات وخِفة العقل بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾ ومتجاوزون عن حدود العقل والشرع، أو متجاوزون في الفساد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنْ أَوَّلَ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ إِبْلِيسُ، فَإِنَّهُ أَمَكَنَ مِنْ نَفْسِهِ»^٣.

و[في] [الكافي]: عن أحدهما عليه السلام، في قوم لوط: «أَنْ إِبْلِيسَ أَنَاهُمْ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ فِيهَا تَأْنِيثٌ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ حَسَنَةٌ، فَجَاءَ إِلَى ثُبَّانٍ مِنْهُمْ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقْعُوا بِهِ، وَلَوْ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ لَأَبْوَا عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقْعُوا بِهِ، فَلَمَّا وَقَعُوا بِهِ التَّدْوَةَ، ثُمَّ ذَهَبَ [عَنْهُمْ] وَتَرَكَهُمْ، فَأَحَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»^٤.

نسي قصة قوم لوط في (المجمع): عن الباقر عليه السلام: أَنْ لُوطاً لَبِثَ فِي قَوْمِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَكَانَ نَازِلاً فِيهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَيُحَثِّثُهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ، فَلَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُطِيعُوهُ، وَكَانُوا لَا يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الْجَنَابَةِ، بِخُلَاءِ أَشْخَاءَ عَلَى الطَّعَامِ^٥، فَأَعْقَبَهُمُ الْبُخْلُ الدَّاءَ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ فِي قُرُوجِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى طَرِيقِ السَّيَارَةِ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ، وَكَانَ يَنْزِلُ بِهِمُ الصَّيْفَانِ، فَدَعَاهُمُ الْبُخْلُ إِلَى أَنْ كَانُوا إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الصَّيْفُ فَصَحَّوهُ، وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِتَنَكُّلِ^٦ النَّازِلَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ شَهْوَةٍ بِهِمْ إِلَى ذَلِكَ، فَأَوْرَدَهُمُ الْبُخْلُ هَذَا الدَّاءَ حَتَّى صَارُوا يَطْلُبُونَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَيُعْطُونَ عَلَيْهِ الْجُعْلَ، وَكَانَ لُوطٌ سَخِيحاً كَرِيماً، يَقْرِي الصَّيْفَ إِذَا نَزَلَ بِهِ، فَنَهَوْهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: (لَا تَقْرِي صَيْفًا يَنْزِلُ بِكَ)، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ فَصَحَّخْنَا صَيْفَكَ، فَكَانَ لُوطٌ إِذَا نَزَلَ بِهِ الصَّيْفُ كَتَمَ

١. تفسير روح البيان ٣: ١٩٥.

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٩٥.

٣. تفسير الصافي ٢: ٢١٧.

٤. الكافي ٥: ٥٤٤/٤، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.

٥. في النسخة: على الصياغة.

٦. أي تدفع عنهم.

أمره مخافة أن يفضحه قومه، وذلك أنه لم يكن لوط عشيرة فيهم^١.

وعن (العلل) و(العياشي): مثله^٢.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ لوط وأتباعه الناهين عن الفاحشة من ﴿قَوْمِهِ﴾ بعد إبلاغهم النصح شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ فيما بينهم تخلفاً من مواعظ لوط وأتباعه: يا قوم ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ جميعاً ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ وبلدكم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ﴾ وجماعة ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ من الرذائل، ويتزهدون من الحباث والقواش، قيل: كانوا مستهزئين بهم^٣ بهذا القول، فاستحقوا العذاب بطغيانهم وكفرهم واستخفافهم بلوط ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأتباعه المؤمنين به ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وزوجته الكافرة إنها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ والباقيين في القرية غير المدركين للنجاة. قيل: كانت ثبطن الكفر وتغري الكفار على إنكار لوط^٤ ﴿وَأَنطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿مَطَرًا﴾ مُعَجَّبًا؛ لأنه كان من الحجارة ﴿فَانظُرْ﴾ وتأمل أيها العاقل، الناظر في العواقب، والمتأمل في الأمور ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين بالكفر وتكذيب الرسل حتى تعتبر بحالهم، وتحترز من أعمالهم.

نسي هلاك قوم قيل: لما كثرت فيهم اللواط زماناً عجت الأرض إلى ربها، فسمعت السماء فعمت إلى ربها، فسمع العرش فعم إلى ربه، فأمر الله السماء أن تحصيهم، والأرض أن تخسف بهم، فأمطروا أولاً بالحجارة، ثم خسفت بهم الأرض. وقيل: خسفت بالمقيمين وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

رؤي أن تاجرأ منهم كان في الحرم، فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته، وخرج من الحرم فوقع عليه^٥.

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٨٥]

نسي قصة شعيب ثم ذكر سبحانه قصة دعوة شعيب ومعارضة قومه له وهلاكهم بقوله: ﴿وَالِى﴾ قبيلة وقومه ﴿مَدْيَنَ﴾ بن إبراهيم أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب، وكان اسمه ﴿شُعَيْبًا﴾ قيل: هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين، وإن مدين تزوج ريثا بنت لوط فولدت له وكثر نسله،

١. مجمع البيان ٤: ٦٨٥، تفسير الصافي ٢: ٢١٨.

٢. علل الشرائع: ٤/٥٤٨، تفسير العياشي ٢: ٢٣٣٩/٤٣٢، تفسير الصافي ٢: ٢١٨. ٣. في النسخة: لهم.

٥. تفسير روح البيان ٣: ١٩٧، تفسير أبي السعود ٣: ٢٤٦.

٤. تفسير روح البيان ٣: ١٩٦.

فصاروا قبيلة سُمُوا باسم أبيهم، وإنَّ شُعيباً يكنى من خشية الله حتَّى ذهب عيناه، وكان يُقال له خطيب الأنبياء، لحسن مُراجعة قومه، وكانوا أهل بَخْسٍ للمِكْيَالِ والمِيزَانِ^١، فدعاهم شُعيب أولاً إلى التوحيد و﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فَإِنَّهُ ﴿مَالِكُمْ مِنْ إِلَهِ﴾، وخالق مُستحقٍّ للعبادة ﴿غَيْرُهُ﴾، ثم استدلَّ على صِحَّة نبوته وصدق دعوته بمُعجزته التي لا بُدَّ لكلِّ نبيٍّ من إتيانها إثباتاً لنبوته بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ وظهرت لكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ ومُعجزة باهرة ﴿مِنْ﴾ قِيلَ ﴿رَبِّكُمْ﴾ تصديقاً لنبوتِي. أقول: لَمْ نَعثرْ على تفصيل مُعجزاته.

وقيل: إِنَّهُ كان إذا أراد الصُّعود على الجَبَلِ العظيم انْحَطَّ الجبل ليصعد عليه بسهولة، وكان يُخبر بالمُعجبات.

ثم لَمَّا كان القبيح الشائع في زمانه في قومه البَخْسُ في المِكْيَالِ والمِيزَانِ، بدأ بعد الدُّعوة إلى التوحيد بالتهي عن البَخْسِ بقوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ إذا أَدَيْتُمْ حُقوقَ النَّاسِ به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ إذا وزنتموها ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تَنَقَّصُوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وحقوقهم مُطلقاً [سواء أ] كانت في المكيالات والموزونات، أو في غيرهما ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ بالشُّركِ وتَضْييعِ الحُقوقِ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تُشيعوا الظُّلمَ فيها ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ من جانب الله يَبْعَثُ الرُّسُلَ، وتَضْرِيعِ الأحكام، وإيجابِ العَدْلِ ﴿ذَلِكَمُ﴾ الإيفاءُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع في الدُّنيا لإيجابه رَغْبَةُ النَّاسِ في معاملتكم وكثرة أرباحكم، وفي الآخرة بغاية إكرامكم وإجزال ثوابكم على التوحيد والعَدْلِ في الحُقوقِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بي وبدار الخِزَاءِ.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [٨٦]

ثم أَنَّهُ قيل: إِنَّ القوم كانوا إذا راوا أحداً يُريد شُعيباً يقولون له: لا يَفْتِنُكَ شُعَيْبٌ عن دينك فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، وكانوا يتوعدون مَنْ آمَنَ به، وقيل: إِنَّهُمْ يقطعون الطَّرِيقَ، فهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وفي كُلِّ طَرِيقٍ، حال كونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتُهدِّدون النَّاسَ على الإيمان بي، أو تُخَوِّفونهم على أنفسهم وأموالهم وقيل: إِنَّ المُرَادَ: ولا تَقْعُدُوا بِالسَّيْطَانِ في قوله: ﴿لَا تَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^٢.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتمنعون عن السُّلوكِ في طَرِيقِ عُبُودِيَّتِهِ بِتَحْصِيلِ مَعَارِفِهِ والمُداوِمَةِ

على العمل بأحكامه ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ وصدق برؤيته وتوحيده ﴿وَتَبْعُوْنَهَا﴾ وتطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ وميلاً وانحرافاً عن الاستقامة التي تكون للحق بإلقاء الشبهات والجبل والتسويلات.

في كيفية دعوة شعب ومحاكمته ثم رغبهم في الإيمان والطاعة بقوله: ﴿وَادْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ في بدو الأمر ﴿قَلِيلًا﴾ من حيث النسل والمال ﴿فَكَثَرَكُمْ﴾ فيهما بفضل ورحمته.

ثم وعظهم وهددهم على الكفر والمخالفة بقوله: ﴿وَاتَّقُوا﴾ وتفكروا في الأمم الماضية أنه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض منهم؛ كقوم نوح وعاد وثمود، واعتبروا بهم، واحذروا أن تكونوا مثلهم في الكفر والشقاق مع الرسل واشتقاق عذاب الاستئصال.

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِذْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْتُمْ شُعَيْبًا مِنْكُمْ إِذًا

لَخَاسِرُونَ [٨٧-٩٠]

ثم لما كان الكفار يطعنون على المؤمنين بالفقر ويقولون لهم: لو كنتم على الحق لكان لكم القوة والثروة، وحيث إن لنا الغنى والشوكة كان الحق معنا، رددهم بأن الحق لمن كان له حسن العاقبة، وسلّى قلوب المؤمنين به، وهدد الكفار بالعذاب بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من التوحيد ودار الجزاء وأحكام الله وقوانينه المقررة في شرعه ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أخرى منكم ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بما جئت به إصراراً على الكفر، ولجأوا مع الحق ﴿فَاصْبِرُوا﴾ يا قوم وترنصوا، ولا تغتروا بما آتاكم الله في الدنيا ﴿حَتَّى﴾ يأتي الوقت الموعود، وهو يوم القيامة، أو وقت نزول عذاب الاستئصال، إذن ﴿يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم بالحق من نصري ونصر من معي وإعلاء درجاتنا، وخزي الكافرين وتعذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وأعدل القاضين، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

في محاكمة شعب مع قومه وكيفية الشافية والنصائح البليغة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ بالأصالة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ هلاك القوم

تَبِعَا لَكَ ﴿مِنْ قَرْيَتَيْنَا﴾ وبلدنا بغضاً لكم، وتخلصاً من زحمتكم وفنتكم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ولترجعن ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ من عبادة الأصنام.

وإنما عبروا عن الدخول في ملتهم بالعود - مع أن شعباً لم يكن على ملتهم قط، لعدم جواز الكفر على الأنبياء - لا اعتقادهم في حق الكفر قبل إظهاره الدعوة إلى التوحيد.

فلما سمع شعيب منهم هذا الكلام الشنيع ﴿قَالَ﴾ إنكاراً عليهم وتعجباً من قولهم: أنعود ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ لملتكم، متنفّرين من الدخول في دينكم؟! لا يكون ذلك أبداً، فإنه بعد حكم العقل الفطري بالتوحيد، وشهادة جميع الموجودات، وانتظام العالم أحسن نظام، واتفاق جميع الأنبياء من أول الدنيا عليه، وعلى بطلان الشرك وعبادة الأصنام ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ عظيماً ﴿إِنْ﴾ أشركننا ﴿وَعُدْنَا﴾ كما تزعمون ﴿فِي مِلَّتِكُمْ﴾ الباطلة، وقلنا بأن الله اتخذ لنفسه يداً ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ بتكميل عقولنا، وتهذيب أخلاقنا، وإلهامه إيانا أنه ليس كمثله شيء، وأن الأصنام لا تضّر ولا تنفع. ثم بالغ في الإنكار بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ﴾ جائزاً ﴿لَنَا﴾ بحكم العقل السليم ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ ونندفن بها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ضلّالنا وخزيها، ولا يشاء ذلك أبداً، لأنه ﴿رُؤُسَنَا﴾ اللطيف بنا وجميع عبادته، لا يريد لنا إلا ما يقرّبنا إليه، ويؤهلنا لفضله ورحمته. وفيه الاعتراف بعجز نفسه عن تحصيل كل خير، وأن الهداية والضلالة بتوفيق الله وخذلانه.

ثم لما كان فضله متوقفاً على القابلية والاستعداد، وإثابته وتعذيبه على الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، وكلها متوسطة بعلمه بحقائق الأشياء وضمائر عبادته وأحوالهم وأعمالهم، أعلن بسعة علمه بقوله: ﴿وَسِعَ رُؤُسَنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من القابليات والضمائر والظواهر ﴿عِلْمًا﴾ لا يعزّب عنه مثقال ذرة. ثم لما وعد الكفار أن يخرجوه من بلدهم، أو يعيدوه في ملتهم، أظهر اعتماده على الله بقوله: ﴿رُبَّنَا أَفْتَحْ﴾ واحكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ وبما نستحقّه ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وأعدل الحاكمين تحلّ المعضلات وتفصيل الأمور ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ تنبيطاً للناس عن اتباعه: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لئن اتبعتكم شعبياً، وأمثلتكم ما أمركم به من الإيمان بتوحيد الله، وترك البخس ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ ألبتة ﴿لَخَاسِرُونَ﴾ ومضضرون في دنياكم لقوات نفع البخس عنكم، وفي دينكم لترككم ماكان عليه أباًؤكم.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيباً كَأَن لَّمْ

يَغْنَوُا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ
لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَافِرِينَ [٩١-٩٣].

فلما بالغوا في الضلال والإضلال استحقوا عذاب الاستئصال ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ والزلزلة
الشديدة الحاصلة من الصيحة. عن ابن عباس رضي الله عنه: رجفت بهم الأرض وأصابهم حرٌّ شديد، فُرعَتْ
لهم سحابة فخرجوا إليها يطلبون الروح منها، فلما كانوا تحتها سالت عليهم بالعذاب ومعه صيحة
جبرئيل^١ فأحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ وبلد أمنهم
﴿جَائِعِينَ﴾ خامدين ساكنين لا حراك لهم.

عن الصادق عليه السلام: «بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا»^٢.

ثم بين الله تعالى أن جثومهم كان على قولهم: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾^٣ بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا
شُعَيْبًا﴾ وهددوه بأن يخرجوه من القرية، أخرجهم الله منها بالإهلاك فصاروا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾
ولم يقيموا بها مع قوتهم وشوكهم، فهم المخرجون منها بحيث أضمحلت آثارهم منها ذون شعيب.
ثم رد الله عليهم قولهم: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا﴾^٤ بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾
دنياً وآخرة، لا الذين أتبعوا شعيباً ﴿فَتَوَلَّى﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ شعيب بعد هلاكهم. وقيل: قبل ذلك.
﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ وأذيت إليكم ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ بأوفى بيان، بحيث لم يبق لكم
الغدر في ترك الإيمان، فلم تصدقوني ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أبلغ نصح، فلم تقبلوا مِنِّي، وأندرتكم من
شوء عاقبة الكفر والعصيان، فلم تعتنوا بقولي ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ وأتحنن بعد ذلك كله ﴿عَلَى﴾ هلاك
﴿قَوْمِ﴾ استحقوا ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال لكونهم ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله ورُسله ودار الجزاء.
قيل: إنه اشتد حزنه على قومه لكثرتهم، وقرباتهم، وطول الألفة^٥ بهم، وتوقعه إجابتهم إلى قبول
قوله^٦.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا
الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٩٤ و ٩٥]

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٠٣.
٢. مجمع البيان ٤: ٦٩٣، تفسير الصافي ٢: ٢٢٠.
٣. الأعراف: ٨٨/٧.
٤. الأعراف: ٩٠/٧.
٥. في النسخة: الفتنة.
٦. تفسير الرازي ١٤: ١٨٣.

ثُمَّ عَزَىٰ نَفْسَهُ بِأَنَّهُمْ أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ بِشُوءِ اخْتِيَارِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَثَاقَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَيْسُوا بِأَهْلِ لَانَ يَأْسَى وَيَحْزَنُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ غَايَةَ لُطْفِهِ بَعِيَادِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَكْتَفِي فِي هِدَايَتِهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، بَلْ كَانَ يُوْجِدُ لَهُمْ مُنْبَهَاتٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مَّوَلَّةً قَوْمٍ، بَلْدًا كَانَتْ أَوْ رُسْتَاقًا^١﴾ مِنْ نَبِيٍِّّ مُنْذِرٍ لِهِدَايَتِهِمْ، فَكَذَّبَهُ أَهْلُهَا ﴿إِلَّا أَخَذْنَا﴾ وَابْتَلَيْنَا ﴿أَهْلَهَا﴾ وَسَاكِنِيهَا ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ وَالشَّدَائِدِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ. وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِهِمَا عَلَى الْعَكْسِ: لِأَجْلِ أَنَّهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَصْزَعُونَ﴾ وَرَجَاءُ أَنَّهُمْ يَخْشَعُونَ لَنَا وَيَتَقَادُونَ لِأَمْرِنَا، فَإِنَّ الْبَلَايَا مِنَ الْفَقْرِ وَالْمَرَضِ تُرِقُّ الْقُلُوبَ وَتُؤَثِّرُ الْإِنْكَسَارَ وَالتَّوَاضِعَ فِي النَّفْسِ.

﴿ثُمَّ﴾ إِذَا لَمْ يَتَأَذَّبُوا بِالْبَلَاءِ ﴿بَدَّلْنَا﴾ مَا كَانَ مِنْ حَالِهِمْ بِأَن أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ وَالبَلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ أَصَابَتْهُمْ ﴿الْحَسَنَةَ﴾ مِنَ الرِّخَاءِ وَالسَّعَةِ وَالصَّحَّةِ، لَتَدْعُوهُمْ النُّعْمَةُ بَعْدَ النُّعْمَةِ وَالرِّخَاءُ بَعْدَ الشَّدَةِ إِلَى الشُّكْرِ وَالْخُصُوعِ وَالطَّاعَةِ، فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ ذَلِكَ وَبَقُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ﴿حَتَّىٰ عَقَّوْا﴾ وَكَثَرُوا عَدَدًا وَغَدَّةً وَنِعْمَةً ﴿وَقَالُوا﴾ جَهْلًا بِأَنَّ الشَّدَائِدَ كَانَتْ لِتَأْدِيبِهِمْ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ كَانَ لِتَنْبِيهِهِمْ: إِنَّ هَذِهِ التَّغْيِيرَاتِ مِنْ عَادَةِ الزَّمَانِ فِي أَهْلِهِ، وَ﴿قَدْ مَسَّ﴾ وَأَصَابَ ﴿آبَاءَنَا﴾ وَأَجْدَادَنَا فِي سَالِفِ الزَّمَانِ الْبِئْسَاءِ مَرَّةً، وَ﴿الضَّرَّاءِ﴾ أُخْرَىٰ ﴿وَالسَّرَّاءِ﴾ مِنَ النُّعْمَةِ وَالرِّخَاءِ ثَالِثَةً، فَلَمْ يَتَنَقَّلُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، فَكَوْنُوا أَنْتُمْ كَمَا كَانَ آبَاؤُكُمْ.

فَلَمَّا لَمْ يَتَنَفَّعُوا بِتِلْكَ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَلَمْ يَتَقَادُوا، بَلْ أَصْرَوْا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿بِفِتْنَةٍ﴾ وَفَجَاءَ ﴿وَهُمْ﴾ حَالُ نَزْوِهِ ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِهِ وَلَا يَحْتَمِلُونَ ابْتِلَاءَهُمْ بِهِ، فَكَانَ عَذَابُهُمْ لِعَدَمِ انْتِظَارِهِمْ لَهُ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ نَكَالًا وَأَعْظَمَ حَسْرَةً.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٩٦]

ثُمَّ دَعَا سُبْحَانَهُ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ بِتَنْبِيهِهِمْ عَلَى فَوَائِدِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ الْمُهْلَكَةِ بِكُفْرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ ﴿آمَنُوا﴾ بِي وَبِرُوحَانِيَّتِي، وَصَدَّقُوا رُسُلِي الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْهِمْ لِهِدَايَتِهِمْ، بَدَلَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الْمَعَاصِيَ وَالسَّيِّئَاتِ بَدَلَ إِزْكَابِهِمْ لَهَا وَانْغِمَارِهِمْ فِيهَا، وَاللَّهُ ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾ كَثِيرَةً ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بِالْأَمْطَارِ النَّافِعَةِ ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾ بِإِبْنَاتِ النَّبَاتَاتِ الْكَثِيرَةِ وَالثَّمَارِ وَالزُّرُوعِ، وَإِكْثَارِ الْمَوَاشِيِّ وَإِدَامَةِ الْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ، وَلَوْ سَعْنَا عَلَيْهِمْ جَمِيعَ

١. الرُّسْتَاقُ: مَعْرَبٌ «رُوسْتَا» وَهِيَ الْقَرْيَةُ بِالْفَارْسِيَّةِ.

الْخَيْرَاتِ، وَيَسْرِنَاهَا لَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿وَلَكِنْ﴾ الْأَسْفُ كُلُّ الْأَسْفِ أَنَّهُمْ ﴿كَذَّبُوا﴾ الرُّسُلَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرَاعِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِمْ، وَعَتَوْا عَلَى رَبِّهِمْ ﴿فَأَخَذْنَاَهُمْ﴾ بِعَذَابِ الْإِسْتِصَالِ، وَأَهْلَكْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، لَا لِلتَّشْفَى؛ لِأَنَّهُ مُحَالٌ عَلَيْنَا، بَلْ كَانَ هَلَاكُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بِسَعْيِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي الْعِظَامِ الْمُوجِبِينَ لاشْتِحَاقِهِمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا.

أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى
أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [٩٧-٩٩]

ثُمَّ هَذِهِ تَعَالَى النَّاسَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ بِعَذَابِ الْإِسْتِصَالِ بِأَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الْأَمْنُ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿بَأْسُنَا﴾ وَعَذَابُنَا بَيَاتًا، وَلَيْلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، مُسْتَرِحُونَ لَا يَحْتَمِلُونَ وَقُوعَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ ﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ وَحَالَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ ﴿وَهُمْ﴾ مِنْ غَايَةِ غَفْلَتِهِمْ ﴿يُلْعَبُونَ﴾ وَيَشْتَغِلُونَ بِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالدُّنْيَا، بَلْ يَضُرُّهُمْ كإِنْكَارِ التَّوْحِيدِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، أَوْ يَصْرِفُونَ هِمَمَهُمْ فِي تَحْصِيلِ الدُّنْيَا. ثُمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي إِنْكَارِ الْأَمْنِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَعَذَابِهِ الْبَغْيِي أَوْ اسْتِدْرَاجَهُ لَهُمْ^١ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَأَخَذَهُ فَجَاءَهُ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وَالْمُضْرُّونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَتَرْكِهِمُ النَّظَرَ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَعَدَمُ اعْتِبَارِهِمْ مِنْ حَالِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْمُهْلِكَةِ، فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ اللَّهَ وَعَذَابَهُ.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [١٠٠]

ثُمَّ تَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنْ ذَكَرَ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَعِصْيَانِ أُمَّتِهِمْ وَإِنْزَالَ الْعَذَابَ عَلَى مَعَاضِيهِمْ، كَانَ لِعِبَرَةِ النَّاسِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ وَلَمْ يَتَضَحَّ ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ وَيَسْكُنُونَهَا وَيَعِيشُونَ فِيهَا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِهْلَاكَ ﴿أَهْلِهَا﴾ الَّذِينَ كَانُوا سَاكِنِينَ فِيهَا، فَعَذَّبُوا بِذُنُوبِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَ﴿أَصْبَنَاهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كَمَا أَصْبَنَا بِالْعَذَابِ مَنْ قَبْلَهُمْ؟ لَا وَاللَّهِ لَا يَهْتَدُونَ؛ لِأَنَّا نَحْنُ عَلَى أَفْنَدَتِهِمْ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بِكُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهَا^٢ ﴿فَهُمْ﴾ إِذَنْ ﴿لَا

يَسْمَعُونَ ﴿مَوَاعِظَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَمَا يُقَصُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَرِ سَمَاعَ الْقَبُولِ، أَوْ لَا يَعْتَنُونَ بِهَا كَيْ يَنْتَفِعُوا بِهَا وَيَعْتَبِرُوا مِنْهَا، فَكَأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَهَا.

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [١٠١]

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ الطَّبَعِ عَلَى الْقُلُوبِ بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ الخمس التي ﴿نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ بعضاً ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ وأخبارها التي فيها العِبْطَةُ والتذكير ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والشُّعْرُجَاتُ البَاهِرَاتُ، وَمَعَ ذَلِكَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿فَمَا كَانُوا﴾ بعد مجيء الرُّسُلِ، ومُشَاهِدَةِ الْمُعْجَزَاتِ، واستماعِ الْمَوَاعِظِ وَالتَّهْدِيدَاتِ ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بل استمروا على كُفْرِهِمُ السَّابِقِ، وَأَصْرُوا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ﴿كَذَلِكَ﴾ الطَّبَعُ الَّذِي كَانَ عَلَى قُلُوبِ أَهَالِي الْقُرَى الْخَمْسِ الْمُهْلَكَةِ الَّذِينَ مَرَّ ذِكْرُهُمْ ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ وَيَخْتِمُ ﴿عَلَى قُلُوبِ﴾ جَمِيعِ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ الْمُصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ عَصْرِكَ وَغَيْرِهِمْ، فَلَا يَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهَا الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ، فَلَا يُحْزِنُكَ تَكْذِيبُهُمْ وَإِعْرَاضُهُمْ.

في ذكر بعض اخبار عن القمّي رحمه الله: لا يؤمنون في الدنيا بما كذبوا في الدّر، وهو ردّ على من أنكر الميثاق عالم الذر والطينة في الدّر الأول^١.

عن (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَخَلَقَ مَنْ أَحَبَّ مِمَّا أَحَبَّ، وَكَانَ مَا أَحَبَّ أَنْ يَخْلُقَهُ مِنْ طِينَةِ الْجَنَّةِ، وَخَلَقَ مَنْ أَبْغَضَ مِمَّا أَبْغَضَ، [وَكَانَ مَا أَبْغَضَ] أَنْ يَخْلُقَهُ مِنْ طِينَةِ النَّارِ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ فِي الظَّلَالِ». فَقِيلَ: وَأَيُّ شَيْءٍ الظَّلَالُ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ظُلُوكِ فِي الشَّمْسِ؛ شَيْءٌ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، ثُمَّ بَعَثَ مِنْهُمْ النَّبِيِّينَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِاللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^٢، ثُمَّ دَعَوْهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالنَّبِيِّينَ، فَأَقْرَبَ بَعْضُهُمْ وَأَنْكَرَ بَعْضٌ، ثُمَّ دَعَوْهُمْ إِلَى وَلايَتِنَا، فَأَقْرَبَ بِهَا وَاللَّهُ مَنْ أَحَبَّ وَأَنْكَرَهَا مَنْ أَبْغَضَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ثُمَّ قَالَ: «كَانَ التَّكْذِيبُ ثُمَّ»^٣. وفي روايةٍ أُخْرَى: «فَمِنْهُمْ مَنْ أَقْرَبَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾»^٤.

وعنهما عليه السلام: «بَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ إِلَى الْخَلْقِ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، فَمَنْ صَدَقَ

١. تفسير القمي ١: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٢٢. ٢. الزخرف: ٨٧/٤٣.
٣. الكافي ٢: ٣/٨، تفسير الصافي ٢: ٢٢٢. ٤. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٢٢.

حِينَئِذٍ صَدَقَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَنْ كَذَبَ حِينَئِذٍ كَذَبَ بَعْدَ ذَلِكَ»^١.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ [١٠٢]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْكَفَّارُ عِنْدَ مَسَاسِ الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^٢، عَيْرَهُمْ شَبَحَانَةُ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ عَاهِدُوهُم مَعَ حُكْمِ الْعَقْلِ بِوُجُوبِهِ.

ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ التَّعْيِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وخارجين من حدود العقل والدين، وعلمنا أغلبيهم عن شكر ربهم وطاعته آيين.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَهْدِ: نَصَبُ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَرِسَالَةِ رَسُولِهِ.

وعن ابن مسعود قال: العهد هنا الإيمان، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^٣ يعني: آمَنَ وقال: لا إله إلا الله^٤.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ: الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ فِي عَالَمِ الذَّرِّ.

عن ابن عباس قال: يُرِيدُ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾^٥، فَلَمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِنْهُمْ هَذَا الْعَهْدَ وَأَقْرَأُوا بِهِ ثُمَّ خَالَفُوا ذَلِكَ، صَارَ كَأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُمْ عَهْدٌ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾^٦.

العباشي: عن أبي ذَرٍّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَالَ: وَاللَّهِ، مَا صَدَّقَ أَحَدٌ مِمَّنْ أَخَذَ مِيثَاقَهُ فَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ غَيْرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِمْ وَعِصَابَةِ قَلِيلَةٍ مِنْ شِيعَتِهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^٧.

وعن الصادق عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بَصِيرٍ: يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّكُمْ وَفَيْتُمْ بِمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِيثَاقَكُمْ مِنْ وَلَايَتِنَا، وَإِنَّكُمْ لَمْ تُبَدِّلُوا بِنَا غَيْرَنَا، وَلَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَعَيَّرَكُمْ اللَّهُ كَمَا عَيَّرَهُمْ حَيْثُ يَقُولُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^٨.

وعن الكاظم عليه السلام: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الشَّاكِّ»^٩.

١. تفسير العبّاشي ٢: ٢٨٢/١٩٧١، تفسير الصّافي ٢: ٢٢٣.

٣. مريم: ٨٧/١٩. ٤. تفسير الرازي ١٤: ١٨٨.

٢. يونس: ٢٢/١٠.

٥. الأعراف: ٧/١٧٢.

٧. تفسير العبّاشي ٤: ١٥٤/١٦٠١، تفسير الصّافي ٢: ٢٢٣.

٦. تفسير الرازي ١٤: ١٨٨.

٩. الكافي ٢: ٢٩٣/١، تفسير الصّافي ٢: ٢٢٣.

٨. الكافي ٨: ٣٥/٦، تفسير الصّافي ٢: ٢٢٣.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [١٠٣]

ثم شرع سبحانه في ذكر قصة موسى ودعوته، ومخالفة فرعون وغرقه بجنوده، ولما كان موسى أكثر معجزة وأقواها من سائر الأنبياء، وقصته أشد تأثيراً في نفوس اليهود والنصارى، بسطها بقوله: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ» في بني إسرائيل ومملكة مصر «مُوسَى» بن عمران مُلتبساً «بِآيَاتِنَا» الدالة على رسالته «إِلَى فِرْعَوْنَ» ملك مصر، قيل: اسمه وليد بن مصعب، وقيل: قابوس^١ «وَمَلَئِهِ» وأشراف مملكته، وإنما خصهم بالذكر مع عموم رسالته لكون غيرهم تبعاً لهم «فَظَلَمُوا» بالمعجزات والآيات، وكفروا «بِهَا» حيث نسبوها إلى السحر، وسعوا في الإفساد في أمر نبوته وفي الأرض «فَانْظُرْ» يا محمد، أو أيها العاقل بنظر الاعتبار «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ» أمر «الْمُفْسِدِينَ» في الأرض بالإفساد في أمر الرُّسل.

ثم أنه روى الصدوق عن الباقر عليه السلام - في حديث - «ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى أَرْسِلَ الْأَسْبَاطَ اثْنِي عَشَرَ بَعْدَ يَوْسُفَ، ثُمَّ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمِثْلِهِ إِلَى مِصْرَ وَحَدَا»^٢.

وروى العياشي: «أَنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى سَبْعَ مَدَائِنَ يَتَحَصَّنُ فِيهَا مِنْ مُوسَى عليه السلام، وَجَعَلَ فِيهَا بَيْنَهَا أَجَاماً وَغِيَاضاً^٣، وَجَعَلَ فِيهَا الْأُسْدَ لِيَتَحَصَّنَ بِهَا مِنْ مُوسَى، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى عليه السلام إِلَى فِرْعَوْنَ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا رَأَى الْأُسْدَ تَبَصَّصَتْ^٤ وَلَوَّتْ مُدِيرَةً، وَلَمْ يَأْتْ مَدِينَةَ إِلَّا انْفَتَحَ لَهُ بَابُهَا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَصْرِ فِرْعَوْنَ الَّذِي هُوَ فِيهِ. قَالَ: فَقَعْدَ عَلَى بَابِهِ وَعَلَيْهِ مِذْرَعَةٌ^٥ مِنْ صُوفٍ وَمَعَهُ عَصَاهُ، فَلَمَّا خَرَجَ الْأَذْنَ قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَمَكَثَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَهُ، قَالَ: فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: أَمَا وَجَدَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَنْ يُرْسِلُ غَيْرَكَ؟! قَالَ: فَغَضِبَ مُوسَى عليه السلام فَضْرَبَ الْبَابَ بِعَصَاهُ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ بَابٌ إِلَّا انْفَتَحَ، حَتَّى نَظَرَ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ: ادْخُلْهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ مَرْتَعَةٌ كَثِيرَةٌ الارتفاع ثمانون ذراعاً^٦.

وفي رواية: «أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ أَتَيَا بَابَ فِرْعَوْنَ، فَضْرَبَ عَصَاهُ بِالْبَابِ، فَفَزِعَ فِرْعَوْنَ فَشَابَ رَأْسُهُ فَاسْتَحْيَى فَخَضَّبَ بِالسَّوَادِ^٧، فَأَذِنَ لِمُوسَى فِي الدُّخُولِ، فَدَخَلَ هُوَ وَأَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِ».

٢. كمال الدين: ٢/٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢٢٣.

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٠.

٣. الأجرام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتف، والغياض: جمع غيضة، مجتمع الشجر في مفيض ماء.

٤. تبصص الكلب: حرك ذنبه.

٦. تفسير العياشي ٢: ١٥٤/١٦٠٣، تفسير الصافي ٢: ٢٢٤.

٧. تفسير الرازي ١٤: ١٨٩، تفسير روح البيان ٣: ٢١٠.

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ
إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [١٠٤-١٠٨]

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ من الرُّسُلِ بَعُوثُ إِلَيْكَ ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأدعوك إلى
عبادته، وأنهاك عن دَعْوَى الْاَلُوْهِيَّةِ، فقال فرعون: كَذَبْتَ، ما أنت برَسُول، فقال موسى ﷺ: ﴿حَقِيقٌ
عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ﴾ قولاً ﴿إِلَّا الْحَقُّ﴾ والصدق.

ثم أخبر بأن له معجزة دالة على صدقه بقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ وأتيت إليكم ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة
ومعجزة باهرة دالة على صدقي ﴿مِنْ﴾ قِبَلِ ﴿رَبِّكُمْ﴾ فإذا تبين لك صدق رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ﴾ وفكّهم من قيد العبودية، وخلّهم حتى أذهب بهم إلى الأرض المقدّسة التي هي موطن
آبائهم. قيل: كان يستعملهم في الأعمال الشاقة لعدم اغترافهم برؤيويته.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ ومعجزة من عند إلهك الذي أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَا﴾
وأظهرها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دَعْوَى رِسَالَتِكَ حَتَّى نَعْلَمَ بِصَدَقِكَ ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﷺ
﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ وحيّة^١ عظيمة ﴿مُبِينٌ﴾ لا يشك أحد في أنّها
ثُعْبَان.

في رواية العياشي: «كان لها ثُعْبَانان، فإذا هي حيّة قد وقع إحدى الثُعْبَتَيْنِ في الأرض والثُعْبَةُ
الأخرى في أعلى الثُقبَةِ، قال: فنظر فرعون إلى جوفها وهو يلتهب نيراناً، قال: وأهوت إليه فأحدث
وصاح: يا موسى خذها»^٢.

﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﷺ بعد معجزة العصا ﴿يَدَهُ﴾ وأخرجها من جيبه أو جناحه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾
بياضاً خارقاً للعادة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها.

رُوي أنّ موسى أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ فقال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف
ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضاً ثورانياً غلب شعاعه شُعَاعُ الشَّمْسِ. وكان ﷺ آدم^٣ شديد الأدمة^٤.

وعن ابن عباس قال: كان لها ثور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض^٥

١. في النسخة: وجنّة. ٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٥/١٦٠٣، تفسير الصافي ٢: ٢٢٤.

٣. آدم: اشتدت سُمُرُهُ، فهو آدم. ٤. تفسير روح البیان ٣: ٢١١.

٥. تفسير الرازي ١٤: ١٩٦.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَزِجُهُ وَآخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزَهَبَهُمُ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ [١٠٨-١١٦]

فلما رأى فرعون هاتين المعجزتين وشاور مع أشرف^١ قومه في أمر موسى عليه السلام ﴿قَالَ الْمَلَأُ وَالْأَشْرَافُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ في مجلس المشورة: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الرجل المدعي للرسالة ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر ماهر فيه، يطلب السلطنة ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾ بوسيلة سحره ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ ومملكتكم، ويجعل الحكومة فيها لبني إسرائيل، فلما سمع فرعون ذلك منهم قال لهم: ﴿فَمَآذَا تَأْمُرُونَ﴾ وبأي شيء تشيرون عليّ؟ ﴿قَالُوا أَزِجُهُ وَآخَاهُ﴾، وآخر أمرهما، ولا تعجل في شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ﴾ الرُّسُلَ ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ والبلاد التي فيها السحرة، حال كون رُسلك ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين من له علم بالسحر ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسحر حاذق فيه.

عن العياشي: روي أنه لم يكن في جلسائه يومئذٍ ولدٌ سيفاح، ولو كان لأمر بقتلتهما. الخبر^٢. قيل: كان له مدائن فيها السحرة المَعْدَةُ لوقت الحاجة إليهم، ولم يكن في زمان السحرة أكثر من زمان موسى عليه السلام.

في معارضة السحرة مع موسى عليه السلام ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد إرسال الشرطه إليهم وإحضارهم ﴿قَالُوا﴾: يا فرعون ﴿إِنَّ لَنَا﴾ عندك ﴿لَأَجْرًا﴾ عظيماً أبتة ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى في عمل السحر ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم لأجراً جزيلاً عندي ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي منزلة ومقاماً.

قيل: إنه قال لهم: تكونون أول من يدخل مجلسي، وآخر من يخرج منه. نقل أنه كان في المدائن أخوان ماهران في السحر، فلما بلغهم أن فرعون طلبهم لمعارضة موسى عليه السلام جاءوا إلى قبر أبيهم وقالوا: يا أبه، إن فرعون طلبنا لمعارض رجلين معهما عصاً إذا ألقياها تصير ثعباناً يأكل كل ما يراه، ولذا ضيقا على فرعون، قال أبوه: انظروا هل تصير ثعباناً حال نوم

صاحبيها، فإن صارت ثعباناً عند نومهما فإنه ليس من السحر، ولا يقدر أهل العالم على معارضة الرجلين. ثم حضر الأخوان مع أصحابهما - وكانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً - عند فرعون وقالوا ما قالوا، ثم ذكر الأخوان لأصحابهما ما وقع بينهما وبين أبيهما من السؤال والجواب، ففتش السحرة عن حال العصا وقت نوم موسى عليه السلام، فعلموا أن موسى عليه السلام إذا نام تصير العصا حية وتحرسه، فتردد القوم وفتروا عن معارضته.

فجلس فرعون في قصره، وطلب موسى عليه السلام، وأحضر السحرة كي يعارضوه، وحضر عامة أهل مصر، فاصطف السحرة في جانب وقام، موسى وهارون عليه السلام في جانب آخر، فتقدم السحرة إليهما^١ و«قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا أَنْ تَلْقَى» عصاك أولاً «وإِنَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ» جبالنا وعصيتنا أولاً، فجعلوا الاختيار لموسى في السبقة إلى الإلقاء.

قيل: كان سبب إيمانهم تأديبهم مع موسى عليه السلام^٢.

قيل: في تغيير النظم إشعاراً بميلهم إلى كونهم السابقين في الإلقاء^٣.

«قَالَ» لهم موسى تأكيداً لأمر المعجزة: «أَلْقُوا» انتم، أولاً جبالكم وعصيتكم «فَلَمَّا أَلْقَوْا» ما معهم «سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ» وخيلوا إليهم ما لا حقيقة له «وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ» وبالغوا في إربابهم «وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ».

رؤي أنهم جمعوا جبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات جسام غلاظ، ولطخوا تلك الجبال بالزئبق، وجعلوا الزئبق داخل تلك العصي، فلما أثرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض، وكانت كثيرة جداً، فتخيل الناس أنها تتحرك وتلتوي باختيارها، وصار الميدان كأنه مملوء بالحيات^٤.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ*فَوَقَعَ الْحَقُّ

وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ*وَأَلْقَى السَّحَرَةُ

سَاجِدِينَ*قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ*رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ[١١٧-١٢٢]

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ» من يدك، فאלقها «فَإِذَا هِيَ» صارت حية عظيمة «تَلْقَفُ» وتبلغ «مَا يَأْفِكُونَ» ويذرون.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢١٣.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١٣.

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٢ و ٢١٣.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٢.

زوي [أنها] لما تلقفت جبالهم وعصيتهم وابتلعتها بأسرها، أقبلت على الحاضرين فهربوا، وازدحموا حتى هلك منهم جمع كثير لا يعلم عددهم إلا الله. ثم أخذها موسى وصارت عصاً كما كانت، وأعدم الله بقدرته القاهرة تلك الأجرام العظام، وقيل: فرقها أجزاءً لطيفة، فقالت السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت جبالنا وعصيتنا^١.

﴿فَوَقَّعَ﴾ ما هو ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت في الواقع، وظهر صدق موسى ﷺ ﴿وَيَبْطُلَ﴾ وأضمحل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر، وأما فرعون وملؤه ﴿فَقُلُّوا﴾ في مجلسهم ﴿هُنَالِكَ﴾ بحيث لم تكن غلبته أظهر من ذلك ﴿وَاتَّقَلَّبُوا﴾ ورجعوا عن معارضته إلى محالهم ﴿صَاغِرِينَ﴾ بحيث لا صغار ولا ذل في حق مبطل مثل ذلك ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ﴾ وخرها على الأرض ﴿سَاجِدِينَ﴾ بالشدة كأنه ألغاهم ثلثي، إظهاراً لبهور الحق وعدم ثمالهم من قبوله، وإعلاماً بكسر فرعون بإيمان الذين أتى بهم لكسر موسى ﷺ، وانقلاب الأمر عليه.

استدل المتكلمون بهذه الآية على غاية فضيلة العلم؛ لأن السحرة ليعلمهم بحقيقة السحر ومُتَنَاهَا عِلْمُوا أَنَّ مَا أَتَاهُ مُوسَى ﷺ خَارِجٌ عَنِ السَّحْرِ، وَأَنَّهُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الإِلَهِيَّةِ لَا مِنَ التَّمْوَهِاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلِذَا ﴿قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا كَامِلِينَ فِي عِلْمِ السَّحْرِ لَمْ يُمْكِنَهُمُ الاسْتِدْلَالُ بِتِلْكَ الْمُعْجَزَةِ لِاحْتِمَالِ كَوْنِهَا السَّحْرَ الْكَامِلَ.

ثم لما كان في كلامهم «رب العالمين»، وكان فرعون مدعياً للرؤوبية أوضحه بقوله: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فَإِنَّ فِرْعَوْنَ وَإِنَّ رَبِّي مُوسَى فِي صِغَرِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَرْبِ هَارُونَ. قيل: إنهم لما قالوا: ﴿أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال فرعون: إياي عتوا، فلما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى﴾ قال: إياي عتوا، لأنِّي رَبِّيْتُ مُوسَى، فلما قالوا: ﴿وهارون﴾ زالت الشبهة، وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون^٢.

وقيل: إنما خَصَّوْهُمَا بِالذِّكْرِ تَفْضِيلاً وَتَشْرِيفاً لِهَمَا^٣.

عن ابن عباس: أمنت السحرة واتبع موسى ﷺ من بني إسرائيل ستمائة ألف^٤.

قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدَّ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [١٢٣]

٢. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٦.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١٤.

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٣.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٧.

ثُمَّ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِلسَّحَرَةِ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنكَاراً عَلَيْهِمْ وَتَوَيْخاً لَهُمْ﴾: «آمَنْتُمْ بِهِ» وَصَدَقْتُمُوهُ فِي دَعْوَى رَسُولِهِ ﴿قَبْلَ أَنْ أَذْنَ لَكُمْ﴾ فِي الْإِيمَانِ بِهِ، مَعَ أَنْكُمْ عِبِيدِي، وَلَمْ يَجْزِ لَكُمْ عَمَلٌ بِغَيْرِ إِذْنِي ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الصَّنِيعَ الْبَيْتَ ﴿لَمَكْرُؤٌ عَظِيمٌ﴾ مَكْرُؤُهُ وَجِيلَةٌ وَاضِحَةٌ اخْتَلَمُوهَا أَنْتُمْ وَمُوسَى ﴿فِي﴾ هَذِهِ ﴿الْمَدِينَةِ﴾ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْمِيعَادِ ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا﴾ بِذَلِكَ الْمَكْرِ ﴿أَهْلُهَا﴾ وَسَاكِنِيهَا مِنَ الْقِبْطِ وَتُخْلَى لَكُمْ وَلِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جَزَاءَ مَكْرِكُمْ وَصَنِيعِكُمْ، وَعَنْ قَرِيبٍ تَدْرُونَ شَوْءَ عَاقِبَةِ عَمَلِكُمْ.

قِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَى إِيمَانَ السَّحَرَةِ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حُجَّةً قَوِيَّةً عَلَى صِحَّةِ بُيُوتِهِ، أَلْقَى الشُّبْهَةَ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرُؤٌ﴾ يَعْنِي أَنَّ إِيمَانَهُمْ بِهِ لَيْسَ إِلَّا لَتَوَاطُئِهِمْ مَعَ مُوسَى عَلَى ذَلِكَ، وَغَرَضُهُمْ مِنْهُ انْقِرَاضُ سُلْطَانَةِ الْقِبْطِ، وَإِخْرَاجُهُمْ مِنْ مِصْرَ.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ مُوسَى وَأَمِيرَ السَّحَرَةِ التَّقِيَا، فَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَرَأَيْتَكَ إِنْ غَلَبْتُكَ أَتُؤْمِنُ بِي وَتَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ الْحَقُّ؟ قَالَ السَّاحِرُ: لَا تَبْرَحْ غَدَاً بِسِحْرٍ لَا يَغْلِبُهُ سِحْرٌ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ غَلَبْتَنِي لِأُؤْمِنَنَّ بِكَ، وَفِرْعَوْنَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا وَيَسْمَعُ قَوْلَهُمَا. فَهَذَا هُوَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤُهُ﴾^١.

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [١٢٤-١٢٧]

ثُمَّ فَصَلَ مَا أَجْمَلَهُ أَوَّلًا مِنَ التَّهْدِيدِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ مِنْ طَرَفٍ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ ذَلِكَ الطَّرَفِ ﴿ثُمَّ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ نَفْصِيحاً لَكُمْ، وَتَنْكِيلاً وَعِبْرَةً لَأَمْثَالِكُمْ.

قِيلَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ ذَلِكَ، فَشَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِقُطَاعِ الطَّرِيقِ تَعْظِيماً لِحُرْمَتِهِمْ^٢.

ثُمَّ لَمَّا سَمِعَ السَّحَرَةُ هَذَا التَّهْدِيدَ الشَّدِيدَ ﴿قَالُوا﴾: إِعْلَاماً بِبَيِّنَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَعَدَمَ مُبَالَاتِهِمْ بِالْمَوْتِ، وَالْقَتْلِ، بَلْ شَغَفَهُمْ عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا﴾ وَرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ رَاجِعُونَ، إِنْ

فعلت بنا ذلك.

قيل: إن المراد: أنا نموت لا محالة فقلنا أم لا، فلا بُدَّ أن يوعيدك^١، أو أنا وإياكم جميعاً فنقلب إلى الله، فيحكم بيننا وبينكم ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ ولا تغضب علينا، أو لا تكثر مِنَّا ولا تعيب علينا لجهة من الجهات ﴿إِلَّا﴾ لأجل ﴿أَنْ أَمَّا بَآيَاتِ رَبَّنَا﴾ ومعجزاته التي أجراها على يد موسى ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَنَا﴾ وشاهدناها، وهذا الإيمان بحكم العقل عين الصواب وكل المتعبة.

عن ابن عباس: يريد: ما أتينا بذنب نُعَذِّبُ عليه إلا أن آمنا بآيات ربنا من المعجزات الجارية على يد موسى ﷺ^٢.

ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا إلى الله وتضرعوا إليه وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَنْقِ﴾ وأفض ﴿عَلَيْنَا﴾ وضب في قلوبنا ﴿صَبْرًا﴾ كاملاً كثيراً - كما يُصَبُّ الماء في الإناء - حين القطع والصلب ﴿وَتَوْفَّنَا﴾ وأقبض أرواحنا حال كوننا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ولأوامرك وأوامر رسلك مُتَقَادِينَ، وتوحيده وبما جاء به موسى ﷺ مُتَدَيِّنِينَ.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم صلبهم على شاطئ نيل مصر^٣.

ثم روي أن فرعون بعد ما رأى من موسى ﷺ ما رأى من معجزة العصا واليد البيضاء، خافه خوفاً شديداً، ولذا لم يجب ولم يتعرض له بشيء، بل خلى سبيله^٤.

﴿و﴾ لذا ﴿قَالَ أَمْلَأْ﴾ والأشراف ﴿مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ اعتراضاً وإنكاراً عليه: ﴿أَتَذَرُ﴾ وتترك ﴿مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ من بني إسرائيل الذين تبعوه على دينه ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ على الناس دينهم ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وهذا البلد ﴿وَيَذَرُكَ﴾ ويتركك ﴿وَالْأَهْلَكَ﴾ ومعبوداتك - قيل: كان يعبد الكواكب^٥، وقيل: إنه صنع لقومه أصناماً على صورته، وأمرهم أن يعبدوها تقريباً إليه^٦ - فأجابهم فرعون ﴿وَقَالَ سَتَقُلُّ أَبْنَاءَ هُمْ﴾ كما كنا نقتلهم قبل مجيء موسى ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ ونُتَبِّعِي ﴿نِسَاءَ هُمْ﴾ أحياء لنستخدمهن كما [كنا] نستخدمهن فيما قبل ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وعلى ما يزيد في حقهم مقتدرون، وعلى مملكة مصر مستقلون، كما كنا كذلك من قبل، وبني إسرائيل تحت أيدينا في ذل الأسر والهوان كما كانوا كذلك، فلم تتغير حالتنا وحالهم بقلبة موسى علينا بالسحر. فلما فشا هذا

٢. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٩.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.

٦. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٤.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.

التهديد من فرعون في بني إسرائيل خافوا منه خوفاً شديداً.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [١٢٨ و ١٢٩]

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وأتباعه تسليّة لهم، وتقوية لقلوبهم: يا قوم، لا تخافوا ولا تحزنوا، و﴿اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ﴾ واستنصروا منه في دفع تعذّيات فرعون وقومه، وتوكلوا على الله ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على ما أصابكم في سبيله، ولا تُصنوا إلى ما قال فرعون من الأباطيل ﴿إِنَّ﴾ هذه ﴿الْأَرْضُ﴾ التي يدعي فرعون السّلطنة فيها ﴿للّٰهِ﴾ خاصّة لفرعون وغيره، وهو تعالى ﴿يُورِثُهَا﴾ ويُسَلِّطُ على التصرف فيها ﴿مَنْ يَّشَاءُ﴾ سلطته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ إلى أجلٍ معلوم، ليس الأمر بيد فرعون ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودّة من العلبة والنصرة وخير الآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمُتَزَهِّين من الشُّرك والعصيان، وأنتم منهم، وفيه وعدٌ بالنَّصر وإهلاك القبط.

عن الباقر عليه السلام قال: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض، ونَحْنُ الْمُتَّقُونَ، والأرض كُلُّهَا لنا، فَمَنْ أَحْيَا أَرْضاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَعَمَرَهَا فَلْيُؤَدِّ خَرَاஜَهَا إِلَى الْإِمَامِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، وَلَهُ مَا أَكَلَ مِنْهَا حَتَّى يَظْهَرَ الْقَائِمُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي» الخبر^١.

فلم تستكن قلوب بني إسرائيل من الاضطراب، ولذا ﴿قَالُوا﴾: يا موسى، قد كُنَّا ﴿أَوْذَيْنَا﴾ من ظلم فرعون وقومه ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ رسولاً.

عن القمي عليه السلام قال: قال الذين آمنوا بموسى عليه السلام: قد أؤذينا قبل مجيئك يا موسى بقتل أولادنا، ومن بعد ما جئتنا. لما حبسهم فرعون لإيمانهم بموسى عليه السلام^٢.

فلما رأى موسى شدّة خوف قومه من تهديدات فرعون، وعدم تسكين قلوبهم بما أشعر به في كلامه السابق من الوعد بهلاك فرعون ونصرتهم عليه، صرّح بما كنّى عنه بقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ اللطيف بكم، وأرجو منه ﴿أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ ويمكنكم بعد إهلاكه ﴿فِي﴾

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٧/١٦٠٨، تفسير الصافي ٢: ٢٢٨.

٢. تفسير القمي ١: ٢٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٨.

هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ التي تمكّن فيها، وتستريحون في محلّ راحته من بأسه ﴿فَيَنْظُرُ﴾ ويرى أنكم بعد تلك النعمة العظيمة عليكم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أنطيعونه أو تعصونه، أو تشكرونها أو تكفرونها؟ فيجازيكم حسبما يظهر منكم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ [١٣٠]

ثم بيّن الله تعالى غاية لطفه بفرعون وقومه بإنزال المِحن والشدائد عليهم حالاً بعد حال ليؤدّبهم ويردّعهم عن ما هم عليه من الكفر والطغيان بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾ وإبتلينا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه ﴿بِالسِّنِينَ﴾ المجذبة - كما عن القمي^١ - أو القحط ﴿وَنَقْصٍ﴾ كثير ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بإنزال الآفات الكثيرة على بسايتهم وأشجارهم، تأديباً لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ويتنبّهون أنّ ذلك بشؤم ما هم عليه من التمرد والطغيان والكفر والعصيان.

قيل: إنّ السنين والقحط والجوع كان لأهل البوادي، ونقص من الثمرات كان لأهل القرى^٢.

فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحْسَنُ مَا قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٣١]

ثم بيّن الله تعالى أنّ تلك المِحن مع أنّها لم توجب تنبّههم واتعاظهم، ولم تؤثر في قلوبهم الرقة والخشوع، زادتهم غتواً بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ من قبل الله ﴿الْحَسَنَةُ﴾ من الخضب والسعة والصحة ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ الحسنة، وبُحسن إقبالنا ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من قحطٍ ومرض وضرر ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ ويتشاءموا ﴿بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وتبعه في الدين - القمي^٣ قال: الحسنة هاهنا: الصحة والسلامة والأمن والسعة، والسيئة ههنا الجوع والخوف والمرض^٤.

﴿أَلَا إِنَّمَا﴾ يكون ﴿طَائِرُهُمْ﴾ وما به خيرهم وشرهم ونفعهم وضررهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبإرادته ومشيئته، لا فاعل لها غيره تعالى ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ما يصيبهم بقضاء الله وإرادته وبشؤم أعمالهم، ومن يعلمه قليلاً منهم، ولكن لا يعلمون بمقتضاه.

وعن ابن عباس قال: إنّما طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم^٥.

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢١٧.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٢١٦.

١. تفسير القمي ١: ٢٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٨.

٣. تفسير القمي ١: ٢٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٩.

عَلَيْهِمُ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالصَّفَادُ وَاللَّدْمُ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاِنتَكِبُوا
وَكَاثُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٢-١٣٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية إسنادهم الحوادث إلى عادة الدهر وثبوم موسى، حكى مبالغتهم في الإصرار على تكذيب موسى ﷺ، ولجاجهم معه، وإنكار معجزاته وإسنادها إلى السحر بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ بعد مشاهدتهم المعجزات، من العصا واليد البيضاء والقحط وتقص الثمرات وغيرها: يا موسى ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ﴾ وأي ما نظهر لنا ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وفعله عجيبة ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وتسكر أبقارنا وثبوم علينا ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ﴾ في دعوى رسالتك وإعجاز ما أتيت به ﴿بِإِثْمَيْنَيْنِ﴾ ومصدقين، فغضب موسى فدعا عليهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بدعائه ﴿عَلَيْهِمُ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالصَّفَادُ وَاللَّدْمُ﴾ حال كون المذكورات ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وعلامات بينات بحيث لم يكن يشك فيها أحد. وقيل عنى بالمفصلات متفرقات مفصلات لامتحان أحوالهم قيل: كان امتداد كل أسبوعاً، وبين كل آيتين سنة، وقيل: شهر.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وترفعوا مع ذلك على الإيمان بموسى ﴿وَكَاثُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ومعاندين للحق. عن ابن عباس أنه قال: إن القوم لما قالوا [لموسى ﷺ]: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾، فهي عندنا من باب السحر، ونحن لا نؤمن بها البتة، وكان موسى ﷺ رجلاً حديداً، فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له، فأرسل عليهم الطوفان الدائم ليلاً ونهاراً سبباً إلى سبب، حتى كان الرجل منهم لا يرى شمساً ولا قمراً، ولا يستطيع الخروج من داره، وجاءهم الغرق فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به، فأرسل إلى موسى ﷺ وقال: اكشف عنا العذاب، فقد صارت مصر بحراً واحداً، فإن كشفت هذا العذاب آمناً بك، فأزال الله عنهم المطر، وأرسل الرياح فجفت الأرض، وخرج من النبات ما لم يروا مثله قط.

فقالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا لئلا نشعر، فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل النبات، وعظم الأمر عليهم، حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً فأكلت النبات، فصرخ أهل مصر، فدعا

موسى ﷺ فأرسل الله ريحاً فاحتملت الجراد فألقته في البحر.

فنظر أهل مصر إلى أن بقيت من كلهم وزرعهم تكفيهم فقالوا: هذا الذي بقي يكفيننا ولا تؤمن بك، فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل سبباً إلى سبب، فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلا أكلته، فصاحوا، فسأل موسى ﷺ ربه فأرسل الله عليها ريحاً حارة فأحرقتها واحتملتها الرياح إلى البحر، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك، فخرجت من البحر مثل الليل الدامس، ووقعت في الثياب والأطعمة، فكان الرجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضفادع، فصرخوا إلى موسى ﷺ وحلفوا بالله: لئن رفعت عنا هذا العذاب لئؤمنن بك، فدعا الله تعالى فأمات الضفادع، وأرسل عليها المطر فاختمها إلى البحر.

ثم أظهروا الكثر والفساد، فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دماً، فلم يقدروا على الماء العذب، وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطيب، حتى بلغ منهم الجهد فصرخوا، وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار بني إسرائيل، فجعل يدخل الرجل منهم النهر فإذا اعترف صار في يده دماً، ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلا الدم، فقال فرعون: «لئن كشفت عنا الوجع الآية».

وعن الباقر ﷺ قال: «لما سجد السحرة وآمن به الناس، قال هامان لفرعون: إن الناس قد آمنوا بموسى، فانظر من دخل في دينه فاحبسه، فحبس كل من آمن به من بني إسرائيل، فجاء إليه موسى ﷺ فقال له: خلّ عن بني إسرائيل، فلم يفعل، فأرسل الله عليهم في تلك السنة الطوفان، فخرّب دورهم ومساكنهم حتى خرجوا إلى البرية وضربوا الخيام، فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك حتى يكف عنا الطوفان حتى أخلي عن بني إسرائيل وأصحابك، فدعا موسى ﷺ ربه، فكف عنهم الطوفان، وهم فرعون أن يخلي عن بني إسرائيل، فقال له هامان: إن خليت عن بني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك، فقبل منه ولم يخل عن بني إسرائيل.

فأنزل الله عليهم في السنة الثانية الجراد، فجردت كل شيء كان لهم من النبات والشجر حتى كانت تجرد شعرتهم ولحاهم، فجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً وقال: يا موسى، ادع ربك أن يكف عنا الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل وأصحابك، فدعا موسى ﷺ ربه فكف عنهم الجراد، فلم يدعه هامان أن يخلي عن بني إسرائيل.

فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القمل، فذهبت زروعهم وأصابتهم المجاعة، فقال فرعون لموسى ﷺ: إن دفعت عنا القمل كففت عن بني إسرائيل، فدعا موسى ﷺ ربه حتى ذهب القمل.

وقال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَمَلُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَلَمْ يُخَلِّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّفَادِعَ، فَكَانَتْ تَكُونُ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَيُقَالُ إِنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ وَأَذَانِهِمْ وَأَنَافِهِمْ، فَجَزِعُوا مِنْ ذَلِكَ جَزَعًا شَدِيدًا، فَجَاءُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالُوا: ادْعُ اللَّهَ يَذْهَبْ عَنَّا الضَّفَادِعَ، فَإِنَّا نُؤْمِنُ بِكَ وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ، فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يُخَلُّوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَوْلَ اللَّهِ مَاءَ النَّيْلِ دَمًا، فَكَانَ الْقَيْطِيُّ يَرَاهُ دَمًا، وَالْإِسْرَائِيلِيُّ يَرَاهُ مَاءً، فَإِذَا شَرِبَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ كَانَ مَاءً، وَإِذَا شَرِبَهُ الْقَيْطِيُّ يَشْرِبُهُ دَمًا، فَكَانَ الْقَيْطِيُّ يَقُولُ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ: خُذِ الْمَاءَ فِي فَيْكِ وَصَبَّهُ فِي فَيْ، فَكَانَ إِذَا صَبَّهُ فِي فَمِ الْقَيْطِيِّ تَحَوَّلَ دَمًا، فَجَزِعُوا مِنْ ذَلِكَ جَزَعًا شَدِيدًا فَقَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْتَ رُفِعَ عَنَّا الدَّمُ لِنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الدَّمَ غَدَرُوا وَلَمْ يُخَلُّوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ^١ الخبر.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالطُّوفَانِ الْمَوْتَ^٢.

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الطُّوفَانُ هُوَ الْمَوْتُ»^٣.

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سُئِلَ مَا الطُّوفَانُ؟ فَقَالَ: «هُوَ طُوفَانُ الْمَاءِ وَالطَّاعُونَ»^٤.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: كَانَ إِلَى جَنْبِهِمْ كَتِيبٌ أَغْرَ،^٥ فَضْرِبَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَصَاهُ فَصَارَ قُمَّلًا، فَأَخَذَتْ فِي أَبْشَارِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَأَشْفَارِ عَيْنِهِمْ وَحَوَاجِبِهِمْ، وَلَزِمَ جُلُودَهُمْ كَأَنَّهُ الْجُدْرِي، فَصَاحُوا وَصَرَخُوا وَفَرِعُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَفَعَ عَنْهُمْ فَقَالُوا: قَدْ تَبَقْنَا الْآنَ أَتَنْكُ سَاحِرٌ عَلِيمٌ، وَعِزَّةُ فِرْعَوْنَ لَا تُؤْمِنُ لَكَ أَبَدًا^٦.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَمَلِ الْجَرَادُ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا أَجْنَحَةَ لَهُ^٧.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِاللِّدَمِ أَنَّهُ تَعَالَى سَلَطَ عَلَيْهِمُ الرُّعَافُ^٨.

ثُمَّ أَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَثَ فِيهِمْ بَعْدَمَا غَلَبَ السَّحَرَةُ عِشْرِينَ سَنَةً يُرِيهِمُ الْآيَاتِ، ثُمَّ لَمَّا أَصْرَوْا عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الرَّجْزُ، قِيلَ: هُوَ الْأَنْوَاعُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورَةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَقِيلَ: هُوَ الطَّاعُونَ، قَالَ بِهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: فَمَاتَ بِهِ مِنَ الْقَيْطِ تِسْعُونَ^٩ أَلْفَ إِنْسَانٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَتَرَكُوا غَيْرَ مَدْفُونِينَ^{١٠}.

وَفِي الرَّوَايَةِ السَّابِقَةِ، عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرَّجْزَ؛ وَهُوَ النَّلَجُ، وَلَمْ يَرَوْهُ قَبْلَ ذَلِكَ،

١. تفسير القمي ١: ٢٣٧، وفي مجمع البيان ٤: ٧٢١، وتفسير الصافي ٢: ٢٣٠ عن الباقر والصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢. تفسير الرازي ١٤: ٢١٨.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٢١٨.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٥٧/١٦٠٩، تفسير الصافي ٢: ٢٢٩.

٥. الكتيب الأعفر: الزمل الأحمر، أو الأبيض القليل البياض.

٦. تفسير الرازي ١٤: ٢١٨.

٧. في تفسير الرازي: سبعون.

٨. تفسير الرازي ١٤: ٢١٩.

فماتوا فيه وجزعوا وأصابهم ما لم يعهدوه قبله» الخبر^١.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿عَلَيْهِمُ الرُّجُزُ﴾ من السماء فزعوا إلى موسى ﷺ فزع الأمة إلى نبيها و﴿قَالُوا يَا مُوسَى آذِمْ لَنَا رَبِّكَ﴾ متوسلاً ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ من الثبوة. وقيل: إن (الباء) للقسم، والمعنى: تقسمك بعهد الله الذي عندك^٢، أو تقسم به ﴿لَكِنْ كَشَفْتَ﴾ ورفعت ﴿عَنَّا الرُّجُزَ﴾ والعذاب ﴿لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ البتة، وتصدقك في رسالتك ﴿وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تذهب بهم أينما شئت ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرُّجُزَ﴾ ولكن لا مطلقاً، بل ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ وحدّ معين من الزمان ﴿هُم بِالْقُوَّةِ﴾ فإذا بلغوه نهلكهم، ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ويتنقضون العهد بمبادرين إليه.

وفي الحديث السابق عن الباقر ﷺ: «فدعا ربه فكشف عنهم الثلج، فخلّى عن بني إسرائيل، فلما خلّى عنهم اجتمعوا إلى موسى ﷺ، وخرج موسى من مصر واجتمع إليه من كان هرب من فرعون، فبلغ فرعون ذلك فقال له هامان: قد نهيتك عن أن تخلّي عن بني إسرائيل فقد اجتمعوا إليه، فجعز فرعون وبعث في المدائن حاشرين وخرج في طلب موسى»^٣، فآل أمره إلى الغرق.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ *
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [١٣٧ و ١٣٦]

ثم أخبر الله تعالى بإنجازه وعد موسى ﷺ لبني إسرائيل من قوله: «عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في أرض مصر» بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وأخذناهم بذنب نكثهم العهد، أو سلينا عنهم النعمة بالعذاب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وبحر القلزم، وكان قريباً من مصر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وبراهين توحيدنا، ومعجزات رسولنا ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ معرضين كأنهم كانوا عنها ﴿غَافِلِينَ﴾ *
﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ وملكنا ﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ ويقهرون ويستذلون بذبح أبنائهم واستخدام نسايتهم ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ المقدسة من الشام ومصر ﴿وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب ووفور النعم والأمن، فتملكوها بعد الفراعنة وتمكنوا فيها بالتصرف والاستراحة ﴿وَتَمَّتْ﴾ وأنجزت

١. تفسير القمي ١: ٢٣٨، تفسير الصافي ٢: ٢٣١.

٢. كذا، وفي تفسير الرازي ١: ٢٢٠ أقسمنا بعهد الله عندك.

٣. تفسير القمي ١: ٢٣٨، تفسير الصافي ٢: ٢٣١.

بذلك الإهلاك والتورث ﴿كَلِمَتٌ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ ووَعْدُهُ بالنصر، والغلبة على الأعداء، وتورث الأراضي المقدَّسات ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ مع غاية ضعفهم وذُلِّهم وأسرهم في أيدي الفُرَاعنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الشَّدائد والمِحَن التي أصابوها منهم ﴿وَدَمَرْنَا﴾ وحرَّبنا ﴿وَمَا كَانُوا يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القبط من العِمَارَات والقُصُور العالية ﴿وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾ ويرفعون من جنات الكروم والأشجار المحتاجة إلى العريش، أو من الأبنية الرفيعة.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا
مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٣٨ و ١٣٩]

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان نعمته الجسام على بني إسرائيل، ذكر نعمة مجاوزتهم من البحر مع السلامة، وكُفْرانهم لتلك النعم لغاية جهلهم؛ بقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ وعبرنا بإعجاز موسى ﷺ وكرامته ﴿بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ القلزم بعد إغراق فرعون وقومه فيه، وإهلاكهم ﴿فَأَتَوْا﴾ ومروا ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من العمالقة الكنعانيين - على قول - أو على قبيلة في نواحي مصر، فرأوهم ﴿يَعْكُفُونَ﴾ ويواظبون ﴿عَلَى﴾ عبادة ﴿أَصْنَامٍ﴾ كانت ﴿لَهُمْ﴾ فلما شاهدوهم على ذلك ﴿قَالُوا﴾ لفرط جهلهم، وغاية سفههم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا صَمًّا أَيْضًا لِيَكُونَ لَنَا إِلَهًا﴾ ومعبوداً نعبده ﴿كَمَا﴾ يكون ﴿لَهُمْ﴾ من الأصنام ﴿آلِهَةٌ﴾ ومعبودات يعبدونها. فغضب موسى من قولهم ﴿وَقَالَ﴾ لهم: يا قوم ﴿إِنَّكُمْ﴾ في الحقيقة ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وتقرطون في السَّغَى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ القوم العاكفين على الأصنام ﴿مَتَّبِعُوا﴾ ومثلَك ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الدِّينِ الفاسد، حيث إن الله يذهب به ويبيد أصنامهم ﴿وَبَاطِلٌ﴾ ومضحل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها، لا يترتب عليه نفع في الدنيا ولا في الآخرة، وإن كانوا شفرين به إلى الله، لأنه مخض الكُفْر. والحاصل أنه لا أصنامهم تبقى ولا دينهم ينفخ.

قَالَ أَغْوِيَ اللَّهُ أَبْغْيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [١٤٠ و ١٤١]

ثم أنكر عليهم عبادة الأصنام بعد مشاهدتهم آيات وحدانية الله وعظام نعمه بقوله: ﴿قَالَ أَغْوِيَ اللَّهُ أَبْغْيَكُمْ﴾ وأطلب لكم ﴿إِلَهًا﴾ ومعبوداً ﴿وَهُوَ﴾ الذي خصكم بنعمه

الجِسام، و﴿فَصَلِّكُمْ﴾ بتلك الخصائص ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فإنه تعالى لم يُعطِ أحداً من الخلق ما أعطاكم من الآيات الباهرات والمعجزات القاهرات، لا والله لا يجوز لي الابتغاء ولا لكم الاشتراك به. ثم ذكّرهم أعظم نعم الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ وخلصناكم بقدرة الله ورحمته ﴿مِنْ﴾ أسركم في أيدي ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه من القبط، فإنهم كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويطلبون لكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وشديده.

ثم ذكّرهم أشدّ عذابهم بقوله: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ويكثرون في ذبحهم وإهلاكهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ ويستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ وبناتكم ليستخدموهنَّ ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ الإنجاء، أو سوء العذاب ﴿بِلَاءٌ﴾ وفوز بالنعمة، أو محنة وكرب ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم، والمالك لأمركم ﴿عَظِيمٌ﴾ في الغاية.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [١٤٢ و ١٤٣]

ثم أنه روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر: إن أهلك الله عدوهم أتاهاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون ويذرون، فلما هلك فرعون سأل الله ربه ذلك الكتاب، فبين الله كيفية نزول التوراة^١ بقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ ودعونا إلى الطور ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذي القعدة بأيامها لِمِيقَاتِنَا والوقت الذي وقّناه، كي يصوم في تمامها، ويجتهد في العبادة فيها ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا﴾ بعد وأكملناها ﴿بِعَشْرِ﴾ من ليالي ذي الحجة ﴿فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ﴾ والوقت المضروب لعبادة مملكه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ من أول ذي القعدة إلى العيد الأضحى.

روي أن الله أمر موسى عليه السلام بصوم ثلاثين يوماً؛ وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف^٢ فيه فتسوّك، فقالت الملائكة: كُنَّا نَشْمُ مِنْ فَيْكِ رَائِحَةَ الْمِسْكِ فَأَفْسَدْتَهُ بِالسَّوَاكِ، فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله أن يزيد عليها عشرة

١. تفسير الرازي ١٤: ٢٢٦.

٢. خَلَفَ الشَّيْءُ خُلُوفًا: تَغَيَّرَ وَفَسَدَ، وَالْخُلُوفُ: رَائِحَةُ فَمِ الصَّائِمِ.

أيام من ذي الحجة لهذا السبب^١، وهذه حكمة زيادة العشر على الثلاثين.

وقيل: إن الله أمره أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها ما يقربه إلى الله، ثم أنزل التوراة [عليه] في العشر البواقي، وكلمه فيه أيضاً. وهذه حكمة تغيير الأربعين بثلاثين وعشر^٢.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين ذهابه إلى ميقات ربه ﴿لَأَخِيهِ هَارُونَ﴾ الذي كان شريكاً له في النبوة وتابعا له: ﴿أَخْلَقْنِي﴾ وقم مقامي ﴿فِي قَوْمِي﴾ بني إسرائيل، وسير فيهم بسيرتي. ثم أكد وصيته بهم بقوله: ﴿وَأَصْلَحْ﴾ جميع ما يجب أن يصلح من أمورهم وأمر دينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تسلك طريقهم في الإفساد، ولا تساعدهم ولا تحبهم إليه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ وحضر في الوقت الذي وقته لحضوره، أو إلى المكان الذي واعدناه فيه ﴿وَوَكَّلْنَاهُ رُتْبَةً﴾ مشافهة بلا واسطة ملك ﴿قَالَ﴾ بعد استماع كلامه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ نفسك ومكنني من رؤيتك ﴿أَنْظُرْ﴾ بعين رأسي ﴿إِلَيْكَ﴾.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: «وسأل موسى، وجرى على لسانه من حمد الله عز وجل ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فكانت مسأله تلك أمراً عظيماً، وسأل أمراً جسيماً فعوقب»^٣.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَلَكِنْ﴾ إن أردت أن تراني في الدنيا ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي أنت عليه - قيل: هو أعظم جبل بمدين، يقال له زبير^٤ - وأنا أنجلي بجلوة من جلواتي ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ﴾ الجبل وثبت ﴿مَكَانَهُ﴾ ولم يتفتت بذلك التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

قيل: لما سمعت الجبال ذلك تعاضمت رجاء أن يتجلي لها، وجعل طور أو زبير يتواضع، فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينها وخصه بالتجلي^٥.

عن ابن عباس قال: لما قال موسى عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كشف الحجاب، وأبرز له الجبل وقال: انظر، فظفر فإذا أمامه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي، محرمين ثلثين، كلهم يقولون: أرني أرني^٦.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾، قيل: كشف ثوره من حجبته قدر ما بين الخنصر والإبهام^٧، وظهرت له

١ و ٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٢٦.

٢. التوحيد: ٥/٢٦٢، وفيه: فغوب بدل: فعوقب، تفسير الصافي ٢: ٢٣٤.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٤.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٣.

٧. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٤.

٦. تفسير روح البيان ٣: ٢٣١.

عَظَمْتُهُ وَاقْتِدَارُهُ - وعن سهل بن سعد: أَنَّ الله أَظْهَرَ مِنْ تِسْعِينَ^١ أَلْفَ حِجَابٍ ثَوْرًا قَدَّرَ الدَّرْهَمَ^٢ - إِذَا جَعَلَهُ دَكًّا^٣ مَفْتَأًا كَانَ لَمْ يَكُنْ «وَخَرَّ مُوسَى» وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ «صَعِقًا» وَمَتَشَّى عَلَيْهِ.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ وَعَدَهُ اللهُ أَنْ يَقَعْدَ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَمُرُّوا عَلَيْهِ مَوْكِبًا بَعْدَ مَوْكِبٍ بِالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ وَالرَّيْحِ وَالصَّوَاعِقِ، فَكَلَّمَا مَرَّ بِهِ مَوْكِبٌ مِنَ الْمَوَاكِبِ ارْتَعَدَتْ فَرَائِضُهُ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَسْأَلُ: أَفِيكُمْ رَبِّي؟ فَيُجَاب: هُوَ آتٍ، وَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا يَا بْنَ عِمْرَانَ»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «لَمَّا سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ تَعَالَى وَقَالَ: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي» فَلَمَّا صَعِدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْجَبَلِ فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأَقْبَلَتِ الْمَلَائِكَةُ أَفْوَاجًا فِي أَيْدِيهِمُ الْعُمَدُ وَفِي رَأْسِهَا الثُّورُ، يَمُرُّونَ بِهِ فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ، يَقُولُونَ: يَا بْنَ عِمْرَانَ، اثْبُتْ فَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا. قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاقِفًا حَتَّى تَجَلَّى رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ، فَجَعَلَ الْجَبَلَ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا «فَلَمَّا» أَنْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ «وَأَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»^٤.

وعن القمي عليه السلام: قَالَ: فَرَفَعَ اللهُ الْحِجَابَ وَنَظَرَ إِلَى الْجَبَلِ، فَسَاحَ الْجَبَلُ فِي الْبَحْرِ، فَهُوَ يَهُوِي حَتَّى السَّاعَةِ، [وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ وَفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ: أَدْرِكُوا مُوسَى لَا يَهْرُبْ، فَتَزَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ وَأَحَاطَتْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا: ثُبْ يَا بْنَ عِمْرَانَ، فَقَدْ سَأَلْتَ اللهُ عَظِيمًا، فَلَمَّا نَظَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْجَبَلِ قَدْ سَاحَ]. وَالْمَلَائِكَةُ قَدْ نَزَلَتْ فَوْقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَهَوْلِ مَا رَأَى، فَردَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَأَفَاقَ وَقَالَ: «سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» أَيِ أَوَّلِ الْمُصَدِّقِينَ بِأَنَّكَ لَا تُرَى^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ الْكَرُوبِيِّينَ قَوْمٌ مِنْ شِيعَتِنَا مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، جَعَلَهُمُ اللهُ خَلْفَ الْعَرْشِ، لَوْ قَسَمَ ثَوْرٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَكِفَاهُمْ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ مَا سَأَلَ، أَمَرَ وَاحِدًا مِنَ الْكَرُوبِيِّينَ فَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ وَجَعَلَهُ دَكًّا»^٦.

عن الرضا عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا حَتَّى يَسْأَلَهُ هَذَا السُّؤَالُ؟

١. في تفسير روح البيان: سبعين.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٩/١٦١٦، تفسير الصافي ٢: ٢٣٤.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٥٨/١٦١٤، تفسير الصافي ٢: ٢٣٤.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٤٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣٥.

٥. بصائر الدرجات: ٢/٨٩، تفسير الصافي ٢: ٢٣٥.

فقال ﷺ: «إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ عَلِيمٌ أَنَّ اللَّهَ مُنْزَعٌ عَنْ أَنْ يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ، فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَهُ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ أَلْفٍ [ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِمِائَةَ] ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ، فَأَقَامَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ، وَصَعِدَ مُوسَى ﷺ إِلَى الطُّورِ، وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُكَلِّمَهُ وَيُسْمِعَهُمْ كَلَامَهُ، فَكَلَّمَهُمُ اللَّهُ وَسَمِعُوا كَلَامَهُ مِنْ فَوْقِ وَأَسْفَلَ، وَيَمِينٍ وَشِمَالٍ، وَوَرَاءَ وَأَمَامَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَحْدَثَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ جَعَلَهُ مُتَبَعًا مِنْهَا حَتَّى سَمِعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ كَلَامَ اللَّهِ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. فَلَمَّا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ الْعَظِيمَ وَاسْتَكْبَرُوا وَعَتَوْا، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَاعِقَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ فَمَاتُوا، فَقَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ، مَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَيْهِمْ وَقَالُوا: إِنَّكَ ذَهَبْتَ بِهِمْ فَتَقَلَّتْهُمْ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تُكُنْ صَادِقًا فِيمَا أَذَعَيْتَ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ إِيَّاكَ؛ فَأُحْيَاهُمْ وَبِعْتَهُمْ مَعَهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ تَنْظُرًا إِلَيْهِ لَأَرَاكَ^١، فَتُخْبِرُنَا كَيْفَ هُوَ وَنَعْرِفُهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

فقال موسى ﷺ: يا قوم، إِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَلَا كَيْفِيَّةَ لَهُ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ، وَيُعْلَمُ بِأَعْلَامِهِ، فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَسْأَلَهُ.

فقال موسى ﷺ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ مَقَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِصَلَاحِهِمْ، فَأَوْحِ إِلَى اللَّهِ: يَا مُوسَى، سَلْنِي مَا سَأَلُوكَ فَلَمْ أَوْأخِذْكَ بِجَهْلِهِمْ.

فعند ذلك قال موسى ﷺ: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ [وَهُوَ يَهْوِي] فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ بِآيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ «جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ» يقول: رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَنْ جَهْلِ قَوْمِي «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تُرَى^٢.

أقول: ما في الرواية من التوجيه، وإن كان أحسن الوجوه في دفع الإشكال، إلا أن الظاهر بل المتيقن أن قضية اختيار موسى ﷺ سبعين رجلاً لمِيقَاتِ رَبِّهِ كان بعدَ هذا المِيقَاتِ الذي سأل فيه الرؤية وأعطى فيه التوراة.

وما نقله الطبرسي - من أن المراد من قوله: «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» عَرَفَنِي نَفْسَكَ تَعْرِيفًا وَاضِحًا جَلِيًّا بِإِظْهَارِ بَعْضِ آيَاتِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَضَطَّرُّ الْخَلْقُ إِلَى مَعْرِفَتِكَ «أَنْظُرْ إِلَيْكَ» يَعْنِي: أَعْرِفْكَ مَعْرِفَةً

١. في عيون أخبار الرضا ﷺ: لأجابه.

٢. عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ١/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣٣.

ضَّرورية كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيْكَ؛ كما جاء في الحديث: «سَتَرُونَ رُبُّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَذْرِ» بمعنى: ستعْرِفونه مَعْرِفَةً جَلِيَّةً هِيَ فِي الْجَلَاءِ مِثْلُ إِبْصَارِكُمُ الْقَمَرَ إِذَا امْتَلَأَ وَاسْتَوَى بِذَرَأٍ ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ لَنْ تُطَبِّقَ مَعْرِفَتِي عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَنْ تَحْتَمِلَ قُوَّتُكَ تِلْكَ الْآيَةَ ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فَإِنِّي أورد عليه آيَةً مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ، فَإِنْ ثَبَتَ لِتَجَلِّيِّهَا وَاسْتَقَرَّ مَكَانُهُ، فَسَوْفَ ثَبَّتَ لَهَا وَطَاقَتَهَا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ فَلَمَّا ظَهَرَ لِلْجَبَلِ آيَةً مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ لِعِظَمِ مَا رَأَى ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثَبَّتُ إِلَيْكَ﴾ مِمَّا اقْتَرَحْتُ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِعِظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ. انتهى^١.

وبه قال بعضُ العامة حيثُ قال: إِنَّهُ سَأَلَ الْمَعْرِفَةَ الضَّروريةَ، أَوِ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي تَزُولُ عِنْدَهَا الْخَوَاطِرُ وَالْوَسَاوِسُ، انتهى^٢. مُخَالَفٌ لظَاهِرِ الْآيَةِ وَصَرِيحِ الرُّوَايَاتِ الْمَرْوِيَةِ بِطَرِيقِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ الرُّؤْيُ، وَأَرَادَ تَأْكِيدَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الدَّالِّ عَلَى امْتِنَاعِ الرُّؤْيَةِ بِالْدَّلِيلِ السَّمْعِيِّ مِنْ قَوْلِهِ ﴿لَنْ تَرَانِي﴾. وَفِيهِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ الضَّعْفِ، فَالْأَوَّلَى الْكَفُّ عَنِ التَّكَلُّمِ فِي تَوْجِيهِ الْآيَةِ وَإِكْالِ عِلْمِهِ إِلَى الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ.

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ

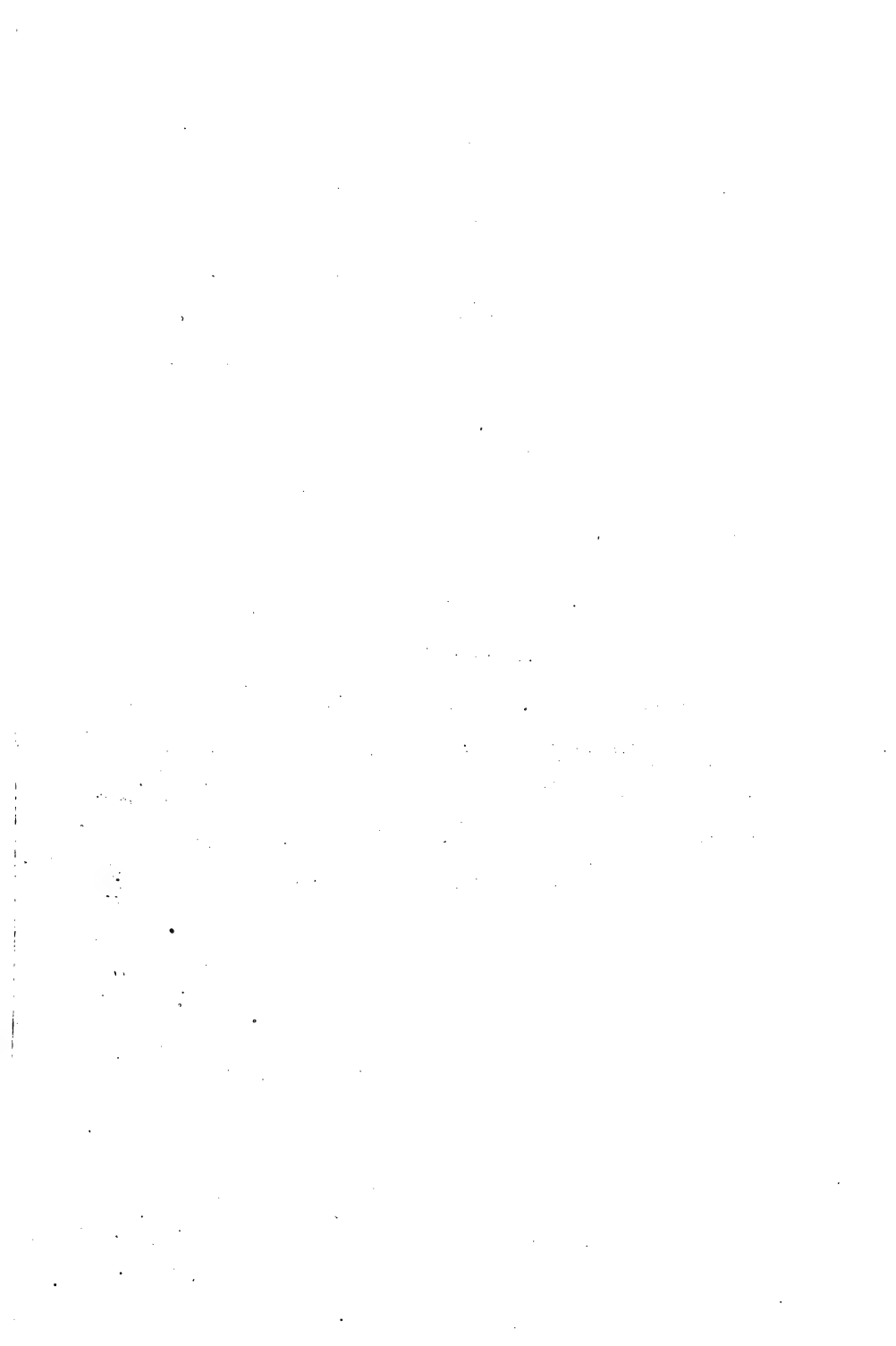
وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [١٤٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِفَاقَةِ مُوسَى ﷺ وَتَوْبَتِهِ مِنْ سُؤَالِ الرُّؤْيَةِ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ - عَلَى رَوَايَةٍ - أَظْهَرَ غَايَةَ لَطْفِهِ بِهِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ فِي يَوْمِ النَّحْرِ - كَمَا رَوَى^٣ - : ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ وَفَضَّلْتُكَ أَوْ أَثَرْتُكَ ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ جَمِيعاً مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ وَمُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ مُشَافَهَةً فِي الْأَرْضِ بِلاَ وَاسِطَةٍ مَلَكٌ، فَإِنَّ مَجْمُوعَ الْأَمْرَيْنِ لَمْ يَكُنْ وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ غَيْرِكَ ﴿فَخُذْ﴾ الْآنَ مَا آتَيْتُكَ وَأَعْطَيْتُكَ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لِنِعْمِي عَلَيْكَ.

١. جوامع الجامع: ١٥٦، تفسير الصافي ٢: ٢٣٥.

٢. تفسير الرازي ١٤: ٢٢٩.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٣٦.



الفهرس

- [٥٧] وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ ٥
- [٥٨] ذَلِكَ نُنَلِّهُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥
- [٥٩- ٦١] إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥
- [٦٢ و ٦٣] إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَقْصِ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠
- [٦٤] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ١٠
- [٦٥] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ ١٣
- [٦٦ و ٦٧] مَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبُونَ رَبَّنَا بِمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ وَاللَّهُ ١٤
- [٦٨] إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ ١٤
- [٦٩] وَذُتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١٤
- [٧٠] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ١٥
- [٧١] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٥
- [٧٢ و ٧٣] وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ١٥
- [٧٤] يَخْتَفُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١٧
- [٧٥] وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغِنطَارٍ يُؤَدِّي إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِدِينَارٍ ١٧
- [٧٦] بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ١٨
- [٧٧] إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ١٨
- [٧٨] وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ ١٩
- [٧٩ و ٨٠] مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنَّبِيُّنَ لَمْ يَقُولْ لَكُمْ كُونُوا عِبَادًا ٢٠
- [٨١ و ٨٢] وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ٢٢
- [٨٣] أَنْعَبُوا دِينَ اللَّهِ يَتْلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ٢٤
- [٨٤] قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ٢٥

- [٨٥] وَ مَنْ يَنْتَهِ عَنِ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُغْفَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ٢٦
- [٨٦] كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الْوَسْوَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ ٢٧
- [٨٧] وَأُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ ٢٨
- [٨٩] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٨
- [٩٠] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْوَاجَهُمْ لَنْ تُغْفَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمْ ٢٩
- [٩١] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُغْفَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضُ ذَهَبًا ٣٠
- [٩٢] لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ ٣٠
- [٩٣] كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ ٣٢
- [٩٤] فَمَنْ أَتَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٣٤
- [٩٥] قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٣٤
- [٩٦] وَأُولَئِكَ يَنْبَغُ لَكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ ٣٤
- [٩٨] قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَكْفُرُونَ ٤٠
- [٩٩] قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْرِ يُغْنِيهَا عَوَاجِدُكُمْ ٤١
- [١٠٠] يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُصِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ يَكْفُرُونَ ٤٢
- [١٠٣] وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ يَغْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ ٤٣
- [١٠٤] وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٤٦
- [١٠٦] يَوْمَ يُنْفَخُ الصُّورُ وَتُسَوَّدُ وُجُوهُ فَأَمَّا الَّذِينَ أَشْرَدُوا وَجُوهُهُمْ أَكْثَرُكُمْ ٥٠
- [١٠٨] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَاللَّهُ مَا فِي ٥٢
- [١١٠] كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٥٣
- [١١١] لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا أَدْنَى دَرَجَةٍ يُغَالِبُكُمْ يُؤَلِّمُكُمْ لَا تَنْصُرُونَ ٥٥
- [١١٢] ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفَقَّحُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَخَبَلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا ٥٦
- [١١٣] لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ ٥٨
- [١١٥] وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِقِينَ ٦٠
- [١١٦] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ ٦٠
- [١١٧] مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ ٦١
- [١١٨] يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْشَوْنَ غَبْلًا وَدُّوا مَا ٦٢
- [١١٩] هَآئِنْتُمْ أُولَاءِ يُجِبُوتُهُمْ وَلَا يَجِيبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ٦٣
- [١٢٠] إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَنْسُواهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُضِرُّوا ٦٤

- [١٢١-١٢٣] وَإِذْ غَدَوْتُ مِنْ أَهْلِكَ تُبَيِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ
- [١٢٤ و ١٢٥] إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.
- [١٢٦] زَمَّا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
- [١٢٧] لِيُضْمَعَ ظُفْرًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ
- [١٢٨] أَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ غَالِمُونَ
- [١٢٩] وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
- [١٣٠-١٣٢] إِنَّا أَنبَأْنَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ تَعْلَمَ كُمْ
- [١٣٣] وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
- [١٣٤] الَّذِينَ يُتَّقُونَ فِي الْبُيُوتِ وَالضَّرَائِعِ وَالْكَاطِبِينَ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
- [١٣٥] وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِرَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
- [١٣٦] أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
- [١٣٧ و ١٣٨] فَذْ خَلْتُ مِنْ قَبْلِكُمْ سَنَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
- [١٣٩ و ١٤٠] وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَوْجٌ
- [١٤١] وَلِيَسْمَخَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ
- [١٤٢] أَلَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
- [١٤٣] وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْقَوَهُ قَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ
- [١٤٤] وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ
- [١٤٥] وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلاً وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابِ الدُّنْيَا
- [١٤٦] وَكَأَنَّ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
- [١٤٧ و ١٤٨] وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ
- [١٤٩ و ١٥٠] إِنَّا أَنبَأْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ طُغِيَوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ أَغْيَابِكُمْ فَتَنَقَّلُوا
- [١٥١] سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا
- [١٥٢] وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأَيُّهِ حَتَّىٰ إِذَا فُتِنْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي
- [١٥٣] إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ
- [١٥٤] ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ مَعَا بِغَشَىٰ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ
- [١٥٥] لِإِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجُمُعَانِ إِنَّمَا أَسْرَأَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
- [١٥٦] إِنَّا أَنبَأْنَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا صَرَبُوا فِي
- [١٥٧] وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا

- [١٥٨] وَلَئِنْ مُمْتُّ أَوْ قُتِلْتُمْ لَأَنَّى تَعْبُدُونَ ١١١
- [١٥٩] إِنَّمَا رَحْمَةُ مِنِّ أَنَّى لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ نَفَقًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَسُوا مِنْ حَوْلِكَ ١١١
- [١٦٠] إِن بَصُرْتُمْ أَنَّى فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ١١٧
- [١٦١] وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ١١٨
- [١٦٢] أَلَمْ يَرَأَوْا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَاءَ بِسَخِطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ١٢١
- [١٦٣] هُمْ ذَرَجَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَأَنَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٢١
- [١٦٤] أَلَمْ يَرَأَوْا أَنَّهُ عَلَى الْغُلَامَيْنِ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ١٢٢
- [١٦٥] أَوَلَمْ نَأْتِكُمْ مَّوْصِيَةً قَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا قُلُوبًا قُلْنَا هَٰذَا قُلُوبُ هَٰؤُلَاءِ ١٢٥
- [١٦٦ و ١٦٧] وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَٰذِينَ أَنَّى وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ ١٢٦
- [١٦٨] الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنفُسَكُمْ ١٢٧
- [١٦٩] وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ١٢٨
- [١٧٠] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَعِشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ١٢٩
- [١٧١] يَسْتَعِشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ١٣٠
- [١٧٢- ١٧٤] الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ١٣١
- [١٧٥] إِنَّمَا ذَلِكُمُ الْقِسْطُ الَّذِي كَفَرُوا فَلَا تَخَافُونَهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ ١٣٤
- [١٧٦] وَلَا يَخْذَلْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهُ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا ١٣٥
- [١٧٧] إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصُرُوا اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ ١٣٥
- [١٧٨] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْعِمُ لَهُمْ ١٣٦
- [١٧٩] مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ١٣٧
- [١٨٠] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ ١٣٨
- [١٨١] أَلَمْ يَسْمَعْ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ١٣٩
- [١٨٢] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ١٤١
- [١٨٣] الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ١٤١
- [١٨٤] فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ ١٤٢
- [١٨٥] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ الْجُودَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُخِجَ عَنْ ١٤٣
- [١٨٦] التَّحِلُّوفِ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَنَسْتَمَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ١٤٤
- [١٨٧] وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ ١٤٥
- [١٨٨] لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوْتُوا وَيَجْهَلُونَ أَنَّهُمْ يُخْذَلُونَ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ١٤٦

- [١٨٩] وَإِلَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآلَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ..... ١٤٧
- [١٩٠] إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثِلَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي..... ١٤٧
- [١٩١] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ..... ١٤٩
- [١٩٢] رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ..... ١٥١
- [١٩٣] رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا..... ١٥٢
- [١٩٤] رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ..... ١٥٣
- [١٩٥] فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَبْقِعُ عَلَيْكُمْ بَرْقًا مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفِي بَعْضِكُمْ..... ١٥٤
- [١٩٦ و ١٩٧] لَا يَبْعَثُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ..... ١٥٦
- [١٩٨] لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا..... ١٥٧
- [١٩٩] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ..... ١٥٨
- [٢٠٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ..... ١٥٩
- في تفسير سورة النساء..... ١٦٥
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ..... ١٦٥
- [٢] وَأَتَوَاتُوا أَلْيَامَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالْبُيُوتِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى..... ١٦٩
- [٣] وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي أَلْيَامِهِمْ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى..... ١٧٠
- [٤] وَأَتَوَاتُوا النِّسَاءَ صِدْقًا بَيْنَهُنَّ بِخَلْعٍ فَإِنْ طِيعَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا..... ١٧٢
- [٥] وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ قِيَامًا لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا..... ١٧٣
- [٦] وَابْتَلُوا أَلْيَامَهُمْ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ..... ١٧٥
- [٧] لِلزَّوْجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ..... ١٧٧
- [٨] وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْأَقْرَبِ وَالْأَيَامُ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ..... ١٧٩
- [٩] وَلِيَخْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ..... ١٧٩
- [١٠] إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا..... ١٨١
- [١١] يُوَصِّيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنْثَى فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ..... ١٨٢
- [١٢] وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ..... ١٨٥
- [١٣] بِلَكُمْ حُدُودَ اللَّهِ وَمَنْ يُبِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا..... ١٨٨
- [١٤] وَمَنْ يُبِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَعَمَّدَ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ..... ١٨٩
- [١٥] وَالْأَبَى بَاتِينَ الْفَاحِشَةِ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ..... ١٨٩
- [١٦] وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ..... ١٩٠

- [١٧] إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ١٩٠
- [١٨] وَأَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ ١٩٢
- [١٩] إِنَّا أَنبِئُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِدُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُفُوا عَلَى النَّسَاءِ كُرْهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ ١٩٣
- [٢٠] وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْسَبِدَالَ رُوحٍ مَكَانَ رُوحٍ وَأَنْتُمْ إِخْدَامُهُنَّ فَنَسَارًا فَلَا تَأْخُذُوا ١٩٤
- [٢١] وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا ١٩٥
- [٢٢] وَلَا تُنْكِحُوا مَا بَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا ١٩٦
- [٢٣] حُرِّضَتْ عَلَيْكُمْ أُنْهَانُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَانُكُمْ وَعَمَّائُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ١٩٧
- [٢٤] وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ١٩٨
- [٢٥] وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا ٢٠٠
- [٢٦] يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ ٢٠٢
- [٢٧] وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُتِيلُوا مِثْلًا ٢٠٢
- [٢٨] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ٢٠٢
- [٢٩] إِنَّا أَنبِئُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْعَارَةً ٢٠٣
- [٣٠] وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظُلْمًا نُسُوفُ نُصْلِهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ٢٠٤
- [٣١] إِنْ تَجَنَّبُوا كِتَابِي مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا ٢٠٥
- [٣٢] وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِه بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ٢٠٦
- [٣٣] وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ ٢٠٧
- [٣٤] لِلرِّجَالِ قُشُورٌ عَلَىٰ النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا ٢٠٩
- [٣٥] وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا ٢١١
- [٣٦] وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ٢١٢
- [٣٧] الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ٢١٤
- [٣٨] وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ ٢١٥
- [٣٩] وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ ٢١٦
- [٤٠] إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً بَعْضُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا ٢١٦
- [٤١] فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ امْرِئٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ٢١٦
- [٤٢] يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٢١٧
- [٤٣] إِنَّا أَنبِئُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٢١٨
- [٤٤] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ ٢٢٢

- [٤٥] وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا..... ٢٢٣
- [٤٦] مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرُفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا..... ٢٢٣
- [٤٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا تَوَلَّيْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ..... ٢٢٤
- [٤٨] إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ..... ٢٢٥
- [٤٩] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكَى مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ..... ٢٢٦
- [٥٠] أَتَضَرَّ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا..... ٢٢٧
- [٥١] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالصَّاعُوتِ..... ٢٢٧
- [٥٢] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا..... ٢٢٨
- [٥٣] أَلَمْ يَنْصِبْ لَهُمُ نَصِيبًا مِنَ الْأَمْوَالِ فَإِذَا لَا يُمْسِكُونَ لِلنَّاسِ نَفِيرًا..... ٢٢٨
- [٥٤] أَلَمْ يَحْشُرُوا لِلنَّاسِ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ..... ٢٢٨
- [٥٥] فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا..... ٢٢٩
- [٥٦] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُضِلُّهُمْ نَارًا كَلِمًا تَضْحَكُ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ..... ٢٢٩
- [٥٧] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا..... ٢٣٠
- [٥٨] إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ..... ٢٣٠
- [٥٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ..... ٢٣١
- [٦٠] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ..... ٢٤٠
- [٦١] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنُزِّلَ إِلَيْكَ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ..... ٢٤١
- [٦٢] فَكَفَىٰ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِنَّ..... ٢٤١
- [٦٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي..... ٢٤٢
- [٦٤] وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِنُذَكِّرَ بِالْبَاطِلِ وَأَنَّا نَقُولُ لَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ..... ٢٤٢
- [٦٥] فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي..... ٢٤٣
- [٦٦-٦٨] وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَهُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا..... ٢٤٤
- [٦٩ و ٧٠] وَمَنْ يَبِيعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ..... ٢٤٥
- [٧١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ تَنْفِرُوا جَمِيعًا..... ٢٤٦
- [٧٢ و ٧٣] وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَصْبَثُنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ لَمْ أَكُنْ..... ٢٤٦
- [٧٤] فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي..... ٢٤٧
- [٧٥] وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ..... ٢٤٧
- [٧٦] الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ..... ٢٤٨

- [٧٧] أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا
- [٧٨] أَتَيْنَا تَكَرَّرُوا بِدُوكُمُ الْمُؤْتَى وَلَوْ كُفْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ حَسَنَةٌ
- [٧٩] لَمَّا أَصَابَكُم مِّنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ آفَةٍ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَّفِكَ وَارْسَلْنَاكَ
- [٨٠] مَنْ يُضِيعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا
- [٨١] وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ
- [٨٢] أَنْفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
- [٨٣] وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ
- [٨٤] لَفَقَأُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلِّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَخَوَّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ
- [٨٥] مَنْ يَشْفَعَ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ
- [٨٦] وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَا أَنْتُمْ بِهَا تُرَدُّوْنَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
- [٨٧] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ
- [٨٨] فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَزَكَهُمْ بَمَا كَسَبُوا أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا
- [٨٩] وَرَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكْفُرُونَ سَوَاءٌ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى
- [٩٠] إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَةٌ
- [٩١] اسْتَجِدُّوهُمْ أَخْرَبُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ
- [٩٢] وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
- [٩٣] وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ
- [٩٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى
- [٩٥ و ٩٦] لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الْقَرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي
- [٩٧] إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
- [٩٨] إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ جِلْدًا وَلَا
- [٩٩] قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
- [١٠٠] مَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ
- [١٠١] إِذَا صَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ
- [١٠٢] إِذَا كُنْتُمْ فِيهَا فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
- [١٠٣] فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَتَعُودُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ
- [١٠٤] وَلَا تَهِنُوا فِي آيَاتِهِ الْقَوْمُ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ
- [١٠٥ و ١٠٦] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ

- [١٣٩] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَتْ لَهُمْ عَذَابُهُمْ الْعِزَّةُ ٣٠١
- [١٤٠] وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَعِزُّ بِهَا ٣٠٢
- [١٤١] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ أَفْهٍ قَالُوا لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ ٣٠٣
- [١٤٢ و ١٤٣] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا ٣٠٥
- [١٤٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الْكَافِرِينَ أُولَئَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتريدُونَ ٣٠٦
- [١٤٥ و ١٤٦] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ ٣٠٦
- [١٤٧] مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ٣٠٧
- [١٤٨] لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا ٣٠٧
- [١٤٩] إِنْ تَدُودَا خَيْرًا أَوْ تُخْشَوُا أَوْ تَعُوذُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ٣٠٨
- [١٥٠ و ١٥١] إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا ٣٠٩
- [١٥٢] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ٣٠٩
- [١٥٣] يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى ٣٠٩
- [١٥٤] وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الصُّورَ بَيْنَافِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا ٣١٠
- [١٥٥] أَلَيْسَ لِنَفْسِهِمْ مِثَاقُهُمْ وَكَفَرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيٌ حَقٌّ وَقَوْلِهِمْ ٣١١
- [١٥٦] وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْثَمٍ مُهْتِنًا عَظِيمًا ٣١١
- [١٥٧] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْثَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ٣١٢
- [١٥٨] بَلْ رَقَمَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٣١٣
- [١٥٩] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ ٣١٤
- [١٦٠ و ١٦١] لَيُظْلَمَنَّ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَافِئًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَاتٌ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَّهُمْ عَنْ ٣١٥
- [١٦٢] لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ ٣١٦
- [١٦٣] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَى ٣١٦
- [١٦٤] وَرُسُلًا قَدْ قَضَيْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ ٣١٨
- [١٦٥] رُسُلًا مُبْتَلَيْنَ وَمُذْذِرَيْنَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ ٣١٨
- [١٦٦] لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ بِلَعْمِهِ وَالْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ ٣١٩
- [١٦٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ٣١٩
- [١٦٨ و ١٦٩] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيُفْرِقَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا ٣١٩
- [١٧٠] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ ٣٢٠
- [١٧١] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا ٣٢٠

- [١٧٢] إِنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ ٣٢٢
- [١٧٣] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. ٣٢٢
- [١٧٤] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ٣٢٣
- [١٧٥] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْهُ وَفَضَّلَ ٣٢٣
- [١٧٦] يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ آمَرُوا بِهَلْكَ نَفْسٍ لَوْ وَلَّوْا لَهُ أُخْتُ ٣٢٤
- في تفسير سورة المائدة ٣٢٧
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُوتُوا بِالْعُقُودِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ ٣٢٧
- [٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّجَرِ الْحَرَامِ وَلَا الْهَذَى وَلَا ٣٢٨
- [٣] حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغْوٍ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ ٣٣٠
- [٤] يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الصَّيَّاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ٣٣٣
- [٥] الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الصَّيَّاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ ٣٣٥
- [٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٣٣٦
- [٧] وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثَاقَهُ الَّذِي وَافَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ٣٤٢
- [٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ ٣٤٣
- [٩ و ١٠] وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ ٣٤٤
- [١١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْتَوْفُوا إِلَيْكُمْ ٣٤٤
- [١٢] وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ ٣٤٦
- [١٣] فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ ٣٤٧
- [١٤] وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ ٣٤٨
- [١٥] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٣٥٠
- [١٦] يُهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى ٣٥٢
- [١٧] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ ٣٥٢
- [١٨] وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ ٣٥٣
- [١٩] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى نَفْسٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ٣٥٤
- [٢٠] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ٣٥٥
- [٢١] يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُعَقَّدَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى ٣٥٥
- [٢٢ و ٢٣] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ ٣٥٦
- [٢٤] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَالَا إِنَّا ٣٥٧

- [٢٥] قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْسِي فَأَنْقُذْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ ٣٥٧
- [٢٦] قَالَ فَإِنَّا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٣٥٨
- [٢٧-٢٩] وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ تَابًا إِنَّهُنَّ أَهْلٌ بِنَاءٍ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبْنَا قَبْلَهُ فَتَقَبَّلَ مِنْ أُولَاهِمْ وَلَمْ يَنْفَعْل ٣٦٠
- [٣٠] فَصَوَّغَتْ لَهُ نُفْسَهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٦٢
- [٣١] فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَنْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ ٣٦٣
- [٣٢] مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ ٣٦٥
- [٣٣] إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ ٣٦٧
- [٣٤] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَلَّ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٧٠
- [٣٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ٣٧٠
- [٣٦] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا كَفَتْ لَيْفَتُوا بِهِ مِنْ ٣٧١
- [٣٧] يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ الْبَلَدِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ ٣٧١
- [٣٨] وَالشَّارِقُ وَالْمَغَارِقُ فَاصْطَوْا فِيهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبْتُمْ نَكَالًا مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ٣٧١
- [٣٩] فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٧٣
- [٤٠] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ ٣٧٣
- [٤١] يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا ٣٧٤
- [٤٢] يُسَارِعُونَ فِي الْكُذْبِ أَتَأْكُلُونَ لِلشُّعْبِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ ٣٧٦
- [٤٣] وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَقُولُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ٣٧٨
- [٤٤] إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَتُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ ٣٧٨
- [٤٥] وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ الْفَاسِقَةَ وَالْعَيْنَ الْفَاسِقَةَ وَالْأَنفَ الْفَاسِقَةَ ٣٨٠
- [٤٦] وَقَفَّيْنَا عَلَى آكَاهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ٣٨١
- [٤٧] وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ ٣٨١
- [٤٨] وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا ٣٨١
- [٤٩] وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ أَنْ يَفْضَلَ عَنْ ٣٨٣
- [٥٠] أَلْحَكُمُ الْحَاقِلَةَ يَتَعَوَّنَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٣٨٤
- [٥١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ٣٨٥
- [٥٢] فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا ٣٨٦
- [٥٣] وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بِاللَّهِ جِهَةً أَيْمَانُهُمْ يُهْمُ كَعَمَلِهِمْ ٣٨٦
- [٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ٣٨٧

- [٥٥] إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ. ٣٩٣
- [٥٦] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. ٤٠١
- [٥٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ. ٤٠٢
- [٥٨] وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ. ٤٠٢
- [٥٩] أَقُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْفَعُونَ مِثًا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ. ٤٠٣
- [٦٠] أَقُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ. ٤٠٣
- [٦١] وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَظِيمٌ بِمَا. ٤٠٤
- [٦٢ و ٦٣] وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّخِيتَ لَيْسَ مَا. ٤٠٥
- [٦٤] وَقَالَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ. ٤٠٦
- [٦٥] وَلَوْ أَنَّهُ أَهْلُ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَبِيلًا وَلَدْخَلْنَاهُمْ حَتَّابَ. ٤٠٧
- [٦٦] وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَالْزَّكَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ. ٤٠٨
- [٦٧] يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ. ٤٠٨
- [٦٨] أَقُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَالْزَّكَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا. ٤١٢
- [٦٩] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالتَّصَارِيُّ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَالَّذِينَ. ٤١٣
- [٧٠] لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالُوا إِنَّمَا نَعْبُدُ اللَّهَ. ٤١٣
- [٧١] وَخَشِيتُ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا. ٤١٤
- [٧٢] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي. ٤١٤
- [٧٣] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا. ٤١٥
- [٧٤] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. ٤١٥
- [٧٥] مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا. ٤١٥
- [٧٦] أَقُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ. ٤١٦
- [٧٧] أَقُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ. ٤١٧
- [٧٨ و ٧٩] آمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ. ٤١٧
- [٨٠] تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ. ٤١٩
- [٨١] وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا اتَّخَذُوا هُمُ زُلُمَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا. ٤١٩
- [٨٢] لَتَجِدَنَّ أُمَّةً تُدْعَى لِلَّهِ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا وَلَسَوْدًى. ٤١٩
- [٨٣- ٨٥] وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أُعْجِبَتُمْ قَبِيضَ مِنَ الدَّعِ مِمَّا عَرَفُوا. ٤٢٠
- [٨٦] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّجِيمِ. ٤٢١

- [٨٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبَاطِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا
 [٨٨] يُغْفِرُ عَمَلَكُمْ وَلَا تَحْرِمُوا طَبَاطِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا
 [٨٩] لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ
 [٩٠ و ٩١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْفَيْسُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ
 [٩٢] وَأُطِيعُوا اللَّهَ وَأُطِيعُوا الرَّسُولَ وَآخِذُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى
 [٩٣] أَلَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا
 [٩٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيءٍ مِنَ الصِّدْقِ ثَنَاءً لِيُذِيكُمْ وَرِمَا حُكْمُكُمْ
 [٩٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّدْقَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا
 [٩٦] أَجَلٌ لَكُمْ صِدْقُ الْبَيْعِ وَطَعَامُ مَنَاعٍ لَكُمْ وَاللَّيْزَارَةُ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صِدْقُ الْبَيْعِ
 [٩٧] جَعَلَ اللَّهُ الْكَلِمَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَمَّا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
 [٩٨] أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 [٩٩] مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ
 [١٠٠] أَقُلْ لَا يَسْمَعُ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 [١٠١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا
 [١٠٢] أَفَدَّ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قِبَلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ
 [١٠٣] مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 [١٠٤] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا
 [١٠٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ
 [١٠٦ و ١٠٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ
 [١٠٨] ذَلِكَ لَعَنَ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ
 [١٠٩] يُؤْمَرُ بِجَمْعِ اللَّهِ الرَّسُولِ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
 [١١٠-١١٣] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَتَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدِ إِذْ أَيْدَتُكَ
 [١١٤ و ١١٥] قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا
 [١١٦] وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْهِنِ مِنْ
 [١١٧] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا
 [١١٨] إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَايْتَهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 [١١٩] قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 [١٢٠] اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

في تفسير سورة الأنعام ٤٦١

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ

[٢] هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَسَىٰ قَشًّا وَجَعَلَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَسَىٰ قَشًّا وَجَعَلَ

[٣] هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا

[٤ و ٥] وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا

[٦] أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ

[٧] وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِي كَفَرُوا بِهِ

[٨ و ٩] وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الَأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ

[١٠] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ

[١١] أَقُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ تَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ

[١٢] أَقُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

[١٣ و ١٤] وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ عَنْكَ الْفَرَقَ

[١٥] أَقُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

[١٦] مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

[١٧] وَإِنْ يَسْتَسْكِنَنَّ اللَّهُ يَصْرِفْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسُكْ يَصْرِفْ فَبِهِ عَلَىٰ كُلِّ

[١٨] وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

[١٩] أَقُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

[٢٠] الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

[٢١] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

[٢٢ و ٢٣] وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ

[٢٤] تَنْظُرُونَ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

[٢٥] وَامْنُتُمْ مَنْ يَسْتَحْيِي إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ

[٢٦] وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْنَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

[٢٧] وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُوا عَلَى الْآلَارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

[٢٨] إِنْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوهُ لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

[٢٩ و ٣٠] وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُوا عَلَى

[٣١] فَذُ خَيْرٍ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا

[٣٢] وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا

- [٣٣] قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذُّونَكَ وَلَكِنَّ أَصْطِلَمِينَ ٤٧٧
- [٣٤] وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى تُنَاجَهُمْ نَصْرَنَا ٤٧٩
- [٣٥] وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَغَلْتَ أَنْ تَنْتَضِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ ٤٧٩
- [٣٦] إِنَّمَا يَنْتَجِبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى أَنْ يَنْتَهُمُ أَفْ تُمْ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٤٨٠
- [٣٧] وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ ٤٨٠
- [٣٨] وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَوْطَنَا ٤٨١
- [٣٩] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَخُمٌّ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ ٤٨٢
- [٤٠-٤١] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ نَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ ٤٨٢
- [٤٢] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْأُنْثَاءِ وَالْفُرْأَةِ لَعْنَهُمْ ٤٨٣
- [٤٣-٤٤] قُلْ لَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّتْ لَهُمُ الْعِصْيَانُ مَا ٤٨٣
- [٤٦] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَارَكُمْ وَخَمَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ ٤٨٥
- [٤٧] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَعَثَ اللَّهُ جَهَنَّمَ كُلَّ قَوْمٍ ٤٨٥
- [٤٨-٤٩] وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ ٤٨٦
- [٥٠] قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ٤٨٦
- [٥١] وَاتَّقُوا اللَّهَ يَخَافُونَ أَنْ يَخْرِجُوهُمْ إِلَى رِجْهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ دَلِيلٌ وَلَا ٤٨٨
- [٥٢] وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ ٤٨٨
- [٥٣] وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ ٤٩٠
- [٥٤] وَإِذَا جَاءَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ ٤٩٠
- [٥٥] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٤٩١
- [٥٦] قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ٤٩١
- [٥٧] قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ ٤٩٢
- [٥٨] قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ٤٩٢
- [٥٩] وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ ٤٩٣
- [٦٠] وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ تُمْ يَعْتَدُونَ فِيهِ لِقَافِي ٤٩٤
- [٦١-٦٢] وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ٤٩٥
- [٦٣-٦٤] قُلْ مَنْ يُنْصِبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُوهُ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً لَنْ أَجْنَانًا ٤٩٦
- [٦٥] قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ٤٩٧
- [٦٦-٦٧] وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَأٍ مَشْفَقٌ ٤٩٨

- [٦٨ و ٦٩] وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي
 ٤٩٨
 [٧٠] وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوْا وَعَرِّثَهُمُ الْخِلَافَ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ
 ٤٩٩
 [٧١ و ٧٢] قُلْ أُنَادِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ
 ٥٠٠
 [٧٣] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ
 ٥٠١
 [٧٤] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتُنَّحِدُ أَصْنَامًا لِلَّهِ إِنِّي نَزَاكَ وَقَوْمِكَ فِي ضَلَالٍ
 ٥٠٢
 [٧٥] وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنْ
 ٥٠٣
 [٧٦-٧٨] فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبَّ الْآلِيلِينَ *
 ٥٠٤
 [٧٩] إِلَّائِي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
 ٥٠٥
 [٨٠] وَخَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذُوهُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا
 ٥٠٨
 [٨١] وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
 ٥٠٨
 [٨٢] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ.
 ٥٠٩
 [٨٣] أُولَئِكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ
 ٥١٠
 [٨٤ و ٨٥] وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ
 ٥١٠
 [٨٦ و ٨٧] وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُدًى وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِن أَنبِيَائِهِم
 ٥١١
 [٨٨] ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا.
 ٥١٣
 [٨٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ
 ٥١٣
 [٩٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ أَتَقْنَدُ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا
 ٥١٤
 [٩١] وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيٍّ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ
 ٥١٤
 [٩٢] وَهَذَا كِتَابُ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن
 ٥١٦
 [٩٣] وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
 ٥١٧
 [٩٤] وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ
 ٥١٩
 [٩٥] إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ
 ٥٢٠
 [٩٦ و ٩٧] فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
 ٥٢٢
 [٩٨] وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ
 ٥٢٣
 [٩٩] وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
 ٥٢٤
 [١٠٠ و ١٠١] وَجَعَلُوا فِي شُرَكَاءَ الْجَنِّ وَخَلَقْنَاهُمْ وَخَرَقُوا آلَهُ بَنِينَ وَيَتَابَ بَعَثَ فِيهِمْ سَحَابَةً
 ٥٢٦
 [١٠٢] ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 ٥٢٧
 [١٠٣] لَأَنْذِرَنَّكَ الْأَبْصَارَ وَهُوَ يُبْذِرُكَ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.
 ٥٢٧

- [١٠٤] لَقَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا ٥٢٩
- [١٠٥] وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِتَبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢٩
- [١٠٦ و ١٠٧] أَلَتُنَبِّئُ مَا نَزَّحَنِ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ ٥٢٩
- [١٠٨] وَلَا تَسْئَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْئَلُوا اللَّهَ عَذَابًا يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ كَذَلِكَ زُيِّنَ ٥٣٠
- [١٠٩] لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٣٢
- [١١٠] وَتَقَلُّبُ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ٥٣٣
- [١١١] وَلَوْ أَنَّمَا تَزَالُ تَقُولُ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْطَّيْرِ وَالْأَنْعَامِ وَأَنْتُمْ ٥٣٣
- [١١٢] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَذَابَ فِتْيَانٍ إِنَّ الْإِنْسَانَ وَالتَّجَنُّبَ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى ٥٣٤
- [١١٣ و ١١٤] وَلِنُضَعِفَ إِلَيْهِ أَفْنِدَهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ ٥٣٥
- [١١٥ و ١١٦] وَنَمَتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدَل لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥٣٦
- [١١٧ و ١١٨] إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَنْزِلُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ٥٣٧
- [١١٩] وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا ٥٣٧
- [١٢٠] وَذُرُّوا ظَاهِرَ الْأَنْفُسِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْأَنْفُسَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا ٥٣٨
- [١٢١] وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى ٥٣٨
- [١٢٢] أَوْزَمَ كَانَ مِثْلًا فَأَخْبَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي ٥٣٩
- [١٢٣ و ١٢٤] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَمَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا ٥٤١
- [١٢٥ و ١٢٦] فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَغْضُ ٥٤٢
- [١٢٧] اللَّهُمَّ دَاوِ السَّلَامَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٤٥
- [١٢٨ و ١٢٩] وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِأَمْعَسَرِ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ وَقَالَ ٥٤٥
- [١٣٠] يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ٥٤٧
- [١٣١] ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ٥٤٨
- [١٣٢] وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ٥٤٨
- [١٣٣] وَرَبُّكَ الْعَزِيزُ ذُو الرِّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَنْشَاءُ كَمَا ٥٤٨
- [١٣٤ و ١٣٥] إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأَبْ يَأْتِيَنَّكُمْ بِمُعْجِزٍ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ ٥٤٩
- [١٣٦] وَجَعَلُوا لَهُ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّذِي يَرْعَاهُمْ وَهَذَا ٥٤٩
- [١٣٧] وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُذَوُّهُمْ ٥٥٠
- [١٣٨] وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَصْنَعُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ يَرْعَاهُمْ وَأَنْعَامٌ ٥٥١
- [١٣٩] وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ ٥٥٢

- [١٤٠] يَكُنْ مَبْنِيَّةً فَمَنْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٥٥٢
- [١٤١] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوفَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوفَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزُّورَ مُخْتَلِفًا ٥٥٣
- [١٤٢] وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِنَّا وَرَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُصُوفَاتِ ٥٥٥
- [١٤٣ و ١٤٤] لَمَّا بَيَّنَّتُ أَنْزَلَ مِنَ الْمَنِّ اثْنَيْنِ وَقَالَ الَّذِ الْأَوَّلَيْنِ حَرِّمٌ أَمْ ٥٥٥
- [١٤٥] أَقُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَبْنِيَّةً أَوْ ٥٥٧
- [١٤٦] وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ٥٥٩
- [١٤٧] إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبِّكُمْ دُورُ حِمَّةٍ وَأَسَافَةٌ لَا يَبْرُدُ عَنْهُمْ الْقَوْمُ ٥٦٠
- [١٤٨] أَسْتَفْتِلُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ ٥٦٠
- [١٤٩] أَقُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٥٦١
- [١٥٠] أَقُلْ هَلْ سَأَلْتُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرِّمٌ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا ٥٦١
- [١٥١] أَقُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا ٥٦٢
- [١٥٢] وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْبَإِئْسِ هِيَ أَخْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ٥٦٣
- [١٥٣] وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ٥٦٤
- [١٥٤] ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ٥٦٥
- [١٥٥-١٥٧] وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا ٥٦٦
- [١٥٨] أَهْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ٥٦٧
- [١٥٩] إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَقَالُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ٥٦٨
- [١٦٠] مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا ٥٦٩
- [١٦١] أَقُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا ٥٦٩
- [١٦٢ و ١٦٣] أَقُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْكَيْتُ وَمَتَّعَيْتُ رَبِّي الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ٥٧٠
- [١٦٤] أَقُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا ٥٧٠
- [١٦٥] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَزَقَ بَعْضَكُمْ مِمَّا فَوَيْضَ دَرَجاتٍ ٥٧١
- في تفسير سورة الأعراف ٥٧٣
- [٢١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمَص * كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ٥٧٣
- [٣] اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا ٥٧٤
- [٥ و ٤] وَكَمْ مِّن فَرَقَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ٥٧٥
- [٧ و ٦] فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُورِشِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ بِعِلْمٍ وَمَا ٥٧٥
- [٩ و ٨] وَالْوَزُونَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ ٥٧٦

- [١٠] وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ٥٧٩
- [١١-١٣] وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا ٥٨٠
- [١٤ و ١٥] قَالَ نُظْمِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ٥٨١
- [١٦ و ١٧] قَالَ فِيمَا أُغْوِيْنِي لِأَتَعْبُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ ٥٨٢
- [١٨] قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُوَمَا مَذْخُورًا لَمَنْ يَبْكِكَ بِهِمْ لِأَمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ ٥٨٣
- [١٩ و ٢٠] وَإِنَّا آدَمَ أَشْكُرْنَا أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ ٥٨٤
- [٢١-٢٣] وَفَاسْمُهُمَا إِبْنِي لَكُمْآ لَمِنْ الثَّاغِيَيْنِ * فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ ٥٨٤
- [٢٤ و ٢٥] قَالَ اهْبِطَا مِنْ هُنَا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٥٨٦
- [٢٦] يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوءَاتِكُمْ وَرِيسًا وَلِئَلَّاسُ التَّفَوقَى ٥٨٦
- [٢٧] يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا ٥٨٨
- [٢٨] وَإِذَا قُلُوا فَاخِشُوا فَإِنَّا آدَمَ وَأَنَّا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَآلِهَةً لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٥٨٨
- [٢٩] قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ ٥٨٩
- [٣٠] قَرِيبًا هَدَىٰ وَقَرِيبًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ ٥٩٠
- [٣١] يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ ٥٩١
- [٣٢] قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالصَّالِحَاتِ مِنَ الرَّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ٥٩٢
- [٣٣] قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِهِ ٥٩٤
- [٣٤] وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٥٩٥
- [٣٥ و ٣٦] يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا يَا بَنِيكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ ٥٩٦
- [٣٧-٣٩] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم ٥٩٦
- [٤٠] إِلَّا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ٥٩٨
- [٤١ و ٤٢] اللَّهُمَّ مِنْ جَهَنَّمَ يَهَادٍ وَمِنْ قُوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ ٥٩٩
- [٤٣] وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ٥٩٩
- [٤٤] وَتَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنِ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ ٦٠١
- [٤٥] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ٦٠١
- [٤٦ و ٤٧] يَنْتَبِهَتُهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَابِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَهُمْ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَتَادُوا ٦٠١
- [٤٨ و ٤٩] وَتَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَابِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ ٦٠٣
- [٥٠] وَتَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ آيِسُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا ٦٠٤
- [٥١] الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّبَتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنَسَاهُمْ كَمَا ٦٠٥

- [٥٢] وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٠٦
- [٥٣] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ ٦٠٦
- [٥٤] إِنْ رَأَيْتُمْ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى ٦٠٧
- [٥٥] ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَعِزِينَ ٦٠٩
- [٥٦] وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ ٦١٠
- [٥٧] هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحَ سَحَابٌ نَقُلْنَا ٦١٠
- [٥٨] وَابْتَلَا الطُّبَّ بِخُرُوجِ نَبَاتِهِ يَادْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبِطَ لَا يَخُورُ إِلَّا تَكْدًا كَذَلِكَ ٦١١
- [٥٩ و ٦٢] لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي ٦١٣
- [٦٣ و ٦٤] أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ٦١٤
- [٦٥ و ٦٨] وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦١٤
- [٦٩] أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ ٦١٥
- [٧٠ و ٧١] قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا نَعْبُدُ إِنْ كُنْتَ ٦١٦
- [٧٢] فَاتَّخِذْنَا وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَقُصًّا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا ٦١٧
- [٧٣] وَإِلَىٰ مُؤَدِّ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ ٦١٨
- [٧٤ و ٧٦] وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ ٦١٩
- [٧٧ و ٧٩] تَعْمُرُوا الثَّاقَةَ وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا بِصَالِحِ اثْنَيْنِ بِمَا نَعْبُدُ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٦٢٠
- [٨٠ و ٨٤] وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ٦٢٤
- [٨٥] وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ ٦٢٦
- [٨٦] وَلَا تَتَّبِعُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثَوَعُودٍ وَتَضُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ٦٢٧
- [٨٧ و ٩٠] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا ٦٢٨
- [٩١ و ٩٣] فَاتَّخَذْتُمْ آلَ رَاحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن ٦٢٩
- [٩٤ و ٩٥] وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَوْمِهِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا اتَّخَذُوا أَهْلَهَا بِالنِّسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَنَهُمْ ٦٣٠
- [٩٦] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ٦٣١
- [٩٧ و ٩٩] فَأَمَّا أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمَّا أَهْلَ الْقُرَىٰ ٦٣٢
- [١٠٠] أَلَمْ يَجِدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْنَاهُمْ ٦٣٢
- [١٠١] بَلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا ٦٣٣
- [١٠٢] وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ٦٣٤
- [١٠٣] لَمْ يَنْتَهِ مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْزَلْنَا ٦٣٥

- [١٠٨-١٠٩] وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا
٦٣٦
[١٠٨-١١٦] قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ
٦٣٧
[١١٧-١٢٢] وَوَحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُودُ * فَوَقَعَ الْحَقُّ
٦٣٨
[١٢٣] قَالَ فِرْعَوْنُ أَأَنْتُمْ بِهِ قَبِلَ أَنْ أَتَى لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْعَدِيبَةِ
٦٣٩
[١٢٤-١٢٧] لَأَنْقَضَنَّ أَبْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا
٦٤٠
[١٢٨ و ١٢٩] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
٦٤١
[١٣٠] وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيْنِ وَنَقَصَ مِنَ السَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ
٦٤٢
[١٣١] فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ
٦٤٣
[١٣٢-١٣٥] وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُشْخَرَهَا بِهَا فَمَا نَخِفُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَوْسَلْنَا
٦٤٤
[١٣٦ و ١٣٧] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ *
٦٤٥
[١٣٨ و ١٣٩] وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
٦٤٦
[١٤٠ و ١٤١] قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ بَلَدَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
٦٤٧
[١٤٢ و ١٤٣] وَوَاغَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَا هَا بَعَثَرٍ نَتَقَ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
٦٤٨
[١٤٤] قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ
٦٤٩
٦٥٠
٦٥١
٦٥٢
٦٥٣
٦٥٤
٦٥٥
الفهرس.....